

مَقْدِمَةُ رَأْسِ حِلْدُونِ



دار الفقه الإسلامي
بيروت - لبنان

مَقْدِمَةُ ابْنِ خَلْدُونِ

دَارُ الْقَلَمِ

بِیروت - لبنان - ص ۰ ب ۳۸۷۴

مكتبة الرقابة الادارية	
المكتبة	
رقم التصنيف :	٣٠٠
القسم :	٥٠
نوع الكتاب :	١٠

الطبعة الرابعة ١٩٨١

حقوق الطبع والنقل محفوظة

لدار القلم ص.ب ٣٨٧٤

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْغَنِيِّ يُلْطِفُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ خَلْدُونِ
الْحَضْرَمِيِّ وَفَقَّهُ اللَّهُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبْرُوتُ * وَبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ * وَلَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسَى وَالْمَنْعُوتُ * أَلْعَالِمِ فَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ النُّجُومُ أَوْ يُخْفِيهِ السُّكُوتُ * الْقَادِرُ
فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ * فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ * أَنْشَانَا مِنَ الْأَرْضِ نَسْمًا * وَأَسْتَعْمَرْنَا
فِيهَا أَجْيَالًا * وَأَمَمَّا وَبَسَّرْنَا مِنْهَا أَرْزَاقًا * وَفَسَمَّا * تَكْذُفْنَا الْأَرْحَامُ وَالْبُيُوتُ * وَبَكَفْنَا
الرِّزْقُ وَالْقُوتُ * وَتَبَيَّنَا الْأَيَّامُ وَالْوُقُوتُ * وَتَعَوَّرْنَا الْآجَالَ الَّتِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْقُوتُ
وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالثَّبُوتُ * وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ * وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْعُوتِ * الَّذِي تَحْصُنُ لِفَصَالِهِ
السُّكُونُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْأَحَادُ وَالسُّبُوتُ * وَيَتَبَايَنَ زُحُلُ وَالْيَهْمُوتُ ^(١) * وَعَلَى آلِهِ وَآصْحَابِهِ
الَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ الْأَثَرُ الْبَعِيدُ وَالْحَصِيتُ * وَالشَّمْلُ الْجَمِيعُ فِي مَظَاهِرَتِهِ وَلِعْدُومِ
الشَّمْلِ الشَّيْثِ * صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا أَتَّصَلَ بِالْإِسْلَامِ جَدُّهُ الْمَنْجُوتُ * وَأَنْقَطَعَ
بِالْكُفْرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوتُ * وَسَلَّمْ كَثِيرًا

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ قِسْمَ التَّارِيخِ مِنَ الْقُنُونِ الَّتِي تَدَاوَلُهُ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ إِلَيْهِ
الرَّكَائِبُ وَالرِّحَالُ * وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوقَةُ وَالْأَغْفَالُ * وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ
وَالْأَقْيَالُ * وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَالُ * إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارِ

(١) قوله الهموت هو النون أي المحوت الذي على ظهره الأرض السابعة ويسمى أيضًا لونها كونه في
المزهر وروح البيان باللهجة ومعلم أن بينه وبين زحل الذي مر في النلك السابع بونا بعدد وقال الشهاب
المخافجي في خاشبته على البيضاوي أنه في أول سورة نون الهموت بفتح المنة النجمة وسكون الهاء وما لشهر
من أنه بالباء الموحدة غلط على ما ذكره الفاضل الحشى ومثله في روح البيان قاله نصر الموريني أفرد
المصحح الثاني

عَنِ الْأَيَّامِ وَالْدُّوَلِ * وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأَوَّلِ * تَنْمُو فِيهَا الْأَقْوَالُ * وَتُضْرَبُ فِيهَا
 الْأَمْثَالُ * وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَّةُ إِذَا غَضَّهَا الْإِحْتِفَالُ * وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ
 تَقَلَّبَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ * وَاتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا النِّطَاقُ وَالنَّجَالُ * وَعَمَّرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى
 بِهِمُ الْأَرْتَحَالُ * وَحَانَ مِنْهُمْ الرِّوَالُ * وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقُ * وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ
 وَمُبَادِيهَا دَقِيقُ * وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقُ * فَهُوَ لِذَلِكَ أُصِيلُ فِي الْحِكْمَةِ
 عَرِيقُ * وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُوبِهَا وَخَلِيقُ * وَإِنْ فُحُولَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْأَسْلَامِ قَدْ
 اسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا * وَسَطَرُوهَا فِي صَفَحَاتِ الدِّفَائِرِ وَأَوْدَعُوهَا * وَخَلَطُوهَا
 الْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ الْبَاطِلِ وَهَمُّوا فِيهَا وَابْتَدَعُوهَا * وَزَخَّارِفَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمُضَعَّفَةِ
 لَفَقُوهَا وَوَضَعُوهَا * وَاقْتَفَى نِلَاكَ الْأَثَارِ الْكَثِيرُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَاتَّبَعُوهَا * وَأَدَّوْهَا إِلَيْنَا كَمَا
 سَمِعُوهَا * وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعَوْهَا * وَلَا رَفَضُوا ثُرَاهَا
 الْأَحَادِيثَ وَلَا دَفَعُوهَا * فَالتَّحْقِيقُ قَلِيلُ * وَطَرَفُ التَّنْقِيحِ فِي الْغَالِبِ كَلِيلُ * وَالْغَلَطُ وَالْوَهْمُ
 نَسِيبُ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلُ * وَالتَّقْلِيدُ عَرِيقُ فِي الْأَدَمِيِّينَ وَسَائِلُ * وَالْإِطْلَافُ عَلَى الْفُتُوبِ
 عَرِيقُ طَوِيلُ * وَمَرَعَى الْجَهْلِ بَيْنَ الْأَنَامِ وَخِيمٌ وَيِيلُ * وَالْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانَهُ * وَالْبَاطِلُ
 يُقْذَفُ بِشِهَابِ النَّظَرِ شَيْطَانَهُ * وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ بُعْلِي وَيَنْقُلُ * وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ الصَّحِيحَ
 إِذَا تَمَقَّلُ * وَالْعِلْمُ يَجَاوِلُهَا صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ وَيَصْفُلُ

هَذَا وَقَدْ دَوَّنَ النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا * وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالْدُّوَلِ فِي
 الْعَالَمِ وَسَطَرُوا * وَالَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهْرَةِ وَالْإِمَامَةِ الْمُسْتَبْرَةِ * وَأَسْتَفْرَعُوا دَوَائِنَ
 مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ الْمُنَاطَرَةِ * ثُمَّ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ الْأَنَامِلِ * وَلَا
 حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ * مِثْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ وَالطَّبْرِيِّ وَابْنِ الْأَثَرِ وَتَحَمُّدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ
 وَسَيْفِ بْنِ عُمَرَ الْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ * الْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِنْ كَانَ
 فِي كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ وَالوَاقِدِيِّ مِنَ الْمَطْعَنِ وَالْمُتَمِّزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْأَثْبَاتِ *
 وَمَشْهُورٌ بَيْنَ الْحَفَظَةِ الْثِقَاتِ * إِلَّا أَنَّ الْكَافَّةَ اخْتَصَمَتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ * وَاقْتِنَاءِ
 سُنَنِهِمْ فِي التَّصْدِيقِ وَاتِّبَاعِ آثَارِهِمْ * وَالنَّاقِدَ الْبَصِيرَ فِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِينِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ
 أَوْ اعْتَبَارِهِمْ * فَلِلْمُتَمَرِّانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تُرْجَعُ إِلَيْهَا الْأَخْبَارُ * وَتَحْمَلُ عَلَيْهَا الرِّوَايَاتُ

وَالْآثَارُ * ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لِهَؤُلَاءِ عَامَةُ الْمَنَاجِحِ وَالْمَسَالِكِ * لِعُمُومِ الدُّوَلَتَيْنِ
 صَدَرَ الْإِسْلَامِ فِي الْإِفَاقِ وَالْمَمَالِكِ * وَتَنَاوَلَهَا الْبَعِيدَ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَاخِذِ وَالْمَتَارِكِ
 وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ اسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ * وَالْأَمْرَ الْعَمَمِ * كَالْمَسْعُودِيِّ
 وَمَنْ نَحَا مَنَحَاهُ وَجَاءَ مِنْ تَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ وَوَقَفَ فِي الْعُمُومِ
 وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الشَّأَوِ الْبَعِيدِ * فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ * وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أَفْقِهِ وَقَطْرِهِ *
 وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ * كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ الْأَنْدَلُسِ وَالِدَوْلَةُ الْأُمَوِيَّةِ
 بِهَا وَابْنُ الرَّفِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةِ وَالِدَوْلَةُ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ
 هَؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ * وَبَلِيدُ الطَّبَعِ وَالْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ * يَنْسَجُ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ * وَيَعْتَدِي
 مِنْهُ بِالْمِثَالِ * وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَحْوَالِ * وَاسْتَبَدَّتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الْأُمَمِ
 وَالْأَجْيَالِ * فَيَجْلِبُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ * وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُولِ * صُورًا
 قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا * وَصِفَاحًا أَنْتَضَيْتْ مِنْ أَغْمَادِهَا * وَمَعَارِفَ تُسَنِّسُكَ لِلْجَهْلِ
 بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا * إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تَعْلَمْ أَصُولُهَا * وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ
 فُصُولُهَا * يُكْرَرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأَخْبَارَ الْمَتَدَاوِلَةَ بِأَعْيَانِهَا * اتِّبَاءً لِمَنْ عُنِيَ مِنْ
 الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا * وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيَوَانِهَا * بِمَا أُعِزَّ عَلَيْهِمْ مِنْ
 تَرْجُمَانِهَا * فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ يَبَائِنِهَا * ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِلذِّكْرِ الدَّوَلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا *
 مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهَمًّا أَوْ صِدْقًا * لَا يَتَعَرَّضُونَ لِإِمَانَتِهَا * وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي
 رَفَعَ مِنْ رَأْيَتِهَا * وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا * وَلَا عَلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا * فَيَبْقَى النَّاطِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدَ
 إِلَى اقْتِفَادِ أَحْوَالِ مَبَادِيءِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا * مُفْتَشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاجُرِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا *
 بَاحِثًا عَنِ الْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُبِهَا * حَسَبًا نَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ
 ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطٍ الْإِخْتِصَارِ * وَذَهَبُوا إِلَى الْأَكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْإِقْتِصَارِ *
 مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ * مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَزْدَادُ أَيْلِهِمْ بِحُرُوفِ الْغُبَارِ * كَمَا فَعَلَهُ
 ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ * وَمَنْ اقْتَفَى هَذَا الْآثَرَ مِنَ الْعَمَلِ * وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهَؤُلَاءِ
 مَقَالٌ * وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا انْتِقَالٌ * لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ * وَأَخْلَوْا بِالْمَذَاهِبِ
 الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ

وَلَمَّا طَالَتْ كُتُبُ الْقَوْمِ * وَسَبَرَتْ غُورُ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ * نَبَهْتُ عَيْنَ الْفَرِيحَةِ مِنْ

سَنَةِ الْغَفْلَةِ وَالنَّوْمِ * وَسَمِتُ التَّصْنِيفَ مِنْ تَقْسِي وَآنَا الْعُفْلَسُ أَحْسِنُ السَّوْمِ * فَأَنْشَأْتُ
 فِي التَّارِيخِ كِتَابًا * رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا * وَفَصَّلْتُ فِي
 الْأَخْبَارِ وَالْإِعْتِبَارِ بَابًا بِأَبَا * وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَةِ الدُّوَلِ وَالْعِمْرَانِ عِلَالًا وَأَسْبَابًا * وَبَيَّنْتُ
 عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ عَمَّرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ * وَمَلَأُوا أَكْنَافَ الضَّوَاهِي
 مِنْهُ وَالْأَمْصَارِ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الطُّوَالِ أَوْ الْقِصَارِ * وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ
 وَالْأَنْصَارِ * وَمِمَّا الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ * إِذْ هُمَا الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ بِالْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا
 وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَحْقَابِ مَشْوَاهُمَا * حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ مَا عَدَاهُمَا * وَلَا يَعْرِفُ
 أَهْلُهُ مِنَ أَجْيَالِ الْأَدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا * فَهَذَّبْتُ مَنَاحِيَهُ تَهْذِيبًا * وَفَرَّبْتُ لِأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ
 وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيبًا * وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيهِ مَسَالِكَ غَرِيبًا * وَأَخْتَرَعْتُ مِنْ بَيْنِ
 الْمَنَاحِي مَذْهَبًا عَجِيبًا * وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأَسْأَلُ بَابًا * وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعِمْرَانِ وَالْتِمَاحِثِينَ
 وَمَا يَغْرِضُ فِي الْأَجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِي مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَةِ مَا يُمْتَعِكُ بِعِلَلِ الْكَوَائِنِ
 وَأَسْبَابِهَا * وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا * حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ الْقَلِيدِ بَدَكَ *
 وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَبَّتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ
 الْمُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَالْإِلِمَاعِ بِمَغَالِطِ الْمُؤَرِّخِينَ
 الْكِتَابُ الْأَوَّلُ فِي الْعِمْرَانِ وَذِكْرِ مَا يَغْرِضُ فِيهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَةِ مِنَ
 الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَمَا لِدَافِعِ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ
 الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ مِنْذُ مَبْدَأِ الْخَلْقِ إِلَى هَذَا
 الْعَهْدِ وَفِيهِ مِنَ الْإِلِمَاعِ بَعْضُ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَشَاهِيرِ وَدَوْلِهِمْ مِثْلَ النَّبِطِ
 وَالسَّرِيبَانِيِّينَ وَالْفُرْسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقُبُطِ وَالْبُونَانِ وَأَرْثُومَ وَالْتُرْكِ وَالْإِفْرَنْجَةِ
 الْكِتَابُ الثَّلَاثُ فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَاتِهِ وَذِكْرِ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَحْيَالِهِمْ
 وَمَا كَانَ بِدِيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمُلْكِ وَالْأَمَلِ ثُمَّ كَانَتْ الرِّحْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ
 لِاجْتِنَاءِ أَنْوَارِهِ * وَقَضَاءِ الْفَرَضِ وَالسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ * وَالْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي دَوَائِرِهِ
 وَأَسْفَارِهِ * فَزِدْتُ مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِتِلْكَ الدِّيَارِ * وَدَوَلِ التُّرْكِ فِيهَا
 مَلَكُوهُ مِنَ الْأَفْطَارِ * وَأَنْبَعَتْ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ الْأَسْطَارِ * وَأَدْرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ
 الْمُعَاصِرِينَ لِتِلْكَ الْأَجْيَالِ مِنْ أُمَمِ التَّوَّاحِي * وَمُلُوكِ الْأَمْصَارِ وَالضَّوَاهِي * سَالِكًا سَبِيلَ

الْإِخْتِصَارِ وَالْتَلْخِصِ * مُقْتَدِيًا بِالْمَرَامِ السَّهْلِ مِنَ الْعَرِيسِ * دَاخِلًا مِنْ بَابِ الْأَسْبَابِ
عَلَى التَّمُومِ إِلَى الْإِخْبَارِ عَلَى الْخُصُوصِ فَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ الْخَلِيقَةِ اسْتِيعَابًا * وَذَالَ مِنَ
الْحِكْمِ النَّافِرَةِ صِعَابًا * وَأَعْطَى لِحَوَادِثِ الدُّوَلِ عِلَالًا وَأَسْبَابًا * فَأَصْبَحَ لِلْحِكْمَةِ صِرَافًا *
وَلِلتَّارِيخِ جِرَابًا

وَلَمَّا كَانَ مُشْتَعِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبِ * مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ وَالْوَبَرِ * وَالْإِلَامَاعِ
بَيْنَ عَاصِرُهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الْكُبَرِ * وَأَفْصَحَ بِالذِّكْرِ وَالْعَبَرِ * فِي مُبْتَدَأِ الْأَحْوَالِ وَمَا
بَعْدَهَا مِنَ الْخَبَرِ * سَمِيئَةً كِتَابَ الْعَبَرِ * وَدِيَوَانَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ * فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
وَالْبَرْبِ * وَمَنْ عَاصِرُهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ * وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئًا فِي أَوَّلِيَةِ الْأَجْيَالِ
وَالدُّوَلِ * وَتَعَاصُرِ الْأُمَمِ الْأَوَّلِ * وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ وَالْحَوْلِ * فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْمَلَالِ *
وَمَا يَبْرُضُ فِي الْعُمُرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ * وَمَدِينَةٍ وَحِلَّةٍ * وَعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ * وَكَثْرَةٍ وَقِلَّةٍ * وَعِلْمٍ
وَصِنَاعَةٍ * وَكَسْبٍ وَإِضَاعَةٍ * وَأَحْوَالٍ مُنْقَلِبَةٍ مُسَاءَةٍ * وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ * وَوَقَائِعٍ وَمُنَظَرٍ *
إِلَّا وَأَسْتَوْعَبْتُ جُمْلَةً * وَأَوْضَحْتُ بَرَاهِينَهُ وَعِلَلَهُ * فَجَاءَ هَذَا الْكِتَابُ فَذَا بِمَا ضَمَّنْتُهُ مِنْ
الْعُلُومِ الْغَرِيبَةِ * وَالْحِكْمِ الْحَجُوبَةِ الْقَرِيبَةِ * وَأَنَا مِنْ بَعْدِهَا مُوقِنٌ بِالْقُصُورِ * بَيْنَ أَهْلِ
الْقُصُورِ * مُعْتَرِفٌ بِالْعَجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ * فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ * رَاغِبٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْدِ الْبَيْضَاءِ *
وَالْمَعَارِفِ الْمُتَسِعَةِ الْقَضَاءِ * فِي النَّظَرِ بِعَيْنِ الْإِنْتِقَادِ لَا بِعَيْنِ الْإِزْتِضَاءِ * وَالْتَّغْمُدِ لِمَا
يَعْتَرُونَ عَلَيْهِ بِالْإِصْلَاحِ وَالْإِغْنَاءِ * فَالْبِضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مُزْجَاةٌ * وَالْإِعْتِرَافُ
مِنْ اللَّوْمِ مُنْجَاةٌ * وَالْحُسْنَى مِنَ الْإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ * وَاللَّهُ اسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً
لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

وَبَعْدَ أَنْ اسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ * وَأَتَرْتُ مُشْكَاةً لِلْمُسْتَبْصِرِينَ وَأَذْكَيْتُ سِرَاجَهُ *
وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ * وَأَوْسَعْتُ فِي قَضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَأَدْرْتُ
سِيَاجَهُ * أَتَعَفْتُ بِهِذِهِ النُّسخَةَ مِنْهُ ^(١) خِزَانَةَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْإِمَامِ الْمُجَاهِدِ * الْقَانِصِ

(١) قوله انحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قولوا انحفت
وبعد قوله وإدريت سياجه ونصها التمام لكف الذي يلح بعين الاستبصار فتونه . ولاحظ بمداركه
الشريفة معياره الصحيح وقانونه . ويميز رقبة في المعارف عما دونه . فسرحت فكري في فضا الوجود . واجلت
نظري ليل التمام والوجود . بين التهاشم والوجود . في العلماء الركع والعبود . والخلقا اهل الكرم والجود .
حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الافكار بموقف الامال . وظفرت ايدي الماسعي والاعتمال .

المأهـد* ألمـنحلي منذُ خلعِ التـمائم* وتوثِ العـمائم* بحلي القانت الزاهد* المتوشـح
 بزكـاء المنـاقب والحمـاميد* وكرمِ الشـئائل والشـواهيد* بأجل من القلائد* في تحوـر
 الولـائد* المتناول بالـعزم القوي السـعيد* وأجلد المـواقى المسـاعد* والتجـد الطـارف
 والتـالد* ذوائب ملـكهم الرامي القـواعد* الكـريم المعالي والمصـاعد* جامع
 أشـتات العلـوم والقـوائد* وتناظـم شـمل المـعارف والشـوارد* ومـظهر الآيات الربـانية*
 في فـضل المـدارك الإنسانية* بفكره الثاقب النافـد* ورأيه الصـحيح المعـقـد* النـير
 المـذاهب والعقائـد* نور الله الواضـح المرشـد* ونعمته العـذبة المـوارد* ولطفه الكـامن
 بالمرـاصد للشـدائد* ورحمته الكـريمة المـقالـد* التي وسـعت صـلاح الزمان الفاسـد*
 وأسـنقـامة المـائد من الأحوال والقـوائد* وذمـبت بالخطوب الأوابـد* وخلـعت على الزمان
 روثـق الشـباب العـائد* وحجته التي لا بـطـلها إنكار الجاحـد ولا شـبهات المـعاند* (أمير
 للمومنين) أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان المعظم الشهير الشهيد أبي سالم
 إبراهيم ابن مولانا السلطان المقدس أمير المؤمنين* أبي الحسن ابن السادة الأعلام
 من ملوك بني مرين* الذين جددوا الدين* ونهـجوا السـبيل للمهتـدين* ومحووا آثار البغـاة
 المفسـدين* أفاء الله على الأمة ظلاله* وبلغه في نصر دعوة الإسلام آماله* وبعثه
 إلى خزائنهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حاضرة ملكهم
 وكـرمي سـلطانهم* حيث مقر الهدى* ورـبـاض المـعارف خـضلة النـدى* وفـضاء الأسرار

بمندي المعارف مشرفة فيه غرر الجبال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن البين والشمال . فانفتحت
 مطي الانكار في عرصاتها . وجلوت محاسن الانظار على منصاتها . وانفتحت ديوانها مقاصير ابوابها . واطلعت
 كوكبا وقادآ في افق خزانها وصوانها . ليكون آية للعقلاء بهتدون بهناره . ويعرفون فضل المدارك
 الانسانية في آثاره . وهي خزانة مولانا السلطان الامام الجاهد . الفاتح المأهـد . الى اخر النعوت المذكورة هنا
 ثم قال الخليفة امير المؤمنين المتوكل على رب العالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الطاهر المقدس
 ابي عبدالله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المؤمنين . ابي يحيى ابي بكر ابن الخلفاء الراشدين . من
 ائمة الموجد بن الدين جددوا الدين . ونهـجوا السـبيل للمهتـدين . ومحووا اثر البغـاة المفسـدين من الجسمـة
 والمعتدين . سلا ابي المحض والفاروق . والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق . والتور
 المتلاي من تلك الاشعة والبروق . فاوردته من مودعها الى العلي بحيث مقر الهدى . ورـبـاض المـعارف
 خـضلة النـدى . الى اخر ما ذكر هنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه
 النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ

الرَّابَّةُ فَسَبَّحُ الْمَدَى * وَالْإِمَامَةُ الْفَارِسِيَّةُ الْكَرِيمَةُ^(١) الْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِنَظَرِهَا
الشَّرِيفِ * وَفَضْلِهَا الْغَنِيِّ عَنِ التَّعْرِيفِ * تَبَسُّطُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مِنْهَا دَا * وَتَفَسُّحُ لَهُ فِي جَانِبِ
الْقَبُولِ أَمَادًا * فَتَوْضِيحُ بِهَا أُدْلَةٌ عَلَى رُسُوخِهِ وَأَشْهَادًا * فَنِي سَوْفَهَا تَتَفَقُّ بِضَائِعِ الْكِتَابِ
وَعَلَى حَضَرَتِهَا تَعَكَّفُ رَكَائِبُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ * وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ
الْفَرَائِجِ وَالْأَلْبَابِ * وَاللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا * وَيُوَفِّرُنَا حِفْظَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا
وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا * وَيَجْعَلُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مِيدَانِهَا الْفَحْلِينَ فِي حَوْمَتِهَا * وَيُضْفِي
عَلَى أَهْلِ إِبَالَتِهَا * وَمَا أَوْيَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَالَتِهَا * لُبُوسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا *
وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وَجْهَتِهَا * بَرِيَّةً مِنْ شَوَائِبِ الْفَقْلَةِ
وَشُبُهَتِهَا * وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين

من المغالط وذكر شيء من اسبابها

اعْلَمْ أَنَّ قَنَ التَّارِيخِ قَنٌ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ جَمُّ الْفَوَائِدِ شَرِيفُ الْعَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِنُنَا
عَلَى أَحْوَالِ الْحَاضِرِينَ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ . وَالْأَنْبِيَاءِ فِي سَيْرِهِمْ . وَالْمُلُوكِ فِي دَوْلِهِمْ
وَسِيَاسَتِهِمْ . حَتَّى نَتِمَّ فَائِدَةُ الْإِقْتِدَاءِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا فَهُوَ
مُحْتَاجٌ إِلَى مَا خِذَ مُتَعَدِّدَةً وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةً وَحُسْنَ نَظَرٍ وَثَبَّتَ بِفَضِيحَانِ بِصَاحِبَيْهَا إِلَى
الْحَقِّ وَيُبَكِّبَانِ بِهِ عَنِ الْمَزَلَّاتِ وَالْمَغَالِطِ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إِذَا اعْتَمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ
النَّقْلِ وَلَمْ تُحْكَمْ أَصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمُرَانِ وَالْأَحْوَالِ فِي الْإِجْتِمَاعِ
الْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ الْغَائِبِ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ وَالْحَاضِرِ بِالذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنْ
الْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ الْقَدَمِ وَالْحَيْدِ عَنْ جَادَةِ الصِّدْقِ وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ
وَأَيَمَّةِ النَّقْلِ مِنَ الْمَغَالِطِ فِي الْحِكَايَاتِ وَالْوَقَائِعِ لِاعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غَثًّا
أَوْ سَمِينًا وَلَمْ يَغْرِضُوهَا عَلَى أَصُولِهَا وَلَا قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِيقَارِ الْحِكْمَةِ
وَالْوُقُوفِ عَلَى طِبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ وَالْبَصِيرَةِ فِي الْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ

(١) قوله الفارسية أي المنسوبة إلى أبي فارس لم تقدم ذكره اهـ

وَنَاهُوا فِي يَدَاءِ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ وَلَا سِيَّما فِي إِحْصَاءِ الْأَعْدَادِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِ إِذَا عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ إِذْ فِي مَظَنَّةِ الْكَذِبِ وَمَطْيَةِ الْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى الْأَصُولِ وَغَرَضِهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ وَهَذَا كَمَا نَقَلَ الْمَسْعُودِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي جُيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فِي الْتَبَةِ بَعْدَ أَنْ أُجَازَ مَنْ يُطَبِّقُ حَمَلَ السِّلَاحِ خَاصَّةً مِنْ أَبْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا فَكَانُوا سِتْمِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَيَذْهَلُ فِي ذَلِكَ عَنْ تَقْدِيرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَاتِّسَاعِهِمَا لِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجُيُوشِ لِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةً مِنَ الْحَاكِمِيَّةِ تَتَّسِعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوُظَائِفِهَا وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمَأْلُوفَةُ ثُمَّ إِنْ مِثْلُ هَذِهِ الْجُيُوشِ الْبَالِغَةِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحَفٌ أَوْ قِتَالٌ إِضِيقُ سَاحَةِ الْأَرْضِ عَنْهَا وَبُعْدُهَا إِذَا اصْطَفَتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ أَوْ تَكُونُ غَلَبَةُ أَحَدِ الصَّفَيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخَرِ وَالْحَاضِرُ يَشْهَدُ لِذَلِكَ فَالْمَاضِي أَشْبَهُ بِالْآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ وَلَقَدْ كَانَ مَلِكُ الْفُرْسِ وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ مِنْ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ مُخْتَصَرِ أَيْمٍ وَالْإِثْمَامِ بِلَادِهِمْ وَأَسْتِيلَاتِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَخْرِيبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَاعِدَةً مَلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانُ الْمَغْرِبِ مِنْ تَخُومِهَا وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِالْعِرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْ جُيُوشُ الْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا كَانَ جَمُوعُهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مُتَبَوِّعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ صَيْفٌ قَالَ وَكَانُوا فِي أَنْبَاءِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ مِائَتَيْ أَلْفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِيِّ فَإِنْ جُمِعَ رُسْمُ الَّذِينَ زَحَفَتْ بِهِمْ سَعْدٌ بِالْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتَيْنِ أَلْفًا كُلُّهُمْ مُتَبَوِّعٌ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَدُو إِسْرَائِيلَ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ لَآتَسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ وَانْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ الْعَمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ فِي الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاكِمِيَّةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي قِلَّتِهَا وَكَثَرَتِهَا حَسَبًا نَبِيْنُ فِي فَصْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْقَوْمُ لَمْ تَتَّسِعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ مِنَ الشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرَبَ وَخَيْبَرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَيْضًا فَالَّذِي بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهَرُ

بَن قَاهِتَ بَفْتَحَ الْمَاءِ وَكَسَرَهَا ابْنُ لَاوِي بِكَسْرِ الْوَاوِ وَفَتَحَهَا ابْنُ يَعْقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ
 اللَّهُ هَكَذَا نَسَبُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْمَدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا نَقَلَهُ السَّعُودِيُّ قَالَ دَخَلَ إِسْرَائِيلُ
 مِصْرَ مَعَ وَلَدِهِ الْأَسْبَاطِ وَأَوْلَادِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى يُوسُفَ سَبْعِينَ نَفْسًا وَكَانَ مَقَامُهُمْ بِمِصْرَ
 إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْبَيْتِ مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَتَدَاوَلُهُمْ مُلُوكُ
 الْقِبْطِ مِنَ الْفَرَاعِنَةِ وَيَبْعُدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ وَإِنْ
 زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الْجُيُوشِ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمِنْ بَعْدِهِ فَبَعِيدٌ أَيْضًا إِذْ لَيْسَ
 بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلَّا أَحَدَ عَشَرَ أَبًا فَإِنَّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ يَسَّاءَ بْنِ عُوْفَيْدَ
 وَيُقَالُ ابْنُ عُوْفَيْدَ ابْنُ بَاعَزَ وَيُقَالُ بُوْعَزَ بْنُ سَلْمُونَ بْنِ تَحْشُونَ بْنِ عَمِيْنُودَ وَيُقَالُ
 حَمِيْدًا ذَابَ بْنُ رَمَّ بْنِ حَضْرُونَ وَيُقَالُ حَضْرُونَ بْنُ بَارَسَ وَيُقَالُ بَارَسَ بْنُ يَهُوذَا بْنِ
 يَعْقُوبَ وَلَا يَتَشَعَّبُ النَّسْلُ فِي أَحَدَ عَشَرَ مِنَ الْوُلْدِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ الَّذِي زَعَمُوهُ اللَّهُمَّ
 إِلَى الْمِائَتَيْنِ وَالْآلَافِ فَرُبَّمَا يَكُونُ وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا بَعْدَهُمَا مِنْ عُقُودٍ لِأَعْدَادٍ
 فَبَعِيدٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْحَاضِرِ الْمَشَاهِدِ وَالْقَرِيبِ الْمَعْرُوفِ تَجِدُ زَعْمَهُمْ بَاطِلًا وَقَلَمَهُمْ
 كَاذِبًا وَالَّذِي ثَبَّتَ فِي الْأِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَتْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا خَاصَّةً
 وَأَنَّ مُقَرَّبَاتِهِ كَانَتْ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةٌ عَلَى أَبْوَابِهِ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ
 أَخْبَارِهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى خِرَافَاتِ الْعَامَّةِ مِنْهُمْ وَفِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) وَمُلْكِهِ
 كَانَ عُنْفُوَانُ دَوْلَتِهِمْ وَاتِّسَاعُ مَلِكِيَّتِهِمْ هَذَا وَقَدْ نَجَدُ السَّكَّافَةَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ إِذَا
 أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ الَّتِي يَعْتَدِمُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَتَقَاوَضُوا فِي الْأَخْبَارِ
 عَنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ النَّصَارَى أَوْ أَخَذُوا فِي إِحْصَاءِ أَمْوَالِ الْجَبَابَاتِ وَخَرَاجِ
 السُّلْطَانِ وَتَنَفُّاتِ الْمُتَرَفِّينَ وَبَضَائِعِ الْأَغْنِيَاءِ الْمُسِيرِينَ تَوَعَّلُوا فِي الْعَدَدِ وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ
 الْعَوَائِدِ وَطَاوَعُوا وَسَاوَسَ الْأَغْرَابِ فَإِذَا اسْتُكْشِفَ اخْتِطَابُ الدَّوَاوِينِ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ
 وَاسْتَنْبِطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بَضَائِعِهِمْ وَقَوَائِدِهِمْ وَاسْتَنْجَلِيَتْ عَوَائِدُ الْمُتَرَفِّينَ فِي
 نَفَقَاتِهِمْ لَمْ تَجِدْ مِعْشَارَ مَا يَعُدُّونَهُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَوْلُوعِ النَّفْسِ بِالْفَرَائِبِ وَسَهْوَةِ النِّجَازِ
 عَلَى اللِّسَانِ وَالْغَفْلَةِ عَلَى الْمُتَعَقِّبِ وَالْمُسْتَقْدِ حَتَّى لَا يَحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطَا وَلَا عَمْدٍ وَلَا
 يَطَالِبُهَا فِي الْخَبْرِ بِتَوْسُطٍ وَلَا عَدَالَةٍ وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَقْيِيشٍ فَيُرْسِلُ عِنَانَهُ وَاسِيمُ
 فِي مَرَاتِعِ الْكَذِبِ لِسَانَهُ وَيَتَّخِذُ آيَاتِ اللَّهِ هِزًا وَيَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لَيْضَلٌ عَنْ

سَبِيلَ اللَّهِ وَحَسْبُكَ بِهَا صَفَقَةٌ خَاسِرَةٌ وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاحِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً
 فِي أَخْبَارِ التَّبَاعَةِ مُلُوكِ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ نَهْمُ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهُمْ بِالْيَمَنِ
 إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَالْبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقِشَ بْنَ قَيْسٍ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعْظَمِ
 مُلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَتَخَنَ فِي
 الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُمْ بِهَذَا الْإِسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ الْبَرْبَرَةُ فَأَخَذَ
 هَذَا الْإِسْمَ عَنْهُ وَدُعُوا بِهِ مِنْ حَيْثُ وَانَّهُ لَدَا أَنْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حِجْرَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ
 مِنْ حَمِيرٍ فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنْهَاجَةٌ وَكِتَامَةٌ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّبَرِيُّ
 وَالْجَرَجَانِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الْكَلْبِيِّ وَالْبَيْهَقِيُّ إِلَى أَنَّ صَنْهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حَمِيرٍ
 وَتَأْبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذَا الْأَذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ
 قَبْلَ أَفْرِيقِشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذَلِكَ
 ذَكَرَ مِثْلُهُ عَنْ يَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِي الرَّمْلِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ
 فِيهِ مَسَلَكًا لِكثَرَةِ الرَّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبٍ
 وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَأْسَفَ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَسِ الْكِيَانِيَّةِ أَنَّهُ مَلِكُ الْمَوْصِلِ وَأَذَرَبَيْجَانَ
 وَاقِي التُّرْكِ فَهَزَمَهُمْ وَأَتَخَنَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْزَى ثَلَاثَةً
 مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصَّغْدِ مِنْ بِلَادِ أُمِّ التُّرْكِ وَرَاءَ النَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ
 فَمَلِكُ الْأَوَّلِ الْبِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِي الَّذِي
 غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَتَخَنَا فِي بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعًا بِالْفَتَائِمِ وَتَرَكَوَا بِلَادَ
 الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حَمِيرٍ فَهَمُّ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قِسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا وَدَوَّخَ
 بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصِّحَّةِ عَرِيقَةٌ فِي الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ
 وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ الْقِصَصِ الْمَوْضُوعَةِ وَذَلِكَ أَنَّ مُلُوكَ التَّبَاعَةِ إِنَّمَا كَانَ يَجْزِي بِلَادَ الْعَرَبِ
 وَقَرَارَهُمْ وَكَرْسِيَهُمْ بِصَنْعَاءِ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَيَجْرُو
 الْهِنْدُ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ
 الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مُصَوِّرِ الْجُغْرَافِيَا
 فَلَا يَجِدُ السَّالِكُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ وَالْمَسَلَكِ هُنَاكَ مَا
 بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدَرُ مَرَحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا الْمَسَلَكِ

مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرِ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هَذِهِ مُسْتَعْتَبٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ
كَانَ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الْعَمَالِقَةُ وَكُنْعَانُ بِالشَّامِ وَالْقِبْطُ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلَكَ الْعَمَالِقَةُ بِمِصْرَ
وَمَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّامَ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ وَلَا
مَلَكَوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَأَيْضًا فَالشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَالْأَزُودَةُ
وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ اخْتَجَرُوا إِلَى أَنْتِهَابِ الزَّرْعِ
وَالنَّعْمِ وَأَنْتِهَابِ الْبِلَادِ فَيَا يَمْرُؤُونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكُنِّي ذَلِكَ لِلْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ
نَقَلُوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَبْقَى لَهُمُ الرُّوَاهِلُ بِنَقْلِهِ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمْرُؤُوا فِي
طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكَوْهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةُ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ
الْعَسَاكِرَ تَمْرُ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهْجُمَ فَتَحْصُلَ لَهُمُ الْمِيرَةُ بِالسَّالِمَةِ فَذَلِكَ
أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعًا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ

وَأَمَّا وَادِي الرَّمْلِ الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ
سَالِكِيهِ وَمَنْ يَقْصُ طَرِيقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْفُرَى فِي كُلِّ عَصْرِ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ عَلَى مَا
ذَكَرُوهُ مِنَ الْغَرَابَةِ لَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ التُّرْكِ
وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ وَأُمَمُ فَارِسَ وَالرُّومِ
مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ مَلَكَوْا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ الرُّومِ
وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحَبِيرَةِ
وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْأَذْعَارِ
مِنْهُمْ وَكَيْكَاؤُسَ مِنْ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ وَبَيْنَ تَبَعِ الْأَصْنَرِ أَبِي كَرِبَ وَبَسْتَاكِفَ مِنْهُمْ
أَيْضًا وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ الْكِيَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُجَاوِزَةِ أَرْضِ فَارِسَ
بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ وَهُوَ مُسْتَعْتَبٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ الْأُمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ
وَالْحَاجَةِ إِلَى الْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ فَأَلَاخْبَارُ بِذَلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ
وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَنَقَلَ بَلْكَانُ ذَلِكَ قَادِحًا فِيهَا فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ
وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَالْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ أَنَّ تَبَعًا آخَرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ
مَحْمُولًا عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَّا بِلَادُ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْهِ
لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تُثَقَّنُ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ وَتَأَمَّلِ الْأَخْبَارَ وَأَعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَائِمِ

الصَّحِيحَةَ يَفْعَلُ لَكَ تَخْيِصُهَا بِاحْسَنِ وَجْهِ وَاللَّهُ الْمُهْدِي إِلَى الصَّوَابِ

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرَقُ فِي التَّوْهِمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَقْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ أَسْمًا لِمَدِينَةٍ وَصَنَّتْ
بِأَنْهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينٍ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عَوْصِ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ
وَشَدَادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَاصَ الْمَلِكُ لَشَدَادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ
وَصَنَّتْ الْجَنَّةُ فَقَالَ لِابْنَيْنِ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مَدَّةٍ ثَلَاثِينَ سَنَةً
وَكَانَ عُمُرُهُ تِسْعِينَ سَنَةً وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الزُّبُرِ جَدِيدٍ
وَالْبَانُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالْأَنْهَارُ الْمَطْرُودَةُ وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ
مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَبَّيْهُ نَعَتْ اللَّهُ عَائِدَهُمْ صَاحِبَةً مِنَ السَّمَاءِ
فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ وَالنَّعْمَانِيُّ وَالزُّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ
وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَلَابَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ
مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبْرُهُ مُعَاوِيَةَ فَأَخْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَجَعَلَ عَنْ كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ
عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتُ الْعِمَادِ وَسَبَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشْفَرُ قَصِيرٌ
عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ أَلْتَفَتَ فَأَبْصَرَ ابْنَ قَلَابَةَ فَقَالَ
هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمَئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ
وَصَحَارَى عَدَنَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ وَمَا زَالَ عُمُرَانِهُ مُتَعَابِقًا
وَالْأَدِلَّةُ تُقْصُ طُرُقُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ
مِنَ الْإِخْبَارِيِّينَ وَلَا مِنَ الْأُمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرِيسَتْ فِيمَا دُرِسَتْ مِنَ الْأَثَارِ لَكَانَ أَشْبَهُ إِلَّا
أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوها
وَقَدْ بَنَى هِيَ الْمَدْيَنُ يُعْضِضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَعْتَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسَّحَرِ مَزَاعِمُ
كُلِّهَا أَشْبَهُ بِالْخِرَافَاتِ وَالَّذِي حَمَلَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ مَا اقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ الْإِغْرَابِ فِي
لَفْظَةِ ذَاتِ الْعِمَادِ أَنَّهَا صِنْعَةٌ إِرَمَ وَحَمَلُوا الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ يَكُونُ بِنَاءً وَرَشَّخَ
لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ عَادَ إِرَمَ عَلَى الْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ
الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَفَاصِصِ الْمَوْضُوعَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْكُذِبِ الْمَنْقُولَةِ

فِي عِدَادِ الْمُصْحِكَاتِ وَإِلَّا فَالْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ الْأَخِيَّةِ بَلِ الْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا
 الْأَسَاطِينُ فَلَا يَدْعُ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينُ عَلَى الْعُمُومِ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ
 لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ أَضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَعَلَى
 إِضَافَةِ الْقَصِيلَةِ إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا نَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةٌ وَالْيَاسُ مُضَرٌّ وَرَبِيعَةٌ نِزَارٌ وَأَيُّ
 ضَرُورَةٍ إِلَى هَذَا التَّحْمِيلِ الْبَعِيدِ الَّذِي تُحْمَلَتْ لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِمَةِ
 الَّتِي يُنْزَعُ كِتَابُ اللَّهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصَّحِيحَةِ وَمِنْ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ
 مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ
 يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِيَكْفِيهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا الْخُمْرَ أَذِنَ لَهُمَا فِي
 عَقْدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخُلُوعِ حَرَصًا عَلَى أَجْنَائِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَبَّلَتْ عَلَيْهِ فِي
 النَّاسِ الْخُلُوعَ بِهِ لِمَا شَفَقَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَا (زَعَمُوا فِي حَالَةِ السُّكْرِ) فَحَمَلَتْ وَوُثِّقَ
 بِذَلِكَ لِلرَّشِيدِ فَأَسْتَغْضَبَ وَهَيَّاتِ ذَلِكَ مِنْ مَنَصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبَوِيَّهَا وَجَلَالِهَا
 وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رَجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ الدِّينِ وَعُظَمَاءُ
 الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ وَالْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرٍ النَّصُورِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ
 السَّجَّادِ ابْنِ عَلِيٍّ أَبِي الْخُلَفَاءِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجُمَانِ الْقُرْآنِ ابْنِ الْعَبَّاسِ هَمَّ النَّبِيِّ (صَلَّمَ)
 ابْنَةُ خَلِيفَةٍ أُخْتُ خَلِيفَةٍ مُحَنُوفَةٍ بِالْمُلْكِ الْعَزِيزِ وَالْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ الرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ
 وَإِقَامَةِ الْمِلَّةِ وَنُوبِ الْوَحْيِ وَمَهِيطِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَانِهَا قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِبِدَاوَةِ الْعُرُوفَةِ
 وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَمَرَائِعِ الْفَوَاحِشِ فَأَيُّنَ يُطْلَبُ الصُّونُ وَالْعَفَافُ
 إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تُوجَدُ الطَّهَارَةُ وَالذِّكَاةُ إِذَا فَقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ نَلْعَمُ نَسَبَهَا
 بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَتُدَنِّسُ شَرْفَهَا الْعَرَبِيُّ بِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي النُّجُمِ بِمِلْكَةِ جَدِّهِ مِنَ الْفُرْسِ
 أَوْ بَوْلَاءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُومَةِ الرَّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتَهُمْ بِضَبْعِهِ
 وَضَبَعَ أَيْيَهُ وَاسْتَخَاصَتْهُمْ وَرَفَقَتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الْأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوعُ مِنَ الرَّشِيدِ أَنْ
 يُصْهَرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ الْمُنَاقِلُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ
 الْمُنْصِفِ وَقَاسَ الْعَبَّاسَةَ بِابْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لَاسْتَنْصَكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ
 تَوَلَّى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قُوَّتِهَا وَاسْتَنْكَرَهُ وَلَجَّ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَيُّنَ قَدَّرَ الْعَبَّاسَةَ
 وَالرَّشِيدَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّمَا نَكْبُ الْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنْ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَافِهِمْ

أَمْوَالُ الْجَبَايَةِ حَتَّى كَانَ الرَّشِيدُ يَطْلُبُ الْيَسِيرَ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَعَلِبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ
وَشَارَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مَلِكِهِ فَعُظُمَتْ آثَارُهُمْ وَبَعْدَ
صِيْنَتِهِمْ وَعَمَرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخِطَطَهَا بِالرُّؤْسَاءِ مِنْ وَلَدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَأَخْتَارُوهَا عَمَّنْ
مِوَاهِمٍ مِنْ وَزَارَةِ وَكِتَابَةِ وَقِيَادَةِ وَحِجَابَةِ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ . يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ بِدَارِ الرَّشِيدِ مِنْ
وَلَدِ يَمْعِي بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَئِيسًا مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ زَانِحُوا فِيهَا
أَهْلُ الدَّوْلَةِ بِالنَّمَاكِيبِ وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا بِالرَّاحِ لِمَكَانِ أَبِيهِمْ يَمْعِي مِنْ كِفَالَةِ هَارُونَ وَلِيٍّ
عَهْدٍ وَخَلِيفَةٍ حَتَّى شَبَّ فِي حُجْرِهِ وَدَرَجَ مِنْ عُسَيْدٍ وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ
فَتَوَجَّهَ إِلَى يَثَارٍ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ وَعُظُمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَأَنْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ وَأَنْصَرَفَتْ
فَحُومُ الْوُجُوهِ وَخَضَعَتِ لَهُمُ الرِّقَابُ وَفُصِرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمَالُ وَتَخَطَّتِ إِلَيْهِمْ مِنْ أَفْصَى
الْخُومِ هَدَايَا الْمُلُوكِ وَتَحَفُّ الْأُمَرَاءُ وَتَسَرَّبتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّزَلُّفِ وَالْإِسْتِمَالَةِ
أَمْوَالُ الْجَبَايَةِ وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَعُظَمَاءِ الْقِرَابَةِ الْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمْ أَلْمِينَ وَكَسَبُوا
مِنْ يُونَتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُعَدَّمِ وَفَكُّوا الْعَانِي وَمُدِّحُوا بِمَا لَمْ يُمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ وَأَسَنُّوا
لِعِفَائِهِمْ الْجَوَائِزَ وَالصِّلَاتِ وَأَسْتَوَلُوا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الضَّوَاغِي وَالْأَمْصَارِ فِي
سَائِرِ الْمَمَالِكِ حَتَّى أَسَفُوا الْبَطَانَةَ وَأَخْفَدُوا الْخَاصَّةَ وَأَغْصَوْا أَهْلَ الْوِلَايَةِ فَكُشِفَتْ
لَهُمْ وَجُوهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ وَدَبَّتْ إِلَى مِهَادِهِمُ الْوَثِيرِ مِنَ الدَّوْلَةِ عَقَارِبُ السَّعَايَةِ حَتَّى
لَقَدْ كَانَ بَنُو قُحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَعْطِفَهُمْ لِمَا وَقَرَّ فِي نَفْسِهِمْ
مِنْ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحِمِ وَلَا وَرَعَتُهُمْ أَوَاصِرُ الْقِرَابَةِ وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ تَوَاشِيُ
الْغِيَرَةِ وَالْإِسْتِنكَافِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْآتِفَةِ وَكَانَ الْحَقُودُ الَّتِي بَعَثَهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الدَّالَّةِ
وَانْتَهَى بِهَا إِلَى مَضَارٍ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كِبَائِرِ الْخُلَافَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَمْعِي بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
حَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْمَلَكُوبِ بِالنَّفْسِ الزُّكِيَّةِ
الْخَارِجِ عَلَى الْمَنْصُورِ وَيَمْعِي هَذَا هُوَ الَّذِي أَسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَمْعِيٍّ مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ
عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَدَّلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَدَفَعَهُ
الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرٍ وَجَعَلَ أَعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ فَخَبَسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى
تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ وَالْإِسْتِبْدَادِ بِحَلِّ عِقَالِهِ حَرَمًا لِدِمَائِهِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ وَدَالَّةٌ عَلَى السُّلْطَانِ
فِي حُكْمِهِ . وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وَشِيَ بِهِ إِلَيْهِ فَظَنَ وَقَالَ أَطْلَقْتُهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَهُ

الاستخسان وأسرهما في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم
والقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض يوم وبيادهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم
ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر مبدئ الأسباب
وأنظر ما نقله ابن عبد ربه في مفارقة الرشيد عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم
وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاوره الأصمعي للرشيد والفضل بن
يحيى في سمرهم لتتهم أنه إنما قتلهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن
دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على
إسماء الخليفة وتحريرك حفاظهم لهم وهو قوله

لست هنذا أنجزت ما تعد وشفت أنفسنا بما نجد
وأستندت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستند

وإن الرشيد لما سمعها قال إني والله إني عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كأمير غيرته
وسلطوا عليهم بأمر انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال وأما ما ثمره
به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر وأقتران سكره بسكر الندمان فحاشا الله ما
علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من
الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاورته للفضل بن عياض
وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من موعظتهم ودعائه
بمسكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود
الصبح لأول وقتها حكى الطبري وغيره أنه كان يمسلي في كل يوم مائة ركعة
نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن أبي مرزيم مضحكه في سمره حين تعرض
له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ وما لي لا أعبد الذي فطرني وقال والله ما
أدري لم فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال يا ابن أبي مرزيم في
الصلاة أيضاً إياك وإياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وأيضاً فقد كان من
العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين
جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاماً وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين
قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطأ يا أبا عبد الله

إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي اخِلَافَةُ فَضَعِ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبَ فِيهِ رُخْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمَرَ وَوَطْنَهُ لِلنَّاسِ تَوَطُّئَهُ قَالَ مَالِكُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُو الرَّشِيدِ هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسُوفِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ بِكَاشِرِ الْخُبَّاطِينَ فِي إِزْقَاعِ الْخُلُقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَأَسْتَنْكَفَ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كُسُوفُ هَذِهِ الْعِيَالِ عَامَنَا هَذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِالْإِتْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ وَأَبُوئِهِ وَمَا رُبِّي عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُعَاقِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنْ الْكُزَمُ شَجَرَتُهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذْمُومَةً عِنْدَ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَالرَّشِيدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى تَجَرٍّ مِنْ اجْتِنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالتَّخَلُّقِ بِالْحَمَائِدِ وَأَوْصَافِ الْكِمَالِ وَتَزَعَاتِ الْعَرَبِ وَأَنْظَرُوا مَا تَقَلَّه الطَّبْرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ فِي نِصَةِ جَنْزِبِلَ بْنِ بَخْتِشُوعِ الطَّبِيبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ الْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطِنَ الرَّشِيدُ وَأَرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمُهُ حَتَّى عَابَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ وَأَعَدَّ ابْنُ بَخْتِشُوعِ لِلْإِعْتِدَارِ ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنَ السَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ إِحْدَاهُمَا بِاللَّحْمِ الْمَعَالِجِ بِالتَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ وَالتَّبَوَارِدِ وَالتَّحْلُوى وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءً مُنْجَاً وَعَلَى الثَّالِثَةِ خَمْراً صِرْفاً وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ السَّمَكُ بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يَخْلُطْهُ وَقَالَ فِي الثَّالِثِ هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَخْتِشُوعِ وَدَنَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا أَتَبَهُ الرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيعِ أَحْضَرَ ثَلَاثَةَ الْأَقْدَاحِ فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدْ اخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَتْ وَوَجَدَ الْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْدِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثُبَّتْ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ بِجَبَسِ أَبِي نُوَّاسٍ لِمَا بَلَغَهُ مِنْ أَنَّهُمَا كَرِهَ فِي الدُّعَاةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا الْخَمْرُ الصِّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدِ الْأَخْبَارِ الرَّوَاسِيَةِ فِيهَا فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ يَحِثُّ بِوَأَقِيعٍ مُحَرَّمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ

أُولَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَنْحَاةٍ مِنْ أَرْكَابِ السَّرَفِ وَالْتَرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ
مُتَنَاوَلَاتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُسُونَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدُ فَمَا
ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِبَاحَةِ إِلَى الْخَطَرِ وَعَنِ الْحِلَّةِ إِلَى الْحَرَمَةِ وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ
الطَّبَرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ
إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِالْحِلَّةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ النِّصْفَةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللِّجَمِ وَالسَّرُوجِ
وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحَدَثَ الرُّكُوبَ بِحِلَّةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعَازِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ
بَعْدَ الرَّشِيدِ وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْقَضَاةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي
مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ الْمُهَادِي إِلَى الصَّوَابِ . وَيُنَاسِبُ هَذَا
أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنَّهُ كَانَ
يُعَاقِرُ الْخُمَرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِبِهِ فَدَفِنَ فِي الرِّيحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ
يَا سَيِّدِي وَآمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْتَعِينِي
إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِي فَصَبَّرَنِي كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالدِّينِ
وَحَالُ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَشُرَاهِهِمْ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيذُ
وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ وَأَمَّا السُّكَّرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ
خِلَّةً فِي الدِّينِ وَلَقَدْ ثُبَّتَ أَنَّهُ كَانَ يَتَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ وَيُقَلَّ فِي فُضَائِلِ الْمَأْمُونِ وَحُسْنِ
عِشْرَتِهِ أَنَّهُ أَنْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانًا فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوفِظَ يَحْيَى
بْنَ أَكْثَمَ وَثُبَّتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا فَأَيُّنَ هَذَا مِنَ الْمَعَاقِرَةِ وَأَيْضًا فَإِنَّ
يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عَلَيْهِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَتَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
وَأِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي وَخَرَجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَامِعَ وَذَكَرَ الْمَرْزِيُّ الْخَافِظُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ
رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ فَأَلْقَدَحُ فِيهِ قَدَحٌ فِي جَمِيعِهِمْ وَكَذَلِكَ مَا يَنْبِزُهُ الْجَمَانُ بِالْمِيلِ
إِلَى الْغِلْمَانِ بَهَنَانًا عَلَى اللَّهِ وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ
الْوَاهِبَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ أَفْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مُحْسُودًا فِي كَمَالِهِ وَخِلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ وَكَانَتْ
مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ مُنْزَمًا عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرَ لِابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ
النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَأَتَى

عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ
بِحُكْمِهِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ وَقَالَ أَيْضًا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ
يَمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْعِلْمَانِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى مَرَاتِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ
مِنْ اللَّهِ لِحُكْمِهِ كَانَتْ فِيهِ دُمَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فَرَمِي بِمَا رُمِيَ بِهِ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ
وَقَالَ لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَمُ عَنْهُ لِأَنَّهُ أَكْثَرُهَا لَا يَصِغُ عَنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ
مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَيْدٍ صَاحِبُ الْعُقَدِ مِنْ حَدِيثِ الزُّبَيْلِ فِي سَبَبِ إِصْحَارِ الْمَأْمُونِ إِلَى
الْحُسَيْنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بَيْتِهِ بُورَانٌ وَأَنَّهُ هَمَزَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّفِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادَ فِي
زُبَيْلِ مُدَلِّيٍّ مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقٍ وَجَدَلَ مُفَارَةَ الْقَتْلِ مِنَ الْمُرِيرِ فَأَعْتَقَهُ وَتَنَاوَلَ
السَّعَالِقَ فَأَهْتَزَتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعْدًا إِلَى مَجْلِسِ شَأْنِهِ كَذَا وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرْشِهِ وَتَنْصِيدِ
ابْنَيْتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَيْتِهِ مَا يَسْتَوْفِي الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ وَأَنَّ أَمْرًا بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلَلِ
السُّتُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَائِقَةٌ الْجَمَالِ فَتَأَنَّى الْحَاسِنُ فَحِشَهُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ فَلَمْ
يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْخَمْرَ حَتَّى الصَّبَاحِ وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ أَنْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ
حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى الْإِصْحَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَيْنَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْمَأْمُونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ
وَعِلْمِهِ وَأَقْنَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخَذِهِ بِسِيرِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَوْ كَانَ
الْمِلَّةَ وَمَنَاظَرَتِهِ الْعُلَمَاءَ وَحِظْطِهِ لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصِغُ
عَنْهُ أَحْوَالُ الْفُسَّاقِ الْمُسْتَهْتَرِينَ^(١) فِي الطَّوَافِ بِاللَّيْلِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ وَغَشْيَانِ السَّمْرِ
سَبِيلِ عُسَاقِ الْأَغْرَابِ وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ مَنَصِبِ ابْنَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ
يُدَارِ أَبِيهَا مِنَ الصَّوْنِ وَالْعَفَافِ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِينَ
مَعْرُوفَةٌ وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَالْحَدِيثُ بِهَا إِلَّا نَهْمَاكَ فِي اللَّذَاتِ الْحَرَمَةِ وَهَتَكَ فَنَاعِ
الْمُخَدَّرَاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِالتَّأْسِي بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لَدَائِمِهِمْ فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيرًا مَا
يَلْهَجُونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَيَنْقَرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّهِمْ لِأَوْرَاقِ الدَّوَاوِينِ وَلَوْ أَنْتَسَوْا بِهِمْ
فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِنَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَذَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْأَمْرَاءِ مِنْ أُنْبَاءِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ
الْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيْقُ بِمَنْصِبِكَ فَقَالَ لِي أَفَلَا

(١) المستهتر، الشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشم له والذي كثرت باطله اهـ قاموس

تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَرَأْسِ الْمَغْنَنِ فِي زَمَانِهِ
فَقُلْتُ لَهُ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلَا تَأْسَيْتَ بِأَيِّهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ
عَنْ مَنَاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمِنْ الْأَخْبَارِ الْوَاحِيَةِ مَا
يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْأَثْبَاتِ فِي الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءِ الشَّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ
وَالْقَاهِرَةِ مِنْ تَقِيهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالطُّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
الْإِمَامِ ابْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ بِعَتَمِدُونِ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثَ لُفَّتَ لِلْمُسْتَضْعِفِينَ مِنْ
خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ تَزَلُّفًا إِلَيْهِمْ بِالْقَدَحِ فِيمَنْ نَاصِبُهُمْ وَتَفَنُّنًا فِي الشَّمَاتِ بِعَدُوِّهِمْ حَسَبًا
تَذَكُّرُ بَعْضَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيَغْفُلُونَ عَنِ التَّفَطُّنِ لِشَوَاهِدِ الْوَاقِعَاتِ وَأَدِلَّةِ
الْأَحْوَالِ الَّتِي أَقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ
فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْعَةِ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْحُفَسِيَّ لَمَّا دُعِيَ بِكُتَامَةِ الرَّضِيِّ
مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَاشْتَهَرَ خَبَرُهُ وَعُلِمَ تَحْوِيلُهُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَأَبْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ
خَشِيًا عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحَلَّ الْخِلَافَةِ وَاجْتَازَا بِمِصْرَ وَأَنْهَمَا خَرَجَا مِنْ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي زَيْتِ الشَّجَارِ وَنَبِيَّ خَبَرَهُمَا إِلَى عَيْسَى النُّوْشَرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ
وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَسَرَّحَ فِي طَلَبِهِمَا الْخَبَالَهَ حَتَّى إِذَا أُدْرِكََا خَفِيَ حَالُهُمَا عَلَى تَابِعِيهِمَا بِمَا
لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزِّيِّ فَأَقْلَتُوا إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَنَّ الْمُعْضِضَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغَالِبَةِ أُمَرَاءَ
أَفْرِيقِيَا بِالْقَيْرَوَانِ وَبَنِي مِذْرَارٍ أُمَرَاءَ مِجْلَمَاسَةَ بِأَخْذِ الْأَفَاقِ عَلَيْهِمَا وَإِذْ كَاهُ الْعُيُونِ
فِي طَلَبِهِمَا فَعَثَرَ الدِّشْعُ صَاحِبُ مِجْلَمَاسَةَ مِنْ آلِ مِذْرَارٍ عَلَى خَفِيِّ مَسْكَنِهِمَا بِبَلَدِهِ وَاعْتَقَلَهُمَا
مَرْضَاةً لِلْخَلِيفَةِ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشَّيْعَةُ عَلَى الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا
كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ
وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَقَاتَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمْلَكِ الْإِسْلَامِ شَقَّ الْأَبْلَمَةِ وَكَادُوا بِالْحُجُونِ
عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ وَيُزَايِلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بَغْدَادَ وَعِرَاقَهَا الْأَمِيرُ
الْبَسَاسِيرِيُّ مِنْ مَوَالِي الدَّيْلَمِ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُغَاضَبَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
أُمَرَاءِ الْعَجَمِ وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَعْصُونَ بِمَسْكَنِهِمْ
وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةَ وَرَاءَ الْبَحْرِ يُنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ
لِدَعْيٍ فِي النَّسَبِ بِكَذِبٍ فِي انْتِهَالِ الْأَمْرِ وَاعْتِزِ حَالَ الْقَرْمَطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي

أَنْتِسَابِهِ كَيْفَ تَلَا شَتَّ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَنْبَاؤُهُ وَظَاهَرَ مَرِيءًا عَلَى خُبْرِهِمْ وَمَكْرِهِمْ فَسَاءَتْ
عَاقِبَتُهُمْ وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعَبِيدِيِّينَ كَذَلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مُهْلَةٍ
وَمَهْمًا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرِي مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَغْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
فَقَدْ اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنْ مَقَامٍ إِلَّا بِرَأْسِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَمُصْلَاهُ وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدْفِنُهُ وَوَقِفَ الْحَجَّاجِ وَمَهْطِ الْمَلَائِكَةِ
ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَشِيعَتُهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أَمْرٍ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ
فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ الْأِمَامِ إِبْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَلَقَدْ خَرَجُوا مَرَارًا بَعْدَ
ذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَدُرُوسِ أَثَرِهَا دَاعِينَ إِلَى بِدْعَتِهِمْ هَاتِفِينَ بِأَسْمَاءِ صِبْيَانٍ مِنْ أَهْلِهِمْ
يَزْعُمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ مِنْ سَائِلٍ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَيْمَةِ
وَلَوْ أَزْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَّا رَكِبُوا أَغْنَاكَ الْأَخْطَارُ فِي الْإِنتِصَارِ لَهُمْ فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ لَا
يُلَاسُ فِي أَمْرِهِ وَلَا يُشَبِّهُ فِي بِدْعَتِهِ وَلَا يُكْذِبُ نَفْسَهُ فِيمَا يَتَّبِعُهُ وَالْعَجَبُ مِنَ الْقَاضِي
أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيِّ شَيْخِ النَّظَارِ مِنَ الْمُشْكَلِينَ كَيْفَ يَجْتَمِعُ إِلَى مَذْهَبِ الْقَالَةِ الْوَجُوحَةِ
وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي الدِّينِ وَالْتِمَاقِ
فِي الرَّاغِبِيَةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ إِثْبَاتُ مُنْتَسَبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي
عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فِي كُفْرِهِمْ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ إِنَّهُ لَيْسَ
مِنْ أَهْلِكَ أَنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِفَاطِمَةَ بَعْظُهَا يَا فَاطِمَةُ أَعْمَلِي فَلَنْ أُغْنِيَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَمَتَى عُرِفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أَوْ
اسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدَعَ بِهِ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وَالْقَوْمُ كَانُوا
فِي تَجَالٍ لظُنُونِ الدُّوَلِ بِهِمْ وَتَحْتَ رَقَبَةٍ مِنَ الطَّغَاةِ لِتَوْفُرِ شِيعَتِهِمْ وَأَنْتِشَارِهِمْ فِي الْقَاصِيَةِ
وَدَعْوَتِهِمْ وَتَكَرُّرِ خُرُوجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَلَاذَتْ رِجَالُهُمْ بِالْإِخْتِفَاءِ وَلَمْ يَكَادُوا
يَعْرِفُونَ كَمَا قِيلَ

فَلَوْ تَسَأَلِ الْأَيَّامَ مَا أَسْمَى مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِيَا
حَتَّى لَقَدْ سَمِيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأِمَامُ جَدُّ عِيْدِ اللَّهِ الْهَيْدِي بِالْمَكْتُومِ سَمِيَّةً بِذَلِكَ
شِيعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ حَذَرًا مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ فَتَوَصَّلَ شِيعَةُ
الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطَّعْنِ فِي نَسَبِهِمْ وَازْدَلُّوا بِهِذَا الرَّأْيَ الْقَائِلَ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ

مِنْ خُلَفَائِهِمْ وَأُعْجِبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأَمْرَاهُ دَوْلَتِهِمْ الْمُتَوَلُّونَ لِحُرُوبِهِمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ يَدْفَعُونَ
 بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعْرَةَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلِبَهُمْ عَلَى الشَّامِ
 وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبَرْبَرِ الْكَتَّامِينَ شِيعَةَ الْعَبِيدِيِّينَ وَأَهْلَ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ
 الْقَضَاءُ بِبَغْدَادَ بِنَفْيِهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ النَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
 الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ وَأَخُوهُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْبَطْحَاوِيِّ وَمِنْ الْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ الْأَسْفَرَايِينِيُّ
 وَالْقُدُورِيُّ وَالصِّمَرِيُّ وَابْنُ الْأَكْفَانِيِّ وَالْأَبْيُورُزْدِيُّ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ النُّعْمَانِ فقيهُ
 الشَّيْعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَعْلَامِ الْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذَلِكَ سَنَةٌ سِتِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ
 فِي أَيَّامِ الْقَادِرِ وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمْعِ لَمَّا أَشْتَهَرَ وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ
 بِبَغْدَادَ وَغَالِبُهَا شِيعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ فَقَلَّه الْأَخْبَارُ يُونُ كَمَا سَمِعُوهُ
 وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا وَعَوَّهُ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي كِتَابِ الْمُعْتَضِدِ فِي شَأْنِ عِيْدِ اللَّهِ إِلَى ابْنِ
 الْأَغْلَبِ بِالْقَيْرَوَانِ وَابْنِ مِذْرَارٍ بِسِجِلْمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ
 فَأَلْمَعْتَضِدُ أَقْعَدُ بِنَسَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَالِدَوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ سُوْقُ الْعَالَمِ تَجَلُّبُ إِلَيْهِ
 بِضَائِعِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَتَلْتَمِسُ فِيهِ ضَوَالُ الْحُكْمِ وَتُعْدِي إِلَيْهِ رَكَائِبُ الرِّوَايَاتِ
 وَالْأَخْبَارِ وَمَا تَقَى فِيهَا تَقَى عِنْدَ الْكَافَةِ فَإِنْ تَنَزَّهَتْ الدَّوْلَةُ عَنِ التَّعَسُّفِ وَالْمِيلِ وَالْأَقْنِ
 وَالسُّفْسَفَةِ وَسَلَكَتْ السَّبِيلَ الْأَمَّ وَلَمْ تَجْزُ (١) عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ تَقَى فِي سُوْقِهَا الْأَبْرَارُ
 الْخَالِصُ وَاللَّجِينُ الْمُصَفَّى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَغْرَاضِ وَالْحَقُودِ وَمَاجَتْ بِسَاسِرَةِ الْعَرَبِ
 الْبَغْيُ وَالْبَاطِلُ تَقَى الْبَهْرَجُ وَالزَّائِفُ وَالنَّافِدُ الْبَصِيرُ نَظَرُهُ قِسْطَاسُ بَحْثِهِ وَمِيزَانُ مُلْتَمَسِهِ
 وَمِثْلُ هَذَا وَابْعَدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضَوَانِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) الْأَمَامِ
 بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَيَعْرِضُونَ تَعْرِيضَ الْحَدِّ بِالْظُنِّ فِي الْحِمْلِ الْمُخْلَفِ عَنْ
 أَدْرِيسَ الْأَكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدٍ مَوْلَاهُمْ فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ مَا أَجْهَلَهُمْ أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ
 أَدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِصْهَارُهُ فِي الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ
 عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي الْبَدْوِ وَأَنَّ حَالِ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَسَاكِينَ لَهُمْ
 يَتَأَنَّى فِيهَا الرَّيْبُ وَأَخْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ يَمْرَأَى مِنْ جَارَاتِهِمْ وَمُسْتَمْعٍ مِنْ جِيرَانِهِمْ
 لِتَلَاصُقِ الْجُدْرَانِ وَتَطَامُنِ الْبَنِيَانِ وَعَدَمِ الْقَوَاصِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَقُولُ

(١) قوله ولم تجز بضم الجيم مضارع جاراي لم تمل اهـ

خِدْمَةِ الْحَرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَوْلِيائِهِمْ وَشَبِيعَتِهِمْ وَمُرَاقِبَةٍ مِنْ كَلْبَتِهِمْ
وَقَدْ اتَّفَقَ بَرَايِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى عَامَةً عَلَى بَيْعَةِ أَذْرِيسَ الْأَصْغَرِ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ وَآتَوْهُ
طَاعَتَهُمْ عَنْ رِضَى وَإِصْفَاقٍ وَبَابِعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ وَخَاضُوا دُونَهُ بِحَارَ الْمَنَابَا فِي
حُرُوبِهِ وَغَزَوَاتِهِ وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الرِّبَةِ أَوْ قُرِعَتْ أَسْمَاعُهُمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوِّ
كَاشِحٍ أَوْ مُتَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ كَكَلِّ وَاللَّهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ
الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَقْبَالِهِمْ وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عُمَالِهِمْ كَانُوا بِأَفْرِ بَقِيَّةَ وَوَلَاتِهِمْ
وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ أَذْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَفْعَةٍ بَلَغَ أَوْعَزَ الْمَلِكِ إِلَى الْأَغَالِبَةِ
أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ وَيَذْكُوا عَلَيْهِ الْعِيُونَ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ وَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَمَرَّ
أَمْرُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ مَوْلَاهُمْ وَعَامِلِهِمْ
عَلَى الْأَسْكَندَرِيَّةِ مِنْ دَسِيصَةِ النَّشِيعِ الْعَلَوِيَّةِ وَإِذْ هَانِهِ فِي نَجَاةِ أَذْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ
فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَاخَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَبِيهِ لِلتَّحْيِيلِ عَلَى قَتْلِ أَذْرِيسَ فَأَظْهَرَ اللَّحَاقَ بِهِ
وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيهِ فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ أَذْرِيسُ وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَتَنَاوَلَهُ الشَّمَاخُ فِي
بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سُبًّا اسْتَهْلَكَهُ بِهِ وَوَقَعَ خَبْرُ مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ
لِمَا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعَلَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَاقْتِلَاعِ جُرْثُمَتِهَا وَلَمَّا تَأَدَّى
إِلَيْهِمْ خَبْرُ الْحِمْلِ الْمُخْلَفِ لِأَذْرِيسَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلًّا وَلَا إِذَا بِالْأَدْعَاةِ قَدْ
عَادَتْ وَالشَّيْعَةَ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ وَدَوَّلَتْهُمْ بِأَذْرِيسَ بْنِ أَذْرِيسَ قَدْ تَبَعَّدَتْ فَكَانَ
ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السِّهَامِ وَكَانَ الْفُشْلُ وَالْحَرَمُ قَدْ نَزَلَ بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ
أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى أَذْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ
قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتِمَالَ الْبَرْبَرِ عَلَيْهِ إِلَّا التَّحْيِيلَ فِي إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَرَّغُوا
إِلَى أَوْلِيائِهِمْ مِنَ الْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِ بَقِيَّةَ فِي سِدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ وَحَسَمَ الدَّاءَ
الْمُتَوَقَّعَ بِالدَّوْلَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ وَاقْتِلَاعَ تِلْكَ الْعُرُوفِ قَبْلَ أَنْ تَشْجَ مِنْهُمْ بِخَاطِبِهِمْ بِذَلِكَ
الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ خُلَفَائِهِمْ فَكَانَ الْأَغَالِبَةُ عَنْ بَرَايِرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى أَعْجَزَ
وَلَمِثْلَهَا مِنَ الزُّبُونِ عَلَى مُلُوكِهِمْ أَحْوَجَ لِمَا طَرَقَ الْخِلَافَةُ مِنْ أَنْتِزَاعِ مَمْلِكِ الْعَجَمِ عَلَى
سُدَّتِهَا وَامْتِطَائِهِمْ مَهْوَةَ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا وَتَضَرُّعِهِمْ أَخْكَامَهَا طَوَّعَ أَغْرَاصِهِمْ فِي رِجَالِهَا
وَجَبَايَتِهَا وَأَهْلَ خِطَطِهَا وَسَائِرِ نَقِصِهَا وَإِبْرَامِهَا كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ

خَلِيفَةً فِي قَفْصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وَبَغَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ كَمَا تَقُولُ الْبَغَا

نَفْسِي هُوَ لَا أَمْرًا الْأَغَالِبَةُ بَوَادِرَ السَّعَابَاتِ وَتَلَوَا بِالْمَعَاذِيرِ فَطَوْرًا بِاخْتِقَارِ الْغُورِبِ
وَأَهْلِهِ وَطَوْرًا بِالْأَزْهَابِ بِشَأْنِ أَدْرِيسَ الْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ أَعْقَابِهِ بِخَاطِبُونَهُمْ
بِتَجَاوُزِهِ حُدُودَ الشُّخُومِ مِنْ عَمَلِهِ وَيُنْفِذُونَ سِكَّتَهُ فِي تَحْفِهِمْ وَهَذَا أَبَاهُمْ وَمُرْتَفَعٍ جَبَابَتِهِمْ
تَعْرِضًا بِاسْتِحْجَالِهِ وَتَهْوِيلًا بِاشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ وَتَعْظِيمًا لِمَا دَفَعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمِرَاسِهِ
وَتَهْدِيدًا بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ الْجِئُوا إِلَيْهِ وَطَوْرًا بِطَعْنُونِ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ
الطَّعْنِ الْكَاذِبِ تَغْفِيضًا لِسَانِهِ لَا يُبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ وَأَفْنِ عُقُولِ
مَنْ خَلَفَ مِنْ صِبْيَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمَمَالِكِهِمْ الْعَجَمِ فِي الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ وَالسَّمْعِ لِكُلِّ
نَاعِقٍ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَائِبُهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الْأَغَالِبَةِ فَفَرَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشَّنْعَاءَ
أَسْمَاعَ الْغَوَاغَاءِ وَصَرَ عَلَيْهَا بَعْضُ الطَّاعِنِينَ أَذْنَهُ وَأَعْتَدَهَا ذَرِيعَةً إِلَى النَّيْلِ مِنْ خَلْفِهِمْ
عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ وَمَا لَهُمْ قَبْحُهُمْ اللَّهُ وَالْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ
الْمَقْطُوعِ وَالْمَظْنُونِ وَأَدْرِيسُ وَلَدٌ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ عَلَى أَنْ تَنْزِيهِ أَهْلِ
الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الرِّجْسَ
وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا فِرَاشُ أَدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ الدَّنَسِ وَمَنْزَرُهُ عَنِ الرِّجْسِ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ
وَمَنْ أَعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَوَلَجَ الْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ وَإِنَّمَا أُطْبِئْتُ فِي هَذَا
الرَّدِّ سَدًّا لِأَبْوَابِ الْوَيْبِ وَدَفْعًا فِي صَدْرِ الْحَاسِدِ لِمَا سَمِعْتَهُ أَذُنَايَ مِنْ قَائِلِهِ الْمُعْتَدِي
عَلَيْهِمُ الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ وَبِقَوْلِهِ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ بِمَنْ
انْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَأَزْنَبَ فِي الْإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ وَإِلَّا فَالْعَمَلُ مَنْزَرُهُ عَنْ ذَلِكَ
مَعْصُومٌ مِنْهُ وَتَفِي الْعَيْبُ حَيْثُ يُسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبُ لِكُنِّي جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا
هُمْ الْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ أَدْرِيسَ هَذَا مِنْ مُنْتَهَى إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنْ أَدْرَعَاهُ
هَذَا النَّسَبُ الْكَرِيمِ دَعَاؤِي شَرَفَ عَرِيضَتِهِ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ الْأَفَاقِ
فَتَعْرِضُ الشُّهْمَةَ فِيهِ وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي أَدْرِيسَ هُوَ لَا يَمُوتُ مِنْهُمْ مِنْ فَارِسَ وَسَائِرِ
دِيَارِ الْمَغْرِبِ قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي

ذَكَرَهُ إِذْ هُوَ نَقَلَ الْأُمَّةَ وَالْجِيلَ مِنَ الْخَلْفِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْجِيلِ مِنَ السَّلَفِ وَبَيَّنَّ جَدْرَهُمْ
 أَذْرِيَسَ مُخْتَطِرَ فَاَسَ وَمُؤَسِّسَهَا مِنْ يُونَنِيَمَ وَمَسْجِدَهُ لِيَصُقُ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَبْفَهُ
 مُشْتَقَى بِرَأْسِ الْمَأْذَنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا
 حُدُودَ الثَّوَاتِرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحُقُ بِالْعِيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى
 مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَصَدَ شَرَفُهُمُ النَّبَوِيُّ مِنْ جَلَالِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ لِسَلَفِهِمْ
 بِالْمَغْرِبِ وَاسْتَبَقَنَ أَنَّهُ يَمْعَزِلُ عَنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ
 أَمْرِ الْمُشْتَمِلِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ أَنْ يَسْلِمَ
 لَهُمْ حَالُهُمْ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَبَوْنُ مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَالْتِسْلِيمِ
 فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَضَّ بِرَبْقِهِ وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنْ يَرُدُّوهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ
 سَوْفَةً وَوَضَعَاءً ^(١) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْعِنَادِ وَارْتِكَابِ اللَّجَاجِ
 وَالْبَهْتِ بِمِثْلِ هَذَا الطَّعْنِ الْفَائِلِ وَالْقَوْلِ الْمَكْذُوبِ تَعَلُّلاً بِالْمُسَاوَاةِ فِي الظَّنِّ وَالْمُشَابَهَةِ
 فِي تَطَرُّقِ الْأَحْثِمَالِ وَهِيَئَاتِ لَهُمْ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ
 الْكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صِرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوعِهِ مَبَالِغَ أَعْقَابِ أَذْرِيَسَ هَذَا مِنْ آلِ
 الْحَسَنِ وَكِبْرَاؤُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ بِفَاسَ مِنْ وَلَدِ بَيْحَى الْحُوْطِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ بَيْحَى
 الْعَوَامِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَذْرِيَسَ بْنِ أَذْرِيَسَ وَهُمْ نُبَّاهُ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ وَالسَّاكُونَ بِبَيْتِ
 جَدْرِهِمْ أَذْرِيَسَ وَلَهُمُ السِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَأَنَّهُ حَسْبُهُمَا فَذَكْرُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ
 الْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَيَلْحَقُ بِهِذِهِ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةُ وَالْمَلَاهِبِ الْقَائِلَةُ مَا
 يَسْأَلُهُ ضَعْفَةُ الرَّأْيِ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدَحِ فِي الْأِمَامِ الْمَهْدِيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ
 الْمُوَحِّدِينَ وَنِسْبَتِهِ إِلَى الشَّعْوَذَةِ وَالتَّلْيِيسِ فِيمَا أَنَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّوْحِيدِ الْحَقِّ وَالنَّبِيِّ
 عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ قَبْلَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ لِجَمِيعِ مُدَّعِيَاتِهِ فِي ذَلِكَ حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ الْمُوَحِّدُونَ
 اتِّبَاعَهُ مِنْ اتِّسَابِهِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِنَّمَا حَمَلَ الْفُقَهَاءُ عَلَى تَكْذِيبِهِ مَا كُنَّ فِي نَفْسِهِمْ
 مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُنَافَضَتَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْفَنَاءِ وَفِي الدِّينِ
 يَزْعُمُهُمْ ثُمَّ أَمَّا زَعْنُهُمْ بِأَنَّهُ مَشْبُوعُ الرَّأْيِ مَسْتَمُوعُ الْقَوْلِ مَوْطُوءُ الْعَقَبِ تَقَسَّوْا ذَلِكَ عَلَيْهِ
 وَغَضُّوا مِنْهُ بِالْقَدَحِ فِي مَذَاهِبِهِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُدَّعِيَاتِهِ وَأَيْضًا فَكَانُوا يُؤَسُّونَ مِنْ

مُلُوكِ الْمُتُونَةِ أَعْدَائِهِ تَجَلَّةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّذَاجَةِ
وَأَتَّحَالِ الدِّيَانَةِ فَكَانَ لِحِمْلَةِ الْعِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكَانٌ مِنَ الْوَجَاهَةِ وَالْإِنْتِصَابِ لِلشُّوَرَى
كُلٌّ فِي بَلَدِهِ وَعَلَى قَدَرِهِ فِي قَوْمِهِ فَأَصْبَحُوا بِذَلِكَ شِيعَةً لَهُمْ وَحَرْبًا لِعَدُوِّهِمْ وَتَقَمُّوا عَلَى
الْمَهْدِيِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِهِمْ وَالتَّرْيِيبِ عَلَيْهِمْ وَالْمُنَاصَبَةِ لَهُمْ تَشَبُّهًا لِلْمُتُونَةِ وَتَعْصِبًا
لِبِدْوَلَتِهِمْ وَمَحْكَانُ الرَّجُلِ غَيْرُ مَكَانِهِمْ وَحَالُهُ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ رَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ
عَلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ مَا نَقَمَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَخَالَفَ أَجْتِهَادَهُ فَقَهَّاهُمْ فَتَنَادَى فِي قَوْمِهِ وَدَعَا إِلَى
جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَأَفْتَلَحَ الدَّوْلَةُ مِنْ أَصُولِهَا وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً وَأَشَدَّ
شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصَارًا وَحَامِيَةً وَتَسَاقَطَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نُفُوسٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا خَالِقُهَا
قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ وَوَقَّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِتْلَافِ
مُحِبِّهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عُلَتْ عَلَى الْكَلِمِ وَدَالَتْ
بِالْعَدُوَّتَيْنِ مِنَ الدُّوَلِ وَهُوَ بِحَالِهِ مِنَ التَّقْصِفِ وَالْحَصْرِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ
الدُّنْيَا حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحِظِّ وَالْمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ حَتَّى الْوَلَدُ الَّذِي
رُبَّمَا تَجَنَّحَ إِلَيْهِ النَّفُوسُ وَتَغَادَعَ عَنْ تَعَمُّبِهِ فَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ
يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حِظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي عَاجِلِهِ وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ
صَالِحٍ لِمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَانْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ
نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا تَعْضُدُهُ حُجَّةٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ أَدْعَاهُ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا
دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى بُطْلَانِهِ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنَّ الرِّئَاسَةَ لَا
تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا هُوَ الصَّحِيحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ
مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ الْمَصَامِدَةِ وَدَانُوا بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى
عِصَابَتِهِ مِنْ مَرْغَةِ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي دَعْوَتِهِ فَأَعْلَمَ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ
الْمَهْدِيِّ بِثَوَقٍ عَلَيْهِ وَلَا اتَّبَعَهُ النَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا كَانَ اتِّبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصَابَتِهِ الْمَرْغِيَّةِ
وَالْمَصْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا وَرُسُوحِ شَجَرَتِهِ فِيهَا وَكَانَ ذَلِكَ النَّسَبُ الْفَاطِمِيُّ خَفِيًّا قَدْ
دُرِسَ عِنْدَ النَّاسِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ النَّسَبُ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ
أَسْلَخَ مِنْهُ وَلَيْسَ جِلْدَةً مُوَلَّاءَ وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَضُرُّهُ الْإِنْتِسَابُ الْأَوَّلُ فِي عَصَابَتِهِ إِذْ هُوَ
مَجْهُولٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِصَابَةِ وَمِثْلُ هَذَا وَاقِعٌ كَثِيرًا إِذَا كَانَ النَّسَبُ الْأَوَّلُ خَفِيًّا وَانْظُرْ

قِصَّةَ عَرْجَةِ وَجَرِيرٍ فِي رِئَاسَةِ بَيْعِلَةٍ وَكَيْفَ كَانَ عَرْجَةُ مِنَ الْأَزْدِ وَلَبَسَ جِلْدَةَ بَيْعِلَةٍ
حَتَّى تَتَكَوَّعَ مَعَ بَجَرِيرٍ وَرِئَاسَتِهِمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِيهِمْ مِنْهُ
وَجَهَ الْخَطِّ وَاللَّهْ أَلْهَادِي لِلصَّوَابِ وَقَدْ كُنَّا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالْإِطْنَابِ
فِي هَذِهِ الْمَغَالِطِ فَقَدْ زَلَّتْ أَفْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِينَ الْخَفَاطِ فِي مِثْلِ هَذِهِ
الْأَحَادِيثِ وَالْأَوَاءِ وَعَلَقَتْ أَفْكَارُهُمْ وَتَقَلَّهَا عَنْهُمْ الْكَافَّةُ مِنْ ضَعْفِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ
عَنِ الْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا ثُمَّ أَيْضًا كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَأَنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ
حَتَّى صَارَ فِي التَّارِيخِ وَاهِيًا مُخْطِطًا وَنَاطِرُهُ مَرْتَبِكًا وَحَدٌّ مِنْ مَنَاحِي الْعَامَةِ فَإِذَا يَحْتَاجُ
صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ وَاخْتِلَافِ الْأُمَمِ
وَالْبِقَاعِ وَالْأَعْصَارِ فِي السِّيَرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ
وَالْإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمُمَاثَلَةِ مَا يَبْنِيهِ بَيْنَ الْغَائِبِ مِنَ الْوَفَاقِ أَوْ بَيْنَ مَا يَبْنِيهِمَا
مِنْ الْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ الْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَالْمُخْتَلِفِ وَالْقِيَامِ عَلَى أَصُولِ الدُّوَلِ وَالْمِلَلِ وَمَبَادِي
ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَائِي كَرْنِهَا وَأَحْوَالِ الْقَائِمِينَ بِهَا وَخَبَائِرِهِمْ حَتَّى يَكُونَ
مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ خَبَرِهِ وَحِينَئِذٍ يَعْزِضُ خَبَرَ الْمُنْقُولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ
وَالْأَصُولِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ وَمَا
اسْتَكْبَرَ الْقَدَمُ، عِلْمُ التَّارِيخِ إِلَّا لِذَلِكَ حَتَّى اتَّخَذَهُ الطَّبْرِيُّ وَالتَّبَارِيُّ وَأَبْنُ إِسْحَاقَ
مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَلَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا السِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ
اتِّخَاذُهُ مَجْهَلَةً وَاسْتَحْفَافَ الْعَوَامِ وَمَنْ لَا رُسُوحَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتُهُ وَحَمَلُهُ وَالْخُلُوصَ
فِيهِ وَالنَّظْفَلَ عَلَيْهِ فَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْمَسْمَلِ وَاللُّبَابُ بِالْقَشْرِ وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ وَإِلَى
اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمِنْ الْغَلْطِ الْخَفِيِّ فِي التَّارِيخِ الذُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ فِي الْأُمَمِ
وَالْأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ الْأَعْصَارِ وَمُرُورِ الْأَيَّامِ وَهُوَ دَاهٍ دَوَى شَدِيدُ الْخَفَاءِ إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا
بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ فَلَا يَكَادُ يَبْفُظُنُّ لَهُ إِلَّا الْآحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ
أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنَحْلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جَرِي مُسْتَقَرٌّ
إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَاتِّقَالَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ
فِي الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْصَارِ فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَنْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْأَدُولِ
سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَمُ الْفَرَسِ الْأُولَى وَالسِّرْيَانِيُّونَ

وَالنَّبَطُ وَالتَّبَاعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقَبِطُ وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دَوْلِهِمْ
وَمَا لِكِهِمْ وَسِيَّاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلِقَاتِهِمْ وَأَصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرُ مَشَارِكَتِهِمْ مَعَ آبَائِهِمْ
جَنْسِهِمْ وَأَحْوَالُ أَعْيَانِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا أَنَّهُمْ نُمُّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ الْفَرَسُ الثَّانِيَّةُ
وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا
وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاغِضُهَا ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرَّةٍ فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ أَجْمَعُ
انْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارِفٌ لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَخْذِهِ الْخَلْفُ عَنْ السَّلَفِ
ثُمَّ دُرِسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتْ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شَبَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهْدُوا
مُلْكَهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلَ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ
بِالْمَغْرِبِ وَالْفَرَنْجَةِ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَمَائِهِمْ أُمُّ وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالُ وَعَوَائِدُ نَسَبِ شَأْنِهَا
وَأَغْفِلْ أَمْرَهَا وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ
لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ وَأَهْلُ الْمَلِكِ
وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرَ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ
وَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الدَّوْلَةِ
بَعْضُ الْخُلَافَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ
عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضُ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلأَوَّلَى أَشَدَّ خِلَافَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ
التَّدْرِيجُ فِي الْخِلَافَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ فَمَا دَامَتِ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ
تَتَعَارَفُ فِي الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْخِلَافَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً وَالْقِيَاسُ
وَالْحَاكَاةُ لِلنَّاسِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ الْغَلْطِ غَيْرُ مَا مُنَنَّا تَخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْغَفْلَةِ
عَنْ قَصْدِهِ وَتَعَوُّجُهُ عَنْ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ السَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا
يَتَفَتَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَانْقِلَابِهَا فَيَجْزِيهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَبَقِيَسُهَا
بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلْطِ فَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا
يَنْقُلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَجَّاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُعْلِمِينَ مَعَ أَنَّ التَّعْلِيمَ لِهَذَا
الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ الْبَعِيدَةِ مِنْ اعْتِرَازِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُعَلِّمِ مُسْتَضْعَفٍ
مِسْكِينٍ مُنْقَطِعٍ الْجِذْمِ^(١) فَيَتَشَوَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلَ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ

الْمَعَاشِيَةِ إِلَى نَيْلِ الرُّتَبِ الَّتِي لَبَسُوا لَهَا بِأَهْلِ وَيَعْدُونَهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ فَتَذَهَبُ
 بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَطَامِعِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاهِ الْمَلَائِكَةِ
 وَالتَّلَفِ وَلَا يَعْلَمُونَ اسْتِحَالَتَهَا فِي حَقِّهِمْ وَأَنْتَهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَنَائِعٍ لِلْمَعَاشِ وَأَنَّ التَّعْلِيمَ
 صَدْرُ الْإِسْلَامِ وَالِدَوْلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ
 نَقْلًا لِمَا سَمِعَ مَعَ الشَّارِعِ وَتَعْلِيمًا لِمَا جُئِلَ مِنَ الَّذِينَ عَلَى جِهَةِ الْبَلَاغِ فَكَانَ أَهْلُ
 الْأَنْسَابِ وَالْعَصَبِيَّةِ الَّذِينَ قَامُوا بِالْمِلَّةِ هُمُ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبَرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ الصَّنَاعِيِّ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمْ
 الْمُنْزَلُ عَلَى الرَّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هِدَايَتُهُمْ وَالْإِسْلَامُ دِينُهُمْ قَاتِلُوا عَلَيْهِ وَقَتَلُوا وَاخْتَصَمُوا
 بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَشَرُّفُوا فَتَحَرَّصُونَ عَلَى تَبْلِيغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلأُمَّةِ لَا تَصُدُّهُمْ عَنْهُ لَأِيْمَةُ
 الْكِبَرِ وَلَا يَزَعُهُمْ عَاذِلُ الْأَثَنَةِ وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ بَعَثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارَ
 أَصْحَابِهِ مَعَ وَفُودِ الْعَرَبِ يُعَلِّمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ
 بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْعَشْرَةَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ فَمَا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ وَوَسَّجَتْ عُرُوقُ
 الْمِلَّةِ حَتَّى تَنَاوَلَهَا الْأُمَمُ الْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا وَاسْتَحَالَتْ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ أَحْوَالُهَا
 وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ لِتَعَدُّدِ الْوَقَائِعِ وَتَلَاخُفِهَا فَاجْتَبَاهُ
 ذَلِكَ لِقَانُونٍ يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَايَا وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلَى التَّعَلُّمِ فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ
 الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَصْلِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ وَاشْتَغَلَ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ بِالْقِيَامِ
 بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فَدَفَعَ لِعِلْمٍ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ وَشَخَّصَتْ
 أَنْفُ الْمُتَرَفِّعِينَ وَأَهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّيِّ لِلتَّسْلِيمِ وَاخْتَصَصَ انْتِحَالُهُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ
 وَصَارَ مُنْتَعَلُهُ مُحَقَّرًا عِنْدَ أَهْلِ الْعِمْدِيَّةِ وَالْمُلْكِ وَالْحِجَااجُ بْنُ يُوسُفَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَادَاتِ
 ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَمَكَانَهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهِضَةً فُرَيْشَ فِي الشَّرَفِ مَا عَلِمَتْ وَلَمْ
 يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ إِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْمَعَاشِ وَإِنَّمَا
 كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا مَا يَتَوَقَّعُهُ
 الْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاءِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّئَاسَةِ فِي
 الْحُرُوبِ وَقُودِ الْعَسَاكِرِ فَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ الْعِمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الرُّتَبِ يَحْسَبُونَ أَنَّ
 الشَّانَ خِطَّةُ الْقَضَاءِ إِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ بِأَبْنِ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ

هشام المستبد عليه وآبن عباد من ملوك الطوائف بإشبيلية إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضاء من الكتاب الأول وآبن أبي عامر وآبن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن يبلهم لما نالوه من الرثاسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وأنظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليد عظم الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأخوال على غير ما هي وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعف البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة بفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبية^(١) من البربر فبقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبد لهم القهر ورئوا للمدلة يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصددين لذلك ساعين في نيلها فاما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر فقلما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره . ومن هذا الباب أيضا ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول وتسوي ملوكها فيذكرون أسماء ونسبه وآباء وأمه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون

(١) العصبية بفتحين التعصب وهو ان يلب الرجل عن حريم صاحبه ويشهر عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبية محرقة وهم افارب الرجل من قبل ايو لانهم المدايون عن حريم من هو متهم وفي هذا المعنى ممدوحة واما العصبية المدمومة في الحديث الجاح الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة اخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام نسبة الى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير اقارب ظالما كان او مظلوما وفي النواوي الخيرية من موانع قول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لانه من بني فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهرو هو ارتكاب الحرم في الحديث ليس منا من دعي الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمركبه . قاله الاستاذ ابو الوفاء اه

نَوَارِيحُهُمْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَأَبْنَاؤُهَا مُنْشَوْنُونَ إِلَى سَيْرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَنُوا
 آثَارَهُمْ وَيَتَسَبَّجُوا عَلَى مَنَازِلِهِمْ حَتَّى فِي أَصْطِنَاعِ الرِّجَالِ مِنْ خَلْفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ
 الْخَطِّ وَالْمَرَائِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَالْقَضَاءِ أَيْضًا كَانُوا مِنْ أَهْلِ طَبَقَةِ الدَّوْلَةِ
 وَفِي عِدَادِ الْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْتَاهُ لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ
 الدُّوَلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصُورِ وَوَقَفَ الْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنِسْبِ
 الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا وَغَلَبَتِهَا وَمَنْ كَانَ يُنَاقِضُهَا مِنَ الْأُمَمِ أَوْ يَقْصِرُ عَنْهَا فَمَا
 الْفَائِدَةُ الْمُصَنَّفِ فِي هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَتَقَشِ الْخَاتَمِ وَاللَّقَبِ وَالْقَاضِي
 وَالْوَزِيرِ وَالْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لَا يَعْرِفُ فِيهَا أُصُولَهُمْ وَلَا أَنْسَابَهُمْ وَلَا مَقَامَاتِهِمْ
 إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ التَّقْلِيدُ وَالْعَنْتَلَةُ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ الْأَقْدَمِينَ وَاللَّهْوُ عَنْ تَحَرِّيِ
 الْأَغْرَاضِ مِنَ التَّارِيخِ اللَّهُمَّ إِلَّا ذَكَرَ الْوُزَرَاءَ الَّذِينَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَعَفَتْ عَنْ الْمُلُوكِ
 أَخْبَارُهُمْ كَالْحِجَاجِ وَبَنِي الْمُهَلَّبِ وَالْبُرَايِكَةِ وَبَنِي مَهْلٍ بَنِ نُوحْتٍ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ
 قَابِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَغَيْرُ نَكِيرِ الْأَلْمَاعِ بِأَبْنَائِهِمْ وَالْإِشْلَاقُ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لِانْتِظَامِهِمْ
 فِي عِدَادِ الْمُلُوكِ . وَلَنْذَكُرَ هُنَا فَائِدَةً نَحْنُ كَلَامُنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ بِهَا وَهِيَ أَنَّ التَّارِيخَ
 إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرِ أَوْ جِيلٍ فَأَمَّا ذِكْرُ الْأَحْوَالِ الْكُلِّيَّةِ لِلْأَفَاقِ
 وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ فَهُوَ أَسْهُلُ لِلْمُؤَرِّخِ تَنَبُّيٌّ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَبَيَّنَ بِهِ أَخْبَارُهُ
 وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُفَرِّدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مَرْوَجِ الزُّنُوبِ الَّتِي شَرَعَ
 فِيهِ أَحْوَالَ الْأُمَمِ وَالْأَفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ الثَّلَاثِينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ غَرْبًا وَشَرْقًا وَذَكَرَ
 تَحْلِيمَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ وَالْمَمَالِكَ وَاللُّدُلَ وَفَرَّقَ شُعُوبَ
 الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فَصَارَ إِمَامًا لِلْمُؤَرِّخِينَ بِرُجُوعِهِ إِلَيْهِ وَأَصْلًا يَتَوَلَّوْنَ فِي تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ
 مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ الْبُكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَمَالِكِ وَالْمَمَالِكِ
 خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ الْأُمَمَ وَالْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ يَقَعْ فِيهَا كَثِيرٌ ائْتِقَالَ
 وَلَا عَظِيمٌ تَغْيِيرًا وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَقَدْ ائْتَقَلَّتْ أَحْوَالُ الْمَغْرِبِ
 الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمْلَةِ وَأَعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ الْبُزَيْرِ أُمَّهُ عَلَى الْقِدَمِ بِمَا
 طَرَأَ فِيهِ مِنْ لُبْنِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ وَأَنْزَعُوا مِنْهُمْ
 عَامَّةَ الْأَوْطَانِ وَشَارَكُوهُمْ فِيهَا بَقِيَ مِنَ الْبُلْدَانِ لِمَلِكِهِمْ هَذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمَيْيَيْنِ

شَرْقًا وَغَرْبًا فِي مُنْتَهَى هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الطَّاعُونَِ الْجَارِفِ الَّذِي تَحِيَّتِ الْأُمَمَ
وَذَهَبَ بِأَهْلِ الْجِيلِ وَطَوَى كَثِيرًا مِنْ مُحَاسِنِ الْعُمَرَانِ وَمَحَاها وَجَاءَ لِلدُّوَلِ عَلَى حِينِ
هَرَمِهَا وَبُلُوغِ الْفَايَةِ مِنْ مَدَامَا فَقَلَصَ مِنْ ظِلَالِهَا وَقَلَّ مِنْ حَدِّهَا وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا
وَتَدَاعَتْ إِلَى التَّلَاثِي وَالْأَضْمِحْلَالِ أَمْوَالُهَا وَانْتَقَضَ عُمُرَانُ الْأَرْضِ بِانْتِقَاضِ الْبَشَرِ
فَغَرِبَتِ الْأَمْصَارُ وَالْمَصَانِعُ وَدُرِسَتِ السُّبُلُ وَالْمَعَالِمُ وَخَلَّتِ الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ وَضَعَتِ
الدُّوَلُ وَالْقَبَائِلُ وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ وَكَانِي بِالْمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ
لِيَكُنْ عَلَى نِسْبَتِهِ وَمِقْدَارِ عُمُرَانِهِ وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانُ الْكَوْنِ فِي الْعَالَمِ بِالْخُمُولِ
وَالْانْقِبَاضِ فَبَادَرَ بِالْإِجَابَةِ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ
جُمْلَةً فَكُنَّا نَمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ وَكَأَنَّهُ خَلَقَ جَدِيدًا نَشَأَةً
مُسْتَأْنَفَةً وَدَعَا مُخَدَّثٌ فَاحْتَاجَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَنْ يُدَوِّنُ أَجْوَالَ الْخَلْقَةِ وَالْآفَاقِ وَأَجْيَالِهَا
وَالْعَوَالِدِ وَالنَّحْلِ الَّتِي تَبَدَّلَتْ لِأَهْلِهَا وَيَقْبُو مَسَلَكَ الْمَسْعُودِي لِعَصْرِهِ لِيَكُونَ أَحَدًا يَتَقَدَّى
بِهِ مَنْ يَأْتِي مِنَ الْوُزَخِينِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَا ذَا كَرٍّ فِي كِتَابِي هَذَا مَا أَمْكُنِي مِنْهُ فِي هَذَا
الْقَطْرِ الْمَغْرِبِيِّ إِمَّا صَرِيحًا أَوْ مُتَدَرِّجًا فِي أَخْبَارِهِ وَتَلَوِيحًا لِإِخْتِصَاصِ قَصْدِي فِي
التَّأْلِيفِ بِالْمَغْرِبِ وَأَحْوَالِ أَجْيَالِهِ وَأُمَمِهِ وَذِكْرِ مَمَالِكِهِ وَدَوْلِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنْ
الْأَقْطَارِ لِعَدَمِ أَطْلَاعِي عَلَى أَحْوَالِ الْمَشْرِقِ وَأُمَمِهِ وَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَنَاقِلَةَ لَا تَنِي كُنْهَ
مَا أُرِيدُهُ مِنْهُ وَالْمَسْعُودِي إِنَّمَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ لِبُعْدِ رَحْلَتِهِ وَثِقَلِهِ فِي الْبِلَادِ كَمَا ذَكَرَ
فِي كِتَابِهِ مَعَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَرَ فِي اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
عَلِيمٍ وَتَرَدُّ الْعِلْمِ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ وَالْبَشَرُ عَاجِزٌ قَاصِرٌ وَالْاعْتِرَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ وَمَنْ كَانَ
اللَّهُ فِي عَوْنِهِ تَبَسَّرَتْ عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ وَأَنْجَحَتْ لَهُ الْمَسَاعِي وَالْمَطَالِبُ وَنَحْنُ آخِذُونَ
بِعَوْنِ اللَّهِ فِيمَا رُمِّنَا مِنْ أَغْرَاضِ التَّأْلِيفِ وَاللَّهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ وَعَلَيْهِ التَّوَكُّلُ
وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَبَسَتْ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ
إِذَا عَرَضَتْ فِي كِتَابِنَا هَذَا

إِذْ عَلِمْنَا أَنَّ الْحُرُوفَ فِي التَّلَطُّقِ كَمَا يَأْتِي شَرْحُهُ بَعْدُ هِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْخَارِجَةِ
مِنَ الْحَجَرَةِ تَعْرِضُ مِنْ تَقْطِيعِ الصَّوْتِ بِقَرْعِ اللِّهَاءِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ الْحَنَكِ وَالْحَلْقِ
وَالْأَضْرَاسِ أَوْ بِقَرْعِ الشِّفَتَيْنِ أَيْضًا فَتَتَغَايَرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ بِتَغَايُرِ ذَلِكَ الْقَرْعِ

وتنجي الحروف متميزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر
وليسست الأسم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد يكون لأمة من الحروف ما
ليس لأمة أخرى والحروف التي نطق بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفا كما عرفت
ونجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا وفي لغتنا أيضا حروف ليست في لغتهم وكذلك
الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ثم إن أهل الكتاب من العرب
اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المستعملة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها
كوضع ألف وباء وجيم وراه وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين وإذا عرض لهم
الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملًا عن الدلالة الكتابية مغلًا عن البيان
وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتبه من لغتنا قبله أو بعده
وليس يكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله ولما كان كتابنا مشتعلًا على
أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسماءهم أو بعض كلماتهم حروف
ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه ولم نكتب برسم
الحرف الذي يليه كما قلناه لأنه عندنا غير وافي بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا
على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتبانه ليتوسط
القارىء بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته وإنما اقتبست ذلك من
رسم أهل المصنف حروف الأشمام كالصراط في قراءة خلف فإن النطق بصاده
فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي
ودل ذلك عندهم على المتوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين
حرفين من حروفنا كالصراط المتوسط عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا
والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كفا وأقطعها بنقطة الجيم واحدة من أسفل
أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو اثنتين فدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف
والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى
هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارىء
أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد
عن جانيه لكان قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا

لُغَةِ الْقَوْمِ فَأَعْلَمَ ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

الكتاب الاول

في طبيعة العمران في الخليفة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب
والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

إِعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ النَّارِ بِخَبَرِ أَنَّهُ خَبَرٌ عَنِ الْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ
عُمُرَانُ الْعَالَمِ وَمَا يَعْضُ لَطَبِيعَةِ ذَلِكَ الْعُمُرَانِ مِنَ الْأَحْوَالِ مِثْلِ التَّوَحُّشِ وَالنَّاسِ
وَالْعَصِيَّاتِ وَأَصْنَافِ الثَّغَلَاتِ لِلْبَشَرِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُلْكِ
وَالدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا وَمَا يَتَحَلُّهُ الْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِنَ الْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالْعُلُومِ
وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ الْعُمُرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَلَمَّا كَانَ الْكُذِبُ
مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ أَسْبَابٌ مُقْتَضِيَةٌ . فَمِنْهَا التَّشَبُّهُاتُ لِلْأَرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ فَإِنَّ
النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الْإِعْتِدَالِ فِي قَبُولِ الْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَّخْيِصِ وَالنَّظَرِ
حَتَّى تَبَيَّنَ صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ وَإِذَا خَامَرَهَا تَشَبُّهُ لِرَأْيٍ أَوْ نَحْلَةٍ قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنْ
الْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ وَالتَّشَبُّهُ غَطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ الْإِنْتِقَادِ
وَالتَّخْيِصِ فَتَقَعُ فِي قَبُولِ الْكُذِبِ وَتَقْلِبُهُ . وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكُذِبِ فِي الْأَخْبَارِ
إِيضًا الثِّقَةُ بِالنَّافِلِينَ وَتَخْيِصُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّجَرُّعِ . وَمِنْهَا الدُّهُولُ عَنْ
الْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّافِلِينَ لَا يَعْرِفُ الْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ وَيَنْقُلُ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِي
ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فِي الْكُذِبِ . وَمِنْهَا تَوَهُُّ الصَّدَقِ وَهُوَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي الْأَكْثَرِ
مِنْ جِهَةِ الثِّقَةِ بِالنَّافِلِينَ وَمِنْهَا الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الْأَحْوَالِ عَلَى الْوَقَائِعِ لِأَجْلِ مَا يُدْخِلُهَا مِنَ
الْغُلْبِ وَالتَّصْنَعِ فَيَنْقُلُهَا الْخَبِيرُ كَمَا رَأَاهَا وَهِيَ بِالتَّصْنَعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي تَسْوِيهِ . وَمِنْهَا
قُرْبُ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ التَّجَلُّةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ
وَإِشَاءَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ فَيَسْتَفِيزُ الْأَخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ فَالْنَفْسُ مُوَلَّعةٌ بِحُبِّ
الثَّنَاءِ وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فِي الْأَكْثَرِ بِرَاضِينَ
فِي الْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا . وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضًا وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى
تَجْمِيعِ مَا تَقْدَمُ الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الْأَحْوَالِ فِي الْعُمُرَانِ فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ

ذَاتَا كَانَ أَوْ فِعْلًا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخْصُهُ فِي ذَاتِهِ وَفِيهَا يَعْزِضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَإِذَا
 كَانَ السَّامِعُ عَارِفًا بِطَبَائِعِ الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ فِي الْوُجُودِ وَمُقْتَضِيَاتِهَا أَعَانَهُ ذَلِكَ فِي
 تَمْيِيزِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنَ الْكُذِّبِ وَهَذَا أُبْلَغُ فِي التَّخْيِصِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
 يَعْزِضُ وَكَثِيرًا مَا يَعْزِضُ السَّامِعِينَ قَبُولُ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ وَبَتَقْلُوبِهَا وَتَوَثُّرُ عَنْهُمْ كَمَا
 نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ عَنْ الْأَسْكَدَرِ لَمَّا صَدَنَهُ دَوَابُّ الْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ الْأَسْكَدَرِيَّةِ وَكَيْفَ
 اخْتَذَ صُنْدُوقَ الرُّجَاجِ وَغَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ الدَّوَابَّ الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي
 رَأَاهَا وَعَمِلَ تَمَائِيلَهَا مِنْ أَجْسَادِ مَعْدِنِيَّةٍ وَنَصَبَهَا حِذَاءَ الْبَنِيَانِ فَفَرَّتْ تِلْكَ الدَّوَابُّ حِينَ
 خَرَجَتْ وَعَابَتْهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةِ طَرِيقَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ خُرَافَةِ مُسْتَحِيلَةٍ مِنْ قَبْلِ
 اخْتِزَافِ النَّابُوتِ الرُّجَاجِيِّ وَمُصَادَمَةِ الْبَحْرِ وَأَمَاجِهِ يَجْرِيهِ وَمِنْ قَبْلِ أَنَّ الْمُلُوكَ لَا تَحْمِلُ
 أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغُرُورِ وَمَنْ اعْتَمَدَهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ وَانْتِفَاضِ
 الْعُقَدَةِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ إِتْلَافُهُ وَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ
 ذَلِكَ طَرَفَةٌ عَيْنٍ وَمِنْ قَبْلِ أَنَّ الْجِنَّ لَا يُعْرِفُ لَهَا صُورًا وَلَا تَمَائِيلُ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ
 قَادِرَةٌ عَلَى التَّشَكُّلِ وَمَا يَذْكُرُ مِنْ كَثَرَةِ الرُّؤُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْبَشَاعَةُ
 وَالشَّهْرِبِيلُ لَا أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهَذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَالْقَادِحُ الْخُفِيلُ لَهَا مِنْ
 طَرِيقِ الْوُجُودِ أُبَيِّنُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ وَهُوَ أَنَّ الْمُنْفِيسَ فِي الْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي الصُّنْدُوقِ
 يَفِيقُ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ لِلتَّنَفُّسِ الطَّبِيعِيِّ وَتَسْتَحْنُ رُوحَهُ بِسُرْعَةٍ لِقَلْبِهِ فَيَفْقَدُ صَاحِبَهُ الْهَوَاءُ
 الْبَارِدَ الْمُعَدِّلَ لِمِزَاجِ الرِّثَةِ وَالرُّوحِ الْقَلْبِيِّ وَيَهْلِكُ مَكَانَهُ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي هَلَاكِ
 أَهْلِ الْحَمَامَاتِ إِذَا أُطِيقَتْ عَلَيْهِمْ عَنِ الْهَوَاءِ الْبَارِدِ وَالْمُتَدَلِّينَ فِي الْآبَارِ وَالْمَطَامِيرِ
 التَّحْقِيقَةُ الْمَهْوَى إِذَا تَحْنَنَ هَوَاؤُهَا بِالْعُقُونَةِ وَلَمْ تُدَاخِلْهَا الرِّيحُ فَتُخْلِطُهَا فَإِنَّ الْمُنْدَلِيَّ
 فِيهَا يَهْلِكُ لِحَيْنِهِ وَبِهَذَا السَّبَبِ يَكُونُ مَوْتُ الْحَوْتِ إِذَا فَارَقَ الْبَحْرَ فَإِنَّ الْهَوَاءَ لَا يَكْفِيهِ
 فِي تَعْدِيلِ رِثَتِهِ إِذْ هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ وَالْمَاءُ الَّذِي يُعَدِّلُهُ بَارِدٌ وَالْهَوَاءُ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ
 حَارٌّ فَيَسْتَوِلِي الْحَارُّ عَلَى رُوحِهِ الْحَيَوَانِيِّ وَيَهْلِكُ دَفْعَةً وَمِنْهُ هَلَاكِ الْمَصْرُوفِينَ وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ وَمِنْ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا فِي تِمَثَالِ الرُّزْزُورِ الَّذِي بِرُومَةٍ
 تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الرُّزَاذِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ حَامِلَةً لِلزَّيْتُونِ وَمِنْهُ يُتَّخَذُونَ زَيْتَهُمْ
 وَانْظُرْ مَا أَبْعَدَ ذَلِكَ عَنِ الْحَجَرِ الطَّبِيعِيِّ فِي اخْتِزَافِ الزَّيْتِ وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ الْبَصْرِيُّ

فِي بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الْمَسَامَةِ ذَاتِ الْأَبْوَابِ تَحِيطُ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَحَلَةً وَتَشْتَمِلُ عَلَى
 عَشْرَةِ آلَافِ بَابٍ وَالْمَدُنُ إِنَّمَا اسْتُخِدَّتْ لِلتَّحَصُّنِ وَالْإِعْتِصَامِ كَمَا يَأْتِي وَهَذِهِ خَرَجَتْ
 عَنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا فَلَا يَكُونُ فِيهَا حُصْنٌ وَلَا مُعْتَصِمٌ وَكَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا فِي حَدِيثٍ
 مَدِينَةُ الثُّعَاسِ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ كُلُّ بِنَائِهَا تُحَاسِبُ بِصَحْرَاءَ مِجْلَمَاسَةٍ ظَفَرٌ بِهَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ
 فِي غَزْوَتِهِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَنَّهَا مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ وَأَنَّ الصَّاعِدَ إِلَيْهَا مِنْ أَسْوَارِهَا إِذَا أَشْرَفَ
 عَلَى الْحَائِطِ صَفَقَ وَرَمَى بِنَفْسِهِ فَلَا يَرْجِعُ آخِرَ الدَّهْرِ فِي حَدِيثٍ مُسْتَحِيلٍ عَادَةً مِنْ
 خُرَافَاتِ الْقُصَاصِ وَصَحْرَاءَ مِجْلَمَاسَةٍ قَدْ نَقَضَهَا الرُّكْبُ وَالْأَدْلَاءُ وَلَمْ يَقْنُوا لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ
 عَلَى خَبَرٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الَّتِي ذَكَرُوا عَنْهَا كُلُّهَا مُسْتَحِيلٌ عَادَةً مُنَافٍ لِلْأُمُورِ
 الطَّبِيعِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْمَدُنِ وَاخْتِطَاطِهَا وَأَنَّ الْمَعَادِنَ غَايَةُ الْمَوْجُودِ مِنْهَا أَنْ يُصْرَفَ فِي
 الْآلِيَةِ وَالْخُرْنِيِّ "وَأَمَّا تَشْيِيدُ مَدِينَةٍ مِنْهَا فَكَمَا تَرَاهُ مِنْ الْأَسْتِحَالَةِ وَالْبُعْدِ وَأَمثالُ
 ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَتَحْيِصُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ طِبَائِعِ الْعُمَرَانِ وَهُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ وَأَوْثَقُهَا
 فِي تَحْيِصِ الْأَخْبَارِ وَتَمْيِيزِ صِدْقِهَا مِنْ كَذِبِهَا وَهُوَ سَابِقٌ عَلَى التَّحْيِصِ بِتَعْدِيلِ الرُّوَاةِ
 وَلَا يُرْجَعُ إِلَى تَعْدِيلِ الرُّوَاةِ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الْخَبَرَ فِي نَفْسِهِ مُمَكِّنٌ أَوْ مُمْتَنِعٌ وَأَمَّا
 إِذَا كَانَ مُسْتَحِيلًا فَلَا فَائِدَةَ لِلنَّظَرِ فِي التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيعِ وَلَقَدْ عَدَّ أَهْلُ النَّظَرِ مِنَ
 الْمَطَاعِينَ فِي الْخَبَرِ اسْتِحَالَةَ مَذْلُولِ اللَّفْظِ وَتَأْوِيلَهُ بِمَا لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ وَإِنَّمَا
 كَانَ التَّعْدِيلُ وَالتَّجْرِيعُ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي صِحَّةِ الْأَخْبَارِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا تَسْكَالِيفُ
 إِنشَائِيَّةٌ أَوْجَبَ الشَّارِعُ الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى حَصَلَ الظَّنُّ بِصِدْقِهَا وَسَبِيلُ صِحَّةِ الظَّنِّ التَّيَقُّنُ
 بِالرُّوَاةِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ . وَأَمَّا الْأَخْبَارُ عَنِ الْوَاقِعَاتِ فَلَا بُدَّ فِي صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا مِنْ
 اعْتِبَارِ الْمُطَابَقَةِ فَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي إِمْكَانِ وَقُوعِهِ وَصَارَ فِيهَا ذَلِكَ أَمٌّ مِنْ
 التَّعْدِيلِ وَمُقَدِّمًا عَلَيْهِ إِذَا فَائِدَةُ الْإِنْشَاءِ مُقْتَبَسَةٌ مِنْهُ فَقَطْ وَفَائِدَةُ الْخَبَرِ مِنْهُ وَمِنْ الْخَارِجِ
 بِالْمُطَابَقَةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْقَانُونُ فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ بِالْإِمْكَانِ
 وَالْإِسْتِحَالَةِ أَنْ تَنْظُرَ فِي الْأَجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي هُوَ الْعُمَرَانُ وَتُمَيِّزَ مَا يُلْحَقُهُ مِنَ
 الْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَبِمُقْتَضَى طَبِيعِهِ وَمَا يَكُونُ عَارِضًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ وَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرْضَى
 لَهُ وَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ لَنَا قَانُونًا فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ وَالصِّدْقِ

مِنَ الْكَذِبِ بِوَجْهِ بُرْهَانِي لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ
 الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمَرَانِ عَلِمْنَا مَا نَحْكُمُ بِقَبُولِهِ مِمَّا نَحْكُمُ بِتَرْكِيفِهِ وَكَانَ ذَلِكَ
 لَنَا مَعْيَارًا مَعْيُومًا يَجْرِي بِهِ الْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ الصَّدَقِ وَالصَّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ وَهَذَا هُوَ
 غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ مِنْ تَأْلِيفِنَا وَكَانَ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِيلٌ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ
 وَهُوَ الْعُمَرَانُ الْبَشَرِيُّ وَالْإِجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِيُّ وَذَوُ مَسَائِلٍ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْعَوَارِضِ
 وَالْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَضَعِيًّا كَانَ أَوْ
 عَقْلِيًّا. وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْغَرَضِ مُسْتَعِدٌّ الصَّنْعَةِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْفَائِدَةِ
 اعْتَرَّ عَلَيْهِ الْبَحْثُ وَأَدَّى إِلَيْهِ الْغَوْصُ وَلَبَسَ مِنْ عِلْمِ الْخِطَابَةِ إِنَّمَا هُوَ الْأَقْوَالُ الْمَقْنَعَةُ
 النَّافِعَةُ فِي أَسْئَالَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدَمٍ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ
 الْمَدِينَةِ إِذِ السِّيَاسَةُ الْمَدِينَةُ هِيَ تَدْبِيرُ الْمَنْزِلِ أَوِ الْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى الْأَخْلَاقِ
 وَالْحِكْمَةِ لِيُجْمَلَ الْجُمْهُورُ عَلَى مِنْهَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ النَّوعِ وَبِقَاوُهُ فَقَدْ خَالَفَ
 مَوْضُوعُهُ مَوْضُوعَ هَذَيْنِ الْفَنَيْنِ الَّذِينَ رُبَّمَا يُشَبَّهَانِ وَكَانَهُ عِلْمٌ مُسْتَبْطُ النَّشْأَةِ وَلَعَمْرِي
 لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنَاحِهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ مَا أَذْرِي الْغَفْلَتِهِمْ عَنْ ذَلِكَ وَلَبَسَ
 الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا فَالْعُلُومُ كَثِيرَةٌ
 وَالْحِكْمَاءُ فِي أَمَمِ النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنَ الْعُلُومِ أَكْثَرُ
 مِمَّا وَصَلَ فَأَيْنَ عُلُومُ الْفَرَسِ الَّتِي أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِحَقْوِهَا عِنْدَ الْفَتْحِ وَأَيْنَ عُلُومُ
 الْكِلْدَانِيِّينَ وَالسَّرِيبَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَنَتَائِجِهَا وَأَيْنَ عُلُومُ
 الْقُبَطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانٌ خَاصَّةً لِكُلِّ الْمَأْمُونِ
 بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لُغَتِهِمْ وَافْتِدَارِهِ عَلَى ذَلِكَ بِكَثَرَةِ الْمُتَرْجِمِينَ وَبَذَلِ الْأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ
 نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومٍ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ مُتَعَلِّقَةً طَبِيعِيَّةً بِصَلْحٍ أَنْ يُبْحَثَ
 عَمَّا يَعْزِضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِأَعْيَانٍ كُلِّ مَقْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٍ
 مِنَ الْعُلُومِ بِمَخْصَصَةٍ لِكِنَّ الْحِكْمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا لَاحَظُوا فِي ذَلِكَ الْعِنَايَةَ بِالشَّمَرَاتِ وَهَذَا
 إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي الْأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي اخْتِصَاصِهَا
 شَرِيفَةً لَكِنَّ ثَمَرَتَهُ تَصْغِيحُ الْأَخْبَارِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ فَلِهَذَا هَجَرُوهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَمَا أُوْنِيْمُ
 مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا. وَهَذَا الْفَنُ الَّذِي لَاحَ لَنَا النَّظَرُ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي بِالْغَرَضِ

لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما
 يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم
 فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات
 اللغات أن الناس يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان
 العبارات أخذ ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد
 في أن الزنا مخلط لئلا يناسب مفسد للنوع وأن القتل أيضا مفسد للنوع وأما الظلم
 مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية
 في الأحكام فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لما انظر فيما يعرض
 له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة وكذلك أيضا يقع إلينا القليل
 من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليفة لكنهم لم يستوفوه فمن كلام
 الموبدان بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي: أيها الملك إن
 الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا
 قوام للشرعية إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال
 ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان
 المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قیما وهو الملك. ومن كلام أنوشروان
 في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة
 والعمارة بالعدل والعدل بإصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء
 ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها
 ولا تملكه. وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء
 صالح منه إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار
 في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبدان وأنوشروان وجعلها
 في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها هو قوله: العالم بستان سياجه النولة النولة
 سلطان تحيا به السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند
 الجند أعوان يكلهم المال المال رزق تجمععه الرعية الرعية عبيد يكتفهم العدل
 العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع إلى أول الكلام: فهذه ثمان

كَلِمَاتٍ حِكْمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ أَرْتَبَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَأَرْتَدَّتْ أُعْجَازُهَا إِلَى صُدُورِهَا وَاتَّصَلَتْ
فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَعَيَّنُ حَارِفُهَا غَيْرَ بِثُورِهِ عَلَيْهَا وَعَظَمَ مِنْ قَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ
كَلَامَنَا فِي فِصْلِ الدُّوَلِ وَالْمَلِكِ وَأَعْلَانَةِ حَقِّهِ مِنَ التَّشْرِيعِ وَالتَّهْلُكَةِ عَدَّتْ فِي أَثْنَائِهِ
عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى . بَيْنَمَا بِأَوْعَبِ بَيَانٍ وَأَوْفَحِ دَلِيلٍ
وَبُرْهَانٍ أَطْلَعْنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ أَرْسَلُوا وَلَا إِفَادَةٍ وَبَيِّنَاتٍ وَكَذَلِكَ تَجِدُ فِي
كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَهُوَ ابْتِطَارُ فِي رِسَالَتِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرَةِ مِنْ مَسَائِلِ
كِتَابِنَا هَذَا غَيْرَ بُرْهَانَةٍ كَمَا بَرَهْنَاهُ إِنَّمَا يُعْلِيهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنَعِ الْخَطَأِ فِي أَسْأَلِ
النَّزْلِ وَبَلَاغَةِ الْكَلَامِ وَكَذَلِكَ حَوَمَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِيُّ فِي كِتَابِ
مِرَاجِ الْمُلُوكِ وَبَوَّهَ عَلَى أَبْوَابِ تَقَرُّبٍ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هَذَا وَمَسَائِلِهِ لَمْ يَكُنْ لَمْ
يُصَادَفْ فِيهِ الرَّمِيَّةُ وَلَا أَصَابَ الشَّاكِلَةُ وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ وَلَا أَوْفَحَ الْأَدِلَّةُ إِنَّمَا
يُؤَيِّدُ الْبَابَ لِلْمَسْئَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَيَنْقُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً
لِعُكْمَاءِ الْأَرْسِ مِثْلَ بَزْزَجْمَرٍ وَالْمَوْبَذَانِ وَحُكْمَاءِ الْهَذِيرِ وَالْحَاثُورِ عَنْ دَائِرَةِ
وَهْزَمٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكْبَرِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ فَنَاعًا وَلَا يَرْفَعُ الْبَوَاهِينَ
الطَّبِيعِيَّةَ حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ ثَقُلٌ وَتَرْكِيبٌ شَبِيهُ بِالْمَوَاعِظِ وَكَأَنَّهُ حَوَمٌ عَلَى الْغَرَضِ وَلَمْ
يُصَادَفْهُ وَلَا تَحَقَّقْ قَصْدُهُ وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ أَلَمْنَا اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ إِنْهَاءً وَأَعَثَرْنَا
عَلَى عِلْمِهِ جَعَلْنَا بَيْنَ نُكْرَةٍ وَجُهْدَةٍ خَبَرَهُ فَإِنْ كُنْتُ قَدْ اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ وَمَبَزَّتْ مِنْ
سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْفَعَهُ فَيُوفِّقُ مِنْ اللَّهِ وَهِدَايَةً وَإِنْ قَاتَنِي بَيْتٌ فِي إِحْصَائِهِ
وَأَشْتَبَهَتْ بِغَيْرِهِ فَلِلنَّظَرِ الْحَقِيقِيِّ إِصْلَاحُهُ وَلِي الْفَضْلُ لِأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَعْتُ
لَهُ الطَّرِيقَ وَاللَّهُ يَهْدِي بَنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ . وَنَحْنُ الْآنَ بَيْنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَعْرِضُ
لِلبَشَرِ فِي أَحْتِمَائِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الثَّمَرَانِ فِي الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَوُجُودِ
بُرْهَانِيَّةٍ يَتَضَعُ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْاَلَاوَهُامُ وَتُرْفَعُ
الشُّكُوكُ . وَتَقُولُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمَيِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِمَخَوَاصٍ اخْتَصَتْ بِهَا
فِيهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشَرَفَ بِوَصْفِهِ عَلَى
الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحُكْمِ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِذَا لَا يُمَكِّنُ وَجُودُهُ
دُونَ ذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنْ النُّحْلِ وَالْجُرَادِ وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا

مِثْلُ ذَلِكَ فَيُطَرِّقُ الْهَامِي لَا يَفْكُرُ وَرَوِيَّةٌ وَمِنْهَا السَّعْيُ فِي الْمَعَاشِ وَالْإِعْتِمَالُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وَجُوهِهِ وَأَكْتِسَابُ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْإِفْتِقَارِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَدَاهُ إِلَى التَّيَاسِهِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَمِنْهَا الْعُمُرَانُ وَهُوَ التَّنَازُلُ فِي مِصْرٍ أَوْ حِلَّةٍ لِلْأَنْسِ بِالْعَشِيرِ وَاقْتِضَاءُ الْحَاجَاتِ لِمَا فِي طَبَاعِهِمْ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْمَعَاشِ كَمَا نَبَّيْنَهُ وَمِنْ هَذَا الْعُمُرَانُ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي الْأَصْوَاحِ وَفِي الْجِبَالِ وَفِي الْحِلَلِ الْمُنْتَجِعَةِ فِي الْفَقَارِ وَأَطْرَافِ الرِّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضَرِيًّا وَهُوَ الَّذِي بِالْأَمْصَارِ وَالْقُرَى وَالْمَدِينِ وَالْمَدَرِ لِلْإِعْتِصَامِ بِهَا وَالتَّحَصُّنِ بِمُحْدَرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ أُمُورٌ تَعْرِضُ مِنْ حَيْثُ الْإِجْتِمَاعُ عُرُوضًا ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جُرْمَ أَنْتَحَصَرَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ . الْأَوَّلُ فِي الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ الْأَرْضِ . وَالثَّانِي فِي الْعُمُرَانِ الْبَدَوِيِّ وَذِكْرُ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ الْوَحْشِيَّةِ . وَالثَّالِثُ فِي الدُّوَلِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَذِكْرُ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالرَّابِعُ فِي الْعُمُرَانِ الْحَضَرِيِّ وَالْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ . وَالْخَامِسُ فِي الصَّنَائِعِ وَالْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ . وَالسَّادِسُ فِي الْعُلُومِ وَأَكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا . وَقَدْ قَدَّمْتُ الْعُمُرَانِ الْبَدَوِيِّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى حَمِيْعِهَا كَمَا نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدُ وَكَذَا نَقْدِمُ الْمُلْكَ عَلَى الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَأَمَّا نَقْدِمُ الْمَعَاشِ فَلِأَنَّ الْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ كَالِيٍّ أَوْ حَاجِيٍّ وَالطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ الْكِمَالِيِّ وَجَعَلْتُ الصَّنَائِعَ مَعَ الْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ يَبْعُضُ الْوُجُوهِ وَمِنْ حَيْثُ الْعُمُرَانُ كَمَا نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدُ وَاللَّهُ الْمُؤْتِقُ لِلصَّوَابِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ

الفصل الأول

من الكتاب الأول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الأولى في أَنَّ الْإِجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَبُعْبُورُ الْحِكْمَاءِ عَنْ هَذَا يَقُولُهُمُ الْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِأَلْمِيعِ أَيَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ الْمَدِينَةُ فِي أَصْطِلَاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى الْعُمُرَانِ وَبَيَّانُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصِحُّ

حَيَاتُهَا وَبَقَاؤُهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ وَهَدَاهُ إِلَى الْإِنْسَانِ بِفِطْرَتِهِ وَبِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْصِيلِهِ إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاحِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْغِذَاءِ غَيْرُ مُؤْنِيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَقَلَّ مَا يُمكنُ فَرَضُهُ وَهُوَ قُوَّةُ يَوْمٍ مِنَ الْحِنِطَةِ مَثَلًا فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلَاجٍ كَثِيرٍ مِنَ الطَّخَنِ وَالْعَجْنِ وَالطَّبْخِ وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَحْتَاجُ إِلَى مَوَاعِينٍ وَأَلَاتٍ لَا نَتِمُّ إِلَّا بِصِنَاعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ حَدَادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاخُورِيٍّ وَهَبَّ أَنَّهُ بِأَكْثَلِهِ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ فَهُوَ أَيْضًا يَحْتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ أَيْضًا حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرُ مِنْ هَذِهِ مِنَ الزَّرْعَةِ وَالْحِصَادِ وَالْدِّرَاسِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّبُلِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلَاتِ مُتَعَدِّدَةً وَصِنَائِعَ كَثِيرَةً أَكْثَرُ مِنَ الْأَوَّلَى بِكَثِيرٍ وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَنِي بِذَلِكَ كُلُّهُ أَوْ يَبْقِضَهُ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ وَلَا بُدَّ مِنْ أَجْتِمَاعِ الْقُدْرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ لِيَحْصُلَ الْقُوَّةُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْصُلُ بِالْتَّعَاوُنِ قُدْرُ الْكَفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لَا كَثَرُ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ الطَّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا وَقَسَمَ الْقُدْرَ بَيْنَهَا جَعَلَ حُظُوظَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حَظِّ الْإِنْسَانِ فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ مَثَلًا أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثَّوْرِ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا كَانَ الْعُدْوَانُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانِ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عُضْوًا يَخْتَصُّ بِمُدَافَعَتِهِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةٍ غَيْرِهِ وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ عِوَضًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ فَالْيَدُ مِهْنَةٌ لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ وَالصَّنَائِعُ تَحْصِلُ لَهُ الْأَلَاتِ الَّتِي تُنَوِّبُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفَاعِ مِثْلَ الرِّمَاحِ الَّتِي تُنَوِّبُ عَنِ الْقُرُونِ النَّالِطِحَةِ وَالسُّيُوفِ النَّائِبَةِ عَنِ الْحَخَالِبِ الْجَارِحَةِ وَالنَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَغَيْرُهُ مِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا يُقَاوِمُ قُدْرَتَهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ سِوَمَا الْمُفْتَرَسَةِ فَهُوَ عاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَحَدَهُ بِالْجَمَلَةِ وَلَا تَنِي قُدْرَتُهُ أَيْضًا بِأَسْتِعْمَالِ الْأَلَاتِ الْمُعَدَّةِ لَهَا فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا غِذَاءٌ وَلَا نَتِمَّ حَيَاتُهُ لِمَا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا

دِفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِفَقْدَانِ السِّلَاحِ فَيَكُونُ فَرِيَسَةً حَيَوَانَاتٍ وَيُعَاجِلُهُ الْهَلَاكُ عَنْ مَدَى
حَيَاتِهِ وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلْغِذَاءِ وَالسِّلَاحُ لِلْمُدَافَعَةِ
وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بَقَائِهِ وَحِفْظِ نَوْعِهِ فَإِذَا هَذَا الْاجْتِمَاعُ ضَرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ
وَالْأَلَمْ يَكْمُلُ وُجُودُهُمْ وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ اعْتِمَادِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَأَسْتَخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ وَهَذَا
هُوَ مَعْنَى الْعُمُرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعًا لِهَذَا الْعِلْمِ وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ اثْبَاتٍ
لِلْمَوْضُوعِ فِي فَنِّهِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى صَاحِبِ الْقَرْنِ لِمَا
تَقَرَّرَ فِي الصَّنَاعَةِ الْمُنَطْقِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ اثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ
فَلَيْسَ أَيْضًا مِنَ الْمَمْنُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ اثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ وَاللَّهُ الْمُوفِيُّ بِفَضْلِهِ
ثُمَّ إِنْ هَذَا الْاجْتِمَاعُ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمُرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ
وَارِعٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي طِبَاعِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَلَيْسَتْ
السِّلَاحُ الَّتِي جُعِلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ
عَنْهُمْ لِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ لِجَمِيعِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَلَا
يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَإِلْهَامَاتِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَارِعُ
وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمُ الْقَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى
غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمَلِكِ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ لِلْإِنْسَانَ خَاصَّةً طَبِيعَةً
وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوْجَدُ فِي بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحَكَمَاءُ كَمَا فِي
النَّحْلِ وَالْجُرَادِ لِمَا اسْتَقَرَّ فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْإِتْقَادِ وَالِاتِّبَاعِ لِرَأْسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا
مُتَمَيِّزٍ عَنْهُمْ فِي خَلْقِهِ وَجُثَانِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ
رَاحِلًا لَا بِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هُدِيَ وَتَزِيدُ الْفَلَسِيفَةُ
عَلَى هَذَا الْبُرْهَانِ حَيْثُ يُحَاوَلُونَ اثْبَاتَ النُّبُوَّةِ بِالْأَدْلِيلِ الْعَقْلِيِّ وَأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعَةٌ
لِلْإِنْسَانِ فَيَقَرُّ رُؤُونُ هَذَا الْبُرْهَانِ إِلَى غَايَةٍ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ الْوَارِعِ
ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرْعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِأَنِّي بِهِ وَاحِدٌ
مِنَ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصٍ هِدَايَتِهِ
لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ انْكَارٍ وَلَا تَرْيَفٍ
وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحَكَمَاءِ غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ إِذَا الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ أَتَمَّ مِنْ

دُونَ ذَلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِالْعَصِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَتِهِ قَاطِلُ الصُّكَّتَابِ وَالْمَشْبُوعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النُّجُوسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَانْتَهَمَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ الدُّوَلُ وَالْآثَارُ فَضْلًا عَنِ الْحَيَاةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِمِ الْمُتَعَرِّفَةِ فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِجٍ لَهُمْ الْبَتَّةُ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُهُمْ فِي وَجُوبِ النُّبُوتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِي وَإِنَّمَا مَذْرُوعُ الشَّرْعِ كَمَا هُوَ مَذْعَبُ السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه

من الاشجار والانهار والاقاليم

إِعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاطِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ كُرْوِيٌّ وَأَنَّهَا مُحْفُوفَةٌ بِمَنْصَرِّ الْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَانْتَحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمْرَانِهَا بِالنُّوعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يَتَوَسَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا اتَّخَذَ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسَطُ كُرَّتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَالْمَكْلُ بَطْلُهُ بِمَا لِيهِ مِنَ الثَّقَلِ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا الَّذِي انْتَحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ حَاطَ الْعَنْصَرُ الْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بِمَجَرِّائِ السَّيِّ وَالْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَيُسَمَّى أَيْضًا بِلَبَّاهِ بِتَفْخِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أَوْفِيَانُوسَ أَسْمَاءُ أُعْجَسِيَّةٌ وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشِفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمُرَانِ فِيهِ الْفَنَارُ وَالْخَلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِهِ وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَإِنَّمَا الْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمِيلٌ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كُرْوِيٍّ يَتَّعِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطِّ كُرْوِيٍّ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْعَنْصَرِيِّ الَّذِي

يَتَنَهَمَا سَدُّ بَاجُوجٍ وَمَا جُوجٌ وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَتَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ إِلَى عُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضًا يَقِطَعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ وَهَذَا الْمُنْكَشِفُ مِنَ
الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النِّصْفِ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقَلُّ وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ
الْمُنْقَسِمُ بِالْأَقَالِمِ السَّبْعَةِ وَخَطُّ الْإِسْتِوَاءِ يَقْسِمُ الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى
الْمَشْرِقِ وَهُوَ طُولُ الْأَرْضِ وَأكْبَرُ خَطٍّ فِي كُرَّتِهَا كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ
وَدَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطٍّ فِي الْفَلَكَ وَمِنْطَقَةُ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَاثَةِ وَسْتَيْنِ
دَرَجَةٍ وَاللَّدَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرَسَخًا وَالْفَرَسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ
ذِرَاعٍ وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إصْبَعًا وَالْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتٍ شَعِيرٍ مَضْفُوفَةٍ مُلَصَّقَةٍ
بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهَرَ الْبَطْنِ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ الَّتِي يَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتُسَامَتْ
خَطُّ الْإِسْتِوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لَكِنَّ
الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا
عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبَرْدِ وَالْجَمُودِ كَمَا كَانَتْ الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا
نُبَيِّنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ الْخَبِيرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَعَمَّا
فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمَدُنِ وَالْجِبَالِ وَالنَّجَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْقِفَارِ وَالرِّمَالِ مِثْلَ بَطْلَيْمُوسَ فِي
كِتَابِ الْجُغَرَفِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ زَخَارٍ مِنْ بَعْدِهِ تَقْسِمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ
يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودٍ وَهَمِيَّةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْعَرْضِ
مُخْتَلِفَةٍ فِي الطُّولِ فَالْأَوَّلُ أَطْوَلُ ثُمَّ بَعْدَهُ وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهِمَا فَيَكُونُ
السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضَعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ انْتِحِسَارِ الْمَاءِ عَنْ كُرَّةِ الْأَرْضِ
وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِمِ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ
عَلَى التَّوَالِي وَفِي كُلِّ جُزْءٍ الْخَبَرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُمَرَانِهِ . وَذَكَرُوا أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ
الْمُحِيطَ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ الْمَعْرُوفُ بِبَدَا
فِي خَلِيجٍ مُتَضَائِقٍ فِي عَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا أَوْ نَحْوَهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةِ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى
الزُّفَارَ ثُمَّ يَنْهَبُ مُشْرِقًا وَيَتَفَسِّحُ إِلَى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَنَهَابَتُهُ فِي آخِرِ الْجُزْءِ
الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرَسَخٍ وَمِائَةِ وَسْتَيْنِ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدَأِهِ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ
سَوَاحِلُ الشَّامِ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ سَوَاحِلُ الْمَغْرِبِ أَوَّلُهَا طَنْجَةُ عِنْدَ الْخَلِيجِ ثُمَّ

أفريقية ثم بركة إلى الإسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج
ثم البنادقة ثم رومة ثم الأفرنجة ثم الأندلس إلى طرِبَت عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى
هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أفریطس وقبرص
وصقلية وميورة وميزدانية قالوا ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من
خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضابقا في عرض رمية
السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسخ في عرض أربعة أميال
ويمر في جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة
أميال فيمد البحر نيطس وهو بحر يتعرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر
بأرض مرقلة وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من
الجانبيين أمم من الروم والترك وبرجان والرؤس والبحر الثاني من خليج هذا البحر
الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى
سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد إنكلابة
على ألف ومائة ميل من مبداءه وعلى حافته من البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى
خليج البنادقة قالوا وينساح من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق وعلى ثلاث عشرة
درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلا حتى ينتهي
إلى الإقليم الأول ثم يمر فيه مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد
الحبشة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبداءه
ويسمى البحر الصيني والهندي والحشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد
بوزر التي ذكرها أمرؤ القيس في شعره ولتسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب
ثم بلد مقدس ثم بلد سفالة وأرض الوفواق وأمم آخر ليس بعدهم إلا القفار والخللاء
وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبداءه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من
الأحقاف وزيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة قالوا ويخرج من
هذا البحر الحشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ
متضابقا ثم يمر مستجرا إلى ناحية الشمال ومغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى القلزم في
الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبداءه ويسمى بحر

الْقَلْزَمِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ وَبَيْنَ فِسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَاكَ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ وَعَلَيْهِ مِنْ
 جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ الْحِجَازُ وَجَدَّةٌ ثُمَّ مَدِينُ وَابِلَةٌ وَفَارَانُ عِنْدَ نِهَائِهِ وَمِنْ
 جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الصَّعِيدِ وَعَيْدَابُ وَسَوَاكِنُ وَزَيْلَعُ ثُمَّ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عِنْدَ مَبْدَإِهِ
 وَآخِرُهُ عِنْدَ الْقَلْزَمِ يُسَمَّى الْبَحْرُ الرُّومِيُّ عِنْدَ الْعَرِيشِ وَبَيْنَهُمَا مَخْرُجٌ مَرَاحِلُ وَمَا
 زَالَ الْمُلُوكُ فِي الْإِسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرَقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ
 هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَيُسَمَّى الْخَلِيجُ الْأَخْضَرُ يُخْرُجُ مَا بَيْنَ بِلَادِ السِّنْدِ وَالْأَحْقَافِ مِنَ
 الْيَمَنِ وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْأَبْلَةِ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَصْرَةِ
 فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَرْبَعِمِائَةٍ فَرَسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدَإِهِ
 وَيُسَمَّى بِحْرَ فَارِسَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ السِّنْدِ وَمَكْرَانَ وَكُرْمَانَ وَفَارِسَ
 وَالْأَبْلَةُ وَعِنْدَ نِهَائِهِ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَالشَّحْرِ وَالْأَحْقَافُ
 عِنْدَ مَبْدَإِهِ وَفِيمَا بَيْنَ بَحْرِ فَارِسَ وَالْقَلْزَمِ وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ كَانَتْهَا دَاخِلَةٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ
 يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ الْحَبَشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ الْقَلْزَمِ مِنَ الْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ
 وَتَنْفُضِي إِلَى الْعِرَاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا وَهُنَاكَ الْكَوْفَةُ
 وَالْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيُونُ كِسْرَى وَالْحَبِيرَةُ وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمُّ الْأَعْجَمِ مِنَ التُّرْكِ
 وَالْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلَادُ الْحِجَازِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَامَةِ
 وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ عَلَى
 الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ قَالُوا وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٍ آخَرَ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ الْبَحَارِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ
 بِأَرْضِ الدِّلِمِ يُسَمَّى بِحْرَ جُرْجَانَ وَطَبَرْسْتَانَ طُولُهُ أَلْفُ مِيلٍ فِي عَرْضِ مِائَةِ مِيلٍ
 فِي غَرْبِهِ أَذَرَبَيْجَانُ وَالدِّلِمُ وَفِي شَرْقِيهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخَوَارِزْمُ وَفِي جَنُوبِهِ طَبَرْسْتَانُ
 وَفِي شَمَالِيهِ أَرْضُ الْخَزَرِ وَاللَّانُ . هَذِهِ جُمْلَةُ الْبَحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ
 الْجُغْرَافِيَا . قَالُوا وَفِي هَذَا الْجُزْءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَفِي النَّيْلِ
 وَالْفَرَاتِ وَدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ الْمُسَمَّى جَيْحُونَ . فَأَمَّا النَّيْلُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ خَطِّ
 الْأَسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلُ
 الْقَمَرِ وَلَا يُعْلَمُ فِي الْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ تَخْرُجُ مِنْهُ عَيْنٌ كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي
 بَحِيرَةٍ هُنَاكَ وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارٌ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بَحِيرَةٍ

قاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ عَلَى عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ الْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ نَهْرَانِ
 تَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ الْعَمَالِ عَلَى سِتِّينَ وَيَمُرُّ بِلَادِ النَّوْبَةِ ثُمَّ بِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا
 جَاوَزَهَا تَسَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَفَارِقَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجًا وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ عِنْدَ الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نَيْلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ الصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيَّةِ وَالْوَاخَاتُ
 مِنْ غَرْبِيَّةِ وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سِتِّينَ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي
 الْبَحْرِ الْحَمِيطِ وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وَأَمَمَهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضِفَّتَيْهِ . وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَبَدَأَهُ مِنْ
 بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ
 وَمَلَطِيَّةٍ إِلَى مَنبِجٍ ثُمَّ يَمُرُّ بِصَنْيْنٍ ثُمَّ بِالرَّقَةِ ثُمَّ بِالْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ
 الَّتِي بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوَاسِطَ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْحَمِيطِ وَتَنْجَابُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ
 أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ . وَأَمَّا دِجْلَةُ فَبَدَأَهَا عَيْنٌ
 بِبِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضًا وَتَمُرُّ عَلَى سِتِّينَ الْجَنُوبِ بِالْمَوْصِلِ وَأَذَرِبِجَانَ وَبَغْدَادَ
 إِلَى وَاسِطَ فَتَنْفَرِّقُ إِلَى خُلْجَانَ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ الْبَصْرَةِ وَتُفْضِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ
 فِي الشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ الْفُرَاتِ وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا
 بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ الْمَوْصِلِ قِبَالَ الشَّامِ مِنْ عُدُوتِي الْفُرَاتِ وَقِبَالَ
 أَذَرِبِجَانَ مِنْ عُدُوتِ دِجْلَةَ . وَأَمَّا نَهْرُ جَمِيحُونَ فَبَدَأَهُ مِنْ بَلْخِ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
 الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ عِيُونٍ هُنَاكَ كَثِيرَةٌ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عَظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ الْجَنُوبِ
 إِلَى الْأَنْمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خُوارَزْمَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
 الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ الْجُرْجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي
 مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصُبُّ نَهْرُ فَرَّغَانَةَ وَالشَّاشِ الْآتِي مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَعَلَى غَرْبِي نَهْرٍ جَمِيحُونَ
 بِلَادِ خُرَاسَانَ وَخُوارَزْمَ وَعَلَى شَرْقِيَّةِ بِلَادِ بُخَارَى وَتَرْمَذَ وَسَمَرْقَنْدَ وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا
 وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرَّغَانَةَ وَالْخَزَلِجِيَّةِ وَأَمَمُ الْأَعَاجِمِ وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِطَلِيمُوسُ
 فِي كِتَابِهِ وَالشَّرِيفُ فِي كِتَابِ زَخَارٍ وَصَوَّرُوا فِي الْجُغَرَاْفِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ
 الْجِبَالِ وَالنِّجَارِ وَالْأَوْدِيَةِ وَاسْتَوْفُوا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطُولِهِ وَلِأَنَّ عِنَايَتَنَا فِي
 الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ الْبَرْبَرِ وَبِالْأَوْطَانِ الَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ
 الْمَشْرِقِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي
وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ
الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمُرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمُرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْفَقَارُ وَالرِّمَالُ
وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأَمُّ هَذَيْنِ الْأَقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيُهُمَا لَيْسَتْ لَهُمْ
الْكثَرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمَدُنُهُ كَذَلِكَ وَالثَّالثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذَلِكَ
فَأَقْفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرِّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأَمَمَهَا وَأَنَاسِيُهَا تَجُوزُ الْحَدَّ مِنَ الْكثَرَةِ
وَأَمْصَارُهَا وَمَدُنُهَا تَجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَدًا وَالْعُمُرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ الثَّالثِ وَالسَّادِسِ
وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقِلَّةِ
مِيلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلَنُوضِحَ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ سَبَبُ كَثَرَةِ
الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ . فنقول إن
قُطْبِي الْفَلَكَ الْجَنُوبِيِّ وَالشَّمَالِيِّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأَفْقِ فَهَذَاكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ
بِصَفَتَيْنِ هِيَ أَكْثَرُ الدَّوَائِرِ الْمَارَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَتُسَمَّى دَائِرَةُ مُعَدِّلِ
النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى
الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يَحْرَكُ بِهَا سَائِرُ الْأَفْلَاقِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مُحَسَّسَةٌ
وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ الْكَوَاكِبَ فِي أَفْلَاقِهَا حَرَكَةً مُخَالَفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ
إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ أَمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي السَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَمَمَرَاتِ
هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا تُوزَنُ بِهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى تَقْسِمُ
بِصَفَتَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكَ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ
مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ
الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِصَفَتَيْنِ نِصْفٌ مَائِلٌ عَنْ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ
وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ الثُّنْبَلَةِ وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ
الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحَوْتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأَفْقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ

عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ خَطٌّ وَاحِدٌ يُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدِّلِ النَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ
 وَيُسَمَّى خَطَّ الْأَسْتَوَاءِ وَوَقَعَ هَذَا الْخَطُّ بِالرَّصَدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَأِ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ
 مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَالْعُمُرَانُ كُلُّهُ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هَذَا الْمَعْمُورِ
 بِالْتَدْرِيجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبَعِ وَسِتِينَ دَرَجَةً وَهَنَالِكَ يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ
 وَهُوَ آخِرُ الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ وَإِذَا ارْتَفَعَ عَلَى الْآفَاقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ
 وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى الْآفَاقِ وَبَقِيَ سِتَّةٌ مِنَ الْبُرُوجِ فَوْقَ الْآفَاقِ وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةٌ
 تَحْتَ الْآفَاقِ وَهِيَ الْجَنُوبِيَّةُ وَالْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالسَّتِينَ إِلَى التَّسْعِينَ مُشْتَبَعَةٌ لِأَنَّ
 الْحَرَّ وَالْبَرْدَ حَيْثُ لَا يَحْصُلَانِ مُتَرَجِّجِينَ لِبُعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَحْصُلُ التَّكُونُ بَيْنَهُمَا إِذَا
 الشَّمْسُ نُسِمَتْ الرُّؤُوسَ عَلَى خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ فِي رَأْسِ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ثُمَّ تَمِيلُ عَنْ
 الْمُسَامَةِ إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانِ وَرَأْسِ الْجُذْيِ وَيَكُونُ نِهَاطُهُ مَبْلُغًا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ
 النَّهَارِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الْآفَاقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ
 النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ ارْتِفَاعِهِ وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ كَذَلِكَ بِمِقْدَارِ
 مُنْكَاسِهِ فِي الثَّلَاثَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ عَرْضَ الْبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ
 مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرَجَةً فِي مِقْدَارِ عُلُوِّهَا
 إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانِ وَانْخَفَضَتْ الْبُرُوجُ الْجَنُوبِيَّةُ مِنَ الْآفَاقِ كَذَلِكَ إِلَى رَأْسِ الْجُذْيِ
 لَانْخِرَافِهَا إِلَى الْجَانِبَيْنِ فِي أَفْقِ الْأَسْتَوَاءِ كَمَا قُلْنَا فَلَا يَزَالُ الْآفَاقُ الشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى
 يَصِيرَ أَبْعَدَ الشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ السَّرْطَانِ فِي سَمْتِ الرُّؤُوسِ وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ
 الْبَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فِي الْحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ وَهَذَا هُوَ الْمِيلُ الَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرْطَانِ
 عَنْ مُعَدِّلِ النَّهَارِ فِي أَفْقِ الْأَسْتَوَاءِ ارْتَفَعَ بِارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامَةً
 فَإِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ وَعِشْرِينَ تَرَلَّتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَةِ وَلَا تَزَالُ
 فِي انْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِينَ وَيَكُونُ انْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ
 الْمُسَامَةِ كَذَلِكَ وَانْخِفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ عَنِ الْآفَاقِ مِثْلَهَا فَيَنْقَطِعُ التَّكُونُ لِإِفْرَاطِ
 الْبَرْدِ وَالْجَمْدِ وَطُولِ زَمَانِهِ غَيْرَ مُتَرَجِّجٍ بِالْحَرِّ . ثُمَّ إِنْ الشَّمْسُ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا
 يُقَارِبُهَا نَبَتْ الْأَشِعَّةُ قَائِمَةً وَفِيمَا دُونَ الْمُسَامَةِ عَلَى زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ وَإِذَا كَانَتْ
 زَوَايَا الْأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ الضَّوْءُ وَتَنَشَّرَ بِخِلَافِهِ فِي الْمُنْفَرِجَةِ وَالْحَادَّةِ فَلِهَذَا يَكُونُ

الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ لِأَنَّ الضَّوءَ سَبَبُ الْحَرِّ وَالْتَسْخِينِ
 ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَةَ فِي خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ عِنْدَ تَقْلُطِي الْحَمَلِ
 وَالْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ الْحَرُّ يَعْتَدِلُ فِي آخِرِ مِيلِهَا عِنْدَ رَأْسِ السَّرْطَانِ
 وَالْجُذْيِ إِلَّا إِنْ صَعِدَتْ إِلَى الْمُسَامَةِ فَتَبْقَى الْأَشِعَّةُ الْقَائِمَةُ الرُّوَابَا تُلْجِعُ عَلَى ذَلِكَ
 الْأَفْقِ وَيَطُولُ مُكْثُهَا أَوْ يَدُومُ فَيَسْتَعْمِلُ الْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيُفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا مَا
 دَامَتْ الشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ فَإِنْ
 الْأَشِعَّةُ مُلْجِعَةٌ عَلَى الْأَفْقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنَ الْحَالِحِهَا فِي خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ وَإِفْرَاطُ الْحَرِّ
 يَفْعَلُ فِي الْهَوَاءِ تَجْفِيفًا وَيَسَا بَمَنْعٍ مِنَ التَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرُّ جَفَّتِ الْمِيَاهُ
 وَالرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ التَّكْوِينُ فِي الْمَعْدِنِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ إِذِ التَّكْوِينُ لَا يَكُونُ
 إِلَّا بِالرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرْطَانِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ
 فَمَا بَعْدَهُ تَزَلَّتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَةِ فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى الْإِعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مِيلًا
 قَلِيلًا فَيَكُونُ التَّكْوِينُ وَيَتَزَايَدُ عَلَى التَّذْرِيجِ إِلَى أَنْ يَفْرِطَ الْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقِلَّةِ
 الضَّوءِ وَكَوْنِ الْأَشِعَّةِ مُنْفَرِجَةً الرُّوَابَا فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ يَدَّ أَنْ فُسَادَ التَّكْوِينِ
 مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبَرْدِ لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فِي التَّجْفِيفِ
 مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فِي الْجَمْدِ فَلِذَلِكَ كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ قَلِيلًا وَفِي
 الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِإِعْتِدَالِ الْحَرِّ يَنْقُصَانِ الضَّوءَ وَفِي السَّادِسِ وَالسَّابِعِ
 كَثِيرًا لِنُقْصَانِ الْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ الْبَرْدِ لَا تَوْثُرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فُسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا
 يَفْعَلُ الْحَرُّ إِذَا لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْزِضُ لَهَا حَيْثُ مِنْ الْيَبْسِ كَمَا بَعْدَ
 السَّابِعِ فَلِهَذَا كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الرَّابِعِ الشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ
 الْحَكَمَاءُ خِلَاءَ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالشَّاهِدَةِ
 وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبَرَهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا امْتِنَاعَ
 الْعُمُرَانِ فِيهِ بِالْكَلِمَةِ إِنَّمَا أَدَامُوا الْبَرَهَانَ إِلَى أَنْ فُسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ
 الْحَرِّ وَالْعُمُرَانُ فِيهِ إِمَّا مُتَّبَعٌ أَوْ مُمَكِّنٌ أَقْلِيٍّ وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنْ خَطُّ الْأَسْتِوَاءِ وَالَّذِي
 وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمُرَانٌ كَمَا نُقِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا . وَقَدْ زَعَمَ آخَرُونَ أَنَّ خَطَّ
 الْأَسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي الْجَنُوبِ بِمِثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا

عمر من هذا والذي قاله غير مُمتنع من جهة فسار النكويين وإنما امتنع فيما وراء
خط الاستواء في الجنوب من جهة أن المنصر الماءي عمر وجه الأرض هنالك إلى
الحذر الذي كان مقابله من الجهة الشمالية فإيلاً للنكويين ولما امتنع المعتدل لغيبه
الماء تبعه ما سواه لأن الثمران مُتدرج وياخذ في التدرج من جهة الوجود لا من
جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل الحيواني والله
أعلم. وانزسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زخار ثم
تاخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره.

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة اقسام من
الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليماً فاقسم المعمور من الأرض كله على
هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . فالأول
منها ناز من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحدوده من جهة الجنوب وليس
وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي كلاً عمارة ويكفي من
جهة شماله الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع
وهو آخر الثمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن
يتبعي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن
الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب . ثم إن أزمته
الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار
وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك ويتبعي طول
الليل والنهار في آخر الإقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل
وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر
الإقليم الثاني بما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان
وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها
الشتوي برأس الجدي ويتبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف
من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة

وَكذلك في آخر الأقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة وفي
 آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس إلى خمس عشرة
 ساعة وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف وإلى آخر السابع إلى ست
 عشرة ساعة وهناك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلاها
 ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في
 ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد. وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم وهو
 عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط
 الاستواء ويمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب
 الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل .
 والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله
 من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل
 جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والمسافات بينها في المسالك ونحن
 الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها
 ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الأدريسي الحمودي
 يملك صقلية من الأفرنج وهو زخار بن زخار عند ما كان نازلا عليه بصقلية بعد
 خروج صقلية من إمارة مالقة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة
 وجمع له كتباً جمّة للمسعودي وابن خرداذبه والحقلي والقدري وابن إسحاق
 المنجم وبطليموس وغيرهم وتبدأ منها بالأقليم الأول إلى آخرها والله سبحانه
 وتعالى يعصمنا بعنه وفضله

الأقليم الأول * وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس
 بأخذ أطوال البلاد ولتست في بسيط الأقليم وإنما هي في البحر المحيط جزر
 متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من
 الأفرنج مرّت بها في أواسط هذه المائة وقالوا فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض
 أمرام بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان
 العربي أخبروا عن حال جزائريهم وأنهم يحفرون الأرض للزراعة بالقرون وأن

الْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْزَاقِهِمْ وَعَيْشِهِمْ مِنَ الشَّعِيرِ وَمَاشِيَتِهِمْ الْمَعَزُ وَقِتَالَهُمْ بِالْحِجَارَةِ بِرُمُومِهَا
 إِلَى خَلْفِ وَعِبَادَتِهِمْ السُّجُودَ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ
 وَلَا يُوقِفُ عَلَى مَكَانٍ هَذِهِ الْجَزَائِرُ إِلَّا بِالْعُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَفَرَ الشُّنْ فِي الْبَحْرِ
 إِنَّمَا هُوَ بِالزِّيَاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَايَا وَإِلَى أَيْنَ يُوصَلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ مِنَ
 الْبِلَادِ الَّتِي فِي مَمَرِ ذَلِكَ الْمَهَبِ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُ وَعُلِمَ حَيْثُ يُوصَلُ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ
 حُوزِي بِهِ الْقَلْعُ مُخَاذَاةً يَحْمِلُ السَّفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَانِيصَ فِي ذَلِكَ تَحْصِلُهُ عِنْدَ النَّوَاتِيَةِ
 وَالْمَلَا حِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ الشُّنْ فِي الْبَحْرِ وَالْبِلَادِ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرَّوْمِيِّ
 وَفِي عُدُوَّتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي مَحَبَّةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا
 فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَا بِالزِّيَاحِ وَمَمَرَاتِهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا مَرَسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ
 الْعَمِيْنَةِ وَيُسَمُّونَهَا الْكَنْبَاصَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ
 الْمُحِيطِ فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ الشُّنْ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرَأَى السَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ
 إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَتَعَقَّدُ فِي جَوْ هَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَبْغَرَةِ الْمُسَانِعَةِ
 لِلشُّنْ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُذَكِّرُهَا أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الْمُنْعَكِسَةُ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ
 فَحَلَّلَهَا فَلِذَلِكَ عَسَرَ الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَضُمَّ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا . وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ
 هَذَا الْأَقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُّ النَّيْلِ الْآتِي مِنْ مَبْدَأِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَا وَبُسْعَى
 نَيْلِ السُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولَيْكُ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ
 مَدِينَةُ سَلَا وَتُكْرُورُ وَغَانَةُ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكٍ مَالِيٍّ مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ وَإِلَى
 بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تِجَارَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شِمَالِهَا بِلَادُ لِمْتُونَةَ وَسَائِرُ
 طَوَائِفِ الْمَلَكِيِّينَ وَمَقَاوِرُ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِ هَذَا النَّيْلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ
 لَعْلَمُ وَهُمْ كُنَّارٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَالْمُكْرُورِ يُغَيِّرُونَ
 عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبْعُونَهُمْ لِلتَّجَارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ عَامَّةٌ رَقِيقُهُمْ وَلَيْسَ
 وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمَرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنَايِي أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ الْعُجْمِ مِنَ النَّاطِقِ يَسْكُنُونَ
 الْفَيَافِي وَالْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ وَالْحَبُوبَ غَيْرَ مِهْيَاةٍ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
 وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ الْبَشَرِ . وَفَوَاكِهُ بِلَادِ السُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلِ
 تَوَاتٍ وَتُكْدَرَارِ بْنِ وَوزِ كِلَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ

يُعرفون بيبي صالح وقال صاحب كتاب زخار إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد كوكو على نهر يتسع من بعض الجبال هناك ويمر مغرباً فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من أمم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونغارة وكاتم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم وفيه يمر نيل مضر ذاهباً من مبداه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال ويخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بسبع عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضببطها بعضهم بفتح القاف واليم نسبة إلى قمر السماء لشدته بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون اليم نسبة إلى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة ويتنهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيخة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مضر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحقة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادر على سبعة أميال من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مضر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في هوى بعيد صاباً هائلاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الواسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد

أَسْوَانِ قَاعِدَةِ الصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ الْجَنَادِلِ وَبَيْنَ الْجَنَادِلِ وَأُسْوَانِ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرَحَلَةً
وَالْوَحَاتِ فِي غَرْبِهَا عَدْوَةُ النَّيْلِ وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ . وَفِي وَسْطِ
هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ الْحَبْشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خُطِّ الْإِسْتِوَاءِ
ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ النَّوْبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي النَّيْلِ الْمَاطِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَجَدَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ
النَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْجُغَرَاْفِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ
يَنْسُ مِنْ هَذَا النَّيْلِ . وَإِلَى وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ الْهِنْدِ الَّذِي
يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ الصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هَذَا الْإِقْلِيمِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ
عُمُرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ يُقَالُ تَنْشَعِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ
أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ
بِلَادِ الصِّينِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِيمَا
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ الْمَاطِطَيْنِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرُ قُلْزُومَ وَبَحْرُ
فَارَسَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ الْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَبِلَادِ الشَّحْرِ فِي شَرْقِيَّهَا
عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا كَمَا نَذَرْنَا فِي
الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا الَّذِي عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيَّةٍ فَبَلَدُ زَالِجٍ مِنْ
أَطْرَافِ بِلَادِ الْحَبْشَةِ وَبَجَالَاتُ الْبَحْجَةِ^(١) فِي شِمَالِي الْحَبْشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَلَاقِي فِي أَعَالِي
الصَّعِيدِ وَبَيْنَ بَحْرِ الْقُلْزُومِ الْمَاطِطِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالِجٍ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ
فِي هَذَا الْجُزْءِ خَلِيجُ بَابِ الْمَنْدَبِ يَصِيقُ الْبَحْرُ الْمَاطِطُ هُنَاكَ بِمُزَاحِمَةِ جَبَلِ الْمَنْدَبِ
الْمَائِلِ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ مُنْتَدِمًا مَعَ سَاحِلِ الْيَمَنِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِي
طُولِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فَيَصِيقُ الْبَحْرُ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ
أَوْ نَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابَ الْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمْرُ مَرَاكِبُ الْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ السُّوَيْسِ قَرِيبًا
مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ الْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِينِ وَدَفْلَاكُ وَقُبَالَتَهُ مِنْ غَرْبِيَّةٍ بَجَالَاتُ الْبَحْجَةِ
مِنْ أَمْرِ السُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ شَرْقِيَّةٍ فِي هَذَا الْجُزْءِ نَهَائِمُ الْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ
بَلَدُ عَلِيٍّ بْنِ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالِجٍ وَعَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيَّةٍ قُرَى
بَرْبَرٍ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيَّةٍ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَاكَ مِنْ

(١) ويقال أيضا انجاء واما زالج فهي ريلج . اهـ

جِهَة شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الزَّيْجِ ثُمَّ بِلَادُ سَفَالَةَ مِنْ سَاحِلِ الْجَنُوبِيِّ بِلَادُ الْوُفَوَاقِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى
 آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ . وَأَمَّا
 جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ . مِنْ أَكْثَرِهَا جَزِيرَةُ مَرْتَدِيَّةٍ مَدَوَّرَةٌ الشَّكْلِ . وَفِيهَا
 الْجَبَلُ الْمَشْهُورُ يُقَالُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ وَهِيَ قِبَالَةُ سَفَالَةَ . ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ وَهِيَ
 جَزِيرَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ تَبْدَأُ مِنْ قِبَالَةِ أَرْضِ سَفَالَةَ وَتَذْهَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْعَرِفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى
 أَنْ تَقْرُبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعَالِي الصِّينِ وَيَخْتَفِ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوبِهَا جَزَائِرُ الْوُفَوَاقِ
 وَمِنْ شَرْقِهَا جَزَائِرُ السَّيْلَانِ إِلَى جَزَائِرٍ أُخْرَى فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةٌ الْعَدَدِ وَفِيهَا أَنْوَاعُ
 الطِّيبِ وَالْأَفَاوِيهِ وَفِيهَا يُقَالُ مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالزُّمُرُودِ وَغَايَةُ أَهْلِهَا عَلَى دِينِ الْمَجُوسِيَّةِ
 وَفِيهِمْ مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ وَبِهَذِهِ الْجَزَائِرِ مِنْ أَحْوَالِ الثَّمَرَانِ عَجَائِبُ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغَرَفِيَا
 وَعَلَى الْأَضْفَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الْبَسَنِ كُلُّهَا
 فَمِنْ جِهَةِ بَحْرِ الْقُلُومِ بَلَدُ زَيْدٍ وَالْمَعْجَمُ وَنَهَامَةُ الْيَمَنِ وَبَعْدَهَا بَلَدُ صَعْدَةَ مَقَرِ الْإِمَامَةِ
 الزَّيْدِيَّةِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَفِيهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ
 وَفِي شَمَالِهَا صَنْعَاءُ وَبَعْدَهُمَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الْأَحْقَافِ وَظَفَّارٍ وَبَعْدَهَا أَرْضُ
 حَضْرَمُوتَ ثُمَّ بِلَادُ الشَّحْرِ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ فَارِسَ . وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُزْءِ
 السَّادِسِ هِيَ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْوُسْطَى وَيَتَكَشَّفُ
 بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ فِيهِ أَعَالِي بِلَادِ الصِّينِ وَمِنْ مَدُنِهِ
 الشَّهِيرَةِ خَانِكُو وَفِيهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السَّيْلَانِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا وَهَذَا آخِرُ
 الْكَلَامِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِي التَّوْفِيقِ بِمَنْهِ وَفَضْلِهِ

الْإِقْلِيمُ الثَّانِي * وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّيْءِ وَقِبَالَةَ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ
 الْمُحِيطِ جَزِيرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْهُ
 فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنْوَرِيَّةٍ وَبَعْدَهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِي أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ مَجَالَاتُ
 زَغَاوَةٍ مِنَ السُّودَانِ وَفِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاءُ نِسْتَرٍ مُتَّصِلَةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ
 ذَاتُ مَفَاوِزَ تَسْلُكُ فِيهَا الثُّجَارُ مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَبِلَادِ السُّودَانِ وَفِيهَا مَجَالَاتُ
 الْمَلْشَمِينَ مِنْ صِنَاجَةٍ وَنَحْمِ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ مَا بَيْنَ كَرْوَلَةَ وَلِمَثُونَةَ وَمَسْرَانَةَ وَلِمَنْطَةَ
 وَوَرِيكَتَةَ وَعَلَى تَمْتِ هَذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ فِرْزَانَ ثُمَّ مَجَالَاتُ أَزْكَارَ مِنْ قِبَالِ

الْمَرْبِرِ ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّالِثِ
 وَهِيَ جِهَةُ الشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَذَانَ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْدِيَّةَ وَتُسَمَّى الْوَاحَاتِ
 الْمَدَاخِلَةُ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ أَغْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْبَاحَوِيِّينَ ثُمَّ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ هَذَا
 الْجُزْءِ بِلَادُ الصَّعِيدِ حَافَاتُ النَّيْلِ الذَّاهِبِ مِنْ مَبْدَأِهِ فِي الْإِفْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى مَصْبِهِ فِي
 الْبَحْرِ فَيَسُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ الْحَاجِزَيْنِ وَهُمَا جَبَلُ الْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَبَلُ
 الْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيهِ وَعَلَيْهِ مِنْ أَغْلَاهُ بَلَدُ أَسْنَا وَأَزْمَنْتَ وَيَتَّصِلُ كَذَلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى
 أَسْوَطِ وَقُوصٍ ثُمَّ إِلَى صُولٍ وَيَفْتَرِقُ النَّيْلُ هُنَاكَ عَلَى شُعْبَيْنِ يَنْتَهِي الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا
 الْجُزْءِ عِنْدَ الْأَهْوَنِ وَالْأَيْسَرُ عِنْدَ دِلَاصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ وَفِي الشَّرْقِ مِنْ
 جَبَلِ الْمُقَطَّمِ صَحَارَى عِيَذَابَ ذَاهِبَةً فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ السُّوَيْسِ
 وَهُوَ بَحْرُ الْقَلْزُومِ الْهَاطِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَفِي عُدُونِهِ
 الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ مِنْ جَبَلٍ يَلْمَلَمُ إِلَى بِلَادِ يَثْرِبَ فِي وَسْطِ الْحِجَازِ
 مَكَّةُ شَرْفَهَا اللَّهُ وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جَدَّةَ يُقَابِلُ بَلَدَ عِيَذَابَ فِي الْعُدُونِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْبَحْرِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِهِ بِلَادُ نَجْدٍ أَغْلَاهَا فِي الْجَنُوبِ وَبُئَالَةُ وَجَرُشُ إِلَى
 عُكَاظَ مِنَ الشَّمَالِ وَتَحْتَ نَجْدٍ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْحِجَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ
 بِلَادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْبَحَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الشَّرْقِ أَرْضُ سَبَا وَمَأْرِبَ
 ثُمَّ أَرْضُ الشَّحْرِ وَتَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي الْهَاطِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ
 إِلَى الشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَبَذَهَبُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الْغَرْبِ فَيَسُرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِيهِ
 وَجَوْفِيهِ قِطْعَةً مُثَلَّثَةً عَلَيْهَا مِنْ أَغْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ الشَّحْرِ ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ
 بِلَادُ عُمَانَ . ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرُ مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْ
 غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِالْقِطْعَةِ الْأُخْرَى فِي السَّادِسِ وَيَغْمُرُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ
 الْأَعْلَى كُلُّهُ وَعَلَيْهِ هُنَاكَ بِلَادُ السِّنْدِ إِلَى بِلَادِ مَكْرَانَ وَيُقَابِلُهَا بِلَادُ الطُّوْبَرَانَ وَهِيَ مِنْ
 السِّنْدِ أَيْضًا فَيَتَّصِلُ السِّنْدُ كُلُّهُ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَتَحُولُ الْمَقَاوِرُ بَيْنَهُ
 وَبَيْنَ أَرْضِ الْهِنْدِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ الْآتِي مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ الْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ
 فِي الْجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ بَلَهْرَا وَتَحْتَهَا
 فِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ أَرْضُ كَابِلَ وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ بِلَادُ الْقُنُوجِ مَا بَيْنَ

قَشْمِيرَ الدَّاخلَةِ وقَشْمِيرَ الخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ الْإِفْلِيمِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ
الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ الْهِنْدِ الْأَقْصَى وَتَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى
الْعَاشِرِ وَتَبْقَى فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجَانِبِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِيهَا مَدِينَةُ شِيغُونِ ثُمَّ تَتَّصِلُ
بِلَادُ الصِّينِ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى الْبَحْرِ الْحَمِيطِ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ
التَّوْفِيقُ وَهُوَ وَلِيُّ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ

الْإِفْلِيمُ الثَّلَاثُ * وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ وَعَلَى
نَهْرٍ الثَّلَاثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلٌ دَرَنْ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْحَمِيطِ إِلَى الشَّرْقِ
عِنْدَ آخِرِهِ وَيَسْكُنُ هَذَا الْجَبَلُ مِنَ الْبَرْبَرِ أُمِّ لَا يُعْصِبُهُمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ حَسَبًا بِأَنِّي
ذِكْرُهُ وَفِي الْقِطْعَةِ الَّتِي بَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ وَالْإِفْلِيمِ الثَّانِي وَعَلَى الْبَحْرِ الْحَمِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ
مَاسَّةٍ وَتَتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سُوسٍ وَتَوَلَّى وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ دَرْزَةِ ثُمَّ بِلَادُ مِجْلَمَاسَةِ
ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَحْرَاءِ نِسْتَرِ الْمَنَازَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا فِي الْإِفْلِيمِ الثَّانِي وَهَذَا الْجَبَلُ مُطْلٍ
عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ وَهُوَ قَلِيلُ الثَّنَائِيَا وَالْمَسَالِكِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ
إِلَى أَنْ يُسَامِتَ وَادِي مَلَوِيَّةَ فَتَكْثُرُ ثَنَائِيَاهُ وَمَسَالِكُهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ
مِنْهُ أُمُّ الْمَصَامِدَةِ ثُمَّ هَنْتَانَةُ ثُمَّ تَيْسَمَلَاكُ ثُمَّ كَذْمِيُوهُ ثُمَّ مَشْكُورَةُ وَهُمْ أَسْرُ الْمَصَامِدَةِ
فِيهِ ثُمَّ قَبَائِلُ صِنِهَاكَةَ وَهُمْ صِنِهَاجَةُ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْهُ بَعْضُ قَبَائِلِ زَنَاتَةَ وَتَتَّصِلُ
بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِهِ جَبَلُ أَوْرَاسٍ وَهُوَ جَبَلٌ كُتَامَةٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُمُّ أُخْرَى مِنَ الْبَرْبَرَةِ
نَذَكْرُكُمْ فِي أَمَاكِيهِمْ ثُمَّ إِنْ جَبَلٌ دَرَنْ هَذَا مِنْ جِهَةِ غَرْبِهِ مُطْلٍ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ
الْأَقْصَى وَهِيَ فِي جَوْفِهِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادُ مَرَكَشَ وَأَغْمَاتٍ وَتَادَلَا وَعَلَى
الْبَحْرِ الْحَمِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ أَسْقَى وَمَدِينَةُ سَلَا وَفِي الْجَوْفِ عَنْ بِلَادِ مَرَكَشَ بِلَادُ فَاسٍ
وَمِكَنَاسَةُ وَتَاوَا وَقَصْرُ كُتَامَةٍ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى فِي عُرْفِ أَهْلِهَا
وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْحَمِيطِ مِنْهَا بِلَدَانُ أُصِيلَا وَالْعَرَايشِ وَفِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ
الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ وَقَاعِدَتُهَا تَلْمُسَانُ وَفِي سَوَاحِلِهَا عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ بَلَدُ هَنِينَ وَوَهْرَانُ
وَالْجَزَائِرُ لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الرُّومِيَّ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْحَمِيطِ مِنْ خَلِيجِ طَنْجَةَ فِي النَّاحِيَةِ
الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا فَيَنْتَهِيَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فَإِذَا خَرَجَ مِنَ
الْخَلِيجِ الْمُتَضَائِقِ غَيْرِ بَعِيدٍ انْفَسَحَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ

فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلادهم ثم يتصل ببلاد
 الجزائر من شرفيها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسطنطينية في الشرق منها وفي آخر
 الجزء الأول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه البلاد ومرتفعاً إلى جنوب
 المغرب الأوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدته يسكرة تحت جبل أوراس
 المتصل بدران كما مرّ وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثاني من
 هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهباً فيه
 من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين ويتمرّ البحر الرومي مسافة من شماله فالفطحة
 الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفارز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقاً
 أرض ودان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مرّ والفطحة الجنوبية عن جبل درن ما
 بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والألبس وعلى ساحل
 البحر بلد بونة ثم في سمت هذه البلاد شرقاً بلاد أفريقية فعلى ساحل البحر مدينة
 قونس ثم السوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد
 توزر وقفصة ونقراوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسيطة
 وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقاً بلد طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب
 جبل دمر ونقرة من قبائل هواره متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مرّ ذكرها
 في آخر الفطحة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر
 وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم بمرأبضاً
 فيه جبل درن إلا أنه ينقطع عند آخره إلى الشمال ويذهب على سمتيه إلى أن يدخل
 في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أو ثان والبحر الرومي من شماليه يتمرّ طائفة
 منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب
 منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفاز إلى
 آخر الجزء في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد مرس على البحر ثم
 خلاة وقفاز تجول فيها العرب ثم أجداية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلسمسة على
 البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورؤاحه إلى آخر الجزء
 وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها

بلاد هيب ورواحه ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه إلى الجنوب
 حتى يزاحم طرفه الأعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب وعلى سمتها
 شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من
 بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الأقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمتها شرقا
 أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد
 عند آخر الجزء الثاني ويفترق هذا الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين
 آخرين من شطون وزفتي وينقسم الأيمن منهما من قرومط بشعبين آخرين ويصب
 جميعها في البحر الرومي فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الإسكندرية وعلى
 مصب الوسط بلد رشيد وعلى مصب الشرقي بلد دمياط وبين مصر والقاهرة وبين
 هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية كلها تحشوة غمراتا وقلجا وفي الجزء
 الخامس من هذا الأقليم بلاد الشام وأكثرها على ما أصف وذلك لأن بحر القلزم
 ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لأنه في ممره مبتدى من البحر الهندي
 إلى الشمال ينعطف أخذا إلى جهة الغرب فيكون قطعة من أنعطافه في هذا الجزء
 طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه إلى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس
 فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوزاء في آخرها ومن هنالك ينعطف بساحله
 إلى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الأقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي
 الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيرا من غربيته
 عليها الفوما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضابق ما بينهما من هنالك ويبقى شبه
 الباب مفضيا إلى أرض الشام وفي غربي هذا الباب فحصى التيه أرض جرداء لا تثبت
 كانت تجالا لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم إلى الشام أربعين
 سنة كما قصه القرآن وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من
 جزيرة قبرص وبقيتها في الأقليم الرابع كما نذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند
 الطرف المتضابق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان
 وبينهما طرف هذا البحر ثم تحط هذه القطعة في أنعطافها من هنالك إلى الأقليم
 الرابع عند طرابلس وغزة وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه

الْقِطْعَةُ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي شَرْقِهِ غَزَّةٌ ثُمَّ عَسْقَلَانُ وَبِأَنْحِرَافٍ يَسِيرُ عَنْهَا إِلَى
الشَّمَالِ بَلَدٌ قَيْسَارِيَّةٌ ثُمَّ كَذَلِكَ بَلَدٌ عَكَّا ثُمَّ صُورٌ ثُمَّ صَيْدَا ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّمَالِ
فِي الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ وَيُقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ
عَظِيمٌ يُخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنْ بَحْرِ الْقَلْزُومِ وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُنْحَرِفًا إِلَى الشَّرْقِ
إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا الْجُزْءَ وَيُسَمَّى جَبَلُ اللَّكَّامِ وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ
فِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ الْعَقِيبَةُ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا الْحَجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي
نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مَدْفَنُ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ
جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَذْكُورِ مِنْ شِمَالِ الْعَقِيبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا وَفِي
شَرْقِهِ هُنَالِكَ بَلَدُ الْحَجَرِ وَدِيَارُ ثَمُودَ وَتِيَمَاءَ وَدُومَةَ الْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسْفَلُ الْحِجَازِ وَفَوْقَهَا
جَبَلٌ رَضْوَى وَحُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيهَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقَلْزُومِ
صَحْرَاءُ ثُبُوكَ وَفِي شِمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُدْسِ عِنْدَ جَبَلِ اللَّكَّامِ ثُمَّ الْأَزْدُنُ ثُمَّ
طَبْرِيَّةٌ وَفِي شَرْقِيهَا بِلَادُ الْغُورِ إِلَى أَذْرَعَاتٍ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا دُومَةُ الْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا
الْجُزْءِ وَهِيَ آخِرُ الْحِجَازِ . وَعِنْدَ مُنْعَطِفِ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ
مَدِينَةُ دِمَشْقَ مُقَابِلَةُ صَيْدَا وَيَبْرُوتَ مِنَ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلُ اللَّكَّامِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهَا وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكْ ثُمَّ مَدِينَةُ حِمصَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ آخِرُ
الْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ جَبَلِ اللَّكَّامِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكْ وَحِمصَ بَلَدٌ تَدْمُرُ وَبَجَالَاتُ
الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ بَجَالَاتُ الْأَعْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدِ
وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعُرْجِ وَالصَّمَانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرُ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِي أَسْفَلِ هَذَا
هَذَا الْجُزْءِ تَحْتَ الْبَجَالَاتِ بَلَدُ الْحَيْرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَايِضُ الْفُرَاتِ . وَفِيهَا بَعْدَهَا شَرْقًا
مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ يَتَشَعَّى بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عِبَادَانَ وَالْأَيْلَةَ مِنْ أَسْفَلِ الْجُزْءِ
مِنْ شِمَالِهِ وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عِبَادَانَ نَهْرٌ دِجْلَةٌ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِجَدَاوِلَ كَثِيرَةٍ وَتُخْلَطُ
بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ الْفُرَاتِ ثُمَّ يَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عِبَادَانَ وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارِسَ وَهَذِهِ
الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُنْسِئَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُضَاقِقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي شَرْقِيهِ وَضِيقَةٌ عِنْدَ مُنْشَاهُ
مُضَاقِقَةٌ لِلْحَدِّ الشَّمَالِيِّ مِنْهُ وَعَلَى عُدُوتِهَا الْغَرِيبَةُ مِنْهُ أَسْفَلُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرُ وَالْأَحْسَاءُ وَفِي
غَرْبِهَا أَخْطَبُ وَالصَّمَانُ وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ

أَعْلَاهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفٍ قَدِ امْتَدَّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُشْرِقًا
 وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جِبَالُ الْقَفَصِ مِنْ كُرْمَانَ وَتَحْتَ هِرْمِزِ بِلَادُ فَارِسَ
 مِثْلَ سَابُورَ وَدَارَا بَجَرْدَ وَنَسَا وَإِصْطَخَرَ وَالشَّاهِجَانَ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتُهَا كُلُّهَا وَتَحْتَ بِلَادِ
 فَارِسَ إِلَى الشَّمَالِ عِنْدَ طَرَفِ الْبَحْرِ بِلَادُ خُودَسْتَانَ وَمِنْهَا الْأَهْوَازُ وَتَسْتُرُ وَصَدَى وَسَابُورُ
 وَالسُّوسُ وَرَامَ هِرْمِزُ وَغَيْرُهَا وَأَرْجَانُ وَهِيَ حَدُّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُودَسْتَانَ جِبَالُ الْأَكْرَادِ
 مُصَلَّةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِينُهُمْ وَبَجَالَاتُهُمْ وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ وَتُسَى
 الرُّسُومُ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ الْقَفَصِ وَبِهَا مِنْ
 الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِلَادُ كُرْمَانَ وَمَكْرَانَ وَمِنْ مَدِينَتِهَا الرُّودَنُ وَالشَّيرِجَانُ وَجَبْرِفَتْ وَيَزْدَ شِيرُ
 وَالْبَهْرَجُ وَتَحْتَ أَرْضِ كُرْمَانَ إِلَى الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ وَمَدِينَةُ
 أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هَذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ثُمَّ فِي الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كُرْمَانَ وَبِلَادِ
 فَارِسَ أَرْضُ مِجِسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ كُوهَسْتَانَ فِي الشَّمَالِ غَرْبًا وَبِتَوْسَطِ
 بَيْنَ كُرْمَانَ وَفَارِسَ وَبَيْنَ مِجِسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ وَفِي وَسَطِ هَذَا الْجُزْءِ الْهَافُورُ الْعَظَمَى
 الْقَلِيلَةُ الْمَسَالِكِ إِصْعُوبَتِهَا وَمِنْ مَدُنِ مِجِسْتَانَ بَسْتُ وَالطَّاقُ وَأَمَّا كُوهَسْتَانَ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ
 خُرَاسَانَ وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَسُ وَفُوهَسْتَانَ آخِرُ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ غَرْبِهِ
 وَجَنُوبِهِ بَجَالَاتُ الْجَلَمِ مِنْ أُمِّ التُّرْكِ مُتَصِلَةٌ بِأَرْضِ مِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابِلِ
 الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ هَذِهِ الْبَجَالَاتِ جِبَالُ الْفُورِ وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزَنَةُ
 فُرْضَةُ الْهِنْدِ وَفِي آخِرِ الْفُورِ مِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ أَسْتَرَابَادَ ثُمَّ فِي الشَّمَالِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ
 الْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاتِ أَوْسَطُ خُرَاسَانَ وَبِهَا أَسْفَرَايْنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنجُ وَمَرُؤُ الرُّودِ وَالطَّلِقَانُ
 وَالْجُوزْجَانُ وَتَنْتَهِي خُرَاسَانُ هُنَاكَ إِلَى نَهْرِ جَيْخُونِ وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ
 مِنْ غَرْبِيَّةِ مَدِينَةٍ بَلَخَ وَفِي شَرْقِيَّةِ مَدِينَةٍ تَرْمَذَ وَمَدِينَةٍ بَلَخَ كَانَتْ كُرْمِي مَمْلَكَةِ التُّرْكِ
 وَهَذَا النَّهْرُ نَهْرُ جَيْخُونِ مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَارِ فِي حُدُودِ بَدَخْشَانَ مِمَّا يَلِي الْهِنْدَ وَيَخْرُجُ
 مِنْ جَنُوبِ هَذَا الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبِ مَغْرِبًا إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ
 وَيُسَمَّى هُنَاكَ نَهْرُ خَرَنْدَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ
 إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بَحِيرَةِ خُورَازْمَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذَكْرُهُ وَيُمِدُّهُ عِنْدَ انْعِطَافِهِ
 فِي وَسَطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلَادِ الْخَتَلِ وَالْوُخْشِ

مِنْ شَرْقِيهِ وَأَنْهَارُ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مِنْ شَرْقِيهِ أَيْضًا وَجَوْفِي الْجَبَلِ حَتَّى يَنْسَجَ
 وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كُنْهَ لَهُ وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمُسَدَّةِ لَهُ نَهْرٌ وَخَشَابٌ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ
 التَّبَتِ وَهِيَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قَيْسَرُ مُغَرِّبًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى
 أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ يَعْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ
 يَمُرُّ مِنْ وَسَطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ مُشْرِقًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى
 الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ فَيَجُوزُ بِلَادَ التَّبَتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَحُولُ بَيْنَ التُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الْخُتَلِ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسَلَكٌ وَاحِدٌ فِي وَسَطِ
 الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَمَلٌ فِيهِ الْفَضْلُ بْنُ يَعْقِبَ سُدًّا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدَ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ
 فَإِذَا خَرَجَ نَهْرٌ وَخَشَابٌ مِنْ بِلَادِ التَّبَتِ وَأَعْتَرِضَهُ هَذَا الْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدَى بَعِيدٍ
 إِلَى أَنْ يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوُخْشِ وَيَصُبُّ فِي نَهْرِ جِيخُونٍ عِنْدَ حُدُودِ بَلَّخٍ ثُمَّ يَمُرُّ هَاطِلًا
 إِلَى التُّرْمُذِ فِي الشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْغُورِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ
 نَهْرِ جِيخُونٍ بِلَادُ النَّاسَانِ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي الْمَدِينَةِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَاكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ الْخُتَلِ
 وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ وَبِلَادُ الْوُخْشِ وَبَعْدُهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جِبَالُ الْبَتَمِ تَخْرُجُ مِنْ طَرَفِ
 خُرَاسَانَ غَرْبِي نَهْرِ جِيخُونٍ وَتَذْهَبُ مُشْرِقَةً إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفُهَا بِالْجَبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي
 خَلَقَهُ بِلَادُ التَّبَتِ وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرٌ وَخَشَابٌ كَمَا قُلْنَا فَيَتَّصِلُ عِنْدَ بَابِ الْفَضْلِ بْنِ يَعْقِبَ
 وَيَمُرُّ نَهْرٌ جِيخُونٌ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَأَنْهَارُ أُخْرَى تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا نَهْرُ بِلَادِ الْوُخْشِ يَصُبُّ
 فِيهِ مِنَ الشَّرْقِ تَحْتَ التُّرْمُذِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَنَهْرٌ بَلَّخٌ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مَبْدَأُهُ عِنْدَ
 الْجُوزْجَانِ وَيَصُبُّ فِيهِ مِنْ غَرْبِيهِ وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ أَمِدَ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي
 شَرْقِي النَّهْرِ مِنْ هُنَاكَ أَرْضُ الصُّغْدِ وَأَسْرُوشْنَةُ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ
 فَرغانَةِ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ بِلَادِ التُّرْكِ تَعُوزُهَا جِبَالُ الْبَتَمِ إِلَى شَمَالِهَا وَفِي
 الْجُزْءِ التَّلَاسِجِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ التَّبَتِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ وَفِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْهِنْدِ وَفِي
 شَرْقِهَا بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ شَمَالًا عَنْ بِلَادِ التَّبَتِ بِلَادُ
 الْخَزْجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا وَبِتَّصِلُ بِهَا مِنْ غَرْبِهَا أَرْضُ
 فَرغانَةِ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَمِنْ شَرْقِهَا أَرْضُ التُّغْرُغُرِ مِنَ التُّرْكِ إِلَى الْجُزْءِ شَرْقًا
 وَشَمَالًا . وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعًا بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ وَفِي الشَّمَالِ بَقِيَّةُ

بلاد التفرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخير من الترك أيضا إلى آخر الجزء شرقا وفي
 الشمال من أرض خرخير بلاد كتمان من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة
 الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه إليها ولا مسلك والصعود إلى أعلاه من
 خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حیات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيعتال أهل
 تلك الناحية بما يلعمهم الله إليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعشرون فيها
 وراء خراسان والجبال كلها تجالات للترك أم لا تحصى وهم ظواغن وحالة أهل إبل
 وشاه وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل وطوائفهم كثيرة لا يحصون إلا
 خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيون ويغزون الكفار منهم الدائنين
 بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان والهند والعراق
 الإقليم الرابع * يتصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الأول منه في غربيه
 قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا إلى آخره شمالا وعليها في الجنوب
 مدينة طنجة ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي في خليج
 مضائق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجاز
 وسبتة جنوبا ويذهب شرقا إلى أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم
 وينفسح في ذهابه بتدرج إلى أن يغرر الأربعة الأجزاء وأكثر الخامس من هذا
 الإقليم الثالث والخامس كما سذكروه ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضا وفيه
 جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم ما يرق ثم منرق ثم سردانية ثم صقلية
 وهي أعظمها ثم بلونس ثم أقرطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت
 فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من
 الإقليم الخامس خليج البنادقة يذهب إلى ناحية الشمال ثم يتعطف عند وسط الجزء
 من جوفه ويمر مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج منه أيضا في
 آخر الجزء الرابع شرقا من الإقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال
 مضائقا في عرض رمية السهم إلى آخر الإقليم ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الإقليم
 السادس ويتعطف إلى بحر نيطش ذاهبا إلى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف
 السادس من الإقليم السادس كما نذكرك في ذلك في أماكنه وعند ما يخرج هذا البحر

الرُّومِيّ مِنْ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَة وَتَنْفَسِحُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ يَبْقَى فِي الْجَنُوبِ
عَنْ الْخَلِيجِ قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَة عَلَى تَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا
مَدِينَةُ سَبْتَة عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيّ ثُمَّ قَطَاوْنُ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هَذَا الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هَذَا الْجُزْءِ
شَرْقًا وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّلَاثِ وَكَثُرَ الْعِمَارَةُ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي شِمَالِهِ وَشَمَالِ الْخَلِيجِ مِنْهُ
وَمِنْ كُلِّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيّ أَوَّلُهَا طَرِيفُ
عِنْدَ تَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيّ الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ ثُمَّ
مَالِقَةُ ثُمَّ الْمَنْقَبُ ثُمَّ الْمَرْيَة وَتَحْتَ هَذِهِ مِنْ لَدُنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ
شَرِيشُ ثُمَّ لَبْلَة وَقِبَالَتُهَا فِيهِ جَزِيرَةُ فَادِسَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ شَرِيشَ وَلَبْلَة إِشْبِيلِيَّةُ ثُمَّ
أَسْتَجَة وَفَرْطَبَة وَمَدِيْلَة ثُمَّ غَرْنَاطَة وَجِيَانُ وَأَبْدَة ثُمَّ وَاْدِيَّاشُ وَبَسْطَة وَتَحْتَ هَذِهِ
شَنْتَمَرِيَّةُ وَشَابُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَفِي الشَّرْقِ عَنْهُمَا بَطْلَيْوسُ وَمَارِدَة وَبَابِرَة
ثُمَّ غَافِقُ وَبَرْجَالَة ثُمَّ قَلْعَةُ رِيَّاحَ وَتَحْتَ هَذِهِ أَشْبُونَة عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ
بَاجَة وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينُ وَمَوْزِيَّةُ عَلَى النَّهْرِ الذِّكُورِ ثُمَّ قَنْطَرَة السَّيْفِ وَيُسَامِتُ
أَشْبُونَة مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَبَلُ الشَّارَاتِ يَبْدَأُ مِنَ الْمَغْرِبِ هُنَاكَ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا مَعَ
آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ شِمَالِهِ فَيَنْتَهِي إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ فِيمَا بَعْدَ النِّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هَذَا الْجَبَلِ
طَلْبِيرَة فِي الشَّرْقِ مِنْ فُورَنَة ثُمَّ طُلَيْطَلَة ثُمَّ وَاْدِي الْحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوَّلِ
هَذَا الْجَبَلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَة بَلَدُ قَلْمَرِيَّةَ وَهَذِهِ غَرْبِيَّ الْأَنْدَلُسِ وَأَمَّا شَرْقِيَّ الْأَنْدَلُسِ
فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيّ مِنْهَا بَعْدَ الْمَرْيَةِ قَرْطَاجَنَة ثُمَّ لَفْتَة ثُمَّ دَانِيَة ثُمَّ بَلَنْسِيَة إِلَى
طَرُوشَة آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَتَحْتَهَا شِمَالًا لِيُورَقَة وَشَقُورَة تُتَاخِمَانِ بَسْطَة وَقَلْعَةُ رِيَّاحَ
مِنْ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ رَسِيَّةُ شَرْقًا ثُمَّ شَاطِبَة تَحْتَ بَلَنْسِيَة شِمَالًا ثُمَّ شَقْرُ ثُمَّ طَرُوشَة
ثُمَّ طَرْكُونَة آخِرِ الْجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَ هَذِهِ شِمَالًا أَرْضُ مَنَجَالَة وَرِيْدَة مُتَاخِمَاتِ لِسَقُورَة
وَطُلَيْطَلَة مِنْ الْغَرْبِ ثُمَّ أَفْرَاغَة شَرْقًا تَحْتَ طَرُوشَة وَشِمَالًا عَنْهَا ثُمَّ فِي الشَّرْقِ عَنْ مَدِينَةِ
سَالِمٍ قَلْعَةُ أَيُوبَ ثُمَّ سِرْقَسْطَة ثُمَّ لَارِدَة آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشِمَالًا وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا
الْإِقْلِيمِ غَمَرُ الْمَاءِ جَمِيعُهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ غَرْبِيَّةِ فِي الشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ جَبَلِ الْبُرْنَاتِ وَمَعْنَاهُ
جَبَلُ النَّبَايَا وَالسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ يَبْدَأُ مِنَ
الْطَّرَفِ الْمُنْتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عِنْدَ آخِرِ ذَلِكَ الْجُزْءِ جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَعُرُّ فِي الْجَنُوبِ

بِأَنْحَرافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ مُنْحَرَفًا عَنِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ تُقْضِي ثَنَابَاهَا إِلَى الْبَرِّ الْمُتَّصِلِ وَتُسَمَّى أَرْضَ غَشْكُونِيَّةٍ وَفِيهِ مَدِينَةٌ خَرِيدَةٌ وَقَرْقُسُونَةٌ وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مَدِينَةٌ بَرْسَلُونَةٌ ثُمَّ أَرْبُونَةٌ وَفِي هَذَا الْبَحْرِ الَّذِي غَمَرَ الْجُزْءَ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ وَالْكَثِيرُ مِنْهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ لِصِغَرِهَا فِي غَرْبِيَّةِ جَزِيرَةِ سِرْدَانِيَّةٍ وَفِي شَرْقِيَّةِ جَزِيرَةِ صِقْلِيَّةٍ مِتْسَعَةٌ الْأَفْطَارِ يُقَالُ إِنَّ دَوْرَهَا سَبْعُمِائَةٍ مِيلٍ وَبِهَا مَدُنٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَشَاهِيرِهَا مَرْقُوسَةٌ وَبَلَرْمُ وَطَرْبِيغَةٌ وَمَارَزُ وَمَسِينِي وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تُقَابِلُ أَرْضَ أَفْرِيْقِيَّةٍ وَفِيهَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ أَعْدُوشَ وَمَالِطَةَ. وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ إِلَّا ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا أَرْضُ قُلُورِيَّةٍ وَالْوَسْطَى مِنْ أَرْضِ أَبْكِيرِدَةٍ وَالشَّرْقِيَّةُ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ. وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ كَمَا مَرَّ وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي الثَّلَاثِ وَالْمَغْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةُ بَلُونَسَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ وَجَزِيرَةُ أَفْرِيْقِطَشَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْهُ. وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمَرَ الْبَحْرُ مِنْهُ مُثْلَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ يَنْتَهِي الضِّلْعُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ وَيَنْتَهِي الضِّلْعُ الْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْجُزْءِ وَيَبْقَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ نَحْوَ الثَّلَاثِ بِمَرُ الشَّمَالِ مِنْهَا إِلَى الْغَرْبِ مُنْعَطِفًا مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَا فِي النِّصْفِ الْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسَافِلُ الشَّامِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِهَا جَبَلُ اللَّكَّامِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الشَّامِ فِي الشَّمَالِ فَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ ذَاهِبًا إِلَى الْقَطْرِ الشَّرْقِيِّ الشَّمَالِيِّ وَيُسَمَّى بَعْدَ انْعِطَافِهِ جَبَلُ السَّلْسِلَةِ وَمِنْ هُنَاكَ يَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ وَيَقُومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ جِبَالٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى طَرَفٍ خَارِجٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مُتَأَخِّرٍ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ ثَنَابًا تُسَمَّى الدُّرُوبُ وَهِيَ الَّتِي تُقْضِي إِلَى بِلَادِ الْأَرَمَنِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ جَبَلِ السَّلْسِلَةِ فَأَمَّا الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ الَّتِي قَدَّمْنَا أَنَّ فِيهَا أَسَافِلَ الشَّامِ وَأَنَّ جَبَلُ اللَّكَّامِ مُعْتَرِضٌ فِيهَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَآخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدٌ أَنْطَرَطُوسَ فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ مُتَأَخِّمَةٌ

لغزة وطرابلس على ساحله من الإقليم الثالث وفي شمال أنطراطوس جبلة ثم اللاذقية
 ثم إسكندرون ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم وأما جبل اللسكام المعترض
 بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقيه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوبا من غربيه
 حصن الحوافي وهو للحشيشة الأماطية ويعرفون لهذا العهد بالقدابوية ويسمى مصبات
 وهو قبالة أنطراطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن
 خمس وفي الشمال وفي مصبات بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل
 المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية المصيصة ثم أذنة ثم طرسوس آخر
 الشام ويحاذيها من غرب الجبل قيسرين ثم عين زربة وقبالة قيسرين في شرق
 الجبل حلب ويقابل عين زربة منبع آخر الشام . وأما الدروب فعن يمينها ما
 بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلاطنتها
 ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا . وأما بلاد الأزم التي بين
 جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي
 ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأزم نهر جيحان ونهر سيجان في شرقيه فيمر بها
 جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينقطع هابطا
 إلى الشمال ومغربا حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية ويمر نهر سيجان
 موازيا لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام
 ثم يمر بين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينقطع إلى الشمال مغربا فيختلط بنهر
 جيحان عند المصيصة ومن غربها وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منقطع جبل اللسكام
 إلى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة والزقة ثم حران ثم مروج والرها ثم نصيبين
 ثم سميساط وأمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من
 شرقيه ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الإقليم
 الخامس ويمران في بلاد الأزم جنوبا إلى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات
 من غربي سميساط ومروج ويتعرف إلى الشرق فيمر بقرب الرافضة والزقة ويخرج
 إلى الجزء السادس ويمر دجلة في شرق أمد وينقطع قريبا إلى الشرق فيخرج قريبا
 إلى الجزء السادس وفي الجزء السادس من هذا الإقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي

الْشَرْقِ مِنْهَا بِلَادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى قُرْبِ آخِرِ الْجُزْءِ وَيَعْتَرِضُ مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَاكَ جَبَلٌ أَصْبَهَانَ هَاطِطًا مِنْ جَنْبِ الْجُزْءِ مُنْعَرِفًا إِلَى الْغَرْبِ فَإِذَا أَنْتَهَى إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغْرَبًا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السِّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هَذَا الْجُزْءُ السَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فِي الْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنْبِهَا تَخْرُجُ الْفُرَاتُ مِنَ الْخَامِسِ وَفِي شَمَالِهَا تَخْرُجُ دِجْلَةُ مِنْهُ أَمَّا الْفُرَاتُ فَأَوَّلُ مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ بِمَرُّ بِقَرْيَسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَاكَ جَدُولٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ قَرْيَسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْجَنْبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرَّحْبَةِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ مِنْ هُنَاكَ يَمُرُّ جَنُوبًا وَيَبْقَى صَفَيْنِ فِي غَرْبِيَّةٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقًا وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا بِالْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ابْنِ هَبِيرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعًا فِي جَنْبِ الْجُزْءِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ فَيَغُوصُ هُنَاكَ فِي شَرْقِ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ الْفُرَاتُ مِنَ الرَّحْبَةِ مُشْرِقًا عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتَ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ جَنْبِهَا ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةٍ عِنْدَ بَغْدَادَ وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةٍ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكْرِبُ وَتَنْتَهِي إِلَى الْحَدِيثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَيَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوبًا وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطُ بِالْفُرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوبًا عَلَى غَرْبِ جَرَّابَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَاكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ فَارَسَ عِنْدَ عِبَادَانَ وَفَمَا بَيْنَ نَهْرِ الدِّجْلَةِ وَالْفُرَاتِ قَبْلَ جَمْعِهِمَا بِبَغْدَادَ فِي بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةٍ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِبَغْدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّالِيَةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ النَّهْرَوَانَ قِبَالَ بَغْدَادَ شَرْقًا ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةٍ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بَلَدٌ جُلُوءٌ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بَلَدٌ حُلُوءٌ وَصَيْمَرَةٌ وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشْرِقًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي الْجَنْبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الصَّغْرَى بَلَدٌ خَوْنِجَانُ مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بَلَدُ الْهَلُوسِ

وَفِي وَسْطِهَا بَلَدٌ نَهَاوَنَدَ وَفِي شَمَالِهَا بَلَدٌ شَهْرُ زُورَ غَرْبًا عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَبَلَيْنِ وَالْدَيْنُورُ شَرْقًا
 عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ قَاعِدَتُهَا الْمَرَاةُ
 وَالَّذِي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِينُ لِلْأَكْرَادِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ
 وَالصَّغِيرُ الَّذِي عَلَى دِجْلَةٍ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ بِلَادُ أَذَرْبَيْجَانِ
 وَمِنْهَا تَبْرِيزُ وَالْبِيدَفَانُ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشَ
 وَهُوَ بَحْرُ الْخَزَرِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهَلُوسِ
 وَفِيهَا هَمْدَانُ وَقَزْوِينَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَفِيهَا هُنَالِكَ أَصْبَهَانُ وَيُحِيطُ بِهَا مِنَ
 الْجَنُوبِ جَبَلٌ يُخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي شَرْقِيهِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ وَإِنَّهُ مُحِيطٌ
 بِبِلَادِ الْهَلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَيَهْبِطُ هَذَا الْجَبَلُ الْحُحِيطُ بِأَصْبَهَانٍ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 الثَّلَاثِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا
 وَمُخْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانَ ثُمَّ ثُمَّ وَيَنْعَطِفُ فِي قُرْبِ النِّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغْرَبًا بَعْضَ الشَّيْءِ ثُمَّ
 يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشْرِقًا وَمُنْحَرِفًا إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ
 وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطِفِهِ وَأَسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرِّيِّ فِي شَرْقِيهِ وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطِفِهِ جَبَلٌ
 آخَرُ يَمُرُّ غَرْبًا إِلَى آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَزْوِينَ وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّمَالِيِّ
 وَجَانِبِ جَبَلِ الرِّيِّ الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ ثُمَّ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادُ طَبْرِسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ
 وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي نَحْوِ النِّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَرِضُ
 عِنْدَ جَبَلِ الرِّيِّ وَعِنْدَ انْعِطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلَى مَتْنِهِ مُشْرِقًا وَبِانْحِرَافٍ
 قَلِيلٍ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ الرِّيِّ وَهَذَا
 الْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدَأِ هِمَا بِلَادُ جُرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَمِنْهَا بِسْطَامُ وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ
 قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارِسَ وَخُرَاسَانَ وَهِيَ فِي شَرْقِ قَاشَانَ
 وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَادَ وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 بِلَادُ نَيْسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ فِي جَنُوبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ بَلَدُ نَيْسَابُورَ ثُمَّ مَرُّ الشَّاهِجَانِ
 آخِرَ الْجُزْءِ وَفِي شَمَالِهِ وَشَرْقِ جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ وَخَازَرُونَ وَطُوسُ آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا

وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ وَفِي الشَّامِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَا وَيُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجَزَيْنِ الشَّامِ وَالشَّرْقِ
مَقَاوِزُ مُعْطَلَةٌ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيَّةِ نَهْرٍ جَيِّحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى
الشَّامِ فِي عُدُوْتِهِ الْغَرْبِيَّةِ رَمَمُ وَأَمْلُ مِنْ بِلَادِ خُرَّاسَانَ وَالظَّاهِرِيَّةِ وَالْجَزْجَانِيَّةِ مِنْ بِلَادِ
خُورْدَزْمٍ وَيُحِيطُ بِالزَّاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ اسْتَرَابَادُ الْمُعْتَرِضُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ
قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيَّةِ وَيُحِيطُ بِهِ هَذِهِ الزَّاوِيَةُ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَّاهِ وَأَجُوزْ خَانَ
حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبَتَمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَاكَ وَفِي شَرْقِيَّةِ نَهْرٍ جَيِّحُونَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ
مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ثُمَّ بِلَادُ الصَّغْدِ وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ثُمَّ سَرْدَارَا وَأُشْنَةُ وَمِنْهَا خَجَنْدَةُ آخِرُ الْجُزْءِ
شَرْقَاوِي الشَّامِ عَنْ سَمَرْقَنْدٍ وَسَرْدَارَا وَأُشْنَةُ أَرْضُ إِيْلَاقِ^(١) ثُمَّ فِي الشَّامِ عَنْ إِيْلَاقِ أَرْضِ
الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقَاوِيَا خُذْ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ
فَرَّغَانَةِ وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي الْجُزْءِ
الثَّامِنِ إِلَى أَنْ يَنْصَبَّ فِي نَهْرٍ جَيِّحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ وَيَتَخَلِّطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيْلَاقِ نَهْرٌ يَأْتِي مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ تَغُومِ
بِلَادِ التَّبَّتِ وَيَتَخَلِّطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ فَرَّغَانَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ
جَبَلُ جَبْرَاغُونَ يَبْدَأُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقًا وَمُنْحَرَفًا إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى
يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ الشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ فَيُحِيطُ
بِالشَّاشِ وَفَرَّغَانَةِ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَبَيْنَ نَهْرِ الشَّاشِ وَطَرَفِ
هَذَا الْجَبَلِ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ فَارَابَ وَيَنْتَهِي وَبَيْنَ أَرْضِ بُخَارَى وَخُورَزْمٍ مَقَاوِزُ مُعْطَلَةٌ
وَفِي زَاوِيَةِ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الشَّامِ وَالشَّرْقِ أَرْضُ خَجَنْدَةَ وَفِيهَا بَلَدُ إِمِينَجَابَ وَطَرَارُ .
وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيَّةِ بَعْدَ أَرْضِ فَرَّغَانَةِ وَالشَّاشِ أَرْضُ الْخَزْجِيَّةِ
فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ الْخَلِيجَةِ فِي الشَّامِ وَفِي شَرْقِ الْجُزْءِ كُلِّهِ أَرْضُ الْكِيَاكِةِ وَتَبْتَصِلُ
فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلٍ قُوفِيَا آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقًا وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
هُنَاكَ وَهُوَ جَبَلُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهَذِهِ الْأُمَمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ التُّرْكِ . انتهى

الْإِقْلِيمُ الْخَامِسُ * الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَقْمُورٌ بِالْمَاءِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ جَنُوبِهِ
وَشَرْقِهِ لِأَنَّ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِهِ هَذِهِ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ دَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ

(١) في المشترك إقليم إيلاق متصل بإقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكر الممزة وسكون الباء بعدهما اهـ

وَالسَّابِعُ عَنِ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْإِفْلِيمِ فَأَمَّا الْمُنْكَشِفُ مِنْ جَنُوبِهِ فِقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ
مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٌ مِنْ هُنَاكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَانَتْهُمَا ضِلَعَانِ
مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثَلَّثِ فِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ سَعِيرٌ عَلَى الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ
مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَسَلْمَنْكَةُ شَرْقًا عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُورَةٌ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلْمَنْكَةَ
أَيْلَةُ آخِرِ الْجَنُوبِ وَأَرْضُ قَسْتَالِيَّةَ شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةُ شَقُونِيَّةٌ وَفِي شِمَالِهَا أَرْضُ لِيُونِ
وَبَرْغَشْتُ ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جَلِيقِيَّةٍ إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
فِي آخِرِ الضِّلَعِ الْغَرْبِيِّ بَلَدٌ شَنْتِيَاوُ وَمَعْنَاهُ يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ
شِطْلِيَّةٌ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ وَشَرْقًا عَنْ قَسْتَالِيَّةَ وَفِي شِمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقَّةٌ وَبَنْبُلُونَةُ
عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشِمَالًا وَفِي غَرْبِ بَنْبُلُونَةِ قَسْطَالَةُ ثُمَّ نَاجِزَةٌ فِيهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتِ
وَيَعْتَزُّضُ وَسَطَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُحَاطُ بِالْبَحْرِ وَالضِّلَعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى
قُرْبٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ وَيَطْرُقُ الْبَحْرُ عِنْدَ بَنْبُلُونَةِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ
يَتَّصِلَ فِي الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرُ حَجَرًا عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ
مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَثَنَابَاةُ لَهَا أَبْوَابٌ تُقْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةٍ مِنْ أَمْرِ الْفَرَنْجِ فِيهَا مِنْ
الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةُ وَتَرْقُسُونَةُ وَرَاءَهُمَا
فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شِمَالًا عَنْ خَرِيدَةِ . وَأَمَّا الْمُنْكَشِفُ فِي
هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فِقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ الْحَادَّةُ وَرَاءَ
الْبُرْنَاتِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ الْبُرْنَاتِ بَلَدٌ
نِيُونَةُ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ بَنْطُو مِنْ
الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَّةٍ وَفِي
شِمَالِهَا أَرْضُ بَنْطُو وَبَرْغَشْتُ وَقَدْ ذَكَرْنَا هُمَا وَفِي شَرْقِ بِلَادِ غَشْكُونِيَّةٍ فِي شِمَالِهَا
قِطْعَةٌ أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالْفَرَنْسِ مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا
وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَّةٍ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةٌ فِي جُودٍ مِنَ الْبَحْرِ وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
شِمَالًا بِلَادُ جَنْوَةِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلُ نَيْتِ جُونِ وَفِي شِمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ
بَرْغُونَةِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنْوَةِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرُ خَارِجٌ
مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونٌ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِهِ نَيْشُ وَفِي شَرْقِهِ مَدِينَةُ رُومَةُ

الْعُظْمَى كُزَيْبِي مَلِكِ الْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكِنِ الْبَابَا بَطْرِكِهِمِ الْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي
 الْفَخْخَةِ وَالْمَيَاكِلِ الْمَائِلَةِ وَالْكُنَائِسِ الْعَادِيَةِ مَا هُوَ مَعْرُوفُ الْأَخْبَارِ وَمِنْ عَجَائِبِهَا
 النَّهْرُ الْجَارِي فِي وَسْطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَفْرُوشٌ قَاعُهُ بِبِلَاطِ الثُّعَاسِ وَفِيهَا
 كَنِيسَةُ بَطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ الْخَوَارِجِ وَهُمَا مَدْفُونَانِ بِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ
 رُومَةَ بِلَادُ أَفْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَعَلَى هَذَا الطَّرَفِ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي فِي جَنُوبِهِ
 رُومَةُ بِلَادُ نَابِلَ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ قُلُورِيَّةَ مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَفِي شِمَالِهَا
 طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مَغْرِبًا وَمُعَازِيًا لِلشَّمَالِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَانْتَهَى إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا
 الْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ وَمِنْ شِمَالِهِ بِلَادُ إِنْكَلَابَةِ فِي الْإِفْلِيمِ
 السَّادِسِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بِلَادُ قُلُورِيَّةَ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ
 وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ مُحِيطٌ بِهَا مِنْ شَرْقِيهِ يَصِلُ مِنْ بَرِّهَا فِي الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 فِي جُونِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ فِي شَرْقِ بِلَادِ
 قُلُورِيَّةَ بِلَادُ أَنْكِيرْدَةَ فِي جُونِ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفٌ مِنْ
 هَذَا الْجُزْءِ فِي الْجُونِ فِي الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ . وَفِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِيهِ خَلِيجُ
 الْبِنَادِقَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمْتِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْغَرْبِ مُعَازِيًا لِآخِرِ
 الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُؤَاوِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ
 إِلَى الشَّمَالِ ثُمَّ يَغْرُبُ مَعَهُ فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ قِبَالَ خَلِيجِ فِي شِمَالِهِ
 فِي بِلَادِ إِنْكَلَابَةِ مِنْ أُمَّهِ الْإِمَانِيِّينَ كَمَا نَذَكُرُ وَعَلَى هَذَا الْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا
 الْجَبَلِ مَا ذَاهِبِينَ إِلَى الشَّمَالِ بِلَادُ الْبِنَادِقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى الْمَغْرِبِ فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ
 حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ الْأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلِيجِ . وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ
 قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ مُضْرَسَةٌ كُلُّهَا يَقْطَعُ مِنْ
 الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ خَرَسَتَيْنِ مِنْهَا طَرَفٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْجُونِ بَيْنَهُمَا
 وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا قِطْعٌ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ
 مِنْ هَذَا الطَّرَفِ الْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ
 وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ عَنْ قُرْبِ مُسْرِقًا إِلَى بَحْرِ نِيطُسَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَبَعْضِ الرَّابِعِ

قَبْلَهُ وَالسَّادِسِ بَعْدَهُ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذَكُرُ وَبَلَدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِي هَذَا
الْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيَّ الْقِيَاصِرَةِ
وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَالضَّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ
الرُّومِيِّ وَخَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادُ مَقْدُونِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ
وَمِنْهَا أَيْتِدَاهُ مُلْكِهِمْ وَفِي شَرْقِي هَذَا الْخَلِيجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ
وَأَظْهَرُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتُ لِلتُّرُكُمَانِ وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بَرَصَةٌ وَكَانَتْ
مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَغَلَبَهُمْ عَلَيْهَا الْأُمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلتُّرُكُمَانِ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيَّةٍ وَجَنُوبِيَّةٍ أَرْضُ بَاطُوسَ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
بِلَادُ عَمُورِيَّةِ وَفِي شَرْقِي عَمُورِيَّةِ نَهْرُ قَبَانِبِ الَّذِي يُعِدُّ الْفُرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ هُنَاكَ
وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يُخَالِطَ الْفُرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ إِلَى تَمَرِهِ فِي الْإِقْلِيمِ
الرَّابِعِ وَهُنَاكَ فِي غَرْبِيَّةِ آخِرِ الْجُزْءِ فِي مَبْدَأِ نَهْرِ سِيحَانٍ ثُمَّ نَهْرُ جِيحَانَ غَرْبِيَّةِ الدَّاهِبِينَ
عَلَى سَمْتِهِ وَنَدَّ مَرَّ ذِكْرُهُمَا وَفِي شَرْقِي هُنَاكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دِجَلَةَ الدَّاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ وَفِي
مُؤَازَرَتِهِ حَتَّى يُخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ وَفِي الزَّوَايَةِ الَّتِي بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دِجَلَةَ بَلَدُ مَيَّافَرِينَ وَنَهْرُ قَبَانِبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ
هَذَا الْجُزْءَ بِقِطْعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَا وَآسَافِلَهَا
إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شِمَالًا وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ قَبَانِبِ أَرْضُ عَمُورِيَّةِ كَمَا
قُلْنَا وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَّةُ شَرْقِيَّةٌ شِمَالِيَّةٌ عَلَى الثَّلَاثِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ دِجَلَةَ وَالْفُرَاتِ وَفِي
الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلَقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عَمُورِيَّةِ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَانِبِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ وَفِي
آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَأِ الْفُرَاتِ بَلَدُ حَرْشَنَةِ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ
نِيطِسَ الَّذِي يُعِدُّ خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ
وَعَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ وَسَطَ الْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ وَفِيهَا بِلَدَانُ
أَرْدُنَ فِي الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَفِي شِمَالِهَا تَفْلِسُ وَدَيْلُ وَفِي شَرْقِ أَرْدُنَ مَدِينَةُ خَلَاطُ ثُمَّ
بَرْدَعَةُ فِي جَنُوبِهَا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةِ وَمِنْ هُنَاكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةِ
إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِيهَا هُنَاكَ بَلَدُ الْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِي جَبَلِ الْأَكْرَادِ الْمُسَمَّى بِأَرْمَى
وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَيَتَاخَمُ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْإِقْلِيمِ

الرَّابِعَ قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَدْرِيجَانَ وَآخِرُهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ شَرْقًا بِلَادُ أَرْدَيْلٍ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ دَخَلَتْ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَيُسَمَّى بَحْرَ طَبَرْسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شِمَالِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَزَرِ وَهُمْ التُّرْكُمَانُ وَيَبْدَأُ مِنْ عِنْدِ آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةٌ وَمُحِيطَةٌ بِبَلَدِ مِيَاْفَارَقِينَ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ آمِدَ وَيَتَّصِلُ بِجِبَلِ السَّيْسَلَةِ فِي أَسْفَلِ الشَّامِ وَمِنْ هُنَاكَ يَتَّصِلُ بِجِبَلِ اللِّسْكَامِ كَمَا مَرَّ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ ثَنَائِيَا كَلَّا بَوَابٍ تَقْضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ فِي جَنُوبِيَّهَا بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوَابِ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الْأَبْوَابِ فِي الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِيَّهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَّةٍ وَبَيْنَهُمَا فِي الشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلَادِ أَدْرِيجَانَ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ وَفِي شَمَالِ هَذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ السَّرِيرِ فِي الزَّاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَةِ الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضًا مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ الَّذِي يُعْمَدُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَيَحُفُّ بِهَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ نِيطِشَ بِلَادُ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدُ أَطْرَا بَزِيدَةَ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جِبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقًا إِلَى جِبَلِ حَاجِرٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُولٍ وَوَرَاءَ هَذَا الْجِبَلِ الْحَاجِرِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ وَآخِرُ الْجُزْءِ شَمَالًا . وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَرْبِيَّةٌ كُلُّهُ مَعْمُورٌ بِبَحْرِ طَبَرْسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا هُنَاكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبَرْسْتَانَ وَجِبَالِ الدِّلَمِ إِلَى فَرْوِينَ وَفِي غَرْبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهَا أَيْضًا وَيَتَكَشَّفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ أَثَلٌ فِي هَذَا الْبَحْرِ وَيَبْقَى مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي مَجَالَاتٍ لِلْغُرِّ مِنْ أَمَمِ التُّرْكِ يُحِيطُ بِهَا جِبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلَاقِيَ بَحْرَ طَبَرْسْتَانَ فَيَحْتَفُّ بِهِ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ

ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَاكَ جَبَلُ سِبَاةٍ وَيَذْهَبُ مُغْرِبًا إِلَى الْجُزْءِ
الْسادسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ
وَهَذَا الطَّرَفُ مِنْهُ وَهُوَ الَّذِي اعْتَرَضَ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ
وَاتَّصَلَتْ بِأَرْضِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلُ
سِبَاةٍ كَمَا سَيَأْتِي. وَالْجُزْءُ الثَّامِنُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كُلُّهُ تَجَالَاتٌ لِلْغُرِّ مِنْ أَمْرِ
الْتُرْكِ وَفِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِحَيْرَةُ خُورَازْمِ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ جَيِّحُونَ دَوْرُهَا
ثَلَاثُمِائَةِ مِيلٍ وَبَصْبٌ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هَذِهِ التَّجَالَاتِ وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ
الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بِحَيْرَةُ عُرْعُونَ دَوْرُهَا أَرْبَعُمِائَةِ مِيلٍ وَمَاوُهَا حُلُوٌّ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَبَلُ مِرْغَارٍ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ الثَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَذُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ الْجُزْءِ
وَفِي الْجَنُوبِ عَنْ بِحَيْرَةِ عُرْعُونَ جَبَلٌ مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ لَا يَنْبُتُ شَيْئًا يُسَمَّى عُرْعُونَ وَبِهِ
سُمِّيَتِ الْبَحِيرَةُ وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مِرْغَارِ شَمَالِي الْبَحِيرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَصُبُّ
فِيهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ. وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ أَرْكَسَ مِنْ أَمْرِ الْتُرْكِ فِي
غَرْبِ بِلَادِ الْغُرِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِتِ وَيَمُوتُ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ آخِرُ الْجُزْءِ
جَبَلٌ فَوْقَ الْخَيْطِ بِأَجُوجَ وَمَا جُوجَ بَعْتَرَضُ هُنَاكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ
أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَأَخْتَفَ هُنَاكَ بِالْبَحْرِ الْخَيْطِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ ثُمَّ انْعَطَفَ مُغْرِبًا
فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ
الْكِيْمَاكِتِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَذْهَبَ فِيهِ مُغْرِبًا إِلَى آخِرِهِ
وَبَقِيََتْ فِي جَنُوبِيهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِتِ
ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي شَرْقِيهِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْهُ وَانْعَطَفَ قَرِيبًا إِلَى الشَّمَالِ وَذْهَبَ
عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِيهِ السُّدُّ هُنَاكَ كَمَا نَذَرْنَاهُ
وَبَقِيََتْ مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلٌ فَوْقًا عِنْدَ الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَا جُوجَ وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ
أَرْضُ يَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلُّهَا إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ غَمَرَتْ طَرَفًا فِي شَرْقِيهِ مِنْ جَنُوبِهِ
إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا الْقِطْعَةَ الَّتِي يَفْصُلُهَا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ جَبَلٌ فَوْقًا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا

سِوَى ذَلِكَ فَأَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
 الْإِقْلِيمُ السَّادِسُ . فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرُ الْبَحْرِ أَكْثَرُ مِنْ نِصْفِهِ وَأَسْتَدَارَ شَرْقًا
 مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ وَانْتَهَى قَرِيبًا مِنَ النَّاحِيَةِ
 الْجَنُوبِيَّةِ فَأُنْكَشِفَتْ قِطْعَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْجُزْءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَفِي
 الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَحْرِ الْحَمِيطِ كَالْجُونِ فِيهِ وَيَنْمَسِحُ طُولًا وَعَرْضًا وَهِيَ
 كُلُّهَا أَرْضُ بَرِيطَانِيَّةٍ وَفِي بَاطِنِهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْجُزْءِ بِلَادُ صَاقِسَ مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ بِنْتُوَالْتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ
 الْخَامِسِ . وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ دَخَلَ الْبَحْرَ الْحَمِيطَ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ فَمِنْ غَرْبِهِ
 قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِ الشَّمَالِ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بَرِيطَانِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ
 وَاتَّصَلَتْ بِهَا الْقِطْعَةُ الْآخَرَى فِي الشَّمَالِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَانْفَسَحَتْ فِي النِّصْفِ
 الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ وَفِيهِ هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةٍ أَنْكَلِتَرَا وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ
 مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَدُنٍ وَبِهَا مَلِكٌ مُخْتَمٌ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
 وَجَزِيرَتِهَا فِي النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ أَرْمَنْدِيَّةٍ وَبِلَادُ أُنْغَلَدَشَ مُتَّصِلَتَانِ بِهَا
 ثُمَّ بِلَادُ إِفْرَنْسِيَّةٍ جَنُوبًا وَغَرْبًا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَبِلَادُ بَرْغُونِيَّةٍ شَرْقًا عَنْهَا وَكُلُّهَا لِأُمَمٍ
 الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَبِلَادُ اللَّيْمَانِيِّينَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ الْجَنُوبِيِّ بِلَادُ أَنْكَلَايَةِ ثُمَّ
 بِلَادُ بَرْغُونِيَّةٍ شَمَالًا ثُمَّ أَرْضُ لَهْوِيكَّةَ وَشَطُونِيَّةَ وَعَلَى قِطْعَةِ الْبَحْرِ الْحَمِيطِ فِي الزَّوَايَةِ
 الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ أَفْرِيرَةَ وَكُلُّهَا لِأُمَمِ اللَّيْمَانِيِّينَ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا
 الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِلَادُ مَرَاتِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ شَطُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ
 الشَّرْقِيَّةِ بِلَادُ أَنْكَوِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ بَلُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بُلُوطَ
 دَاخِلًا مِنَ الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَيَعُرُّ مَغْرِبًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ
 شَطُونِيَّةٍ آخِرِ النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ . وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ أَرْضُ جَنُوبِيَّةٍ وَتَحْتَهَا
 فِي الشَّمَالِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بُلُوطَ مِنْ أَوَّلِ الْجُزْءِ غَرْبًا إِلَى أَنْ
 يَقِفَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَنُوبِيَّةٍ بِلَادُ جُرْمَانِيَّةٍ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
 الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْخَلِيجِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَعِنْدَ
 مِدْفَعِهِ فِي بَحْرِ نِيطَشَ فَيَقَعُ قُطْبُهَا مِنْ بَحْرِ نِيطَشَ فِي أَعَالِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا

الجزء ويُمِدُّهَا الْخَلِيجُ وَيَتَنَهُمَا فِي الزَّاوِيَةِ بَلَدُ مَسِينَاةَ وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
الْسادسِ ثُمَّ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نِيطِشٍ يَتَّصِلُ مِنَ الْخَلِيجِ فِي آخِرِ الْجُزْءِ
الرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ تَمَنِهِ مُشْرِقًا فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ كُلِّهِ وَفِي بَعْضِ السَّادِسِ عَلَى طُولِ
أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ مِيلٍ مِنْ مَبْدَأِهِ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةٍ مِيلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ فِي
النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرْقَلِيَّةٌ عَلَى
سَاحِلِ بَحْرِ نِيطِشٍ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ الْبَيْلَقَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ اللَّانِيَّةِ
وَقَاعِدَتُهَا سَوْتَلِي عَلَى بَحْرِ نِيطِشٍ وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نِيطِشٍ فِي هَذَا الْجُزْءِ غَرْبًا أَرْضُ تَرْخَانَ
وَشَرْقًا بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ وَبِلَادُ الرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرْخَانَ
مِنْ شَرْقِهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهَا فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا
فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نِيطِشٍ
وَيَتَعَرَّفُ قَلِيلًا إِلَى الشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَاكَ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا بِلَادُ قَمَانِيَّةَ وَفِي
جَنُوبِهِ مُنْفَسِحًا إِلَى الشَّمَالِ بِمَا ائْتَمَرَفَ هُوَ كَذَلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ اللَّانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ
جَنُوبِهِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْخَزَرِ وَفِي
شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بِلَغَارَ وَفِي الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
الْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلَجَرٍ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلٍ سِيَاكُوهَ الْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ الْخَزَرِ
فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مُغْرَبًا فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى
الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَاكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَاكَ
نَاحِيَةُ بِلَادِ الْخَزَرِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَا جَاذَهُ
جَبَلٌ سِيَاةَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِحَرَ طَبَرْسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ غَرْبًا
وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ
جَبَلِ سِيَاةَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
أَرْضُ شَحْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمُّ التُّرْكِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلُّهَا
أَرْضُ الْجَوْنِجِ مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْبًا وَالْأَرْضُ الْمُنْتَنَةُ وَشَرْقُ الْأَرْضِ الَّتِي
يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَأَجُوجَ خَرَّبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ السُّدِّ وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ مَبْدَأُ نَهْرٍ
الَّذِي مِنَ أَكْثَرِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ وَمَمْرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَصْبُهُ فِي بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ فِي الْإِقْلِيمِ

الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ الْأَنْعِطَافِ يُخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ
 مِنْ ثَلَاثَةِ بَنَائِعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا
 الْأَقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالًا إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ
 الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَغْرِبًا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ
 يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ
 جَدُولٌ يَذْهَبُ مَغْرِبًا وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نَبِطِشَ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّمَالِ
 وَالشَّرْقِ فِي بِلَادٍ بَلْعَارَ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً
 إِلَى الْجَنُوبِ وَيَنْقُذُ فِي جَبَلٍ سِبَاهٍ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ الْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ
 فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي انْكَشَفَتْ مِنْ
 الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّائِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَالْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ
 مِنْهُ بِلَادُ خَنْشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ قَفْجَاقُ وَبِلَادُ السَّرَكَسِ مِنْهُمْ أَيْضًا وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ
 بِلَادُ بَأْجُوجَ يَفْصُلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ قَوْفِيًا الْغَمِيضُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ بَيِّنًا مِنَ الْبَحْرِ الْغَمِيضِ
 فِي شَرْقِ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ الْأَقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ وَيَفَارِقُهُ مَغْرِبًا
 وَيَأْتِيهِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى
 سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ
 بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الْمَغْرِبِ وَفِي وَسْطِهِ هُنَا السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْإِسْكَندَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ
 إِلَى الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى الْبَحْرَ
 الْغَمِيضَ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَاكَ مَغْرِبًا إِلَى الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ مِنْهُ فَيَفْصِلُ هُنَاكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْغَمِيضِ فِي غَرْبِهِ وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ
 التَّاسِعِ هُوَ السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْإِسْكَندَرُ كَمَا قُلْنَا وَالصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي الْقُرْآنِ
 وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَرْدَاذِبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغَرَفِيَا أَنَّ الْوَائِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ
 كَانَ السُّدَّ انْفَتَحَ فَأَنْتَبَهَ فَرَعًا وَبَعَثَ سَلَامًا إِلَى التَّرْجُمَانِ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَصَفِهِ
 فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ
 بِلَادُ مَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْغَمِيضِ أَحَاطَتْ بِهِ
 مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ

الإقليم السابع * والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء
 الخامس حيث يتصل بجبل قونيا المحيط بياجوج وماجوج . فالجزء الأول والثاني
 مغموران بالماء إلا ما انكشف من جزيرة أذكليرا التي معظمها في الثاني وفي الأول
 منها طرف انعطفت بانحراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه
 في الجزء الثاني من الإقليم السادس وهي مذكورة هناك والجزء منها إلى البر في
 هذه القطعة ستة اثني عشر ميلاً ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة
 رسلاندة مستطيلة من الغرب إلى الشرق . والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور
 أكثره بالبحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه وتنتسح في شرقها وفيها هناك متصل أرض
 فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس وأنها في شماله وفي القطعة من
 البحر التي تفر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة قسيحة وتتصل بالبر من
 باب في جنوبها يفضي إلى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة برعاقبة (وفي نسخة بوقاعة)
 مستطيلة مع الشمال من الغرب إلى المشرق . والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله
 كله مغمور بالبحر المحيط من الغرب إلى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه
 أرض فيمازك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلان إلى آخر الجزء شرقاً
 وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الإقليم السادس وفي
 الجزء الرابع والخامس منه وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في الناحية الغربية منه
 بلاد الروسية وينتهي في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل
 قونيا كما ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانيّة التي على
 قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الإقليم السادس وينتهي إلى بحيرة طرمي
 من هذا الجزء وهي عذبة تنجلب إليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال
 وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التارية من الترك (وفي نسخة التركان)
 إلى آخره . وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانيّة وفي
 وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب إليها الأنهار من الجبال في النواحي الشرقية
 وهي جامدة دائماً لشدّة البرد إلا قليلاً في زمن الصيف وفي شرق بلاد القمانيّة بلاد

الرُّوسِيَّةُ الَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الزَّائِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَرِ الَّتِي كَانَ
مَبْدَأُهَا فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ
وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرِ مُنْعَطَفُ نَهْرِ أَثَلِ الْقِطْعَةِ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ
كَمَا مَرَّ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شِمَالِهِ جَبَلٌ قُوفِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ
وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بِيخْنَاكَ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ وَكَانَ
مَبْدَأُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ قَوْفِهِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
بَقِيَّةُ أَرْضِ سُرَّجَتِ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُتْنَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ
جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ قُوفِيَا الْمُحِيطُ مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا
الْإِفْلِيمِ فِي الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلُ الْأَرْضِ الْمُتْنَةِ وَفِي شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمُحْفُورَةُ
وَمِنْ الْعَجَائِبِ خَرَقَ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ بَعِيدُ الْمَهْوَى فَسَبَّحُ الْإِفْطَارِ مُسْتَمْتَعُ الْوُصُولِ
إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى عُمُرَانِهِ بِالْأُخَانِ فِي النَّهَارِ وَالنَّيْرَانِ فِي اللَّيْلِ تُضِيهِ وَتُخْفِي وَرُبَّمَا
رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشْقُهَا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ
الْخَرَابُ الْمُشَاخِمَةُ لِلشَّامِ وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ قُوفِيَا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ
وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخِ وَهُمْ قَفْجِيُّ
يَجُوزُهَا جَبَلٌ قُوفِيَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شِمَالِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى
الْجَنُوبِ بِأَنْحَرَانٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ
مُعْتَرِضًا فِيهِ وَفِي وَسْطِهِ هُنَالِكَ سُدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجُ وَرَاءَ جَبَلٍ قُوفِيَا عَلَى الْبَحْرِ قَلِيلَةَ الْعَرْضِ مُسْتَعْبِلَةٌ . نَاطَتْ
بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشِمَالِهِ . وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ غَمَرُ الْبَحْرِ جَمِيعُهُ . هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْجُغَرَفِيَا
وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر

والكثير في احوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْعَمُورَ مِنْ هَذَا الْمَنْعُكَشِفِ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ
الْحَرِّ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ . وَلَمَّا كُنَّا الْجَانِبَيْنِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ
مُتَضَادَّيْنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونُ
مُعْتَدِلًا فَأَلَا قَدِيمُ الرَّابِعِ أَعْدَلُ الْعُمُرَانِ وَالَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى
الْإِعْتِدَالِ وَالَّذِي بَيْنَهُمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ الْإِعْتِدَالِ وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ
أَبْعَدُ بكَثِيرٍ فَلِهَذَا كَانَتْ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْعِبَادِي وَالْمَلَابِسُ وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاحِشُ بَلْ
وَالْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِالْإِعْتِدَالِ
وَسُكَّانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَالْوَنَاءُ وَأَخْلَاقًا وَأَدْيَانًا حَتَّى الثُّبُوتُ فَإِنَّمَا تُوجَدُ
فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ تَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بَعْثَةٍ فِي الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ
الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى كُنْتُمْ
خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَذَلِكَ لِتَمِّمِ الْقَبُولُ بِمَا بَأَنِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَهْلُ
هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لَوْجُودِ الْإِعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِينِهِمْ
وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَانِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَخَذُونَ الْبُيُوتَ الْمُجَنَّدَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمُسَمَّكَةِ بِالصَّنَاعَةِ
وَيَتَنَاعُونَ فِي اسْتِجَادَةِ الْأَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَتُوجَدُ لَدَيْهِمْ
الْعِمَادُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّعَاسِ وَالرِّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ
وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ وَيَعْدُونَ عَنِ الْإِنْحِرَافِ فِي غَايَةِ أَحْوَالِهِمْ
وَهُؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقَيْنِ وَالْمِنْدِ وَالسِّنْدِ وَالصِّيفِ
وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قُرْبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ
مَعَ هَؤُلَاءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعْدَلُ
هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطُ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَاتِ . وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ مِثْلَ الْأَوَّلِ
وَالثَّانِي وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَيَبْتَاعُونَ بِالطَّيْنِ

وَالْقَصَبِ وَأَفْوَانُهُمْ مِنَ الذَّرَّةِ وَالْعِشْبِ وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ يَخْفِفُونَهَا عَلَيْهِمْ
 أَوْ الْجُلُودِ وَأَكْثَرُهُمْ عَرَابًا مِنَ اللَّبَاسِ وَفَوَاكِهُ بِلَادِهِمْ وَأَدَمُهَا غَرِيبَةٌ التَّصْخُوبِينَ مَائِلَةً
 إِلَى الْإِنْحِرَافِ وَمُعَامَلَاتُهُمْ بِغَيْرِ الْحَجَرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ
 يَقْدِرُونَهَا لِلْمُعَامَلَاتِ وَأَخْلَاقُهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خَلْقِ الْحَيَوَانَاتِ النُّجُمِ حَتَّى لِيُنْقَلَ
 عَنْ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلُ الْإِفْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكَهُوفَ وَالْفِيَاضَ
 وَيَأْكُلُونَ الْعِشْبَ وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ غَيْرُ مُسْتَأْنِسِينَ بِأَكْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَكَذَا الصَّقَالِبَةُ
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الْإِعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْرَجَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ
 عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ النُّجُمِ وَيَتَعَدُّونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي
 الدِّيَانَةِ أَيْضًا فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةَ وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ إِلَّا مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ
 الْإِعْتِدَالِ وَهُوَ فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِثْلَ الْحَبَشَةِ الْجَوَارِينَ لِلْيَمَنِ الدَّائِنِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ
 فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَالتَّكُرُورِ الْجَوَارِينَ
 لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمِائَةِ السَّابِعَةِ
 وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَّةِ الصَّقَالِبَةِ وَالْأَفَرَنْجَةِ وَالتُّرْكِ مِنَ الشِّمَالِ وَمِنْ سِوَى
 هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ الْمُتَحَرِّفَةِ جَنُوبًا وَشِمَالًا فَالَّذِينَ يُجْهَلُونَ عِنْدَهُمُ وَالْعِلْمُ مُفْقُودٌ
 بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ وَيَخْلُقُ مَا
 لَا تَعْلَمُونَ وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بِوُجُودِ الْيَمَنِ وَحَضْرَتِهِمْ وَالْأَحْقَافِ وَبِلَادِ
 الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِفْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ
 الْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْحِجَازُ مِنَ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي
 رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَتَقْصُ ذَلِكَ مِنَ اللَّبَسِ وَالْإِنْحِرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ
 الْإِعْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ الْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمُ بَعْضُ النَّسَابِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ
 الْكَائِنَاتِ أَنَّ السُّودَانَ هُمْ وَلَدُ حَامٍ بْنِ نُوحٍ اخْتَصَمُوا بِلَوْنِ السَّوَادِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرِّقِ فِي عَقِبِهِ وَيَنْقَلُونَ فِي ذَلِكَ حِكَايَةً
 مِنْ خُرَافَاتِ الْقُصَاصِ وَدَعَا نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ
 السَّوَادِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَيْدًا وَلَوْ إِخْوَتُهُ لَا غَيْرُ وَفِي الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ
 السَّوَادِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَأَثَرِهِمَا فِي الْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ

مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ شَمَلَ أَهْلَ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ
 لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ فَإِنَّ الشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةً
 إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى فَتَطُولُ الْمُسَامَنَةُ عَامَةً الْفُصُولِ فَيَكْثُرُ الضَّوْءُ لِأَجْلِهَا وَيُلْحِقُ
 الْقَيْظُ الشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ وَتَسْوَدُّ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْأَقْلِيمَيْنِ مِمَّا يُقَابِلُهُمَا
 مِنَ الشَّمَالِ الْأَقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانَهُمَا أَيْضًا الْبَيَاضُ مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ
 لِلْبَرْدِ الْمَغْرُطِ بِالشَّمَالِ إِذِ الشَّمْسُ لَا تَزَالُ بِأَفْقِهِمْ فِي دَائِرَةٍ مَرَّأَى الْعَيْنِ أَوْ مَا قَرُبَ
 مِنْهَا وَلَا تَرْتَفِعُ إِلَى الْمُسَامَنَةِ وَلَا مَا قَرُبَ مِنْهَا فَيُضَعْفُ الْحَرُّ فِيهَا وَيَشَدُّ الْبَرْدُ عَامَةً
 الْفُصُولِ فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى الزُّعُورَةِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ مِزَاجُ الْبَرْدِ
 الْمَغْرُطِ مِنْ ذُرْقَةِ الْعُيُونِ وَبَرَشِ الْجُلُودِ وَهُهَوِيَّةِ الشُّعُورِ وَتَوَسَّطَتَ بَيْنَهُمَا الْأَقَالِيمُ
 الثَّلَاثَةُ الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّالِثُ فَكَانَ لَهَا فِي الْأَعْتِدَالِ الَّذِي هُوَ مِزَاجُ الْمُتَوَسِّطِ
 حَظٌّ وَافِرٌ وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي الْأَعْتِدَالِ غَايَةً لِنَهَائِهِ فِي التَّوَسُّطِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ فَكَانَ لِأَهْلِهِ
 مِنَ الْأَعْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ مَا اقْتَضَاهُ مِزَاجُ أَهْوِيَّتِهِمْ وَتَبِعَهُ مِنْ جَانِبِهِ الثَّالِثُ
 وَالْخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغَا غَايَةَ التَّوَسُّطِ لِمِيلِ هَذَا قَلِيلًا إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ وَهَذَا قَلِيلًا إِلَى
 الشَّمَالِ الْبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى الْأَنْحِرَافِ وَكَانَتِ الْأَقَالِيمُ الْأَرْبَعَةُ مُتَعَرِّفَةً وَأَهْلُهَا
 كَذَلِكَ فِي خُلُقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ فَالْأَوَّلُ وَالثَّانِي لِلْحَرِّ وَالسَّوَادُ وَالسَّابِعُ لِلْبَرْدِ وَالْبَيَاضُ وَيُسَمَّى
 سُكَّانُ الْجَنُوبِ مِنَ الْأَقْلِيمَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي بِاسْمِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنَجِ وَالسُّودَانَ أَسْمَاءَ
 مُتَرَادِفَةٍ عَلَى الْأَمْرِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِالسَّوَادِ وَإِنْ كَانَ أَمْرُ الْحَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تَجَاهَ
 مَكَّةَ وَالْيَمَنَ وَالزَّنَجِ بِمَنْ تَجَاهَ بَحْرَ الْهِنْدِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ
 إِلَى آدَمِيٍّ أَسْوَدَ لَا حَامٍ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ نَجَدُ مِنَ السُّودَانَ أَهْلَ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ
 الرَّبْعَ الْمُعْتَدِلَ أَوْ السَّابِعَ الْمُتَعَرِّفَ إِلَى الْبَيَاضِ فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ
 مَعَ الْأَيَّامِ وَبِالْعَكْسِ فَيَمْنَنُ يَسْكُنُ مِنْ أَهْلِ الشَّمَالِ أَوْ الرَّابِعِ بِالْجَنُوبِ فَتَسْوَدُّ
 أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ الْهَوَاءِ قَالَ ابْنُ سِينَا فِي
 أَزْجُوزَتِهِ فِي الطَّبِّ

بِالزَّنَجِ حَرٌّ غَيْرُ الْأَجْسَادِ حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادًا
 وَالصِّقْلُ أَكْتَسَبَتِ الْبَيَاضَ حَتَّى غَدَّتْ جُلُودَهَا بَيَاضًا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّامِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِأَعْتَابِ الْوُائِهِمْ لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ اللَّغَةِ
 الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَعْمَلُ عَلَى أَعْتَابِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ وَأَعْتَابِهِ
 وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ التُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغُرُغُرِ وَالْخَزَرِ وَاللَّانِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْأَفْرَنْجَةِ
 وَبِأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءَ مُتَفَرِّقَةً وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءَ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَمَّا أَهْلُ
 الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلُ الْأَعْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ وَسَبْرِهِمْ وَكَافَّةِ الْأَحْوَالِ
 الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِعْتِمَادِ لِنَبِيهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرِّثَاسَاتِ
 وَالْمُلُكِ فَكَانَتْ فِيهِمُ النَّبُوءَاتُ وَالْمُلُكُ وَالْأَدُولُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ
 وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي
 وَقَفْنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلِ السِّنْدِ
 وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسِمَاتِهَا وَشِعَارِهَا حَسِبُوا ذَلِكَ
 لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وَلَدِ حَامٍ وَارْتَابُوا فِي الْوُائِهِمْ
 فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّامِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وَلَدِ
 يَافِثَ وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسْطِ الْمُنْتَحِيلِينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمِلَلِ
 وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلُكِ مِنْ وَلَدِ سَامٍ وَهَذَا الرَّعْمُ وَإِنْ صَادَفَ الْحَقُّ فِي انْتِسَابِ
 هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَرَّدٍ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ
 بِالسُّودَانَ وَالْحَبْشَانِ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الْأَسْوَدِ . وَمَا أَدَّاهُمْ إِلَى هَذَا الْغَلَطِ
 إِلَّا أَعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ
 لِلْجِيلِ أَوِ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفُرْسِ وَبَكُونُ
 بِالْجِهَةِ وَالسِّمَةِ كَمَا لِلزَّنَجِ وَالْحَبْشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانَ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشِّعَارِ
 وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِثِهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ
 فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ فُلَانٍ الْمَعْرُوفِ
 لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ نَحْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وَجِدَتْ لِذَلِكَ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْإِغْلَاطِ الَّتِي أَوْقَعَ
 فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الْأَسْكَوَانِ وَالْجِهَاتِ وَإِنْ هَذِهِ كُلُّهَا تَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ
 اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ
 وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنِمْ الرُّؤُوفُ الرَّحِيمُ

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ الْخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ فَتَجِدُهُمْ مُوَلِّعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ مَوْصُوفِينَ بِالْحُمُورِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَتَفْشِيهِ وَطَبِيعَةُ الْحُزَنِ بِالْعَكْسِ وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ . وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفْشِيَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالْبُخَارِ مُخْلِجَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَيْتِهِ وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُنْتَشِي مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ وَذَلِكَ بِمَا يَدْخُلُ بُخَارُ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعَثُهَا سَوْرَةُ الْخَمْرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مَزَاجِهِ فَيَتَفَشَّى الرُّوحُ وَتَجِبِيهِ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ وَكَذَلِكَ نَجِدُ الْمُتَتَعِّمِينَ بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذَلِكَ حَدَّثَ لَهُمْ فَرَحٌ وَرُبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْغِنَاءِ النَّاشِئِ عَنِ السُّرُورِ . وَلَمَّا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الْإِقْلِيمِ الْحَارِ وَأَسْتَوَلَى الْحَرُّ عَلَى أُمُورِ جَنَّتِهِمْ وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِالنِّفَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفْشِيًّا فَتَكُونُ أَمْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ انْبِسَاطًا وَتَجِبِيهِ الطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هَذِهِ وَكَذَلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفًا الْحَرَارَةِ بِمَا يَتَعَكَّسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشِعَّتِهِ كَانَتْ حِصْنُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ الْحَرَارَةِ فِي الْفَرَحِ وَالْخِفَّةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ الثَّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ وَقَدْ نَجِدُ بِسِيرًا مِنْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ لِتَوَفُّرِ الْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي هَوَائِهَا لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْأَزْيَافِ وَالثَّلُولِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَالْخِفَّةُ وَالْعَفْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَدْخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ وَعَامَّةُ مَا كُلِّهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ . وَلَمَّا كَانَتْ فَاسُ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ بِالْعَكْسِ مِنْهَا فِي التَّوَعُّلِ فِي الثَّلُولِ الْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرَقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزَنِ وَكَيْفَ انْفَرَطُوا فِي نَظَرِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدْخِرُ قُوْتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ

الْحِنْطَةِ وَبَاكَرُ الْأَسْوَاقِ لِشَرَاءِ قُوْتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةً أَنْ يُرْزَأَ شَيْئًا مِنْ مُدْخَرِهِ وَتَنْبَغِ ذَلِكَ فِي الْأَقَالِمِ وَالْبِلْدَانِ تَجِدُ فِي الْأَخْلَاقِ أَثْرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْهَوَاءِ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِيُّ لِلتَّبَحُّثِ عَنِ السَّبَبِ فِي خِفَّةِ السُّودَانِ وَطَيِّشِهِمْ وَكَثْرَةِ الطَّرَبِ فِيهِمْ وَحَاوَلَ تَعْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْبَكْنَدِيِّ أَنَّ ذَلِكَ لِضَعْفِ أَدْمِغَتِهِمْ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ وَهَذَا كَلَامٌ لَا مُحَصَّلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

المقدمة الخامسة

في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك

من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

إِذْ عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقَالِمَ الْمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يُوجَدُ بِهَا الْخِصْبُ وَلَا كُلُّ شَيْءٍ كَانَهَا فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ بَلْ فِيهَا مَا يُوجَدُ لِأَهْلِهِ خِصْبُ الْعَيْشِ مِنَ الْحُبُوبِ وَالْأَدَمِ وَالْحِنْطَةِ وَالْفَوَاحِ لِرِكَاءِ الْمَنَابِتِ وَأَعْتِدَالِ الطَّيْنَةِ وَوُفُورِ الْعُمُرَانِ وَفِيهَا الْأَرْضُ الْحَرَّةُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعًا وَلَا عَشْبًا بِالْجُمْلَةِ فَسُكَّانُهَا فِي شَطَفٍ مِنَ الْعَيْشِ مِثْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَجَنُوبِ الْيَمَنِ وَمِثْلُ الْمَلْثَمِينَ مِنْ صِنَاهِجَةِ السَّاكِينِ بِصَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ الرِّمَالِ فِيمَا بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ الْحُبُوبَ وَالْأَدَمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْذِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمُ الْأَلْبَانُ وَاللَّحُومُ وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا الْجَائِلِينَ فِي الْقِفَارِ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحُبُوبَ وَالْأَدَمَ مِنَ التَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَحْيَائِينَ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَّتِهَا وَعَلَى الْأَقْلَالِ لِقَلَّةِ وَجْدِهِمْ فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سِدِّ الْخَلَّةِ أَوْ دُونِهَا فَضْلًا عَنِ الرِّغْدِ وَالْخِصْبِ وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى الْأَلْبَانِ وَتَعَوُّضُهُمْ مِنَ الْحِنْطَةِ أَحْسَنَ مَعَاضٍ وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْفَاقِدِينَ لِلْحُبُوبِ وَالْأَدَمِ مِنْ أَهْلِ الْقِفَارِ أَحْسَنَ حَالًا فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّلُولِ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي الْعَيْشِ فَأَلْوَانُهُمْ أَضْفَى وَأَبْدَانُهُمْ أَتْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ الْأَنْحِرَافِ وَأَذْهَابُهُمْ أَثَقَبُ فِي الْمَعَارِفِ وَالْإِدْرَاكِاتِ هَذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ التَّجَرُّبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاهُ وَبَيْنَ الْمَلْثَمِينَ وَأَهْلِ التَّلُولِ يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ خَبَرَهُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ كَثْرَةَ الْأَغْذِيَةِ وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفْنَةُ
وَرُطُوبَانِهَا تُؤَلِّدُ فِي الْجِسْمِ فَضَالَاتٍ رَدِيَّةً تَنْشَأُ عَنْهَا بَعْدَ إِقْطَارِهَا فِي غَيْرِ نِسْبَةٍ وَتَتَّبِعُ
ذَلِكَ انْكَسَافُ الْأَلْوَانِ وَقُبْحُ الْأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا قُلْنَا هُوَ وَتُغْطِي الرُّطُوبَاتُ
عَلَى الْأَذْهَانِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى الدِّمَاغِ مِنْ أَتَجَرَّتِهَا الرَّدِيَّةُ فَتُجَيِّدُ الْبَلَادَةَ
وَالْعَفْلَةَ وَالْإِنْخِرَافُ عَنِ الْإِعْتِدَالِ بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي حَيَوَانِ الْفَقْرِ وَمَوَاطِنِ
الْجَدْبِ مِنَ الْغَزَالِ وَالنَّعَامِ وَالْمَهَامِ وَالزَّرَافَةِ وَالْحُمْرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْبَقَرِ مَعَ أَمْثَالِهَا مِنْ
حَيَوَانِ الثَّلُولِ وَالْأَزْيَافِ وَالْمَرَاعِي الْخَصْبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا بَعِيدًا فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا
وَحُسْنِ رَوْقِهَا وَأَشْكَالِهَا وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وَحِدَّةِ مَدَارِهَا فَالْغَزَالُ أَخُو الْمَعَزِ وَالزَّرَافَةُ
أَخُو الْبَعِيرِ وَالْحِمَارُ وَالْبَقَرُ أَخُو الْحِمَارِ وَالْبَقَرُ وَالْبَوْنُ بَيْنَهَا مَا رَأَيْتَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ
أَنَّ الْخَصْبَ فِي الثَّلُولِ فَعَلَ فِي أَبْدَانِ هَذِهِ مِنَ الْفَضَالَاتِ الرَّدِيَّةِ وَالْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ مَا
ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ وَالْجَوْعُ لِحَيَوَانِ الْفَقْرِ حَسَنٌ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي
الْآدَمِيِّينَ أَيْضًا فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ الْأَقَالِيمِ الْخَصْبَةِ الْعَيْشِ الْكَثِيرَةِ الزَّرْعِ وَالْفَزْعِ
وَالْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ يَتَصِفُ أَهْلُهَا غَالِبًا بِالْبَلَادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْحُسُونَةِ فِي أَجْسَادِهِمْ وَهَذَا
شَأْنُ الْبَزِيرِ الْمُنْتَمِسِينَ فِي الْآدَمِ وَالْحِنْطَةِ مَعَ الْمُتَقَشِّشِينَ فِي عَيْشِهِمْ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى
الشَّعِيرِ أَوْ الذَّرَّةِ مِثْلَ الْمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلُ غِمَارَةِ وَالسُّوسِ فَتَجِدُ هَؤُلَاءِ أَحْسَنَ
حَالًا فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُودِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُنْتَمِسِينَ فِي الْآدَمِ
وَالْبَرِّ مَعَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الْمَفْقُودِ بِأَرْضِهِمْ السَّمْنُ حُمْلَةٌ وَغَالِبُ عَيْشِهِمْ الذَّرَّةُ فَتَجِدُ
لَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذِكَاةِ الْعُقُولِ وَخِفَةِ الْأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّعْلِيمِ مَا لَا يُوْجَدُ لِغَيْرِهِمْ
وَكَذَا أَهْلُ الضَّوَاحِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ الْخَضِرِ وَالْأَمْصَارِ فَإِنَّ الْأَمْصَارَ
وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ الْآدَمِ وَخَصْبِينَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا أَنَّ اسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا
بَعْدَ الْعِلَاجِ بِالطَّبِخِ وَالتَّلْطِيفِ بِمَا يَخْطُطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِذَلِكَ غَلْظُهَا وَيَرْقُ قَوَاهِهَا وَعَامَّةُ
مَا كَلِمَهُمْ لِحُومِ الضَّأْنِ وَالِدَّجَاجِ وَلَا يَغْطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الْآدَمِ لِتَفَاهَتِهِ فَتَقُلُّ
الرُّطُوبَاتُ لِذَلِكَ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخْفُ مَا تُؤَدِّبُهُ إِلَى أَجْسَادِهِمْ مِنَ الْفَضَالَاتِ الرَّدِيَّةِ
فَلِذَلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ الطَّفَّ مِنْ جُسُومِ الْبَادِيَةِ الْخَشَنِينَ فِي الْعَيْشِ وَكَذَلِكَ
تَجِدُ الْمَعُودِينَ بِالْجَوْعِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لَا فَضَالَاتَ فِي جُسُودِهِمْ غَلِظَةً وَلَا لَطِيفَةً . وَأَعْلَمُ

أَنَّ أَثَرَ هَذَا الْخِصْبِ فِي الْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ يَظْهَرُ حَتَّى فِي حَالِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ فَتَجِدُ
الْمُتَقَشِّفِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَوْ الْحَاضِرَةِ مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْجُوعِ وَالتَّجَانُّفِ عَنِ الْمَلَاذِ
أَحْسَنَ دِينًا وَإِقْبَالًا عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ التَّرَفِ وَالْخِصْبِ بَلْ تَجِدُ أَهْلَ الَّذِينَ قَلِيلِينَ
فِي الْمَدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا يَحْتَمِلُهَا مِنَ الْقِسَاوَةِ وَالْعَقَلَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْإِكْثَارِ مِنَ الْعُمَمَانِ
وَالْأَدَمِ وَلِبَابِ الْبَرِّ وَيَغْتَصُّ وَجُودَ الْعِبَادِ وَالزُّهَادِ لِذَلِكَ بِالْمُتَقَشِّفِينَ فِي غَدَائِهِمْ مِنْ
أَهْلِ الْبُوَادِي وَكَذَلِكَ تَجِدُ هَؤُلَاءِ الْمُخَصِّصِينَ فِي الْعَيْشِ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ
الْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْحَوَاطِرِ وَالْأَمْصَارِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ السِّنُونُ وَأَخَذَتْهُمْ الْجَمَاعَاتُ
يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْمَلَاكُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْلَ بَرَابَرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ قَاسٍ وَمِصْرَ
فِيمَا يَبْلُغُنَا لَا مِثْلَ الْعَرَبِ أَهْلُ الْفَقْرِ وَالصَّغَرَاءِ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ النَّخْلِ الَّذِينَ غَالِبُ
عَيْشِهِمُ التَّمْرُ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الشَّعِيرُ وَالرَّيْتُ
وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الذُّدَّةُ وَالزَّيْتُ فَإِنْ هَؤُلَاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمْ السِّنُونُ
وَالْجَمَاعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أَوْلَئِكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمُ الْمَلَاكُ بِالْجُوعِ بَلْ وَلَا
يَنْدُرُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي الْخِصْبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأَدَمِ
وَالسَّمَنِ خُصُوصًا تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أُمُومًا رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الْمِزَاجِيَّةِ
حَتَّى تَجَاوِزَ حَدَّهَا فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقِلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَفَقْدَانِ الْأَدَمِ وَاسْتِغْمَالِ
الْخُسْنِ غَيْرِ الْمَالُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْمَعَا الْيَبْسِ وَالْإِنْكَاشِ وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي
الْغَايَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ الْمُقَاتِلِ فَالْمَالِكُ فِي
الْجَمَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّيْبُ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لَا الْجُوعُ الْحَادِثُ الْآخِرُ. وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ
لِقِلَّةِ الْأَدَمِ وَالسَّمَنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ
وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَا يَقَعُ فِي مَعَامُهَا تَبَدُّلُ الْأَغْذِيَةِ يَبْسٌ وَلَا انْتِحِرَافٌ
فَيَسْلَمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْمَلَاكِ الَّذِي يَغْرِضُ لِعَيْرِهِمُ بِالْخِصْبِ وَكَثْرَةِ الْأَدَمِ فِي
الْمَاكِلِ وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَةَ وَائْتِلَافَهَا أَوْ تَرْكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ
فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلَا مَمَّةً تَنَاوَلَهُ كَانَ لَهُ مَالُوفًا وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءً
مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْغِذَاءِ بِالْجُمْلَةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُوعِ^(١) وَمَا أَفْرَطَ فِي الْإِنْتِحِرَافِ

١ قال في القاموس البينوع كصور أو تورتينات له ابن دار مسهل يحرق مقطع والمنهور منه سبعة

فَأَمَّا مَا وَجَدَ فِيهِ التَّغْذِي وَالْمَلَأَمَةَ فَبَصِيرُ غِذَاءٍ مَأْلُوفًا بِالْعَادَةِ فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ
نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عَوَضًا عَنِ الْحِنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدَنًا فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ
غِذَاءً وَاسْتَعْنَى بِهِ عَنِ الْحِنْطَةِ وَالْحُبُوبِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَكَذًا مِنْ عَوْدِ نَفْسِهِ الصَّبْرَ عَلَى
الْجُوعِ وَالِاسْتِعْنَاءِ عَنِ الطَّعَامِ كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ فَإِنَّا نَسْمَعُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ
أَخْبَارًا غَرِيبَةً بِكَادٍ يُنْكِرُهَا مَنْ لَا يَعْرِفُهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ الْعَادَةُ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَلِفَتْ
شَيْئًا صَارَ مِنْ جَبَلَتِهَا وَطَبِيعَتِهَا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ التَّلَوُّنِ فَإِذَا حَصَلَ لَهَا اعْتِيَادُ الْجُوعِ
بِالتَّدْرِيجِ وَالرِّيَاضَةِ فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ عَادَةً طَبِيعِيَّةً لَهَا وَمَا يَتَوَهَّمُهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ أَنَّ
الْجُوعَ مُهْلِكٌ فَلَيْسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ إِلَّا إِذَا حُمَاتِ النَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً وَقُطِعَ عَنْهَا الْغِذَاءُ
بِالْكُلْيَةِ فَإِنَّهُ خَبِيثٌ يَحْسِمُ الْمَعَاءَ وَيَنَالُهُ الْمَرَضُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ الْهَلَاكُ وَأَمَّا إِذَا
كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ تَدْرِيجًا وَرِيَاضَةً بِإِفْلَالِ الْغِذَاءِ شَيْئًا فَشَيْئًا كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَصَوِّفَةُ
فَهُوَ يَمْعَزِلُ عَنِ الْهَلَاكِ وَهَذَا التَّدْرِيجُ ضَرُورِيٌّ حَتَّى فِي الرِّجْوِ عَنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ
فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى الْغِذَاءِ الْأَوَّلِ دَفْعَةً خِيفَتْ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ وَإِنَّمَا يَرْجِعُ بِهِ كَمَا
بَدَأَ فِي الرِّيَاضَةِ بِالتَّدْرِيجِ وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَصَالًا
وَأَكْثَرَ. وَحَضَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَدْ رُفِعَ إِلَيْهِ أَمْرَانِ مِنَ أَهْلِ
الْجَزِيرَةِ الْخَضِرَاءِ وَرَنَدَةِ حَبَسَتَا أَنْفُسَهُمَا عَنْ الْأَكْلِ جُمْلَةً مُنْذُ سِنِينَ وَشَاعَ أَمْرُهُمَا
وَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمَا فَتَمَحَّ شَأْنُهُمَا وَاتَّصَلَ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَا وَرَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ
أَصْحَابِنَا أَيْضًا مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ الْمَعَزِ يَلْتَقِمُ ثَدْيَهَا فِي بَعْضِ النَّهَارِ أَوْ عِنْدَ
الْإِفْطَارِ وَيَكُونُ ذَلِكَ غِذَاءَهُ وَاسْتَدَامَ عَلَى ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ
وَلَا يُسْتَنْكَرُ ذَلِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْجُوعَ أَصْلَحُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ الْأَغْذِيَةِ بِكُلِّ وَجْهِ لِمَنْ
قَدَرَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى الْإِفْلَالِ مِنْهَا وَإِنْ لَهُ أَثَرٌ فِي الْأَجْسَامِ وَالْعُقُولِ فِي صَفَائِهَا وَصَلَاحِهَا
كََمَا قُلْنَا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَثَرِ الْأَغْذِيَةِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْهَا فِي الْجُسُومِ فَقَدْ رَأَيْنَا الْمُتَغَذِّينَ
بِالْحُمُومِ الْحَيَوَانَاتِ الْفَاحِشَةِ الْعَظِيمَةِ الْجُثْمَانِ تَنْشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذَلِكَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ فِي أَهْلِ
الْبَادِيَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ وَكَذَا الْمُتَغَذُّونَ بِاللَّبَنِ الْإِبِلِ وَالْحُمُومِ أَيْضًا مَعَ مَا يُؤَثِّرُ فِي

الشجر واللاعبة والعرطشيا والماوردانة والمازريون والجلجشت والعشر وكل البهائم اذا استعملت في
غير وجهها هلكت اه

أَخْلَقَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ الْأَثْقَالِ الْمَوْجُودِ ذَلِكَ لِلْإِبِلِ
وَتَنَشَأُ أُمْعَاؤُهُمْ أَيْضًا عَلَى نِسْبَةِ أُمْعَاءِ الْإِبِلِ فِي الصِّحَّةِ وَالْفِلْظِ فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهْنُ وَلَا
يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ فَيَشْرَبُونَ الْبُتُوعَاتِ لِاسْتِطْلَاقِ بُطُونِهِمْ غَيْرَ
مَحْجُوبَةٍ كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبْخِهِ وَالْدِّزْيَاسِ وَالْفَرَيُّونِ وَلَا يَنَالُ أُمْعَاؤُهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ
تَنَاولَهَا أَهْلُ الْحَضَرِ الرَّقِيقَةُ أُمْعَاؤُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ
أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرَفَةِ الْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ السِّمِيَةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ مَا
ذَكَرَهُ أَهْلُ الْفِلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجَرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غُذِيََتْ بِالْحُبُوبِ الْعَطْبُوخَةِ
فِي بَعْرِ الْإِبِلِ وَاتَّخَذَ يَتَضُّهَا ثُمَّ حَضَنْتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ
يَسْتَفْتُونَ عَنْ تَغْذِيَّتِهَا وَطَبْخِ الْحُبُوبِ بِطَرَحِ ذَلِكَ الْبَعْرِ مَعَ الْبَيْضِ الْمُحَضَّنِ فَيَجِيءُ
دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ الْعِظَمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هَذِهِ الْأَثَارَ مِنَ الْأَغْذِيَةِ فِي
الْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْجُوعَ أَيْضًا أَثَارًا فِي الْأَبْدَانِ لِأَنَّ الصِّدِّيقَ عَلَى نِسْبَةِ وَاحِدَةٍ فِي
التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي نَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ
الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخْلَلَةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّرًا فِي وُجُودِ ذَلِكَ الْجِسْمِ
وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ

المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة او الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرويا

إِغْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَصْطَفَى مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَّلَهُمْ بِخِطَابِهِ وَفَطَّرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ
وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُعْرِفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيُعْرِضُونَ عَنْهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ
وَيَأْخُذُونَ بِحُجُزَاتِهِمْ عَنِ النَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُأْتِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ
الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْأَخْبَارِ الْكَائِنَاتِ الْمُغِيبَةِ عَنِ الْبَشَرِ
الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ بِوَسَاطَتِهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ خَبَرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ
خَاصِيَّتِهِ وَضَرُورَتِهِ الصِّدْقُ لِمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ وَعَلَامَةُ هَذَا الصِّنْفِ

مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تُوجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ كَانَهَا
 غَشِيَتْهُ أَوْ إِغْمَاءٍ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِغْرَاقٌ
 فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الرَّوْحَانِيِّ بِإِذْرَاكِهِمُ الْمُنَاسِبَ لَهُمُ الْخَارِجَ عَنْ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكُلِّيَّةِ
 ثُمَّ يَنْزِلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيٍّ مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ بِتَمَثُّلٍ لَهُ
 صُورَةً تُخَفِّضُ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ الْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا
 الْفِي إِلَيْهِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ الْوَحْيِ أَحِبَانًا بِأَنِّي مِثْلَ صَلَافَةِ
 الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحِبَانًا بِتَمَثُّلٍ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا
 فِي كَلِمَتِي فَأَعْيَ مَا يَقُولُ وَيُذَرِّكُهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنَ الشَّدَةِ وَالْفَطْرِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ فَنِي
 الْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالَجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ
 الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَنْفَصِدُ عَرَقًا وَقَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا
 وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ فِي تَنْزِيلِ الْوَحْيِ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجُنُونِ وَيَقُولُونَ
 لَهُ رُبِّي أَوْ تَابِعٌ مِنَ الْجِنِّ وَإِنَّمَا لَيْسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ وَمَنْ
 يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمِنْ أَلَمَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ الْوَحْيِ خُلُقُ الْخَيْرِ
 وَالزَّكَاةِ وَتُجَانِبَةِ الْمَذْمُومَاتِ وَالرَّجْسِ أَجْمَعٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعِصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ
 عَلَى التَّنْزِهِ عَنِ الْمَذْمُومَاتِ وَالْمُنَافَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّهُا مُنَافِيَةٌ لِجَبَلَتِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ
 الْحِجَارَةَ وَهُوَ غُلَامٌ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَأَنكَشَفَ فَسَقَطَ
 مَغْشِيًا عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَرَّ بِإِزَارِهِ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعٍ وَلِيَمَّةٍ فِيهَا هُرُسٌ وَلَعِبٌ فَأَصَابَهُ
 غَشِيَةُ النَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يُحْضِرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ نَوَّهَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ
 كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِجَبَلَتِهِ يَتَنَزَّهُ عَنِ الْمَطْعُومَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ لَا يَقْرُبُ الْبَصَلَ وَالثُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي أَنُاجِي مَنْ لَا تُنَاجُونَ وَأَنْظُرُ
 لِمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِحَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ
 وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ فَقَالَتْ اجْعَلْنِي يَتِّكَ وَبَيْنَ تَوْبِكَ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ
 إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ الثِّيَابِ
 إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا فَقَالَ الْبَيَاضُ وَالْخَضِرَةُ فَقَالَتْ إِنَّهُ الْمَلَكُ يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْخَضِرَةَ
 مِنَ الْوَانِ الْخَيْرِ وَالْمَلَأَيْكَةِ وَالسَّوَادُ مِنَ الْوَانِ الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ .

وَمِنْ عَلَامَتِهِمْ أَيْضًا دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِفَافِ وَقَدْ
 اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَحْتَاجَا فِي
 أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَعْوِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ أَحْضَرَ مَنْ وَجَدَ يَبْلُغُهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَفِيهِمْ
 أَبُو سَفْيَانَ لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حَالِهِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ يَمُومُكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ
 بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالْعِفَافِ إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا نَقُولُ
 حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ وَالْعِفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرَقْلُ^(١) هُوَ الْعِصْمَةُ
 فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالْإِسْلَامِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى حَقِّهِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ
 يَحْتَجْ إِلَى مُعْجَزَةٍ قَدْ عَلَى أَنْ ذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ . وَمِنْ عَلَامَتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا
 ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةٍ
 أُخْرَى فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ اسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحِينَ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرَقْلَ لِأَبِي
 سَفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ كَيْفَ هُوَ فَيَكُمُ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ
 هِرَقْلُ وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَهْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِصْمَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ
 عَنْ أَذَى الْكُفَّارِ حَتَّى يَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيَتِمَّ مُرَادُ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ
 عَلَامَتِهِمْ أَيْضًا وَقُوعُ الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفْعَالُ تَعْجِزِ الْبَشَرِ عَنْ مِثْلِهَا
 فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ مُعْجَزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَعْلٍ قُدْرَتِهِمْ
 وَالنَّاسِ فِي كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافَ مَا لَمْ تَكُنْ بِنَاءً عَلَى
 الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا بِفِعْلِ النَّبِيِّ وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ
 الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْجَزَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجَزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِهِمْ وَلَيْسَ
 لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِي بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا
 الَّذِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مُدْعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنَزَّلَتْ مَنَزَلَةُ الْقَوْلِ
 الصَّرِيحِ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حَيْثُ دَلَّ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَالْمُعْجَزَةُ الدَّلَالَةُ
 بِمَجْمُوعِ الْخَوَارِقِ وَالتَّحْدِي وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحْدِي جُزْأً مِنْهَا وَعِبَارَةٌ الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةً
 نَفْسِيًّا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِي عِنْدَهُمُ وَالتَّحْدِي هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكِرَامَةِ

(١) قوله الذي اشار اليه هرقل الظاهر ابو سفيان

وَالسِّحْرِ إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى التَّصْدِيقِ فَلَا وَجُودَ لِلتَّحْدِي إِلَّا إِنْ وَجِدَ اتِّفَاقًا وَإِنْ
وَقَعَ التَّحْدِي فِي الْكِرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُعْزِمُهَا وَكَانَتْ لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْوِلَايَةِ وَهِيَ
غَيْرُ النَّبُوءَةِ وَمِنْ هُنَا مَنَعَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْمٰعِيلَ وَغَيْرُهُ وَقُوعَ الْخَوَارِقِ كِرَامَةً فِرَارًا مِنْ
الْإِلْتِبَاسِ بِالنَّبُوءَةِ عِنْدَ التَّحْدِي بِالْوِلَايَةِ وَقَدْ أَرَبْنَاكَ الْمَغَايِرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَحَدَّى
بِغَيْرِ مَا يَتَحَدَّى بِهِ النَّبِيُّ فَلَا لَبْسَ عَلَى أَنَّ النُّقْلَ عَنْ الْأُسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحًا
وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى إِنْكَارِ لَأَن تَقَعَ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءً عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مَنْ
الْقَرِيبَيْنِ بِخَوَارِقِهِ . وَأَمَّا الْمُعْزَلَةُ فَالْمَانِعُ مِنْ وَقُوعِ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ
لَيْسَتْ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَفْعَالُهُمْ مُعَادَةٌ فَلَا فَرْقَ وَأَمَّا وَقُوعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلْيِيسًا
فَهُوَ مُحَالٌ أَمَّا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ فَلِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ الْمُعْجَزَةِ التَّصْدِيقُ وَالْهُدَايَةُ فَلَوْ وَقَعَتْ
بِخِلَافِ ذَلِكَ انْقَلَبَ الدَّلِيلُ شُبْهَةً وَالْهُدَايَةُ ضَلَالَةً وَالتَّصْدِيقُ كَذِبًا وَاسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ
وَانْقَلَبَتْ صِفَاتُ النَّفْسِ وَمَا يُلْزَمُ مِنْ فَرْضِ وَقُوعِ الْحَالِ لَا يَكُونُ مُنْكَرًا وَأَمَّا عِنْدَ
الْمُعْزَلَةِ فَلِأَنَّ وَقُوعَ الدَّلِيلِ شُبْهَةً وَالْهُدَايَةَ ضَلَالَةً فَيَبِيعُ فَلَا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ . وَأَمَّا الْحُكْمَاءُ
فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ وَلَوْ كَانَتْ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي
الْإِجَابِ الذَّاتِي وَوُقُوعُ الْحَوَادِثِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقِّفٌ عَلَى الْأَسْبَابِ وَالشَّرُوطِ
الْحَادِثَةُ مُسْتَنِدَةٌ أَخِيرًا إِلَى الْوَاجِبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا بِالِاخْتِيَارِ وَإِنَّ النَّفْسَ النَّبَوِيَّةَ
عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصٌّ ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةِ الْعَنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ
وَالنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ مُجْبُولٌ عَلَى التَّصْرِيفِ فِي الْأَكْوَانِ مَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَاسْتَجْمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ
اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سِوَاكَ كَانَ لِلتَّحْدِي أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ شَاهِدٌ
بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ عَلَى تَصَرُّفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ
النَّبَوِيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَنْزِلُ مِثْلُ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بِالتَّصْدِيقِ فَلِذَلِكَ لَا تَكُونُ دَلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ
قِطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَلَا يَكُونُ التَّحْدِي جَزْأً مِنَ الْمُعْجَزَةِ وَلَمْ يَصِحَّ
فَارِقًا لَهَا عَنِ السِّحْرِ وَالْكِرَامَةِ وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ السِّحْرِ أَنَّ النَّبِيَّ مُجْبُولٌ عَلَى أَعْمَالِ
الْخَيْرِ مَصْرُوفٌ عَنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ فَلَا يُلِمُّ الشَّرَّ بِخَوَارِقِهِ وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا
شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ وَفَارِقُهَا عَنِ الْكِرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَخْصُومَةٌ كَالصُّعُودِ إِلَى
السَّمَاءِ وَالنُّفُوزِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ وَالطَّيْرَانِ

فِي الْمَوَاءِ وَخَوَارِقِ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَثِيرٌ الْقَلِيلِ وَالْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ الْمُسْتَقْبَلِ
وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَائِمٌ عَنْ تَصْرِيفِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ
عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَلَقَبُوهُ عَمَّنْ
أَخْبَرَهُمْ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ الدُّعُجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا دَلَالَةُ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ الْمُنْزَلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي الْغَالِبِ لَقَعُ
مُغَايِرَةِ الْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ وَيَأْتِي بِالدُّعُجَزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ
الْوَحْيُ الْمُدْعَى وَهُوَ الْخَارِقُ الدُّعُجَزُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرَ لَهُ
كَسَائِرِ الدُّعُجَزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دَلَالَةٍ لِاتِّعَادِ الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ فِيهِ وَهَذَا
مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَاتَى مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ
أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أُوحِيَ إِلَيَّ فَأَنَا أَزْجَوَانُ أَكُونُ أَكْثَرَهُمْ
تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الدُّعُجَزَةَ مَتَى كَانَتْ يَهْدِيهِ الْمَثَابَةُ فِي الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ
الدَّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ لَوْحِي كَانَ الصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرُ لَوْضُوحًا فَكَثُرَ الْمُصَدِّقُ
الْمُؤْمِنُ وَهُوَ التَّابِعُ وَالْأَمَّةُ

ولنذكر الان تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الروايات ثم شان العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

اعْلَمْ. أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنَّا نَشَاهِدُ هَذَا الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْخَلْقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ
مِنْ التَّرْتِيبِ وَالْإِحْكَامِ وَرَبْطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبِّبَاتِ وَاتِّصَالِ الْأَكْوَانِ بِالْأَكْوَانِ
وَأَسْتَحَالَةِ بَعْضِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنْتَهِي غَايَاتُهُ وَأَبْدَأُ
مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْحَسُّوسِ الْجُسْمَانِيِّ وَأَوَّلًا عَالَمِ الْعُنَاصِرِ الْمَشَاهِدَةِ كَيْفَ تَدْرُجُ صَاعِدًا
مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ إِلَى الْمَوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَعِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَابِطًا وَيَسْتَعِيلُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ وَالصَّاعِدُ
مِنْهَا الْطَفُّ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ الْأَفْلَاقِ وَهُوَ الْطَفُّ مِنَ الْكُلِّ عَلَى
طَبَقَاتٍ اتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يَدْرِكُ الْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطْ وَبِهَا

يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وُجُودِ الذَّوَاتِ الَّتِي لَهَا
هَذِهِ الْأَثَارُ فِيهَا ثُمَّ انْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثُمَّ النَّبَاتِ ثُمَّ
الْحَيَوَانَ عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ التَّدْرِيجِ آخِرُ أَفْقِ الْمَعَادِنِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلُ
الْحَشَائِشِ وَمَا لَا بَذْرَ لَهُ وَآخِرُ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلُ النَّخْلِ وَالْكُرْمِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ
الْحَيَوَانَ مِثْلُ الْحَزُونِ وَالصَّدَفِ وَلَمْ يُوْجَدْ لِهَما إِلَّا قُوَّةُ الْأَمْسِ فَقَطْ وَمَعْنَى الْإِتِّصَالِ
فِي هَذِهِ الْمُكَوِّنَاتِ أَنَّ آخِرَ أَفْقٍ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ بِالْأَسْتِعْدَادِ الْغَرِيبِ لِأَنْ يَصِيرَ أَوَّلُ
الرَّفْقِ الَّذِي بَعْدَهُ وَاتَّسَعَ عَالَمُ الْحَيَوَانَ وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاءُهُ وَانْتَهَى فِي تَدْرِيجِ التَّكْوِينِ
إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرُّوْبِيَّةِ تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْحِسُّ
وَالْإِدْرَاكُ وَلَمْ يَنْتَهِ إِلَى الرُّوْبِيَّةِ وَالْفِكْرِ بِالْفِعْلِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقٍ مِنَ الْإِنْسَانِ
بَعْدَهُ وَهَذَا غَايَةُ شُهُودِنَا ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي الْعَوَالِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا آثَارًا مُتَّوَعَةً فِي عَالَمِ الْحِسِّ
آثَارٌ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاقِ وَالْعَنَاصِرِ وَفِي عَالَمِ التَّكْوِينِ آثَارٌ مِنْ حَرَكَةِ الشُّجُورِ وَالْإِدْرَاكِ
تَشْهَدُ كُلُّهَا بِأَنَّ لَهَا مُؤَثَّرًا مُبَينًا لِلْإِحْسَامِ فَهُوَ رُوحَانِيٌّ وَيَتَّصِلُ بِالْمُكَوِّنَاتِ لَوْجُودِ
اتِّصَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي وُجُودِهَا وَلِذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرِكَةُ وَالْحَرَكَةُ وَلَا بُدَّ فَوْقَهَا مِنْ
وُجُودٍ آخَرَ يُعْطِيهَا قُوَّةَ الْإِدْرَاكِ وَالْحَرَكَةَ وَيَتَّصِلُ بِهَا أَيْضًا وَيَكُونُ ذَاتُهُ إِدْرَاكًا
صِرْفًا وَتَعَقُّلاً مُحَضًّا وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ فَوَجَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ اسْتِعْدَادٌ
لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ لِيَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقَدْ بَدَأَ مِنْ
الْأَوْقَاتِ فِي لَمْعَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمُلَ ذَاتُهَا الرُّوحَانِيَّةُ بِالْفِعْلِ كَمَا
تَذْكُرُهُ بَعْدُ وَيَكُونُ لَهَا اتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا شَأْنُ الْمَوْجُودَاتِ الْمُرْتَبَةِ كَمَا
قَدْ مَنَاهُ فَلَهَا فِي الْإِتِّصَالِ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّنُلِ وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهَا وَتَكْتَسِبُ
بِهِ الْمَدَارِكَ الْحِسِّيَّةَ الَّتِي تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّمَقُّلِ بِالْفِعْلِ وَمُتَّصِلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَعْلَى
مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَتَكْتَسِبُ بِهِ الْمَدَارِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعَيْنِيَّةَ فَإِنَّ عَالَمَ الْخَوَادِثِ
مَوْجُودٌ فِي تَعَقُّلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ وَهَذَا عَلَى مَا قَدْ مَنَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ الْمُعْكَمِ فِي الْوُجُودِ
بِاتِّصَالِ ذَوَاتِهِ وَقُوَّاهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةً عَنِ الْعِيَانِ
وَأَثَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ فَكَأَنَّهُ وَجِيعُ أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعَةٌ وَمُقْتَرَفَةٌ آلَاتٌ لِلنَّفْسِ وَلِقُوَاهَا
أَمَّا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ وَالْمَشْيُ بِالرِّجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ وَالْحَرَكَةُ الْكُلِّيَّةُ

بِالْبَدَنِ مُدَافِعًا وَأَمَّا الْمُدْرِكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْأِدْرَاكِ مُرْتَبَةً وَمُرْتَقِبَةً إِلَى الْقُوَى
 الْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنْ الْمُنْكَرَةِ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقِيَّةِ فَقُوَى الْحِسِّ الظَّاهِرَةِ بِآلَاتِهِ مِنْ
 السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ الْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ وَهُوَ قُوَّةٌ تُدْرِكُ
 الْحَسُوسَاتِ مُبْصِرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةُ
 الْحِسِّ الظَّاهِرِ لِأَنَّ الْحَسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّبُهُ الْحِسُّ
 الْمُشْتَرِكُ إِلَى الْخَيَالِ وَهِيَ قُوَّةٌ تُمَثِّلُ الشَّيْءَ الْحَسُوسَ فِي النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنْ
 الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطْ وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَتَيْنِ فِي تَضَرُّفِهِمَا الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ
 مُقَدَّمُهُ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي الْخَيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ
 الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعِدَاوَةٍ زَيْدٍ وَصَدَاقَةٍ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْآبِ وَأَقْرَاسِ
 الذَّنْبِ وَالْحَافِظَةُ لِإِيدَاعِ الْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا مُخَيَّلَةً وَهِيَ لَهَا كَالْخِزَانَةُ تَحْفَظُهَا لَوَقْتِ
 الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَتَيْنِ فِي تَضَرُّفِهِمَا الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ أَوَّلُهُ لِلأَوَّلَى
 وَمُؤَخَّرُهُ لِلْآخِرَى ثُمَّ تَرْتَقِي جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْاَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ وَهِيَ الْقُوَّةُ
 الَّتِي يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ الرُّوْحَانِيَّةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ الْعَقْلِ فَتُحَرِّكُ النَّفْسَ بِهَا دَائِمًا لِمَا رُكِبَ فِيهَا
 مِنَ الزُّرُوعِ لِتَخْلُصَ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالْإِسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ وَتُفْرَجُ إِلَى الْفِعْلِ
 فِي تَعْقِلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي
 إِدْرَاكِهَا بَغَيْرِ الْآلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ فِيهِ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ تَنَسَّلَخُ
 بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ
 بَلْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجَبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى فِي ذَلِكَ وَالنَّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ
 اصْنَافٍ صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبْعِ عَنِ الْوُصُولِ فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ
 الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ وَتَرْكِبُ الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ عَلَى قَوَانِينِ مَحْصُورَةٍ
 وَتَرْتَبِيبِ خَاصٍ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ وَكُلُّهَا
 خَيَالِيٌّ مُنْخَصِرٌ نِطَاقُهُ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةٍ مُبْدِئَةٍ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ
 فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهَذَا هُوَ فِي الْأَغْلَبِ نِطَاقُ الْأِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي
 مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرَسُّخُ أَقْدَامِهِمْ وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ الْعَقْلِ
 الرُّوحَانِيِّ وَالْأِدْرَاكِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْآلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ

لِذَلِكَ فَيَنْسَجُ نِطَاقُ إِدْرَاكِهِ عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِيِّ
وَيَسْرَحُ فِي فِضَاءِ الْمُشَاهَدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَهِيَ وَجْدَانُ كُلِّهَا نِطَاقُهَا مِنْ مَبْدَأِهَا وَلَا مِنْ
مُنْتَهَاهَا وَهَذِهِ مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوَّلِيَاءِ أَهْلِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ وَهِيَ
الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْبَرْزَخِ وَصِنْفٍ مَفْطُورٍ عَلَى الْإِنْسِلَاخِ مِنَ
الْبَشَرِيَّةِ جُمْلَةً جِسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْأُفُقِ الْأَعْلَى لِيَصِيرَ فِي لَحْظَةٍ
مِنَ الْفُتُوحَاتِ مَلَكًا بِالْفِعْلِ وَيَحْصُلُ لَهُ شُهُودُ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى فِي أَفْهَمِ وَسَمَاعِ الْكَلَامِ
النَّفْسَانِيِّ وَالْخِطَابِ الْإِلَهِيِّ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ
جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِنْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَهِيَ حَالَةُ الْوَحْيِ فِطْرَةً فَطَرَهُمُ اللَّهُ
عَلَيْهَا وَجَعَلَهُ صَوْرَهُمْ فِيهَا وَنَزَّهَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَنِ وَعَوَائِقِهِ مَا دَامُوا مُلَابِسِينَ لَهَا بِالْبَشَرِيَّةِ
بِمَا رُكِبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ الْقَصْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي يُحَاذُونَ بِهَا تِلْكَ الْوَجْهَةَ وَرُكُزَ فِي
طَبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي الْعِبَادَةِ تُكْشِفُ بِتِلْكَ الْوَجْهَةِ وَتُسَبِّغُ نَعْوَاهَا فَهُمْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ
الْأُفُقِ بِذَلِكَ النَّوْعِ مِنَ الْإِنْسِلَاخِ مَتَى شَاءُوا بِتِلْكَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا لَا بِأَكْتِسَابٍ
وَلَا صِنَاعَةٍ فَلِذَا تَوَجَّهُوا وَانْسَلَخُوا عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ وَتَلَقَّوْا فِي ذَلِكَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى مَا يَتَلَقَّوْهُ
عَاجُوا بِهِ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُنْزَلًا فِي قُوَاهَا لِحِكْمَةِ التَّبْلِيغِ لِلْعِبَادِ فِتْرَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوْبًا
كَأَنَّهُ رَمَزٌ مِنَ الْكَلَامِ بِأَخْذٍ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّتِي إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُضِي الدَّوْيُ إِلَّا وَقَدْ
وَعَاهُ وَفَهِمَهُ وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلِكُ الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ وَيَبْعِي مَا يَقُولُهُ
وَالْتَلْقَى مِنَ الْمَلِكِ وَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَهِمَهُ مَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ فِي
لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَحْظَةٍ الْبَصَرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ بَلْ كُلُّهَا تَقَعُ جَمِيعًا فَيَظْهَرُ
كَأَنَّهُا سَرِيعَةٌ وَلِذَلِكَ مُتِمَّتْ وَحْيًا لِأَنَّ الْوَحْيَ فِي اللُّغَةِ الْإِسْرَاعُ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَوَّلَى وَهِيَ
حَالَةُ الدَّوْيِ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَا حَقَّقُوهُ وَالثَّانِيَّةُ وَهِيَ حَالَةُ تَمَثُّلِ
الْمَلِكِ رَجُلًا يُخَاطَبُ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ الْأَوَّلَى وَهَذَا
مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي فَسَّرَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيَ لَمَّا سَأَلَهُ الْحَارِثُ بْنُ
هِشَامٍ وَقَالَ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ فَقَالَ أَحْيَانًا بِأُتَيْنِي مِثْلَ صَلَاطَةِ الْجُرْسِ وَهُوَ أَشَدُّ
عَلَيَّ فَيَقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ
وَإِنَّمَا كَانَتْ الْأَوَّلَى أَشَدَّ لِأَنَّهَا مَبْدَأُ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ

فَيَعْسُرُ بَعْضَ الْعُسْرِ وَلِذَلِكَ لَمَّا عَاجَ فِيهَا عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ اخْتَصَتْ بِالسَّمْعِ وَصَعِبَ
مَا سِوَاهُ وَعِنْدَ مَا يَتَكَرَّرُ الْوَحْيُ وَبِكَثْرُ التَّلَقِّي يَسْهُلُ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ فَعِنْدَ مَا يَرْجِعُ
إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصًا الْأَوْفَحِ مِنْهَا وَهُوَ إِدْرَاكُ الْبَصَرِ وَفِي
الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَحْيِ فِي الْأُولَى بَصِغَةُ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَةِ بَصِغَةُ الْمُضَارِعِ لَطِيفَةٌ مِنْ
الْبَلَاغَةِ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ مَجِيءَ التَّمَثِيلِ لِحَالَتِي الْوَحْيِ فَمَثَلُ الْحَالَةِ الْأُولَى
بِالدَّوِيِّ الَّذِي هُوَ فِي الْمُتَعَارِفِ غَيْرُ كَلَامٍ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَحْيَ يَتَّبَعُهُ غِبٌّ أَنْقِضَاهُ
فَنَاسَبَ عِنْدَ تَصْوِيرِ أَنْقِضَائِهِ وَأَنْقِصَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَحْيِ بِالْمَاضِي الْمُطَابِقِ لِلْإِنْقِضَاءِ
وَالْإِنْقِطَاعِ وَمَثَلُ الْمَلَكِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ بِرَجُلٍ يُخَاطَبُ وَيَتَكَلَّمُ وَالْكَلَامُ يُسَاقُ
الْوَحْيُ فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجَدُّدِ . وَأَعْلَمَ أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلِّهَا
صُعُوبَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ وَشِدَّةٌ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ قَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا
وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ مِمَّا يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ
الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُقْصَمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا . وَلِذَلِكَ كَانَ يَحْدُثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ
الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْغَطِيطِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَرْنَا مُفَارَقَةً
الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَائِكِيَّةِ وَتَلَقِّي كَلَامِ الْمَلَكِ فَيَحْدُثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مُفَارَقَةِ
الذَّاتِ ذَاتِهَا وَانْسِلَاقِهَا عَنْهَا مِنْ أَفْقِهَا إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الْآخِرِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْغَطِيطِ الَّذِي
عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَأِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ فَغَطَّيْتُ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ أَفَرَأَيْتَ
مَا أَنَا بِقَارِيءٍ وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يَقْضِي الْإِعْتِيَادُ بِالتَّنْذِيرِ فِيهِ
شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قُلْنَا وَلِذَلِكَ كَانَ تُنْزَلُ نُجُومُ الْقُرْآنِ
وَسُورِهِ وَأَيُّهُ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ وَانْظُرْ إِلَى مَا نُقِلَ فِي نُزُولِ
سُورَةِ بَرَاءةٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَأَنَّهَا نُزِلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ فِي نَاقَتِهِ
بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْصِلِ فِي وَفْتٍ وَيُنْزَلُ الْبَاقِي
فِي حِينَ آخَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا نُزِّلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطُّولِ بَعْدَ
أَنْ كَانَتْ آيَةُ تَنْزِيلِ بِمَكَّةَ مِثْلَ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالذَّارِيَاتِ وَالْمُدَّثِّرِ وَالضُّحَى
وَالْفَلَقِ وَأَمْثَالِهَا وَاعْتَبِرْ مِنْ ذَلِكَ عِلَامَةً تُعَيِّرُ بِهَا بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ مِنَ السُّورِ
وَالْآيَاتِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ . هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ وَأَمَّا الْكُهَانَةُ فَهِيَ أَيْضًا

مِنْ خَوَاصِنِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَمَّا لِلنَّفْسِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَادًا لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يُحْصَلُ مِنْ
 ذَلِكَ لَحْظَةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يُحْصَلُ لَهُمْ مِنْ
 غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعْمَالٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ
 الدُّنْيَا كَلَامًا أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ انْسِلَاحٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ
 بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَحْظِ الْبَصَرِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ الْإِسْتِعْدَادُ
 مَوْجُودًا فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطَى التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيَّ وَإِنْ هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصًا
 عَنْ رُتْبَةِ الصِّنْفِ الْأَوَّلِ نُقْصَانُ الضِّدِّ عَنْ ضِدِّهِ الْكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ الْإِسْتِعْمَالِ فِي ذَلِكَ
 الْإِدْرَاكِ ضِدُّ الْإِسْتِعْمَالِ فِيهِ وَشَتَانُ مَا يَتَّبِعُهُمَا فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا
 آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الْفِكْرِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ
 عِنْدَمَا يَتَعَبَّأُ النَّزْوَعُ لِذَلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالْجِبِلَّةِ عِنْدَمَا يُعَوِّقُهَا الْهَجْزُ عَنْ ذَلِكَ تَسَبُّثُ
 بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْسُومَةٍ أَوْ مُتَخَيِّلَةٍ كَالْأَجْسَامِ الشَّدَافَةِ وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ وَمَجْمَعِ
 الْكَلَامِ وَمَا سَنَعَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ أَوْ التَّخَيُّلُ مُسْتَعِينًا بِهِ
 فِي ذَلِكَ الْإِنْسِلَاحِ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَيَكُونُ كَالْمَشْيِ لَهُ وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأُ
 لِنَاكِ الْإِدْرَاكِ هِيَ الْكَمَالَةُ وَلَكِنْ هَذِهِ النَّفْسُ مَفْطُورَةٌ عَلَى النِّقْصِ وَالْقُصُورِ عَنْ
 الْكَمَالِ كَانَ إِدْرَاكُهَا فِي الْجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ وَلِذَلِكَ تَكُونُ التَّخَيُّلَةُ فِيهِمْ
 فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ لِأَنَّهَا آلَةُ الْجُزْئِيَّاتِ فَتَنْفِذُ فِيهَا نَفُودًا نَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ يَقْظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا
 حَاضِرَةٌ عَبْدَةً تُخَضِّرُهَا التَّخَيُّلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرَاةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقْوَى الْكَاهِنُ
 عَلَى الْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ الْمَعْقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَرْفَعُ أَحْوَالِ
 هَذَا الصِّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ السَّمْعُ وَالْمُوازَنَةُ لِيَشْتَغَلَ بِهِ عَنْ الْخَوَاصِرِ
 وَيَقْوَى بَعْضُ الشَّيْءِ عَلَى ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ النَّاقِصِ فَيَهْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَالَّذِي
 يُشَبِّهُهَا مِنْ ذَلِكَ الْأَجْنَبِيِّ مَا يَقْذِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ
 لِأَنَّهُ يَتِمُّ نَقْصُهُ بِأَمْرِ أَجْنَبِيٍّ عَنْ ذَاتِهِ الْمَذْرُوكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا غَيْرِ مُلَائِمٍ فَيَعْرِضُ لَهُ
 الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مَوْثُوقًا بِهِ وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى الظُّنُونِ وَالتَّخْمِينَاتِ
 حِرْصًا عَلَى الظُّفْرِ بِالْإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ وَتَمْوِيهِهَا عَلَى السَّائِلِينَ وَأَصْحَابِ هَذَا السَّمْعِ هُمْ

الْخَصُوصُونَ بِأَسْمِ الْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فِي مِثْلِهِ هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ لَجَعَلِ السَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِابْنِ
 صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِالْأَخْبَارِ كَيْفَ بَأْتِيكَ هَذَا الْأَمْرُ قَالَ يَا بُنَيَّ صَادِقًا
 وَكَاذِبًا فَقَالَ خُلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ بِعَيْنِي أَنَّ النَّبُوَّةَ خَاصَّتْهَا الصِّدْقُ فَلَا يَعْتَرِيهَا الْكَذِبُ
 بِحَالٍ لِأَنَّهَا اتَّصَلَتْ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشِيعٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِأَجَنَبِيٍّ
 وَالْكُهَّانَةُ لَمَّا أَحْتَاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجَنَبِيَّةِ كَانَتْ
 دَاخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ وَالتَّبَسُّتِ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَفُهُ
 الْكَذِبُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوَّةً وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ الْكُهَّانَةِ
 حَالَةُ السَّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى السَّجْعِ أَخَذَ مِنْ سَائِرِ الْمُغَيَّبَاتِ مِنَ الْمَرْتَبَاتِ وَالْمَسْمُوعَاتِ
 وَتَدُلُّ خِفَةُ الْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ وَالْبُعْدِ فِيهِ عَنِ الْعَجْزِ بَعْضُ
 الشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْكُهَّانَةَ قَدْ انْقَطَعَتْ مِنْذُ زَمَنِ النَّبُوَّةِ بِمَا وَقَعَ
 مِنْ شَأْنِ رَجْمِ الشَّيَاطِينِ بِالشُّهْبِ بَيْنَ يَدَيِ الْبَعْثَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَبَرِ
 السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ وَالْكُهَّانُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتْ
 الْكُهَّانَةُ مِنْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ الْكُهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ
 تَكُونُ مِنْ نُفُوسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَأَيْضًا فَالْآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ
 نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ الْبَعْثَةِ وَلَمْ يَنْعُوا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ وَأَيْضًا
 فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبُوَّةِ فَقَطْ وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ
 عَلَيْهِ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكَ كُلَّهَا تَخْتَمِدُ فِي زَمَنِ النَّبُوَّةِ كَمَا تَخْتَمِدُ
 الْكَوَاكِبُ وَالسُّرُجُ عِنْدَ وُجُودِ الشَّمْسِ لِأَنَّ النَّبُوَّةَ هِيَ النُّورُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ
 كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْكُهَّانِ أَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبُوَّةِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ
 وَهَكَذَا كُلُّ نُبُوَّةٍ وَقَعَتْ لِأَنَّ وُجُودَ النَّبُوَّةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعٍ فَلِكَيْ يَقْتَضِيَهُ فِي تَمَامِ
 ذَلِكَ الْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ النَّبُوَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَتَقْصُرُ ذَلِكَ الْوَضْعُ عَنِ التَّمَامِ بِقِتْضِي
 وَجَرَدِ طَبِيعَةٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةٌ وَهُوَ مَعْنَى الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ
 فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ الْكَامِلُ يَقَعُ الْوَضْعُ النَّاقِصُ وَيَقْتَضِي وُجُودَ الْكَاهِنِ إِذَا
 وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ تَمَّ وُجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ وَانْقَضَتْ الْأَوْجَاعُ

الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ فَلَا يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدُ وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْوَضْعِ
الْفَلَكيِّ يَقْتَضِي بَعْضَ أَثَرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ فَلَعَلَّ الْوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ الْأَثَرَ بِهَيْئَتِهِ
الْخَالِصَةِ وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَلَا يَقْتَضِي شَيْئًا لَا إِنَّهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ الْأَثَرَ نَاقِصًا كَمَا
قَالُوهُ ثُمَّ إِنْ هُوَ لَآءِ الْكُفَّانِ إِذَا عَامَرُوا زَمَنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ وَدِلَالَةِ
مُعْجَزَتِهِ لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الْوُجْدَانِ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ كَمَا يَكُلُّ إِنْسَانٌ مِنْ أَمْرِ الْيَوْمِ
وَمَعْقُوبِيَّةُ تِلْكَ النَّسَبَةِ مَوْجُودَةٌ لِلسَّكَّانِ بِأَشَدِّ مِمَّا لِلنَّائِمِ وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُوقِعُهُمْ
فِي التَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ الْمَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ لَهُمْ فَيَقْعُونَ فِي الْعِنَادِ كَمَا وَقَعَ لِأُمِّيَّةِ
بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَنْبَأَ وَكَذَا وَقَعَ لِابْنِ صَيَّادٍ وَلِمُسَيْلِمَةَ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا
غَلَبَ الْإِيمَانُ وَأَنْقَطَعَتِ تِلْكَ الْأَمَانِيُّ آمَنُوا أَحْسَنَ إِيمَانٍ كَمَا وَقَعَ لَطَلْحَةَ الْأَسَدِيِّ
وَسَوَادِ بْنِ قَارِبٍ وَكَانَ لَهُمَا فِي الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْآثَارِ الشَّاهِدَةِ بِحُسْنِ
الْإِيمَانِ . وَأَمَّا الرُّوْبَا فَحَقِيقَتُهَا مُطَالَعَةُ النَّفْسِ الدَّائِقَةِ فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ لَحْظَةً مِنْ صُورِ
الْوَاقِعَاتِ فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ صُورُ الْوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةً بِالْفِعْلِ كَمَا
هُوَ شَأْنُ اللَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً يَأْنِ تَتَجَرَّدُ عَنِ الْمَوَادِّ الْجِسْمَانِيَّةِ
وَالْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَتَذْ بَقْعٍ لَهَا ذَلِكَ لَحْظَةً بِسَبَبِ النَّوْمِ كَمَا نَذْكُرُ فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا
لَتَشَوُّفُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكِهَا فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْاِقْتِبَاسُ
ضَعِيفًا وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِالْحَعَاكَاةِ وَالْمِثَالِ فِي الْخَيَالِ لِتَخْلُصِهِ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْحَعَاكَاةِ
إِلَى التَّعْبِيرِ وَقَدْ يَكُونُ الْاِقْتِبَاسُ قَوِيًّا يُسْتَعْنَى فِيهِ عَنِ الْحَعَاكَاةِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرِ
لِخُلُوصِهِ مِنَ الْمِثَالِ وَالْخَيَالِ وَالسَّبَبُ فِي وَقُوعِ هَذِهِ اللَّحْظَةِ لِلنَّفْسِ أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ
بِالْقُوَّةِ مُسَكَّمَةٍ بِالْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتُهَا تَعْقُلًا نَحْضًا وَيَكْمُلُ وُجُودُهَا
بِالْفِعْلِ فَتَكُونُ حِينَئِذٍ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً مُدْرَكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الْآلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ
نَوْعَهَا فِي الرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ الْمَلَائِكَةِ أَهْلُ الْأَفْقِ الْأَعْلَى عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا
ذَوَانِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ مَدَارِكِ الْبَدَنِ وَلَا غَيْرِهِ فَبِذَا الْاِسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ
وَمِنْهُ خَاصٌّ كَالَّذِي لِلْأَوْلِيَاءِ وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ الرُّوْبَا . وَأَمَّا الَّذِي
لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اِسْتِعْدَادٌ بِالْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكَِيَّةِ الْعُضْوَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى
الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ هَذَا الْاِسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّرًا فِي حَالَاتِ الْوَحْيِ وَهُوَ عِنْدَمَا

يُعْرَجُ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْأَذْرَاكِ شَبِيهَا بِحَالِ النَّوْمِ شَبِيهَا
بَيْنًا وَإِنْ كَانَ حَالُ النَّوْمِ أَدْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلِأَجْلِ هَذَا الشَّبَهِ عَبَّرَ الشَّارِعُ عَنِ الرُّؤْيَا
بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ وَفِي رِوَايَةٍ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ وَفِي رِوَايَةٍ
سَبْعِينَ وَلَيْسَ الْعَدَدُ فِي حَمِيْعِهَا مَقْصُودًا بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَقَاوُفِ هَذِهِ
الْمَرَاتِبِ بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَمَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فِي رِوَايَةِ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مَبْدَأِ الرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ
وَهِيَ نِصْفُ سَنَةٍ وَمُدَّةُ النَّبُوءَةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً فَنِصْفُ السَّنَةِ
مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ فَكَلَامٌ بَعِيدٌ مِنَ التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ أَتَيْنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا
يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنَ الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوءَةِ وَلَا يُعْطَى حَقِيقَتَهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ وَإِذَا تَبَيَّنَ
لَكَ هَذَا مِمَّا ذَكَرْتَاهُ أَوَّلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْأَسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ
لِلْبَشَرِ إِلَى الْأَسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفِطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
إِذْ هُوَ الْأَسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي الشَّرِّ وَمَعَهُ عَوَائِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ
حُصُولِهِ بِالْفِعْلِ وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْخَوَاسِ الظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ
حِجَابِ الْخَوَاسِ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جَبَلِيٌّ لَهُمْ فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ
مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ فَتُذَكِّرُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لَحْمَةً يَكُونُ فِيهَا الظَّفَرُ
بِالْمَطْلُوبِ وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ فَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ
قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ
وَمَا سَبَبُ ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْخَوَاسِ بِالنَّوْمِ فَعَلَى مَا أَصِفُهُ لَكَ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ
إِنَّمَا إِذْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَهُوَ بِخَارٍ لَطِيفٌ مَرَكُزُهُ بِالْجَوَافِ
الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ التَّشْرِيحِ لِلْجَالِينُوسِ وَغَيْرِهِ وَيَنْبَعِثُ مَعَ الدَّمِ فِي
الشَّرْيَافَاتِ وَالْعُرُوقِ فَيُعْطَى الْحِسَّ وَالْحَرَكَةَ وَسَائِرَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَرْتَقِعُ لَطِيفُهُ إِلَى
الدِّمَاغِ فَيُعَدِّلُ مِنْ بَرْدِهِ وَنَمِّهِ أَفْعَالُ الْقَوَى الَّتِي فِي بَطْنِهِ فَالنَّفْسُ النَّاطِقَةُ إِنَّمَا تُذَكِّرُ
وَتَعْقِلُ بِهَذَا الرُّوحِ الْجَوَافِيِّ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ
الْطَّيْفَ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْكَثِيفِ وَلَمَّا لَطُفَ هَذَا الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ الْمَوَادِّ الْبَدَنِيَّةِ

صَارَ مَحَلًّا لِآثَارِ الذَّاتِ الْمُبَايِنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ وَهِيَ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ وَصَارَتْ آثَارُهَا حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوَاسِطَتِهِ وَقَدْ كُنَّا قَدَمْنَا أَنَّ إِدْرَاكِهَا عَلَى نَوْعَيْنِ إِدْرَاكِ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ الْحَوَاسُ الْخَمْسُ وَإِدْرَاكِ بِالْبَاطِنِ وَهُوَ الْقَوَى الدِّمَاغِيَّةُ وَأَنَّ هَذَا إِلَّا إِدْرَاكِ كُلَّهُ صَارَفَ لَهَا عَنْ إِدْرَاكِهَا مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ وَلَمَّا كَانَتْ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً كَانَتْ مُعَرَّضَةً لِلْوَسَنِ وَالْفُشْلِ بِمَا يُدْرِكُهَا مِنَ الذَّمِّ وَالْكَلَالِ وَتَغْشَى الرُّوحَ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فَخَافَ اللَّهُ لَهَا طَلَبَ الْأَنْجَمَامِ لِتَجَرُّدِهَا إِلَّا إِدْرَاكِ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِإِنْخِاسِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا وَرُجُوعِهِ إِلَى الْحِسِّ الْبَاطِنِ وَيَعِينُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَغْشَى الْبَدَنَ مِنَ الْبَرْدِ بِاللَّيْلِ فَتَطْلُبُ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ أَعْمَاقَ الْبَدَنِ وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ فَتَكُونُ مُشِيعَةً مَرْكَبَهَا وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّوْمُ لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ فَإِذَا انْخَسَ الرُّوحُ عَنِ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقَوَى الْبَاطِنَةِ وَخَفَتْ عَنِ النَّفْسِ شَوَاعِلُ الْحِسِّ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ تَمَثَّلَ مِنْهَا بِالْتَرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ صُورٌ خَبَائِثٌ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ مُعَادَةً لِأَنَّهَا مُنْتَزَعَةٌ مِنْ الْمَذَرَّكَاتِ الْمُتَعَاهِدَةِ قَرِيبًا ثُمَّ يُنْزِلُهَا الْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ فَيُدْرِكُهَا عَلَى أَنْحَاءِ الْحَوَاسِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ وَرُبَّمَا انْفَتَحَتِ النَّفْسُ لَفَتَةً إِلَى ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ مَعَ مُنَازَعَتِهَا الْقَوَى الْبَاطِنِيَّةِ تَتَذَرِكُ بِإِدْرَاكِهَا الرُّوحَانِيَّةَ لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ عَلَيْهِ وَتَقْتَرِسُ مِنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي ذَاتِهَا حِينَئِذٍ ثُمَّ يَأْخُذُ الْخَيَالُ تِلْكَ الصُّورَ الْمَذَرَّكَةَ فَيُمَثِّلُهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوْ الْحَاكَاةِ فِي الْقَوَالِبِ الْمَعْمُودَةِ وَالْمَحَاكَاةِ مِنْ هَذِهِ هِيَ الْحُتَّاجَةُ لِلتَّعْبِيرِ وَتَصَرُّفُهَا بِالْتَرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ فِي صُورِ الْحَافِظَةِ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ مِنْ تِلْكَ اللَّحْمَةِ مَا تُدْرِكُهُ هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ هِيَ الصَّحِيحُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الرُّؤْيَا ثَلَاثُ رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلِكِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَهَذَا التَّفْصِيلُ مُطَابِقٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَالْجُلِّيُّ مِنَ اللَّهِ وَالْمَحَاكَاةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلِكِ وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا بَاطِلٌ وَالشَّيْطَانُ يُبْشِعُ الْبَاطِلَ هَذِهِ حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا وَمَا يُسَبِّحُهَا وَيُسَيِّمُهَا مِنَ النَّوْمِ وَهِيَ خَوَاصُّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ عَلَى الْعَمُومِ لَا يَخْلُو عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَرَ

لَهُ فِي يَقْظَتِهِ مِرَارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ وَحَصَلَ لَهُ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّ النَّفْسَ مُدْرِكَةٌ لِلْغَيْبِ فِي النَّوْمِ
وَلَا بُدَّ وَإِذَا جَازَ ذَلِكَ فِي عَالَمِ النَّوْمِ فَلَا يَمْتَنِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ اللَّاتِ
لِلْمُدْرِكَةِ وَاحِدَةٌ وَخَوَاصُّهَا عَامَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ وَاللَّهُ الْمَادِي إِلَى الْحَقِّ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

فصل * وَوُقُوعُ مَا يَقَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذَلِكَ غَالِبًا إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ عَلَيْهِ
وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً لِذَلِكَ الشَّيْءِ فَيَقَعُ لَهَا بِتِلْكَ اللَّحْظَةِ فِي النَّوْمِ لِأَنَّهَا تَقْصِدُ
إِلَى ذَلِكَ قَرَارًا وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الرِّيَاضِيَّاتِ ذِكْرُ
أَسْمَاءِ تَذَكُّرٍ عِنْدَ النَّوْمِ فَتَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا فِيمَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَيُسَوِّدُهَا الْحَالُومِيَّةُ
وَذِكْرُ مِنْهَا مَسْلَمَةٌ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ حَالُومَةٌ سَمَاءًا حَالُومَةُ الطَّبَاعِ النَّامِ وَهُوَ أَنْ يُقَالَ
عِنْدَ النَّوْمِ بَعْدَ فَرَاغِ السِّرِّ وَصِيحَةِ التَّوَجُّدِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْأَعْجَمِيَّةُ وَهِيَ تَعَاوَسَ بَعْدَ
أَنْ يَسُودَ وَغَدَاسُ نَوْنَا غَدَاسُ وَيَذَكُّرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرَى الْكَشْفَ عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ
فِي النَّوْمِ * وَحُكِّيَ أَنَّ رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةٍ لَيْالٍ فِي مَا كُلِّهِ وَذَكَرَهُ
فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طَبَاعُكَ النَّامُ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَقَدْ
وَقَعَ لِي أَنَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَرَّاءَ عَجِيبَةٍ وَأَطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ عَلَيْهَا مِنْ
أَحْوَالِي وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ لِلرُّؤْيَا يُعْطِيهَا وَإِنَّمَا هَذِهِ الْحَالُومَاتُ تُخْبِتُ
الْإِسْتِعْدَادَ فِي النَّفْسِ لَوُقُوعِ الرُّؤْيَا فَإِذَا قَوِيَ الْإِسْتِعْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى حُصُولِ مَا
يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى إِبْقَاعِ
النُّسْتَعْدَةِ لَهُ فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَتَذَكَّرْهُ فِيمَا
تَجِدُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

فصل * ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ اشْتِخَاصًا يُخْبِرُونَ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ وَقُوعِهَا
بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى صِنَاعَةٍ وَلَا
يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ النُّجُومِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارَكَهُمْ فِي ذَلِكَ بِمُقْتَضَى
فِطْرَتِهِمْ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا وَذَلِكَ مِثْلُ الْعَرَّافِينَ وَالنَّاظِرِينَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَالْعَرَّافِيَا
وَالطِّبَّاسِ الْمَاءِ وَالنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الرُّجْرِ فِي الطَّيْرِ
وَالسِّبَاعِ وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالْحُبُوبِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالنُّوَى وَهَذِهِ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي
عَالَمِ الْإِنْسَانِ لَا يَسَعُ أَحَدًا جَعْدُهَا وَلَا أَنْكَارُهَا وَكَذَلِكَ الْجَبَانِينَ يُلْقَى عَلَى السِّنَنِ

كَلِمَاتٍ مِنَ الْغَيْبِ فَيُخْبِرُونَ بِهَا وَكَذَلِكَ النَّائِمُ وَالْمَيِّتُ لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أَوْ نَوْمِهِ بِتَكَلُّمٍ
بِالْغَيْبِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيَاضَاتِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مَدَارِكُ فِي الْغَيْبِ عَلَى سَبِيلِ
الْكِرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ . وَنَحْنُ الْآنَ نَتَكَلَّمُ عَنْ هَذِهِ الْأِدْرَاكَاتِ كُلِّهَا وَتَبْتَدِئُ مِنْهَا
بِالْكِهَانَةِ ثُمَّ نَأْتِي عَلَيْهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى آخِرِهَا وَتَقْدِمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً فِي أَنَّ النَّفْسَ
الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِإِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا
ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ مَوْجُودَةٍ بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ وَهَذَا أَمْرٌ مُدْرِكٌ لِكُلِّ
أَحَدٍ وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ . وَصُورَةُ هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ وُجُودُهَا هُوَ عَيْنُ
الْإِدْرَاكِ وَالْتِمَقُّلُ فِيهِ تَوْجِدٌ أَوَّلًا بِالْقُوَّةِ مُسْتَعِدَّةٌ لِلْإِدْرَاكِ وَقَبُولِ الصُّورِ الْكُلِّيَّةِ
وَالْجُزْئِيَّةِ ثُمَّ يَتِمُّ نَشُوءُهَا وَوُجُودُهَا بِالْفِعْلِ بِمُصَاحَبَةِ الْبَدَنِ وَمَا يَعُودُهَا بِوُزُودِ مُدْرَكَاتِهَا
الْمَحْسُوسَةِ عَلَيْهَا وَمَا تَنْتَزِعُ مِنْ تِلْكَ الْأِدْرَاكَاتِ مِنَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ فَتَتَعَقَّلُ الصُّورَ
مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَحْصُلَ لَهَا الْإِدْرَاكِ وَالْتِمَقُّلُ بِالْفِعْلِ فَتَتِمُّ ذَاتُهَا وَتَبْقَى النَّفْسُ
كَالْهَيُولَى وَالصُّورُ مُتَعَاقِبَةً عَلَيْهَا بِالْإِدْرَاكِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ وَلِذَلِكَ نَجِدُ الصَّيِّ فِي أَوَّلِ
نَشَأَتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِدْرَاكِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا لَا يَنُومُ وَلَا يَكْشِفُ وَلَا يَغْيِرُهَا وَمَا وَذَلِكَ
أَنَّ صُورَتَهَا الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِهَا وَهِيَ الْإِدْرَاكِ وَالْتِمَقُّلُ لَمْ يَتِمَّ بَعْدُ بَلْ لَمْ يَتِمَّ لَهَا انْتِزَاعُ
الْكُلِّيَّاتِ ثُمَّ إِذَا تَمَّتْ ذَاتُهَا بِالْفِعْلِ حَصَلَ لَهَا مَا دَامَتْ مَعَ الْبَدَنِ نَوْعَانِ مِنَ الْإِدْرَاكِ
إِدْرَاكِ بِآلَاتِ الْجِسْمِ تُؤَدِّيهِ إِلَيْهَا الْمَدَارِكُ الْبَدَنِيَّةُ وَإِدْرَاكِ بِذَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ
وَهِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ بِالْإِنْعِمَاسِ فِي الْبَدَنِ وَالْحَوَاسِ وَبِشَوَاعِلِهَا لِأَنَّ الْحَوَاسَ أَبَدًا جَاذِبَةٌ
لَهَا إِلَى الظَّاهِرِ بِمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ الْإِدْرَاكِ الْجِسْمَانِيِّ وَرُبَّمَا تَنْغَمِسُ مِنَ الظَّاهِرِ
إِلَى الْبَاطِنِ فَيَرْتَفِعُ حِجَابُ الْبَدَنِ لِحَظَّةٍ إِمَّا بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
مِثْلَ النَّوْمِ أَوْ بِالْخَاصِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ بَعْضِ الْبَشَرِ مِثْلَ الْكِهَانَةِ وَالطَّرْقِ أَوْ بِالرِّيَاضَةِ
مِثْلَ أَهْلِ الْكَشْفِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فَتَلْتَفِتُ حِينَئِذٍ إِلَى الذَّوَاتِ الَّتِي فَوْقَهَا مِنَ الْمَلَا
إِمَّا بَيْنَ أَفْقِهَا وَأَفْقِهِمْ مِنَ الْإِتِّصَالِ فِي الْوُجُودِ كَمَا قَرَّرْنَا قَبْلَ وَتِلْكَ الذَّوَاتُ رُوحَانِيَّةٌ
وَهِيَ إِدْرَاكِ مُحَضَّرٌ وَعَقُولٌ بِالْفِعْلِ وَفِيهَا صُورُ الْمَوْجُودَاتِ وَحَقَائِقُهَا كَمَا مَرَّ فَيَنْجَلِي
فِيهَا شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَتَقْتَبِسُ مِنْهَا عُلُومًا وَرُبَّمَا دُفِعَتْ تِلْكَ الصُّورُ الْمُدْرَكَةُ إِلَى
الْخَيَالِ فَيَصْرِفُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ ثُمَّ يُرَاجِعُ الْحِسَّ بِمَا أَدْرَكَتْ إِمَّا مُجَرَّدًا أَوْ فِي

قَوَالِهِ فَيُخْبِرُ بِهِ . هَذَا هُوَ شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ وَلِتَرْجِعَ إِلَى مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ . فَأَمَّا النَّاطِرُونَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّنَاقَةِ مِنَ الْمَرَايَا وَطِسَاسِ الْمِيَاهِ وَقُلُوبِ الْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالنَّوَى فَكُلُّهُمْ مِنْ قَبِيلِ الْكَهَّانِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَضْعَفُ رَتَبَةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ الْكَهَّانَ لَا يَحْتَاجُ فِي رَفْعِ حِجَابِ الْحِسِّ إِلَى كَثِيرٍ مُعَانَةٍ وَهَوْلَاءُ يُعَانُونَهُ بِإِنْحِصَارِ الْمَدَارِكِ الْحَسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفُهَا الْبَصَرُ فَيَعَكِفُ عَلَى الْمَرْئِيِّ الْبَسِيطِ حَتَّى يَبْذُولَهُ مُدْرَكُهُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مُشَاهِدَةَ هَوْلَاءُ لِمَا يَرَوْنَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ وَأَيْسَرَ كَذَلِكَ بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِ الْبَصَرِ وَيَبْذُؤَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَطْحِ الْمِرَاةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورٌ هِيَ مَدَارِكُهُمْ فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ تَقْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا ادْرَكُوهُ وَأَمَّا الْمِرَاةُ وَمَا يُدْرِكُ فِيهَا مِنَ الصُّورِ فَلَا يُدْرِكُ كَوْنَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هَذَا النَّوعُ الْآخَرُ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَهُوَ تَقْسَاتِي لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرِكُ النَّفْسَاتِي لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا يَعْزِضُ لِلنَّاطِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَلِلنَّاطِرِينَ فِي الْمَاءِ وَالطِّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هَوْلَاءُ مَنْ يُشْغِلُ الْحِسَّ بِالْخُجُورِ فَقَطُّ ثُمَّ بِالْعَزَائِمِ لِلِاسْتِعْدَادِ ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا ادْرَكَ وَتَزَعْمُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الصُّورَ مُتَشَخِّصَةً فِي الْمَوَاقِعِ تَحْسِكِي لَهُمْ أَحْوَالُ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ وَغِيَّةُ هَوْلَاءُ عَنِ الْحِسِّ أَخَفُّ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْعَالَمِ أَبُو الْغَرَائِبِ . وَأَمَّا الزُّجَرُ وَهُوَ مَا يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ سُوحٍ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَالْفِكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغِيبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْعَثُ عَلَى الْحَرِصِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زَجَرَ فِيهِ مِنْ مَرْتَبَةٍ أَوْ مَسْتَمْعٍ وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْمُخَيَّلَةُ كَمَا قَدْ دَنَا قُوَّةَ فَيَبْعَثُهَا فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَأَاهُ أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّيهِ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُخَيَّلَةُ فِي النَّوْمِ وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْحَسُّوسِ الْمَرْئِيِّ فِي يَقْظَتِهِ وَنَجْمَتِهِ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الْجَانِينُ فَنَفْسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةُ التَّعَلُّقِ بِالْبَدَنِ لِقَسَادِ أَمْرِ جَنَّتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَغْرِقَةٍ فِي الْحَوَاسِ وَلَا مُتَغَمِّسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النَّفْصِ وَمَرَضِهِ وَرُبَّمَا زَانَحَهَا عَلَى

التعلق به روحانية أخرى شيطانية تثبت به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه
التخبط فإذا أصابه ذلك التخبط إما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من
النفس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسيه جملة فأدرك لحة من عالم نفسه وأنطبع
فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق عن لسانه في تلك الحال من غير إرادة
للتلقي وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال
وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك يحيى
الكذب في هذه المدارك وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم
ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه وبأخذون فيه بالظن
والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك
معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الأمور وقد تكلم عليها المسعودي
في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان
بعيداً عن الرسخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الإدراكات
التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفرعون إلى الكهان
في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات يعرفونم بالحق فيها من إدراك
غيبهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق بن أنمار
بن تزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا
الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبراه به
ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة الحمديّة في قرينش ورؤيا
المؤبدان التي أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة
وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير
وذكرهم في أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوئي فإنك إن داويتني لطيب

وقال الآخر

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا شفاك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوع بدان

وَعَرَّافُ الْبِصَامَةِ هُوَ رَبَّاحُ بْنُ عَجَلَةَ وَعَرَّافُ نَجْدِ الْأَبْلَقِ الْأَسَدِيُّ . وَمِنْ هَذِهِ الْمَدَارِكِ
الْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَالنَّيَّاسَةِ بِالنَّوْمِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى
الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ إِلَّا فِي
مَبَادِي النَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَذَهَابِ الْإِخْتِبَارِ فِي الْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ يَجِبُ
عَلَى النَّاطِقِ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الْقَتُولِينَ عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ
وَأَوْسَاطِ أَبْدَانِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَلَقَدْ بَاغَنَا عَنْ بَعْضِ الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ
قَتَلُوا مِنْ مُجَوِّزِهِمْ أَشْخَاصًا لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ
فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَشْبَعُ . وَذَكَرَ مَسَامَةَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنَّ آدَمِيًّا إِذَا
جُعِلَ فِي دَنْ مَمْلُوءٍ بِدِهْنِ السِّمِيسِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُغْذَى بِالتِّينِ وَالْجُوزِ
حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشُؤُونُ رَأْسِهِ فَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الدِّهْنِ
لَحِينَ يَجِفُّ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ
وَالْعَامَّةِ وَهَذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاقِبِ أَفْعَالِ السَّحَرَةِ لَكِنْ يَفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ
وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمَذْرُوكِ الْغَيْبِيِّ بِالرِّيَاضَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْعِبَادَةِ مَوْتًا
صِنَاعِيًّا بِإِمَاتَةِ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ يَحْوِ آثَارَهَا الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ثُمَّ تَغْذِيهَا
بِالدِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَشْئِهَا وَيَحْصُلُ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ وَمِنْ الْمَعْلُومِ
عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ذَهَبَ الْحِسُّ وَحُجَابُهُ وَاطْمَأَنَّ النَّفْسُ عَلَى الْمَغْشِيَّاتِ
وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ السَّحَرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْمَغْشِيَّاتِ
وَالنَّصَرَفَاتِ فِي الْعَوَالِمِ وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْخَرَفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا خُصُوصًا بِلَادِ
الْهِنْدِ وَيُسَمَّوْنَ هُنَاكَ الْحَوَكِيَّةَ وَلَهُمْ كُتُبٌ فِي كَيْفِيَّةِ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَالْأَخْبَارُ
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرَبِيَّةٌ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ
الْمَذْمُومَةِ وَإِنَّمَا يَقْضُدُونَ جَمْعَ الْهِمَّةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ لِيَحْصُلَ لَهُمُ أَذْوَاقُ
أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَمْعِ وَالْجُوعِ الْغُذِّيَّةِ بِالدِّكْرِ
فِيهَا تَمَّ وَجْهَتُهُمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ النَّفْسُ عَلَى الدِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى
الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ وَإِذَا عُرِّيَتْ عَنِ الدِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً وَحُصُولُ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لِهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَقْصُودًا مِنْ أَوَّلِ

الْأَمْرَ لِأَنَّهُ إِذَا قُصِدَ ذَلِكَ كَانَتْ الْوَجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ
وَالْإِطْلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ وَأَخْسِرَ بِهَا صَفَقَةً فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَرَكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ آثَرَ
الْعُرْفَانَ لِلْعُرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي فُهُمْ يَقْصِدُونَ بِوَجْهَتِهِمُ الْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ سِوَاهُ وَإِذَا
حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَحْصُلُ فَبِالْعَرَضِ وَغَيْرِ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقْرَأُ مِنْهُ إِذَا
عَرَضَ لَهُ وَلَا يَحْفَلُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِدَانِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَحُصُولُ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ
وَبُسْمُونٌ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثِ عَلَى الْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفًا وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ
التَّصَرُّفِ كَرَامَةٍ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِنَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ الْأُسْتَاذُ
أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمَالِكِيُّ فِي آخِرِينَ فِرَارًا مِنَ التَّيَاسِ
الْمُعْجَزَةِ بِغَيْرِهَا وَالْمَعْوَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ التَّفْرِقَةِ بِالتَّحْدِي فَهُوَ كَافٍ
وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنْ فِيكُمْ مَحْدَثَيْنِ وَإِنْ
مِنْهُمْ عُمَرُ وَقَدْ وَقَعَ الصَّحَابَةُ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعٌ مَعْرُوفَةٌ تَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلُ وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ زَيْمٍ كَانَ قَائِدًا عَلَى بَعْضِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ
بِالْعِرَاقِ أَيَّامَ الْفَتْوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ الْمُشْتَرِكِينَ فِي مُعْتَرِكٍ وَهُمْ بِالْأَنْهَزَامِ وَكَانَ بِقُرْبِهِ
جَبَلٌ يُنَحَّزُ إِلَيْهِ فَرُفِعَ لِعُمَرَ ذَلِكَ وَهُوَ يُخْطَبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلُ
وَسَمِعَهُ سَارِيَةَ وَهُوَ بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَهُ هُنَالِكَ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضًا لِأَبِي
بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَائِشَةُ ابْنَتُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنٍ مَا نَحَلَهَا مِنْ أَوْسَقِ الثَّمَرِ مِنْ
حَدِيقَتِهِ ثُمَّ نَبَّهَهَا عَلَى جَذَاذِهِ لِنَحْوِزِهِ عَنِ الْوَرَثَةِ فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ وَإِنَّمَا هُمَا
أَخَوَاكِ وَأَخْتَاكِ فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أُمَمَاءُ فَمَنْ الْآخَرَى فَقَالَ إِنْ ذَا بَطْنُ بِنْتٍ خَارِجَةٍ أَرَاهَا
جَارِيَةً فَكَانَتْ جَارِيَةً وَقَعَ فِي الْمَوْطِئِ فِي بَابٍ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ النُّحْلِ وَمِثْلُ هَذِهِ
الْوَقَائِعِ كَثِيرَةٌ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَأَهْلِ الْإِقْتِدَاءِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ التَّصَوُّفِ
يَقُولُونَ إِنَّهُ يَقُلُ فِي زَمَنِ النَّبُوَّةِ إِذَا لَا يَبْقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةٌ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ
إِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَسْلُبُ حَالَهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يَفَارِقَهَا وَاللَّهُ يَرْزُقُنَا
الْهُدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى الْحَقِّ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُرِيدِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ قَوْمٌ بِهَالِيلٍ مَعْنَاهُمْ أَشْبَهُ بِالْمَجَانِينِ مِنَ
الْعُقَلَاءِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ الْوِلَايَةِ وَأَحْوَالُ الصِّدِّيقِينَ وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْ

أَحْوَالِهِمْ مَنْ يَفْهَمُ عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الذُّوقِ مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلِّفِينَ وَبَقَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ
عَنِ الْمَغِيبَاتِ عَجَائِبُ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَقَيَّدُونَ بِشَيْءٍ فَيُطْلِقُونَ كَلَامَهُمْ فِي ذَلِكَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ
بِالْعَجَائِبِ وَرُبَّمَا يُنْكِرُ الْفُقَهَاءُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ
التَّكْلِيفِ عَنْهُمْ وَالْوَلَايَةِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ غَلَطٌ فَإِنَّ فَضْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ الْوَلَايَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَلَا غَيْرِهَا وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ
ثَابِتَةً الْوُجُودِ فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْصُهَا بِمَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ وَهُوَ لَا الْقَوْمُ لَمْ تَعْدَمْ نَفْسُهُمْ
النَّاطِقَةُ وَلَا فَسَدَتْ كَحَالِ الْعَجَائِنِ وَإِنَّمَا فَقِدَ لَهُمُ الْعَقْلُ الَّذِي يَبْطَأُ بِهِ التَّكْلِيفُ
وَهِيَ صِفَةٌ خَاصَّةٌ لِلنَّفْسِ وَهِيَ عُلُومٌ وَضَرُورِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ يَشْتَدُّ بِهَا نَظَرُهُ وَبِعَرَفِ أَحْوَالِ
مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةِ مَنْزِلِهِ وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ عَذْرٌ
فِي قَبُولِ التَّكْلِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَادِهِ وَلَيْسَ مَنْ فَقِدَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِفَاقِدٍ لِنَفْسِهِ وَلَا ذَاهِلٍ
عَنْ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونُ مَوْجُودَ الْحَقِيقَةِ مَعْدُومَ الْعَقْلِ التَّكْلِينِيِّ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ
وَلَا اسْتِحَالَةٍ فِي ذَلِكَ وَلَا يَتَوَقَّفُ اصْطِفَاءُ اللَّهِ عِبَادَهُ لِمَعْرِفَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ
وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلْتَبِسُ حَالُ هَؤُلَاءِ بِالْعَجَائِنِ الَّذِينَ تَفْسُدُ نَفْسُهُمْ
النَّاطِقَةُ وَيَلْتَعَفُونَ بِالْبَهَائِمِ وَلَكِ فِي تَمْيِيزِهِمْ عَلَامَاتٌ مِنْهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْبَهَائِلَ لَا تُجِدُ لَهُمْ
وَجْهَةً أَصْلًا وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ عَلَى الْبَلَاءِ مِنْ قَوْلِ نَشَأَتِهِمْ وَالْعَجَائِنُ يَعْزُضُ لَهُمْ
الْجَنُونُ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الْعُمُرِ أَمْوَاضَ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ ذَلِكَ وَفَسَدَتْ نَفْسُهُمْ
النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْخَبِيَةِ وَمِنْهَا كَثَرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ
عَلَى إِذْنِ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ وَالْعَجَائِنُ لَا تَصَرَّفُ لَهُمْ وَهَذَا فَصْلٌ أَنْتَهَى بِنَا
الْكَلَامُ إِلَيْهِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ

وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ الْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبَةٍ عَنِ الْحِسِّ فَمِنْهُمْ
الْمُنْجِمُونَ الْقَائِلُونَ بِالْإِلَالاتِ النُّجُومِيَّةِ وَمُقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْفَلَكَ وَآثَارِهَا فِي الْعَنَاصِرِ
وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْإِمْتِزَاجِ بَيْنَ طَبَاعِهَا بِالتَّنَاطُرِ وَيَتَأَدَّى مِنْ ذَلِكَ الْمِزَاجِ إِلَى الْهَوَاءِ
وَهَؤُلَاءِ الْمُنْجِمُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ حَدْسِيَّةٌ وَتَحْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ
عَلَى التَّأثيرِ النُّجُومِيَّةِ وَحُصُولِ الْمِزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ مَعَ مَزِيدٍ حَدْسٍ يَقِفُ بِهِ النَّاطِرُ عَلَى
تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَهُ بَطْلِيمُوسُ وَنَحْنُ نُبَيِّنُ بَطْلَانَ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ لَوْ ثَبِتَ فَعَالِيَهُ حَدَسٌ وَتَحْمِينٌ وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ . وَمِنْ
 هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَّةِ اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ وَتَعَرُّفِ الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةَ تَمْوِهَا خَطِ
 الرَّمْلِ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ وَتَحْصُلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَنَّهُمْ صَبَرُوا
 مِنَ النُّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الزُّوجِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ
 وَاسْتَوَائِهَا فِيهِمَا فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَرْوَاجًا كُلُّهَا أَوْ أَفْرَادًا
 كُلُّهَا فَشَكْلَانِ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِيهِمَا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ
 كَانَ الْفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فَسِتَّةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ كَانَ فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ
 جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا مَبْرُومًا كُلُّهَا بِأَسْمَائِهَا وَأَنْوَاعِهَا إِلَى سُعُودٍ وَنُحُوسٍ شَأْنِ
 الْكَوَاكِبِ وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ يَتَا طَبِيعِيَّةً بِزَعْمِهِمْ وَكَانَتْهَا الْبُرُوجُ الْإِلَاثْنَا عَشَرَ الَّتِي
 لِلْفَلَكَ وَالْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةُ وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْهَا يَتَا وَخُطُوطًا وَدِلَالَةً عَلَى صِنْفٍ
 مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ وَاسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ قَنًا حَازُوا بِهِ فَنَّ النِّجَامَةِ
 وَتَنَوَّعَ فَضَائِهِ إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ النِّجَامَةِ مُسْتَنَدَةٌ إِلَى أَوْضَاعٍ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا يَزْعُمُ تَطْلِيْمُوسُ
 وَهَذِهِ إِنَّمَا مُسْتَنَدُهَا أَوْضَاعٌ تَعَكُّيْمِيَّةٌ وَأَهْوَاءُ اتِّفَاقِيَّةٌ وَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا
 وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مِنَ النُّبُوتِ الْقَدِيمَةِ فِي الْعَالَمِ وَرُبَّمَا نَسَبُوهَا إِلَى دَانِيَالٍ أَوْ
 إِلَى آدْرِيسَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا شَأْنِ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَرُبَّمَا يَدْعُونَ مَشْرُوعِيَّتَهَا وَيَعْتَجِبُونَ
 بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَذَلِكَ وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ
 عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ خَطِّ الرَّمْلِ كَمَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لَا تَحْصِيلَ لَدَيْهِ لِأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ كَانَ
 نَبِيٌّ يَخْطُ فَيَأْتِيهِ الْوَحْيُ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَطِّ وَلَا اسْتِحْصَالَهُ فِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لِبَعْضِ
 الْأَنْبِيَاءِ فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ فَهُوَ ذَلِكَ أَيْ فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيْنِ الْخَطِّ بِمَا عَصَدَهُ
 مِنَ الْوَحْيِ لِذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ عِنْدَ الْخَطِّ وَأَمَّا إِذَا أَخَذَ
 ذَلِكَ مِنَ الْخَطِّ مُجَرَّدًا مِنْ غَيْرِ مَوَافَقَةٍ وَحْيٍ فَلَا وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . فَإِذَا
 أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ مُغَيَّبٍ بِزَعْمِهِمْ عَمِدُوا إِلَى قِرْطَاسٍ أَوْ رَمْلِ أَوْ دَقِيقٍ فَوَضَعُوا النُّقْطَ
 سَطُورًا عَلَى عَدَدِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ثُمَّ كَرَّرُوا ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَتَجِبَتْ سِتَّةَ عَشَرَ
 سَطْرًا ثُمَّ يَطْرَحُونَ النُّقْطَ أَرْوَاجًا وَيَضَعُونَ مَا بَقِيَ مِنْ كُلِّ سَطْرِ زَوْجًا كَانَ أَوْ فَرْدًا
 فِي مَرْتَبَتِهِ عَلَى التَّرْتِيبِ فَتَجِبُ أَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ يَضَعُونَهَا فِي سَطْرِ مُتَالِيَةٍ ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنْهَا

أَرْبَعَةَ أَشْكَالٍ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ الْعَرَضِ بِاعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا قَابِلَهَا مِنَ الشَّكْلِ
الَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةً فِي
سَطْرٍ ثُمَّ يُوَلَّدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلًا تَحْتَهُمَا بِاعْتِبَارِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ
مِنْ مَرَاتِبِ الشَّكْلَيْنِ أَيْضًا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةَ أَخْرَى تَحْتَهُمَا ثُمَّ يُوَلَّدُونَ
مِنْ الْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا مِنَ الشَّكْلَيْنِ شَكْلًا كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هَذَا
الشَّكْلِ الْخَامِسَ عَشَرَ مَعَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ شَكْلًا يَكُونُ آخِرَ السِّتَةِ عَشَرَ ثُمَّ يُحْكَمُونَ
عَلَى الْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا اقْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ السُّعُودَةِ وَالنُّحُوسَةِ بِالذَّاتِ وَالنَّظَرِ وَالْحُلُولِ
وَالْإِمْتَزَاجِ وَالِدَلَالَةِ عَلَى أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذَلِكَ تَحْكُمًا غَرِيبًا وَكَثْرَتُ
هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الْعُمُرَانِ وَوُضِعَتْ فِيهَا التَّالِيفُ وَاشْتَهَرَ فِيهَا الْأَعْلَامُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ
وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتُمْ تَحْكُمُ وَهَوَى وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصَبَ
فِكْرِكَ أَنْ الْغَيْبَ لَا تُدْرِكُ بِصِنَاعَةِ الْبَنَةِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعْرِفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْبَشَرِ
الْمَفْطُورِينَ عَلَى الرَّجُوعِ مِنْ عَالَمِ الْحِسِّ إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ وَلِذَلِكَ يُسَمَّى الْمُنْجِمُونَ هَذَا
الصِّنْفَ كُلَّهُمْ بِالزُّهْرِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ دَلَالَةُ الزُّهْرَةِ بِزَعْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ
عَلَى إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فَالْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هَذِهِ إِنْ كَانَ النَّظَرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَاصَّةِ
وَقَصْدَ بِهِذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنَ النُّقْطِ أَوْ الْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ الْحِسِّ لِتَرْجِعَ
النَّفْسُ إِلَى عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ لِحَظَّةٍ مَا فَهُوَ مِنْ بَابِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالنَّظَرِ فِي قُلُوبِ
الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَرَايَا الشَّفَافَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَصْدُ مَعْرِفَةِ
الْغَيْبِ بِهِذِهِ الصَّنَاعَةِ وَأَنَّهَا تُفِيدُهُ ذَلِكَ فَهَذَرُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .
وَالْعَلَامَةُ لِهَذِهِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ أَرْجَائِهِمْ
إِلَى تَعْرِفِ الْكَائِنَاتِ بِعَتَرِيَّتِهِمْ خُرُوجَ عَنْ حَالَتِهِمْ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْتِثَاوُبِ وَالْمَطْطِ
وَمَبَادِيءِ الْغَيْبَةِ عَنِ الْحِسِّ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ عَلَى اخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ
فَمَنْ لَمْ تَوْجَدْ لَهُ هَذِهِ الْعَلَامَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي
تَنْفِيقِ كَذِبِهِ

وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يَضَعُونَ قَوَانِينَ لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ الطُّورِ الْأَوَّلِ الَّذِي
هُوَ مِنْ مَدَارِكِ النَّفْسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ الْحَدْسِ الْمَبْنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ كَمَا

زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلَا مِنْ الظَّنِّ وَالْتَحَمِينَ الَّذِي يُعَاوَلُ عَلَيْهِ الْعَرَّافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطٌ
يَجْعَلُونَهَا كَالْمَصَائِدِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضَعْفَةِ وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ
الْمُصَنِّفُونَ وَوَلَعَ بِهِ الْخَوَاصُّ مِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْحِسَابِ الَّذِي يُسَدُّونَهُ حِسَابَ النِّيمِ وَهُوَ
مَذْكُورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ السِّيَاسَةِ الْمُنْسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعَرِّفُ بِهِ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فِي
الْمُتَحَارِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تُحَسَّبَ الْحُرُوفُ الَّتِي فِي اسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ الْجَمَلِ
الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أُبْجَدٍ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْأَلْفِ آحَادًا وَعَشْرَاتٍ وَمِثْنَيْنِ وَالْوَثْنَيْنِ
فَإِذَا حُسِبَتِ الْأَسْمَاءُ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَاحْسِبِ اسْمَ الْآخَرِ كَذَلِكَ ثُمَّ اطْرَحْ مِنْ كُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً وَاحْظِ بَقِيَّةَ هَذَا وَبَقِيَّةَ هَذَا ثُمَّ انْظُرْ بَيْنَ الْعَدَدَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ
مِنْ حِسَابِ الْأَسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ الْعَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الْكَمِّيَّةِ وَكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ أَوْ
فَرْدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ الْأَقَلِّ مِنْهُمَا هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَالْآخَرُ فَرْدًا
فَصَاحِبُ الْأَكْثَرِ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانََا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي الْكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَانِ
فَالْمَطْلُوبُ هُوَ لِلْغَالِبِ وَإِنْ كَانََا مَعًا فَرْدَيْنِ فَالطَّالِبُ هُوَ الْغَالِبُ وَيُقَالُ هُنَاكَ يَتَنَانِ فِي
هَذَا الْأَمَلِ أَشْتَهَرَا بَيْنَ النَّاسِ وَمِمَّا

أَرَى الزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسْتَوِ أَقْلًا وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ التَّحَالُفِ غَالِبٌ
وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي وَعِنْدَ اسْتِواءِ الْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبٌ
ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرَحِهَا بِتِسْعَةٍ قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي طَرَحِ
تِسْعَةٍ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّلَالَةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ وَهِيَ (ا)
الدَّلَالَةُ عَلَى الْوَاحِدِ وَ (ي) الدَّلَالَةُ عَلَى الْعَشْرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشْرَاتِ وَ (ق)
الدَّلَالَةُ عَلَى الْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْمِثْنَيْنِ وَ (ش) الدَّلَالَةُ عَلَى الْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ
فِي مَرْتَبَةِ آلَافٍ وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يُدَلُّ عَلَيْهِ بِالْحُرُوفِ لِأَنَّ الشَّيْنَ هِيَ آخِرُ
حُرُوفِ أُبْجَدٍ ثُمَّ رَتَّبُوا هَذِهِ الْأَحْرَفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ
رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (ا ب ق ش) ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّلَالَةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ
وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ آلَافٍ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أُبْجَدٍ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ
الْإِثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) الدَّلَالَةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْآحَادِ
وَ (ك) الدَّلَالَةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْعَشْرَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ وَ (ر) الدَّلَالَةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمِثْنَيْنِ

وَهِيَ مِائَتَانِ وَصَيَّرُوها كَلِمَةً وَاحِدَةً ثَلَاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ وَهِيَ بَكْرٌ ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ
بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةٌ جُلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ ابْجَد
وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نِهَايَةً عَدَدِ الْآحَادِ وَهِيَ ابْقَش بَكْر جُلَس دَمَت هَنَتْ وَصَخ زَعَد
حَنَظ طَضَع مُرْتَبَةٌ عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مَرْتَبَتِهِ
فَالْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ ابْقَش وَالْإِثْنَانِ لِكَلِمَةِ بَكْرِ وَالثَّلَاثَةُ لِكَلِمَةِ جُلَس وَكَذَلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ
الَّتِي هِيَ طَضَع فَتَكُونُ لَهَا التَّسْعَةُ فَإِذَا أَرَادُوا طَرَحَ الْأَسْمِ بِتِسْعَةِ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ
مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ هُوَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ
الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا مِنْ حُرُوفِ الْأَسْمِ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التَّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ
عَنْهَا وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا هُوَ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ بِالْأَسْمِ الْآخِرِ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجِينَ
بِمَا قَدَّمَاهُ وَالسِّرِّي فِي هَذَا بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِي مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عَقُودِ الْأَعْدَادِ يَطْرَحُ
تِسْعَةً إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ
الْعُقُودِ كَأَنَّهَا أَحَادٌ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ وَالْعِشْرِينَ وَالْمِائَتَيْنِ وَالْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهَا اِثْنَانِ
وَكَذَلِكَ الثَّلَاثَةُ وَالْثَلَاثُونَ وَالْثَلَاثُمِائَةُ وَالْثَلَاثَةُ الْآلَافُ كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ فَوَضِعْتُ
الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرَ وَجُعِلَتْ الْحُرُوفُ الدَّالَّةُ عَلَى أَصْنَافِ
الْعُقُودِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْآحَادِ وَالْعِشْرَاتِ وَالْمِائِينَ وَالْآلُوفِ "وَصَارَ عَدَدُ الْكَلِمَةِ
الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سِوَاهُ دَلٌّ عَلَى الْآحَادِ أَوِ الْعِشْرَاتِ أَوِ الْمِائِينَ
فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ كَلِمَةٍ عِوَضًا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا وَيُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَا
هَذَا هُوَ الْعَمَلُ الْمَتَدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ مُنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شَبُوحِنَا
مَرَى أَنَّ الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى تِسْعَةٌ مَكَانَ هَذِهِ وَمُتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيهَا وَيَفْعَلُونَ
بِهَا فِي الطَّرْحِ بِتِسْعَةٍ مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سِوَاهُ وَهِيَ هَذِهِ اِرب يسقك جزلط مدوص
هف تحذن عش خع تخط تِسْعَ كَلِمَاتٍ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا
الَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ فِيهَا الثَّلَاثِي وَالرُّبَاعِي وَالْثَّنَائِي وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَصْلِ مَطَرِدٍ كَمَا
تَرَاهُ لَكِنْ كَانَ شَبُوحُنَا يَنْقُلُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْمَغْرِبِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ مِنَ السَّحَابِيَاءِ
وَأَمْرَارِ الْحُرُوفِ وَالنَّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ الْبَنَاءِ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّ الْعَمَلَ بِهِذِهِ

(١) قوله .الآلوف فيه بطم لان الحروف ابس فيها ما يريد عن الالف كما سبق في كلامه

الْكَلِمَاتِ فِي طَرَحِ حِسَابِ النِّيمِ أَنْعُ مِنْ أَعْمَلِ بِكَلِمَاتِ ابْقِشَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ كَيْفَ
 ذَلِكَ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكُ الْغَيْبِ غَيْرَ مَعْرُوقٍ إِلَى أَرِسْطُو عِنْدَهُ الْحَقَّاقِينَ لِمَا فِيهِ مِنْ
 الْآرَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبَرْهَانِ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ تَصَفُّعُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ
 الرُّسُوحِ اهـ . وَمِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الصَّنَاعِيَّةِ لِاسْتِخْرَاجِ الْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ الزَّايِرَجَةَ
 الْمُسَمَّاةُ بِزَايِرَجَةِ الْعَالِمِ الْمَعْرُوفَةِ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ السَّبْغِي مِنْ أَعْلَامِ
 الْمُتَصَوِّفَةِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَاكِشَ وَلِعَهْدِ أَبِي بَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ
 مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةٌ أَعْمَلِ صِنَاعَةً وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاضِ يُوَلَّعُونَ بِإِفَادَةِ
 الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمَلْفُوزِ فَيُخْرِضُونَ بِذَلِكَ عَلَى حَلِّ رَمْزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ
 وَصُورَتِهَا الَّتِي يَقَعُ أَعْمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرُ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاقِ
 وَالْعُنَاصِرِ وَالْمُبْكُونَاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ وَالْعُلُومِ
 وَكُلُّ دَائِرَةٍ مُقْسُومَةٌ بِأَقْسَامٍ فَلِكُلِّهَا إِمَّا الْبُرُوجُ وَإِمَّا الْعُنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهُمَا وَخُطُوطُ
 كُلِّ قِسْمٍ مَارَّةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأَوْتَارَ وَعَلَى كُلِّ وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَتَابِعَةٌ مَوْضُوعَةٌ
 فِيهَا بِرُشُومٍ^(١) الزَّيْمَامِ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوَاوِينِ وَالْحِسَابِ بِالْمَغْرِبِ
 لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِنْهَا بِرُشُومِ الْغُبَارِ الْمُتَعَارِفَةِ فِي دَاخِلِ الزَّايِرَجَةِ وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ
 وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ جَدُولٌ مُتَكَثِرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طَوْلًا وَعَرْضًا
 يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي الْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطُّولِ جَوَانِبُ مِنْهُ
 مَعْمُورَةُ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ وَآخَرَى بِالْحُرُوفِ وَجَوَانِبُ خَالِيَةُ الْبُيُوتِ وَلَا تَعْلَمُ نِسْبَةَ
 تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةَ الَّتِي عَيَّنَتْ الْبُيُوتِ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ وَحَافَاتُ
 الزَّايِرَجَةِ أَيْنَاتٌ مِنْ عَرُوضِ الطُّوبِيلِ عَلَى رَوِيِ الْأَلَامِ الْمَنْصُوبَةِ تُتَضَمَّنُ صُورَةُ أَعْمَلِ
 فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّايِرَجَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْإِلْغَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ
 وَالْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّايِرَجَةِ يَبْتَغِي مِنَ الشَّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكْبَرِ أَهْلِ الْخُدَّانِ
 بِالْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وَهَبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْبِيلِيَّةٍ كَانَ فِي الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ وَنَصَبُ الْبَيْتِ
 سُؤَالَ عَظِيمٍ الْخَلْقِ حُزْتُ فَضْنُ إِذْنَ غَرَائِبُ شَكِّ ضَبْطُهُ الْجِدِّ مَثَلًا
 وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَتَدَاوِلُ عِنْدَهُمْ فِي أَعْمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هَذِهِ الزَّايِرَجَةِ

(١) قوله بِرُشُومِ أَي مَوْضُوعَةٍ بِضَمِّ رَاءٍ جَمْعُ رَشَمٍ بِأَشْبِيلِ الْمَعْبُودَةِ اهـ

وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفا ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزايرة ثم إلى الوتر المكنف فيها بالبرج الطالع من أوله مارا إلى المركز ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع فآخذون جميع الحروف المكنوبة عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما ويصيرونها حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون أحادها إلى العشرات وعشراتها إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط يفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأسه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب فإنه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسدونه الأس الأكبر والدور الأصلي ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في يوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون أخرى ويقابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسدونها الأدوار ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك ابن وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرة وقد رأينا كثيرا من الخواص يتهافون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الإلهام والتوافق في الخطاب حتى يكون

الْجَوَابُ مُسْتَقِيمًا أَوْ مُوَافِقًا لِلسُّؤَالِ وَوُقُوعُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ الْحُرُوفِ
 الْمُجْتَمِعَةِ مِنَ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ وَالْدُّخُولِ فِي الْجَدْوَلِ بِالْأَعْدَادِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنْ غَرَبِ
 الْأَعْدَادِ الْمُفْرُوضَةِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنَ الْجَدْوَلِ بِذَلِكَ وَطَرَحُ أُخْرَى وَمُعَاوَدَةُ
 ذَلِكَ فِي الْأَدْوَارِ الْمَعْدُودَةِ وَمُقَابَلَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ الْبَيْتِ عَلَى التَّوَالِي غَيْرُ مُسْتَنَكِرٍ
 وَقَدْ يَقَعُ الْإِطْلَاعُ مِنْ بَعْضِ الْأَذْكِيَاءِ عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةُ
 الْجَهْلِ فَالْتَّنَاسُبُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ الْحُصُولِ عَلَى الْجَهْلِ مِنَ الْمَعْلُومِ الْحَاصِلِ
 لِلنَّفْسِ وَطَرِيقُ الْحُصُولِ سَيِّمًا مِنْ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى الْقِيَاسِ وَزِيَادَةً
 فِي الْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا الْمَعْنَى يَنْسَبُونَ هَذِهِ الزَّايِرَةَ
 فِي الْغَالِبِ لِأَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَهِيَ مَنَسُوبَةٌ لِلْسَّبْتِ وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى أُخْرَى مَنَسُوبَةٍ لِسَهْلِ
 بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَتَعْمَرِي إِنَّهَا مِنْ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ وَالْمُعَانَاةِ الْعَجِيبَةِ وَالْجَوَابُ الَّذِي
 يَخْرُجُ مِنْهَا فَالْسِّرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَظْهَرُ لِي إِنَّمَا هُوَ الْمُقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذَلِكَ الْبَيْتِ
 وَلِهَذَا يَكُونُ النَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّا وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ
 ذَلِكَ اسْتَقَطُوا فِيهَا الْمُقَابَلَةَ بِالْبَيْتِ فَلَمْ يَخْرُجِ الْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ الْكَلَامِ
 عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَضِيقُ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّضَدِيقِ بِهَذَا الْعَمَلِ وَتَقُودُهُ
 إِلَى الْمَطْلُوبِ فَيُنْكَرُ صِحَّتَهَا وَيَحْسِبُ أَنَّهَا مِنَ التَّخَيُّلاتِ وَالْإِبْهَامَاتِ وَأَنَّ صَاحِبَ
 الْعَمَلِ بِهَا يَثْبُتُ حُرُوفَ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْظِمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ
 وَيَفْعَلُ تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونٍ ثُمَّ يُعْجِبُ بِالْبَيْتِ وَيَوْمُ أَنْ الْعَمَلُ جَاءَ
 عَلَى طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَهَذَا الْحُسْبَانُ تَوْهُمٌ فَاسِدٌ حَمَلَ عَلَيْهِ الْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ
 الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَدَارِكِ وَالْعُقُولِ وَلَكِنْ مِنْ شَأْنِ كُلِّ
 مُدْرِكٍ إِنْكَارُ مَا لَيْسَ فِي طَوْفِهِ إِدْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَلِكَ مُشَاهَدَةُ الْعَمَلِ بِهَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ وَالْحَدْسُ الْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرِّدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ
 يَبَاشِرُ ذَلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذِكَاةٌ وَحَدْسٌ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعَايَاةِ فِي الْعَدَدِ الَّذِي هُوَ
 أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى الْفَهْمِ إِدْرَاكُهُ لِبُعْدِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَخِفَائِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِمِثْلِ
 هَذَا مَعَ خِفَاءِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَغَوَابِهَا فَلَنْذَكُرْ مَسْئَلَةً مِنَ الْمُعَايَاةِ يَتَضَحُّ لَكَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا
 ذَكَرْنَا مِثَالَهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَاجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنْ

الفلوس ثم أجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائراً ثم اشتري بالدرهم كلها طيوراً
يسير ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدرهم فجوابه أن أقول هي تسعة لأنك
تعلم أن فلوس الدرهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة ثمنها وأن عدة اثمان الواحد
ثمانية فإذا جمعت الثمن من الدرهم إلى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهي
ثمانية طيور عدة اثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائراً آخر وهو المشتري بالفلوس
الماخوذة أولاً وعلى سيره اشتريت بالدرهم فتكون تسعة فانت ترى كيف خرج
لك الجواب المضمر يسير التناسب الذي بين أعداد المسئلة والوهم أول ما يلقي
إليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب
بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا إنما هو في الواقع الحاصلة في
الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها
خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته وإذا تبين لك ذلك فالأعمال الواقعة
في الزاوية كلها إنما هي في استخراج الجواب من الفاظ السؤال لأنها كما رأيت
استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك إنما
هو من تناسب بينهما بطالع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تسر عليه
استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع
الفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نقي أو إثبات وليس هذا من
المقام الأول بل إنما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل إلى
معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله
يعلم وأنتم لا تعلمون



الفصل الثاني

في العمران البدوي والام الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه فصول وشميدات

الفصل الاول

في ان احيال البدو والحضر طبيعية.

اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نمطتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح من الفراسة والزراعة ومنهم من يتحلل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والذيق انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المتحليين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرقة دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنيق فيها وتوسعة البيوت واخطاط المدن والامصار للتخضر ثم تزيد احوال الرقة والدعة فتجي عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنيق في علاج القوت واستجداء المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في انواعها من الحرير والديباغ وغير ذلك ومعالجة البيوت والصروح واحكام وضعها في تنجيدها والانتهاك في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها وبياعون في تنجيدها ويختلفون في استجداء ما يتخذونه لمعاشهم من ملابس او فراش او انية او ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون اهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من يتحلل في معاشه الصنائع ومنهم من يتحلل التجارة

وَتَكُونُ مَكَاسِبُهُمْ أَنْمَى وَأَرْفَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ
وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةٍ وَجَدِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا

الفصل الثاني

في ان جيل العرب في الخلقة طبيعي

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمُ الْمُتَعِلُّونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ مِنَ الْقَلْعِ
وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنَ الْأَفْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ
وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَمُقْتَصِرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِي أَوْ كَمَا لِي يَتَّخِذُونَ
الْبُيُوتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ أَوْ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ غَيْرَ مُنْجِدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ
الْإِسْتِظْلَالِ وَالْكُنْ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغَيْرَانِ وَالْكُهُوفِ وَأَمَا أَقْوَامُهُمْ
فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا بَسِيرًا بِعِلَاجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجٍ الْبَتَّةِ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ
فِي الزَّرْعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْقَلْعِ كَانَ الْمَقَامُ بِهِ أَوَّلَى مِنَ الظَّنِّ وَهُوَ لَا سَكَانَ الْمَدَرِ
وَالْقُرَى وَالْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ الْبَرَبِ وَالْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلَ الْغَنَمِ
وَالْبَقَرِ فَهُمْ ظَعْنٌ فِي الْأَغْلَبِ لِارْتِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَوَانَانِهِمْ فَالْتَّقَلُّبُ فِي الْأَرْضِ
أَصْلَحَ بِهِمْ وَيُسَمُّونَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلَا يُبْعِدُونَ فِي الْقَفْرِ
لِفَقْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّبِيعَةِ وَهُوَ لَا مِثْلَ الْبَرَبِ وَالتُّزْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ التُّزْكُمَانِ وَالصَّقَالِيَةِ
وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الْإِبِلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظَعْنًا وَأَبْعَدُ فِي الْقَفْرِ بِجَالًا لِأَنَّ مَسَارِحَ
التَّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَعْنِي بِهَا الْإِبِلُ فِي قَوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ
وَوُزُودِ مِيَاهِهِ الْمِلْحَةِ وَالتَّقَلُّبِ فَصَلَ الشِّتَاءُ فِي نَوَاحِيهِ فَرَارًا مِنْ أَذَى الْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ
هَوَائِهِ وَطَلَبًا لِمَا خِصَّ النَّجَاحُ فِي رِمَالِهِ إِذَا الْإِبِلُ أَضْعَبُ الْحَيَوَانَاتِ فَصَلًا وَسَخَاضًا
وَأَحْوَجُهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدِّفْءِ فَاضْطُرُّوا إِلَى إِبْعَادِ النَّجْعَةِ وَزُبْمَا زَادَتْهُمْ الْحَافِيَةُ عَنْ
التَّلُولِ أَيْضًا فَأَوْغَلُوا فِي الْقِفَارِ نَفَرَةً عَنِ الضِّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَحُّشًا
وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ مَنَازِلَ الْوَحْشِ غَيْرَ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَالْمَفْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانِ
الْعُجْمِ وَهُوَ لَا هُمْ الْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظُنُونُ الْبَرَبِ وَزَنَاتُهُ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادِ وَالتُّزْكُمَانِ
وَالْتُّزْكِ بِالْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ نَجْعَةً وَأَشَدَّ بَدَاوَةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِالْقِيَامِ عَلَى

الْأَيْلِ فَقَطْ وَهَؤُلَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الشَّيَآمِ وَالْبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِبِلَّ الْعَرَبِ
لَيْسَ بِهَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الْعُمَرَانِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضرة وسابق عليه وان البادية اصل العمران
والامصار مدد لما

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَدَوَ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمُ الْعَاجِزُونَ عَمَّا
فَوْقَهُ وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَالْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا
شَكَّ أَنَّ الضَّرُورِيَّ أَقْدَمُ مِنَ الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ الضَّرُورِيَّ أَصْلُ
وَالْكَمَالِيَّ فَرْعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ فَالْبَدْوُ أَصْلُ لِلْمَدْنِ وَالْحَضَرُ وَسَابِقٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ
مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الضَّرُورِيَّ وَلَا يَتَنَبَّهِي إِلَى الْكَمَالِ وَالتَّرَفِ إِلَّا إِذَا كَانَ الضَّرُورِيُّ
حَاصِلًا فَخُسُوفُ الْبِدَاوَةِ قَبْلَ رِقَّةِ الْحَضَارَةِ وَلِهَذَا نَجِدُ التَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَجْرِي إِلَيْهَا
وَيَتَنَبَّهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرَحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى الرِّيشِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِهِ أَحْوَالُ
التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى الدَّعَةِ وَأَمَكَّنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ الْمَدِينَةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الْقَبَائِلِ
الْمُتَبَدِّلَةِ كُنْهِمُ وَالْحَضَرِيَّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ الْبَادِيَةِ إِلَّا لِفَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا
أَوْ لِنَقْصِيرٍ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ الْبَدَوَ أَصْلُ لِلْحَضَرِ وَمُتَقَدِّمٌ
عَلَيْهِ أَنَا إِذَا فَتَشْنَا أَهْلَ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوَّلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدَوِ الَّذِينَ
بِنَاحِيَةِ ذَلِكَ الْمِصْرِ وَعَدَّوْا إِلَى الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي فِي الْحَضَرِ وَذَلِكَ بَدَلٌ عَلَى أَنَّ
أَحْوَالَ الْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الْبِدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلُ لَهَا فَتَفْهَمُهُ ثُمَّ إِنَّ كُلَّ
وَاحِدٍ مِنَ الْبَدَوِ وَالْحَضَرِ مُتَّفَاوِتُ الْأَحْوَالِ مِنْ جَنْسِهِ قَرِيبٌ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَفِيْلَةٍ
أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٍ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٍ أَكْثَرُ عُمَرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ
وُجُودَ الْبَدَوِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمَدْنِ وَالْأَمْصَارِ وَأَصْلُ لَهَا يَسْمَا أَنَّ وُجُودَ الْمَدْنِ
وَالْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَالدَّعَةِ الَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الضَّرُورَةِ الْمَعَاشِيَةِ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضرة

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه وبقدر ما سبق اليها من احد الخلقين بعد عن الآخر ويضرب عليها اكنسابه فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وضع عليه طريقه وكذا صاحب الشر اذا سبقت اليه ايضا عوائده واهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعبكوف على شهواتهم منها وقد تلوت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعثت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهب عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم فتجد الكثير منهم يقدعون في اقوال التفشاء في مجالسهم وبيّن كبرائهم واهل محارمهم لا يصدّم عنه وازع الحشمة لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضرة اقل بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وتفتحها فبسهل علاجهم عن علاج الحضرة وهو ظاهر وقد يتوضح فيما بعد ان الحضارة هي نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضرة والله يحب المتقين ولا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسلمة بن الاكوع وقد بلغه انه خرج الى سكنى البادية فقال له ارتددت على عقيلك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لي في البدو فاعلم ان الهجرة افترضت اول الاسلام على اهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على امره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الاغراب

أَهْلُ الْبَادِيَةِ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمَسُّهُمْ مِنْ عَصِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُظَاهَرَةِ
وَالْحِرَاسَةِ مَا لَا يَمَسُّ غَيْرَهُمْ مِنْ بَادِيَةِ الْأَعْرَابِ وَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِيدُونَ بِاللَّهِ
مِنَ التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ حَيْثُ لَا تَجِبُ الْهَجْرَةُ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ مَرْخِيهِ بِمَكَّةَ اللَّهُمَّ أَمْنٌ لِأَصْحَابِي مُجَرَّتِهِمْ وَلَا
تَرْدُهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَمَعْنَاهُ أَنْ يُوقِعَهُمْ لِمُلَازِمَةِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ الْقَوْلِ بِهَا فَلَا يَرْجِعُوا
عَنْ مُجَرَّتِهِمْ الَّتِي ابْتَدَأُوا بِهَا وَهُوَ مِنْ بَابِ الرُّجُوعِ عَلَى الْقَبْلِ فِي السَّيْرِ إِلَى وَجْهِ مِنْ
الْوُجُوهِ وَقِيلَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِمَا قَبْلَ الْفَتْحِ حِينَ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى الْهَجْرَةِ
إِقْلَةً الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَاعْتَزَلُوا وَتَسَكَّلَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ
بِالْمُعْتَمَةِ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ الْهَجْرَةَ سَاقِطَةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا هَجْرَةَ بَعْدَ
الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ إِنْشَاؤُهَا عَنْهُمْ بِسَلَامٍ بَعْدَ الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ وَجُوبُهَا عَنْهُمْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ
قَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ وَالْكُلُّ يَجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ الْوَفَاةِ سَاقِطَةٌ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ اقْتَرَفُوا مِنْ يَوْمِئِذٍ
فِي الْأَفَاقِ وَانْتَشَرُوا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَضْلُ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هَجْرَةُ فَقَوْلُ الْحَجَّاجِ
بِسَلَامَةٍ حِينَ سَكَنَ الْبَادِيَةَ أَرْتَدَدْتَ عَلَى عَقِيَّتِكَ تَعَرَّبْتَ نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ السُّكْنَى
بِالْمَدِينَةِ بِأَلَا شَارَةَ إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ الَّذِي قَدَّمَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لَا تَرْدُهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ
وَقَوْلُهُ تَعَرَّبْتَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يَهَاجِرُونَ وَأَجَابَ سَلَامَةً
بِإِنْكَارِ مَا أُلْزِمَهُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدْنَى لَهُ فِي الْبَدْوِ وَيَكُونُ
ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ خُزَيْمَةَ وَعِنَاقِ أَبِي بُرْدَةَ أَوْ يَكُونُ الْحَجَّاجُ إِنَّمَا نَعَى عَلَيْهِ
تَرْكَ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ لِعِلْمِهِ بِسُقُوطِ الْهَجْرَةِ بَعْدَ الْوَفَاةِ وَأَجَابَهُ سَلَامَةً بِأَنَّ
اِغْتِنَامَهُ لِإِذْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَى وَأَفْضَلُ فَمَا أَثَرُهُ بِهِ وَاخْتَصَّهُ إِلَّا لِمَعْنَى
عِلْمِهِ فِيهِ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذْمَةِ الْبَدْوِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّعَرُّبِ لِأَنَّ
مَشْرُوعِيَّةَ الْهَجْرَةِ إِنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِرَاسَتِهِ
لَا لِمَذْمَةِ الْبَدْوِ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ عَلَى تَرْكِ هَذَا الْوَاجِبِ دَلِيلٌ عَلَى مَذْمَةِ التَّعَرُّبِ وَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضرة
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ اتَّقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مَهَادِ الرَّاحَةِ وَالِدَعَةِ وَانْتَمَسُوا
فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَالْحَاكِمِ
الَّذِي يَسُوسُهُمْ وَالْحَامِيَةِ الَّتِي تَوَلَّى حِرَاسَتَهُمْ وَاسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي تَحُوطُهُمْ
وَالْحَرِيزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهَيِّجُهُمْ هَيْعَةٌ وَلَا يَتَفَرُّ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ غَارُونَ آمِنُونَ
قَدْ اتَّقَوْا السِّلَاحَ وَتَوَلَّى عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ الْأَجْبَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ النِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ الَّذِينَ
هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَثْوَاهُمْ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ خُلُقًا يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَأَهْلُ الْبَدْوِ لَتَفْرُدِهِمْ
عَنِ الْجَمْتِ وَتَوْحُّشِهِمْ فِي الصَّوَاهِي وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْحَامِيَةِ وَانْتِبَازِهِمْ عَنِ الْأَسْوَارِ
وَالْأَبْوَابِ قَائِمُونَ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا يَكْلِفُونَهَا إِلَى سِوَاهُمْ وَلَا يَتَّقُونَ فِيهَا بَغِيرَهُمْ
فَهُمْ دَائِمًا يَحْمِلُونَ السِّلَاحَ وَيَتَلَقَّتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطَّرِيقِ وَيَتَجَافُونَ عَنِ التَّجُوعِ
إِلَّا غَرَارًا فِي الْجِبَالِ وَعَلَى الرِّحَالِ وَفَوْقَ الْأَقْتَابِ وَيَتَوَجَّسُّونَ لِلنَّبَاتِ وَالْمُتَعَاتِ
وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْفَقْرِ وَالْيَبْدَاءِ مُدْلِينَ بِبِائْسِهِمْ وَاثْقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ صَارَ لَهُمُ الْبَاسُ خُلُقًا
وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوْ اسْتَفْرَسَهُمْ صَارِخٌ وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمَا
خَالَطُوهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي السَّنْرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ
أَنْفُسِهِمْ وَذَلِكَ مُشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ النَّوَاحِي وَالْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ الْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ
السُّبُلِ وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ وَأَصْلُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ لَا ابْنَ طَبِيعَتِهِ
وَمَزَاجِهِ فَالَّذِي أُلْفَهُ فِي الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقًا وَمَلَكََةً وَعَادَةً تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ
وَالْجِبَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْأَدَمِيِّينَ تَجِدُهُ كَثِيرًا صَحِيحًا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضرة للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهية بالمنفعة منهم
وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكٌ أَمْرٍ نَفْسِهِ إِذَا الرُّؤْسَاءُ وَالْأُمَرَاءُ الْمَالِكُونَ لِأَمْرِ
النَّاسِ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ فَمِنْ الْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي مَلَكََةٍ غَيْرِهِ وَلَا بُدَّ
فَإِنْ كَانَتِ الْمَلَكََةُ رَفِيقَةً وَعَادِلَةً لَا يِعَانِي مِنْهَا حُكْمٌ وَلَا مَنَعٌ وَصَدَّقَ كَانَتِ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ

يَدِيهَا مُدْلِينَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ وَاثِقِينَ بِعَدَمِ الْوَارِعِ حَتَّى صَارَ لَهُمْ
إِلَّا دَلَالٌ جَبِلَةٌ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ وَأَحْكَامُهَا بِالْقَهْرِ وَالسُّطُورَةِ
وَالْإِخَافَةِ فَتَكْسِرُ حِينَئِذٍ مِنْ سَوَرَةٍ بِأَسِيهِمْ وَتُذْهِبُ الْمِنْعَةَ عَنْهُمْ لِمَا يَكُونُ مِنَ
التَّكَاسُلِ فِي الْنُفُوسِ الْمُضْطَّهِدَةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَدْ نَهَى عُمَرُ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ
مِثْلِهَا لَمَّا أَخَذَ زُهْرَةُ بْنُ حَوْبَةَ سَلَبَ الْجَالِنُوسِ وَكَانَتْ قِيَمَتُهُ خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ
الذَّهَبِ وَكَانَ أَتْبَعَ الْجَالِنُوسِ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ سَلَبَهُ فَأَنْزَعَهُ مِنْهُ سَعْدٌ وَقَالَ
لَهُ مَلَأَ أَنْتَظَرْتَ فِي أَتْبَاعِهِ إِذْنِي وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ تَعَمَّدُ إِلَى
مِثْلِ زُهْرَةَ وَقَدْ صَلَّى بِمَا صَلَّى بِهِ وَبَقِيَ عَلَيْكَ مَا بَقِيَ مِنْ حَرْبِكَ وَتَكْسِيرُ فُوقَهُ وَتُفْسِدُ
قَلْبَهُ وَأَمْضَى لَهُ عُمَرُ سَلَبَهُ وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْأَحْكَامُ بِالْعِقَابِ فَمَذْهَبَةٌ لِلْبَاسِ بِالْكَلِيَّةِ
لِأَنَّ وَقُوعَ الْعِقَابِ بِهِ وَلَمْ يُدَافِعْ عَنْ نَفْسِهِ بِكُفَيْهِ الْمَدْلَّةِ الَّتِي تَكْسِرُ مِنْ سَوَرَةٍ بِأَسِيهِ
بَلَا شَكٍّ وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْأَحْكَامُ تَأْدِيبِيَّةً وَتَعْلِيمِيَّةً وَأُخِلَّتْ مِنْ عَوْدِ الصَّبَا أَثَرَتْ
فِي ذَلِكَ بَعْضَ النَّبِيِّ لِمَرْبَاهُ عَلَى الْخَافَةِ وَالْإِتْقَادِ فَلَا يَكُونُ مُدْلًا بِبَاسِهِ وَلِهَذَا نَجِدُ
الْمُتَوَحِّشِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَهْلَ الْبَدْوِ أَشَدَّ بَاسًا مِنْ تَأْخِذِهِ الْأَحْكَامُ وَنَجِدُ أَيْضًا الَّذِينَ
يَهَانُونَ الْأَحْكَامَ وَمَلَكَتْهَا مِنْ لَدُنْ مَرْبَاهُمْ فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ
وَالدِّرْيَانَاتِ يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَاسِهِمْ كَثِيرًا وَلَا يَكَادُونَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَةً
يُوجِهِ مِنْ الْوُجُوهِ وَهَذَا شَأْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الْمُتَحَلِّلِينَ لِلْقِرَاءَةِ وَالْأَخْذِ عَنِ الْمَشَافِيحِ
وَالْأَيْمَةِ الْمُمَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فِي مَجَالِسِ الْوُقُوفِ وَالْهَيْبَةِ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ
وَذَهَابُهَا بِالْمِنْعَةِ وَالْبَاسِ وَلَا تَسْتَكْرِ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ
الَّذِينَ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ بَاسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَاسًا لِأَنَّ الشَّارِعَ
صَلَّواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَارِعُهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِمَا
تَلِي عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَلَمْ يَكُنْ يَتَعْلَّمُ صِنَاعِي وَلَا تَأْدِيبٌ تَعْلِيمِي إِنَّمَا
هِيَ أَحْكَامُ الدِّينِ وَآدَابُهُ الْمُتَلَقَّاةُ نَقْلًا بِأَخْذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ
الْإِيمَانِ وَالْإِصْدِيقِ فَلَمْ تَزَلْ سَوَرَةٌ بِأَسِيهِمْ مُسْتَحْكِمَةً كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تُخْذِشْهَا أَظْفَارُ
التَّأْدِيبِ وَالْحُكْمِ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ الشَّرْعُ لَا أَدَبَهُ اللَّهُ حِرْصًا
عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَارِعُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَيَقِينًا بِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ

وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ وَأُخِذُوا بِالْأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً
يُؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْخُضَارَةِ وَخُلِقَ الْإِنْقِيَادُ إِلَى الْأَحْكَامِ
نَقَصَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْبَاسِ فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ
لِلْبَاسِ لِأَنَّ الْوَازِعَ فِيهَا ذَاتِي وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالتَّعْلِيمِيَّةُ مِمَّا
تُؤَثِّرُ فِي أَهْلِ الْخَوَاضِرِ فِي ضَعْفِ نَفْسِهِمْ وَخَضِ الشُّوْكَ مِنْهُمْ بِمَعَانِيهِمْ فِي وَلِيَدِهِمْ
وَكِهْلِهِمْ وَالْبَدْوِ بِمَعَزَلٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ
وَالْآدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الدُّعَلَمِينَ وَالتَّعْلِيمِينَ
أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصِّبْيَانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ نَقْلَهُ
عَنْ شُرَيْحِ الْقَاضِي وَاجْتَمَعَ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدَأَ الْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ الْغَطِّ وَأَنَّهُ
كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ الْغَطِّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ
عَنِ التَّعْلِيمِ الْمُتَعَارِفِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

الفصل السابع

فِي أَنْ سَكَنَى ابْدُو لَا تَكُونُ لَا لِقَابِلِ أَهْلِ الْعَدَةِ
إِعْلَامٌ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ وَقَالَ فَأَنَّهُمَا فُجُورًا وَنَقْوَاهَا وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أَهْمِلَ فِي مَرَعَى
عَوَائِدِهِ وَلَمْ يَهْدِ بِهِ الْإِقْتِدَاءُ بِالْدِّينِ وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْعَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَمِنْ
أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَمَنْ أَمْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَنَاعِ
أَخِيهِ فَقَدْ أَمْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَازِعٌ كَمَا قَالَ
وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجَدَّدَ ذَا عِفَّةٍ فَلَعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
وَأَمَّا الْمُدُنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكْمُ وَالِدَوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا
عَلَى أَيْدِي مَنْ تَخَتَّمَتْ مِنْ الْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُو عَلَيْهِ فَمِنْ
مَكْبُوحُونَ بِحِكْمَةِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ الظُّلْمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا
الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاحُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفَاةِ أَوْ الْغَرَدِ أَوْ
أَوْ أَعْجَزَ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ أَرْذِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْإِسْتِعْذَارِ
وَالْمَقَاوِمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَفَّرَ فِي

نُفُوسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالْتَجَلَّةِ وَأَمَّا حَالُهُمْ فَإِنَّمَا يَدُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجِ حَامِيَةٍ
 الْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفَتْيَانِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ
 إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشَدَّدُوا شَوْكَتَهُمْ وَيُخْشَى جَانِبُهُمْ
 إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصِيَّتِهِ أَمُّ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ
 وَالنُّعْرَةِ ^(١) عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةً فِي الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ
 التَّعَاوُذُ وَالتَّنَادُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ
 يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَيِّهِ لَئِنْ أَكَلْنَا الذَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا الْخَاسِرُونَ
 وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا بُتُومَ الْعُدُوتِ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعُصْبَةِ لَهُ وَأَمَّا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي
 أَنْسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ
 الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَبْغِي النِّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيَفَةً وَأَسْتَيْحَاشًا مِنَ التَّخَاذُلِ فَلَا
 يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سَكْنَى الْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يُلْتَمِهُمُ مِنَ
 الْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي يَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فِيمِثْلِهِ
 يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَعْمَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مَلِكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ بُلُوغُ
 الْغَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْإِسْتِعْصَاءِ وَلَا
 بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعَصِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا فَاتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ
 بَعْدَ وَ اللَّهِ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن

في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وَذَلِكَ أَنَّ صَلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَمِنْ صَلَتِهَا النُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي
 الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنَّ بَنَاهُمْ ضِمٌّ أَوْ تُصِيبُهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ
 غَضَاظَةً مِنْ ظُلْمِ قَرِيبِهِ أَوْ الْعَدَاءِ عَلَيْهِ وَيُودُّ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَعَاطِبِ
 وَالْمَهَالِكِ نَزْعَةً طَبِيعِيَّةً فِي الْبَشَرِ مَذْكَانًا فَإِذَا كَانَ النَّسَبُ الْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ
 قَرِيبًا جِدًّا بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ الْإِتِّعَادُ وَالِإِتِّعَامُ كَانَتْ الْوَصْلَةُ ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ
 بِعَجْرَدِهَا وَوُضُوحِهَا وَإِذَا بَعُدَ النَّسَبُ بَعْضُ الشَّيْءِ قَرِيبًا تُؤَسِّي بَعْضُهَا وَبَقِيَ مِنْهَا شُهْرَةٌ

(١) النعرة والذمار بالضم فيها والعبر الصراخ والصياح في حرب او شركا في المقاموس

فَتَحْمِلُ عَلَى الثُّغْرَةِ لِنَدْوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَارًا مِنَ الْغَضَاظَةِ الَّتِي بَتَوْهَا فِي
نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ مَنْ هُوَ مَنَسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْحِلْفُ إِذْ تُعْرَةُ كُلِّ
أَحَدٍ عَلَى أَهْلِ وَلَائِهِ وَحَلْفِهِ لِلْأَلْفَةِ الَّتِي تَلْقَى النَّفْسَ مِنْ اهْتِصَامٍ جَارِهَا أَوْ قَرِيبَهَا أَوْ
نَسَبِهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ النَّسَبِ وَذَلِكَ لِأَجْلِ اللَّحْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لَحْمَةِ النَّسَبِ
أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا وَمِنْ هَذَا تَقَعُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا
تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هَذَا الْإِلْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ
الْأَرْحَامِ حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالثُّغْرَةُ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَعْنَى عَنْهُ إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِي
لَا حَقِيقَةً لَهُ وَتَقَعُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوَصْلَةِ وَالْإِلْتِحَامِ فَإِذَا كَانَ ظَاهِرًا وَاضِحًا حَمَلَ
النُّفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ الثُّغْرَةِ كَمَا قُلْنَا وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعُفَتْ
فِيهِ الْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَانًا وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهِوِ الْحَمْدُ عَنْهُ وَمِنْ
هَذَا الْإِعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمُ النَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجْهَالَةٌ لَا تُضِرُّ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا
خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قِبَلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ وَانْتَفَتْ
الثُّغْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصِيَّةُ فَلَا مَنَفَعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع

في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب
ومن في معنهم

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اخْتَصُوا بِهِ مِنْ نَكْدِ الْعَيْشِ وَشَطَفِ الْأَحْوَالِ وَسُوءِ الْمَوَاطِنِ حَمَلَتْهُمْ
عَلَيْهَا الْفَرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ وَهِيَ لَمَّا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ
وَتَنَاجِيهَا وَرِعَايَتِهَا وَالْإِبِلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوَحُّشِ فِي الْقَفْرِ لِرَعِيَّتِهَا مِنْ شَجَرِهِ وَتَنَاجِيهَا فِي
رِمَالِهِ كَمَا تَقْدَمُ وَالْقَفْرُ مَكَانُ الشَّطَفِ وَالسَّغْبِ فَصَارَ لَهُمُ الْفَقْرُ وَرَبِيتُ فِيهِ
أَجْيَالُهُمْ حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجِيلَةً فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ أَنَّ يَسَاهِمَهُمْ فِي
حَالِهِمْ وَلَا يَأْتِسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّبِيلَ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ
حَالِهِ وَامْتَنَعَهُ ذَلِكَ لَمَّا تَرَكَهُ فَيُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَافِ أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا
وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ مَحْفُوظَةٌ صَرِيحَةٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي مُضَرٍّ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَثَانَةٍ وَثَقِيفٍ وَبَنِي
أَسَدٍ وَهَذِلٍ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ خُرَاعَةٍ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَطَفٍ وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ

وَلَا فَرْعٍ وَبَعْدُوا مِنْ أَرْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأَدَمِ وَالْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ
 أَنْسَابُهُمْ مَرِيحَةً مَحْفُوظَةً لَمْ يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ وَلَا عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ
 كَانُوا بِالْثَّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ الْخَضْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ مِنْ حَمِيرٍ وَكِهْلَانٍ مِثْلَ لَحْمٍ وَجُدَامٍ
 وَغَسَّانٍ وَطَيٍّ وَقُضَاعَةٍ وَإِيَادٍ فَأَخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ
 يُؤْنِسُهُمْ مِنَ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجَمِ وَمَخَالِطَتِهِمْ
 وَهُمْ لَا يَتَعَبَّرُونَ بِالْمَحَافِظَةِ عَلَى النَّسَبِ فِي يُؤْنِسُهُمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ .
 قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبَطِ السَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ
 عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قُرْبَةٍ كَذَا هَذَا أَيْ مَا لَحِقَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ أَهْلُ الْأَرْيَافِ مِنَ الْأَزْدِ حَامٍ
 مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبَلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخَضِيبَةِ نَكَثَرُ الْإِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ
 وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْإِتِمَاعُ إِلَى الْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدٌ قُنُسَرِيْنَ جُنْدٌ
 دِمَشْقِيٌّ جُنْدٌ الْعَوَاصِمِ وَانْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَطْرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرٌ بِالنَّسَبِ
 وَإِنَّمَا كَانَ لِاخْتِصَامِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ
 زَائِدَةٌ عَلَى النَّسَبِ يَتَمَيِّزُونَ بِهَا عِنْدَ أَمْرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ الْإِخْتِلَاطُ فِي الْخَوَاصِرِ مَعَ الْعَجَمِ
 وَغَيْرِهِمْ وَفَسَدَتْ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَأُطْرِحَتْ ثُمَّ ثَلَاثَتْ
 الْقَبَائِلُ وَدَثِرَتْ فَدَثِرَتْ الْعَصَبِيَّةُ بِدَثُورِهَا وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَاللَّهُ وَارِثُ
 الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل العاشر

في اختلاط الانساب كيف يقع

إِغْلَمَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةِ
 الْبَنِيهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وِلَاءٍ أَوْ لِفَرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَابَةِ أَصَابِهَا فَيَدَّعِي بِنَسَبِ هَؤُلَاءِ وَيُعَدُّ
 مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ الثَّعْرَةِ وَالْقَوْدِ وَحَمْلِ الدِّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ
 النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجَدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكُونِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا جَرِيَانُ أَحْكَامِهِمْ
 وَأَخْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ اتَّحَمَ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبَ الْأَوَّلَ بِطُولِ الزَّمَانِ وَيَذْهَبُ
 أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتِ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَلِتَعْمُ
 قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ . وَأَنْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ

آلِ الْمُنْدِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ بَيْعَةِ فِي عَرْجَةِ بْنِ هَرَثَمَةَ لَمَّا
وَلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِعْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيْقٌ أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيْقٌ وَطَلَبُوا
أَنْ يُؤْتِيَ عَلَيْهِمْ جَرِيرًا فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ عَرْجَةُ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا
رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي وَلَحِقْتُ بِهِمْ وَأَنْظَرْتُ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْجَةُ بِبَيْعَةِ
وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى تَرْتَمِحَ لِلرَّئِيسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِحِهِ
وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَآمَنُوا الزَّمَنُ لَتَنَوَّسِي بِالْجُمْلَةِ وَعَدُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ وَمَذْهَبٍ فَأَفْهَمَهُ
وَأَعْتَبَرَهُ سِرَّ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْعُهُودِ وَاللَّهُ
الْمُوفِيُّ لِلصَّوَابِ بِمَنْهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي عشر^(١)

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل المعصية

إِعْلَمَ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ الْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمُ الْعَامِ
فَقِيهِمْ أَيْضًا عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُّ اتِّحَامًا مِنَ النَّسَبِ الْعَامِ لَهُمْ مِثْلُ
عَشِيرَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبٍ وَاحِدٍ لَا مِثْلَ بَنِي الْعَمِّ الْأَقْرَبِينَ أَوْ
الْأَبْعَدِينَ فَهَؤُلَاءِ أَفْعَدُ بِنَسَبِهِمُ الْخُصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَصَائِبِ فِي
النَّسَبِ الْعَامِ وَالنُّعُورَةِ نَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْخُصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ النَّسَبِ الْعَامِ إِلَّا أَنَّهَا
فِي النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ اقْتِرَابَ اللَّحْمَةِ وَالرَّئِيسَةِ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
وَلَا تَكُونُ فِي الْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتِ الرَّئِيسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغَلْبِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةً
ذَلِكَ النِّصَابُ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ الْعَصَائِبِ لِيَقَعَ الْغَلْبُ بِهَا وَلْتَمَّ الرَّئِيسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجَبَ
ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الرَّئِيسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النِّصَابِ الْخُصُوصِ بِأَهْلِ الْغَلْبِ
عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي الْعَصَائِبِ الْأُخْرَى النَّازِلَةِ عَنْ عَصَابَتِهِمْ فِي
الْغَلْبِ لَمَّا تَمَّتْ لَهُمُ الرَّئِيسَةُ فَلَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النِّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى
فَرْعٍ وَلَا تَنْتَقِلُ إِلَّا إِلَى الْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لِمَا قُلْنَا مِنْ مِيرِ الْغَلْبِ لِأَنَّ الْأَجْتِمَاعَ
وَالْعَصَبِيَّةَ بِمِثَابَةِ الْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَالْمِزَاجُ فِي الْمُتَكَوِّنِ لَا يَصْلُحُ إِذَا تَكَافَأَتْ

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة الترسيمة وإثباته أولى لبطابق كلامه

اول الفصل ١٢ اه قاله نصر الموريني

الْعَاصِرُ فَلَا بُدَّ مِنْ غَلَبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ التَّصَكُّوْبُ فِهَذَا هُوَ سِرُّ اشْتِرَاطِ الْغَلَبِ فِي الْعَصِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ اسْتِحْرَازُ الرَّئَاسَةِ فِي النِّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم
وَذَلِكَ أَنَّ الرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْغَلَبِ وَالْغَلَبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ
فَلَا بُدَّ فِي الرِّئَاسَةِ عَلَى الْقَوْمِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصَبِيَّاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً
لِأَنَّ كُلَّ عَصِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا اخْتَسَتْ بِغَلَبِ عَصِيَّةِ الرَّئِيسِ لَهُمْ أَقْرَبُوا بِالْإِذْعَانِ وَالْإِتِّبَاعِ
وَالسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِالْجُمْلَةِ لَا تَكُونُ لَهُ عَصِيَّةٌ فِيهِمْ بِالنَّسَبِ إِنَّمَا هُوَ مُلَصَّقٌ لَزِيْقٍ
وَعَايَةُ التَّعَصُّبِ لَهُ بِالْوَلَاءِ وَالْحِلْفِ وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ لَهُ غَلَبًا عَلَيْهِمُ الْبَتَّةَ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ
قَدِ اتَّخَمَ بِهِمْ وَاخْتَلَطَ وَتَنَوَّيَ عَهْدُهُ الْأَوَّلُ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعَايُ
بَنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ الرِّئَاسَةُ قَبْلَ هَذَا الْإِلْتِحَامِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ وَالرِّئَاسَةُ عَلَى الْقَوْمِ
إِنَّمَا تَكُونُ مُتَنَاقِلَةً فِي مَنَبَتٍ وَاحِدَةٍ تَعَيَّنَ لَهُ الْغَلَبُ بِالْعَصِيَّةِ فَالْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لِهَذَا
الْمُلَصَّقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا التَّصَاقُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَمَنْعَهُ ذَلِكَ الْإِلْتِصَاقُ مِنَ الرِّئَاسَةِ حِينَئِذٍ
فَكَيْفَ تُنَوَّلَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَالِ الْإِلْتِصَاقِ وَالرِّئَاسَةُ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْزُونَةً عَنْ
مُسْتَحَقِّهَا لِمَا قُلْنَاهُ مِنَ التَّغَلُّبِ بِالْعَصِيَّةِ وَقَدْ يَتَشَوَّفُ كَثِيرٌ مِنَ الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْقَبَائِلِ
وَالْعَصَائِبِ إِلَى أَنْسَابِ يَلْهَجُونَ بِهَا إِمَّا لِلْخُصُوصِيَّةِ فَضِيلَةِ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذَلِكَ النَّسَبِ مِنْ
شَجَاعَةٍ أَوْ ذِكْرٍ أَوْ ذِكْرٍ كَيْفَ اتَّفَقَ فَيَنْزِعُونَ إِلَى ذَلِكَ النَّسَبِ وَيَتَوَرَّطُونَ بِالِدَّعْوَى فِي
شُعُوبِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا يُوقِعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْقَدَحِ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَالطَّعْنِ فِي شَرَفِهِمْ
وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّاسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَدَّعِيهِ زَنَانَةُ جُمْلَةً أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنْهُ
أَدْعَاةُ أَوْلَادِ رَبَّابِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْحِجَازِيِّينَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ رَغَبَةِ أَنَّهُمْ مِنْ
بَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ مِنَ الشَّرِيدِ مِنْهُمْ لَحِقَ جَدُّهُمْ بِبَنِي عَامِرٍ تَجَارًا يَصْنَعُ الْحَرْجَانَ (١) وَاخْتَلَطَ
بِهِمْ وَاتَّخَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْحِجَازِيَّ . وَمِنْ ذَلِكَ أَدْعَاةُ بَنِي عَبْدِ
الْقَوِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ تُوْجِينٍ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَغَبَةٍ فِي هَذَا
النَّسَبِ الشَّرِيفِ وَغَلَطًا بِاسْمِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةِ أَبِي عَبْدِ الْقَوِيِّ وَلَمْ يُعْلَمْ دُخُولُ أَحَدٍ

(١) قوله المرحان بكسر الحاء جمع خرج بفتحين نعتش الموتاه

مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ الْعَلَوِيِّينَ أَغْدَانِهِمْ
 مِنَ الْأَدَارِسَةِ وَالْعَبِيدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ الْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ الْعَلَوِيِّينَ . وَكَذَلِكَ
 مَا يَدْعِيهِ أَبْنَاءُ زِيَّانَ مُلُوكُ تَلْمُسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْقَاسِمِ بْنِ
 أَذْرِيسَ ذَهَابًا إِلَى مَا اشْتَهَرُ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْقَاسِمِ فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمُ الزَّنَاتِي
 أَنْتَ الْقَاسِمُ أَيْ بَنُو الْقَاسِمِ ثُمَّ يَدْعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هَذَا هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ أَذْرِيسَ أَوْ الْقَاسِمُ
 بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَذْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا فَغَايَةُ الْقَاسِمِ هَذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ
 سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيرًا بِهِمْ فَكَيْفَ تَمَّ لَهُ الرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قَبْلِ
 أَسْمِ الْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْوُجُودِ فِي الْأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ وَهُمْ
 غَيْرُ مُتَحَاجِينَ لِذَلِكَ فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمَلِكِ وَالْعِزَّةُ إِنَّمَا كَانَ بِعَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِأَدْعَاءِ
 عَلَوِيَّةٍ وَلَا عَبَّاسِيَّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى هَذَا الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمُلُوكِ
 بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهَرُ حَتَّى يَبْعُدَ عَنِ الرَّدِّ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ يَحْيَى بْنِ زِيَّانَ
 مُؤَثَّلِ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذَلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ بَلُغْنِي الزَّنَاتِيَّةَ مَا مَعْنَاهُ أَمَا الدُّنْيَا
 وَالْمَلِكُ فَلِنَاكُهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهَذَا النَّسَبِ وَأَمَا نَفْعُهُمَا فِي الْآخِرَةِ فَمَرَدُودٌ إِلَى اللَّهِ
 وَأَعْرَضَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَدْعِيهِ بَنُو سَعْدِ شُبُوحُ بْنُ يَزِيدَ
 مِنْ زُغْبَةِ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شُبُوحُ بْنُ يَدْلَتَنَ
 مِنْ تُوْجِينِ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ وَالزَّوَادَةُ شُبُوحُ رِيَّاحِ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِ الْبَرَامِكَةِ وَكَذَا
 بَنُو مَهْنَأُ أَمْرَاهُ طَيِّءٍ بِالْمَشْرِقِ يَدْعُونَ فِيمَا بَلَّغْنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ وَامْتَنَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ
 وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مَانِعَةٌ مِنْ أَدْعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَلْ تُعَيَّنُ أَنْ يَكُونُوا
 مِنْ صَرِيحِ ذَلِكَ النَّسَبِ وَأَقْوَى عَصَبِيَّاتِهِ فَاعْتَبَرَهُ وَاجْتَنَبَ الْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ
 هَذَا الْبَابِ الْحَاقَ مَهْدِيَّ الْمُوَحِّدِينَ بِنَسَبِ الْعَلَوِيَّةِ فَإِنَّ الْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنَاتِ
 الرِّئَاسَةِ فِي هَرِثْمَةِ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا رَأْسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ اشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالْدِّينِ وَدُخُولِ
 قِبَائِلِ الْمَصَامِنَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَابِتِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَاللَّهُ
 عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الفصل الثالث عشر

في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية

ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك ان الشرف والحسب إنما هو بالخلال ومعنى البيت ان يعد الرجل في آبائه
أشرافاً مذكورين يكون له بولادتهم إياه ولا ينساب إليهم تجلة في أهل جلدته لهما
وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخالهم والناس في نسابهم وتناسلهم معادن
قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا
فقهوا فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب وقد بينا أن ثمرة الأنساب وفائدتها إنما هي
العصبية للثمرة والتناصر حيث تكون العصبية مرهوبة والمنبت فيها زكي محمي
تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتعيد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها
فيكون الحسب والشرف أصليين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتفاوت البيوت
في هذا الشرف بتفاوت العصبية لأنه ميراثاً ولا يكون للمنفردين من أهل الأمصار
بيت إلا بالمجاز وإن توهموه فزخرف من الدعاوى وإذا اعتبرت الحسب في أهل
الأمصار وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفاً في خلال الخير ومخالطة أهله مع
الكون إلى العافية ما استطاع وهذا مغاير ليسر العصبية التي هي ثمرة النسب وتعيد
الآباء لكونه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء
المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه وليس حسباً بالحقيقة وعلى الإطلاق
وإن ثبت أنه حقيقة فهما بالوضع اللغوي فيكون من المشكك الذي هو في
بعض مواضعه أولى وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسبون منه
لذهابها بالخضارة كما تقدم ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب
يعدون به أنفسهم من أشراف البيوت أهل العصائب وليسوا منها في شيء لذهاب
العصبية جملة وكثير من أهل الأمصار الناشئين في بيوت العرب أو العجم لأول
عهدهم مؤسسون بذلك وأكثر ما رجع الوسواس في ذلك لبني إسرائيل فإنه كان
لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت أولاً لِمَا تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل
من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية ثانياً وما

أَتَاهُمُ اللَّهُ بِهَا مِنْ الْمَلِكِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ ثُمَّ انْصَحُوا مِنْ ذَلِكَ أَجْمَعَ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ
الَّذِلَّةُ وَالْمَسَكَنَةُ وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ فِي الْأَرْضِ وَانْقَرَدُوا بِالْأَسْتِغْنَاءِ لِلْكُفْرِ
آلَافًا مِنَ السِّنِينَ وَمَا زَالَ هَذَا الْوَسْوَاسُ مُصَاحِبًا لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ يَقُولُونَ هَذَا هَارُونِي هَذَا
مِنْ نَسْلِ يُوْشَعَ هَذَا مِنْ عَقِبِ كَالْبِ هَذَا مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا مَعَ ذَهَابِ الْعَصِيَّةِ وَرُسُوحِ الدَّلِّ
فِيهِمْ مِنْذُ أَخْقَابِ مُتَطَاوِلَةٍ وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمُ الْمُنْقَطِعِينَ فِي أَنْسَابِهِمْ
عَنِ الْعَصِيَّةِ يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْمَدْيَانِ . وَقَدْ غَلِطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ فِي هَذَا لَمَّا ذَكَرَ
الْحَسَبَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَالْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ
قَوْمٍ قَدِيمٍ نُزِلَتْ بِهِمُ بِالْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْتَاهُ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ
قَدَمُ نُزُلِهِمُ بِالْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ يَرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمِلُ غَيْرُهُمْ عَلَى الْقَبُولِ
مِنْهُ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسَبَ عَلَى تَعْيِيدِ الْأَبَاءِ فَقَطَّ مَعَ أَنَّ الْخُطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَالَةٌ مِنْ
فُؤُورِ اسْتِمَالَتِهِ وَهُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَتَّةَ فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ وَلَا
يَقْدَرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلَا يُسْتَمَالُ هُوَ وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنَ الْخَضِرِ بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ إِلَّا
أَنَّ ابْنَ رُشْدٍ رَبَا فِي جَبَلٍ وَبَلَدٍ وَلَمْ يُمَارِسُوا الْعَصِيَّةَ وَلَا أَنْسُوا أَحْوَالَهَا فَبَقِيَ فِي أَمْرِ
الْبَيْتِ وَالْحَسَبِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَعْيِيدِ الْأَبَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يُرَاجِعْ فِيهِ
حَقِيقَةَ الْعَصِيَّةِ وَمِيرَهَا فِي الْخَلِيقَةِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الفصل الرابع عشر

فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ لِلْمَوَالِي وَأَهْلِ الْأَصْطِنَاعِ إِنَّمَا هُوَ بِمَوَالِيهِمْ لَا بِأَنْسَابِهِمْ
وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الشَّرَفَ بِالْأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ فَإِذَا أُصْطَنِعَ
أَهْلُ الْعَصِيَّةِ قَوْمًا مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ أَوْ اسْتَرْقُوا الْعِبْدَانِ وَالْمَوَالِي وَالتَّحَمُّوا بِهِ كَمَا قُلْنَا
ضَرَبَ مَعَهُمْ أُولَئِكَ الْمَوَالِي وَالْمُصْطَنِعُونَ بِنَسَبِهِمْ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ وَلَبَسُوا جِلْدَتَهَا
كَأَنَّهُا عَصَبَتُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِنْتِظَامِ فِي الْعَصِيَّةِ مُسَاهَمَةٌ فِي نَسَبِهَا كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ
تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَسَوَاءٌ كَانَ مَوْلَى رِقٍّ أَوْ مَوْلَى أَصْطِنَاعٍ وَحَلَفَ
وَلَيْسَ نَسَبٌ وَلَادَتِهِ بِنَافِعٍ لَهُ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ إِذْ هِيَ مُبَايَنَةٌ لِذَلِكَ النَّسَبِ وَعَصِيَّةٌ ذَلِكَ
النَّسَبِ مَفْقُودَةٌ لِذَهَابِ مِيرَهَا عِنْدَ التَّحَامِيهِ بِهَذَا النَّسَبِ الْآخِرِ وَفُقْدَانِهِ أَهْلَ عَصَبَتِهَا
فَيَصِيرُ مِنْ هَوَالِهِ وَيَتَدَرِّجُ فِيهِمْ فَإِذَا تَعَدَّدَتْ لَهُ الْأَبَاءُ فِي هَذِهِ الْعَصِيَّةِ كَانَ لَهُ يَنْبَغُ

شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نِسْبَتِهِ فِي وَلَائِهِمْ وَأَصْطِنَاعِهِمْ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ بَلْ يَكُونُ
 أَدُونَهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهَذَا شَأْنُ الْمَوَالِي فِي الدُّوَلِ وَالْخِدْمَةِ كُلِّهِمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا
 يَشْرَفُونَ بِالرُّسُوحِ فِي وِلَاةِ الدُّوَلَةِ وَخِدْمَتِهَا وَتَعَدُّ الْآبَاءُ فِي وَلَايَتِهَا إِلَّا تَرَى إِلَى مَوَالِي
 الْأَثَرِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي نُوبَخْتٍ كَيْفَ أَدْرَكَوا
 الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ وَبَنُوا الْحِجْدَ وَالْأَصَالَةَ بِالرُّسُوحِ فِي وِلَاةِ الدُّوَلَةِ فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى
 بْنُ خَالِدٍ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ بَيْتًا وَشَرَفًا بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى وِلَاةِ الرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ لَا بِالْإِنْتِسَابِ
 فِي الْفَرَسِ وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَخِدْمَتِهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوحِ
 فِي وَلَايَتِهَا وَالْأَصَالَةَ فِي أَصْطِنَاعِهَا وَيَضْمَعِلُ نَسَبُ الْأَقْدَمِ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مَلْفَى لَا
 عِبْرَةَ بِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ نَسَبُ وَلَائِهِ وَأَصْطِنَاعُهُ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصَبِيَّةِ
 الَّتِي بِهَا الْبَيْتُ وَالشَّرَفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ
 يَنْفَعَهُ نَسَبُ وَلَادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ الْوِلَاةِ فِي الدُّوَلَةِ وَلُحْمَةُ الْأَصْطِنَاعِ فِيهَا
 وَالتَّرْبِيَّةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُ الْأَوَّلِ فِي لُحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَاؤُهُ
 وَأَصْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعَهُ الْأَوَّلَى لِذَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا وَانْتَفَعَ بِالثَّانِيَةِ لَوْجُودِهَا وَهَذَا
 حَالُ بَنِي بَرْمَكٍ إِذَا الْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْفَرَسِ مِنْ مَدَنَةِ يَبُوتِ النَّارِ عِنْدَهُمْ
 وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وِلَاةِ بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ اعْتِبَارًا وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ
 وَلَايَتُهُمْ فِي الدُّوَلَةِ وَأَصْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هَذَا فَوَهْمٌ تُوسَّوسُ بِهِ النَّفُوسُ الْجَمَاعَةُ وَلَا
 حَقِيقَةٌ لَهُ وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَا وَإِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة اباء

إِعْلَمُ أَنَّ الْعَالَمَ الْعَنْصُرِيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مِنْ ذَوَاتِهِ وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ
 فَالْمُكَوِّنَاتُ مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ
 بِالْمُعَايَنَةِ وَكَذَلِكَ مَا يَعْزُضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَخُصُوصًا الْإِنْسَانِيَّةُ فَالْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ
 تُدْرَسُ وَكَذَا الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَالْحَسَبُ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ كَائِنٌ
 فَاسِدٌ لَا مَحَالَةَ وَلَيْسَ يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ
 إِلَيْهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرَامَةٌ بِهِ وَحَيَاظَةٌ عَلَى السِّرِّ فِيهِ

[illegible]

فِي الْأَنْسَابِ وَالْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ الْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ الْقَوَانِي أَنْ كِسْرَى قَالَ
لِلثُّعْمَانِ هَلْ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَنْشَرُفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ
ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ رُؤُوسَاهُ ثُمَّ اتَّصَلَ ذَلِكَ بِكَمَالِ الرَّابِعِ قَالِيَتْ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذَلِكَ
فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حَذِيفَةَ بْنِ بَذْرِ الْفَزَارِيِّ وَهُمْ يَتُّ قَيْسٍ وَآلِ ذِي الْجُدَيْنِ يَتُّ
شَيْبَانَ وَآلِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كَعْبَةَ وَآلِ حَاجِبِ بْنِ زِرَّارَةَ وَآلِ قَيْسِ بْنِ عَامِرٍ
الْمُتَقَرِّي مِنْ بَنِي نَعْمٍ فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ الرُّعُطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمُ
الْحُكَّامَ وَالْعُدُولَ فَقَامَ حَذِيفَةُ بْنُ بَذْرِ ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقِرَابَتِهِ مِنَ الثُّعْمَانِ ثُمَّ
يَسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زِرَّارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَامِرٍ وَخَطَبُوا وَنَثَرُوا فَقَالَ
كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبَيِّنَاتُ فِي الْمَذْكُورَةِ فِي الْعَرَبِ
بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ يَتُّ بَنِي الدُّثَيَّانِ مِنْ بَنِي الْحَرْثِ بْنِ كَعْبِ الْيَمَنِ وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ
عَلَى أَنَّ الْأَزْبَعَةَ الْأَبَاءَ نِهَآيَةً فِي الْحَسَبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس عشر

فِي أَنَّ الْأُمَّ الْوَحْشِيَّةَ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ مِنْ سَوَاهَا .

إِعْلَمُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْبِدَاوَةُ سَبِيًّا فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّالِثَةِ لَا
جَرَمَ كَانَ هَذَا الْجَيْلُ الْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجَيْلِ الْآخِرِ فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ
وَأَنْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سَوَاهُمْ مِنَ الْأُمِّ بَلِ الْجَيْلُ الْوَاحِدُ يَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذَلِكَ
بِاخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ فَكُلَّمَا نَزَلُوا الْأَزْيَافَ وَتَفَنَّقُوا النَّعِيمَ وَالْفَوَائِدَ الْخِصْبِ فِي
الْمَعَاشِ وَالنَّعِيمِ نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوْحُّشِهِمْ وَبِدَاوَتِهِمْ وَأَعْتَبِرْ
ذَلِكَ فِي الْحَيَوَانَاتِ النَّعِيمِ بِدَوَاجِنِ الطِّبَاءِ وَالْبَقَرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْحُمُرِ إِذَا زَالَ تَوْحُّشُهَا
بِمُخَالَطَةِ الْأَدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَخْتَلِفُ حَالُهَا فِي الْإِنْتِهَاسِ وَالشَّدَةِ حَتَّى فِي
مِشْيَتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا وَكَذَلِكَ الْأَدَمِيُّ الْمُتَوْحِّشُ إِذَا أُنِسَ وَأَلِفَ وَسَبِيهُ أَنْ تَكُونَ
السَّجَايَا وَالطَّبَائِعُ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ لِلْأُمِّ إِنَّمَا يَكُونُ
بِالْإِقْدَامِ وَالْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْيَالِ أُغْرِقَ فِي الْبِدَاوَةِ وَأَكْثَرَ تَوْحُّشًا
كَانَ أَقْرَبَ إِلَى التَّغْلِبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي الْعَدَدِ وَتَكَافَا فِي الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ وَانْظُرْ
فِي ذَلِكَ شَأْنَ مُضَرَّعٍ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ حَمِيرٍ وَكَهْلَانِ السَّابِقِينَ إِلَى الْمُلْكِ وَالنَّعِيمِ وَمَعَ

رَبِيعَةَ الْمُتَوَطِّنِينَ أَزْيَافَ الْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ لَمَّا بَقِيَ مُضَرٌّ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَتَقَدَّمَهُمُ الْآخَرُونَ إِلَى خَضَبِ الْعَبَشِ وَغَضَارَةِ النَّعِيمِ كَيْفَ أَزْهَقَتِ الْبِدَاوَةُ حَدَّهُمْ فِي التَّغْلِبِ فَعَلَبُوا عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَأَنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَهَذَا حَالُ بَنِي طَيٍّ وَبَنِي عَامِرٍ بَنِ صَعْمَةَ وَبَنِي سُلَيْمٍ بَنِ مَنصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرَ وَالْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَانِهِمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ الْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلُفْهَا مَذَاهِبُ التَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ بِلِي نَعِيمٍ وَعَيْشَةٍ خَصِيًّا دُونَ الْحَيِّ الْآخَرِ فَإِنَّ الْحَيَّ الْمُبْتَدِيَ يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا نَكَفَا فِي الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك

وَذَلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَكُلُّ أَمْرٍ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْأَدَمِيِّينَ بِالطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَخْتَاجُونَ فِي كُلِّ اجْتِمَاعٍ إِلَى وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزْعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ وَالْأَلَمَ لَيْتَمَ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّغْلِبُ هُوَ الْمَلَكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرِّئَاسَةِ لِأَنَّ الرِّئَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُودْدٌ وَصَاحِبُهَا مَتَّبِعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا الْمَلَكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُهَا مَتَّبِعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا الْمَلَكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُ الْعَصَبِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةِ طَابَ مَا فَوْقَهَا فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ السُّودْدِ وَالْإِتْبَاعِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى التَّغْلِبِ وَالْقَهْرِ لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ وَلَا يَتِمُّ اقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا مَتَّبِعًا فَالْتَّغْلِبُ الْمَلَكِيُّ غَايَةُ الْعَصَبِيَّةِ كَمَا رَأَيْتُمْ ثُمَّ إِنَّ الْقَبِيلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ يُونَتَاتٌ مُفْتَرِقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتِيعُهَا وَتَأْتِمُّ جَمِيعُ الْعَصَبِيَّاتِ فِيهَا وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كَبْرَى وَإِلَّا وَقَعَ الْإِفْتِرَاقُ الْمُفْضِي إِلَى الْإِخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ التَّغْلِبُ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمٍهَا طَلَبَتْ بِطَبْعِهَا التَّغْلِبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا فَإِنْ كَفَانَهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا أَقْتَالًا وَأَنْظَارًا وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا التَّغْلِبُ عَلَى حَوَازِنِهَا

وَقَوْمَهَا شَأْنَ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ الْمُفْتَرِقَةِ فِي الْعَالَمِ وَإِنْ غَلَبَتْهَا وَاسْتَتَبَعَتْهَا التَّعَمَّتْ بِهَا أَيْضًا
وَزَادَتْ قُوَّةً فِي الْغَلَبِ إِلَى قُوَّتِهَا وَطَلَبَتْ غَايَةَ مِنَ الْغَلَبِ وَالْتَحَصُّمْ أَعْلَى مِنَ الْغَايَةِ
الْأُولَى وَأَبْعَدَ وَهَكَذَا دَائِمًا حَتَّى تُكَافِيَ بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ الدَّوْلَةِ فِي هَرَمِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا
مُضَاعِفٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّاتِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا وَانْتَزَعَتْ الْأَمْرَ مِنْ يَدِهَا وَصَارَ
الْمَلِكُ أَجْمَعُ لَهَا وَإِنْ انْتَهَتْ قُوَّتُهَا وَلَمْ يُقَارَنْ ذَلِكَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتَهَا
إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ انْتِظَمَتْهَا الدَّوْلَةُ فِي أَوْلِيَائِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَبْعَثُ مِنْ
مَقَاصِدِهَا وَذَلِكَ مَلِكٌ آخَرُ دُونَ الْمَلِكِ الْمُسْتَبْدِ وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتُّرْكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَاصْنَاهَا جَعَلَ وَزَنَاتَهُ مَعَ كِتَابَةِ وَلِيِّي خَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ الشَّيْعَةِ مِنَ الْعَلَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ
فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْمَلِكَ هُوَ غَايَةُ الْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ الْمَلِكُ
إِمَّا بِالْإِسْتِبدَارِ أَوْ بِالْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسَعُهُ الْوَقْتُ الْمُقَارِنُ لِذَلِكَ وَإِنْ عَاقَبَهُ
عَنْ بُلُوغِ الْغَايَةِ عَوَائِقُ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَفَتْ فِي مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف وانفاس القبيل في النعيم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصَبِيَّتِهَا بَعْضَ الْغَلَبِ اسْتَوْلَتْ عَلَى النِّعْمَةِ بِمِقْدَارِهِ
وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعَمِ وَالْخِصْبِ فِي نِعْمَتِهِمْ وَخِصْبِهِمْ وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ بِسَبَبِهِمْ وَحِصَّةِ
بِمِقْدَارِ غَلَبِهَا وَاسْتِظْهَارِ الدَّوْلَةِ بِهَا فَإِنْ كَانَتْ الدَّوْلَةُ مِنَ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ
فِي انْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلَا مُشَارَكَتِهَا فِيهِ أَذَعَنَ ذَلِكَ الْقَبِيلُ لَوْلَايَتِهَا وَالْقُبُوعِ بِمَا يُسَوِّغُونَ
مِنْ نِعْمَتِهَا وَيُشْرِكُونَ فِيهِ مِنْ حِبَابَتِهَا وَلَمْ تَسْمُ أَمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَلَا
أَسْبَابِهِ إِنَّمَا هِمَّتْهُمْ النِّعَمُ وَالْكَسْبُ وَخِصْبُ الْعَيْشِ وَالسُّكُونُ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ إِلَى
الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَالْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْمَلِكِ فِي الْمَبَائِي وَالْمَلَابِسِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ
وَالْتَأَنُّ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيَاشِ وَالتُّرْفِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ فَتَذَهَبُ
خُشُونَةُ الْبِدَاوَةِ وَتَضَعُفُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبَسَالَةُ وَتَتَنَعَّمُونَ فِيمَا آثَمُ اللَّهُ مِنَ الْبَسْطَةِ وَتَنْشَأُ
بَنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ التَّرَفِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ
وَيَسْتَكْفُونَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ فِي الْعَصَبِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خُلُقًا لَهُمْ
وَسَجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصَبِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي الْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ بِتَعَاقِبِهَا إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الْعَصَبِيَّةُ

فَيَا ذُنُونَ بِالْإِنْقِرَاضِ وَعَلَى قَدَرٍ تَرْفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْهَنَاءِ فَضْلًا عَنْ
الْمُلْكِ فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرَفِ وَالْفَرْقِ فِي النِّعَمِ كَاسِرٌ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغْلُبُ
وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصِيَّةُ قَصَرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَضْلًا عَنْ الْمُطَالَبَةِ
وَالْتَهْمَتُهُمْ الْأُمُومِ سَوَاءٌ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَالَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك المذلة للقبيل والانتقاد الى سوام

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالْإِنْقِيَادَ كَاسِرَانِ لِسَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ وَشِدَّتِيهَا فَإِنَّ انْقِيَادَهُمْ
وَمَذَلَّتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فَقْدَانِهَا فَمَا رَأَيْتُمُ الْمَذَلَّةَ حَتَّى عَجِزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ
عَاجِزًا عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
إِلَى مُلْكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مُلْكَهَا كَيْفَ عَجِزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا
إِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يُخْرِجُوا مِنهَا أَيْ يُخْرِجَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا
بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرَ عَصِيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ مُعْجَزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ نَحْوًا
وَأَرْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا أُنْصُو مِنْ
أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ كَمَا نَقُضِيهِ الْآيَةَ وَمَا يُؤْثَرُ فِي تَفْسِيرِهَا
وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْإِنْقِيَادِ وَمَا رَأَيْتُمُ مِنَ الدُّلِّ الْقَبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتْ
الْعَصِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِحَقِّ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ
لَهُمْ وَأَنَّ الْعِمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيسَتَهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ اللَّهِ قُدْرَهُ لَهُمْ فَأَقْصَرُوا
عَنْ ذَلِكَ وَعَجِزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ لَمَّا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ
خُلُقِ الْمَذَلَّةِ وَطَعَنُوا فِيهَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِالنِّيبِ
وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفْرِ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا
الْعُمَرَانُ وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا فَصَّهُ الْقُرْآنُ الْغِلْظَةِ الْعِمَالِقَةِ بِالشَّامِ
وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمُ الْعِجْزُ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيُظْهَرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَقْهُومِهَا
أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ الَّتِي مَقْصُودَةٌ وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الدُّلِّ وَالْقَهْرِ
وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّفُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ الَّتِي جِيلٌ آخَرُ عَزِيزٌ لَا
يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصِيَّةٌ أُخْرَى أَقْتَدَرُوا بِهَا

عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَالتَّغْلِبِ وَيُظْهِرُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ
جِيلٍ وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ وَفِي هَذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى شَأْنِ الْعَصِيَّةِ
وَأَنَّهَا فِي آتِي تَكُونُ بِهَا الْمُدَافَعَةُ وَالْمُقَاوَمَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ
عَنْ تَجْمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَيُلْحَقُ بِهَذَا الْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ الْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ الْمَغَارِمِ
وَالضَّرَائِبِ فَإِنَّ الْقَبِيلَ الْغَارِمِينَ مَا أُعْطُوا الْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ
فِي الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضِمًّا وَمَذَلَّةً لَا تَحْتَمِلُهَا النَّفْسُ إِلَّا إِذَا اسْتَهْوَتْهُ عَنِ الْقَتْلِ
وَالنَّفْلِ وَأَنَّ عَصِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصِيَّتُهُ لَا
تُدْفَعُ عَنْهُ الضَّمُّ فَكَيْفَ لَهُ بِالْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِنْقِيَادُ لِلذَّلِّ وَالْمَذَلَّةُ
عَائِقَةٌ كَمَا قَدْ مَنَاهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنُ الْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ
الْحِزَاتِ فِي بَعْضِ دُورِ الْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ الْثُلُثُ فَهُوَ دَلِيلٌ
صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذَّلَّةِ هَذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذَلِكَ الْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ الْمَكْرِ
وَالْخُدَيْعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ الْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ الذَّلِّ فَلَا
تُطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخَرَ الدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلْطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَاتَهُ بِالْمَغْرِبِ
كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ غَاظٌ فَاحِشٌ كَمَا
رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَّا اسْتَنْبَ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَانْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرُ بَرَّازُ
مَلِكُ الْبَابِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطْلَعَ عَلَيْهِ وَسَّالَ شَهْرُ بَرَّازُ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ
يَكُونُ لَهُ فَقَالَ أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ بِيَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعَرِي مَعَكُمْ فَمَرَحَبًا بِكُمْ وَبَارَكَ
اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجِزْبَتَنَا إِلَيْكُمْ النَّصْرُ لَكُمْ وَالْقِيَامُ بِمَا تُحِبُّونَ وَلَا تُدِلُّونَا بِالْجِزْيَةِ فَتُوهُونَا
إِعْدُواكُمْ فَأَعْتَبِرْ هَذَا فِيمَا قُلْنَا فَاِنَّهُ كَافٍ

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَا وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ
لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ الْقَوَى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ
إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا

لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةً لَا لِلْبَحْيَوَانِ فَإِذَا خِلَالَ الْخَيْرِ فِيهِ هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ إِذَا
الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ التَّجَدُّدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ
حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصِيَّةُ وَالْعَشِيرُ وَفَرَعٌ يَتِمُّ وُجُودُهُ وَيُحْكِمُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ وَإِذَا كَانَ
الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصِيَّةِ فَهُوَ غَايَةُ لِفُرُوعِهَا وَمُتِمِّمَاتِهَا وَهِيَ الْخِلَالُ لِأَنَّ وُجُودَهُ دُونَ مُتِمِّمَاتِهِ
كَوُجُودِ شَخْصٍ مُقَطَّوعِ الْأَعْضَاءِ أَوْ ظُهُورِهِ عُرْيَانًا بَيْنَ النَّاسِ وَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْعَصِيَّةِ
فَقَطٌّ مِنْ غَيْرِ اتَّحَالَ الْخِلَالُ الْحَمِيدَةُ تَقْصًا فِي أَهْلِ الْبُيُوتِ وَالْأَحْسَابِ فَمَا ظَنُّكَ
بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ لِكُلِّ تَجَدُّدٍ وَنَهَايَةُ لِكُلِّ حَسَبٍ وَأَيْضًا فَالسِّيَاسَةُ وَالْمُلْكُ
هِيَ كِفَالَةُ الْخَلْقِ وَخِلَافَةُ اللَّهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ وَأَحْكَامُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ
وَعِبَادِهِ إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا
هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقَدِيرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا
وَمُقَدِّرُهُمَا إِذْ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ الْعَكْفِيَّةُ بِالْقُدْرَةِ وَأُرِيسَتْ مِنْهُ
خِلَالَ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَنْفِذِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْخِلَافَةِ فِي الْعِبَادِ وَكِفَالَةِ
الْخَلْقِ وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحِيَّةُ لِذَلِكَ وَهَذَا الْبَرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ وَاصْصَحُّ مَبْنَى فَقَدْ
تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِ الْمُلْكِ لِمَنْ وَجِدَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ فَإِذَا نَظَرْنَا فِي
أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلَبِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاحِي وَالْأُمَمِ فَوَجَدْنَاهُمْ
يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْعُكُورِ وَالْعَفْوِ عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْإِحْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ
وَالْقَرَى لِلضُّيُوفِ وَحَمْلِ الْعُكُلِ وَكَسْبِ الْمُعْدِمِ وَالْعَبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ
وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْحَامِلِينَ لَهَا
وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا يَحْدُدُونَهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ
وَالْتَبَرُّكِ بِهِمْ وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ وَالْحُبِّاءِ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالْمَسَاحِجِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ
وَالْإِتْقَادَ إِلَى الْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَإِنْصَافِ الْمُسْتَغْفِرِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالتَّبَذْلِ فِي
أَحْوَالِهِمْ وَالْإِتْقَادَ لِلْحَقِّ وَالتَّوَاضُعَ لِلْمُسْكِينِ وَاسْتِمَاعَ شِكَايِ الْمُسْتَغِيثِينَ وَالتَّدَبُّرَ
بِالشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا وَالتَّجَانُّي عَنِ الْفَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْخُدَيْعَةِ
وَتَقْضِ الْعَهْدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خُلُقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لِنَبِيِّهِمْ وَاسْتَحَقُّوا بِهَا
أَنْ يَكُونُوا سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ

مَنَاسِبُ لِعَصَبِيَّتِهِمْ وَغَلِبِهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ سُدَى فِيهِمْ وَلَا وَجَدَ عَيْنًا مِنْهُمْ وَالْمُلْكُ أَنْسَبُ
 الْمَرَائِبِ وَالْخَيْرَاتِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَأْذَنَ لَهُمْ بِالْمُلْكِ وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ
 وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَأْذَنَ اللَّهُ بِاتِّقِرَاضِ الْمُلْكِ مِنْ أُمَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ
 الْمَذْمُومَاتِ وَاتِّحَالِ الرِّذَائِلِ وَسُلُوكِ طُرُقِهَا فَتَفْقَدُ الْفَضَائِلُ السِّيَاسِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً وَلَا
 تَزَالُ فِي انْتِقَاصٍ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمُلْكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَاهُمْ لِيَكُونَ نَعِيمًا
 عَلَيْهِمْ فِي سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَإِذَا
 أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَاسْتَقَرَى
 ذَلِكَ وَتَبِعَهُ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّا قُلْنَاهُ وَرَسَمْنَاهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ
 وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْقَبَائِلُ الْوَالْعَصِيَّةُ وَتَكُونُ شَاهِدَةً
 لَهُمْ بِالْمُلْكِ إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ الْأَحْسَابِ وَأَصْنَافِ التِّجَارِ
 وَالْغُرَبَاءِ وَإِنْ زَالَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ الْمَصِيبَاتِ وَالْمَشَاقِرِ
 لِيَمُنَّ بِنَاهِضِهِمْ فِي الشَّرَفِ وَيُجَادِبُهُمْ حَبْلَ الْعَشِيرِ وَالْعَصِيَّةِ وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ
 الْجَاهِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْتَمِلُ عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرِّغْبَةُ فِي الْجَاهِ أَوْ الْخُفَافَةُ مِنْ قَوْمِ
 الْمُكْرَمِ أَوْ التَّاسُّ مِثْلَهَا مِنْهُ وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ عَصِيَّةٌ تُنْقَى وَلَا جَاهٌ
 يُرْتَمَى فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كِرَامَتِهِمْ وَيَتَحَفَّضُ الْقَصْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ لِلْجِدِّ وَاتِّحَالِ
 الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِفْقَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكُلِّيَّةِ لِأَنَّ إِكْرَامَ أَقْبَالِهِ وَأَمْثَالِهِ
 ضَرُورِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنُظَرَائِهِ وَإِكْرَامُ الطَّارِئِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ
 وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ فَالصَّالِحُونَ لِلدِّينِ وَالْعُلَمَاءُ لِلْجَاهِ إِلَيْهِمْ فِي
 إِقَامَةِ مَرَامِ الشَّرِيعَةِ وَالتَّجَارُ لِلتَّرْغِيبِ حَتَّى تَعْمَ الْمَنْفَعَةُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالْغُرَبَاءُ مِنْ
 مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنْ زَالَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْإِنْصَافِ وَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ
 ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ انْتِمَاؤُهُمْ لِلْسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ الْمُلْكُ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ تَأْذَنَ بِوُجُودِهَا
 فِيهِمْ لَوْجُودِ عِلَامَاتِهَا وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا يَذْهَبُ مِنَ الْقَبِيلِ أَهْلُ الْمُلْكِ إِذَا تَأْذَنَ اللَّهُ
 تَعَالَى بِسَلْبِ مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ إِكْرَامَ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ الْخَلْقِ فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ ذَهَبَ
 مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ أَخَذَتْ فِي الذَّهَابِ عَنْهُمْ وَارْتَقَبَ زَوَالَ الْمُلْكِ
 مِنْهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي والعشرون

في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع
وذلك لانهم اقدر على التغلب والاستبداد حكما قلناه واستعباد الطوائف
لقد رتبهم على تعاربية الأمم سواهم ولانهم يتنزلون من الامهين منزلة المفترس من
الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناته ومن في معانهم من الاكراد والتركمان
واهل اللثام من صنهاجة وايضا هؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتأفون منه ولا
بلد يجتمعون اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على
ملكه قطريهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود اقصاهم بل يظفرون الى
الاقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية وانظر ما ينجس في ذلك عن عمر رضي
الله عنه لما بويج وقام يحرض الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم يدار
الا على الشجعة ولا يقوى عليه اهلها الا بذلك أين القرأه المهاجرون عن موعده الله
سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها فقال ليظهره على
الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك ايضا بحال العرب السالفة من قبل مثل
التبابعة وخمير كيف كانوا يخطون من اليمن الى المغرب مرة وإلى العراق والهند
اخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم وكذا حال الملثمين من المغرب لما
نزعوا الى الملك طغروا من الاقليم الاول وتجاللهم منه في جوار السودان الى
الاقليم الرابع والخامس في ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الأمم
الوحشية فلذلك تكون دولتهم اوسع نطاقا وابتعد من مراكزها نهاية والله يقدر
الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من
عوده الى شعب آخر منها ما دامت لم العصبية
والسبب في ذلك ان الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من
سائر الأمم سواهم فيتعين منهم المباشر للاثم الحاملون برير الملك ولا يكون

ذَلِكَ لِجَمِيعِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثْرَةِ الَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا نِطاقُ الْمَزَاحِمَةِ وَالْغَيْرَةِ الَّتِي
تَجْدَعُ أَنْوَفَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنْطَاوِلِينَ لِلرُّتْبَةِ فَإِذَا تَعَيَّنَ أُولَئِكَ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ أَنْعَسُوا
فِي النِّعَمِ وَغَرِقُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِ وَالْخِصْبِ وَاسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجِيلِ وَانْقَضَتْ
فِي وُجُوهِ الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَبَقِيَ الَّذِينَ بَعُدُوا عَنِ الْأَمْرِ وَكَبِحُوا عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي ظِلِّ
مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ وَبِمَنْجَاةٍ مِنَ الْهَرَمِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ
فَإِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى الْأَوَّلِينَ الْأَيَّامُ وَأَبَادَ غَضَاءُهُمُ الْهَرَمُ فَطَجَّتْهُمْ الدَّوْلَةُ وَأَكَلَ الدَّهْرُ
عَلَيْهِمْ وَشَرِبَ بِمَا أَرْهَفَ النِّعَمُ مِنْ حَذَرِهِمْ وَاسْتَقَتْ غَرِيزَةُ التَّرَفِ مِنْ مَائِهِمْ وَبَاقُوا
غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْغَلَبِ السِّيَاسِيِّ (شعر)

كَدُودِ الْقَرْبِ يَنْسِجُ ثُمَّ يَفْنَى يَمْرُكُزُ نَسْجِهِ فِي الْإِنْعِكَاسِ
كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصِيَّةُ الْآخَرِينَ مَوْفُورَةٌ وَسُورَةٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكَاسِرِ مُحْفُوظَةٌ وَشَارَتْهُمْ
فِي الْغَلَبِ مَعْلُومَةٌ فَتَسْمُوا مَالَهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِالْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ مِنْ
جِنْسِ عَصِيَّتِهِمْ وَتَرْتَفِعُ الْمُنَازَعَةُ لِمَا عُرِفَ مِنْ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَيَصِيرُ
إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَّفِقُ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضًا مُنْتَبِذًا عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ فَلَا يَزَالُ الْمَلِكُ
مُتَلَبِّيًا فِي الْأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مِنْهَا أَوْ يَفْنَى سَائِرُ عَشَائِرِهَا سِنَّةُ اللَّهِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الْعَرَبِ لَمَّا انْقَرَضَ
مُلْكُ عَادٍ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ الْعَمَالِيقَةُ وَمِنْ
بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حَمِيرَ أَيْضًا وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ التَّبَاعِيَّةُ مِنْ حَمِيرَ أَيْضًا وَمِنْ بَعْدِهِمْ
الْأَذْوَاهُ كَذَلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا الْفُرْسُ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْكِنَانِيَّةِ مَلِكُ
مِنْ بَعْدِهِمُ السَّاسَانِيَّةُ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعَ بِالْإِسْلَامِ وَكَذَا الْيُونَانِيُّونَ
انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَانْتَقَلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرُّومِ وَكَذَا الْبَرْبَرُ بِالْمَغْرِبِ لَمَّا انْقَرَضَ
أَمْرُ مِغْرَاوَةَ وَكُنَامَةُ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَى صَنْهَاجَةَ ثُمَّ الْمُلُكِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ
مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعُوبِ زَنَاطَةَ وَهَكَذَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ إِنَّمَا
يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْأَجْيَالِ وَالْمُلُوكِ يُخْلِقُ التَّرَفَ وَيُذْهِبُهُ كَمَا سَنَدَّ كُرُهُ
بَعْدُ فَإِذَا انْقَرَضَتِ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَاقَلُ الْأَمْرُ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصِيَّتِهِمْ
الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالِاتِّقِيَادُ وَأَوْنِسَ مِنْهَا الْغَلَبُ لِجَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ

فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ تَفَاوُتَ الْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قُرُبَ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمُرَانِ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَيُخَيِّدُ بِخُرُوجِ عَنْ ذَلِكَ الْجِيلِ إِلَى الْجِيلِ الَّذِي يَأْذَنُ اللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَدُولِ وَأَخَذُوا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَابًا

الفصل الثالث والعشرون

في ان المألوب مولع ابداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه
ونخلته وسائر احواله وعوائده

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ أَبَدًا تَعْتَقِدُ الْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِالْكَمَالِ بِمَا وَفَّرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ انْقِيَادَهَا لَيْسَ لِنَظَرٍ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَلِكَ وَاتَّصَلَتْ لَهَا اِعْتِقَادًا فَانْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْاِفْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنَّ غَلَبَ الْغَالِبِ لَهَا لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةٍ بِأَسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا انْتَحَلَتْهُ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضًا بِذَلِكَ عَنِ الْغَلَبِ وَهَذَا رَاجِعٌ لِلأَوَّلِ وَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِالْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي اتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي الْأَنْبَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِاِعْتِقَادِهِمُ الْكَمَالَ فِيهِمْ وَانْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ الْحَاكِمِيَّةِ وَجُنْدُ السُّلْطَانِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تَجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا الْغَلَبُ عَلَيْهَا فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هَذَا التَّشَبُّهِ وَالْاِفْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَعَ أُمِّ الْجَلَالَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَالْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ التَّمَاثِيلِ فِي الْجُدْرَانِ وَالْمَصَانِعِ وَالْبُيُوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَلِكَ النَّاطِرُ بَعَيْنِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عِلَامَاتِ الْاِسْتِيلَاءِ وَالْأَمْرِ لِلَّهِ وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا مِرْقُوهِمُ الْعَامَّةُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذَا الْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ وَالرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لِاِعْتِقَادِ الْكَمَالِ فِيهِ اِعْتِقَادَ الْأَنْبَاءِ بِآبَائِهِمْ وَالْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِهِمْ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّوْفِيقُ

الفصل الرابع والعشرون

في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرهما امرع اليها الفناء

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ مَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مَلَكَتْ رُهَا عَلَيْهَا وَصَارَتْ بِالْإِسْتِعْبَادِ آلَةً لِسَوَاهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ الْأَمَلُ وَيَضَعُفُ التَّنَاسُلُ وَالْإِعْتِمَادُ إِنَّمَا هُوَ عَنْ جِدَّةِ الْأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ النَّشَاطِ فِي الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ الْأَمَلُ بِالتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَكَانَتِ النَّصِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْغَلَبِ الْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ تَنَاقُصَ عُمرَانِهِمْ وَتَلَاشَتْ مَكَاسِبُهُمْ وَمَسَاعِيِبُهُمْ وَهَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَصَّدَ الْغَلَبُ مِنْ شَوْكَتِهِمْ فَأَصْبَحُوا مُغْلِبِينَ لِكُلِّ مُغْلِبٍ وَطَعْمَةٍ لِكُلِّ آكِلٍ وَسَوَاءٌ كَانُوا حَصَلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا. وَفِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ سِرًّا آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ رَيْسٌ بِطَبْعِهِ بِمُقْتَضَى الْإِسْتِخْلَافِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ وَالرَّيْسُ إِذَا غَلِبَ عَلَى رَأْسِهِ وَكَبِجَ عَنْ غَايَةِ عِزِّهِ تَكَاسَلَ حَتَّى عَنْ شَيْعٍ بَطْنِهِ وَرِيٍّ كَبِدِهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرَسَةِ وَإِنَّهَا لَا تَسَافِدُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِي مَلَكَةِ الْأَدَمِيِّينَ فَلَا يَزَالُ هَذَا الْقَبِيلُ الْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَأَعْثَمِ حِلَالٍ إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ الْفَنَاءُ وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أُمَّةِ الْفُرْسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدَمَلَاتِ الْعَالَمِ كَثْرَةً وَلَمَّا فَنِيَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ بَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَأَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ يُقَالُ إِنَّ سَعْدًا أَحْصَى مَا وَرَاءَ الْمَدَائِنِ فَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَسَبْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا رُبُّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةِ الْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَدَثِرُوا سَكَنًا لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَعْسَبَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَظْلَمٍ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانٍ شَمَلَهُمْ فَلَمَكَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَدْلِ مَا عَلِمَتْ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي الْإِنْسَانِ إِذَا غَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ آلَةً لغيرِهِ وَلِهَذَا إِنَّمَا تُذْعِنُ لِلرَّقِ فِي الْغَالِبِ أُمَّةُ السُّودَانِ لِنَقْصِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ النُّجْمِ كَمَا قُلْنَا أَوْ مِنْ بَرَجُو بِأَنْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ الرَّقِ حُصُولِ رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةِ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَالِكِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَرْجُوحِ مِنَ الْجَلَالَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً بِإِسْتِخْلَاصِ الدَّوْلَةِ لِنَفْسِهِمْ فَلَا يَأْتِقُونَ مِنَ الرَّقِ لِمَا يَأْمُلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِأَصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط

وذلك انهم بطبيعة التوحش الذي فيهم اهل انتهاب وعيث يتتبعون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منجعتهم بالقفر ولا يذهبون الى المزاحفة والمخاربة الا اذا دفعوا بذلك عن انفسهم فكل معقل او مستنصب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيبتهم وفسادهم لانهم لا يتسمون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها يفقدان الحماية وضعف الدولة فيجربونهم وطعمهم لا يملكونهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولة عليهم الى ان يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة الى ان يتقرض عمرائهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب

والسبب في ذلك انهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم قصار لهم خلقا وجيلة وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن رتبة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للشكون الذي به العمران ومناقض له فالعجز مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه وبعدونه لذلك والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه ليوثهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأت رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد يشعرون إليه بل كلما امتدت أعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وأيضا فلأنهم

يُكَلِّفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْخِرَافِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيَمَةً وَلَا
فَيْسَلًا مِنَ الْأَجْرِ وَالْثَمَنِ وَالْأَعْمَالُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَصْلُ الْمَكَايِبِ وَحَقِيقَتُهَا
وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَانًا ضَعُفَتِ الْأَمَالُ فِي الْمَكَايِبِ وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي
عَنِ الْعَمَلِ وَابْتَدَعَرِ السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمَرَانُ وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالْأَحْكَامِ
وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضِ إِنْمَا هُمُ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ
أَمْوَالِ النَّاسِ نَهَبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ
مِنْ تَسْيِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهَرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا
فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجَبَايَةِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْهَا
كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذَلِكَ لَيْسَ بِمُعْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجَرَ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ
ذَلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِإِسْتِسْهَالِ الْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرِّعَابَا فِي مَلَكَّتِهِمْ
كَأَنَّهَا قَوْضَى^(١) دُونَ حُكْمِ وَالْقَوْضَى مَهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمَرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ
أَنْ وَجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وَجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا
وَتَقْدَمُ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَضْلِ وَأَيْضًا فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي الرِّئَاسَةِ وَقَدْ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ
الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَعَلَى كُرْهِهِ مِنْ
أَجْلِ الْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ الْحُكْمُ مِنْهُمْ وَالْأُمَرَاءُ وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرَّعِيَّةِ فِي الْجَبَايَةِ
وَالْأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ الْعُمَرَانُ وَيَنْتَقِضُ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا
سَأَلَهُ عَنِ الْحِجَابِ وَأَرَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمَرَانِ فَقَالَ تَرَكْتُهُ بَظْلِمٍ
وَحَذَهُ وَأَنْظُرْ إِلَى مَا مَلَكَهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقْوُضُ
عُمَرَانُهُ وَافْقَر سَاكِنُهُ وَبَدَلَتْ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ فَالْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا
فَلَيْلًا مِنَ الْأَمْصَارِ وَعِرَاقِ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمَرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِ أَجْمَعَ
وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مِنْذُ
أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ
بَسَائِطُهَا خَرَابًا كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرَّثْوِيِّ كُلِّهِ عُمَرَانًا تَشْهَدُ
بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمَرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ وَتَمَائِيلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَاللَّهُ

يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة او ولاية

او اثر عظيم من الدين على الجملة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِتَوْحُشِ الَّذِي فِيهِمْ أَصْعَبُ الْأُمَمِ اتِّقَادًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِلْغِلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ وَبُعْدِ الْمِلَّةِ وَالْمُنَافَسَةِ فِي الرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا كَانَ الَّذِينَ بِالنُّبُوَّةِ أَوْ الْوِلَايَةِ كَانَ الْوَارِثُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ الْكِبَرِ وَالْمُنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهَّلَ اتِّقَادُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ وَذَلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ الدِّينِ الْمَذْهَبِ لِلْغِلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ الْوَارِثُ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمْ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَذْهَبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتُ الْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودَاتِهَا وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ تَمَّ اجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ التَّغَلُّبُ وَالْمَلَكُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَسْرَعُ النَّاسِ قَبُولًا لِلْحَقِّ وَالْهَذَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عَوَجِ الْمَلَكَاتِ وَبَرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ التَّوْحُشِ الْقَرِيبِ الْمَعَانَاةِ الْمُتَهَيِّءِ لِإِقْبُولِ الْخَيْرِ بِنَقَائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ وَسُوءِ الْمَلَكَاتِ فَإِنْ كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بِدَاوَةٍ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا فِي الْقَفْرِ وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ التَّلَوُّلِ وَحُجُوبِهَا لِاعْتِيَادِهِمُ الشُّطْفَ وَخُشُونَةَ الْعَيْشِ فَاسْتَغْنَوْا عَنْ غَيْرِهِمْ فَصَعِبَ اتِّقَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِبْلَافِهِمْ ذَلِكَ وَلِلتَّوْحُشِ وَرَأْسِهِمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ غَالِبًا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرًّا إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاعَمَتِهِمْ لِئَلَّا يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصِيَّتِهِ فَيَكُونُ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَّاسَةُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ السَّائِسُ وَارِعًا بِالْقَهْرِ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدْ مَنَاهُ أَخَذَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ خَاصَّةً وَالتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنْ

الْأَحْكَامَ يَنْهَمُ وَدِفَاعَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكَوا أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ جَعَلُوا
 غَايَةَ مُلْكِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَتَرْكُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ يَنْهَمُ
 وَرُبَّمَا جَعَلُوا الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْمَفَاسِدِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَكْثِيرِ الْحَيَايَاتِ وَتَحْصِيلِ
 الْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ وَازِعًا وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعًا بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ الْبَائِعَةِ عَلَى الْمَفَاسِدِ
 وَأَسْتِهَانَةً مَا يُعْطَى مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ فَتَسْمُو الْمَفَاسِدُ بِذَلِكَ وَيَقَعُ تَخَرُّبُ
 الْعُمَرَاءِ فَتَبْقَى نَلْكُ الْأُمَّةِ كَأَنَّهَا فَوْضَى مُسْتَطِيلَةً أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلَا يَسْتَقِيمُ
 لَهَا عُمُرَانٌ وَتَخَرُّبُ مَرَبَعًا شَأْنُ الْفَوْضَى كَمَا قَدَمْنَاهُ فَبَعْدَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ كُلِّهِ
 عَنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِغَةِ دِينِيَّةٍ
 تَمَحُّوْذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَجْعَلُ الْوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَعْمَلُ لَهُمْ عَلَى دِفَاعِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ
 عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي الْعِلَّةِ أَمَّا شَيْدَ لَهُمُ الدِّينُ أَمْرُ
 السِّيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ الْعُمَرَاءِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَتَتَابَعِ فِيهَا
 الْخُلَفَاءُ عَظُمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُمْ كَانَ دُسْمُ إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ
 يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ أَكَلَ عُمَرُ كَيْدِي يُعْلِمُ الْكِلَابَ الْآدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
 انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا الدِّينَ فَتَسُوا السِّيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَفَرِهِمْ وَجَهْلِهِمَا
 شَأْنُ عَصِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ يُبْعِدُهُمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ النِّصْفَةِ فَتَوْحُّشُوا كَمَا
 كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ الْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَبَ
 أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَانْمَحَى رَسْمُهَا انْقَطَعَ الْأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْعَجَمُ دُونَهُمْ
 وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قَفَارِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمُلْكَ وَلَا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ
 قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ مَا كَانَ
 لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ وَدَوْلٍ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَالِقَةَ وَخَمِيرَ وَالتَّبَاعَةَ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ ثُمَّ
 دَوَّلَةٌ مُضَرَّ فِي الْإِسْلَامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ لَكِنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا
 نَسُوا الدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ غَلَبٌ
 عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلَا يَكُونُ مَالُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْوِيبُ
 مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَاءِ كَمَا قَدَمْنَاهُ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع والعشرون

في ان البوادي من القبائل والمصائب مغلوبون لاهل الامصار
 قد تقدم لنا ان عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور
 الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لاهل البدو وانما توجد لديهم في مواطنهم
 امور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم في الكلية من تجار
 وخياط وحداد وامثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا
 الدنانير والدرهم مفقودة لديهم وانما بأيديهم اغواضها من مغل الزراعة واعيان
 الحيوان او فضلاته البنا واورار واشعارا واهابا مما يحتاج اليه اهل الامصار فيعوضونهم
 عنه بالدنانير والدرهم الا ان حاجتهم الى الامصار في الضروري وحاجة اهل
 الامصار اليهم في الحاجي والكمالي فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة وجودهم
 فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم محتاجون الى
 اهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعواهم الى ذلك وطالبوهم به وان كان
 في المضر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن في المضر ملك
 فلا بد فيه من رئاسة وتوع استبداد من بعض اهل على الباقين والا انتقض عمرانهم
 وذلك الرئيس يعملهم على طاعته والسعي في مصالحه اما طوعا فيذل المال لهم ثم
 يدي لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مضره فيستقيم عمرانهم واما كرها
 ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به
 الباقين فيضطر الباقون الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم
 مفارقة تلك النواحي الى جهات اخرى لان كل الجهات معمورة بالبدو الذين غلبوا
 عليها ومنعوها من غيرها فلا يجد هؤلاء ملجأ الا طاعة المضر فهم بالضرورة مغلوبون
 لاهل الامصار والله قاهر فوق عباديه وهو الواحد الاحد القهار

الفصل الثالث من الكتاب الاول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك
كله من الاحوال وفيه قواعد ومتمات

الفصل الاول

في ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية

وذلك انا قررنا في الفصل الاول ان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما
فيها من النعرة والتدابر واستيانه كل واحد منهم دون صاحبه . ثم ان الملك منصب
شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية
فيقع فيه التنافس غالباً وقل ان يسلمه احد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة
وتنفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشي منها لا يقع الا بالعصبية كما ذكرناه انفا
وهذا الامر بعيد عن افهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدولة
منذ اولها وطال امد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل فلا يعرفون ما
فعل الله اول الدولة انما يذكر كون اصحاب الدولة وقد استحكمت صيغتهم ووقع
التسليم لهم والاستغناء عن العصبية في تمهيد امرهم ولا يعرفون كيف كان الامر
من اوله وما لقي اولهم من المتاعب دونه وخصوصاً اهل الاندلس في نسيان هذه
العصبية واثرها لطول الامل واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطئهم
وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الثاني

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

والسبب في ذلك ان الدول العامة في اولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا
بقوة قوية من الغلب للغلبة وان الناس لم يألوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت
الرئاسة في اهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في
اعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الاولية واستحكمت لاهل ذلك
النصاب صيغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم

عَلَى أَمْرِهِمْ فِتَالَهُمْ عَلَى الْعَقَائِدِ إِلَّا بِمَانِيَةٍ فَلَمْ يَحْتَأَجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عَصَابَةٍ
بَلْ كَانَ طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لَا يَبْدُلُ وَلَا يُعْلَمُ خِلَافُهُ وَلِأَمْرِ مَا يُوضَعُ الْكَلَامُ فِي
الْإِمَامَةِ آخِرَ الْكَلَامِ عَلَى الْعَقَائِدِ إِلَّا بِمَانِيَةٍ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا وَيَكُونُ اسْتِظْهَارُهُمْ
حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ الْمَخْصُوصَةِ إِمَّا بِالْمَوَالِي وَالْمُصْطَنَعِينَ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي
ظِلِّ الْعَصَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِمَّا بِالْعَصَائِبِ الْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّاخِلِينَ فِي وَلَايَتِهَا وَهَيْئَلُ
هَذَا وَقَعَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ الْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ الْمُعْتَصِمِ وَأَبْنِهِ
الْوَاتِقِ وَاسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ وَالْتِزَاكِ وَالْدَيْلَمِ وَالسُّجُوفِيَّةِ
وغيرِهِمْ ثُمَّ تَغَلَّبَ الْعَجَمُ الْأَوَّلِيَاءُ عَلَى النَّوَاحِي وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ
بَغْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا الدَّيْلَمُ وَمَلَكَوْهَا وَصَارَ الْخَلَائِقُ فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ
وَمَلَكَ السُّجُوفِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرُ الْتَارِ
فَقَتَلُوا الْخَلِيفَةَ وَتَحَوَّا وَسَمَّ الدَّوْلَةَ وَكَذَا صَنَاجِدُهَا بِالْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مِنْذُ الْمِائَةِ
الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةً الظِّلِّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةِ وَالْقَلْعَةِ
وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِيَّةٍ وَرُبَّمَا أَنْتَزَى بِشَلِكِ الثُّغُورِ مَنْ نَارَعَهُمُ الْمَلِكُ وَأَعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانُ
وَالْمَلِكُ مَعَ ذَلِكَ مُسَلِّمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَجَاءَ الْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ
قَوِيَّةٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فِي الْمَصَامِيدِ فَحَمَّوْا آثَارَهُمْ وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ
عَصَبِيَّتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَاقْتَسَمُوا خِلَافَتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ
وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ وَأَنْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وَلَايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ وَبِأَغْمَرِ
شَأْنِ الْعَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِالْقَابِ الْمَلِكِ وَلَبَسُوا شَارَتَهُ وَأَمِنُوا مِنْ بَقَايَا
ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبٍ وَلَا قِبَائِلٍ كَمَا سَنَذْكُرُهُ
وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ

مِمَّا يُزْهِدُنِي فِي أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
الْقَابُ مَمْلُوكَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

فَاسْتِظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِي وَالْمُصْطَنَعِينَ وَالطَّرَاءَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْعُدُوَّةِ
مِنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتِهِ وَغَيْرِهِمْ اقْتِدَاءً بِالدَّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي الْإِسْتِظْهَارِ بِهِمْ حِينَ
ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دَوْلٌ عَظِيمَةٌ

أَسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَحَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ
الَّتِي اقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَارَ إِلَيْهِمُ الْبَحْرُ الْمُرَاطُوتُ أَهْلُ
الْعَصِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةٍ فَأَسْتَبَدُّوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَائِزِهِمْ وَبَحَّوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا
عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَبَيَّضَ الْعَصِيَّةُ يَكُونُ تَمْهِيدُ الدَّوْلَةِ وَخِمَاطُهَا مِنْ
أَوَّلِهَا وَقَدْ ظَنَّ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ الدَّوْلِ بِإِطْلَاقِ هُمُ الْجُنْدِ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ
مَعَ الْأَهْلِ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ مِرَاجَ الْمُلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ
الدَّوْلِ الْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِالدَّوْلِ الْآخِرَةِ بَعْدَ التَّمْهِيدِ وَأَسْتَقْرَارِ
الْمُلْكِ فِي النِّصَابِ وَاسْتِحْكَامِ الصِّبْغَةِ لِأَهْلِهِ فَإِلَّا رَجُلٌ إِنَّمَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا
وَوَلَّى جَدَّتِهَا وَرَجُوعِهَا إِلَى الْأَسَاطِيرِ بِالْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى الْمُسْتَعْدِمِينَ مِنْ
وَرَائِهِمْ بِالْأَجْرِ عَلَى الْمُدَافَعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دَوْلَ الطَّوَائِفِ وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلَالِ بَنِي
أُمَيَّةٍ وَأَنْقِرَاضِ عَصِيَّتِهَا مِنَ الْعَرَبِ وَأَسْتَبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقُطْرِهِ وَكَانَ فِي إِبَالَةِ الْمُسْتَعِينِ
بَنِي هُودٍ وَأَبْنَاءِ الْمُظَفَّرِ أَهْلُ مِرْقَسَةِ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْعَصِيَّةِ شَيْءٌ لِأَسْتِغْلَاءِ
الْتَّرَفِ عَلَى الْعَرَبِ مِنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ السِّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبِدًّا بِالْمُلْكِ
عَنْ عَشَائِرِهِ قَدْ اسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ الْأَسْتَبْدَادِ مِنْذُ عَهْدِ الدَّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ الْعَصِيَّةِ فَهُوَ
لِلْمُلْكِ لَا يُنَازِعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِالْأَجْرَاءِ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ فَأُطْلِقَ الطَّرْطُوشِيُّ الْقَوْلَ
فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَفَقَّنْ لِكَيْفِيَّةِ الْأَمْرِ مِنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ
فَتَفَقَّنْ أَنْتَ لَهُ وَأَفْهَمْ مِرَّ اللَّهِ فِيهِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثالث

في انه قد يحدث لبعض اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية
وذلك انه اذا كان لعصبة غلب كثير على الأمم والأجيال وفي نفوس القائمين
بأمره من اهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع إليهم هذا الخارج وانتبد عن
مقر ملكه ومنبت عزه اشتملوا عليه وقاموا بأمره وظاهره على شأنه وعنوا بتمهيد
دولته يزوجون استقراره في نصابه وتناولوا الأمر من يده أعباءه وجزاءه لهم على مظاهرته
بأصطفائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر ولا يطمعون في
مشاركته في شيء من سلطانه تسليما لعصبيته وانقيادا لما استحكم له وإقومه من

صَبَغَةَ الْغَلْبِ فِي الْعَالَمِ وَعَقِيدَةَ إِيْمَانِيَّةٍ اسْتَقَرَّتْ فِي الْأَذْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ رَامُوها مَعَهُ أَوْ
دُونَهُ لَوَزَلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالًا وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلدَّارِسَةِ بِالْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَالْعَبِيدِيَّيْنَ
بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَمِصْرَ لَمَّا انْتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْقَاصِيَةِ وَابْتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ
الْخِلَافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلِبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنْ اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدِ
مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةٍ أَوَّلًا ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ تَخَرَّجُوا بِالْقَاصِيَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَدَعَوْا
لِأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمُ الْبَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأَوْرَثَتْهُ وَمَغِيلَةُ لِلدَّارِسَةِ وَكُتَامَةُ
وَصَهَبَاجَةُ وَهَوَّارَةُ لِلْعَبِيدِيَّيْنَ فَشَبَدُوا دَوْلَتَهُمْ وَمَهَّدُوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَاقْتَطَعُوا مِنْ
مَمَالِكِ الْعَبَّاسِيِّينَ الْمَغْرِبَ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةً وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ الدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَظِلُّ الْعَبِيدِيَّيْنَ
يَبْتَغِدُ إِلَى أَنْ مَلَكَوا مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ وَقَاسَمُوهُمْ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ شِقَ
الْأَبْلَمَةِ وَهَوَّلَاءِ الْبَرَابِرَةُ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِمْ مُسْلِمُونَ لِلْعَبِيدِيَّيْنَ لَأَمْرِهِمْ
مُذْعِنُونَ لِمَلِكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّتْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ
صَبْغَةِ الْمَلِكِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ مِنَ الْغَلْبِ الْفُرَيْشَ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ فَلَمْ
يَزَلِ الْمَلِكُ فِي أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنْ اقْتَرَضَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ بِأَمْرِهَا وَاللَّهُ يُعْظِمُ لَامُعَقَّبٍ لِحُكْمِهِ

الفصل الرابع

في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين

اما من نبوة او دعوة حق

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْغَلْبِ وَالْغَلْبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَاتِّفَاقِ
الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَجَمْعِ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفِهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ مِنَ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ
قَالَ تَعَالَى لَوْ أَتَّفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَتَّفَقْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَسِرُّهُ أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا
تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمِيلَ إِلَى الدُّنْيَا حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفُشَا الْخِلَافُ وَإِذَا انْصَرَفَتْ
إِلَى الْحَقِّ وَرَفَضَتْ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ اتَّحَدَتْ وَجِهَتُهَا فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ
الْخِلَافُ وَحَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاوُدُ وَاتَّسَعَ نِطاقُ الْكَلِمَةِ لِذَلِكَ فَعُظِمَتِ الدَّوْلَةُ كَمَا
نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس

في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية

التي كانت لها من عدوها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ الصِّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُدِ الَّذِي فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَتُفَرِّدُ الْوَجْهَةَ إِلَى الْحَقِّ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْأَسْتَبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لِأَنَّ الْوَجْهَةَ وَاحِدَةً وَالْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهَذَا مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ فَأَغْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ وَتَخَافُهُمْ لِنَقِيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٌ فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيُعَاجِلُهُمُ الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّوْفِ وَالذِّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ الْإِسْلَامِ فِي الْفُتُوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالْإِزْمُوكِ بِضِعْمَةِ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي كُلِّ مَعْسَكٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ هِرَاقِلَ عَلَى مَا قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ أَرْبَعِمِائَةَ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ وَهَزَمُوهُمْ وَغَابُوهُمْ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي دَوْلَةِ لِمَنْوَنَةِ وَدَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ كَانَ فَقْدَ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مَنْ يُقَاوِمُهُمْ فِي الْعَدَدِ وَالْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشِفُّ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ الْأَجْتِمَاعَ الدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالْأَسْتَبْصَارِ وَالْإِسْمَاتِ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ الدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْقُضُ الْأَمْرُ وَيَصِيرُ الْغَلْبُ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَحَدَهَا دُونَ زِيَادَةِ الدِّينِ فَتَغْلِبُ الدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الْعَصَائِبِ الْمُكَافَةِ لَهَا أَوْ الزَّائِدَةِ الْقُوَّةِ عَلَيْهَا الَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بِدَاوَةً وَاعْتَبِرَ هَذَا فِي الْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتِهِ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتُهُ أَبَدَى مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتِهِ أَوَّلًا وَاسْتَبَعَوْهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبِدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ ذَلِكَ الصِّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتُهُ مِنْ كُلِّ حَانِبٍ وَغَابُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل السادس

في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم
وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكفاة فلا بد له من العصبية وفي
الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه وإذا كان هذا في
الأنبياء وهم أولى الناس بخزق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخزق له العادة في
الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين
في التصوف ثار بالاندلس داعياً إلى الحق وسمي أصحابه بالمرباطين قيل دعوة
المهدي فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لثونة بما دهمهم من أمر الموحدين ولم تكن
هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين امتولى الموحدون على
المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بخص أركش وأمنكهم
من ثغره وكان أول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة الرباطين
ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فإن كثيراً
من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من
الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف رجاء في الثواب
عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتثلثون بهم من الفوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم
في ذلك للمهلك وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل مأزورين غير مأجورين لأن
الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى
الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم
يستطع فبقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا
المطالبة القوية التي من وراءها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان
حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب وهم
المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكانت لهم إنيما أجرى الأمور على مستقر العادة
والله حكيم عليهم فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محققاً قصر به
الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما إن كان من المتلبسين بذلك في

طَلَبَ الرِّئَاسَةَ فَاجْدَرُ أَنْ تَعُوْقَهُ الْعَوَاقِقُ وَتَنْقَطِعُ بِهِ الْمَهَالِكُ لِأَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا
 بِرِضَاةٍ وَإِيعَانِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَابُ
 فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ ابْتِدَاءِ هَذِهِ التَّرَعَّةِ فِي أَلَمَلَةٍ بِيغْدَادَ حَيْثُ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ
 وَقَتْلُ الْأَمِينِ وَأَبْطَأَ الْأَمُومُ بِخُرَاسَانَ عَنْ مُقَدِّمِ الْعِرَاقِ ثُمَّ عَهْدَ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى
 الرِّضَى مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ فَكَشَفَتْ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْ وَجْهِ الزُّكَيْرِ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ
 وَخَلَعَ طَاعَةَ الْأَمُومِ وَالْأَسْتَبْدَالَ مِنْهُ وَبُويعَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ الْهَرْجُ
 بِيغْدَادَ وَانْطَلَقَتْ أَيْدِي الزُّعْرَةِ بِهَا مِنْ الشُّطَارِ وَالْحَزْرِيَّةِ عَلَى أَهْلِ الْعَافِيَةِ وَالصُّوْنِ
 وَقَطَعُوا السَّبِيلَ وَأَمْتَلَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِيَابِ النَّاسِ وَبَاعُوها عِلَانِيَةً فِي الْأَسْوَاقِ وَأَسْتَعْدَى
 أَهْلُهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ يَبْعُدُوهُمْ فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعِ الْفُسَاقِ وَكَفِّ
 عَادِيَتِهِمْ وَقَامَ بِيغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدُّزْبُوسِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
 وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَاجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ الزُّعْرَةِ فَغَالِبَهُمْ وَأَطَاقَ يَدَهُ فِيمَنْ
 بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ يُعْرَفُ بِسَهْلِ
 ابْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ وَيُكْنَى أَبَا حَاتِمٍ وَعَلَّقَ مُصْحَفًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ
 بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ قَرَنَ دُونَهُمْ وَتَزَلَّ قَصْرَ
 طَاهِرٍ وَاتَّخَذَ الدِّيُونَ وَطَافَ بِيغْدَادَ وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَةَ وَمَنَعَ الْحَفَّارَةَ
 لِأُولَئِكَ الشُّطَارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدُّزْبُوسُ أَنَا لَا أُعِيبُ عَلَى الشَّاطِطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لَكِنِّي
 أَقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ
 وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ الْعَسَاكِرَ فَغَالِبَهُ وَأَسْرَهُ وَأَنْحَلَ أَمْرَهُ سَرِيعًا وَذَهَبَ وَنَجَا
 بِنَفْسِهِ ثُمَّ أَقْتَدَى بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَسَّوسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ
 وَلَا يَغْرِفُونَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِغَبَةِ أَمْرِهِمْ وَمَالِ
 أَعْوَالِهِمْ وَالَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ إِمَّا الْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجُنُونِ وَإِمَّا
 التَّنْكِيلُ بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ إِنْ أَخَذُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِذَاعَةُ السُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَدُّهُمْ
 مِنْ جُمْلَةِ الصَّفَاعِينَ وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ
 لَهُ وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ الْمُتَنَحِّلِينَ لِمِثْلِ هَذَا

تَجِدُهُمْ مُوسِسِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلَبَّسِينَ يَطْلُبُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةً أَمْتَلَأَتْ
بِهَا جَوَانِحُهُمْ وَتَعَجَّزُوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَةِ فَيَحْسِبُونَ أَنَّ هَذَا
مِنْ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤْمَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحْسِبُونَ مَا بَنَالَهُمْ فِيهِ مِنْ
الْمَلَكَةِ فَيُسْرِعَ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا يُحْدِثُونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَسُوهُ سَاقِيَةُ مَكْرِهِمْ وَقَدْ كَانَ
لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ خَرَجَ بِالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التُّوبَذَرِيُّ عَمَدًا إِلَى
مَسْجِدِ مَاسَةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ تَلِيَسَا عَلَى الْعَامَةِ هُنَاكَ
بِمَا مَلَأُوا بِهِمْ مِنَ الْخُدَّانِ بِأَنْتِظَارِهِ هُنَاكَ وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوَتِهِ
فَتَهَاقَبَتْ عَلَيْهِ طَوَائِفُ مِنْ عَامَةِ الْبَزِيرِ تَهَاقَتِ الْفَرَاشُ ثُمَّ خَشِيَ رُؤْسَاوَهُمْ اتِّسَاعَ
نَطَاقِ الْفِتْنَةِ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمَصَامِدَةِ بِوَمُثِدِ عُمَرُ السَّكْسَبِيُّ مَنْ قَتَلَهُ فِي
فَرَاشِهِ وَكَذَلِكَ خَرَجَ فِي غِمَارِهِ أَيْضًا لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ
وَأَدْعَى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيقَهُ الْأَرْدَلُونَ مِنْ سَفَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَغْمَارِهِمْ
وَزَحَبَتْ إِلَى بَادِيٍّ مِنْ أَمْصَارِهِمْ وَدَخَلَهَا عُنُوتُهُ ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ ظُهُورِ
دَعْوَتِهِ وَمَتَّى فِي الْمَالِكِينَ الْأَوَّلِينَ وَأُمَثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَالْفَلْطُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ
عَنِ اعْتِبَارِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مِثْلِهَا وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلَاسُ فَاخْرَى أَنْ لَا يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ وَأَنْ
يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لِلَّهِ غَيْرُهُ
وَلَا مَعْبُودٌ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان كل دولة لها حمة من المالك والاطوان لا تزيد عليها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عِصَابَةَ الدَّوْلَةِ وَقَوْمَهَا الْقَائِمِينَ بِهَا الْمُجَاهِدِينَ لَهَا لَا بُدَّ مِنْ
تَوْزِيْعِهِمْ حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ الَّتِي تَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا لِحِمَايَتِهَا مِنْ
الْعَدُوِّ وَإِمْنَاءِ أَحْكَامِ الدَّوْلَةِ فِيهَا مِنْ جِبَايَةٍ وَرَدْعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِذَا تَوَزَّعَتِ الْعِصَابَةُ
كُلُّهَا عَلَى الثُّغُورِ وَالْمَمَالِكِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَقَادُ عِدَدِهَا وَقَدْ بَاقَتْ الْمَمَالِكُ حِينَئِذٍ إِلَى
حَدِّ يَكُونُ ثَغْرًا لِلدَّوْلَةِ وَتَحْمًا لَوَطْنِهَا وَنِطَاقًا لِمَرْكَزِ مُلْكِهَا فَإِنْ تَكَفَّلَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ
ذَلِكَ زِيَادَةً عَلَى مَا يَبْدِيهَا بَقِيَ دُونَ حَامِيَةٍ وَكَانَ مَوْضِعًا لِانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعَدُوِّ
وَالنَّجَاجِيرِ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ التَّجَامُرِ وَخَرْقِ سِيَاجِ الْأَمْنَةِ

وَمَا كَانَتْ الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفَدَ عَدَدُهَا فِي تَوَزُّعِ الْحِصَصِ عَلَى الثُّغُورِ وَالنَّوَاحِي
بَقِيَ فِي الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْغَايَةِ حَتَّى يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَالْعِلَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ
فِي ذَلِكَ هِيَ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الْأَنْعَالِ
فَشَأْنُهَا ذَلِكَ فِي فِعْلِهَا وَالدَّوْلَةُ فِي مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي الْطَّرَفِ وَالنِّطَاقِ وَإِذَا
انْتَهَتْ إِلَى النِّطَاقِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ عَجَزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنُ الْأَشِعَّةِ وَالْأَنْوَارِ
إِذَا انْبَعَثَتْ مِنَ الْمَرَائِزِ وَالِدَوَائِرِ الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ النِّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا
أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالضَّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي التَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ الْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ الْمَرْكَزُ
مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْأَمْرِ جُمْلَةً فَيُنْشِئُ يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ
وَإِذَا غَلِبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا يَنْفَعُهَا بَقَاؤُهَا الْأَطْرَافِ وَالنِّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُ لَوْ قَتَهَا
فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَالْقَلْبِ الَّذِي تَتَّبِعُ مِنْهُ الرُّوحُ فَإِذَا غَلِبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمِثْلُكَ أَنْهَزَمَ جَمِيعُ
الْأَطْرَافِ وَأَنْظُرْ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكَزُهَا الْمَدَائِنُ فَلَمَّا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ
عَلَى الْمَدَائِنِ انْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعٍ وَلَمْ يَنْفَعِ يَزْدَجُرْدَ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنَ الْأَطْرَافِ
مَمَالِكِهِ وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ الدَّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ وَغَالِبُهُمُ
الْمُسْلِمُونَ بِالشَّامِ تَحَيَّزُوا إِلَى مَرْكَزِهِمُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضُرَّهُمْ انْتِزَاعُ الشَّامِ مِنْ
أَيْدِيهِمْ فَلَمْ يَزَلْ مَلِكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِ وَأَنْظُرْ أَيْضًا شَأْنَ
الْعَرَبِ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَائِبُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَزَهُمْ مِنَ
الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ لِأَسْرَعِ وَقْتٍ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السِّنْدِ وَالْحَبْشَةِ
وَأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ وَنَزَلُوهَا
حَامِيَةً وَنَفَدَ عَدَدُهُمْ فِي تِلْكَ التَّوْزِيعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ الْفَتْوحَاتِ بَعْدُ وَأَنْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ
وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْحُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدَّوْلَةُ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ
حَالُ الدُّوَلِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلِّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ وَعِنْدَ
نَفَادِ عَدَدِهِمْ بِالتَّوْزِيعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالْأَسْتِيلَاءُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

الفصل الثامن

في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائم بها

في القلة والكثرة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَأَهْلُ الْعَصِيَّةِ هُمُ الْحَامِيَةُ الَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَامَّةِ قَبِيلَهَا وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكِ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مُلْكُهَا أَوْسَعَ لِذَلِكَ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَتَتْ اللَّهَ كَلِمَةَ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ أَلْفٍ وَعَشْرَةَ أَلْفٍ مِنْ مُضَرَ وَتَحْطَانِ مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْوَفَاةِ فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي الْأُمَمِ مِنَ الْمَلِكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ حِمَى وَلَا وَزْرٌ فَاسْتَبِيحَ حِمَى فَارِسَ وَالرُّومَ أَهْلَ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ فِي الْعَالَمِ لِعَهْدِهِمُ وَالْتَرَكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْقُوطِ بِالْأَنْدَلُسِ وَخَطَوْا مِنَ الْحِجَازِ إِلَى الشُّوسِ الْأَقْصَى وَمِنَ الْيَمَنِ إِلَى التُّرْكِ بِأَقْصَى الشِّمَالِ وَاسْتَوَلَوْا عَلَى الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ صَنَهَاجَةَ وَالْمُوحِدِينَ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ قَبْلَهُمْ لَمَّا كَانَ كِتَامَةُ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صَنَهَاجَةَ وَمِنَ الْمَصَامِدَةِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكَوا أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازَ ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَ عَدَدُهُمْ أَقَلَّ مِنَ الْمَصَامِدَةِ قَصَرَ مَلِكُهُمْ عَنْ مَلِكِ الْمُوحِدِينَ لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنْ عَدَدِ الْمَصَامِدَةِ مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ثُمَّ اعْتَبِرْ بَعْدَ ذَلِكَ حَالَ الدَّوْلَتَيْنِ لِهَذَا الْعَهْدِ لَزَنَاتَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَبَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعَ نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْغَلْبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مُرَيْنَ لِأَوَّلِ مُلْكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانُوا لَفَاءً إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ بِالزَّفَةِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ كَثُرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ الْمُشْغَلِينَ لِأَوَّلِ الْمَلِكِ يَكُونُ اتِّسَاعُ الدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طُولُ أَمْدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ النِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمَرَ الْحَادِثِ مِنْ قُوَّةِ مَزَاجِهِ وَمَزَاجِ الدُّوَلِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ الْعَصِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ الْمِزَاجُ تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمْدُ الْعُمَرِ طَوِيلًا وَالْعَصِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَوُقُورِهِ كَمَا قُلْنَا . وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي الدَّوْلَةِ مِنْ

الْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ
 نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَزْمَانُ النِّقْصِ إِكْثَرَةُ الْمَمَالِكِ وَاخْتِصَاصُ
 كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدُّوَلِ لَا بَنُو الْعَبَّاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ
 وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ
 الْهَجْرَةِ وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ كَانَ أَمْدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صَهْبَاجَةَ
 دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ الدُّوَلَةِ أَمْرًا فَرِيقِيَّةً لِأَمْكِينِ بْنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ
 وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى حَيْثُ اسْتَبْلَأَ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَاعَةِ وَبِجَايَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ
 وَدَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَنَاهَزُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَكَذَا نُسَبُّ الدُّوَلِ فِي
 أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا سَنَةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

الفصل التاسع

فِي أَنَّ الْأَوْطَانَ الْكَثِيرَةَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ قُلُوبُهَا تَسْتَحْكِمُ فِيهَا دَوْلَةً
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافُ الْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهْوَى
 عَصِيَّةٌ تَمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ الْإِتِّفَاقُ عَلَى الدُّوَلَةِ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَاقْتٍ وَإِنْ
 كَانَتْ ذَاتَ عَصِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَطُنُّ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَتَنْظُرُ
 مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ مُنْذُ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَلِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّ سَاكِنِي هَذِهِ
 الْأَوْطَانَ مِنَ الْبَرَبَرِ أَهْلُ قَبَائِلٍ وَعَصِيَّاتٍ فَلَمْ يُغْنِ فِيهِمْ الْقَلْبُ الْأَوَّلُ الَّذِي كَانَ لِأَبْنِ
 أَبِي سَرْحٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْإِفْرِيقِيَّةِ شَيْئًا وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ الثُّورَةَ وَالرِّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ
 أُخْرَى وَعَظُمَ الْإِثْمَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى الثُّورَةِ
 وَالْخُرُوجِ وَالْأَخَذِ بِدِينِ الْخَوَارِجِ مَرَاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ أَرْتَدَّتِ الْبَرَابِرُ
 بِالْمَغْرِبِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعَهْدِ وَلَايَةِ مُوسَى
 بْنِ نُصَيْرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيقَةَ مُفَرِّقَةُ الْقُلُوبِ أَهْلًا بِإِشَارَةِ
 إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثَرَةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ الْحَامِلَةِ لَهَا عَلَى عَدَمِ الْإِذْعَانِ وَالْإِتِّفَاقِ وَلَمْ
 يَكُنِ الْعِرَاقُ لِنَاكِ الْعَهْدِ بَيْنَكَ الْعَصْنَةِ وَلَا الشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَّتَهَا مِنْ فَارِسَ
 وَالرُّومِ وَالْكَافَّةِ دَهْمَاءُ أَهْلِ مَدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَأَنْتَزَعُوهُ
 مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مُمَانِعٌ وَلَا مُشَاقٌّ وَالْبَرَبَرُ قَبَائِلُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنَّ

تُحصى وَكُلُّهُمْ بَادِيَّةٌ وَأَهْلُ عَصَائِبَ وَعَشَائِرَ وَكُلُّمَا هَلَكْتَ قَبِيلَةٌ عَادَتْ الْآخَرَى
 مَكَانَهَا وَإِلَى دِينِهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالرَّدَةِ فَطَالَ أَمْرُ الْعَرَبِ فِي تَهْيِيدِ الدَّوْلَةِ بِوَطَنِ
 أَفْرِيْقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالشَّامِ لِعَهْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فِيهِ مِنْ قَبَائِلِ
 فَلَسْطِينَ وَكَنْعَانَ وَبَنِي عِيصُو وَبَنِي مَدْيَنَ وَبَنِي لُوطٍ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِ وَالْعِمَالِقَةِ وَكَرِيكِيشَ
 وَالنَّبَطِ مِنْ جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ مَا لَا يُحصى كَثْرَةً وَتَنوعًا فِي الْعَصَبِيَّةِ فَصَعِبَ عَلَى
 بَنِي إِسْرَائِيلَ تَهْيِيدُ دَوْلَتِهِمْ وَرُسُوحُ أَمْرِهِمْ وَاضْطَرَبَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى
 وَسَرَى ذَلِكَ الْخِلَافُ إِلَيْهِمْ فَأَخْتَلَفُوا عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَخَرَجُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ
 مُوْطِدٌ سَائِرًا بِأَيِّهِمْ إِلَى أَنْ غَلَبَهُمُ الْفَرَسُ ثُمَّ يُونَانُ ثُمَّ الرُّومُ آخِرَ أَمْرِهِمْ عِنْدَ الْجَلَاءِ
 وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَيَعَكْسُ هَذَا أَيْضًا الْأَوْطَانُ الْخَلَايَةَ مِنَ الْعَصَبِيَّاتِ بِسَهْلٍ تَهْيِيدُ
 الدَّوْلَةِ فِيهَا وَيَكُونُ سُلْطَانُهَا وَازِعًا لِقِلَّةِ الْهَرَجِ وَالْإِتْقَاضِ وَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ فِيهَا إِلَى
 كَثِيرٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ إِذْ هِيَ خَالُو مِنْ الْقَبَائِلِ
 وَالْعَصَبِيَّاتِ كَانَ لَمْ يَكُنِ الشَّامُ مَعْدِنًا لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فَمِصْرُ فِي غَايَةِ الدَّعَةِ وَالرُّسُوحِ
 لِقِلَّةِ الْخَوَارِجِ وَأَهْلُ الْعَصَائِبِ إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ وَدَوْلَتُهَا قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التُّرُكِ
 وَعَصَائِبِهِمْ يَغْلِبُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَبَتَقِلُ الْأُمُورُ فِيهِمْ مِنْ مَنَبَتِ إِلَى مَنَبَتٍ
 وَالْخِلَافَةُ مُسَمَّاةٌ لِلْعَبَّاسِيِّ مِنْ أَعْقَابِ الْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ وَكَذَا شَأْنُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّ
 عَصَبِيَّةَ ابْنِ الْأَحْمَرِ سُلْطَانُهَا لَمْ تَكُنْ لِأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِقُوَّةٍ وَلَا كَانَتْ كَرَاتٍ إِنَّمَا يَكُونُ
 أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِقُوَّةٍ مِنْ ذَلِكَ الْقِلَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ
 الْأَنْدَلُسِ لَمَّا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُمْ وَمَلَكَهُمْ الْبَرْبَرُ مِنْ لِمَثُونَةٍ وَالْمُوحِدِينَ
 سَيَّمُوا مَلَكَتْهُمْ وَثَقُلَتْ وَطَانَتُهُمْ عَلَيْهِمْ فَأَشْرَبَتْ الْقُلُوبُ بَغْضَاءَهُمْ وَأَمَكْنَ الْمُوَحِدُونَ
 وَالسَّادَةُ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ كَثِيرًا مِنَ الْحِصُونِ لِلطَّاعِيَةِ فِي سَبِيلِ الْأَسْطِظْهَارِ بِهِ عَلَى شَأْنِهِمْ
 مِنْ تَمَلُّكِ الْحَضَرَةِ مَرَاكِيَشَ فَأَجْتَمَعَ مَنْ كَانَ بَقِيَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مَعَادِينَ
 مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ تَجَافَى بِهِمُ الْمَنَبَتُ عَنِ الْخَاضِرَةِ وَالْأَمْصَارِ بَعْضَ الشَّيْءِ وَرَسَّخُوا فِي
 الْعَصَبِيَّةِ مِثْلَ ابْنِ هُوْدٍ وَابْنِ الْأَحْمَرِ وَابْنِ مَرْدَنِشَ وَأَمْثَالِهِمْ فَقَامَ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ
 وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوَحِدِينَ
 فَنَبَذُوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَأَخْرَجُوهُمْ وَأَسْتَقَلَّ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ فِي الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ سَمَّا ابْنُ

الْأَخْمَرِ لِلْأَمْرِ وَخَالَفَ ابْنُ هُوْدٍ فِي دَعْوَتِهِ قَدَمًا هُوَ لَا يَبْنِي أَبِي حَنْصٍ صَاحِبِ أَفْرِيقِيَّةَ
 مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَقَامَ بِالْأَمْرِ وَتَنَاوَلَهُ بِعَصَابَةِ قَرِيْبَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا يُسَمُّونَ الرُّؤَسَاءَ وَلَمْ
 يَحْتَجْ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ بِالْأَنْدَلُسِ وَإِنَّمَا سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ
 ذَلِكَ عَلَى الطَّاعِيَةِ بِمَنْ يُعْجِزُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ أَغْيَاصِ زَنَاطَةِ فَصَارُوا مَعَهُ عُصْبَةً عَلَى
 الْمَشَاغِرَةِ وَالرِّيَاطِ ثُمَّ سَمَا لِصَاحِبِ مِنْ مُلُوكِ زَنَاطَةِ أَمَلٌ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ
 فَصَارَ أُولَئِكَ الْأَغْيَاصُ عَصَابَةَ ابْنِ الْأَخْمَرِ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَأْتَلَ
 أَمْرُهُ وَرَسَخَ وَآلَفَتْهُ النُّفُوسُ وَعَجَزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرِثَهُ أَعْقَابُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلَا تَظُنُّ
 أَنَّهُ بَغْيٌ عَصَابَةٍ فَلَيْسَ كَذَلِكَ وَقَدْ كَانَ مَبْدَأُهُ بِعَصَابَةٍ إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ وَعَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ
 فَإِنَّ قُطْرَ الْأَنْدَلُسِ لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ يُغْنِي عَنْ كَثَرَةِ الْعَصِيَّةِ فِي الْغَلَبِ
 عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ كَمَا قَدَّمَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصِيَّةِ وَالْعَصِيَّةُ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عُصَبَاتٍ
 كَثِيرَةٍ تَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوِلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصَيِّرَهَا
 جَمِيعًا فِي خِمْنِهَا وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْإِجْتِمَاعُ وَالْغَلَبُ عَلَى النَّاسِ وَالْذُّوْلُ وَسِرُّهُ أَنَّ الْعَصِيَّةَ
 الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمِزَاجِ لِلْمَتَكُونِ وَالْمِزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ الْعَنَاصِرِ وَقَدْ تَبَيَّنَ
 فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعَنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مُتَكَافِئَةً فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مِزَاجٌ أَصْلًا بَلْ لَا بُدَّ مِنْ
 أَنْ تَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا وَتُوَلِّفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصِيَّةً
 وَاحِدَةً شَامِلَةً لَجَمِيعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي خِمْنِهَا وَتِلْكَ الْعَصِيَّةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا
 تَكُونُ اقْوَمُ أَهْلِ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِمْ وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا
 عَلَيْهِمْ فَيَتَعَيَّنُ رَئِيسًا لِلْعَصَبِيَّاتِ كُلِّهَا لَغَلَبِ مَنَبَتِهِ لَجَمِيعِهَا وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ فَتَنَ الطَّبِيعَةُ
 الْحَيَوَانِيَّةَ خُلُقُ الْكَبِيرِ وَالْأَنَفَةِ فَيَأْتِي حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِنْبَاعِهِمْ
 وَالتَّحْكُمِ فِيهِمْ وَيَجِيئُ خُلُقُ النَّالَةِ الَّذِي فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مَعَ مَا نَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةَ مِنْ
 انْفِرَادِ الْحَاكِمِ بِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكْمِ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ لَفَسَدَتْ
 فَتَجْدُعُ حِينَئِذٍ أَنْفُ الْعَصَبِيَّاتِ وَتُفْلَحُ شَكَائِهِمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي التَّحْكُمِ

وَأَقْرَعُ عَصِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا أَسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا نَافَةَ وَلَا حَاجَةً لَا فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْمَجْدُ بِكَلِمَتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّالِثِ عَلَى قَدَرِ مُسَانَعَةِ الْعَصِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدُّوَلِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوِزُونَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِفَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأُخْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِنِلكِ النِّوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَتَزَعُّونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِفَّةِ الْأَخْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْأَنْرُشِ وَالْآلَانِيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ وَلِبْسِ الْأَنْبَقِ وَزَكُوبِ الْفَارِهِ وَيُنَاقِضُ خَلْفَهُمْ فِي ذَلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدَرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرْفُهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا الْغَلْبُ وَالْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتِ الْغَايَةُ انْقَضَى السَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ يَنِينِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
فَإِذَا حَمَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنْ الْمَتَاعِ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَآثَرُوا الرِّاحَةَ وَالسُّكُونَ وَالِدَّةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْمَبَانِي وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَلَابِسِ فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ وَيُجْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَيُؤَثِّرُونَ الرِّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِ وَيَتَأَنَّقُونَ فِي أَحْوَالِ الْمَلَابِسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْآلَانِيَةِ وَالْأَنْرُشِ مَا أَسْتَطَاعُوا وَيَأْتُونَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْبَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ

إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث عشر

في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الافتراء بالمجد وحصول الترف والدعة

اقبلت الدولة على الهرم

وَيَبَيِّنُهُ مِنْ وَجْهِهِ . الْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي الْإِتْفَادَ بِالْحَجْدِ كَمَا قُلْنَا وَمَهْمَا كَانَتْ
الْحَجْدُ مُشْتَرِكًا بَيْنَ الْعِصَابَةِ وَكَانَ سَعِيَهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ مِمُّهُمْ فِي التَّغْلِبِ عَلَى الْغَيْرِ
وَالْتَبَّ عَنِ الْحُوزَةِ أَسْوَةٌ فِي طُوحِيهَا وَقُوَّةُ شَكَائِمِهَا وَزَمَانُ إِلَى الْعَزِّ جَمِيعًا يَسْتَطِيعُونَ
الْمَوْتَ فِي بِنَاءِ تَعْدِيمٍ وَيُؤْثِرُونَ الْمَلَكَ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْحَجْدِ
فَرَعَ عَصِيَّتَهُمْ وَكَبَّحَ مِنْ أَعْتِيهِمْ وَأَسْتَأْثَرَ بِالْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَكَمَا سَلُوا عَنِ الْغَزْوِ وَقِيلَ
رُبُّهُمْ وَرَبُّمُوا الْمَذَلَّةَ وَالْإِسْتِعْبَادَ ثُمَّ رُبِّي الْجِيلُ الثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَتَعَسَّبُونَ مَا يَنَالُهُمْ
مِنَ الْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ الْحَيَاةِ وَالْمَعُونَةِ لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقِيلَ
أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى الْمَوْتِ فَيَصِيرُ ذَلِكَ وَهَذَا فِي الدَّوْلَةِ وَخَضًا مِنَ الشُّوْكَةِ
وَنُقِيلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِي الضَّعْفِ وَالْهَرَمِ لِفَسَادِ الْعَصِيَّةِ بِذَهَابِ الْبَاسِ مِنْ أَهْلِهَا . وَالْوَجْهُ
الثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي التَّرَفَ كَمَا قَدْ مَنَاهُ فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ تَقَاتِيهِمْ
عَلَى أُعْطِيَانِهِمْ وَلَا يَنِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ فَالْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَالْمُتَرَفُّ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ
بِتَرَفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمُ الْمَتَأَخِّرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَفِ
وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسُّهُمْ الْحَاجَةُ وَتُطَالِبُهُمْ مُلُوكُهُمْ بِحَضْرِ تَقَاتِيهِمْ فِي الْغَزْوِ وَالْخُرُوبِ فَلَا
يَعْدُونَ وَلِجَّةً عَنْهَا يُوَفِّقُونَ بِهِمُ الْعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي الْكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ
بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيُضْعِفُونَهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ
وَيُضْعِفُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ يَضْعِفُهُمْ وَأَيْضًا إِذَا كَثُرَ التَّرَفُ فِي الدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ
مُقْصَرًا عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَتَقَاتِيهِمْ أَحْتَاجَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِّيَادَةِ
فِي أُعْطِيَانِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلْلَهُمْ وَيُزِيحَ عِلْلَهُمْ وَالْجَبَايَةُ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا
تَنْقُصُ وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدَثُ مِنَ الْمَكُوسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ الزِّيَادَةِ مُعْدُودًا
فَإِذَا وَزَعَتْ الْجَبَايَةُ عَلَى الْأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَّثَتْ فِيهَا الزِّيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَّثَتْ مِنْ
تَرْفِهِمْ وَكَثْرَةِ تَقَاتِيهِمْ تَقْصُرُ عَدَدُ الْحَاجَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الْأَعْطِيَاتِ ثُمَّ

يَعْظُمُ التَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ الْأَعْطِيَاتِ لِذَلِكَ فَيَنْقُصُ عَدَدُ الْحَامِيَةِ وَثَالِثًا وَرَابِعًا إِلَى
أَنْ يَعُودَ الْمَسْكِرُ إِلَى أَقَلِّ الْأَعْدَادِ فَتَضَعُ الْحِمَايَةُ لِذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ وَتَتَجَاسَرُ
عَلَيْهَا مَنْ يَجَاوِزُهَا مِنَ الدُّوَلِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَيَأْذَنُ اللَّهُ
فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلْقَتِهِ وَأَيْضًا فَالتَّرَفُ مُفْسِدٌ لِلخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنَ
الْوَانِ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ وَعَوَائِدِهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَصْلِ الْحِضَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُمْ خِلَالُ
الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ عَلامَةً عَلَى الْمَلِكِ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَبِتَصِفُونُ بِمَا يُنَاقِضُهَا مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ
فَيَكُونُ عَلامَةً عَلَى الْإِدْبَارِ وَالْإِنْقِرَاضِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فِي خَلْقَتِهِ وَتَأْخُذُ
الدَّوْلَةُ مَبَادِيءَ الْعَطَبِ وَتَتَضَعُ أحوَالَهَا وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرًا مِنْ مَرْمَنَةٍ مِنَ الْحَرَمِ إِلَى أَنْ
يُقْضَى عَلَيْهَا. الْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنَّ طَبِيعَةَ الْمَلِكِ تَقْتَضِي الدَّعَاءَ كَمَا ذَكَرْنَا وَإِذَا اتَّخَذُوا
الدَّعَاءَ وَالرَّاحَةَ مَا لَنَا وَخُلُقًا صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِبِلَّةً شَأْنُ الْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِبْلَافِهَا
فَقَرَّبَى أَجْيَالُهُمُ الْحَادِثَةَ فِي غَضَارَةِ الْعَيْشِ وَمِهَادِ التَّرَفِ وَالِدَّعَاءِ وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ التَّوَحُّشِ
وَيَنْسَوْنَ عَوَائِدَ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْمَلِكُ مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ وَتَعَوُّدِ الْإِنْتِرَاسِ وَرُكُوبِ
الْبَيْدَاءِ وَهِدَايَةِ الْفَقْرِ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّوقَةِ مِنَ الْحَضَرِ إِلَّا فِي الْتِقَافَةِ وَالشَّارَةِ
فَتَضَعُ حِمَايَتَهُمْ وَتَذْهَبُ بِأَسْمِهِمْ وَتَخْضَعُ شَوْكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا
تُلْبَسُ مِنْ ثِيَابِ الْحَرَمِ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَائِدِ التَّرَفِ وَالْحِضَارَةِ وَالسُّكُونِ وَالِدَّعَاءِ
وَرِقَّةِ الْحَاشِيَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَتَغْمِسُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَتَعَدُّونَ عَنْ الْبِدَاوَةِ
وَالْخُشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئًا فَبَشَاءًا وَيَنْسَوْنَ خُلُقَ الْبَسَالَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ
حَتَّى يَعُودُوا عِيَالًا عَلَى حَامِيَةٍ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الَّتِي أَخْبَارُهَا
فِي الصُّحُفِ لَدَيْكَ تَجِدُ مَا قُلْتَهُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ صَحِيحًا مِنْ غَيْرِ رَيْبَةٍ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ فِي الدَّوْلَةِ
إِذَا طَرَفَهَا هَذَا الْحَرَمُ بِالتَّرَفِ وَالرَّاحَةِ أَنْ يَتَخَيَّرَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْصَارًا وَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ
جَلَدَتِهِمْ مِمَّنْ تَعُودُ الْخُشُونَةُ فَيَتَخَذُهُمْ جُنْدًا يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى الْحَرْبِ وَأَقْدَرَ عَلَى مُعَانَاةِ
الشَّدَائِدِ مِنَ الْجُوعِ وَالشَّطَفِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْحَرَمِ الَّذِي عَمَاهُ أَنْ
يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهَا بِأَمْرِ هَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنَّ غَالِبَ
جُنْدِهَا الْمَوَالِي مِنَ التُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مَلُوكُهُمْ مِنْ أَوْلِيكَ الْمَمَالِكِ الَّتِي تَجْلُو بَيْنَ إِلَيْهِمْ فُرْسَانًا
وَجُنْدًا فَيَكُونُونَ أَجْرًا عَلَى الْحَرْبِ وَأَصْبَرَ عَلَى الشَّطَفِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَمَالِكِ الَّذِينَ

كَانُوا قَبْلَهُمْ وَرَبُّوا فِي مَاءِ الدَّعِيمِ وَالسُّلْطَانِ وَظِلِّهِ وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ
فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيرًا مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَانَةٍ وَالْعَرَبِ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُمْ وَيَتْرُكُ أَهْلَ
الدَّوْلَةِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ فَتَسْتَعِيدُ الدَّوْلَةُ بِذَلِكَ عُمَرًا آخَرَ مَالِيًا مِنْ الْهَرَمِ وَاللَّهُ
وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل الرابع عشر

في ان الدولة لما اعمار طبيعية كما للاشخاص
إِعْلَمَ أَنَّ الْعُمَرَ الطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الْأَطِبَاءُ وَالْمُنَجِّمُونَ مِائَةً وَعِشْرُونَ
سَنَةً وَهِيَ سِنُو الْعُمَرِ الْكُبْرَى عِنْدَ الْمُنَجِّمِينَ وَيَخْتَلِفُ الْعُمَرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ
الْقِرَآنَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَآنَاتِ مِائَةً تَامَةً
وَبَعْضُهُمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا نَقَضِيهِ أَدِلَّةُ الْقِرَآنَاتِ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِيهَا
وَأَعْمَارُ هَذِهِ الْعَمَلَةِ مَا بَيْنَ السَّيِّئِينَ إِلَى السَّيِّئِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْعُمَرِ
الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِائَةً وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي الصُّورِ النَّادِرَةِ وَعَلَى الْأَوْضَاعِ الْغَرِيبَةِ مِنْ
الْأَنَسْكَ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَلِيلٍ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَأَمَّا أَعْمَارُ
الدُّوَلِ أَيْضًا وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَآنَاتِ إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَعْدُو
أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ وَالْجِيلُ هُوَ عُمَرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُمَرِ الْوَسْطِ فَيَكُونُ
أَرْبَعِينَ الَّذِي هُوَ أَنْتَهَاءُ النُّمُوِّ وَالنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ قَالَ تَعَالَى حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ هُوَ عُمَرُ الْجِيلِ وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ
فِي حِكْمَةِ النَّبِيِّ الَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ الْجِيلِ
الْأَحْيَاءِ وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَعْمُدُوا الدَّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَدَلَّ عَلَى أَعْتِبَارِ الْأَرْبَعِينَ فِي
عُمَرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمَرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الدَّوْلَةِ لَا يَعْدُو فِي الْغَالِبِ
ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَلْ أَوْ عَلَى خُلُقِ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ
شُطَبِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالْأَفْتِرَاسِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الْعِبَادَةِ فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ
مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدُّهُمْ مُرَهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَالنَّاسُ لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَالْجِيلُ الثَّانِي
مَعْوَلٌ حَالُهُمْ بِالْمُلْكِ وَالتَّرَفِ مِنَ الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ وَمِنْ الشُّطَبِ إِلَى التَّرَفِ
وَالْخِصْبِ وَمِنْ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْعِبَادَةِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنْ

السعي فيه ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستيكانة فتتكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المماناة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أذكوا الجيل الأول وبأشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم إلى التجدد ورايهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل الثالث فينسبون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تنقوه من النعيم وغضارة العيش فيصرون عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسرت الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزينة ورؤوب الخيل وحسن الثقافة يمرون بها وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتهم فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بأنقراضها فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتغلغلها ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن النجد والحسب إنما هو أربعة آباء وقد أتيناك فيه بيزهان طبعي كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمل فلو تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الإنصاف وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على مائة ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلًا مستوليًا والمطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعًا فإذا جاء أجابهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد إلى من الوقوف ثم إلى سن الرجوع ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فأعني به واتخذ منه قانونًا يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريد من قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استربت في عديم وكانت السنين الماضية منذ أولهم محصلة لديك فقد ليكل مائة من السنين

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآبَاءِ فَإِنْ تَقَدَّتْ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نُفُودِ عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ تَقَصَّتْ عَنْهُ
بِجِبِلٍ فَقَدْ غُلِطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عُمُودِ النَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ
وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدُ السِّنِينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَلًا لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدُهُ فِي الْغَالِبِ
صَحِيحًا وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة .

إِعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ فَإِنَّ الْغَلَبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمَلِكُ إِنَّمَا هُوَ
بِالْعَصِيَّةِ وَبِمَا يَتَّبَعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَتَعَوُّدِ الْإِفْتِرَاسِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا مَعَ
الْبَدَاوَةِ فَطَوْرُ الدَّوَلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمَلِكُ تَبِعَهُ الرِّفْقَةُ وَاتَّسَاعُ الْأَحْوَالِ
وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَقْنُنٌ فِي التَّرْفِ وَإِحْكَامِ الصَّنَائِعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ
مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِيسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ
فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِجَادَتِهِ وَالتَّائِقُ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا
وَيَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالْتَّعَمُّ بِأَحْوَالِ
التَّرْفِ وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ الْحَضَارَةِ فِي الْمَلِكِ يَتَّبِعُ طَوْرَ الْبَدَاوَةِ
ضَرُورَةً لِمُضَرَّةِ تَبِيعَةِ الرِّفْقَةِ لِلْمَلِكِ وَأَهْلُ الدُّوَلِ أَبَدًا يَقْلِدُونَ فِي طَوْرِ الْحَضَارَةِ
وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوَلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ يَأْخُذُونَ وَمِثْلُ هَذَا
وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ وَمَلَكَوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَعْدَمُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ
يَكُونُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ فَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قَدِيمٌ لَهُمُ الْمُرَقُّ فَكَانُوا
يَحْسِبُونَهُ رِقَاءً وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَأَسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجَائِبِهِمْ مِلْحًا وَمِثَالُ
ذَلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِي سَهْنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ
وَأَخْتَارُوا مِنْهُمْ الْمَهْرَةَ فِي أُمْتَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادُوهُمْ عِلَاجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ
عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّقْنُنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ وَالتَّقْنُنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَغُوا الْغَايَةَ
فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ الْحَضَارَةِ وَالتَّرْفِ فِي الْأَحْوَالِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ
وَالْمَلَابِيسِ وَالْمَبَانِي وَالْأَسْلِحَةِ وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرَاشِيِّ وَكَذَلِكَ
أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلَايَمِ وَلِيَالِي الْأَعْرَاسِ فَأَتَوْا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْغَايَةِ وَانْظُرْ

مَا تَقَلَّهُ الْمَسْعُودِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي أَغْرَاسِ الْمَأْمُونِ يَبُورَانِ بِنْتُ الْحَسَنِ
 بْنِ مَهَلٍ وَمَا بَدَلَ أَبُوهُمَا حَاشِيَةَ الْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فِي خُطْبَتِهَا إِلَى دَارِهِ بِقِمِّ الصَّالِحِ
 وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي السَّنِينَ وَمَا اتَّفَقَ فِي أَمْلَاكِهَا وَمَا نَحَلَهَا الْمَأْمُونُ وَاتَّفَقَ فِي عِرْسِيهَا
 تَقَفَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَجَبِ فَتَنَّهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ مَهَلٍ تَنَزَّاهُ يَوْمَ الْأَمْلَاكِ فِي الصَّنِيعِ الَّذِي
 حَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمَأْمُونِ فَتَنَرَ عَلَى الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْهُمْ بِنَادٍ إِلَيْكَ مَا ثَوَّاهُ دَلِي
 الرِّقَاعِ يَا لَصِيَابِ وَالْعَقَارِ مُسَوِّغَةً لِمَنْ حَصَّاتِ فِي يَدِهِ يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا
 آدَاهُ إِلَيْهِ الْإِتِّفَاقُ وَالْبَحْثُ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ بَذَرَ الدَّنَائِيرِ فِي كُلِّ بَذْرَةٍ عَشْرَةُ
 آلَافٍ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ بَذَرَ الدَّرَاهِمِ كَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اتَّفَقَ عَلَى مَقَامَةِ الْمَأْمُونِ
 بِدَارِهِ اضْعَافَ ذَلِكَ وَمِنْهُ أَنَّ الْمَأْمُونِ أَعْطَاهَا فِي مَهْرٍ مَا لَيْلَةٌ زِفَانِهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنْ
 الْيَاقُوتِ وَأَوْقَدَ شُمُوعَ الْعَنْبَرِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةً مِنْ وَهُوَ رَطْلٌ وَثُلُثَانُ^(١)
 وَبَسَطَ لَهَا فُرْشًا كَانَ الْخَصِيرُ مِنْهَا مَنَسُوجًا بِالذَّهَبِ مُكَلَّلًا بِاللُّزْ وَالْيَاقُوتِ وَقَالَ
 الْمَأْمُونُ حِينَ رَأَاهُ قَاتِلَ اللَّهِ أَبَا نُوَّاسٍ كَأَنَّهُ أَبْعَرَ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِنَةِ الْخَمْرِ
 كَانَ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاهُ دُرٌّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وَأَعَدَّ بِدَارِ الطَّبَخِ مِنَ الْحَطَبِ لِلْيَلَةِ الْوَالِيَةِ نَقْلَ مِائَةٍ رَازِبَيْنِ بِنَاءً مُدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ
 ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفِي الْحَطَبِ لِلْيَلَتَيْنِ وَأَوْقَدُوا الْجَرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ الزَّيْتَ
 وَأَوْهَزَ إِلَى النَّوَانِيَةِ بِإِحْضَارِ الشُّغْنِ لِإِجَارَةِ الْخَوَاصِّ مِنَ النَّاسِ بِدِجَلَةٍ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى
 قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ لِحُضُورِ الْوَلِيَةِ فَكَانَتْ الْحُرَاقَاتُ^(٢) الْمُدَّةَ لِذَلِكَ
 ثَلَاثِينَ أَلْفًا أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أَخْرَبَاتِ نَهَارِهِمْ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ وَكَذَلِكَ عِرْسُ
 الْمَأْمُونِ بْنِ ذِي النُّونِ بِطَلِيطَةَ نَقَلَهُ ابْنُ سَامٍ فِي كِتَابِ الدُّخِيرَةِ وَأَبْنُ حَبَّانَ بَعْدَ أَنْ
 كَانُوا كُلُّهُمْ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبِدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ ذَلِكَ جُمْلَةً لِفَقْدَانِ أَسْبَابِهِ
 وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي غَضَاضَتِهِمْ وَسَدَاجَتِهِمْ يَذْكُرُ أَنَّ الْعَجَّاجَ أَوَّلَ فِي اخْتِتَانِ
 بَعْضٍ وَلَدِهِ فَأَسْتَحْضَرَ بَعْضَ الدَّهَاقِينِ يَسْأَلُهُ عَنْ وَلَائِمِ الْفَرَسِ وَقَالَ أَخْبِرْنِي بِأَعْظَمِ
 صَنِيعٍ شَهِدْتَهُ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَاذِيَةِ كِسْرَى وَقَدْ صَنَعَ لِأَهْلِ

(١) قولة وثلاثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية ثلاثان

(٢) الحراقا بالفتح جمع حرافة سفينة فيها مراعي نار برمي بها العدو او مختار

فَارِسَ صَنِيعًا أَحْضَرَ فِيهِ صِيحَافَ الذَّهَبِ عَلَى أَخَوْنَةِ الْفِضَّةِ أَرْبَعًا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحْمِيلُهُ
 أَرْبَعُ وَصَائِفَ وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا طَعِمُوا اتَّبَعُوا أَرْبَعَتَهُمُ الْمَائِدَةَ
 بِصِحَافِهَا وَوُصَفَائِهَا فَقَالَ الْحَجَّاجُ يَا غُلَامُ أَتَحَرَّ الْجُزْرَ وَأَطْعِمَ النَّاسَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ
 بِهَذِهِ الْأَبْهَةِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أُعْطِيَتْ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَوَائِزُهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ
 أَكْثَرُهَا الْإِبِلَ أَخَذًا بِمَذَاهِبِ الْعَرَبِ وَبِدَاوَتِهِمْ ثُمَّ كَانَتْ الْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
 وَالْعَبِيدِيَّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَحْمَالِ الْمَالِ وَتَحْوِثِ الثِّيَابِ وَإِعْدَادِ الْخَيْلِ بِمَرَاجِيهَا
 وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ كُتَامَةٍ مَعَ الْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَكَذَا بَنِي طَفَّحٍ بِمِصْرَ وَشَأْنُ لِمَنْوَنَةٍ
 مَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمُوحِدِينَ كَذَلِكَ وَشَأْنُ زَنَاتَةٍ مَعَ الْمُوحِدِينَ وَهَلُمُ
 جَرًّا تَنْتَقِلُ الْحِضَارَةُ مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ إِلَى الدُّوَلِ الْخَالِفَةِ فَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ الْفُرْسِ لِلْعَرَبِ
 بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ
 الْمُوحِدِينَ وَزَنَاتَةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الدَّيْلَمِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ ثُمَّ
 إِلَى السَّلْجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ الْمَمَالِكِ بِمِصْرَ وَالتُّرْكِ بِالْعِرَاقَيْنِ وَعَلَى قَدَرِ عِظَمِ الدَّوْلَةِ
 يَكُونُ شَأْنُهَا فِي الْحِضَارَةِ إِذَا أُمُورُ الْحِضَارَةِ مِنْ تَوَابِعِ التَّرَفِ وَالتَّرَفِ مِنْ تَوَابِعِ
 الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةُ مِنْ تَوَابِعِ الْمَلِكِ وَمِقْدَارُ مَا يَسْتَوِلِي عَلَيْهِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ
 فَعَلَى نِسْبَةِ الْمَلِكِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فَاعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْهُ وَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ مَبْجِيحًا فِي الْعُمَرَانِ
 وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمَالُ وَالتَّرَفُ كَثُرَ التَّنَاسُلُ وَالْوُلْدُ
 وَالْعُمُومِيَّةُ فَكَثُرَتِ الْعِصَابَةُ وَاسْتَكثَرُوا أَيْضًا مِنَ الْعُمَالِي وَالصَّنَائِعِ وَرَبَّيْتَ أَجْيَالَهُمْ
 فِي جَرِّ ذَلِكَ النِّعَمِ وَالرَّفَةِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ
 كَثَرَةِ الْعَصَائِبِ حِينَئِذٍ بِكَثَرَةِ الْعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الْجِيلُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي وَأَخَذَتِ الدَّوْلَةُ
 فِي الْهَرَمِ لَمْ تَسْتَقِلْ أُولَئِكَ الصَّنَائِعُ وَالْعُمَالِي بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْنِيْدِ
 مَلِكِهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا كَانُوا عِيَالًا عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا فَإِذَا
 ذَهَبَ الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلْ الْفَرْعُ بِالرُّسُوحِ فَيَذْهَبُ وَيَتَلَاشَى وَلَا تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا

مِنَ الْقُوَّةِ وَاعْتَبَرَ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا لِعَهْدِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرٍّ وَقَعَطَانَ وَلَمَّا بَلَغَ التَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِي الدَّوْلَةِ وَتَوَقَّرَ نَعْمُهُمْ بِتَوَقُّرِ النِّعْمَةِ وَاسْتَكْثَرَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ بَلَغَ ذَلِكَ الْعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَازَلَ عُمُورِيَّةَ لَمَّا افْتَتَحَهَا فِي تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هَذَا الْعَدَدُ أَنْ يَكُونَ مَحْجُوًّا إِذَا اعْتَبَرَتْ حَامِيَّتُهُمْ فِي الثُّغُورِ الدَّائِيَّةِ وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا إِلَى الْجَنْدِ الْحَامِلِينَ سَرِيرَ الْمَلِكِ وَالْمَوَالِي وَالْمُصْطَفِينَ وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ الْمَأْمُونِ لِإِلَّا تَفَاقَ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ ذِكْرَانٍ وَإِنَّا نَظَرْنَا فَانْظُرْ مَبَالِغَ هَذَا الْعَدَدِ لِأَقَلِّ مِنْ مِائَتِي سَنَةٍ وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ الرِّفَّةُ وَالنِّعَمُ الَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِّي فِيهِ أَجْيَالُهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ الْعَرَبِ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الفصل السابع عشر

فِي أَطْوَارِ الدَّوْلَةِ وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا وَخَلْقِ أَعْمَالِهَا بِاخْتِلَافِ الْأَطْوَارِ
إِذْ عُلِمَ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَقَلَّبُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَّعِدَةٍ وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ لِأَنَّ الْخُلُقَ تَابِعٌ بِالطَّبْعِ لِمِزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتُ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ. الطَّوْرُ الْأَوَّلُ طَوْرُ الظُّفْرِ بِأَبْغِيَةٍ وَغَلَبِ الْمُدَافِعِ وَالْمُدَافِعِ وَالْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمَلِكِ وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ أَسْوَةٌ قَوْمِهِ فِي اكْتِسَابِ الْمَجْدِ وَجَبَابَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنِ الْحُوزَةِ وَالْحِمَايَةِ لَا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْغَلَبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهَا. الطَّوْرُ الثَّانِي طَوْرُ الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى قَوْمِهِ وَالْإِفْرَادِ دُونَهُمْ بِالْمَلِكِ وَكَيْفِهِمْ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ مَعْنِيًّا بِأَصْطِنَاعِ الرِّجَالِ وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ لِجَدْعِ أَنْوَافِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْقَاسِمِينَ لَهُ فِي نِسْبَةِ الضَّارِبِينَ فِي الْمَلِكِ بِمِثْلِ مَنَّهُمْ فَهُوَ يَدَافِعُهُمْ عَنِ الْأَمْرِ وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ وَيُرَدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يُغْلِبُوا إِلَيْهِ حَتَّى يُقِرَّ الْأَمْرَ فِي نِصَابِهِ وَيُفَرِّدَ أَهْلَ يَتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافِعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ الْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ

الأمير أو أشد لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل
العصية بأجمعهم وهذا يدافع الأقارب لا يظهره على مدافعتهم إلا الأقل من
الأبعد فيزكب صعبا من الأمر. الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات
الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت
فيستفرغ وسعته في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها
وتشديد العبادي والحائلة والمصانع العظيمة والأمنار المتسعة والهيكل المرتفعة
وإجازة الوفود من أشراف الأمم وجوه القبائل وبث المعروف في أهله هذا مع
التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وإدراج
أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم إكل ملال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملاسيهم
وشكبيهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويهرب الدول المحاربة
وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من انحجاب الدولة لأنهم في هذه الأطوار كلها
مستقلون بآرائهم بأنون يعزيم موضحون الطرق لمن بعدهم. الطور الرابع طور
القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه سالما لأنظاره
من الملوك وأقواله مقلدا للماضين من سلفه فيتبع آثارهم حدو النعل بالنعل ويقتفي
طريقهم بأحسن مناهج الاقتداء ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم
أبصر بما بنوا من مجده. الطور الخامس طور الأسراف والتبذير ويكون صاحب
الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على
بطانته وفي مجالسه واضطناع أخذان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الأمور
التي لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسد الكبار الأولياء
من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيقا من جنده
بما أنفق من أعطياتهم في شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون تغربا
لما كان سلفه يؤسسون وهادما لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة
الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه
برء إلى أن تنقرض كما نبينه في الأحوال التي نسردها والله خير الوارئين

الفصل الثامن عشر

في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلًا وَعَلَى قَدَرِهَا
يَكُونُ الْأَثَرُ فَمِنْ ذَلِكَ مَبَانِي الدَّوْلَةِ وَمَبَا كُلِّهَا الْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ
الدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لَا تَنِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ وَاجْتِمَاعِ الْأَيْدِي عَلَى الْعَمَلِ بِالتَّعَاوُنِ
فِيهِ فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةُ الْجَوَابِبِ كَثِيرَةٌ أَلْمَالِكُ وَالرَّعَايَا كَانَ الْفَعْلَةُ
كَثِيرِينَ جِدًّا وَحُشِرُوا مِنْ آفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَفْطَارَهَا فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ مَبَا كُلِّهَا لَا تَرَى
إِلَى مَصَانِعِ قَوْمٍ عَادٍ وَثُمُودَ وَمَا قَصَدُ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا وَانْظُرْ إِلَى الْمَشَاهِدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى
وَمَا أَقْتَدَرَ فِيهِ الْفَرَسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيْبِهِ فَتَحْكَاءُ عَنْهُ وَشَرَعَ
فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْعَجْزُ وَفِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ لِيَجْعَلَ ابْنُ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةً فَأَنْظُرْ كَيْفَ
تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ الْهَدْمِ وَالْبِنَاءِ فِي السُّهُلَةِ
تَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ وَانْظُرْ إِلَى بِلَاطِ الْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ
بِقَرْطَبَةٍ وَالْقَنْظَرَةِ الَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْحَنَابَا لِلْجَلْبِ الْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَنَةِ فِي
الْفَنَاءِ الرَّابِجَةِ عَلَيْهَا وَآثَارِ شَرْشَالٍ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَهْرَامِ بِمِصْرَ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَثَارِ
الْمَائِلَةِ لِلْعِيَانِ يُعَلِّمُ مِنْهُ اخْتِلَافَ الدُّوَلِ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ وَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالَ
الْأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِإِهْنَادَامِ وَاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثْرَةِ الْأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذَلِكَ شُيِّدَتْ
تِلْكَ الْهَيَاكِلُ وَالْمَصَانِعُ وَلَا تَتَوَهَّمُ مَا تَوَهَّمُ الْعَامَّةُ أَنَّ ذَلِكَ لِعِظَمِ أَجْسَامِ الْأَقْدَمِينَ
عَنْ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَفْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ كَبِيرُ بَوْنٍ كَمَا نَجِدُ بَيْنَ
الْهَيَاكِلِ وَالْأَثَارِ وَأَقْدَ وَلِغِ الْقُصَاصِ بِذَلِكَ وَتَغَالَوْا فِيهِ وَسَطَرُوا عَنْ عَادٍ وَثُمُودَ وَأَعْمَالِقَةَ
فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا عَرَبِيَّةً فِي الْكَذِبِ مِنْ أَغْرِبِهَا مَا يَحْكُونُ عَنْ عُوجِ بْنِ عِنَاقٍ الرَّجُلِ
مِنَ الْعَمَالِقَةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَطُولُهُ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ
مِنَ الْبَحْرِ وَيَشْوِيهِ إِلَى الشَّمْسِ وَيَزِيدُونَ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِ الْجَهْلِ بِأَحْوَالِ
الْكَوَاكِبِ لِمَا أَعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ

(١) قوله ابن عناق الذي في التماموس في باب المجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس
عنى بالنون له نصر الموريني

انَّ الْحَرَّ هُوَ الضَّوُّهَ وَانَّ الضَّوُّهَ فِيمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ أَكْثَرُ لِأَنَّهُ كَاسِ الْأَشِعَّةِ
 مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ بِمُقَابَلَةِ الْأَضْوَاءِ فَتَضَاعَفُ الْحَرَارَةُ هُنَا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَإِذَا تَجَاوَزَتْ
 مَطَارِحَ الْأَشِعَّةِ الْمُنْعَكِسَةِ فَلَا حَرَّ هُنَاكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ حَيْثُ تَجَارِي السَّحَابُ
 وَانَّ الشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِيٌّ لَا مِزَاجَ لَهُ
 وَكَذَلِكَ عُوجُ بَنِي عِنَاقٍ هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ أَوْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ
 كَانُوا فَرِيسَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمُ الشَّامَ وَأَطْوَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجِسْمَانَهُمْ لِذَلِكَ
 الْعَهْدِ قَرِيبَةٌ مِنْ هَيَاكِلِنَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَإِنَّهَا وَإِنْ خُرِبَتْ
 وَجُدِدَتْ لَمْ تَزَلِ الْحِفَافَةُ عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرُ أَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ
 عُوجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ وَإِنَّمَا مَثَارُ غَلْطِهِمْ فِي هَذَا أَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوا آثَارَ
 الْأَمْرِ وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ الدُّوَلِ فِي الْأَجْتِمَاعِ وَالْتِمَاعِ وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ وَبِالْهِنْدَامِ مِنَ
 الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ الْأَجْسَامِ وَشِدَّتِهَا بِعِظَمِ هَيَاكِلِهَا وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ
 وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُودِيُّ وَنَقَلَهُ عَنِ الْفَلَّاسِيفَةِ مَزْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ وَهُوَ أَنَّ
 الطَّبِيعَةَ الَّتِي هِيَ جَبَلَةٌ لِلْأَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَانَتْ فِي تَمَامِ الْكُرَّةِ وَنِهَايَةِ الْقُوَّةِ
 وَالْكَمَالِ وَكَانَتْ الْأَعْمَارُ أَطْوَلَ وَالْأَجْسَامُ أَقْوَى لِكَمَالِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ فَإِنْ طُرُوهُ
 الْمَوْتِ إِنَّمَا هُوَ بِانْحِلَالِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةٌ كَانَتْ الْأَعْمَارُ أَزِيدَ فَكَانَ
 الْعَالَمُ فِي أَوَّلِيَّةِ نَشَأَتِهِ تَامَ الْأَعْمَارُ كَامِلَ الْأَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنُقْصَانِ الْمَادَّةِ
 إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَنَاقَصُ إِلَى وَقْتِ الْإِنْحِلَالِ
 وَانْقِرَاضِ الْعَالَمِ وَهَذَا رَأْيٌ لَا وَجْهَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ كَمَا تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ
 وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ وَنَحْنُ نَشَاهِدُ مَسَاكِينَ الْأَوَّلِينَ وَأَبْوَابَهُمْ وَطُرُقَهُمْ فِيمَا أَخَذُوهُ مِنْ
 الْبُنْيَانِ وَالْهَيَاكِلِ وَالذِّبَارِ وَالْمَسَاكِينِ كَدِيَارِ ثَمُودَ الْمَنْحُوتَةِ فِي الصَّلْدِ مِنَ الصَّخْرِ يُوتَا
 صِغَارًا وَأَبْوَابُهَا ضَيِّقَةٌ وَقَدْ أَشَارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنَّهَا دِيَارُهُمْ وَنَهَى عَنْ اسْتِعْمَالِ
 مِيَاهِهِمْ وَطَرَحَ مَا عَجَنَ بِهِ وَأُهْرِقَ وَقَالَ لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا
 أَنْ تَكُونُوا بِأَكِينٍ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ وَكَذَلِكَ أَرْضُ عَادَ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَسَائِرُ
 بَقَاعِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا وَالْحَقُّ مَا قَرَزْنَاهُ وَمِنْ آثَارِ الدُّوَلِ أَيْضًا حَالُهَا فِي الْأَعْرَاسِ
 وَالْوَلَايِمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وَلِيمَةِ بُورَانَ وَصَنِيعِ الْحَجَّاجِ وَأَبْنِ ذِي النُّونِ وَقَدْ مَرَّ

ذَلِكَ كُلُّهُ وَمِنْ آثَارِهَا أَيْضًا عَطَايَا الدُّوَلِ وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَيُظْهَرُ ذَلِكَ
 فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْهَرَمِ فَإِنَّ الْهَجْمَ الَّتِي لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ
 وَعَلَيْهِمْ لِلنَّاسِ وَالْهَجْمُ لَا تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِجَوَائِزِ
 ابْنِ ذِي يَزَنٍ لَوْفِدِ قُرَيْشٍ كَيْفَ أُعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَعْبَدِ
 وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا وَمِنْ كَرِشِ الْعَبَرِ وَاحِدَةً وَأَضَعَفَ ذَلِكَ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهِ
 لِعَبْدِ الْمُطَلَبِ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةٌ الْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ اسْتِبدَادِ فَارِسٍ وَإِنَّمَا حَمَلَهُ
 عَلَى ذَلِكَ هِمَّةُ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ التَّابِعَةِ مِنَ الْمُلْكِ فِي الْأَرْضِ وَالْعَلْبِ عَلَى الْأُمَمِ
 فِي الْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ وَكَانَ الصَّنَاجِيرُونَ بِأَفْرِيقَةٍ أَيْضًا إِذَا أُجَازُوا الْوَفْدَ مِنْ
 أُمَرَاءِ زَنَانَةِ الْوَافِدِينَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا يُعْطَوْنَهُمُ الْمَالُ أَحْمَالًا وَالْكِسَاءُ نُخُونًا تَمْلُوءُ
 وَالْحِمَالَتِ جَنَائِبَ عَدِيدَةٍ وَفِي تَارِيخِ ابْنِ الرِّقْبِيِّ مِنْ ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ
 كَانَ عَطَاةَ الْبَرَامِكَةِ وَجَوَائِزُهُمْ وَتَقَاتُيُهُمْ وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْدِمًا فَإِنَّمَا هُوَ الْوَلَايَةُ
 وَالنِّعْمَةُ آخِرَ الدَّهْرِ لَا الْعَطَاةَ الَّذِي يَسْتَنْفِدُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ
 كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسْبَةِ الدُّوَلِ جَارِيَةٌ هَذَا جَوْهَرُ الصِّقْلِيِّ الْكَاتِبِ
 قَائِدُ جَيْشِ الْعَبِيدِيِّينَ لَمَّا أَرْتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ اسْتَعَدَّ مِنَ الْفَقِيرَوَانِ بِأَلْفِ حِمْلِ مِنَ
 الْمَالِ وَلَا تَنْتَهِي الْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَكَذَلِكَ وَجَدَ بِخَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ
 عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يَحْمِلُ إِلَى يَتِ الْمَالِ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ الْعَامُونَ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي
 نَقَلَتْهُ مِنْ جَرَابِ الدَّوْلَةِ (غلات السواد) سَبْعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ
 وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْحَالِ النُّجْرَانِيَّةِ مِائَتًا حِلَّةً وَمِنْ طِينِ الْحِمْ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ
 رِطْلًا (كُكْر) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ (كورد جلة)
 عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَّةُ دِرْهَمٍ (حلوان) أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ
 وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ (الاهواز) خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً وَمِنْ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ
 أَلْفَ رِطْلٍ (فارس) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ
 قَارُورَةٍ وَمِنْ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (كرمان) أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفٍ
 دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَا أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسِمِائَةَ ثَوْبٍ وَمِنْ التَّمْرِ عِشْرُونَ
 أَلْفَ رِطْلٍ (مَكْران) أَرْبَعُمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّةً (السند وما يليه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ

ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلاً
 (مجستان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلثمائة ثوب ومن
 الفانيذ عشرون رطلاً (خراسان) ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن نقر
 الفضة ألفا نقرة ومن البراذين أربعة آلاف ومن الرقيق ألف رأس ومن المتاع
 عشرون ألف ثوب ومن الإهاب ثلثون ألف رطل (جرجان) اثنا عشر ألف
 ألف درهم مرتين ومن الإبريسم ألف شقة (فوس) ألف ألف مرتين وخمسمائة
 من نقر الفضة (طبرستان والروبان ونهاوند) ستة آلاف ألف مرتين وثلاثمائة ألف
 ومن الفرش الطبري ستمائة قطعة ومن الأكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب
 ومن المناديل ثلاثمائة ومن الجلمات ثلاثمائة (الري) اثنا عشر ألف ألف درهم
 مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل (همدان) أحد عشر ألف ألف درهم
 مرتين وثلاثمائة ألف ومن رب الرمان ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف رطل
 (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم
 (ماسبدان والدينار^(١)) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (شهرزور) ستة آلاف
 ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم (الموصل وما يليها) أربعة وعشرون ألف
 ألف درهم مرتين ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل (اذريجان) أربعة
 آلاف ألف درهم مرتين (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف
 ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس ومن العسل اثنا عشر ألف رطل ومن
 البزاة^(٢) عشرة ومن الأكسية عشرون (ارمينية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم
 مرتين ومن البسط^(٣) الخمسون عشرون ومن الزم خمسمائة وثلاثون رطلاً ومن
 المسايح السور ما هي عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن
 البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون (قدس بن) أربعمائة ألف دينار ومن الزيت ألف
 حمل (دمشق) أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار (الأردن) سبعة
 وتسعون ألف دينار (فلسطين) ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن

(١) قوله والدينار والظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية ماسبدان وريمان اه (٢) قوله ومن

البزاة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه (٣) وفي نسخة الفسطاط

الزيت ثلاثمائة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون
 ألف دينار (برقة) ألف ألف درهم مرتين (أفريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم
 مرتين ومن البسط مائة وعشرون (اليمن) ثلاثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار
 سوى المتاع (الحجاز) ثلاثمائة ألف دينار انتهى . وأما الأندلس فألذي ذكره
 الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خات في يوت أمواله خمسة آلاف ألف
 ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف فنطار .
 ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن النعمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف
 فنطار وخمسمائة فنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا
 تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملقط
 المستكنات فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة
 بأدب بالإنكار وليس ذلك من الصواب فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن
 أدرك منها رتبة سئلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن إذا اعتبرنا ما
 ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين وناسبتنا الصحيح من ذلك والذي
 لا شك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقول بالنسبة إليها وجدنا بينها بونا
 وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها فالأثار كلها جارية على
 نسبة الأصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا إنكار ذلك عنها إذ كثير من هذه
 الأحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها
 المعاین والمشاهد من آثار البناء وغيره فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول
 في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية
 المستظرفة وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين
 رجل من مشيخة طنجة يعرف بأبن بطوطة^(١) كان رحل منذ عشرين سنة قبلها
 إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك
 الهند وهو السلطان محمد شاه وأصل بمالكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه
 مكان واستعمله في خطة القضاء بذهب المالكية في عمله ثم انقلب إلى المغرب

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانه اوما سنة ٧٥٤ وفي عجيبة ومختصرها ٧ كرار بس اه

وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عَنَانَ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رِحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنْ أَعْجَابِ
بِمَالِكِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْهِنْدِ وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ
بِمَا يَسْتَعْرِبُهُ السَّامِعُونَ مِثْلَ أَنَّ مَلِكَ الْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى السَّيْرِ أَحْضَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّهُ
عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْزُرُ فِيهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى مَخْرَاجِ الْبَلَدِ
وَيَطُوفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ مَنَاجِيْقَاتٌ عَلَى الظَّهْرِ تُرَى بِهَا شَمَكَاثُ
الدَّرَاهِمِ وَالْدَّنَانِيرِ عَلَى النَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ إِيَّوَانُهُ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَتَنَاحِي
النَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَبَامُذِي وَزَيْرَ السُّلْطَانِ فَارِسَ بْنِ وَرْدَارَ الْبَعِيدِ الصَّبِ
فَقَاوَضْتُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لِمَا اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ
مِنْ تَكْذِيبِهِ فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ فَارِسُ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكَرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الدُّوَلِ
بِمَا أَنْتَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَ كَكُنْ الْوَزِيرِ النَّاشِئِ فِي السِّجْنِ وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا اعْتَقَلَهُ
سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي السِّجْنِ سِنِينَ رَجَبِي فِيهَا أَبْنَاهُ فِي ذَلِكَ الْحَبْسِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ
سَأَلَ عَنِ اللَّحْمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْغَنَمِ فَقَالَ وَمَا الْغَنَمُ فَيَصِفُهَا
لَهُ أَبُوهُ بِشِبَاهِهَا وَنُعُوتِهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ الْفَارِ فَيُنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ الْغَنَمُ
مِنَ الْفَارِ وَكَذًا فِي لَحْمِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ إِذْ لَمْ يُعَايِنِ فِي تَحْسِيسِهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا الْفَارَ
فَيَحْسِبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءَ جِنْسِ الْفَارِ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي النَّاسَ فِي الْأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِيهِمْ
الْوَسْوَاسُ فِي الزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ الْأَغْرَابِ كَمَا قَدَّمَ نَاهُ أَوَّلَ الْكِتَابِ فَلْيَرْجِعْ
الْإِنْسَانُ إِلَى أَصُولِهِ وَلْيَكُنْ مَبْنِيًّا عَلَى نَفْسِهِ وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ الْإِمْكَانِ وَأَنَّهُ مُتَنَبِّعٌ
بَصَرِيحٌ عَقْلُهُ وَمُسْتَقِيمٌ فِطْرَتُهُ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ الْإِمْكَانِ قَبْلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفَضَهُ
وَلَيْسَ مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ الْعَقْلِيَّ الْمَطْلُوقَ فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلَا يُفَرِّضُ حَدًّا بَيْنَ
الْوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ الَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّيْءِ
وَجِنْسَهُ وَصِنْفَهُ وَمِقْدَارَ عِظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجَرَيْنَا الْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ عَلَى أَحْوَالِهِ
وَحَكَمْنَا بِالْإِمْتِنَاعِ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصيته بالموالي والمصطنعين
اعلم ان صاحب الدولة إنما يتيم أمره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهرأؤه
على شأنه وبهم يفارغ الخوارج على دولته ومنهم يقلد أعمال مملكتيه ووزارة دولته
وحياة أمواله لأنهم أعوانه على القلب وشركاؤه في الأمر ومساهمونه في سائر مهماته
هذا ما دام الطور الأول للدولة كما قلناه فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد
عنهم والافتراد بالتجديد ودافعهم عنه بالمراح صاروا في حقيقة الأمر من بعض
أعدائه واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من
غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب إليه من سائرهم
وأخص به قرباً وأصطناعاً وأولى إيثارة وجاهاً لئلا أنهم يستميتون دونه في مدافعة
قومه عن الأمر الذي كان لهم والرغبة التي انموا في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب
الدولة ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثارة ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم
جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والحياة وما يخص به لنفسه وتكون
خاصة له دون قومه من ألقاب المملكة لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه
المخلصون وذلك حينئذ مؤذن بأهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها الفساد
العصبي التي كان بناء القلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الإمتنان وغداوة
السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع
في برئها من هذا الداء لأنه ما مضى بتأكد في الأعقاب إلى أن يذهب رسمها واعتبر
ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولايات أعمالهم
برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زياد بن أبي سفيان
والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة
وموسى بن نصير وإبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار ومثاليهم
من رجال آل العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضاً
برجال آل العرب فلما صارت الدولة للافتراد بالتجديد وكبح العرب عن التطاول
للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني

طَاهِرٌ ثُمَّ بَنِي بُوَيْهِ وَمَوَالِي التُّرْكِ مِثْلَ بَغَا وَوَصِيفٍ وَآلِ مِشَ وَبَا كِنَاكَ وَأَبْنِ طُولُوتَ
وَأَبْنَائِهِمْ وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لِغَيْرِ مَنْ مَهْدَهَا وَالْعِزُّ لِغَيْرِ مَنْ
اجْتَلَبَهُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في احوال الموالى والمصطنعين في الدول

إِغْلَمْ أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ
قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْعَصَبِيَّةِ مِنَ
الْمُدَافَعَةِ وَالْمُقَابَلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ لِأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى وَالْتِحَاضِلِ
فِي الْأَجَانِبِ وَالْبُعْدَاءِ كَمَا قَدَّمَاهُ وَالْوِلَايَةُ وَالْمُخَالَفَةُ بِالرِّقِّ أَوْ بِالْحِلْفِ لِنَزَلِ مَنْزِلَةِ
ذَلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَالْمَعْنَى الَّذِي كَانَ بِهِ الْإِلْتِحَامُ
إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطُولُ الْمَارَسَةِ وَالصُّحْبَةُ بِالْمَرْبِيِّ وَالرِّضَاعُ وَسَائِرُ
أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ الْإِلْتِحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ الثَّغَرَةُ وَالتَّنَاصُرُ وَهَذَا مُشَاهِدٌ
بَيْنَ النَّاسِ وَأَعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي الْأَصْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يُعَدُّ بَيْنَ الْمُصْطَنَعِ وَمَنْ أَصْطَنَعَهُ نِسْبَةً
خَاصَّةً مِنَ الْوَصْلَةِ لِنَزَلِ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ وَتَوْكِدِ اللَّحْمَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَشَرَابُ
النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوِلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْمُلْكِ
لَهُمْ كَانَتْ عُرُوفَهَا أَوْشَجَ وَعَقَائِدُهَا أَمَحَّ وَنَسَبُهَا أَمْرَحَ لَوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ
الْمُلْكِ أَسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ الْوِلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقْلِ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ
مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا أَصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمُلْكِ كَانَتْ مَرَاتِبُهُ
الْمُلْكِ مُتَمَيِّزَةً لِلْسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى وَلِأَهْلِ الْقَرَابَةِ عَنِ أَهْلِ الْوِلَايَةِ وَالْإِصْطِنَاعِ لِمَا
لِقَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ تَمَيُّزِ الرُّتَبِ وَتَفَاوُثِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ
مَنْزِلَةَ الْأَجَانِبِ وَيَكُونُ الْإِلْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أَوْضَعَفَ وَالتَّنَاصُرُ لِذَلِكَ أَوْضَعَفَ وَذَلِكَ أَنْقَصُ
مِنَ الْأَصْطِنَاعِ قَبْلَ الْمُلْكِ . الْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّ الْأَصْطِنَاعَ قَبْلَ الْمُلْكِ يَبْعُدُ عَنْهُ عَنِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطُولِ الزَّمَانِ وَيُخْفِي شَأْنَ تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النَّسَبُ
فَيَقْوَى حَالُ الْعَصَبِيَّةِ وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ
اللَّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ النَّسَبِ فَتَضَعُ الْعَصَبِيَّةُ بِالنَّسَبِ إِلَى الْوِلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ

الدَّوْلَةَ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ وَالرَّئِيسَاتِ تَجِدُهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ
الرَّئِيسَةِ وَالْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ اتِّحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةٌ
أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ أَصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ وَالرَّئِيسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ
لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللَّحْمَةِ مَا لِلأَوَّلِينَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى إِنْ الدَّوْلَةَ فِي
آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَأَصْطِنَاعِهِمْ وَلَا يَبْنِي لَهُمْ تَجَدُّ كَمَا بَنَاهُ
الْمُصْطَنِعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوْلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْإِنْقِرَاضِ
فَيَكُونُونَ مَنْحَطِينَ فِي مَهَاوِي الضَّعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَلَى أَصْطِنَاعِهِمْ
وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَاءِهَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِبُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ
الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَقِلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرُهُ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لَتَأْكُثِرُ
اللَّحْمَةُ مِنْهُ الْعُصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبَى وَالْإِتِّصَالِ بِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالْإِنْتِظَامِ مَعَ
كِبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِزَازٌ فَيَنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ
وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِغْلَاذِهِمْ وَأَصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا فَلَا
يَبْلُغُونَ رُتَبَ الْحِجْدِ وَيَبْقُونَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي آخِرِهَا
وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ أَمَمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُخْدَثُونَ فَتَقْدَمُ
وَأَعْوَانُ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمُنْتَبِتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ
وَأَتَفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ
فَرُبَّمَا حَدَثَ التَّغْلُبُ عَلَى الْمُنْصَبِ مِنْ وَزَرَانِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبِهِ فِي الْأَكْثَرِ وِلَايَةُ
صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمُنْتَبِتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بَعْدَ أَبِيهِ أَوْ يَتَرَشَّحُ ذَوِيهِ
وَحَوْلِهِ وَيُوْتَسُّ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وَزَرَاءِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ
وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُورَثِي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُوْتَسَّ مِنْهُ الْإِسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذَلِكَ
ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْبُبُ الصَّبِيَّ عَنِ النَّاسِ وَيُعَوِّدُهُ إِلَيْهَا تَرْفُ أَوْ خَوَالِهِ وَيَسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهَا
مَتَى أَمْكَنَهُ وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ

أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ الصَّنَقَةِ وَخِطَابُ التَّهْوِيلِ وَالْقُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحُلَّ وَالرَّبْطَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَبِأَمْرِهِ الْأَحْوَالِ الْمُلُوكِيَّةُ وَتَفْقُدهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَيْشِ وَالْمَالِ وَالثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَبُسْمٌ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةَ الرِّئَاسَةِ وَالْأَسْتِبْدَادِ وَيَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤْتَرَ بِهِ عَشِيرَتُهُ وَأَبْنَاءُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْهِ وَالتُّرْكِ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ وَقَدْ يَتَفَقَّحُونَ ذَلِكَ الْحَجَّجُورُ الْمُغْلَبُ لِشَأْنِهِ فَيَحَاوِلُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ الْحَجَرِ وَالْأَسْتِبْدَادِ وَيُرْجِعُ الْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا بِقَتْلِ أَوْ بِرَفْعٍ عَنِ الرُّتْبَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي النَّادِرِ الْأَقْلِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخْنَتْ فِي تَغْلِبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّتْ لَهَا ذَلِكَ وَقَدْ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ الْمُلْكِ مُنْعَمِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرُّجُولَةِ وَأَلْفُوا أَخْلَاقَ الدَّيَّاتِ وَالْأَظْأَارِ وَرَبَّوْا عَلَيْهَا فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ وَلَا يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَادًا مِنْ تَغْلِبِ إِنَّمَا هُمْ فِي الْقَنُوعِ بِالْأَبْهَةِ وَالنَّفْسِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَالْمُضْطَّاعِينَ عِنْدَ اسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمُلْكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَأَنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ خَرُورِي كَمَا قَدْ مَنَاهُ وَهَذَانِ مَرَضَانِ لَا بُرءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَا يَكُونُ مِنْ يَشَاءَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

الفصل الثاني والعشرون

في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك وذلك أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِ مِنْ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بَعْضِيَّةٌ قَوْمِيَّةٌ وَعَصَبِيَّةٌ الَّتِي اسْتَتَبَعَتْهُمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ الْمُلْكِ وَالتَّغْلِبِ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا أَمُحَفَظَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا وَهَذَا الْمُتَغْلِبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ الْمُلْكِ أَوْ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدرِجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ الْمُلْكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمُلْكِ وَهُوَ لَا يَحَاوِلُ فِي اسْتِبْدَادِهِ أَنْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ يَوْمَ فِيهَا أَهْلُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ مُنْغِذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ الْمُلْكِ وَشَارَاتِهِ

وَأَلْقَاهُ جُنْدَهُ وَبُعِدَ نَفْسُهُ عَنِ التَّهْمَةِ بِذَلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الْأَسْتَبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَرِدٌّ فِي
 اسْتَبْدَادِهِ ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي ضَرَبَهُ السُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مِنْذُ
 أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَمُخَالِطَةً عَنْهُ بِالنِّيَابَةِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَنَفَسَتْ^(١) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ
 وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الْأَسْتِثَارَ بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكَمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِبْغَةٌ تَحْمِلُهُمْ
 عَلَى التَّسَامِيحِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ فِيهِ لِكُلِّ أَوَّلٍ وَهَلَةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِرِ
 بْنِ مَنصُورٍ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلِي بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَةِ وَلَمْ
 يَقْنَعْ بِمَا قَنِعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ الْأَسْتَبْدَادِ بِالْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالرَّاسِمِ الْمُتَتَابِعَةِ فَطَلَبَ
 مِنْ هِشَامٍ خَائِنَتِهِ أَنْ يَعْبُدَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فَذَفَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بَنُومَرَوَانَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا
 لِابْنِ عَمِّ الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْجُبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ
 خَرَابٌ دَوْلَةِ الْعَامِرِ بَيْنَ وَهْلَاكِ الْمُؤَيَّدِ خَلِيفَتِهِمْ وَأَسْتَبْدِلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَغْيَاصِ الدَّوْلَةِ
 إِلَى آخِرِهَا وَأَخْتَلَّتْ مَرَامِيهِمْ مَلِكِيَّتُهُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك واصنافه

الْمَلِكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ يَبِينُ أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمَكِّنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودَهُمْ
 إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوَّتِهِمْ وَضَرُورِ بَاتِهِمْ وَإِذَا اجْتَمَعُوا دَعَتْ الْضَرُورَةُ
 إِلَى الْمُعَامَلَةِ وَاقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ وَمَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ بِأَخْذِهَا مِنْ
 صَاحِبِهَا لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُمَانِعُهُ الْآخَرُ
 عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْإِنْفَةِ وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ فَيَقَعُ التَّنَازُعُ الْمُفْضِي
 إِلَى الْمُقَاتَلَةِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى الْخُرْجِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ النَّفْسِ الْمُفْضِي ذَلِكَ إِلَى
 انْقِطَاعِ النَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي سُجَّانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ فَاسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوُضِيَ دُونَ
 حَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَاحْتِاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوِازِعِ وَهُوَ الْحَاكِمُ
 عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُتَحَكِّمُ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ
 الْعَصِيَّةِ لِمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالِبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَنِي إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ وَهَذَا الْمَلِكُ
 كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ لَتَوَجُّهُ نَفْخُوهُ الْمُطَالِبَاتِ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْمُدَافَعَاتِ وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكرر الفاء يقال نفس علبو الشيء كفرج لم يره املاً له كذا في القاموس

مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغْلِبٌ عَلَى مَنْ يَكِلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرَتِهَا وَلَيْسَ الْمَلِكُ لِكُلِّ عَصَبِيَّةٍ وَإِنَّمَا الْمَلِكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ وَيَحْتَجِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِي الثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَذَا مَعْنَى الْمَلِكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصَرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلَ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ بَعَثِ الْبُعُوثِ فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَكُنْ حَقِيقَتُهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَعَالِيَةِ بِالْقَبْرِوَانِ وَلِلْمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدْرُ الدَّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَمَنْ قَصَرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضًا عَنِ الْإِسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمٌ غَيْرُهُ فَهُوَ أَيْضًا مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَكُنْ حَقِيقَتُهُ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ يَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ هَذَا فِي الدَّوَلَةِ الْمُتَّسِعَةِ النَّطَاقِ أَعْنِي تُوْجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوَلَةِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلَ صَنْهَاجَةٍ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ وَزَنَاتَةَ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ تَارَةً وَالْعَبِيدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلَ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِثْلَ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ مِنَ الْفُرْسِ مَعَ الْأَسْكَندَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ فَاعْتَبِرْهُ تَجِدُهُ وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

الفصل الرابع والعشرون

في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر

إِعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عِظَمِ جِسْمَانِهِ أَوْ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جُودَةِ خَطِّهِ أَوْ ثِقُوبِ ذَهَبِهِ وَإِنَّمَا مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا ضَافِيَةً وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبِينَ لِحَقِيقَةِ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمُ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ وَالرَّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَلَكَةَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الْجُودَةِ بِمَكَانٍ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ وَالْأَكَاثِمُ وَيَعُودُ حُسْنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرِّفْقِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ مُنْقِبًا عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ شَمَلَهُمْ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَلَا ذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ

وَالْخَدِيعَةَ فَتَخَلَّفُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَقَهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ
وَالْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتْ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَلِكَ فَتَنَسَدَ الدَّوْلَةُ
وَيَغْرَبَ السِّيَاحُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهَرُهُ فَسَدَتِ الْعَصِيَّةُ لِمَا قَانَاهُ أَوَّلًا وَفَسَدَ السِّيَاحُ
مِنْ أَصْلِهِ بِالْعَجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ أَسْتَنَامُوا إِلَيْهِ
وَلَا ذُوَابِهِ وَأَشْرَبُوا تَحْتَهُ وَأَسْتَمْتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَأَسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَالِكَةِ فَعِي النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا
تَبِينُ حَقِيقَةُ الْمَلِكِ وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جُدَّةِ الرَّفْقِ بِهِمْ وَالنَّظَرِ
لَهُمْ فِي مَعَايِهِمْ وَهِيَ أَصْلُ كِبَرٍ مِنَ التَّعَبُّبِ إِلَى الرَّعِيَّةِ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَلَمًا تَكُونُ مَلِكَةٌ
الرَّفْقُ فِي مَنْ يَكُونُ بَقْطًا شَدِيدَ الذِّكَاءِ مِنَ النَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الرَّفْقُ فِي
الْغُلِّ وَالْمُتَغَلِّ وَأَقْلُ مَا يَكُونُ فِي الْبَقْطِ لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ الرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوزِ
نَظَرِهِ فِيهَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ وَأُطْلِيعَهُ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِيهَا بِالْعَمِيَّةِ فَيَكُونُ
لِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِيرُوا عَلَى سَبَرٍ أضعفكم ومن هذا الباب اشترط الشَّارِعُ
فِي الْحَاكِمِ قَلَّةَ الْإِفْرَاطِ فِي الذِّكَاءِ وَمَا أَخَذَهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ ابْنِ أَبِي سَنِيَّانَ لَمَّا عَزَلَهُ
عُمَرُ عَنِ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلْعَجْزُ أَمْ الْخِيَانَةُ فَقَالَ عُمَرُ لَمْ
أَعَزْلِكَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَتَمِلَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَنِ النَّاسِ فَأَخَذَ مِنْ
هَذَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرَطُ الذِّكَاءِ وَالْكِبَسِ مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَنِيَّانَ وَعُمَرُ
بْنِ الْعَاصِ لَمَّا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَسُوءِ الْمَالِكَةِ وَسَمَلِ الْوُجُودِ عَلَى مَا آتَى فِي
طَبَعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكِبَسَ
وَالذِّكَاءَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي
الْجُمُودِ وَالطَّرْفَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ إِنْسَانِيٍّ وَالنَّحْمُودُ هُوَ التَّوَسُّطُ كَمَا فِي الْكَرَمِ
مَعَ التَّبَذِيرِ وَالْبُخْلِ وَكَذَا فِي الشَّجَاعَةِ مَعَ الْهَوَجِ وَالْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ
الْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكِبَسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمُتَشَبِّهُنَّ
وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ أَنَّهُ الْإِجْتِمَاعُ الْضُرُورِيُّ لِلْبَشَرِ وَمُقْتَضَاهُ التَّغْلِبُ وَالْقَهْرُ
 اللَّذَانِ هُمَا مِنْ آثَارِ الْغَضَبِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْغَالِبِ جَائِزَةً عَنْ
 الْحَقِّ مُجْتَنِبَةً بَيْنَ تَحْتِ يَدَيْهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ لِحَمَلِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْغَالِبِ عَلَى
 مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَمَشَوَاتِهِ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْمَقَاصِدِ مِنَ الْخَلْفِ
 وَالسَّلَفِ مِنْهُمْ فَتَعَسَّرُ طَاعَتُهُ لِذَلِكَ وَتَجِبُ الْعَصِيَّةُ الْمُفْضِيَةُ إِلَى الْهَرَجِ وَالْقَتْلِ فَوَجَبَ
 أَنْ يُرْجَعَ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوَانِينِ سِيَاسِيَّةٍ مَفْرُوضَةٍ يُسَلِّمُهَا الْكَفَافَةُ بِتَقَادُونَ إِلَى أَحْكَامِهَا
 كَمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَإِذَا خَلَّتِ الدَّوْلَةُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ
 لَمْ يَسْتَبِأْ أَمْرُهَا وَلَمْ يَتِمَّ اسْتِبْلَاؤُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فَإِذَا كَانَتْ
 هَذِهِ الْقَوَانِينُ مَفْرُوضَةً مِنَ الْعُقَلَاءِ وَأَكْبَرِ الدَّوْلَةِ وَبُصَرَائِهَا كَانَتْ سِيَاسَةً عَقْلِيَّةً وَإِذَا
 كَانَتْ مَفْرُوضَةً مِنَ اللَّهِ بِشَارِعٍ يُقَرِّرُهَا وَيُسَرِّعُهَا كَانَتْ سِيَاسَةً دِينِيَّةً نَافِعَةً فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِمْ دُنْيَاهُمْ فَقَطْ فَإِنَّهَا كُلُّهَا عِبَثٌ
 وَبَاطِلٌ إِذْ غَايَتُهَا الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَسِبْتُمْ أَنْتُمَا خَلْقْنَاكُمْ عَبَثًا فَأَلْمَقْصُودُ
 بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ دِينُهُمُ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى السَّعَادَةِ فِي آخِرَتِهِمْ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَجَاءَتْ الشَّرَائِعُ بِحَمَلِهِمْ عَلَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ
 عِبَادَةٍ وَمُعَامَلَةٍ حَتَّى فِي الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ طَبِيعِيٌّ لِلْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ فَأَجْرَتُهُ عَلَى
 مِنْهَاجِ الدِّينِ لِيَكُونَ الْكُلُّ مَحْطُوطًا بِنَظَرِ الشَّارِعِ فَمَا كَانَ مِنْهُ يُقْتَضَى الْقَهْرُ وَالتَّغْلِبُ
 وَإِهْمَالُ الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مَرَعَاهَا فَجَوْرٌ وَعُدْوَانٌ وَمَذْمُومٌ عِنْدَهُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى
 الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَمَا كَانَ مِنْهُ يُقْتَضَى السِّيَاسَةُ وَأَحْكَامُهَا مَذْمُومٌ أَيْضًا لِأَنَّهُ نَظَرٌ
 بِغَيْرِ نُورِ اللَّهِ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ لِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ
 الْكَافَّةِ فِيمَا هُوَ مُغَيَّبٌ عَنْهُمْ مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِمْ وَأَعْمَالِ الْبَشَرِ كُلُّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي
 مَعَادِهِمْ مِنْ مُلْكٍ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ
 وَأَحْكَامُ السِّيَاسَةِ إِنَّمَا تُطْلَعُ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا فَقَطْ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ حَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَمَقْصُودُ الشَّارِعِ بِالنَّاسِ صَلَاحُ آخِرَتِهِمْ فَوَجَبَ بِمُقْتَضَى الشَّرَائِعِ حَمْلُ الْكَافَّةِ

عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ وَكَانَ هَذَا الْحُكْمُ لِأَهْلِ الشَّرِيعَةِ
وَمُتَّاعِيهَا وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامُهُمْ وَمُتَّاعِيهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى الْخِلَافَةِ
وَأَنَّ الْمَلِكَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ حَمَلُ الْكَفَاةِ عَلَى مُقْتَضَى الْفَرْضِ وَالشَّهْوَةِ وَالسِّيَاسِيِّ هُوَ حَمَلُ
الْكَفَاةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ فِي جَلْبِ الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ وَالْخِلَافَةُ
هِيَ حَمَلُ الْكَفَاةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الشَّرْعِيِّ فِي مَصَالِحِهِمُ الْآخِرِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ الرَّابِعَةُ
إِلَيْهَا إِذَا أَحْوَالُ الدُّنْيَا تَزَجُّعُ كُلُّهَا عِنْدَ الشَّرْعِ إِلَى أَعْيَانِهَا بِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ فَهِيَ فِي
الْحَقِيقَةِ خِلَافَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ فَأَقْبَلُوا ذَلِكَ
وَأَعْتَبِرُوا فِيهِمَا نُورِدُهُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هَذَا الْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِي حِفْظِ الدِّينِ
وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ تَسْمَى خِلَافَةً وَإِمَامَةً وَالْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةٌ وَإِمَامًا فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا
فَتَشْبِيهًُا بِإِمَامِ الصَّلَاةِ فِي اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَلِهَذَا يُقَالُ الْإِمَامَةُ الْكُبْرَى وَأَمَّا
تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكَوْنِهِ يُخْلَفُ النَّبِيَّ فِي أُمْتِهِ فَيُقَالُ خَلِيفَةُ بِإِطْلَاقٍ وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ
وَأَخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةَ اللَّهِ فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ أَقْبِيَامًا مِنَ الْخِلَافَةِ الْعَامَةِ الَّتِي لِلْإِلَادَةِ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَقَوْلِهِ جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَمَنْعَ
الْجُمْهُورُ مِنْهُ لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِيَ بِهِ وَقَالَ لَسْتُ
خَلِيفَةَ اللَّهِ وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّ الْأَسْتَخْلَافَ إِنَّمَا هُوَ
فِي حَقِّ الْغَائِبِ وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَلَا تَمَّ إِنْ نَصَّبَ الْإِمَامُ وَاجِبٌ قَدْ عُرِفَ وَجُوبُهُ فِي
الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ
وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى يَتَعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَسْلِيمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ وَكَذَا فِي
كُلِّ عَصْرٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَلَمْ تُتْرَكِ النَّاسُ فَوْضَى فِي عَصْرِ مِنْ الْأَعْصَارِ وَأَسْتَقَرَّ ذَلِكَ
إِجْمَاعًا دَالًّا عَلَى وَجُوبِ نَصْبِ الْإِمَامِ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّ مُدْرَكَ وَجُوبِهِ
الْعَقْلُ وَأَنَّ الْإِجْمَاعَ الَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءُ بِحُكْمِ الْعَقْلِ فِيهِ قَالُوا وَإِنَّمَا وَجِبَ
بِالْعَقْلِ لِضَرُورَةِ الْإِجْتِمَاعِ لِلْبَشَرِ وَاسْتِحْجَالِهِ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مُتَفَرِّدِينَ وَمِنْ ضَرُورَةِ

الاجتماع التنازع لأزدحام الأغراض فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى
المرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع
الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب الثبوت في البشر
وقد نبهنا على فسادِه وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم
له الكافة تسلم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك
وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم الجوس وغيرهم ممن ليس له
كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو تقول بكني في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحرير
الظلم عليه بحكم العقل فادعواهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع
هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود
الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم
العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو
الاجتماع الذي قدمناه وقد شد بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا
بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعترلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب
عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم الشرع فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ
أحكام الله تعالى لم يحتاج إلى إمام ولا يجب نصبه هؤلاء يخرجون بالاجتماع
والذي حمائم على هذا المذهب إنما هو الفراق عن الملك ومذاهبه من الاستطالة
والغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بدم ذلك والنعي على أهله
ومرغبة في رفضه وأعلم أن الشرع لم يدم الملك لذاته ولا حظر القيام به وإنما دُم
المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع بالذات ولا شك أن في هذه مفاسد
مخطورة وهي من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب
عنه وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فإذا إنما وقع الدم للملك
على صفة وحال دون حال أخرى ولم يدمه لذاته ولا طلب تركه كما دُم الشهوة
والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكليّة ليدعاه الضرورة إليها وأما
المراد تضريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه
عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده

ثم نقول لهم إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيئاً لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصية والشوكة والعصية مقتضية بطبيعتها للملك فيحصل الملك وإن لم ينصب إمام وهو عين ما قرأتم عنه وإذا تقرر أن هذا النصب واجب بإجماع فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الخواص والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل واختلفت في شرط خامس وهو النسب القرشي فأما اشتراط العلم فظاهر لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكتفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص ولا إمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال وأما العدالة فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه يفسد الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتفاها بالبدع الاعتقادية خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود وإفحام الحروب بصيراً بها كفيلاً بحمل الناس عليها عارفاً بالعصية وأحوال الدماء قوياً على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتذبير المصالح وأما سلامة الخواص والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فحده من الأعضاء في العمل كفقيد اليدين والرجلين والاثنتين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه وإن كان إنما يشين في المنظر فقط كفقيد إحدى هذه الأعضاء فتشترط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجز باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عريان ولا مشاقفة فينتقل النظر في حال هذا المستولي فإن جرى على حكم الدين والعدل وحديد السياسة جاز قراره وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع عنه

حَتَّى يَنْقَضَ فِعْلُ الْخُلَيْفَةِ وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ فَلِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ ذَلِكَ
 وَاجْتِبَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا هَمُّوا يَوْمَئِذٍ بِبَيْعَةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَقَالُوا مِمَّنَّا أَمِيرٌ
 وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ وَبِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ أَوْصَانَا بِأَنْ نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَنَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ وَلَوْ كَانَتْ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ
 لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِكُمْ فَحَبَّوْا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ مِمَّنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ
 وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا هَمُّوا بِهِ مِنْ بَيْعَةِ سَعْدٍ لِذَلِكَ وَثُبَّتْ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ لَا يَزَالُ هَذَا
 الْأَمْرُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ كَثِيرَةٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ
 قُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ عَصَابَتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ وَبِمَا انْتَفَقَتْهُمُ الدَّوْلَةُ فِي سَائِرِ
 أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَجَزُوا بِذَلِكَ عَنْ جَمَلِ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ وَصَارَ الْحُلُّ
 وَالْعَقْدُ لَهُمْ فَاشْتَبِهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى تَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ
 وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرِ فِي ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وُلِّيَ
 عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ذُو زَيْبَةٍ وَهَذَا لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّمثِيلِ
 وَالْفَرْضِ لِلْمُبَالَاغَةِ فِي إِجْبَابِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَمِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى حَذِيفَةَ
 حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ أَوْ لَمَّا دَخَلْتَنِي فِيهِ الظَّنُّ وَهُوَ أَيْضًا لَا يُفِيدُ ذَلِكَ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَذْهَبَ
 الصَّحَابَةِ لَيْسَ بِحُجَّةٍ وَأَيْضًا فَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَعَصَابَةُ الْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي قُرَيْشٍ
 وَهِيَ الْفَائِدَةُ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَلَمَّا اسْتَغْطَمَ عُمَرُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَانَهَا
 مَفْقُودَةً فِي ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ لِتَوْفُرِ شُرُوطِ الْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ حَتَّى مِنَ النَّسَبِ الْمُفِيدِ
 لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا نَذَكُرُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُرَاحَةُ النَّسَبِ قَرَأَهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ إِذِ الْفَائِدَةُ
 فِي النَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصَبِيَّةُ وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنَ الْوَلَاءِ فَكَانَ ذَلِكَ حِرْصًا مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلْعَقُهُ فِيهِ لَأَئِمَّةٌ وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عَهْدَةٌ
 وَمِنَ الْقَائِلِينَ بِتَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ لَمَّا أُدْرِكَ عَلَيْهِ عَصَبِيَّةُ
 قُرَيْشٍ مِنَ التَّلَاشِيِّ وَالْإِضْمِحْلَالِ وَأَسْتَبْدَادِ مُلُوكِ الْعَجَمِ مِنَ الْخُلَفَاءِ فَاسْقَطَ شَرْطَ
 الْقُرَشِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ الْخَوَارِجِ لِمَا رَأَى عَلَيْهِ حَالِ الْخُلَفَاءِ إِعْهَدِهِ وَبَقِيَ
 الْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ بِاشْتِرَاطِهَا وَصَحَّةِ الْإِمَامَةِ لِلْقُرَشِيِّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الْقِيَامِ بِأُمُورِ
 الْمُسْلِمِينَ وَرُدَّ عَلَيْهِمْ سُقُوطُ شَرْطِ الْكِفَايَةِ الَّتِي يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتْ

الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية
تطرق ذلك أيضا إلى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف
الاجتماع. ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه
المذاهب فنقول: إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشد
عليها وتشرع لأجلها ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد
الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصول النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في
المشهور وإن كانت تلك الوصول موجودة والتبرك بها حاصل لكن التبرك ليس من
المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي
المقصودة من مشروعاتها وإذا سبرنا وقسمنا لم نجد إلا اعتبار العصبية التي تكون
بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن
إليه الملة وأهلها وينتظم حبل اللفة فيها وذلك أن قريشا كانوا عصبه مضر وأصاهم
وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف
فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويسكنون إغلبهم فلو جعل الأمر في سواهم
لتوقع افتراق الكلمة بخالفاتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر
أن يردهم عن الخلاف ولا يحكمهم على الكثرة فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة
والشارع يحذر من ذلك حريص على اتفائهم ورفع النزاع والشتات بينهم لتحصل
اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش لأنهم قادرون
على سدوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراؤ منهم فلا يخشى من أحد من خلاف عليهم
ولا فرقة لأنهم كغلبون حينئذ يدفعها ومنع الناس منها فأشترط نسبهم القرشي
في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق
الكلمة وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذن لهم
سائر العرب وأنقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد
كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة
وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والغلب على بطون مضر
من مارس أخبار العرب وسيرهم وتقطن لذلك في أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن إسحاق

فِي كِتَابِ السَّيَرِ وَغَيْرِهِ فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ اشْتِرَاطَ الْقُرْشِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ التَّنَازُعِ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالْغَلَبِ وَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّارِعَ لَا يُخَصُّ الْأَحْكَامَ بِجِيلٍ وَلَا عَصْرِ وَلَا أُمَّةٍ عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكِبَرِيَّةِ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهَا وَطَرَدْنَا الْعِلْمَةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقُرْشِيَّةِ وَهِيَ وُجُودُ الْعَصِيَّةِ فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أُولَى عَصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَالِبَةٍ دَلَى مَنْ مَعَهَا لِعَصْرِهَا لِيَسْتَتَبِعُوا مَنْ سِوَاهُمْ وَتَجْتَمِعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حُسْنِ الْحِمَايَةِ وَلَا يُعْلَمُ ذَلِكَ فِي الْأَفْطَارِ وَالْآفَاقِ كَمَا كَانَ فِي الْقُرْشِيَّةِ إِذِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَوْ كَانَتْ عَامَّةً وَعَصِيَّةُ الْعَرَبِ كَانَتْ وَافِيَةً بِهَا فَغَلَبُوا سَائِرَ الْأُمَمِ وَإِنَّمَا يُخَصُّ لِهَذَا الْعَهْدِ كُلُّ قُطْرٍ بِمَنْ تَكُونُ لَهُ فِيهِ الْعَصِيَّةُ الْغَالِبَةُ وَإِذَا نَظَرْتَ مِرَّاءَ اللَّهِ فِي الْخِلَافَةِ لَمْ تَعُدْ هَذَا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخَلِيفَةَ نَائِبًا عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورِ عِبَادِهِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَبْرُدَهُمْ عَنْ مَضَارِهِمْ وَهُوَ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ وَلَا يُخَاطَبُ بِالْأَمْرِ إِلَّا مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ أَلَا تَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ^(١) فِي شَأْنِ النِّسَاءِ وَأَنْهَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ جُعِلْنَ تَبَعًا لِلرِّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْنَ فِي الْخِطَابِ بِالْوَضْعِ وَإِنَّمَا دَخَلْنَ عَنْدهُ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَكَانَ الرِّجَالُ قَوَّامِينَ عَلَيْهِنَّ اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ فِيهَا قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ فَخِطَابُهُنَّ فِيهَا بِالْوَضْعِ لَا بِالْقِيَاسِ ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِأَمْرِ أُمَّةٍ أَوْ جِيلٍ إِلَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ وَقُلْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ مُخَالَفًا لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إِعْلَمَ أَنَّ الشَّيْعَةَ لُغَةً هُمُ الصَّحْبُ وَالْآتِبَاعُ وَيُطْلَقُ فِي عُرْفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ عَلَى اتِّبَاعِ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَذْهَبِهِمْ جَمِيعًا مُتَّفَقِينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْأِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَفُوضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ وَيَتَعَيَّنُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَعْيِينِهِمْ بَلْ هِيَ رُكْنُ الدِّينِ وَقَاعِدَةُ الْإِسْلَامِ وَلَا يَجُوزُ لِنَبِيِّ إِغْفَالُهُ وَلَا تَقْوِيضُهُ إِلَى الْأُمَّةِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْإِمَامِ لَهُمْ وَيَكُونُ مَعْصُومًا مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ وَإِنْ

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر

عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَيْنَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِنُصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُؤْوِلُونَهَا
 عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ لَا يَعْرِفُهَا جَهَانِدَةُ السُّنَّةِ وَلَا ثَقَلَةُ الشَّرِيعَةِ بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ
 أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرِيقِهِ أَوْ يَبْعِدُ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِمْ الْفَاسِدَةِ وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ النُّصُوصُ عِنْدَهُمْ إِلَى
 جَلِّيٍّ وَخَفِيٍِّّ فَالْجَلِّيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ قَالُوا وَلَمْ تُطَرِّدْ هَذِهِ الْوَلَايَةَ
 إِلَّا فِي عَلِيٍّ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَمِنْهَا قَوْلُهُ أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ
 وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِأَوَّلِي الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتِهِمْ
 بِقَوْلِهِ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوَّلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ وَالْمُرَادُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ وَلِهَذَا
 كَانَ حُكْمًا فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِينَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ مَنْ بَايَعَنِي عَلَى
 رُوحِهِ وَهُوَ وَصِيٌّ وَوَلِيٌّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي فَلَمْ يَبَايَعَهُ إِلَّا عَلِيٌّ وَمِنْ الْخَفِيِّ عِنْدَهُمْ بَعَثَ
 النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي الْمَوَئِمِّ حِينَ أَنْزَلَتْ فَإِنَّهُ بَعَثَ
 بِهَا أَوَّلًا أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْهِ لِيَبْلُغَهُ رَجُلٌ مِنْكَ أَوْ مِنْ قَوْمِكَ فَبَعَثَ عَلِيًّا لِيَكُونَ
 الْقَارِءُ الْمُبْلَغُ قَالُوا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيمِ عَلِيٍّ وَأَيْضًا فَلَمْ يُعْرِفْ أَنَّهُ قَدَّمَ أَحَدًا عَلَى
 عَلِيٍّ وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَدَّمَ عَلَيْهِمَا فِي غَزَاتَيْنِ أَسَامَةَ بْنُ زَيْدٍ مَرَّةً وَعُمَرَ بْنَ الْعَاصِ
 أُخْرَى وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدَلَّةٌ شَاهِدَةٌ بِتَعْيِينِ عَلِيٍّ لِلْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ فَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ
 وَمِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى تَعْيِينِ عَلِيٍّ
 وَتَشْخِصِهِ وَكَذَلِكَ تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْإِمَامِيَّةُ وَيَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخَيْنِ
 حَيْثُ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيًّا وَيَبَايَعُوهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ وَيَغْمِضُونَ فِي إِمَامَتَيْهِمَا وَلَا يُلْتَفَتُ
 إِلَى نَقْلِ الْقَدَحِ فِيهِمَا مِنْ غُلَاتِهِمْ فَهُوَ مَرْدُودٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ
 الْأَدِلَّةَ إِنَّمَا أَقْتَضَتْ تَعْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوَصْفِ لَا بِالشَّخْصِ وَالنَّاسُ مُقَصِّرُونَ حَيْثُ لَمْ يَضَعُوا
 الْوَصْفَ مَوْضِعَهُ وَلَا هُمْ الزَّيْدِيَّةُ وَلَا يَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخَيْنِ وَلَا يَغْمِضُونَ فِي إِمَامَتَيْهِمَا مَعَ
 قَوْلِهِمْ بَأَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُمْ يُجَوِّزُونَ إِمَامَةَ الْمَفْضُولِ مَعَ وُجُودِ الْأَفْضَلِ ثُمَّ
 اخْتَلَفَتْ نَقُولُ هَؤُلَاءِ الشَّيْعَةِ فِي مَسَاقِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلِيٍّ فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وَلَدِ فَاطِمَةَ
 بِالنِّصِّ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى مَا يَذْكُرُ بَعْدُ وَهَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ الْإِمَامِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى
 مَقَالَتِهِمْ بِاشْتِرَاطِ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَعْيِينِهِ فِي الْإِيمَانِ وَهِيَ أَصْلٌ عِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا
 فِي وَلَدِ فَاطِمَةَ لَكِنْ بِالِاخْتِيَارِ مَعَ الشُّيُوخِ وَيَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ عَالِمًا

زَاهِدًا جَوَادًا شَجَاعًا وَيَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ وَهُوَ لَا يَزِيدِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى صَاحِبِ
 الْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطُ وَقَدْ كَانَ يُنَاطَرُ أَخَاهُ مُحَمَّدًا الْبَاقِرَ عَلَى
 اشْتِرَاطِ الْخُرُوجِ فِي الْإِمَامَةِ فَيَلْزِمُهُ الْبَاقِرُ أَنْ لَا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ إِمَامًا
 لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَتَّبِعُ عَلَيْهِ مَذَاهِبَ الْمُعْتَزَلَةِ وَأَخَذَهُ
 إِيَّاهُمَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَلَمَّا نَاطَرَ الْإِمَامِيَّةَ زَيْدًا فِي إِمَامَةِ الشَّيْخَيْنِ وَرَأَوْهُ يَقُولُ
 بِإِمَامَتِهِمَا وَلَا يَتَّبِعُ مِنْهُمَا رَفْضُوهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَبِذَلِكَ سُمُّوا رَافِضَةً وَمِنْهُمْ
 مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيٍّ وَابْنَيْهِ السَّبْطَيْنِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِمَا مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ
 ثُمَّ إِلَى وَلِيِّهِ وَهُمْ الْكَيْسَانِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ وَبَيْنَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ اخْتِلَافَاتٌ
 كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا اخْتِصَارًا وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يُسَمُّونَ الْغُلَاةَ تَجَاوَزُوا حَدَّ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ
 فِي الْقَوْلِ بِاللَّوْهِيَّةِ هُوَلَاءُ الْأَئِمَّةِ إِمَامًا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ أَتَصَنَوُا بِصِفَاتِ الْإِلَهِِيَّةِ أَوْ أَنَّ
 الْإِلَهِ حَلَّ فِي ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةَ وَهُوَ قَوْلٌ بِالْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ النَّصَارَى فِي عِيسَى صَلَوَاتُ
 اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَّقَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ وَمَخْطَأُ
 مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْهُ فَصَرَّحَ بِإِعْنَتِهِ وَالْبَرَاءَةِ
 مِنْهُ وَكَذَلِكَ فَعَلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلُ هَذَا عَنْهُ وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ الْإِمَامِ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ فَإِذَا مَاتَ انْتَقَلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ
 إِيكُونُ فِيهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلٌ بِالتَّنَاسُخِ وَمِنْ هُوَلَاءِ الْغُلَاةِ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ
 مِنَ الْأَئِمَّةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يَعْينُ لِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَهُوَ لَا يَزِيدِيَّةُ
 فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَسْتَشْهَدُونَ لِذَلِكَ
 بِقِصَّةِ الْخَضِرِ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي السَّمَاءِ وَالرَّعْدُ صَوْتُهُ
 وَالْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلٍ رَضَوِي مِنْ أَرْضِ
 الْحِجَازِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ

وَلَا إِلَهَ إِلَّا الْحَقُّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ	إِلَّا إِنْ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ
هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَاءٌ	عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ
وَسَبْطُ غَيْبَتِهِ كَرَبْلَاهُ	فَسَبْطُ سَبْطِ إِيْمَانٍ وَبَرٍّ
يَقُودُ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللَّوَاهُ	وَسَبْطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى

تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ
 وَقَالَ مِثْلَهُ غُلَاةُ الْأِمَامِيَّةِ وَخُصُوصًا الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ
 أَيْمَتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ وَيَلْقَبُونَهُ الْمَهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ بِدَارِهِمْ
 فِي الْحِلَّةِ وَتَغَيَّبَ حِينَ اعْتَقِلَ مَعَ أُمِّهِ وَغَابَ هُنَاكَ وَهُوَ يُخْرَجُ آخِرَ الزَّمَانِ فَيَسْلُكُ الْأَرْضَ
 عَدَلًا يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ فِي الْمَهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى
 الْآنَ يَنْتَظِرُونَهُ وَيَسْمُونَهُ الْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ وَيَقِفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِيَابِ
 هَذَا السِّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مَرْكَبًا فِيهِتِفُونَ بِأَسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ
 ثُمَّ يَنْفَضُونَ وَيُرْجَتُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ
 الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذَلِكَ بِمَا
 وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَقَتِلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى
 طَرِيقِ الْعَجِزَةِ وَلَا يَصِحُّ الْأَسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدُ
 الْحَمِيرِيُّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدَالٌ وَعَلَّلَهُ الْمَوَاشِطُ بِالْخِضَابِ
 فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَتِهِ وَأَوْدَى فَقُمْ بِأَصَاحِ نَبِكَ عَلَى الشَّابِ
 إِلَى يَوْمٍ تُثُوبُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى دُنْيَاكُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ
 فَلَيْسَ بِعَابِدٍ مَا قَاتَ مِنْهُ إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْإِيَابِ
 أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٍّ وَمَا أَنَا فِي النُّشُورِ بِذِي أَرْتِيَابِ
 كَذَاكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنَاسٍ حَيُوا مِنْ بَعْدِ دَرَسٍ فِي التُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَوْوَنَةً هَؤُلَاءِ الْغُلَاةِ أَيْمَةُ الشَّيْعَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا وَيُطْلُونَ أَحْتِجَاجَاتِهِمْ
 عَلَيْهَا وَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى ابْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ
 وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْهَاشِمِيَّةُ ثُمَّ أَفْتَرَقُوا مِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيِّ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ
 ابْنِ عَلِيٍّ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَّاقِ مُنْصَرِفًا مِنَ الشَّامِ
 أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ
 بِالْإِمَامِ وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ الْمَلْقَبِ بِالسَّفَّاحِ وَأَوْصَى هُوَ

إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَلْقَبِ بِالْمَنْصُورِ وَانْتَقَلَتْ فِي وَلَدِهِ بِالْأَنْصِ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا
بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهِمْ وَهَذَا مَذَهَبُ الْمَاشِئَةِ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَكَانَ مِنْهُمْ
أَبُو مُسْلِمٍ وَسُلَيْمَانُ بْنُ كُثَيْبٍ وَأَبُو سَلَمَةَ الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ شِيعَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَرُبَّمَا
يَعْتَضِدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَّاسِ لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا وَقَدْ
الْوَفَاةُ وَهُوَ أَوْلَى بِالْوَرَاثَةِ بِعَصَبِيَّةِ الْأُمُومَةِ وَأَمَّا الزُّيْدِيَّةُ فَسَافُوا الْإِمَامَةَ عَلَى مَذَهَبِهِمْ
فِيهَا وَإِنَّهَا بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ لَا بِالْأَنْصِ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيِّ ثُمَّ ابْنِهِ الْحَسَنِ ثُمَّ
أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ ابْنِهِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَهُوَ صَاحِبُ هَذَا الْمَذَهَبِ وَخَرَجَ بِالْكُوفَةِ دَاعِيًا
إِلَى الْإِمَامَةِ فَقُتِلَ وَصُلِبَ بِالْكِنَاسَةِ وَقَالَ الزُّيْدِيَّةُ بِإِمَامَةِ ابْنِهِ يُحْيَى مِنْ بَعْدِهِ فَمَضَى
إِلَى خُرَاسَانَ وَقُتِلَ بِالْجُوزْجَانِ بَعْدَ أَنْ أُوْدِيَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
الْحَسَنِ السَّبْطِ وَيُقَالُ لَهُ النَّفْسُ الزُّكِيَّةُ فَخَرَجَ بِالْحِجَازِ وَتَلَقَّبَ بِالْمَهْدِيِّ وَجَاءَتْهُ عَسَاكِرُ
الْمَنْصُورِ فَقُتِلَ وَعُهِدَ إِلَى أَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ فَقَامَ بِالْبَصْرَةِ وَمَعَهُ عِيسَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ
فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ عَسَاكِرَهُ فَهَزَمَ وَقُتِلَ إِبْرَاهِيمُ وَعِيسَى وَكَانَ جَعْفَرُ الصَّادِقِ أَخْبَرَهُمْ
بِذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي كَرَامَاتِهِ وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّفْسُ الزُّكِيَّةُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَهُوَ أَخُو زَيْدِ
ابْنِ عَلِيٍّ فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالطَّالِقَانِ فَقَضَى عَلَيْهِ وَسَبَقَ إِلَى الْمُعْتَصِمِ فَجَبَسَهُ
وَمَاتَ فِي حَبْسِهِ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزُّيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ يُحْيَى بْنِ زَيْدٍ هُوَ أَخُوهُ
عِيسَى الَّذِي حَضَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قِتَالِهِ مَعَ مَنْصُورٍ وَتَقَلُّوا الْإِمَامَةَ فِي عَقْبِهِ
وَالِيهِ انْتَسَبَ دَعْيُ الزُّنَجِ كَمَا نَذَرُوهُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزُّيْدِيَّةِ إِنَّ
الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخُوهُ أَدْرِيسُ الَّذِي فَرَّ إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَاتَ هُنَاكَ
وَقَامَ بِأَمْرِهِ ابْنُهُ أَدْرِيسُ وَاخْتَطَطَ مَدِينَةً قَاسَ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ عَقْبُهُ مُلُوكًا بِالْمَغْرِبِ
إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا كَمَا نَذَرُوهُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَبَقِيَ أَمْرُ الزُّيْدِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ
وَكَانَ مِنْهُمْ الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ
ابْنِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطِ وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ ثُمَّ قَامَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ
فِي الدَّيْلَمِ النَّاصِرُ الْأَطْرُوشُ مِنْهُمْ وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحَسَنِ
ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَهُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَكَانَتْ لِبَنِيهِ بِطَبْرَسْتَانَ دَوْلَةٌ وَتَوَصَّلَ

الدِّينَ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمَلِكِ وَالْإِسْتِبدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِغَدَادٍ كَمَا نَذَرُوا فِي أَخْبَارِهِمْ .
 وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيِّ الرِّضَى إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالتَّوَصُّيَةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ
 الْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ
 الصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا أَفْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ سَاقُوها إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ
 وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةٌ سَاقُوها إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاطِمِ وَهُمْ الْإِثْنَا عَشَرِيَّةُ لِوَقُوفِهِمْ
 عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَقَوْلِهِمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ
 فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ
 كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ فِي عَقِيهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ
 اللَّهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ
 الْأَئِمَّةِ الْمَسْتُورِينَ لِأَنَّ الْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَتِرُ وَتَكُونُ دُعَاؤُهُ
 ظَاهِرِينَ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ وَأُظْهِرَ دَعْوَتُهُ قَالُوا وَبَعْدَ
 مُحَمَّدٍ الْمَكْتُومِ ابْنُهُ جَعْفَرُ الصَّادِقِ وَبَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَيِّبُ وَهُوَ آخِرُ الْمَسْتُورِينَ
 وَبَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ الْمُهْدِيُّ الَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ فِي كُتَابَةِ وَتَابِعَ
 النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مَعْتَقِلِهِ بِسِجِلْهَامَةَ وَمَلَكَ الْقَبْرِوَانِ وَالْمَغْرِبَ وَمَلَكَ
 بَنُوهُ مِنْ بَعْدِ مِصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هَؤُلَاءِ نِسْبَةً إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ
 إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا بِالْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَاطِنِ أَيْ الْمَسْتُورِ وَيُسَمَّوْنَ
 أَيْضًا الْمُلْحِدَةَ لِمَا فِي ضَمَنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ
 دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّبَّاحِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَمَلَكَ حُصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ
 وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَتْهَا الْهَلَكَاتُ بَيْنَ مُلُوكِ التُّرْكِ بِمِصْرَ وَمُلُوكِ التُّرْكِ بِالْعِرَاقِ
 فَانْقَرَضَتْ وَمَقَالَةُ هَذَا الصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ لِلشَّهْرِسْتَانِيِّ *
 وَأَمَّا الْإِثْنَا عَشَرِيَّةُ فَرُبَّمَا خُصُّوا بِاسْمِ الْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ
 مُوسَى الْكَاطِمِ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ لِوَفَاةِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا
 جَعْفَرٍ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هَذَا ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيُّ الرِّضَا الَّذِي عَهْدَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ وَمَاتَ
 قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ التَّقِيُّ ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيُّ الْهَادِي ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَسَنِ
 الْمُسَكَّرِيِّ ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْمُهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ الَّذِي قَدْ مَنَاهُ قَبْلُ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ

هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهيهم ومن أراد استيعابها ومطابقتها فليكتب الكتاب الملل والنحل لابن خزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة إلى الملك

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصية ليس وقوعه عنها بأختيار إنما هو بضرورة الوجود وترتيبها كما قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يعمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصية إذ المطالبة لا نتم إلا بها كما قدمناه . فالعصية ضرورة للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبيًا إلا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصية ونادى إلى أطراحها وتركها فقال إن الله أذهب عنكم عبية^(١) الجاهلية وفخرها بالآباء أنتم بني آدم وآدم من تراب وقال تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ووجدناه أيضًا قد ذم الملك وأهله ونهى على أهله أخوالهم من الاستمتاع بالخلاف والإسراف في غير القصد والتكسب عن صراط الله وإنما حض على الإلفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة * وأعلم أن الدنيا كلها وأحوالها مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وأيس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إجماله بالكليّة أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكليّة إنما قصده تضييقها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى يصير المقاصد كلها حقًا وتتحده الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الدميعة فإذا كان الغضب لذلك كان مذمومًا وإذا كان الغضب في الله والله كان ممدوحًا وهو من شأني الله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضًا ليس المراد إبطالها بالكليّة فإن من بطلت شهوته كان نقصًا في حقه وإنما المراد تضييقها فيما أبيع له بأشتماله

(١) عبية. ضم العين وكسرهما وكسر الموحدة شدة وتشديد المنة النخبة الكبر والفخر والتفوقه قاموس

عَلَى الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَصَرِّفًا طَوْعًا أَوْ آمَرَ الْإِلَهِيَّةِ وَكَذَا الْعَصَبِيَّةُ حَيْثُ
 ذَمُّهَا الشَّارِعُ وَقَالَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ فَإِنَّمَا مِرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ
 الْعَصَبِيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأُخُوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ
 عَلَى أَحَدٍ لِأَنَّ ذَلِكَ نَجَانٌ مِنْ أفعالِ الْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ نَافِعٍ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ
 فَإِنَّمَا إِذَا كَانَتْ الْعَصَبِيَّةُ فِي الْحَقِّ وَإِقَامَةُ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَوْ بَطَلَ لَبَطَلَتِ الشَّرَائِعُ
 إِذْ لَا يَتِمُّ قِيَامُهَا إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَكَذَا الْمَلِكُ لِمَا ذَمَّهُ الشَّارِعُ لَمْ يَذُمَّ
 مِنْهُ الْغَلْبُ بِالْحَقِّ وَقَهْرُ الْكَافَّةِ عَلَى الدِّينِ وَرِعَاةُ الْمَصَالِحِ وَإِنَّمَا ذَمُّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ
 الْغَلْبِ بِالْبَاطِلِ وَتَضْرِيفِ الْأَدَمِيِّينَ طَوْعًا أَوْ غَرَضًا وَالنَّهْوَاتِ كَمَا قُلْنَا فَلَوْ كَانَ
 الْمَلِكُ مُخْلِصًا فِي غَلْبِهِ لِلنَّاسِ أَنَّهُ لِلَّهِ وَلِيَحْمِلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ
 ذَلِكَ مَذْمُومًا وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ
 بَعْدِي لِمَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْعَزِلُ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ * وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةَ
 عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أَمْرِ الْمَلِكِ وَزِيهِ مِنَ
 الْعَدِيدِ وَالْعُدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ أَكْسَرِيَّةٌ يَا مُعَاوِيَةُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 أَنَا فِي شَرِّ تَجَاهِ الْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مَبَادِنِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ فَسَكَتَ وَلَمْ يُخْطِئْهُ
 لِمَا أَحْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالَّذِينَ فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَفْضَ الْمَلِكِ مِنْ
 أَصْلِهِ لَمْ يَقْنَعَهُ الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرِيَّةِ وَانْتِحَالِهَا بَلْ كَانَ يُعْرِضُ دَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا
 بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكَسْرِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِي مَلِكِهِمْ مِنْ
 ارْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ وَالْعَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ وَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَصْدَ
 بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرِيَّةَ فَارِسَ وَبَاطِلِهِمْ وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ فَسَكَتَ * وَهَكَذَا
 كَانَ شَأْنُ الصَّحَابَةِ فِي رَفْضِ الْمَلِكِ وَأُخُوَالِهِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِهِ حَذَرًا مِنَ التَّبَاسُّهِ بِالْبَاطِلِ
 وَلَمَّا اسْتَحْضَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَمُّ
 أُمُورِ الدِّينِ وَأَرْتَضَاهُ النَّاسُ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجْرِ
 لِلْمَلِكِ ذِكْرٌ لِمَا أَنَّهُ مَظَنَّةُ الْبَاطِلِ وَنَحْلَةُ يَوْمِئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَأَعْدَاءِ الدِّينِ فَقَامَ
 بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ مَا شَاءَ اللَّهُ مُتَّبِعًا سُنَنَ صَاحِبِهِ وَقَاتَلَ أَهْلَ الرَّدَّةِ حَتَّى اجْتَمَعَ الْعَرَبُ
 عَلَى الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَهْدَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْتَنَى أَثَرَهُ وَقَاتَلَ الْأُمَمَ فَغَلَبَهُمْ وَأَذِنَ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ

مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمُلْكِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَأَنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ
 عَفَّانَ ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْكُلُّ مُتَبَرِّثُونَ مِنَ الْمُلْكِ مُنْكَبُونَ عَنْ طُرُقِهِ
 وَأَكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاظَةِ الْإِسْلَامِ وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبَعَدَ
 الْأُمَمِ عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَتَرْفِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي النَّعِيمِ
 وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُسُونَةِ الْعَيْشِ وَشَطَقَةِ الَّذِي الْفُوهُ
 فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ أَسْغَبَ عَيْشًا مِنْ مُضَرٍّ لَمَّا كَانُوا بِالْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ
 زَرْعٍ وَلَا خَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الْأَرْيَافِ وَحُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَاخْتِصَاصِهَا بِمَنْ وَلِيَهَا
 مِنْ رِبِيعَةٍ وَالْبِئْسَ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَأْكُلُونَ
 الْعُقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ الْعَلَبِزِ وَهُوَ وَبَرُّ الْأَيْلِ بِمَهُونَةٍ بِالْحِجَارَةِ فِي الدَّمِ
 وَيَطْبَخُونَهُ وَقَرِيبًا مِنْ هَذَا كَانَتْ حَالُ قُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ
 عَصَائِدُ الْعَرَبِ عَلَى الدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا
 إِلَى أُمِّ فَارِسَ وَالرُّومِ وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصِّدْقِ فَأَبْتَزُوا
 مُلْكَهُمْ وَأَسْتَبَاحُوا دِيْنَاهُمْ فَزَخَرَتْ بِحَارِ الرَّفَةِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يُقَسِّمُ
 لَهُ فِي بَعْضِ الْفَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوَهَا فَاسْتَوَلَوْا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ
 الْحَصَرُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى خُسُونَةِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يُرْفِعُ ثَوْبَهُ بِالْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ
 يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غَيْرِي غَيْرِي وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ الدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ
 يَعْبُدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِهَا يَوْمئِذٍ وَكَانَتْ الْمَنَاخِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ
 الْحِنْطَةَ بِنِخَالِهَا وَمَكَاسِبَهُمْ مَعَ هَذَا أَيْ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنَ أَهْلِ الْعَالَمِ قَالَ الْمَسْعُودِيُّ
 فِي أَبَامِ عُثْمَانَ أَفْتَنَى الصَّحَابَةُ الصِّيَاعَ وَالْمَالَ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ
 وَمِائَةً أَلْفَ دِينَارٍ وَأَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَفِيْمَةُ صِيَاعِهِ بِوَادِي الْقُرَى وَحَنِينَ وَغَيْرِهِمَا
 مِائَتَا أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلْفَ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً وَبَلَغَ الثَّمَنُ الْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ
 وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلْفَ أَلْفِ فَرَسٍ وَأَلْفَ أُمَّةٍ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ الْعِرَاقِ
 أَلْفَ دِينَارٍ كُلَّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَاقِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ عَلَى مَرْبِطِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 بْنِ عَوْفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ النِّعَمِ وَبَلَغَ الرَّبْعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ
 بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَخَلْفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ

بِالْفُؤُوسِ غَيْرَ مَا خَلَفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ وَبَنَى الزُّبَيْرُ دَارَهُ
 بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةَ وَالْأَسْكَدَرِيَّةَ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ
 بِالْكُوفَةِ وَشَيْدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِالْجَمْعِ وَالْأَجْرَ وَالسَّاجَ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي
 وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ مَمْعَكَهَا وَأَوْسَعَ فِضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَعْلَاهَا شُرُفَاتٍ وَبَنَى
 الْمِقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا نُحْصَةَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَخَلَفَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُنْبِيهِ خَمْسِينَ
 أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَارًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ أَهْ كَلَامُ الْمَسْعُودِيِّ
 فَكَانَتْ مَكَاسِبُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَنَعِيًّا عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ
 حَلَالٌ لِأَنَّهُمْ غَنَائِمٌ وَفُيُوءٌ وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى تَصَدِيقٍ فِي
 أَخْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الْأَسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُومًا
 فَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالْخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ وَإِذَا كَانَتْ
 حَالُهُمْ قَصْدًا وَتَفَقَّاتُهُمْ فِي سُبُلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذَلِكَ الْأَسْتِكْثَارُ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى
 طُرُقِ الْحَقِّ وَأَكْتِسَابِ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ الْبِدَاوَةُ وَالْفَضَاضَةُ إِلَى نِهَائِهَا
 وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَا وَحَصَلَ التَّغْلِبُ وَالْقَهْرُ كَانَ
 حُكْمُ ذَلِكَ الْمَلِكِ عِنْدَهُمْ حُكْمُ ذَلِكَ الرَّفِيعِ وَالْأَسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَمْوَالِ فَلَمْ يَصْرِفُوا
 ذَلِكَ التَّغْلِبَ فِي بَاطِلٍ وَلَا خَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ الدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ الْحَقِّ * وَلَمَّا وَقَعَتْ
 الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَهِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقُّ وَالْإِجْتِهَادُ وَلَمْ
 يَكُونُوا فِي تَعَارُفِهِمْ لِمُغْرَضِ دُنْيَوِيٍّ أَوْ لِإِثَارِ بَاطِلٍ أَوْ لِأَسْتِشْعَارِ حَقْدٍ كَمَا قَدْ يَتَوَقَّعُ
 مِنْهُمْ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ مُلْحِدٌ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِي الْحَقِّ وَسَبْغُهُ كُلُّ وَاحِدٍ نَظَرَ
 صَاحِبِهِ بِاجْتِهَادِهِ فِي الْحَقِّ فَاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصِيبُ عَلِيًّا فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ فَائِمًا
 فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ إِنَّمَا قَصَدَ الْحَقَّ وَأَخْطَأَ وَالْكُلُّ كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍّ ثُمَّ
 اقْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الْإِنْفِرَادَ بِالْحُجَّةِ وَالْأَسْتِثْنَاءَ الْوَاحِدِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعَاوِيَةَ أَنْ
 يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ سَاقَتْهُ الْعَصَبِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا وَأَسْتَشْعَرَتْهُ بِنِوَأُمِيَّةٍ وَمَنْ
 لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةَ فِي اقْتِفَاءِ الْحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ فَأَعْوَصُوا عَلَيْهِ وَأَسْتَمَاتُوا
 دُونَهُ وَلَوْ حَمَلَهُمْ مُعَاوِيَةُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِي الْإِنْفِرَادِ بِالْأَمْرِ لَوُقُوعِ فِي
 أَفْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَ جَمْعُهَا وَتَأْلِيفُهَا أَهْمٌ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرُ مُخَالَفَةِ

وَقَدْ كَانَتْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ إِذَا رَأَى الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ
 أَبِي بَكْرٍ لَوْ كَانَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُهِ الْخِلَافَةَ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ وَلَكِنَّهُ
 كَانَ يَخْشَى مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلَ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُحَوِّلَ الْأَمْرَ
 عَنْهُمْ لِئَلَّا تَقَعَ الْفُرْقَةُ وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا حَمَلَ عَلَيْهِ مَنَازِعُ الْمَلِكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ
 فَالْمَلِكُ إِذَا حَصَلَ وَفَرَضْنَا أَنَّ الْوَاحِدَ انْفَرَدَ بِهِ وَصَرَفَهُ فِي مَذَاهِبِ الْحَقِّ وَوُجُوهِهِ
 لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ نَكِيرٌ عَلَيْهِ وَلَقَدْ انْفَرَدَ سُلَيْمَانُ وَأَبُو دَاوُدُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا بِمُلْكِ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ مِنَ الْإِنْفِرَادِ بِهِ وَكَانُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ الْبُورَةِ
 وَالْحَقِّ وَكَذَلِكَ عَهْدُ مُعَاوِيَةَ إِلَى يَزِيدَ خَوْفًا مِنْ انْفِرَاقِ الْكَلِمَةِ بِمَا كَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ
 لَمْ يَرْضُوا تَسْلِيمَ الْأَمْرِ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ فَلَوْ قَدْ عُهِدَ إِلَى غَيْرِهِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ ظَنَّهُمْ
 كَانَ بِهِ صَالِحًا وَلَا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَلَا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيُعْهَدَ إِلَيْهِ
 وَهُوَ بَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْفِسْقِ حَاشَا لِلَّهِ لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ كَانَ مَرْوَانَ
 ابْنَ الْحَكَمِ وَأَبْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهُمْ فِي الْمُلْكِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْبِطَالَةِ
 وَالْبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ الْحَقِّ جُنْدَهُمْ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا
 مِثْلَ خَشْيَةِ انْفِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّذِي هُوَ أَمُّ لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانُوا
 عَلَيْهِ مِنَ الْإِتْبَاعِ وَالِافْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ السَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدْ اخْتَجَّ مَالِكٌ
 فِي الْمُوَطَّأِ بِعَمَلِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَمَّا مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ التَّابِعِينَ وَعَدَالَتُهُمْ
 مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدَرَّجَ الْأَمْرُ فِي وَلَدِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ
 وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَتَزَعَّ إِلَى طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَزْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جُنْدَهُ وَلَمْ
 يَهْمِلْ ثُمَّ جَاءَ خَلْفُهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمَلِكِ فِي أَغْرَافِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَنَسُوا
 مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحَرِّيِ الْقَصْدِ فِيهَا وَاعْتِمَادِ الْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا
 دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ نَعُوا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِالِدَّعْوَةِ الْعَبَاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلَّى رِجَالَهَا الْأَمْرَ
 فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَفُوا الْمَلِكَ فِي وَجْهِهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا حَتَّى
 جَاءَ بَنُو الرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمْ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ثُمَّ أَقْضَى الْأَمْرُ إِلَى بَنِيهِمْ
 فَأَعْطُوا الْمَلِكَ وَالتَّرَفَ حَقَّهُ وَانْتَعَمُوا فِي الدُّنْيَا وَبَاطِلُهَا وَنَبَذُوا الدِّينَ وَرَاءَهُمْ ظَهْرِيًّا
 فَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِحَرَبِهِمْ وَانْتَزَعَ الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي الْعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمَكَنَ سِوَاهُمْ وَاللَّهُ لَا

يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ سَيْرَ هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَاخْتِلَافَهُمْ فِي تَحَرِّيِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ عَلِيمَ حِكْمَةٍ مَا قُلْنَاهُ وَقَدْ حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ مِثْلَهُ فِي أَحْوَالِ بَنِي أُمَيَّةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ وَقَدْ حَضَرَ عَمُومَتُهُ وَذَكَرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ أَمَّا عَبْدُ الْمَلِكِ فَكَانَ جَبَّارًا لَا يَبَالِي بِمَا صَنَعَ وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَكَانَ هَمُّهُ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ وَأَمَّا عُمَرُ فَكَانَ أَعْوَرَ بَيْنَ عُمَيَّانَ وَكَانَ رَجُلٌ الْقَوْمِ هِشَامٌ قَالَ وَلَمْ يَزَلْ بَنُو أُمَيَّةَ ضَابِطِينَ لِمَا مَهَّدَ لَهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ يُحَوِّطُونَهُ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ تَسْنِيهِمْ مَعَ أَلْيِ الْأُمُورِ وَرَفْضِهِمْ دَنِيَّاتِهَا حَتَّى أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى أَبْنَائِهِمُ الْمُتَرَفِّينَ فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدَ الدُّهُوَاتِ وَرُكُوبَ اللَّذَاتِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ جَهْلًا بِأَسْتِدْرَاجِهِ وَأَمْنًا لِمَكْرِهِ مَعَ أَطْرَاحِهِمْ صِبَاَنَةَ الْخِلَافَةِ وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ الرِّئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ السِّيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسَمُ الْإِذْلَ وَتَقَى عَنْهُمْ النِّعْمَةَ ثُمَّ اسْتَحْضَرَ عَبْدُ اللَّهِ ^(١) بْنُ مَرْوَانَ فَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ مَعَ مَلِكِ التُّوْبَةِ لَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُمْ فَأَرَاهُمُ الْيَوْمَ السَّفَاحَ قَالَ أَقَمْتُ مَلِكًا ثُمَّ أَنَا بِي مَلِكُهُمْ فَقَعَدَ عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ بَسَطَتْ لِي فُرُشٌ ذَاتُ قِيَمَةٍ فَقُلْتُ مَا مَنَعَكَ عَنِ الْقُعُودِ عَلَى نِيَابَتِنَا فَقَالَ إِنِّي مَلِكٌ وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِعِظَمَةِ اللَّهِ إِذْ رَفَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لِي لَمْ تَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ فَقُلْتُ أَجْتَرَأُ عَلَى ذَلِكَ عَيْدُنَا وَأَتْبَاعُنَا قَالَ فَلِمَ تَطْشُونَ الزَّرْعَ بِدَوَابِّكُمْ وَالْفَسَادَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ قُلْتُ فَعَلْ ذَلِكَ عَيْدُنَا وَأَتْبَاعُنَا بِجَهْلِهِمْ قَالَ فَلِمَ تَلْبَسُونَ الدِّيبَاجَ وَالذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ قُلْتُ ذَهَبَ مِنَّا الْمَلِكُ وَانْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ الْعَجَمِ دَخَلُوا فِي دِينِنَا فَلَبَسُوا ذَلِكَ عَلَى الْكُرُومِنَا فَأُطْرُقَ يَنْكِثُ يَدِيهِ فِي الْأَرْضِ وَيَقُولُ عَيْدُنَا وَأَتْبَاعُنَا وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا فِي دِينِنَا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ اسْتَحْلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَتَيْتُمْ مَا عَنْهُ نَهَيْتُمْ وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكَتُمْ فَسَلَبَكُمْ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسَمُ الْإِذْلَ بِذُنُوبِكُمْ وَلِلَّهِ تَقِيَّةٌ لَمْ تُبْلَغْ غَايَتُهَا فَيْكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَحْلُبَكُمْ الْعَذَابُ وَأَنْتُمْ بِلَدِّي فَيَنَالَنِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا الضِّيَافَةُ ثَلَاثُ فَرَزْدٍ مَا أُحْتِجَتِ إِلَيْهِ وَأَرْشَعِلُ عَنْ أَرْضِي فَتَعَجَّبَ الْمَنْصُورُ وَأُطْرُقَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَأَنَّ الْأَمْرَ كَانَ فِي أَوَّلِهِ خِلَافَةً وَوَارِعُ كُلِّ أَحَدٍ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الدِّينُ وَكَانُوا يُؤَثِّرُونَهُ عَلَى أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَإِنْ أَفْضَتْ إِلَى

(١) قوله عبدا لله كذا في النسخة التوفيقية وبعض النسخة وفي : ضا عبد الملك واطنه نصحرنا قاله نندر

هَلَاكِهِمْ وَخَدَمَهُمْ دُونَ الْكَافَّةِ فَهَذَا عُثْمَانُ لَمَّا حُصِرَ فِي الدَّارِ جَاءَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَابْنُ جَعْفَرٍ وَأَمْثَالُهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدَافِعَةَ عَنْهُ فَأَبَى وَمَنَعَ مِنْ سَلِّ
السُّيُوفِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ وَحِفْظًا لِلْإِلَافَةِ الَّتِي بِهَا حَفِظُوا الْكَلِمَةَ وَلَوْ أَدَّى
إِلَى هَلَاكِهِ وَهَذَا عَلِيٌّ أَشَارَ عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ لِأَوَّلِ وَلَايَتِهِ بِاسْتِيقَاءِ الزُّبَيْرِ وَمُعَاوِيَةَ
وَمُطَلَعَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى يَمِينِهِ وَتَتَّفِقَ الْكَلِمَةُ وَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ
مِنْ أَمْرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ فَأَبَى فِرَارًا مِنَ الْغُشْرِ الَّذِي بُنَا فِيهِ إِلَّا سَلَامًا
وَعَدًا عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ مِنَ الْغَدَاةِ فَقَالَ لَقَدْ أَشْرْتُ عَلَيْكَ بِالْأَمْسِ بِمَا أَشْرْتَ ثُمَّ عُدْتُ إِلَى
نَظَرِي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيمَا رَأَيْتُهُ أَنْتَ فَقَالَ عَلِيٌّ لَا وَاللَّهِ
بَلْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَصْنَعْتَنِي بِالْأَمْسِ وَغَشَشْتَنِي الْيَوْمَ وَلَكِنْ مَنَعَنِي مِمَّا أَشْرْتَ بِهِ زَائِدُ
الْحَقِّ وَهَكَذَا كَانَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي إِصْلَاحِ دِينِهِمْ بِفَسَادِ دُنْيَاهُمْ وَتَغَنُّ

تُرْقِعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينَئَا بَقِيَ وَلَا مَا تُرْقِعُ

فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ صَارَ الْأَمْرُ إِلَى الْمَلِكِ وَبَقِيَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ مِنْ تَعَرِّيِ الَّذِينَ
وَمَذَاهِبِهِ وَالْجُرْيِ عَلَى مِنْهَاجِ الْحَقِّ وَلَمْ يَظْهَرَ الْغَيْرُ إِلَّا فِي الْوَارِعِ الَّذِي كَانَ دِينًا
ثُمَّ انْقَلَبَ عَصَبِيَّةً وَسَيْفًا وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِعَمِيدِ مُعَاوِيَةَ وَمَرْوَانَ وَابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ
وَالصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الرَّشِيدِ وَبَعْضُ وَلَدِهِ ثُمَّ ذَهَبَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَسْمَاهَا وَصَارَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا وَجَرَتْ طَبِيعَةُ التَّغَلُّبِ إِلَى غَايَتِهَا وَاسْتُعْمِلَتْ
فِي أَغْرَاضِهَا مِنَ الْقَهْرِ وَالتَّقْلُبِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لَوْلَدِ عَبْدِ
الْمَلِكِ وَلَمَّا جَاءَ بَعْدَ الرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَسْمُ الْخِلَافَةِ بَاقِيًا فِيهِمْ لِبَقَاءِ عَصَبِيَّةِ
الْعَرَبِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ فِي الطُّورَيْنِ مُلْتَبِسٌ بَعْضُهُمَا بِبَعْضٍ ثُمَّ ذَهَبَ زَمَنُ الْخِلَافَةِ
وَأَثَرُهَا بِذَهَابِ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ جِيلِهِمْ وَتَلَاشِي أَحْوَالِهِمْ وَبَقِيَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا
كَمَا كَانَ الشَّانُ فِي مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَبَرُّكًا وَالْمَلِكِ
بِمَجْمِيعِ أَلْقَابِهِ وَمَنَاحِيهِ لَهُمْ وَلَيْسَ لِلْخَلِيفَةِ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ
مِثْلَ صَنْهَاجَةَ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ وَمَغْرَاوَةَ وَبَنِي يَفْرُوتَ أَيْضًا مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ
وَالْعَبِيدِيِّينَ بِالْقَيْرَوَانِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ وَجَدَتْ بِدُونِ الْمَلِكِ أَوَّلًا ثُمَّ التَّبَسَّتْ
مَعَانِيهِمَا وَاخْتَلَطَتْ ثُمَّ انْفَرَدَ الْمَلِكُ حَيْثُ اقْتَرَفَتْ عَصَبِيَّتُهُ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْخِلَافَةِ وَاللَّهُ

مَقْدَرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة ^(١)

اعْلَمْ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ كَانَ الْمُبَايَعُ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ
النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ
بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمُنْشِطِ وَالْمُكْرِهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ جَعَلُوا
أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيدًا لِلْعَهْدِ فَأُشْبِهَ ذَلِكَ فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَسُمِّيَ بَيْعَةً مَصْدَرُ
بَاعَ وَصَارَتِ الْبَيْعَةُ مُصَاحَفَةً بِالْأَيْدِي هَذَا مَدْلُولُهَا فِي عَرَفِ الْأُمَّةِ وَمَعْنَى الشَّرْعِ وَهُوَ
الْمُرَادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ وَحَيْثُمَا
وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ كَانَ الْخُلَفَاءُ يُسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ
وَيَسْتَوْعِبُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَلِكَ فَسُمِّيَ هَذَا الْإِسْتِيعَابُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ وَكَانَ الْإِكْرَاهُ
فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهَذَا لَمَّا أَتَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا
الْوَلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ الْإِمَامِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ إِنْهَا الْعَهْدُ فَهِيَ تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ الْكَسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ
أَوْ الْيَدِ أَوْ الرَّجْلِ أَوْ الذَّنْبِلِ أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازًا لِمَا
كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي التَّحِيَّةِ وَالْإِزَامِ الْآدَابِ مِنْ تَوَاضِعِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَغَلَبَ فِيهِ
حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً وَأَسْتَغْنَى بِهَا عَنْ مُصَاحَفَةِ أَيْدِي النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي
الْأَصْلِ لِمَا فِي الْمُصَاحَفَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنْزِيلِ وَالْإِبْتِدَالِ الْمُتَفَاعِلِينَ لِلرَّئِاسَةِ وَصَوْرِ
الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي الْأَقْلِ مِمَّنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُعَ مِنَ الْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَسَبَهُ مَعَ
خَوَاصِهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَافْتَرَسَ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدُ عَلَى
الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ لِمَا يُلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عِبَادًا وَجَبَانًا
وَأَعْتَبِرَ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

(١) البيعة بفتح الموحدة اما بكرها على وزن شبعة بسكون الياء فيها فهي معبد النصارى ١٠

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إِغْلَمَ أَنَّا قَدْ مَنَّا الْكَلَامَ فِي الْإِمَامَةِ وَمَشَرُوعِيَّتِهَا إِمَّا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحَةِ وَأَنَّ حَقِيقَتَهَا لِلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فَهُوَ وَإِيَّاهُمْ وَالْأَمِينُ عَلَيْهِمْ يَنْظُرُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَيَقِيمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلَّاهَا وَيَتَّقُونَ يَنْظُرُهُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَا وَثِقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلُ وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَأَنْعِقَادِهِ إِذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِمَحْضَرِّ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازُوهُ وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ وَكَذَلِكَ عَهْدَ عُمَرَ فِي الشُّوْزَى إِلَى السِّتَةِ بَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ فَهَوْضَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَتَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَأَجْتَهَدَ وَنَظَرَ الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِيٍّ فَأَثَرُ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ لِمُؤَانَقَتِهِ إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الْإِقْتِدَاءِ بِالشَّيْخَيْنِ فِي كُلِّ مَا يَعْنِي دُونَ اجْتِهَادِهِ فَأَنْعَقَدَ أَمْرُ عُثْمَانَ لِذَلِكَ وَأَوْجَبُوا طَاعَتَهُ وَالْمَسْلُوكَ مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَلَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ قَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ وَإِلِجْمَاعِ حُجَّةٍ كَمَا عُرِفَ وَلَا يُنْتَهَمُ الْإِمَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَإِنْ عَهْدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ لِأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ فَأَوَّلَى أَنْ لَا يَحْتَمِلَ فِيهَا تَبَعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِاتِّهَامِهِ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ أَوْ لِمَنْ خَصَّصَ التَّهْمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الظَّنِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِبْتَارِ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ فَتَنْتَفِي الظَّنُّ فِي ذَلِكَ رَأْسًا كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَعَلُ مُعَاوِيَةَ مَعَ وَفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ وَالَّذِي دَعَا مُعَاوِيَةَ لِإِبْتَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ إِنَّمَا هُوَ مُرَاعَاةُ الْمَصْلَحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ أَهْوَائِهِمْ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِذْ بَنُوا أُمَيَّةً يَوْمئِذٍ لَا يَرْضَوْنَ سِوَاهُمْ وَهُمْ عَصَابَةُ قُرَيْشٍ وَأَهْلُ الْعَمَلَةِ أَجْمَعٍ وَأَهْلُ الْغَلْبِ مِنْهُمْ فَأَثَرُهُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُظَنُّ أَنَّهُ أَوَّلَى بِهَا وَعَدَلَّ عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ حِرْصًا عَلَى الْإِتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الْأَهْوَاءِ الَّذِي شَأْنُهُ أَهَمُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَإِنْ كَانَ لَا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُ هَذَا فَعَدَالَتُهُ

وَصَحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ وَحُضُورُ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ لِذَلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ
 عَلَى اتِّفَاقِ الرَّيْبِ فِيهِ فَلْيَسُوا مِنْ بَأْخِذِهِمْ فِي الْحَقِّ هَوَادَّةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ
 الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِّ فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَّ التَّهْمَ مَانِعَةً مِنْهُ وَفَرَارُ عَبْدِ اللَّهِ
 ابْنِ عُمَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مُحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ مَبَاحًا
 كَانَ أَوْ مُحْتَظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخُلَافَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ
 عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ وَتُدَوِّرُ الْخُلَافَ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ
 مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ
 مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالسَّفَّاحَ وَالْمَنْصُورَ وَالْمَهْدِيَّ وَالرَّشِيدَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ
 عَرَفَتْ عَدَالَتَهُمْ وَحَسَنَ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرَ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِثَارُ أَبْنَائِهِمْ
 وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلِيكَ
 الْخُلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَحْدُثْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَكَانَ الْوَارِعُ دِينِيًّا فَعِنْدَ كُلِّ
 أَحَدٍ وَارِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَعَهِدُوا إِلَى مَنْ يَرْضِيهِ الدِّينُ فَقَطَّ وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَّلُوا كُلَّ
 مَنْ يَسْتَمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَارِعِهِ وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَتُنْ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتْ الْعَصِيَّةُ قَدْ
 أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمَلِكِ وَالْوَارِعِ الَّذِي قَدْ ضَعُفَ وَاحْتَجَّجَ إِلَى الْوَارِعِ السُّلْطَانِي
 وَالْعِصَابَانِي فَلَزَّ عَهْدًا إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْضِيهِ الْعَصِيَّةُ لَرَدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدَ وَانْتَقَضَ أَمْرُهُ
 سَرِيعًا وَصَارَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا بَالُ
 الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ
 كَانَا وَالْيَمِينَ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا الْيَوْمَ قَالَ عَلَى مِثْلِكَ يُشِيرُ إِلَى وَارِعِ الَّذِينَ أَفْلَا تَرَى إِلَى
 الْمَأْمُونِ لَمَّا عَهْدَ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَسَمَاءُ الرَّضَا كَيْفَ أَنْكَرَتْ
 الْعَبَّاسِيَّةُ ذَلِكَ وَتَقَضُوا يَتَعَتُّهُ وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنَ الْهَرَجِ
 وَالْإِخْلَافِ وَانْقِطَاعِ السَّبْلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَصْطَلِمَ الْأَمْرُ حَتَّى بَادَرَ
 الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَعْتِبَارِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ
 فَالْعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَتَخْتَلِفُ
 بِاخْتِلَافِ الْمَصَالِحِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يُخَصُّهُ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ
 يَكُونَ الْقَصْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التِّرَاثِ عَلَى الْأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْرٌ

مِنْ اللَّهِ يَخْصُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحَسِّنَ فِيهِ النَّبِيَّةُ مَا أُمَكَّنَ خَوْفًا مِنْ
 اللَّعِبِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّيْنِيَّةِ وَالْمُلْكِ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ * وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو
 الْفَرُورَةَ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا * فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفَسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ
 فَإِنَّكَ أَنْ تَظُنَّ بِمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلَ مِنْ ذَلِكَ
 وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعْدِلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَبَيْنَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ
 وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَلَمَّا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَّثَ مِنَ الْفَسْقِ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ
 حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَتَقَضَّ يَنْعَتُهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ
 الْحَسَنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا
 فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ
 عَصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ فُرَيْشٍ وَتَسْتَبِيعُ عَصَابِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ وَهِيَ
 أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُمْ فَأَفْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى
 الدُّعَاءِ بِهَدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهَذَا كَانَ شَأْنُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَلُ مُجْتَهِدُونَ وَلَا
 يُنْكِرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبَرِّ وَتَعَرِّي الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَقْنَا اللَّهَ
 لِلْإِقْدَاءِ بِهِمْ * وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدْعِيهِ
 الشَّيْعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ وَلَا تَقْلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَيْمَةِ النُّقْلِ
 وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْفِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ
 مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ
 فِي الْعَهْدِ فَقَالَ إِنْ أُعْيِدَ فَقَدْ عَهْدَ مِنْهُ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ
 مِنْهُ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْيِدْ وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ لِلْعَبَّاسِ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلَانِهِ عَنْ
 شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ فَأَبَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ
 وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصَ وَلَا عَهْدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبْهَةُ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ
 إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَزْكَانِ الدِّينِ كَمَا يَزْعُمُونَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ
 الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمَفُوضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَزْكَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا
 شَأْنَ الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَشْتَهَرُ

كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلَاةِ وَاجْتِنَاجُ الصَّعَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلَاةِ
 فِي قَوْلِهِمْ أَرَضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدِينَانَا دَلِيلٌ عَلَى
 أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ وَيَدُلُّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْعَهْدَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُهِمًّا
 كَمَا هُوَ الْيَوْمَ وَشَأْنُ الْعَصِيَّةِ الْمُرَاعَاةُ فِي الْاجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقُ فِي تَجَارِي الْعَادَةِ
 لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذَلِكَ لِإِعْتِبَارٍ لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ
 مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ وَاسْتِمَاعَةِ النَّاسِ دُونَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانُوا
 يَشَاهِدُونَهَا فِي حُضُورِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرِهِمْ وَتَرَدُّدِ خَيْرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ وَتَجَدُّدِ خِطَابِ
 اللَّهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى مُرَاعَاةِ الْعَصِيَّةِ لِمَا شَمَلَ النَّاسَ مِنْ صِبْغَةٍ
 الْإِنْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ وَمَا يَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْعُجْزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْأَحْوَالِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاقِعَةِ
 وَالْمَلَائِكَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ الَّتِي وَجَّهُوا مِنْهَا وَدُهِشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا فَكَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ
 وَالْعَهْدِ وَالْعَصِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مُنْدَرِجًا فِي ذَلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ فَلَمَّا انْخَصَرَ
 ذَلِكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ الْعُجْزَاتِ ثُمَّ بِنَاءِ الْقُرُونِ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا فَاسْتَحَالَتْ تِلْكَ
 الصَّبْغَةُ قَلِيلًا قَلِيلًا وَذَهَبَتِ الْخَوَارِقُ وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْعَادَةِ كَمَا كَانَ فَأَعْتَبِرَ أَمْرُ
 الْعَصِيَّةِ وَتَجَارِي الْعَوَائِدِ فِيهَا بِنَشْأِ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ وَالْخِلَافَةُ
 وَالْعَهْدُ بِهِمَا مُهِمًّا مِنَ الْمُهِمَّاتِ الْأَكْبَدَةِ كَمَا زَعَمُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ فَانْظُرْ
 كَيْفَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُهِمَّةٍ فَلَمْ يَعْهَدْ فِيهَا ثُمَّ تَدَرَّجَتْ
 الْأَهَمِّيَّةُ زَمَانَ الْخِلَافَةِ بِعُضْ الشَّيْءِ بِمَا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ وَالْجِهَادِ وَشَأْنِ
 الرِّدَّةِ وَالْفَتْوحَاتِ فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فِي الْفِعْلِ وَالْتِرْكِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 ثُمَّ صَارَتْ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ الْأُمُورِ لِلْإِثْلَافَةِ عَلَى الْحَيَاةِ وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ فَأَعْتَبِرَتْ فِيهَا
 الْعَصِيَّةُ الَّتِي هِيَ مِثْرُ الْوَارِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَمِنْشَأُ الْاجْتِمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَفِيلُ
 بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا * وَالْأَمْرُ الثَّلَاثُ شَأْنُ الْعُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي الْإِسْلَامِ
 بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَأَعْلَمَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَيَنْشَأُ عَنِ
 الْاجْتِهَادِ فِي الْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا فَإِنْ قُلْنَا
 إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ
 فَإِنْ جِهَتَهُ لَا تَتَعَيَّنُ بِالْإِجْمَاعِ فَيَبْقَى الْكُلُّ عَلَى أَحْتِمَالِ الْإِصَابَةِ وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمُخْطِئُ

مِنْهَا وَالْثَّانِي مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ حَقٌّ وَإِنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ
 مُصِيبٌ فَأُخْرَى بِنَفْيِ الْخَطَا وَالْثَّانِي وَغَايَةُ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُ
 خِلَافٌ أَجْتَهَادِي فِي مَسَائِلَ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ وَهَذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ
 إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةٌ عَلَيَّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَاقِعَةُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ
 وَوَاقِعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلَيٍّ فَإِنَّ الدَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ
 مُفْتَرِقِينَ فِي الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلِيٍّ وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُمْ مَنْ
 تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامٍ كَسَعْدِ وَسَعِيدِ وَابْنِ عُمَرَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ
 وَالْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَقُدَامَةَ بْنِ مَطْعُونٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ وَكَعْبَ
 بْنِ مَالِكٍ وَالنُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ وَمُسْلِمَةَ بْنَ مُخَلِّدٍ وَفُضَالَ بْنَ عُبَيْدٍ وَأَمثالهم
 مِنْ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَمْصَارِ عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضًا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ
 عُثْمَانَ وَتَرَكُوا الْأَمْرَ فَوْضَى حَتَّى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُولُونَهُ وَظَنُّوا بِعَلِيٍّ
 هَوَادَةً فِي الشُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَائِلِهِ لَا فِي الْمَمْلَاقَةِ عَلَيْهِ فَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ
 وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَخَ بِمِلَامَتِهِ إِنَّمَا يُوجِّهُهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطْ ثُمَّ اخْتَلَفُوا
 بَعْدَ ذَلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدْ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعٍ مِنْ اجْتِمَاعِ
 عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجَاءِ الْأَمْرِ فِي
 الْمَطْلَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ فَيَتِمَّ حِينَئِذٍ مِنْ ذَلِكَ
 وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لِافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْأَفَاقِ وَلَمْ
 يَحْضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَلَا تُلْزَمُ بِعَقْدِ
 مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنْ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى فَيُطَالَبُونَ
 أَوَّلًا بِدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ
 وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَطَلْحَةُ وَابْنُ مُحَمَّدٍ وَسَعِيدُ
 وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ
 تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمْ
 اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَلُزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصَوُّبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ
 إِلَيْهِ وَتَعْيِينِ الْخَطَا مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصًا طَلْحَةَ

وَأَلْزَبِرُ لِأَتَقَاعِهِمَا عَلَى عِلِّيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا ثَقُلَ مَعَ دَفْعِ النَّائِثِمْ عَنْ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
كَالشَّانِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلِي أَهْلِ
الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِ الْجَمَلِ وَصِفَتَيْنِ
فَقَالَ وَالَّذِي تَقْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ يُشِيرُ إِلَى
الْفَرِيقَيْنِ ثَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدَحٌ فِي
شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَالَتِهِمْ
مَفْرُوعٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا عَرَجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بَعَيْنِ الْأَنْصَارِ عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْدَعِينَ فِي شَأْنِ
الْإِخْتِلَافِ فِي عُثْمَانَ وَإِخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً أَبْثَلَى اللَّهُ
بِهَا الْأُمَّةَ يَتَنَمَّا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَنَزَلُوا
الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ
نَزَلُوا هَذِهِ الْأَمْصَارَ جُنَاةً لَمْ يَسْتَكْبِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا
أَرْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالْبُعْدِ عَنْ
سَكِينَةِ الْإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مِلْكَةِ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةٍ وَثَقِيفٍ وَهَذِلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ
إِلَى الْإِيمَانِ فَأَسْتَنْكَفُوا مِنْ ذَلِكَ وَغَضُّوا بِهِ لِمَا يَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ
وَكَثَرَتِهِمْ وَمُضَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلَ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَيْعَةَ
وَقَبَائِلِ كَنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مِصْرَ فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ
وَالْأَتَقَةِ عَلَيْهِمْ وَالتَّمْرِيزِ فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالْإِسْتِعْدَاءِ
عَلَيْهِمْ وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْعِجْزِ عَنِ السُّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السُّوِيَّةِ وَفَشَتْ الْمَقَالَةُ
بِذَلِكَ وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانُ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ
مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمَّ
يُنْكِرُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ شَيْئًا وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْنًا وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ
الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَتَمُورُ وَمِي الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ وَهُوَ عَلَى
الْكُوفَةِ يُشْرِبُ الْخَمْرَ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ

مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزَلَ الْعُمَالِ وَشَكَاوَا إِلَى عَائِشَةَ وَبَنِي وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ
 لَهُمْ عُثْمَانُ بَعْضَ الْعُمَالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَسِنَّتُهُمْ بَلْ وَقَدْ سَعِيدُ بْنُ الْعَامِي وَهُوَ
 عَلَى الْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَعْرُولا ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافُ بَيْنَ
 عُثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ وَتَقَمُّوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ
 عَلَى جُرْحَةٍ ثُمَّ تَقَلُّوا النَّكَيرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَهُوَ مَتَسِّكٌ بِالْإِحْتِهَادِ وَهُمْ أَيْضًا
 كَذَلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْغَوَاةِ وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ النِّصْفَةِ مِنْ عُثْمَانَ
 وَهُمْ يُظْهِرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِ وَفِيهِمْ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمِصْرَ وَقَامَ مَعَهُمْ فِي
 ذَلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ يَحَاوِلُونَ تَسْكِينَ الْأُمُورِ وَرُجُوعَ عُثْمَانَ إِلَى
 دَارِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلَ مِصْرَ فَأَنْصَرَفُوا قَلِيلًا ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَسُوا بِكِتَابِ مُدَلِّسٍ يَزْعُمُونَ
 أَنَّهُمْ لَقَوْهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلِ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ وَحَلَفَ عُثْمَانُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا مَكِينًا
 مِنْ مَرْوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ فَخَافَ مَرْوَانَ فَقَالَ لَيْسَ فِي الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا فَخَافَ رُؤُوسَهُ
 بِدَارِهِ ثُمَّ يَتَوَدُّ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَقَتْلُوهُ وَأَنْتَحَتْ بَابُ الْفِتْنَةِ فَكُلُّ مَنْ هُوَ لَا
 عِزَّ فِيهَا وَقَعَ وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُتَمَيِّينَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَلَا يُضَيِّعُونَ شَيْئًا مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ ثُمَّ نَظَرُوا
 بَعْدَ هَذَا الْوَاقِعِ وَاجْتَهَدُوا وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَنَحْنُ لَا نَنْظُرُ بِهِمْ إِلَّا
 خَيْرًا لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فِسْقُ
 يَزِيدَ عِنْدَ الْكَافَّةِ مِنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شَيْعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ بِالْكُوفَةِ الْحُسَيْنِ أَنْ
 يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ مُتَعَيْنٌ مِنْ أَجْلِ فِسْقِهِ لَا
 سِيَّامَا مِنْ لَهْ الْقُدْرَةِ عَلَى ذَلِكَ وَظَنُّهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ
 كَمَا ظَنُّ وَزِيَادَةً وَأَمَّا الشُّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ فِيهَا لِأَنَّ عَصِيَّةَ مِصْرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ
 وَعَصِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ وَلَا
 يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا نُسِيَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لِمَا شَغَلَ النَّاسَ مِنَ الدُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ
 وَأَمْرِ الْوَسْخِ وَتَرَدُّدِ الْمَلَائِكَةِ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ
 عَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنُسِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَصِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالِدِفَاعِ
 يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ وَالَّذِينَ فِيهَا مُحْكَمٌ وَالْعَادَةُ مَعْرُولَةٌ
 حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْخَوَارِقِ الْمَهُولَةِ تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ

فَعَادَتِ الْعَصِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلِمَنْ كَانَتْ وَأَصْبَحَتْ مُضَرُّ أَطْوَعَ لِبَنِي أُمَيَّةٍ مِنْ سِوَاهُمْ
بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَبْلُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ الْحُسَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرِ دُنْيَوِي لَا يُضِرُّهُ
الْغَلَطُ فِيهِ وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ يَغْلَطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مَنْوُطٌ بِظَنِّهِ وَكَانَ ظَنُّهُ الْقُدْرَةُ عَلَى
ذَلِكَ وَلَقَدْ عَذَلَهُ ابْنُ الْعَبَّاسِ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الْحَنْفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيْرُهُ
فِي مَسِيرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَعَلِمُوا غَلَطَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ لِمَا أَرَادَهُ
اللَّهُ وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِنْ
التَّابِعِينَ لَهُمْ فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ لِمَا بَنَسْنَا عَنْهُ مِنَ
الْمَرْجِ وَالْذِمَّةِ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يُتَابِعُوا الْحُسَيْنَ وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَلَا أَثَمُوهُ
لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ أَسْوَةٌ الْمُجْتَهِدِينَ وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْثِيمٍ هُوَ لَا بِمُخَالَفَةِ
الْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ
عَلَيْهِ وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهِدُ بِهِمْ وَهُوَ بِكَرْبَلَاءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ وَيَقُولُ سَأَلُوا جَابِرَ بْنَ
عَبْدِ اللَّهِ وَآبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ وَأَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَمَسْهَلَ بْنَ سَعِيدٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَلَهُمْ
وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ وَلَا تَعَرَّضَ لِذَلِكَ لِعَلِمِهِ أَنَّهُ عَنْ اجْتِهَادٍ وَإِنْ
كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ وَيَكُونُ ذَلِكَ كَمَا يَحْدُثُ الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ وَالْحَنَفِيُّ عَلَى شُرْبِ
النَّبِيذِ وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ وَقِتَالَهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ اجْتِهَادٍ هُوَ لَا وَإِنْ كَانَ خِلَافُهُ
عَنْ اجْتِهَادِهِمْ وَإِنَّمَا اتَّفَقَ بِقِتَالِهِ يَزِيدَ وَاصْحَابُهُ وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا
وَلَمْ يَجِزْ هُوَ لَا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَفْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفَعُ مِنْ أَعْمَالِ
الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا وَقِتَالُ الْبَغَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرَطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ
وَهُوَ مَقْقُودٌ فِي مَسْئَلَتِنَا فَلَا يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلَا لِيَزِيدَ بَلْ هِيَ مِنْ فَعَلَاتِهِ
الْمُؤَكَّدَةِ لِفِسْقِهِ وَالْحُسَيْنِ فِيهَا شَهِيدٌ مُثَابٌ وَهُوَ عَلَى حَقٍّ وَاجْتِهَادٍ وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ
كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقٍّ أَيْضًا وَاجْتِهَادٍ وَقَدْ غَلَطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ
فِي هَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِالْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ مَا مَعْنَاهُ . إِنَّ الْحُسَيْنَ قُتِلَ
بِشَرْعٍ جَدِّهِ وَهُوَ غَلَطٌ حَمَلَتْهُ عَلَيْهِ الْعَقْلَةُ عَنْ اشْتِرَاطِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَمَنْ أَعْدَلَ مِنْ
الْحُسَيْنِ فِي زَمَانِهِ فِي إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْآرَاءِ وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى
فِي مَنَامِهِ مَا رَأَاهُ الْحُسَيْنُ وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ وَغَلَطَهُ فِي أَمْرِ الشُّوْكَةِ أَعْظَمُ لِأَنَّ بَنِي أَسَدٍ

لَا يُقَامُونَ بِنِي أُمِّيَّةٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ وَالْقَوْلُ يَتَعَيَّنُ الْخَطَاءُ فِي جِهَةٍ مُعَاوِيَةَ مَعَ
عَلِيٍّ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْأَجْمَاعَ مِنْكَ قَضَى لَنَا بِهِ وَلَمْ نَعِدْهُ هَاهُنَا. وَأَمَّا يَزِيدُ فَعَيْنُ
خَطَاؤُهُ فَسَقَهُ وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيكَ بِعَدَالَتِهِ
أَحْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ وَعُدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ إِلَى يَتَعَيَّنَ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَتَعَقَّدْ
لأنَّهُ لَمْ يَحْضُرْهَا أَهْلُ الْعَقْدِ وَالْحُلْ كَيْسِيَّةَ مَرْوَانَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَالْكُلْ
مُجْتَمِعُونَ مَحْمُولُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ فِي جِهَةٍ مِنْهُمَا وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ
بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا فَرَزْنَاهُ يُجْبَى عَلَى قَوَاعِدِ الْفَقْهِ وَقَوَائِينِهِ مَعَ أَنَّهُ مُبْهِدٌ مُثَابٌ بِاعْتِبَارِ
قَضِيهِ وَتَحْرِيرِهِ الْحَقُّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلَ عَلَيْهِ أَعْمَالُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ
وَالنَّابِعِينَ فَهُمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاكُمْ غُرُضًا لِلْقَدْحِ فَمَنْ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالْعَدَالَةِ
وَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ
يَفْسُقُوا الْكَذِبُ فَعَمَلُ الْخَبِيرَةِ وَهِيَ الْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْقُرْنِ الْأَوَّلِ وَالَّذِي يَلِيهِ فَإِيَّاكَ أَنْ
تَعُودَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا يُشَوِّشُ قَلْبَكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ
مِنْهُمْ وَالتَّمَسُّ لَهُمْ مَذَاهِبَ الْحَقِّ وَطُرُقَهُ مَا اسْتَطَعْتَ فَهُمْ أَوَّلَى النَّاسِ بِذَلِكَ وَمَا
اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ يَتَنَةٍ وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قَتَلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إِظْهَارِ حَقٍّ وَاعْتَقِدْ مَعَ
ذَلِكَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لِيَقْتَدِيَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ
وَيَتَّخِذُهُ إِمَامَةً وَهَادِيَةً وَدَلِيلَةً فَأَفْهَمَ ذَلِكَ وَتَبَيَّنَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ وَأَعْلَمَ
أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِلَيْهِ الْمَلْجَأُ وَالْمَصِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافة

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخِلَافَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ
الدُّنْيَا فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُنْصَرَفٌ فِي الْأَمْرَيْنِ أَمَّا فِي الدِّينِ فَيَمُقْتَضِي التَّكَالِيفَ
الشَّرْعِيَّةَ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمْلُ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَيَمُقْتَضِي رِعَايَتَهُ
لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمُرَانُ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ وَأَنَّ رِعَايَةَ
مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ لِئَلَّا يَفْسُدَ إِنْ أَهْمَلْتُمْ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمَلِكَ وَسَطَوْتَهُ كَافٍ فِي حُصُولِ هَذِهِ
الْمَصَالِحِ نَعَمْ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلَ إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِهَذِهِ

الْمَصَالِح فَقَدْ صَارَ الْمَلِكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا
 وَقَدْ يَنْمَرِدُ إِذَا كَانَتْ فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٍ وَوُظَائِفُ تَابِعَةٍ
 تُتَعَيَّنُ خِطَطًا وَتُنَوِّزُ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَظَائِفُ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوُظُفِيَّتِهِ حَسَبَ مَا يُعَيَّنُهُ
 الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا
 الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَصَرُّفُهُ
 الَّذِي يَنْتَخِصُّ بِخِطَطِهِ وَمَرَاتِبِهِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ فَلِذَا كَرِ الْأَنَ الْخِطَطَ
 الدِّينِيَّةَ الْخُصَّةَ بِالْخِلَافَةِ وَنَرْجِعُ إِلَى الْخِطَطِ الْمُلُوكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْخِطَطَ
 الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْفَتْيَا وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ كُلِّهَا مِنْدَرِجَةٌ تَحْتَ
 الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي فِي الْخِلَافَةِ فَكَانَهَا الْإِمَامُ الْكَبِيرُ وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ وَهَذِهِ
 كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ الْخِلَافَةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمِلَّةِ
 الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى الْعُمُومِ فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ فَهِيَ أَرْفَعُ
 هَذِهِ الْخِطَطِ كُلِّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ الْمَلِكِ بِخُصُوصِهِ الْمُنْدَرِجِ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَلَقَدْ
 يَشْهَدُ لِذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي
 الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوَائِمِ ارْتِضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا فَلَوْلَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ لَمَا صَحَّ الْقِيَاسُ وَإِذَا
 ثَبَتَ ذَلِكَ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ مَسَاجِدُ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةُ الْعَاشِيَةِ
 مُعَدَّةٌ لِلصَّلَوَاتِ الْمَشْهُودَةِ وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ
 الْعَامَةِ فَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْعَظِيمَةُ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ
 مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصَبُ لَهَا الْإِمَامُ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ
 وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَالْحُسُوفَيْنِ وَالْإِسْتِسْقَاءِ وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ
 الْأَوَّلَى وَالْإِسْتِحْسَانِ وَلِلْأَوَّلَى يَفْتَاتُ الرَّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ
 وَقَدْ يَقُولُ بِالْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَصْبُ الْإِمَامِ
 لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْجِيرَانِ
 وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوِلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَالْمُؤَلَّى فِيهَا
 مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَرَدِيِّ وَغَيْرِهِ

فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يُقَلِّدُونَهَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ وَأَنْظَرُوا
 مِنْ طُعْنٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ وَتَرَصَّدُوا لِدَلَالَةِ فِي أَوْقَاتِهَا
 يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمُبَاشَرَتِهِمْ لَهَا وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلِفِينَ فِيهَا وَكَذَا كَانَ رِجَالُ
 الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتَشَارُوا بِهَا وَاسْتَعْظَمُوا لِرُبُوبِيَّتِهَا يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ
 أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِبِهِ قَدْ جَعَلْتُ لَكَ حِجَابَةً يَا أَبِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةِ صَاحِبِ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ
 بِالْتَأْخِيرِ وَالْأَذَانُ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ وَالْبَرِيدُ فَإِنْ فِي تَأْخِيرِهِ فَسَادُ الْقَاصِيَةِ
 فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مُسَاوَاةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ
 وَدُنْيَاهُمْ اسْتَنَابُوا فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا يَسْتَأْثِرُونَ بِهَا فِي الْأَحْيَانِ وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ
 كَالْعِيدَيْنِ وَالْجُمُعَةِ إِشَارَةً وَتَوْبِيهَا فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ
 صَدَرَتْ عَنْهُمْ وَأَمَّا الْفُتَيَّا فَلِلْخَلِيفَةِ تَصَفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسُ وَرَدُّ الْفُتَيَّا إِلَى مَنْ
 هُوَ أَهْلٌ لَهَا وَإِعَانَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِ
 الْمُسْلِمِينَ فِي أَدْيَانِهِمْ فَتَجِبُ عَلَيْهِ مُرَاعَاتُهَا لِئَلَّا يَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ
 النَّاسَ وَالْمُدْرِسُ الْإِنْتِصَابُ لِلتَّعْلِيمِ الْعِلْمِ وَبَيْتِهِ وَالْجُلُوسُ لِذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ فَإِنْ كَانَتْ
 مِنَ الْمَسَاجِدِ الْعِظَامِ الَّتِي لِلسُّلْطَانِ الْوَلَايَةُ عَلَيْهَا وَالنَّظَرُ فِي أَيْمَتِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدَّ مِنْ
 اسْتِثْنَائِهِ فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَّةِ فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنِ عَلَى أَنَّهُ
 يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ إِمَّا أَحَدٌ مِنَ الْمُفْتِينَ وَالْمُدْرِسِينَ زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ بِمَنْعِهِ عَنْ
 التَّصَدِّي لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَهْذِبِ وَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَرْشِدُ وَفِي الْأَثَرِ
 أَجْرُكُمْ عَلَى الْفُتَيَّا أَجْرُكُمْ عَلَى جَرَائِمِ جَهَنَّمَ فَلِلسُّلْطَانِ فِيهِمْ لِذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ
 مَا تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ مِنْ إِجَازَةٍ أَوْ رَدٍّ وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَهُوَ مِنَ الْوُظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ
 الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مَنْصِبُ الْفَضْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسْبًا لِلدَّعَايِ وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ إِلَّا
 أَنَّهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَكَانَ لِذَلِكَ مِنْ وَظَائِفِ
 الْخِلَافَةِ وَمُنْذَرَجًا فِي عُمُومِهَا وَكَانَ الْخُلَفَاءُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ يَبَاشِرُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا
 يَجْعَلُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَفَوَّضَهُ فِيهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ فَوَلَّى أَبَا الدَّرْدَاءِ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ وَوَلَّى شُرَيْحًا بِالْبَصْرَةِ وَوَلَّى أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ
 بِالْكُوفَةِ وَكَتَبَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَشْهُورَ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ

وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَأَفْهَمَ
 إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقِّ لَا تَقَاذَلُهُ وَأَسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَتَجَلِّسِكَ
 وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْئَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ
 ادَّعَى وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحْلَ حَرَامًا أَوْ
 حَرَّمَ حَلَالًا وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضَيْتَهُ أَمْسَ فَرَأَجَفْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهَدَيْتَ فِيهِ
 لِرُسْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي
 الْبَاطِلِ أَنَّهُمْ فِيمَا يَتَلَجَّجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ أَعْرِفِ الْأَمْثَالَ
 وَالْأَشْبَاهَ وَقِسِ الْأُمُورَ بِنِظَائِرِهَا وَأَجْمَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمْدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ
 فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَحْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْتَى لِلشُّكِّ
 وَأَجَلَى لِلْعَمَى. الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا تَجَلُّدًا فِي حَدٍّ أَوْ تُجْرَى عَلَيْهِ
 شَهَادَةٌ زُورٌ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وِلَاءٍ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَمَّا عَنِ الْإِيمَانِ وَدَرَأَ
 بِالْبَيِّنَاتِ وَإِيَّاكَ وَالْقَلْقَ وَالضُّجْرَ وَالنَّافَثَ بِالْخُصُومِ فَإِنْ اسْتَفْرَارَ الْحَقُّ فِي مَوَاطِنِ
 الْحَقِّ يُعْظِمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجَرَ وَيُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ وَالسَّلَامَ. إِنْتَهَى كِتَابُ عُمَرَوِ وَإِنَّمَا
 كَانُوا يُقْلِدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ
 اشْغَالِهِمْ مِنَ الْجِهَادِ وَالْفُتُوحَاتِ وَسَدِّ الثُّغُورِ وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ
 غَيْرُهُمْ لِعِظَمِ الْعِنَايَةِ فَاسْتَحَقُّوا الْقَضَاءَ فِي الْوَاقِعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ
 بِهِ تَخَفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقْلِدُونَهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوْ الْوِلَاءِ
 وَلَا يُقْلِدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا الْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ
 فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَخُصُوصًا كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَّ إِنَّمَا كَانَ لَهُ
 فِي عَصْرِ الْخُلَفَاءِ الْفَضْلُ بَيْنَ الْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى
 التَّدْرِيجِ بِحَسَبِ اشْتِغَالِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ بِالسِّيَاسَةِ الْكُبْرَى وَاسْتَقَرَّ مَنَصِبُ الْقَضَاءِ
 آخِرَ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ الْفَضْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْحَقُوقِ الْعَامَّةِ
 لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْمُحْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَجَانِينِ وَالْيَتَامَى وَالْمُفْلِسِينَ وَأَهْلِ
 السَّفَةِ وَفِي وَصَايَا الْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَزْوِيجِ الْآبَامَى عِنْدَ فَقْدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيٍ مِنْ
 رَأْيِهِ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الطَّرْفَاتِ وَالْأَبْنِيَةِ وَتَصْفِحِ الشُّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالنُّوَابِ وَاسْتِيفَاءِ

الْعِلْمِ وَالْخُبْرَةِ فِيهِمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْجَرَحِ لِيَحْصَلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ كُلُّهَا
 مِنْ تَعَلُّقَاتِ وَظَائِفِهِ وَتَوَابِعِ وَلَايَتِهِ وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلُ يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي النَّظَرَ
 فِي الْمَظَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُعْتَرِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ السُّلْطَانَةِ وَنَصْفَةِ الْقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلُوِّ
 يَدٍ وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْضِي الْمَظَالِمَ مِنَ الْخُصَمَيْنِ وَتَزْجِرُ الْمُتَعَدِّيَّ وَكَانَهُ يُنْضِي مَا عَجَزَ
 الْقَضَاءُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي الْبَيِّنَاتِ وَالتَّقْرِيرِ وَأَعْتَادِ الْأَمَارَاتِ
 وَالْقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ الْحُكْمِ إِلَى اسْتِجْلَاءِ الْحَقِّ وَحَمْلِ الْخُصَمَيْنِ عَلَى الصَّلَاحِ وَاسْتِخْلَافِ
 الشُّهُودِ وَذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي * وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ يَبَاشِرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ
 إِلَى أَيَّامِ الْمُهْتَدِيِّ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقَضَائِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي أَدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ وَكََمَا فَعَلَهُ الْمَأْمُونُ بِبُخَيْرِيِّ بْنِ أَكْثَمَ
 وَالْمُعْتَصِمُ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي قِيَادَةَ الْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ
 الطَّوَائِفِ وَكَانَ بِخَيْرِي بْنِ أَكْثَمَ يُخْرَجُ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ بِالطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ
 وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوَلِيَّةُ
 هَذِهِ الْوُظَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُفَوَّضٍ أَوْ
 سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ وَكَانَ أَيْضًا النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
 وَالْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعَبْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ رَاجِعًا إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَهِيَ
 وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ الْوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ الدَّوَلِ تَوْسِعُ النَّظَرَ فِيهَا عَنْ
 أَحْكَامِ الْقَضَاءِ قَلِيلًا فَيَجْعَلُ لِلتَّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ نَجَالًا وَيَفْرِضُ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ قَبْلَ
 ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ وَيُقِيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقَوْدِ وَالْقِصَاصِ وَيُقِيمُ
 التَّعْزِيزَ وَالتَّنَادُبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْجَرِيمَةِ ثُمَّ تُنَوِّمِي شَأْنِ هَاتَيْنِ الْوُظَائِفَتَيْنِ
 فِي الدَّوَلِ الَّتِي تُنَوِّمِي فِيهَا أَمْرُ الْخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ الْمَظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ كَانَ
 لَهُ تَقْوِيضُ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَانْقَسَمَتِ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا
 وَظِيفَةُ التَّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ
 وَنَصَبَ لِنَظَرِ فِي هَذِهِ الدَّوَلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ السِّيَاسَةِ دُونَ رُاجِعَةٍ
 الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِي وَتَارَةً بِاسْمِ الشَّرْطَةِ وَبَقِيَ قِسْمُ
 التَّعَازِيرِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرَفًا فَجُمِعَ ذَلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ

ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَظِيفَةِ وَلَايَتِهِ وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ وَخَرَجَتْ هَذِهِ
 الْوَظِيفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الْأَمْرَ أَمَّا كَانَ خِلَافَةً دِينِيَّةً وَهَذِهِ الْخِطَّةُ مِنْ
 مَرَامِ الدِّينِ فَكَانُوا لَا يُؤَلُّونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ بِالْخِلَافِ
 أَوْ بِالرِّقِّ أَوْ بِالْأَصْطِنَاعِ مِمَّنْ يُوثِقُ بِكَيْفَايَتِهِ أَوْ غِنَائِهِ فِيمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ * وَلَمَّا انْقَرَضَ
 شَأْنُ الْخِلَافَةِ وَطَوَّرَهَا وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكًا أَوْ سُلْطَانًا صَارَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ الدِّينِيَّةُ
 بَعِيدَةً عَنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقَابِ الْمَلِكِ وَلَا مَرَامِيهِ ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ
 جُمْلَةً مِنَ الْعَرَبِ وَصَارَ الْمُلُوكُ لِسَوَائِهِمْ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ فَازْدَادَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ
 الْخِلَافِيَّةُ بُعْدًا عَنْهُمْ بِمَنْعِهَا وَعَصَبِيَّتِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الثَّرِيَّةَ دِينُهُمْ
 وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ وَأَحْكَامُهُ وَشَرَائِعُهُ نَحْتَتُهُمْ بَيْنَ الْأُمَمِ وَطَرِيقُهُمْ
 وَغَيْرُهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤَلُّونَهَا جَانِبًا مِنَ التَّعْظِيمِ لِمَا دَانُوا بِالْمِلَّةِ فَقَطْ فَصَارُوا
 يُقَلِّدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عَصَابَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَأَهُلُهَا فِي دَوْلِ الْخُلَفَاءِ السَّالَةِ وَكَانَ أُولَئِكَ
 الْمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرْفُ الدَّوْلِ مِنْذُ مِثْنِ مِنَ السِّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَتَهَا
 وَالتَّبَسُّوَا بِالْحِضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَدَعَتْهُمْ وَقِلَّةِ الْمُمَانَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ
 الْخِطَّةُ فِي الدَّوْلِ الْمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مُخْتَصَّةً بِهَذَا الصَّنِفِ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فِي
 أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَتَزَلْ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ لِنَقْدِ الْأَهْلِيَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ
 الْحِضَارَةِ فَلَحِقَهُمْ مِنَ الْإِخْتِقَارِ مَا لَحِقَ الْحَضَرَ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي التَّرَفِ وَالِدَعَةِ الْبَعْدَاءِ عَنْ
 عَصَبِيَّةِ الْمَلِكِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَةِ وَصَارَ أَعْتِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ فَيَامِهَا
 بِالْمِلَّةِ وَأَخَذَهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ لِمَا أَنَّهُمْ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَدُونَ بِهَا وَلَمْ
 يَكُنْ إِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَامًا لِدَوَانِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يَتَلَمَّحُ مِنَ التَّجَمُّلِ
 بِمَكَانِهِمْ فِي تَجَالِسِ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ الرُّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحَلِّ
 وَالْعَقْدِ شَيْءٌ وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ لَا حَقِيقَةٌ وَرَأَاهُ إِذْ حَقِيقَةُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا
 هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حِلَّ لَهُ وَلَا عَقْدَ لَدَيْهِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذُ
 الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَنْهُمْ وَتَلَقَّى الْفِتَاوَى مِنْهُمْ فَتَمَّ وَاللَّهُ أَلَوْفَقُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ
 النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّ فِعْلَ الْمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاءِ
 مِنَ الشُّوَرَى مَرْجُوحٌ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْلَمُ أَنَّ

ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ وَحُكْمُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا اقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ
 الْعُمَرَاءِ وَإِلَّا كَانَ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَاءِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئًا
 مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الشُّورَى وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَصِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حَلِّ
 أَوْ عَقْدِ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ وَآمَّا مَنْ لَا عَصِيَّةَ لَهُ وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئًا وَلَا مِنْ
 حِمَايَتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي الشُّورَى أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى
 اعْتِبَارِهِ فِيهَا اللَّهُمَّ إِلَّا شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي
 الْأَسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً وَآمَّا شُورَاهُ فِي السِّيَاسَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا لِإِفْقَادِهِ الْعَصِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى
 مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الشَّاهِدَةِ
 لَهُمْ بِجَمْعِ الْعِزِّ فِي الدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ أُنْتَسَبَ وَآمَّا قَوْلُهُ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْفُقَهَاءَ فِي الْأَغْلَابِ إِذَا الْعَهْدُ مَا اخْتَفَتْ
 بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالًا فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي
 الْمُعَامَلَاتِ يَنْصُرُونَهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا هَذِهِ غَايَةُ أَكْبَرِهِمْ وَلَا يَتَصَنُّونَ إِلَّا
 بِالْأَقْلِ مِنْهَا وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَالسَّلَفُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَهْلُ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنْ
 الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ اتِّصَافًا بِهَا وَتَحَقُّقًا بِمَذَاهِبِهَا فَمَنْ حَمَلَهَا اتِّصَافًا وَتَحَقُّقًا دُونَ تَقْلِيدِ
 فَهُوَ مِنَ الْوَارِثِينَ مِثْلَ أَهْلِ رِسَالَةِ الْقُسَيْرِيِّ وَمَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأُمَرَاءُ فَهُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ
 الْوَارِثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِثْلَ فُقَهَاءِ التَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَزْبَعَةِ وَمَنْ افْتَقَى طَرِيقَهُمْ
 وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِمْ وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِأَحَدِ الْأُمَرَاءِ فَالْعَابِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ
 مِنَ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرِثَ بَصِيفَةٍ وَالْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ
 شَيْئًا إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنْصُهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ وَهُؤُلَاءِ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ
 عَصَرِنَا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ

(العدالة) * وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَمِنْ مَوَادِّ تَصَرُّفِهِ وَحَقِيقَةُ هَذِهِ
 الْوِظِيفَةِ الْقِيَامُ عَنِ إِذْنِ الْقَاضِي بِالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحْمَلًا عِنْدَ
 الْأَشْهَادِ وَأَدَاءٌ عِنْدَ التَّنَازُعِ وَكُتِبَ فِي السَّجَلَاتِ تُحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ النَّاسِ وَأَمْلَا كُتِبَ
 وَدُبُونُهُمْ وَسَائِرُ مُعَامَلَاتِهِمْ وَشَرَطُ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ الْإِتِّصَافُ بِالْعِدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْبَرَاءَةُ
 مِنَ الْجُرْحِ ثُمَّ الْقِيَامُ بِكُتْبِ السَّجَلَاتِ وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَاتِّظَامِ فُصُولِهَا وَمِنْ

جَهَةِ إِحْكَامِ شُرُوطِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَعُقُودِهَا فَيَحْتَاجُ حَيْثُ ذِي إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْفِقْهِ
وَلِأَجْلِ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمِرَانِ^(١) عَلَى ذَلِكَ وَالْمُدَارَسَةِ لَهُ اخْتِصَاصُ
ذَلِكَ بِبَعْضِ الْعُدُولِ وَصَارَ الصِّنْفُ الْقَائِمُونَ بِهِ كَانَهُمْ مُخْتَصُّونَ بِالْعَدَالَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
وَإِنَّمَا الْعَدَالَةُ مِنْ شُرُوطِ اخْتِصَاصِهِمْ بِالْوِظَافَةِ وَيَجِبُ عَلَى الْقَاضِي تَصَفُّحُ أَحْوَالِهِمْ
وَالْكَشْفُ عَنْ سِيرِهِمْ رِعَايَةً لَشَرْطِ الْعَدَالَةِ فِيهِمْ وَأَنْ لَا يَهْمِلَ ذَلِكَ لِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ
مِنْ حِفْظِ حُقُوقِ النَّاسِ فَالْعَهْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ ضَامِنٌ دَرَكُهُ وَإِذَا تَعَيَّنَ هَؤُلَاءِ
لِهَذِهِ الْوِظَافَةِ عَمَّتِ الْفَائِدَةُ فِي تَعْيِينِ مَنْ تَخَفَى عَدَالَتُهُ عَلَى الْقَضَاءِ بِسَبَبِ اتِّسَاعِ الْأَمْصَارِ
وَأَشْتِبَاهِ الْأَحْوَالِ وَأَضْطِرَّارِ الْقَضَاءِ إِلَى الْقَصْلِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ بِالْبَيِّنَاتِ الْمُوثُوقَةِ
فَيَعْمَلُونَ غَالِبًا فِي الْوُثُوقِ بِهَا عَلَى هَذَا الصِّنْفِ وَلَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ دَكَاكِينٌ وَمَصَاطِبُ
يَخْتَصُّونَ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهَا فَيَتَعَامَدُهُمْ أَصْحَابُ الْمُعَامَلَاتِ لِلإِشْهَادِ وَتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ
وَصَارَ مَذْلُوعٌ هَذِهِ اللَّفْظَةُ مُشْتَرِكًا بَيْنَ هَذِهِ الْوِظَافَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ مَذْلُوعُهَا وَبَيْنَ الْعَدَالَةِ
الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي فِي أُخْتِ الْجَرْحِ وَقَدْ يَتَوَارَدَانِ وَيَفْتَرِقَانِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الحسبة والسكة

إِنَّمَا الْحِسْبَةُ فِيهِ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ
الَّذِي هُوَ فَرَضٌ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ يُعَيَّنُ لِنُفُذِهِ مِنْ يَرَاهُ أَهْلًا لَهُ فَيَتَعَيَّنُ فَرَضُهُ
عَلَيْهِ وَيَتَخَذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَحَتُّ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَيُعَزِّزُ وَيُؤَدِّبُ عَلَى قَدَرِهَا
وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْمَنَعِ مِنَ الْمُضَافَةِ فِي الطَّرِيقَاتِ
وَمَنَعِ الْحَمَالِينَ وَأَهْلِ السُّفْنِ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي الْحَمْلِ وَالْحُكْمِ عَلَى أَهْلِ الْمَبَانِي
الْمُتَدَاعِيَةِ لِلِسُقُوطِ بِهِدْمِهَا وَإِزَالَةِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّابِلَةِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي
الْمُعَلِّمِينَ فِي الْمَكَاثِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِبْلَاحِ فِي ضَرَبِهِمْ لِلصُّبْيَانِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَلَا
يَتَوَقَّعُ حُكْمُهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِعْدَادٍ بَلْ لَهُ النَّظَرُ وَالْحُكْمُ فِيمَا يَصِلُ إِلَى عِلْمِهِ
مِنْ ذَلِكَ وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ وَلَيْسَ لَهُ إِمْضَاءُ الْحُكْمِ فِي الدَّعَاوِي مُطْلَقًا بَلْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْفِشِّ
وَالْتَدَابِيسِ فِي الْمَعَاشِ وَغَيْرِهَا فِي الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ وَلَهُ أَيْضًا حَمْلُ الْمُعَاطِلِينَ
عَلَى الْإِنْصَافِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعٌ يَتَنَبَّهُ وَلَا إِنْفَازٌ حُكْمٌ وَكَانَهَا أَحْكَامٌ

(١) المران بكسر الهمزة المعرنة والاعتقاد على الشيء.

يُنْزَهُ الْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسُهُولَةِ اغْتِرَافِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْوِظَايِفَةِ لِيَقُومَ بِهَا
فَوْضَعُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ
الْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلَ الْعَبْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَمُويِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ دَاخِلَةً فِي عُمُومِ
وِلَايَةِ الْقَاضِي يُؤْتَى فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا انْقَرَدَتِ وَظِيفَةُ السُّلْطَانِ عَنِ الْخِلَافَةِ وَصَارَ
نَظَرُهُ عَامًّا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ انْتَدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَأُفْرِدَتْ بِالْوِلَايَةِ
وَأَمَّا السِّبْكَ فَهِيَ النَّظَرُ فِي النُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَحِفْظُهَا مِمَّا يَدْخُلُهَا
مِنَ الْغِنَى أَوْ النِّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَيُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ
جَمِيعِ الْأَعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عِلَامَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالْإِسْتِجَادَةِ وَالْخُلُوصِ
بِرِسْمِ تِلْكَ الْعِلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ اتَّخَذَ لِذَلِكَ وَنُقِشَ فِيهِ نَقُوشٌ خَاصَةٌ بِهِ فَيُوضَعُ
عَلَى الدَّرِينَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْتَمَ فِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ وَتَكُونَ
عِلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ الْغَايَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السِّبْكَ وَالتَّخْلِيصُ فِي مُتَعَارِفِ أَهْلِ
الْقَطْرِ وَمَذَاهِبِ الدَّوْلَةِ الْحَاكِمَةِ فَإِنَّ السِّبْكَ وَالتَّخْلِيصَ فِي النُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ
وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى الْاجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أَفْقٍ أَوْ قَطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِيصِ
وَقَفُوا عِنْدَهَا وَتَمَوُّهَا إِمَامًا وَعِبَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُّقُودَهُمْ وَيَتَّقِدُونَهَا بِمِثَالَتِهِ فَإِنْ نَقَصَ
عَنْ ذَلِكَ كَانَتْ زَيْفًا وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْوِظَايِفَةِ وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا
الْأَعْتِبَارِ فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وِلَايَةِ الْقَاضِي ثُمَّ أُفْرِدَتْ
لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَبْشَةِ هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوِظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَ مِنْهَا
وَظَائِفُ ذَهَبَتْ بِذَهَابٍ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوْظِيفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ
وَالْحَرْبِ وَالْخَرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً تَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِينِهَا بَعْدَ وَظِيفَةِ الْجِهَادِ وَوَظِيفَةُ
الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ وَيُذَرِّجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي
السُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا تَقَابَةُ الْأَنْسَابِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوْ الْحَقِّ فِي بَيْتِ الْمَالِ
قَدْ بَطَلَتْ لِذُنُورِ الْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ انْتَدَرَجَتْ رُسُومُ الْخِلَافَةِ وَوَظَائِفُهَا فِي
رُسُومِ الْمُلُوكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بأمير المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وهو يحدث منذ عهد الخلفاء
وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وكان الصحابة رضي الله عنهم
وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الأمر
على ذلك إلى أن هلك فلما بويع لعمر بعده إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول
الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استشفوا هذا اللقب بكثرة وطول إضافته وأنه
يتزايد فيما بعد دائما إلى أن ينتهي إلى العجزة ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات
وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى
به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة وقد كان
الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة
أيضا يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية
وهم معظم المسلمين يومئذ واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه
يا أمير المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال إن أول من دعاه
بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمر بن العاصي والخيرة بن شعبة وقيل يزيد جاء
بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول أين أمير
المؤمنين وسمعتها أصحابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه إنه والله أمير المؤمنين
حقا فدعوه بذلك وذهب لقباً له في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده ممة لا يشاركهم
فيها أحد سواهم إلا سائر دولة بني أمية ثم إن الشيعة خصوا علياً باسم الإمام نعتاً له
بالإمامة التي هي اخت الخلافة وتعريضاً بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من
أبي بكر لما هو مذهبهم ويدعونهم نخوة بهذا اللقب ولعن يسوقون إليه منصب
الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخلفاء
حتى إذا استولون على الدولة يحولون اللقب فيما بعده إلى أمير المؤمنين كما فعله
شيعة بني العباس فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا
بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على أمره فلما هلك دعي أخوه السفاح أمير المؤمنين
وكذا الرافضة بأفريقيا فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالإمام حتى

أَنْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى عِيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا أَيْضًا يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ وَلِأَبْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ
 مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا اسْتَوْثَقَ لَهُمُ الْأَمْرُ دُعُوا مِنْ بَعْدِهِمَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا الْأَدَارِسَةُ
 بِالْمَغْرِبِ كَانُوا يُلقَبُونَ أَذْرِيْسَ بِالْإِمَامِ وَأَبْنَهُ أَذْرِيْسَ الْأَضْفَرَ كَذَلِكَ وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ
 وَتَوَارَثَ الْخُلَفَاءُ هَذَا اللَّقَبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ الْحِجَازَ وَالشَّامَ
 وَالْعِرَاقَ وَالْمَوَاطِنَ الَّتِي هِيَ دِيَارُ الْعَرَبِ وَمَرَاكِزُ الدَّوْلَةِ وَأَهْلُ الْمِلَّةِ وَالْفَتْحِ وَأَزْدَادُ
 لَذَلِكَ فِي عُتُقَانِ الدَّوْلَةِ وَبَدْخِهَا لِقَبِّ آخَرٍ لِلْخُلَفَاءِ يَتَّخِذُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِشْتِرَاكِ بَيْنَهُمْ فَاسْتَحْدَثَ لِذَلِكَ بَنُو الْعَبَّاسِ حِجَابًا لِأَسْمَائِهِمْ
 الْأَعْلَامَ عَنْ أَمْتِيَانِهَا فِي السِّنَةِ السُّوْقَةِ وَصَوْنًا لَهَا عَنِ الْإِبْتِدَالِ فَتَلَقَّبُوا بِالسَّاحِ وَالْمَنْصُورِ
 وَالْمَهْدِيِّ وَالْهَادِي وَالرَّشِيدِ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَاقْتَفَى أَثَرُهُمْ فِي ذَلِكَ الْعِيْدِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةِ
 وَمِصْرَ وَتَجَافَى بَنُو أُمَيَّةَ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَشْرِقِ قَبْلَهُمْ مَعَ الْقَضَاةِ وَالسَّدَاجَةِ لِأَنَّ
 الْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تُفَارِقْهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ شِعَارُ الْبِدَاوَةِ إِلَى شِعَارِ الْحِضَارَةِ
 وَأَمَّا بِالْأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسَلَفِهِمْ مَعَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ ذَلِكَ بِالْقُصُورِ
 عَنْ مُلْكِ الْحِجَازِ أَصْلِ الْعَرَبِ وَالْمِلَّةِ وَالْبُعْدِ عَنْ دَارِ الْخِلَافَةِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الْعَصَبِيَّةِ
 وَأَنْتَهُمْ إِنَّمَا مَتَّعُوا بِإِمَارَةِ الْقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَ
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّخِلُ الْآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ النَّاصِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ ابْنُ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ
 ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ وَاشْتَهَرَ مَا نَالَ الْخِلَافَةَ بِالْمَشْرِقِ
 مِنَ الْخَجَرِ وَاسْتَبْدَادِ الْمَوَالِي وَعَيْشِهِمْ فِي الْخُلَفَاءِ بِالْعَزْلِ وَالْإِسْتِبْدَالِ وَالْقَتْلِ وَالسَّلْبِ
 ذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا إِلَى مِثْلِ مَذَاهِبِ الْخُلَفَاءِ بِالْمَشْرِقِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَتَسَمَّى
 بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ وَأَخَذَتْ مِنْ بَعْدِهِ عَادَةٌ وَمَذَهَبٌ لُقِّنَ عَنْهُ
 وَلَمْ يَكُنْ لِأَكَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَاسْتَمَرَ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ عَصَبِيَّةُ
 الْعَرَبِ أَجْمَعٍ وَذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَ الْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالصَّنَائِعِ
 عَلَى الْعِيْدِيِّينَ بِالْقَاهِرَةِ وَصَنَاهُجُهُ عَلَى أُمَرَاءِ أَفْرِيقِيَّةِ وَزَنَاتُهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَمُلُوكِ
 الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمَيَّةَ وَأَقْسَمُوهُ وَأَقْبَرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ فَأَخْتَلَفَتْ
 مَذَاهِبُ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي الْإِخْتِصَاصِ بِالْأَلْقَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَدَّوْا جَمِيعًا
 بِأَسْمِ السُّلْطَانِ فَأَمَّا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ فَكَانَ الْخُلَفَاءُ يُخَوِّضُونَهُمْ بِالْأَقَابِ

تَشْرِيفِيَّةٍ حَتَّى يُسْتَشْعَرَ مِنْهَا أَنْقِيَادُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ وَحُسْنُ وَلَايَتِهِمْ مِثْلَ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَعُضْدِ
الدَّوْلَةِ وَرُكْنِ الدَّوْلَةِ وَمُعِزِّ الدَّوْلَةِ وَنَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَنِظَامِ الْمُلْكِ وَبِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَذَخِيرَةِ
الْمُلْكِ وَأَمثالِ هَذِهِ وَكَانَ الْعَبِيدِيُّونَ أَيْضًا يَخْضَعُونَ بِهَا أُمَرَاءَ صَنْهَاجَةَ فَلَمَّا اسْتَبَدُّوا
عَلَى الْخِلَافَةِ قَنَعُوا بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ وَتَجَافَوْا عَنِ الْقَابِ الْخِلَافَةِ أَدَبًا مَعَهَا وَعُدُولًا عَنْ
مِمَاتِهَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا شَأْنِ الْمُتَغَلِّبِينَ الْمُسْتَبَدِّينَ كَمَا قُلْنَا وَنَزَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَعَاجِمُ
الْمَشْرِقِ حِينَ قَوِيَ اسْتِبْدَادُهُمْ عَلَى الْمُلْكِ وَعَلَا كِبَرُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ وَتَلَاشَتْ
عَصِيَّةُ الْخِلَافَةِ وَأَضْمَحَّتْ بِالْجُمْلَةِ إِلَى انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ الْخَاصَّةِ بِالْمُلْكِ مِثْلِ النَّاصِرِ
وَالْمَنْصُورِ وَزِيَادَةِ عَلَى الْقَابِ يَخْتَصُّونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْإِنْتِحَالِ مُشْعِرَةً بِالْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ
الْوَلَاءِ وَالْأَصْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الَّذِينَ فَقَطْ يَقُولُونَ صَلَاحُ الدِّينِ أَسَدُ الدِّينِ
نُورُ الدِّينِ وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَقْتَسَمُوا الْقَابَ الْخِلَافَةَ وَتَوَزَّعُوهَا لِقُوَّةِ
اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبْلِهَا وَعَصِيَّتِهَا فَلَقَّبُوا بِالْناصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُعْتَمِدِ
وَالْمُظَفَّرِ وَأَمثالِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي شَرَفٍ يَتَعَى عَلَيْهِمْ

مِمَّا يَزِيدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ

الْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْمَرْءِ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَأَقْتَصَرُوا عَنِ الْأَلْقَابِ الَّتِي كَانَتْ الْخُلَفَاءُ الْعَبِيدِيُّونَ يَلْقَبُونَ بِهَا لِتَنَوُّبِهِ مِثْلَ
نَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَمُعِزِّ الدَّوْلَةِ وَاتَّصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِدَعْوَةِ
الْعَبَّاسِيِّينَ ثُمَّ بَعْدَتْ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسُوا عَهْدَهَا فَتَنَسَوْا هَذِهِ الْأَلْقَابَ وَأَقْتَصَرُوا
عَلَى أَسْمِ السُّلْطَانِ وَكَذَا شَأْنُ مُلُوكِ مَغْرَاوَةِ بِالْمَغْرِبِ لَمْ يَنْتَحِلُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ
إِلَّا أَسْمَ السُّلْطَانِ جَزِيًّا عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاضَةِ وَلَمَّا عُجِيَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَعَطَّلَ
دَسْتُهَا وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ قِبَالِ الْبَرْبَرِ يُوسُفُ بْنُ نَاشِفِينَ مَلِكُ لِحْتُونَةَ فَمَلَكَ الْعُدُونَتَيْنِ
وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْإِقْتِدَاءِ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَكْمِيلًا
لِعَرَامِهِ دِينِهِ فَخَاطَبَ الْمُسْتَظْهِرَ الْعَبَّاسِيَّ وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ يَبْعَتُهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبْنَهُ
الْقَاضِي أَبَا بَكْرٍ مِنْ مَشِيخَةِ إِشْبِيلِيَّةَ يَطْلُبَانِ تَوَلِيَّتَهُ إِيَّاهَا عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدَهُ ذَلِكَ
فَانْقَلَبُوا إِلَيْهِ بِعَهْدِ الْخِلَافَةِ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَاسْتَشْعَارِ زِيَرَتِهِمْ فِي لُبُوسِهِ وَرُتْبَتِهِ وَخَاطَبَتِهِ
فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفًا وَاخْتِصَاصًا فَاتَّخَذَهَا لِقَبًا وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ دُعَايَ لَهُ يَا مِيرَ

الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِ أَدْبَا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُرَابِطُونَ مِنْ انْتِحَالِ
 الدِّينِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَجَاءَ الْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ أَخَذًا بِمَذَاهِبِ
 الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِيًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ السَّلَفِ فِي تَرْكِ التَّأْوِيلِ
 لِقَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ وَمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ التَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ
 وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ تَعْرِيفًا بِذَلِكَ النَّصِيرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي
 الْأِمَامِ الْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ هَذَا الْعَالَمِ فَسَمَّى
 بِالْإِمَامِ لِمَا فُلِنَاهُ أَوَّلًا مِنْ مَذْهَبِ الشَّيْعَةِ فِي الْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأَزْدَفَ بِالْمَعْصُومِ
 إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ الْإِمَامِ وَتَنَزَّهَ عِنْدَ أَتْبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَخَذًا
 بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَلِمَا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ الْأَغْمَارِ وَالْوِلْدَانِ مِنْ أَعْقَابِ
 أَهْلِ الْخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ انْتَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ الْقَبَّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلَفَاؤُهُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَالْأَبِي حَنْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثْنَارًا بِهِ
 عَنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ
 بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ لَانْتِفَاءِ عَصِيَّةِ فَرِيشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَلِكَ دَائِهِمْ وَلَمَّا
 انْتَقَضَ الْأَمْرُ بِالْمَغْرِبِ وَانْتَزَعَتْ زَنَانَةُ ذَهَبَ أَوَّلُهُمْ مَذَاهِبَ الْبِدَاوَةِ وَالسَّدَاجَةِ وَأَتْبَاعُ
 لِمَثُونَةٍ فِي انْتِحَالِ الْقَبِّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَدْبَا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا
 لِبَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَوَّلًا وَلِبَنِي أَبِي حَنْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ تَزَعَّ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَبِّ
 بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَانْتَحَلُوهُ لِهَذَا الْعَهْدِ اسْتِبْلَاغًا فِي مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَتَسْمِيمًا لِمَذَاهِبِهِ
 وَمِمَّاتِهِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

إِعْلَمَ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ بِحَمْلِهِمْ عَلَى أَحْكَامِهَا وَشَرَائِعِهَا
 وَيَكُونُ كَالْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ أَيْضًا بِمَا
 تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ السِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ بِحَمْلِهِمْ عَلَى
 مَصَالِحِهِمْ وَيَزَعُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِالْقَهْرِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْمَلِكِ وَالْمِلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَمَّا
 كَانَ الْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُمُومِ الدَّعْوَةِ وَحَمْلِ السَّكَاةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ

كُرْهَا اتَّخَذَتْ فِيهَا الْخِلَافَةَ وَالْمَلِكُ لَتَوَجَّهَ الشُّوْكَةُ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا إِلَيْهِمَا مَعًا وَأَمَّا
مَا سِوَى الْعَمَلَةِ إِلَّا سَلَامِيَّةٌ فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عَامَةً وَلَا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ مَشْرُوعًا إِلَّا
فِي الْمُدَافَعَةِ فَقَطْ فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا
وَقَعَ الْمَلِكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَلِأَمْرِ غَيْرِ دِينِي وَهُوَ مَا أَفْتَضَتْهُ لَهُمُ الْعَصِيَّةُ لِمَا
فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمَلِكِ بِالطَّبَعِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ بِالْغَلَبِ عَلَى الْأَمْرِ
كَمَا فِي الْعَمَلَةِ إِلَّا سَلَامِيَّةٌ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي خَاصَّتِهِمْ وَلِذَلِكَ بَقِيَ
بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا نَحْوًا أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لَا يَعْتَنُونَ
بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُمُومُهُمْ إِقَامَةُ دِينِهِمْ فَقَطْ وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ يَنْتَهِي بِسَمِيِّ
الْكُوهِنِ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُقِيمُ لَهُمُ أَمْرَ الصَّلَاةِ وَالْقُرْبَانِ وَيَشْتَرِطُونَ
فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَةِ هَارُونَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يُعْقِبْ ثُمَّ اخْتَارُوا
لِلْإِقَامَةِ السِّيَاسَةَ الَّتِي هِيَ لِلْبَشَرِ بِالطَّبَعِ سَبْعِينَ سَنَةً كَانُوا يَتْلُونَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَّةَ
وَالْكُوهِنُ أَعْظَمُ مِنْهُمْ رُتَبَةً فِي الدِّينِ وَأَبْعَدُ عَنْ شُغْبِ الْأَحْكَامِ وَابْتَصَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ
إِلَى أَنْ اسْتَحْكَمَتْ طَبِيعَةُ الْعَصِيَّةِ وَتَحَضَّتِ الشُّوْكَةُ لِلْمَلِكِ فَغَلَبُوا الْكَنْعَانِيِّينَ عَلَى
الْأَرْضِ الَّتِي أَوْزَعَهُمُ اللَّهُ يَنْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا جَاوَرَهَا كَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَنَارَبَتْهُمْ أُمُّ الْفِلِسْطِينِ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْأَرَمْنَ وَأَزْدُنَّ وَعَمَّانَ
وَمَارِبَ وَرِثَاسَتَهُمْ فِي ذَلِكَ رَاجِعَةً إِلَى شُبُوحِهِمْ وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ
سَنَةٍ وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ صَوْلَةُ الْمَلِكِ وَضَجَرُ بَنِي طَالُوتَ وَغَلَبَ الْأَمُّ وَقُتِلَ جَالُوتُ مَلِكُ
الْفِلِسْطِينِ ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاوُدُ ثُمَّ سَلِمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَاسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ وَأَمْتَدَّ
إِلَى الْحِجَازِ ثُمَّ أَطْرَافِ الْيَمَنِ ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الرُّومِ ثُمَّ أَقْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَعْدِ
سَلِمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ فِي الدُّوَلِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَى دَوْلَتَيْنِ كَانَتَا
إِحْدَاهُمَا بِالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشْرَةِ وَالْآخَرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ لِبَنِي يَهُوذَا
وَبَنِيَامِينَ ثُمَّ غَلِبَهُمْ بَحْتَ نَصْرٍ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَوَّلًا الْأَسْبَاطُ
الْعَشْرَةَ ثُمَّ ثَانِيًا بَنِي يَهُوذَا وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بَعْدَ اتِّصَالِ مُلْكِهِمْ نَحْوًا أَلْفَ سَنَةٍ وَخَرَبَ
مَسْجِدَهُمْ وَأَخْرَقَ تَوْرَاتَهُمْ وَأَمَاتَ دِينَهُمْ وَثَقَلَهُمْ إِلَى أَصْبَهَانَ وَبِلَادِ الْعِرَاقِ إِلَى أَنْ
رَدَّهُمْ بَعْضُ مُلُوكِ الْكَلْبَانِيَّةِ مِنَ الْفُرْسِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ

خُرُوجِهِمْ فَبَنَوْا الْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى الرَّسْمِ الْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ فَقَطَّ وَالْمَلِكُ
لِلْفُرسِ ثُمَّ غَابَ الْأَيْمَنُ وَبَنُو يُونَانَ عَلَى الْفُرسِ وَصَارَ الْيَهُودُ فِي مَلَكِيَّتِهِمْ ثُمَّ
فَشَلَ أَمْرُ الْيُونَانِيِّينَ فَأَعْتَزَّ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ بِالْعَصِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ وَدَفَعُوهُمْ عَنْ الْأَسْتِيلَاءِ
عَلَيْهِمْ وَقَامَ بِمَلَكِيَّتِهِمُ الْكَهَنَةُ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ بَنِي حَشْمَنَائِي وَقَاتَلُوا يُونَانَ حَتَّى
انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَغَلِبَهُمُ الرُّومُ فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَفِيهَا
بَنُو هِيرُودُسَ أَصْنَهَارُ بَنِي حَشْمَنَائِي وَبَقِيَتْ دَوْلَتُهُمْ مُحَاصِرُوهُمْ مُدَّةً ثُمَّ أَفْتَقَوْهَا عَنْوَةً
وَأَفْتَحُوا فِي الْقَتْلِ وَالْهَدْمِ وَاتَّخَرُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةٍ وَمَا
وَرَاءَهَا وَهُوَ الْخَرَابُ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ وَبَسَمِيَ الْيَهُودُ بِالْجُلُودِ الْكُبْرَى فَلَمْ يَقُمْ لَهُمْ
بَعْدَهَا مَلِكٌ لِفُقْدَانِ الْعَصِيَّةِ مِنْهُمْ وَبَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَلَكَةِ الرُّومِ مِنْ بَعْدِهِمْ يُقِيمُ
لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمُ الرَّئِيسُ عَلَيْهِمُ الْمُسَمَّى بِالْكُوهِنِ ثُمَّ جَاءَ الْمَسِيحُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَالنَّسْخِ لِبَعْضِ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ
الْعَجِيبَةُ مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
وَأَمْنَوِيهِ وَأَكْثَرُهُمُ الْخَوَارِثُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ وَبَعَثَ مِنْهُمْ رُسُلًا إِلَى
الْأَفَاقِ دَاعِينَ إِلَى مِلَّتِهِ وَذَلِكَ أَيَّامَ أَوْغُسْطُسَ أَوَّلِ مُلُوكِ الْقِيَامِيرَةِ وَفِي مُدَّةِ هِيرُودُسَ
مَلِكِ الْيَهُودِ الَّذِي أَنْزَعَ الْمَلِكُ مِنْ بَنِي حَشْمَنَائِي أَصْنَهَارِهِ فَحَسَدَهُ الْيَهُودُ وَكَذَّبُوهُ
وَكَتَبَ هِيرُودُسُ مَلِكُهُمْ مَلِكَ الْقِيَامِيرَةِ أَوْغُسْطُسَ يُغْرِيبُهُ بِهِ فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ
وَوَقَعَ مَا تَلَاهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ وَافْتَرَقَ الْخَوَارِثُونَ شَيْعًا وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ الرُّومِ
دَاعِينَ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَ بِطَرُسُ كَبِيرُهُمْ فَتَزَلَّ بِرُومَةٍ دَارَ مَلِكِ الْقِيَامِيرَةِ ثُمَّ
كَتَبُوا الْإِنْجِيلَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي نُسْخِ أَرْبَعٍ عَلَى اخْتِلَافٍ
رَوَايَاتِهِمْ فَكَتَبَ مَتَّى إِنْجِيلَهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَتَقَلَّهُ يُوْحَنَّا بْنُ زَبْدِي
مِنْهُمْ إِلَى اللِّسَانِ اللَّاتِينِيِّ وَكَتَبَ لَوْقَا مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِاللَّاتِينِيِّ إِلَى بَعْضِ أَكْبَارِ الرُّومِ
وَكَتَبَ يُوْحَنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِرُومَةٍ وَكَتَبَ بِطَرُسُ إِنْجِيلَهُ بِاللَّاتِينِيِّ وَنَسَبَهُ
إِلَى مَرْقَاصَ تَلْمِيزِهِ وَاخْتَلَفَتْ هَذِهِ النُّسُخُ الْأَرْبَعُ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا
وَحْيًا صَرَفًا بَلْ مَشُوبَةٌ بِكَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِكَلَامِ الْخَوَارِثِينَ وَكُلُّهَا مَوَاعِظُ
وَفِصَصٌ وَالْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جِدًّا وَاجْتَمَعَ الْخَوَارِثُونَ الرُّسُلُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ بِرُومَةٍ

وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَصَبَرُوهَا بِيَدِ أَفْلِيْمَنْطُسَ تَلَمِيذِ بَطْرُسَ وَكَتَبُوا فِيهَا
عَدَدَ الْكُتُبِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا مِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ الثَّوَرَةِ وَهِيَ خَمْسَةُ
أَسْفَارَ وَكِتَابُ يُوشَعَ وَكِتَابُ الْقَضَاءِ وَكِتَابُ رَاعُوثَ وَكِتَابُ يَهُوذَا وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ
أَرْبَعَةٌ وَسَفَرُ بَنِيَامِينَ وَكُتُبُ الْمُقَاتِلِينَ لِابْنِ كَرْيُونَ ثَلَاثَةٌ وَكِتَابُ عَزْرَا الْإِمَامِ
وَكِتَابُ أُوشِيرَ وَفِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابُ أَيُّوبَ الصِّدِّيقِ وَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكُتُبُ
أَبْنَةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ وَنُبُوءَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ سِتَّةٌ عَشَرَ وَكِتَابُ
يَشُوعَ بْنِ شَارِخَ وَزِيرِ سُلَيْمَانَ وَمِنْ شَرِيعَةِ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَقَاتِلُونَ مِنَ
الْحَوَارِيِّينَ نُسَخُ الْإِنْجِيلِ الْأَرْبَعِ وَكُتُبُ الْقِتَالِيْقُونَ سَبْعُ رِسَائِلَ وَثَامِنُهَا الْإِبْرِيْكَيْسُ
فِي قِصَصِ الرُّسُلِ وَكِتَابُ بُولُسَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ رِسَالَةً وَكِتَابُ أَفْلِيْمَنْطُسَ وَفِيهِ الْأَحْكَامُ
وَكِتَابُ أَبُوغَالْمِيسَ وَفِيهِ رُؤْيَا بُوحَنَّا بْنِ زَبْدِي وَأَخْتَلَفَتْ شَأْنُ الْقِيَامَةِ فِي الْأَخْذِ
بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ تَارَةً وَتَعْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرْكِيهَا أُخْرَى وَالتَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ وَالْبَغْيِ إِلَى
أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَأَخَذَ بِهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا وَكَانَ صَاحِبُ هَذَا الدِّينِ وَالْمَقِيمِ
لِمِرَاسِيْمِهِ يُسَمُّونَهُ الْبَطْرِكَ وَهُوَ رَأِيسُ الْمِلَّةِ عِنْدَهُمْ وَخَلِيفَةُ الْمَسِيحِ فِيهِمْ يَبْعَثُ
نُوَابَهُ وَخُلَفَاءَهُ إِلَى مَا بَعْدَ عَنْهُ مِنْ أُمَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْأَسْقَفَ أَيْ نَائِبَ الْبَطْرِكَ
وَيُسَمُّونَ الْإِمَامَ الَّذِي يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُقْتِهِمُ فِي الدِّينِ بِالْقِسْيسِ وَيَسْمُونُ الْمُنْقَطِعَ
الَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي الْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ بِالرَّاهِبِ وَأَكْثَرُ خُلَوَاتِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ وَكَانَ
بَطْرُسُ الرُّسُولُ رَأْسُ الْحَوَارِيِّينَ وَكَبِيرُ التَّلَامِيذِ بِرُومَةِ يَقِيمُ بِهَا دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ إِلَى
أَنْ قَتَلَهُ نِيرُونُ خَامِسُ الْقِيَامَةِ فِيمَنْ قَتَلَ مِنَ الْبَطَارِيقِ وَالْأَسَاقِفَةِ ثُمَّ قَامَ بِخِلَافَتِهِ فِي
كُرْسِيِّ رُومَةِ آريُّوسُ وَكَانَ مَرَقَاسُ الْإِنْجِيلِيِّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ دَاعِيَا
سَبْعَ سِنِينَ فَقَامَ بَعْدَهُ حَنَانِيَا وَتَسَمَّى بِالْبَطْرِكَ وَهُوَ أَوَّلُ الْبَطَارِكَةِ فِيهَا وَجَعَلَ مَعَهُ
اِثْنَيْ عَشَرَ قِسًّا عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَاتَ الْبَطْرِكَ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنَ اِثْنَيْ عَشَرَ مَكَانَهُ وَيَخْتَارُ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدًا مَكَانَ ذَلِكَ الثَّانِي عَشَرَ فَكَانَ أَمْرُ الْبَطَارِكَةِ إِلَى الْقُسُوسِ ثُمَّ لَمَّا
وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي قَوَاعِدِ دِينِهِمْ وَعَقَائِدِهِ وَاجْتَمَعُوا بِبَيْتِيَّةِ أَيَّامَ قُسْطَنْطِينِ
لِتَحْرِيرِ الْحَقِّ فِي الدِّينِ وَاتَّفَقَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ عَشَرَ مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي
الدِّينِ فَكُتِبَ وَتَسَمُّوهُ الْإِمَامَ وَصَبَرُوهُ أَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَكَانَ فِيْمَا كُتِبَ أَنَّهُ

البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسمة كما قرره حنايا تلميذ
مِرْقاس وأبطلوا ذلك الرأي وإنما يقدم عن بلاء واختيار من أئمة المؤمنين
ورؤسائهم فبقي الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم
مُجْتَمَعَات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الأمر فيها على ذلك واتصل
فيهم نبأ الأساقفة عن البطارقة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالآب أيضاً
تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل باسكندرية
فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه الآباً ومعناه أبو الآباء
وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم
نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي بطرُس الرسول كما قدمناه
فلم يزل نعمة عليه حتى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه
في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه
فأختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث
طوائف هي فرقتهم ولا يلتفتون إلى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ثم
اختصت كل فرقة منهم بطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالآباً على رأي
الملكية ورومة للافرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر
على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين طوائفهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر
فيهم أساقفة يتوبون عنه في إقامة دينهم هنالك واختص اسم الآباً بطرك رومة
لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدين
من أسفل والنطق بها مخففة والثانية مشددة ومن مذاهب الآباً عند الافرنجة أنه
يخصهم على الانتقاد لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تخرجاً من
افتراق الكلمة ويشعري به العصية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على
جميعهم ويسمونه الآبَرْدُور^(١) وحرفه الوسطيين الذال والظاء المعجمتين ومباشرة
يضع التاج على رأسه للثبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظه الآبَرْدُور وهذا

(١) المشهور قديماً إمبراطور بالطاء المبهمة والفرنيس قول إمبرور ومعناها عندهم ملك الملوك

مُخَصَّصٌ مَا أَوْزَدَنَاهُ مِنْ شَرْحِ هَذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ الَّذِينَ هُمَا الْبَابَا وَالْكُوهِنُ وَاللَّهُ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقاها

إِعْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يُحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِأَنْبَاءِ
جَنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةٍ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مِهْنِهِ ^(١) فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ
وَمَنْ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ الْكَافَّةِ مِنْ عَدُوِّهِ بِالْمُدَافَعَةِ
عَنْهُمْ وَإِلَى كَفِّ عَدُوَّانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْرَاءِ الْأَحْكَامِ الْوَاظِعَةِ
فِيهِمْ وَكَفِّ الْعَدُوَّانِ عَلَيْهِمْ فِي أُمُورِهِمْ بِإِصْلَاحِ سَائِلَتِهِمْ وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ
وَمَا تَعْمَهُمْ بِهِ الْبُلُوكَى فِي مَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ مِنْ تَقْقُدِ الْمَعَاشِ وَالْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ
حَذَرًا مِنَ التَّطَفِيفِ وَإِلَى النَّظَرِ فِي السِّكَّةِ بِحِفْظِ النُّقُودِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْغَشِّ
وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ وَالرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَاتِّفَادِهِ
بِالْحِجْدِ دُونَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ
مِنَ الْحُكَمَاءِ لِمُعَانَاةِ ثَقَلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَا كَيْهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ
إِنَّ الْإِسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأُولِي الْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ أَوْ التَّزْيِيَةِ أَوْ الْأَصْطِنَاعِ
الْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ إِمَّا يَقَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خَلْقِهِمْ لِخَلْقِهِ فَنُتِمَّ الْمَشَاكَلَةُ
فِي الْإِسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي
وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ
أَوْ بِجُجَابِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيُسْغِلُوهُ عَنِ النَّظَرِ فِي مِهْمَاتِهِمْ أَوْ يَدْفَعِ النَّظَرَ
فِي الْمُلْكِ كُلِّهِ وَيُعَوِّلَ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذَلِكَ وَأَضْطِلَاعِهِ فَلِذَلِكَ قَدْ تَوَجَّدُ فِي رَجُلٍ
وَاحِدٍ وَقَدْ تَفَرَّقُ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَتَفَرَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَالْقَلَمِ
يَتَفَرَّعُ إِلَى قَلَمِ الرِّسَالِ وَالْمُخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ الصُّكُوكِ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ الْحَاسِبَاتِ
وَهُوَ صَاحِبُ الْجِبَايَةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيَوَانِ الْجَيْشِ وَكَالسَّيْفِ يَتَفَرَّعُ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْبِ

وَصَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ وَوَلَايَةِ الثُّغُورِ ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ الْوُظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُنْدرِجَةٌ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِاحْتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الدَّيْنِ وَالْدُّنْيَا كَمَا قَدْ مَنَاهُ قَالَا أَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةِ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةٌ إِكْلٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَالْفَقِيهُ يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا اسْتِغْنَاءً عَلَى الْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانِ أَوْ تَعْوِيضًا مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي وَفِي نَظَرِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَمْوَالِ وَسَائِرِ السِّيَاسَاتِ مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا وَفِي مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَكَذَا فِي سَائِرِ الْوُظَائِفِ الَّتِي تَحْتَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ وَزَارَةٍ أَوْ جَبَايَةِ أَوْ وَلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنَ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ كَمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ انْسِحَابِ حُكْمِ الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِلَّا أَنْ كَلَامَنَا فِي وُظَائِفِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَرُتْبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ الْأَمْرِانِ وَوُجُودِ الْبَشَرِ لَا يَمَّا يَخْصُهَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا مَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَاوَرَدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ الْفُقَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ اسْتِغْنَاءً مَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَاكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَاهَا لِتَمَيِّزِ بَيْنِهَا وَبَيْنِ الْوُظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا تَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ يَمَّا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْأَمْرِانِ فِي الْوُجُودِ إِلَّا نَسَانِي وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ

الوزارة * وَهِيَ أُمُّ الْخَطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالرُّتَبِ الْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْإِعَانَةِ فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَا خُوذَةُ إِمَّا مِنْ الْمُوَازَرَةِ وَهِيَ الْمَعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ وَهُوَ الثَّقَلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مَفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمَعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ وَقَدْ كُنَّا قَدْ مَنَّا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الْكَفَاةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجِدِّ وَالسِّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارِفُ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ بِالشَّرْقِ وَلِهَذَا الْعَهْدُ بِالْمَغْرِبِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُ فِي

أُمُورِ جِبَايَةِ الْمَالِ وَإِتْفَاقِهِ وَضَبْطُ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضَبَّةٍ وَصَاحِبُ
هَذَا هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجِبَايَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ وَإِمَّا أَنْ
يَكُونَ فِي مُدَافَعَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزِدَّحُوا عَلَيْهِ فَيُشْغِلُوهُ عَنْ فَهْمِهِ وَهَذَا
رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَحْتَجُّهُ فَلَا تَعْدُو أَحْوَالُهُ هَذِهِ إِلَّا زُبَّةً بِوَجْهِ وَكُلُّ خِطِيئَةٍ
أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتَبِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ إِلَّا أَنْ الْأَرْفَعَ مِنْهَا مَا كَانَتْ الْإِعَانَةُ
فِيهِ عَامَّةً فَمَا تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ مِنْ ذَلِكَ الصِّنْفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مُبَاشَرَةَ السُّلْطَانِ دَائِمًا
وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَحْوَالِ مُلْكِهِ وَأَمَّا مَا كَانَ خَاصًا بِبَعْضِ النَّاسِ أَوْ
بِبَعْضِ الْجِهَاتِ فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الْأُخْرَى كَقِيَادَةِ ثَغَرٍ أَوْ وَلَايَةِ جِبَايَةٍ خَاصَّةٍ أَوْ
النَّظَرِ فِي أَمْرِ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ أَوْ النَّظَرِ فِي السِّكَّةِ فَإِنْ هَذِهِ كُلُّهَا نَظَرٌ فِي
أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعَامِّ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرُوسَةً لِأَوَّلِيكَ
وَمَا زَالَ الْأَمْرُ فِي الدُّوَلِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هَكَذَا حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَصَارَ الْأَمْرُ خِلَافَةً
فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخِطَطُ كُلُّهَا يَذْهَبُ رِسْمُ الْمَلِكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ مِنَ الْمَعَاوَنَةِ بِالرَّأْيِ
وَالْمُفَاوَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ وَيُفَاوِضُهُمْ فِي مُهِمَّاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَيَخُصُّ مَعَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ
بِمُخْصِصَاتٍ أُخْرَى حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّوَلَ وَأَحْوَالَهَا فِي كِسْرَى وَقَبَصَرٍ
وَالنَّجَاشِيِّ يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِلذَّهَابِ
رُتْبَةُ الْمَلِكِ بِسَدَاجَةِ الْإِسْلَامِ وَكَذَا عُمَرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ وَأَمَّا
حَالُ الْجِبَايَةِ وَالْإِتْفَاقِ وَالْحِسَابِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أُمِّيِّينَ
لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ أَفْرَادًا
مِنْ مَوَالِي النِّجْمِ مِمَّنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ
لِأَنَّ الْأُمِّيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ الَّتِي أَمْتَارُوا بِهَا وَكَذَا حَالُ النُّحَاطَاتِ وَتَنْفِيدِ الْأُمُورِ لَمْ
تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةٌ خَاصَّةٌ لِلْأُمِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَالْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ فِي كِتْمَانِ الْقَوْلِ
وَتَأْدِيتِهِ وَلَمْ تَخْرُجِ السِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ لِأَنَّ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِيَ دِينٌ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ
الْمُلْكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنْ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً فَيُسْتَجَادُ لِخَلِيفَةِ أَحْسَنُهَا لِأَنَّ
الْكُلَّ كَانُوا يَعْبَرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَبْلَغِ الْعِبَارَاتِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخَطُّ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ

يَسْتَنْبِطُ فِي كِتَابَتِهِ مَتَى عَنْ لَهُ مِنْ يُحْسِنُهُ وَأَمَّا مُدَانَعَةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ
فَكَانَ تَحْظُورًا بِالشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعَلُوهُ فَلَمَّا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ
السُّلْطَانِ وَالْقَابِ كَانَتْ أَوَّلُ شَيْءٍ بَدِئَ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ شَأْنُ الْبَابِ وَسَدُّهُ دُونَ الْجُيُوشِ بِمَا
كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ اغْتِيَالِ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ
وَعُمَرَ بْنِ الْعَاصِ وَغَيْرِهِمْ مَعَ مَا فِي فَتْحِهِ مِنْ أَرْزَاحِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنْ
الْمِهْمَاتِ فَاتَّخَذُوا مِنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَسَمَّوهُ الْحَاجِبَ وَقَدْ جَاءَ أَنْ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا
وَلَّى حَاجِبَهُ قَالَ لَهُ قَدْ وَلَيْتُكَ حِجَابَةَ بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةِ الْمُؤَذِّنِ لِلصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعِي
اللَّهِ وَصَاحِبُ الْبَرِيدِ فَأَمَرَ مَا جَاءَ بِهِ وَصَاحِبِ الطَّعَامِ إِثْمًا يَفْسُدُ ثُمَّ اسْتَفْعَلَ الْمَلِكُ بَعْدَ
ذَلِكَ فَظَاهَرَ الْمُشَاوِرُ وَالْمُعِينُ فِي أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَاسْتِثْلَافِهِمْ وَاطَّاقَ عَلَيْهِ اسْمُ
الْوَزِيرِ وَبَقِيَ أَمْرُ الْحِسْبَانِ فِي الْعَوَالِي وَالذَّمِيمِينَ وَاتَّخَذَ لِلسَّجِلَاتِ كَاتِبٌ مَخْصُوصٌ
حَوْطَةً عَلَى أَسْرَارِ السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهَرَ فَتَفْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِمِثَابَةِ
الْوَزِيرِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَحْيَجُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْخَطُّ وَالْكِتَابُ لَا مِنْ حَيْثُ اللِّسَانُ الَّذِي هُوَ
الْكَلَامُ إِذِ اللِّسَانُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَفْسُدْ فَكَانَتْ الْوِزَارَةُ لِذَلِكَ أَرْفَعَ رُتَبِهِمْ
يَوْمَئِذٍ فِي سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ نَكَانَ النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامًّا فِي أَسْوَاقِ التَّنْذِيرِ وَالْمُفَاوَضَاتِ
وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَا وَالْمُطَالَبَاتِ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي دِيْوَانِ الْجُنْدِ وَفَرْضِ الْعَطَاءِ
بِالْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَاسْتَفْعَلَ الْمَلِكُ وَعَظُمَتْ مَرَاتِبُهُ
وَأَزْدَتْ وَعَظُمَ شَأْنُ الْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ فِي إِتْقَانِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ تَعَيَّنَتْ مَرَاتِبُهُ
فِي الدَّوْلَةِ وَعَنْتَ لَهَا الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهَا الرِّقَابُ وَجُعِلَ لَهَا النَّظَرُ فِي دِيْوَانِ الْحِسْبَانِ
لَمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خِطَّتُهُ مِنْ قِسْمِ الْأَعْطِيَاةِ فِي الْجُنْدِ فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِي جَمْعِهِ وَتَقْرِيقِهِ
وَأُضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ السُّلْطَانِ
وَلِحِفْظِ الْبَلَاغَةِ لِمَا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَجُعِلَ الْخَاتَمُ لِسَجِلَاتِ السُّلْطَانِ
لِيَحْفَظَهَا مِنَ الذِّيَاعِ وَالشِّيَاعِ وَدُفِعَ إِلَيْهِ فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِحِطَّتِي السِّيفِ وَالْقَلَمِ
وَسَائِرِ مَعَانِي الْوِزَارَةِ وَالْمُعَاوَنَةِ حَتَّى أَقْدَمَ دُعَى جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ
إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ مِنَ الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا
الْحِجَابَةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِاسْتِنْسَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ فِي

الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير إذا استبدحت حاجا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام الشرعية وتجي على حالها كما تقدمت فأنقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الأمر لملوك النجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن يتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في القاب لأنهم خول لهم فسدوا بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يعليه به الخليفة من القاب كما تراه في القابهم وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاهم للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة يتحلها بعض الناس فامتنعت وترفع الوزراء عنها لذلك ولأنهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير وأخذوا اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبدادا واستمر الأمر على هذا ثم جاءت دولة الترك آخرًا بمصر فقرأوا أن الوزارة قد أبدلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة التحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مروسة نافصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في مدلوله وأخذوا اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية وأما دولة بني أمية بالاندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم فسدوا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرًا فجعلوا الحسبان المال وزيرًا والترسيل وزيرًا والنظر في حوائج المتظلمين وزيرًا والنظر في أحوال أهل الثغور وزيرًا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم أرتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن

مَجَالِسِهِمْ وَخَصَّوهُ بِأَسْمِ الْحَاجِبِ وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ هَذَا إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ فَأَزْتَفَتِ خِطَّةُ
الْحَاجِبِ وَمَرَّتَبَتُهُ عَلَى سَائِرِ الرُّتَبِ حَتَّى صَارَ مُلُوكُ الطَّوَائِفِ يَنْشَعِلُونَ لِقَبْلِهَا فَأَكْثَرُهُمْ
يَوْمَئِذٍ يُسَمَّى الْحَاجِبَ كَمَا نَذَكَّرُهُ ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ الشَّيْعَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالْقَيْرَوَانِ وَكَانَ
لِلْقَائِمِينَ بِهَا رُسُوحٌ فِي الْبِدَاوَةِ فَأَغْفَلُوا أَمْرَ هَذِهِ الْخِطَطِ أَوَّلًا وَتَفْهِيحِ أَسْمَائِهَا كَمَا
تَرَاهُ فِي أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَغْفَلَتِ الْأَمْرَ
أَوَّلًا لِلْبِدَاوَةِ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى اتِّحَالِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ وَكَانَ أَسْمُ الْوَزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ ثُمَّ
اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الْأُمَوِيِّينَ وَقَلَّدُوهُمْ فِي مَذَاهِبِ السُّلْطَانِ وَاخْتَارُوا أَسْمَ الْوَزِيرِ لِمَنْ
يَحْجُبُ السُّلْطَانُ فِي مَجْلِسِهِ وَيَقِفُ بِالْوُفُودِ وَالْدَاخِلِينَ عَلَى السُّلْطَانِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي تَعْيِينِهِمْ
وخطابهم وَالْآدَابِ الَّتِي تَلْزَمُ فِي الْكُونِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَفَعُوا خِطَّةَ الْحِجَابَةِ عَنْهُ مَا
شَاءُوا وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَيُسَوِّنَ
هَذَا الَّذِي يَقِفُ بِالْأَنَاسِ عَلَى حُدُودِ الْآدَابِ فِي الْإِقَاءِ وَالنَّجِيَّةِ فِي مَجَالِسِ السُّلْطَانِ
وَالْتَقَدُّمِ بِالْوُفُودِ بَيْنَ يَدَيْهِ الدَّوِيدَارِ وَيُضَيِّغُونَ إِلَيْهِ اسْتِئْجَاعَ كَاتِبِ السِّرِّ وَأَخْتِجَابِ
الْبَرِيدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَافِزَةِ وَحَالَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا
الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ يَشَاءُ

(الحِجَابَةُ) * قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْقَبَّ كَانَ مَخْصُوصًا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
وَالْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَيُغْلِقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ لَهُمْ عَلَى
قَدَرِهِ فِي مَوَاقِفِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ مُنْزَلَةً يَوْمًا عَنِ الْخِطَطِ مَرُوسَةً لَهَا إِذِ الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ
فِيهَا بِمَا يَرَاهُ وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرُ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ فَعَلِيَ بِمِصْرَ مَرُوسَةً
إِصْحَابِ الْخِطَّةِ الْعُلِيَّا الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ * وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ
الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانِ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَيَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ
فَمَنْ دُونَهُمْ فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رَفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِهِمْ كَاتِبِينَ حَدِيدٍ وَغَيْرِهِ
مِنْ حِجَابِهِمْ ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْإِسْتِبدَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ اخْتُصَّ الْمُسْتَبْدُ بِأَسْمِ الْحِجَابَةِ لِشَرَفِهَا
فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنَاؤُهُ كَذَلِكَ وَلَمَّا بَدَّوْا فِي مَظَاهِرِ الْمَلِكِ وَأَطْوَارِهِ
جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فَلَمْ يَتْرُكُوا أَعْقَابَهَا وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ شَرَفًا لَهُمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُلْكًا بَعْدَ اتِّحَالِ الْقَابِ الْمَلِكِ وَأَسْمَائِهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي الْوِزَارَتَيْنِ

يَعْنُونَ بِهِ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ وَيَدِلُّونَ بِالْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَّةِ
وَيَدِي الْوِزَارَتَيْنِ عَنْ جَمْعِهِ لِشَيْئَتِي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ
وَأَفْرِيقِيَّةِ ذِكْرٌ لِهَذَا الْأَسْمِ لِلْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرُبَّمَا يُوْجَدُ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيَّينِ
بِمِصْرَ عِنْدَ أَسْتِعْظَامِهَا وَحَضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ لَمْ
تَسْتَمَكِنْ فِيهَا الْحَضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى اتِّحَالِ الْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ الْخِطَطِ وَتَعْيِينِهَا بِالْأَسْمَاءِ
إِلَّا آخِرًا فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الرُّتَبِ إِلَّا الْوِزِيرُ فَكَانُوا أَوَّلًا يَخْصُونَ بِهَذَا الْأَسْمِ
الْكَاتِبَ الْمُتَصَرِّفَ الْمُشَارِكَ لِلسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَابْنِ عَطِيَّةٍ وَعَبْدِ السَّلَامِ
الْكُؤُوبِيِّ وَكَانَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ وَالْأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ
أَسْمُ الْوِزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ كَابْنِ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ وَلَمْ يَكُنْ أَسْمُ
الْحَاجِبِ مَعْرُوفًا فِي دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ * وَأَمَّا بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَكَانَتْ الرِّثَاةُ
فِي دَوْلَتِهِمْ أَوَّلًا وَالتَّقَدُّمُ لَوِزِيرٍ وَالرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ وَكَانَ يُخَصُّ بِاسْمِ شَيْخِ الْمُؤَحِّدِينَ
وَكَانَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْوِلَايَاتِ وَالْعَزَلِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ وَالْحُرُوبِ وَأَخْطَصَ الْحِسْبَانُ
وَالْدِيَّانُ بِرُتْبَةٍ أُخْرَى وَيُسَمَّى مُتَوَلِّيَهَا بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ يَنْظُرُ فِيهَا النَّظَرُ الْمُنْطَلِقُ فِي
الدَّخْلِ وَالخُرْجِ وَيُحَاسِبُ وَيَسْتَخَاصُ الْأَمْوَالَ وَيُعَاقِبُ عَلَى التَّغْرِيطِ وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ
أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ وَأَخْطَصَ عِنْدَهُمُ الْقَلَمُ أَيْضًا بِمَنْ يُجِبِدُ التَّرْسِيلَ وَيُؤْتَمِنُ
عَلَى الْأَسْرَارِ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مُتَعَلِّقِ الْقَوْمِ وَلَا التَّرْسِيلَ بِلِسَانِهِمْ فَلَمْ
يُشْتَرَطْ فِيهِ النَّسَبُ وَاحْتِجَاجُ السُّلْطَانِ لِاتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ الْمُؤْتَرِّقِينَ بِدَارِهِ إِلَى
قَهْرَمَانٍ خَاصٍّ بِدَارِهِ فِي أَحْوَالِهِ يُعْجِرُهَا عَلَى قَدَرِهَا وَتَرْزِيهِهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَاءٍ وَكُسُوفٍ
وَنَفَقَةٍ فِي الْمَطَابِخِ وَالْإِصْطِبَلَاتِ وَغَيْرِهَا وَحَضَرَ الدَّخِيرَةَ وَتَنْفِيدَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي
ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْحَيَاةِ فَخَصَّوهُ بِأَسْمِ الْحَاجِبِ وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ الْعَلَامَةِ عَلَى
السَّجِلَاتِ إِذَا اتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ غَيْرِهِ وَاسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى
ذَلِكَ وَحَجَبَ السُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ فَصَارَ هَذَا الْحَاجِبُ وَاسِطَةً بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ أَهْلِ
الرُّتَبِ كُلِّهِمْ ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرَ الدَّوْلَةِ السَّيْفُ وَالْحَرْبُ ثُمَّ الرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ فَصَارَتْ الْخِطَّةُ
أَرْفَعَ الرُّتَبِ وَأَوْعَبَهَا لِلْخِطَطِ ثُمَّ جَاءَ الْأَسْتَبْدَادُ وَالْحَجَرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ السُّلْطَانِ الثَّانِي عَشَرَ
مِنْهُمْ ثُمَّ اسْتَبَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ حَفِيدُهُ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَذْهَبَ آثَارُ الْحَجَرِ

وَالْإِسْبِدَادُ بِإِذْهَابِ خِطَّةِ النِّجَابَةِ الَّتِي كَانَتْ سُلْمًا إِلَيْهِ وَبَاشَرًا أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ
اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي رُزَيْنَ فَلَا أَثَرَ لِأَسْمِ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ
وَأَمَّا رِئَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ وَرُتَبَةُ الْقَلَمِ فِي الْحِسْبَانِ وَالرِّسَالِ رَاجِعَةٌ
إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنْ اخْتَصَّتْ بَعْضُ الْيُوتِ الْمُصْطَفِيِّينَ فِي دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ
تَجَمَّعَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تَفَرَّقَ وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحُجَّتُهُ عَنِ الْعَامَةِ فَهِيَ رُتَبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيَسَى
صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمَرْوَارِ وَمَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجُنَادِ وَالْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِي
تَنْفِيزِ أَوْامِرِهِ وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ وَإِنْ زَالَ سَطَوَاتِهِ وَحَفِظَ الْمُتَقَلِّينَ فِي سُجُونِهِ وَالْعَرِيفُ
عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَالْبَابُ لَهُ وَأَخَذَ النَّاسُ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَةِ رَاجِعٌ
إِلَيْهِ فَكَانَتْهَا وَزَارَةُ صُغْرَى ١٠ وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ
الْأَلْقَابِ وَلَا تَمَيِّزُ الْخِطَطِ لِبِدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخْصُونَ بِأَسْمِ الْحَاجِبِ فِي
بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُنْفَذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَدْ
يَجْمَعُونَ لَهُ الْحِسْبَانِ وَالسَّجَلِ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَاهُ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي
نَبْعَتِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَالْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحِسْبَانِ وَتَنْفِيزِ حَالِ السُّلْطَانِ
وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ
وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خِطَّةً عَلَى السَّجَلَاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعَامَةِ كَمَا الْغَيْرُ مِنْ الدُّوَلِ
وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ فَأَسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِلْحَاكِمِ مِنْ أَهْلِ الشُّوَكَةِ وَهُمْ التُّرْكُ
يُنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةِ
النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ التَّوَايَةِ وَالْعَزَلُ
فِي بَعْضِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْأَحْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَتَتَبَعُ وَتَنْفِذُ أَوْامِرُهُ
كَمَا تَنْفِذُ الْمَرَّاسِمِ السُّلْطَانِيَّةُ وَكَانَ لَهُ النِّيَابَةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ وَالْحُجَابِ الْحُكْمُ فَقَطْ
فِي طَبَقَاتِ الْعَامَةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ وَإِجْبَارٍ مَنْ أَبَى الْإِتْقَادَ لِلْحُكْمِ وَطَوْرُهُمْ
تَحْتَ طَوْرِ النِّيَابَةِ وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى
اِخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي الْأَتْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ

أَوْ الْجَرَائِزِ الْمُقَدَّرَةِ وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ التَّوَلِيَّةُ وَالْعَزْلُ فِي سَائِرِ الْعُمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لَهُدِهِ
الْجَبَايَةِ وَالتَّنْفِيزِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَتَبَايُنِ أَسْمَائِهِمْ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا
الْوَزِيرُ مِنْ صِنْفِ الْقَبِيضِ الْقَائِمِينَ عَلَى دِيَوَانِ الْحِسَابِ وَالْجَبَايَةِ لِاخْتِصَامِهِمْ بِذَلِكَ فِي
مِصْرَ مِنْذُ عَصْرِ قَدِيمَةٍ وَقَدْ يُؤَلِّهَا السُّلْطَانُ بَعْضَ الْأَخْيَانِ لِأَهْلِ الشُّوَكَةِ مِنْ رِجَالَاتِ
الْثَرِكِ أَوْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى حَسَبِ الدَّاعِيَةِ لِذَلِكَ وَاللَّهُ مُدِيرُ الْأُمُورِ وَمُصَرِّفُهَا بِحِكْمَتِهِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

ديوان الاعمال والجبایات

إِعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ مِنَ الْوُظَائِفِ الْفَرُورِيَّةِ لِلْمَلِكِ وَهِيَ الْقِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ
الْجَبَايَاتِ وَحِفْظِ حُقُوقِ الدَّوْلَةِ فِي الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ وَإِحْصَاءِ الْعَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَتَقْدِيرِ
أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفِ أُعْطِيَاتِهِمْ فِي إِبَائَاتِهَا وَالرُّجُوعِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوَانِينِ الَّتِي يُرْتَبِهَا قَوْمَةُ
تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَقَهَارَةِ الدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَفَاصِيلِ ذَلِكَ فِي
الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ مَبْنِيٌّ عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْمَهَرَّةُ مِنْ أَهْلِ
تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ الْكِتَابُ بِالْذِيَوَانِ وَكَذَلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ الْعُمَالِ
الْمُبَاشِرِينَ لَهَا * وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ أَنَّ كِسْرَى نَظَرَ يَوْمًا إِلَى كِتَابِ
دِيَوَانِهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَانَتْهُمْ يُعَادِثُونَ فَقَالَ دِيَوَانُهُ أَيُّ تَجَانِينَ بُلَغَةُ الْفُرْسِ
فَسَمِّيَ مَوْضِعُهُمْ بِذَلِكَ وَحُذِفَتِ الْهَاءُ لِكَثْرَةِ الْأَسْتِعْمَالِ تَغْفِيْفًا فَقِيلَ دِيَوَانٌ ثُمَّ نُقِلَ هَذَا
الْإِسْمُ إِلَى كِتَابِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَالْحِسَابَاتِ وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمٌ
لِلشَّيَاطِينِ بِالْفَارِسِيَّةِ سُمِّيَ الْكِتَابُ بِذَلِكَ لِسُرْعَةِ تَقْوِيزِهِمْ فِي فَهْمِ الْأُمُورِ وَوَقُوفِهِمْ عَلَى
الْجُلِيِّ مِنْهَا وَالْخَفِيِّ وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَدَّ وَتَفَرَّقَ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتِلْكَ الْأَعْمَالِ
وَعَلَى هَذَا فَيَتَنَاوَلُ اسْمُ الدِّيَوَانِ كِتَابَ الرِّسَالِ وَمَعَكَانَ جُلُوسِهِ بِيَابِ السُّلْطَانِ عَلَى مَا
يَأْتِي بَعْدُ وَقَدْ تَفَرَّدُ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ بِنَظَرٍ وَاحِدٍ يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ يُفَرَّدُ
كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بِنَظَرٍ كَمَا يُفَرَّدُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ النَّظَرُ فِي الْعَسَاكِرِ وَإِفْطَاعَاتِهِمْ
وَحِسَابِ أَعْطِيَاتِهِمْ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ الدَّوْلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوَّلُهَا . وَاعْلَمْ
أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي الدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الْغَلْبِ وَالْإِسْتِبْلَاءِ وَالنَّظَرِ فِي
أَعْطَافِ الْمَلِكِ وَقُنُونِ التَّمْهِيدِ وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيَوَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْأَيْسَلَامِيَّةِ عُمَرُ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَالُ لِسَبَبٍ مَا لَأَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَأَسْتَكْتَرُوهُ
 وَتَعَبُوا فِي قَسَمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبْطِ الْعَطَاءِ وَالْحَقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ
 الْوَلِيدِ بِالْدِيَّانِ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ يَدْوِنُونَ فَقِيلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ
 الْهَرَمِيَّانُ لَمَّا رَأَاهُ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيَّانٍ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ بِهِ لَمْ يَغِيْبَةٍ مِنْ بَغِيْبٍ مِنْهُمْ
 فَإِنْ مَنْ تَخَلَّفَ أَخْلَ بِمَكَانِهِ وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ فَأَثَبَتْ لَهُمْ دِيَّانًا وَسَأَلَ
 عُمَرُ عَنْ أَسْمِ الدِّيَّانِ فَعَبَّرَ لَهُ وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرَ عَقِيلَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَخُزَيْمَةَ
 ابْنِ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرُ بْنُ مَطْعَمٍ وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ فَكَتَبُوا دِيَّانَ الْعَسَاكِرِ الْأَسْلَامِيَّةِ
 عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قُرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ
 فَأَلْفَاقُ هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ دِيَّانِ الْجَيْشِ وَرَوَى الزُّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْمُسَيَّبِ
 أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ عِشْرِينَ وَأَمَّا دِيَّانُ الْخُرَاجِ وَالْجَبَايَا فَبَقِيَ بَعْدَ
 الْأَسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ دِيَّانِ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ وَدِيَّانِ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ
 وَكُتَّابُ الدَّوَاوِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ
 الْأَمْرُ مُلْكًا وَانْتَقَلَ الْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رَوْتِي الْحِضَارَةِ وَمِنْ سَنَاجِدِ
 الْأُمِّيَّةِ إِلَى حَذَقِ الْكِتَابَةِ وَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهْرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْحِسْبَانِ
 فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَابْنَ الْأَزْدِ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيَّانَ الشَّامِ إِلَى
 الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةِ مِنْ يَوْمِ ابْتِدَائِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْحُونُ كَاتِبُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ
 لِكُتَّابِ الرُّومِ أَطْلُبُوا الْعَيْشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ . وَأَمَّا دِيَّانُ
 الْعِرَاقِ فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ
 وَلَقِنَ ذَلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 ابْنِ الْأَشْعَثِ اسْتَخْلَفَ الْحَجَّاجُ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ الدِّيَّانَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ
 إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ وَرَغِمَ لِنَاكَ كُتَّابُ الْفُرْسِ وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لَهُ دَرُّ
 صَالِحٍ مَا أَعْظَمَ مِثْقَلَهُ عَلَى الْكِتَابِ ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الْوُضُفِيَّةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
 مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي مَهَلٍ بَنِي نُوبَخْتِ
 وَغَيْرِهِمْ مِنْ وَزَرَاءِ الدَّوْلَةِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْوُضُفِيَّةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِمَا
 يَخْتَصُّ بِالْجَيْشِ أَوْ يَنْتِ الْمَالُ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَتَمْيِيزِ النَّوَاحِي بِالْصَلَحِ وَالْعُنُوفَةِ وَفِي تَقْلِيدِ

هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكتيب وقوانين الحسابات فأمر راجع
إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هناك وليست من غرض كتابنا وإنما تكلم
فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من
الملك بل هي ثالثة أزكاه لأن الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه
فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد
صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس
والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين
يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظير الولاة والعامل فيها
ثم تنفيذها على قدرها وفي موافقتها وكان يعرف بصاحب الأشغال وكان ربما يليها
في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها ولما استبد بنو أبي حفص بأفريقية وكان شأن
الجلالية من الأندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس
مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا بهم
في ذلك وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس ودألوا فيها بينهم وبين
الموحدين ثم استقل بها أهل الحساب والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما
استغلت أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم
وصار صاحبه مروءة للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرئاسة التي كانت
له في الدولة وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد
وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظيره
معتقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحساب في الخارج والعطاء
هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة
للسلطان وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمشتوكة وصاحب ديوان العطاء يعرف
بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة
للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى
رتب كثيرة لا تنفاس دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبايات عن
أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام.

منها هذا الخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصيائه وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظره ويجهده جهده في متابعتها ويسعى عندهم استاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحساب مقصورة النظر إلى أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعاته أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير استاذ الدار وإن كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من ممالكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتها بمال السلطان الخاص . هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالغرب والله مصرف الأمور لا رب غيره

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسيه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء العصابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أشرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة أخذ من يمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعه وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقه ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته بفمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسعى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه وإصافه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكتاب فيها علامته أولاً أو آخره على حسب الاختيار في عملها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بأرتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة المحكم

بِعَلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ يَسْتَدِلُّ بِهَا فَيَكْتُبُ صُورَةَ عَلَامَتِهِ الْمَعْبُودَةِ وَالْحُكْمَ لِعَلَامَةِ ذَلِكَ
الرَّئِيسِ كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدَّوْلَةِ الْخَفِصِيَّةِ لَمَّا ارْتَفَعَ شَأْنُ الْعِجَابَةِ وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْرِيفِ
ثُمَّ الْأَسْتِزَادِ صَارَ حُكْمُ الْعَلَامَةِ الَّتِي لِلْكَاتِبِ مُلْكِي وَصُورَتُهَا ثَابِتَةً إِتْبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا
فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْزِمُ لِلْكَاتِبِ إِمْضَاءَ كِتَابِهِ ذَلِكَ بِخَطِّ يَصْنَعُهُ وَبِتَخْيِيرِ لَهُ مِنْ صِبْغِ الْإِنْفَازِ
مَا شَاءَ فَيَأْتِمُرُ الْكَاتِبُ لَهُ وَيَضَعُ الْعَلَامَةَ الْمُتَعَادَةَ وَقَدْ يُخْتَصُّ السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ بِوَضْعِ
ذَلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَبْدًا بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ فَيَرْزِمُ الْأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِيَضَعَ عِلَامَتَهُ * وَمِنْ
خِطَطِ الْكِتَابَةِ التَّوْقِيعُ وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ
وَقَصْلِهِ وَيُوقِعُ عَلَى الْقِصَصِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَيْهَا أَحْكَامُهَا وَالْقِصَلِ فِيهَا مُتَلَقَاةً مِنَ السُّلْطَانِ بِأَوْجَرِ
لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ فَإِمَّا أَنْ تُصَدَّرَ كَذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ يَحْتَدِثَ الْكَاتِبُ عَلَى مِثَالِهَا فِي سِجِلٍ يَكُونُ بِيَدِ
صَاحِبِ الْقِصَّةِ وَيَحْتَاجُ الْمَوْقِعُ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ يَسْتَقِيمُ بِهَا تَوْقِيعُهُ وَقَدْ كَانَتْ
جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوقِعُ فِي الْقِصَصِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ وَيَرْزِمُ بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا
فَصَحَائِكَ تَوْقِيعَانَهُ يَتَنَافَسُ الْبَلْغَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا لِلْوُقُوفِ فِيهَا عَلَى أَصَالِبِ الْبَلَاغَةِ وَفُتُونِهَا
حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تُبَاعُ كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ * وَأَعْلَمُ
أَنْ صَاحِبَ هَذِهِ الْخِطَّةِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْفَعَ طَبَقَاتِ النَّاسِ وَأَهْلِ الْمُرُوءَةِ
وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةَ الْعِلْمِ وَعَارِضَةَ الْبَلَاغَةِ فَإِنَّهُ مُعَرَّضٌ لِلنَّظَرِ فِي أَصُولِ الْعِلْمِ لِمَا
يَعْرِضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ عَشْرَةُ
الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَدَابِ وَالنَّخْلِ بِاتِّفَاقٍ مَعَ مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيلِ وَتَطْبِيقِ
مَقَاصِدِ الصِّكْلَامِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَأَمْرَارِهَا وَقَدْ تَكُونُ الرُّتْبَةُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ مُسْتَنِدَةً
إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لِمَا يَقْتَضِيهِ طَبْعُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبَعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَدَاجَةِ
الْعَصِيَّةِ فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهْلَ عَصِيَّتِهِ بِخِطَطِ دَوْلَتِهِ وَسَائِرِ رُتْبَتِهِ فَيُقْلَدُ الْمَالُ وَالسِّيفُ
وَالْمَكْنَانَةُ مِنْهُمْ فَأَمَّا رُتْبَةُ السِّيفِ فَتَسْتَفِي عَنْ مُعَانَاةِ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْمَالُ وَالْمَكْنَانَةُ
فَيَضْطَرُّ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَاغَةُ فِي هَذِهِ وَالْحِسْبَانُ فِي الْأُخْرَى فَيَخْتَارُونَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ
مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الْفَرُورَةُ وَيُقْلَدُونَهُ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَكُونُ يَدُ آخَرٍ مِنْ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ غَالِبَةً
عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ مُنْصَرِفًا عَنْ نَظَرِهِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالشَّرْقِ
فَإِنَّ الْمَكْنَانَةَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِ الْإِنْشَاءِ إِلَّا أَنَّهُ تَحْتَ يَدِ أَمِيرٍ مِنْ أَهْلِ

مَهْصِيَّةُ السُّلْطَانِ يُعْرِفُ بِالْأَدْوِيدَارِ وَتَعْوِيلِ السُّلْطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَأَسْتِنَامَتُهُ فِي غَالِبِ
 أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَعْوِيلُهُ عَلَى الْآخِرِ فِي أَحْوَالِ الْبَلَاغَةِ وَتَطْيِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكُنْهَانِ الْأَسْرَارِ
 وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا * وَأَمَّا الشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الرُّتَبَةِ الَّتِي يُلَاحِظُهَا
 السُّلْطَانُ فِي اخْتِيَارِهِ وَاتِّفَاقِهِ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ فَعِي كَثِيرَةٌ وَأَحْسَنُ مَنْ اسْتَوْعَبَهَا
 عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى الْكِتَابِ وَهِيَ أَمَّا بَعْدُ حَفِظَكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ
 صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَحَاطَكُمْ وَوَقَّكُمْ وَأَرْشَدَكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ
 الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمُكَرَّمِينَ
 أَصْنَافًا وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصِّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْحَوَالَاتِ
 إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ فَمَجْمَعُكُمْ مَعَشَرَ الْكِتَابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ
 أَهْلُ الْأَدَبِ وَالْمَرْوَاتِ وَالْعِلْمِ وَالرِّزَانَةِ بِكُمْ يَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ تَحَاسِنُهَا وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا
 وَيُصَحَّائِكُمْ يُصَلِّحُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَعْمُرُ بِلَدَانَهُمْ لَا يَسْتَغْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ وَلَا
 يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمِ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ
 وَأَبْصَارِهِمِ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ وَالسِّنْتِمْ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ وَأَيْدِيهِمِ الَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ فَأَمْتَعَكُمْ
 اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلَا تَزَعْ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ
 وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَخْوَجَ إِلَى أَجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ وَخِصَالِ
 الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْكِتَابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا بَأْتِي فِي هَذَا
 الْكِتَابِ مِنْ صِنْتِكُمْ فَإِنَّ الْكَاتِبَ يَحْتَاجُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَثِقُ
 بِهِ فِي مِهْمَاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ فَهَيَّا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ مِقْدَامًا
 فِي مَوْضِعِ الْإِفْدَامِ تُحْجِمًا فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ مُؤَثِّرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ
 كَتُومًا لِلْأَسْرَارِ وَفِيًّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ النَّوَازِلِ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا
 وَالطَّوَارِقَ فِي أَمَاكِنِهَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْهُ أَخَذَ
 مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ يَعْرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ وَحُسْنِ أَدَبِهِ وَفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ
 وَرُودِهِ وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ فَيُعِدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عِدَّتَهُ وَعِتَادَهُ وَيَهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ
 وَعَادَتَهُ فَيَتَنَافَسُوا يَا مَعَشَرَ الْكِتَابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَابِ وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَأَبْدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ
 اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا ثِقَافُ السِّنْتِكُمْ ثُمَّ أَجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حَلِيَّةُ

كُتِبَ كُمْ وَأَزُودُوا الْأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا
 وَسِيرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمَعُونَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَا تُضَيِّعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ
 فَإِنَّهُ قِوَامُ كُتَابِ الْخُرَاجِ وَأَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيَّتِهَا وَدَنِيَّتِهَا وَسَنَسَافِ
 الْأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مُدَّةٌ لِلرِّقَابِ مُفْسِدَةٌ لِلْكِتَابِ وَتَزْهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ
 وَأَزْبَاوَا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبَرِ
 وَالسَّخْفِ وَالْعِظَمَةِ فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِخْنَةٍ وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ
 وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ الْبَقَى لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ
 بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَأَعْطِفُوا عَلَيْهِ وَأَسْوَهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ وَيَثُوبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ
 أَحَدًا مِنْكُمْ الْكِبَرُ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَرُودُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوِرُوهُ وَأَسْتَظْهِرُوا
 بِفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَنَعَهُ وَأَسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ
 حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحَاطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمَدَةٌ فَلَا بَصِفَتَهَا إِلَّا إِلَى
 صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ مَذْمُومَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَلْيَحْذَرِ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ عِنْدَ تَغْيُرِ
 الْحَالِ فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعَشَرَ الْكِتَابِ أَمْرٌ مِنْهُ إِلَى الْقُرَاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَكُمْ فَقَدْ
 عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ
 عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ وَأَحْتِمَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنَصِيحَتِهِ وَكَيْفَ مَانِ سِرِّهِ وَتَذْيِيرِ أَمْرِهِ
 مَا هُوَ جَزَاءُ الْحَقِّ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالْإِضْطِرَّارِ إِلَى مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْعَرُوا
 ذَلِكَ وَفَقَّكُمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرِّخَاءِ وَالشَّدَةِ وَالْحَرَمَانِ وَالْمُؤَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ
 وَالسَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ فَتَنِمَتِ السَّيِّئَةُ هَذِهِ مِنْ وَاسِمِ بَيْتِهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا
 وَفَّى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْصِيَرِ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلَقَ اللَّهُ وَعِيَالَهُ أَمْرٌ فَلْيُرَاقِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُؤَثِّرْ
 طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحْبَبُّهُمْ إِلَيْهِ
 أَرْزَقَهُمْ بَعِيَالُهُ ثُمَّ لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا وَلِلْفَنِيِّ مُؤَفِّرًا وَلِلْبِلَادِ
 عَامِرًا وَلِلرَّعِيَةِ مُتَأَلِّفًا وَعَنْ أَذَاهُمْ مُتَخَلِّفًا وَلْيَكُنْ فِي تَجَلُّسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا وَفِي مَجَلَّاتِ
 خُرَاجِهِ وَأَسْتِقْضَاءِ حُقُوفِهِ رَفِيقًا وَإِذَا صَحِبَ أَحَدُكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتَبِرْ خُلَاقَتَهُ فَإِذَا عَرَفَ
 حُسْنَهَا وَقُبْحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْحُسْنِ وَأَخْشَاهُ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقُبْحِ
 بِاللَّطْفِ حِيلَةٍ وَأَجْمَلَ وَسِيلَةٍ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بَصِيرًا بَسِيَاسَتِهَا

التَّحَسُّعَ مَعْرِفَةَ أَخْلَاقِهَا فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا لَمْ يَهْجُمَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا أَتَقَاهَا
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شَرُّودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَرُوتًا قَمَعَ
 بِرَفْقٍ هَوَاهَا فِي طَرَفِهَا فَإِنْ اسْتَحَمَرَتْ عَطْفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسُ لَهُ قِيَادُهَا وَفِي هَذَا الْوَصْفِ
 مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَالٌ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَالْكَاتِبُ بِفَضْلِ
 أَدَبِهِ وَشَرِيفِ صَنَعَتِهِ وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يُعَاوَرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاطِرُهُ وَبَنَاهُمْ
 عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ أَوَّلَى بِالرَّفْقِ لِصَاحِبِهِ وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِ مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ
 الَّتِي لَا تُعِيرُ جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصِيرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا
 الرَّكْبُ عَلَيْهَا إِلَّا فَارَقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي النَّظَرِ وَأَعْمَلُوا مَا أَمَرَكَكُمْ فِيهِ مِنْ
 الرُّوبِيَّةِ وَالْفَكْرِ تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِمَّنْ مَحَبَّتُهُ النُّبُوَّةَ وَالْإِسْتِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ وَيَصِيرُ
 مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَاطَاةِ وَالشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا يُعَاوِزَنَّ
 الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ تَجَلُّسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبَنَائِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ
 ذَلِكَ مِنْ فُنُونِ أَمْرِهِ قَدَرِ حَقِّهِ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ مَنَعَتِكُمْ خَدَمَةً
 لَا تُحْمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ وَحَفَظَةً لَا تُحْمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّضْيِيعِ وَالْتِذْيِيرِ
 وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ وَأَحْذَرُوا
 مَتَالِفَ السَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيُذِلَّانِ الرَّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا
 وَسَيِّمَا الْكُتَابِ وَأَرْبَابِ الْأَدَابِ وَالْأُمُورِ أَشْبَاهَ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ فَاسْتَدِلُّوا عَلَى
 مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرُّبَتُكُمْ ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّذْيِيرِ أَوْفَئِهَا
 مَحَبَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّذْيِيرِ آفَةً مُتْلِفَةً وَهِيَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ
 لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْتِزَاحِ عَلَيْهِ وَرَوَيْتِهِ فَلْيَقْصُدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي تَجَلُّسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ
 مَنْطِقِهِ وَلْيُوجِزْ فِي أَبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلْيَأْخُذْ بِجَمَاعِهِ حُجَّجِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصَالِحَةٌ لِيُظْهِرَ
 وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ وَلِيُضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَهِ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ وَمَخَافَةٍ
 وَتَقْوَعِهِ فِي الْفَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدَيْهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ فَإِنَّهُ إِنْ خَانَ مِنْكُمْ ظَانٌّ أَوْ قَالَ قَائِلٌ إِنْ
 الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنَعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَذْيِيرِهِ فَقَدْ
 تَعَرَّضَ بِنَظَرِهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ
 كَافٍ وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقُلُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلُ

لِغِبِّهِ التَّدْبِيرِ مِنْ مَرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاهُ مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ وَلَا يُسْكَاتِزَ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ مَنْ نَلَزَمَهُ النَّصِيحَةَ يَلْزَمُهُ الْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغَيْرُهُ كَلَامِي بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَمْتُهُ بِهِ تَوَلَّيْنَا اللَّهُ وَإِلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَدِهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

(الشرطة) * وَيُسَيَّ صَاحِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقَةِ الْحَاكِمِ فِي دَوْلَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِي وَهِيَ وَظِيفَةُ مَرْؤُوسَةِ لِصَاحِبِ السَّيْفِ فِي الدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ وَكَانَ أَسْلُ وَضْعُهَا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي حَالِ اسْتِبْدَادِهَا أَوَّلًا ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا فَإِنَّ التَّهْمَ الَّتِي تَعْرِضُ فِي الْجَرَائِمِ لَا تَنْظَرُ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا وَلِلْسِّيَاسَةِ النَّظَرُ فِي اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِفْرَارِ بُكْرَمِهِ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا اخْتَفَتْ بِهِ الْقَرَائِنُ لِمَا تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهِذَا الْإِسْتِبْدَادَ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّ عَنْهُ الْقَامِي يُسَيَّ صَاحِبَ الشَّرْطَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الْحُدُودِ بِالْأَمَاءِ بِإِطْلَاقٍ وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَامِي وَتَزَوَّاهَا هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ الْقَوَادِ وَعُظَمَاءَ الْخَاصَةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيذِ فِي طَبَقَاتِ النَّاسِ إِنَّمَا كَانَتْ حُكْمُهُمْ عَلَى الْأَهْمَاءِ وَأَهْلِ الرِّبِّ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الرِّعَاعِ وَالْفَجَرَةِ ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَنُوعَتْ إِلَى شَرْطَةِ كُبْرَى وَشَرْطَةِ صُغْرَى وَجُعِلَ حُكْمُ الْكُبْرَى عَلَى الْخَاصَةِ وَالْأَهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الظُّلُمَاتِ وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ وَجُعِلَ صَاحِبُ الصُّغْرَى مَخْصُوصًا بِالْعَامَةِ وَنُصِبَ لِصَاحِبِ الْكُبْرَى كَرَمِيٌّ بِيَابِ دَارِ السُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّوْنَ الْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَصْرِيفِهِ وَكَانَتْ

وَلَا يَتَّبِعُهَا إِلَّا كَآبِرٌ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحًا لِلْوِزَارَةِ وَالْحِجَابَةِ
وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حِظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُوهَا
عَامَةً وَكَانَ لَا يَلِيهَا إِلَّا رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ وَكِبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ التَّحَكُّمُ عَلَى أَهْلِ
الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ الْيَوْمَ مَنْصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ الْمُؤَحِّدِينَ وَصَارَتْ
وَلَا يَتَّبِعُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ الْمُصْطَنَعِينَ . وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرَيْنَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ
فَوَلَا يَتَّبِعُهَا فِي بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ أَصْطِنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فِي رِجَالِ
التُّرْكِ أَوْ أَغْقَابِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ التُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَهُمْ لَهَا فِي النَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ
مِنَ الصَّلَابَةِ وَالْمَضَاءِ فِي الْأَحْكَامِ يَقْطَعُ مَوَادِّ الْفَسَادِ وَحَسَمَ أَبْوَابَ الدَّعَاةِ وَتَخَرَّبَ
مَوَاطِنَ الْفُسُوقِ وَتَفَرَّقَ بِمَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ كَمَا نَقَضِيهِ رِعَايَةَ
الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ
(قيادة الاساطيل) * وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَخِطَطِهَا فِي مُلْكِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيْقِيَّةِ
وَمَرُوسَةُ إِصْحَابِ السَّيْفِ وَتَمَتَّ حُكْمُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي
عُرْفِهِمُ الْبَلَمَنْدَنْتِيخِيمِ الْأَمُّ مَقُولًا مِنْ لُغَةِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ فَإِنَّهُ أَمْنُهُمَا فِي أَصْطِلَاحِ لُغَتِهِمْ
وَإِنَّمَا اخْتَصَّتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبَةُ بِمُلْكِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّهَا جَمِيعًا عَلَى ضِفَّةِ الْبَحْرِ
الرُّومِيِّ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ وَعَلَى عُدُوَّتِهِ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ الْبَرْبَرِ كُلِّهِمْ مِنْ سَبْتَةِ إِلَى
الشَّامِ وَعَلَى عُدُوَّتِهِ الشَّمَالِيَّةِ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالرُّومِ إِلَى بِلَادِ
الشَّامِ أَيْضًا وَيُسَمَّى الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالْبَحْرُ الشَّامِيُّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدُوَّتِهِ وَالسَّاكِنُونَ
بِسَيْفِ هَذَا الْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدُوَّتِهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا لَا تُعَانِيهِ أُمَّةٌ مِنْ أُمَمِ
الْبَحَارِ فَقَدْ كَانَتْ الرُّومُ وَالْإِفْرَنْجِيَّةُ وَالْقُوطُ بِالْعُدُوَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي السُّفُنِ فَكَانُوا مَهْرَةً فِي رُكُوبِهِ وَالْحَرْبِ فِي
أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسَفَّ مِنْ أَسَفِّ مَنْهُمْ إِلَى مُلْكِ الْعُدُوَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ الرُّومِ إِلَى أَفْرِيْقِيَّةِ
وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِي الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكَوْهَا وَتَغَلَّبُوا عَلَى الْبَرْبَرِ بِهَا وَانْتَزَعُوا
مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا الْمَدُنُ الْخَافِلَةُ مِثْلُ قَرْطَاجَنَةِ وَسَبَيْطَلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمِرْنَاقَ
وَشِرْشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَنَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبْعَثُ
الْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِالْعَسَاكِرِ وَالْعِدَدِ فَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هَذَا الْبَحْرِ

السَّاكِنِينَ حَفَافِهِ مَعْرُوفَةً فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عُمَرُ
 ابْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنْ صِفَ لِي الْبَحْرَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ
 إِنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ دُودٌ عَلَى عُودٍ فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِنَعْرِ الْمُسْلِمِينَ
 مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مَنْ أَفْتَاتَ عَلَى عُمَرَ فِي رُكُوبِهِ وَنَالَ مِنْ
 عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرَثَمَةَ الْأَزْدِيِّ سَيِّدِ بَيْعِلَةَ لَمَّا أَغْزَاهُ عَمَّانُ فَبَاغَهُ غَزْوُهُ
 فِي الْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنْفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ وَلَمْ يَزَلِ الشَّانُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا
 كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَالْجِهَادِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ
 أَنَّ الْعَرَبَ لِبِدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهْرَةً فِي ثِقَاتِهِ وَرُكُوبِهِ وَالرُّومُ وَالْأَنْرَجَةُ لِمَارَسَتِهِمْ
 أَحْوَالَهُ وَمَرْبَاهُمْ فِي التَّقَابِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرْنُوعًا عَلَيْهِ وَأَحْكَمُوا الدَّرَازِيَةَ بِثِقَاتِهِ فَلَمَّا
 اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمَمُ الْعَجَمِ خَوْلَاءَهُمْ وَتَفَتَ أَيْدِيهِمْ
 وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنَعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ وَاسْتَحْدَمُوا مِنَ النَّوَاتِيَةِ فِي حَاجَاتِهِمْ
 الْبَحْرِيَّةِ أُمَمًا وَتَكَرَّرَتْ مِمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَاتُهُ وَاسْتَحْدَثُوا بَصَرَاءَ بِهَا فَشَرُّهَا إِلَى
 الْجِهَادِ فِيهِ وَأَنْشَأُوا السُّفُنَ فِيهِ وَالشُّوَانِي وَشَعْنُوا الْأَسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ وَالسِّلَاحِ وَأَمْطَوْهَا
 الْعَسَاكِرَ وَالْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ الْكُفْرِ وَأَخْتَصُوا بِذَلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ
 وَتُغُورِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِثْلُ الشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ
 وَأَوْعَزَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةَ بِاتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةِ
 بَتُونِسَ لِإِنْشَاءِ آلَاتِ الْبَحْرِيَّةِ حِرْصًا عَلَى مَرَامِ الْجِهَادِ وَمِنْهَا كَانَ قَتْحُ صِفَالِيَّةِ أَيَّامَ
 زِيَادَةَ اللَّهِ الْأَوَّلِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَغْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفَرَاتِ شَيْخِ الْفَتَا وَفَتَحَ
 قُوصَرَةَ أَيْضًا فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حَبِيجٍ أَغْزَى صِفَالِيَّةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ
 أَبِي سُفْيَانَ فَلَمْ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِ ابْنِ الْأَغْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدِ بْنِ الْفَرَاتِ
 وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ وَالْأَوِيَّةِ لَتَعَاقَبَ
 إِلَى بِلَادِهِمَا فِي سَبِيلِ الْفِتْنَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ السَّوَاهِلِ بِالْإِفْسَادِ وَالْتَحَرِيبِ وَأَنْتَهَى
 اسْطُولُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ إِلَى مَا تَنَى مَرْكَبُ أَوْ نَحْوَهَا وَاسْطُولُ
 أَفْرِيقِيَّةَ كَذَلِكَ مِثْلُهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَكَانَ قَائِدُ الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ ابْنُ دُمَاحِصَ
 وَمَرَفَاهَا لِلْحَطِّ وَالْإِفْلَاحِ بِجَاهِ وَالْمِيرِيَّةِ وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ سَائِرِ الْعَمَالِكِ

مِنْ كُلِّ بَلَدٍ لِيَتَّخِذَ فِيهِ السُّفُنُ أَسْطُولٌ يُرْجِعُ نَظَرَهُ إِلَى قَائِدٍ مِنَ النَّوَابِيَةِ يُدِيرُ أَمْرَ حَرْبِهِ
 وَسِلَاحِهِ وَمُقَاتَلَتِهِ وَرَأْسُ يَدِيرُ أَمْرَ جَرَيْتِهِ بِالرَّيْحِ أَوْ بِالْحِجَازِ فِي وَأَمْرَ إِزْسَائِهِ فِي
 مَرْفَئِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لَغْزٍ وَمُحْتَفَلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلْطَانِيٍّ مِهِمُ عَسْكَرَتْ بِمَرْفَئِهَا
 الْمَعْلُومِ وَمُخَنَّبًا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادٍ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيَهُ وَجَمَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ
 مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لَوُجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ
 إِيَابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْفَتْحِ وَالْفَتْحِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِمَهْدَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هَذَا
 الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأُمْرِ النَّصْرَانِيَّةِ
 قَبْلَ بِأَسَاطِيلِهِمْ شَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ وَامْتَطَوْا ظَهْرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَبَابِيهِمْ فَكَانَتْ لَهُمْ
 الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْفَتْحِ وَمَلَكُوا سَائِرَ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ السَّوَاهِلِ
 فِيهِ مِثْلَ مَيُورَقَّةَ وَمَنُورَقَةَ وَيَابَسَةَ وَسِرْدَانِيَّةَ وَصِقْلِيَّةَ وَقَوْصِرَةَ وَمَالِطَةَ وَأَفْرِيطِشَ
 وَقُبْرُسَ وَسَائِرَ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ وَكَانَ أَبُو الْفَاسِمِ الشَّيْمِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يَغْزُونَ
 أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنْوَةَ فَتَنْقَلِبُ بِالظَّفَرِ وَالْفَتْحِ وَالْفَتْحِ نَجَاحِدُ الْعَامِرِيِّ
 صَاحِبُ دَانِيَّةٍ مِنْ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ جَزِيرَةَ سِرْدَانِيَّةٍ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ
 وَأَرْبَعِينَ النَّصَارَى لَوْفَتِهَا وَالْمُسْلِمُونَ خَلَالِ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هَذَا
 الْبَحْرِ وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَّةً وَذَاهِبَةً وَالْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُعِزُّ الْبَحْرَ فِي
 الْأَسَاطِيلِ مِنْ صِقْلِيَّةٍ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمُقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدُوَّةِ الشَّمَالِيَّةِ فَتَوْفِيعُ بِمُلُوكِ
 الْأَفْرَنْجِ وَتُشْخِنُ فِي مَمَالِكِهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْحُسَيْنِ مُلُوكِ صِقْلِيَّةِ الْقَائِمِينَ
 فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ وَأَنْفَازَتْ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ
 مِنْهُ مِنْ سَوَاحِلِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لَا يَدُونَهَا وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ
 قَدْ خَرَبَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءَ الْأَسَدِ عَلَى فَرِيْسَتِهِ وَقَدْ مَلَأَتْ الْأَكْثَرُ مِنْ بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ
 عُدَّةً وَعَدَدًا وَاخْتَلَفَتْ فِي طَرُقِهِ سِلْمًا وَحَرْبًا فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ أَلْوَاخٌ حَتَّى إِذَا
 أَدْرَكَ الدَّوْلَةُ الْعَبِيدِيَّةَ وَالْأُمَوِيَّةَ الْفُشْلُ وَالْوَهْنُ وَطَرَقَهَا الْإِعْثِلَالُ مَدَّ النَّصَارَى أَيْدِيَهُمْ
 إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صِقْلِيَّةٍ وَأَفْرِيطِشَ وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوها ثُمَّ الْخَوَاتِلَى سَوَاحِلِ الشَّامِ
 فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَّاءَ وَاسْتَوْلُوا عَلَى جَمِيعِ الْكُفُورِ
 بِسَوَاحِلِ الشَّامِ وَغَلَبُوا عَلَى يَتِّ الْمَقْدِسِ وَبَنُوا عَلَيْهِ كَنِيسَةً لِمَظْهَرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَلَبُوا

بَنِي خَزُرُونَ عَلَى طَرَابُلُسَ ثُمَّ عَلَى قَابَسَ وَصَفَافِسَ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمُ الْجُزْيَةَ ثُمَّ مَلَكَوا الْمَهْدِيَّةَ مَقَرَّ
 مَلُوكِ الْعَبِيدِيَّينَ مِنْ يَدِ أَعْقَابِ بَلَكِينِ بْنِ زِيرِي وَكَانَتْ لَهُمْ فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ
 الْكَرَّةُ بِهَذَا الْبَحْرِ وَضَعَتْ شَأْنُ الْأَسَاطِيلِ فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ إِلَى أَنْ انْقَطَعَ وَلَمْ
 يَبْتَنُوا شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبِيدِيَّةِ عِنَابَةٌ تَجَاوَزَتْ
 الْحَدَّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ فَبَطَلَ رَسْمُ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ هُنَاكَ وَبَقِيَتْ
 بِأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ فَصَارَتْ مُخْتَصَّةً بِهَا وَكَانَ الْجَانِبُ الْغَرْبِيُّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ ثَابِتَ الْقُوَّةَ لَمْ يَتَحَيَّفْهُ عَدُوٌّ وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كَرَّةٌ نَكَانَ قَائِدُ
 الْأَسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ لِمَنْوَنَةِ بَنِي مَيْمُونِ زُرُوسَاءَ جَزِيرَةَ قَادِسَ وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا
 عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَاتَّعَى عَدَدُ أُسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ مِنْ بِلَادِ
 الْعُدُوتَيْنِ جَمِيعًا * وَلَمَّا اسْتَفْهَلَتْ دَوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ وَمَلَكَوا
 الْعُدُوتَيْنِ أَقَامُوا خِطَّةَ هَذَا الْأَسْطُولِ عَلَى أَتَمِّ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمَ مَا عُمِدَ وَكَانَ قَائِدُ
 أُسْطُولِهِمْ أَحْمَدُ الصَّقِيلِيُّ أَصْلُهُ مِنْ صَدِّ غِيَارِ الْمُؤَطَّنِينَ بِجَزِيرَةِ سُرُوكِشَ أَسْرَهُ النَّصَارَى
 مِنْ سَوَاحِلِهَا وَرَبَّى عِنْدَهُمْ وَاسْتَغْلَصَهُ صَاحِبُ صَقِيلِيَّةَ وَاسْتَمْكَنَاهُ ثُمَّ هَلَكَ وَوَلَّى ابْنُهُ
 فَأَسْخَطَهُ بَعْضُ النَّزْعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَحِقَ بِتُونِسَ وَنَزَلَ عَلَى السَّيِّدِ بِهَا مِنْ بَنِي
 عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَأَجَازَ مَرَائِشَ فَتَلَقَّاهُ الْخَلِيفَةُ يُوْسُفُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِالْمَبْرَةِ
 وَالْكَرَامَةِ وَأَجْزَلَ الصِّلَةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أُسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي جِهَادِ أَمْرِ النَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَتْ
 لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ * وَانْتَهَتْ أُسَاطِيلُ
 الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالِاسْتِجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ فِيمَا
 عَهْدَنَاهُ وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يُوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ بِاسْتِزْجَاعِ
 ثُغُورِ الشَّامِ مِنْ يَدِ أَمْرِ النَّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَتَابَعَتْ أُسَاطِيلُهُمْ بِالْمَدَدِ
 لِتِلْكَ الثُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَوَاوَا عَلَيْهِ فَأَمْدَوْهُمْ
 بِالْعَدَدِ وَالْأَقْوَاتِ وَلَمْ تُقَاوِمَهُمْ أُسَاطِيلُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ لِاسْتِمْرَارِ الْغَلَبِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ
 الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ وَتَعَدَّدَ أُسَاطِيلُهُمْ فِيهِ وَضَعَفَ الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ
 عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ فَأَوْفَدَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ
 سُلْطَانَ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنَ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِذٍ

مُلُوكٍ شِيزَرٍ وَكَانَ مَلِكُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَبْقَى عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ فَبَعَثَ عَبْدَ الصَّرِيمِ مِنْهُمْ
 هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِبًا مَدَدَ الْأَسَاطِيلِ لِتَحُولٍ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْأَجَانِبِ
 وَبَيْنَ مَرَامِهِمْ مِنْ أَمْدَادِ النَّصْرَانِيَّةِ بِثُغُورِ الشَّامِ وَأَصْحَبَهُ كِتَابَهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ
 الْفَاضِلِ الْبَيْسَانِيِّ يَقُولُ فِي افْتِتَاحِهِ قَتَحَ اللَّهُ لِسِيدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ وَالْمِيَامِ حَسْبَمَا
 نَقَلَهُ الْعِمَادُ الْأَصْنَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِيِّ فَتَقِمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ نَجَافِيهِمْ عَنْ
 خِطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمَرَهَا فِي نَفْسِهِ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاجِحِ الْبَرِّ وَالْمَكْرَامَةِ وَرَدَّهُمْ
 إِلَى مَرَسِلِهِمْ وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ
 بِالْأَسَاطِيلِ وَمَا حَصَلَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْإِسْطِطَالَةِ وَعَدَمِ
 غِنَايَةِ الدَّوَلِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِشَأْنِ الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْأَسْطِغْدَارِ
 مِنْهَا لِلدَّوَلَةِ وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ وَأَعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَاسْتَوْلَتْ أُمَمُ
 الْجَلَالَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْجَاوِ وَالْمُسْلِمِينَ إِلَى سِيفِ الْبَحْرِ وَمَلَكَوا
 الْجَزَائِرَ الَّتِي بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الرَّوْمِيِّ قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَسْطِ هَذَا الْبَحْرِ وَاسْتَدَتْ
 شَوْكَتُهُمْ وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمُسَاوَاةِ مَعَهُمْ
 كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ مَلِكِ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ
 مَرَامِهِ الْجِهَادِ مِثْلَ عُدَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدِهِمْ ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي
 الْأَسَاطِيلِ لِضَعْفِ الدَّوَلَةِ وَنِسْبَانِ عَوَائِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْبَدَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَانْقِطَاعِ
 الْعَوَائِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَرَجَعَ النَّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمْ الْمَعْرُوفِ مِنَ الذُّبَابَةِ فِيهِ وَالْمِرَانِ
 عَلَيْهِ وَالْبَصْرِ بِأَحْوَالِهِ وَغَلَبِ الْأُمَمِ فِي لُجَّتِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَضَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَالْأَجَانِبِ
 إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمْ الْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثَرَةً مِنْ الْأَنْصَارِ
 وَالْأَعْوَانِ أَوْ قَلَّةً مِنَ الدَّوَلَةِ تَسْتَجِيشُ لَهُمْ أَعْوَانًا وَتُوضِحُ لَهُمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ مَسْلَكًا
 وَبَقِيَتِ الرُّثْبَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدَّوَلَةِ الْغَرْبِيَّةِ مَحْفُوظَةً وَالرَّمَمُ فِي مُعَانَاةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ
 وَالرُّكُوبِ مَعْنُودًا لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْأَغْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ
 الْبَحْرِيَّةِ وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَهْبِئُونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ فَمِنْ الْمُشْتَهَرِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
 عَنْ كُتُبِ الْحَدَّثَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُفْرِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ وَافْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ
 الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إِعْلَمَنَّ أَنَّ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ كِلَاهُمَا آلَةُ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّ
الْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ إِلَى السَّيْفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ أَشَدَّ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى
الْقَلَمِ لِأَنَّ الْقَلَمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ خَادِمٌ فَقَطْ مُنْقِذٌ لِلْحُكْمِ السُّلْطَانِيِّ وَالسَّيْفُ شَرِيكٌ فِي
الْمَعُونَةِ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضَعُ عَصِيَّتَهُمَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَقِلُّ أَهْلُهَا بِمَا
يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي قَدَمْنَاهُ فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَأَقْوَى
الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ الشَّأْنُ أَوَّلَ الْأَمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا
فَيَكُونُ لِلْسَّيْفِ مَرَبَّةٌ عَلَى الْقَلَمِ فِي الْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَرْبَابُ السَّيْفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهًا
وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَأَسْنَى إِقْطَاعًا وَأَمَّا فِي وَسْطِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَعِينُ صَاحِبُهَا بِبَعْضِ الشَّيْءِ عَنْ
السَّيْفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْجَبَايَةِ
وَالضَّبْطِ وَمُبَاهَاةِ الدُّوَلِ وَتَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ وَالْقَلَمُ هُوَ الْمُعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَتَعْتَظُمُ الْحَاجَةُ
إِلَى تَضَرُّفِهِ وَتَكُونُ السُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَغْمَادِهَا إِلَّا إِذَا أَنْابَتْ نَائِبَةً أَوْ
دُعِيَتْ إِلَى سَدِّ فُرْجَةٍ وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فَتَكُونُ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ فِي
هَذِهِ الْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَعْلَى رُتَبَةً وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَثَرْوَةً وَأَقْرَبَ مِنَ السُّلْطَانِ مَجْلِسًا
وَأَكْثَرَ إِلَيْهِ تَرَدُّدًا وَفِي خَلَوَاتِهِ نَجِيًّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ أَلْتَنَى إِلَيْهَا يَسْتَظْهِرُ عَلَى تَحْصِيلِ
ثَمَرَاتِ مَلِكِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى أَعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ وَالْمُبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ وَيَكُونُ
الْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ السُّيُوفِ مُسْتَعْنَى عَنْهُمْ مُبْعَدِينَ عَنْ بَاطِنِ السُّلْطَانِ حَذِيرِينَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ * وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ
بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا الْفَرَسِ أَخَوْفُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إِذَا
سَكَنَتِ الدُّهُمَاءُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إِعْلَمَنَّ أَنَّ لِلْسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالَ أَنْتَضِيحِهَا الْأَلْبَهُ وَالْبَذْخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ

بِأَنْتِحَالِهَا عَنِ الرَّعِيَّةِ وَالْبِطَانَةِ وَسَائِرِ الرُّؤَسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ فَلَنْدَكْرُ مَا هُوَ مُشْتَهَرٌ مِنْهَا
بِمَبْلَغِ الْمَعْرِفَةِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ
الآلة * فَمِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ اتِّخَاذُ الْآلَةِ مِنْ نَشْرِ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ وَقَرَعِ الطُّبُولِ
وَالنَّفْعِ فِي الْأَبْوَابِ وَالْقُرُونِ وَقَدْ ذَكَرَ أَرِسْطُو فِي الْكِتَابِ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ
أَنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ إِزْهَابُ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْمَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النَّفْسِ
بِالرَّوْعَةِ وَالْعَمَرِيِّ إِنَّهُ أَمْرٌ وَجَدَانِيٌّ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَهَذَا
السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو إِنْ كَانَ ذَكَرَهُ فَهُوَ مُحْتَجٌّ بِبَعْضِ الْإِعْتِبَارَاتِ * وَأَمَّا
الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النِّغَمِ وَالْأَصْوَاتِ يُدْرِكُهَا الْفَرْحُ وَالطَّرَبُ بِلَا
شَكٍّ فَيُصِيبُ زَجَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةٌ يَسْتَسْهِلُ بِهَا الصَّعْبَ وَيَسْتَعِثُّ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ
الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَوَانَاتِ أَنْتَجَمَ بِأَنْتِعَالِ الْأَيْلِ بِالْحِدَاءِ وَالْخَيْلِ
بِالصَّغِيرِ وَالصَّرِيحِ كَمَا عَلِمْتَ وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً كَمَا
فِي الْغِنَاءِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَحْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى لِأَجْلِ ذَلِكَ نَتَّخِذُ التَّجَمُّعَ فِي
مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمُ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةَ ^(١) لَا طَبْلًا وَلَا بُوقًا فَيُحْدِقُ الْمُغْنُونَ بِالسُّلْطَانِ فِي
مَوَاقِبِهِ بِالْأَتَمِّ وَيُغْنُونَ فَيَحْرُكُونَ نَفُوسَ الشُّجْعَانِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى الْأَسْتِمَاتَةِ وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي
حُرُوبِ الْعَرَبِ مَنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ الْمَوَاقِبِ بِالشَّعْرِ وَيُطْرِبُ فَتَجِيئُ بِهِمُ الْأَبْطَالُ بِمَا فِيهَا
وَيُسَارِعُونَ إِلَى نَجَالِ الْحَرْبِ وَيَتَّبِعُ كُلُّ قَرْنٍ إِلَى قَرْنِهِ وَكَذَلِكَ زَنَانَةٌ مِنْ أَتَمِّ الْمَغْرِبِ
بِتَقْدَمِ الشَّاعِرِ عِنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّنُوفِ وَيَتَغَنَّى فَيَحْرُكُ بِغِنَائِهِ الْجَبَالَ الرَّوَاسِي وَيَتَّبِعُ عَلَى
الْأَسْتِمَاتَةِ مَنْ لَا يَظُنُّ بِهَا وَيُسْمِنُ ذَلِكَ الْغِنَاءُ نَاصُوكَايَتِ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ فَرَحٌ يَحْدُثُ فِي
النَّفْسِ فَتَتَّبِعُ عَنْهُ الشُّجَاعَةُ كَمَا تَتَّبِعُ عَنْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ بِمَا حَدَّثَ عَنْهَا مِنَ الْفَرْحِ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ وَأَمَّا تَصَكُّبُ الرَّايَاتِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطَالَتُهَا فَالْقَصْدُ بِهِ التَّهْوِيلُ لَا أَكْثَرُ وَرُبَّمَا تَحْدُثُ
فِي النَّفُوسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةٌ فِي الْأَقْدَامِ وَأَحْوَالِ النَّفُوسِ وَتَلْوِينَاتُهَا غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ * ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالْدُّوَلَّ يَخْتَلِفُونَ فِي اتِّخَاذِ هَذِهِ الشَّارَاتِ فَمِنْهُمْ مَكْثَرٌ وَمِنْهُمْ
مُقَلِّلٌ بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدَّوْلَةِ وَعَظَمِهَا فَأَمَّا الرَّايَاتُ فَإِنَّهَا شِعَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيقَةِ

(١) فوله موسيقية وفي نسخة الموسيقى بكسر القاف بين الغنيتين اسم للنغم
والألحان وتوقعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر أول مذبذبة الشيخ محمد شهاب

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْغَزَوَاتِ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ * وَأَمَّا قَرْعُ الطُّبُولِ وَالنَّفْخُ فِي الْأَبْرَاقِ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ
الْمِلَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ تَنْزَهُاً عَنْ غِلْظَةِ الْمَلِكِ وَرَفْضاً لِأَحْوَالِهِ وَاحْتِقَاراً لِأُيُوتِهِ الَّتِي لَبَسَتْ
مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ مُلْكاً وَتَجَيَّحُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَلَابَسَهُمْ
الْمَوَالِي مِنَ الْفَرَسِ وَالرُّومِ أَهْلَ الدُّوَلِ السَّائِفَةِ وَأَرْوَاهُمْ مَا كَانَ أَوْلَئِكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ
مَذَاهِبِ الْبَذَخِ وَالْتَرَفِ فَكَانَ مِمَّا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذُ آلَاةٍ فَأَخَذُواهَا وَأَذْنُوا لِعُمَالِهِمْ
فِي اتِّخَاذِهَا تَنْوِيهاً بِالْمَلِكِ وَأَهْلِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبُ الثَّرَى أَوْ قَائِدُ الْجَيْشِ
يَعْقِدُ لَهُ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ أَوِ الْعَبْدِيِّينَ لِيُؤَاهُ وَيُخْرِجُ إِلَى بَعْثِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ
الْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي مَوَكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ الرَّايَاتِ وَالْآلَاتِ فَلَا يُعْمَرُ بَيْنَ مَوَكِبِ الْعَامِلِ
وَالْخَلِيفَةِ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا أَوْ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ لِرَايَتِهِ كَالسَّوَادِ
فِي رَايَاتِ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُودًا حَزَنًا عَلَى شُهُدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَنَعِيمًا
عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قَتْلِهِمْ وَلِلَّذَلِكَ سُمُّوا الْمُسَوَّدَةَ * وَلَمَّا افْتَرَقَ أَمْرُ الْهَاشِمِيِّينَ وَخَرَجَ
الطَّالِبِيُّونَ عَلَى الْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصَرُ ذَهَبُوا إِلَى مُخَافَتِهِمْ فِي ذَلِكَ فَاتَّخَذُوا
الرَّايَاتِ بَيْضًا وَسُمُّوا الْمُبَيِّضَةَ لِذَلِكَ سَاطِرَ أَيَّامِ الْعَبْدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّالِبِيِّينَ فِي
ذَلِكَ الْعَهْدِ بِالشَّرْقِ كَالدَّاعِي بِطَبْرِسْتَانَ وَدَّاعِي صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا إِلَى بِدْعَةِ الرَّافِضَةِ
مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرَامِطَةِ وَلَمَّا تَوَعَّ الْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ السَّوَادِ وَشِعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ عَدَلَ إِلَى
لَوْنِ الْخُضْرَةِ لِيَجْعَلَ رَايَتَهُ خَضِرَاءَ وَأَمَّا الْأَسْبَاطُ كَثِيرٌ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ وَقَدْ كَانَتْ
آلَةُ الْعَبْدِيِّينَ أَمَّا خَرَجَ الْعَزِيزُ إِلَى قَتْعِ الشَّامِ خَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْبُيُوتِ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ
الْأَبْرَاقِ وَأَمَّا مُلُوكُ الْبَرَبَرِ بِالْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةٍ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يُخْتَصُّوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ
وَشَوْهَا بِالذَّهَبِ وَاتَّخَذُوا مِنَ الْحَرِيرِ الْخَالِصِ مُلُونَةً وَأَسْمَعَرُوا عَلَى الْأِذْنِ فِيهَا دُحَالِيهِمْ
حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَاتَةٍ قَصَرُوا الْآلَةَ مِنَ الطُّبُولِ وَالسُّودِ
عَلَى السُّلْطَانِ وَحَظَرُوهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ عُمَالِهِ وَجَعَلُوا لَهَا مَوَكِبًا خَاصًّا يَتَّبِعُ أَثَرُ السُّلْطَانِ
فِي مَسِيرِهِ يُسَمَّى السَّاقَةَ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكْثَرٍ وَمُقَلٍّ بِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي ذَلِكَ
فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ الْعَدَدِ تَبَرُّكًا بِالسَّبْعَةِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَبَنِي
الْأَحْمَرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَشْرَةَ وَالْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَاتَةٍ وَقَدْ بَلَغَتْ فِي

أَيَّامِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ فِيمَا أَدْرَكَكَ مِائَةٌ مِنَ الطُّبُولِ وَمِائَةٌ مِنَ الْبُودِ مَلَوْنَةً
بِالْخَرِيرِ مَنَسُوجَةً بِالذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَيَاذُنُونَ لِلْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ وَالْقَوَادِرِ فِي
اتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْكَثَّانِ بَيْضَاءَ وَطَبْلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ الْحَرْبِ لَا يَتَجَاوَزُونَ
ذَلِكَ وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالشَّرْقِ فَيَتَّخِذُونَ رَايَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً وَفِي رَأْسِهَا
خِصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشَّعْرِ يُسَمُّونَهَا الشَّالِشَ وَالْجَنْزَ وَهِيَ شِمَارُ السُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ اتَّعَدُّ
الرَّايَاتُ وَيُسَمُّونَهَا السَّنَاقِقَ وَاحِدُهَا سَنَقَقٌ وَهِيَ الرَّايَةُ بِلسَانِهِمْ. وَأَمَّا الطُّبُولُ فَيُبَالِغُونَ
فِي الْأَسْتِثْكَارِ مِنْهَا وَيُسَمُّونَهَا الْكُوسَاتِ وَيُسَيِّحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدٍ عَسْكَرٍ أَنْ
يَتَّخِذَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا الْجَنْزَ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالسُّلْطَانِ. وَأَمَّا الْجَلَالِقَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ
أَمْرِ الْأَفْرَنْجَةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمْ اتِّخَاذُ الْأَلْوِيَةِ الْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةٍ فِي أَلْوَانٍ صَعْدًا
وَمَعَهَا قَرَعُ الْأَوْتَارِ مِنَ الطَّنَابِيرِ وَتَفْخُ الْغَيْطَاتِ يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ الْغَنَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مَوَاطِنِ
حُرُوبِهِمْ هَكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِلْعَالَمِينَ

(السري). وَأَمَّا الدَّرِيرُ وَالْمَنْبَرُ وَالْتِخْتُ وَالْكُرْمِيُّ فَعِيْ أَعْوَادُ مَنَصُوبَةٌ أَوْ أَرَائِكُ
مُنْصَدَّةٌ جُلُوسُ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا مُرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ تَجْلِسِهِ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي الصَّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ
ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَفِي دَوْلِ الْعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يُجْلِسُونَ عَلَى أَمِيرَةِ الذَّهَبِ
وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ كُرْمِيُّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مَغْشَى بِالذَّهَبِ
إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ الدُّوْلُ إِلَّا بَعْدَ الْأَسْتِغْثَالِ وَالتَّرَفِّ شَأْنِ الْأُيُوهِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَا
وَأَمَّا فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ
مُعَاوِيَةُ وَاسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ بَدِئْتُ فَأَذْنُوا لَهُ فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ
الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأُيُوهِ وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَامِيٍّ بِمِصْرَ يُجْلِسُ
فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُقَوَّقَسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ
مَحْمُولٌ عَلَى الْأَيْدِي جُلُوسِهِ شَأْنُ الْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامُهُ وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ وَفَاءً لَهُ
بِمَا اعْتَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ الذِّمَّةِ وَأَطْرَاحًا لِأُيُوهِ الْمَلِكِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِابْنِ الْعَمَّاسِ
وَالْعَبِيدِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنَ الْأَمِيرَةِ وَالْمَنَابِيرِ وَالْتِخُوتِ مَا عَفَا عَنْ
الْأَكْسِيرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(السكة) وهي الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صوراً أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقود من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير اشخاص الدرهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عدداً وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً ولفظ السكة كان أمناً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدرهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصارت علماً عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقنون في سلامتها الغش بمختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك النجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند النجم إلى آخر أمرهم . ولما جاء الإسلام أغفل ذلك إسداً لالدين ويداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً وكانت دنانير الفرس ودرهمهم بين أيديهم ويردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدرهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدرهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدرهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر آمم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها آمم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دنانير والميثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم

أَيَّامَ الْفُرْسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ الْمِثْقَالِ عِشْرُونَ قِيرَاطًا وَمِنْهَا اثْنَا عَشَرَ
وَمِنْهَا عَشْرَةٌ فَلَمَّا أُخْبِجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي الزَّكَاةِ أُخِذَ الْوَسْطُ وَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ قِيرَاطًا
فَكَانَ الْمِثْقَالُ دِرْهَمًا وَثَلَاثَةَ أَسْبَاعٍ دِرْهَمٌ وَقِيلَ كَانَتْ مِنْهَا الْبَغْلِيُّ بِشِمَانِيَّةٍ دَوَانِقَ
وَالطَّبْرِيُّ أَرْبَعَةَ دَوَانِقَ وَالْمَغْرِبِيُّ ثَمَانِيَّةَ دَوَانِقَ وَالْيَمَنِيُّ سِتَّةَ دَوَانِقَ فَأَمَرَ عُمَرُ أَنْ يُنْظَرَ
الْأَغْلَبُ فِي التَّعَامُلِ فَكَانَ الْبَغْلِيُّ وَالطَّبْرِيُّ اثْنِي عَشَرَ دَانِقًا وَكَانَ الدِّرْهَمُ سِتَّةَ
دَوَانِقَ وَإِنْ زِدْتَ ثَلَاثَةَ أَسْبَاعٍ كَانَ مِثْقَالًا وَإِذَا انْقَصَتْ ثَلَاثَةُ أَعْشَارِ الْمِثْقَالِ كَانَ
دِرْهَمًا فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ اتِّخَاذَ السِّكَّةِ لِصِيَانَةِ النَّقْدِينَ الْجَارِيَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ
الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغِشِّ عَيْنَ مِقْدَارِهَا عَلَى هَذَا الَّذِي اسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَاتَّخَذَ فِيهِ كَلِمَاتٍ لَا صُورًا لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَ الْكَلَامَ وَالْبَلَاغَةَ أَقْرَبَ مَنَاحِيهِمْ وَأَظْهَرَهَا
مَعَ أَنَّ الشَّرْعَ بَنَى عَنِ الصُّورِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَحَرَّ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَيَّامِ الْعَمَلَةِ كُلِّهَا
وَكَانَ الدِّينَارُ وَالْدِّرْهَمُ عَلَى شَكْلَيْنِ مُدَوَّرَيْنِ وَالْمَكْتَابَةُ عَلَيْهِمَا فِي دَوَائِرَ مُتَوَازِيَةٍ
يُكْتَبُ فِيهَا مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَهْلِيلًا وَتَعْمِيدًا وَصَلَاةٌ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ وَفِي
الْوَجْهِ الثَّانِي التَّأْرِيخُ وَأَسْمَاءُ الْخُلَفَاءِ وَهَكَذَا أَيَّامُ الْعَبَّاسِيِّينَ وَالْعَبْدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ
وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَلَمْ يَتَّخِذُوا سِكَّةً إِلَّا آخِرَ الْأَمْرِ اتَّخَذَهَا مَنصُورٌ صَاحِبُ بَيْجَانَةَ ذَكَرَ ذَلِكَ
ابْنُ حَمَادٍ فِي تَارِيخِهِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ كَانَ مِمَّا سَنَّ لَهُمُ الْمَهْدِيُّ اتِّخَاذَ
سِكَّةِ الدِّرْهَمِ مُرَبَّعَ الشَّكْلِ وَأَنْ يُرْسَمَ فِي دَائِرَةِ الدِّينَارِ شَكْلُ مُرَبَّعٍ فِي وَسْطِهِ
وَبُيْنَلا مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ تَهْلِيلًا وَتَعْمِيدًا وَمِنْ الْجَانِبِ الْآخِرِ كُتِبَا فِي السُّطُورِ بِأَسْمِهِ
وَأَسْمِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَعَمِلَ ذَلِكَ الْمُوَحِّدُونَ وَكَانَتْ سِكَّتُهُمْ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ لِهَذَا
الْعَهْدِ وَلَقَدْ كَانَ الْمَهْدِيُّ فِيمَا يُنْقَلُ يُنْعَتُ قَبْلَ ظُهُورِهِ بِصَاحِبِ الدِّرْهَمِ الْمُرَبَّعِ نَعْتَهُ بِذَلِكَ
الْمُتَكَلِّمُونَ بِالْحَدَّثَانِ مِنْ قَبْلِهِ الْمُخْبِرُونَ فِي مَلَاحِيهِمْ عَنْ دَوْلَتِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ
إِذَا الْعَهْدِ فَسِكَّتُهُمْ غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ وَإِنَّمَا يَتَعَامَلُونَ بِالدَّنَانِيرِ وَالْدِّرَاهِمِ وَزَنًا بِالصَّنَجَاتِ
الْمُقَدَّرَةِ بَعْدَهُ مِنْهَا وَلَا يَطْبَعُونَ عَلَيْهَا بِالسِّكَّةِ نُقُوشَ الْكَلِمَاتِ بِالتَّهْلِيلِ وَالصَّلَاةِ وَأَسْمِ
السُّلْطَانِ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

وَلْتَعْمُرِ الْكَلَامَ فِي السِّكَّةِ بِذِكْرِ حَقِيقَةِ الدِّرْهَمِ وَالْدِّينَارِ الشَّرْعِيَيْنِ وَيَبَانَ
حَقِيقَةُ مِقْدَارِهِمَا

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا في السكة في المقدار والموازين بالآفاق
والأمصار وسائر الأعمال والشرع قد تعرض لإدكرهما وعلق كثيرا من الأحكام
بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار
معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما فاعلم أن الإجماع
منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي وزن
العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والأوقية منه أربعين درهما وهو على هذا سبعة
أعشار الدينار ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم
الذي هو سبعة أعشار خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع
فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري وهو أربعة دنانير والبغلي
وهو ثمانية دنانير فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دنانير فكانوا يوجبون الزكاة
في مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلفت الناس هل
كان ذلك من وضع عبد الملك أو إجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه .
ذكر ذلك الخطام في كتاب معالم السنن والماوردي في الأحكام السلطانية
وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان
مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة
والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه وأحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك
العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخص
في الخارج وإنما كان متعارفا بينهما بالحكم الشرعي على المقدار في مقدارهما
وزنتهما حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة ودعت الحال إلى تشخيصهما في
المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك أيام
عبد الملك فخص مقدارهما وعينهما في الخارج كما هو في الذهب ونقش عليهما
السكة بأسمه وتاريخه اثر الشهادتين الإيمانيتين وطرح النقود الجاهلية رأسا
حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاثي وجودها فهذا هو الحق الذي لا محيد عنه
ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في
الدينار والدرهم واختلفت في كل الأقطار والآفاق ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما

الشَّرْعِيَّةُ ذَهْنًا كَمَا كَانَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أَفْقٍ يَسْتَخْرِجُونَ الْحَقُّوقَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ سِيَكَتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ النَّسَبَةِ الَّتِي يَبْنِيهَا وَيَبْنِي مَقَادِيرَهَا الشَّرْعِيَّةُ وَأَمَّا وَزْنُ الدِّينَارِ بِأَثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ الْوَسَطِ فَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الْحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ إِلَّا ابْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً . نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْحَقِّ وَرَدَّهُ الْحَقِّقُونَ وَعَدَّوْهُ وَهْمًا وَغَلَطًا وَهُوَ الصَّحِيحُ وَاللَّهُ يُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَكَذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَوْقِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْمَتَعَارِفَةُ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْمَتَعَارِفَةَ مُخْتَلَفَةٌ بِاخْتِلَافِ الْأَقْطَارِ وَالشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةٌ ذَهْنًا لَا اخْتِلَافَ فِيهَا وَاللَّهُ خَاقُ كُلِّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا

(الخاتم) وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ الْخِطَاطِ السَّاطِنِيَّةِ وَالْوُضَائِفِ الْمُلُوكِيَّةِ وَالْخَتَمُ عَلَى الرِّسَالِ وَالصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَبْصَرٍ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ الْبُخَارِيُّ جَعَلَ الثَّلَاثَ الْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَتَخَتَّمُ بِهِ أَبُو بَكْرٌ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بَئْرِ أَرِيسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةً الْمَاءُ فَلَمْ يُدْرِكْ قَعْرُهَا بَعْدُ وَاعْتَمَ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْخَتَمِ بِهِ وَجْهُهُ ذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى الْآلَةِ الَّتِي تُجْعَلُ فِي الْأَصْبَعِ وَمِنْهُ تَخْتَمُ إِذَا لَبَسَهُ وَيُطْلَقُ عَلَى النِّهَايَةِ وَالنِّتَامِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ الْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتُ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ الْقُرْآنَ كَذَلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ الْأَمْرِ وَيُطْلَقُ عَلَى السَّدَادِ الَّذِي يُسَدُّ بِهِ الْأَوَانِي وَالْدِّنَانِ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى خِتَامُهُ مِسْكٌ وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالنِّهَايَةِ وَالنِّتَامِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَابِهِمْ رِيحُ الْمِسْكِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخِتَامِ الَّذِي هُوَ السَّدَادُ لِأَنَّ الْخَمْرَ يُجْعَلُ لَهَا فِي الدِّينِ سَدَادُ الطِّينِ أَوْ الْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيُطَيَّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا فَيُؤَلِّغُ فِي وَصْفِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِأَنَّ سَدَادَهَا مِنَ الْمِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفًا وَذَوْقًا مِنَ الْقَارِ وَالطِّينِ الْمَعْرُودَيْنِ فِي الدُّنْيَا فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ الْخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كَلِمَاتِهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِهَا النَّاشِئِ عَنْهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ إِذَا نُقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غُمِسَ فِي مَدَافٍ مِنَ الطِّينِ أَوْ مِدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ الْقِرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ الْكَلِمَاتِ

فِي ذَلِكَ الصَّنْعِ وَكَذَلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ آيِنَ كَالشَّمْعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ
 الْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتُ وَأَرْتَسَمَتْ فَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْبُشْرَى
 إِذَا كَانَ النَّقْشُ عَلَى الْأَسْتَقَامَةِ مِنَ الْيُمْنَى وَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُمْنَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ
 مِنَ الْجِهَةِ الْبُشْرَى لِأَنَّ الْخَتْمَ يَقْلِبُ جِهَةَ الْخَطِّ فِي الصَّنْعِ عَمَّا كَانَ فِي النَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ
 أَوْ يَسَارٍ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخَتْمُ بِهَذَا الْخَاتَمِ بِغَمْسِهِ فِي الْمِدَادِ أَوْ الطِّينِ وَوَضْعِهِ
 فِي الصَّنْعِ فَتَنْتَقِشَ الْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النِّهَايَةِ وَالْتِمَامِ بِمَعْنَى صِحَّةِ ذَلِكَ
 الْمَكْتُوبِ وَتَقْوِذِهِ كَانَ الْكِتَابُ إِنَّمَا يَتِمُّ الْعَمَلُ بِهِ بِهَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا
 مُلْفَى لِنَسَبِ بَتَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْخَتْمُ بِالْخَطِّ آخِرَ الْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ
 مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِاسْمِ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ
 شَيْءٍ مِنْ نَعْوَتِهِ يَكُونُ ذَلِكَ الْخَطُّ عِلَامَةً عَلَى صِحَّةِ الْكِتَابِ وَتَقْوِذِهِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي
 الْمُتَعَارِفِ عِلَامَةً وَيُسَمَّى خَتْمًا تَشْبِيهًا لَهُ بِأَثَرِ الْخَاتَمِ الْأَصْفِيِّ فِي النَّقْشِ وَمِنْ هَذَا
 خَاتَمُ الْقَاضِي الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخُصُومِ أَيْ عِلَامَتُهُ وَخَطُّهُ الَّذِي يُنْقِذُ بِهِمَا أَحْكَامَهُ
 وَمِنْهُ خَاتَمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْخَلِيفَةِ أَيْ عِلَامَتُهُ قَالَ الرَّشِيدُ لِيَعْنِي بِنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ
 يَسْتَوِزَرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَيِّهِمَا يَعْجَى يَا أَبْتَ إِنِّي أَرَدْتُ
 أَنْ أُحَوِّلَ الْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي فَكُنِّي لَهُ بِالْخَاتَمِ عَنِ الْوِزَارَةِ لِمَا كَانَتْ الْعِلَامَةُ
 عَلَى الرَّسَائِلِ وَالصُّكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ الْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ وَيَشْهَدُ لَصِحَّةِ هَذَا الْإِطْلَاقِ مَا
 نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى الْحَسَنِ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي الصَّلَاحِ صَحِيفَةً يَضَاءُ
 خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ أَشْتَرِطَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتَ
 فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى الْخَتْمِ هُنَا عِلَامَةُ فِي آخِرِ الصَّحِيفَةِ بِخَطِّهِ أَوْ غَيْرِهِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ
 فِي جِسْمِ لَيْنٍ فَتَنْتَقِشَ فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ الْحَزْمِ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حَزِمَ
 وَعَلَى الْمَوْدُوعَاتِ وَهُوَ مِنَ السَّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي الْوَجْهَيْنِ أَثَرُ الْخَاتَمِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ
 خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ الْخَتْمَ عَلَى الْكِتَابِ أَيْ الْعِلَامَةَ مُعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لَعَمْرَ بْنَ الزُّبَيْرِ
 عِنْدَ زِيَادٍ بِالْكُوفَةِ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَفَتَحَ الْكِتَابَ وَصَيَّرَ الْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادَ حِسَابَهُ
 فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةُ وَطَلَبَ بِهَا عُمَرَ وَجَسَّهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ وَأَخَذَ مُعَاوِيَةُ
 عِنْدَ ذَلِكَ دِيوَانَ الْخَاتَمِ ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ الْكِتَابَ وَلَمْ تَكُنْ

تَحْزَمُ أَيَّ جَعَلَ لَهَا السِّدَادَ وَدِيَوَانَ الْخَتَمِ عِبَارَةً عَنِ الْكِتَابِ الْفَائِمِينَ عَلَى إِتْقَانِ
 كُتُبِ السُّلْطَانِ وَالْخَتَمِ عَلَيْهَا إِمَّا بِالْهَلَامَةِ أَوْ بِالْحَزْمِ وَقَدْ يُطْلَقُ الدِّيَوَانُ عَلَى مَكَانِ
 جُلُوسِ هَؤُلَاءِ الْكِتَابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي دِيَوَانِ الْأَعْمَالِ وَالْحَزْمُ لِلْكِتَابِ يَكُونُ
 إِمَّا بِدَسِ الْوَرَقِ كَمَا فِي عُرْفِ كُتَابِ الْمَغْرِبِ وَإِمَّا بِإِلصَاقِ رَأْسِ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا
 تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ كَمَا فِي عُرْفِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَقَدْ يُجْعَلُ عَلَى مَكَانِ الدَّسِ أَوْ
 الْإِلصَاقِ هَلَامَةٌ يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنْ فَتْحِهِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا فِيهِ فَأَهْلُ الْمَغْرِبِ يَجْعَلُونَ عَلَى
 مَكَانِ الدَّسِ قِطْعَةً مِنَ الشَّمْعِ وَيَخْتِمُونَ عَلَيْهَا بِخَاتَمٍ تُقَشَّتْ فِيهِ هَلَامَةٌ لِذَلِكَ فَيَرْتَسِمُ
 النَّقْشُ فِي الشَّمْعِ وَكَانَ فِي الْمَشْرِقِ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ يُخْتَمُ عَلَى مَكَانِ اللَّصْقِ بِخَاتَمٍ
 مَنقُوشٍ أَيْضًا قَدْ غُمِسَ فِي مَدَافٍ مِنَ الطِّينِ مَعْدَةً لِذَلِكَ صِبْغُهُ أَحْمَرُ فَيَرْتَسِمُ ذَلِكَ
 النَّقْشُ عَلَيْهِ وَكَانَ هَذَا الطِّينُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يُعْرَفُ بِطِينِ الْخَتَمِ وَكَانَ يُجَلَّبُ مِنْ
 سِيرَافَ فَيُظْهِرُ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا فَهَذَا الْخَاتَمُ الَّذِي هُوَ الْهَلَامَةُ الْمَكْتُوبَةُ أَوْ النَّقْشُ
 لِلْسِّدَادِ وَالْحَزْمِ لِلْكِتَابِ خَاصٌّ بِدِيَوَانِ الرِّسَالِ وَكَانَ ذَلِكَ لِلْوَزِيرِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
 ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُرْفُ وَصَارَ لِمَنْ إِلَيْهِ التَّرْسِيلُ وَدِيَوَانِ الْكِتَابِ فِي الدَّوْلَةِ ثُمَّ صَارُوا فِي
 دُولِ الْمَغْرِبِ يَعُدُّونَ مِنْ عِلَامَاتِ الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ الْخَاتَمَ لِلْإِصْبَعِ فَيَسْتَجِيدُونَ صَوْنَهُ
 مِنَ الذَّهَبِ وَيُرْصِعُونَهُ بِالْفُصُوصِ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْفَيْرُوزِ وَالزُّمُرُودِ وَيَلْبَسُهُ السُّلْطَانُ
 شَارَةً فِي عُرْفِهِمْ كَمَا كَانَتْ الْبُرْدَةُ وَالْقَضِيبُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْمِظَلَّةُ فِي الدَّوْلَةِ
 الْعَبْدِيَّةِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ بِحُكْمِهِ

(الطراز) * مِنْ أَجْلِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَمَذَاهِبِ الدُّوَلِ أَنْ تُرْمَمَ أَسْمَاؤُهُمْ أَوْ
 عِلَامَاتُ تَخْتَصُّ بِهِمْ فِي طِرَازِ أَثْوَابِهِمُ الْمَعْدَةُ لِلْبَاسِيهِمْ مِنَ الْحَرِيرِ أَوِ الدِّيَبَاجِ أَوْ
 الْأَبْرِيسِمِ تُعْتَبَرُ كِتَابَةٌ خَطِيئًا فِي نَسْجِ الثَّوبِ الْحَلَامًا وَإِسْدَاءٌ بِخِطِّ الذَّهَبِ أَوْ مَا يُخَالِفُ
 لَوْنِ الثَّوبِ مِنَ الْخِيُوطِ الْمَلُوكَةِ مِنْ غَيْرِ الذَّهَبِ عَلَى مَا يُحْكِمُهُ الصَّنَاعُ فِي تَقْدِيرِ ذَلِكَ
 وَوَضْعِهِ فِي صِنَاعَةِ نَسْجِهِمْ فَتَصِيرُ الثِّيَابُ الْمَلُوكِيَّةُ مُعْلَمَةً بِذَلِكَ الطِّرَازِ قَصْدَ التَّنْوِيهِ
 بِإِلْبَاسِهَا مِنَ السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ أَوْ التَّنْوِيهِ بِمَنْ يَخْتَصُّهُ السُّلْطَانُ بِمَلْبُوسِهِ إِذَا قَصَدَ
 تَشْرِيفَهُ بِذَلِكَ أَوْ وَلَايَتَهُ لَوَاطِفَةً مِنْ وَطَائِفِ دَوْلَتِهِ وَكَانَ مُلُوكُ الْعَجَمِ مِنْ قَبْلِ الْإِسْلَامِ
 يَجْعَلُونَ ذَلِكَ الطِّرَازَ بِصُورِ الْمُلُوكِ وَأَشْكَالِهِمْ أَوْ أَشْكَالِ وَصُورِ مُعِينَةٍ لِذَلِكَ ثُمَّ

أَعْتَاضَ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بِكُتُبِ أَسْمَائِهِمْ مَعَ كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَى
الْقَالَ أَوْ السَّجَلَاتِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْأُمُورِ وَالْفُتُوحِ الْأَحْوَالِ وَكَانَتْ
الدُّورُ الْمَعْدَةُ لِنَسْحِ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تُسَمَّى دُورَ الطَّرَازِ لِذَلِكَ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى
النَّظَرِ فِيهَا يُسَمَّى صَاحِبَ الطَّرَازِ يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الصَّبَاغِ وَالْأَلَةِ وَالْحَاكَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ
أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْمِيلِ آلَتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا يَقْلِدُونَ ذَلِكَ لِمَخَوَاصِ دَوْلَتِهِمْ وَثِقَاتِ
مَوَالِيهِمْ وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَالُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي
دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ لَمَّا ضَاقَ
نِطاقُ الدَّوَلِ عَنِ التَّرَفِ وَالْتَفَنَ فِيهِ لِضِيقِ نِطَاقِهَا فِي الْإِسْتِيْلَاءِ وَتَعَدَّدَتْ الدَّوَلُ تَعَطَّلَتْ
هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ وَالْوَلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ الدَّوَلِ بِالْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ
بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلَ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لَمَّا كَانُوا
عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ الدِّيَانَةِ وَالسَّدَاجَةِ الَّتِي لَقِيْنَاهَا عَنْ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ تُوْمَرْتِ الْمَهْدِيِّ
وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ لِبَاسِ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ وَاسْتَدْرَكَ
مِنْهَا أَعْقَابُهُمْ آخِرَ الدَّوَلَةِ طَرَفًا لَمْ يَكُنْ بَيْنَكَ التَّبَاهَةُ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ فَأَذْرَكْنَا بِالْمَغْرِبِ
فِي الدَّوَلَةِ الْمَرْبُوبَةِ لِعُدُوتِهَا وَشُمُوحِهَا رَسْمًا جَلِيلًا لِقِيَمَتِهِ مِنْ دَوْلَةٍ أَنْ الْأَحْمَرَ مُحَاصِرِهِمْ
بِالْأَنْدَلُسِ وَاتَّبَعَ هُوَ فِي ذَلِكَ مُلُوكُ الطَّوَائِفِ فَأَتَى مِنْهُ بِلِخْطَةٍ شَاهِدَةٍ بِالْأَثَرِ وَأَمَّا دَوْلَةُ
الْتُرْكِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَفِيهَا مِنَ الطَّرَازِ تَعْرِيرُ آخِرُ عَلَى مِقْدَارِ مُلْكِهِمْ وَعُمْرَانِ
بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُصْنَعُ فِي دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَلَيْسَتْ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِمْ وَإِنَّمَا
يَنْسَجُ مَا تَطْلُبُهُ الدَّوَلَةُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ صُنَائِهِ مِنَ الْحَرِيرِ وَمِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَيُسَمَّوْنَهُ
الْمُرَزَكَشَ لَفْظَةً أَعْجَمِيَّةً وَيُرْسَمُ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ عَلَيْهِ وَيُعَدُّ الصَّنَاعُ لَهُمْ فِيمَا
يُعِدُّونَهُ لِلدَّوَلَةِ مِنْ طَرَفِ الصَّنَاعَةِ الْأَثَقَةِ بِهَا وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفساطيط والسياج

إِعْلَمَ أَنَّ مِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ وَتَرْفِهِ اتِّخَاذُ الْأَخْيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ وَالْفَازَاتِ مِنْ ثِيَابِ
الْحِكْمَانِ وَالصُّوفِ وَالْقُطُنِ فَيُبَاغَى بِهَا فِي الْأَسْفَارِ وَتُتَوَعُّ مِنْهَا الْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ
وَصَغِيرٍ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوَلَةِ فِي الثَّرْوَةِ وَالْبَسَارِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوَلَةِ فِي يَوْمِهِمْ
الَّتِي جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِاتِّخَاذِهَا قَبْلَ الْمُلْكِ وَكَانَ الْعَرَبُ لِعَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ

إِنَّمَا يَسْكُنُونَ يَبُوتَهُمُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ خِيَامًا مِنَ الْوَبَرِ وَالصُّوفِ وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ لِنَظَرِ
 الْعَهْدِ بَادِينَ إِلَّا الْأَقْلَ مِنْهُمْ فَكَانَتْ أَسْفَارُهُمْ لِعِزِّوَاتِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ بِظَعُونِهِمْ وَسَائِرِ
 حِلَلِهِمْ وَأَحْيَائِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْعَرَبِ إِيذَا الْعَهْدُ وَكَانَتْ عَسَاكِرُهُمْ
 لِذَلِكَ كَثِيرَةً الْحُلَلِ بَعِيدَةً مَا بَيْنَ الْمَنَازِلِ مُتَفَرِّقَةً الْأَحْيَاءُ يَغِيبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْ
 نَظَرِ صَاحِبِهِ مِنَ الْأُخْرَى كَشَأْنِ الْعَرَبِ وَلِذَلِكَ مَا كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ يَحْتَاجُ إِلَى سَاقَةِ
 تَحْشُدِ النَّاسِ عَلَى أَثَرِهِ أَنْ يُقِيمُوا إِذَا ظَعَنَ وَثَقِلَ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ الْحِجَاجَ حِينَ
 أَشَارَ بِهِ رَوْحُ بْنُ زَيْبَاعٍ وَفِصَّتُهُمَا فِي إِعْرَاقِ فَسَاطِيطِ رَوْحٍ وَخِيَامِهِ لِأَوَّلِ وَلَايَتِهِ
 حِينَ وَجَدَهُمْ مُقِيمِينَ فِي يَوْمِ رَحِيلِ عَبْدِ الْمَلِكِ قِصَّةً مَشْهُورَةً وَمِنْ هَذِهِ الْوَلَايَةِ تُعْرَفُ
 رُتَبَةُ الْحِجَاجِ بَيْنَ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى إِرَادَتَهُمْ عَلَى الظُّعْنِ إِلَّا مَنْ يَأْتِي مِنْ بَوَادِرِ
 السُّفَهَاءِ مِنْ أَحْيَائِهِمْ بِمَا لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ الْخَائِلَةِ دُونَ ذَلِكَ وَلِذَلِكَ اخْتَصَّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ
 بِهَذِهِ الرُّتَبَةِ ثِقَةً بِغِنَائِهِ فِيهَا بِعَصِيَّتِهِ وَصِرَامَتِهِ فَلَمَّا تَقَنَّنَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي مَذَاهِبِ
 الْحِضَارَةِ وَالْبَذَخِ وَنَزَلُوا الْمَدُنَ وَالْأَمْصَارَ وَانْتَقَلُوا مِنْ سُكْنَى الْخِيَامِ إِلَى سُكْنَى
 الْقُصُورِ وَمِنْ ظَهْرِ الْخُفِّ إِلَى ظَهْرِ الْحَافِرِ انْتَحَدُوا لِلْسُّكْنَى فِي أَسْفَارِهِمْ ثِيَابَ الْكَتَّانِ
 يَسْتَعْمِلُونَ مِنْهَا يَبُوتًا مُخْتَلِفَةً الْأَشْكَالَ مُقَدَّرَةً الْأَمْثَالَ مِنَ الْقُورَاءِ وَالْمُسْتَطِيلَةِ وَالْمُرَبَّعَةِ
 وَيَحْتَفِلُونَ فِيهَا بِأَبْلَغِ مَذَاهِبِ الْإِحْتِفَالِ وَالزَّيْنَةِ وَيُدِيرُ الْأَمِيرُ وَالْقَائِدُ لِعَسَاكِرِ عَلَى
 فَسَاطِيطِهِ وَفَازَاتِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ سِيَّاحًا مِنَ الْكَتَّانِ يُسَمَّى فِي الْمَغْرِبِ بِلِسَانِ الْبَرْبَرِ الَّذِي
 هُوَ لِسَانُ أَهْلِ أَفْرَاكِ بِالْكَافِ وَالْقَافِ وَيَخْتَصُّ بِهِ السُّلْطَانُ بِذَلِكَ الْقَطْرِ لَا يَكُونُ
 لغيرِهِ. وَأَمَّا فِي الْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُهُ كُلُّ أَمِيرٍ وَإِنْ كَانَ دُونَ السُّلْطَانِ ثُمَّ جَنَحَتِ الدَّعَةُ
 بِالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ إِلَى الْمَقَامِ بِقُصُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ نَحَفَ لِذَلِكَ ظُهُرُهُمْ وَتَقَارَبَتِ السِّيَّاحُ
 بَيْنَ مَنَازِلِ الْعَسْكَرِ وَاجْتَمَعَ الْجَيْشُ وَالسُّلْطَانُ فِي مَعْسَكٍ وَاحِدٍ يَحْضُرُهُ الْبَصَرُ فِي بَسِيطَةٍ
 زَهْوًا أُنِيقًا لِاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي بَدْخِهَا وَتَرْفِهَا
 وَكَذَا كَانَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَزَنَانَةُ الَّتِي أَظَلَّتْنَا كَانَ سَفَرُهُمْ أَوَّلَ أَمْرِهِمْ فِي يَبُوتِ سُكْنَاهُمْ
 قَبْلَ الْمَلِكِ مِنَ الْخِيَامِ وَالْقِيَاطِينَ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي مَذَاهِبِ التَّرَفِ وَسُكْنَى
 الْقُصُورِ وَعَادُوا إِلَى سُكْنَى الْأَخْيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ بَلَّغُوا مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا أَرَادُوهُ وَهُوَ مِنَ
 التَّرَفِ بِمَكَانٍ إِلَّا أَنَّ الْعَسَاكِرَ بِهِ تَصِيرُ عُرْضَةً لِلْيَبَاتِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ تَشْمَلُهُمْ

فِيهِ الصِّبْغَةُ وَلِيُخَفِّتَهُمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ الَّذِينَ تَكُونُ الْأَسْمَانَةُ دُونَهُمْ فَيَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَحْفِظٍ آخَرَ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وَهُمَا مِنَ الْأُمُورِ الْخِلَافِيَّةِ وَمِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ الْإِسْلَامِيِّ وَلَمْ يُعْرِفْ فِي غَيْرِ دَوْلِ الْإِسْلَامِ . فَأَمَّا الْبَيْتُ الْمَقْصُورَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ السُّلْطَانِ فَيَتَّخِذُ سِيَّاحًا عَلَى الْحِمَارِ فَيَجُوزُهُ وَمَا يَكِبُهُ فَأُولُ مَنْ اتَّخَذَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ حِينَ دَعَنَهُ الْخَارِجِيُّ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ حِينَ دَعَنَهُ الْيَمَانِيُّ ثُمَّ اتَّخَذَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَصَارَتْ سُنَّةً فِي تَمْيِيزِ السُّلْطَانِ عَنِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ وَهِيَ إِنَّمَا تَقْدُمُ عِنْدَ حُصُولِ التَّرَفِّ فِي الدَّوَلِ وَالْإِسْتِغْثَالِ شَأْنِ أَحْوَالِ الْأَيَّامِ كُلِّهَا وَمَا زَالَ الشَّانُ ذَلِكَ فِي الدَّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا وَعِنْدَ اقْتِرَاقِ الدَّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَعَدُّ الدَّوَلِ بِالْمَشْرِقِ وَكَذَا بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ اقْتِرَاضِ الدَّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَتَعَدُّ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَكَانَ بَنُو الْأَغْلَبِ يَتَّخِذُونَهَا بِالْقَبْرِوَانِ ثُمَّ الْخُلَفَاءُ الْعَبِيدِيُّونَ ثُمَّ وَلَا تَهْمُ عَلَى الْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةَ بَنُو بَادِيسَ بِفَاسَ وَبَنُو حَمَادٍ بِالْقَلْعَةِ ثُمَّ مَلِكُ الْمُوَحِّدُونَ سَائِرَ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَنَحْوَهَا ذَلِكَ الرَّسْمُ عَلَى طَرِيقَةِ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ شِعَارُهُمْ وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتِ الدَّوَلَةُ وَأَخَذَتْ بِعَظَمَتِهَا مِنَ التَّرَفِّ وَجَاءَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ثَالِثُ مُلُوكِهِمْ فَأَتَّخَذَ هَذِهِ الْمَقْصُورَةَ وَبَقِيَتْ مِنْ بَعْدِهِ سُنَّةً لِمُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَهَكَذَا كَانَ الشَّانُ فِي سَائِرِ الدَّوَلِ سُنَّةً اللَّهِ فِي عِبَادِهِ . وَأَمَّا الدُّعَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْخُطْبَةِ فَكَانَ الشَّانُ أَوَّلًا عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وَلَايَةِ الصَّلَاةِ بِأَنْفُسِهِمْ فَكَانُوا يَدْعُونَ لِذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرَّضَى عَنْ أَصْحَابِهِ وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْمَنِيرَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ لَمَّا بَنَى جَامِعَهُ بِمِصْرَ وَأَوَّلُ مَنْ دَعَا لِلْخُلِيفَةِ عَلَى الْمَنِيرِ أَبُو عَبَّاسٍ دَعَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي اللَّهِ عَنْهُمَا فِي خُطْبَتِهِ وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ عَامِلٌ لَهُ عَلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْصُرْ عَلِيًّا عَلَى الْحَقِّ وَاتَّصِلْ أَلْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدُ وَبَعْدَ أَخَذِ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ الْمَنِيرَ بَلَغَ عُمَرُو بْنُ الْخَطَّابِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُو بْنُ الْخَطَّابِ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ مَنِيرًا تَرْفِي بِهِ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَا يَكْفِيكَ أَنْ تَكُونَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ عَقِيكَ فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرْتَهُ فَلَمَّا حَدَّثَتْ الْأَيُّهُ وَحَدَّثَ فِي الْخُلَفَاءِ الْمَانِعُ مِنَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَمَنَابُوا

فِيهِمَا فَكَانَ الْخَطِيبُ يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْمَنْبَرِ تَنْوِيهَا بِأَسْمِهِ وَدُعَاءَ لَهُ بِمَا جَعَلَ
 اللَّهُ مَصْنَعَةَ الْعَالَمِ فِيهِ وَلِأَنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ مَظْنَّةٌ لِلْإِجَابَةِ وَلِمَا ثَبَتَ عَنِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ
 مَنْ كَانَتْ لَهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ فَلْيَضَعَهَا فِي السُّلْطَانِ وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُفَرِّدُ بِذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَ
 الْحَجَرُ وَالْإِسْتِبدَادُ صَارَ الْمُتَغَابِرُونَ عَلَى الدُّوَلِ كَثِيرًا مَا يُشَارِكُونَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ
 وَيُشَادُّ بِأَسْمِهِمْ عَقِبَ أَسْمِهِ وَذَهَبَ ذَلِكَ بِذَهَابِ تِلْكَ الدُّوَلِ وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتِصَاصِ
 السُّلْطَانِ بِالْدُّعَاءِ لَهُ عَلَى الْمَنْبَرِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ وَحُظِرَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهِ أَحَدٌ أَوْ يَسُو
 إِلَيْهِ وَكَثِيرًا مَا يُغْفَلُ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ هَذَا الرِّسْمَ عِنْدَ مَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ فِي
 أَسْلُوبِ الْغَضَاضَةِ وَمَنَاحِي الْبِدَاوَةِ فِي التَّغَافُلِ وَالْخُشُونَةِ وَيَقْنَعُونَ بِالْدُّعَاءِ عَلَى الْأَيْهَامِ
 وَالْإِجْمَالِ لِمَنْ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ وَيُسَمُّونَ مِثْلَ هَذِهِ الْخِطْبَةِ إِذَا كَانَتْ عَلَى هَذَا
 الْمَعْنَى عَبَّاسِيَّةً يَتَعَنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الدُّعَاءَ عَلَى الْإِجْمَالِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْعَبَّاسِيَّ تَقْلِيدًا فِي
 ذَلِكَ لِمَا سَلَفَ مِنَ الْأَمْرِ وَلَا يَحْفَلُونَ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَعْيِينِهِ وَالتَّضَرُّعِ بِأَسْمِهِ يُعْصِي
 أَنْ يَغْمُرَ اسِنَّ بْنِ زِيَّانَ عَاهِدَ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ لَمَّا غَلَبَهُ الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَّا بِعُجَيْبِ بْنِ
 أَبِي حَفْصٍ عَلَى تَلْمَسَانَ ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ عَلَى شُرُوطٍ شَرَطَهَا كَانَ فِيهَا
 ذِكْرُ أَسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ عَمَلِهِ فَقَالَ يَغْمُرَ اسِنَّ تِلْكَ أَعْوَادُهُمْ يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا مَنْ شَاهَدُوا
 وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ عَاهِدَ دَوْلَةِ بَنِي مُرِينَ خَصْرَهُ رَسُولُ الْمُتَصَرِّ الْخَلِيفَةُ
 بَنُو نِسَ مِنْ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَتَالَتْ مُلُوكُهُمْ وَتَغَلَّفَ بَعْضُ أَيَّامِهِ عَنْ شُهُودِ الْجَمْعَةِ فَقِيلَ
 لَهُ لَمْ يَحْضُرْ هَذَا الرَّسُولُ كَرَاهِيَةً لَخُلُوعِ الْخِطْبَةِ مِنْ ذِكْرِ سُلْطَانِهِ فَأُذِنَ فِي الدُّعَاءِ لَهُ
 وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَخْذِهِمْ بِدَعْوَتِهِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي بِدَايَتِهَا وَتَمَكُّنِهَا فِي الْغَضَاضَةِ
 وَالْبِدَاوَةِ فَإِذَا انْتَبَهَتْ عِيُونُ سِيَاسَتِهِمْ وَنَظَرُوا فِي أُعْطَافِ مُلْكِهِمْ وَاسْتَشْمَوْا شِيَاءَ
 الْحِضَارَةِ وَمَفَافِي الْبَذَخِ وَالْأَلْبَهَةِ انْتَحَلُوا جَمِيعَ هَذِهِ السِّمَاتِ وَتَقَنَّنُوا فِيهَا وَتَجَارَوْا إِلَى
 غَايَتِهَا وَأَنْفَعُوا مِنَ الْمُشَارَكَةِ فِيهَا وَجَزَعُوا مِنْ أَفْتِقَادِهَا وَخَلُوعِ دَوْلَتِهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَالْعَالَمُ
 يُسْتَأْنُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبٌ

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الامم وترتيبها

إِذْ عَلِمَ أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتَلَةِ لَمْ تَزَلْ وَاقِعَةً فِي الْخَلِيقَةِ مُنْذُ بَرَأَهَا اللَّهُ وَأَصْلَهَا

إِرَادَةُ اَلْاِنْتِقَامِ بَعْضِ الْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَعَصَّبُ لِكُلِّ مِنْهَا اَهْلُ عَصَائِيهِ فَاِذَا تَدَامَرُوا لِذَلِكَ وَتَوَافَقَتِ الطَّائِفَتَانِ اِحْدَاهُمَا تَطْلُبُ الْاِنْتِقَامَ وَالْاُخْرَى تُدَافِعُ كَانَتْ اَلْحَرْبُ وَهِيَ اَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ اُمَّةٌ وَلَا جِيلٌ وَسَبَبُ هَذَا الْاِنْتِقَامِ فِي الْاَكْثَرِ اِمَّا غِيْرَةٌ وَمُنَافَسَةٌ وَاِمَّا عُدُوَانٌ وَاِمَّا غَضَبُ اللهِ وَلِدِينِهِ وَاِمَّا غَضَبُ الْمَلِكِ وَسَعْيٌ فِي تَمْوِيْدِهِ فَالْاَوَّلُ اَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَجَاوِزَةِ وَالْعَشَائِرِ الْمُتَنَازِعَةِ وَالثَّانِي وَهُوَ الْعُدُوَانُ اَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْ اَلْاَنَامِ الْوَحْشِيَّةِ السَّاكِنِينَ بِالْقُرَى كَالْعَرَبِ وَالْتُرْكِ وَالْتُرْكُمَانِ وَالْاَكْرَادِ وَاَشْبَاهِهِمْ لِاَنَّهُمْ جَعَلُوا اَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ وَمَعَانِيهِمْ فَيَمَاطُ بِاَيْدِي غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ اَذْنُوهُ بِالْحَرْبِ وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ فَيَسَاطُ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رُذِيَّةٍ وَلَا مَلِكٍ وَاِنَّمَا هُمُومُهُمْ وَنُصْبُ اَعْيُنِهِمْ غَلَبُ النَّاسِ عَلَيَّ مَا فِي اَيْدِيهِمْ وَالثَّالِثُ هُوَ الْمُسَمَّى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ وَالرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ الدُّوَلِ مَعَ الْخَارِجِيْنَ عَلَيْهَا وَالْمُتَنَازِعِينَ لِبَطَاعَتِهَا فَهَذِهِ اَرْبَعَةُ اَصْنَافٍ مِنْ الْحُرُوبِ الصِّنْفَانِ الْاَوَّلَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بَغْيٍ وَفِتْنَةٍ وَالصِّنْفَانِ الْاٰخِرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدْلٍ وَصِنْفَةُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ اَهْلِ الْخَلِيقَةِ مِنْذُ اَوَّلِ وُجُوْدِهِمْ عَلَيَّ تَوْعَيْنٍ نَوْعٍ بِالرَّحْفِ صُنُوفًا وَنَوْعٍ بِالْكُرِّ وَالْفَرِّ اَمَّا الَّذِي بِالرَّحْفِ فَهُوَ قِتَالُ الْعَجَمِ كُلِّهِمْ عَلَيَّ تَعَاظٍ اُجْيَالِهِمْ وَاَمَّا الَّذِي بِالْكُرِّ وَالْفَرِّ فَهُوَ قِتَالُ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ مِنْ اَهْلِ الْمَغْرِبِ وَقِتَالُ الرَّحْفِ اَوْثَقُ وَاَشَدُّ مِنْ قِتَالِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ وَذَلِكَ لِاَنَّ قِتَالَ الرَّحْفِ تَرْتَّبُ فِيهِ الصُّفُوفُ وَتُسَوَّى كَمَا تُسَوَّى الْقِدَاحُ اَوْ صُنُوفُ الصَّلَاةِ وَيَمْشُونَ بِصُفُوفِهِمْ اِلَى الْعَدُوِّ قُدُمًا فَلِذَلِكَ تَكُونُ اُثْبَتَ عِنْدَ الْمَصَارِعِ وَاَصْدَقَ فِي الْقِتَالِ وَاَزْهَبَ لِلْعَدُوِّ لِاَنَّهُ كَالْحَائِطِ الْمُحْتَدِّ وَالْقَصْرِ الْمَشِيدِ لَا يُطْمَعُ فِي اِزَالَتِهِ وَفِي التَّنْزِيلِ اِنْ اَللهُ يُحِبُّ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ اَي يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّبَاتِ وَفِي الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ لَكَ حِكْمَةُ اِيجَابِ الثَّبَاتِ وَتَعْرِيمِ التَّوَلَّى فِي الرَّحْفِ فَاِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ حِفْظُ النِّظَامِ كَمَا قُلْنَا فَمَنْ وَلَّى الْعَدُوَّ ظَهْرَهُ فَقَدْ اَخْلَى بِالْمَصَافِرِ وَبَاءَ بِاَيْتِمِ الْمَزِيْمَةِ اِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَاَنَّهُ جَرَّهَا عَلَيَّ الْمُسْلِمِينَ وَاَمَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَدُوًّا فَعَظُمَ الذَّنْبُ لِعُمُومِ الْمَفْسَدَةِ وَتَعَدِّيْهَا اِلَى الَّذِيْنَ يَخْرُقُ سِيَاحِهِ فَعُدَّ مِنَ الْكَبَائِرِ وَيُظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْاَدِلَّةِ اَنَّ قِتَالَ الرَّحْفِ اَشَدُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَاَمَّا قِتَالُ الْكُرِّ وَالْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ

مِنَ الشَّدَّةِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ الزَّحْفِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَّخِذُونَ وَرَاءَهُمْ فِي
 الْقِتَالِ مَصَافًا ثَابِتًا يَلْتَأَوْنَ إِلَيْهِ فِي الْكُرِّ وَالْفَرِّ وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ قِتَالِ الزَّحْفِ كَمَا
 تَذَكَّرُهُ بَعْدُ ثُمَّ إِنَّ الدُّوَلِ الْقَدِيمَةَ الْكَثِيرَةَ الْجُنُودِ الْمُتَّسِعَةَ الْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ
 الْجِيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ أَقْسَامًا يُسَمُّونَهَا كَرَادِيسَ وَيُسَوُّونَ فِي كُلِّ كَرْدُوسٍ صُوفَةً وَسَبَبُ
 ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَحُشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ النُّوَاحِي اسْتَدْعَى
 ذَلِكَ أَنْ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا اخْتَلَطُوا فِي تَجَالِ الْحَرْبِ وَأَعْتَوَزُوا مَعَ عَدُوِّهِمُ الطَّعْنَ
 وَالضَّرْبَ فَيُخْشَى مِنْ تَدَافُعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ النُّكْرَاءِ وَجْهَلِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلِذَلِكَ كَانُوا
 يَقْسِمُونَ الْعَسَاكِرَ جُمُوعًا وَيَضْمُونَ الْمُتَعَارِفِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَيُرْتَبُونَهَا قَرِيبًا مِنَ التَّرْتِيبِ
 الطَّبِيعِيِّ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَرِئِيسُ الْعَسَاكِرِ كُلِّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي الْقَلْبِ وَيُسَمُّونَ هَذَا
 التَّرْتِيبَ الْأَعْبِيَّةَ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي أَخْبَارِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالْدَوْلَتَيْنِ وَصَدَرَ الْإِسْلَامُ فَيَجْعَلُونَ
 بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ عَسْكَرًا مُنْفَرِدًا بِصُوفِهِ مُمَيِّزًا بِقَائِدِهِ وَرَايَتِهِ وَشِعَارِهِ وَيُسَمُّونَهُ الْمَقْدَمَةَ
 ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ نَاحِيَةِ الْيَمِينِ عَنْ مَوْقِفِ الْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ الْمَيْمَنَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا
 آخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ كَذَلِكَ يُسَمُّونَهُ الْمَيْسِرَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ مِنْ وَرَاءِ الْعَسْكَرِ
 يُسَمُّونَهُ السَّافَةَ وَيَقِفُ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَعِ وَيُسَمُّونَ مَوْقِفَهُ
 الْقَلْبَ فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ هَذَا التَّرْتِيبُ الْمُحْكَمُ إِمَّا فِي مَدَى وَاحِدٍ لِلْبَصَرِ أَوْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ
 أَكْثَرُهَا الْيَوْمُ وَالْيَوْمَانِ بَيْنَ كُلِّ عَسْكَرَيْنِ مِنْهَا أَوْ كَيْفَمَا أَعْطَاهُ حَالُ الْعَسَاكِرِ فِي
 الْقَلَّةِ وَالْكَثْرَةِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الزَّحْفُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْأَعْبِيَّةِ وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ
 الْفَتْوحَاتِ وَأَخْبَارِ الدَّوْلَتَيْنِ بِالْمَشْرِقِ وَكَيْفَ كَانَتْ الْعَسَاكِرُ لِعَبْدِ الْمَلِكِ اتَّخَلَفَ
 عَنْ رَحِيلِهِ لِبُعْدِ الْمَدَى فِي التَّعْبِيَّةِ فَأَحْتِيجَ لِمَنْ يَسُوقُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَعَيْنَ ذَلِكَ الْحِجَاجُ
 ابْنُ يُوسُفَ كَمَا أَشْرَفْنَا إِلَيْهِ وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِ وَكَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
 بِالْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ مَجْهُولٌ فِيمَا لَدَيْنَا لِأَنَّا إِنَّمَا أَذَرْنَا دَوْلًا قَلِيلَةَ الْعَسَاكِرِ
 لَا تَنْتَهِي فِي تَجَالِ الْحَرْبِ إِلَى التَّنَاكُرِ بَلْ أَكْثَرُ الْجِيُوشِ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مَعًا يَجْتَمِعُهُنَّ
 لَدَيْنَا حَالَةً أَوْ مَدِينَةً وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قُوَّتَهُ وَيُنَادِيهِ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ بِأَسْمِهِ وَلَقَبِهِ
 فَاسْتَغْنَى عَنْ تِلْكَ التَّعْبِيَّةِ

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ فِي الْحُرُوبِ ضَرْبُ الْمَصَافِ وَرَاءَ عَسْكَرِهِمْ مِنْ

الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للنجاة في كرمهم وفريهم يطلبون به ثبات
المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى القلب وقد فعله أهل الزحف أيضاً
ليزيدهم ثباتاً وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب
ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات
ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم
وأنظر ما وقع من ذلك في القادسية وإن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بهم على
المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها
فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وأنهزموا
في اليوم الرابع * وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون
لذلك الأسيرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته
وجنوده من هو زعيم بالإستimate دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحرق به سياج
آخر من الرماة والرجالة فيعظم ميكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر
والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالساً على سرير نصبه لجوسه
حتى اختلف صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل *
وأما أهل الكرك والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك
إبلهم والظهر الذي يعمل ظعائهم فيكون فئة لهم ويسمونهم المجبودة وليس أمة
من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وأمن من الفرقة والهريمة
وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال
والفساطيط يجعلونها ساقية من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والإبل فضارت العساكر
بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف * وكان الحرب أول الإسلام
كله زحماً وكان العرب إنما يعرفون الكرك والفر لكن حملهم على ذلك أول
الإسلام أمران أحدهما أن أعداءهم كانوا يقايلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم
بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رشح
فيهم من الإيمان والزحف إلى الاستماتة أقرب * وأول من أطل الصف في الحروب
وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده

قَالَ الطَّبْرِيُّ لَمَّا ذَكَرَ قِتَالَ الْجَبَرِيِّ قَوْلِي الْخَوَارِجُ عَلَيْهِمْ شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 الْبَشْكُرِيُّ وَيُلَقَّبُ أبا الدَّلَاءِ قَاتَلَهُمْ مَرْوَانُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْكَرَادِيسِ وَأَبْطَلَ الصَّفَّ مِنْ
 يَوْمَئِذٍ أَنْتَهَى. فَتَنُوسِي قِتَالَ الزَّحَفِ بِإِبْطَالِ الصَّفِّ ثُمَّ تَنُوسِي الصَّفَّ وَرَاءَ الْمُقَاتِلَةِ بِمَا
 دَاخَلَ الدُّوَلُ مِنَ التَّرَفِ وَذَلِكَ أَنَّهَا حِينَئِذٍ كَانَتْ بَدْوِيَّةً وَسَكَنَاهُمْ الْخِيَامُ مَكَانُوا
 يَسْتَكْثِرُونَ مِنَ الْإِبِلِ وَسُكِنَى النِّسَاءُ وَأَتْرَادَانِ مَعَهُمْ فِي الْأَحْيَاءِ فَلَمَّا حَصَلُوا عَلَى تَرْفٍ
 الْمَلِكِ وَالْفُؤَاكِنِ الْقُصُورِ وَالْخَوَاصِرِ وَتَرَكُوا شَأْنَ الْبَادِيَةِ وَالْقَفَرِ نَسُوا لِذَلِكَ عَهْدَ الْإِبِلِ
 وَالظُّعَانِ وَصَمَبَ عَلَيْهِمْ اتِّخَاذُهَا فَخَلَفُوا النِّسَاءَ فِي الْأَسْفَارِ وَحَمَلَهُمُ الْمَلِكُ وَالتَّرَفُ عَلَى اتِّخَاذِ
 الْفَسَاطِيطِ وَالْأَخْيَةِ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الظَّهْرِ الْحَامِلِ لِلْإِنْقَالِ "وَالْأَبْنِيَّةُ وَكَانَ ذَلِكَ صِنْتَهُمْ فِي
 الْحَرْبِ وَلَا يُغْنِي كُلَّ الْغِنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَى الْإِسْتِمَاعَةِ كَمَا يَدْعُو إِلَيْهَا الْأَهْلُ وَالْمَالُ فَيُخَفِّضُ
 الصَّبْرَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَتَضَرِّفُهُمُ الْهَيْعَاتُ وَتُغَرِّمُ صُنُوفَهُمْ. وَلِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ خَرْبِ الْمَصَافِ
 وَرَاءَ الْعَسَاكِرِ وَتَأْكُذِهِ فِي قِتَالِ الْكِرِّ وَالْفَرِّ صَارَ مُلُوكُ الْمَغْرِبِ يَتَّخِذُونَ طَائِفَةً مِنْ
 الْإِفْرَنْجِ فِي جُنْدِهِمْ وَأَخْتَصُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ أَهْلِ وَطَنِهِمْ كُلِّهِ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ وَالسُّلْطَانُ
 يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّهِ ضَرْبُ الْمَصَافِ لِيَكُونَ رِذَاهُ الْمُقَاتِلَةَ أَمَامَهُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ ذَلِكَ
 الصَّفِّ مِنْ قَوْمٍ مُتَعَوِّدِينَ لِلثَّبَاتِ فِي الزَّحَفِ وَالْإِجْفَالِ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكِرِّ وَالْفَرِّ
 فَانْهَزَمَ السُّلْطَانُ وَالْعَسَاكِرُ بِإِجْفَالِهِمْ فَاجْتَنَحَ الْمُلُوكُ بِالْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا مِنْ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ الْمُتَعَوِّدَةِ الثَّبَاتِ فِي الزَّحَفِ وَهُمْ الْإِفْرَنْجُ وَيُرْتَبُونَ مَصَافَهُمْ الْمُخَدِّقِينَ مِنْهَا هَذَا عَلَى مَا
 فِيهِ مِنَ الْإِسْتِمَاعَةِ بِأَهْلِ الْكُفْرِ وَإِنَّهُمْ اسْتَخَفُّوا ذَلِكَ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي أَرَيْنَا كَمَا مِنْ
 تَخَوُّفِ الْإِجْفَالِ عَلَى مَصَافِ السُّلْطَانِ وَالْإِفْرَنْجِ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الثَّبَاتِ فِي ذَلِكَ لِأَنَّ
 عَادَتَهُمْ فِي الْقِتَالِ الزَّحَفُ فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ مَعَ أَنَّ الْمُلُوكَ فِي الْمَغْرِبِ
 إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَرْبِ مَعَ أُمَّةِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ وَقِتَالُهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَأَمَّا فِي الْجِهَادِ
 فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ حَذَرًا مِنْ مُمَالَاتِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ
 أَبَدَيْنَا سَبَبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَبَلَّغْنَا أَنَّ أُمَّةَ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ قِتَالُهُمْ مُنَاصَلَةً
 بِالسِّهَامِ وَأَنَّ تَعْيِينَ الْحَرْبِ عِنْدَهُمْ بِالْمَصَافِ وَإِنَّهُمْ يُقَسِّمُونَ بِثَلَاثَةِ صُنُوفٍ يَضْرِبُونَ
 صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ وَيَتَرَجَّلُونَ عَنْ خِيُولِهِمْ وَيُفَرِّغُونَ صِيَاهَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَتَنَاضِلُونَ

أقوله للإنقال والابنية مراده بالابنية الخيام كما يدل عليه قوله في فصل المخدق الاتي قريبا اذا نزلوا وضربوا ابنيهم اهـ

جُلُوسًا وَكُلٌّ رِدْءٌ لِلَّذِي أَمَامَهُ أَنْ يَكْسِبَهُمُ الْعَدُوُّ إِلَى أَنْ يَتِيَهُ النَّصْرُ لَا حُدَى الطَّائِفَتَيْنِ
 عَلَى الْأُخْرَى وَهِيَ تَعْبِيَةٌ مُحْكَمَةٌ غَرِيبَةٌ * وَكَانَ مِنْ مَذَاهِبِ الْأَوَّلِ فِي حُرُوبِهِمْ حَفَرُ
 الْخُنَادِقِ عَلَى مَعْسَكِهِمْ عِنْدَ مَا يَتَقَارَبُونَ لِلزَّخْفِ حَذَرًا مِنْ مَعْرِقَةِ الْبَيَاتِ وَالْهَجُومِ عَلَى
 الْعَسْكَرِ بِاللَّيْلِ لِمَا فِي ظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ مِنْ مُضَاعَفَةِ الْخَوْفِ فَيَلُودُ الْجَيْشُ بِالْفِرَارِ
 وَتَجِدُ النَّفُوسُ فِي الظُّلْمَةِ سِتْرًا مِنْ عَارِهِ فَإِذَا تَسَاوَوْا فِي ذَلِكَ أَرْجَفَتِ الْعَسْكَرُ وَوَقَعَتِ
 الْهَزِيمَةُ فَكَانُوا لِذَلِكَ يَحْتَفِرُونَ الْخُنَادِقَ عَلَى مَعْسَكِهِمْ إِذَا تَزَلُّوا وَضَرَبُوا أَبْنِيَتَهُمْ
 وَيُذِيرُونَ الْخَفَائِرَ نِطَاقًا عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ حِرْصًا أَنْ يُخَالِطَهُمُ الْعَدُوُّ بِالْبَيَاتِ
 فَيَتَخَذَلُوا وَكَانَتْ لِلدُّوَلِ فِي أَمْثَالِ هَذَا قُوَّةٌ وَعَلَيْهِ اقْتِدَارٌ بِاخْتِشَادِ الرِّجَالِ وَتَجَمُّعِ
 الْأَيْدِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنَزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وَفُورِ الْأُمْرَانِ وَفَتْخَامَةِ الْمَلَائِكِ
 فَلَمَّا خَرِبَ الْعُمَرَانُ وَتَبِعَهُ ضَعْفُ الدُّوَلِ وَقِلَّةُ الْجُنُودِ وَعَدَمُ الْفَعْلَةِ نُسِيَ هَذَا الشَّأْنُ
 جُمْلَةً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْقَادِرِينَ وَانْظُرْ وَصِيَّةَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَحَرِيضَهُ
 لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ صَنِيعِ تَجْدِ كَثِيرًا مِنْ عِلْمِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبْصَرَ بِهَا مِنْهُ قَالَ فِي
 كَلَامِهِ لَهُ فَسَوْا صُفُوفَكُمْ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ وَقَدِّمُوا الدَّارِعَ وَآخِرُوا الْحَاسِرَ وَغَضُّوا
 عَلَى الْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَى السُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ وَالتَّوَلَّوْا عَلَى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَصَوْنُ الْأَسِنَّةِ
 وَغَضُّوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ الْجَمَاشِ وَأَكْنُ الْقُلُوبِ وَأَخْفِتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ الْفُشَلِ
 وَأَوَّلَى بِالْوَقَارِ وَأَقِيمُوا رَايَاتِكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ وَأَسْتَعِينُوا
 بِالصِّدْقِ وَالصَّبْرِ فَإِنَّهُ يَقْدِرُ الصَّبْرُ يَنْزِلُ النَّصْرُ وَقَالَ الْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ يُحَرِّضُ الْأَزْدَ غَضًّا
 عَلَى النَّوَاجِدِ مِنَ الْأَضْرَاسِ وَاسْتَقْبِلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكُمْ وَشُدُّوا شِدَّةَ قَوْمٍ مَوْتُورِينَ يَتَأَرُونَ
 بِأَبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِينَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَّنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ إِيْلًا بِسَبْقُوا بِوَتَرٍ
 وَلَا يَلْحَقُهُمْ فِي الدُّنْيَا عَارٌ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ شَاعِرُ لِمَتُونَةٍ
 وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدَحُ بِهَا تَاشِفِينَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ يُوسُفَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ
 شَهِيدَهَا وَيَذَكِّرُهُ بِأُمُورِ الْحَرْبِ فِي وَصَايَا تَحذِيرَاتٍ تَنْبِيْهُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ
 مِيَاسَةِ الْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا

بَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَقَنَّعُ مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْهَمَامُ الْأَزْوَعُ
 وَمَنْ الَّذِي غَدَرَ الْعَدُوَّ بِهِ دَجَى فَاتَّقِ كُلَّ وَهْوٍ لَا يَتَزَعَّزَعُ

تَمْضِي الْفَوَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصُدُّهَا
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ التَّرَائِكِ إِنَّهُ
أَنَّى فَرَعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجَةَ
إِنْسَانُ عَيْنٍ لَمْ يُصِبْهَا مِنْكُمْ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشَنِينَ وَإِنَّهُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أُسُودُ خَفِيَّةٍ
يَا تَاشَنِينَ أُمِّ لَجِيْشِكَ عُدْرَهُ

ومنها في سياسة الحرب

أَهْدِيكَ مِنْ آدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ
لَا إِنِّي أَذْرِي بِهَا لِكِنَّهَا
وَالْبَسَ مِنَ الْخَلْقِ الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي
وَالْهِنْدُوَانِي الرِّقِيقِ فَإِنَّهُ
وَأَزْكَبَ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقِ عِدَّةً
خَنْدِيقَ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ نَحْلَةً
وَالْوَادِ لَا تَعْبُرُهُ وَأَنْزِلْ عِنْدَهُ
وَأَجْعَلْ مُنَاجِزَةَ الْجِيُوشِ عَشِيَّةً
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْجِيُوشُ بِمَعْرَكٍ
وَأَصْدُمُهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْثُرُ
وَأَجْعَلْ مِنَ الطَّلَاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ
لَا تَسْمَعَ الْكَذَّابَ جَاءَكَ رُجُئًا

كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ قَبْلَكَ تُوَلَّعُ
ذِكْرِي تَحْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَجَبَى بِهَا صَنِيعُ الصَّنَائِعِ تَبَعُ
أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدَّلَاصِ وَأَقْطَعُ
حُصْنًا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مِدْفَعُ
سِيَّاتٍ تَتَّبِعُ ظَافِرًا أَوْ تُتَّبَعُ
بَيْنَ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ
وَوَرَاءَكَ الصِّدْقُ الَّذِي هُوَ أَمْنٌ
ضَنْكَ فَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ تُوسِّعُ
شَيْئًا فَأَظْهَارُ النُّكُولِ يُضْعِفُ
لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شِيْمَةٌ لَا تُخَدَعُ
لَا رَأْيَ لِلْكَذَّابِ فِيمَا يَصْنَعُ

قَوْلُهُ وَأَصْدُمُهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْثُرُ أَلَيْتُ مُخَالَفَ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ
فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدٍ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ لَمَّا وَلَاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَالْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ أَسْمَعْ
وَأَطِيعَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَا تُجِيبَنَّ مُسْرِعًا
حَتَّى تَتَبَيَّنَ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيْتُ الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ
وَالْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوْمَرَ سَاطِطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي الْحَرْبِ

وَفِي التَّسْرِعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَنْ بَيِّنٍ ضَيَّاعٍ وَاللَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَمَرْتُهُ لَكِنَّ الْحَرْبَ لَا
يُصْلِحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِثُ هَذَا كَلَامُ عُمَرَ وَهُوَ شَاهِدٌ بِأَنَّ التَّشَاؤُلَ فِي الْحَرْبِ أَوَّلَى
مِنَ الْخُفُوفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ الصَّبْرِيُّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ
أَنَّ الصَّدَمَ بَعْدَ الْبَيِّنِ فَلَهُ وَجْهٌ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ * وَلَا وَثُوقَ فِي الْحَرْبِ بِالظَّفَرِ وَإِنْ
حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعِدَّةِ وَالْعَدِيدِ وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالْغَلْبُ مِنْ قِبَلِ الْبَحْثِ وَالِاتِّقَاقِ
وَيَكُنْ ذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الْغَلْبِ فِي الْأَكْثَرِ مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ وَهِيَ الْجَيُوشُ
وَوُفُورُهَا وَكَمَالُ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِجَادَتُهَا وَكَثْرَةُ الشُّجْعَانِ وَتَرْتِيبُ الْمَصَافِ وَمِنْهُ صِدْقُ
الْقِتَالِ وَمَا جَرَى تَجَرُّى ذَلِكَ وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِمَّا مِنْ خِدَاعِ الْبَشَرِ وَحِيلِهِمْ فِي
الْإِرْجَافِ وَالتَّشَابُعِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا التَّخْذِيلُ وَفِي التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَاكِينِ الْمُرْتَقِعَةِ لِيَكُونَ
الْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فَيَتَوَهَّمُ الْمُنْخَفِضُ لِذَلِكَ وَفِي الْكُمُونِ فِي الْغِيَاضِ وَمُطْمَئِنِّ الْأَرْضِ
وَالْتَوَارِي بِالْكَدَى حَوْلَ الْعَدُوِّ حَتَّى يَتَدَاوَلَهُمُ الْعَسْكَرُ ذَفْعَةً وَقَدْ تَوَرَّطُوا فَيَتَلَمَّسُونَ
إِلَى النِّجَاةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الْخَفِيَّةُ أُمُورًا سَمَاوِيَّةً لَا قُدْرَةَ
لِلْبَشَرِ عَلَى اكْتِسَابِهَا تُلْقَى فِي الْقُلُوبِ فَيَسْتَوِلِي الرَّهْبُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَتَخَلَّ مَرَاكِرُهُمْ
فَتَقَعُ الْهَزِيمَةُ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ الْهَزَائِمُ عَنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ أَكْثَرُ مَا يُعْتَمَلُ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصًا عَلَى الْغَلْبِ فَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِ التَّأْثِيرِ فِي ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا
ضَرُورَةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ رَبُّ حِيلَةٍ
أَنْقَعَ مِنْ قَبِيلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وَقُوعَ الْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ غَالِبًا عَنْ أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ
وَوُقُوعِ الْأَشْيَاءِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ هُوَ مَعْنَى الْبَحْثِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْتَبِرْهُ وَتَقَهَّرْ
مِنْ وَقُوعِ الْغَلْبِ عَنِ الْأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَرْتُ
بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَمَا وَقَعَ مِنْ غَلْبِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ وَغَلْبِ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ فِي الْفَتْوحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكْفُلَ لِنَبِيِّهِ بِالْقَاءِ
الرُّغْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ حَتَّى يَسْتَوِلِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزُوا مُعْجِزَةً لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ الرُّغْبُ فِي قُلُوبِهِمْ سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا
أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعَيُونِ * وَقَدْ ذَكَرَ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلْبِ فِي الْحَرْبِ أَنْ
تُفْضَلَ عِدَّةُ الْفُرْسَانِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ الشُّجْعَانِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى غَلْبِهِمْ فِي الْجَانِبِ

الْآخِرِ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْجَانِبَيْنِ فِيهِ عَشْرَةٌ أَوْ عِشْرُونَ مِنَ الشَّجَعَانِ الْمَشَاهِيرِ وَفِي
 الْجَانِبِ الْآخِرِ ثَمَانِيَةٌ أَوْ سِتَّةَ عَشَرَ فَالْجَانِبُ الزَّائِدُ وَلَوْ يَوْاحِدٍ يَكُونُ لَهُ الْغَلْبُ وَأَعَادَ
 فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي قَدَّمْنَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ
 الْمَعْتَبَرُ فِي الْغَلْبِ حَالُ الْعَصِيَّةِ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَصِيَّةٌ وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّهِمْ
 وَفِي الْجَانِبِ الْآخِرِ عَصَائِبُ مُتَعَدِّدَةٌ لِأَنَّ الْعَصَائِبَ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً يَقَعُ بَيْنَهَا مِنْ
 التَّخَاذُلِ مَا يَقَعُ فِي الْوَحْدَانِ الْمُتَفَرِّقِينَ الْفَاقِدِينَ لِلْعَصِيَّةِ تُنْزَلُ كُلُّ عَصَابَةٍ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً
 الْوَاحِدِ وَيَكُونُ الْجَانِبُ الَّذِي عَصَابَتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ لَا يَقَاوِمُ الْجَانِبَ الَّذِي عَصَابَتُهُ وَاحِدَةٌ لِأَجْلِ
 ذَلِكَ فَتَفْهَمُهُ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَمْعُ فِي الْأَعْتِبَارِ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّرْطُوشِيُّ وَلَمْ يَجْعَلْهُ عَلَى ذَلِكَ
 إِلَّا لِنِسْبَانِ شَأْنِ الْعَصِيَّةِ فِي حُلَّةٍ وَبَلَدَةٍ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَرَوْنَ ذَلِكَ الدِّفَاعَ وَالْحِمَايَةَ وَالْمُطَابَقَةَ
 إِلَى الْوَحْدَانِ وَالْجَمَاعَةِ النَّاشِئَةِ عَنْهُمْ لَا يُعْتَبَرُونَ فِي ذَلِكَ عَصِيَّةٌ وَلَا نِسْبًا وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ
 أَوَّلَ الْكِتَابِ مَعَ أَنْ هَذَا وَأَمْثَلُهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحِّهِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ
 مِثْلُ اتِّفَاقِ الْجَيْشِ فِي الْعِدَّةِ وَصِدْقِ الْقِتَالِ وَكَثْرَةِ الْأَسْلِحَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا فَكَيْفَ يُجْعَلُ
 ذَلِكَ كَهَيْلًا بِالْغَلْبِ وَمَنْعُنْ قَدْ قَرَرْنَا لَكَ الْآنَ أَنَّ شَيْئًا مِنْهَا لَا يُعَارِضُ الْأَسْبَابَ الْخَفِيَّةَ
 مِنَ الْحَيْلِ وَالْخِدَاعِ وَلَا الْأُمُورَ السَّمَاوِيَّةَ مِنَ الرُّعْبِ وَالْخِذْلَانِ الْإِلَهِيِّ فَافْهَمْ وَتَفْهَمْ
 أَحْوَالَ الْكَوْنِ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ * وَيُلْحَقُ بِمَعْنَى الْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ وَأَنَّ أَسْبَابَهُ
 خَفِيَّةٌ وَغَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ حَالُ الشُّهْرَةِ وَالصِّيتِ فَقُلْ أَنْ تُصَادَفَ مَوْضِعَهَا فِي أَحَدٍ مِنْ طَبَقَاتِ
 النَّاسِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْمُسْتَحْلِينَ لِلْفَضَائِلِ عَلَى الْعُمُومِ وَكَثِيرٍ مِنْ
 أَشْتَهَرَ بِالشَّرِّ وَهُوَ بِخِلَافِهِ وَكَثِيرٌ مِنْ تَجَاوَزَتْ عَنْهُ الشُّهْرَةُ وَهُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَقَدْ
 تُصَادَفُ مَوْضِعَهَا وَتَكُونُ طَبَقًا عَلَى صَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الشُّهْرَةَ وَالصِّيتَ إِنَّمَا
 هُمَا بِالْإِخْبَارِ وَالْإِخْبَارُ يَدْخُلُهَا الدُّهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ عِنْدَ التَّنَاقُلِ وَيَدْخُلُهَا التَّعَصُّبُ
 وَالتَّشْيِيعُ وَيَدْخُلُهَا الْأَوْهَامُ وَيَدْخُلُهَا الْجَهْلُ بِمُطَابَقَةِ الْحِكَايَاتِ لِلْأَحْوَالِ خِلَافَتِهَا
 بِالتَّلْيِيسِ وَالتَّصْنَعِ أَوْ لِجَهْلِ النَّاقلِ وَيَدْخُلُهَا التَّقَرُّبُ لِاصْتِحَابِ التَّجَلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ
 بِالنِّسَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ وَالنُّفُوسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ الثَّنَاءِ
 وَالنَّاسُ مُنْطَاوِلُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابُهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا مِنَ الْأَكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فِي
 الْفَضَائِلِ وَلَا مُنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا وَأَيْنَ مُطَابَقَةُ الْحَقِّ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا فَتَخْتَلُ الشُّهْرَةُ عَنْ

أَسْبَابُ خَفِيَّةٍ مِنْ هَذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ خَفِيٍّ فَهُوَ الَّذِي يُعْبَرُ عَنْهُ
بِالْتَّجَنُّ كَمَا تَقَرَّرَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قتلها وكثرتها

اعْلَمْ أَنَّ الْجَبَايَةَ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةً الْوَزَائِعُ كَثِيرَةٌ الْجُمْلَةُ وَآخِرُ الدَّوْلَةِ تَكُونُ
كَثِيرَةً الْوَزَائِعُ قَلِيلَةً الْجُمْلَةُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ الدِّينِ فَلَبَسَتْ
تَقْتَضِي إِلَّا الْمَغَارِمَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْخَرَاجِ وَالْجِزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ الْوَزَائِعُ لِأَنَّ مِقْدَارَ
الزَّكَاةِ مِنَ الْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا زَكَاةُ الْحَبُوبِ وَالْمَاشِيَةِ وَكَذَا الْجِزْيَةُ وَالْخَرَاجُ
وَجَمِيعُ الْمَغَارِمِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ الثَّقَلِ وَالْعَصِيَّةِ
فَلَا بُدَّ مِنَ الْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقْدَمُ وَالْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي الْمُسَاحَةَ وَالْمُسْكَارِمَةَ وَخَفَضَ
الْجِنَاحَ وَالتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْعَفْلَةَ عَنْ تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّادِرِ فَيَقِلُ لِذَلِكَ
مِقْدَارُ الْوُظَيْفَةِ الْوَاحِدَةِ وَالْوُزَيْعَةُ الَّتِي تُجْمَعُ الْأَمْوَالُ مِنْ تَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتِ الْوَزَائِعُ
وَالْوُظَائِفُ عَلَى الرِّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغِبُوا فِيهِ فَبَكَثَرُ الْأَعْتِمَارُ وَيَتَزَايَدُ الْحُصُولُ
الْأَغْنِيَا بِقِلَّةِ الْمَغْرَمِ وَإِذَا كَثُرَ الْأَعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ الْوُظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ
فَبَكَثُرَتِ الْجَبَايَةُ الَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدَّوْلَةُ وَاتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا وَاحِدًا
بَعْدَ وَاحِدٍ وَاتَّصَفُوا بِالْكَيْسِ وَذَهَبَ مِرُّ الْبِدَاوَةِ وَالسَّذَاجَةِ وَخُلِقُوا مِنَ الْإِغْضَاءِ وَالتَّجَافِي
وَجَاءَ الْمَلِكُ الْمَعْضُوفُ وَالْحِيَاظَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْكَيْسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ
بِمُخْلَقِ التَّحَدُّقِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا انْتَفَسُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالتَّرَفِ
فَبَكَثَرُوا الْوُظَائِفَ وَالْوَزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى الرِّعَايَا وَالْأَكْرَةِ وَالْفَلَاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ
الْمَغَارِمِ وَيَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيْفَةٍ وَوُزَيْعَةٍ مِقْدَارًا عَظِيمًا لَتَكْثُرَ لَهُمُ الْجَبَايَةُ وَيَضَعُونَ
الْمُكُوسَ عَلَى الْمُبَايَعَاتِ وَفِي الْأَبْوَابِ كَمَا نَذَرُ بَعْدُ ثُمَّ تَنْدَرِّجُ الزِّيَادَاتُ فِيهَا بِمِقْدَارِ
بَعْدَ مِقْدَارٍ لَتَنْدَرِّجَ عَوَائِدُ الدَّوْلَةِ فِي التَّرَفِ وَكَثْرَةِ الْحَاجَاتِ وَالْإِتْفَاقِ بِسَبَبِهِ حَتَّى تَنْثَقِلَ
الْمَغَارِمُ عَلَى الرِّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرَ عَادَةً مَفْرُوضَةً لِأَنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ تَنْدَرِّجَتْ قَلِيلًا
قَلِيلًا وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمِنْ زَادَهَا عَلَى التَّعْيِينِ وَلَا مَنْ هُوَ وَاضِعُهَا إِنَّمَا ثَبَتَ عَلَى الرِّعَايَا فِي
الْأَعْتِمَارِ لِذَهَابِ الْأَمَلِ مِنْ نُفُوسِهِمْ بِقِلَّةِ النِّفَعِ إِذَا قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَغَارِمِهِ وَبَيَّنَّ

ثَمَرَتِهِ وَفَائِدَتِهِ فَتَنْقِصُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي عَنِ الْأَعْتِمَارِ جُمْلَةً فَتَنْقُصُ جُمْلَةُ الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ يَنْقُصَانِ تِلْكَ الْوَزَائِعَ مِنْهَا وَرُبَّمَا يَزِيدُونَ فِي مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ النَّقْصَ فِي الْجَبَايَةِ وَيَتَحَسَّبُونَهُ جَبْرًا لِمَا تَقْصُ حَتَّى تَنْتَهِيَ كُلُّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيعَةٍ إِلَى غَايَةٍ لَيْسَ وَرَاءَهَا نَفْعٌ وَلَا فَايِدَةٌ لِكَثْرَةِ الْإِتِّفَاقِ حِينَئِذٍ فِي الْأَعْتِمَارِ وَكَثْرَةِ الْمَغَارِمِ وَعَدَمِ وَفَاءِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوءَةِ بِهِ فَلَا تَزَالُ الْجُمْلَةُ فِي تَقْصٍ وَمِقْدَارُ الْوَزَائِعِ وَالْوُظَائِفِ فِي زِيَادَةٍ لِمَا يَتَقَدَّرُ مِنْ جَبْرِ الْجُمْلَةِ بِهَا إِلَى أَنْ يَنْتَقِصَ الْعُمَرَانُ بِذَهَابِ الْأَمَالِ مِنَ الْأَعْتِمَارِ وَبَعُودِ وَبَالٍ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ لِأَنَّ فَايِدَةَ الْأَعْتِمَارِ عَائِدَةٌ إِلَيْهَا وَإِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ أَنَّ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي الْأَعْتِمَارِ تَقَابُلُ مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْمُعْتَمِرِينَ مَا أَمْكَنَ فَبِذَلِكَ تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ إِلَيْهِ لِثِقَتِهَا بِإِذْرَاكِ الْمَنْفَعَةِ فِيهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكُ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَيَبْدُوهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس اواخر الدولة

إِعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا بَدَوِيَّةً كَمَا قُلْنَا فَتَكُونُ لِذَلِكَ قَلِيلَةً الْحَاجَاتِ لِعَدَمِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ فَيَكُونُ خَرْجُهَا وَإِتْفَاقُهَا قَلِيلًا فَيَكُونُ فِي الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ وَفَاءً بِأَزِيدٍ مِنْهَا كَثِيرٌ عَنْ حَاجَاتِهِمْ ثُمَّ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَأْخُذَ بِيَدَيْنِ الْحِضَارَةِ فِي التَّرَفِ وَعَوَائِدِهَا وَتَجْرِي عَلَى نَهْجِ الدُّوَلِ السَّابِقَةِ قَبْلَهَا فَيَكْثُرُ لِذَلِكَ خَرَاجُ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَيَكْثُرُ خَرَاجُ السُّلْطَانِ خُصُوصًا كَثْرَةُ بِالْغَةِ بِنَفَقَتِهِ فِي خَاصَّتِهِ وَكَثْرَةُ عَطَائِهِ وَلَا تَنِي بِذَلِكَ الْجَبَايَةُ فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي الْجَبَايَةِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَاكِمِيَّةُ مِنَ الْعَطَاءِ وَالسُّلْطَانُ مِنَ النَّفَقَةِ فَيَزِيدُ فِي مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ أَوَّلًا كَمَا قُلْنَا ثُمَّ يَزِيدُ الْخَرَاجُ وَالْحَاجَاتُ وَالتَّدْرِيجُ فِي عَوَائِدِ التَّرَفِ وَفِي الْعَطَاءِ لِلْحَاكِمِيَّةِ وَيُذْرِكُ الدَّوْلَةُ الْمَهْرَمُ وَتَضَعُ عِصَابَتَهَا عَنْ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْقَاصِيَةِ فَتَقِلُّ الْجَبَايَةُ وَتَكْثُرُ الْعَوَائِدُ وَيَكْثُرُ بِكَثَرَتِهَا أَرْزَاقُ الْجُنْدِ وَعَطَاؤُهُمْ فَيَسْتَحْدِثُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْوَاعًا مِنَ الْجَبَايَةِ يَضُرُّ بِهَا عَلَى الْبَيْعَاتِ وَيَفْرِضُ لَهَا قَدْرًا مَعْلُومًا عَلَى الْأَثْمَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَعَلَى أَعْيَانِ السِّعَاعِ فِي أَمْوَالِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ مَعَ هَذَا مُضْطَرٌّ لِذَلِكَ بِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ طُرُقُ النَّاسِ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ مِنْ زِيَادَةِ الْجِيُوشِ وَالْحَاكِمِيَّةِ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ فِي أَوَائِرِ الدَّوْلَةِ زِيَادَةً بِالْغَةِ فَتَكْثُرُ

الأسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضخم وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح الدين أبواب تلك الرسوم جملة وأعاضها بآثار الخير وكذلك وقع بالاندلس لعهد الطوائف حتى محي رستم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بأمصار الجريد بأفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم

الفصل الأربعون

في ان التجارة من السلطان مضره بالرعايا ومفسدة للجباية

إعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها وتفقائها واحتاجت إلى مزيد المال والجباية فتارة توضع المكسوس على بيعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة بالزيادة في القاب المكسوس إن كان قد استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباية وأمنكاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق ويحسبون ذلك من إضرار الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فإن الرعايا متكاثرون في اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا تنهي إلى غاية موجودهم أو تقرب وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم إن السلطان قد يتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غضا أو بأسر ثمن أو لا يجد من يناقشه في شرائه فيجس ثمنه على بائعه ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلاها ككله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع

الْفَلَاتِ وَحَصَلَتْ بِضَائِعُ التِّجَارَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ فَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهَ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ وَلَا
 تَفَاقَ الْبَيَاعَاتِ لِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَكَالِيفُ الدَّوْلَةِ فَيُكَلِّفُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْأَصْنَافِ مِنْ
 تَاجِرٍ أَوْ فَلَاحٍ بِشِرَاءِ تِلْكَ الْبَضَائِعِ وَلَا يَرْضَوْنَ فِي أَثْمَانِهَا إِلَّا الْقِيمَ وَأَزِيدَ فَيَسْتَوْعِبُونَ
 فِي ذَلِكَ نَاضَ أَمْوَالَهُمْ وَتَبَقِيَ تِلْكَ الْبَضَائِعُ بِأَيْدِيهِمْ عُرُوضًا جَامِدَةً وَيَهْمُ كَثُورَ عَطْلًا
 مِنْ الْأِدَارَةِ الَّتِي فِيهَا كَسِبَهُمْ وَمَعَاشُهُمْ وَرُبَّمَا تَدْعُوهُمْ الْفَرُورَةُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ
 فَيَبِيعُونَ تِلْكَ السِّلْعَ عَلَى كَسَادٍ مِنَ الْأَسْوَاقِ بِأَبْخَسِ ثَمَنِ وَرُبَّمَا يَتَكَرَّرُ ذَلِكَ عَلَى
 التَّاجِرِ وَالْفَلَاحِ مِنْهُمْ بَمَا يَذْهَبُ رَأْسُ مَالِهِ فَيَقْعُدُ عَنْ سُوقِهِ وَيَتَعَدَّدُ ذَلِكَ وَيَتَكَرَّرُ
 وَيَدْخُلُ بِهِ عَلَى الرِّعَايَا مِنَ الْعَنَبِ وَالْمُضَايِقَةِ وَفَسَادِ الْأَرْبَاحِ مَا يَقْبِضُ أَمْوَالَهُمْ عَنْ
 السَّعْيِ فِي ذَلِكَ جُمْلَةً وَيُؤَدِّي إِلَى فُسَادِ الْجَبَايَةِ فَإِنَّ مُعْظَمَ الْجَبَايَةِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْفَلَاحِينَ
 وَالتَّجَارِ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ وَضْعِ الْمَكُوسِ وَنُشُورِ الْجَبَايَةِ بِهَا فَإِذَا انْقَبَضَ الْفَلَاحُونَ عَنْ
 الْفَلَاحَةِ وَقَعَدَ التَّجَارُ عَنْ التِّجَارَةِ ذَهَبَتِ الْجَبَايَةُ جُمْلَةً أَوْ دَخَلَهَا النِّقْصُ الْمُتَفَاحِشُ وَإِذَا
 قَاسَ السُّلْطَانُ بَيْنَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْجَبَايَةِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَاحِ الْقَلِيلَةِ وَجَدَهَا بِالنِّسْبَةِ
 إِلَى الْجَبَايَةِ أَقَلَّ مِنَ الْقَلِيلِ ثُمَّ إِنَّهُ وَلَوْ كَانَ مُفِيدًا فَيَذْهَبُ لَهُ بِحِطِّ عَظِيمٍ مِنَ الْجَبَايَةِ فِيمَا
 يُعَانِيهِ مِنْ شِرَاءٍ أَوْ بَيْعٍ فَإِنَّهُ مِنَ الْبَعِيدِ أَنْ يُوْجَدَ فِيهِ مِنَ الْمَكْنَسِ وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ فِي
 تِلْكَ الصَّفَقَاتِ لَكَانَ تَكْسِبُهَا كُلِّهَا حَاصِلًا مِنْ جِهَةِ الْجَبَايَةِ ثُمَّ فِيهِ التَّعَرُّضُ لِأَهْلِ
 عُمُرَانِهِ وَاخْتِلَالُ الدَّوْلَةِ بِفَسَادِهِمْ وَتَقْصِيرِهِمْ فَإِنَّ الرِّعَايَا إِذَا قَعَدُوا عَنْ تَشْمِيرِ أَمْوَالِهِمْ
 بِالْفَلَاحَةِ وَالتِّجَارَةِ نَقَصَتْ وَتَلَاشَتْ بِالنَّفَقَاتِ وَكَانَ فِيهَا تَلَافُ أَمْوَالِهِمْ فَأَفْهَمَ ذَلِكَ
 وَكَانَ الْفَرَسُ لَا يُمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ ثُمَّ يَخْتَارُونَهُ مِنْ أَهْلِ
 الْفَضْلِ وَالذِّينِ وَالْأَدَبِ وَالسَّخَاءِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ ثُمَّ يَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ
 الْعَدْلَ وَأَنْ لَا يَتَّخِذَ صَنْعَةً فَيُضِرَّ بِحِيرَانِهِ وَلَا يَتَاجَرَ فَيُحِبَّ غَلَاءَ الْأَسْعَارِ فِي الْبَضَائِعِ
 وَأَنْ لَا يَسْتَخْدِمَ الْعَبِيدَ فَإِنَّهُمْ لَا يُشِيرُونَ بِخَيْرٍ وَلَا مَصْلَحَةٍ . وَأَعْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا
 يُنْعِي مَالَهُ وَلَا يَدِرُ مَوْجُودَهُ إِلَّا الْجَبَايَةُ وَإِذَا رَازَهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَدْلِ فِي أَهْلِ الْأَمْوَالِ
 وَالنَّظَرِ لَهُمْ بِذَلِكَ فَبِذَلِكَ تَبَسِّطُ أَمْوَالَهُمْ وَتَنْشَرِحُ صُدُورُهُمْ لِلْأَخْذِ فِي تَشْمِيرِ الْأَمْوَالِ
 وَتَنْمِيتِهَا فَتَعْظُمُ مِنْهَا جَبَايَةُ السُّلْطَانِ وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ قُلُوحٍ فَإِنَّمَا هُوَ مَضَرَّةٌ
 عَاجِلَةٌ لِلرِّعَايَا وَفُسَادٌ لِلْجَبَايَةِ وَتَقْصُورٌ لِلْعِمَارَةِ وَقَدْ بَنْتَهِ الْحَالُ بِهِؤْلَاءِ الْمُنْسَلِخِينَ لِلتِّجَارَةِ

وَالْفَلَاحَةَ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْمُتَغَلِّبِينَ فِي الْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ الْغَلَّاتِ وَالسِّلَعِ
 مِنْ أَزْبَاجِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى بِلَدِهِمْ وَيَفْرِضُونَ لِنَفْسِهِمْ مِنَ الثَّمَنِ مَا يَشَاءُونَ وَيَبِيعُونَهَا فِي
 وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرِّعَايَا بِمَا يَفْرِضُونَ مِنَ الثَّمَنِ وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى
 وَأَقْرَبُ إِلَى فَسَادِ الرِّعَايَةِ وَأَخْثَلَالِ أَحْوَالِهِمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ
 يَدْخُلُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَغْنَى الثُّجَارَ وَالْفَلَاحِينَ لِمَا فِي صِنَاعَتِهِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ
 السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسَبْطِهِمْ لِنَفْسِهِ لِيَحْصُلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعًا
 وَلَا سِيَّمَا مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التِّجَارَةِ بِلاَ مَغْرَمٍ وَلَا مَكْسٍ فَإِنَّهَا أَجْدَرُ بِنُمُوِّ الْأَمْوَالِ
 وَأَمْرَعُ فِي تَحْمِيرِهِ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ الضَّرَرِ بِنَقْصِ جِبَايَتِهِ فَيَنْبَغِي
 لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَيُعْرِضَ عَنْ سِعَابَتِهِمْ الْمُضِرَّةِ بِجِبَايَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَاللَّهُ
 يَهْدِيَنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا وَيَنْفَعَنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الواحد والاربعون

في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجِبَايَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلِ وَالْعَصَبِيَّةِ
 بِمِقْدَارِ غِنَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ
 فَرَأَيْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ مُتَجَانِفِينَ لَهُمْ عَمَّا يَسْتَمُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْتِبدَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ
 وَلَهُ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلَا يَطِيرُ فِي مُهْمَانِهِ مِنَ الْجِبَايَةِ إِلَّا الْأَقْلُ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ
 لِنَفْسِهِ وَأَذْيَالَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي الْغَالِبِ وَجَاهَهُمْ مُتَقَلِّصُونَ
 لِأَنَّهُمْ مِنْ جَاهٍ مَخْدُومِينَ وَنِطَاقُهُ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُزَاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا اسْتَحْلَكَتْ
 طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْأَسْتِبدَادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبْضُ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْجِبَايَاتِ
 إِلَّا مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُهْمَانِهِمْ وَأَقْلُ حُظُوظِهِمْ إِذْ ذَاكَ لِقَلَّةِ غِنَائِهِمْ فِي
 الدَّوْلَةِ بِمَا أَنْكَبَحَ مِنْ أَعْنَتِهِمْ وَصَارَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي الْقِيَامِ بِالدَّوْلَةِ
 وَتَمْهِيدِ الْأَمْرِ فَيَتَفَرَّدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِالْجِبَايَةِ أَوْ مُعْظَمِهَا وَيَحْتَوِي عَلَى الْأَمْوَالِ
 وَيَحْتَجِجُهَا لِلنَّفَقَاتِ فِي مُهْمَاتِ الْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ ثَرْوَتُهُ وَتَمْتَلِكُ خَزَائِنُهُ وَيَتَسَّعُ نِطَاقُ
 جَاهِهِ وَيَعْتَزُّ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيَعْظُمُ حَالُ حَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ
 وَمَوْلَى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ وَيَقْتَنُونَ الْأَمْوَالِ وَيَبْنِئُونَ لِنَفْسِهِمْ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي

أَهْرَمَ بِتِلَاشِي الْعَصِيَّةِ وَفَنَاءِ الْقَلِيلِ الْمُعَاهِدِينَ لِلدَّوْلَةِ أَحْتَاجَ صَاحِبُ الْأَمْرِ حِينَئِذٍ إِلَى الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ لِكَثْرَةِ الْخَوَارِجِ وَالْمُنَارِعِينَ وَالثُّوَارِ وَتَوَهُّمِ الْإِنْتِقَاضِ فَصَارَ خَرَجُهُ لظَهْرَائِهِ وَأَعْوَانِهِ وَهُمْ أَزْبَابُ السُّيُوفِ وَأَهْلُ الْعَصِيَّاتِ وَأَتَقَى خَزَائِنَهُ وَحَاصِلَهُ فِي مُبِمَّاتِ الدَّوْلَةِ وَقَلَّتْ مَعَ ذَلِكَ الْحَيَاةُ لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ وَالْإِنْفَاقِ فَيَقِلُّ الْخَرَجُ وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ فَيَتَقَلَّصُ ظِلُّ النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِ عَنِ الْخَوَاصِّ وَالْعُجَابِ وَالْكِتَابِ يَتَقَلَّصُ الْجَاهُ عَنْهُمْ وَضَيِقَ نِطَاقُهُ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ تَشْتَدُّ حَاجَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ وَتُنْفِقُ أَبْنَاءُ الْبِطَانَةِ وَالْحَاشِيَةِ مَا تَأْتِلُهُ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا مِنْ إِعَانَةِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَبُقُولُونَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَسَلَفُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَحَةِ وَيَرَى صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ الَّتِي أَكْتُسِبَتْ فِي دَوْلَةٍ سَلَفِهِ وَبِحَاجَتِهِمْ فَيَضْطَلِمُهَا وَيَنْزِعُهَا مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَوَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى نِسْبَةِ رُتَبِهِمْ وَتَنْكُرُ الدَّوْلَةُ لَهُمْ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِفَنَاءِ حَاشِيَتِهَا وَرِجَالِهَا وَأَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ مِنْ بِطَانَتِهَا وَيَتَقَوَّضُ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ مَبَانِي الْحَجْدِ بِهَذَا أَنْ يَدْعُمَهُ أَهْلُهُ وَيَرْفَعُوهُ . وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ لِرُؤَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي بَنِي قُحْطَبَةَ وَبَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلٍ وَبَنِي طَاهِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ ثُمَّ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ انْخِلَالِهَا أَيَّامَ الطَّوَائِفِ فِي بَنِي مُهَيْدٍ وَبَنِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَبَنِي حُدَيْرٍ وَبَنِي بُرْدٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَذَا فِي الدَّوْلَةِ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا لِعَهْدِنَا سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ

فصل * وَلِذَا يَتَوَنَّهُ أَهْلُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ صَارَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَنْزِعُونَ إِلَى الْفِرَارِ عَنِ الرُّتَبِ وَالتَّخْلُصِ مِنْ رِبْقَةِ السُّلْطَانِ بِمَا حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ مَالِ الدَّوْلَةِ إِلَى قُطْرِ آخَرَ وَيَرُونَ أَنَّهُ أَهْنًا لَهُمْ وَأَسْلَمٌ فِي إِنْفَاقِهِ وَحُصُولِ ثَمَرَتِهِ وَهُوَ مِنَ الْأَغْلَاطِ الْفَاحِشَةِ وَالْأَوْهَامِ الْمُفْسِدَةِ لِأَحْوَالِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأَعْلَمَ أَنَّ الْخِلَاصَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْحُصُولِ فِيهِ عَسِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنْ صَاحِبَ هَذَا الْغَرَضِ إِذَا كَانَ هُوَ الْمَلِكُ نَفْسُهُ فَلَا تُمَكِّنُهُ الرَّعِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ طَرَفَةً عَيْنٍ وَلَا أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْمُرَاحِمُونَ لَهُ بَلْ فِي ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَدْمٌ لِمُلْكِهِ وَإِتْلَافٌ لِنَفْسِهِ بِعَجَارِي الْعَادَةِ بِذَلِكَ لِأَنَّ رِبْقَةَ الْمَلِكِ يَغْسُرُ الْخِلَاصَ مِنْهَا وَلَا سِيَّما عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ وَضَيِقِ نِطَاقِهَا وَمَا يَغْرِضُ فِيهَا مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْحَجْدِ وَالْخِلَالِ وَالتَّخَلُّقِ بِالشَّرِّ وَأَمَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْغَرَضِ مِنْ بِطَانَةِ السُّلْطَانِ

وَحَاشِيَتُهُ وَأَهْلُ الرُّتَبِ فِي دَوْلَتِهِ فَقَلَّ أَنْ يُغْلَى يَتْنُهُ وَبَيِّنَ ذَلِكَ أَمَّا أَوَّلًا فَلَمَّا يَرَاهُ
 الْمُلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَحَاشِيَتَهُمْ بَلَّ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مَمَالِيكَ لَهُمْ مُطَاعُونَ ذَلِي ذَاتِ صُدُورِهِمْ
 فَلَا يَسْمَحُونَ بِحَلِّ رِيقَتِهِ مِنْ الْخِدْمَةِ ضِنًّا بِأَسْرَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَغَيْرُهُ
 مِنْ خِدْمَتِهِ لِسَوَاهِهِمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ السَّفَرِ لِفَرِيضَةِ
 الْحَجِّ لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ وَقُوعِهِمْ بِأَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ فَلَمَّ يَحْجُ سَائِرَ آبَائِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
 دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبِيحَ الْحَجُّ لِأَهْلِ الدُّوَلِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ الْأُمُورِ وَرُجُوعِهَا
 إِلَى الطَّوَائِفِ وَأَمَّا ثَانِيًا فَلَانْتَهَمَ وَإِنْ مَسَحُوا بِحَلِّ رِيقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ بِالْتَّجَانِي عَنْ ذَلِكَ
 الْمَالِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ سَبَبَ
 إِلَّا بِهَا وَفِي ظِلِّ جَاهِهَا فَتَعْمُومُ نَفُوسُهُمْ عَلَى انْتِزَاعِ ذَلِكَ الْمَالِ وَالْتِقَامِهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ
 مِنَ الدَّوْلَةِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَقَّعْنَا أَنَّهُ خَاصٌّ بِذَلِكَ الْمَالِ إِلَى قَطْرِ آخَرٍ وَهُوَ فِي
 النَّادِرِ الْأَقْلُ فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْمُلُوكِ بِذَلِكَ الْقَطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِالْإِزْهَابِ وَالْتَفْوِيفِ
 تَعْرِضًا أَوْ بِالْقَهْرِ ظَاهِرًا لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ الْجَبَايَةِ وَالدُّوَلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلإِتِّفَاقِ فِي
 الْمَصَالِحِ وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالْبَسَارِ الْمَتَكَسِّبِينَ مِنْ وُجُوهِ
 الْمَعَاشِ فَأُخْرِى بِهَا أَنْ تَمْتَدُّ إِلَى أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ وَالدُّوَلِ الَّتِي تَجِدُ السَّبِيلَ إِلَيْهِ بِالشَّرْعِ
 وَالْعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ السُّلْطَانُ أَبُو بَعْيَى زَكَرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ اللَّحْيَانِي تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ مُلُوكِ
 الْخَفَصِيِّينَ بِأَفْرِيقَةِ الْخُرُوجِ عَنْ عَهْدَةِ الْمَلِكِ وَالْحَقَاقِ بِمِصْرَ فِرَارًا مِنْ طَلَبِ صَاحِبِ
 الثُّغُورِ الْغُرَبِيَّةِ لَمَّا اسْتَجْمَعَ لِعَزْوِ ثُوْنَسَ فَاسْتَعْمَلَ اللَّحْيَانِي الرِّحْلَةَ إِلَى ثَغْرِ طَرَابُلُسَ
 يُؤَرِّي بِتَمْهِيدِهِ وَرَكِبَ السَّفِينِ مِنْ هُنَاكَ وَخَلَصَ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ
 جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بَيْتَ الْمَالِ مِنَ الصَّامِتِ وَالذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخَزَائِنِهِمْ مِنْ
 التَّمَاعِ وَالْعَقَارِ وَالْجَوْهَرِ حَتَّى الْكُتُبِ وَاحْتَمَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى مِصْرَ وَنَزَلَ عَلَى
 الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَادُونَ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ نَزْلَهُ وَرَفَعَ
 مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلَصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِالْعَرِضِ إِلَى أَنْ حَصَلَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ
 مَعَاشُ ابْنِ اللَّحْيَانِي إِلَّا فِي جِرَابَتِهِ الَّتِي فَرَضَ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ ثَمَانِ وَعِشْرِينَ
 حَسَبَمَا نَذَرُوهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهَذَا وَآمِثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ التَّوَسُّوسِ الَّذِي يَعْتَرِي أَهْلَ الدُّوَلِ
 لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْطُصُونَ إِنْ اتَّفَقَ لَهُمُ الْخُلَاصُ بِأَنْفُسِهِمْ

وَمَا يَتَوَكَّمُونَهُ مِنَ الْحَاجَةِ فَعَلَطُوا وَهُمْ وَالَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الشُّهُرَةِ بِخِدْمَةِ الدُّوَلِ كَافٍ
فِي وَجْدَانِ الْمَعَاشِ لَهُمْ بِالْجِرَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ بِالْجَاهِ فِي اتِّعَالِ طُرُقِ الْكَسْبِ مِنَ
التِّجَارَةِ وَالْفِلَاحَةِ وَالدُّوَلِ أَنْسَابُ لَكِنْ

النَّاسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تَرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الرِّزَاقُ وَهُوَ الْمُوفِيُّ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والاربعون

في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالسُّلْطَانَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ الْعُمَرَانِ
فَإِذَا احْتَجَّ السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ أَوْ الْجَبَايَاتِ أَوْ فُقِدَتْ فَلَمْ تَصْرِفْهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينَئِذٍ
مَا بِيَدِي الْحَاشِيَةِ وَالْحَامِيَةِ وَانْقَطَعَ أَيْضًا مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ
تَفَقَّاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ السُّوَادِ وَتَفَقَّاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةٍ لِلْأَسْوَاقِ مِمَّنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ
الْكَسَادُ حِينَئِذٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَضَعُفُ الْأَرْبَاحُ فِي الْمَتَاجِرِ فَيَقِلُّ الْخُرَاجُ لِذَلِكَ لِأَنَّ
الْخُرَاجَ وَالْجَبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْأَعْتِمَارِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَتَفَاقُ الْأَسْوَاقِ وَطَلَبِ النَّاسِ
لِلْفَوَائِدِ وَالْأَرْبَاحِ وَوَبَالَ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالنَّقْصِ لِقِلَّةِ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ حِينَئِذٍ
يَقِلُّ الْخُرَاجُ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَا هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ أُمُّ الْأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا
وَمَادَّتُهَا فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَأَجْدَزَ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ
أَنْ يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَالَ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ وَالسُّلْطَانِ
مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ السُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ الرَّعِيَّةُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ

الفصل الثالث والاربعون

في ان الظلم موذن بخراب العمران

إِعْلَمُ أَنَّ الْعُدُونَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِأَمْوَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا وَكَتْسَابِهَا
لِمَا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنَّ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا أَنْتَهَابُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي
اكتسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا انْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ السَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَعَلَى قَدَرِ الْأَعْتِدَاءِ وَنَسْبَتِهِ
يَكُونُ انْقِبَاضُ الرِّعَايَا عَنِ السَّعْيِ فِي الْاكتسَابِ فَإِذَا كَانَ الْأَعْتِدَاءُ كَثِيرًا عَامًا فِي
جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ كَانَ الْقُعُودُ عَنِ الْكَسْبِ كَذَلِكَ لِذِهَابِهِ بِالْأَمَالِ جُمْلَةً بِدُخُولِهِ

مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا وَإِنْ كَانَ الْإِعْتِدَاءُ يَسِيرًا كَانَ الْإِتْقِيَاظُ عَنِ الْكَسْبِ عَلَى نِسْبَتِهِ
 وَالْعُمُرَانُ وَوُفُورُهُ وَتَفَاقُ أَسْوَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالْأَعْمَالِ وَسَعْيِ النَّاسِ فِي الْمَصَالِحِ
 وَالْمَكَايِبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْمَعَاشِ وَانْتَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ
 الْمَكَايِبِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ الْعُمُرَانِ وَانْتَقَضَتْ الْأَحْوَالُ وَابْتَدَعَ النَّاسُ فِي الْأَفَاقِ مِنْ
 غَيْرِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ فِيمَا خَرَجَ عَنْ نِطَاقِهَا فَخَفَتْ سَاكِنُ الْقُطْرِ وَخَلَّتْ
 دِيَارُهُ وَخَرَجَتْ أَمْصَارُهُ وَاخْتَلَّ بِاخْتِلَالِهِ حَالُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ لِمَا أَنَّهَا صُورَةٌ
 لِلْعُمُرَانِ تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَادِيهَا ضَرُورَةٌ وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ مَا حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي أَخْبَارِ
 الْفُرْسِ عَنِ الْمُؤَبَّدَانِ صَاحِبِ الدِّينِ عِنْدَهُمْ أَيَّامَ بَهْرَامَ بْنِ بَهْرَامَ وَمَا عَرَضَ بِهِ لِلْمَلِكِ
 فِي انْكَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ عَائِدَتِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِضَرْبِ الْمِثَالِ فِي
 ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ الْيَوْمِ حِينَ سَمِعَ الْمَلِكُ أَصْوَانَهَا وَسَأَلَهُ عَنْ فَهْمِ كَلَامِهَا فَقَالَ لَهُ إِنَّ يَوْمًا
 ذَكَرَ أَيُّوْمَ نِكَاحِ يَوْمِ أَثْنَى وَإِنَّهَا شَرِطَتْ عَلَيْهِ عِشْرِينَ قَرْيَةً مِنَ الْخَرَابِ فِي أَيَّامِ بَهْرَامَ
 فَقَبِلَ شَرْطَهَا وَقَالَ لَهَا إِنْ دَامَتْ أَيَّامُ الْمَلِكِ أَقْطَعْتُكَ أَلْفَ قَرْيَةٍ وَهَذَا أَسهلُ مَرَامٍ فَتَنَبَّهَ
 الْمَلِكُ مِنْ غَفْلَتِهِ وَخَلَا بِالْمُؤَبَّدَانِ وَسَأَلَهُ عَنْ مُرَادِهِ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمَلِكَ
 لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِيَامَ
 لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمَلِكِ وَلَا عِزَّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِيَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالْمَالِ وَلَا
 سَبِيلَ إِلَى الْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ الْمُنْصَوْبُ
 بَيْنَ الْخَلِيقَةِ نَصَبُهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيَمًا وَهُوَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ عَمَدَتُ إِلَى الضِّيَاعِ
 فَأَنْزَعْتَهَا مِنْ أَزْبَابِهَا وَعِمَارَهَا وَهُمْ أَزْبَابُ الْخَرَاجِ وَمَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ الْأَمْوَالُ وَأَقْطَعْتَهَا
 الْحَاشِيَةَ وَالْخُدَمَ وَأَهْلَ الْبِطَالَةِ فَتَرَكُوا الْعِمَارَةَ وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَا يُصْلِحُ الضِّيَاعَ
 وَسُوحُوا فِي الْخَرَاجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَوَقَعَ الْخَيْفُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَزْبَابِ الْخَرَاجِ وَعِمَارِ
 الضِّيَاعِ فَأَنْجَلُوا عَنْ ضِيَاعِهِمْ وَخَلُّوا دِيَارَهُمْ وَأَوُوا إِلَى مَا تَعَذَّرَ مِنَ الضِّيَاعِ فَسَكَنُوهَا
 فَقَلَّتِ الْعِمَارَةُ وَخَرِبَتِ الضِّيَاعُ وَقَلَّتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْجُنُودُ وَالرَّعِيَّةُ وَطِمَعَ فِي
 مُلْكِ فَارِسَ مَنْ جَاوَرَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ لِعِلْمِهِمْ بِانْقِطَاعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا تَسْتَعِينُ دَعَائِمُ
 الْمَلِكِ إِلَّا بِهَا فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النَّظَرِ فِي مُلْكِهِ وَأَنْزَعَتِ الضِّيَاعُ مِنْ
 أَيْدِي الْخَاصَّةِ وَرُدَّتْ عَلَى أَزْبَابِهَا وَحُمِلُوا عَلَى رُسُومِهِمُ السَّالِفَةِ وَأَخَذُوا فِي الْعِمَارَةِ وَقَوَّيَ

مَنْ ضَعُفَ مِنْهُمْ فَعَمَرَتِ الْأَرْضُ وَأَخْصَبَتِ الْبِلَادُ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ عِنْدَ جُبَاةِ الْخَرَاجِ
 وَقَوِيَتِ الْجُنُودُ وَقُطِعَتِ مَوَادُّ الْأَعْدَاءِ وَتُحْنِتِ الثُّغُورُ وَأَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى مُبَاشَرَةِ أُمُورِهِ
 بِنَفْسِهِ فَحَسُنَتْ أَيَّامُهُ وَانْتَضَمَ مَلِكُهُ فَتَفَهَّمُوا مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ الظُّلْمَ تُخْرِبُ لِلْعُمَرَانِ
 وَأَنَّ عَائِدَةَ الْخَرَابِ فِي الْعُمَرَانِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالْفَسَادِ وَالْإِنْتِقَاضِ وَلَا تَنْظُرُ فِي ذَلِكَ إِلَى
 أَنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ يُوجَدُ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي بِهَا وَلَمْ يَقَعْ فِيهَا خَرَابٌ وَأَعْلَمُ
 أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْأَعْدَاءِ وَأَحْوَالِ أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَمَّا كَانَ
 الْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمُرَانُهُ كَثِيرًا وَأَحْوَالُهُ مُنْسِجَةً بِمَا لَا يَنْحَصِرُ كَانَ وَفُوعُ النِّقْصِ فِيهِ بِالْأَعْدَاءِ
 وَالظُّلْمِ بَسِيرًا لِأَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَقَعُ بِالتَّدْرِيجِ فَإِذَا خَفِيَ بِكَثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَعَ
 الْأَعْمَالُ فِي الْمِصْرِ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ وَقَدْ تَذَهَبُ تِلْكَ الدَّوْلَةُ الْمُعْتَدِيَةُ مِنْ
 أَصْلِهَا قَبْلَ خَرَابِ الْمِصْرِ وَتُجَيِّدُ الدَّوْلَةُ الْأُخْرَى فَتَرْقَعُهُ بِجِدَّتِهَا وَتَجْبُرُ النِّقْصَ الَّذِي كَانَ
 خَفِيًّا فِيهِ فَلَا يَكَادُ يُشْعَرُ بِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ حُصُولَ
 النِّقْصِ فِي الْعُمَرَانِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ أَمْرٌ وَقِيعٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَا قَدَّمَاهُ وَوَبَّأَلَهُ عَائِدَةُ عَلَى
 الدُّوَلِ وَلَا تَحْسَبَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخْذُ الْمَالِ أَوْ الْمَلِكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عَوَظٍ
 وَلَا سَبَبٍ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ بَلِ الظُّلْمُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مَلِكًا أَحَدًا أَوْ غَصَبَهُ
 فِي عَمَلِهِ أَوْ طَائَبَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَفْرَضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ فَجُبَاةُ
 الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَةٌ وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا ظَلَمَةٌ وَالْمُنْتَهَبُونَ لَهَا ظَلَمَةٌ وَالْمَانِعُونَ
 لِحُقُوقِ النَّاسِ ظَلَمَةٌ وَخُصَّابُ الْأَمْلَاقِ عَلَى الْعُمُومِ ظَلَمَةٌ وَوَبَّأَلُ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِدَةُ عَلَى الدَّوْلَةِ
 بِخَرَابِ الْعُمَرَانِ الَّذِي هُوَ مَادَّتُهَا لِإِذْهَابِهِ الْأَمْوَالِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ
 الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فُسَادِ الْعُمَرَانِ وَخَرَابِهِ وَذَلِكَ
 مُؤَدِّنٌ بِانْقِطَاعِ النَّوعِ الْبَشَرِيِّ وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ الْمُرَاعِيَةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ
 مَقَاصِدِهِ الْغَرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ مِنْ حِفْظِ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ فَلَمَّا كَانَ
 الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤَدِّنًا بِانْقِطَاعِ النَّوعِ لِمَا أَدَّى إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيبِ الْعُمَرَانِ كَانَتْ
 حِكْمَةُ الْخَطَرِ فِيهِ مُوجِدَةً فَكَانَ تَحْرِيمُهُ مُهِمًّا وَأَدِلَّتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُ
 مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا قَانُونُ الضَّبْطِ وَالْحَصْرِ وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَى الظُّلْمِ لَوُضِعَ بِإِزَائِهِ
 مِنَ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةِ مَا وَضِعَ بِإِزَاءِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُنْهَكَاتِ لِلنَّوعِ الَّتِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى

أَقْتَرَفَهَا مِنْ الزَّنا وَالْقَتْلِ وَالشُّكْرِ إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ
 إِنَّمَا يَقَعُ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَبَوَّاعٍ فِي ذِمَّةٍ وَتَكْرِيرٍ أَلَوْعِيدٍ فِيهِ عَسَى أَنْ يَكُونَ
 الْوَارِعُ فِيهِ لِلْقَادِرِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ الْعُقُوبَةَ قَدُوضَتِ
 بِإِزَاءِ الْحِرَابَةِ فِي الشَّرْعِ وَهِيَ مِنْ ظُلْمِ الْقَادِرِ لِأَنَّ الْحَارِبَ زَمَنَ حِرَاتِهِ قَادِرٌ فَإِنْ فِي
 الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ طَرِيقَتَيْنِ . أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ الْعُقُوبَةُ عَلَى مَا يَقْتَرِفُهُ مِنَ الْجُنَايَاتِ فِي نَفْسِ
 أَمْوَالٍ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ . وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِجُنَايَتِهِ
 وَأَمَّا نَفْسُ الْحِرَابَةِ فَهِيَ خُلُوفٌ مِنَ الْعُقُوبَةِ . الطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ الْحَارِبُ لَا يُوَصَفُ
 بِالْقُدْرَةِ لِأَنَّا إِنَّمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ الظَّالِمِ أَيْدِي الْمَبْسُوطَةِ الَّتِي لَا تُعَارِضُهَا قُدْرَةٌ فَهِيَ الْمُؤَذِّنُ
 بِالْحَرَابِ وَأَمَّا قُدْرَةُ الْحَارِبِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا ذَرِيعَةً لِأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَالْمُدَافَعَةِ
 عَنْهَا بِيَدِ الْكُلِّ مَوْجُودَةٌ شَرْعًا وَسِيَاسَةً فَلَيْسَتْ مِنَ الْقَدَرِ الْمُؤَذِّنِ بِالْحَرَابِ وَاللَّهُ
 قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ . وَمِنْ أَشَدِّ الظُّلَمَاتِ وَأَعْظَمِهَا فِي إِفْسَادِ الْعُمَرَانِ تَكْلِيفُ الْأَعْمَالِ
 وَتَسْخِيرُ الرِّعَايَا بِغَيْرِ حَقٍّ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَمَوَّلَاتِ كَمَا سَبَّيْنَا فِي
 بَابِ الرِّزْقِ لِأَنَّ الرِّزْقَ وَالْكَسْبَ إِنَّمَا هُوَ قِيمُ أَعْمَالِ أَهْلِ الْعُمَرَانِ فَإِذَا مَسَّاعِيهِمْ
 وَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا مُتَمَوَّلَاتٌ وَمَكَايِبُ لَهُمْ بَلْ لَا مَكَايِبَ لَهُمْ سِوَاهَا فَإِنَّ الرِّعِيَّةَ
 الْمُعْتَمِلِينَ فِي الْعِمَارَةِ إِنَّمَا مَعَاشُهُمْ وَمَكَايِبُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ذَلِكَ فَإِذَا كَلَّفُوا الْعَمَلَ
 فِي غَيْرِ شَأْنِهِمْ وَاتَّخَذُوا سِخْرِيًّا فِي مَعَاشِهِمْ بَطَلَ كَسْبُهُمْ وَأَغْتَصَبُوا فِيهِمْ عَمَلَهُمْ ذَلِكَ
 وَهُوَ مُتَمَوَّلُهُمْ فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الضَّرَرُ وَذَهَبَ لَهُمْ حِظٌّ كَبِيرٌ مِنْ مَعَاشِهِمْ بَلْ هُوَ مَعَاشُهُمْ
 بِالْجُمْلَةِ وَإِنْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَفْسَدَ أَمَالَهُمْ فِي الْعِمَارَةِ وَقَعَدُوا عَنِ السَّعْيِ فِيهَا
 جُمْلَةً فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى انْتِقَاضِ الْعُمَرَانِ وَتَخَرُّبِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ
 وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِي الظُّلْمِ وَإِفْسَادِ الْعُمَرَانِ وَالِدَوْلَةُ التَّسَلُّطُ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ
 بِشِرَاءٍ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ ثُمَّ فَرَضَ الْبَضَائِعَ عَلَيْهِمْ بِأَرْزَقِ الْأَثْمَانِ عَلَى
 وَجْهِ الْغَضَبِ وَالْإِكْرَاهِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ وَرُبَّمَا تُفَرَضُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْأَثْمَانُ عَلَى
 التَّوَاحِي وَالتَّعْجِيلِ فَيَتَعَلَّلُونَ فِي تِلْكَ الْخِسَارَةِ الَّتِي تُلْحَقُهُمْ بِمَا تُحْدِثُهُمُ الْإِطَاعَةُ مِنْ جَبَرِ
 ذَلِكَ بِخَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِي تِلْكَ الْبَضَائِعِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ بِالْغَلَاءِ إِلَى يَتَبِعَهَا بِأَبْخَسِ
 الْأَثْمَانِ وَتَعُودُ خِسَارَةٌ مَا بَيْنَ الصَّفَقَتَيْنِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَقَدْ يَكُنْ ذَلِكَ أَصْنَافُ

التُّجَّارِ الْمُقِيمِينَ بِالْمَدِينَةِ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْآفَاقِ فِي الْبَضَائِعِ وَسَائِرِ السُّوقَةِ وَأَهْلِ
الدَّكَائِنِ فِي الْمَاكِلِ وَالْفَوَاكِهِ وَأَهْلِ الصَّنَائِعِ فِيمَا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْآلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ
فَتَشْمَلُ الْخِيسَارَةُ سَائِرَ الْأَصْنَافِ وَالطَّبَقَاتِ وَتَتَوَالَى عَلَى السَّاعَاتِ وَتُجَحِّفُ بِرُؤُوسِ
الْأَمْوَالِ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا وَلِيَّةً إِلَّا الْقُعُودَ عَنِ الْأَسْوَاقِ لِذَهَابِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ فِي
جَبْرِهَا بِالْأَزْبَاحِ وَيَتَشَاغَلُ الْوَارِدُونَ مِنَ الْآفَاقِ لِشِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَيَتَعَمَّهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
فَتَكْسُدُ الْأَسْوَاقُ وَيَبْطُلُ مَعَاشُ الرِّعَايَا لِأَنَّ عَامَّتَهُ مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَإِذَا كَانَتْ
الْأَسْوَاقُ عَطْلًا مِنْهَا بَطَلَ مَعَاشُهُمْ وَتَنَقَّصُ جِبَايَةُ السُّلْطَانِ أَوْ تَقْسُدُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا مِنْ
أَوْسَطِ الدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الدُّكُوسِ عَلَى الْبَيَاعَاتِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ وَيُؤُولُ ذَلِكَ
إِلَى تَلَاشِي الدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمُرَانِ الْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هَذَا الْخَلَلُ عَلَى التَّدْرِيجِ وَلَا يُشْعُرُ
بِهِ هَذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الذَّرَائِعِ وَالْأَسْبَابِ إِلَى اخْتِزِ الْأَمْوَالِ وَأَمَّا اخْتُذَاهَا مَجَانًا
وَالْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَافِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي
إِلَى الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْقِصُ الدَّوْلَةَ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْمَرْجِ الْمُفْضِي إِلَى
الْإِنْتِقَاضِ وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ حَظَرَ الشَّرْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ الدُّكَايَسَةَ فِي
الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سَدًّا لِأَبْوَابِ الْمَفَاسِدِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى
انْتِقَاضِ الْعُمُرَانِ بِالْمَرْجِ أَوْ بَطْلَانِ الْمَعَاشِ وَأَعْلَمَ أَنَّ الدَّاعِيَ لِذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ
حَاجَةُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ إِلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَغْرِضُ لَهُمْ مِنَ التَّرَفِ فِي الْأَحْوَالِ
فَتَكْثُرُ تَقَاتُّهُمْ وَيَعْظُمُ الْخَرْجُ وَلَا يَبْقَى بِهِ الدَّخْلُ عَلَى الْقَوَانِينِ الْمُعْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ
الْقَبَا وَوُجُوهًا يُوسِعُونَ بِهَا الْجِبَايَةَ لِيَفِي لَهُمُ الدَّخْلُ بِالْخَرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّرَفُ يَزِيدُ
وَالْخَرْجُ بِسَبَبِهِ يَكْثُرُ وَالْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ تَشْتَدُّ وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ بِذَلِكَ يَزِيدُ
إِلَى أَنْ تَحْمِيَ دَائِرَتُهَا وَيَذْهَبَ بِرِسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع والاربعون

في ان الحجاب كيف يقع في الدول وفي انه يعظم عند المرم
اعلم ان الدولة في اول امرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه
لانه لا بد لها من العصية التي بها يتم امرها ويحصل استيلاؤها واليدأوة هي شعار
العصية والدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وإن كان قيامها

بِعِزِّ الْغَلْبِ فَقَطْ فَالْبِدَاوَةُ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ الْغَلْبُ بَعِيدَةٌ أَيْضًا عَنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَمَذَاهِبِهِ
وَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا بَدَوِيَّةً كَانَ صَاحِبُهَا عَلَى حَالِ الْغَضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةِ
وَالْقُرْبِ مِنَ النَّاسِ وَمُسْهُوْلَةِ الْإِذْنِ فَإِذَا رَسَخَ عِزُّهُ وَصَارَ إِلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ عَنِ
النَّاسِ لِلْحَدِيثِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ فِي خَوَاصِّ شُؤْنِهِ لِمَا يَكْثُرُ حِينَئِذٍ بِمَحَاشِيئِهِ فَيَطْلُبُ
الْإِنْفِرَادَ مِنَ الْعَامَّةِ مَا اسْتَطَاعَ وَيَتَّخِذُ الْإِذْنَ بِبَابِهِ عَلَى مَنْ لَا يَأْتِيهِ مِنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ
دَوْلَتِهِ وَيَتَّخِذُ حَاجِبًا لَهُ عَنِ النَّاسِ بِقِيَمَةِ بَابِهِ لِهَذِهِ الْوَضِئَةِ ثُمَّ إِذَا اسْتَفْعَلَ الْمَلِكُ
وَجَاءَتْ مَذَاهِبُهُ وَمَنَازِعُهُ اسْتَحَالَتْ أَخْلَاقُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى أَخْلَاقِ الْمَلِكِ وَهِيَ أَخْلَاقُ
غَرِيبَةٍ مُخْصُوصَةٍ يَحْتَاجُ مُبَاشَرَتَهَا إِلَى مَدَارَاتِهَا وَمَعَامَلَتِهَا بِمَا يَجِبُ لَهَا وَزُبْمًا جَهْلًا تِلْكَ
الْأَخْلَاقُ مِنْهُمْ بَعْضٌ مَنْ يُبَاشِرُهُمْ فَوْقَ فِيمَا لَا يُرْضِيهِمْ فَسَيُطَوَّأَوْا وَصَارُوا إِلَى حَالَةِ الْإِنْتِقَامِ
مِنْهُ فَأَنْفَرَدَ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَدَابِ الْخَوَاصُّ مِنَ أَوْلِيَائِهِمْ وَحَجَبُوا غَيْرَ أُولَئِكَ الْخَاصَّةِ
عَنِ لِقَائِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حِفْظًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُعَايِنَةِ مَا يُسَخِّطُهُمْ عَلَى النَّاسِ مِنْ
التَّعَرُّضِ لِعِقَابِهِمْ فَصَارَ لَهُمْ حِجَابٌ آخَرُ أَخْصَ مِنْ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ يُفْضِي إِلَيْهِمْ مِنْهُ
خَوَاصُّهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْحِجَابُ الثَّانِي يُفْضِي إِلَى
مَجَالِسِ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْحِجَابُ الْأَوَّلُ يَكُونُ فِي أَوَّلِ
الدَّوْلَةِ كَمَا ذَكَرْنَا كَمَا حَدَّثَ لِأَيَّامِ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ الْمَلِكِ وَخُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَكَانَ
الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْحِجَابِ يُسَمَّى عِنْدَهُمُ الْحَاجِبَ جَزِيًّا عَلَى مَذْهَبِ الْإِسْتِغْنَاءِ الصَّحِيحِ
ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَجَدَتِ الدَّوْلَةُ مِنَ التَّرَفِّ وَالْعِزِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ
وَكَمَلَتْ خُلُقُ الْمَلِكِ عَلَى مَا يَجِبُ فِيهَا فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِجَابِ الثَّانِي وَصَارَ اسْمُ الْحَاجِبِ
أَخْصَ بِهِ وَصَارَ بِيَابِ الْخُلَفَاءِ دَارَانِ لِلْعَبَّاسِيَّةِ دَارُ الْخَاصَّةِ وَدَارُ الْعَامَّةِ كَمَا هُوَ مُسْتَطَوِّرٌ
فِي أَخْبَارِهِمْ ثُمَّ حَدَّثَ فِي الدُّوَلِ حِجَابٌ ثَالِثٌ أَخْصَ مِنَ الْأَوَّلَيْنِ وَهُوَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ الْحُجْرِ
عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَخَوَاصَّ الْمَلِكِ إِذَا نَصَبُوا الْأَبْنَاءَ مِنَ الْأَعْقَابِ
وَحَاوَلُوا الْإِسْتِيزَادَ عَلَيْهِمْ فَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ ذَلِكَ الْمُسْتَبِدُّ أَنْ يَحْجُبَ عَنْهُ بِطَانَةُ ابْنِهِ
وَخَوَاصُّ أَوْلِيَائِهِ يَوْمَهُ أَنْ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ إِيَّاهُ خَرَقَ حِجَابَ الْهَيْبَةِ وَفَسَادَ قَانُونِ الْأَدَبِ
لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ لِقَاءَ الْغَيْرِ وَيُعَوِّدَهُ مُلَابَسَةُ أَخْلَاقِهِ هُوَ حَتَّى لَا يَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَاهُ إِلَى أَنْ
يَسْتَحْكِمَ الْإِسْتِيزَالَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ هَذَا الْحِجَابُ مِنْ دَوَائِعِهِ وَهَذَا الْحِجَابُ لَا يَقَعُ فِي

الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحبر ويكون دليلاً على هرم الدولة ونقاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لأن القائمين بالدولة يعاولون على ذلك يطاعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه

الفصل الخامس والاربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالهجد ويتفرد به ويألف حينئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استواب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فربما أرتاب الساهمون له في ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية إليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاعتزاز والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضيق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وأنظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً مجتمعاً ونطاقاً مستنداً في الاتساع وعصية بني عبد مناف واحدة غالبية على سائر مضر فلم ينقض عرق من الخلافة سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الجوارح المستعيتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك نزع ملك ولا رئاسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو العباس بالامر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف واذنت بالتقص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام فاستحدث بها ملكاً واقطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع أدریس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البربرية من أوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغلبية في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على أفريقية والمغرب ثم مضر والشام والحجاز وغلبوا على الأدارسة وفسموا الدولة دولتين أخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس

مَرْكَزَ الْعَرَبِ وَأَصْلَهُمْ وَمَادَّتُهُمُ الْإِسْلَامُ وَدَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ الْعَجْدَدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ
 مُلْكُهُمُ الْقَدِيمُ وَخِلَافَتُهُمْ بِالْمَشْرِقِ وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ
 وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ أَنْقَرَضُهَا مُتَقَارِبًا أَوْ جَمِيعًا وَكَذَلِكَ انْقَسَمَتِ دَوْلَةُ
 بَنِي الْعَبَّاسِ بِدَوْلٍ أُخْرَى وَكَانَ بِالْقَاصِيَةِ بَنُو سَاسَانَ فِيمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَخُرَاسَانَ وَالْعُلُوِيَّةَ
 فِي الدَّيْلَمِ وَطَبَرِسْتَانَ وَآلَ ذَلِكَ إِلَى اسْتِيفَاءِ الدَّيْلَمِ عَلَى الْعِرَاقِينَ وَعَلَى بَغْدَادَ وَالْخُلَفَاءِ
 ثُمَّ جَاءَ السُّلْجُوقِيَّةُ فَمَلَكَوا جَمِيعَ ذَلِكَ ثُمَّ انْقَسَمَتِ دَوْلَتُهُمْ أَيْضًا بَعْدَ الْإِسْتِفْحَالِ كَمَا
 هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَكَذَلِكَ أَعْتَبِرُهُ فِي دَوْلَةِ صِنَهَاجَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ لَمَّا بَلَغَتْ
 إِلَى غَايَتِهَا أَيَّامَ بَادِيَسَ بْنِ الْمَنْصُورِ خَرَجَ عَلَيْهِ عَمُّهُ حَمَادٌ وَاقْتَطَعَ مِمَّا لِكَ الْعَرَبِ لِنَفْسِهِ
 مَا بَيْنَ جَبَلِ أَوْرَاسَ إِلَى تَلْمُسَانَ وَمَلُوكِيَّةَ وَأَخْطَطَ الْقَلْعَةَ بِجَبَلِ كُتَامَةِ حِيَالِ الْمَسِيلَةِ وَنَزَلَهَا
 وَاسْتَوَلَى عَلَى مَرْكَزِهِمْ أَشِيرَ بِجَبَلِ تَيْطَرِي وَاسْتَحْدَثَ مُلْكًا آخَرَ قَسِيمًا لِمُلْكِ آلِ بَادِيَسَ
 وَبَقِيَ آلُ بَادِيَسَ بِالْقَيْرَوَانِ وَمَا إِلَيْهَا وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَرَضَ أَمْرُهَا جَمِيعًا وَكَذَلِكَ
 دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ لَمَّا تَقَلَّصَ ظِلُّهَا ثَارَ بِأَفْرِيقِيَّةَ بَنُو أَبِي حَفْصٍ فَأَسْتَقَلُّوا بِهَا وَاسْتَحْدَثُوا
 مُلْكًا لِأَعْقَابِهِمْ بِوَحْدِيَّتِهَا ثُمَّ لَمَّا اسْتَفْعَلَ أَمْرُهُمْ وَاسْتَوَلَى عَلَى الْغَايَةِ خَرَجَ عَلَى الْمَمَالِكِ
 الْغَرِبِيَّةِ مِنْ أَعْقَابِهِمْ الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَّا بَخِي أَبُو السُّلْطَانِ أَبِي إِسْمٰحِيلَ إِبْرَاهِيمَ رَابِعَ خُلَفَائِهِمْ
 وَاسْتَحْدَثَ مُلْكًا بِجَبَابَةِ وَقَسَنْطِينَةَ وَمَا إِلَيْهَا أَوْرَثَهُ بَنِيهِ وَقَسَمُوا بِهِ الدَّوْلَةَ قِسْمَيْنِ
 ثُمَّ اسْتَوَلَوْا عَلَى كُرْمِي الْحَضْرَةِ بُونِسَ ثُمَّ انْقَسَمَ الْمُلْكُ مَا بَيْنَ أَعْقَابِهِمْ ثُمَّ عَادَ الْإِسْتِيفَاءُ
 فِيهِمْ وَقَدْ بَنَتْهُي الْإِنْقِسَامُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ دَوْلَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَفِي غَيْرِ أَعْيَاصِ الْمُلْكِ مِنْ قَوْمِهِ
 كَمَا وَقَعَ فِي مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ وَفِي مُلْكِ صِنَهَاجَةَ بِأَفْرِيقِيَّةَ
 فَقَدْ كَانَ لِأَخِيرِ دَوْلَتِهِمْ فِي كُلِّ حِصْنٍ مِنْ حِصُونِ أَفْرِيقِيَّةَ ثَائِرٌ مُسْتَقِلٌّ بِأَمْرِهِ كَمَا أَقْدَمَ
 ذِكْرُهُ وَكَذَا حَالُ الْجُرَيْدِ وَالزَّابِ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ قَبِيلَ هَذَا الْعَهْدِ كَمَا نَذَرُوهُ هَكَذَا شَانَ
 كُلِّ دَوْلَةٍ لَا بُدَّ وَأَنْ يَعْزِضَ فِيهَا عَوَارِضُ الْهَرَمِ بِالْتَرَفِ وَالِدَعَةِ وَتَقْلُصُ ظِلُّ الْقَلْبِ فَيَنْقَسِمُ
 أَعْيَاصُهَا وَمَنْ يَغْلِبُ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهَا الْأَمْرُ وَيَتَعَدَّدُ فِيهَا الدُّوَلُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل السادس والاربعون

في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قَدْ قَدَّمْنَا ذِكْرَ الْعَوَارِضِ الْمُؤَذِّنَةِ بِالْهَرَمِ وَأَسْبَابَهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَبَيْنَا أَنَّهَا

تَعَدُّ لِلدَّوْلَةِ بِالطَّبَعِ وَأَنَّهَا كُلُّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لَهَا وَإِذَا كَانَ الْهَرَمُ طَبِيعِيًّا فِي الدَّوْلَةِ
كَانَ حَدُوثُهُ بِمِثَابَةِ حَدُوثِ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ كَمَا يَتَعَدُّ الْهَرَمُ فِي الْمَزَاجِ الْحَيَوَانِي
وَالْهَرَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُزْمِنَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ دَوَائُهَا وَلَا أَرْتِقَائُهَا إِلَّا أَنَّهُ طَبِيعِيٌّ وَالْأُمُورُ
الطَّبِيعِيَّةُ لَا تَبْدُلُ وَقَدْ يَتَنَبَّهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِمَنْ لَهُ بَقِظَةٌ فِي السِّيَاسَةِ فَيَرَى مَا
تَزَلْ بِدَوْلَتِهِمْ مِنْ عَوَارِضِ الْهَرَمِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ مُمَكِّنُ الْإِرْتِقَاعِ فَيَأْخُذُ نَفْسَهُ بِتَلَا فِي الدَّوْلَةِ
وَأَصْلَاحِ زَوَاجِهَا عَنْ ذَلِكَ الْهَرَمِ وَيَتَحَسَّبُهُ أَنَّهُ لِحَقِّهَا بِتَقْصِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ
وَعَفْلَتِهِمْ وَأَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلدَّوْلَةِ وَالْعَوَائِدُ هِيَ الْمَانِعَةُ لَهُ مِنْ تَلَا فِيهَا
وَالْعَوَائِدُ مَنَزَلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ أُخْرَى فَإِنْ مَنْ أَدْرَكَ مَثَلًا أَبَاهُ وَأَكْثَرَ أَهْلِي يَتَنَبَّهُ بِلَبْسُونِ
الْحَرِيرِ وَالْدِّيَابِجِ وَيَتَحَلَّوْنَ بِالذَّهَبِ فِي السَّلَاحِ وَالْمَرَائِبِ وَيَتَعَجَّبُونَ عَنْ النَّاسِ فِي
الْحَجَالِسِ وَالصَّلَواتِ فَلَا يُمَكِّنُهُ مُخَالَفَةُ سَلَفِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْخُشُونَةِ فِي اللِّبَاسِ وَالزِّيِّ
وَالِإِخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ إِذِ الْعَوَائِدُ حِينَئِذٍ تَمْنَعُهُ وَتَقْبَحُ عَلَيْهِ رُتَبُكَبُهُ وَلَوْ فَعَلَهُ لَرُمِيَ
بِالْجُنُونِ وَالْوَسْوَاسِ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْعَوَائِدِ دَفْعَةً وَخُشْيَ عَلَيْهِ عَائِدَةُ ذَلِكَ وَعَاقِبَتُهُ فِي
سُلْطَانِهِ وَانْظُرْ شَأْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي إِنْكَارِ الْعَوَائِدِ وَمُخَالَفَتِهَا لَوْلَا التَّأْيِيدُ الْإِلَهِيُّ وَالنَّصْرُ
السَّمَاوِيُّ وَرُبَّمَا تَكُونُ الْعَصَبِيَّةُ قَدْ ذَهَبَتْ فَتَكُونُ الْأُيُوهُ تُعَوِّضُ عَنْ مَوْجِعِهَا مِنْ
النَّفْسِ فَإِذَا أُرِيَتْ تِلْكَ الْأُيُوهُ مَعَ ضَعْفِ الْعَصَبِيَّةِ تَجَاسَرَتِ الرُّعَايَا عَلَى الدَّوْلَةِ بِذَهَابِ
أَوْهَامِ الْأُيُوهِ فَتَسْتَدْرِغُ الدَّوْلَةُ بِتِلْكَ الْأُيُوهِ مَا أُمَكَّنَهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ الْأَمْرُ وَرُبَّمَا يَتَعَدُّ
عِنْدَ آخِرِ الدَّوْلَةِ قُوَّةُ نُورِهِمْ أَنَّ الْهَرَمَ قَدْ أَرْتَقَعَ عَنْهَا وَيُوهِضُ ذُبَالُهَا إِيمَاضَةَ الْخُمُودِ
كَمَا يَقَعُ فِي الذُّبَالِ الْمُسْتَعْمَلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مُقَارَبَةِ انْطِفَائِهِ يُوهِضُ إِيمَاضَةَ نُورِهِمْ أَنَّهَا اشْتِعَالٌ
وَهِيَ انْطِفَاءٌ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَلَا تُغْفِلْ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتَهُ فِي أَطْرَادِ وَجُودِهِ عَلَى مَا
قَدَّرَ فِيهِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

الفصل السابع والاربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

إِذْ عَلِمَ أَنَّ مَبْنَى الْمُلْكِ عَلَى أُسَاسَيْنِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا فَالْأَوَّلُ الشُّوْكَةُ وَالْعَصَبِيَّةُ وَهُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ
بِالْجُنْدِ وَالثَّانِي الْمَالُ الَّذِي هُوَ قِيَامُ أَوْلِيكَ الْجُنْدِ وَإِقَامَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ
الْأَحْوَالِ وَالْخُلَلِ إِذَا طَرَقَ الدَّوْلَةَ طَرَفَهَا فِي هَذَيْنِ الْأُسَاسَيْنِ فَلَنَذْكُرَ أَوَّلًا طُرُوقَ

الخلال في الشوكة والعصية ثم نرجع إلى طروقه في المال والجباية وأعلم أن تمهيد الدولة وتأسيستها كما قلناه إنما يكون بالعصية وأنه لا بد من عصية كبرى جامعة للعصائب مستتعة لها وهي عصية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فإذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصية كان أول ما يجذع أنوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جذع أنوفهم بما بلغ من سوادهم لمكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخرًا إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رُسوخ الملك لصاحب الأمر فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصية صاحب الدولة منهم وهي العصية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها فتتحل عروتها وتضعف شكيمتها وتستبدل عنها بالبطانة من موالي النعمة وصنائع الإحسان وتتخذ منهم عصبية إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكسية لفقدان الرحيم والقرابة منها وقد كنا قدّمنا أن شأن العصية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحيم لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرًا طبيعيًا فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدًا بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول مع ما يكون قد نزل بهم من ملكة الترف الذي قدّمنا فيستولي عليهم الهلاك بالتurf والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصية ويفشوا بعزيتها وتوزيتها ويصيروا أوجز على الحماية ويقلون لذلك فتقل الحماية التي تنزل بالأطراف والثغور فتجاسر الرعايا على بعض الدعوة في الأطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الأغصان وغيرهم إلى تلك الأطراف لما يزوجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأنهم من وصول الحماية إليهم ولا يزال ذلك يتدرج وينطاق الدولة بتضائق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاث على قدر قوتها في الأصل كما قلناه ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها لكن إذعانًا لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود واعتبر هذا في دولة العرب في

إِلَّا سَلَامَ كَيْفَ انْتَهَتْ أَوَّلًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ نَافِذًا فِي جَمِيعِ
 الْعَرَبِ بِعَصِيَّةِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَتَّى لَقَدْ أَمَرَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِدِمَشْقٍ بِقَتْلِ
 عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ بِقَرْطَبَةَ فَقُتِلَ وَلَمْ يُرَدَّ أَمْرُهُ ثُمَّ تَلَاشَتْ عَصِيَّةُ بَنِي أُمَيَّةٍ
 بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ التَّرَفِ فَأَتَقَرَّضُوا وَجَاءَ بَنُو الْعَبَّاسِ فَغَضُّوا مِنْ أَعْنَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَقَتَلُوا
 الطَّالِبِينَ وَشَرَّدُوهُمْ فَأَنْحَلَتْ عَصِيَّةُ عَبْدِ مَنَافٍ وَتَلَاشَتْ وَتَجَاسَرَ الْعَرَبُ عَلَيْهِمْ فَأَسْتَبَدَّ
 عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْقَاصِيَةِ مِثْلُ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ وَأَنْقَسَمَتِ
 الدَّوْلَةُ ثُمَّ خَرَجَ بَنُو أَدْرِيسَ بِالْمَغْرِبِ وَقَامَ الْبَزْزُ بِأَمْرِهِمْ إِذْ عَانَا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي لَهُمْ
 وَأَنَّمَا أَنْ تَصِلَهُمْ مُقَاتِلَةٌ أَوْ حَامِيَةٌ لِلدَّوْلَةِ فَإِذَا خَرَجَ الدَّعَاةُ آخِرًا فَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأَطْرَافِ
 وَالْقَاصِيَةِ وَتَحْصِلُ لَهُمْ هُنَاكَ دَعْوَةٌ وَمَلِكٌ تَنْقَسِمُ بِهِ الدَّوْلَةُ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ مَتَى زَادَتِ
 الدَّوْلَةُ ثَقُلَتْ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَرْكَزِ وَتَضَعُفُ الْبَطَانَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا أَخَذَ مِنْهَا التَّرَفُ
 فَتَهْلِكُ وَتَضَعُفُ الدَّوْلَةُ الْمُتَنَقِّسَةُ كُلُّهَا وَرُبَّمَا طَالَ أَمَدُهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَسْتَغْنِي
 عَنِ الْعَصِيَّةِ بِمَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الصَّبْغَةِ فِي نَفُوسِ أَهْلِ إِيَالَتِهَا وَهِيَ صِبْغَةُ الْإِتْقَادِ وَالتَّسْلِيمِ
 مِنْذُ السِّنِينَ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لَا يَعْقِلُ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ مَبْدَأَهَا وَلَا أَوَّلِيَّتَهَا فَلَا يَعْقِلُونَ إِلَّا
 التَّسْلِيمَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَغْنِي بِذَلِكَ عَنْ قُوَّةِ الْعَصَائِبِ وَبِمَكْنِي صَاحِبِهَا بِمَا حَصَلَ
 لَهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهَا إِلَى جِرَاءِ عَلَى الْحَامِيَةِ مِنْ جُنْدِيٍّ وَمُرْتَزِقٍ وَيَعْضُدُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي
 النُّفُوسِ عَامَةً مِنَ التَّسْلِيمِ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ عُضْيَانًا أَوْ خُرُوجًا إِلَّا وَالْجُمُودُ
 مُنْكَرُونَ عَلَيْهِ تَخَالِفُونَ لَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّصَدِّي لِذَلِكَ وَلَوْ جَبَدَ جُبْدَهُ وَرُبَّمَا كَانَتْ
 الدَّوْلَةُ فِي هَذَا الْحَالِ أَسْلَمَ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُنَازَعَةِ لِاسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ التَّسْلِيمِ وَالْإِتْقَادِ
 لَهُمْ فَلَا تَكَادُ النُّفُوسُ تُعَدِّثُ سِرًّا بِخُلَافَةٍ وَلَا يُخْتَلِجُ فِي ضَمِيرِهَا انْحِرَافٌ عَنْ
 الطَّاعَةِ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ الْهَرَجِ وَالْإِتْقَاضِ الَّذِي يُعَدِّثُ مِنَ الْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ
 ثُمَّ لَا يَزَالُ أَمْرُ الدَّوْلَةِ كَذَلِكَ وَهِيَ تَتَلَاشَى فِي ذَاتِهَا شَأْنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِي الْبَدَنِ
 الْعَادِمِ لِلْغِذَاءِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِهَا الْمَقْدُورِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ
 أَمَدٌ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . وَأَمَّا الْخَلَلُ الَّذِي يَشْطَرِّقُ مِنْ جِهَةِ
 الْمَالِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا تَكُونُ بِدَوِيَّةٍ كَمَا مَرَّ فَيَكُونُ خُلُقُ الرِّفْقِ بِالرَّعَايَا
 وَالْقَصْدِ فِي النِّفَقَاتِ وَالْتِمَظُّفِ عَنِ الْأَمْوَالِ فَتَتَجَانَّى عَنِ الْإِمْعَانِ فِي الْجَبَايَةِ وَالتَّحْدُوقِ

وَالْكَيْسِ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَحِسْبَانِ الْعُمَالِ وَلَا دَاعِيَةً حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النِّفَقَةِ
فَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ الْمَالِ ثُمَّ يَحْصُلُ الْأَسْتِيْلَاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْجِلُ الْمَلِكُ فَيَدْعُو
إِلَى التَّرَفِ وَيَكْثُرُ الْإِتْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى أَعْمَامِهِمْ
بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمِصْرِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَّاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرَفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النِّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرِّعِيَّةِ
لَأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِا وَعَوَائِدِهِا وَبِحْتَاجِ السُّلْطَانِ إِلَى ضَرْبِ الْمُكُوسِ عَلَى
أَثْمَانِ الْبَيَاعَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ لِإِذْ رَارِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرَفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ
بِالْزَّرْفِ وَلِمَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ
فَلَا تَقْبِي بِهَا الْمُكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدْ اسْتَفْجَلَتْ فِي الْأَسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لِمَنْ تُخْتَبِدُهَا
مِنَ الرِّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرِّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ
فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشِبْهِهِ أَوْ بِغَيْرِ شِبْهِهِ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى
الدَّوْلَةِ بِمَا لَحِقَهَا مِنَ الْفُشْلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصَبِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتُدَاوِي بِسَكِينَةٍ
الْعَطَايَا وَكَثْرَةِ الْإِتْفَاقِ فِيهِمْ وَلَا تَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَلِيَّةً وَتَكُونُ جَبَاةُ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ
قَدْ عَظُمَتْ ثُرُوتُهُمْ فِي هَذَا الطَّوْرِ بِكَثْرَةِ الْجَبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا اتَّسَعَ لِذَلِكَ
مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِاخْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجَبَايَةِ وَتَقْشُرُ السَّعَايَةَ فِيهِمْ بَعْضُهُمْ
مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحَقْدِ فَتَعْمَهُمُ النِّكَبَاتُ وَالْمُصَادَرَاتُ وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ
تَذْهَبَ ثُرُوتُهُمْ وَتَدَلَّشِيَ أَمْوَالُهُمْ وَيَفْقَدَ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأَلْبَهَةِ وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا
أَصْطَلَمَتْ نِعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمْ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرِّعَايَا سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهْنُ
فِي هَذَا الطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ الشُّوْكَ وَضَعُفَتْ عَنِ الْأَسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ
الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى مُدَارَاةِ الْأُمُورِ بِبَذْلِ الْمَالِ وَبِرَاهِ أَرْفَعِ مِنَ السَّيْفِ لِقَلَّةِ غَنَائِهِ فَتَعْظُمُ
حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النِّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلَا يَغْنَى فِيهَا يُرِيدُ وَيَعْظُمُ الْهَرَمُ
بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النُّوَاحِي وَالِدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عُرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى
أَنْ تُنْضِي إِلَى الْهَلَاكِ وَتَنْعَوِضَ مِنَ الْأَسْتِيْلَاءِ الْكُلَّ فَإِنْ قَصَدَهَا ظَالِبٌ أَنْتَزَعَهَا مِنْ
أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَإِلَّا بَقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَّشَى إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذَّبَالِ فِي السِّرَاجِ إِذَا
فِي زَيْتِهِ وَطَفَى وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الفصل الثامن والاربعون

في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع

إِعلم أن نشأة الدول وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقال
تكون على نوعين إما بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عند ما تقلص
ظلمها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه
عنه أبنائه أو مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج وربما يزدهمون على ذلك الملك
ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على
صاحبه وينزع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم
وتقلص ظلمها عن القاصية واستبد بنو ساسان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام
وبنو طولون بمصر وكما وقع بالدولة الأموية بالاندلس وأفترق ملكها في الطوائف
الذين كانوا ولايتها في الأعمال وانقسمت دولاً وملوكاً أوزنوها من بعدهم من
قرابتهم أو مواليتهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرباً لأنهم
مستقرون في رئاستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وإنما
الدولة أذكرها الهرم وتقلص ظلمها عن القاصية وعجزت عن الوصول إليها والنوع الثاني
بأن يخرج على الدولة خارج ممن يجاوزها من الأمم والقبائل إما بدعوة يعمل الناس
عليها كما أشرنا إليه أو يكون صاحب شوكة وعصية كبيراً في قومه قد استفحل أمره
فيسمو بهم إلى الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة
المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها وبما رسونها بالطلبة
إلى أن يظفروا بها ويوزنون^(١) كما يشين والله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل التاسع والاربعون

في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاوله لا بالمناجزة
قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الأطراف إذا
تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهولاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأكثر
كما قدمناه لأن قصارهم القنوع بما في أيديهم وهونهاية قوتهم والنوع الثاني نوع

(١) قوله ويزنون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والقاء ١٠

الدَّعَاةِ وَالْخَوَارِجِ عَلَى الدَّوْلَةِ وَهَؤُلَاءِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْمَطَالِبَةِ لِأَنَّ قُوَّتَهُمْ وَافِيَةٌ بِهَا فَإِنْ ذَلِكَ
إِنَّمَا يَكُونُ فِي نِصَابٍ يَكُونُ لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالْإِعْتَزَالِ مَا هُوَ كِفَاؤُهُ ذَلِكَ وَوَأَفَ بِهِ
فَيَقَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ حُرُوبٌ سِجَالٌ تَتَكَوَّرُ وَتَتَّصِلُ إِلَى أَنْ يَقَعَ لِيَوْمٍ
الْإِسْتِيْلَاءُ وَالظَّفَرُ بِالْمَطْلُوبِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي الْغَالِبِ ظَفَرٌ بِأَلَمِنَا جَزَةٍ وَالسَّبَبُ فِي
ذَلِكَ أَنَّ الظَّفَرَ فِي الْحُرُوبِ إِنَّمَا يَقَعُ كَمَا قَدَّمَاهُ بِأُمُورٍ تَفْسَانِيَّةٍ وَهَمِيَّةٍ وَإِنْ كَانَ
الْعَدَدُ وَالسِّلَاحُ وَصِدْقُ الْقِتَالِ كَفِيْلًا بِهِ لِكُنْهٖ قَادِرٌ مَعَ تِلْكَ الْأُمُورِ الْوَهْمِيَّةِ كَمَا
مَرَّ وَلِذَلِكَ كَانَ الْخِدَاعُ مِنْ أَرْفَعِ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْحَرْبِ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ الظَّفَرُ بِهِ وَفِي
الْحَدِيثِ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَالِدَوْلَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ قَدْ صَيَّرَتِ الْعَوَائِدَ الْمَأْلُوفَةَ طَاعَتَهَا ضَرْوِيَّةً
وَاجِبَةً كَمَا أَتَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَكَثُرَ بِذَلِكَ الْعَوَائِقُ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ
وَيَكْثُرُ مِنْ هِمِّهِ أَتْبَاعُهُ وَأَهْلُ شَوْكَتِهِ وَإِنْ كَانَ الْأَقْرَبُونَ مِنْ بَطَانَتِهِ عَلَى بَصَرَةٍ فِي
طَاعَتِهِ وَمُؤَاذَرَتِهِ إِلَّا أَنَّ الْأَخْرَيْنَ أَكْثَرُ وَقَدْ دَاخَلَهُمُ الْفُتْلُ بِتِلْكَ الْعَقَائِدِ فِي التَّسْلِيمِ
لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ فَيَحْصُلُ بَعْضُ الْفُتُورِ مِنْهُمْ وَلَا يَكَادُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ يَرْجِعُ
إِلَى الصَّبْرِ وَالْمُطَاوَلَةِ حَتَّى يَتَّضِحَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ فَتَضْحَلُ عَقَائِدُ التَّسْلِيمِ لَهَا
مِنْ قَوْمِهِ وَتَنْبَعِثَ مِنْهُمْ أَلْهَمٌ لِيَصْدُقَ الْمَطَالِبَةُ مَعَهُ فَيَقَعُ الظَّفَرُ وَالْإِسْتِيْلَاءُ وَأَيْضًا
فَالِدَوْلَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ كَثِيرَةُ الرِّزْقِ بِمَا اسْتَحْكَمَ لَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَتَوَسَّعَ مِنَ النِّعَمِ
وَاللَّدَاتِ وَاخْتَصَّوْا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ فَيَكْثُرُ عِنْدَهُمْ أَرْتِبَاطُ الْخِيُولِ
وَأَسْتِجَادَةُ الْأَسْلِحَةِ وَتَعَظُمُ فِيهِمُ الْأَلْبَةُ الْمَالِكِيَّةُ وَيَفِيضُ الْعَطَاءُ بَيْنَهُمْ مِنْ مُلُوكِهِمْ
أَخْتِيَارًا وَأَضْطِرَارًا فَيُرْهِبُونَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَدُوَّهُمْ وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ بِمَعَزِلٍ عَنْ
ذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَأَحْوَالِ الْفَقْرِ وَالْخُصَاصَةِ فَيَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِهِمْ أَوْهَامُ
الرَّغْبِ بِمَا يَتَأَمَّرُونَ مِنْ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ وَيُخَرِّمُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمُطَاوَلَةِ حَتَّى تَأْخُذَ الْمُسْتَقَرَّةُ مَا خَذَهَا مِنَ الْهَرَمِ وَيَسْتَحْكِمَ
الْخُلُلَ فِيهَا فِي الْعَصِيَّةِ وَالْجَبَايَةِ فَيَنْتَهِرُ حِينَئِذٍ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ فُرْصَتَهُ فِي
الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينَ مُنْذُ الْمَطَالِبَةِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَأَيْضًا فَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ
كُلُّهُمْ مَبَايِنُونَ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَفِي سَائِرِ مَنَاحِيهِمْ ثُمَّ هُمْ مُفَاخِرُونَ
لَهُمْ وَمُنَابِدُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ هَذِهِ الْمَطَالِبَةِ وَيَطْمَعِيهِمْ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِ فَنَتَمَكَّنُ

المباعدة بين أهل الدولتين مبراً وجبراً ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبر عن
أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة^(١) باطناً وظاهراً لا تقطاع المداخلة بين الدولتين
فيقيمون على المطالبة وهم في إجماع ويذكرون عن المناجزة حتى يأذن الله بزوَالِ
الدولة المستقرة وفناء عمرها وفور الخلال في جميع جهاتها وأنصح لأهل الدولة
المستجدة مع ما كان يخفى منهم من درمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه
من أعمالها ونقصوه من أطرافها فتبعث منهم يداً واحدة للمناجزة ويذهب ما كان
بث في غزائهم من التوهمات وتنهي المطاولة إلى حدّها ويقع الاستيلاء آخرًا
بالمعاجلة واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان
بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد وحينئذ تم لهم الظفر
واستولوا على الدولة الأموية وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم
كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما انقضى أمر العلوية وسما
الديلم إلى ملك فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا
أصهاراً ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب
أبو عبد الله الشيعي ببني كُتامة من قبائل البربر عشر سنين وي زيد تطاول بني الأغلب
بأفريقية حتى ظفروا بهم واستولوا على المغرب كله وسما إلى ملك مصر فمكثوا
ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت ويحني
المدد لمداغتهم برّاً وبحراً من بغداد والشام وملكوا الإسكندرية والقيوم
والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم
جوهراً الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها وأقتلع دولة بني طنج من أصولها
وأختط القاهرة فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله فزّلها لستين سنة أو نحوها منذ
استيلائهم على الإسكندرية وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني ساسان
وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة يطاولون بني سبكتكين بخراسان
حتى استولوا على دولته ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام
من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة عام سبعة عشر وستمائة فلم
يتم لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من

(١) قوله غرة بكسر الغين أي غلة

لِمِثُونَةٍ عَلَى مَلُوكِهِ مِنْ غِرَاوَةٍ فَطَاوَلُوهُمْ سِنِينَ ثُمَّ اسْتَوَلَوْا عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ الْمُوَحِّدُونَ
 يَدْعُوهُمْ عَلَى لِمِثُونَةٍ فَمَكَثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى اسْتَوَلَوْا عَلَى
 كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَاكِشَ وَكَذَا بُنُومَرِينَ مِنْ زَنَاتِهِ خَرَجُوا عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَمَكَثُوا بِطَاوَلُونَهُمْ
 نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَاسْتَوَلَوْا عَلَى فَارِسَ وَاقْتَطَعُوهَا وَأَعْمَالَهَا مِنْ مُلْكِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا
 فِي مُحَارَبَتِهِمْ ثَلَاثِينَ أُخْرَى حَتَّى اسْتَوَلَوْا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَاكِشَ حَسْبَمَا نَذَرَ ذَلِكَ
 كُلُّهُ فِي تَوَارِيخِ هَذِهِ الدُّوَلِ فَهَكَذَا حَالُ الدُّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْمَطَالِبَةِ
 وَالْمَطَاوَلَةِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي
 الْفُتُوحَاتِ إِلَّا سَلَامِيَّةً وَكَيْفَ كَانَ اسْتِبْلَاؤُهُمْ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ لثَلَاثِ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ
 وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا
 سِرُّهَا اسْتِمَاتَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ اسْتِبْعَادًا بِالْإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ
 عَدُوِّهِمْ مِنَ الرَّعْبِ وَالتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ الْمَقْرَّرَةِ فِي مَطَاوَلَةِ الدُّوَلِ
 الْمُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقَرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِقًا فَهُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ
 الْمُتَعَارِفِ ظُهُورُهَا فِي الْمِلَّةِ إِلَّا سَلَامِيَّةً وَالْمُعْجَزَاتُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا الْأُمُورُ الْعَادِيَّةُ وَلَا
 يُعْتَرَضُ بِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخمسون

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة المونان والمجاعات
 إِنْ عُلِمَ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ لَكَ فِيمَا سَأَلْتَ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الرَّفَقِ
 فِي مَلَكَتِهَا وَالْإِعْتِدَالِ فِي إِبَالَتِهَا إِمَّا مِنَ الدِّينِ إِنْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ
 الْمَكَارِمَةِ وَالْحُكَاةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الْبِدَاوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلدُّوَلِ وَإِذَا كَانَتْ الْمَلَكََةُ
 رَفِيقَةً مُحْسِنَةً انْبَسَطَتْ أَمَالُ الرِّعَايَا وَانْتَشَعُوا لِلْعُمُرَانِ وَأَسْبَابُهُ فَتَوَفَّرَ وَبَكَثَرُ النَّاسِلُ
 وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالتَّدْرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي الْأَقَلِّ وَفِي
 انْقِضَاءِ الْجِيلَيْنِ تُشْرِفُ الدَّوْلَةُ عَلَى نِهَائِهِ عُمْرُهَا الطَّبِيعِيِّ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ الْعُمُرَانُ فِي
 غَايَةِ الْوُفُورِ وَالنَّمَاءِ وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ أَوَاخِرَ الدَّوْلَةِ يَكُونُ فِيهَا إِلَّا جُحَافٌ
 بِالرِّعَايَا وَسُوءُ الْمَلَكََةِ فَذَلِكَ صَحِيحٌ وَلَا يُعَارِضُ مَا قُلْتَهُ لِأَنَّ الْأَجْعَافَ وَإِنْ حَدَثَ
 حِينَئِذٍ وَقَلَّتِ الْجَبَايَا فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي تَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ بَعْدَ حِينٍ مِنْ أَجْلِ التَّدْرِيجِ

فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ ثُمَّ إِنَّ الْجَمَاعَاتِ وَالْمَوْتَانَ تَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدُّوَلِ
وَالسَّبَبُ فِيهِ إِمَّا الْجَمَاعَاتُ فَلِقَبْضِ النَّاسِ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْفَلَحِ فِي الْأَكْثَرِ بِسَبَبِ مَا يَقَعُ
فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْعُدْوَانِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ أَوْ الْفِتَنِ الْوَاقِعَةِ فِي انْتِقَاصِ الرِّعَايَا
وَكَثْرَةِ الْخَوَارِجِ لَهُمْ الدَّوْلَةُ فَيَقِلُّ اخْتِكَارُ الزَّرْعِ غَالِبًا وَلَيْسَ صَلَاحُ الزَّرْعِ وَثَمَرَتُهُ
بِمُسْتَمِرِّ الوجودِ وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَطَبِيعَةُ الْعَالَمِ فِي كَثْرَةِ الْأَمْطَارِ وَقِلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ
وَالْمَطَرُ يَقْوَى وَيَضَعُفُ وَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ وَالزَّرْعُ وَالثِّمَارُ وَالضَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ
النَّاسَ وَاثِقُونَ فِي أَقْوَانِهِمْ بِالْإِخْتِكَارِ فَإِذَا فَقِدُوا الْإِخْتِكَارَ عَظُمَ تَوَقُّعُ النَّاسِ لِلْجَمَاعَاتِ
فَقَلَّ الزَّرْعُ وَعَجَزَ عَنْهُ أُولُو الْخُصَاصَةِ فَهَلَكُوا وَكَانَ بَعْضُ السَّنَوَاتِ الْإِخْتِكَارُ مَفْقُودًا
فَشَمَلَ النَّاسُ الْجُوعُ وَأَمَّا كَثْرَةُ الْمَوْتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ مِنْ كَثْرَةِ الْجَمَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ
أَوْ كَثْرَةِ الْفِتَنِ لِاخْتِلَالِ الدَّوْلَةِ فَيَكْثُرُ الْمَرْجُ وَالْقَتْلُ أَوْ وَفُوعُ الْوَبَاءِ وَسَبَبُهُ فِي
الْغَالِبِ فُسَادُ الْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ الْعُمْرَانِ لِكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ الْعَفَنِ وَالرُّطُوبَاتِ الْفَاسِدَةِ
وَإِذَا فَسَدَ الْهَوَاءُ وَهُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَمُلَاسِيَتُهُ دَائِمًا فَيَسْرِي الْفَسَادُ إِلَى
مِزَاجِهِ فَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ قَوِيًّا وَقَعَ الْمَرَضُ فِي الرِّئَةِ وَهَذِهِ هِيَ الطَّوَاعِينُ وَأَمْرَاهَا
مَخْصُوصَةٌ بِالرِّئَةِ وَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ دُونَ الْقَوِيِّ وَالْكَثِيرِ فَيَكْثُرُ الْعَفْنُ وَيَتَضَاعَفُ
فَتَكْثُرُ الْحُمَمَاتُ فِي الْأَرْجَةِ وَتَمْرَضُ الْأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ وَسَبَبُ كَثْرَةِ الْعَفَنِ وَالرُّطُوبَاتِ
الْفَاسِدَةِ فِي هَذَا كُلِّهِ كَثْرَةُ الْعُمْرَانِ وَوُفُورُهُ آخِرُ الدَّوْلَةِ لِمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حُسْنِ
الْمَلَكَةِ وَرِفْقِهَا وَقِلَّةِ الْمَغْرَمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَلِهَذَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ
تَخَلُّلَ الْخِلَاءِ وَالْفَقْرِ بَيْنَ الْعُمْرَانِ ضَرُورِيٌّ لِيَكُونَ تَمَوُّجُ الْهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَحْصُلُ فِي
الْهَوَاءِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْعَفَنِ بِمُخَالَطَةِ الْحَيَوَانَاتِ وَيَأْتِي بِالْهَوَاءِ الصَّحِيحِ وَلِهَذَا أَيْضًا فَإِنَّ
الْمَوْتَانَ يَكُونُ فِي الْمَدْنِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمْرَانِ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا بِكَثِيرٍ كَمَضَرٍ بِالشَّرْقِ
وَفَاسٍ بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ

الفصل الحادي والخمسون

فِي أَنَّ الْعُمْرَانَ الْبَشَرِيَّ لَا يَدُلُّهُ مِنْ سِيَاسَةِ يَنْتَظِمُ بِهَا أَمْرُهُ
إِعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْأَجْتِمَاعَ لِلْبَشَرِ ضَرُورِيٌّ وَهُوَ مَعْنَى
الْعُمْرَانِ الَّذِي تَتَكَلَّمُ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي الْأَجْتِمَاعِ مِنْ وَازِعٍ حَاكِمٍ يَرْجِعُونَ

إِلَيْهِ وَحُكْمُهُ فِيهِمْ تَارَةً يَكُونُ مُسْتَنَدًا إِلَى شَرْعٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوجِبُ اتِّقَادَهُمْ
إِلَيْهِ إِيْمَانُهُمْ بِالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبْلَغُهُ وَتَارَةً إِلَى سِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ يُوجِبُ
اتِّقَادَهُمْ إِلَيْهَا مَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ ثَوَابِ ذَلِكَ الْحَاكِمِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِمَصَالِحِهِمْ فَالْأَوَّلَى
يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِلْمِ الشَّارِعِ بِالْمَصَالِحِ فِي الْعَاقِبَةِ وَلِمُرَاعَاةِ نَجَاةِ
الْعِبَادِ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّانِيَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطْ وَمَا تَسْمَعُهُ مِنَ السِّيَاسَةِ
الْمَدَنِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ فِي نَفْسِهِ وَخُلُقِهِ حَتَّى يَسْتَغْنُوا عَنِ الْحُكْمِ رَأْسًا
وَيُسَمُّونَ الْمَجْتَمَعَ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ مَا يُسَمَّى مِنْ ذَلِكَ بِالْمَدِينَةِ الْفَاصِلَةِ وَالْقَوَانِينِ
الْمُرَاعَاةِ فِي ذَلِكَ بِالسِّيَاسَةِ الْمَدَنِيَّةِ وَلَيْسَ مُرَادُهُمُ السِّيَاسَةَ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ
الْإِجْتِمَاعِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ غَيْرُ تِلْكَ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ الْفَاصِلَةُ عِنْدَهُمْ نَادِرَةٌ أَوْ
بَعِيدَةٌ الْوُقُوعِ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا عَلَى جِهَةِ الْفَرَضِ وَالْتَقْدِيرِ ثُمَّ إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَقْلِيَّةَ
الَّتِي قَدَّمَاهَا تَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا يُرَاعَى فِيهَا الْمَصَالِحُ عَلَى الْعُمُومِ وَمَصَالِحُ
السُّلْطَانِ فِي اسْتِقَامَةِ مُلْكِهِ عَلَى الْخُصُوصِ وَهَذِهِ كَانَتْ سِيَاسَةَ الْفُرسِ وَهِيَ عَلَى جِهَةِ
الْحِكْمَةِ وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي الْمِلَّةِ وَلِعَهْدِ الْخِلَافَةِ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ
مُغْنِيَةٌ عَنْهَا فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَأَحْكَامُ الْمُلْكِ مُنْذَرِجَةٌ فِيهَا. الْوَجْهُ الثَّانِي
أَنْ يُرَاعَى فِيهَا مَصْلَحَةُ السُّلْطَانِ وَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُ الْمُلْكُ مَعَ الْقَهْرِ وَالْإِسْطِطَالَةِ وَتَكُونُ
الْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ فِي هَذِهِ تَبَعًا وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْإِجْتِمَاعِ الَّتِي لِسَائِرِ
الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ مِنْ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ إِلَّا أَنَّ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ يَجْرُونَ مِنْهَا عَلَى مَا لِقَضِيهِ
الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِحَسَبِ جُهْدِهِمْ فَقَوَانِينُهَا إِذَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ وَآدَابٍ
خُلُقِيَّةٍ وَقَوَانِينِ فِي الْإِجْتِمَاعِ طَبِيعِيَّةٍ وَأَشْيَاءٍ مِنْ مُرَاعَاةِ الشُّوْكَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ ضَرُورِيَّةٍ
وَالْإِقْتِدَاءِ فِيهَا بِالشَّرْعِ أَوَّلًا ثُمَّ الْحُكْمَاءِ فِي آدَابِهِمْ وَالْمُلُوكُ فِي سَيْرِهِمْ وَمِنْ أَحْسَنِ
مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ وَأَوْدِعَ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ لَمَّا وَلَاهُ
الْمَأْمُونُ الرِّقَّةَ وَصَرَّ وَمَا بَيْنَهُمَا فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ طَاهِرٌ كِتَابُهُ الْمَشْهُورُ عَهْدُ إِلَيْهِ
فِيهِ وَوَصَاةٌ بِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دَوْلَتِهِ وَسُلْطَانَتِهِ مِنَ الْآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ
الشَّرْعِيَّةِ وَالْمُلُوكِيَّةِ وَحَثَّهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشِّيمِ بِمَا لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ مُلْكٌ

وَلَا سُوْقَةٌ . وَنَصُّ الْكِتَابِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَمَّا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحُدَّةِ
لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُزَايَلَةِ سُخْطِهِ وَاحْظَ رَعِيَّتِكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْزَمَ مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ
وَمَسْئُولٌ عَنْهُ وَالْعَمَلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنَجِّيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ
عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُجَاهِدُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ مِنْ أَسْتَرَكَ
أَزْمَ مِنْ عِبَادِهِ وَأَلْزَمَكَ الْعَدْلَ فِيهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالِدْفَعَ
عَنْ حَرِيصِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَالْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ وَالْأَنْبَاسَ لِسِرِّيهِمْ وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ
وَمُؤَاخَذَكَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ وَمَوْقِفَكَ عَلَيْهِ وَسَائِلَكَ عَنْهُ وَمُسْبِكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ
فَفَرَّغَ لَذَلِكَ فَهَمَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصَرَكَ وَلَا يُشْغَلُ عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمِلَاكَ
شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلِيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْسِبُ إِلَيْهِ فِعْلَكَ
الْمُوَاطَّأَةَ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ
قَبْلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضْوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتْلِ
فِي قِرَاءَتِكَ وَتَدْمِكَ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهَدِكَ وَلِتَصْرِفَ فِيهِ رَأْيَكَ وَنَيْتَكَ
وَاحْضُضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَأَدَابَ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ثُمَّ أَتَّبِعْ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَالْمُشَافَرَةِ عَلَى خَلَائِقِهِ وَافْتِتَاءِ أَثَرِ السَّافِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَأَسْنَعِنْ
عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِأَرْوَمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ
وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَائْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَخْبَيْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ
مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَآثِرِ الْفَقْهَ وَأَهْلَهُ وَالْدِّينَ وَحَمَلَتَهُ وَكِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَامِلِينَ
بِهِ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُّ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْهَ فِي الدِّينِ وَالطَّلَبُ لَهُ وَلَحْثُ عَلَيْهِ وَالْمَعْرِفَةُ
بِمَا يَنْفَرُّ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْأَمْرُ بِهِ وَالنَّاهِي
عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُؤَبِّقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزِدَادُ الْمَرْءُ مَعْرِفَةً وَإِجْلَالًا
لَهُ وَدَرَكَاً لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَالْهَيْبَةِ
لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنَسَةِ بِكَ وَالثِّقَةَ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِالْإِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ

نفعاً ولا أخصّ أمة ولا أجمع فضلاً منه والقصد داعية إلى الرشيد والرشد دليل على
 التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالإقتصاد وكذا في
 دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة
 ومعالم الرشيد والإحسان والاستيثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله
 تعالى ومرضاه ومرافقة أولياء الله في دار كرامته أما تعلم أن القصد في شأن الدنيا
 يورث العز ويخلص من الذنوب وأنت لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك
 بأفضل منه فاته وأهتد به نتم أمورك وترد مقدرتك وتصلح عامتك وخاصتك وأحسن
 ظنك بالله عز وجل تستقيم لك رعيتك والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدبر
 به النعمة ولك ولا تنهم أحدًا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف
 أمره فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم أثم إثم فأجعل من شأنك حسن
 الظن بأصحابك وأطرّد عنك سوء الظن بهم وأرفضه فيهم بعنك ذلك على استطاعتهم
 ورياضتهم ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً فإنه يكتفي بالقليل من
 وهبك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاة عيشك وأعلم أنك
 تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفي به ما أحبت كفايته من أمورك وتدعو به
 الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك
 والرافة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء
 وحيطة الرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤوناتهم أبسر عندك مما سوى ذلك
 فإنه أقوم للدين وأخياراً للسنن وأخاين نيتك في جميع هذا وتفرّد بتقويم نفسك
 تفرّد من يعلم أنه مسئول عما صنع وتجزّي بما أحسن ومواخذ بما أساء فإن الله عز
 وجل جعل الدين حرزاً وعزاً ورفع من أتبعه وعززه وأسلك بمن تسوسه وترعاه
 نهج الدين وطريقة الهدى وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم
 وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تنهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن في
 تقربك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزيم على أمرك في ذلك بالسنن
 المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتطم لك مروءتك وإذا عاهدت
 عهداً فأوف به وإذا وعدت خيراً فأنجزه وأقبل الحسنة وأدفع بها وأغض عن عيب

كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَشَدُّ لِسَانِكَ عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ وَأَبْغَضُ
 أَهْلِ النَّمِيمَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَآخِلِهَا تَقْرِبُ الْكَذُوبِ وَالْجَرَاءَةِ
 عَلَى الْكَذِبِ لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَائِمِ وَالزُّورَ وَالنَّمِيمَةَ خَاتِمَتُهَا لِأَنَّ النَّمِيمَةَ لَا
 يَسْلُمُ صَاحِبُهَا وَقَائِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ وَأَخْبِتْ أَهْلَ الصَّلَاحِ
 وَالصِّدْقِ وَأَعِزَّ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ وَأَسِ الضُّعَفَاءَ وَصِلِ الرَّحِمَ وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ
 تَعَالَى وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ وَالْتِمِينَ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ وَأَجْنِبْ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورِ
 وَأَصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ وَأُظْهِرْ بَرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ
 وَتُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَعِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَأَمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْقَضَبِ
 وَآثِرِ الْحِلْمَ وَالْوَقَارَ وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيِّشَ وَالْعُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ
 أَنَا مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى تَقْصِ الرَّأْيِ وَقِلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 وَأَخْلَصْ لِلَّهِ وَحْدَهُ النِّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِينَ بِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بُرْؤُهُ مَنْ يَشَاءُ
 وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَلَنْ تَجِدَ تَغْيِيرَ النِّعْمَةِ وَحُلُولَ النِّعْمَةِ عَلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةِ
 النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَالْمَبْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا كَفَرُوا نِعَمَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ
 وَاسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَدَعَّ عَنْكَ شَرَّ نَفْسِكَ وَلَتَكُنْ ذَخَائِرُكَ
 وَكُوزُكَ الَّتِي تَدَّخِرُ وَتَكْثُرُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَاسْتِصْلَاحَ الرِّعِيَّةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمُ وَالتَّقَدُّ
 لِأُمُورِهِمُ وَالْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ وَالْإِغَاثَةَ لِمَلْهُوفِهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا اكْتَشِرَتْ وَأُدْخِرَتْ
 فِي الْخَزَائِنِ لَا تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صَلَاحِ الرِّعِيَّةِ وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْأَذِيَّةِ
 عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا الْعَامَّةُ وَتَرْتَبَتْ بِهَا الْوِلَايَةُ وَطَابَ بِهَا الزَّمَانُ وَاعْتَقِدَ
 فِيهَا الْعِزُّ وَالْمَنْفَعَةُ فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ
 وَوَفْرٍ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حُقُوقُهُمْ وَأَوْفٍ مِنْ ذَلِكَ حِصَّةَهُمْ وَتَعَهَّدَ مَا
 يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ وَاسْتَوْجِبْتَ الْمَزِيدَ
 مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خَرَاجِكَ وَجَمْعِ أَمْوَالِ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرُ
 وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِبَطَاعَتِكَ وَأَطِيبَ أَنْفُسًا بِكُلِّ مَا
 أَرَدْتَ وَأَجْهَدَ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَّثَتْ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ وَلْيَعْظُمُ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ
 الْمَالِ مَا أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَائْتِبُهُمْ عَلَيْهِ وَإِيَّاكَ أَنْ

تُتَسَبَّحُ الدُّنْيَا وَغُرُورُهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ فَتَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ فَإِنَّ التَّهَافُوتَ يُورِثُ التَّفَرِّيطَ
وَالْتَّفَرِّيطَ يُورِثُ الْبَوَارَ وَلَيْسَ كُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَزْجُ الثَّوَابِ فِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ
سُبْحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ وَأَعْتَصِمَ بِالشُّكْرِ وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ بِزِدِكَ اللَّهُ خَيْرًا
وَإِحْسَانًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ وَإِحْسَانِ الْحُجَّسِينَ وَلَا
تُحَقِّرَنَّ ذَنْبًا وَلَا تُمَالِئَنَّ حَاسِدًا وَلَا تَرْجَمَنَّ فَاجِرًا وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا وَلَا تُدَاهِنَنَّ عَدُوًّا
وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَامًا وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا وَلَا تُؤَالِئَنَّ فَاسِقًا وَلَا تُتَبِعَنَّ غَاوِيًا وَلَا تُحَمِّدَنَّ
مُرَائِيًا وَلَا تُحَقِّرَنَّ إِنْسَانًا وَلَا تَرُدَنَّ سَائِلًا فَقِيرًا وَلَا تُحْسِنَنَّ بَاطِلًا وَلَا تُلَاحِظَنَّ مُضْهِكًا
وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا وَلَا تَزْهَوَنَّ فَخْرًا وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا وَلَا تُبَايِنَنَّ رَجَاءً وَلَا تُنْشِئَنَّ مَرَحًا
وَلَا تُفَرِّطَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَلَا تَرْفَعَنَّ لِلنَّمَامِ عَيْنًا وَلَا تُغِيضَنَّ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ
أَوْ مُحَابَاةً وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَأَكْثَرُ مُشَاوَرَةِ الْفُقَهَاءِ وَأَسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ
بِالْحِلْمِ وَخُذْ عَنِ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي
مَشُورَتِكَ أَهْلَ الرِّقَّةِ وَالْبُخْلِ وَلَا تَسْمَعْ لَهُمْ قَوْلًا فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ
وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فَنَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِيهِ أَمْرٌ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشَّيْخِ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا
كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ
أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِأَيْكَفٍ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجُورِ
عَلَيْهِمْ وَابْتِدِئْ مَنْ صَافَاكَ مِنْ أَوْلِيَاكَ بِالْإِفْصَالِ عَلَيْهِمْ وَحَسَنِ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ وَاجْتَنِبِ
الشَّيْخَ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى الْإِنْسَانُ بِهِ رَبَّهُ وَإِنَّ الْعَامِيَّ بِمَنْزِلَةِ خَزْيٍ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ وَاجْعَلْ
لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ فَيْتِكَ حَقًّا وَنَصِيبًا وَابْقِنَ أَنَّ الْجُودَ أَفْضَلُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَأَعِدْهُ لِنَفْسِكَ
خُلَّةً وَأَرْضَ يَدٍ عَمَلًا وَمَذْهَبًا وَتَفَقَّدِ الْجُنْدَ فِي دَوَائِبِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ وَأَدِرْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ
وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ يُذْهِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فَاغْتَنَمَ فَيَقْوَى لَكَ أَمْرُهُمْ وَتَزِيدَ
قُلُوبُهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا وَحَسْبُ ذِي السُّلْطَانِ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ
يَكُونَ عَلَى جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ذَا رَحْمَةٍ فِي عَدْلِهِ وَحَيْطَتِهِ وَإِنْصَافِهِ وَعِنَايَتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ
وَتَوْسِيعَتِهِ فَزَايِلَ مَكْرُوهَةِ أَحَدِ الْبَايِنِينَ بِاسْتِشْعَارِ فَضِيلَةِ الْبَابِ الْآخِرِ وَلُزُومِ الْعَمَلِ بِهِ
نَلْقَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَكَانِ

الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي تَعْدُلُ عَلَيْهِ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي
الْأَرْضِ وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلَحُ أَحْوَالُ الرِّعِيَّةِ وَتَأْمَنُ السُّبُلُ
وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومُ وَتَأْخُذُ النَّاسُ حُقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ الدَّعِيشَةُ وَيُؤَدَّى حَقُّ الطَّاعَةِ
وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ وَيُقِيمُ الدِّينَ وَيَجْزِي الشُّنَّ وَالشَّرَائِعَ فِي تَجَارِيهَا وَاشْتَدَّ
فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَرَّعَ عَنِ النُّطْفِ وَأَمْسَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَأَقِلَّ الْعَجَلَةَ وَأَبْعَدَ
عَنِ الصَّخْرِ وَالْقَلْقِ وَأَقْنَعَ بِالْقِسْمِ وَأَنْتَفَعَ بِتَجَرِّبِكَ وَأَنْتَبَهَ فِي حِمَّتِكَ وَأَسَدَّدَ فِي مَنطِقِكَ
وَأَنْصَفَ الْخُصْمَ وَقَفَّ عِنْدَ الشُّبْهِهَةِ وَأَبْلَغَ فِي الْحِجَّةِ وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ
مُعَابَاةٌ وَلَا تَجَامَلَةٌ وَلَا لَوْمَةٌ لِأَيِّمْ وَثَبَّتَ وَتَأَنَّنَ وَرَأَيْتُ وَأَنْظَرْتُ وَتَأَمَّرْتُ وَتَدَبَّرْتُ وَاعْتَبَرْتُ
وَتَوَاضَعَ لِرَبِّكَ وَأَزْفَقَ بِجَمِيعِ الرِّعِيَّةِ وَسَاطِطِ الْحَقِّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَفْكَ
دَمٍ فَإِنَّ الدِّمَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ أَنْتَهَا كَمَا لَمَّا يَغْيِرُ حَقَّهَا وَأَنْظُرْ هَذَا
الْخَرَجَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ الرِّعِيَّةُ وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرَفْعَةً وَلِأَهْلِهِ
تَوْسِيعَةً وَمِنْعَةً وَلِعَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ كِتَابًا وَغِيظًا وَلِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ مُعَادِيهِمْ ذُلًّا وَصَغَارًا
فَوَزَعُهُ بَيْنَ أَمْنِيَّائِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعُمُومِ وَلَا تَدْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ
لشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيِّ لِعَنَاهُ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَتِكَ وَلَا
تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ الْإِحْتِمَالِ وَلَا تُكَلِّفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ وَأَحْمِلِ النَّاسَ كُلَّهُمْ
عَلَى أَمْرِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِنَفْسِهِمْ وَالزَّمُ لِرِضَاءِ الْعَامَّةِ وَاعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ بِوِلَايَتِكَ
خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتَكَ لِأَنَّكَ رَاعِيَهُمْ وَقِيَمَهُمْ فَخُذْ
مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَتَقِذَّهُ فِي قِيَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِمْ وَاسْتَعْمِلْ
عَلَيْهِمْ أُولِي الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّجَرِبَةِ وَالْخُبْرَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَفَافِ وَوَسِّعْ
عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ الْحَقُوقِ الْأَلْزِمَةِ لَكَ فِيمَا نَقَلْتُ وَأُسْنِدَ إِلَيْكَ فَلَا
يُشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفُكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى أَثَرْتَهُ وَقُمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ
اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحُسْنَ الْأَخْذِ وَثِقَةٍ فِي عَمَلِكَ وَاجْتَرَوْتَ بِهِ
الْحِجَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعْنَتَ عَلَى الصَّلَاحِ فَدَرَّتِ الْخَيْرَاتُ بِبِلَدِكَ وَفَشَتْ الْعِمَارَةُ
بِنَاحِيَّتِكَ وَظَهَرَ الْخِصْبُ فِي كُورِكَ وَكَثُرَ خَرَابُجُكَ وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى
أَرْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكَانَتْ مَحْمُودَ السِّيَاسَةِ

مَرْضَى الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ وَكُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعُدَّةٍ
فَنَافِسٍ فِي ذَلِكَ وَلَا تُقَدِّمَ عَلَيْهِ شَيْئًا مُخَمَّدَ عَاقِبَةٍ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاجْعَلْ فِي
كُلِّ كُوزَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عُمَالِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ
حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ
فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ
حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالصَّنْعِ فَأَمْضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ خُذْ
فِيهِ عُدَّتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهِ وَقَدَرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَأَغْوَاهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ
فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنُقِضَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ
وَبَاشِرُهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالقُوَّةِ وَأَكْثَرَ مِنْ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ
وَأَفْرَغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِيَوْمٍ آخِرٍ وَأَكْثِرْ مَبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ لِلْغَدِ أُمُورًا وَحَوَادِثَ
تُلْهِيكُ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي آخَرْتَ وَأَعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا
آخَرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَثْقُلُ ذَلِكَ حَتَّى تَمْرُضَ مِنْهُ وَإِذَا أَمْضَيْتَ
لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ وَجَمَعْتَ أُمْرَ سُلْطَانِكَ وَانْظُرْ أَعْرَازَ النَّاسِ
وَذَوِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوِيلَتِهِمْ وَشَهِدْتَ مَوَدَّتَهُمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتَهُمْ
بِالنُّصْحِ وَالْحِفَافَةِ عَلَى أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَخْسِنِ إِلَيْهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبُيُوتَاتِ مِمَّنْ
قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ وَاحْتَمِلَ مَوَدَّتَهُمْ وَأَصْلَحَ حَالُهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِحِلَّتِهِمْ مَسًّا
وَأَفْرِدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ
وَالْمُحْتَقِرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ يَطْلُبُ حَقَّهُ فَسَلْ عَنْهُ أَحَقَّ مَسْئَلَةٍ وَوَكِّلْ بِأَمثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ
مِنْ رَعِيَّتِكَ وَامْرُؤُهُمْ يَرْفَعُ حَوَائِجَهُمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ لَتَنْظُرَ فِيمَا يَصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ
وَتَعَاهَدْ ذَوِي الْبِائِسَاءِ وَابْتِمَاهُكُمْ وَأَرَامِلَهُمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً
بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصِّلَةِ لَهُمْ لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ
عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَاتٍ وَزِيَادَةٍ وَاجْرِ لِلْأَصْرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمْ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ
مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجَرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَانْصُبْ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُورًا
تَأْوِيهِمْ وَقُوَامًا يَرْفِقُونَ بِهِمْ وَأَطِبَاءَ يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعِفُهُمْ بِشَمِّهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّرْ
ذَلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَأَعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حَقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيهِمْ

لَمْ يُرْفِعِهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَطِيبْ أَنْفُسَهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى وَلَاتِهِمْ طَمَعًا فِي نَيْلِ
الزِّيَادَةِ وَفَضْلِ الرَّفِيقِ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا تَبَرَّمَ الْمُتَصَفِّحُ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكثَرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ
وَيُشْغِلُ فِكْرَهُ وَذِمَّتُهُ فِيهَا مَا يَنَالُهُ بِهِ مِنْ مَوْوَنَةٍ وَمَشَقَّةٍ وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ
وَيَعْرِفُ مُحَاسِنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ كَالَّذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يَقْرَبُهُ إِلَى
اللَّهِ تَعَالَى وَبَلَّتَمِسُ رَحْمَتَهُ وَأَكْثَرَ الْأَذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَبْرَزَ لَهُمْ وَجْهَكَ وَسَكَّنَ
لَهُمْ حَوَاسِكَ وَأَخْفَضَ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهَرَ لَهُمْ بِشْرَكَ وَلِنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ
وَأَعْطَفَ عَلَيْهِمْ بِحُودِكَ وَفَضْلِكَ وَإِذَا أُعْطِيتَ فَأَعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسٍ وَالنَّاسِ
لِلصَّابِغَةِ وَالْآخِرِ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا أَمْتَانِ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرَبِّحَةٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَنْ مَضَى قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ
وَالرِّئَاسَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ ثُمَّ اعْتَصِمِ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى وَالْوُقُوفِ عِنْدَ تَحَبُّبِهِ وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَنِهِ وَبِإِقْلَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَاجْتَنِبِ
مَا فَارَقَ ذَلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا إِلَى سُخْطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عُمَّالَكَ مِنْ
الْأَمْوَالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا تَجْمَعِ حَرَامًا وَلَا تُنْفِقِ إِسْرَافًا وَأَكْثِرْ مَجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ
وَمُشَاوَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ وَلِيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعُ السُّنَنِ وَإِقَامَتُهَا وَإِبْشَارُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
وَمَعَالِيهَا وَلِيَكُنْ أَكْرَمُ دُخْلَانِكَ وَخَاصَتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عِيَا فِيكَ لَمْ يَمْنَعْهُ
هَيْبَتُكَ عَنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ فِي مِرِّكَ وَإِعْلَانِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ النِّقْصِ فَإِنَّ أَوْلِيكَ أَنْصَحُ
أَوْلِيَائِكَ وَمُظَاهِرُونَ لَكَ وَأَنْظُرْ عُمَّالَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكِتَابِكَ فَوْقَ كُلِّ
رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفَتَا يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكِتَابِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ
عُمَّالِكَ وَأُمُورِ الدُّوَلَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورَدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصْرَكَ وَفَهْمَكَ
وَعَقْلَكَ وَكَرَّرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدَبُّرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحُزْمِ فَأَمْضِهِ وَأَسْتَخِرْ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ مُخَالَفًا لِذَلِكَ فَأَصْرِفْهُ إِلَى الْمَسْئَلَةِ عَنْهُ وَالثَّبُّتِ فِيهِ وَلَا تَمَنَّ
عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفِ تَوْبِهِ إِلَيْهِمْ وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْوَفَاءَ وَالِاسْتِقَامَةَ
وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ وَتَقْنَنَنَّ كِتَابِي
إِلَيْكَ وَأَنْعِمَ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ عَلَى جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَسْتَخِرْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ وَلِيَكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ رَعِيَّتِكَ مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ رَضَى وَلَدَيْنِهِ نِظَامًا وَلِأَهْلِهِ عِزًّا وَتَمَكَّنَا وَلِلْمِلَّةِ وَالذِّمَّةِ عَدْلًا وَصَلَاحًا وَأَنَا
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحَسِّنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكَلَاءَتَكَ وَالسَّلَامَ . وَحَدَّثَ الْإِخْبَارِيُّونَ
أَنْ هَذَا الْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ أُعْجِبَ بِهِ النَّاسُ وَاتَّصَلَ بِالْمَأْمُونِ فَلَمَّا فُرِيَ
عَلَيْهِ قَالَ مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيِّبِ بَعْنِي طَاهِرًا شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالتَّذْيِيرِ وَالرَّأْيِ
وَالسِّيَاسَةِ وَصَلَاحِ الْمُلْكِ وَالرَّعِيَّةِ وَحَنِظِ السُّلْطَانِ وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ وَتَقْوِيمِ الْخِلَافَةِ إِلَّا
وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ ثُمَّ أَمَرَ الْمَأْمُونُ فُكِّتَبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ الْعُمَّالِ فِي النَّوَاحِي
لِيَقْتَدُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ هَذَا أَحْسَنُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والخمسون

في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

إِعْلَمَ أَنَّ فِي الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى مَعَرِّ الْأَعْصَارِ أَنَّهُ لَا بُدَّ
فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ ظُهُورِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُؤَيِّدُ الدِّينَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَتَّبِعُهُ
الْمُسْلِمُونَ وَيَسْتَوِلِي عَلَى الْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيُسَمَّى بِالْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ
الدَّجَالِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الثَّابِتَةِ فِي الصَّحِيحِ عَلَى أَثَرِهِ وَأَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ مِنْ
بَعْدِهِ فَيَقْتُلُ الدَّجَالَ أَوْ يَنْزِلُ مَعَهُ فَيَسْأَلُهُ عَلَى قَتْلِهِ وَيَأْتِي بِالْمَهْدِيِّ فِي صَلَاتِهِ وَيَحْتَجُّونَ
فِي الشَّانِ بِأَحَادِيثَ خَرَجَها الْأَئِمَّةُ وَتَكَلَّمَ فِيهَا الْمُنْكَرُونَ لِذَلِكَ وَرُبَّمَا عَارَضُوا
بِبَعْضِ الْأَخْبَارِ وَلِلْمُتَّصِفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي أَمْرِ هَذَا الْفَاطِمِيِّ طَرِيقَةً أُخْرَى وَنَوْعٌ مِنَ
الْإِسْتِدْلَالِ وَرُبَّمَا يَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى الْكُشْفِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ طَرَائِقِهِمْ . وَنَحْنُ
الآن نَذْكُرُ هُنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الشَّانِ وَمَا لِلْمُنْكَرِينَ فِيهَا مِنَ الْمَطَاعِنِ
وَمَا لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ مِنَ الْمُسْتَنْدِثِ نَتَّبِعُهُ بِذِكْرِ كَلَامِ الْمُتَّصِفَةِ وَرَأْيِهِمْ لِيَتَّبِيتَ
لَكَ الصَّحِيحُ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأَئِمَّةِ خَرَجُوا أَحَادِيثَ
الْمَهْدِيِّ مِنْهُمْ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ
وَأَسْنَدُهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِثْلَ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَطَلْحَةَ وَابْنَ
مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأُمِّ حَبِيبَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَثَوْبَانَ وَقُرَّةَ
ابْنِ إِيَّاسٍ وَعَلِيٍّ الْهَلَالِيَّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ بِأَسَانِيدٍ رُبَّمَا يُعَرِّضُ لَهَا

الْمُسْكِرُونَ كَمَا نَذَرَهُ إِلَّا أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَنَّ الْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى
التَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْنًا فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ يَغْفَلُ أَوْ يَسُوءُ حِفْظَ أَوْ ضَعْفَ أَوْ
سُوءَ رَأْيٍ تَطَرَّقَ ذَلِكَ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ مِنْهَا وَلَا تَقُولَنَّ مِثْلُ ذَلِكَ رُبَّمَا يَتَطَرَّقُ
إِلَى رِجَالِ الصَّحِيحِينَ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ قَدْ اتَّصَلَ فِي الْأُئِمَّةِ عَلَى تَلْقِيهِمَا بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ
بِمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِجْمَاعِ أَكْثَرُ حِمَايَةٍ وَأَحْسَنُ دَفْعًا وَلَيْسَ غَيْرُ الصَّحِيحِينَ بِمِثَابَتِهِمَا
فِي ذَلِكَ فَقَدْ تَجَدُّ مَجَالًا لِلْكَلَامِ فِي أَسَانِيدِهِمَا بِمَا نُقِلَ عَنْ أُئِمَّةِ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ.
وَأَقْدَ تَوَعَّلَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ عَلَى مَا نُقِلَ السَّهْلِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ لِلْحَادِيثِ
الْوَارِدَةِ فِي الْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَغْرَبِهَا إِسْنَادًا مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْكَافُ فِي فَوَائِدِ
الْأَخْبَارِ مُسْتَنَدًا إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَذَبَ بِالْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَبَ بِالِدَّحَالِ فَقَدْ كَذَبَ
وَقَالَ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ وَحَسْبُكَ هَذَا غُلُوبًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْإِسْكَافَ عِنْدَهُمْ مَتَّهِمٌ وَضَاعٌ
وَأَمَّا الثَّرْمُذِيُّ فَخَرَجَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدَيْهِمَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمِ بْنِ أَبِي
الْجُودِ أَحَدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زُرَّارِ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ
رَجُلًا مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِي أَسْمُهُ أَسْمِي وَأَسْمُ أَبِيهِ أَسْمُ أَبِي هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ
وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَاحِلٌ
وَلَفْظُ الثَّرْمُذِيِّ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِي أَسْمُهُ أَسْمِي
وَفِي لَفْظٍ آخَرَ حَتَّى يَلِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَكِلَاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَيْضًا
مِنْ طَرِيقٍ مَوْفُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ الْحَاكِمُ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ
أُئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ وَطَرُقُ عَاصِمٍ عَنْ زُرَّارٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ كَلِمًا صَحِيحَةً عَلَى
مَا أَصْلَتْهُ مِنَ الْإِخْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنَ أُئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ (إِنْتَهَى) إِلَّا
أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَارِئًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثِقَةً وَالْأَعْمَشُ
أَحْفَظُ مِنْهُ وَكَانَ شُعْبَةُ يُخْتَارُ الْأَعْمَشُ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيتِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْعِجْلِيُّ كَانَ يَخْتَلِفُ
عَلَيْهِ فِي زُرَّارٍ وَأَبِي وَائِلٍ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ رِوَايَتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ

كَانَ ثِقَةً إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَا فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ اضْطَرَّابُ
 وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِنْ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةٌ فَقَالَ
 لَيْسَ مَحَلُّهُ هَذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ عُليَّةَ فَقَالَ كُلُّ مَنْ اسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّئٌ الْحِفْظُ
 وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصِّدْقِ صَالِحُ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ الْحَافِظُ
 وَاخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ النِّسَائِيِّ وَقَالَ ابْنُ حَرَّاشٍ فِي حَدِيثِهِ نَكْرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ
 الْعَقِيلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا سُوءُ الْحِفْظِ وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى
 الْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ رَجُلًا اسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْحِفْظِ وَقَالَ أَيْضًا سَمِعْتُ
 شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي النَّجُودِ وَفِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ثَبَتَ فِي
 الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَإِنْ أَحْتَجُّ أَحَدًا بِأَنَّ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَذَقُوا لَهُ أَخْرَجَا لَهُ
 مَقْرُونًا بغيرِهِ لَا أَصْلًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ
 رِوَايَةِ قُطْنِ بْنِ خَلِيفَةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مُرَّةَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي بِمَلَأَهَا
 عَدْلًا كَمَا مَلِئْتُ جَوْزًا وَقُطْنُ بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثِقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى ابْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ
 مُعِينٍ وَالنِّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعَجَلِيَّ قَالَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشْيَعٌ قَلِيلٌ وَقَالَ ابْنُ
 مُعِينٍ مَرَّةً ثِقَةً شَيْعِيٌّ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قُطْنٍ وَهُوَ مَطْرُوحٌ
 لَا نَكْتُبُ عَنْهُ وَقَالَ مَرَّةً كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدْعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ لَا يُحْتَجُّ
 بِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عِيَّاشٍ مَا تَرَكْتُ الرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا لِسُوءِ مَذْهَبِهِ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ
 زَائِعٌ غَيْرُ ثِقَةٍ أَنْتَهَى وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ
 ابْنَ الْمُغِيرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ النَّسَبِيِّ
 قَالَ قَالَ عَلِيٌّ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ إِنْ أَبْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا مَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِأَمْنٍ نَبِيِّكُمْ يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشَبِّهُهُ فِي
 الْخُلُقِ بِمِثْلِ الْأَرْضِ عَدْلًا وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ
 عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ هِلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ عَلَى مُقَدَّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنُصُورٌ يُوَطِّي
 أَوْ يُمْكِنُ لَيْلٍ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنْتَ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَّ

عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِيَّابَتُهُ سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي
 هَارُونَ هُوَ مِنْ وَلَدِ الشَّيْخَةِ وَقَالَ السُّلَيْمَانِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ
 لَا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ خَطَأً وَقَالَ الذَّهَبِيُّ صَدَقَ لَهُ أَوْهَامٌ وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبِيُّ وَإِنْ
 خَرَجَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ آخِرَ عُمُرِهِ وَرَوَاتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مُنْقَطِعَةٌ
 وَكَذَلِكَ رَوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْمُغِيرَةِ . وَأَمَّا السَّنَدُ الثَّانِي فَأَبُو الْحَسَنِ فِيهِ
 وَهْلَالُ بْنُ عُمَرَ تَجْهُولَانِ وَلَمْ يُعْرَفْ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رَوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْهُ
 أَنْتَهَى وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ طَرِيقِ عَلِيٍّ
 ابْنِ تَقِيلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ يَقُولُ الْمَهْدِيُّ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ وَلَمْ يَتَّكِمْ عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا
 غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَّفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ وَقَالَ لَا يُتَابَعُ عَلِيُّ بْنُ تَقِيلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ
 وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِنْ رَوَايَةِ صَالِحِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ صَاحِبٍ لَهُ عَنْ
 أُمِّ سَلَمَةَ قَالَ يَكُونُ اخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ فَيُخْرِجُ رَجُلٌ مِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِبًا
 إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنَ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُخْرِجُونَهُ وَهُوَ كَارِهٌ فَيَأْبِيعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ
 فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعَثٌ مِنَ الشَّامِ فَيُخَفِّفُ بِهِمْ بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسُ
 ذَلِكَ أَنَّهُ أَتَاهُ أَهْلُ الْبَدَايَا أَهْلُ الشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيَأْبِيعُونَهُ ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ
 أَخُوَالَهُ كَلْبٌ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعَثًا فَيُظْهِرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعَثُ كَلْبٍ وَالْخَلِيفَةُ لِمَنْ لَمْ
 يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كَلْبٍ فَيَقْسِمُ الْمَالَ وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَيُلْقِي الْأَسْلَامَ بِجِرَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْبِثُ سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ
 أَبُو دَاوُدَ مِنْ رَوَايَةِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ
 الْمُبْتَنَى فِي الْأَسْنَادِ الْأَوَّلِ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحَيْنِ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَغْمَزَ وَقَدْ
 يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رَوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ وَقَتَادَةُ مُدْلِسٌ وَقَدْ عَنَّنَهُ وَالْمُدْلِسُ لَا يُقْبَلُ
 مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صُرِّحَ فِيهِ بِالسَّمَاعِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَضَرُّعٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ
 نَعَمْ ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَبْوَابِهِ وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا وَتَابِعَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
 الْخَدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَتَنِي

الْأَنْفَ بِمَلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلِئْتَ ظُلْمًا وَجَوْرًا بِمَلَأَ سَبْعَ مِائِينَ هَذَا لَفْظُ
أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ الْمَهْدِيِّ مِائًا أَهْلَ الْبَيْتِ أَشْمُ الْأَنْفِ أَفْنَى أَجَلِي
بِمَلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلِئْتَ جَوْرًا وَظُلْمًا بِعِيشٍ هَكَذَا وَيَسْطُ بِسَارِهِ
وَإِصْبَعَيْنِ مِنْ بَعِينِهِ السَّبَابَةِ وَالْإِبْهَامِ وَعُقِدَ ثَلَاثَ قَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ مَحِيحٌ
عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجْ جَاهُ ١٠٨٠. وَعَمْرَانُ الْقُطَّانُ مُخْتَلَفٌ فِي الْإِحْتِجَاجِ بِهِ إِنَّمَا أَخْرَجَ
لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَادًا لَا أَصْلًا وَكَانَ يَحْيَى الْقُطَّانُ لَا يَحْدِثُ عَنْهُ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ
لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ مَرْءٌ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحٌ
الْحَدِيثُ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرُورِيًّا وَكَانَ يَرَى السِّيفَ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلَةِ وَقَالَ
النِّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْأَجْرِيُّ سَأَلْتُ أَبَا دَاوُدَ عَنْهُ فَقَالَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ
وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْرًا وَسَمِعْتُهُ مَرْءًا أُخْرَى ذَكَرَهُ فَقَالَ ضَعِيفٌ أَفْتَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ يَفْتَوِي شَدِيدَةً فِيهَا سَفْكُ الدِّمَاءِ وَخَرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَأَبْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ الْعَمِيِّ عَنْ أَبِي صَدِيقٍ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
الْخُدْرِيِّ قَالَ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَّثَ قَسَالَنَا نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إِنْ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيِّ يُخْرِجُ وَيَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا زَيْدُ الشَّائِكُ قَالَ قُلْنَا وَمَا ذَاكَ
قَالَ سَمِعْتُ قَالَ فَيَحْيَى إِلَيْهِ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيٍّ أَعْطِنِي قَالَ فَيَحْثُلُوهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ
يَعْمَلَهُ لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَفْظُ أَبِي مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيِّ إِنْ قَصَرَ
فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَتِسْعٌ فَتَنَعَمُ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةً لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا فَطُتْ ثَوْبِي الْأَرْضُ أَكَلَهَا وَلَا
يُدْخِرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَالْمَالُ يَوْمئِذٍ كُدُوسٌ فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيٍّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ
إِنْ تَهَى وَزَيْدُ الْعَمِيِّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ الدَّارِقُطِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مُعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ
وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ وَفَضْلُ بْنُ عِيسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ ضَعِيفٌ
يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يَحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لَا شَيْءَ وَقَالَ مَرْءٌ
يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ مُتَمَسِّكٌ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ بِقَوِيٍّ وَاهِي
الْحَدِيثُ ضَعِيفًا وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَاكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ
وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَامَّةٌ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يَرْوِي عَنْهُمْ ضَعْفَاهُ عَلَى أَنَّ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ

شُعْبَةَ لَمْ يَرَوْهُ عَنْ أَضْعَافٍ مِنْهُ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ الثُّرُمُذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْشُو الْمَالَ حَشْوًا لَا يَعُدُّهُ عَدًّا وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْشُو الْمَالَ حَشْوًا وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ الْمَالَ وَلَا يَعُدُّهُ أَنْتَهَى وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَقَعْ فِيهَا ذِكْرُ الْمَهْدِيِّ وَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ مِنْهَا وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَوْفِ الْأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاءَةُ حَتَّى تُمَلَأَ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا وَعُدْوَانًا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ بَنِي رَجُلٍ بِمَلَاهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلَّتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَقَالَ فِيهِ الْحَاكِمُ هَذَا صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْ جَاهُ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ يَسْقِيهِ اللَّهُ الْغَيْثَ وَيَخْرِجُ الْأَرْضَ نَبَاتًا وَيُعْطِي الْمَالَ صَحَابًا وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ يَعِيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا يَعْنِي حُجْبًا وَقَالَ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْ جَاهُ مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عُبَيْدٍ لَمْ يَخْرِجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّنَةِ لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثِّقَاتِ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ أَحَدًا تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أُسْدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ مَطَرِ الْوَرَّاقِ وَأَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تُمَلَأُ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عَتَرَتِي فَيَمْلِكُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا فَيَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مِلَّتْ جَوْرًا وَظُلْمًا وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَنْ شَيْخِهِ مَطَرِ الْوَرَّاقِ وَأَمَّا شَيْخُهُ الْآخَرُ وَهُوَ أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ فَلَمْ يَخْرِجْ لَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا مَتَّحِينَ بِالْكُتُبِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ الْأُئِمَّةِ فِي تَضْعِيفِهِ وَأَمَّا الرَّاوي لَهُ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ فَهُوَ أُسْدُ بْنُ مُوسَى بَلَقَبُ أُسْدِ السَّنَةِ وَإِنْ قَالَ الْبُخَارِيُّ مَشْهُورُ الْحَدِيثِ وَأَشْهَدُ بِهِ فِي صَحِيحِهِ وَأَحْتَجُّ بِهِ أَبُودَاوُدَ وَالنَّسَائِيَّ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى ثِقَةً لَوْ لَمْ يُصَنَّفْ كَانَ خَيْرًا لَهُ وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْوَاصِلِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ

النَّاجِي عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ أَحَدِ بَنِي بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُخْرِجُ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُولُ بِسْمِ اللَّهِ يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ لَهُ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَيُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا وَتُسَلِّطُ الْأَرْضُ مِنْهُ نَسْطًا وَعَدْلًا كَمَا
مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَعْمَلُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ مِائِينَ وَيُنْزِلُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَالَ
الطَّبْرَانِيُّ فِيهِ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَنْهَى وَبَيْنَ أَبِي
سَعِيدٍ أَحَدًا إِلَّا أَبَا الْوَاصِلِ فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنْتَهَى وَهَذَا
الْحَسَنُ بْنُ يَزِيدَ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يُعْرِفْهُ بِأَكْثَرِ مِمَّا فِي هَذَا الْإِسْنَادِ مِنْ
رَوَاتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَرَوَايَةُ أَبِي الصَّدِّيقِ عَنْهُ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ إِنَّهُ يُجْهَلُ
لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثِّقَاتِ وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ فَلَمْ
يُخْرِجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّنَةِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثِّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالَ فِيهِ
يُرْوَى عَنْ أَنَسٍ رَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَابُ بْنُ بُشَيْرٍ وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَاقِمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ فَنِيَّةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمَّا
رَأَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ مَا نَزَالَ نَرَى
فِي وَجْهِكَ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَقَالَ إِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ أَخْبَارَ اللَّهِ لَنَا الْآخِرَةُ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنْ أَهْلَ
بَيْتِي سَيَلَقُونَ بَعْدِي بَلَاءٌ وَتَشْرِيدًا وَنَظْرِيدًا حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ
رَايَاتٌ سُودٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَبَرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ فَيَقَاتِلُونَ وَيُبْصِرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا
فَلَا يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا نَسْطًا كَمَا مَلَأُوهَا جَوْرًا
فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلَاجِ أَنْتَهَى . وَهَذَا الْحَدِيثُ يُعْرَفُ
عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ بِحَدِيثِ الرَّايَاتِ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ رَوَاهُ فِيهِ شُعْبَةُ كَانَ رَفَاعًا
بِعَنِي يَرْفَعُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاضِي مِنْ كِبَارِ أَيْمَةِ
الشَّيْخَةِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَمْ يَكُنْ بِالْحَافِظِ وَقَالَ مَرَّةً حَدِيثُهُ لَيْسَ بِذَلِكَ وَقَالَ يَحْيَى
ابْنُ مَعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْعَجَلِيُّ جَائِزُ الْحَدِيثِ وَكَانَ بِآخِرِهِ يُلْقِنُ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ
بِكُتُبِ حَدِيثِهِ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِالْقَوِيَّ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ سَمِعْتُهُمْ
يُضَعِّفُونَ حَدِيثَهُ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا تَرَكَ حَدِيثَهُ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ وَقَالَ

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ هُوَ مِنْ شِيعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَمَعَ ضَعْفِهِ يَكْتَسِبُ حَدِيثَهُ وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ
 لَكِنْ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى ضَعْفِهِ وَقَدْ صَرَّحَ الْأَيْمَةُ بِتَضْعِيفِ
 هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ حَدِيثُ الرَّايَاتِ وَقَالَ
 وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ فِيهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ أَبُو قُدَامَةَ سَمِعْتُ
 أَبَا أُسَامَةَ يَقُولُ فِي حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرَّايَاتِ لَوْ حَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَمِينًا
 أُسَامَةُ مَا صَدَّقْتُهُ أَهَذَا مَذْهَبُ إِبْرَاهِيمَ أَهَذَا مَذْهَبُ عَلْقَمَةَ أَهَذَا مَذْهَبُ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ أَوْرَدَ
 الْعَجَلِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي الضَّعْفَاءِ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَخَرَجَ أَبُو مَاجَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ الْعَجَلِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ يُصَلِّحُ اللَّهُ بِهِ فِي لَيْلَةٍ وَيَاسِينَ الْعَجَلِيُّ
 وَإِنْ قَالَ فِيهِ أَبُو مُعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مِنْ أَصْطِلَاحِهِ
 قُوَّةٌ فِي التَّضْعِيفِ جِدًّا وَأَوْرَدَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي الْكَامِلِ وَالذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ هَذَا
 الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِ الْأَسْتِنْكَارِ لَهُ وَقَالَ هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ
 عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِنَّا الْمَهْدِيُّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا
 يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ بَلْ مِنَّا بِنَا يَعْتِمِدُ اللَّهُ كَمَا بِنَا فَتَحَ وَبِنَا يَسْتَنْقِذُونَ مِنَ الشِّرْكِ وَبِنَا
 يُؤَلِّفُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ عِدَاوَةٍ بَيْنَهُ كَمَا بِنَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عِدَاوَةِ الشِّرْكِ قَالَ
 عَلِيُّ الْمُؤْمِنُونَ أَمْ كَافِرُونَ قَالَ مَفْتُونٌ وَكَافِرٌ أَنْتَ هُوَ وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُيْعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ
 مَعْرُوفٌ الْحَالِ وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرٍ الْخَضْرَمِيُّ وَهُوَ أَوْضَعُ مِنْهُ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
 رَوَى عَنْ جَابِرٍ مَنَا كَبِيرٌ وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ لَيْسَ بِثِقَةٍ وَقَالَ كَانَ أَبُو
 لُيْعَةَ شَيْخًا أَجْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ عَلِيٌّ فِي السَّحَابِ وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُبْصِرُ
 سَحَابَةً فَيَقُولُ هَذَا عَلِيٌّ قَدْ مَرَّ فِي السَّحَابِ وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يَحْصُلُ النَّاسُ فِيهَا
 كَمَا يَحْصُلُ الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ فَلَا تَسُبُّوا أَهْلَ الشَّامِ وَلَكِنْ سَبُّوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنَّ فِيهِمْ
 الْأَبْدَالَ يُوْشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَهُمْ حَتَّى لَوْ
 قَاتَلْتَهُمُ الثَّعَالِبُ غَلَبَتْهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي ثَلَاثِ رَايَاتٍ الْمُكْثَرُ
 يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَالْمَقِلُ يَقُولُ بِهِمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا وَأَمَّا رُتَبُهُمْ أَمْتٌ أَمْتٌ يَلْقُونَ

سَبْعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يَطْلُبُ الْمَلَائِكَةَ فَيَقْتُلُهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا وَيَرُدُّ اللَّهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ الْفَتَاهُمْ وَيَنْصَحُهُمْ وَقَاصِيَتُهُمْ وَرَأْيُهُمْ ١٠٠. وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ لَهَيْعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ الْحَالِ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحٌ إِلَّا سَنَادَهُ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ فِي رِوَايَتِهِ ثُمَّ يَظْهَرُ الْهَاشِمِيُّ فَيَرُدُّ اللَّهُ النَّاسَ إِلَى الْفَتَاهِ وَالْخِ وَالْأَنْسَ فِي طَرِيقِهِ ابْنُ لَهَيْعَةَ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ الْمَهْدِيِّ فَقَالَ لَهُ هِيَ هَاتِ ثُمَّ عَقَدَ يَدَيْهِ سَبْعًا فَقَالَ ذَلِكَ يُخْرِجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ اللَّهُ اللَّهُ قُتِلَ وَيَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ قَوْمًا قَزَعًا كَقَزَعِ السَّحَابِ يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَلَا يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ عِلْمُهُمْ عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ بَدْرٍ لَمْ يَسْبِقُهُمُ الْأَوَّلُونَ وَلَا يُدْرِكُهُمُ الْآخِرُونَ وَعَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ قَالَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ أَتَرِيدُهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ هَذَيْنِ الْأَخَشَبَيْنِ قُلْتُ لَا جَرَمَ وَاللَّهِ وَلَا أَدْعَاهَا حَتَّى أَمُوتَ وَمَاتَ بِهَا بَعْضُ مَكَّةَ قَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ انْتَهَى وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ فَقَطْ فَإِنَّ فِيهِ عَمَارًا الذَّهَبِيَّ وَبُونِسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُمَا الْبُخَارِيُّ وَفِيهِ عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَبْقَرِيُّ وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ أَحْمَدًا بَلْ اسْتَشْهَدَا مَعَ مَا يَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَشْيِيعِ عَمَارِ الذَّهَبِيِّ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمٍ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ عَنْ سَفْيَانَ أَنَّ بَشَرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عُرْقُوبِيَّةَ قُلْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَالَ فِي النَّشِيعِ وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ زِيَادٍ الْأَسَمَاءِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ إِسْحَاقَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ تَحْتَ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَادَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَا وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمَهْدِيُّ انْتَهَى وَعِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ وَإِنْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُتَابِعَةً وَقَدْ ضَعَفَهُ بَعْضُ وَثِّقَةٍ آخَرُونَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ هُوَ مُدْلِسٌ فَلَا يَقْبَلُ إِلَى أَنْ يُصَرِّحَ بِالسَّمَاعِ عَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ لَا تَذَرِي مَنْ هُوَ ثُمَّ قَالَ الصَّوَابُ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ زِيَادٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَإِنْ وَثَّقَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ

مُعِين لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الثَّوْرِيُّ قَالُوا لِأَنَّهُ رَأَاهُ يُفْتِي فِي مَسَائِلَ وَيَخْطِي فِيهَا وَقَالَ ابْنُ حَبَّانَ كَانَ مِمَّنْ لَحَسَ عَطَاؤُهُ فَلَا يُحْتَجُّ فِيهِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ سَعِيدُ ابْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بَدَّعِيَ أَنَّهُ سَمِعَ عَرَضَ كُتُبَ مَالِكٍ وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَهُوَ هَهُنَا يَبْغِدَادَ لَمْ يُحْتَجَّ فَكَيْفَ سَمِعَهَا وَجَعَلَهُ اللَّهُ فِي مِمَّنْ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ كَلَامٌ مِّنْ تَكَلَّمَ فِيهِ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْفُوفًا عَلَيْهِ قَالَ مُجَاهِدٌ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ لَوْ لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ مِثْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدٌ فَإِنَّهُ فِي سِتْرِ لَا أَذْكَرُهُ لِمَنْ يَكْرَهُ قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ أَرْبَعَةٌ مِنَّا السَّفَاحُ وَمِنَّا الْمُنْذِرُ وَمِنَّا الْهَدْيُ قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدٌ بَيْنَ لِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَّا السَّفَاحُ فَرُبَّمَا قَتَلَ أَنْصَارَهُ وَعَفَا عَنْ عَدُوِّهِ وَأَمَّا الْمُنْذِرُ أَرَاهُ قَالَ فَإِنَّهُ يُعْطَى الْمَالَ الْكَثِيرَ وَلَا يَتَعَاطَمُ فِي نَفْسِهِ وَيُمْسِكُ الْقَلِيلَ مِنْ حَقِّهِ وَأَمَّا الْمَنْصُورُ فَإِنَّهُ يُعْطَى النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ الشُّطْرَ مِمَّا كَانَ يُعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ وَالْمَنْصُورُ يَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأَمَّا الْهَدْيُ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مَلِئْتَ جُورًا وَتَأْمِنُ الْبَهَائِمُ السِّبَاعَ وَتُلْقِي الْأَرْضُ أَفْلَاحَ كَبِيدَهَا قَالَ قُلْتُ وَمَا أَفْلَاحُ كَبِيدَهَا قَالَ أَمْثَالُ الْأَسْطُوانَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَقَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ وَلَمْ يُخَرِّجْ جَاهُ وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ وَإِسْمَاعِيلُ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُوهُ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَلَا كَثْرُونَ عَلَى تَضَعِيفِهِ ١٠٠. وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْتُلُ عِنْدَ كَبْرِكُمْ ثَلَاثَةَ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الرِّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ قَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايَعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلَجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ ١٠٠. وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِينَ إِلَّا أَنَّ فِيهِ أَبَا قِلَابَةَ الْجَرَنِيَّ وَذَكَرَ اللَّهُ فِيهِ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ مُدْلَسٌ وَفِيهِ سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِالْمُدْلَاسِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنَنْ وَلَمْ يُصْرَحْ بِالسَّمَاعِ فَلَا يُقْبَلُ وَفِيهِ عَبْدِ الرَّزَاقِ بْنُ هَمَّامٍ وَكَانَ مَشْهُورًا بِالتَّشْيِيعِ وَعَمِّي فِي آخِرِ وَفْتِهِ فَخَلَطَ قَالَ ابْنُ عَدِيٍّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ فِي الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَلَسَبُوهُ إِلَى التَّشْيِيعِ إِنَّتَهَى. وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءِ الزَّيْدِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ

لِهَيْعَةٍ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرٍ الْخَضِرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوطِئُونَ لِلْمَهْدِيِّ بِعَيْنِي
 سُلْطَانَهُ قَالَ الطَّبْرَانِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهَيْعَةٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثٍ عَلَى الَّذِي خَرَجَهُ
 الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ أَنَّ ابْنَ لَهَيْعَةٍ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ أَوْضَعُ
 مِنْهُ وَخَرَجَ الْبَزَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبْرَانِيِّ عَنْ
 أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصَرَ فَسَجَّ
 وَإِلَّا فَتَمَّانٌ وَإِلَّا فَتَسْعُ تَنَعَمُ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِغَيْهَا تُرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا
 وَلَا تَذْخِرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَالِ كُدُوسٌ يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِيُّ اعْطِنِي
 فَيَقُولُ خُذْ قَالَ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَزَارِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعَجَلِيُّ زَادَ الْبَزَارِيُّ وَلَا نَعْلَمُ
 أَنَّهُ تَابَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حَبَّانٍ أَيْضًا بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثَّقَاتِ
 وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ
 لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلٍ رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الْعَجَلِيَّ
 حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ نَكْتُبْهَا تَرَكَتُهَا عَلَى عَمْدٍ وَكُتِبَ بَعْضُ أَحْصَانِيَا عَنْهُ
 كَأَنَّهُ ضَعِيفٌ وَخَرَجَهُ أَبُو بَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ حَدَّثَنِي خَلِيلِي
 أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا أَقُومُ السَّاعَةَ حَتَّى يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ
 بَيْتِي فَيَضْرِبُهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ وَكَمْ بَيْنَكَ قَالَ خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا
 خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ لَا أَدْرِي ١٠٠. وَهَذَا السَّنَدُ غَيْرُ مُتَّحَجٍّ بِهِ وَإِنْ قَالَ فِيهِ بَشِيرُ بْنُ نَهْيَكٍ
 وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ فَقَدْ احْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانِ وَوَثَّقَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ
 أَبِي حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ رَجَاءُ ابْنِ أَبِي رَجَاءٍ الْبَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ
 أَبُو زُرْعَةَ ثِقَّةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ ضَعِيفٌ وَقَالَ مَرَّةً صَالِحٌ وَعَلَى
 لَهُ الْبَخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثًا وَاحِدًا وَخَرَجَ أَبُو بَكْرِ الْبَزَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي
 مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قُرَّةِ بْنِ إِيَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لَتَمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَإِذَا مِلْتُمْ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي أَسْمُهُ
 أَمِّي وَأَسْمُ أَبِيهِ أَسْمُ أَبِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مِلْتُمْ جَوْرًا وَظُلْمًا فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ
 مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا وَلَا تَذْخِرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا

يَعْنِي سَنِينَ ١٠ هـ . وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبِّي بْنِ الْأَنْخَرِمِ عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا وَخَرَجَ
الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ أَبِي عُمَرَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ
تَلَا حَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَيَدَ عَلِيٍّ وَقَالَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ جَوْرًا
وظُلْمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ
بِالْفَتَى التَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَابَةِ الْمَهْدِيِّ . انتهى . وفيه
عبدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهَيْعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ ١١ هـ . وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ
الْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَتَحْكُونَ فِتْنَةً
لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى يُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ إِنْ أَمِيرَكُمْ فَلَانٌ .
١٢ هـ . وفيه الْمُشَنَّى بْنُ الصَّبَّاحِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ
وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ وَتَرْجَمَتِهِ اسْتِثْنَاءً فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَجَ بِهَا
الْأَئِمَّةُ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنْ
النَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَالْأَقْلُ مِنْهُ وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُتَكَلِّمُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ
خَالِدٍ الْجَنْدِيُّ عَنْ أَبَانَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ أَبِي عِيَّاشٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا أَعْيَسَى بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ يَعْجَبُ بْنُ
مُعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ إِنَّهُ ثِقَةٌ وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ
إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَاخْتَلَفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةً يَرْوُونَهُ كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذَلِكَ
بِمُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةً يَرْوُونَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُسَلَا قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ
مَجْهُولٌ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ وَهُوَ مَثْرُوكٌ عَنْ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرَبٌ وَقَدْ قِيلَ أَنَّ لَامَهْدِيَّ إِلَّا أَعْيَسَى أَيْ
لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِيِّ إِلَّا أَعْيَسَى يُجَاوِلُونَ بِهَذَا التَّأْوِيلِ رَدَّ الْإِحْتِجَاجِ بِهِ أَوْ الْجَمْعَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيْجٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْغَوَارِقِ . وَأَمَّا الْمَتَصَوِّفَةُ فَلَمْ
يَكُنِ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْجَاهِدَةِ

بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَحْصُلُ عَنْهَا مِنْ تَتَائُجِ الْمَوَاجِدِ وَالْأَحْوَالِ وَكَانَ كَلَامُ الْإِمَامِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ
 مِنَ الشَّيْعَةِ فِي تَفْضِيلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَالْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ وَادِّعَاءِ الْوَصِيَّةِ لَهُ
 بِذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّبَرُّيُّ مِنَ الشَّيْخَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَذَاهِبِهِمْ
 ثُمَّ حَدَّثَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَكَثُرَتِ التَّنَافُؤُ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَجَاءَ
 الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنْهُمْ يَدْعُونَ الْوَهْيَةَ الْإِمَامِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحُلُولِ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ رَجْعَةَ
 مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِنَوْعٍ التَّنَاسُخِ وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ مَجِيءَ مَنْ يَقْطَعُ بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ
 وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ عَوْدَ الْأَمْرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ
 الْأَحَادِيثِ فِي الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا ثُمَّ حَدَّثَ أَيْضًا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْكَلَامُ
 فِي الْكُتُفِ وَفِيهَا وَرَاءَ الْحَسَنِ وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْحُلُولِ
 وَالْوَحْدَةِ فَشَارَكُوا فِيهَا الْإِمَامِيَّةَ وَالرَّافِضَةَ لِقَوْلِهِمْ بِالْوَهْيَةِ الْإِئِمَّةِ وَحُلُولِ الْإِلَهِ فِيهِمْ
 وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَالْإِبْدَالِ وَكَانَهُ يُحَاكِي مَذْهَبَ الرَّافِضَةِ فِي الْإِمَامِ
 وَالتَّقْبَاءِ وَأَشْرَبُوا أَقْوَالَ الشَّيْعَةِ وَتَوَعَّلُوا فِي الدِّيَانَةِ بِمَذَاهِبِهِمْ حَتَّى جَعَلُوا مُسْتَدَدَّ طَرِيقِهِمْ
 فِي لُبْسِ الْخُرْقَةِ أَنْ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلْبَسَهَا الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ
 بِاللِّزَامِ الطَّرِيقَةِ وَاتَّصَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِالْجُنْدِ مِنْ شُيُوخِهِمْ وَلَا يُعْلَمُ هَذَا عَنْ عَلِيٍّ مِنْ
 وَجْهِ صَحِيحٍ وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ خَاصَّةً بِعَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بَلِ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ
 أُسْوَةٌ فِي طَرِيقِ الْهَدْيِ وَفِي تَخْصِيصِ هَذَا بِعَلِيٍّ دُونَهُمْ رَاحَةٌ مِنَ التَّشْيِيعِ قَوِيَّةٌ يُفْهَمُ
 مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقَوْمِ دَخَلُهم فِي التَّشْيِيعِ وَأَشْغَرَاطُهم فِي سِلَاحِهِ وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا
 الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَأَمْثَلَاتُ كُتُبِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنَ الرَّافِضَةِ وَكُتُبُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ
 الْمُتَصَوِّفَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الْفَاطِمِيَّةِ الْمُنْتَظَرِ وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُمْلِكُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيُلْقَنُهُ بَعْضُهُمْ
 عَنْ بَعْضٍ وَكَانَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أُصُولٍ وَاهِيَةٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّ بَعْضُهُمْ بِكَلَامِ
 الْمُتَحِجِّينَ فِي الْقِرَآنَاتِ وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْكَلَامِ فِي الْمَلَا حِمٍ وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا
 فِي الْبَابِ الَّذِي بَلَى هَذَا وَكَثُرَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي شَأْنِ
 الْفَاطِمِيَّةِ ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْحَافِي فِي كِتَابِ عَنَقَاءِ مُغْرِبٍ وَابْنُ قُسَيٍّ فِي كِتَابِ خَلْعِ
 التَّعْلِينَ وَعَبْدُ الْحَقِّ بْنُ سَبْعِينَ وَابْنُ أَبِي وَاصِلٍ تَلْمِيزُهُ فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِ خَلْعِ التَّعْلِينَ
 وَكَثُرَ كَلِمَاتُهُمْ فِي شَأْنِهِ الْغَاثُ وَأَمْثَالُ وَرُبَّمَا بَصَّرِحُونَ فِي الْأَقْلِ أَوْ بَصَّرِحُ مَفْسِرُو

كَلَامِهِمْ وَحَاصِلُ مَذْهَبِهِمْ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ أَنَّ النَّبُوَّةَ بِهَا ظَهَرَ الْحَقُّ
 وَالْهُدَى بَعْدَ الضَّلَالِ وَالْعَمَى وَأَنَّهَا تَعْقِبُهَا الْخِلَافَةُ ثُمَّ يَعْقِبُ الْخِلَافَةَ الْمُلْكُ ثُمَّ يَعُودُ تَجَبُّرًا
 وَتَكَبُّرًا وَبَاطِلًا قَالُوا وَلَمَّا كَانَ فِي الْمَعَهُودِ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ رُجُوعَ الْأُمُورِ إِلَى مَا كَانَتْ وَجَبَ
 أَنْ يَحْتَمِيَ أَمْرُ النَّبُوَّةِ وَالْحَقِّ بِالْوِلَايَةِ ثُمَّ بِخِلَافَتِهَا ثُمَّ يَعْقِبُهَا الدُّجَلُ مَكَانَ الْمُلْكِ وَالتَّسْلُطِ
 ثُمَّ يَعُودُ الْكُفْرُ بِحَالِهِ يُشِيرُونَ بِهَذَا إِمَّا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ النَّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ بَعْدَهَا وَالْمُلْكِ
 بَعْدَ الْخِلَافَةِ هَذِهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ وَكَذَلِكَ الْوِلَايَةُ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْفَاطِمِيِّ وَالِدُّجَلُ بَعْدَهَا
 كِتَابَةٌ عَنْ خُرُوجِ الدُّجَالِ عَلَى أَثَرِهِ وَالْكُفْرُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِيهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ عَلَى نِسْبَةِ
 الثَّلَاثِ الْمَرَاتِبِ الْأُولَى قَالُوا وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ اقْتَرَبَ حُكْمًا شَرْعِيًّا بِالْإِجْمَاعِ
 الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ أَنْكَارُ مَنْ لَمْ يُزَاولْ عِلْمَهُ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْإِمَامَةُ فِيهِ مَنْ هُوَ أَخْصَصَ
 مِنْ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَّا ظَاهِرًا كَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِمَّا بَاطِنًا مِمَّنْ
 كَانَ مِنْ حَقِيقَةِ آلِ وَالِآلِ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ يُلْقَبْ مَنْ هُوَ آلُهُ وَأَبْنُ الْعَرَبِيِّ
 الْحَاطِي سَمَاهُ فِي كِتَابِهِ عَقَاءَ مُغْرِبٍ مِنْ تَأْلِيْفِهِ خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ وَكُنِيَ عَنْهُ بِابْنَةِ
 الْفِضَّةِ إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ فِي بَابِ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 مَثَلِي فِي مَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا وَأَكْمَلَهُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ
 إِلَّا مَوْضِعُ لُبْنَةٍ فَأَنَا تِلْكَ اللَّبْنَةُ فَيُفْسَرُونَ خَاتِمَ النَّبِيِّينَ بِاللُّبْنَةِ حَتَّى أَكْمَلْتُ الْبَيْتَ
 وَمَعْنَاهُ النَّبِيُّ الَّذِي حَصَلَتْ لَهُ النَّبُوَّةُ الْكَامِلَةُ وَيُمَثِّلُونَ الْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا
 بِالنَّبُوَّةِ وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ الْكَمَالِ فِيهَا خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ أَيْ حَائِزَ الرُّتْبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ
 الْوِلَايَةِ كَمَا كَانَ خَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ حَائِزًا لِلْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ النَّبُوَّةِ فَكُنِيَ الشَّارِحُ
 عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْخَاتِمَةَ بِابْنَةِ الْبَيْتِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ وَهُمَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ
 فِيهِمَا فِي لُبْنَةٍ وَاحِدَةٍ فِي التَّمْثِيلِ فِي النَّبُوَّةِ لُبْنَةٌ ذَهَبٌ وَفِي الْوِلَايَةِ لُبْنَةٌ فِضَّةٌ لِلتَّفَاوُتِ
 بَيْنَ الرُّتْبَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجْعَلُونَ لُبْنَةَ الذَّهَبِ كِتَابَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلُبْنَةَ الْفِضَّةِ كِتَابَةً عَنْ هَذَا الْوَلِيِّ الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَذَلِكَ خَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ
 وَهَذَا خَاتِمُ الْأَوْلِيَاءِ وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِيمَا تَقُلُّ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ عَنْهُ وَهَذَا الْإِمَامُ
 الْمُنْتَظَرُ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَظُهُورُهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ مُضِيِّ خ ف ج مِنْ
 الْهَجْرَةِ وَرَسَمَ حُرُوفًا ثَلَاثَةً يُرِيدُ عَدَدَهَا بِحِسَابِ الْجُمْلِ وَهُوَ الْخَاءُ الَّتِي تُجْمَعُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ

فَوْقُ سِتْمِائَةٍ وَأَلْفَاءُ أُخْتُ أَلْفَافٍ بِشَمَانِينَ وَالْجِمْ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلُ ثَلَاثَةٌ
وَذَلِكَ سِتْمِائَةٍ وَثَلَاثُ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ الْقَرْنِ السَّابِعِ وَلَمَّا أَنْصَرَمَ هَذَا الْعَصْرُ
وَلَمْ يَظْهَرْ حَمَلُ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلِدُهُ وَعَبَّرَ
بِظُهُورِهِ عَنْ مَوْلِدِهِ وَأَنَّ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعَشْرِ وَالسَّبْعِ الْمِائَةِ فَإِنَّهُ الْإِمَامُ النَّاجِمُ مِنْ
نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ قَالَ وَإِذَا كَانَ مَوْلِدُهُ كَمَا زَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ
وَسِتْمِائَةٍ فَيَكُونُ عُمُرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً قَالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَالِ
يَكُونُ سَنَةَ ثَلَاثَ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ وَأَبْتِدَاءُ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ
عِنْدَهُمْ مِنْ يَوْمِ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَمَامِ أَلْفِ سَنَةٍ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ
فِي شَرْحِهِ كِتَابَ خَلْعِ التَّعْلِيْفِ الْوَلِيِّ الْمُنْتَظَرُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِمُحَمَّدٍ
الْمَهْدِيِّ وَخَاتِمِ الْأَوْلِيَاءِ وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ وَلِيُّ ابْتِغَاةِ رُوحِهِ وَحَبِيبُهُ قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَالِمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَقَالَ عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيََاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَلَمْ تَزَلِ الْبَشَرَى تَتَابَعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ إِلَى قَبْلِ الْخَمْسِمِائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ
وَتَأَكَّدَتْ وَتَضَاعَفَتْ بِشَاشِيرِ الْمَشَايِخِ بِتَقَرُّبِ وَقْتِهِ وَأَزْدِلَافِ زَمَانِهِ مِنْذُ انْقَضَتْ
إِلَى هَلْ جَرَّأ قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظُّهْرِ
وَيُجَدِّدُ الْإِسْلَامَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَّةٍ فَيَفْتَحُهَا
وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَفْتَحُهَا وَيَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مُلْكُ الْأَرْضِ فَيَتَّقَوِي
الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلُو الْإِسْلَامُ وَيُظْهِرُ دِينَ الْحَنِيفِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ
وَقْتُ صَلَاةٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتٍ وَقَالَ الْكِنْدِيُّ أَيْضًا
الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُعْجَمَةِ يَعْنِي الْمَفْتَتَحَ بِهَا سُورَةُ الْقُرْآنِ جُمْلَةً عِنْدَهَا سَبْعِمِائَةٌ
وَثَلَاثُ وَأَرْبَعُونَ وَسَبْعٌ دَجَالِيَّةٌ ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيُصْلِحُ الدُّنْيَا
وَتَمْشِي الشَّاةُ مَعَ الذَّنْبِ ثُمَّ مَبْلَغُ مُلْكِ الْعَجَمِ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ مَعَ عِيسَى مِائَةٌ وَسِتُّونَ عَامًا
عِنْدَ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَهِيَ قِيَامُ دَوْلَةِ الْعَدْلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ
وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مَهْدِي إِلَّا عِيسَى فَمَعْنَاهُ لَا مَهْدِي تُسَاوِي هِدَايَتَهُ هِدَايَتَهُ وَقِيلَ لَا
بِتَكْلَمٍ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى وَهَذَا مَذْبُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَغَيْرِهِ وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ
أَنَّهُ قَالَ لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً

بِعَنِي قُرْشِيًّا وَقَدْ أُعْطِيَ الْوُجُودُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ
 سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ وَقَالَ الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتُّ وَثَلَاثُونَ
 وَاتَّقِضَاؤُهَا فِي خِلَافَةِ الْحَسَنِ وَأَوَّلُ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ خِلَافَةً أَخَذَهَا
 بَأَوَائِلِ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ سَادِسُ الْخُلَفَاءِ وَأَمَّا سَابِعُ الْخُلَفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْباقُونَ
 خَمْسَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَّةِ عَلِيٍّ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ إِنَّكَ لَدُو قَرْنَيْهَا يُرِيدُ الْأُمَّةَ أَيِ إِنَّكَ
 لَخَلِيفَةٌ فِي أَوَّلِهَا وَذُرِّيَّتِكَ فِي آخِرِهَا وَرُبَّمَا اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْقَائِلُونَ بِالرَّجْعَةِ
 فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَالَّذِي تَقْسِي
 بِبَيْدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ اتَّفَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كُنُوزَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالَّذِي يُهْلِكُ قَيْصَرَ وَيُنْفِقُ كُنُوزَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ هَذَا الْمُنْتَظَرُ حَيْثُ يَفْتَحُ
 الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ فَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ كَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَمُدَّةُ حُكْمِهِ بَضْعٌ وَالْبَضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ وَقِيلَ إِلَى عَشْرِ وَجَاءَ ذِكْرُ
 أَرْبَعِينَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ سَبْعِينَ وَأَمَّا الْأَرْبَعُونَ فَأِنَّهَا مُدَّتُهُ وَمُدَّةُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةُ
 الْبَاقِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جَمِيعِهِمُ السَّلَامُ قَالَ وَذَكَرَ الْمُصَنِّفُ
 النُّجُومَ وَالْقِرَانَاتِ أَنَّ مُدَّةَ بَقَاةِ أَمْرِهِ وَأَهْلِي بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا
 فَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا جَارِيًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَالْعَدْلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ
 فَتَكُونُ مُلْكًا أَنْتَهَى كَلَامُ ابْنِ أَبِي وَاصِلٍ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ نَزُولُ عِيسَى
 بِكَوْنِهِ فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنَ الْيَوْمِ الْحَمْدِيُّ حِينَ تَمُوتُ ثَلَاثَةٌ أَرْبَاعُهُ قَالَ وَذَكَرَ
 السَّكَنْدِيُّ بِعُقُوبِ بْنِ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ الْجَنَفِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ الْقِرَانَاتِ أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ
 الْقُرْآنُ إِلَى الثَّوْرِ عَلَى رَأْسِ مَجْمَعٍ بِعَرَفَيْنِ الضَّادِ ^(١) أَلَمْ تُجَمِّعْهُ وَالْحَاءُ الْهَمْزُ يُرِيدُ ثَمَانِيَّةً
 وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةً مِنَ الْهَجْرَةِ يَنْزِلُ الْمَسِيحُ فَيَجْمَعُكُمْ فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
 قَالَ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْيُسْخَاءِ شَرْقِي دِمَشْقَ يَنْزِلُ بَيْنَ
 مَهْرُودَتَيْنِ يَعْنِي حُلَيْنَ مَرْعَرَتَيْنِ صَفْرَاوَيْنِ مُصَصَّرَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ الْمَلَائِكَةِ
 لَهُ لِمَةٌ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيْمَاسٍ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرًا وَإِذَا رَفَعَهُ تَعَدَّرَ مِنْهُ جَدَانٌ

(١) الضاد عند المغاربة جيم والصاد يسين اهـ قاله نصر

كَالْوُلُوءِ كَثِيرُ خِيَلَانِ الْوَجْهِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ وَإِلَى الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ
 وَفِي آخَرَ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ فِي الْغَرْبِ وَالْغَرْبُ دَلُّو الْبَادِيَةِ يُرِيدُ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ مِنْهَا وَتَلِدُ زَوْجَتَهُ
 وَذَكَرَ وَفَاتَهُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَامًا وَجَاءَ أَنَّ عِيسَى بِسُوتٍ بِالْمَدِينَةِ وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ عُمَرَ
 ابْنِ الْخَطَّابِ وَجَاءَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يُحْشِرَانِ بَيْنَ نَيْتَيْنِ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاطِلٍ وَالشَّيْعَةُ
 تَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ مَسِيحُ الْمَسَائِيحِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ قُلْتُ وَعَلَيْهِ حَمَلُ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ
 حَدِيثٌ لَا مَهْدِيٍّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَكُونُ مَهْدِيٌّ إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي نَسَبَتْهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ
 الْحَمْدِيَّةِ نِسْبَةً عِيسَى إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُوسَوِيَّةِ فِي الْإِتْبَاعِ وَعَدَمِ النَّسْخِ إِلَى كَلَامٍ
 مِنْ أَمْثَالِ هَذَا يُعَيِّنُونَ فِيهِ الْوَقْتَ وَالرَّجُلَ وَالْمَكَانَ بِأَدَلَّةٍ وَاهِيَةٍ وَتَحْكُمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ
 فَيَنْقُضِي الزَّمَانُ وَلَا أَثَرَ لشيءٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ رَأْيٍ آخَرَ مُتَّعِلٍ كَمَا
 تَرَاهُمْ مِنْ مَفْهُومَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَشْيَاءٍ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ نُجُومِيَّةٍ فِي هَذَا اتَّفَقَتْ أَعْمَارُ الْأَوَّلِ
 مِنْهُمْ وَالْآخِرِ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ الَّذِينَ عَاصَرْنَاهُمْ فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ظُهُورِ رَجُلٍ
 مَجْدِدٍ لِأَحْكَامِ الْعِلَّةِ وَمَرَامِ الْحَقِّ وَيَتَّعَيِّنُونَ ظُهُورَهُ لِمَا قَرُبَ مِنْ عَصْرِنَا فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ
 مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَبَعْضُهُمْ يُطْلِقُ الْقَوْلَ فِيهِ سَمِعْنَاهُ مِنْ جَمَاعَةٍ أَكْثَرُهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَادِي
 كَبِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْعِمَانَةِ الثَّامِنَةِ وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ حَافِدُهُ صَاحِبُنَا
 أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّا عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيِّ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَذْكُورِ
 هَذَا آخِرُ مَا أَطْلَعْنَا عَلَيْهِ أَوْ بَلَّغْنَا مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَمَا أَوْرَدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ
 مِنْ أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ قَدْ اسْتَوْفَيْنَا جَمِيعَهُ بِمَبْلَغٍ طَاقِنَا وَالْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَرَّرَ
 لَهَبِكَ أَنَّهُ لَا نَتِمُّ دَعْوَةً مِنَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ إِلَّا بِوُجُودِ شَوْكَةِ عَصِيَّةٍ تُظَاهِرُهُ وَتُدَافِعُ
 عَنْهُ مِنْ يَدْفَعُهُ حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِ وَقَدْ قَرَرْنَا ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي
 أَرَيْنَاكَ هُنَاكَ وَعَصِيَّةُ الْفَاطِمِيِّينَ بَلْ وَفَرِيشَ أَجْمَعَ قَدْ تَلَاسَتْ مِنْ جَمِيعِ الْأَفَاقِ وَوُجِدَ
 أَمُّ آخَرُونَ قَدْ اسْتَعَلَّتْ عَصِيَّتُهُمْ عَلَى عَصِيَّةِ فَرِيشَ إِلَّا مَا بَقِيَ بِالْحِجَازِ فِي مَكَّةَ وَبَنَعَ
 بِالْمَدِينَةِ مِنَ الطَّالِبِينَ مِنْ بَنِي حَسَنَ وَبَنِي حُسَيْنَ وَبَنِي جَعْفَرٍ وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ فِي نِلكَ الْبِلَادِ
 وَغَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَمَائِبُ بَدْوِيَّةٍ مُتَفَرِّقُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ وَإِمَارَاتِهِمْ وَآرَائِهِمْ يَبْلُغُونَ
 آلَافًا مِنَ الْكثَرَةِ فَإِنْ صَحَّ ظُهُورُ هَذَا الْمَهْدِيِّ فَلَا وَجْهَ لظُهُورِ دَعْوَتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ
 مِنْهُمْ وَيُؤَافِقُ اللَّهَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِ حَتَّى تَتِمَّ لَهُ شَوْكَةُ وَعَصِيَّةُ وَافِيَةٌ بِإِظْهَارِ

كَلِمَتِهِ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ مِثْلُ أَنْ يَدْعُو فَاطِمِي مِنْهُمْ إِلَى
مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ فِي أَفْقٍ مِنَ الْأَفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا تُجَرَّدَ نِسْبَةً فِي أَهْلِ
الْبَيْتِ فَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ وَلَا يُمَكِّنُ لِمَا اسْتَفَنَاهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ وَأَمَّا مَا تَدْعِيهِ الْعَامَّةُ
وَالْأَعْمَارُ مِنَ الدُّهْمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى عَقْلِ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ
ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ ثَقِيلًا لِمَا اشْتَهَرَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِي وَلَا يَعْلَمُونَ
حَقِيقَةَ الْأَمْرِ كَمَا يَنْبَأُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُجِيبُونَ فِي ذَلِكَ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ
الْعُمُرَانِ مِثْلُ الزَّابِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالسُّوسِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَنَجْدِ الْكَثِيرِ مِنْ ضُعَفَاءِ الْبَصَائِرِ
يَقْصِدُونَ رِبَاطًا بِمَاسَةٍ لِمَا كَانَ ذَلِكَ الرِّبَاطُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمُثْمِنِينَ مِنْ كَدَالَةٍ وَاعْتِقَادِهِمْ
أَنَّهُ مِنْهُمْ أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ الْأُمِّ وَبُعْذُهُمْ عَنْ
يَقِينِ الْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثَرَةِ أَوْ قِلَّةِ أَوْ ضَعْفِ أَوْ قُوَّةِ وَلِبُعْدِ الْقَاصِيَةِ عَنْ مَنَالِ
الدُّوَلَةِ وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَافِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ الْأَوْدَامُ فِي ظُهُورِهِ دُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رِيقَةِ
الدُّوَلَةِ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَهْرِ وَلَا تَحْصُلُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هَذَا وَقَدْ يَقْصِدُ ذَلِكَ
الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ لِلتَّائِسِ بِدَعْوَةِ بَيْتِهِ تَمَامًا وَسَوَاسًا وَحُفْمًا وَقَتْلَ
كَثِيرٍ مِنْهُمْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْلِيَّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطٍ مَاسَةٍ لِأَوَّلِ
الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَعَصَرَ السُّلْطَانُ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ رَجُلٌ مِنْ مُتَحَلِّي التَّصَوُّفِ يُعْرِفُ
بِالتَّوَيْزِي نِسْبَةً إِلَى نُوزَرٍ مُصْغَرًا وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ وَاتَّبَعَهُ الْكَثِيرُ مِنْ
أَهْلِ السُّوسِ مِنْ ضَالَّةٍ وَكَزُوزَةٍ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ الْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ
عَلَيْهِ السَّكْسُوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ بَتَانًا وَأَنْحَلَ أَمْرُهُ وَكَذَلِكَ ظَهَرَ فِي غَمَارَةٍ فِي آخِرِ الْمِائَةِ
السَّابِعَةِ وَعَشْرِ التَّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرِفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ وَاتَّبَعَهُ الدُّهْمَاءُ
مِنْ غَمَارَةٍ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عَنُودَ وَحَرَّقَ أَسْوَاقَهَا وَأَرْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ الْمَرْزَمَةِ فَقُتِلَ بِهَا
غِيلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا السَّمَطِ وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْمَذْكُورُ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هَذَا
وَهُوَ أَنَّهُ صَحِيبٌ فِي حِجَّةٍ فِي رِبَاطِ الْعِبَادِ وَهُوَ مَدْفَنُ الشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ فِي جَبَلِ تَلْمَسَانَ
الْمُطَّلِ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتَّبِعًا مُعَظَّمًا كَثِيرَ التَّلْمِيزِ
وَالْخَادِمِ قَالَ وَكَانَ الرِّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالْتَفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ قَالَ
وَتَا كَدَّتِ الصُّنْبَةُ يَنْتَنَا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ فَأَنْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنْتَهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا

مِنْ مَوَاطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لِيُطْلَبَ هَذَا الْأَمْرُ وَانْتِحَالَ دَعْوَةُ الْفَاطِمِيِّ بِالْمَغْرِبِ فَلَمَّا عَايَنَ
 دَوْلَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَيُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلُ تَلْمُسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ أَرْجِعُوا فَقَدْ
 أَزْرَى بِنَا الْغَلَطُ وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَقْتَنَا وَبَدُلُ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ
 مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ الْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ
 غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصِيَّةَ بَنِي مُرَيْنَ لِنَظَرِ الْعَهْدِ لَا يُقَاوِمُهَا أَحَدٌ
 مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ اسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَأَفْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَبْقِيَ
 أَنَّ عَصِيَّةَ الْفَوَاطِمِ وَفُرَيْشٍ أَجْمَعَ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيَّمَا فِي الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ التَّعَصُّبَ
 لِسَانِهِ لَمْ يَتْرُكْهُ لِهَذَا الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَدْ كَانَتْ بِالْمَغْرِبِ إِيَّاهُ
 الْعُصُورُ الْقَرِيبَةُ نَزْعَةً مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِالسُّنَّةِ لَا يَتَحَلُّونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ
 وَلَا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْبَانِ الْوَاحِدُ فَالْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ السُّنَّةِ
 وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَيَعْتَنِي بِذَلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُعْنُونَ بِإِصْلَاحِ السَّابِلَةِ
 لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فَسَادِ الْأَعْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ
 الْمُنْكَرِ بِمَا اسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تُسْتَحْكَمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ الْعَرَبِ
 وَرُجُوعَهُمْ إِلَى الدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا إِلَّا قِصَارَ عَنِ الْغَارَةِ وَالنَّهْبِ لَا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ
 وَاقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاحِي الدِّينَانَةِ غَيْرَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا الْمَعْصِيَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ الْمَقْرُبَةِ وَمِنْهَا
 تَوْبَتُهُمْ فَتَجِدُ ذَلِكَ الْمُتَحِيلَ لِلدُّعْوَةِ وَالْقَائِمَ بِزَعْمِهِ بِالسُّنَّةِ غَيْرَ مُتَعَمِّقِينَ فِي فُرُوعِ
 الْإِفْتِدَاءِ وَالْإِتْبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمُ الْأَعْرَاضُ عَنِ النَّهْبِ وَالْبَغْيِ وَإِفْسَادِ السَّابِلَةِ ثُمَّ
 الْأَقْبَالُ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالْمَعَاشِ بِأَفْصَى جُهْدِهِمْ وَشَتَّى بَيْنَ هَذَا الْأَجْرِ مِنْ إِصْلَاحِ
 الْخَلْقِ وَمِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا فَاتِّقَاهُمَا مُشْتَعٍ لَا تُسْتَحْكَمْ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الدِّينِ وَلَا يَكْمُلُ
 لَهُ نُزُوعٌ عَنِ الْبَاطِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ الدُّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي
 اسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوِلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ أَمْعَلُ أَمْرُهُمْ وَتَلَاشَتْ عَصِيَّتُهُمْ
 وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بِأَفْرِيقَةِ لِرَجُلٍ مِنْ كَعْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسَمَّى قَالِيمَ بْنِ مِرَّةَ بْنِ أَحْمَدَ فِي
 الْمِائَةِ السَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَّاحٍ مِنْ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلِمٍ
 وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةَ وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ الْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ
 يَسْتَتِبْ أَمْرَ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ حَسَبًا يَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ

سُلَيْمٍ وَرِيَّاحَ وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيَلْتَسُونَ
فِيهَا وَيَتَحِلُّونَ أَمْنَهُ السُّتَةَ وَلَيْسُوا عَلَيْهَا إِلَّا الْأَقْلَ فَلَا يَتِمُّ لَهُمْ وَلَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ
مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى

الفصل الثالث والخمسون

في ابتداء الدول والامم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن معنى الجهر

إِعْلَمْ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ التَّشَوُّقَ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعِلْمَ مَا يَحْدُثُ
لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سِيمَا الْحَوَادِثُ الْعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ
مُدَدِ الدُّوَلِ أَوْ تَوَاتُّعِهَا وَالتَّلَطُّعُ إِلَى هَذَا طَبِيعَةٌ مَحْبُورُونَ عَلَيْهَا وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ
النَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ وَالْأَخْبَارِ مِنَ الْكُهَّانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ
مِنْ الْمُلُوكِ وَالسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ تَجِدُ فِي الْمَدُنِ صِنْفًا مِنَ النَّاسِ يَتَحِلُّونَ الْمَعَاشَ مِنْ ذَلِكَ
لِعَاجِزِهِمْ بِحِرْصٍ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالْأَدْكَاءِ كَأَنَّ بَتَرَضُونَ لِمَنْ
يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَغْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرْوَحُ نِسْوَانُ الْمَدِينَةِ وَصِبَاانَهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْقَوْلِ
يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي الْكُتُبِ وَالنَّجَاحِ وَالْمَعَاشِ وَالْمَعَاشِرَةِ وَالْعِدَاوَةِ وَأَمْثَالِ
ذَلِكَ مَا بَيْنَ خَطِيٍّ فِي الرَّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْجِمَ وَطَرِيقِي بِالْحَصَى وَالْحَبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ الْحَاسِبَ
وَنَظَرِي فِي الْمَرَايَا وَالْمِيَاهِ وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ الْمَنْدَلِ وَهُوَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ الْفَاشِيَةِ فِي
الْأَمْصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذَلِكَ وَإِنَّ الْبَشَرَ مَحْبُورُونَ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا مَنْ
أُطْلِعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ وَلايَةٍ وَأَكْثَرُ مَا يَعْتَنِي بِذَلِكَ وَتَطَّلِعُ إِلَيْهِ الْأُمَرَاءُ
وَالْمُلُوكُ فِي أَمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذَلِكَ أَنْصَرَفَتِ الْعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنْ
الْأُمَّمِ يُوجَدُ لَهُمْ كَلَامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنْجِمٍ أَوْ وَلِيٍّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ
دَوْلَةٍ يَحْدَرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ الْحَرْبِ وَالْمَلَاحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ الدَّوْلَةِ وَعَدَدِ
الْمُلُوكِ فِيهَا وَالتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلُ ذَلِكَ الْخَدَثَانِ وَكَانَ فِي الْعَرَبِ الْكُهَّانُ
وَالْعَرَّافُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ الْعَرَبُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْدَّوْلَةِ
كَمَا وَقَعَ لِسُقٍ وَسَطِيعٍ فِي تَاوِيلِ رُؤْيَا رَيْبَعَةَ بْنِ نَضْرٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ أَخْبَرَهُمْ بِمُلْكِ
الْحَبَشَةِ بِأَدَمَ ثُمَّ رُجُوعِهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ الْمُلْكُ وَالْدَّوْلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَكَذَا

تَأْوِيلُ سَطِيحِ لِرُؤْيَا الْمُؤَبَّدَانِ حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِ كَسْرَى بِهَا مَعَ عَبْدِ الْحَسِيحِ وَأَخْبَرَهُمْ
بِظُهُورِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ وَكُنَّا كَانُ فِي جَبَلِ الْبَرِيرِ كَهَانُ مِنْ أَشْهَرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِنْ
بَنِي يَفْرِنَ وَيُقَالُ مِنْ غَمْرَةٍ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَّثَانِيَّةٌ عَلَى طَرِيقَةِ الشَّعْرِ بِرِطَائِنِهِمْ وَفِيهَا حَدَّثَانُ
كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ لِرِزْنَاتِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَدْوَلَةِ بِالْمَغْرِبِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ
أَهْلِ الْجَبَلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيٌّ وَتَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ مَزَاعِمِهِمْ أَنَّهُ
صَكَانَ نَبِيًّا لِأَنَّ تَارِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِكَثِيرٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَقَدْ يَسْتَدُ الْجَبَلُ إِلَى
خَبَرِ الْأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمُ الْمُتَعَاقِبِينَ فِيهِمْ
كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا يَبْعَثُونَهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنْهُ وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ
مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى بَقَاءِ الدُّنْيَا وَمُدَّتِهَا عَلَى الْعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا
عَلَى الْخُصُوصِ وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ فِي مَنْ صَدَرَ الْإِسْلَامُ لِأَثَارِ مَنْقُولَةٍ عَنِ الصَّحَابَةِ
وْخُصُوصًا مَسْلَمَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَوَهَبِ بْنِ مَنِيَّةٍ وَأَمْثَالِهَا وَرُبَّمَا
أَقْبَسُوا بَعْضُ ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرِ مَا ثَوَّرَ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ وَوَقَعَ لِحُجْمَةٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ
الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَنَدٌ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْكُشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْوَلَايَةِ وَإِذَا
كَانَ مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَوَّلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِهَيْدِ الرُّتَبِ الشَّرِيفَةِ وَالْكَرَامَاتِ
الْمَوْهُوبَةِ وَأَمَّا بَعْدَ صَدْرِ الْعِلَّةِ وَحِينَ عَلِقَ النَّاسُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْإِسْطِلَاحَاتِ
وَتُرْجِمَتِ كُتُبُ الْحُكَمَاءِ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَأَكْثَرُ مُعْتَمِدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ
الْمُنْعَمِينَ فِي الْمُلُوكِ وَالْأَدْوَلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِنَ الْقِرَائَاتِ وَفِي الْمَوَالِيدِ وَالْمَسَائِلِ
وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ مِنَ الطَّوَالِغِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ الْفَلَكَ عِنْدَ حَدُوثِهَا فَلَمَّا كُرِيَ الْآنَ
مَا وَقَعَ لِأَهْلِ الْأَثَرِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى كَلَامِ الْمُعْجَمِينَ أَمَّا أَهْلُ الْأَثَرِ فَلَهُمْ فِي
مُدَّةِ الْعَمَلِ وَبَقَاءِ الدُّنْيَا عَلَى مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السُّهَيْلِيِّ فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنِ الطَّبْرِيِّ مَا
يَقْتَضِي أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ الدُّنْيَا مِنْذُ الْعِلَّةِ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَتُقْضَى ذَلِكَ بِظُهُورِ كَلْبِيَّةٍ وَهُوَ مُسْتَدٌ
الطَّبْرِيِّ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ أَبِي عُبَّاسٍ أَنَّ الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جَمْعِ الْآخِرَةِ وَلَمْ يَدْ كُرِ
لِذَلِكَ دَلِيلًا وَسِرُّهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ تَقْدِيرُ الدُّنْيَا بِأَيَّامِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهِيَ سَبْعَةٌ
ثُمَّ الْيَوْمُ بِأَلْفِ سَنَةٍ لِقَوْلِهِ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي

الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
 مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ وَقَالَ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاءَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ
 وَالْوُسْطَى وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ
 مِثْلِيهِ يَكُونُ عَلَى التَّقَرُّبِ نِصْفَ سَبْعٍ وَكَذَلِكَ وَصَلَ الْوُسْطَى عَلَى السَّبَابَةِ فَتَكُونُ هَذِهِ
 الْمُدَّةُ نِصْفَ سَبْعٍ الْجُمُعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَدَّةَ الدُّنْيَا قَبْلَ الْمِلَّةِ
 خَمْسَةُ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَسِتِّمِائَةِ سَنَةٍ أَعْنِي
 الْمَاضِيَّ وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ مَدَّةَ الدُّنْيَا كُلُّهَا سِتَّةُ آلَافٍ سَنَةٍ قَالَ السُّهَيْلِيُّ وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثَيْنِ
 مَا يَشْهَدُ لشيءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وَقُوعِ الْوُجُودِ بِخِلَافِهِ فَأَمَّا قَوْلُهُ لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ أَنْ
 يُؤَخِّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَلَا يَقْتَضِي نَقْيَ الزِّيَادَةِ عَلَى النِّصْفِ وَأَمَّا قَوْلُهُ بُعِثْتُ
 أَنَا وَالسَّاءَةُ كَهَاتَيْنِ فَأَمَّا فِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى الْقُرْبِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاعَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ
 وَلَا شَرْعٌ غَيْرُ شَرْعِهِ ثُمَّ رَجَعَ السُّهَيْلِيُّ إِلَى تَعْيِينِ أَمَدِ الْمِلَّةِ مِنْ مَدْرَكِ آخِرِ لَوْ سَاعِدَهُ
 التَّحْقِيقُ وَهُوَ أَنَّهُ جَمَعَ الْحُرُوفَ الْمُقْطَعَةَ فِي أَوَائِلِ السُّورِ بَعْدَ حَذْفِ الْمُكَرَّرِ قَالَ
 وَهِيَ أَرْبَعَةُ عَشَرَ حَرْفًا يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (أَلَمْ يَسْطِمْ نَصْ حَقْ كَرِهَ) فَأَخَذَ عَدَدَهَا بِحِسَابِ
 الْجُمْلِ فَكَانَ سَبْعِمِائَةً وَثَلَاثَةً ^(١) أَضَافَهُ إِلَى الْمُنْقَضِي مِنَ آلَافِ الْآخِرِ قَبْلَ بَعْثِهِ
 فَهَذِهِ هِيَ مَدَّةُ الْمِلَّةِ قَالَ وَلَا يَتَعَدُّ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَقَوَائِدِهَا
 قُلْتُ وَكَوْنُهُ لَا يَتَعَدُّ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا التَّعْوِيلَ عَلَيْهِ وَالَّذِي حَمَلَ السُّهَيْلِيُّ عَلَى ذَلِكَ
 إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السِّيرِ لِابْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ابْنِي أَخْطَبَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ
 وَهُمَا أَبُو يَامِرَ وَأَخُوهُ حَيٌّ حِينَ سَمِعَا مِنَ الْأَحْرَفِ الْمُقْطَعَةِ أَلَمْ وَتَأَوَّلَاهَا عَلَى بَيَانِ
 الْمُدَّةِ بِهَذَا الْحِسَابِ فَبَلَّغَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَاسْتَقْلَا الْمُدَّةَ وَجَاءَ حَيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ فَقَالَ الْمَصْ ثُمَّ اسْتَزَادَ الرَّثْمَ ثُمَّ اسْتَزَادَ الْمَرْ فَكَانَتْ
 إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَاسْتَطَالَ الْمُدَّةَ وَقَالَ قَدْ لَيْسَ عَلَيْنَا أَمْرٌ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى
 لَا نَذَرِي أَقْلِيلاً أُعْطِيتَ أَمْ كَثِيرًا ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَامِرَ مَا يُذَرِّبُكُمْ
 لَعَلَّهُ أُعْطِيَ عَدَدَهَا كُلُّهَا تِسْعِمِائَةً وَأَرْبَعٌ سِنِينَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فَذَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْهُ

آيات مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۚ وَلَا يَقُومُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْمِلَّةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لِأَنَّ دَلَالََةَ هَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلَا عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّوَاضُّعِ وَالْإِصْطِلَاحِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ الْجَمَلِ نَعَمْ إِنَّهُ قَدِيمٌ مَشْهُورٌ وَقَدِيمُ الْإِصْطِلَاحِ لَا يَصِيرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو يَأْسَرَ وَأَخُوهُ حَتَّى مِمَّنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ دَلِيلًا وَلَا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِيَةً بِالْحِجَازِ غُفْلًا عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنْ عِلْمِ شَرِيعَتِهِمْ وَفِقِهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَأَقَّفُونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ كَمَا تَتَلَفَّهُ الْعَوَامُّ فِي كُلِّ مِلَّةٍ فَلَا يَنْهَضُ السُّبُّلِيُّ دَلِيلٌ عَلَى مَا ادَّعَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَوَقَعَ فِي الْمِلَّةِ فِي حَدَّثَانِ دَوَّلَتِهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثَرِ إِجْمَالِيٍّ فِي حَدِيثٍ خَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذَّهَبِيِّ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَرْوَجَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ دُؤَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حَذِيفَةُ بْنُ الْيَمَانِ وَاللَّهِ مَا أَذْرِي أُنْسِي أَمْتَحَابِي أُمَّ تَنَاسَوْهُ وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَائِدٍ قَتِيَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ الدُّنْيَا لَا يَبَاقُ مِنْ مَعَهُ ثَلَاثُمِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ مَمَّاهُ بِأَنَمِهِ وَأَمَمَ أَبِيهِ وَنَبِيَّتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ وَقَدْ أَقْدَمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَاحِبٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ إِذَا كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ مُجْمَلٌ وَبِفَتْقُرِي فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِيبِ مَبْهَمَاتِهِ إِلَى آثَارِ أُخْرَى يُجَوِّدُ أَسَانِيدُهَا وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ فَوَقَعَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ ابْنِ يَمَانَ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيبًا فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ عَنْهُ حَفِظَهُ مِنْ حَفِظَتِهِ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلَّمَهُ أَمْتَحَابُهُ هُوَ لَا ۚ ۚ وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ مَا تَرَكَ شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ وَفِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ صَلَاةِ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مِنْ حَفِظَتِهِ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ ۚ ۚ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا تَعْمُولَةٌ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالْإِشْتِرَاطِ لِأَنَّهُ الْمَعْمُودُ مِنَ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ شَاذَةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ الْأَئِمَّةَ ائْتَفَقُوا فِي رِجَالِهِ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ فِي

ابْنُ فَرُوحٍ أَحَادِيثُهُ مَنَّا كَبِيرُ وَقَالَ الْبُخَارِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ وَيُنْكَرُ وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ
 أَحَادِيثُهُ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَوثَّقَهُ ابْنُ مُعِينٍ
 فَإِنَّمَا خَرَجَ لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَادًا وَضَعْفَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَخْبَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ ابْنُ
 حَاتِمٍ يَكْتُتِبُ حَدِيثَهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَأَبُو قَبِيصَةَ ابْنُ ذُوئُبٍ مَجْهُولٌ فَتَضَعُفُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ
 الَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ مَعَ شَذُوزِهَا كَمَا مَرَّ . وَقَدْ
 بَسْتَنِدُونِ فِي جَدَّتَانِ الدُّوَلِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ الْجَفْرِ وَيَزْعَمُونَ أَنَّ فِيهِ عِلْمَ ذَلِكَ
 كُلِّهِ مِنْ طَرِيقِ الْآثَارِ وَالنُّجُومِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ ذَلِكَ وَلَا
 مُسْتَنَدَهُ وَاعْلَمْ أَنَّ كِتَابَ الْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنَ سَعِيدٍ الْعَجَلِيَّ وَهُوَ رَأْسُ
 الزِّيَادَةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهِ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمٌ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى
 الْعُمُومِ وَابْعَضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ وَقَعَ ذَلِكَ لِجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ مِنْ رِجَالِهِمْ
 عَلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ وَالْكَشَفِ الَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَانَ مَكْتُوبًا عِنْدَ
 جَعْفَرٍ فِي جِلْدِ ثَوَرٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونَ الْعَجَلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَمَاهُ الْجَفْرَ بِاسْمِ الْجِلْدِ
 الَّذِي كُتِبَ فِيهِ لِأَنَّ الْجَفْرَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الصَّغِيرُ وَصَارَ هَذَا الْإِسْمُ عَلَمًا عَلَى هَذَا الْكِتَابِ
 عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ الْمَعَانِي مَرْوِيَّةٌ عَنْ جَعْفَرٍ
 الصَّادِقِ وَهَذَا الْكِتَابُ لَمْ يَتَّصِلْ رِوَايَتُهُ وَلَا عُرِفَ عَيْنُهُ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَازٌ مِنْ
 الْكَلِمَاتِ لَا يَصْحُبُهَا دَلِيلٌ وَلَوْ صَحَّ السَّنَدُ إِلَى جَعْفَرٍ الصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نِعَمُ الْمُسْتَنَدِ
 مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ فَهُمُ أَهْلُ الْكِرَامَاتِ وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَذِّرُ بَعْضَ
 فِرَاتِيهِ بِوَقَائِعَ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصِحُّ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَذَّرَ يَحْيَى ابْنُ عَمِّهِ زَيْدٌ مِنْ مَضَرَعِهِ
 وَعَصَاهُ فَخَرَجَ وَقُتِلَ بِالْجَوَزِ جَانِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِذَا كَانَتِ الْكِرَامَةُ تَقَعُ لِغَيْرِهِمْ
 فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ عِلْمًا وَدِينًا وَآثَارًا مِنَ الثَّبُوتِ وَعِنَايَةٍ مِنَ اللَّهِ بِالْأَصْلِ الْكَرِيمِ تَشْهَدُ
 لِفُرُوعِهِ الطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى
 أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَانْظُرْ مَا حَكَاهُ ابْنُ الرَّفِيقِ فِي لِقَاءِ أَبِي
 عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ لِعَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مَعَ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْحَلِيبِ وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ وَكَيْفَ
 بَعَثَاهُ إِلَى ابْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِالْيَمَنِ فَأَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَبَثَّ الدَّعْوَةَ
 فِيهِ عَلَى عِلْمِهِ لِقَتْلِهِ أَنْ دَعَوَتُهُ تَمُّ هُنَاكَ وَأَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ لَمَّا بَنَى الْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ اسْتِغْثَالِ

دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ قَالَ بَنَيْتُهَا لِيَعْتَصِمَ بِهَا الْقَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَأَرَاهُمْ مَوْقِفَ صَاحِبِ
الْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَ يَسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْقِفِهِ حَتَّى جَاءَهُ الْخَبَرُ يُلَوِّغُهُ إِلَى
الْمَسْكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ جَدُّهُ أَبُو عُبَيْدٍ اللَّهُ فَأَيَّقَنَ بِالظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ الْبَلَدِ فَهَزَمَهُ وَاتَّبَعَهُ
إِلَى نَاحِيَةِ الزَّابِ فَظَفَرَ بِهِ وَقَتْلَهُ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ. وَأَمَّا الْمُنْجَمُونَ فَيَسْتَنْدُونَ
فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ إِلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ أَمَّا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِثْلِ الْمُلْكِ وَالْدُّوَلِ
فَمِنْ الْقِرَآنَاتِ وَخُصُوصًا بَيْنَ الْعَلَوِيِّينَ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَلَوِيِّينَ زُحَلَ وَالْمُشْتَرِي يَقْتَرِنَانِ فِي
كُلِّ عِشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ الْقِرَانُ إِلَى بُرْجِ آخَرٍ فِي تِلْكَ الْمُثْلَثَةِ مِنَ الثَّلَاثِ
الْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخَرٍ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي الْمُثْلَثَةِ الْوَاحِدَةِ ثِنْتِي عَشْرَةَ
مَرَّةً تَسْتَوِي بِرُوحِهِ الثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ
ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي الْمُثْلَثَةِ بِثِنْتِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَرْبَعُ عَوْدَاتٍ فِي مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ
سَنَةً وَيَكُونُ انْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى الثَّلَاثِ الْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمُثْلَثَةِ إِلَى الْمُثْلَثَةِ
الَّتِي تَلِيهَا أَعْنِي الْبُرْجَ الَّذِي يَلِي الْبُرْجَ الْآخِرَ مِنَ الْقِرَانِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمُثْلَثَةِ وَهَذَا
الْقِرَانُ الَّذِي هُوَ قِرَانُ الْعَلَوِيِّينَ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسْطٍ فَالْكَبِيرُ هُوَ أَجْمَاعُ
الْعَلَوِيِّينَ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفَلَكَ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمَائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً
وَاحِدَةً وَالْوَسْطُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعَلَوِيِّينَ فِي كُلِّ مُثْلَثَةٍ اثْنَتِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِثْلَتَيْنِ
وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثْلَثَةٍ أُخْرَى وَالصَّغِيرُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعَلَوِيِّينَ فِي دَرَجَةٍ بُرْجٍ
وَبَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ آخَرَ عَلَى ثَلَاثِيهِ الْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجَةٍ أَوْ دَقَائِقِهِ
مِثَالُ ذَلِكَ وَقَعُ الْقِرَانِ يَكُونُ أَوَّلَ دَقِيقَةٍ مِنَ الْحَمَلِ وَبَعْدَ عِشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ
الْأَسَدِ وَهَذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ وَهَذَا كُلُّهُ قِرَانٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ
سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرَ الْقِرَانِ وَعَوْدَ الْقِرَانِ وَبَعْدَ مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ النَّارِيَّةِ إِلَى
الْثَّرَائِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا وَهَذَا قِرَانٌ وَسْطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمَوَائِيَّةِ ثُمَّ الْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى
أَوَّلِ الْحَمَلِ فِي تِسْعِمَائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ الْكَبِيرُ وَالْقِرَانُ الْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ
الْأُمُورِ مِثْلَ تَغْيِيرِ الْمُلْكِ وَالْدُّوَلَةِ وَانْتِقَالِ الْمُلْكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَالْوَسْطُ عَلَى ظُهُورِ
الْمُتَغَلِّبِينَ وَالطَّالِبِينَ لِلْمُلْكِ وَالصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ الْخَوَارِجِ وَالِدُّعَاةِ وَخَرَابِ الْمُدُنِ أَوْ
عُمَرَانِهَا وَيَقَعُ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْقِرَآنَاتِ قِرَانُ النُّجُومِ فِي بُرْجِ السَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ

سَنَةً مَرَّةً وَيُسَمَّى الرَّابِعَ وَبُرْجُ السَّرَطَانِ هُوَ طَالِعُ الْعَالَمِ وَفِيهِ وَبَالُ زُحَلٍ وَهَبُوطُ
 الْمَرِيخِ فَتَعَظُمُ دَلَالَةُ هَذَا الْقِرَانِ فِي الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ وَظُهُورِ الْخَوَارِجِ
 وَحَرَكََةِ الْعَسَاكِرِ وَعِصْيَانِ الْجُنْدِ وَالْوَبَاءِ وَالْقَحْطِ وَيَدُومُ ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي عَلَى قَدَرِ
 السَّعَادَةِ وَالنُّحُوسَةِ فِي وَقْتِ قِرَانِهِمَا عَلَى قَدَرِ تَبَسِيرِ الدَّلِيلِ فِيهِ قَالَ جِرَاسُ بْنُ أَحْمَدَ
 الْحَاسِبُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَلْفَهُ لِنِظَامِ الْمَلِكِ وَرَجُوعِ الْمَرِيخِ إِلَى الْعَقْرَبِ لَهُ أَثَرٌ
 عَظِيمٌ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ دَلِيلًا قَالِمَوْلِدِ النَّبِيِّ كَانَ عِنْدَ قِرَانِ الْعَلَوِيِّينَ
 بِبُرْجِ الْعَقْرَبِ فَلَمَّا رَجَعَ هُنَاكَ حَدَثَ التَّشْوِيشُ عَلَى الْخُلَفَاءِ وَكَثُرَ الْمَرَضُ فِي أَهْلِ
 الْعِلْمِ وَالِدِّينَ وَتَقَصَّتْ أَسْوَالُهُمْ وَرُبَّمَا انْهَدَمَ بَعْضُ بُيُوتِ الْعِبَادَةِ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ
 عِنْدَ قَتْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَرْوَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالْمُتَوَكِّلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِذَا
 رُوِعِيَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ مَعَ أَحْكَامِ الْقِرَانَاتِ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْأَحْكَامِ وَذَكَرَ شَاذَانُ
 الْبَلْخِي أَنَّ الْمِلَّةَ تَنْتَهِي إِلَى ثَلَاثِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ وَقَدْ ظَهَرَ كَذِبُ هَذَا الْقَوْلِ وَقَالَ
 أَبُو مَعْشَرٍ يَظْهَرُ بَعْدَ الْمِائَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنْهَا اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ وَلَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ وَقَالَ خِرَاشُ
 رَأَيْتُ فِي كُتُبِ الْقَدَمَاءِ أَنَّ الْمُتَجَمِّينَ أَخْبَرُوا كِسْرَى عَنْ مُلْكِ الْعَرَبِ وَظُهُورِ النُّبُوَّةِ
 فِيهِمْ وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ الزُّهْرَةُ وَكَانَتْ فِي شَرْفِهَا فَيَبْقَى الْمَلِكُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَقَالَ
 أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِ الْقِرَانَاتِ الْقِسْمَةُ إِذَا انْتَهَتْ إِلَى السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْحُوتِ فِيهَا
 شَرَفُ الزُّهْرَةِ وَوَقَعَ الْقِرَانُ مَعَ ذَلِكَ بِبُرْجِ الْعَقْرَبِ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ ظَهَرَتْ حِينَئِذٍ
 دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ وَيَكُونُ قُوَّةُ مُلْكِهِ وَمُدَّتُهُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ دَرَجَاتِ شَرَفِ
 الزُّهْرَةِ وَهِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً بِتَقَرِيبٍ مِنْ بُرْجِ الْحُوتِ وَهُدَّةُ ذَلِكَ سِتِّمِائَةٍ وَعِشْرُ
 سِنِينَ وَكَانَ ظُهُورُ أَبِي مُسْلِمٍ عِنْدَ انْتِقَالِ الزُّهْرَةِ وَوُقُوعِ الْقِسْمَةِ أَوَّلَ الْحَمَلِ وَصَاحِبُ
 الْجَدِّ الْمُشْتَرِي وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ إِنَّ مُدَّةَ الْمِلَّةِ تَنْتَهِي إِلَى سِتِّمِائَةٍ
 وَثَلَاثَ وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ لِأَنَّ الزُّهْرَةَ كَانَتْ عِنْدَ قِرَانِ الْمِلَّةِ فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً
 وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنَ الْحُوتِ فَالْبَاقِي إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَمَانِ عَشْرَةَ دَقِيقَةً وَدَفَائِقُهَا
 سِتُونَ فَيَكُونُ سِتِّمِائَةٍ وَثَلَاثًا وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ وَهَذِهِ مُدَّةُ الْمِلَّةِ بِاتِّفَاقِ الْحُكَمَاءِ
 وَبَعْضُهُ الْحُرُوفُ الْوَاقِعَةُ فِي أَوَّلِ السُّورِ بِحَذْفِ الْمُكَرَّرِ وَاعْتِبَارِهِ بِحِسَابِ الْجَمَلِ
 قُلْتُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ وَالْغَالِبُ أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ مُسْتَنَدُ السُّهَيْلِيِّ فِيمَا تَقْلَنَاهُ

عَنْهُ قَالَ خِرَاشُ سَأَلَ هِرْمِزُ إِفْرِيدَ الْحَكِيمَ عَنْ مُدَّةِ أَرْدَشِيرَ وَوُلْدِهِ مُلُوكِ السَّاسَانِيَّةِ
فَقَالَ دَلِيلُ مُلْكِهِ الْمُشْتَرِي وَكَانَ فِي شَرْفِهِ فَيُعْطَى أَطْوَلُ السِّنِينَ وَأَجْوَدَهَا أَرْبَعُمِائَةٍ
وَسَبْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ تَزِيدُ الزُّهْرَةُ وَتَكُونُ فِي شَرْفِهَا وَهِيَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَيَمْلِكُونَ
لِأَنَّ طَالِعَ الْقِرَانِ الْمِيزَانَ وَصَاحِبِهِ الزُّهْرَةَ وَكَانَتْ عِنْدَ الْقِرَانِ فِي شَرْفِهَا فَدَلَّ أَنَّهُمْ
يَمْلِكُونَ أَلْفَ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَسَأَلَ كِسْرَى أَنْوِشِرْوَانَ وَزِيرَهُ بَزَرْجَهَرَ الْحَكِيمَ
عَنْ خُرُوجِ الْمَلِكِ مِنْ فَارِسَ إِلَى الْعَرَبِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْقَائِمَ مِنْهُمْ يُوَلِّدُ لِحَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ
مِنْ دَوْلَتِهِ وَيَمْلِكُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَالْمُشْتَرِي يَغُوصُ إِلَى الزُّهْرَةِ وَبَتَقِلُ الْقِرَانُ
مِنْ الْمَوَائِبَةِ إِلَى الْعَقَرِ وَهُوَ مَاثِي وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَهَذِهِ الْأَدِلَّةُ تُنْفِي لِلْمِلَّةِ بِمُدَّةِ
دَوْرِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ أَلْفٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَسَأَلَ كِسْرَى أَبَرْوِيزُ الْيُوسُ الْحَكِيمَ عَنْ ذَلِكَ
فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ بَزَرْجَهَرَ وَقَالَ تُوْفِيلُ الرُّومِيُّ الْمُنْجِمُ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ إِنَّ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ
تَبْقَى مُدَّةَ الْقِرَانِ الْكَبِيرِ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً فَإِذَا عَادَ الْقِرَانُ إِلَى بُرْجِ الْعَقَرِ
كَمَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْمِلَّةِ وَتَغَيَّرَ وَضْعُ الْكَوَاكِبِ عَنْ مَوَاقِعِهَا فِي قِرَانِ الْمِلَّةِ فَحِينَئِذٍ
إِمَّا أَنْ يَفْتَرَّ الْعَمَلُ بِهِ أَوْ يَتَجَدَّدَ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يُوجِبُ خِلَافَ الظَّنِّ قَالَ خِرَاشُ
وَأَتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ خَرَابَ الْعَالَمِ يَكُونُ بِأَسْنِيَلَاءِ الْمَاءِ وَالنَّارِ حَتَّى تَهْلِكَ سَائِرُ الْمَكُونَاتِ
وَذَلِكَ عِنْدَ مَا يَقْطَعُ قَلْبُ الْأَسَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَهِيَ حَدُّ الْمَرْيَجِ وَذَلِكَ بَعْدَ
مُضِيِّ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَذَكَرَ خِرَاشُ أَنَّ مَلِكَ زَابُلِسْتَانَ بَعَثَ إِلَى الْمَأْمُونِ
بِحَكِيمِهِ ذُو بَانَ أُنْخَفَهُ بِهِ فِي هَدِيَّةٍ وَأَنَّهُ تَصَرَّفَ لِلْمَأْمُونِ فِي الْإِخْتِيَارَاتِ بِمُجْرُوبِ أَخِيهِ
وَبِعَقْدِ اللَّوَاءِ لِطَاهِرٍ وَأَنَّ الْمَأْمُونِ أَعْظَمَ حِكْمَتَهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مُدَّةِ مُلْكِهِمْ فَأَخْبَرَهُ
بِأَنْقِطَاعِ الْمَلِكِ مِنْ عَقِبِهِ وَأَتَصَالِهِ فِي وَلَدِ أَخِيهِ وَأَنَّ النِّجْمَ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْخِلَافَةِ مِنْ
الدَّيْلَمِ فِي دَوْلَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَيَكُونُ مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ ثُمَّ يَسُوءُ حَالُهُمْ ثُمَّ تَظْهَرُ التَّرْكُ مِنَ
شِمَالِ الْمَشْرِقِ فَيَمْلِكُونَ إِلَى الشَّامِ وَالْفُرَاتِ وَسِيحُونَ وَسَيَمْلِكُونَ بِلَادَ الرُّومِ وَيَكُونُ
مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا فَقَالَ مِنْ كُتُبِ الْحُكَمَاءِ وَمِنْ أَحْكَامِ
صَصَةَ بْنِ دَاهِرِ الْهِنْدِيِّ الَّذِي وَضَعَ الشِّطْرَنْجَ قُلْتُ وَالتَّرْكُ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَى ظُهُورِهِمْ
بَعْدَ الدَّيْلَمِ هُمُ السُّجُوقِيَّةُ وَقَدْ انْقَضَتْ دَوْلَتُهُمْ أَوَّلَ الْقَرْنِ السَّابِعِ قَالَ خِرَاشُ وَأَنْتَقَالَ
الْقِرَانُ إِلَى الْمِثْلَةِ الْمَائِيَّةِ مِنْ بُرْجِ الْحُوتِ يَكُونُ سَنَةً ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ

ليزدجرد وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قرآن الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي
في الحوت هو أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال وتحويل
السنة الأولى من القرآن الأول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين
وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك. وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص
فمن القرآن الأوسط ومبته الفلك عند وقوعه لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة
وجهايتها من الثمران والقائمين بها من الأمم وعند ملوكهم وأماهم وأغمارهم ونجليهم
وأديانهم وعوائدهم وحرورهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرائن وقد توجد هذه
الدلالة من القرآن الأصغر إذا كان الأوسط دالا عليه فمن هذا يوجد الكلام في الدول
وقد كان يعقوب ابن إسحاق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرائن الكائنة
في الملة كتابا سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق وذكر
فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس وأنها نهايته وأشار إلى أنقراضها والحادثة على
بغداد أنها تقع في منتصف المائة السابعة وأنه بأنقراضها يكون أنقراض الملة ولم تقف
على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحتها
هلاكو ملك التبر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصر آخر الخلفاء وقد
وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبني
عبد المؤمنين لذكر الأولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن
ذلك من حديثه وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون
وكُتب في الحديثان وأنظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب
صنائع الدولة قال بعث إليّ الربيع والحسن في غزائيهما مع الرشيد أيام أبيه فحجتهما
جوف الليل فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحديثان وإذا مدة المهدي فيه
عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ما مضى فإذا
وقف عليه كنتم قد نعيتم إليه نفسه قالوا فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الوراق مولى
البديل وقلت له أنسخ هذه الورقة وأكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله لولا
أنني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي ثم كتب
الناس من بعد ذلك في حديثان الدول منظوما ومنثورا ورجزا ما شاء الله أن يكتبوه

وَبِأَيْدِي النَّاسِ مُتَفَرِّقَةً كَثِيرٌ مِنْهَا وَتُسَمَّى الْمَلَا حِمٍ وَبَعْضُهَا فِي حَدَّثَانِ الْمِلَّةِ عَلَى التَّمُومِ
وَبَعْضُهَا فِي دَوْلَةٍ عَلَى الْخُصُوصِ وَكُلُّهَا مَنَسُوبَةٌ إِلَى مَشَاهِيرَ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَلَيْسَ مِنْهَا أَصْلٌ
يُعْتَمَدُ عَلَى رِوَايَتِهِ عَنْ وَاضِعِهِ الْمَنَسُوبِ إِلَيْهِ فَمِنْ هَذِهِ الْمَلَا حِمِ بِالْمَغْرِبِ قَصِيدَةُ ابْنِ
مُرَّانَةَ مِنْ بَحْرِ الطَّوِيلِ عَلَى رَوِيِّ الرَّاءِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ وَتَحْسِبُ الْعَامَّةُ أَنَّهَا مِنْ
الْحَدَّثَانِ الْعَامِّ فَيُطَاغُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا عَلَى الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ شُبُوحِنَا
أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِدَوْلَةٍ لِمَثُونَةٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ قَبِيلَ دَوَاتِهِمْ وَذَكَرَ فِيهَا اسْتِغْلَاظَهُمْ عَلَى
سَبْتَةِ مَنْ يَدِ مَوَالِي بَنِي حَمُودٍ وَمُلْكِهِمْ لِعُدُوِّهِ الْأَنْدَلُسِيِّ وَمِنْ الْمَلَا حِمِ يَدِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
أَيْضًا قَصِيدَةٌ تُسَمَّى التَّبَعِيَّةُ أَوَّلُهَا

طَرِبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرَبٌ وَقَدْ يَطْرَبُ الطَّائِرُ الْمُغْتَصَبُ
وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلَّهِ أَرَاهُ وَلَكِنْ لِنَذْكَارِ بَعْضِ السَّبَبِ
قَرِيبًا مِنْ خَمْسِمِائَةٍ يَنْتِ أَوَّلُهَا فِيمَا يُقَالُ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَأَشَارَ
فِيهَا إِلَى الْفَاطِمِيِّ وَغَيْرِهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ وَمِنْ الْمَلَا حِمِ بِالْمَغْرِبِ أَيْضًا مَلْعَبَةٌ
مِنْ الشَّعْرِ الرَّجَلِيِّ مَنَسُوبَةٌ لِبَعْضِ الْيَهُودِ ذَكَرَ فِيهَا أَحْكَامَ الْقِرَاطَاتِ لِعَصْرِهِ الْعَلَوِيِّينَ
وَالنَّحْسِينَ وَغَيْرَهَا وَذَكَرَ مِثْلَهُ قَتِيلًا بِفَاسَ وَكَانَ كَذَلِكَ فِيمَا زَعَمُوهُ وَأَوَّلُهُ
فِي صَبْغِ ذَا الْأَزْرَقِ لَشَرَفِهِ خِيَارًا فَافْهَمُوا بِاقُومِ هَذِهِ الْإِشَارَا
نَجْمُ زَحَلٍ أَخْبَرَ بِذِي الْعَلَامَا وَبَدَّلَ الشُّكْلَا وَهِيَ سَلَامَا
شَاشِيَةٌ زَرْقَا بَدَلُ الْعَامَا وَشَاشَ الْأَزْرَقُ بَدَلُ الْفَزَارَا
يَقُولُ فِي آخِرِهِ

قَدْ تَمَّ ذَا التَّجْنِيسِ لِنَاسَانِ يَهُودِي يَصْلُبُ فِي بَلَدَةِ فَاسَ فِي يَوْمِ عِيدِ
حَتَّى يَجِيَهُ النَّاسُ مِنَ الْبُوَادِي وَقَتْلُهُ بِاقُومِ عَلَى الْفَرَادِ
وَأَيَّانُهُ نَمَحُوهُ الْخَمْسِمِائَةِ وَهِيَ فِي الْقِرَاطَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَمِنْ مَلَا حِمِ الْمَغْرِبِ
أَيْضًا قَصِيدَةٌ مِنْ عَرُوضِ الْمُتَقَارِبِ عَلَى رَوِيِّ الْبَاءِ فِي حَدَّثَانِ دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ
بُنُوْسَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مَنَسُوبَةٌ لِابْنِ الْأَبَّارِ وَقَالَ لِي قَاضِي فُسْطَاطِيَّةِ الْخَطِيبِ الْكَبِيرِ
أَبُو عَلِيٍّ بْنُ بَادِيسَ وَكَانَ بَصِيرًا بِمَا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدَمٌ فِي التَّشْجِيمِ فَقَالَ لِي إِنَّ هَذَا ابْنُ الْأَبَّارِ
لَيْسَ هُوَ الْحَافِظُ الْأَنْدَالِيُّ الْكَاتِبُ مَقْتُولُ الْمُسْتَنْصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خِيَّاطٌ مِنْ أَهْلِ

نُونِسَ نَوَاطَاتُ شُهْرَتُهُ مَعَ شُهْرَةِ الْحَافِظِ وَكَانَ وَالِدِيهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُنْشِدُ هَذِهِ
الْآيَاتَ مِنْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي حِفْظِي مَطْلَعُهَا

عَذِيرِي مِنْ زَمَنِ قَلْبٍ يَغُرُّ بِبَارِقِهِ الْأَشْنَبِ
وَيَبْعَثُ مِنْ جَيْشِهِ فَائِدًا وَيَبْقَى مِنْكَ عَلَى مَرْقَبِ
فَتَأْتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ فَيُقْبِلُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
وَيُظْهِرُ مِنْ عَدْلِهِ سِيرَةً وَتِلْكَ سِيَّاسَةُ مُسْتَجَابِ

ومنها في ذكر احوال نونس على العموم

فَإِمَّا^(١) رَأَيْتَ الرُّسُومَ أَمَحَّتْ وَلَمْ يُرْعَ حَقُّ لِيَدِيهِ مَنَصِبِ
تُخَذُ فِي التَّرَحُّلِ عَنْ نُونِسَ وَوَدَّعَ مَعَالِمَهَا وَأَذْهَبَ
فَسَوَتْ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةٌ تُضَيِّفُ الْبَرِيءَ إِلَى الْمَذْنِبِ
وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَنْصِ هَوْلَاءِ بِنُونِسَ فِيهَا بَعْدَ
السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى الشَّهِيرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ يَقُولُ فِيهَا
وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ شَقِيقُهُ وَيُعْرِفُ بِالْوَثَابِ فِي نُسْخَةِ الْأَصْلِ
إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يُعْنِي بِذَلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ وَمِنْ
الْمَلَا حِمٍ فِي الْمَغْرِبِ أَيْضًا الْمَلْعَبَةُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى الْهَوَاشِيِّ عَلَى لُغَةِ الْعَامَّةِ فِي عَرُوضِ الْبَلَدِ

دعني بدمعي الهتان قترت الامطار ولم تفر

واستقت كلها الوبدان واني تملى وتغدر

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَتَحْفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَالْغَالِبِ عَلَيْهَا الْوَضْعُ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنْهَا
قَوْلٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلٍ تُعْرِفُهُ الْعَامَّةُ أَوْ الْحَارِفُ فِيهِ مَنْ يَتَحَلَّلُهَا مِنَ الْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ
عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَافِظِيِّ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ شَبِهَ الْأَلْفَاظَ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا
اللَّهُ لِيَتَحَلَّلَ إِلَى أَوْفَاقٍ عَدَدِيَّةٍ وَرَمُوزٍ مَلْفُوزَةٍ وَأَشْكَالٍ حَيَوَانَاتٍ تَامَةٍ وَرُؤُوسٍ مُقَطَّعَةٍ
وَتَمَائِيلٍ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ وَفِي آخِرِهَا قَصِيدَةٌ عَلَى رَوِيِّ اللَّامِ وَالْغَالِبِ أَنَّهَا كَلَّمَا
غَيْرُ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلِ عِلْمِيٍّ مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَسَمِعْتُ أَيْضًا أَنَّ هُنَاكَ

١ قوله فاما رايت اصله فان رايت زيدت ما وادغمت في ان الشرطية المحذوف نونها خطأ وفي نسخة فلما
رايت والاولى هي الموجودة في النسخة التونسية ١٠٠٠ قاله نصر

مَلَا حِمٍّ أُخْرَى مَنَسُوبَةً لِابْنِ سِينَاءَ وَابْنِ عُقَابٍ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى الصِّحَّةِ لِأَنَّ
ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْقِرَآنَاتِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ أَيْضًا عَلَى مِلْحَمَةٍ مِنْ حَدَّثَانِ دَوْلَةِ
الْأَنْزَلِ مَنَسُوبَةٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ يُسَمَّى الْبَاجَرِ بَنِيَّ وَكَلَّمَهَا الْغَزَّ بِالْحُرُوفِ أَوَّلَهَا

إِنْ شِئْتَ تَكْشِفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سُوْلِي مِنْ عِلْمٍ جَنَرٍ وَمِيقَةٍ وَالِدِ الْحَسَنِ
فَأَفْهَمَ وَكُنْ وَاعِيًا حَرْفًا وَجُمْلَةً وَالْوَصَفَ فَأَفْهَمَ كِفْعَلِ الْحَاذِقِ الْقَطِينِ
أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَصْرِي لَسْتُ أَذْكُرُهُ لَكِنِّي أَذْكُرُ الْآلِيَّ مِنَ الزَّمَنِ
بِشَهْرِ بَيْبَرَسَ يَبْقَى بَعْدَ خَمْسَتِهَا بِمَجَاءِ يَمِينٍ بِطَبِيشٍ نَامَ فِي الْكُنَنِ
شَيْنٌ لَهُ أَثَرٌ مِنْ تَحْتِ سُرَّتِهِ لَهُ الْقَضَاءُ قَضَى أَيُّ ذَلِكَ الْمِنَنِ
فِي مَصْرٍ وَالشَّامِ مَعَ أَرْضِ الْعِرَاقِ لَهُ وَأَذَرِ بِيحَابٍ فِي مَلِكٍ إِلَى الْيَمَنِ
وَأَيَّانَهَا كَثِيرَةٌ وَالْغَالِبُ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ وَمِثْلُ صِنْعَتِهَا كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ كَثِيرَةٌ

وَمَعْرُوفُ الْإِنْتِحَالِ

حَكَى الْمَوْزِخُونَ لِأَخْبَارِ بَغْدَادَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا أَيَّامَ الْمُقْتَدِرِ وَرَاقٌ ذَكَرِي يُعْرِفُ
بِالدَّانِي بَيْلُ الْأَوْرَاقِ وَيَكْتُبُ فِيهَا بِخَطِّ عَتِيقٍ يَرْمُزُ فِيهِ بِحُرُوفٍ مِنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ
الدَّوْلَةِ وَيُشِيرُ بِهَا إِلَى مَا يَعْرِفُ مِنْهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الرِّفْعَةِ وَالْجَوَادِ كَانَتْهَا مَلَا حِمٍّ وَيَحْصُلُ
عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّهُ وَضَعَ فِي بَعْضِ دَفَاتِرِهِ مِيمًا مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُفْلِحٍ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ فَقَالَ لَهُ هَذَا كِتَابَةٌ عَنْكَ وَهُوَ مُفْلِحٌ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ
وَذَكَرَ عَنْهُ مَا يَرْضَاهُ وَبَنَاهُ مِنَ الدَّوْلَةِ وَنَصَبَ لِذَلِكَ عَلَامَاتٍ بِمَوَاهِدِهَا عَلَيْهِ فَبَدَّلَ لَهُ
مَا أَغْنَاهُ بِهِ ثُمَّ وَضَعَهُ لِلْوَزِيرِ ابْنِ الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ عَلَى مُفْلِحٍ هَذَا وَكَانَ مَعْرُوفًا لِحُجَّاهُ
بِأَوْرَاقٍ مِثْلِهَا وَذَكَرَ أَسْمَ الْوَزِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَبِعَلَامَاتٍ ذَكَرَهَا وَأَنَّهُ يَلِي
الْوِزَارَةَ لِلثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَتَسْنِيقِ الْأُمُورِ عَلَى يَدَيْهِ وَيَقْرَأُ الْأَعْدَاءَ وَتَعْمُرُ الدُّنْيَا
فِي أَيَّامِهِ وَأَوْقَفَ مُفْلِحًا هَذَا عَلَى الْأَوْرَاقِ وَذَكَرَ فِيهَا كَوَائِنَ أُخْرَى وَمَلَا حِمٍّ مِنْ هَذَا
النَّوعِ مِيمًا وَقَعَ وَمِيمًا لَمْ يَقَعْ وَنَسَبَ جَمِيعَهُ إِلَى دَانَالٍ فَأَعْجَبَ بِهِ مُفْلِحٌ وَوَقَفَ عَلَيْهِ
الْمُقْتَدِرُ وَاهْتَدَى مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ وَالْعَلَامَاتِ إِلَى ابْنِ وَهْبٍ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لَوِزَارَتِهِ
بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ الْعَرِيقَةِ فِي الْكُذْبِ وَالْجَهْلِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ
الْمِلْحَمَةَ الَّتِي يَنْسِبُونَهَا إِلَى الْبَاجَرِ بَنِيٍّ مِنْ هَذَا النَّوعِ وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَكْمَلَ الدِّينِ ابْنَ

شَيْخِ الْخَلْفَةِ مِنَ النِّجَمِ بِالذِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ عَنْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ وَعَنْ هَذَا الرَّجُلِ
الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَهُوَ الْبَاجِرِيُّ وَقَدْ كَانَ عَارِفًا بِطَرَائِقِهِمْ فَقَالَ كَانَ مِنْ
الْقَلَنْدَرِيَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ فِي حَلَقِ اللَّحْيَةِ وَكَانَ يَقَعُّ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ الْكَشْفِ وَيُؤْمِي
إِلَى رِجَالٍ مُعَيَّنِينَ عِنْدَهُ وَيَأْخُذُ عَلَيْهِمْ بِحُرُوفٍ يُعَيِّنُهَا فِي خِمَنِهَا لِمَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا
يُظْهِرُ نَظْمٌ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَامَدُهَا فَتَنَوَّلَتْ عَنْهُ وَوَلَّعَ النَّاسُ بِهَا وَجَعَلُوهَا
مَلْحَمَةً مَرْمُوزَةً وَزَادَ فِيهَا الْخَرَّاصُونَ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَشَغِلَ الْعَامَّةُ بِفِكَ
رُمُوزِهَا وَهُوَ أَمْرٌ مُمْتَنِعٌ إِذِ الرَّمْزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونٌ يُعْرَفُ قَبْلَهُ وَيُوضَعُ
لَهُ وَأَمَّا مِثْلُ هَذِهِ الْحُرُوفِ فَدِلَالَتُهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا تَخْصُوصَةٌ بِهَذَا النَّظْمِ لَا يَتَجَاوَزُهُ
فَرَأَيْتُ مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ شِفَاءً لِمَا كَانَ فِي النَّفْسِ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ



الفصل الرابع

من الكتاب الاول

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال
وفيه سوابق ولواحق

الفصل الاول

في ان الدول من المدن والامصار وانما توجد ثانية عن الملك
وَيَبَيِّنُهُ أَنَّ الْبِنَاءَ وَاخْتِطَاطَ الْمَنَازِلِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَازِعِ الْحِضَارَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
التَّرَفُّ وَاللَّذَّةُ كَمَا قَدْ مَنَاهُ ذَلِكَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَهَازِعِهَا وَأَيْضًا فَالْمَدُنُ وَالْأَمْصَارُ
ذَاتُ هِيََاكِلَ وَأَجْرَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْمُحُومِ لَا لِلْخُصُوصِ فَتَحْتَاجُ
إِلَى أَجْتِمَاعِ الْأَيْدِي وَكَثْرَةِ التَّعَاوُنِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ الْفَرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي نَمُّ بِهَا
الْبَلَوَى حَتَّى يَكُونَ نُزُوعُهُمْ إِلَيْهَا اضْطِرَارًا بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَسَوْفِهِمْ
إِلَيْهِ مُضْطَهَدِينَ بِعَصَا الْمَلَائِكِ أَوْ مُرَغَّبِينَ فِي الثَّوَابِ وَالْآخِرِ الَّذِي لَا يَنْبِي بِكَثْرَتِهِ إِلَّا

الْمُلْكُ وَالِدَوْلَةُ فَلَا بُدَّ فِي تَمْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ مِنَ الدَّوْلَةِ وَالْمُلْكِ ثُمَّ إِذَا
 بُنِيَ الْمَدِينَةُ وَكُمِّلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرٍ مِنْ شَيْدِهَا وَبِمَا اقْتَضَتْهُ الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ
 وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعُمِّرُ الدَّوْلَةُ حِينَئِذٍ عُمُرُهَا فَإِنْ كَانَ عُمُرُ الدَّوْلَةِ قَصِيرًا وَقَفَتْ الْحَالُ فِيهَا
 عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عُمُرَانِهَا وَخَرِبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ الدَّوْلَةِ طَوِيلًا وَمُدَّتْهَا مُنْفِصَةً
 فَلَا تَزَالُ الْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُّ وَالْمَنَازِلُ الرَّحِيْبَةُ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ الْأَسْوَاقِ
 يَتَبَاعَدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تُتَسِعَ الْخِطَّةُ وَتَبْعَدَ الْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذَرْعُ الْمَسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ
 بِبَغْدَادَ وَأَمْثَالِهَا. ذَكَرَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ الْحَمَامَاتِ بَلَغَ عَدْدُهَا بِبَغْدَادَ لِعَهْدِ
 الْمَأْمُونِ خَمْسَةَ وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَامٍ وَكَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمُتَقَارِبَةٍ
 تَجَاوَزُ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةً وَحْدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِإِفْرَاطِ الْعُمُرَانِ وَكَذَا حَالُ
 الْقَيْرَوَانِ وَقُرْطُبَةَ وَالْمَهْدِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْأِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْمُشِيدَةِ لِلْمَدِينَةِ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ لِضَوَاحِي تِلْكَ
 الْمَدِينَةِ وَمَا قَارَبَهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَسَائِطِ بَادِيَةٌ بِعِدْهَا الْعُمُرَانُ دَائِمًا فَيَكُونُ ذَلِكَ
 حَافِظًا لَوْجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عُمُرُهَا بَعْدَ الدَّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِفَاسَ وَبِجَايَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبِعِرَاقِ
 النِّجْمِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْمَوْجُودِ لَهَا الْعُمُرَانُ مِنَ الْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبِلَادَةِ إِذَا انْتَهَتْ
 أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الرِّفَةِ وَالْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى الدَّعَةِ وَالشُّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ
 الْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ الْمُدُنَ وَالْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَتِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمَوْسِمَةُ
 مَادَّةٌ تُفِيدُهَا الْعُمُرَانُ بِتَرَادُفِ السَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ انْقِرَاضُ الدَّوْلَةِ خَرَقًا
 لِسَبَاجِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقَصُ عُمُرَانُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَذْغُرَ مَا كُنِيَهَا وَتُخْرِبَ
 كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَغْدَادَ وَالْكُوفَةِ بِالْمَشْرِقِ وَالْقَيْرَوَانِ وَالْمَهْدِيَّةِ وَقَلْعَةِ بَنِي حَمَادٍ
 بِالْمَغْرِبِ وَأَمْثَالِهَا فَتَقْهَمُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ الْمَدِينَةُ بَعْدَ انْقِرَاضِ مُخْتَلِطِهَا الْأَوَّلِينَ مَلِكٌ
 آخَرُ وَدَوْلَةٌ ثَانِيَةٌ يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًا يَسْتَفْنِي بِهَا عَنْ اخْتِطَاطِ مَدِينَةٍ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ
 تِلْكَ الدَّوْلَةُ سَبَاجِهَا وَتَزِيدُ مَبَانِيهَا وَمَصَانِعِهَا بِتَزَايِدِ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَتَرْفُهَا
 وَتَسْجِدُ بِعُمُرَانِهَا عُمُرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسَ وَالْقَاهِرَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني

في ان الملك يدعو الى نزول الامصار

وذلك ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار
لامرين احدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وحط الاثقال واستكمال
ما كان ناقصا من امور العمران في البدو والثاني دفع ما يتوقع على الملك من امر
المنازعين والمشاعيين لان المضر الذي يكون في توحيهم ربما يكون ملجأ
للمن يرؤم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سموا اليه من ايديهم
فيعتصم بذلك المضر ويغالبهم ومغالبة المضر على نهاية من الصعوبة والمشقة
والمضر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من
وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصاية
انما احتيج اليهما في الحرب للثبات لما يقع من بعد كربة القوم بعضهم على بعض عند
الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون الى كبير عصابة ولا عدد فيكون حال
هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين ما يفت في عضد الامة التي ترؤم الاستيلاء
ويخضع شوكة استيلائها فاذا كانت بين اجنابهم امصارا انتظموها في استيلائهم للامن
من مثل هذا الانحرام وان لم يكن هناك مضر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم
اولاه وحط اثقالهم وليكون شجبا في حلق من يرؤم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم
وعصائبهم فتعين ان الملك يدعو الى نزول الامصار والاستيلاء عليها والله سبحانه
وتعالى اعلم وبه التوفيق لا رب سواه

الفصل الثالث

في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وانها تكون على نسبتها وذلك ان
تشيد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة
متسعة الممالك حشيرة الفعلة من اقطارها وجمعت ايديهم على عملها وربما استعين في
ذلك في اكثر الامر بالهندام الذي يضاعف القوي والقدر في حمل اثقال البناء

لِعَجْزِ الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَضَعْفِهَا عَنْ ذَلِكَ كَالْمَخَالِ وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا يَتَوَمَّنُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا نَظَرَ إِلَى آثَارِ الْأَقْدَمِينَ وَمَصَانِعِهِمُ الْعَظِيمَةِ مِثْلِ إِيوَانَ كِسْرَى وَأَهْرَامِ مِصْرَ وَحَنَابَا الْمُعَلَّقَةِ وَشَرْشَالِ بِالْمَغْرِبِ إِنَّمَا كَانَتْ يَقْدِرُهُمْ مَتَرَفَيْنِ أَوْ مَجْتَمِعِينَ فَيَتَخِيلُ لَهُمْ أَجْسَامًا تُنَاسِبُ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ كَثِيرٌ فِي طُولِهَا وَقُدْرَتِهَا لِتَنَاسُبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقُدْرِ الَّتِي صَدَرَتْ تِلْكَ الْمَبَانِي عَنْهَا وَيُغْفَلُ عَنْ شَأْنِ الْهِنْدَامِ وَالْمَخَالِ وَمَا أَقْتَضَتْهُ فِي ذَلِكَ الصَّنَاعَةُ الْهِنْدَسِيَّةُ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ فِي الْبِلَادِ يُعَايِنُ فِي شَأْنِ الْبِنَاءِ وَاسْتِعْمَالِ الْحِجْلِ فِي نَقْلِ الْأَجْرَامِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُعْتَنِينَ بِذَلِكَ مِنَ الْعَجَمِ مَا يَشْهَدُ لَهُ بِمَا قُلْنَاهُ عَيَانًا وَكَثُرَ آثَارُ الْأَقْدَمِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَسْمِيهَا الْعَامَّةُ عَادِيَّةً نِسْبَةً إِلَى قَوْمِ عَادٍ لِتَوْثُمِهِمْ أَنَّ مَبَانِي عَادٍ وَمَصَانِعِهِمْ إِنَّمَا عَظُمَتْ لِعَظَمِ أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعَفَ قُدْرُهُمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَقَدْ نَجِدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ الَّذِينَ تُعْرَفُ مُقَادِيرُ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَهِيَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْعَظَمِ أَوْ أَعْظَمَ كإِيوَانَ كِسْرَى وَمَبَانِي الْعَبِيدِيِّينَ مِنَ الشَّيْعَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالصَّنْهَاجِيِّينَ وَآثَرُهُمْ بَادٍ إِلَى الْيَوْمِ فِي صَوْمَعَةٍ قَلْعَةٍ بَنَى حَمَادٌ وَكَذَلِكَ بَنَاهُ الْأَغَالِبَةُ فِي جَامِعِ الْفَيْرَوَانَ وَبَنَاهُ الْمُوَحِّدِينَ فِي رِبَاطِ الْفَتْحِ وَرِبَاطِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ لِعَهْدِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْمَنْصُورَةِ بِإِزَاءِ تَلَمْسَانَ وَكَذَلِكَ الْخَنَابَا الَّتِي جَلَبَ إِلَيْهَا أَهْلُ قَرْطَاجَةَ الْمَاءَ فِي الْقَنَاقَةِ الرَّائِكَةِ عَلَيْهَا مَائِلَةٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَبَانِي وَالْهَيَاكِلِ الَّتِي نَقَلَتْ إِلَيْنَا أَخْبَارَ أَهْلِهَا قَرِيبًا وَبَعِيدًا وَثَبَتْنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مُقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا رَأْيٌ وَلَيْعَ بِهِ الْفُصَّاصُ عَنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَنَجِدُ يَبُوتَ ثَمُودَ فِي الْحَجَرِ مَنْحُوتَةً إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا يَوْمُهُمْ يَمُرُّ بِهَا الرُّكْبُ الْمِجَازِيُّ أَكْثَرَ السِّنِينَ وَيُشَاهِدُونَهَا لِاتِّزِيدَ فِي جَوْهَا وَمَسَاحَتِهَا وَتَمَكُّهَا عَلَى الْمُتَعَاهِدِ وَإِنَّهُمْ لَيَبَالِغُونَ فِيهَا بِعَتَقِدُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَزْعُمُونَ أَنَّ عَوْجَ بَنِ عَنَاقٍ مِنْ جِيلِ الْعَمَالِقَةِ كَانَ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ طَرِيقًا فَيَشْوِيهِ فِي الشَّمْسِ يَزْعُمُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الشَّمْسَ حَارَّةٌ فِيمَا قُرْبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ فِيمَا لَدَيْنَا هُوَ الضَّوُّ لِانْعِكَاسِ الشَّعَاعِ بِمُقَابَلَةِ سَطْحِ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَأَمَّا الشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ وَلَا بَارِدَةٍ وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيٌّ لَا مِزَاجَ لَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي حَيْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثَارَ الدَّوْلَةِ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُخَوِّصُكُمْ مَا يُرِيدُ

الفصل الرابع

في ان الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ الْبِنَاءِ إِلَى التَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ الْقَدْرِ الْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ الْمَبَانِي فِي عِظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْقَدْرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِالْهِنْدَامِ كَمَا قُلْنَاهُ فَيُتَعْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدْرٍ أُخْرَى مِثْلَهَا فِي أَرْزَمَةٍ مُتَعاقِبَةٍ إِلَى أَنْ تُتِمَّ فَيَبْتَدِئُ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ وَيَعْقِبُهُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ اسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَذَرِ الْفَعْلَةِ وَجَمَعَ الْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ وَيَكْمُلَ وَيَكُونُ مَائِلاً لِلْعِيَانِ بِظَنِّهِ مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْآخَرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَنْظُرْ فِي ذَلِكَ مَا نَقَلَهُ الْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ سِدِّ مَارِبَ وَأَنَّ الَّذِي بَنَاهُ سَبَا بْنُ يَشْجَبَ وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَادِيًا وَعَاقَهُ الْمَوْتُ عَنْ إِنْصَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ خَيْرٍ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هَذَا مَا نُقِلَ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجِنَةَ وَقَنَاتِنَا الرَّاكِبَةِ عَلَى الْحَنَابَا الْعَادِيَةِ وَأَكْثَرُ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ فِي الْغَالِبِ هَذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ الْمَلِكَ الْوَاحِدَ يَشْرِعُ فِي اخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتَّبِعْ أَثَرُهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُلُوكِ فِي إِنْصَامِهَا بَقِيَتْ بِحَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ الْقَصْدُ فِيهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَيْضًا أَنَّا نَجِدُ أَثَارًا كَثِيرَةً مِنَ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ تَعْجُزُ الدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَعَ أَنَّ الْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ الْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ الْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ وَالْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضَعُ قُوَّتُنَا الْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سَهُولَةِ الْهَدْمِ عَلَيْنَا أَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي أَسَّسَتْهُ مُفْرَطَةُ الْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَثَرُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهَذَا مِثْلُ مَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ فِي إِيْرَانَ كَسَرَى لَمَّا اعْتَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ فِي مَحَبِّهِ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَأَثَرُكَ مَائِلاً يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عِظَمِ مُلْكِ آبَائِكَ الَّذِينَ سَلَبُوا الْمُلْكَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الْهَيْكَلِ فَأَتَمَّحَهُ فِي النَّصِيحَةِ وَقَالَ أَخَذْتُهُ النُّعْرَةَ لِلْعَجَمِ وَاللَّهُ لَا ضَرَعَنَّهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ الْأَيْدِي عَلَيْهِ وَأَتَمَّغَهُ لَهُ الْفُؤُسُ وَحَمَاهُ بِالنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ الْخَلَّ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَجْزُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَخَافَ الْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي التَّجَافِي عَنْ الْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ وَأَسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ لِمَّا يُقَالُ عَجَزَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ الْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ الْعَجَمِ فَعَرَفَهَا الرَّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ الْأَهْرَامِ الَّتِي بِمِصْرَ

وَجَمَعَ الْفَعْلَةَ إِهْدَمَهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي تَقْبِهِ فَأَنْتَهَوْا إِلَى جَوِّ بَيْنَ الْحَائِطِ وَالظَّاهِرِ
 وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْحَيْطَانِ وَهُنَالِكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مَنْفَذُ ظَاهِرٍ
 وَيَزْعُمُ الزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازًا بَيْنَ تِلْكَ الْحَيْطَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَكَذَلِكَ حَنَابَا الْعُلُقَةِ
 إِلَى هَذَا الْعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلُ مَدِينَةِ نُونِسَ إِلَى انْتِخَابِ الْحِجَارَةِ لِبِنَائِهِمْ وَتَسْتَجِيدُ الصَّنَاعُ
 حِجَارَةَ تِلْكَ الْحَنَابَا فَيَحَاوِلُونَ عَلَى هَدْمِهَا الْأَيَّامَ الْعَدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ الصَّغِيرُ مِنْ جُذْرَانِهَا
 إِلَّا بَعْدَ عَصَبِ الرِّبْقِ وَتَجْتَمِعُ لَهُ الْحَوَائِلُ الْمَشْهُورَةُ تُهْدَتُ مِنْهَا فِي أَيَّامٍ صِبَايَ
 كَثِيرًا وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

الفصل الخامس

فَمَا تَجِبُ مَرَاعَاتُهُ فِي أَوْضَاعِ الْمَدَنِ وَمَا يَحْدُثُ إِذَا غُذِلَ عَنِ الْمَرَاعَةِ
 اعْلَمْ أَنَّ الْمَدُنَ قَرَارٌ يَتَّخِذُهُ الْأُمَمُ عِنْدَ حُصُولِ الْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ التَّرَفِ وَدَوَاعِيهِ
 فَتَوَثِّرُ الدَّعَاةُ وَالشُّكُونُ وَاتَّوَجَّهَتْ إِلَى اتِّخَاذِ الْمَنَازِلِ لِلْقَرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْقَرَارُ
 وَالْمَأْوَى وَجِبَ أَنْ يُرَاعَى فِيهِ دَفْعُ الْمَضَارِّ بِالْحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِفِهَا وَجَلْبُ الْمَنَافِعِ
 وَتَسْهِيلُ الْمَرَاقِقِ لَهَا فَأَمَّا الْحِمَايَةُ مِنَ الْمَضَارِّ فَيُرَاعَى لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلَى مَنَازِلِهَا جَمِيعًا
 سِيَاحُ الْأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ ذَلِكَ فِي مُنْتَهَى مِنَ الْأَمْنِكَةِ إِمَّا عَلَى هَضْبَةٍ مُتَوَعِّرَةٍ
 مِنَ الْجَبَلِ وَإِمَّا بِأَسْنَدَارَةٍ بِحَرٍّ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوصَلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ الْعُبُورِ عَلَى جِسْرِ
 أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيَضُجُّ مَنَازِلُهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَتَضَاعَفُ امْتِنَاعُهَا وَحُصْنُهَا وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ذَلِكَ
 لِلْحِمَايَةِ مِنَ الْآفَاتِ السَّمَاوِيَةِ طِيبُ الْهَوَاءِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْأَمْرَاضِ فَإِنَّ الْهَوَاءَ إِذَا كَانَ
 رَاكِدًا خَبِيثًا أَوْ مُجَاوِرًا لِلْمِيَاهِ الْفَاسِدَةِ أَوْ مَنَافِعَ مُتَعَفِّتَةٍ أَوْ مَرُوجٍ خَبِيثَةٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا
 الْعَفَنُ مِنْ مُجَاوَرَتِهَا فَأَسْرَعَ الْمَرَضُ لِلْحَيَوَانِ الْكَائِنِ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ وَالْمَدُنُ
 الَّتِي لَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ الْهَوَاءِ كَثِيرَةٌ الْأَمْرَاضِ فِي الْغَالِبِ وَقَدْ أَشْتَهَرَ بِذَلِكَ فِي قَطْرِ
 الْمَغْرِبِ بَلَدُ قَابَسَ مِنْ بِلَادِ الْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَلَا يَكَادُ مَا كُنْهَا أَوْ طَارِقُهَا يَخْلُصُ مِنْ
 حَتَّى الْعَفَنِ بِوَجْهِهِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ ذَلِكَ حَادِثٌ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ وَتَقَلَّ
 الْبَصَرِيُّ فِي سَبَبِ حُلُوِّهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا خَفَرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنَاءٌ مِنْ نَحَاسٍ مَخْتُومٌ بِالرَّصَاصِ
 فَلَمَّا فَضَّ خِتَامُهُ مَسَّ بِهِ دُخَانٌ إِلَى الْجَوِّ وَانْقَطَعَ وَكَانَ ذَلِكَ مَبْدَأَ أَمْرَاضِ الْحُمَمَاتِ
 فِيهِ وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الْإِنَاءَ كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ الطَّلَسَمَاتِ لَوَبَائِهِ وَأَنَّهُ

ذَهَبَ مِرْهُ بِذَهَابِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الْعَفَنُ وَالْوَبَاءُ وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَامَةِ وَمَبَاحِثِهِمْ
 الرَّاكِيَّةِ وَالْبَكْرِيِّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ الْعِلْمِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بِمَعِثَ يَدْفَعُ مِثْلَ هَذَا
 أَوْ يَتَبَيَّنُ خَرَفَهُ فَنَقْلُهُ كَمَا سَمِعَهُ وَالَّذِي يَكْشِفُ لَكَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوِيَّةَ
 الْعَفَنَةَ أَكْثَرُ مَا يَهَيِّئُهَا لِتَعْفِينِ الْأَجْسَامِ وَأَمْرَاضِ الْحُمَمَاتِ رُكُودُهَا فَإِذَا تَغَلَّثَتْهَا الرِّيحُ
 وَتَفَشَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا خَفَّ شَأْنُ الْعَفَنِ وَالْمَرَضِ الْبَادِي مِنْهَا لِلْحَيَوَانَاتِ وَالْبِلَدِ
 إِذَا كَانَ كَثِيرَ السَّاكِينِ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ فَيَتَمَوَّجُ الْهَوَاءُ ضَرُورَةً وَتَعْدُثُ
 الرِّيحُ الْمُتَغَلَّلَةُ لِلْهَوَاءِ الرَّاكِدِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِينًا لَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالتَّمَوُّجِ وَإِذَا خَفَّ
 السَّاكِنُ لَمْ يَجِدِ الْهَوَاءَ مُعِينًا عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ وَبَقِيَ سَاكِنًا رَاصِدًا وَعَظُمَ عَفَنُهُ
 وَكَثُرَ ضَرَرُهُ وَبَلَدُ قَابَسَ هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَ مَا كَانَتْ أَفْرِيقِيَّةُ مُسْتَجِدَّةَ الْعُمَرَانِ كَثِيرَةً
 السَّاكِينِ تَمَوَّجُ بِأَهْلِهَا مَوْجًا فَكَانَ ذَلِكَ مُعِينًا عَلَى تَمَوُّجِ الْهَوَاءِ وَأَضْطِرَابِهِ وَتَخْفِيفِ
 الْأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرُ عَفَنِ وَلَا مَرَضٍ وَعِنْدَ مَا خَفَّ سَاكِنُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا
 الْمُتَعَفِّنُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا فَكَثُرَ الْعَفَنُ وَالْمَرَضُ فَهَذَا وَجْهُهُ لَا غَيْرُ وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ
 ذَلِكَ فِي بِلَادٍ وَضَعَتْ وَلَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ الْهَوَاءِ وَكَانَتْ أَوَّلًا قَلِيلَةَ السَّاكِينِ فَكَانَتْ
 أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سُكَّانُهَا انْتَقَلَ حَالُهَا عَنْ ذَلِكَ وَهَذَا مِثْلُ دَارِ الْمَلِكِ بِقَاسِ
 لِهَذَا الْعَهْدِ الْمُسَمَّى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعَالَمِ فَتَفْهَمُهُ تَعْبُدُ مَا قُلْتُهُ لَكَ
 وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ مِنْهَا الْمَاءُ بَأَن يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى
 نَهْرٍ أَوْ بِإِزَائِهَا عِيُونٌ عَذْبَةٌ ثَرَّةٌ فَإِنَّ وُجُودَ الْمَاءِ قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ يُسَهِّلُ عَلَى السَّاكِينِ
 حَاجَةَ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وُجُودِهِ مَرْفَقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَةً وَمِمَّا يُرَاعَى
 مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمَدُنِ طِيبُ الْمَرَاعِي لِسَائِمَتِهِمْ إِذَا صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
 دَوْجِنِ الْحَيَوَانِ لِلنِّتَاجِ وَالضَّرْعِ وَالرُّكُوبِ وَلَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْمَرْعَى فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا
 طَيِّبًا كَانَ ذَلِكَ أَرْفَقَ بِحَالِهِمْ لِمَا يُعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي بُعْدِهِ وَمِمَّا يُرَاعَى أَيْضًا
 الْمَزَارِعُ فَإِنَّ الزُّرُوعَ هِيَ الْأَنْوَاتُ فَإِذَا كَانَتْ مَزَارِعُ الْبَلَدِ بِالْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ
 اسْتِهْلًا فِي اتِّخَاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذَلِكَ الشَّجَرُ لِلْحَطَبِ وَالْبِنَاءِ فَإِنَّ الْحَطَبَ مِمَّا
 تَعْمُ الْبُلُوى فِي اتِّخَاذِهِ لَوْقُودِ النَّيْرَانِ لِلِاصْطِلَاءِ وَالطَّبَخِ وَالْخَشَبُ أَيْضًا ضَرُورِيٌّ
 لِسَقْفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْخَشَبُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَاعَى أَيْضًا قُرْبُهَا مِنْ

البحر لتسهيل الحجاج القاصية من البلاد النائية إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول
وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو إليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع
غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه ولا
يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها
بالعراق وأفريقية فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح
لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي
السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها
ولهذا كانت أقرب إلى الخراب ما لم تراع فيها الأمور الطبيعية

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين
أمة من الأمم موفرة العدو تكون صريحاً للمدينة متى طرقتا طارق من العدو
والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن يساحتها عمران
للقبائل أهل العصابات ولا موضعاً متوعراً من الجبل كانت في غيرة الليك وسهل طروقها
في الأساطيل البحرية على عدوها وتجهز لها لما يأت من وجود العريخ لها وأن
الحضر المتوردين للذة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقائلة وهذه
كالكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا ومتى كانت القبائل
والعصابات موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريح والنير وكانت متوعرة المسالك على
من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وتلى أسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو
ويشسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريحها كما في
سبنة وبجاية وبلد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية
باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع أن الدعوة من ورائها بركة وأفريقية وإنما اعتبر
في ذلك الخفاة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طروق العدو
للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعديدة والله تعالى أعلم

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الأرض بقاءاً اختصها بتشريفه وجعلها مواطن

لِعِبَادَتِهِ يُضَاعَفُ فِيهَا الثَّوَابُ وَيَنْمُو بِهَا الْأَجُورُ وَأَخْبَرَنَا بِذَلِكَ عَلَى أَلْسِنِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ
لُطْفًا بِعِبَادِهِ وَتَسْهِيلًا لِمَنْ سَلَكَ السَّعَادَةَ لَهُمْ . وَكَانَتْ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَفْضَلُ بَقَاعِ
الْأَرْضِ حَسَبًا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ وَهِيَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ أَمَّا الْبَيْتُ
الْحَرَامُ الَّذِي بِمَكَّةَ فَهُوَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ اللَّهُ بَيْنَائِهِ وَأَنْ
يُؤْذَنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ فَبَنَاهُ هُوَ وَأَبْنَاهُ إِسْمَاعِيلُ كَمَا نَصَّ الْقُرْآنُ وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ
فِيهِ وَسَكَنَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ مَعَ هَاجَرَ وَمَنْ نَزَلَ مَعَهُمْ مِنْ جُرُومٍ إِلَى أَنْ قَبَضَهُمَا اللَّهُ وَدَفِنَا
بِالشَّجَرِ مِنْهُ . وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ بَنَاهُ دَاوُدُ وَسَلِيمَانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَمْرُهُمَا اللَّهُ بَيْنَاهُ
مَسْجِدِهِ وَتَضَبَّيَا كُلَّهُ وَدُفِنَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَالَيْهِ .
وَالْمَدِينَةُ مَهَاجَرُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالشَّجَرَةِ إِلَيْهَا
وَأَقَامَ دِينَ الْإِسْلَامِ بِهَا فَبَنَى مَسْجِدَهُ الْحَرَامَ بِهَا وَكَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تَرْبَتِهَا
فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قِرَّةٌ عَيْنِ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أَفْئِدَتِهِمْ وَعَظْمَةُ دِينِهِمْ وَفِي الْأَثَارِ
مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ فِي مُجَاوَرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ فَلَنُشِيرَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ
الْخَبَرِ عَنْ أَوَّلِيَّةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ وَكَيْفَ تَدْرَجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ كَمُلَ ظُهُورُهَا
فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا مَكَّةُ فَأَوَّلِيَّتُهَا فِيمَا يُقَالُ أَنَّ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَنَاهَا فَبَالَهَ الْبَيْتُ
الْمَعْمُورُ ثُمَّ هَدَمَهَا الطُّوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أَقْتَبَسُوهُ
مِنْ تَحْمِيلِ آيَةِ فِي قَوْلِهِ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَغَيْرَتِهَا مِنْ هَاجَرَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَأَوْحَى
اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَذْكُرْ أَبْنَاهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هَاجَرَ بِالْفَلَاةِ فَوَضَعَهُمَا فِي مَكَانٍ الْبَيْتِ وَسَارَ
عَنْهُمَا وَكَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مِنَ اللَّطْفِ فِي نَبْعِ مَاءٍ زَمْزَمَ وَمُرُورِ الرُّفْقَةِ مِنْ جُرُومٍ
بِهَا حَتَّى اخْتَمَلُوهُمَا وَسَكَدُوا إِلَيْهِمَا وَنَزَلُوا مَعَهُمَا حَوَالِي زَمْزَمَ كَمَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ
فَاتَّخَذَ إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَأْوِي إِلَيْهِ وَأَدَارَ عَلَيْهِ سِيَّاحًا مِنَ الرِّدَمِ وَجَعَلَهُ
زَرْبًا لِقَنَمِهِ وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِرَارًا لِيُزَارَتَهُ مِنَ الشَّامِ أَمْرٌ فِي آخِرِهَا
بَيْنَاءُ الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الزَّرْبِ فَبَنَاهُ وَأَسْتَعَانَ فِيهِ بِأَبْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى
حُجَّتِهِ وَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ مَسَاكِينًا بِهِ وَلَمَّا قُبِضَتْ أُمُّهُ هَاجَرَ وَقَامَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ
مَعَ أَخْوَالِهِمْ مِنْ جُرُومٍ ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَسْتَحْمَرَ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ

إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفْقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ دَنَا
أَوْ تَأَى فَقَدْ ثَقُلَ أَنَّ التَّبَاعَةَ كَانَتْ تَحْجُجُ الْبَيْتَ وَتُعْظِمُهُ وَأَنَّ تَبَعًا كَسَاهَا الْمَلَاءُ
وَالْوَصَائِلَ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا وَثَقُلَ أَيْضًا أَنَّ الْقُرْسَ كَانَتْ تَحْجُجُهُ وَتُقَرِّبُ
إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَالِي الذَّهَبِ الَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَلِّبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمَزَمَ كَانَا مِنْ
قَرَايِنِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ لِحُزْمِ الْوَلَايَةِ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَبْلِ خَوْلَاتِهِمْ حَتَّى إِذَا
خَرَجَتْ خِزَاعَةٌ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ كَثُرَ وَلَدُ إِسْمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا وَاشْتَبَعُوا إِلَى
كِنَانَةٍ ثُمَّ كِنَانَةٌ إِلَى قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وَلَايَةُ خِزَاعَةٍ فَغَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ
وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ فَصِيَّ بْنُ كِلَابٍ فَبَنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ
الدُّومِ وَجَرِيدِ النَّخْلِ وَقَالَ الْأَعَشَى

خَلَفْتُ بِشَوْبِي رَاهِبَ الدُّورِ وَالْتَمِيَّ بَنَاهَا فَصِيَّ وَالْمِضَاضُ بْنُ جُرْهُمٍ
ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهْدَمُ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النِّفْقَةَ لِذَلِكَ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ وَأَنْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جَدَّةَ فَأَشْتَرُوا خَشَبَهَا لِلْسَّقْفِ وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ
الْقَامَةِ لَجَعَلُوهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا بِالْأَرْضِ لَجَعَلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ امْتِلَاءً
تَدْخُلُهُ السُّبُلُ وَقَصَّرَتْ بِهِمُ النِّفْقَةُ عَنْ إِنْتَامِهِ فَقَصَّروا عَنْ قَوَاعِيدِهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتًّا
أَذْرَعٍ وَشِبْرًا أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْحَجَرُ وَبَقِيَ الْبَيْتُ عَلَى هَذَا
الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جُيُوشُ يَزِيدَ
بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْحُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرٍ السَّكُونِيِّ وَرَمَى الْبَيْتَ سَنَةً أَرْبَعَ وَسِتِينَ فَأَصَابَهُ
حَرِيقٌ يُقَالُ مِنَ النَّفْطِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ
أَنْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ وَأَخْتِجَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرِ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ
وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا فَهَدَمَهُ وَكَشَفَتْ عَنْ أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَعَثَ
الْوُجُوهَ وَالْأَكَابِرَ حَتَّى عَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالْتَّحَرِّيِ فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ
فَأَدَارَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأَسْتَارَ حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صَنْعَاءَ
فِي الْفِضَّةِ وَالْكِلْسِ لِحَمَلِهَا وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ الْأُولَى لَجَمَعَ مِنْهَا مَا أَحْتَاجَ
إِلَيْهِ ثُمَّ مَرَّعَ فِي الْبِنَاءِ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ

ذَرَاةً وَجَعَلَ لَهَا بَابَيْنِ لِاصِقَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ فُرْشَهَا وَإِزْرَهَا
 بِالرَّخَامِ وَصَاغَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَفَّاحَ الْأَبْوَابِ مِنَ الذَّهَبِ ثُمَّ جَاءَ الْحُجَّاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامَ
 عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَنْجَنِيقاتِ إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَانُهَا ثُمَّ لَمَّا ظَفَرَ
 بَابْنِ الزُّبَيْرِ شَاوَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهَدمِهِ وَرَدَّ الْبَيْتَ
 عَلَى قَوَاعِدِ فُرَيْشٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ وَيُقَالُ إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رِوَايَةِ ابْنِ
 الزُّبَيْرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَقَالَ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَمَلْتُ أَبَا حَبِيبٍ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبَنَائِهِ
 مَا تَحْمَلُ فَهَدَمَ الْحُجَّاجُ مِنْهَا سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا مَكَانَ الْحَجَرِ وَبَنَاهَا عَلَى أَسَاسِ فُرَيْشٍ
 وَسَدَّ أَلْبَابَ الْغُرَبِيِّ وَمَا تَحْتَ عَتَبَةِ بَابِهَا الْيَوْمَ مِنَ أَلْبَابِ الشَّرْقِيِّ وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يُغَيِّرْ
 مِنْهُ شَيْئًا فَكُلُّ الْبِنَاءِ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَبِنَاءُ الْحُجَّاجِ فِي الْحَائِطِ صِلَةً
 ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ لِحُكْمَةِ ظَاهِرَةٍ بَيْنَ الْبِنَاءَيْنِ وَالْبِنَاءُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبِنَاءِ بِمِقْدَارِ إصْبَعٍ شِبْهٍ
 الصَّدْعِ وَقَدْ لَحِمَ وَيَعْرِضُ هَهُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يَقُولُهُ النُّقَّاهُ فِي أَمْرِ الطُّوَافِ
 وَيَحْتَدُّ الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذِرِوَانِ الدَّائِرِ عَلَى أَسَاسِ الْجُدُرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقَعُ
 طَوَافُهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ بِنَاءً عَلَى أَنْ الْجُدُرَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضُهُ وَهُوَ
 مَكَانُ الشَّاذِرِوَانِ وَكَذَا قَالُوا فِي تَقْيِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَا بُدَّ مِنْ رُجُوعِ الطَّائِفِ مِنَ
 التَّقْيِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِمًا لَثَلًا يَقَعُ بَعْضُ طَوَافِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَتْ الْجُدُرَانِ
 كُلُّهُمَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ إِنَّمَا بُنِيَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا الَّذِي قَالُوهُ
 وَلَا تَخْلُصَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْحُجَّاجُ هَدَمَ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ
 وَقَدْ تَقَلَّ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَنَّ الْعِيَانَ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِاللِّحَامِ مَا بَيْنَ الْبِنَاءَيْنِ وَتَمْيِيزُ أَحَدٍ
 الشَّقَيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخَرِ فِي الصَّنَاعَةِ يَرُدُّ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدَّ
 الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْحَجَرِ فَقَطْ لِيَدْخُلَهُ فِيهِ
 الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا بَعِيدٌ وَلَا مَحِيصَ مِنْ
 هَذَيْنِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ثُمَّ إِنَّ مَسَاحَةَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فُضَاءً لِلطَّائِفِينَ
 وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جُدُرٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ كَثُرَ
 النَّاسُ فَأَشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جِدَارًا
 دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ عُثْمَانُ ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَنَاهُ بِمُسَدِّ

الرَّخَامِ ثُمَّ زَادَ فِيهِ الْمَنْصُورُ وَأَبْنُ الْمَهْدِيِّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَفَتِ الزِّيَادَةُ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ لِعَهْدِنَا . وَتَشْرِيفُ اللَّهِ إِيَّاهَا أَلَيْتَ وَعِنَايَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَكَفَى بِذَلِكَ أَنْ جَعَلَهُ مَهِيظًا لِلوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَكَانًا لِلْعِبَادَةِ وَفَرَضَ شَرَائِعَ الْحَجِّ وَمَنَاسِكَهِ وَأَوْجَبَ لِحَرَمِهِ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حُقُوقِ التَّعْظِيمِ وَالْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْهُ لِغَيْرِهِ فَمَنَعَ كُلَّ مَنْ خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ الْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنَ الْخَطِيطِ إِلَّا إِزَارًا يَسْتُرُهُ وَحِمَى الْعَائِدَ بِهِ وَالرَّائِعَ فِي مَسَارِحِهِ مِنْ مَوَاقِعِ الْآفَاتِ وَلَا يُرَامُ فِيهِ خَائِفٌ وَلَا يُصَادُ لَهُ وَحْشٌ وَلَا يُحْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ . وَحَدُّ الْحَرَمِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِذِهِ الْحَرَمَةُ مِنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ إِلَى التَّنْعِيمِ وَمِنْ طَرِيقِ الْعِرَاقِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى الثَّنِيَّةِ مِنْ جَبَلِ الْمُنْقَطَعِ وَمِنْ طَرِيقِ الطَّائِفِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى بَطْنِ نَمْرَةٍ وَمِنْ طَرِيقِ جَدَّةِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطَعِ الْعَشَائِرِ . هَذَا شَأْنُ مَكَّةَ وَخَبَرُهَا وَتُسَمَّى أُمُّ الْقُرَى وَتُسَمَّى الْكَعْبَةُ لِعُلُوقِهَا مِنْ أَسْمِ الْكَعْبِ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا بَكَّةَ قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِأَنَّ النَّاسَ يَبْكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهَا أَيْ يَدْفَعُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاءَ بِكَّةَ أَبْدَلُوهَا مِيمًا كَمَا قَالُوا لَا زَبٌّ وَلَا زِمٌّ لِقُرْبِ الْخُرَجِينَ وَقَالَ الْخَلْجِيُّ يَا أَبَاءَ وَيَا أَلْبِيمِ الْبَلَدُ وَقَالَ الرَّهْزَرِيُّ يَا أَبَاءَ لِلْمَسْجِدِ كُلِّهِ وَيَا أَلْبِيمِ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَمُ مِنْذُ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ تُعْظِمُهُ وَالْحُلُوكُ تَبْعُثُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ مِثْلَ كِسْرَى وَغَيْرِهِ وَفِصَّةُ الْأَمْيَالِ وَغَزَا إِلَى الذَّهَبِ الَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْزَمَ مَعْرُوفَةً وَقَدْ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ فِي الْحَبِّ الَّذِي كَانَ فِيهَا سَبْعِينَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يَهْدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً مَرَّتَيْنِ بِمِائَتِي فَنِطَارٍ وَزَنًا وَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اسْتَعْنَتْ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِكَ فَلَمْ يَفْعَلْ ثُمَّ ذَكَرَ لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يُجْعَرْ كُهُ مَكَّدًا قَالَ الْأَزْرَقِيُّ وَفِي الْبُخَارَةِ - يُسْنِدُهُ إِلَى أَبِي وَائِلٍ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ وَقَالَ جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدْعَ فِيهَا صَفَرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قُلْتُ مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ قَالَ وَلَمْ قُلْتُ فَلَمْ يَفْعَلْ صَاحِبَاكَ فَقَالَ هُمَا اللَّذَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا وَخَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَنَامَ ذَلِكَ الْمَالُ إِلَى أَنْ كَانَتْ فِتْنَةُ الْأَفْطَسِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ الْحُسَيْنِ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ حِينَ غَلَبَ مَكَّةَ عُمَدٌ إِلَى

الْكَعْبَةِ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ مَا تَصْنَعُ الْكَعْبَةُ بِهَذَا أَلَمَالٍ مَوْضُوعًا فِيهَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ
 نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرْبِنَا وَأَخْرَجَهُ وَتَصَرَّفَ فِيهِ وَبَطَلَتِ الذَّخِيرَةُ مِنَ الْكَعْبَةِ
 مِنْ يَوْمَئِذٍ . (واما بيت المقدس) وَهُوَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى فَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَيَّامَ الصَّابِئَةِ
 مَوْضِعَ الزُّهْرَةِ وَكَانُوا يُقَرَّبُونَ إِلَيْهِ الزَّيْتَ فِيمَا يُقَرَّبُونَهُ يَصُبُّونَهُ عَلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي هُنَاكَ
 ثُمَّ دُثِّرَ ذَلِكَ الْهَيْكَلُ وَاتَّخَذَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَكَوْهَا قَبْلَةَ إِصْلَاحِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَّ
 مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ لِمَلِكِهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ كَمَا
 وَعَدَ اللَّهُ آبَاءَهُمْ إِسْرَائِيلَ وَأَبَاهُ اسْتَقَى مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ التِّيهِ أَمْرَهُ اللَّهُ بِاتِّخَاذِ
 قُبَّةٍ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ عَيْنَ بِالْوَحْيِ مَقْدَارُهَا وَصِفَتُهَا وَهِيَ كُلُّهَا وَتَمَائِيلُهَا وَأَنْ يَكُونَ
 فِيهَا التَّابُوتُ وَمَائِدَةٌ بِصِحَافِهَا وَمَنَارَةٌ بِقَنَادِيلِهَا وَأَنْ يَصْنَعَ مَذْبَحًا لِلْقُرْبَانِ وَصَفَ ذَلِكَ
 كُلَّهُ فِي التَّوْرَةِ أَكْمَلَ وَصَفَ فَصْنَعَ الْقُبَّةَ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ
 الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ الْمَصْنُوعَةُ عِوَضًا عَنِ الْأَلْوَاحِ الْمُنْزَلَةِ بِالْكَلِمَاتِ الْعَشْرِ لَمَّا تَكَسَّرَتْ
 وَوَضَعَ الْمَذْبَحَ عِنْدَهَا . وَعَهَدَ اللَّهُ إِلَى مُوسَى بِأَنْ يَكُونَ هَارُونُ صَاحِبَ الْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا
 تِلْكَ الْقُبَّةَ بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي التِّيهِ يُصَلُّونَ إِلَيْهَا وَيَتَقَرَّبُونَ فِي الْمَذْبَحِ أَمَامَهَا وَيَتَعَرَّضُونَ
 لِلْوَحْيِ عِنْدَهَا . وَلَمَّا مَلَكَوْا السَّامَ وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْقُبَّةُ فَبَلَّتَهُمْ وَوَضَعُوها عَلَى الصَّخْرَةِ
 بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ عَلَى الصَّخْرَةِ مَكَانَهَا فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ
 ذَلِكَ وَعَهَدَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ سُلَيْمَانَ فَبَنَاهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ وَخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَفَاةِ
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّخَذَ عُمْدَةً مِنَ الصُّنْزِ وَجَعَلَ بِهِ مَرَحَ الزُّجَاجِ وَغَشَّى أَبْوَابَهُ
 وَحِيطَانَهُ بِالذَّهَبِ وَصَاغَ هِيَ كُلَّهُ وَتَمَائِيلَهُ وَأَوْعِيَتْهُ وَمَنَارَتُهُ وَمِفْتَاحُهُ مِنَ الذَّهَبِ وَجَعَلَ
 فِي ظَهْرِهِ قَبْرًا لِيَضَعَ فِيهِ تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ
 صِهْيُونَ بَلَدِ أَبِيهِ دَاوُدَ تَعْمِلُهُ الْأَسْبَاطُ وَالْكَهَنُوتُ حَتَّى وَضَعَهُ فِي الْقَبْرِ وَوُضِعَتِ الْقُبَّةُ
 وَالْأَوْعِيَةُ وَالْمَذْبَحُ كُلُّ وَاحِدٍ حَيْثُ أُعِدَّ لَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَأَقَامَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ
 خَرَّبَهُ بِمُخْتِ نَصْرٍ بَعْدَ ثَمَانِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ بِنَائِهِ وَأَحْرَقَ التَّوْرَةَ وَالْعَصَا وَصَاغَ الْهَيْكَلَ وَنَثَرَ
 الْأَخْجَارَ ثُمَّ لَمَّا أَعَادَهُمْ مُلُوكُ الْفَرَسِ بَنَاهُ عُزَيْرُ نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعَهْدِهِ بِإِعَانَةِ بَنِيهِمْ
 مَلِكِ الْفَرَسِ الَّذِي كَانَتْ الْوِلَادَةُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّ بُمُخْتِ نَصْرٍ وَحَدَّ لَهُمْ فِي
 بِنَائِهِ حُدُودًا ، دُونَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَلَمْ يَتَجَاوَزُوها ثُمَّ تَدَاوَلَتْهُمْ

مُلُوكُ يُونَانَ وَالْفُرسِ وَالرُّومِ وَاسْتَفْعَلَ الْمَلِكُ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ثُمَّ لِبْنِي
 حَشَمَنَائِي مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لِبَصْرِيٍّ هِيرُودُسَ وَلِبْنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ الْقُدُسِ
 عَلَى بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأَثَّقَ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طَيْطِشُ
 مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ وَغَلِبَهُمْ وَمَلَّكَ أَمْرَهُمْ خَرَبَ بَيْتَ الْقُدُسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ
 مَكَانُهُ ثُمَّ أَخَذَ الرُّومُ بِدِينِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ اخْتَلَفَ حَالُ
 مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِدِينِ النَّصَارَى تَارَةً وَتَرَكِهِ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ
 وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِيلَانَةُ وَأَزْمَحَتْ إِلَى الْقُدُسِ فِي طَلَبِ الْخَشْبَةِ الَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ
 بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا الْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رُمِيَ بِخَشْبَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَّ عَلَيْهَا الْقِمَامَاتِ وَالْقَادُورَاتِ
 فَأَسْتَخْرَجَتِ الْخَشْبَةَ وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ الْقِمَامَاتِ كَنِيسَةً الْقِمَامَةِ سَكَنَهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَعْمِهِمْ
 وَهَرَبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ الزَّبَلِ وَالْقِمَامَاتِ عَلَى الصَّخْرَةِ حَتَّى
 غَطَّاهَا وَخَفِيَ مَكَانُهَا جَزَاءُ بَزْعَمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ الْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ الْقِمَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ
 وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ
 وَحَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ الْقُدُسِ وَسَأَلَ عَنِ الصَّخْرَةِ فَأَرَى مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَّاهَا الزَّبَلُ
 وَالتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاوَةِ وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَدْنَى اللَّهِ
 مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَتَ ثُمَّ اخْتَفَلَ الْوَلِيدُ بْنُ
 عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سُنَنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْأَخْتِفَالِ
 كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَفِي
 مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمِّيهِ بِلَاطَ الْوَلِيدِ وَالزَّمَّ مَلِكَ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ السَّلْعَةَ
 وَالْمَالَ لِبِنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنْمِقُوها بِالْفَسِيفَاءِ فَطَاعَ لِذَلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى
 مَا اقْتَرَحَهُ ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَغْوَامَ الْخَمِيسِيَّةَ مِنَ الْحُجُرَةِ بِآخِرِهَا
 وَكَانَتْ فِي مَلِكَةِ الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءِ الْقَاهِرِ مِنَ الشَّيْخَةِ وَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ زَحَفَ الْفَرَنْجَةُ
 إِلَى بَيْتِ الْقُدُسِ فَمَلَكُوهُ وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَةً تُغَوِّرُ الدَّامَ وَبَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعْظِمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا اسْتَقْلَّ صَلَاحُ الدِّينِ بْنِ
 أَيُّوبَ الْكُرْدِيِّ بِمَلِكِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ الْعَبِيدِيِّينَ وَبَدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ
 وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْفَرَنْجَةِ حَتَّى غَلِبَهُمْ عَلَى بَيْتِ الْقُدُسِ وَعَلَى مَا كَانُوا مَلَكُوهُ

مِنْ ثُغُورِ الشَّامِ وَذَلِكَ لِتَحْوِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ الْكَنِيسَةَ
 وَأَظْهَرَ الصَّخْرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ إِذَا الْعَهْدُ وَلَا يَعْزِضُ
 لَكَ إِلَّا شَكَاكُ الْمَعْرُوفِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ
 أَوَّلِ بَيْتٍ وَضِعَ فَقَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بَنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قِيلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ
 سَنَةً فَإِنَّ الْمُدَّةَ بَيْنَ بَنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بَنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ
 لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَانِيَهُ وَهُوَ يُنْفِذُ إِلَى أَلْفٍ بِكَثِيرٍ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ
 لَيْسَ الْبِنَاءُ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عَيْنٍ لِلْعِبَادَةِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عَيْنٌ
 لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بَنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ الصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ مَبْكَلَ
 الزُّهْرَةِ فَاعْلَمْ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَصْنَامَ وَالْأَتِمَاءَ ثِيْلَ
 حَوَالِي الْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا وَالصَّابِئَةُ الَّذِينَ بَنَوْا مَبْكَلَ الزُّهْرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ مُدَّةُ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سُلَيْمَانُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَفَهَّمْ فِيهِ حُلُّ هَذَا الْإِشْكَالِ . وَأَمَّا الْمَدِينَةُ وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ بِثَرِبَ
 فَهِيَ مِنْ بَنَاءِ يَثْرِبَ بْنِ هَلَاثِيلَ مِنَ الْعِمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا
 مَلَكَوهُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَرَهُمْ بَنُو قَبِيلَةٍ مِنْ غَسَّانَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَتَلَّى حَصُونَهَا .
 ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عَنَايَةِ اللَّهِ بِهَا فَوَاجَرَ إِلَيْهَا
 وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَيُوتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ
 قَدْ أَعَدَّهُ لِذَلِكَ وَشَرَفَهُ فِي سَابِقِ أَزْلِهِ وَأَوَاهُ أَبْنَاءُ قَبِيلَةٍ وَنَصَرُوهُ فَلِذَلِكَ سُمُّوا الْأَنْصَارَ
 وَتَمَّتْ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ وَغَلَبَتْ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ
 مَكَّةَ وَمَلَكَهَا وَظَنَّ الْأَنْصَارُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهْمَهُمْ ذَلِكَ فَخَاطَبَهُمْ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُلْحَدُهُ الشَّرِيفُ بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَا لَا خِفَاءَ
 بِهِ وَوَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي تَقْضِيلِهَا إِلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا ثَبَتَ
 عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّصِّ الصَّرِيحِ عَنْ رَفِيعِ بْنِ مُخَدَّجٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 قَالَ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ نَقَلَ ذَلِكَ أَبُو الْوَهَّابِ فِي الْمُعَوْنَةِ إِلَى أَحَادِيثٍ أُخْرَى

تَدُلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ وَخَالَتْ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيَّ . وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةً
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجَنَحَ إِلَيْهَا الْأُمَمُ بِأَفْئِدَتِهِمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ فَانْظُرْ كَيْفَ تَدْرَجَتْ
 الْفَضِيلَةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الْمُعْظَمَةِ لِأَسْبَقِ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ لَهَا وَقَفَهُمْ سِرًّا اللَّهُ فِي الْكَوْنِ
 وَتَدْرِيجُهُ عَلَى تَرْتِيبٍ مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ
 فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ
 جَزَائِرِ الْهِنْدِ لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعْرَلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَمُ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ
 يُعْظَمُونَهَا عَلَى جِهَةِ الذِّبْيَانَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا يُوتُ النَّارُ لِلْفَرَسِ وَهِيَ كُلُّ يُونَانَ وَيُوتُ الْعَرَبِ
 بِالْحِجَازِ الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَدْمِهَا فِي غَزْوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا
 بَيُوتًا لَسْنَا مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقِ دِينِي وَلَا يُلْتَفَتُ
 إِلَيْهَا وَلَا إِلَى الْخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي التَّوَارِيخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ
 فَعَلَيْهِ بِهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السابع

في ان المدن والامصار بأفريقية والمغرب قليلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَنْطَارَ كَانَتْ لِلْبَزِيرِ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ
 وَكَانَ عُمَرَانُهَا كُلُّهُ بَدَوِيًّا وَلَمْ تَسْتَمِرَّ فِيهِمُ الْحَضَارَةُ حَتَّى تُسْتَكْمَلَ أَحْوَالُهَا وَالْأَوَّلُ
 الَّتِي مَلَكَتْهُمْ مِنَ الْإِفْرِئِجَةِ وَالْعَرَبِ لَمْ يَطُلْ أَمْدُ مَلَكَتِهِمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْتَمِخَ الْحَضَارَةُ
 مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْبِدَاوَةِ وَشُؤُونُهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ فَلَمْ تَكُنْ مَبَانِيهِمْ وَأَيْضًا
 فَالْمَصَانِعُ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَزِيرِ لِأَنَّهُمْ أَغْرَقُوا فِي الْبَدْوِ وَالْمَصَانِعُ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ وَإِنَّمَا
 نَتَمَّ الْمَبَانِي بِهَا فَلَا بُدَّ مِنَ الْخَلْقِ فِي تَعْلُمِهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْبَزِيرِ انْتِحَالٌ لَهَا لَمْ يَكُنْ
 لَهُمْ تَشَوُّقٌ إِلَى الْمَبَانِي فَضَلَّ عَنْ الْمَدُنِ وَأَيْضًا فَهُمْ أَهْلُ عَصَبِيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلَوُ
 عَنْ ذَلِكَ جَمْعٌ مِنْهُمْ وَالْأَنْسَابُ وَالْعَصَبِيَّةُ أَجْنَحُ إِلَى الْبَدْوِ وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى الْمَدُنِ
 الدُّعَا وَالسُّكُونُ وَيَصِيرُ مَا كُنْهَا عِيَالًا عَلَى حَامِيَّتِهَا فَتَجِدُ أَهْلَ الْبَدْوِ لِذَلِكَ يَسْتَسْكِنُونَ
 عَنْ سُكْنَى الْمَدِينَةِ أَوْ الْإِقَامَةِ بِهَا فَلَا يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ إِلَّا التَّرَفُّ وَالْفَنَى وَقَلِيلٌ مَا هُوَ
 فِي النَّاسِ فَلِذَلِكَ كَانَ عُمَرَانُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ بَدَوِيًّا أَهْلُ خِيَامٍ
 وَظَوَاعِنَ وَقِبَاطِينَ وَكَثَنَ فِي الْجِبَالِ وَكَانَ عُمَرَانُ بِلَادِ الْعَجَمِ كُلِّهِ أَوْ أَكْثَرُهُ قُرَى

وَأَمَّارًا وَرَسَاتِيقَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَهَضَرَ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَأَمَثَالَهَا لِأَنَّ
الْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَبَاهَوْنَ فِي مُرَاحَتِهَا وَالتَّجَارِهَا إِلَّا فِي الْأَقَلِّ
وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ لِأَنَّ لُحْمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُّ فَتَكُونُ
عَصِيَّتُهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالتَّجَارِ فِي عَيْنِ الْعَصْرِ الَّذِي يَذْهَبُ
بِالْبَسَالَةِ وَيُصِيرُهُ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فَافْهَمَهُ وَقَسَّ عَلَيْهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن

في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها

والى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي الْبَرْبَرِ بَعِيْنِهِ إِذِ الْعَرَبُ أَيْضًا أُعْرِقُوا فِي الْبَدْوِ
وَأُبْعِدُوا عَنِ الْمَصْنَائِعِ وَأُضْأَفَكَتُوا أَجَانِبَ مِنَ الْعَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوَلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ
وَلَمَّا تَمَلَّكُوها لَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومُ الْحِضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمْ اسْتَغْنَوْا بِمَا
وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضًا فَكَانَ الدِّينُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مَانِعًا مِنَ الْعُغْلَالَةِ أَوْ الْبُنْيَانِ
وَالْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ كَمَا عَمِدَ لَهُمْ عَمْرٌ حِينَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي بِنَاءِ الْكُوفَةِ
بِالْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ أَفْعَلُوا وَلَا يَزِيدَنَّ
أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيْكَاتٍ وَلَا تُطَالُوا فِي الْبُنْيَانِ وَالزَّمُوا السَّنَةَ تَلْزِمُكُمْ الدَّوْلَةُ وَعَهْدٌ إِلَى
أَنُوفِدَ وَتَقْدَمَ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَا يَرْفَعُوا بُنْيَانًا فَوْقَ الْقَدَرِ قَالُوا وَمَا الْقَدَرُ قَالَ لَا يَقْرَبُكُمْ
مِنَ السَّرَفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ الْقَصْدِ فَلَمَّا بَعْدَ الْعَهْدِ بِالَّذِينَ وَالتَّخَرُّجُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ
الْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَالْتَّرَفِ وَاسْتَخْدَمَ الْعَرَبُ أُمَّةَ الْفُرْسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمْ
الصَّنَائِعَ وَالْمَبَانِي وَدَعَتْهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَالُ الدَّعَةِ وَالْتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ شِيدُوا الْمَبَانِي وَالْمَصَانِعَ
وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيبًا بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ لِكثَرَةِ الْبِنَاءِ وَاخْتِطَاطِ
الْعَدْنِ وَالْأَمَّارِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فَالْفُرسُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الْآفَاقُ
مِنَ السِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقُبُطُ وَالنَّبَطُ وَالرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأَوَّلَى مِنْ عَادَ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ
وَالْتَّبَاعَةَ طَائِفَاتٌ آمَدُهُمْ وَرَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهِيَ كُلُّهُمْ أَكْثَرُ
عَدَدًا وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ أَثَرًا وَاسْتَبْصِرَ فِي هَذَا تَجَدُّدُهُ كَمَا قُلْتُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ
وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل التاسع

في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل
والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني
وثيقة في تشييدها وله والله اعلم وجه آخر وهو افسد به وذلك قلة مراعاتهم لحسن
الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع
والمراعي فإنه بالتفاوت في هذا تتفاوت جودة المصير ورواءته من حيث العمران
الطبيعي والعرب بمنزل عن هذا وإنما يراعون مراعي ابلهم خاصة لا يبألون بالماء
طاب أو خبث ولا قل أو كثير ولا يسألون عن زكاه المزارع والمنايب والأهوية
لأنهم في الأرض وتقلهم الحبوب من البلد البعيد وأما الرّيح فالفقر مختلف للمهاب
كلها والظعن كليل لهم بطبيعتها لأن الرّيح إنما تختب مع القفار والسكنى وكثرة
الفضلات وأنظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها
إلا مراعي ابلهم وما يقرب من الفقر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع
الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج إليه في
العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس
ولا أول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سباجا لها أتى عليها الخراب
والانحلال كلن لم تكن والله يحكمكم لا معقب لحكمه

الفصل العاشر

في مبادي الخراب في الامصار

اعلم أن الأمم صار إذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء
من الحجر والجير وغيرها مما يعلّى على الحيطان عند التائق كالزخج والرّخام والرّنج
والزجاج والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة فإذا عظم
عمران المدينة وكثر ما كنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثرت الصنائع
إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها فإذا تراجع عمرانها وخفت ساكنها
قلت الصنائع لأجل ذلك وفقدت الإجادة في البناء والإحكام والمعالة عليه بالتنسيق
ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرّخام وغيرها

فَتَفْقَدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنْقُلُونَهَا مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ بِقَلَّةِ الْعُمَرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلًا ثُمَّ لَا تَزَالُ تُنْقَلُ مِنْ قَصْرِ إِلَى قَصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يُفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِدَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ وَاتِّخَاذِ الطُّوبِ عَوَضًا عَنِ الْحِجَارَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ التَّشْيِيقِ بِالْكُلَيْيَةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ الْقَرْيِ وَالْمَدَرِ وَتَظْهَرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ الْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الْخَرَابِ إِنْ قُدِرَ لَهَا بِهِ سُنَّةٌ أَلَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق

انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثَبَتَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعًا فِي عُمُرَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَالْحَاجَةُ الَّتِي تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةً أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافًا فَالْقُوَّةُ مِنَ الْخِطَلَةِ مَثَلًا لَا يَسْتَقِلُّ الْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصَّتِهِ مِنْهُ وَإِذَا انْتَدَبَ لِتَحْصِيلِ السَّنَةِ أَوْ الصَّنَةِ مِنْ حَدَادٍ وَنَجَّارٍ لِلآلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى الْبَقَرِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَحِصَادِ السُّبُلِ وَسَائِرِ مُؤَبِّاتِ الْفَلَحِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ أَوْ اجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الْقُوَّةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوَّةٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّتَيْنِ فَالْأَعْمَالُ بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ الْعَامِلِينَ وَضُرُورَاتِهِمْ فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وَزَعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضَرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ أَكْتَفَى فِيهَا بِالْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةً عَلَى الضَّرُورَاتِ فَتُضَرَفُ فِي حَالَاتِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَاضِهِ وَفِيهِمْ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ حِفْظٌ مِنَ الْغِنَى وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ فِي بَابِ الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ أَنَّ الْمَكَّاسِبَ إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ الْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ الْأَعْمَالُ كَثُرَتْ قِيَمُهَا يَنْهَمُ فَكَثُرَتْ مَكَّاسِبُهُمْ ضَرُورَةٌ وَدَعْتُهُمْ أَسْوَاقُ الرِّفَةِ وَالْغِنَى إِلَى التَّرَفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ الثَّانِي فِي الْمَسَاكِينِ وَالْمَلَايِسِ وَاسْتِجَادَةِ الْآلِيَةِ وَالْمَاعُونِ وَاتِّخَاذِ الْخُدَمِ وَالْمَرَكَبِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيَمِهَا وَيُخْتَارُ الْحَبَرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَالْقِيَامُ عَلَيْهَا فَتَنْفَقُ أَسْوَاقُ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ الْمِصْرِ

وخرجه ويحصل اليسار ينتج ذلك من قبل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الأعمال
ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصانع
لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية وتفتت سوق الأعمال
بها أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها
تختص بالتurf والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش فالمعسر إذا
فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه بعوائد من الترف لا توجد في الآخر
فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال
المعسر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف القاضية مع القاضي والتاجر مع
التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والأمير مع الأمير والشرطي مع
الشرطي * واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فارس مع غيرها من أمصاره مثل بجاية
وتلمسان وسبتة نجد بينهما بوتا كثيراً على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاضي
بفارس أوسع من حال القاضي بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف أهله وكذا
أيضاً حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران والجزائر مع ما دونهما إلى أن
تنتهي إلى المدة الذين اعتماهم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها وما
ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها فكانها كلها أسواق الأعمال والخرج في كل سوق على
نسبته فالقاضي بفارس دخله كفاه خرجه وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج
أكثر تكون الأحوال أعظم وهما بفارس أكثر لتفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه
التurf فالأحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر ويسكرة حتى
تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضرورتها ولا تعد في الأمصار إذا
هي من قبيل القرى والمدن فليذلك نجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال
مقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأثرونه
كسباً فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مساكين محتاجين إلا في الأقل النادر واعتبر
ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال فإن السائل بفارس أحسن حالاً من السائل بتلمسان
أو وهران ولقد شاهدت بفارس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم
يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المأكول مثل سؤال العمر والسمن

وَعَلَّاجِ الطَّبِخِ وَالْمَلَابِيسِ وَالْمَاعُونِ كَالْغُرَبَالِ وَالْأَنِيَةِ وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هَذَا
بِتَلْمِيسَانِ أَوْ وَهْرَانِ لَأَسْتَنْصَرَ وَعُتِفَ وَزُجِرَ وَيَبْلُغُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ عَنْ أَحْوَالِ الْقَاهِرَةِ
وَمِصْرَ مِنَ التَّرَفِ وَالْغِنَى فِي عَوَائِدِهِمْ مَا يُقْضَى مِنْهُ الْعَجَبُ حَتَّى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَرَاءِ
بِالْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ الثَّقَلَةِ إِلَى مِصْرَ لِذَلِكَ وَلِمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَنَّ شَأْنَ الرِّفْقِ بِمِصْرَ
أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَيَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لِرِيبَادَةِ إِيْثَارٍ فِي أَهْلِ تِلْكَ الْأَفَاقِ
عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالٍ مُخْتَزَنَةٍ لَدَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةٍ وَإِيْثَارًا مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عُمَرَ بْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ أَكْثَرُ مِنْ
عُمَرَ بْنِ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ فَعَظُمَتْ لِكَثْرَةِ أَحْوَالِهِمْ. وَأَمَّا حَالُ الدَّخْلِ وَالْخُرُجِ
فَمُتَّكَفٍ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَمَتَى عَظُمَ الدَّخْلُ عَظُمَ الْخُرُجُ وَبِالْعَكْسِ وَمَتَى عَظُمَ
الدَّخْلُ وَالْخُرُجُ اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ السَّاكِنِينَ وَوَسَّعَ الْمِصْرُ كُلُّ شَيْءٍ يَبْلُغُكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا
فَلَا تُنْكِرُهُ وَاعْتَبِرْهُ بِكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمُسْكَاةِ الَّتِي
يَسْهَلُ بِسَبَبِهَا الْبَذْلُ وَالْإِثَارُ عَلَى مُتَبَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مَعَ يَبُوتِ الْمَدِينَةِ
الْوَحِيدَةِ وَكَيْفَ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهَا فِي هِجْرَانِهَا أَوْ غَشْيَانِهَا فَإِنَّ يَبُوتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالثَّرْوَةِ
وَالْعَوَائِدِ الْخَصِيصَةِ مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَفْنِيشِهَا بِثَرِّ الْحُبُوبِ وَسَوَاقِطِ الْفُتَاتِ فَيَزْدَحِمُ
عَلَيْهَا غَوَاشِي النَّمْلِ وَالْخِشَاشِ وَيَلْحَقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ الطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ بِطَانًا وَتَمْثَلِي شِبَعًا
وَرِيًّا وَيَبُوتَ أَهْلُ الْخِصَاصَةِ وَالْفُقَرَاءُ الْكَاسِدَةِ أَرْزَاقُهُمْ لَا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَيْبٌ وَلَا
يُعَلِّقُ بِجَوِّهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا بُيُوتِهِمْ قَارَةٌ وَلَا هَرَّةٌ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ
تَسْقُطُ الطُّيُورُ حَيْثُ تُلْتَقِطُ الْحَبُّ م وَتَغْشَى مَنَازِلَ الْكُرْمَاءِ

فَتَأْمَلُ مِرًّا اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَاعْتَبِرْ غَاشِيَةَ الْأَنْكَاثِ بِغَاشِيَةِ الْعُجْمِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَفُتَاتِ
الْعَوَائِدِ بِفَضْلَاتِ الرِّزْقِ وَالتَّرَفِ وَسُهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْدُلُهَا لِاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ
لَوْجُودِ امْتِنَانِهَا لَدَيْهِمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ اتِّسَاعَ الْأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ النِّعَمِ فِي الْعُمَرَانِ تَابِعٌ لِكَثْرَتِهِ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

الفصل الثاني عشر

في أسعار المدن

إِذْ عُلِمَ أَنَّ الْأَسْوَاقَ كُلَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ فَمِنْهَا الضَّرُورِيُّ وَهِيَ الْأَقْوَاتُ

مِنَ الْخِنْطَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَلْبَافِلَاءَ وَالْبَصْلِ وَالْثُومِ وَأَشْبَاهِهِ وَمِنْهَا الْحَاجِيُّ وَالْكَسَالِيُّ
 مِثْلُ الْآدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْمَلَابِيسِ وَالْمَاعُونِ وَالْمَرَائِبِ وَسَائِرِ الْمَصَانِعِ وَالْمَبَانِي فَإِذَا
 اسْتَجَرَ الْمِصْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخِصَتْ أَسْعَارُ الْفُرُورِيِّ مِنَ الْقُوتِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَغَلَّتْ
 أَسْعَارُ الْكَسَالِيِّ مِنَ الْآدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا يَتَّبِعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ الْمِصْرِ وَضَعُفَتْ
 عُيُونُهُ كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحُبُوبَ مِنْ فُرُورَاتِ الْقُوتِ فَتَوَفَّرَ
 الدَّوَاعِي عَلَى اتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يُهْمِلُ قُوتَ نَفْسِهِ وَلَا قُوتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ
 فَيَعْمَلُ اتِّخَاذَهَا أَهْلُ الْمِصْرِ أَجْمَعُ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ أَوْ فِيمَا قَرُبَ مِنْهُ
 لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ وَكُلُّ مَنْخِذٍ لِقُوتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تَسُدُّ خَلَّةَ
 كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمِصْرِ فَتَفْضُلُ الْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ الْمِصْرِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ
 فَتَرْخُصُ أَسْعَارُهَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ السِّنِينَ مِنَ آَلَفَاتِ السَّمَاءِ وَلَوْلَا
 اخْتِكَارُ النَّاسِ لَهَا لِمَا يُتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ آَلَفَاتِ لَبَدَلَتْ دُونَ ثَمَنِ وَلَا عِوَضَ لِكَثْرَتِهَا
 بِكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ . وَأَمَّا سَائِرُ الْمَرَافِقِ مِنَ الْآدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ بِهَا
 الْبَلَوَى وَلَا يَسْتَغْرِقُ اتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلَا الْكَثِيرَ مِنْهُمْ ثُمَّ إِنْ
 الْمِصْرَ إِذَا كَانَ مُسْتَجِرًّا مَوْفُورَ الْعُمَرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ التَّرْفِ تَوَفَّرَتْ حِينَئِذٍ الدَّوَاعِي
 عَلَى طَلَبِ تِلْكَ الْمَرَافِقِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْهَا كُلِّ بِحَسَبِ حَالِهِ فَيَقْصُرُ الوجودُ مِنْهَا عَلَى
 الْحَاجَاتِ قُصُورًا بَالِغًا وَيَكْثُرُ الْمُسْتَمَامُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا فَتَزِدُ مِنْ أَهْلِ الْأَغْرَاضِ
 وَيَبْذُلُ أَهْلُ الرِّفَةِ وَالتَّرَفِ أَثْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي الْغَلَاءِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ
 فَيَقَعُ فِيهَا الْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَأَمَّا الصَّنَائِعُ وَالْأَعْمَالُ أَيْضًا فِي الْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمَرَانِ
 فَسَبَبُ الْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ الْأَوَّلُ كَثْرَةُ الْحَاجَةِ لِمَكَانِ التَّرَفِ فِي الْمِصْرِ بِكَثْرَةِ
 عُيُونِهِ وَالثَّانِي اعْتِزَازُ أَهْلِ الْأَعْمَالِ لِحُدُودِهِمْ وَأَمْتِنَانِ أَنْفُسِهِمْ لِسَهُولَةِ الْعَمَلِ فِي
 الْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَانِهَا وَالثَّالِثُ كَثْرَةُ الْمُتَرَفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى أَمْتِنَانِ غَيْرِهِمْ
 وَإِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَاعِ فِي مِهْنِهِمْ فَيَبْذُلُونَ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيَمَةِ
 أَعْمَالِهِمْ مُزَاحِمَةً وَمُنَافَسَةً فِي الْإِسْتِثَارِ بِهَا فَيَعْتَزُّ الْعَمَالُ وَالصَّنَاعُ وَأَهْلُ الْحِرَفِ وَتَغْلُو
 أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْمِصْرِ فِي ذَلِكَ . وَأَمَّا الْأَمْصَارُ الصَّغِيرَةُ وَالْقَلِيلَةُ
 السَّاكِنِ فَأَقْوَانُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقِلَّةِ الْعَمَلِ فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ الْقُوتِ

فَيَتَمَسَّكُونَ بِمَا يَحْمِلُ مِنْهُ فِي أَيْدِيهِمْ وَيَتَحَكَّرُونَ فِيَعَزُّ وَجُودُهُ لَدَيْهِمْ وَيَغْلُو ثَمَنُهُ
 عَلَى مُسْتَامِهِ وَأَمَّا مُرَافِقُهُمْ فَلَا تَدْعُو إِلَيْهَا أَيْضًا حَاجَةٌ بِقِلَّةِ السَّاكِنِ وَضَعْفِ الْأَشْوَاقِ
 فَلَا تَدْفُقُ لَدَيْهِمْ سُوقُهُ فَيَخْتَصُّ بِالرُّخْصِ فِي سِعَرِهِ وَقَدْ يَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ
 قِيَمَةُ مَا يَعْرِضُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَكُوسِ وَالْمَغَارِمِ لِلسُّلْطَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَبَابِ الْحَفْرِ
 وَالْحَيَاةِ فِي مَنَافِعِ وَصُولِهَا عَنِ الْبُيُوعَاتِ لِمَا يَمَسُّهُمْ وَبِذَلِكَ كَانَتْ الْأَسْعَارُ فِي الْأَنْصَارِ
 أَغْلَى مِنَ الْأَسْعَارِ فِي الْبَادِيَةِ إِذِ الْمَكُوسُ وَالْمَغَارِمُ وَالْفَرَائِضُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ
 مَعْدُومَةٌ وَكَثَرَتْهَا فِي الْأَنْصَارِ لَا سَبَبَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ تَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ
 قِيَمَةُ عِلَاجِهَا فِي التَّارِيخِ وَيُحَافِظُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَسْعَارِهَا كَمَا وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 وَذَلِكَ أَنَّهُمْ مِمَّا الْجَاهُ النَّصَارَى إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَبِلَادِهِ الْمُتَوَعَّرَةِ الْخَبِيثَةِ الزَّرْعَةِ
 النَّصِيدَةِ النَّبَاتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ الزَّاكِيَةَ وَالْبَلَدَ الطَّيِّبَ فَاحْتَاجُوا إِلَى عِلَاجِ
 الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ لِإِصْلَاحِ نَبَاتِهَا وَفَلَحِهَا وَكَانَ ذَلِكَ الْعِلَاجُ بِأَعْمَالِ ذَاتِ قِيَمٍ وَمَوَادِّ
 مِنَ الزَّبَلِ وَغَيْرِهِ لَهَا مَوْنَةٌ وَصَارَتْ فِي فُلُوحِهِمْ تَفَقَّاتٌ لَهَا خَطَرٌ فَاعْتَبَرُوهَا فِي سِعَرِهِمْ
 وَاخْتَصَّ قَطْرُ الْأَنْدَلُسِ بِالْفَلَاءِ مِنْذُ اضْطَرَّ لَهُمُ النَّصَارَى إِلَى هَذَا التَّمَعُّورِ بِالْإِسْلَامِ
 مَعَ سَوَاحِلِهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَيَحْسِبُ النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بِفَلَاءِ الْأَسْعَارِ فِي قَطْرِهَا أَنَّهَا إِقْلَةٌ
 الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّمَعُّورِ قَلْبًا فِيمَا عَلِمْنَاهُ
 وَأَقْوَمُهُمْ عَلَيْهِ وَقَدْ أَنْ يَخْلُو مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سُوقَةٌ عَنْ قَدَانٍ أَوْ مَزْرَعَةٍ أَوْ قَلْعٍ إِلَّا
 قَلِيلٌ مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ وَالْمِهْنِ أَوْ الطَّرَاءِ عَلَى الْوَطَنِ مِنَ الْغَزَاةِ الْحُجَاهِدِينَ وَلِهَذَا
 يَخْتَصُّهُمْ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْعُولَةِ وَهِيَ أَقْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الزَّرْعِ وَإِنَّمَا السَّبَبُ
 فِي غَلَاءِ سِعْرِ الْحُبُوبِ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبَرْبَرِ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ
 فِي زَكَاةِ مَنَابِتِهِمْ وَطَيْبِ أَرْضِهِمْ أَرْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الْمُؤْنُ جُمْلَةً فِي الْقَلْعِ مَعَ كَثَرَتِهِ
 وَعُمُومَتِهِ فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُخْصِ الْأَقْوَاتِ بِلَدِهِمْ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث عشر

في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمَرَانَ يَكْثُرُ تَرْفُهُ كَمَا قَدْ مَنَاهُ وَتَكْثُرُ

حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ وَتُعْتَادُ تِلْكَ الْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضَرُورَاتٍ وَتَصِيرُ فِيهِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ عَزِيزَةً وَالْمَرَافِقُ غَالِيَةً بِأَزْدِ حَامِ الْأَغْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ وَبِالْمَغَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تُوضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالْبِيَاعَاتِ وَتُعْتَبَرُ فِي قِيَمِ الْبَيْعَاتِ وَيَعْظُمُ فِيهَا الْفَلَاحُ فِي الْمَرَافِقِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَالِ فَتَكْثُرُ لِنِذَلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بِالْفَقْدِ عَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهِ وَبِعَظْمِ خَرْجِهِ فَيَعْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مَوْتِنِهِمْ وَالْبَدْوِيِّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيرًا سَاكِنًا بِمَكَانِ كَاسِدِ الْأَسْوَاقِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي فِي سَبَبِ الْكَسْبِ فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُمُكْنِي الْمِصْرِ الْكَبِيرِ لِفَلَاحِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلَّتَهُ بِأَقْلٍ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلُ عَوَائِدِ التَّرَفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَوْتِنِهِ فَلَا يُضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى الْمِصْرِ وَسُمُكْنَاهُ مِنَ الْبَادِيَةِ فَسَرِيعًا مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيَفْتَضِحُ فِي أَسْطِطَانِهِ إِلَّا مَنْ يُقَدِّمُ مِنْهُمْ تَأَثَّلَ الْمَالِ وَيَعْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمُرَانِ مِنَ الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ فَيَحْتَنِذُ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمِصْرِ وَيَنْتَظِمُ حَالَهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرْفِهِمْ وَهَكَذَا شَأْنُ بَدَاءَةِ عُمْرَانِ الْأَمْصَارِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ مُحِيطٌ

الفصل الرابع عشر

في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرقة والفقر مثل الامصار
اعلم ان ما توفر عُمُرَانُهُ مِنَ الْأَقْطَارِ وَتَعَدَّدَتِ الْأَنْمُ فِي جِهَاتِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ
أَنْسَمَتِ أَحْوَالُ أَهْلِهِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ وَعَظُمَتِ دَوْلَتُهُمْ وَمَعَ لَكُّهُمْ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرْتَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ وَمَا سَبَّأُ فِي ذِكْرِهِ مِنْ أَنَّهَا سَبَبُ
لِلثَّرَةِ بِمَا يَفْضُلُ عَنْهَا بَعْدَ الْوَفَاءِ بِالضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ السَّاكِنِ مِنَ الْفَضْلَةِ الْبَالِغَةِ
عَلَى مِقْدَارِ الْعُمُرَانِ وَكَثْرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى النَّاسِ كَسْبًا يَتَأَثَّلُونَهُ حَسَبَ مَا نَذَرْتُ ذَلِكَ فِي
فصلِ الْمَعَاشِ وَبَيَانِ الرِّزْقِ وَالْكَسْبِ فَيَزِيدُ الرِّقَّةُ لِذَلِكَ وَتَتَسَّعُ الْأَحْوَالُ وَيَسْجِي
التَّرَفُ وَالْغِنَى وَتَكْثُرُ الْحَيَاةُ لِلدَّوْلَةِ بِتَفَاقِ الْأَسْوَاقِ فَيَكْثُرُ مَالُهَا وَيَشْتَعُ سُلْطَانُهَا
وَيَتَفَتَّنُ فِي اتِّخَاذِ الْحَاكِلِ وَالْحَضُونِ وَاخْتِطَاطِ الْمَدُنِ وَتَشِيدُ الْأَمْصَارَ . وَاعْتَبَرْ ذَلِكَ
بِأَقْطَارِ الْمَشْرِقِ مِثْلَ مِصْرَ وَالشَّامِ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَبَاحِيَةِ الشَّعَالِ كُلِّهَا

وَأَفْطَارَهَا وَرَاءَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ لَمَّا كَثُرَ عُثْرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ الْمَالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتِ
دَوْلَتُهُمْ وَتَعَدَّدَتِ مَدَنُهُمْ وَخَوَاضِرُهُمْ وَعَظُمَتِ مَتَاجِرُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ فَالَّذِي نُشَاهِدُهُ
هَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَحْوَالِ تِجَارَةِ الْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ الْوَارِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ فِي
رِفْقِهِمْ وَاتِّسَاعِ أَحْوَالِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ وَكَذَا تِجَارَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ
الْأَفْصَى مِنْ عِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالْحَيْنِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ الْغِنَى وَالرِّفَةِ غَرَائِبُ
تَسِيرُ الرُّكْبَانُ بِحَدِيثِهَا وَرُبَّمَا تُتْلَقَى بِالْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ الْأُمَرِ وَيَحْسَبُ مَنْ يَسْمَعُهَا مِنْ
الْعَامَّةِ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَأْدَى فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ لَئِنْ الْمَعَادِنَ الذَّهَبِيَّةَ وَالْفِضِّيَّةَ أَكْثَرُ بِأَرْزَاقِهِمْ
أَوْ لَئِنْ ذَهَبَ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْأُمَمِ اسْتَأْثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَمُعْدِنُ
الذَّهَبِ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هَذِهِ الْأَفْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ وَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ
أَقْرَبُ وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْبِضَاعَةِ فَإِنَّمَا يَجْلِبُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتِّجَارَةِ فَلَوْ
كَانَ الْمَالُ عَتِيدًا مَوْفُورًا لِدِينِهِمْ لَمَّا جَازُوا بِضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ يَتَفَنُّونَ بِهَا الْأَمْوَالَ وَلَا
اسْتَفْنَوْا عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْجُمْلَةِ . وَلَقَدْ ذَهَبَ الْمُعْجَمُونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ وَاسْتَفْرَبُوا
مَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ كَثَرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتِّسَاعِهَا وَوُفُورِ أَمْوَالِهَا فَقَالُوا بَانَ عَطَايَا الْكُوكِبِ
وَالسِّهَامِ فِي مَوَالِدِ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصَصًا فِي مَوَالِدِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَذَلِكَ
صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَا . وَهُمْ
إِنَّمَا أُعْطُوا فِي ذَلِكَ السَّبَبِ النُّجُومِيِّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا السَّبَبَ الْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا
ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثَرَةِ الْعُمَرَانِ وَاخْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَأَفْطَارِهِ وَكَثَرَةِ الْعُمَرَانِ
لِفَيْدِ كَثَرَةِ الْكَسْبِ بِكَثَرَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُهُ فَلِذَلِكَ اخْتُصَّ الْمَشْرِقُ بِالرِّفَةِ
مِنْ بَيْنِ الْآفَاقِ لَا إِنْ ذَلِكَ لِمَجَرِّ الْأَثَرِ النُّجُومِيِّ فَقَدْ فَهِمْتَ مَا أَشْرْنَا لَكَ أَوَّلًا أَنَّهُ
لَا يَسْتَقِلُّ بِذَلِكَ وَأَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمَرَانِ الْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ .
وَأَعْتَبِرْ حَالَهُ هَذَا الرِّفَةِ مِنَ الْعُمَرَانِ فِي قَطْرِ أَفْرِيقِيَّةِ وَبَرَقَةِ لَمَّا خَفَّ سَكْنُهَا وَتَنَافَسَ
عُثْرَانُهَا كَيْفَ تَلَاشَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهَا وَانْتَهَوْا إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَضَعُفَتْ حِبَابَاتُهَا
فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دُولِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَوْلُ الشَّيْعَةِ وَصَنَاجِدُهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنَ الرِّفَةِ
وَكَثَرَةِ الْحِبَابَاتِ وَاتِّسَاعِ الْأَحْوَالِ فِي تَفَقُّاتِهِمْ وَأَعْطِيَانِهِمْ حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ الْأَمْوَالُ
تُرْفَعُ مِنَ الْقُبُورِ وَإِلَى صَاحِبِ مِصْرَ لِحَاجَاتِهِ وَمُهْمَاتِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ الدَّوْلَةِ بِحَيْثُ حَمَلَ

جَوْهَرُ الْكَاتِبِ فِي سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ الْفَحْلِ مِنَ الْمَالِ يَسْتَعِدُّ بِهَا لِأَرْزَاقِ
الْجُنُودِ وَأَعْطِيَّاتِهِمْ وَتَفَقَّاتِ الْغَزَاةِ وَقَطْرُ الْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيقِيَّةَ
فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ فِي ذَلِكَ وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دَوْلِ الْمُوَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجِبَابِيَّةً مَوْفُورَةً
وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ أَقْصَرَ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمَرَاءِ فِيهِ وَتَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمَرَاءِ
الْبَرْبَرِ فِيهِ أَكْثَرُهُ وَتَقْصُرُ عَنْ مَعْبُودِهِ تَقْصَاطُ ظَاهِرًا مُحْسُوسًا وَكَأَنَّ بِلَاحِقَ فِي أَحْوَالِهِ
بِمِثْلِ أَحْوَالِ أَفْرِيقِيَّةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمَرَاءُهُ مُتَّصِلًا مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ إِلَى بِلَادِ
السُّودَانِ فِي طُولِ مَا بَيْنَ السُّوسِ الْأَفْصَى وَرَقَّةَ وَهِيَ الْيَمِّ كَالْمَاءِ أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارٌ
وَحَلَاةٌ وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسِيفِ الْبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ الثَّلُولِ وَاللَّهُ وَارِثُ
الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الخامس عشر

في تاتل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها
إِعْلَمَ أَنَّ تَاتِلَ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ الْكَثِيرَةِ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً
وَاحِدَةً وَلَا فِي عَصْرِ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ الثَّرْوَةِ مَا يَمْلِكُ بِهِ الْأَمْلاكَ
الَّتِي تَخْرُجُ قِيَمَتُهَا عَنِ الْحَدِّ وَلَوْ بَلَّغَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي الرِّفَةِ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ وَإِنَّمَا يَكُونُ
مُلْكُهُمْ وَتَاتِلُهُمْ لَهَا تَذَرِيحًا إِمَّا بِالْوَرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى تَتَأَدَّى أَمْلاكُهُ
الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى الْوَاحِدِ وَأَكْثَرُ ذَلِكَ أَوْ أَنْ يَكُونَ بِمَحْوَالِهِ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّ الْعَقَارَ
فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَأَوَّلِ الْآخَرَى عِنْدَ فَنَاءِ الْحَامِيَةِ وَخَرَقِ السِّبَاجِ وَتَدَاعِي الْمِصْرِ إِلَى
الْخَرَابِ ثِقَلُ الْغِبْطَةِ بِهِ لِقَلَّةِ الْمَنَافِعِ فِيهَا بِتَلَاشِي الْأَحْوَالِ فَتَرْخُصُ قِيَمَتُهَا وَتَمْلِكُ
بِالْإِثْمَانِ السَّيْرَةِ وَتَتَخَطَّى بِالْمِيرَاثِ إِلَى مُلْكٍ آخَرَ وَقَدْ اسْتَجَدَّ الْمِصْرُ شِبَابَهُ بِاسْتِئْجَالِ
الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَانْتَضَمَتْ لَهُ أَحْوَالٌ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ تَحْصُلُ مَعَهَا الْغِبْطَةُ فِي الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ
بِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعْظُمُ قِيَمَتُهَا وَيَكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَوَّلِ وَهَذَا مَعْنَى الْحَوَالَةِ
فِيهَا وَيُصْبِحُ مَالِكُهَا مِنْ أَغْنَى أَهْلِ الْمِصْرِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِسَعِيهِ وَكَتْسَابِهِ إِذْ قُدْرَتُهُ
تَعْجِزُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ لِمَالِكِهَا فِي حَاجَاتِ
مَعَاشِهِ إِذْ هِيَ لَا تَتَّبِي بِعَوَائِدِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْغَالِبِ لِسَدِّ الْخَلَّةِ وَضَرُورَةِ
الْمَعَاشِ وَالَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ مَشِيخَةِ الْبُلْدَانِ أَنَّ الْقَصْدَ بِإِفْتِنَاءِ الْمُلْكِ مِنَ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ

إِنَّمَا هُوَ الْخَشْيَةُ عَلَى مَنْ يَتْرُكُ خَلْفَهُ مِنَ الذَّرِيَّةِ الضُّعْفَاءِ لِيَكُونَ مَرْبَاهُمْ بِهِ وَرِزْقَهُ فِيهِ وَنُشُوتُهُمْ بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنْ إِلَّا كِتَابٍ فَإِذَا اقْتَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ الْمَكَايِبِ سَعَوْا فِيهَا بِأَنْفُسِهِمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ الْوَلَدِ مَنْ يَعْجِزُ عَنِ التَّكْسِبِ لِضَعْفِ فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةٍ فِي عَقْلِهِ الْمَعَاشِي فَيَكُونُ ذَلِكَ الْعَقَارُ قِيَامًا لِحَالِهِ هَذَا قَصْدُ الْمُتَرَفِّينَ فِي أَقْتِنَائِهِ وَأَمَّا التَّمَوُّلُ مِنْهُ وَإِجْرَاءُ أَحْوَالِ الْمُتَرَفِّينَ فَلَا وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ أَوْ النَّادِرِ بِمَحْوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَحُصُولِ الْكَثْرَةِ الْبَالِغَةِ مِنْهُ وَالْعَالِي فِي جِنْسِهِ وَقِيَمَتِهِ فِي الْمِصْرِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ رُبَّمَا أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْأُمَرَاءِ وَالْوَلَاةِ وَاعْتَصَبُوهُ فِي الْغَالِبِ أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى يَبْعِهِ مِنْهُمْ وَنَالَتْ أُنْحَابُهُ مِنْهُ مَضَارٌ وَمَعَاطِبٌ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الفصل السادس عشر

في حاجات المتولين من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة
وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضَرِيَّ إِذَا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ وَكَثُرَ لِعَقَارِهِ وَالضِّيَاعِ تَأَثُّلُهُ وَأَصْبَحَ أَغْنَى
أَهْلَ الْمِصْرِ وَرَمَقَتُهُ الْعِيُونُ بِذَلِكَ وَانْقَسَمَتِ أَحْوَالُهُ فِي التَّرَفِ وَالْعَوَائِدِ زَاخِمَ عَلَيْهَا
الْأُمَرَاءُ وَالْمُلُوكُ وَغَضُّوا بِهِ وَلِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدْوَانِ تَمْتَدُّ أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ
مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ وَيَتَحَيَّلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى يُعْصِلُوهُ فِي رِبْقَةِ حُكْمِهِ
سُلْطَانِي وَسَبَبٍ مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ ظَاهِرٍ يُنْتَزَعُ بِهِ مَالُهُ وَأَكْثَرُ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ
جَائِزَةٌ فِي الْغَالِبِ إِذِ الْعَدْلُ الْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ أَلْبَثَ قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا عَضُوضًا فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ
لِصَاحِبِ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ أَشْهَرَةٍ فِي الْأَثْمَرَانِ مِنْ حَامِيَةٍ تَذُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ
مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَالِكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَصَبِيَّةٍ يَتَحَمَّاهَا السُّلْطَانُ فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَرْتَعُ
فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ الْعَدَدِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهَبًا يُوْجَرُ الْتَخِيلَاتِ
وَأَسْبَابِ الْحُكْمِ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترمخ باتصال الدولة ورسوخها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحِضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ

الْعُمَرَانِ زِيَادَةً تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الرِّفَةِ وَتَفَاوُتِ الْأَثَمِ فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ تَقَاوُتًا غَيْرَ
 مُنَحْصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثَرَةِ التَّفَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ
 وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوْمَةِ عَلَيْهِ وَالْمَهَرَّةِ فِيهِ وَيَقْدَرُ مَا يَزِيدُ مِنْ أَصْنَافِهَا
 تَزِيدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ الْجِيلُ بِهَا وَمَتَى اتَّصَلَتِ الْأَيَّامُ وَتَعَايَنَتِ تِلْكَ الصِّنَاعَاتُ
 حَذَقَ أُولَئِكَ الصَّنَاعُ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَالْأَعْيَارُ بِطُولِهَا وَانْفِسَاحِ أَمْدِهَا
 وَتَكَرَّرِ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِخْجَامًا وَرُسُوخًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ لِاسْتِجَارِ
 الْعُمَرَانِ وَكَثَرَةِ الرِّفَةِ فِي أَهْلِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ
 تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرِّعِيَّةِ وَتُنْفِقُهَا فِي بَطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَتَسَبَّحُ أَسْوَاقُهَا بِأَكْثَرِ مِنْ
 اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ مِنَ الرِّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ فِي
 مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ وَهُمْ أَكْثَرُ فَتَعْظُمُ لِدَاكِ ثَرَوَتُهُمْ وَيَكْثُرُ غِنَاؤُهُمْ وَتَزِيدُ
 عَوَائِدُ التَّرَفِ وَمَذَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكِمُ لَدَيْهِمُ الصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ وَهَذِهِ هِيَ الْحِضَارَةُ
 وَلِهَذَا تَجِدُ الْأَمْصَارَ الَّتِي فِي الْقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةً الْعُمَرَانِ تَغَابُ عَلَيْهَا أَحْوَالُ الْبِدَاوَةِ
 وَتَبْعُدُ عَنِ الْحِضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا بِخِلَافِ الْمَدِينِ الْمُنَوَسِّطَةِ فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي هِيَ
 مَرْكَزُ الدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِجَوَارَةِ السُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَالْمَاءِ
 يَخْضَرُ مَا قَرُبَ مِنْهُ فَمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْجُفُوفِ عَلَى الْبَعْدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا
 أَنَّ السُّلْطَانَ وَالدَّوْلَةَ سُوقٌ لِلْعَالَمِ فَأَلْبَضَائِعُ كُلِّهَا مَوْجُودَةٌ فِي السُّوقِ وَمَا قَرُبَ مِنْهُ وَإِذَا
 أَبْعَدَتْ عَنِ السُّوقِ أَفْتَقِدَتْ الْبَضَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا اتَّصَلَتْ تِلْكَ الدَّوْلَةُ وَتَعَايَنَتْ
 مَلُوكُهَا فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ اسْتَحْكَمَتْ الْحِضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوخًا
 وَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ فِي الْيَهُودِ لَمَّا طَالَ مُلْكُهُمْ بِالشَّامِ فَمَحُوا مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ سَخَتْ
 حَضَارَتُهُمْ وَحَذَقُوا فِي أَحْوَالِ الْمَعَاشِ وَعَوَائِدِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِي صِنَاعَاتِهِ مِنَ الْأَطْعَامِ
 وَالْمَلَابِسِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَنْزِلِ حَتَّى إِنَّهَا لَتُؤْخَذُ عَنْهُمْ فِي الْغَالِبِ إِلَى الْيَوْمِ وَرَسَخَتْ
 الْحِضَارَةُ أَيْضًا وَعَوَائِدُهَا فِي الشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَوْلَةِ الرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتْمِائَةِ سَنَةٍ فَكَانُوا
 فِي غَايَةِ الْحِضَارَةِ . وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْقُبْطُ دَامَ مُلْكُهُمْ فِي الْخَلِيفَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ
 فَرَسَخَتْ عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ فِي بِلَادِهِمْ مِصْرَ وَأَعْقَبَهُمْ بِهَا مُلْكُ الْيُونَانِ وَالرُّومِ ثُمَّ مُلْكُ
 الْإِسْلَامِ النَّاسِخُ لِلْكُلِّ فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ بِهَا مُتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضًا رَسَخَتْ

عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالة والتبابعة الآفا
من السنين وأغلبهم ملك مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس
بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم الآفا من السنين فلم
يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضاً
رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط
ثم ما أعقبها من ملك بني أمية الآفا من السنين وكلتا الدولتين عظيمة فاتصت فيها
عوائد الحضارة واستحكمت وأما أفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام
ملك ضخم إنما قطع الإفرنجية إلى أفريقية البحر ومالكوا الساحل وكانت طاعة
البربر أهل الصحابة لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأوقار وأهل المغرب
لم يتجاوزهم دولة وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر ولما جاء
الله بالإسلام وملك العرب أفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلاً
أول الإسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بأفريقية والمغرب
لم يبعد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه إذ كانوا برابر منقسمين في البداوة
ثم انتفض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد منسرة المظفري أيام هشام
ابن عبد الملك ولم يرجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وإن بايعوا
لأدريس فلا تعدد دولته فيهم عربية لأن البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب
فيها كثير عدد وبقيت أفريقية للأغالية ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة
بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث
ذلك عنهم كثامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربعائة سنة
وانصرفت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب
بدو العرب الهلاليين عليها وخرّبوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها وإلى هذا
العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف فتجد له من الحضارة
في شؤون منزله وعوائد أحواله آثاراً ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا
في أكثر أمصار أفريقية وأيس كذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بأفريقية
أكثر أمداً منذ عهد الأغالية والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة

الْمُوحِدِينَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ بِهِ عَوَائِدُهَا بِمَا كَانَ
لِدَوَائِمِهِمْ مِنَ الْأَسْتِثْلَاءِ عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَانْتَقَلَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَيْهِمْ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَكَانَتْ مِنْ اتِّسَاعِ النِّطَاقِ مَا عَلِمْتَ فَكَانَ فِيهَا حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ الْحَضَارَةِ
وَاسْتَحْكَمَتْهَا وَمُعْظَمُهَا مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ انْتَقَلَ أَهْلُ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَالِيَةِ
النَّصَارَى إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ فَأَبْقَوْا فِيهَا وَبِأَمْصَارِهَا مِنَ الْحَضَارَةِ آثَارًا وَمُعْظَمُهَا بِتُونِسَ
أَمْتَزَجَتْ بِحَضَارَةِ مِصْرَ وَمَا يَنْقُلُهُ الْمَسَافِرُونَ مِنْ عَوَائِدِهَا فَكَانَ بِذَلِكَ لِلْمَغْرِبِ
وَأَفْرِيقِيَّةِ حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ الْحَضَارَةِ عِنِّي عَائِيهِ الْخُلَاءُ وَرَجَعَ إِلَى أَغْقَابِهِ وَعَادَ الْبَرْبَرُ
بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَدْيَانِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْخَشُونَةِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ مَا تَارَ الْحَضَارَةُ بِأَفْرِيقِيَّةِ
أَكْثَرُ مِنْهَا بِالْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ إِنْ تَدَاوَلَ فِيهَا مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَغْرِبِ
وَلِقُرْبِ عَوَائِدِهِمْ مِنْ عَوَائِدِ أَهْلِ مِصْرَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَهُمْ . فَتَفْطِنُ لِهَذَا
السِّرِّ فَإِنَّهُ خَفِيَ عَنِ النَّاسِ وَأَعْلَمَ أَنَّهَا أُمُورٌ مُتَنَاسِبَةٌ وَهِيَ حَالُ الدُّوَلَةِ فِي الْقُوَّةِ
وَالضَّعْفِ وَكَثْرَةِ الْأُمَّةِ أَوِ الْجِيلِ وَعِظَمِ الْمَدِينَةِ أَوِ الْمِصْرِ وَكَثْرَةِ النِّعْمَةِ وَالْيَسَارِ
وَذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلَةَ وَالْمُلْكَ صُورَةُ الْخَالِقَةِ وَالْعُمُرَانُ وَكُلُّهَا مَادَّةٌ لِيَامِنَ الرِّعَايَا وَالْأَمْصَارِ
وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَأَمْوَالُ الْجَبَايَةِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَيَسَارُهُمْ فِي الْغَالِبِ مِنْ أَسْوَأَتِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ
وَإِذَا أَفَاضَ السُّلْطَانُ عَطَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي أَهْلِهَا أَنْبَتَ فِيهِمْ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ
فَهِيَ ذَاهِبَةٌ عَنْهُمْ فِي الْجَبَايَةِ وَالْخَرَاجِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْعَطَاءِ فَعَلَى نِسْبَةِ حَالِ الدُّوَلَةِ
يَكُونُ يَسَارُ الرِّعَايَا وَعَلَى نِسْبَةِ يَسَارِ الرِّعَايَا وَكَثَرَتِهِمْ يَكُونُ مَالُ الدُّوَلَةِ وَأَصْلُهُ
كُلُّهُ الْعُمُرَانُ وَكَثْرَتُهُ فَأَعْتَبِرْهُ وَتَأَمَّلْهُ فِي الدُّوَلِ تَجِدْهُ وَاللَّهُ يَتَعَكَّمُ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان الحضارة غاية العمران ونهاية عمره وانها موزنة بفساده
قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَتْ أَنَّ الْمُلْكَ وَالْدُّوَلَةَ غَايَةُ اللَّعْصِيَّةِ وَأَنَّ الْحَضَارَةَ غَايَةُ الْبِدَاوَةِ وَأَنَّ
الْعُمُرَانَ كُلَّهُ مِنْ بِدَاوَةٍ وَحَضَارَةٍ وَمُلْكٍَ وَسُوقَةٍ لَهُ عُمُرٌ مُحْسُوسٌ كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ مِنْ
اشْتِخَاصِ الْمَكْكُونَاتِ عُمُرًا مُحْسُوسًا وَبَيَّنَّ فِي الْمَقُولِ وَالْمَنْقُولِ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ لِلْإِنْسَانِ
غَايَةٌ فِي تَزَايُدِ قُوَّاهُ وَنُمُوِّهَا وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنَ الْأَرْبَعِينَ وَقَفَّتِ الطَّبِيعَةُ عَنْ أَثَرِ الشُّوْءِ
وَالنُّمُوِّ بَرْهَةً ثُمَّ نَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَنْحِطَاطِ فَلْتَعْلَمْ أَنَّ الْحَضَارَةَ فِي الْعُمُرَانِ أَيْضًا

كَذَلِكَ لِأَنَّهُ غَايَةٌ لَا مَزِيدَ وَرَاءَهَا وَذَلِكَ أَنَّ التَّرَفَ وَالنِّعْمَةَ إِذَا حَصَلَ لِأَهْلِ الْعُمَرَانِ
دَعَامٌ بِطَبْعِهِ إِلَى مَذَاهِبِ الْحِضَارَةِ وَالْتِخَافِ بِعَوَائِدِهَا وَالْحِضَارَةَ كَمَا عَلِمْتَ فِي التَّفَنُّ
فِي التَّرَفِ وَاسْتِجَادَةِ أَحْوَالِهِ وَالْكَفْلُ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي تُؤْتِي مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فُنُونِهِ
مِنْ الصَّنَائِعِ الْمُهَيَّئَةِ لِلْمَطَامِحِ أَوِ السَّلَاسِ أَوِ الْمَبَانِي أَوِ الْفُرُشِ أَوِ الْآيَةِ وَلِسَائِرِ
أَحْوَالِ الْمَنْزِلِ وَلِلتَّائِقِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ صَنَائِعُ كَثِيرَةٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ
الْبِدَاوَةِ وَعَدَمِ التَّائِقِ فِيهَا وَإِذَا بَلَغَ التَّائِقُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْغَايَةَ تَبِعَهُ طَاعَةُ
الشَّهَوَاتِ فَتَتَلَوَّنُ النَّفْسُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَائِدِ بِالْوَانِ كَثِيرَةٍ لَا يَسْتَقِيمُ حَالُهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا
وَلَا دُنْيَاهَا أَمَّا دِينُهَا فَلَا يَسْتَحْكَمُ صِبْغَةُ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَغْسُرُ نَزْعُهَا وَأَمَّا دُنْيَاهَا فَلِكثَرَةِ
الْحَاجَاتِ وَالْمُؤَنَاتِ الَّتِي تُطَالَبُ بِهَا الْعَوَائِدُ وَيُجْزَى وَيُكَبُّ عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا وَيَبَيِّنُ أَنَّ
الْمِصْرَ بِالتَّفَنُّ فِي الْحِضَارَةِ تَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِهِ وَالْحِضَارَةُ تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الْعُمَرَانِ فَحَتَّى
كَانَ الْعُمَرَانُ أَكْثَرَ كَانَتْ الْحِضَارَةُ أَكْمَلَ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ
الْعُمَرَانِ يَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَتِهِ ثُمَّ تَزِيدُهَا الْمُكُوسُ غَلَاءً لِأَنَّ
الْحِضَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ فِي اسْتِحْجَالِهَا وَهُوَ زَمَنُ وَضْعِ الْمُكُوسِ فِي
الدَّوْلِ لِكثَرَةِ خَرْجِهَا حِينَئِذٍ كَمَا نَقَدَّمُ وَالْمُكُوسُ تَعُودُ إِلَى الْبِيَاعَاتِ بِالْغَلَاءِ لِأَنَّ
السُّوقَةَ وَالشُّجَارَ كُلَّهُمْ يَحْتَسِبُونَ عَلَى سِعَائِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ جَمِيعَ مَا يُنْفِقُونَهُ حَتَّى فِي مُؤَنَةِ
أَنْفُسِهِمْ فَيَكُونُ الْمَكْسُ لِدَلِكِ دَاخِلًا فِي قِيَمِ الْبِيَاعَاتِ وَأَثْمَانِهَا فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ
الْحِضَارَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْإِسْرَافِ وَلَا يَجِدُونَ وَاجِبَةً عَنْ ذَلِكَ لِمَا مَلَكَهُمْ مِنْ
أَثَرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذَمُّبِ مَكَامِلِهِمْ كُلُّهَا فِي النِّفَقَاتِ وَيَتَتَابِعُونَ فِي الْإِمْلَاقِ
وَالْخَاصَةِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْفَقْرُ وَيَقِلُّ الْمُسْتَأْمُونَ لِلْبَائِعِ فَتَكْسُدُ الْأَسْوَاقُ وَيَفْسُدُ
حَالُ الْمَدِينَةِ وَدَاعِيَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ إِفْرَاطُ الْحِضَارَةِ وَالتَّرَفِ وَهَذِهِ مُفْسِدَاتُ فِي الْمَدِينَةِ
عَلَى الْعُومِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْعُمَرَانِ وَأَمَّا فَسَادُ أَهْلِهَا فِي ذَاتِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا عَلَى الْخُصُوصِ
فَمَنْ الْكَذِبِ وَالْأَتْعَابِ فِي حَاجَاتِ الْعَوَائِدِ وَالتَّلَوُّنِ بِالْوَانِ الشَّرِّ فِي تَخْصِيصِهَا وَمَا يَعُودُ عَلَى
النَّفْسِ مِنَ الضَّرَرِ بَعْدَ تَخْصِيصِهَا بِحُصُولِ لَوْنٍ آخَرَ مِنَ الْوَانِهَا فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ مِنْهُمْ الْفِسْقُ
وَالشَّرُّ وَالسَّفْسَفَةُ وَالتَّحِيلُ عَلَى تَحْصِيلِ الْمَعَاشِ مِنْ وَجْهِهِ وَمِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ وَتَنْصَرِفُ
النَّفْسُ إِلَى الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ وَالْفُوقِ عَلَيْهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْحِيلَةِ لَهُ فَتَعْبُدُهُمْ أَجْرِيَاءَ عَلَى

الْكُذِبَ وَالْمُقَامَرَةَ وَالْفِشَ وَالْخِلَابَةَ وَالسَّرِقَةَ وَالْفُجُورَ فِي الْإِيمَانِ وَالزُّبَانَ فِي الْبَيِّنَاتِ
 ثُمَّ تَجِدُهُمْ أَبْصَرَ بِطُرُقِ الْفِسْقِ وَمَذَاهِبِهِ وَالْعِجَاهَةِ بِهِ وَبِدَوَاعِيهِ وَأَطْرَاحِ الْحِشْمَةِ
 فِي الْخَوْضِ فِيهِ حَتَّى بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَذَوِي الْحَرَامِ الَّذِينَ تَقْتَضِي الْبِدَاوَةُ الْحَيَاءَ مِنْهُمْ
 فِي الْإِقْدَاعِ بِذَلِكَ وَتَجِدُهُمْ أَيْضًا أَبْصَرَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ يَدْفَعُونَ بِذَلِكَ مَا عَسَاهُ أَنْ يَنَالَهُمْ
 مِنَ الْقَهْرِ وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تِلْكَ الْقَبَائِحِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً وَخُلُقًا
 لَا كَثَرِيهِمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَيَمُوجُ بَحْرُ الْمَدِينَةِ بِالسَّفَلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ
 وَيُجَارِيهِمْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ نَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ وَوِلْدَانِهِمْ مِمَّنْ أَهْمِلَ عَنِ التَّأْدِيبِ وَغَلَبَ عَلَيْهِ
 خُلُقُ الْجَوَارِ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ أَنْسَابٍ وَيُوتَاتٍ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ بَشَرٌ مُتَمَثِّلُونَ وَإِنَّمَا
 تَمَاضُوا وَتَمَيَّزُوا بِالْخُلُقِ وَكَتَسَابِ الْفَضَائِلِ وَاجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ فَمَنْ اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ
 لَمْ يَنْفَعَهُ زَكَاةُ نَسَبِهِ وَلَا طِيبُ مَنْبَتِهِ وَإِنْدَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ أَعْقَابِ الْبُيُوتِ وَذَوِي
 الْأَحْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ مُنْطَرِحِينَ فِي الْغُمَارِ مُنْتَحِلِينَ لِلْغُرَفِ الدَّنِيئَةِ فِي
 مَعَاشِهِمْ نَمًا فَسَدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِبْغَةِ الشَّرِّ وَالسَّفَفَةِ وَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ
 فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْأُمَّةِ تَأْذَنَ اللَّهُ بِخَرَابِهَا وَانْقِرَاضِهَا وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ
 نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا . وَوَجْهُهُ حِينَئِذٍ
 أَنْ مَكَاسِبَهُمْ حِينَئِذٍ لَا تَنِي بِحَاجَاتِهِمْ لِكثَرَةِ الْعَوَائِدِ وَمُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا فَلَا تَسْتَقِيمُ
 أَحْوَالُهُمْ وَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ وَاحِدًا وَاحِدًا اخْتَلَّ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرِبَتْ
 وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوَاصِّ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرَسُ النَّارَنِجِ
 تَأْذَنَ بِالْخَرَابِ حَتَّى أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْعَامَّةِ يَتَحَامَى غَرَسَ النَّارَنِجِ بِالْدُّورِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ
 ذَلِكَ وَلَا أَنَّهُ خَاصِيَّةٌ فِي النَّارَنِجِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَإِجْرَاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ
 تَوَابِعِ الْحِضَارَةِ ثُمَّ إِنَّ النَّارَنِجَ وَاللَّيْبَةَ وَالسَّرَوَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنَفْعَةَ
 هُوَ مِنْ غَايَةِ الْحِضَارَةِ إِذْ لَا يُقْصَدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينَ إِلَّا أَشْبَكَالُهَا فَقَطْ وَلَا تُغْرَسُ إِلَّا بَعْدَ
 التَّفَنُّنِ فِي مَذَاهِبِ التَّرَفِ وَهَذَا هُوَ الطُّورُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ هَلَاكُ الْمِصْرِ وَخَرَابُهُ كَمَا
 قُلْنَا . وَلَقَدْ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدِّقْلَى وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِذِ الدِّقْلَى لَا يُقْصَدُ بِهَا إِلَّا
 تَلَوْنُ الْبَسَاتِينَ بِنُورِهَا مَا بَيْنَ أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ التَّرَفِ . وَمِنْ مَفَاسِدِ
 الْحِضَارَةِ لِأَنَّهُمَا فِي الشَّهَوَاتِ وَالْإِسْتِرْسَالِ فِيهَا لِكثَرَةِ التَّرَفِ فَيَقَعُ التَّفَنُّنُ فِي شَهَوَاتِ

الْبَطْنِ مِنَ الْمَا كُلِّ وَالْمَلَاذِ فَيُنْفِي ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ النَّوعِ فَأَفْهَمَ ذَلِكَ وَأَعْتَبَرَ بِهِ
 أَنَّ غَايَةَ الْعُمْرَانِ هِيَ الْحِضَارَةُ وَالتَّرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ انْتَقَلَ إِلَى الْفَسَادِ وَأَخَذَ فِي
 الْحَرَمِ كَالْأَعْمَارِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ بَلْ تَقُولُ إِنَّ الْأَخْلَاقَ الْحَاصِلَةَ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالتَّرَفِ
 هِيَ عَيْنُ الْفَسَادِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِإِقْتِدَارِهِ عَلَى جَلْبِ مَنَافِعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِهِ
 وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَالْحَضَرِيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِمَّا عَجْزًا لِمَا
 حَصَلَ لَهُ مِنَ الدَّعَةِ أَوْ تَرَفًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمَرْبَى فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ وَكِلَا الْأَرْبَيْنِ
 ذَمِيمٌ وَكَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْمَضَارِّ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَالْحَضَرِيُّ بِمَا
 قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ الْإِنْسَانِ بِالتَّرَفِ وَالنَّعِيمِ فِي قَهْرِ التَّأْدِيبِ فَهُوَ بِذَلِكَ عِيَالٌ عَلَى الْحَاكِمَةِ
 الَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضًا غَالِبًا بِمَا فَسَدَتْ مِنْهُ الْعَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ
 النَّفْسُ مِنْ مَكَانَتِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَإِذَا فَسَدَ الْإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ
 عَلَى اخِلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْخًا عَلَى الْحَقِيقَةِ وَبِهَا الْإِعْتِبَارُ كَانَ
 الَّذِينَ يَتَرَبَّوْنَ عَلَى الْحِضَارَةِ وَخُلُقِهَا مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ احْضَارَةَ هِيَ
 سَبَبُ الْوُقُوفِ لِعُمُرِ الْعَالَمِ فِي الْعُمْرَانِ وَالِدَوْلَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ
 لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ

الفصل التاسع عشر

في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها
 قَدْ اسْتَقَرَّرْنَا فِي الْعُمْرَانِ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا اخْتَلَّتْ وَانْتَقَضَتْ فَإِنَّ الْمِصْرَ الَّذِي
 يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمْرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي انْتِفَاضِهِ إِلَى الْخَرَابِ وَلَا يَكَادُ
 ذَلِكَ يَخْلُفُ وَالسَّبَبُ فِيهِ أَمْرٌ أَوَّلُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَا بُدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ الْمُقْتَضِيَةِ
 لِلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْبُعْدِ عَنِ التَّحْدِثِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ الْجَبَايَةِ وَالْمَغَارِمِ
 الَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ الدَّوْلَةِ فَتَقِلُّ النِّفَقَاتُ وَيَقِلُّ التَّرَفُ فَإِذَا صَارَ الْمِصْرُ الَّذِي كَانَ كُرْسِيًّا
 لِلْمَلِكِ فِي مَلَكَةٍ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُمَجَّدَةِ وَتَقَصَّتْ أَحْوَالُ التَّرَفِ فِيهَا نَقَصَ التَّرَفُ
 فَيَمْنُ نَحْتُ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ لِأَنَّ الرِّعَايَا تَبْعُ الدَّوْلَةَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ الدَّوْلَةِ
 إِمَّا طَوْعًا لِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتَّبِعِيهِمْ أَوْ كَرْهًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ الدَّوْلَةِ
 مِنَ الْإِنْتِبَاضِ عَنِ التَّرَفِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَقِلَّةِ الْعَوَائِدِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْعَوَائِدِ فَتَقْصُرُ

لِتِلْكَ حَضَارَةِ الْمِصْرِ وَيَذْهَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَهُوَ مَعْنَى مَا نَقُولُ فِي خَرَابِ
 الْمِصْرِ . الْأَمْرُ الثَّانِي أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنَّمَا يَحْصُلُ لَهَا الْمَلِكُ وَالْإِسْتِيلَاءُ بِالْغَلَبِ وَإِنَّمَا
 يَكُونُ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ وَالْحُرُوبِ وَالْعِدَاوَةُ تَقْتَضِي مُنَافَاةَ بَيْنِ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ وَتَكْثُرُ
 إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَغَلَبُ أَحَدِ الْمُتَنَافِيَيْنِ يَذْهَبُ بِالْمُنَافِي
 الْآخَرِ فَتَكُونُ أَحْوَالُ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ مُنْكَرَةً عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَمُسْتَبْشَعَةً وَطَبِيعَةً
 وَخُصُوصًا أَحْوَالُ التَّرَفِ فَتَقْصِدُ فِي عُرْفِهِمْ بِكِبَرِ الدَّوْلَةِ لَهَا حَتَّى تَنْشَأَ لَهُمْ بِالتَّذَرِيجِ
 عَوَائِدُ أُخْرَى مِنَ التَّرَفِ فَتَكُونُ عَنْهَا حَضَارَةٌ مُسْتَانِقَةٌ وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ قُصُورُ الْحَضَارَةِ
 الْأُولَى وَتَقْصُهَا وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ الْعُمَرَانِ فِي الْمِصْرِ . الْأَمْرُ الثَّالِثُ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ لَا
 بُدَّ لَهُمْ مِنْ وَطَنٍ وَهُوَ مَنْشَأُهُمْ وَمِنْهُ أَوَّلِيَّةُ مُلْكِهِمْ وَإِذَا مَلَكَوا مُلْكًا آخَرَ صَارَ تَبَعًا
 لِلْأَوَّلِ وَأَمْصَارُهُ تَابِعَةٌ لِأَمْصَارِ الْأَوَّلِ وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْسِطِ
 الْكُرْمِيِّ تَحْتُمُ الْمَمَالِكِ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ لِأَنَّهُ شِبْهُ الْمَرْكَزِ لِلنِّطَاقِ فَيَبْعُدُ مَكَانُهُ عَنْ
 مَكَانِ الْكُرْمِيِّ الْأَوَّلِ وَتَهْوِي أَفْتِدَةُ النَّاسِ مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ فَيَنْتَقِلُ إِلَيْهِ
 الْعُمَرَانُ وَيَخِفُّ مِنْ مِصْرِ الْكُرْمِيِّ الْأَوَّلِ وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَوْفُرُ الْعُمَرَانِ كَمَا
 قَلَمْنَاهُ فَتَنْقُصُ حَضَارَتُهُ وَتَمُدُّهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِهِ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلسُّلْجُوقِيَّةِ فِي عُدُولِهِمْ
 بِكَرْسِيَّهِمْ عَنْ بَغْدَادَ إِلَى أَصْبَهَانَ وَلِلْعَرَبِ قَبْلَهُمْ فِي الْعُدُولِ عَنِ الْمَدَائِنِ إِلَى الْكُوفَةِ
 وَالبَصْرَةِ وَلِإِنِّي الْعَبَّاسِ فِي الْعُدُولِ عَنْ دِمَشْقَ إِلَى بَغْدَادَ وَلِإِنِّي مُرَيْنِ بِالْعَرَبِ فِي
 الْعُدُولِ عَنْ مَرَّ أَكْشَ إِلَى فَاسَ وَبِالْجُمْلَةِ فَاتَّخَذُ الدَّوْلَةُ الْكُرْمِيَّةُ فِي مِصْرِ
 يُخَلُّ بِعُمَرَانِ الْكُرْمِيِّ الْأَوَّلِ . الْأَمْرُ الرَّابِعُ أَنَّ الدَّوْلَةَ الثَّانِيَةَ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ تَبَعٍ
 أَهْلِ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ وَأَشْيَاعِهَا بِتَحْوِيلِهِمْ إِلَى فُطْرٍ آخَرَ يُؤْمِنُ فِيهِ غَائِلَتُهُمْ عَلَى الدَّوْلَةِ
 وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْمِصْرِ الْكُرْمِيِّ أَشْيَاعُ الدَّوْلَةِ إِمَّا مِنْ الْحَامِيَّةِ الَّذِينَ نَزَلُوا بِهِ أَوَّلَ
 الدَّوْلَةِ أَوْ أَعْيَانِ الْمِصْرِ لِأَنَّ لَهُمْ فِي الْغَالِبِ مُخَالَطَةَ الدَّوْلَةِ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ وَتَنَوُّعِ أَصْنَافِهِمْ
 بَلْ أَكْثَرُهُمْ نَاشِئٌ فِي الدَّوْلَةِ فَهُمْ شَيْعَةٌ لَهَا وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا بِالشُّوْكَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ فَهُمْ
 بِالْمِلِّ وَالْحَبَّةِ وَالْعَقِيدَةِ وَطَبِيعَةِ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ مَحْوُ آثَارِ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ فَيُنْقِلُهُمْ
 مِنْ مِصْرِ الْكُرْمِيِّ إِلَى وَطَنِهَا الْمُتَمَكِّنِ فِي مَلَكَتِهَا فَبَعْضُهُمْ عَلَى نَوْعِ التَّغْرِيبِ
 وَالْحَبْسِ وَبَعْضُهُمْ عَلَى نَوْعِ الْكَرَامَةِ وَالْتَّلَافِ بِحَيْثُ لَا يُؤَدِّي إِلَى الْفَرَّةِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي

مِصْرُ الْكَرْمِيِّ إِلَّا الْبَاعَةَ وَالْمَحَلَّ مِنْ أَهْلِ الْفَلَحِ وَالْعِيَارَةِ وَسَوَادِ الْعَامَّةِ وَيَنْزِلُ مَكَانَهُمْ حَامِيَتَهَا وَأَشْبَاعُهَا مَنْ يَشْتَدُّ بِهِ الْمِصْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ الْمِصْرِ أَغْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ تَقْصَ سَاكِنُهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ عُمُرَانِهِ ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَجِدَّ عُمُرَانُ آخَرُ فِي خِلِّ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ وَتَحْصُلُ فِيهِ حِضَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدَرِ الدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمِثَابَةِ مَنْ لَهُ بَيْتٌ عَلَى أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ فَأَظْهَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ وَيَقْتَرِحُهُ فَيُخْرِبُ ذَلِكَ الْبَيْتَ ثُمَّ يَعِيدُ بِنَاءَهُ ثَانِيًا وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي هِيَ كِرَامِيٌّ لِلْمَلِكِ وَشَاهِدُنَاهُ وَعَلِمَتَاهُ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمَلِكَ لِلْعُمُرَانِ بِمِثَابَةِ الصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ وَهُوَ الشَّكْلُ الْحَافِظُ بِنَوْعِهِ لَوْجُودِهَا وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عُلُومِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُكِنُّ انْفِكَاكُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ فَالِدَّوْلَةُ دُونَ الْعُمُرَانِ لَا تُتَصَوَّرُ وَالْعُمُرَانُ دُونَ الدَّوْلَةِ وَالْمَلِكُ مُتَعَذِّرٌ لِمَا فِي بِطَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدْوَانِ الدَّاعِي إِلَى الْوَارِعِ فَتَتَعَيَّنُ السِّيَادَةُ لِذَلِكَ إِمَّا الشَّرْعِيَّةَ أَوِ الْمُلْكِيَّةَ وَهُوَ مَعْنَى الدَّوْلَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَنْفَكَا فَاخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي اخْتِلَالِ الْآخَرِ كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَالْخَلَلُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خِلِّ الدَّوْلَةِ الْكُلِّيَّةِ مِثْلَ دَوْلَةِ الرُّومِ أَوِ الْفَرَسِ أَوِ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ بَنِي أُمَيَّةٍ أَوْ بَنِي عَبَّاسٍ كَذَلِكَ وَأَمَّا الدَّوْلَةُ الشَّخْصِيَّةُ مِثْلَ دَوْلَةِ نُوشِرْوَانَ أَوْ هِرَقْلٍ أَوْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَوْ الرَّشِيدِ فَأَشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْعُمُرَانِ حَافِظَةٌ لَوْجُودِهِ وَبَقَائِهِ وَقَرِيبَةٌ الشَّيْءِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرَ اخْتِلَالٍ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ بِالْحَقِيقَةِ الْفَاعِلَةَ فِي مَادَّةِ الْعُمُرَانِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصَبِيَّةُ وَالشُّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى أَشْخَاصِ الدَّوْلَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى مُؤَثِّرَةٌ فِي الْعُمُرَانِ ذَهَبَتْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَعَظُمُ الْخَلَلُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا لِمَا فِي طَبِيعَةِ الْعُمُرَانِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنَ الْأَعْمَالِ يُخْتَصُّ بِبَعْضِ أَهْلِ الْمِصْرِ فَيَقُومُونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَبْصِرُونَ فِي صِنَاعَتِهِ وَيَخْتَصُّونَ بِوُظَائِفِهِ وَيَجْعَلُونَ مَعَاشَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَهُمْ مِنْهُ لِعُمُومِ

الْبَلَوَى بِهِ فِي الْمِصْرِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَمَا لَا يَسْتَدْعِي فِي الْمِصْرِ يَكُونُ غَفْلًا إِذَا لَا فَايِدَةً
لَمُنْتَحِلِهِ فِي الْإِحْتِرَافِ بِهِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنْ ذَلِكَ لِضَرُورَةِ الْمَعَاشِ فَيُوجَدُ فِي كُلِّ مِصْرٍ
كَالْخِطَاطِ وَالْحُدَادِ وَالنَّجَّارِ وَأَمْثَالِهَا وَمَا يَسْتَدْعِي لِعَوَائِدِ التَّرَفِّ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّمَا يُوجَدُ
فِي الْمَدِينِ الْمُسْتَبْعِرَةِ فِي الْعِمَارَةِ الْآخِذَةِ فِي عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَالْحِضَارَةِ مِثْلِ الرِّجَاجِ
وَالصَّنَائِعِ وَالذَّهَانِ وَالطَّبَاحِ وَالصَّفَّارِ وَالْفَرَّاشِ وَالذَّبَّاحِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ
وَيَقْدَرُ مَا تَزِيدُ عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ وَتَسْتَدْعِي أَحْوَالُ التَّرَفِّ تَحْدِثُ صَنَائِعَ لِذَلِكَ النَّوعِ
فَتُوجَدُ بِذَلِكَ الْمِصْرُ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْحَمَامَاتُ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ فِي الْأَمْصَارِ
الْمُسْتَحْضِرَةِ الْمُسْتَبْعِرَةِ الْعُمُرَانِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرَفُّ وَالْفَنَى مِنَ التَّنَعُّمِ وَلِذَلِكَ
لَا تَكُونُ فِي الْمَدِينِ الْمُتَوَسِّطَةِ وَإِنْ تَزَعُ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ إِلَيْهَا فَيَخْتَلِفُهَا
وَيُغْرِى أَحْوَالَهَا إِلَّا أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهَا دَاعِيَةٌ مِنْ كَافَّةِ النَّاسِ فَسَرَعَانَ مَا تُهْجَرُ وَتُخْرَبُ
وَتَفِرُّ عَنْهَا الْقَوْمَةُ لِقِلَّةِ فَايِدَتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ مِنْهَا وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض
مِنْ الْبَيِّنِ أَنَّ الْإِلْتِحَامَ وَالْإِتِّصَالَ مَوْجُودٌ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ نَسَبٍ
وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّهُ كَمَا قَدَّمَاهُ أَضَعَفُ مِمَّا يَكُونُ بِالنَّسَبِ وَأَنَّهُ يُتَّصَلُ بِهِ الْعَصْبِيَّةُ بَعْضًا مِمَّا
تُتَّصَلُ بِالنَّسَبِ وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُلْتَحِدُونَ بِالْصُّهْرِ يُجْتَلِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى
أَنْ يَكُونُوا لَحْمًا لَحْمًا وَقَرَابَةً قَرَابَةً وَيَجِدُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالصَّدَاقَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ
الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ مِثْلَهُ فَيَفْتَرِقُونَ شَيْعًا وَعَصَائِبَ فَإِذَا نَزَلَ الْهَرَمُ بِالْدَوْلَةِ وَانْقَلَصَ ظِلُّ
الدَّوْلَةِ عَنِ الْقَاصِيَةِ أَحْتَاَجَ أَهْلُ أَمْصَارِهَا إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمُ وَالنَّظَرِ فِي حِمَايَةِ بَلَدِهِمْ
وَرَجَعُوا إِلَى الشُّوَرَى وَتَمَيَّزَ الْعَلِيَّةُ عَنِ السُّفْلَةِ وَالنُّفُوسُ بِطِبَاعِهَا مُتَطَاوِلَةٌ إِلَى الْغَلَبِ
وَالرَّئَاسَةِ فَتَطْمَحُ الْمَشِيخَةُ خِلَاءَ الْجَوِّ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْإِسْتِبْدَادِ
وَيُنَازِعُ كُلُّ صَاحِبَةٍ وَيَسْتَوْصِلُونَ بِالْإِتِّبَاعِ مِنَ الْمَوَالِي وَالشَّيْعِ وَالْأَحْلَافِ وَيَبْذُلُونَ
مَا فِي أَيْدِيهِمْ لِلْأَوْغَادِ وَالْأَوْشَابِ فَيَعَصُوبُ كُلُّ إِصَاحِبَةٍ وَيَتَعَيْنُ الْغَلَبُ لِبَعْضِهِمْ فَيَمُطِفُ
عَلَى كَفَائِهِ لِبَعْضٍ مِنْ أَعْنَتِهِمْ وَيَتَبَعُهُمْ بِالْقَتْلِ أَوِ التَّغْرِيبِ حَتَّى يَخْضَعُ مِنْهُمْ الشُّوَكَاةُ
النَّافِذَةُ وَيُقَلِّمُ الْأَظْفَارَ الْخَادِشَةَ وَيَسْتَبِدُّ بِمِصْرِهِ أَجْمَعَ وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ اسْتَحْدَثَ مُلْكًا

يُورِثُهُ عَقِبَهُ فَيَحْدُثُ فِي ذَلِكَ الْمَلِكِ الْأَصْغَرِ مَا يَحْدُثُ فِي الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ مِنْ عَوَارِضِ
الْجِدَّةِ وَالْهَرَمِ وَرُبَّمَا يَسْمُو بَعْضُ هَؤُلَاءِ إِلَى مَنَازِعِ الْمُلُوكِ الْأَعَاظِمِ أَصْحَابِ الْقَبَائِلِ
وَالْعَشَائِرِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَالزُّحُوفِ وَالْحُرُوبِ وَالْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ فَيَنْتَحِلُونَ بِهَا مِنْ الْجُلُوسِ
عَلَى السَّرِيرِ وَاتِّخَاذِ آلَاةِ وَإِعْدَادِ الْعَمَوَاكِبِ لِلسَّيْرِ فِي أَقْطَارِ الْبَلَدِ وَالْخَتْمِ وَالْحُسْبِيَّةِ
وَالْخُطَابِ بِالتَّمْوِيلِ مَا يَسْتَغْرِ مِنْهُ مَنْ يُشَاهِدُ أَسْوَاقَهُمْ لِمَا انْتَحَلُوهُ مِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ الَّتِي
لَبَسُوا لَهَا بَاهِلًا إِنَّمَا دَفَعَهُمْ إِلَى ذَلِكَ أَقْلُصُ الدَّوْلَةِ وَالنِّحَامُ بَعْضُ الْقَرَابَاتِ حَتَّى صَارَتْ عَصَبِيَّةٌ
وَقَدْ يَنْزَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَجْرِي عَلَى مَذْهَبِ السَّدَاجَةِ فِرَارًا مِنَ التَّعْرِيزِ بِنَفْسِهِ لِلشُّغْرِيَّةِ
وَالْعَبَثِ وَقَدْ وَقَعَ هَذَا بِأَفْرِيقِيَّةِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الْخَفْصِيَّةِ لِأَهْلِ بِلَادِ الْجَرِيدِ
مِنْ طَرَابُلُسَ وَقَايسَ وَتُوزَرَ وَنَقْطَةَ وَقَفْصَةَ وَبِسْكَرَةَ وَالزَّابِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ سَمَوْا إِلَى
مِثْلَهَا عِنْدَ أَقْلُصِ ظِلِّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ مِنْذُ عُقُودِ مِنَ السِّنِينَ فَاسْتَغْلَبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ
وَأَسْتَبَدُّوا بِأَمْرِهِا عَلَى الدَّوْلَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْجَبَايَةِ وَأَعْطَوْا طَاعَةً مَعْرُوفَةً وَصَفَقَةً
مُعَرَّضَةً وَأَقْطَعُوا جَانِبًا مِنَ الْمَلَائِنَةِ وَالْمَلَاطِفَةِ وَالْإِنْقِيَادِ وَهُمْ بِمَعَزِلِ عَنْهُ وَأَوْرَثُوا
ذَلِكَ أَعْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَحَدَّثَ فِي خَلْفِهِمْ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّجْبُرِ مَا يَحْدُثُ لِأَعْقَابِ الْمُلُوكِ
وَخَلْفِهِمْ وَنَظَّمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ السَّلَاطِينِ عَلَى قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالسُّوقَةِ حَتَّى نَحَا ذَلِكَ
مَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ وَأَنْتَزَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا نَذَرُ فِي
أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الصَّنَهَاجِيَّةِ وَأَسْتَقَلَّ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ
أَهْلُهَا وَأَسْتَبَدُّوا عَلَى الدَّوْلَةِ حَتَّى أَنْتَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُ الْمُؤَحِّدِينَ وَمَلِكُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ
بْنُ عَلِيٍّ وَتَقَلَّهْمُ كُلُّهُمْ مِنْ إِمَارَاتِهِمْ بِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ وَنَحَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ آثَارُهُمْ كَمَا
نَذَرُ فِي أَخْبَارِهِ وَكَذَا وَقَعَ بِسَبْتَةِ لِآخِرِ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَهَذَا التَّغْلِبُ بِكَوْنِ
غَالِبًا فِي أَهْلِ السَّرَوَاتِ وَالْبَيُوتَاتِ الْمُرْتَجِينَ لِلْمَشِيخَةِ وَالرَّئِيسَةِ فِي الْمِصْرِ وَقَدْ يَحْدُثُ
التَّغْلِبُ لِبَعْضِ السَّفَلَةِ مِنَ الْغَوَاغِ وَالْهَمَاءِ وَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ وَالنِّحَامُ بِالْأَوْغَادِ
لَأَسْبَابٍ يَجْرِي مَا لَهُ الْمِقْدَارُ فَيَتَغْلِبُ عَلَى الْمَشِيخَةِ وَالْعِلِيَّةِ إِذَا كَانُوا فَاقِدِينَ لِلْعِصَابَةِ وَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثاني والعشرون

في لغات اهل الامصار

اعلم ان لغات اهل الامصار انما تكون بلسان الامة او الجليل الغالبين عليها او المختطين لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وان كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير اعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامة والذين والعلية صورة للوجود والملك وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة والذين انما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما ان النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الالسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن بطانة الاعاجم وقال انها خب ابي مكر وخديعة فلما هجر الذين اللغات الانجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وهجر الامة لغاتهم والسننهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسنه العجمية دخيلة فيها وعربية ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض احكامه وتغير اواخره وان كان بقي في الدلالات على اصله وسمي لسانا حضريا في جميع امصار الاسلام وايضا فاكثروا اهل الامصار في الملة لهذا العهد من اعقاب العرب المالكين لها المالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا ارضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على حيال لغة الآباء وان فسدت احكامها بمخالطة الاعجام شيئا فشيئا وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى اهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو من العرب فانها كانت اغرق في العروبية ولما تملك العجم من الديلم والسجوقية بعدهم بالمشرق وزناته والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وسار ذلك مرجعا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا بالامصار فلما ملك التتر

وَالْمَقُولُ بِالْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمُرْجِعُ وَفَسَدَتِ اللُّغَةُ
 الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَمَمٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ
 وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ الْهِنْدِ وَالسِّندِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الشَّامِ وَبِلَادِ الرُّومِ وَذَهَبَتْ
 أَسَالِيبُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الشِّعْرِ وَالْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِالْقَوَانِينِ
 الْمُنْدَارِسَةِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَحِفْظِ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِذَلِكَ وَرُبَّمَا بَقِيََتِ
 اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُضَرِّيَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ بِالْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ الدِّينِ طَلَبًا لَهَا
 فَاتَّعَفَفَتِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ
 حَتَّى إِنْ كُتِبَ الْعُلُومُ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ الْعِجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِسُهُ فِي الْمَجَالِسِ
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْأَوَّابِ

الفصل الخامس

من الكتاب الاول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله
 من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الاول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية
 اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوئه
 الى اشده الى كبره والله الغني وأنتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان
 وأمن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال خلق لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا
 منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الأنعام وكثير من شواهده ويد
 الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف وأيدي البشر منتشرة
 فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض فالإنسان متى
 اقتدر على نفسه وتجاوز الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها
 في تحصيل حاجاته وضروراته يدفع الأغراض عنها قال الله تعالى فابتغوا عند الله

الرِّزْقَ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالْمَطَرِ الْمُصْلِحِ لِلزَّرْعَةِ وَأَمثَالِهِ إِلَّا أَنَّهَا إِنَّمَا
تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا بَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَكْسَبُ مَعَاشًا إِنْ
كَانَتْ بِمَقْدَارِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ وَرِيَاشًا وَمُتَمَوِّلًا إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ إِنْ ذَلِكَ
الْحَاصِلُ أَوْ الْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنَفَعَتُهُ عَلَى الْعَبْدِ وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ إِنْتَافِعِهِ فِي مَصَالِحِهِ
وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَلِكَ رِزْقًا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ
فَأَنْتِ أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ
وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَالِكِ رِزْقًا وَالْمَتَمَلِّكُ مِنْهُ جِنْدٌ بِسَعْيِ الْعَبْدِ
وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْبًا وَهَذَا مِثْلُ التِّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَالِدِ كَسْبًا وَلَا يُسَمَّى
رِزْقًا إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مُنْتَفَعٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثِينَ مَتَى انْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقًا هَذَا حَقِيقَةٌ
سُمِّيَ الرِّزْقُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ اشْتَرَطَ الْمُعْتَزِلُ فِي تَسْمِيَةِ رِزْقًا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ
يَصِحُّ تَمْلُكُهُ وَمَا لَا يَتَمَلَّكُ عِنْدَهُمْ لَا يُسَمَّى رِزْقًا وَأَخْرَجُوا الْغُصُوبَاتِ وَالْحَرَامَ كُلَّهُ
عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقًا وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ الْغَاصِبَ وَالظَّالِمَ وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ
بِرَحْمَتِهِ وَهُدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجْجٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ
الْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالسَّعْيِ فِي الْإِفْتِنَاءِ وَالْقَصْدِ إِلَى التَّحْصِيلِ فَلَا بُدَّ فِي الرِّزْقِ مِنْ
سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي تَنَاوُلِهِ وَابْتِغَائِهِ مِنْ وَجْهِهِ قَالَ تَعَالَى فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَالسَّعْيُ
إِلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْهَامِ فَالْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَعْمَالِ
الْإِنْسَانِيَةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوِّلٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلًا بِنَفْسِهِ مِثْلَ الصَّنَائِعِ فَظَاهِرٌ
وَإِنْ كَانَ مُقْتَنَى مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعْدِنِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا
تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ انْتِفَاعٌ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْحَجَرَيْنِ الْمَعْدِنَيْنِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قِيَمَةً أَكُلُّ مُتَمَوِّلٍ وَهُمَا الذَّخِيرَةُ وَالْقَنِيَّةُ لِأَهْلِ الْعَالَمِ فِي الْغَالِبِ
وَإِنْ أَقْتَنَى سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدِ تَحْصِيلِهَا بِمَا يَقَعُ فِي غَيْرِهَا مِنْ حَوَالَةِ
الْأَسْوَاقِ الَّتِي هُمَا عَنْهَا يَمْزَلُ فَهِيَ أَصْلُ الْمَكْسَبِ وَالْقَنِيَّةِ وَالذَّخِيرَةِ وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا
كُلُّهُ فَأَعْلَمَ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ الْإِنْسَانُ وَيَقْتْنِيهِ مِنَ الْمُتَمَرِّلَاتِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّنَائِعِ
فَالْمَفَادُ الْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيَمَةُ عَمَلِهِ وَهُوَ الْقَصْدُ بِالْقَنِيَّةِ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا الْعَمَلُ وَآيَسَ
بِمَقْصُودِ بِنَفْسِهِ لِلْقَنِيَّةِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا غَيْرُهَا مِثْلُ النِّجَارَةِ وَالْحَيَاكَةِ

مَعَهَا الْخَشَبُ وَالْغَزْلُ إِلَّا أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِمَا أَكْثَرُ فَقِيْمَتُهُ أَكْثَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ
الصَّنَائِعِ فَلَا بُدَّ مِنْ قِيْمَةٍ ذَلِكَ الْمَقَادِرُ وَالْقَنِيَّةِ مِنْ دُخُولِ قِيْمَةِ الْعَمَلِ الَّذِي حَصَلَتْ
بِهِ إِذْ لَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ تَحْصُلْ قِنِيَّتُهَا وَقَدْ تَكُونُ مَلَا حِظَةُ الْعَمَلِ ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا
فَتَجْعَلُ لَهُ حِمَّةً مِنَ الْقِيْمَةِ عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ وَقَدْ تَخْفَى مَلَا حِظَةُ الْعَمَلِ كَمَا فِي أَسْعَارِ
الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ أَعْيَارَ الْأَعْمَالِ وَالنَّفَقَاتِ فِيهَا مَلَا حِظٌ فِي أَسْعَارِ الْحَبُوبِ كَمَا
قَدَّمَ نَاهُ لِكِنَّهُ خَفِيَ فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي عَلَا جُ الْفَلَحِ فِيهَا وَمَوْنَتُهُ بِسِيرَةٍ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا
الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْفَلَحِ فَقَدْ ثَبَّتَ أَنَّ الْمَقَادِرَ وَالْمُكْتَسَبَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا إِنَّمَا هِيَ
فِي الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَبَيَّنَ مَسْمَى الرِّزْقِ وَأَنَّهُ الْمُنْتَفَعُ بِهِ فَقَدْ بَانَ مَعْنَى الْكَسْبِ
وَالرِّزْقِ وَشَرَحَ مُسَمَّاهاً وَأَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا فُقِدَتِ الْأَعْمَالُ أَوْ قَلَّتْ بَانَتْ قِلَّةُ الْعُمُرَانِ
تَأْذَنَ اللَّهُ بِرَفْعِ الْكَسْبِ أَلَا تَرَى إِلَى الْأَمْصَارِ الْقَلِيلَةِ السَّاكِنِ كَيْفَ يَقِلُّ الرِّزْقُ
وَالْكَسْبُ فِيهَا أَوْ يُفْقَدُ لِقِلَّةِ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي يَكُونُ عُمُرَانُهَا
أَكْثَرُ يَكُونُ أَهْلُهَا أَوْسَعَ أَحْوَالاً وَأَشَدَّ رَفَاهِيَةً كَمَا قَدَّمَ نَاهُ قَبْلُ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ نَقُولُ
الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ إِذَا تَنَاقَصَ عُمُرَانُهَا إِنَّمَا قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا حَتَّى أَنَّ الْأَنْهَارَ وَالْعِيُونَ
يَنْقَطِعُ جَرِيَّتُهَا فِي الْقَفْرِ لَمَّا أَنَّ قُوَّةَ الْعِيُونَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاتِ وَالْأَمْثَرَاءِ الَّذِي هُوَ
بِالْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ فَمَا لَمْ يَكُنْ إِنْبَاتٌ وَلَا أَمْثَرَاءٌ نَضَبَتْ وَغَارَتْ
بِالْجُمْلَةِ كَمَا يَعْرِفُ الْفَرْعُ إِذَا تَرَكَ أَمْثَرَاؤُهُ وَأَنْظَرُهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تُعَدُّ فِيهَا الْعِيُونَ
لِأَيَّامِ عُمُرَانِهَا ثُمَّ يَا نِي عَلَيْهَا الْخَرَابُ كَيْفَ تَعُورُ مِيَاهُهَا جُمْلَةً كَانَتْ لَمْ تَكُنْ وَاللَّهُ
مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

الفصل الثاني

في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

إِعْلَمَ أَنَّ الْمَعَاشَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ ابْتِغَاءِ الرِّزْقِ وَالسَّعْيِ فِي تَحْصِيلِهِ وَهُوَ مَفْعَلٌ مِنَ
الْعَيْشِ كَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَيْشُ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِهَذِهِ جُعِلَتْ مَوْضِعاً لَهُ عَلَى
طَرِيقِ الْمِبَالِغَةِ ثُمَّ إِنْ تَحْصِيلُ الرِّزْقِ وَكَسْبُهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِأَخْذِهِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ
وَأَنْتِزَاعِهِ بِالْإِقْتِدَارِ عَلَيْهِ عَلَى قَانُونِ مُتَعَارِفٍ وَيُسَمَّى مَغْرَماً وَجَبَايَةً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
مِنَ الْحَيَوَانِ الْوَحْشِيِّ بِأَفْتِرَاسِهِ وَأَخْذِهِ بِرَمِيهِ مِنَ الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ وَيُسَمَّى اصْطِيَاداً

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ فَضُولِهِ الْمُنْصَرَفَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي
مَنَافِعِهِمْ كَالَّذِينَ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرِيرِ مِنْ دُودِهِ وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّبَاتِ
فِي الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هَذَا كُلُّهُ فَلْحًا وَإِمَّا
أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ إِمَّا فِي مَوَادِّ مُعَيَّنَةٍ وَتُسَمَّى الصَّنَائِعُ مِنْ كِتَابَةِ
وَنَجَارَةٍ وَخِيَاطَةٍ وَحَيَاكَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ أَوْ فِي مَوَادِّ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ
الْأَمْتِهَانَاتِ وَالنَّصْرَفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبَضَائِعِ وَإِعْدَادِهَا لِلْأَعْوَاضِ
إِمَّا بِالتَّقْلُبِ بَهَا فِي الْبِلَادِ وَاحْتِكَارِهَا وَارْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا وَيُسَمَّى هَذَا تِجَارَةً
فَهَذِهِ وَجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ
كَالْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ فَأَمَّا الْإِمَارَةُ
فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيٍّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ
الْجَبَابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَأَمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ فَهِيَ وَجُوهُ
طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ أَمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ
فَطَرِيئَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهَذَا تُنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ
مُعَلِّمُهَا وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وَجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ وَأَمَّا
الصَّنَائِعُ فَهِيَ ثَانِيئُهَا وَمُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصَرَّفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ
وَلِهَذَا لَا يُوْجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْخَصْرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبَدَنِ وَثَانٍ عَنْهُ وَمِنْ هَذَا
الْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى أَدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ
بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا التِّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعِيَّةً فِي الْكَسْبِ فَلَا كَثْرَ مِنْ
طُرُقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحْيِلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيَمَتَيْنِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ
لِيَحْصُلَ فَايِدَةُ الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ وَلِذَلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِيهِ الْمُكَاسَبَةَ لِمَا أَنَّهُ
مِنْ بَابِ الْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذًا لِمَالٍ الْغَيْرِ مَجَانًا فَلِهَذَا اخْتَصَّ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ

الفصل الثالث

في ان الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمُ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَجْوَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمُلْكِ
الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشَّرْطِيِّ وَالْكَاتِبِ وَيَسْتَكْنِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ يَعْلَمُ

غناءه فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الإجارة ومعاشها
 إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإجارة والملك الأعظم هو ينبوع جدواولهم وأما ما
 دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون
 عاجزا عنها لما ذري عايد من خاقي التمتع والترفع فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه
 أجرا من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان إذ الثقة
 بكل أحد عجز ولأنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث الذي ينبغي
 في مذاهب الرجولية التنازه عنهما إلا أن العوائد تقاب طباع الإنسان إلى ما لوفها فهو
 ابن عوائده لا ابن نسيه ومع ذلك فالخدماء الذي يستكفي به ويوثق بعنائه كالمفقود
 إذ الخدم القائم بذلك لا يعدوا أربع حالات إما مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يعقل
 بيده وإما بالعكس في أحدهما فقط مثل أن يكون مضطلعا غير موثوق أو موثوقا غير
 مضطلع فأما الأول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحدا استعماله بوجه إذ
 هو بأخطائه وثيقته غني عن أهل الرتب الدنيئة ومحتقر لمثال الأجر من الخدمة
 لاقتداره على أكثر من ذلك فلا يستعمله إلا الأمره أهل الجاه المريض العموم
 الحاجة إلى الجاه وأما الصنف الثاني وهو ميمّن ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغي
 لعاقلي استعماله لأنه ينجف بخدومه في الأمرين معا فيضيع عليه لعدم الأصطناع
 نارة وبذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذان الصنفان لا
 يطمع أحد في استعمالهما ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع
 ومضطلع غير موثوق وللناس في الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجيعين وجه
 إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أزعج لأنه يؤمن من تضيعه ويعاقل على التحرر
 من خيائته جهدا لا استطاعة وأما المضطلع ولو كان مأموئا فضرره بالتضيع أكثر من
 نفعه فأعلم ذلك واتخذ قانونا في الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر
 على كل شيء

الفصل الرابع

في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكوز ليس بمعاش طبيعي
 اعلم ان كثيرا من ضعفاء العقول في الأمصار يعرّضون على استخراج الأموال من

تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَتَنَغَوْنَ الْكَسْبَ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مُخْتَزَنَةٌ
كُلُّهَا تَحْتَ الْأَرْضِ مَخْتُومٌ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِطَلَاسِمٍ سِحْرِيَّةٍ لَا يَفْضُخْتَامُهَا ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَثَرَ
عَلَى عِلْمِهِ وَاسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ الْبُخُورِ وَالِدُّعَاءِ وَالْقُرْبَانِ فَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِأَفْرِيقَةٍ يَرَوْنَ
أَنَّ الْأَفْرِيقَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ كَذَلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي
الْصُّفِّ بِالْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا السَّبِيلَ إِلَى اسْتِخْرَاجِهَا وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِالْمَشْرِقِ
يَرَوْنَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أُمَمِ الْقِبْطِ وَالرُّومِ وَالْفَرَسِ وَيَتَنَاقِلُونَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ تُشَبِّهُ حَدِيثَ
خُرَافَةٍ مِنْ أَنْتَهَاءِ بَعْضِ الطَّالِبِينَ لِذَلِكَ إِلَى حَنْزِ مَوْضِعِ الْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طِلْسَمَهُ
وَلَا خَبْرَهُ فَيَجِدُونَهُ خَالِيًا أَوْ مَعْمُورًا بِالْيَدِيدَانِ أَوْ يُشَاهِدُ الْأَمْوَالَ وَالْجَوَاهِرَ مَوْضُوعَةً
وَالْحَرَسُ دُونَهَا مُنْتَصِينَ سِوْفَهُمْ أَوْ تَمِيدُ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى يَظُنَّهُ خَسْفًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ
مِنَ الْمَذَرِ وَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلَبَةِ الْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ
وَأَسْبَابِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِالْأَوْرَاقِ الْمَتَحَرِّمَةِ الْخَوَاشِي إِذَا مَخْطُوطٌ عَجْمِيَّةٌ أَوْ
بِمَا تُرْجِمُ بَزْغَمِهِمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ الدَّقَائِنِ بِإِعْطَاءِ الْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا
يَسْتَعُونُ بِذَلِكَ الرِّزْقَ مِنْهُمْ بِمَا يَبْهَثُونَهُ عَلَى الْحَفْرِ وَالطَّلَبِ وَيَمُوهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا
حَمَلَهُمْ عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِهِمْ طَلَبُ الْجَاهِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ مَنَالِ الْحُكَّامِ وَالْعُقُوبَاتِ وَرَبَّمَا
نَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَادِرَةً أَوْ غَرِيبةً مِنَ الْأَعْمَالِ السِّحْرِيَّةِ بِمَوَاهِبِهَا عَلَى تَصْدِيقِ مَا
بَقِيَ مِنْ دَعْوَاهُ هُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ السِّحْرِ وَطَرَفِهِ فَتَوَلَّعَ كَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ بِجَمْعِ
الْأَيْدِي عَلَى الْإِحْتِفَارِ وَالتَّسْتَرِّ فِيهِ بِظُلُمَاتِ اللَّيْلِ مَخَافَةَ الرُّقَبَاءِ وَعَيُونِ أَهْلِ الدُّوَلِ فَإِذَا
لَمْ يَعْثُرُوا عَلَى شَيْءٍ رَدُّوا ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ بِالطِّلْسَمِ الَّذِي خُتِمَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ
بِخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إِخْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ وَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْغَالِبِ زِيَادَةً
عَلَى ضَعْفِ الْعَقْلِ إِنَّمَا هُوَ الْعَجْزُ عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ بِالْوُجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنَ
التِّجَارَةِ وَالْفَلَحِ وَالصَّنَاعَةِ فَيَطْلُبُونَهُ بِالْوُجُوهِ الْمَعْرِفَةِ وَعَلَى غَيْرِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ مِنْ
هَذَا وَأَمْثَالِهِ عَجْزًا عَنِ السَّعْيِ فِي الْمَكَاسِبِ وَرُكُونًا إِلَى تَنَاوُلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ
وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَأَكْتِسَابِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوقِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِسْتِغْنَاءِ ذَلِكَ مِنْ
غَيْرِ وَجْهِهِ فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبٍ وَجُهْدٍ شَدِيدٍ مِنْ الْأَوَّلِ وَيَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ ذَلِكَ
لِمَنَالِ الْعُقُوبَاتِ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ زِيَادَةُ التَّرَفِ وَعَوَائِدُهُ وَخُرُوجُهَا

عَنْ حَدِّ النَّهْيَةِ حَتَّى تُقَصِّرَ عَنْهَا وَجُوهُ الْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَقِي بِمَطَالِبِهَا فَإِذَا عَجَزَ
عَنِ الْكَسْبِ بِالْعَجْزِ الْعَلِيِّ لَمْ يَجِدْ وَلِيَّةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا الشَّيْءَ لَوْجُودِ الْمَالِ الْعَظِيمِ
دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كِلَانَةٍ لِيَنِي لَهُ ذَلِكَ بِالْأَمْوَالِ الَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرِهَا فَيَعْرِضُ ذَلِكَ أَبْنَاءَ ذَلِكَ
وَيَسْعَى فِيهِ جُهْدُهُ وَلِهَذَا نَأْكَثُ مَنْ تَرَاهُمْ يَحْرُصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمْ الْمَتْرُفُونَ مِنْ أَهْلِ
الدَّوْلَةِ وَمِنْ سُكَّانِ الْأَمْصَارِ الْكَثِيرَةِ التَّرَفِ الْمُنْسَعَةِ الْأَحْوَالِ مِثْلِ مِصْرَ وَمَا فِي
مَعْنَاهَا فَتَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِأَبْنَاءَ ذَلِكَ وَتَحْصِلُهُ وَمُسَاءَلَةً الرُّكْبَانِ عَنْ شَوَازِهِ
كَمَا يَحْرُصُونَ عَلَى الْكَيْمِيَاءِ هَكَذَا بَاقِي عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مُنَاقَضَةٍ مَنْ يَلْقَوْنَهُ مِنْ
طَلَبَةِ الْمَغَارِبَةِ لَعَلَّهُمْ يَعْثُرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَزِيدُونَ ذَلِكَ الْبَحْثَ عَنْ
تَغْوِيرِ الْحَيَاةِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّ غَالِبَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الدَّفِينَةِ كُلِّهَا فِي تَجَارِي النَّيْلِ وَأَنَّهُ أَكْثَرُ
مَا يَسْتَرِدُّ دَفِينًا أَوْ يُخْتَزِنُ فِي تِلْكَ الْأَفَاقِ وَيُمَوِّهُ عَلَيْهِمْ أُمُحَابُ تِلْكَ الدَّفَاتِرِ الْمُفْتَعَلَةِ
فِي الْإِعْتِدَارِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِعِزَّةِ النَّيْلِ تَسْتَرًا بِذَلِكَ مِنَ الْكُذِبِ حَتَّى يَحْصُلَ
عَلَى مَعَاشِهِ فَيَعْرِضُ سَامِعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُضُوبِ الْمَاءِ بِالْأَعْمَالِ السَّخِرِيَّةِ لِتَحْصِيلِ مُبْتَغَاهُ
مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا بِشَأْنِ السَّخِرِ مُتَوَارِثًا فِي ذَلِكَ الْفَطَارِ عَنْ أَوْلِيهِ فَعُلُوهُمْ السَّخِرِيَّةُ وَآثَارُهَا
بَاقِيَةٌ بِأَرْفِهِمْ فِي الْبَرَارِيِّ وَغَيْرِهَا وَقِصَّةُ سَحَرَةٍ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ بِأَخْصَاءِهِمْ بِذَلِكَ
وَقَدْ تَنَاقَلَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ قِصِيدَةً يَنْسِبُونَهَا إِلَى حُكَّامِ الْمَشْرِقِ تُعْطَى فِيهَا كَيْفِيَّةُ
الْعَمَلِ بِالتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةِ سَخِرِيَّةٍ حَسَبًا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ هَذِهِ

يَا طَالِبَ السِّرِّ فِي التَّغْوِيرِ	إِسْمَعِ كَلَامَ الصِّدْقِ مِنْ خَبِيرِ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ صَنَفُوا فِي كُنْهِهِمْ	مِنْ قَوْلِ بَهْتَانٍ وَلَفْظِ غُرُورِ
وَأَسْمَعِ لِصِدْقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي	إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ لَا يَرَى بِالزُّورِ
فَإِذَا أَرَدْتَ تَقَوُّرَ الْبَشْرِ الَّتِي	حَارَتْ لَهَا الْأَوْهَامُ فِي التَّدْبِيرِ
صَوْرَ كُصُورَتِكَ الَّتِي أَوْقَفَتْهَا	وَالرَّأْسُ رَأْسُ السَّبِيلِ فِي التَّغْوِيرِ
وَيَدَاهُ مَاسِكَتَانِ لِلْحَبْلِ الَّذِي	فِي الدَّلْوِ يُنْشَلُ مِنْ قَرَارِ الْبِيرِ
وَيَصْدُرُهُ هَاهُ كَمَا عَابَتْهَا	عَدَدُ الطَّلَاقِ أَحْذَرُ مِنَ التَّكْرِيرِ
وَيَطَا عَلَى الطَّاءَاتِ غَيْرَ مَلَامِسِ	مَشَى الْأَلْيَبِ الْكَيْسِ الدَّخْرِيرِ
وَيَكُونُ حَوْلَ الْكُلِّ خَطٌّ دَائِرٌ	تَرْيِيعُهُ أَوَّلَى مِنَ التَّكْوِيرِ

وَأَذْبَجَ عَلَيْهِ الطَّيْرَ وَالطَّحْنَ بِهِ
بِالسَّنْدَرُوسِ وَبِالْأَبَانِ وَمِيعَةً
مِنْ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ لَا أَزْرَقَ
وَيَشُدُّه خَيْطَانُ صُوفٍ أَيْضُ
وَالطَّالِعُ الْأَسَدُ الَّذِي قَدْ يَنُوءُ
وَالْبَدْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عَطَارِدٍ فِي يَوْمِ سَبْتِ سَاعَةِ التَّنْذِيرِ

يَعْنِي أَنَّ تَكُونِ الطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ
تَمْوِيهَاتِ الْمُتَخَرِّفِينَ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَأَصْطِلَاحَاتٌ عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي التَّخْرِيفَةُ
وَالْكُذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا الْمَنَازِلَ الْمَشْهُورَةَ وَالْأُورَ الْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هَذِهِ
وَيَحْتَفِرُونَ الْحُفَرَ وَيَضَعُونَ الْمَطَابِقَ فِيهَا وَالشَّوَاهِدَ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا فِي مَحَافِيفِ كَذِبِهِمْ
ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضَعْفَاءَ الْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الصَّحَائِفِ وَيَعِثُونَ عَلَى كِبَرَاءِ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ
وَسُكْنَاهُ وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ الْمَالِ لَا يَعْبرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيُطَالِبُونَ بِالْمَالِ لِاشْتِرَاءِ
الْعَقَاقِيرِ وَالْبَخُورَاتِ لِحُلِّ الطَّلَاسِيمِ وَيَعْلُونَهُ بِظُهُورِ الشَّوَاهِدِ الَّتِي قَدْ أَعَدُّوهُمَا هُنَاكَ
بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فَعْلِهِمْ قَبَابِعُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا
يَشْعُرُ وَيَتَنَبَّهُ فِي ذَلِكَ أَصْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يُلَبِّسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَتَغَيَّ عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ
فِيمَا يَتْلُونَهُ مِنْ حَفَرٍ وَبُخُورٍ وَذَبْجٍ حَيَوَانٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عَلَى
الْحَقِيقَةِ فَلَا أَصْلَ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبَرَ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ لِكُنْهَا
فِي حُكْمِ النَّادِرِ وَعَلَى وَجْهِ الْإِتِّفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقَصْدِ إِلَيْهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَمْرٍ تَعَمُّ
بِهِ الْبَلَوَى حَتَّى يَدْخِرَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَحْتُمُونَ عَلَيْهَا بِالطَّلَاسِيمِ لَا
فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ وَالزَّكَازُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ الْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينُ
الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا يُوجَدُ بِالْعُثُورِ وَالْإِتِّفَاقِ لَا بِالْقَصْدِ وَالطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنْ أَخْتَزَنَ مَالًا وَخَتَمَ
عَلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ السَّخَرِيَّةِ فَقَدْ بَالَغَ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصَبُ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ وَالْأَمَارَاتُ
لِمَنْ يَتَّبِعُهُ وَيَكْتُبُ ذَلِكَ فِي السَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ وَالْأَفَاقِ
هَذَا بِتَأْفُضٍ قَصْدٍ الْإِخْفَاءِ وَأَيْضًا فَأَفْعَالُ الْعُقَلَاءِ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ لِفَرَضٍ مَقْصُودٍ
فِي الْإِتِّفَاعِ وَمَنْ أَخْتَزَنَ الْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَزِنُهُ لَوَلَدِهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ يُؤَثِّرُهُ وَأَمَّا أَنْ

بِقَصْدِ اخْتِافِهِ بِالْكَلْبَةِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْبَلَاءِ وَالْهَلَاكِ أَوْ لِمَنْ لَا يَعْرِفُهُ
بِالْكَلْبَةِ مِمَّنْ سَيَأْتِي مِنَ الْأُمَمِ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعُقَلَاءِ بِوَجْهِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
أَيْنَ أَمْوَالُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِنَا وَمَا عَلِمَ فِيهَا مِنَ الْكَثَرَةِ وَالْوُفُورِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْوَالَ مِنْ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَمْنَةِ إِنَّمَا هِيَ مَعَادِنُ وَمَكَاسِبُ مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ
وَالرَّصَاصِ وَسَائِرِ الْعَقَارَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَالْعُمُرَانِ يُظْهِرُهَا بِالْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَزِيدُ
فِيهَا أَوْ يُنْقِصُهَا وَمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِأَيْدِي النَّاسِ فَهُوَ مُتَنَاقِلٌ مُتَوَارِثٌ وَرُبَّمَا أُنْقَلَتْ مِنْ
قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَمِنْ دَوْلَةٍ إِلَى أُخْرَى بِحَسَبِ أَغْرَاضِهِ وَالْعُمُرَانِ الَّذِي يَسْتَدْعِي لَهُ فَإِنْ
نَقَصَ الْمَالُ فِي الْمَغْرِبِ وَأُفْرِيقِيَّةَ فَلَمْ يَنْقُصْ بِلَادَ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجِ وَإِنْ نَقَصَ فِي
مِصْرَ وَالشَّامِ فَلَمْ يَنْقُصْ فِي الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَإِنَّمَا هِيَ الْآلَاتُ وَالْمَكَاسِبُ وَالْعُمُرَانُ
يُوقِرُهَا أَوْ يُنْقِصُهَا مَعَ أَنَّ الْمَعَادِنَ يُدْرِكُهَا الْبَلَاءُ كَمَا يُدْرِكُ سَائِرَ الْمَوْجُودَاتِ
وَيُسْرِعُ إِلَى اللُّوْلُوءِ وَالْجَوْهَرِ أَعْظَمَ مِمَّا يُسْرِعُ إِلَى غَيْرِهِ وَكَذَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنُّحَاسُ
وَالْحَدِيدُ وَالرَّصَاصُ وَالْقَصْدِيرُ يَنَالُهَا مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفَنَاءِ مَا يَذْهَبُ بِأَعْيَانِهَا لِأَقْرَبِ وَقْتٍ
وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي مِصْرَ مِنْ أَمْرِ الْمَطَالِبِ وَالْكُتُوزِ فَسَبَبُهُ أَنَّ مِصْرَ فِي مَلَكَةِ الْقُبْطِ
مُنْذُ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُ مِنَ السِّنِينَ وَكَانَ مَوْتَانَهُمْ يُدْفَنُونَ بِمَوْجُودِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْجَوْهَرِ وَاللَّالِيَةِ عَلَى مَذْهَبٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ فَلَمَّا انْقَضَتْ دَوْلَةُ الْقُبْطِ وَمَلَكَ
الْفُرْسُ بِلَادَهُمْ تَقَرُّوا عَلَى ذَلِكَ فِي قُبُورِهِمْ فَكَشَفُوا عَنْهُ فَأَخَذُوا مِنْ قُبُورِهِمْ مَا لَا يُوصَفُ
كَالْأَهْرَامِ مِنْ قُبُورِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهَا وَكَذَا فَعَلَ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَصَارَتْ قُبُورُهُمْ
مَظَنَّةً لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَيُعْتَرُ عَلَى الدِّفْنِ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْأَوْقَاتِ أَمَّا مَا يَدْفِنُونَهُ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ أَوْ مَا يَكْرُمُونَ بِهِ مَوْتَانَهُمْ فِي الدِّفْنِ مِنْ أَوْعِيَةٍ وَتَوَائِيَتْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
مَعْدَةٌ لِذَلِكَ فَصَارَتْ قُبُورُ الْقُبْطِ مِنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ مَظَنَّةً لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا فَلِذَلِكَ
عَنِ أَهْلِ مِصْرَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْمَطَالِبِ لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا وَاسْتَخْرَاجِهَا حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَ ضُرِبَتْ
الْمَكُوسُ عَلَى الْأَصْنَافِ آخِرَ الدَّوْلَةِ ضُرِبَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَطَالِبِ وَصَدَرَتْ خَرِيبَةٌ عَلَى مَنْ
يَسْتَغْلُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَقِيقِيِّ وَالْمُوهَسِبِينَ فَوَجَدَ بِذَلِكَ الْمُتَعَاطُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَطْمَاعِ
الذَّرْبَةَ إِلَى الْكَشْفِ عَنْهُ وَالذَّرْعَ بِاسْتَخْرَاجِهِ وَمَا حَصَلُوا إِلَّا عَلَى الْخَبِيَّةِ فِي جَمِيعِ
مَسَاعِيهِمْ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُسْرَانِ فَيَحْتَاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ وَابْتُلِيَ بِهِ أَنْ

يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَالِ فِي طَلَبِ مَعَاشِهِ كَمَا تَعَوَّذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَيَنْصَرِفُ عَنْ طُرُقِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ وَلَا يَشْغُلُ نَفْسَهُ بِالْمَحَالَّاتِ وَالْمَكَادِبِ مِنَ الْحِكَايَاتِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الفصل الخامس

في ان الجاه مفيد للمال

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ صَاحِبَ الْمَالِ وَالْحُظْوَةِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَعَاشِ أَكْثَرَ يَسَارًا وَثَرْوَةً مِنْ فَاقِدِ الْجَاهِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْجَاهِ مَخْدُومٌ بِالْأَعْمَالِ بِتَقَرُّبِهَا إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ التَّزَانِي وَالْحَاجَةِ إِلَى جَاهِهِ فَالْأَنَاسُ مُعِينُونَ لَهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ مِنْ ضَرُورِيٍّ أَوْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَا لِي فَتَحْصُلُ قِيَمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا مِنْ كَسْبِهِ وَجَمِيعِ مَعَاشَاتِهِ أَنْ تَبْدُلَ فِيهِ الْأَعْوَاضُ مِنَ الْعَمَلِ يَسْتَعْمِلُ فِيهَا الْأَنَاسُ مِنْ غَيْرِ عَوَاضٍ فَتَتَوَقَّرُ قِيَمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ عَلَيْهِ فَهُوَ بَيْنَ قِيَمِ الْأَعْمَالِ بِكَتْسِهَا وَقِيَمِ أُخْرَى تَدْعُوهُ الْفَرُورَةُ إِلَى إِخْرَاجِهَا فَتَتَوَقَّرُ عَلَيْهِ وَالْأَعْمَالُ لِصَاحِبِ الْجَاهِ كَثِيرَةٌ فَتُفِيدُ الْغَنَى لِأَقْرَبِ وَقْتٍ وَيَزْدَادُ مَعَ الْأَيَّامِ يَسَارًا وَثَرْوَةً وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتْ الْإِمَارَةُ أَحَدَ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ وَفَاقِدُ الْجَاهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبَ مَالٍ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَالِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ سَعْيِهِ وَهُوَ لَا هُمْ أَكْثَرُ التُّجَّارِ وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الْجَاهِ مِنْهُمْ يَكُونُونَ أَيْسَرَ بِكَثِيرٍ وَمِمَّا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ إِذَا اشْتَهَرُوا حَسَنَ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتَقَدَ الْجُمْهُورُ مُعَامَلَةَ اللَّهِ فِي إِزْفَادِهِمْ فَأَخْلَصَ النَّاسُ فِي إِعَانَتِهِمْ عَلَى أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَالْإِعْتِمَالِ فِي مَضَالِحِهِمْ وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمُ الثَّرْوَةُ وَأَصْبَحُوا مَيَاسِيرَ مِنْ غَيْرِ مَالٍ مُقْتَنَى إِلَّا مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِيَمِ الْأَعْمَالِ الَّتِي وَقَعَتِ الْمَعُونَةُ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَهُمْ رَأْيًا مِنْ ذَلِكَ أَعْدَادًا فِي الْأَمْصَارِ وَالْمَدُنِ وَفِي الْبُدُوِّ يَسْعَى لَهُمُ النَّاسُ فِي الْقَلْعِ وَالْجَبْرِ وَكُلُّهُ هُوَ قَاعِدٌ بِمَنْزِلِهِ لَا يَبْرَحُ مِنْ مَكَانِهِ فَيَنْمُو مَالُهُ وَيَعْظُمُ كَسْبُهُ وَيَتَأَثَّلُ الْغَنِيُّ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ وَيَتَجَبُّ مَنْ لَا يَفْطِنُ لِهَذَا السِّرِّ فِي حَالِ ثَرَوَتِهِ وَأَسْبَابِ غِنَاهُ وَيَسَارِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الفصل السادس

في ان السعادة والكسب انما يحصل غالبا لاهل الخضوع والتملق

وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْكَسْبَ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيمُ أَعْمَالِهِمْ
وَلَوْ قُدِّرَ أَحَدٌ عَطِلٌ عَنِ الْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ فَاقِدَ الْكَسْبِ بِالْكَلِمَةِ وَعَلَى قَدَرِ عَمَلِهِ
وَشَرَفِهِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدَرُ قِيَمَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ ذَلِكَ نُمُو كَسْبِهِ
أَوْ نُقْصَانُهُ وَقَدْ يَنْبَغُ اتِّقَانًا أَنْ الْجَاهُ يُفِيدُ الْمَالَ لِمَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ النَّاسِ إِلَيْهِ
بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ
أَوْ مَالٍ عَوَضًا عَمَّا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْجَاهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ وَتَصِيرُ
تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَقِيَمَتِهَا أَمْوَالٌ وَثَرَوَةٌ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ الْغِنَى وَالْبَسَارَ لِأَقْرَبِ وَفَتْ
ثُمَّ إِنَّ الْجَاهَ مُتَوَزِعٌ فِي النَّاسِ وَمُتَرَتِّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةٌ بَعْدَ طَبَقَةٍ بَنَتِي فِي الْعُلُوِّ إِلَى
الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ عَالِيَةٌ وَفِي السُّفْلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ خَيْرًا وَلَا نَقْمًا بَيْنَ أُنْبَاءِ
جَنْسِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشُهُمْ وَتَنْبَسِرُ
مَصَالِحُهُمْ وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ لِأَنَّ النَّوعَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وَجُودُهُ إِلَّا بِالْتِّعَاوُنِ وَإِنَّهُ وَإِنْ نَدَرَ
نَقْدُ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ لَا يَصُحُّ بَقَاؤُهُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا التِّعَاوُنَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْإِكْرَامِ
عَلَيْهِ لِحَبْلِهِمْ فِي الْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ النَّوعِ وَلِمَا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَأَنَّ أَفْعَالَهُمْ
إِنَّمَا تَصْدُرُ بِالْفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ لَا بِالطَّبْعِ وَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ الْمَعَاوَنَةِ فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَيْهَا فَلَا
يُدُّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرَهُ أُنْبَاءُ النَّوعِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتِمِّ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي بَقَاءِ هَذَا
النَّوعِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
مِنْ بَعْضٍ مَخْرَجًا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْكُمُونَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْجَاهَ هُوَ الْقُدْرَةُ الْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى
التَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أُنْبَاءِ جَنْسِهِمْ بِالْإِذْنِ وَالْمَنْعِ وَالتَّسْلُطِ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ
لِيَعْمَلَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي الْعَدْلِ بِأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَعَلَى
أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِالذَّاتِ وَالثَّانِي
دَاخِلٌ فِيهَا بِالْعَرَضِ كَسَائِرِ الشُّرُورِ الدَّاخِلَةِ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وَجُودُ
الْخَيْرِ الْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ الْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ الْخَيْرُ بِذَلِكَ بَلْ يَقَعُ

عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْيَسِيرِ وَهَذَا مَعْنَى وَفُوعِ الظُّلْمِ فِي الْخَلِيقَةِ فَتَنَّهُمْ ثُمَّ إِنْ
 كُلُّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَاقِ أَهْلِ الْعُمُرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مَنْ دُونَهَا مِنْ
 الطَّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَعِدُّ بِذِي الْجَاهِ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ
 وَيَزِدُّادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفًا فَيَمْنَنُ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدَرِ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَالْجَاهُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلٌ
 عَلَى النَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ وَيَتَسَرَّعُ وَيَضْحِكُ بِحَسَبِ الطَّبَقَةِ وَالطَّوْرِ الَّذِي فِيهِ
 صَاحِبُهُ فَإِنْ كَانَ الْجَاهُ مُتَسَعًا كَانَ الْكَسْبُ النَّاشِئُ عَنْهُ كَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ ضَيْقًا قَلِيلًا
 قَتْلُهُ وَفَاقِدُ الْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنِسْبَةِ
 سَعْيِهِ ذَاهِبًا وَآيَا فِي تَنْمِيَّتِهِ كَأَكْثَرِ التُّجَّارِ وَأَهْلِ الْفِلَاحَةِ فِي الْغَالِبِ وَأَهْلِ الصَّنَائِعِ
 كَذَلِكَ إِذَا فَقَدُوا الْجَاهَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى قَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَأَيُّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ
 وَالْخِصَاصَةِ فِي الْأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثَرْوَةٌ وَإِنَّمَا يَرْمِقُونَ الْعَيْشَ تَرْمِيْقًا وَيُدَافِعُونَ
 ضَرُورَةَ الْفَقْرِ مُدَافَعَةً وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ وَأَنَّ الْجَاهَ مُتَفَرِّعٌ وَأَنَّ السَّعَادَةَ وَالْخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ
 بِحُصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَذْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَجْلَهَا وَأَنَّ بَاذِلَهُ مِنْ أَجْلِ الْمُتَعَمِّينَ
 وَإِنَّمَا يَبْذُلُهُ إِمَّا تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَذْلُهُ يَدٍ عَالِيَةٍ وَعِزَّةٌ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهِ إِلَى
 خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ الْعِزِّ وَالْمُلُوكُ وَإِلَّا فَيَتَعَذَّرُ حُصُولُهُ فَلِذَلِكَ قُلْنَا إِنْ
 الْخُضُوعُ وَالتَّمَلُّقُ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هَذَا الْجَاهِ الْحَاصِلِ لِلْسَّعَادَةِ وَالْكَسْبِ وَإِنْ
 أَكْثَرَ أَهْلُ الثَّرْوَةِ وَالسَّعَادَةِ بِهَذَا التَّمَلُّقِ وَلِهَذَا نَجِدُ الْكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِالتَّرَفِّعِ
 وَالشَّمِّ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ الْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي التَّكْسِبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ
 إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْكِبْرَ وَالتَّرَفُّعَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ
 مِنْ تَوْهَمِ الْكَمَالِ وَأَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى بِضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَالْعَالِمِ الْمُتَجَرِّبِ
 فِي عِلْمِهِ وَالْكَاتِبِ الْحَجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوْ الشَّاعِرِ الْبَلِغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلُّ مُحْسِنٍ فِي
 صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ لِمَا يَبْدُو فَيَعْدُّ لَهُ تَرَفُّعٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ
 أَهْلُ الْأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوْرِ يُعْبَرُونَ بِهِ بِمَا
 رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ حَالِ آبَائِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذَلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ
 إِلَيْهِمْ وَوَرَاثَتِهِمْ عَنْهُمْ فَهُمْ مُتَمَسِّكُونَ فِي الْحَاضِرِ بِالْأَمْرِ الْمَعْدُومِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ
 الْحِيلَةِ وَالْبَصَرِ وَالتَّجَارِبِ بِالْأُمُورِ قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالًا فِي نَفْسِهِ بِذَلِكَ وَاحْتِجَاجًا

إِلَيْهِ وَتَجِدُ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافَ كُلَّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ الْجَاهِ وَلَا يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَيَسْتَصْغِرُونَ مَنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمُ الْفَضْلَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَنكِفُ أَحَدُهُمْ عَنِ الْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَانًا وَسَنَاءً وَيُحَاسِبُ النَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ بِمِقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْقِدُ عَلَى مَنْ قَصَرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ ذَلِكَ وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ الْهَمُّومُ وَالْأَحْزَانُ مِنَ تَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَمِرُّ فِي عَنَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ إِجْبَابِ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ أَوْ إِيَّايَةِ النَّاسِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَحْصُلُ لَهُ الْمَقْتُ مِنَ النَّاسِ لِمَا فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الدَّيَالَةِ وَقُلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي الْكَمَالِ وَالْتِرْفَعِ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ الْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ وَالْإِسْطِطَالَةِ وَهَذَا كُلُّهُ فِي خِمَنِ الْجَاهِ فَإِذَا فَقَدَ صَاحِبُ هَذَا الْخُلُقِ الْجَاهَ وَهُوَ مَفْقُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقْتَهُ النَّاسُ بِهَذَا الدَّرَجَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفُقِدَ الْجَاهُ لِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْهُ لِأَجْلِ الْمَقْتِ وَمَا يَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ الْقُعُودِ عَنْ تَعَاهُدِهِمْ وَغَشْيَانِ مَنَازِلِهِمْ فَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقِيَ فِي خَصَاصَةٍ وَفَقْرٍ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ وَأَمَّا الثَّرْوَةُ فَلَا تَحْصُلُ لَهُ أَصْلًا وَمِنْ هَذَا أَشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْكَامِلَ فِي الْمَعْرِفَةِ مَحْرُومٌ مِنَ الْحَظِّ وَأَنَّهُ قَدْ حُوسِبَ بِمَا رَزَقَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَاقْتُطِعَ لَهُ ذَلِكَ مِنَ الْحَظِّ وَهَذَا مَعْنَاهُ وَمَنْ خُلِقَ لِشَيْءٍ يُسِرُّهُ وَاللَّهُ الْمُقَدِّرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلَقَدْ يَقَعُ فِي الدُّوَلِ أَضْرَابٌ فِي الْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ الْخُلُقِ وَيَرْتَفِعُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ السَّفَلَةِ وَيَنْزِلُ كَثِيرٌ مِنَ الْعِلْيَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلِ إِذَا بَلَغَتْ نِهَايَتَهَا مِنَ التَّغْلِبِ وَالْإِسْطِطَالَةِ انْقَرَدَ مِنْهَا مَنِيَّتُ الْمَلِكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيَبْسُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا صَارُوا فِي مَرَاتِبٍ دُونَ مَرَاتِبَةِ الْمَلِكِ وَتَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ وَكَأَنَّهُمْ خَوْلٌ لَهُ فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدَّوْلَةُ وَشَخَّحَ الْمَلِكُ تَسَاوَى حِينُودُ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ السُّلْطَانِ كُلِّ مَنْ انْتَمَى إِلَى خِدْمَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنَصِيحَةٍ وَأَصْطَنَعَهُ السُّلْطَانُ لِعَنَائِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مِهْمَاتِهِ فَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ السُّوْقَةِ يَسْعَى فِي التَّقَرُّبِ مِنَ السُّلْطَانِ بِجِدِّهِ وَنُضْحِهِ وَيَتَزَلَّفُ إِلَيْهِ بِوُجُوهِ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ الْخُضُوعِ وَالْتِمَلُّقِ لَهُ وَلِحَاشِيَتِهِ وَأَهْلُ نَسَبِهِ حَتَّى يَرْتَمِخَ قَدَمُهُ مَعَهُمْ وَيُنْظِمَهُ السُّلْطَانُ فِي جُمْلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ حَظٌّ عَظِيمٌ مِنَ السَّعَادَةِ وَيَنْتَظِمُ فِي عَدَدِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَنَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ حِينُودُ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِهَا الَّذِينَ ذَلَّلُوا أَضْغَانَهُمْ وَمَهَّدُوا أَكْثَانَهُمْ مُغْتَرِبِينَ بِمَا كَانَ لِأَبَائِهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ لَمْ

تَسْمَحُ بِهِ نَفْسُهُمْ عَلَى السُّلْطَانِ وَيَعْتَدُونَ بِأَثَرِهِ وَيَجْزُونَ فِي مِضْمَارِ الدَّوْلَةِ بِسَبَبِهِ
فَيَمَقَّتُهُمُ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيَبْأَدُهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُصْطَنَعِينَ الَّذِينَ لَا يَعْتَدُونَ
بِقَدِيمٍ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرْفَعُ إِلَّا مَا دَأُّهُمْ الْخُضُوعُ لَهُ وَالْتِمَلُّقُ وَالِاعْتِمَالُ فِي
غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَازِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ الْوُجُوهُ وَالْخَوَاطِرُ
بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَقْبَى نَاشِئَةُ الدَّوْلَةِ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ
التَّرَفِّعِ وَالِاعْتِدَادِ بِالْقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بُعْدًا مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتًا وَإِثَارًا لِهَؤُلَاءِ
الْمُصْطَنَعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ
الْمُصْطَنَعِينَ فِي الْغَالِبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان
ومحو ذلك لا نعظم ثروتهم في الغالب

وَالسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ الْكَسْبَ كَمَا قَدَّمَاهُ قِيَمَةُ الْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمَرَاءِ عَامَّةُ الْبُلُوَى بِهِ كَانَتْ قِيَمَتُهَا
أَعْظَمَ وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الدِّينِيَّةِ لَا تُضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ الْخَلْقِ
وَأِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ الْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ وَإِنْ أَحْتِجَ إِلَى الْفَتَا وَالْقَضَاءِ
فِي الْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَضْطِرَّارِ وَالْعُمُومِ وَيَقَعُ الْأَسْتِغْنَاءُ عَنْ هَؤُلَاءِ فِي الْأَكْثَرِ
وَأِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَامِهِمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ
حَظًّا مِنَ الرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى النُّحُورِ الَّذِي قَرَزْنَاهُ لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ
الشُّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ الصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ الدِّينُ وَالْأَمْرَامِ الشَّرْعِيَّةُ لِكُنْهَ يَقْسِمُ بِحَسَبِ
عُمُومِ الْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ الْعُمَرَاءِ فَلَا يَصِحُّ فِي قِسْمِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ وَهُمْ أَيْضًا لِشَرَفِ
بَضَائِعِهِمْ أَعِزَّةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَعِنْدَ نَفْسِهِمْ فَلَا يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ الْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظًّا
يَسْتَدْرُونَ بِهِ الرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرَغُ أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّغْلِ بِهَذِهِ الْبَضَائِعِ
الشَّرِيفَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالْبَدَنِ بَلْ وَلَا يَسَعُهُمْ أَنْ يَنْدَالُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَهْلِ
الدُّنْيَا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهُمْ يَمْزِلُونَ عَنْ ذَلِكَ فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثَرَوَتُهُمْ فِي الْغَالِبِ وَلَقَدْ
بَاحَثْتُ بَعْضَ الْفُضَلَاءِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوَقَعَ يَدَيَّ أَوْرَاقٌ مُخْرَقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ الدَّوَابِّ

بِدَارِ الْمَأْمُونِ تَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَكَأَنَّهُ فِيمَا طَالَتْ فِيهِ أَرْزَاقُ الْقُضَاةِ وَالْأَيْمَةِ وَالْمُؤَذِّنِينَ فَوَقَفْتُهُ عَلَيْهِ وَعَلِمَ مِنْهُ صِحَّةُ مَا قُلْتُهُ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَضَيْنَا الْعُجْبَ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي عَوَالِمِهِ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْقَادِرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثامن

في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَصِيلٌ فِي الطَّبِيعَةِ وَبَسِيطٌ فِي مَنْعَاهُ وَلِذَلِكَ لَا تَجِدُهُ يَنْتَحِلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ فِي الْغَالِبِ وَلَا مِنْ الْمُتْرِفِينَ وَيَخْتَصُّ مُنْتَحِلُهُ بِالْمَذَلَّةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ رَأَى السَّيِّئَةَ بَعْضَ دُورِ الْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُ الذُّلُّ وَحَمَلَهُ الْبُخَارِيُّ عَلَى الْأَسْتِكْثَارِ مِنْهُ وَتَرَجَّمَ عَلَيْهِ بَابٌ مَا يُحْذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأَشْتَغَالِ بِآلَةِ الزَّرْعِ أَوْ تَجَاوُزِ الْحَدِّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ وَالسَّبَبُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْمَغْرَمِ الْمَفْضِيِّ إِلَى التَّحَكُّمِ وَالْبِدْعِ الْعَالِيَةِ فَيَكُونُ الْغَارِمُ ذَلِيلًا بَانِسًا بِمَا تَشَاوَلَهُ أَيْدِيهِ الْقَهْرِ وَالْأَسْطِطَالَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ الزَّكَاةُ مَغْرَمًا إِشَارَةً إِلَى الْمَلِكِ الْعَضُوضِ الْتَاخِرِ لِلنَّاسِ الَّذِي مَعَهُ التَّسَلُّطُ وَالْجُورُ وَنَسِيَانُ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمُتَمَوَّلَاتِ وَاعْتِبَارُ الْحُقُوقِ كُلِّهَا مَغْرَمٌ لِلْمُلُوكِ وَالِدُّوْلِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

اعْلَمْ أَنَّ التِّجَارَةَ مُحَاوَلَةُ الْكَسْبِ بِتَنْمِيَةِ الْمَالِ بِشِرَاءِ السِّلَعِ بِالرُّخْصِ وَيَبِيعِهَا بِالْأَعْلَاءِ أَيَّامَ كَانَتِ السِّلَعَةُ مِنْ دَقِيقٍ أَوْ زَرْعٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ قَمَاشٍ وَذَلِكَ الْقَدَرُ النَّامِي بِسَمَى رِبْحًا فَالْمُحَاوَلُ لِذَلِكَ الرِّبْحِ إِمَّا أَنْ يَخْتَزِنَ السِّلَعَةَ وَيَتَحَيَّنَ بِهَا حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ مِنَ الرُّخْصِ إِلَى الْأَعْلَاءِ فَيَعْظُمُ رِبْحُهُ وَإِمَّا بِأَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ تَنْفَقُ فِيهِ تِلْكَ السِّلَعَةُ أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي اشْتَرَاهَا فِيهِ فَيَعْظُمُ رِبْحُهُ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ التُّجَّارِ لِيُطْلَبَ الْكَشْفُ عَنْ حَقِيقَةِ التِّجَارَةِ أَنَا أَعْلَمُهَا لَكَ فِي كَلِمَتَيْنِ اشْتَرَاهُ الرُّخِصَ وَيَبِيعُ الْغَالِي فَقَدْ حَصَلَتِ التِّجَارَةُ إِشَارَةً مِنْهُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَعْنَى الَّذِي قَرَّرْنَاهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل العاشر

في اي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها
 قد قدمنا ان معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأعلى من
 ثمن الشراء إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأعلى أو بيعها
 بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا
 كان كثيراً عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه
 التنمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في
 تقاضي أثمانها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع
 ومن المطلق في الأثمان المجحف بالربح كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نمو
 ومن الجحود والآنكار المصنعت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة
 وغنى الحكم في ذلك قليل لأن الحكم إنما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك
 أحوالاً صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التأني من الربح إلا بعظم العناء والمشقة
 أو لا يحصل أو يتلشى رأس ماله فإن كان جريئاً على الخسومة بصيراً بالحسبان شديد
 المماحكة مقدماً على الحكم كان ذلك أقرب له إلى النصفة بجرائده منهم
 ومما حكيه وإلا فلا بد له من جأر يدرع به بوقع له الهبة عند الباعة ويحمل
 الحكم على إنصافه من معامليه فيحصل له بذلك النصفة في ماله طوعاً في الأول
 وكرهاً في الثاني وأما من كان فاقداً للجراءة والافتداه من نفسه فاقد الجاه من الحكم
 فينبغي له أن يجتنب الاختراف بالتجارة لأنه يعرض ما له للضياع والذهاب ويصير
 ما كلة للباعة ولا يكاد يتصف منهم لأن الغالب في الناس خصوصاً الرعاع والباعة
 شريهون إلى ما في أيدي الناس سيواهم متوثبون عليه ولولا وازع الأحكام لأصبحت
 أموال الناس نهباً ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله
 ذو فضل على العالمين

الفصل الحادي عشر

في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك
 وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعاونون البيع والشراء ولا بد فيه من

المُكَايَسَةُ ضَرُورَةٌ فَإِنْ اقْتَصِرَ عَلَيْهَا اقْتَصِرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَغْنَى خُلُقِ الْمُكَايَسَةِ
بَعِيدَةٌ عَنِ الْمُرُوءَةِ الَّتِي تَخْلُقُ بِهَا الْمُلُوكُ وَالْأَشْرَافُ وَأَمَّا إِنْ اسْتَزْدَلَ خُلُقُهُ بِمَا يَتَّبِعُ
ذَلِكَ فِي أَهْلِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ الْمُمَاحِكَةِ وَالْفُتْرِ وَالْخِلَابَةِ وَتَعَاهُدِ الْإِيمَانِ
الْكَاذِبَةِ عَلَى الْأَثْمَانِ رَدًّا وَقُبُولًا فَأَجْدَرُ بِذَلِكَ الْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ الْمَذَلَّةِ لِمَا
هُوَ مَعْرُوفٌ وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الرِّئَاسَةِ يَتَحَامَوْنَ الْإِحْزَانَ بِهَذِهِ الْحِرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يُكَسِبُ
مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ
جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي النَّادِرِ بَيْنَ الْوُجُودِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

التَّاجِرُ الْبَصِيرُ بِالتِّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ السِّلَعِ إِلَّا مَا تَعُمُّ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ
وَالسُّلْطَانِ وَالسُّوقَةِ إِذْ فِي ذَلِكَ تَقَاقُ سِلَعَتِهِ وَأَمَّا إِذَا اخْتَصَّ نَقْلَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَعْضُ
فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَذَّرُ تَقَاقُ سِلَعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ الشِّرَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ لِعَارِضٍ مِنَ الْعَوَارِضِ
فَتَكْسُدُ سُوقُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ وَكَذَلِكَ إِذَا نَقَلَ السِّلْعَةَ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ
الْوَسْطَى مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ الْعَالِيَّ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ السِّلَعِ إِنَّمَا يُخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الثَّرْوَةِ
وَحَاشِيَةُ الدَّوْلَةِ وَهُمْ الْأَقْلُ وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّاسُ أُسْوَةً فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْوَسْطَى مِنْ كُلِّ
صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذَلِكَ جُهْدُهُ فِيهِ تَقَاقُ سِلَعَتِهِ أَوْ كَسَادُهَا وَكَذَلِكَ نَقْلُ السِّلَعِ مِنَ الْبَلَدِ
الْبَعِيدِ الْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ الْخَطَرِ فِي الطَّرِيقَاتِ يَكُونُ أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتُّجَّارِ وَأَعْظَمَ
أَرْبَاحًا وَأَكْفَلَ بِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ لِأَنَّ السِّلْعَةَ الْمُنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مَعُوزَةً
لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ الْقَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا وَيَعِزُّ وُجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ
غَلَّتْ أَثْمَانُهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبَ الْمَسَافَةِ وَالطَّرِيقُ سَابِلًا بِالْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ
يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتُرَخَّصُ أَثْمَانُهَا وَلِهَذَا تَجِدُ التُّجَّارَ الَّذِينَ يُولَعُونَ بِالْدُخُولِ إِلَى
بِلَادِ السُّودَانِ أَرْقَهُ النَّاسِ وَأَكْثَرُهُمْ أَمْوَالًا لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَأَعْتِرَاضِ الْمَفَازَةِ
الصَّعْبَةِ الْخَطِرَةِ بِالْخَوْفِ وَالْعَطَشِ لَا يُوْجَدُ فِيهَا الْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَا كُنْ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي
إِلَيْهَا أَدِلَّاهُ الرُّكْبَانُ فَلَا يَرْتَكِبُ خَطَرَ هَذَا الطَّرِيقِ وَبُعْدَهُ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ النَّاسِ فَتَجِدُ

سِلْعَ بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةٌ لَدَيْنَا فَتُخْتَصُّ بِالْعِلَاءِ وَكَذَلِكَ سَاعِنَا لَهُمْ فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ التُّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا إِلَى الْمَشْرِقِ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ أَيْضًا وَأَمَّا الْمُتَرَدِّدُونَ فِي أَفْقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبُلْدَانِهِ فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ وَأَرْزَاقُهُمْ تَافِهَةٌ لِكثَرَةِ السَّيَاحِ وَكَثَرَةِ نَاقِلِيهَا وَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا اشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَرِ وَالتَّجَرِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ أَنَّ اخْتِكَارَ الزَّرْعِ لِيَحْتَجِزَ أَوْقَاتِ الْفَلَائِ مَشُومٌ وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِالْإِلْفِ وَخُسْرَانٍ وَسَبِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَفْوَاتِ مُضْطَرُّونَ إِلَى مَا يَبْدُلُونَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ اضْطِرَارًا فَتَبْقَى النَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ النَّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ يَأْخُذُهُ تَجَانًا وَلَعَلَّهُ الَّذِي أَعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي اخْتِادِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَجَانًا فَالنَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ خُرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي الْعَذْرِ فَهُوَ كَالْمُكْرَهِ وَمَا عَدَا الْأَفْوَاتِ وَالْمَأْكُولَاتِ مِنَ الدَّيِّمَاتِ لَا اضْطِرَّادَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا يَبْتَغِيهِمْ عَلَيْهَا التَّهَنُّ فِي الشَّهَوَاتِ فَلَا يَبْدُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِاخْتِيَارٍ وَحِرْصٍ وَلَا يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أَعْطَاهُ فَلِهَذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِالْإِخْتِكَارِ يَجْتَمِعُ الْقَوَى الْفَسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رُبُّهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ فِيمَا بَنَاسِبُ هَذَا حِكَايَةَ ظَرِيفَةٍ عَنْ بَعْضِ مَشِيخَةِ الْمَغْرِبِ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْلِيُّ قَالَ حَضَرْتُ عِنْدَ الْقَاضِي بِفَاسَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ وَهُوَ الْفَقِيهُ أَبُو الْحَسَنِ الْمَلِكِيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يُخْتَارَ بَعْضُ الْأَلْقَابِ الْمَخْزَنِيَّةِ لِجَرَابَتِهِ قَالَ فَاطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ مِنْ مَكْسِ الْخَمْرِ فَاسْتَضَمَّكَ الْحَافِرُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجَبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ فَقَالَ إِذَا كَانَتْ الْجَبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَامًا فَأَخْتَارُ مِنْهَا مَا لَا تُتَابَعُهُ نَفْسُ مُعْطِيهِ وَالْخَمْرُ قُلٌّ أَنْ يَبْدُلَ فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ طَرِبَ مَسْرُورٌ بِوُجُودَاتِهِ غَيْرُ أَسِفٍ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ نَفْسُهُ وَهَذِهِ مُمْلَاحَةٌ غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تَكْنِي الصُّدُورُ

الفصل الرابع عشر

في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص.

وذلك ان الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة والتجارة هي شراء البضائع والسلع وأدخالها بتعين بها حوالة الأسواق بالزبادة في أثمانها ويسمى ربحاً ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً فإذا استدیم الرخص في ساعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح والدماء يطول تلك المدة وكنت سوق ذلك الصنف فعمد التجار عن السعي فيها وفست رؤوس أموالهم واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استدیم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وتداريته أو فقده فيفقدون الثماء في أموالهم أو يبعثونه على قلة ويعودون بالإلتحاق على رؤوس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والتخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولاً وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً فإنها تقل حياتهم من ذلك ويعجزون عن إقامة الجندية التي هي بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتفسد أحوالهم وكذا إذا استدیم الرخص في السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به وعمد المحترفون عن التجارة فيه وكذا الملبوسات إذا استدیم فيها الرخص فإذا الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخص وكذا الغلاء المفرط أيضاً وإنما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران وإنما يعمد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني والفقير والعالة من الخلق هم الأكثر في العمران فيعمد الرفق بذلك ويرجع جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

الفصل الخامس عشر

في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الروءساء وبعيدة من المروءة
 قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد
 والأرباح ولا بد في ذلك من المكابسة والمماحكة والتحاكي وممارسة الخصومات واللجاج
 وهي عوارض هذه الحرفة وهذه الأوصاف نقص من الذكاء والمروءة وتجرح فيها لأن
 الأفعال لا بد من عود آثارها على النفس فأفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء
 وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتسكن وترسخ إن سبقت وتكررت وتنقص
 خلال الخير إن تأخرت عنها بما يتطبع من آثارها المذمومة في النفس شأن الملكات
 الناشئة عن الأفعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم فمن
 كان منهم سافل الطور تخافا لأشرار الباعة أهل الغش والخلافة والفجور في الأثمان
 إقرارا وإنكارا كانت رداءة تلك الخلق عنه أشد وغابت عليه السفسفة وبعد عن
 المروءة وأكتسبها بالجملة وإلا فلا بد له من تأثير المكابسة والمماحكة في
 مروءته وفقدان ذلك منهم في الجملة ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل
 قبله أنهم يدرعون بالجاه ويعرض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر وأقل من النادر
 وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثة عن أحد من أهل
 يثبه فحصلت له ثروة تبعه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهورا وشهرة بين أهل
 عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه
 ويسهل له الحكم النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره وإيثاقه فيبعدونه عن
 تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر فتكون مروءتهم أرتخ
 وأبعد عن تلك الحاجة إلا ما يسري من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب فإنهم
 يضطرون إلى مشاركة أحوال أولئك الوكلاء ورفاقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون
 من ذلك إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خلقكم وما تعملون

الفصل السادس عشر

في ان الصنائع لا بد لما من العلم
 اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ويكونه عمليا هو جسماني

مَحْسُوسٌ وَالْأَحْوَالُ الْجِسْمَانِيَّةُ الْمَحْسُوسَةُ فَنَقْلُهَا بِالنَّمْبَاشَةِ أَوْعَبُ لَهَا وَأَكْمَلُ لِأَنَّ
 الْمُبَاشَرَةَ فِي الْأَحْوَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ الْمَحْسُوسَةِ أَتَمُّ فَائِدَةٌ وَالْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ تَحْصُلُ
 عَنْ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَتَكَرُّرِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرْتَسِخَ صُورَتُهُ وَعَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ
 تَكُونُ الْمَلَكَةُ وَتَقُلُّ الْمَعَانِيَةُ أَوْعَبُ وَأَتَمُّ مِنْ تَقُلُّ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ فَالْمَلَكَةُ الْخَاصَّةُ
 عَنِ الْخَبَرِ عَلَى قَدَرِ جُودَةِ التَّعْلِيمِ وَمَلَكَةُ الْمُتَعَلِّمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ ثُمَّ
 إِنَّ الصَّنَائِعَ مِنْهَا الْبَسِيطُ وَمِنْهَا الْمَرْكَبُ وَالْبَسِيطُ هُوَ الَّذِي يُخْتَصُّ بِالضَّرُورِيَّاتِ
 وَالْمَرْكَبُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ وَالْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي التَّعْلِيمِ هُوَ الْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ
 أَوَّلًا وَلِإِنَّهُ يُخْتَصُّ بِالضَّرُورِيَّاتِ الَّذِي تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى تَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي التَّعْلِيمِ
 وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ نَاقِصًا وَلَا يَزَالُ الْفِكْرُ يُخْرِجُ أَصْنَافَهَا وَمَرْكَبَاتِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ
 بِالْإِسْتِنْبَاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى التَّدْرِيجِ حَتَّى تَكْمُلَ وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَحْصُلُ
 فِي أَزْمَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ خُرُوجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيمَا
 فِي الْأُمُورِ الصَّنَاعِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهُ إِذَنْ مِنْ زَمَانٍ وَلِهَذَا تُجَدُّ الصَّنَائِعُ فِي الْأَمْصَارِ الصَّغِيرَةِ
 نَاقِصَةً وَلَا يُوجَدُ مِنْهَا إِلَّا الْبَسِيطُ فَإِذَا تَزَايَدَتْ حَضَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورُ التَّرَفِّ فِيهَا إِلَى
 اسْتِعْمَالِ الصَّنَائِعِ خَرَجَتْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَتَنْقَسِمُ الصَّنَائِعُ أَيْضًا إِلَى مَا يُخْتَصُّ
 بِأَمْرِ الْمَعَاشِ ضَرُورِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ وَإِلَى مَا يُخْتَصُّ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي هِيَ خَاصِيَّةُ
 الْإِنْسَانِ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَمِنْ الْأَوَّلِ الْحَيَاكَةُ وَالْجِزَارَةُ وَالتَّجَارَةُ
 وَالْحِدَادَةُ وَأَمْثَالُهَا وَمِنْ الثَّانِي الْوَرَاثَةُ وَهِيَ مُعَانَاةُ الْكُتُبِ بِالْإِنْتِسَاخِ وَالتَّجْلِيدِ وَالْغِنَاءُ
 وَالشُّعْرُ وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنْ الثَّالِثِ الْجَنْدِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السابع عشر

فِي أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْمُلُ بِكَمَالِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَكَثْرَتِهِ
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَمْ يُسْتَوْفَ الْعُمَرَانُ الْحَضَرِيُّ وَتَتِمَدَّنْ الْمَدِينَةُ
 إِنَّمَا هُمُّهُمْ فِي الضَّرُورِيَّاتِ مِنَ الْمَعَاشِ وَهُوَ تَحْصِيلُ الْأَقْوَاتِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا
 تَمَدَّنَتِ الْمَدِينَةُ وَتَزَايَدَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ وَوَفَّتْ بِالضَّرُورِيَّاتِ وَزَادَتْ عَلَيْهِ مَرَفَ الزَّائِدِ
 حِينَئِذٍ إِلَى الْكَمَالَاتِ مِنَ الْمَعَاشِ ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ وَالْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ
 حَيْثُ فِكْرُهُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْقُوَّةُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْحَيَوَانِيَّةُ وَالْغِدَائِيَّةُ فَهُوَ

مُقَدَّمٌ لِّضُرُورِيَّتِهِ عَلَى الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَهِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنِ الضَّرُورِيِّ وَعَلَى مِقْدَارِ عُمُرَانِ
الْبَلَدِ تَكُونُ جُودَةُ الصَّنَائِعِ لِلتَّائِقِ فِيهَا حَيْثُذِ وَأَسْتِجَادَةً مَا يُطْلَبُ مِنْهَا بِمَجِثٍ تُتَوَفَّرُ
دَوَاعِي التَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ وَأَمَّا الْعُمُرَانُ الْبَدَوِيُّ أَوِ الْقَلِيلُ فَلَا يَحْتَاجُ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا
الْبَسِيطَ خَاصَّةً الْمُسْتَعْمَلِ فِي الضَّرُورِيَّاتِ مِنْ تِجَارٍ أَوْ حَدَادٍ أَوْ خِيَاطٍ أَوْ حَائِكٍ أَوْ
جَزَّارٍ وَإِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ بَعْدُ فَلَا تُوجَدُ فِيهِ كَامِلَةٌ وَلَا مُسْتَجَادَةٌ وَإِنَّمَا يُوْجَدُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ
الضَّرُورَةِ إِذْ هِيَ كُلُّهَا وَسَائِلُ إِلَى غَيْرِهَا وَلَيْسَتْ مَقْصُودَةٌ لِدَانِهَا وَإِذَا زَخَرَ بِحَرِّ الْعُمُرَانِ
وَطُلِبَتْ فِيهِ الْكَمَالَاتُ كَانَ مِنْ جُمْلَتِهَا التَّائِقُ فِي الصَّنَائِعِ وَأَسْتِجَادَتِهَا فَكَمَلَتْ
بِجَمِيعِ مُتِمِّمَاتِهَا وَتَزَايَدَتْ صَنَائِعُ أُخْرَى مَعَهَا مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ التَّرَفِ وَأَحْوَالُهُ مِنْ
جَزَّارٍ وَدَبَّاحٍ وَخَرَّازٍ وَصَانِعٍ وَأَمثالِ ذَلِكَ وَقَدْ تَنْتَهِي هَذِهِ الْأَصْنَافُ إِذَا اسْتَبْجَرَ الْعُمُرَانُ
إِلَى أَنْ يُوْجَدَ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْكَمَالَاتِ وَالتَّائِقُ فِيهَا فِي الْغَايَةِ وَتَكُونُ مِنْ وَجْهِهِ الْمَعَاشِ
فِي الْمِصْرِ لِمُسْتَحِيلِهَا بَلْ تَكُونُ فَائِدَتِهَا مِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ الْأَعْمَالِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرَفُ
فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الدَّهَانِ وَالصَّفَّارِ وَالْحَمَّامِيِّ وَالطَّبَّاحِ وَالشَّمَاعِ وَالْمُرَّاسِ وَمُعَلِّمِ الْغِنَاءِ
وَالرَّقْصِ وَقَرَعِ الطُّبُولِ عَلَى التَّوْقِيعِ وَمِثْلَ الْوَرَّاقِينَ الَّذِينَ يُعَانُونَ صِنَاعَةَ انْتِسَاخِ
الْكِتَابِ وَتَجْلِيدِهَا وَتَضْمِيحِهَا فَإِنَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرَفُ فِي الْمَدِينَةِ
مِنْ الْأَشْتَغَالِ بِالْأُمُورِ الْفِكْرِيَّةِ وَأَمثالِ ذَلِكَ وَقَدْ تَخْرُجُ عَنِ الْحَدِّ إِذَا كَانَ الْعُمُرَانُ
خَارِجًا عَنِ الْحَدِّ كَمَا بَلَّغْنَا عَنْ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يَعْلَمُ الطُّيُورَ الْعُجْمَ وَالْحُمْرَ
الْإِنْسِيَّةَ وَتَغْيِيلُ أَشْيَاءَ مِنَ الْعَجَائِبِ بِإِيَّاهُمْ قَلْبِ الْأَعْيَانِ وَتَعْلِيمِ الْحِدَاءِ وَالرَّقْصِ
وَالْمَشِيِّ عَلَى الْخُيُوطِ فِي الْهَوَاءِ وَرَفْعِ الْأَثْقَالِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْحِجَارَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ
الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تُوجَدُ عِنْدَنَا بِالْمَغْرِبِ لِأَنَّ عُمُرَانَ أَمْصَارِهِ لَمْ يَبْلُغْ عُمُرَانَ مِصْرَ وَأَنَّا نَهَرَةٌ
أَدَامَ اللَّهُ عُمُرَانَهَا بِالْمُسْلِمِينَ

الفصل الثامن عشر

فِي أَنْ رَسُوخَ الصَّنَائِعِ فِي الْأَمْصَارِ إِنَّمَا هُوَ بِرَسُوخِ الْحَضَارَةِ وَطُولِ أَمَدِهِ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا عَوَائِدُ الْعُمُرَانِ وَالْأَوَانِ وَالْعَوَائِدُ إِنَّمَا
تَرْسُخُ بِكَثْرَةِ التَّكْرَارِ وَطُولِ الْأَمَدِ فَتَسْتَحْكِمُ صِبْغَةً ذَلِكَ وَتَرْسُخُ فِي الْأَجْيَالِ
وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الصِّبْغَةُ عَصَرَ تَزْعُمَهَا وَلِهَذَا نَجِدُ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي كَانَتْ اسْتَبْجَرَتْ فِي

الْحِضَارَةُ لَمَّا تَرَاجَعَ عُمَرَانَهَا وَتَنَاقَصَ بَقِيَّتَ فِيهَا آثَارُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا
 مِنَ الْأَمْصَارِ الْمُسْتَحْدَثَةِ الْعُمَرَانِ وَلَوْ بَلَغَتْ مَبَالِغَهَا فِي الْوُفُورِ وَالْمَكْرَةِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا
 لِأَنَّ أَحْوَالَ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ الْعُمَرَانِ مُسْتَحْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ بِطُولِ الْأَحْقَابِ وَتَدَاوُلِ الْأَحْوَالِ
 وَتَكَرُّرِهَا وَهَذِهِ لَمْ تَبْلُغِ الْغَايَةَ بَعْدُ وَهَذَا كَالْحَالِ فِي الْأَنْدَلُسِ إِيذًا الْعَهْدِ فَإِنَّا نَجِدُ
 فِيهَا رُسُومَ الصَّنَائِعِ قَائِمَةً وَأَحْوَالَهَا مُسْتَحْكِمَةً رَاسِخَةً فِي جَمِيعِ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ
 أَمْصَارِهَا كَالْمَبَانِي وَالطَّبَخِ وَأَصْنَافِ الْغِنَاءِ وَالْأَهْرِ مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَوْتَارِ وَالرَّانِصِ
 وَتَنْضِيدِ الْفُرُشِ فِي الْقُصُورِ وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ وَالْأَوْضَاعِ فِي الْبِنَاءِ وَصَوْنِ الْآيَةِ مِنْ
 الْمَعَادِنِ وَالْخَرْفِ وَجَمِيعِ الْمَوَاعِينِ وَإِقَامَةِ الْوَلَائِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَسَائِرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي
 يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرَفُ وَعَوَائِدُهُ فَنَجِدُهُمْ أَقْوَمَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَ بِهَا وَنَجِدُ صَنَائِعَهَا مُسْتَحْكِمَةً
 لَدَيْهِمْ فَهُمْ عَلَى حِصَّةِ مَوْفُورَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَحَظٌ مُتَمَيِّزٌ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانَ
 عُمَرَانُهَا قَدْ تَنَاقَصَ وَالْكَثِيرُ مِنْهُ لَا يُسَاوِي عُمَرَانَ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْعُدُودِ وَمَا ذَاكَ
 إِلَّا لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ رُسُوحِ الْحِضَارَةِ فِيهِمْ بِرُسُوحِ الدَّوْلَةِ الْأُمُورِيَّةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ دَوْلَةِ
 الْقُوطِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَوْلَةِ الطَّوَائِفِ وَهَلُمَّ جَرًّا فَبَلَغَتْ الْحِضَارَةُ فِيهَا مَبَالِغًا لَمْ تَبْلُغْهُ فِي قَطْرِ
 إِلَّا مَا يُنْقَلُ عَنِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ أَيْضًا لِبُطُولِ أَمَادِ الدُّوَلِ فِيهَا فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا
 الصَّنَائِعُ وَكَمَلَتْ جَمِيعُ أَصْنَافِهَا عَلَى الْإِسْتِجَادَةِ وَالتَّنْهِيكِ وَبَقِيَتْ صِبْغَتُهَا ثَابِتَةً فِي ذَلِكَ
 الْعُمَرَانِ لَا تُفَارِقُهُ إِلَى أَنْ يَنْتَقِضَ بِالْكُلِّيَّةِ حَالُ الصَّبْغِ إِذَا رَسَخَ فِي الثُّوبِ وَكَذَا
 أَيْضًا حَالُ ثَوْبٍ فِيَمَا حَصَلَ فِيهَا بِالْحِضَارَةِ مِنَ الدُّوَلِ الصَّنَهَاجِيَّةِ وَالْمُوحِدِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ وَمَا اسْتَحْكَمَ لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ
 دُونَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا أَنَّهُ مُتَضَاعِفٌ بِرُسُومِ مِنْهَا تُنْقَلُ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ لِقُرْبِ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا
 وَتَرْدُّ الْمُسَافِرِينَ مِنْ قَطْرِهَا إِلَى قَطْرِ مِصْرَ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا سَكَنَ أَهْلُهَا هُنَاكَ
 عَصُورًا فَيَنْقِلُونَ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَمُحْكَمِ صَنَائِعِهِمْ مَا يَقَعُ لَدَيْهِمْ مَوْقِعَ الْإِسْتِحْسَانِ
 فَصَارَتْ أَحْوَالُهَا فِي ذَلِكَ مُتَشَابِهَةً مِنْ أَحْوَالِ مِصْرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ
 مَا أَنَّ أَكْثَرَ سَاكِنِيهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ حِينَ الْجَلَاءِ لِعَهْدِ الْمَائَةِ السَّابِعَةِ وَرَسَخَ
 فِيهَا مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالٌ وَإِنْ كَانَ عُمَرَانُهَا لَيْسَ بِمُنَاسِبٍ لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّ الصَّبْغَةَ
 إِذَا اسْتَحْكَمَتْ قَلِيلًا مَا تَحُولُ إِلَّا بِزَوَالِ مَحَلِّهَا وَكَذَا نَجِدُ بِالْقَيْرَوَانِ وَمَرَاكِشَ وَقَلْعَةَ

أَبْنِ حَمَادٍ أَثَرًا بَاقِيًا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا الْيَوْمَ خَرَابًا أَوْ فِي حُكْمِ الْخَرَابِ
وَلَا تَنْفُطُنْ لَهَا إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ النَّاسِ فَيَعِيدُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ آثَارًا تَدُلُّهُ عَلَى مَا كَانَ بِهَا
كَأَثَرِ الْخَطِّ الْمَحْذُورِ فِي الْكِتَابِ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الفصل التاسع عشر

في ان الصنائع انما تسجد وتكثر اذا كثر طالبيها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَمِعُ بِعَمَلِهِ أَنْ يَقَعَ نَجَاسًا لِأَنَّهُ كَسْبُهُ
وَمِنْهُ مَعَاشُهُ إِذْ لَا فَايِدَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَصْرِفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ
فِيهِ فِي مِضْرِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ وَإِنْ كَانَتْ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً وَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا التَّفَاقُ
كَانَتْ حِينَئِذٍ الصَّنَاعَةُ بِمِثَابَةِ السَّاعَةِ الَّتِي تَنْفِقُ سُوقَهَا وَتُجَلَّبُ لِلْبَيْعِ فَتَجْتَنِدُ النَّاسُ فِي
الْمَدِينَةِ لِتَعْلَمَ تِلْكَ الصَّنَاعَةُ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَالِيهِمْ وَإِذَا لَمْ تَكُنِ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ
تَنْفِقْ سُوقَهَا وَلَا يُوجَّهْ قَصْدٌ إِلَى تَعْلُمِهَا فَاخْتَصَّتْ بِالْتَرَكِ وَفُقِدَتْ لِلْإِهْمَالِ وَلِهَذَا يُقَالُ
عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا كُلُّ أَمْرٍ مَا يُعْنِي بِدَعْنِي أَنْ صِنَاعَتُهُ هِيَ قِيَمَتُهُ أَيْ
قِيَمَةُ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ وَأَيْضًا فَمِنْ أَمْرٍ آخَرٍ وَهُوَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَإِجَادَتَهَا إِنَّمَا
تَطْلُبُهَا الدَّوْلَةُ فَيَعِي الَّتِي تَنْفِقُ سُوقَهَا وَتُوَجَّهُ الطَّالِبَاتُ إِلَيْهَا وَمَا لَمْ تَطْلُبْهُ الدَّوْلَةُ وَإِنَّمَا
يَطْلُبُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ الْمِضْرِ فَلَيْسَ عَلَى نِسْبَتِهَا لِأَنَّ الدَّوْلَةَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ وَفِيهَا
تَفَاقُ كُلِّ شَيْءٍ وَالْقَلِيلُ وَالكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَا تَنْفِقُ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرِيًّا
ضَرُورَةً وَالسُّوقَةُ وَإِنْ طَلَبُوا الصَّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلِبُهُمْ بِعَامٍ وَلَا سُوقُهُمْ بِذَاقَةٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى قَادِرُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ

الفصل العشرون

في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقضت منها الصنائع
وَذَلِكَ لِأَنَّ بَيْنَنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تُسْجَدُ إِذَا أَحْتَجَّ إِلَيْهَا وَكَثُرَ طَالِبُهَا وَإِذَا ضَعُفَتْ
أَحْوَالُ الْمِضْرِ وَأَخَذَ فِي الْهَرَمِ بِانْتِقَاضِ عُمْرَانِهِ وَقَلَّةِ سَاكِنِيهِ تَنَاقَصَ فِيهِ التَّرَفُ وَرَجَعُوا
إِلَى الْإِقْتِسَارِ عَلَى الْضَرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فَتَقَلَّ الصَّنَائِعُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ تَوَاجِعِ التَّرَفِ لِأَنَّ
مَاحِبَهَا حِينَئِذٍ لَا يَصِحُّ لَهُ بِهَا مَعَاشُهُ فَيَفِرُّ إِلَى غَيْرِهَا أَوْ يَمُوتُ وَلَا يَكُونُ خَلْفٌ مِنْهُ

فَيَذْهَبُ رَسْمُ تِلْكَ الصَّنَائِعِ جُمْلَةً كَمَا يَذْهَبُ النِّقَاشُونَ وَالصُّوَّاعُ وَالْكِتَابُ وَالنُّسَاحُ وَأَمْثَالُهُمْ
مِنَ الصَّنَائِعِ لِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَلَا تَزَالُ الصِّنَاعَاتُ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ وَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

الفصل الحادي والعشرون

في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَغْرَقُوا فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدُوا عَنِ الْعُمُرَانِ الْحَضَرِيِّ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ
مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا وَالْعَجَمُ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأُمَمِ النُّصْرَانِيَّةِ عُدُوَّةَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
أَقْوَمُ النَّاسِ عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ أَغْرَقُوا فِي الْعُمُرَانِ الْحَضَرِيِّ وَأَبْعَدُوا عَنِ الْبَدْوِ وَعُمُرَانِهِ حَتَّى
إِنْ الْإِبِلَ الَّتِي أَذَانَتِ الْعَرَبُ عَلَى التَّوَحُّشِ فِي الْقَفْرِ وَالْإِعْرَاقِ فِي الْبَدْوِ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ
بِالْجُمْلَةِ وَمَفْقُودَةٌ مَرَاعِيهَا وَالرِّمَالُ الْمَهِيئَةُ لِنَتَاجِهَا وَهَذَا نَجْدُ أَوْطَانِ الْعَرَبِ وَمَا مَلَكَهُ
فِي الْإِسْلَامِ قَلِيلُ الصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ حَتَّى تَجْلِبَ إِلَيْهِ مِنْ قَطْرِ آخَرٍ وَانْظُرْ بِلَادَ الْعَجَمِ
مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَأَرْضِ التُّرْكِ وَأُمَمِ النُّصْرَانِيَّةِ كَيْفَ اسْتَكْثَرَتْ فِيهِمِ الصَّنَائِعُ
وَأَسْتَجْلَبَهَا الْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ وَعَجَمُ الْمَغْرِبِ مِنَ الْبَزِيرِ مِثْلُ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لِرُسُوحِهِمْ
فِي الْبَدَاوَةِ مُنْذُ أَحْقَابِ مِنَ السِّنِينَ وَيَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ قَلَّةُ الْأَمْصَارِ بِقَطْرِهَا كَمَا قَدَّمَاهُ
فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ لِدَلِيلِ قَلِيلَةٍ وَغَيْرُ مُسْتَحْكِمَةٍ إِلَّا مَا كُنِيَ مِنْ صِنَاعَةِ الصُّوفِ مِنْ
نَسْجِهِ وَالتَّجْلِيدِ فِي خَزَرِهِ وَدَبْغِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَحْضَرُوا بَلَّغُوا فِيهَا الْمَبَالِغَ لِعُمُومِ الْبَلَوَى بِهَا
وَكَوْنِ هَذَيْنِ أَغْلَبَ السَّلَاحِ فِي قَطْرِهَا لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ الْبَدَاوَةِ وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَقَدْ
رَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِ مُنْذُ مَلِكِ الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْقُرْنِ وَالنَّبِطِ وَالْقَبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ
وَبُؤْنَانَ وَالرُّومِ أَحْقَابًا مُتَطَاوِلَةً فَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ وَمِنْ جَمَاعَتِهَا الصَّنَائِعُ
كَمَا قَدَّمَاهُ فَلَمْ يَمَحْ رَسْمُهَا وَأَمَّا الْيَمَنُ وَالْبَحْرَانُ وَعُمَانُ وَالْجَزِيرَةُ وَإِنْ مَلَكَهُ
الْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مَلَكَهُ آلَافًا مِنَ السِّنِينَ فِي أُمَمٍ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ وَاسْتَخْطَلُوا
أَمْصَارَهُ وَمُدْنَهُ وَبَلَّغُوا الْغَايَةَ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ مِثْلَ عَادَ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةِ وَحَمِيرَ
مِنْ بَعْدِهِمِ وَالتَّبَاعَةِ وَالْأَذْوَاء فَطَالَ أَمْدُ الْمَلِكِ وَالْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهَا وَتَوَفَّرَتْ
الصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ فَلَمْ تَبَلَّ بِإِلَى الدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمَاهُ فَبَقِيَتْ مُسْتَجِدَّةٌ حَتَّى الْآنَ وَاسْتَخْصَتْ بِذَلِكَ
الْوَطَنَ كَصِنَاعَةِ الْوَشْيِ وَالْعَصَبِ وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْلِ الشِّبَابِ وَالْحَرِيرِ فِيهَا وَاللَّهُ وَارِثُ

الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الثاني والعشرون

فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقُلْ إِنَّ يَجِيدُ بَعْدَ فِي مَلَكَةٍ أُخْرَى
وَمِثَالُ ذَلِكَ الْخِيَاطُ إِذَا أَجَادَ مَلَكَةُ الْخِيَاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا
يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَةُ النِّجَارَةِ أَوْ الْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأُولَى لَمْ تَسْتَحْكَمْ بَعْدُ وَلَمْ
تَرْمَخْ صِبْغَتَهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَاتِ صِنَاتُ النَّفْسِ وَالْوَانُ فَلَا تَزْدَحِمُ دَفْعَةً
وَمَنْ كَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ إِقْبُولِ الْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ اسْتِعْدَادًا لِحُصُولِهَا فَإِذَا
تَلَوَّتِ النَّفْسُ بِالْمَلَكَاتِ الْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ الْفِطْرَةِ ضَعُفَتْ فِيهَا الْإِسْتِعْدَادُ بِاللُّونِ
الْحَاصِلِ مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَكَانَ قُبُولُهَا لِلْمَلَكَاتِ أَضْعَفَ وَهَذَا بَيِّنٌ يَشْهَدُ لَهُ الْوُجُودُ
فَقُلْ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعًا
عَلَى رُتَبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِجَادَةِ حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذِينَ مَلَكَتْهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهُمْ بِهَذِهِ
الْمَثَابَةِ وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَاتٍ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي الْغَايَةِ فَقُلْ أَنْ يَجِيدَ
مَلَكَاتٍ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقْصِرًا فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِنْ
الْأَحْوَالِ وَمَبْنِي سَبَبُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ وَتَلَوِينِهِ بِالْوَانِ الْمَلَكَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي
النَّفْسِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث والعشرون

في الإشارة إلى امهات الصنائع

إِعْلَمْ أَنَّ الصَّنَائِعَ فِي النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكثَرَةِ أَدْنَمَالِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي
الْعُمُرَانِ فَهِيَ بِحَيْثُ تَشُدُّ عَنِ الْحَضَرِ وَلَا يَأْخُذُهَا الْعَدُّ إِلَّا أَنْ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ
فِي الْعُمُرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِالْمَوْضِعِ فَتَخْصُهَا بِالذِّكْرِ وَتَتْرُكُ مَا سِوَاهَا فَأَمَّا الضَّرُورِيُّ
فَالْفَلَاحَةُ وَالْبِنَاءُ وَالْخِيَاطَةُ وَالنِّجَارَةُ وَالْحَيَاكَةُ وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ بِالْمَوْضِعِ فَكَالتَّوْلِيدُ
وَالْكِتَابَةُ وَالْوَرَاقَةُ وَالْغِنَاءُ وَالطِّبُّ فَأَمَّا التَّوْلِيدُ فَإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمُرَانِ
وَعَامَّةُ الْبَلَوَى إِذَا بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ الْمَوْلُودِ وَتُسَمَّى غَالِبًا وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُونَ
وَأُمَمُهُمْ وَأَمَّا الطِّبُّ فَهُوَ حِفْظُ الصِّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ الْمَرَضِ عَنْهُ وَبَتَقَرُّعُ

عَنْ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ وَمَوْضُوعِهِ مَعَ ذَلِكَ بَدَنُ الْإِنْسَانِ وَأَمَّا الْكِتَابَةُ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ
الرِّفَاقَةِ فَبِهَا حَافِظَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حَاجَتُهُ وَمُقَيِّدَةٌ لَهَا عَنِ النِّسْيَانِ وَمُبَلِّغَةٌ ضَمَائِرَ
النَّفْسِ إِلَى الْبَعِيدِ الْغَائِبِ وَمُخَلِّدَةٌ نَتَائِجِ الْأَفْكَارِ وَالْعُلُومِ فِي الْعُمُفِ وَرَافِعَةٌ رُتَبَ
الْوُجُودِ لِلْمَعَانِي وَأَمَّا الْغِنَاءُ فَهُوَ نِسْبُ الْأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ جَمَالِهَا لِلْأَسْمَاعِ وَكُلُّ هَذِهِ
الصَّنَائِعِ الثَّلَاثِ دَاعٍ إِلَى مُخَالَطَةِ الْمُلُوكِ الْأَعْظَمِ فِي خَلْقَاتِهِمْ وَمَجَالِسِ أَنْسِبِهِمْ فَلَهَا
بِذَلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لِغَيْرِهَا وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ وَمُعْتَمِدَةٌ فِي الْغَالِبِ وَقَدْ
يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَغْرَاضِ وَالِدَوَاعِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْصَّوَابِ

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ تَمَرَّتْهَا اتِّخَاذُ الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ بِالْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ الْأَرْضِ لَهَا
ازْدِرَاعُهَا وَعِلَاجُ نَبَاتِهَا وَتَعْمِيدُهَا بِالسَّقْيِ وَالْتِمِيزُ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حِصَادِ سُنْبُلِهِ
وَأَسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غِلَافِهِ وَإِحْكَامِ الْأَعْمَالِ لِذَلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ وَهِيَ
أَقْدَمُ الصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا تَحْصِلُ الْقُوَّةَ الْمُكْمِلَةَ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ غَالِبًا إِذْ يُمَكِّنُ وُجُودَهُ
مِنْ دُونَ الْقُوَّةِ وَلِهَذَا اخْتَصَّتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ بِالْبَدْوِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَقْدَمُ مِنَ الْحَضَرِ
وَسَابِقٌ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِذَلِكَ بَدَوِيَّةً لَا يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَضَرُ وَلَا يَعْرِفُونَهَا لِأَنَّ
أَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا ثَانِيَةٌ عَلَى الْبَدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَةٌ عَنْ صَنَائِعِنَا وَتَابِعَةٌ لَهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى مُقِيمُ الْعِبَادِ فِيمَا أَرَادَ

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْأَعْمَلِ فِي اتِّخَاذِ
الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ لِلْمَكْنِ وَالْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي الْمَدُنِ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لِمَا جَبَلَ
عَلَيْهِ مِنَ الْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ لَا بُدَّ أَنْ يُفَكِّرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى مِنَ الْحَرِّ
وَالْبَرْدِ كَاتِخَاذِ الْبُيُوتِ الْمُكْتَنَفَةِ بِالسَّقْفِ وَالْحِطَّانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا وَالْبَشَرُ مُخْتَلِفٌ
فِي هَذِهِ الْجَبِلَةِ الْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمْ الْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَّخِذُونَ ذَلِكَ بِاعْتِدَالِ أَهَالِي الثَّانِي
وَالثَّالِثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ وَالسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَيَبْعُدُونَ عَنِ اتِّخَاذِ ذَلِكَ لِقُصُورِ

أَفْكَارِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ الصَّنَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ فَيَسَادِرُونَ لِلْغَيْرَانِ وَالْكُهُوفِ الْمَعْدَةِ مِنْ غَيْرِ
عِلَاجٍ ثُمَّ الْمُعْتَدِلُونَ الْمُتَخَذُونَ لِلْمَأْوَى قَدْ يَتَكَثَّرُونَ فِي الْبَسِيطِ الْوَاحِدِ بِحَيْثُ
يَتَنَاقَرُونَ وَلَا يَتَعَارَفُونَ فَيَخْشَوْنَ طَرِيقَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَيَحْتَاجُونَ إِلَى حِفْظِ مُجْتَمَعِهِمْ بِإِدَارَةِ
مَاءٍ أَوْ أَسْوَارٍ تَحُوطُهُمْ وَيَصِيرُ جَمِيعُ مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِصْرًا وَاحِدًا وَيَحُوطُهُمُ الْحَصَرُ
مِنْ دَاخِلٍ يَدْفَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَقَدْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِنْتِصَافِ وَيَتَخَذُونَ الْمُعَاقِلَ
وَالْعَصُونَ لَهُمْ وَلِئَمِنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِثْلُ الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَكِبَارِ
الْقَبَائِلِ فِي الْمَدُنِ كُلِّ مَدِينَةٍ عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَ وَيُضْطَلِحُونَ عَلَيْهِ وَيُنَاسِبُ مِزَاجَ هَوَائِهِمْ
وَأَخْتِلَافَ أَحْوَالِهِمْ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَكَذَا حَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ
يَتَخَذُ الْقُصُورَ وَالْمَصَانِعَ الْعَظِيمَةَ السَّاحَةَ الْمُشْتَعِلَةَ عَلَى عِدَّةِ الدُّورِ وَالْبُيُوتِ وَالْعُرُفِ
الْكَبِيرَةِ لِكَثْرَةِ وَلَدِهِ وَحَشَمِهِ وَعِيَالِهِ وَتَابِعِهِ وَيُؤَسِّسُ جُذْرَانَهَا بِالْحِجَارَةِ وَيَلْتَحِمُ بَيْنَهَا
بِالْكِلْسِ وَيُعَالِي عَلَيْهَا بِالْأَصْبَغَةِ وَالْجِصِّ وَيَبَالِغُ فِي ذَلِكَ بِالتَّجِيدِ وَالْتَّمِيقِ إِظْهَارًا
لِلدَّيْطَةِ بِالْعِنَايَةِ فِي شَأْنِ الْمَأْوَى وَيَهَيِّئُ مَعَ ذَلِكَ الْأَمْرَابَ وَالْمَطَامِيرَ لِلِاخْتِرَانِ
لِأَفْوَاتِهِ وَالْإِسْطَبَالَاتِ لِرَبْطِ مَقَرِّ بَانِهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجُنُودِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ وَالْحَاشِيَةِ
كَالْأَمْرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْنِي الدُّوْبَرَةَ وَالْبُيُوتَ لِنَفْسِهِ وَسَكْنِهِ وَوَلَدِهِ لَا
يَسْتَقِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِقُصُورِ حَالِهِ عَنْهُ وَاقْتِصَارِهِ عَلَى الْكَفِّ الطَّبِيعِيِّ لِلْبَشَرِ وَبَيَّنَ
ذَلِكَ مَرَاتِبُ غَيْرُ مُنْخَصِرَةٍ وَقَدْ يَحْتَاجُ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْضًا عِنْدَ تَأْسِيسِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ
الدُّوْلِ الْمَدُنِ الْعَظِيمَةِ وَأَهْلِيَا كُلِّ الْمُرْتَفَعَةِ وَيُبَالِغُونَ فِي انْقَانِ الْأَوْضَاعِ وَعُلُوِّ الْأَجْرَامِ
مَعَ الْأَحْكَامِ لِتَبْلُغَ الصَّنَاعَةُ مَبَالِغَهَا وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ الَّتِي تُحْصِلُ الدَّوَاعِيَ لِذَلِكَ وَأَكْثَرُ
مَا تَكُونُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ مِنَ الرَّابِعِ وَمَا حَوْلَ إِلَيْهِ إِذَا الْأَقَالِيمُ الْمُنْحَرِفَةُ
لَا بِنَاءَ فِيهَا وَإِنَّمَا يَتَخَذُونَ الْبُيُوتَ حِطَائِرَ مِنَ الْقَصَبِ وَالطِّينِ وَإِنَّمَا يُوْجَدُ فِي الْأَقَالِيمِ
الْمُعْتَدِلَةِ لَهُ وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا مُتَفَاوِتُونَ فَمِنْهُمْ الْبَصِيرُ الْمَاهِرُ وَمِنْهُمْ
الْقَاصِرُ ثُمَّ هِيَ ائْتَنَوْعُ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً فَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْبَجَذَةِ يُقَامُ بِهَا الْجُدْرَانُ
مُلَصَّقًا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِالطِّينِ وَالْكِلْسِ الَّذِي يُعْقَدُ مَعَهَا وَيَلْتَحِمُ كَأَنَّهَا جِسْمٌ وَاحِدٌ
وَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالتُّرَابِ خَاصَّةً يَتَخَذُ لَهَا لَوْحَانٍ مِنَ الْخَشَبِ مُقَدَّرَانِ طُولًا وَعَرْضًا بِأَخْتِلَافِ
الْعَادَاتِ فِي التَّقْدِيرِ وَأَوْسَطُهُ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعَيْنِ فَيُنْصَبَانِ عَلَى أُسَاسٍ وَقَدْ يُوْعَدُ

مَا يَتَّهَمَانِ بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ الْبِنَاءِ فِي عَرْضِ الْأَسَاسِ وَيُوصِلُ بَيْنَهُمَا بِأَذْرَعٍ مِنَ الْخَشَبِ
يُرْبِطُ عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ وَالْجُدُرِ وَيُسَدُّ الْجِهَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ مِنْ ذَلِكَ الْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِلَوْحَيْنِ
آخَرَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ ثُمَّ يُوضَعُ فِيهِ التُّرَابُ مُخْلَطًا بِالْكِلْسِ وَيُرَكَّزُ بِالْمَرَكَزِ الْمَعْدَّةِ
حَتَّى يَنْعَمَ رَكَزُهُ وَيَخْتَلِطَ أَجْزَاؤُهُ ثُمَّ يَزَادُ التُّرَابُ ثَانِيًا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَمْتَلِئَ ذَلِكَ الْخَلَاءُ
بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ أَجْزَاءُ الْكِلْسِ وَالتُّرَابِ وَصَارَتْ جِسْمًا وَاحِدًا ثُمَّ يُعَادُ
نَصْبُ اللَّوْحَيْنِ عَلَى صُورَةٍ وَيُرَكَّزُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيُنْظَمَ الْأَلْوَاحُ كُلُّهَا سَطْرًا مِنْ
فَوْقِ سَطْرٍ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ الْحَائِطُ كُلُّهُ مُتَّحِمًا كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى الطَّايِبَةُ
وَصَانِعُهُ الطُّوَابِ وَمِنْ صَنَائِعِ الْبِنَاءِ أَيْضًا أَنْ يُجَلَّلَ الْحِيطَانُ بِالْكِلْسِ بَعْدَ أَنْ يُعَلَّ
بِالْمَاءِ وَيُخَمَّرَ أَوْ أُسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدَرٍ مَا يَعْتَدِلُ مِزَاجُهُ عَنْ إِفْرَاطِ النَّارِ يَةِ الْمُفْسِدَةِ
لِلْمَلْحَامِ فَإِذَا تَمَّ لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذَلِكَ عِلَاقَةٍ مِنْ فَوْقِ الْحَائِطِ وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَحِمَ وَمِنْ
صَنَائِعِ الْبِنَاءِ عَمَلُ السَّقْفِ بِأَنْ يُعَدَّ الْخَشَبُ الْمُحْكَمَةُ النِّجَارَةِ أَوْ السَّازِجَةُ عَلَى حَاكِي
الْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا الْأَلْوَاحُ كَذَلِكَ مَوْصُولَةٌ بِالْأَسَائِرِ وَبُصْبٌ عَلَيْهَا التُّرَابُ وَالْكِلْسُ
وَيُسَطُّ بِالْمَرَكَزِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَحِمَ وَيُعَالَى عَلَيْهَا الْكِلْسُ كَمَا يُعَالَى
عَلَى الْحَائِطِ وَمِنْ صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ مَا يَرْجِعُ إِلَى التَّشْيِيقِ وَالتَّزْيِينِ كَمَا يُصْنَعُ مِنْ فَوْقِ
الْحِيطَانِ الْأَشْكَالُ الْجَسْمَةُ مِنَ الْحِجْصِ يُخَمَّرُ بِالْمَاءِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَسَدًا وَفِيهِ بَقِيَّةُ
الْبَلَلِ فَيُشَكَّلُ عَلَى التَّنَاسُبِ تَخَرِيْمًا بِمِثَاقِبِ الْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ رَوْنَقٌ وَرُؤَاةٌ
وَرُبَّمَا عُولِي عَلَى الْحِيطَانِ أَيْضًا يَقِطَعُ الرِّخَامَ وَالْأَجْرَ وَالْخَرْفَ أَوْ بِالصَّدَفِ أَوْ
السَّبَجِ يُفَصِّلُ أَجْزَاءَ مُتَجَانِسَةٍ أَوْ مُخْتَلَفَةٍ وَتُوضَعُ فِي الْكِلْسِ عَلَى نِسْبٍ وَأَوْضَاعٍ
مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَدُوبُهُ الْحَائِطُ لِلْعِيَانِ كَأَنَّهُ قِطْعُ الرِّبَاضِ الْمُنْمِنَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِنْ بِنَاءِ الْجِبَابِ وَالصَّهَارِيجِ لِسَفْحِ الْمَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي الْبُيُوتِ قِصَاعُ الرِّخَامِ الْقَوَارِ
الْمُحْكَمَةُ الْخَرْطُ بِالْفُوهَاتِ فِي وَسْطِهَا لِنَبْعِ الْمَاءِ الْجَارِي إِلَى الصَّهْرِيجِ يُجْلِبُ إِلَيْهِ مِنْ
خَارِجِ الْقَنَوَاتِ الْمُقْضِيَةِ إِلَى الْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِنَاءِ وَتُخْتَلِفُ الصَّنَاعَةُ فِي
جَمِيعِ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْحَذَقِ وَالْبَصَرِ وَيَعْظُمُ عُمُرَانُ الْمَدِينَةِ وَيَتَسَّعُ فَيَكْثُرُونَ وَرُبَّمَا
يَرْجِعُ الْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِ هَؤُلَاءِ فِيمَا هُمْ أَبْصَرُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْبِنَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ
فِي الْمَدْنِ لِكَثْرَةِ الْأَزْدِحَامِ وَالْعُمُرَانِ يَتَشَاخُونَ حَتَّى فِي الْفَضَاءِ وَالْهَوَاءِ الْأَعْلَى

وَالْأَسْفَلَ وَمِنَ الِاتِّفَاعِ بظَاهِرِ الْبِنَاءِ مِمَّا يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ الْفَرَرِ فِي الْخَيْطَانِ قَبْلَ مَنَعِ جَارِهِ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضًا فِي اسْتِحْقَاقِ الطَّرُقِ وَالْمَنَافِدِ لِلْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَالْتَصْلَاتِ الْمُسَرَّبَةِ فِي الْقَنَوَاتِ وَرُبَّمَا يَدْعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَاطِطِهِ أَوْ عُلُوِّهِ أَوْ قَنَاتِهِ لِتَضَائِقِ الْجَوَارِ أَوْ يَدْعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ اخْتِلَالَ حَاطِطِهِ خَشْيَةً سَقُوطِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهَدْمِهِ وَدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى قِسْمَةِ دَارٍ أَوْ عَرَصَةٍ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مَعَهَا فُسَادٌ فِي الدَّارِ وَلَا إِهْمَالٌ لِمَنْفَعَتِهَا وَأَمثالُ ذَلِكَ وَيَخْتَفِي جَمِيعُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْبَصَرِ الْعَارِفِينَ بِالْبِنَاءِ وَأَخْوَالِهِ الْمُسْتَدِلِّينَ عَلَيْهَا بِالْمَعَانِدِ وَالْقُمُطِ وَمَرَاكِزِ الْخَشَبِ وَمِثْلِ الْخَيْطَانِ وَاعْتِدَالِهَا وَقِسْمِ الْمَسَاكِنِ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِيبِ الْمِيَاهِ فِي الْقَنَوَاتِ تَجْلُوبَةً وَمَرْفُوعَةً بِحَيْثُ لَا تُضَرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْخَيْطَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَهُمْ بِهَذَا كُلِّهِ الْبَصَرُ وَالْمُهَيِّزَةُ الَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُونَ بِالْجُودَةِ وَالْقُصُورِ فِي الْأَجْيَالِ بِاعْتِبَارِ الدُّوَلِ وَقُوَّتِهَا فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ وَكَمَالَهَا إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ الْحَضَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الطَّالِبِ لَهَا فَلِذَلِكَ عِنْدَ مَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ بَدْوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَقْتَرِفُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قُطْرٍ مَا كَمَا وَقَعَ لِلْوَلِيدِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَالْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ بِالشَّامِ فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي الْفَعْلَةِ الْمَهْرَةَ فِي الْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَنْ حَصَلَ لَهُ غَرَضُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَشْيَاءَ مِنَ الْهَنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ الْخَيْطَانِ بِالْوِزْنِ وَإِجْرَاءِ الْمِيَاهِ بِأَخْذِ الِاتِّفَاعِ وَأَمثالِ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى الْبَصَرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ وَكَذَلِكَ فِي جَرِّ الْأَثْقَالِ بِالْهَنْدَامِ فَإِنَّ الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ إِذَا شِيدَتْ بِالْحِجَارَةِ الْكَبِيرَةِ يَعْجُزُ قُدْرُ الْفَعْلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الْحَاطِطِ فَيَتَحِيلُ لِذَلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحِجْلِ بِإِدْخَالِهِ فِي الْمَعَالِقِ مِنْ أَثْقَابٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسْبِ هَنْدَسِيَّةٍ تُصَيِّرُ الثَّقِيلَ عِنْدَ مُعَانَاةِ الرَّفْعِ خَفِيفًا فَيَتِمُّ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ بِغَيْرِ لَفَةٍ وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأَصُولِ هَنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوِلَةٍ بَيْنَ الْبَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ الْهَيْأِ كُلِّ الْمَائِلَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّتِي يُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّ أَبْدَانَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي الْعَظَمِ الْجِسْمَانِيِّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْحِيلِ الْهَنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْتَاهُ فَتَفْهَمُ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للإنسان في كل مكنون من المكنونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا يتحصر بما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا بنيت وأول منافعها أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للإسكاء والدود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائهم لما يغشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد لحياضهم والحدوج لطعائهم والرماح والقيسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر فالتفت لببوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشب مادة لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة المشكولة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فباحتاج صاحبها إلى تنصيل الخشب أولاً إما بمخشب أصفر منه أو الزاج ثم تركب تلك التفاصيل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يعاين بصنعه إعداد تلك التفاصيل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء ذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ما عاون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الأبواب والكراسي ومثل تهئية القطع من الخشب بصناعة الخراط بمحكم برزها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم باللسائر فتبدو لأي العين متحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجئ أنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدمر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الخوت واعتبار سنجيه في الماء بقواديه وكل ذلك الشكلى أعون

لَهَا فِي مُصَادَمَةِ الْمَاءِ وَجَمَلٍ لَهَا عَوْضَ الْحَرَكََةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي لِلشَّمَكِ تَحْرِيكَ الرِّيحِ
وَرُبَّمَا أُعِينَتْ بِحَرَكََةِ الْمَقَازِيفِ كَمَا فِي الْأَسَاطِيلِ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ أَصْلَابِ مُتَحَاجَةٍ
إِلَى أَصْلِ كَبِيرٍ مِنَ الْمُنْدَسَةِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِهَا لِأَنَّ إِخْرَاجَ الصُّورِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ
عَلَى وَجْهِ الْأَحْكَامِ مُتَحَاجٌ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّنَاسُبِ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا عُمُومًا أَوْ خُصُوصًا
وَتَنَاسُبُ الْمَقَادِيرِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى الْمُهَنْدِسِ وَلِهَذَا كَانَتْ أَيْمَةُ الْمُنْدَسَةِ
الْيُونَانِيُّونَ كُلُّهُمْ أَيْمَةً فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَكَانَ أَوْفَلِيدُوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْأُصُولِ فِي
الْمُنْدَسَةِ نَجَّارًا وَبِهَا كَانَ يُعْرَفُ وَكَذَلِكَ أَبُلُونِيوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْخَرْطُوطِ وَمِيلَاوُسُ
وغيرُهُمْ وَفِيمَا يُقَالُ أَنَّ مُعَلِّمَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الْخَلِيقَةِ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهَا أَنْشَأَ
سَفِينَةَ النِّجَاةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا مُجِزَتُهُ عِنْدَ الطُّوفَانِ وَمِمَّا أَخْبَرُوا أَنَّ كَلَّ مُسْكِنًا أَغْنَى
كَوْنَهُ نَجَّارًا إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُ أَوَّلَ مَنْ عَلَّمَهَا أَوْ تَعَلَّمَهَا لَا يَقُومُ دَلِيلٌ مِنَ النُّقْلِ عَلَيْهِ لِجِدِّ
الْأَمَادِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِلَّا شَارَةً إِلَى قِدَمِ النِّجَارَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ حِكَايَةُ عَنْهَا
قَبْلَ خَبَرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فُجِعِلَ كَانَهُ أَوَّلُ مَنْ تَعَلَّمَهَا فَتَفَهَّمُ أَسْرَارَ الصَّنَائِعِ فِي
الْخَلِيقَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

هَاتَانِ الصَّنَاعَتَانِ ضَرُورَتَانِ فِي الْعُمُرَانِ لِمَا يَتَحَاجُّ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الرِّفَةِ فَالْأُولَى
إِتْسَاجُ الْغَزْلِ مِنَ الصُّوفِ وَالْكُتَّانِ وَالْقُطْنِ إِسْدَاءُ فِي الطُّولِ وَالْحَمَامَا فِي الْعَرْضِ
لِذَلِكَ النَّسْجُ بِالْإِتِّحَامِ الشَّدِيدِ فَيَتِمُّ مِنْهَا قِطْعٌ مُقَدَّرَةٌ فَيُنَاقِشُهَا الْأَكْسِيَّةُ مِنَ الصُّوفِ
لِلْأَشْيَالِ وَمِنْهَا الثِّيَابُ مِنَ الْقُطْنِ وَالْكُتَّانِ لِلْبَاسِ وَالصَّنَاعَةُ الثَّانِيَةُ لِتَقْدِيرِ الْمَنْسُوجَاتِ
عَلَى اخْتِلَافِ الْأَشْكَالِ وَالْعَوَائِدِ تُفَصَّلُ بِالْمِقْرَاضِ قِطْعًا مُنَاسِبَةً لِلْأَعْضَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ
تُلْحَمُ تِلْكَ الْقِطْعُ بِالْخِيَاطَةِ الْمُحْكَمَةِ وَضَلًّا أَوْ تَنْبِيْثًا أَوْ تَقْسُحًا عَلَى حَسَبِ نَوْعِ
الصَّنَاعَةِ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْعُمُرَانِ الْحَضَرِيِّ لِمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ يَسْتَعْمِلُونَ عَنْهَا
وَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُونَ الْأَنْثَوَابَ أَشْيَالًا وَإِنَّمَا تَفْصِيلُ الثِّيَابِ وَتَقْدِيرُهَا وَالْحَمَامَا بِالْخِيَاطَةِ
لِلْبَاسِ مِنْ مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَفُنُونِهَا وَتَفَهَّمُ هَذِهِ فِي سِرِّ تَعْرِيمِ الْخِيَطِ فِي الْحَجِّ لِمَا
أَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْحَجِّ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَبَذِ الْعَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ كُلِّهَا وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

كَمَا خَلَقْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ حَتَّى لَا يُعَلِّقَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِ لَا طِيبًا وَلَا نِسَاءً
وَلَا مَخِيطًا وَلَا خِفًا وَلَا يَتَعَرَّضُ لِصَيْدٍ وَلَا لَشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا نَفْسُهُ وَخُلِقَهُ
مَعَ أَنَّهُ يَفْقَدُ مَا بِالْمَوْتِ ضَرُورَةٌ وَإِنَّمَا يَجْعَلُ كَأَنَّهُ وَارِدٌ إِلَى الْحَشْرِ ضَارِعًا بِقَلْبِهِ مُخْلِصًا
لِرَبِّهِ وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلَاصُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ
سُبْحَانَكَ مَا أَرْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ . وَهَاتَانِ الصَّنَعَتَانِ
قَدِيمَتَانِ فِي الْخَلْقَةِ لِمَا أَنَّ الدِّفْءَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ فِي التَّمَرُّنِ الْمُعْتَدِلِ وَأَمَّا الْمُخْرِفُ
إِلَى الْحَرِّ فَلَا يَحْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دِفْءٍ وَلِهَذَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّودَانِ
أَنَّهُمْ عُرَاةٌ فِي الْغَالِبِ وَلِقَدِمَ هَذِهِ الصَّنَائِعُ بِنَسَبِهَا الْعَامَّةُ إِلَى أَدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَهُوَ أَقْدَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَرُبَّمَا يَنْسَبُونَهَا إِلَى هَرِمِسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَرِمِسَ هُوَ أَدْرِيسُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

المصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُعْرَفُ بِهَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَوْلُودِ الْأَدَمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنَ
الرِّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَنَهْيَةِ أَسْبَابِ ذَلِكَ ثُمَّ مَا يُصْلِحُهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ عَلَى مَا
نَذَكَّرُ وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالنِّسَاءِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ لِمَا أَنَّهُنَّ الظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى عَوَرَاتٍ
بَعْضٌ وَتُسَمَّى الْقَائِمَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُنَّ الْقَائِلَةُ اسْتَعِيرَ فِيهَا مَعْنَى الْإِعْطَاءِ وَالْقَبُولِ
كَأَنَّ النِّسَاءَ تُعْطِيهَا الْجَنِينَ وَكَأَنَهَا تَقْبَلُهُ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا اسْتَكْمَلَ خَلْقُهُ
فِي الرَّحِمِ وَأَطْوَارُهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَالْمُدَّةُ الَّتِي قَدَرَهَا اللَّهُ لِمَكْنِهِ هِيَ تِسْعَةٌ
أَشْهُرٍ فِي الْغَالِبِ فَيَطْلُبُ الْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي الْمَوْلُودِ مِنَ التَّزْوِجِ لِذَلِكَ وَيَضِيقُ
عَلَيْهِ الْمَنَفَذُ فَيَعْسُرُ وَرُبَّمَا مَزَّقَ بَعْضُ جَوَانِبِ الْفَرْجِ بِالضَّغْطِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ بَعْضُ
مَا كَانَ مِنَ الْأَغْشِيَةِ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَالْإِلْتِحَامِ بِالرَّحِمِ وَهَذِهِ كُلُّهَا آلَامٌ يَشْتَدُّ
بِهَا الْوَجَعُ وَهُوَ مَعْنَى الطَّلُوقِ فَتَكُونُ الْقَائِلَةُ مُعِينَةً فِي ذَلِكَ بَعْضُ الشَّيْءِ بِغَمَزِ الظَّهْرِ
وَالْتَوَرِّكِينِ وَمَا يُحَاذِي الرَّحِمَ مِنَ الْأَسَافِلِ تُسَاقُ بِذَلِكَ فِعْلَ الدَّافِعَةِ فِي إِخْرَاجِ الْجَنِينَ
وَتَسْهِيلِ مَا يَصْعُبُ مِنْهُ بِمَا يُمَكِّنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرَةِ ثُمَّ إِنْ أُخْرِجَ الْجَنِينَ
بَقِيَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحِمِ الْوَصْلَةُ حَيْثُ كَانَ يَتَغَدَّى مِنْهَا مُتَّصِلَةً مِنْ مَرَّتِهِ بِمَعَاهُ وَتِلْكَ

الْوَصْلَةُ عَضْوُ فَضْلِي لِتَغْدِيَةِ الْمَوْلُودِ خَاصَّةً فَتَقْطَعُهَا الْقَابِلَةُ مِنْ حَيْثُ لَا تَتَعَدَّى مَكَانَ
 الْفَضْلَةِ وَلَا تُضِرُّ بِمِعَاةٍ وَلَا بِرَحِمِ أُمِّهِ ثُمَّ تَدْمِلُ مَكَانَ الْجِرَاحَةِ مِنْهُ بِالْكَيِّ أَوْ بِمَا
 تَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ الْإِنْدِمَالِ ثُمَّ إِنَّ الْجَنِينَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْفَذِ الْفَيْقِ وَهُوَ رَطْبُ
 الْعِظَامِ مَسْهُلُ الْإِنْعِطَافِ وَالْإِنْشَاءِ قُرْبَمَا لَتَغْيَرُ أَشْكَالُ أَعْضَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا لِقُرْبِ
 التَّكْوِينِ وَرُطُوبَةِ الْمَوَادِّ فَتَتَنَاوَلُهُ الْقَابِلَةُ بِالْعَمَزِ وَالْإِصْلَاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَضْوٍ إِلَى
 شَكْلِهِ الطَّبِيعِيِّ وَوَضْعِهِ الْمَقْدَرِ لَهُ وَيَرْتَدُّ خَلْقُهُ سَوِيًّا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُرَاجِعُ النُّفْسَاءُ
 وَتُعَاذِيهَا بِالْعَمَزِ وَالْمَلَايَنَةِ بِخُرُوجِ أَغْشِيَةِ الْجَنِينَ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَتَأَخَّرُ عَنْ خُرُوجِهِ قَلِيلًا
 وَيُخْشَى عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْمَاسِكَةَ حَالًا الطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اكْتِمَالِ خُرُوجِ الْأَغْشِيَةِ
 وَهِيَ فَضْلَاتٌ فَتُعَفِّدُ وَيَسْبِي عَفْنًا إِلَى الْإِجْمَاعِ فَتَقَعُ الْمَلَائِكَةُ فَتُعَاذِرُ الْقَابِلَةَ هَذَا وَتُعَاوِلُ
 فِي إِعَانَةِ الدَّفْعِ إِلَى أَنْ تَخْرُجَ تِلْكَ الْأَغْشِيَةُ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَخَّرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْمَوْلُودِ
 فَتُفْرَخُ أَعْضَاءُهُ بِالْأَذْهَانِ وَالذُّرُورَاتِ الْقَابِضَةِ لِشِدَّةِ وَتُخَفَّفُ رُطُوبَاتُ الرَّحِمِ
 وَتُخَفَّفُ لِرَفْعِ لَهَا تَهٍ وَتُسَعِّطُ لِاسْتِفْرَاحِ نُطُوفِ دِمَاجِهِ وَتُفْرَغُهُ بِاللَّعُوقِ لِدَفْعِ السَّدِّ
 مِنْ مِعَاةٍ وَتَجْوِيفِهَا عَنِ الْإِلْتِصَاقِ ثُمَّ تُدَاوِي النُّفْسَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَمَنِ الَّذِي أَصَابَهَا
 بِالطَّلَقِ وَمَا لِحَقِّ رَحِمِهَا مِنَ أَلَمِ الْإِنْفِصَالِ إِذَا الْمَوْلُودُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَضْوًا طَبِيعِيًّا فَحَالَةً
 التَّكْوِينِ فِي الرَّحِمِ صَبْرَتُهُ بِالْإِلْتِمَاعِ كَالْعَضْوِ الْمُتَّصِلِ فَلِذَلِكَ كَانَ فِي انْفِصَالِهِ أَلَمٌ
 يَقْرُبُ مِنْ أَلَمِ الْقَطْعِ وَتُدَاوِي مَعَ ذَلِكَ مَا يَلْحَقُ الْفَرْجَ مِنَ أَلَمٍ مِنْ جِرَاحَةِ التَّمْزِيقِ
 عِنْدَ الضَّغْطِ فِي الْخُرُوجِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءُ نَجْدٍ هَؤُلَاءِ الْقَوَائِلُ أَبْصَرَ بِدَوَائِهَا وَكَذَلِكَ
 مَا يَعْزُضُ لِلْمَوْلُودِ مَدَّةَ الرِّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلَى حِينِ الْفِصَالِ نَجْدُهُنَّ أَبْصَرَ بِهَا
 مِنَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنُ إِنْسَانِيٍّ
 بِالْقُوَّةِ فَقَطْ فَإِذَا جَاوَزَ الْفِصَالَ صَارَ بَدَنًا إِنْسَانِيًّا بِالْقُوَّةِ فَكَانَتْ حَاجَتُهُ حِينَئِذٍ إِلَى الطَّبِيبِ
 أَشَدَّ مِنْهُ الصَّنَاعَةِ كَمَا تَرَاهُ ضَبُورِيَّةً فِي الْعُمَرَانِ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ لَا يَتِمُّ كَوْنُ
 أَشْخَاصِهِ فِي الْغَالِبِ دُونَهَا وَقَدْ يَعْزُضُ لِبَعْضِ أَشْخَاصِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ عَنِ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ إِمَّا بِمَخْلَقِ اللَّهِ ذَلِكَ لَهُمْ مُعْجَزَةٌ وَخَرَقًا لِلْعَادَةِ كَمَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ
 اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَوْ بِالْإِلْهَامِ وَهِدَايَةِ إِلَهُهُمْ لَهَا الْمَوْلُودُ وَيُفْطَرُ عَلَيْهَا فَيَتِمُّ وَجُودُهُمْ
 مِنْ دُونِ عِلْمِهِ الصَّنَاعَةِ فَأَمَّا شَأْنُ الْمُعْجَزَةِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَ كَثِيرًا وَمِنْهُ مَا رَوِيَ أَنَّ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَدَ مَسْرُورًا مَخْتُونًا وَاضْعًا يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ
إِلَى السَّمَاءِ وَكَذَلِكَ شَأْنُ عَيْسَى فِي الْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَأَمَّا شَأْنُ الْإِلَهَامِ فَلَا يُنْكَرُ
وَإِذَا كَانَتِ الْحَيَوَانَاتُ الْعَجْمُ تُخْتَصُّ بِغَرَائِبِ الْإِلَهَامَاتِ كَالنَّحْلِ وَغَيْرِهَا فَمَا ظَنُّكَ
بِالْإِنْسَانِ الْمَفْضَلِ عَلَيْهَا وَخُصُّوَصًا بِمَنْ اخْتَصَّ بِكَرَامَةِ اللَّهِ ثُمَّ الْإِلَهَامُ الْعَامُّ
لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْأَقْبَالِ عَلَى الَّذِي أَوْضَحَّ شَاهِدٌ عَلَى وُجُودِ الْإِلَهَامِ الْعَامِّ لَهُمْ فَشَأْنُ
الْعَنَاءِ الْإِلَهِيِّ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَحَاطَ بِهِ وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ بُطْلَانُ رَأْيِ الْقَارِئِي وَحُكْمَاءِ
الْأَنْدَلُسِ فِيهِمَا اخْتَعُوا بِهِ لِعَدَمِ انْقِصَاضِ الْأَنْوَاعِ وَاسْتِحْصَالِ انْقِطَاعِ الْمَكُونَاتِ
وخصوصًا فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ وَقَالُوا أَوْ انْقَطَعَتْ اشْتَغَاظُهُ لِمُسْتَحَالِ وُجُودِهَا بَعْدَ ذَلِكَ
اِتِّمُوتُهُ عَلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي لَا يَتِمُّ تَوَنُّ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا إِذْ لَوْ قَدَرْنَا مَوْلُودًا دُونَ
هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكَفَّالَتَهَا إِلَى حِينِ الْفَصَالِ لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَصْلًا وَوُجُودُ الصَّنَائِعِ دُونَ
الْفِكْرِ مُسْتَعْتَبٌ لِأَنَّهَا تَمُرُّهُ وَتَابِيَهُ لَهُ وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينَا فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ مُخَالَفَتَهُ
إِبَّاهُ وَذَهَابُهُ إِلَى إِمْكَانِ انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ التَّكْوِينِ ثُمَّ عَوْدُهُ ثَانِيًا
لِاِقْتِضَاءَاتِ فَلَكِيَّةٍ وَأَوْضَاعِ غَرِيبَةٍ تَنْدُرُ فِي الْأَحْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَغْيِيرَ طَبِئَةٍ مُنَاسِبَةٍ
لِمِزَاجِهِ بِمِجْرَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إِنْسَانًا ثُمَّ يَقْبِضُ لَهُ حَيَوَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ إِلَهَامًا لِتَرْبِيَتِهِ
وَالْحَنُورِ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَجُودُهُ وَفَصَالُهُ وَأَطْنَبَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي سَمَّاهَا
رِسَالَةً حَتَّى بَنَى بِقِظَانٍ وَهَذَا الْأَسْتِدْلَالُ غَيْرُ مُصَحِّحٍ وَإِنْ كُنَّا نُوَافِقُهُ عَلَى انْقِطَاعِ
الْأَنْوَاعِ لَكِنْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ فَإِنَّ دَلِيلَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ الْأَنْعَامِ إِلَى الْعِلَّةِ
الْمُوجِبَةِ وَدَلِيلُ الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَاسِطَةً عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ
بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْقُدْرَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا الْمَكْلُفِ ثُمَّ لَوْ سَلَّمْنَاهُ جَدًّا لَفَنَاءَهُ
مَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ أَطْرَادُ وَجُودِ هَذَا الشَّخْصِ بِخَلْقِ الْإِلَهَامِ لِتَرْبِيَتِهِ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ وَمَا
الْفَرُورَةُ الدَّاعِيَةُ لِذَلِكَ وَإِذَا كَانَ الْإِلَهَامُ يُخْلَقُ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ فَمَا الْمَانِعُ مِنْ
خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا فَرَّزْنَاهُ أَوَّلًا وَخَلَقُ الْإِلَهَامِ فِي شَخْصٍ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ
خَلْقِهِ فِيهِ لِمَصَالِحِ غَيْرِهِ فَكَلَّا الْمَذْهَبَيْنِ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالْبُطْلَانِ فِي مَنَاجِيهِمَا
لِمَا فَرَّزْنَاهُ لَكَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية
هذه الصناعات ضرورية في المدن والامصار لما عرفت من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة
للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالدواوي حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم وأعلم
أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث
الجامع للطبيب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء
البرودة فأما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الدواء فالحمية
الجوع وهو الاختباء من الطعام والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل
الدوية وأما قوله أصل كل داء البرودة فمعنى البرودة إدخال الطعام على الطعام
في المعدة قبل أن يتم هضم الأول وسرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ
حياته بالغذاء يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى المأخضة والغاذية إلى أن يصير دماً
ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذه النامية فيقلب لحماً وعظماً ومعنى
الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير جزءاً بالفعل من
البدن وتفسيره أن الغذاء إذا حصل في الفم ولا كنهه الأشدق أثرت فيه حرارة
الفم طبخاً يسيراً وقلبت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة إذا تناولتها طعاماً
ثم أجدتها مضغاً فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يعصل في المعدة فتطبخه حرارة
المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله إلى الكبد وترسل
ما رتب منه في المعى ثقلًا ينفذ إلى الخراجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك
الكيموس إلى أن يصير عيطاً وتنفو عليه رغوة من الطبخ في الصفراء وترتب
منه أجزاء يابسة هي السوداء وتقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه
فهو البلغم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول وتأخذها طبخ الحال
الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني
وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لحماً ثم غليظه نظاماً ثم يرسل البدن ما
يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق والأعاب والخطاط والدغ هذه
صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحماً ثم إن أصل الأمراض ومُعظمها هي

الْحُمَيَّاتُ وَسَبَبُهَا أَنَّ الْحَارَ الْغَرِيظِيَّ قَدْ يَضَعُ عَنْ تَمَامِ النَّضْجِ فِي طَبْعِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ
 مِنْ هَذِهِ فَيَبْقَى ذَلِكَ الْغِذَاءُ دُونَ نَضْجِهِ وَسَبَبُهُ غَالِبًا كَثْرَةُ الْغِذَاءِ فِي الْمَعِدَةِ حَتَّى
 يَكُونَ أَغْلَبَ عَلَى الْحَارِ الْغَرِيظِيَّ أَوْ إِدْخَالُ الطَّعَامِ إِلَى الْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفِيَ طَبْعُ
 الْأَوَّلِ فَيَسْتَقِلُّ بِهِ الْحَارُ الْغَرِيظِيُّ وَيُتْرَكُ الْأَوَّلُ بِحَالِهِ أَوْ يَتَوَزَّعُ عَلَيْهِمَا فَيَقْصُرُ عَنْ
 تَمَامِ الطَّبْعِ وَالنَّضْجِ وَتُرْسِلُهُ الْمَعِدَةُ كَذَلِكَ إِلَى الْكَبِدِ فَلَا تَقْوَى حَرَارَةُ الْكَبِدِ
 أَيْضًا عَلَى إِنْضَاجِهِ وَرُبَّمَا بَقِيَ فِي الْكَبِدِ مِنَ الْغِذَاءِ الْأَوَّلِ فَضْلَةٌ غَيْرُ نَاضِجَةٍ وَتُرْسِلُ
 الْكَبِدُ جَمِيعَ ذَلِكَ إِلَى الْعُرُوقِ غَيْرِ نَاضِجٍ كَمَا هُوَ فَإِذَا أَخَذَ الْبَدَنُ حَاجَتَهُ الْمَلَأِيْمَةَ
 أَرْسَلَهُ مَعَ الْفَصَلَاتِ الْأُخْرَى مِنَ الْعَرَقِ وَالْدَّمِ وَاللُّعَابِ إِنْ اقْتَدَرَ عَلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا
 يَعْجِزُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنْهُ فَيَبْقَى فِي الْعُرُوقِ وَالْكَبِدِ وَالسَّعِدَةِ وَتَتَزَايِدُ مَعَ الْأَيَّامِ وَكُلُّ
 ذِي رُطُوبَةٍ مِنَ الْمُسْتَرْجَاتِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ الطَّبْعُ وَالنَّضْجُ يَغْنَمُ فَيَتَعَفَّنُ ذَلِكَ الْغِذَاءُ
 غَيْرُ النَّاضِجِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْخِلَاطِ وَكُلُّ مُتَعَفِّنٍ فِيهِ حَرَارَةٌ غَرِيْبَةٌ وَتِلْكَ هِيَ الْمُسَمَّاةُ فِي
 بَدَنِ الْإِنْسَانِ بِالْحُمَى وَاخْتَبِرْ ذَلِكَ بِالطَّعَامِ إِذَا تُرِكَ حَتَّى يَتَعَفَّنَ وَفِي الزَّبَلِ إِذَا
 تَعَفَّنَ أَيْضًا كَيْفَ تَتَبَعُ فِيهِ الْحَرَارَةُ وَتَأْخُذُ مَا خَذَهَا فَهَذَا مَعْنَى الْحُمَيَّاتِ فِي الْإِبْدَانِ
 وَفِي رَأْسِ الْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَهَذِهِ الْحُمَيَّاتُ عِلَاجُهَا بِقَطْعِ الْغِذَاءِ
 عَنِ الْمَرِيضِ أَسَابِيعَ مَعْلُومَةٍ ثُمَّ يَتَنَاوَلُ الْأَنْذِيَّةَ الْمَلَأِيْمَةَ حَتَّى يَتِمَّ بَرُؤُهُ وَذَلِكَ فِي
 حَالِ الصِّحَّةِ عِلَاجٌ فِي التَّحْفِظِ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يَكُونُ
 ذَلِكَ الْعَفْنُ فِي عَضْوٍ مَخْصُوصٍ فَيَتَوَلَّدُ عَنْهُ مَرَضٌ فِي ذَلِكَ الْعَضْوِ وَيَعْدُ جِرَاحَاتٌ فِي
 الْبَدَنِ إِمَّا فِي الْأَعْضَاءِ الرَّئِيسِيَّةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا وَقَدْ يَمْرُضُ الْعَضْوُ وَيَعْدُ عَنْهُ مَرَضٌ
 الْقَوَى الْمَوْجُودَةُ لَهُ هَذِهِ كَلَامًا جُمَاعُ الْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهَا فِي الْغَالِبِ مِنَ الْأَغْذِيَّةِ وَهَذَا
 كُلُّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى الطَّبِيبِ وَوُقُوعُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ فِي أَهْلِ الْخَصْرِ وَالْأَمْصَارِ أَكْثَرُ
 لِيَصْبَ عَيْنُهُمْ وَكَثْرَةُ مَا كُلُّهُمْ وَفَلَّةٌ أَقْصَلَرِمٌ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَغْذِيَّةِ وَعَدَمُ
 تَوَقُّفِهِمْ لِتَنَاوُلِهَا وَكَثِيرًا مَا يَخْلِطُونَ بِالْأَغْذِيَّةِ مِنَ التَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ وَالْفَوَاحِ رَطْبًا وَيَابِسًا
 فِي سَائِلِ الْعِلَاجِ بِالطَّبْعِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى نَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ فَرُبَّمَا عَدَدْنَا فِي
 الْيَوْمِ الْوَاحِدِ مِنَ الْأَوَانِ الطَّبْعِ أَرْبَعِينَ نَوْمًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ فَيَصِيرُ لِلْغِذَاءِ مَزَاجٌ
 غَرِيبٌ وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا عَنْ مُلَاقَةِ الْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ ثُمَّ إِنْ الْأَهْرِيَّةُ فِي الْأَمْصَارِ

تَسُدُّ بِمُخَالَطَةِ الْأُبْغَرَةِ الْعَنَنَةَ مِنْ كَثَرَةِ الْفَضَلَاتِ وَالْأَهْوِيَةِ مُنْشِطَةً لِلْأَرْوَاحِ وَمُقَوِّبَةً
بِنَشَاطِهَا الْأَثَرَ الْحَارَّ الْغَرِيْزِيَّ فِي الْمَضْمِ ثُمَّ الرِّبَاضَةُ مَفْقُودَةٌ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذْ هُمْ
فِي الْغَالِبِ وَادِعُونَ سَاكِنُونَ لَا تَأْخُذُ مِنْهُمْ الرِّبَاضَةُ شَيْئًا وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ أَثَرًا فَكَانَ
وُقُوعُ الْأَمْرَاضِ كَثِيرًا فِي الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَعَلَى قَدَرِ وَقْعِهِ كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَى هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَمَّا كَوَّلَهُمْ قَلِيلٌ فِي الْغَالِبِ وَالْجُوعُ أَغْلَبَ عَلَيْهِمْ لِقَلَّةِ الْحُبُوبِ
حَتَّى صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ عَادَةً وَرُبَّمَا يُظَنُّ أَنَّهَا جَبِلَةٌ لِأَسْتِعْرَازِهَا ثُمَّ الْأَدَمُ قَلِيلَةٌ لَهُمْ
أَوْ مَفْقُودَةٌ بِالْجُمْلَةِ وَعِلَاجُ الطَّبِخِ بِالتَّوَابِلِ وَالْفَوَاكِهِ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى تَرْفِ الْخِصَارَةِ
الَّذِينَ هُمْ بِمَعَزَلٍ عَنْهُ فَيَتَنَاوَلُونَ أَغْذِيَّتَهُمْ بَسِيطَةً بَعِيدَةً عَمَّا يُخَالِطُهَا وَيَقْرَبُ مَزَاجَهَا
مِنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ وَأَمَّا أَهْوِيَّتُهُمْ فَقَلِيلَةُ الْعَفَنِ لِقَلَّةِ الرُّطُوبَاتِ وَالْعَفُونَاتِ إِنْ كَانُوا
ظَوَاعِنَ ثُمَّ إِنْ الرِّبَاضَةُ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ لِكَثَرَةِ الْحَرَكَةِ فِي رَكْضِ الْخَيْلِ أَوْ الصَّيْدِ أَوْ
طَلَبِ الْحَاجَاتِ لِحِمَّتِهِمْ أَنْفُسِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ فَيَحْتَسُنُ بِذَلِكَ كُلُّهُ الْمَضْمُ وَيَجُودُ وَيُقَقَّدُ
إِذَا خَالَ الطَّعَامُ عَلَى الطَّعَامِ فَتَكُونُ أَمْرَجَتُهُمْ أَصْلَحَ وَأَبْعَدَ مِنَ الْأَمْرَاضِ فَتَقِلُّ حَاجَتُهُمْ
إِلَى الطَّبِّ وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ الطَّبِيبُ فِي الْبَادِيَةِ يَوْجُهُ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ إِذْ
لَوْ أَحْتِيجَ إِلَيْهِ لَوُجِدَ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ فِي الْبَدْوِ مَعَاشٌ يَدْعُوهُ إِلَى سُكْنَاهُ سُنَّةُ اللَّهِ
فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

الفصل الثلاثون

فِي أَنَّ الْخَطَّ وَالْكِتَابَةَ مِنْ عِدَادِ الصَّنَائِعِ الْإِنْسَانِيَةِ
وَهُوَ زُسُومٌ وَأَشْكَالٌ حَرْفِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْمَسْمُوعَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى مَا فِي النَّفْسِ
فَهُوَ ثَانِي رُتْبَةٍ مِنَ الدَّلَالَةِ الْلُغَوِيَّةِ وَهُوَ صَاعَةٌ شَرِيفَةٌ إِذِ الْكِتَابَةُ مِنْ خَوَاصِّ الْإِنْسَانِ
الَّتِي يُعَازِ بِهَا عَنِ الْحَيَوَانِ وَأَيْضًا فَهِيَ تُطْلَعُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ وَتُنَادِي بِهَا الْأَغْرَاضُ
إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ فَتَمْتَصِّي الْحَاجَاتِ وَقَدْ دَفَعَتْ مَوْنَةَ الْمُسَاشَرَةِ لَهَا وَيُطْلَعُ بِهَا عَلَى الْعُلُومِ
وَالْمَعَارِفِ وَصُحُفِ الْأَوَّلِينَ وَمَا كَتَبُوهُ مِنْ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ فَهِيَ شَرِيفَةٌ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ
وَالْمَنَافِعِ وَخُرُوجُهَا فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّعْلِيمِ وَعَلَى قَدَرِ
الْاجْتِمَاعِ وَالْعُمُرَانِ وَالتَّنَاقُغِي فِي الْكَمَالَاتِ وَالطَّلَبِ لِذَلِكَ تَكُونُ جُودَةُ الْخَطِّ فِي
الْمَدِينَةِ إِذْ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا شَأْنُهَا وَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْعُمُرَانِ وَلِهَذَا

نَجِدُ أَكْثَرَ الْبَدْوِ أَمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ وَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ أَوْ كَتَبَ فَيَكُونُ
خَطُّهُ قَاصِرًا أَوْ قَرَأَتْهُ غَيْرَ نَافِذَةٍ وَنَجِدُ تَعْلِيمَ الْخَطِّ فِي الْأَمْصَارِ الْخَارِجِ عُمُرَانَهَا عَنْ
الْحَدِّ أَبْلَغَ وَأَحْسَنَ وَأَسْهَلَ طَرِيقًا لِاسْتِحْكَامِ الصَّنْعَةِ فِيهَا تَعَالَى نَحْنُ عَنْ مِصْرَ
لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَنَّ بِهَا مُعَلِّمِينَ مُنْتَصِبِينَ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ يَقُومُونَ عَلَى التَّعْلِيمِ قَوَائِينَ وَأَحْكَامًا
فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمُبَاشَرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِهِ فَتَعْتَصِدُ لَدَيْهِ رُتْبَةُ الْعِلْمِ
وَالْحُسْنُ فِي التَّعْلِيمِ وَتَأْتِي مَلَكَتُهُ عَلَى أَتَمِّ الْوَجْرِ وَإِنَّمَا أَتَى هَذَا مِنْ كَمَالِ الصَّنَائِعِ
وَوُفُورِهَا بِكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ وَاتِّسَاحِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ كَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ بَالِغًا مَبَالِغَهُ
مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ وَالْجُودَةِ فِي دَوْلَةِ التَّبَاعِيَةِ بِمَا بَلَّغَتْ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالتَّرَفِ وَهُوَ
الْمُسَمَّى بِالْخَطِّ الْحَمِيرِيِّ وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْحِيرَةِ لِمَا كَانَ بِهَا مِنْ دَوْلَةِ آلِ الْمُنْذِرِ
نَسَبَاءِ التَّبَاعِيَةِ فِي الْعَصَبِيَّةِ وَالْعَجْدِيدِينَ لِمَلِكِ الْعَرَبِ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ الْخَطُّ عِنْدَهُمْ
مِنَ الْإِبَادَةِ كَمَا كَانَ عِنْدَ التَّبَاعِيَةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ وَكَانَتِ الْحِضَارَةُ وَتَوَابِعُهَا
مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا قَاصِرَةً عَنْ ذَلِكَ وَمِنَ الْحِيرَةِ لُقِنَتْ أَهْلُ الطَّائِفِ وَفُرَيْشُ فِيمَا ذَكَرَ
وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ مِنَ الْحِيرَةِ هُوَ مَقِيَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَيُقَالُ حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ
وَأَخَذَهَا مِنْ أَسْلَمَ بْنِ سُدْرَةَ وَهُوَ قَوْلُ مُسْكِنٍ وَأَقْرَبُ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوهَا
مِنْ إِيَادَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِقَوْلِ شَاعِرِهِمْ

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَدِيمًا وَالْخَطُّ وَالْقَلَمُ

وَهُوَ قَوْلُ بَعِيدٌ لِأَنَّ إِيَادَ وَإِنْ تَزَلُّوا سَاحَةَ الْعِرَاقِ فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى شَأْنِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ
وَالْخَطِّ مِنَ الصَّنَائِعِ الْحَضَرِيَّةِ وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْخَطِّ وَالْقَلَمِ
مِنَ الْعَرَبِ لِقُرْبِهِمْ مِنْ سَاحَةِ الْأَمْصَارِ وَضَوَاحِيهَا فَالْقَوْلُ بِأَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ إِنَّمَا لُقِنُوهَا
مِنَ الْحِيرَةِ وَلُقِنَهَا الْحِيرَةُ مِنَ التَّبَاعِيَةِ وَحَمِيرٌ هُوَ الْإِلَاقُ مِنَ الْأَنْوَالِ وَكَانَ لِحَمِيرِ كِتَابَةُ
تُسَمَّى الْمُسْنَدَ حُرُوفَهَا مُنْفَصِلَةً وَكَانُوا يَمْتَنِعُونَ مِنْ تَعَلُّمِهَا إِلَّا بِأَذْنِهِمْ وَمِنْ حَمِيرٍ تَعَلَّمَتْ
مِصْرُ الْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَ لَهَا شَأْنَ الصَّنَائِعِ إِذَا وَقَعَتْ بِالْبَدْوِ
فَلَا تَكُونُ مُحْكَمَةً الْمَذَاهِبِ وَلَا مَائِلَةً إِلَى الْإِتْقَانِ وَالتَّحْقِيقِ لِيُؤْنِ مَا يَبْتَغِي الْبَدْوُ
وَالصَّنَاعَةُ وَاسْتِغْنَاءُ الْبَدْوِ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ وَكَانَتْ كِتَابَةُ الْعَرَبِ بَدْوِيَّةً مِثْلَ كِتَابَتِهِمْ أَوْ
قَرِيبًا مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَوْ نَقُولُ إِنَّ كِتَابَتَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْسَنُ صِنَاعَةٍ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ

أَقْرَبُ إِلَى الْخِصَارَةِ وَمُخَالَطَةِ الْأَمْصَارِ وَالْذُّوْلِ وَأَمَّا مُضَرُّ فَكَانُوا أَعْرَقَ فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدَ
عَنِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ فَكَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ لِأَوَّلِ
الْإِسْلَامِ غَيْرَ بَالِغٍ إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ وَالْإِجَادَةِ وَلَا إِلَى التَّوَسُّطِ
لِمَكَانِ الْعَرَبِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالتَّوَحُّشِ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الصَّنَائِعِ وَانْظُرْ مَا وَفَّعَ لِأَجْلِ ذَلِكَ
فِي رَسْمِهِمُ الْمُصَحَّفِ حَيْثُ رَسَّمَهُ الصَّحَابَةُ بِخُطُوطِهِمْ وَكَانَتْ غَيْرَ مُسْتَحْكِمَةٍ فِي الْإِجَادَةِ
فَخَالَفَ الْكَثِيرُ مِنْ رُسُومِهِمْ مَا اقْتَضَتْهُ رُسُومُ صِنَاعَةِ الْخَطِّ عِنْدَ أَهْلِهَا ثُمَّ اقْتَنَى التَّابِعُونَ
مِنَ السَّلَافِ رَسْمَهُمْ فِيهَا تَبَرُّكَ كَمَا بِمَا رَسَّمَهُ أَصْحَابُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرُ
الْمَخْلُوقِ مِنْ بَعْدِهِ الْمُتَلَقُّونَ لِوَحْيِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ كَمَا يَقْتَضِي لِهَذَا الْهَدْيِ خَطُّ وَلِيِّ
أَوْ عَالِمٍ تَبَرُّكَ كَمَا وَبُتَّعَ رَسْمُهُ خَطًّا أَوْ صَوَابًا وَأَيْنَ نِسْبَةُ ذَلِكَ مِنَ الصَّحَابَةِ فِيمَا كَتَبُوهُ
فَاتَّبَعَ ذَلِكَ وَاثْبَتَ رَسْمًا وَنَبَّهَ الْعُلَمَاءَ بِالرَّسْمِ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَلَا تَلْتَفَتْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى مَا
يَزْعَمُهُ بَعْضُ الْمُغْتَلِبِينَ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْكِمِينَ لِصِنَاعَةِ الْخَطِّ وَأَنَّ مَا يُتَخِيلُ مِنْ
مُخَالَفَةِ خُطُوطِهِمْ لِأَصُولِ الرَّسْمِ لَيْسَ كَمَا يُتَخِيلُ بَلْ لِكُلِّهَا وَجْهٌ يَقُولُونَ فِي مِثْلِ
زِيَادَةِ الْأَلِفِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ إِنَّهُ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّبْحَ لَمْ يَسَعْ وَفِي زِيَادَةِ الْيَاءِ فِي بَايِدَ
إِنَّهُ تَنْبِيهُ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَأَمثال ذلك مما لَا أَصْلَ لَهُ إِلَّا التَّحْكُمُ
الْمَحْضُ وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَنْزِيهًا لِلصَّحَابَةِ عَنْ تَوْهمِ
النَّقْصِ فِي قِلَّةِ إِجَادَةِ الْخَطِّ وَحَسِبُوا أَنَّ الْخَطَّ كَمَالٌ فَتَزَهُوهُمْ عَنْ نَقْصِهِ وَتَسَبَّوْا إِلَيْهِمْ
الْكَمَالَ بِإِجَادَتِهِ وَطَلَبُوا تَعْلِيلَ مَا خَالَفَ الْإِجَادَةَ مِنْ رَسْمِهِ وَذَلِكَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ .
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَقِّهِمْ إِذِ الْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَعَاشِيَّةِ
كَمَا رَأَيْتَهُ فِيمَا مَرَّ وَالْكَمَالُ فِي الصَّنَائِعِ ضَافِي بِكَمَالٍ مُطْلَقٍ إِذْ لَا يَبُودُ نَقْصُهُ عَلَى
الذَّاتِ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْخِلَالِ وَإِنَّمَا يَبُودُ عَلَى أَسْبَابِ الْمَعَاشِ وَبِحَسَبِ الْعُمُرَانِ وَالْمَعَاوُنِ
عَلَيْهِ لِأَجْلِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي النُّفُوسِ . وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيًّا وَكَانَ
ذَلِكَ كَمَالًا فِي حَقِّهِ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لِشَرَفِهِ وَتَنْزِهِهِ عَنِ الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ
أَسْبَابُ الْمَعَاشِ وَالْعُمُرَانِ كُلُّهَا وَلَيْسَتْ الْأُمِيَّةُ كَمَالًا فِي حَقِّهَا نَحْنُ إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى
رَبِّهِ وَنَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَأْنَ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا حَتَّى الْعُلُومِ الْأَصْطِلَاحِيَّةِ فَإِنَّ
الْكَمَالَ فِي حَقِّهِ هُوَ تَنْزَهُهُ عَنْهَا جُمْلَةً بِخِلَافِنَا ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ وَفَتَحُوا

الْأَمْصَارَ وَمَلَكَوا أَلْأَمَاطَ وَنَزَلُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ وَأَخْتَابَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى الْكُتَابَةِ
 اسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلَّمَهُ وَتَدَاوَلُوهُ فَتَرَقَّتِ الْإِجَارَةُ فِيهِ وَاسْتَحْكَمَ وَبَاقَ
 فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ رُتْبَةً مِنَ الْإِثْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دُونَ الْغَايَةِ وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ
 مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ ثُمَّ انْتَشَرَ الْعَرَبُ فِي الْأَقْطَارِ وَالْأَمَاطِ وَافْتَتَحُوا أَفْرِيقِيَّةَ
 وَالْأَنْدَلُسَ وَأَخْطَطَ بَنُو الْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَتَرَقَّتِ الْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى الْغَايَةِ لَمَّا اسْتَجَرَّتْ فِي
 الْعُمَرَانِ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَكَانَ الْخَطُّ الْبَغْدَادِيُّ مَعْرُوفَ
 الرَّسْمِ وَتَبِعَهُ الْأَفْرِيقِيُّ الْمَعْرُوفُ رَسْمُهُ الْقَدِيمُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَيَقْرُبُ مِنْ أَوْضَاعِ الْخَطِّ
 الْمَشْرِقِيِّ وَتَعَيَّرَ مُلْكُ الْأَنْدَلُسِ بِالْأُمُورِ فَمَيَّزُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالصَّنَائِعِ
 وَالْخُطُوطِ فَتَمَيَّزَ صِنْفُ خُطْبِهِمِ الْأَنْدَلُسِيُّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَطَمًا بَحَرُ
 الْعُمَرَانِ وَالْحِضَارَةِ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَعَظَمُ الْمُلُوكُ وَتَفَقَّتْ أَسْوَاقُ
 الْعُلُومِ وَأَنْتَسَخَتْ الْكُتُبُ وَأُجِيدَ كُتُبُهَا وَتَجَلِيدُهَا وَمِلَّتْ بِهَا الْقُصُورُ وَالْخَزَائِنُ
 الْمُلُوكِيَّةُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَتَنَافَسَ أَهْلُ الْأَقْطَارِ فِي ذَلِكَ وَتَنَافَعُوا فِيهِ ثُمَّ لَمَّا أُنْهَلَ نِظَامُ
 الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنَاقَصَتْ تَنَاقَصَ ذَلِكَ أَجْمَعُ وَدُرِسَتْ مَعَالِمُ بَغْدَادَ بِدُرُوسِ الْخِلَافَةِ
 فَأَنْتَقَلَ شَأْنُهَا مِنَ الْخَطِّ وَالْكُتَابَةِ بَلْ وَالْعِلْمِ إِلَى مِصْرَ وَالْقَادِرَةِ فَلَمْ تَزَلْ أَسْوَاقُهَا
 نَافِذَةً لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَهُ بِهَا مُعَلِّمُونَ يَرَسُمُونَ لِعَالِمِ الْحُرُوفِ بِقَوَانِينِ فِي وَضْعِهَا وَأَشْكَالِهَا
 مَتَعَارِفَةً بَيْنَهُمْ فَلَا يَلْبَثُ الْمُتَعَلِّمُ أَوْ يُعَلِّمُ أَشْكَالَ تِلْكَ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَوْضَاعِ
 وَقَدْ لَقِنَهَا حَسَنًا وَحَذَقَ فِيهَا دُرْبَةً وَكِتَابًا وَأَخَذَهَا قَوَانِينِ عِلْمِيَّةً فَتَجَبَّى أَحْسَنَ مَا يَكُونُ
 وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَفْتَرَقُوا فِي الْأَقْطَارِ عِنْدَ تَلَاثِي مُلْكِ الْعَرَبِ بِهَا وَمَنْ خَلَقَهُمْ مِنَ
 الْبَرْبَرِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَمُ النُّصْرَانِيَّةِ فَأَنْتَشَرُوا فِي عُدُوَّةِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ مِنْ لَدُنِ
 الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَشَارَكُوا أَهْلَ الْعُمَرَانِ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الصَّنَائِعِ وَتَعَلَّقُوا
 بِأَذْيَالِ الدَّوْلَةِ فَغَلَبَ خُطْبُهُمْ عَلَى الْخَطِّ الْأَفْرِيقِيِّ وَعَفَى عَلَيْهِ وَنُسِيَ خُطُّ الْقَيْرَوَانِ
 وَالْمَهْدِيَّةِ بِنِسيانِ عَوَائِدِهِمَا وَصَنَائِعِهِمَا وَصَارَتْ خُطُوطُ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الرَّسْمِ
 الْأَنْدَلُسِيِّ بِتُونِسَ وَمَا إِلَيْهَا لِتَوْفُرِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِهَا عِنْدَ الْحَالِيَةِ مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ
 وَبَقِيَ مِنْهُ رَسْمُ بِلَادِ الْجَرِيدِ الَّذِينَ لَمْ يُنَاطِلُوا كُتَابَ الْأَنْدَلُسِ وَلَا تَمَرَّسُوا بِعِوَارِهِمْ
 إِنَّمَا كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى دَارِ الْمَلِكِ بِتُونِسَ فَصَارَ خُطُّ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ مِنْ أَحْسَنِ خُطُوطِ

أهل الأندلس حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والتأخر تراجع العمران نقص حينئذ حال الخطر وفستت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخطر الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك إما قدمناه من أن الصنائع إذا رست بالحضارة فيعسر نحوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخطر الأندلسي اقرب جرارهم وسقوط من خرج منهم إلى فارس قريبا واستعمالهم إياهم سائر الدولة ونسب عهد الخطر فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف فصارت الخطوط بأفريقية والمغربيين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لم تصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بجزء زاهر بالعراق والأندلس إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة وتفاق أسواق ذلك لدهمهما فكثرت التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تنافلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين لانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكنبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهمة بالصناعة من الجلد لكثرة الرق وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقصروا على الكتاب في الرق تشريفا للمكتوبات وميلا بها إلى الصحة والاثقان ثم طما بجزء التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة

الكاغِدِ وَصَنَعَهُ وَكَتَبَ فِيهِ رَسَائِلَ السُّلْطَانِ وَصُكُوكَهُ وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ
 صُحُفًا لَمَكْتُوبَاتِهِمْ. السُّلْطَانِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ وَبَلَغَتْ الْإِجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَاءَتْ ثُمَّ وَقَفَتْ
 عِنَايَةُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَهُمْ أَهْلُ الدُّوَلِ عَلَى ضَبْطِ الدَّوَاوِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَتَعْجِيظِهَا بِالرِّوَايَةِ
 الْمُسْتَدَّةِ إِلَى مُؤَلَّفِيهَا وَوَاضِعِيهَا لِأَنَّهُ الشَّانُ الْأَمُّ مِنَ التَّعْجِيحِ وَالضَّبْطِ فَبِذَلِكَ تُسَدُّ
 الْأَقْوَالُ إِلَى قَائِلِيهَا وَالْفُتْيَا إِلَى الْحَاكِمِ بِهَا التَّجْتِهِدِ فِي طَرِيقِ اسْتِنْبَاطِهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ
 تَضَحِيحُ الْمُتَوْنِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى مُدَوِّنِهَا فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُ قَوْلِ لَهُمْ وَلَا فُتْيَا وَهَكَذَا كَانَ
 شَأْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَتْهُ فِي الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ وَالْآفَاقِ حَتَّى لَقَدْ قُصِرَتْ فَائِدَةُ الصِّنَاعَةِ
 الْحَدِيثِيَّةِ فِي الرِّوَايَةِ عَلَى هَذِهِ فَقَطْ إِذْ ثَمَرَتِهَا الْكُبْرَى مِنْ مَعْرِفَةِ تَضَحِيحِ الْأَحَادِيثِ
 وَحُسْنِهَا وَمُسْنَدِهَا وَمُرْسَلِهَا وَمَقْطُوعِهَا وَمَوْقُوفِهَا مِنْ مَوْضِعِهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَتَخَفَّتْ زُبْدَةٌ
 فِي ذَلِكَ الْأُمَمَاتُ الْمُتَلَقَّاةُ بِالْقَبُولِ عِنْدَ الْأُمَّةِ وَصَارَ الْقَصْدُ إِلَى ذَلِكَ لَغْوًا مِنَ الْعَمَلِ
 وَلَمْ تَبْقَ ثَمَرَةُ الرِّوَايَةِ وَالِاشْتَغَالِ بِهَا إِلَّا فِي تَضَحِيحِ تِلْكَ الْأُمَمَاتِ الْحَدِيثِيَّةِ وَسِوَاهَا
 مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ لِلْفُتْيَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَاوِينِ وَالتَّأْلِيفِ الْعِلْمِيَّةِ وَاتِّصَالَ سَنَدِهَا
 بِمُؤَلَّفِيهَا لِیَصِحَّ النُّقْلُ عَنْهُمْ وَالْإِسْنَادُ إِلَيْهِمْ وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ
 مُعَبَّدَةً الطَّرِيقَ وَاصِحَّةَ الْمَسَالِكِ وَلِهَذَا نَجِدُ الدَّوَاوِينَ الْمُنْتَسَخَةَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي أَقْطَارِهِمْ
 عَلَى غَايَةِ مِنَ الْإِثْقَانِ وَالْإِحْكَامِ وَالصِّحَّةِ وَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَيْدِي النَّاسِ فِي الْعَالَمِ
 أُصُولٌ عَتِيقَةٌ تَشْهَدُ بِبُلُوغِ الْغَايَةِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَهْلُ الْآفَاقِ يَتَنَاقَلُونَهَا إِلَى الْآنَ
 وَيَشُدُّونَ عَلَيْهَا بِدَ الضَّانَةِ وَلَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ لِهَذَا الْعَهْدِ جُمْلَةً بِالْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ
 لِانْقِطَاعِ صِنَاعَةِ الْحَطِّ وَالضَّبْطِ وَالرِّوَايَةِ مِنْهُ بِانْتِقَاصِ عُمُرَانِهِ وَبِدَاوَةِ أَهْلِهِ وَصَارَتْ
 الْأُمَمَاتُ وَالِدَّوَاوِينَ تُنْسَخُ بِالْخُطُوطِ الْيَدَوِيَّةِ تَنْسَخُهَا طَلَبَةُ الْبَرَزِيرِ صَحَائِفَ مُسْتَعْجِلَةٍ بِرَدَائِقِ
 الْحَطِّ وَكَثْرَةِ الْفَسَادِ وَالتَّضْحِيفِ فَتَسْتَغْلِقُ عَلَى مُتَصَفِّحِيهَا وَلَا يَحْصُلُ مِنْهَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ
 النَّادِرِ وَأَيْضًا فَقَدْ دَخَلَ الْخَلَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي الْفُتْيَا فَإِنَّ غَالِبَ الْأَقْوَالِ الْمَعْرُوءَةِ غَيْرُ مَرْوِيَّةٍ
 عَنْ أَيْمَةِ الْمَذْهَبِ وَإِنَّمَا تُتْلَى مِنْ تِلْكَ الدَّوَاوِينِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَتَبَعَ ذَلِكَ أَيْضًا مَا
 يَتَصَدَّى إِلَيْهِ بَعْضُ أَيْمَتِهِمْ مِنَ التَّأْلِيفِ لِقَلَّةِ بَصَرِهِمْ بِصِنَاعَتِهِ وَعَدَمِ الصَّنَائِعِ الْوَافِيَةِ
 بِمِقَاصِدِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الرُّسْمِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا إِثَارَةٌ خَفِيَّةٌ بِالْإِمْجَاءِ وَهِيَ الْإِضْهِجَالُ
 فَقَدْ كَادَ الْعِلْمُ يَنْقَطِعُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَبَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ

أَنَّ صِنَاءَ الرَّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِالْمَشْرِقِ وَتَضْحِكُ الدَّوَابُّ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى
مُتَبَغِّهِ لِنَفَاقِ أَسْوَاقِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّ الْخَطَّ الَّذِي بَقِيَ مِنَ
الْإِجَادَةِ فِي الْإِنْتِسَاحِ هُنَالِكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجَمِ وَفِي خُطُوطِهِمْ وَأَمَّا النَّسْخُ بِمِصْرَ فَقَسَدَ
كَمَا قَسَدَ بِالْمَغْرِبِ وَأَسَدَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هَذِهِ الصَّنَاءَةُ هِيَ تَلْحِينُ الْأَشْعَارِ الْمَوْزُونَةِ بِتَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ عَلَى نِسَبٍ مُنْتَظِمَةٍ
مَعْرُوفَةٍ يُوقَعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعًا عِنْدَ قَطْعِهِ فَيَكُونُ نَغْمَةً ثُمَّ تَوَافُ تِلْكَ النِّغْمُ بَعْضُهَا
إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسَبٍ مُتَعَارِفَةٍ فَيَلْتَمِذُ مِمَّا عَمَّا لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّنَاسُبِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنْ
الْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَصْوَاتِ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْمُوسِيقِيِّ أَنَّ الْأَصْوَاتَ تَتَنَاسَبُ
فَيَكُونُ صَوْتٌ نِصْبٌ صَوْتٌ وَرُبْعٌ آخَرٌ وَخُمْسٌ آخَرٌ وَجُزْءٌ مِنْ أَحَدِ عَشَرَ مِنْ آخَرَ
وَإِخْتِلَافٌ هَذِهِ النِّسَبِ عِنْدَ تَأْدِيَتِهَا إِلَى السَّمْعِ بِخُرُوجِهَا مِنَ الْبَسَاطَةِ إِلَى التَّرْكِيبِ
وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْدُودًا عِنْدَ السَّمْعِ بَلْ لِلْمَلْدُودِ تَرَكَيبٌ خَاصَّةٌ وَهِيَ الَّتِي حَصَرَهَا
أَهْلُ عِلْمِ الْمُوسِيقِيِّ وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ إِسَاقَ ذَلِكَ التَّلْحِينُ
فِي النِّغْمَاتِ الْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مِنَ الْجَمَادَاتِ إِمَّا بِالْقَرْعِ أَوْ بِالنَّفْخِ فِي
الْآلَاتِ لَتَتَّخِذَ لَذِكُ فَتَرَى لَهَا لَذَةً عِنْدَ السَّمْعِ فَمِنْهَا إِهْدَا الْعَهْدِ أَصْنَافٌ مِنْهَا مَا يُسَمُّونَهُ
الشَّبَابَةَ وَهِيَ قِصْبَةٌ جَوْفَاءُ بِإِبْخَاشٍ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٌ يُنْفَخُ فِيهَا فَتُصَوِّتُ فَيَخْرُجُ الصَّوْتُ
مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ الْإِبْخَاشِ وَيُقَطَّعُ الصَّوْتُ بِوَضْعِ الْأَصَابِعِ مِنَ الْيَدَيْنِ
جَمِيعًا عَلَى تِلْكَ الْإِبْخَاشِ وَضَعًا مُتَعَارِفًا حَتَّى تَحْدُثَ النِّسَبُ بَيْنَ الْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتُتَّصِلَ
كَذَلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَمِذُ السَّمْعُ بِإِذْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ جِنْسِ هَذِهِ
الْآلَةِ الْمَزْمَارُ الَّذِي يُسَمَّى الزِّلَامِيَّ وَهُوَ شَكْلُ الْقِصْبَةِ مَنَحُوَّةَ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الْخَشَبِ
جَوْفَاءُ مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ائْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ مُتَفَرِدَتَيْنِ كَذَلِكَ بِالْإِبْخَاشِ مَعْدُودَةٌ
يُنْفَخُ فِيهَا بِقِصْبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوصَلُ فَيَنْفِذُ النَّفْخُ بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتُصَوِّتُ بِنَغْمَةٍ حَادَّةٍ يُجْرَى
فِيهَا مِنْ لَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ الْإِبْخَاشِ بِالْأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يَجْرَى فِي الشَّبَابَةِ
وَمِنْ أَحْسَنِ آلَاتِ الزَّمْرِ إِهْدَا الْعَهْدِ الْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نَحَاسٍ أَجْوَفُ فِي مِقْدَارِ

الذراع يتسع إلى أن يكون انقراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل بري القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من القم إليه فيخرج الصوت ثخيناً دويّاً وفيه انجاش أيضاً معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناوب فيكون ملذوداً ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها إما على شكل قطعة من الكرة مثل المربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بساطها مشدودة في رأسها إلى دسر جائلة ليأتي شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها ثم تفرغ الأوتار إما يعود آخر أو يوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يفرغ أو يحك بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة ملذودة وقد يكون الفرغ في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقييع مناسب يحدث عنه التذاذ بالمستموع ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما نقرر في موضعه هي إدراك الملائم والمحسوس إنما تدرك منه كيفية فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذودة وإذا كانت منافية له منافية كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كفيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك وإلى تؤديه الحاسة ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملائمة لها فإذا كان المرئي متناسباً في شكله وتخطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة فتلد بإدراك ملائمتها ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أزواجهم بروح المحبوب وفي هذا سر تفهمه إن كنت من أهله وهو اتحاد المبدأ وإن كان ما سواك إذا نظرت وتأملته

رَأَيْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ اتِّعَادًا فِي الْبِدَاةِ يَشْهَدُ لَكَ بِهِ اتِّعَادُ كَمَا فِي السَّكُونِ وَمَعْنَاهُ مِنْ
وَجْهِ آخَرَ أَنَّ الْوُجُودَ يَشْرِكُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا تَقُولُهُ الْحُكْمَاءُ فَتَوَدُّ أَنْ يَتَزَجَّ
بِمُشَاهَدَاتٍ فِيهِ الْكَمَالُ يَتَّحِدُ بِهِ بَلْ تَرُومُ النَّفْسُ حِينَئِذٍ الْخُرُوجَ عَنِ الْوَهْمِ إِلَى
الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ اتِّعَادُ الْمَبْدَأِ وَالْكُونِ وَلَمَّا كَانَ انْتِسَابُ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَقْرَبُهَا
إِلَى أَنْ يُدْرِكَ الْكَمَالَ فِي تَنَاسُبِ مَوْضُوعِهَا هُوَ شَكْلَةُ الْإِنْسَانِي كَانَ إِذْ رَأَى كُهُلَ الْجَمَالِ
وَالْحُسْنِ فِي تَخَاطُطِهِ وَأَصْوَاتِهِ مِنَ الْمَدَارِكِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى فِطْرَتِهِ فَيَلْمَحُ كُلُّ
إِنْسَانٍ بِالْحُسْنِ مِنَ الْمَرْتَبَةِ أَوِ الْمَسْمُوعِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالْحُسْنُ فِي الْمَسْمُوعِ أَنْ
تَكُونَ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً لَا مُتَنَافِرَةً بِدَلَالَةِ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَهَا كَيْفِيَّاتٌ مِنَ الْهَمْسِ
وَالْجَهْرِ وَالرَّخَاوَةِ وَالشَّدَةِ وَالْقَلْقَلَةِ وَالضَّمَطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالتَّنَاسُبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ
لَهَا الْحُسْنَ فَأَوْلَى أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى مَدَى دَفْعَةٍ بَلْ يَتَدَرِّجُ ثُمَّ يَرْجِعُ كَذَلِكَ
وَهَكَذَا إِلَى الْمَثَلِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَوْسُطِ الْمَغَايِرِ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ وَتَأَمَّلْ هَذَا مِنْ أَفْتِيَا حِ
أَهْلِ اللِّسَانِ التَّرَاكِبِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ أَوِ الْمُتَقَارِبَةِ الْمَخَارِجِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ
وَتَأْنِيًا تَنَاسُبُهَا فِي الْأَجْزَاءِ كَمَا مَرَّ أَوَّلَ الْبَابِ فَيَخْرُجُ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى نِصْفِهِ أَوْ ثُلَاثِهِ أَوْ
جُزْءٍ مِنْ كَذَا مِنْهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّنْقُلُ مُتَنَاسِبًا عَلَى مَا حَصَرَهُ أَهْلُ الصَّنَاعَةِ فَإِذَا
كَانَتْ الْأَصْوَاتُ عَلَى تَنَاسُبٍ فِي الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ كَانَتْ مُلَائِمَةً
مَلْدُودَةً وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَكُونُ بَسِيطًا وَيَكُونُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ مَطْبُوعًا عَلَيْهِ
لَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى تَعْلِيمٍ وَلَا صِنَاعَةٍ كَمَا نَجِدُ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْمَوَازِينِ الشَّعْرِيَّةِ وَتَوْقِيعِ
الرَّقْصِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَتُسَمَّى الْعَامَّةُ هَذِهِ الْقَابِلِيَّةُ بِالْمَضْمَارِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ بِهِذِهِ
الْمَثَابَةِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ فَيُجِيدُونَ فِي تَلَاوِينِ أَصْوَاتِهِمْ كَأَنَّهَا الْمَزَامِيرُ فَيُطْرِبُونَ
بِحُسْنِ مَسَاقِيمِهِمْ وَتَنَاسُبِ نَغَمَاتِهِمْ وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَخْدُثُ بِالْتَّرَكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ
يَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ وَلَا كُلُّ الطَّبَاعِ تَوَافِقُ صَاحِبِهَا فِي الْعَمَلِ بِهِ إِذَا عَلِمَ وَهَذَا هُوَ التَّلْحِينُ
الَّذِي يَتَكَفَّلُ بِهِ عِلْمُ الْمَوْسِيقِيِّ كَمَا نَشْرَحُهُ بَعْدُ عِنْدَ ذِكْرِ الْعُلُومِ وَقَدْ أَنْكَرَ مَالِكٌ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقِرَاءَةَ بِالتَّلْحِينِ وَأَجَازَهَا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَلْحِينُ
الْمَوْسِيقِيِّ الصَّنَاعِيِّ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفَ فِي حَظِّهِ إِذْ صِنَاعَةُ الْغِنَاءِ مُبَآيَنَةٌ لِلْقُرْآنِ
بِكُلِّ وَجْهِ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالْأَدَاءَ نَحْتَاجُ إِلَى مِقْدَارٍ مِنَ الصَّوْتِ لِتَعْيُنِ أَدَاءِ الْحُرُوفِ لَا

مِنْ حَيْثُ اتَّبَاعُ الْحَرَكَاتِ فِي مَوْضِعِهَا وَمِقْدَارِ الْمَدِّ عِنْدَ مَنْ يُطْلِقُهُ أَوْ يُقْصِرُهُ وَأَمثالُ
 ذَلِكَ وَالتَّلْحِينُ أَيْضًا يَتَعَيَّنُ لَهُ مِقْدَارٌ مِنَ الصَّوْتِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مِنْ أَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي
 قُلْنَاهُ فِي حَقِيقَةِ التَّلْحِينِ وَاعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا قَدْ يَخُلُ بِالْآخِرِ إِذَا تَعَارَضَا وَتَقَدَّمَ الرَّوَايَةُ مُتَعَيِّنَةٌ
 مِنْ تَغْيِيرِ الرَّوَايَةِ الْمَنْقُولَةِ فِي الْقُرْآنِ فَلَا يُمْكِنُ أَجْتِمَاعُ التَّلْحِينِ وَالْأَدَاءِ الْمُعْتَبَرِ فِي
 الْقُرْآنِ بِوَجْهِ وَإِنَّمَا مَرَادُهُمُ التَّلْحِينُ الْبَسِيطُ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمِضْمَارِ بِطَبْعِهِ كَمَا
 قَدْ مَنَاهُ فَيُرَدُّ دُأْصَوَاتُهُ تَرْدِيدًا عَلَى نَسَبٍ يُذَكِّرُهَا الْعَالِمُ بِالْغِنَاءِ وَغَيْرُهُ وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ
 بِوَجْهِ كَمَا قَالَ مَالِكٌ هَذَا هُوَ مَعْنَى الْخِلَافِ وَالظَّاهِرُ تَنْزِيهُ الْقُرْآنِ عَنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا
 ذَهَبَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَحْلُ خُشُوعٍ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ
 وَلَيْسَ مَقَامُ التَّنْذِيرِ بِإِذْرَاكِ الْحَسَنِ مِنَ الْأَصْوَاتِ وَهَكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ آوَيْتُ زِمَارًا مِنْ زَمَائِرِ
 آلِ دَاوُدَ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ التَّرْدِيدُ وَالتَّلْحِينُ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حُسْنُ الصَّوْتِ وَآدَاءُ الْقِرَاءَةِ
 وَالْإِبَانَةُ فِي تَخَارِجِ الْحُرُوفِ وَالنُّطْقِ بِهَا وَإِذْ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى الْغِنَاءِ فَأَعْلَمُ أَنَّهُ يَحْدُثُ
 فِي الْعُمَرَانِ إِذَا تَوَفَّرَ وَتَجَاوَزَ حَدَّ الضَّرُورِيِّ إِلَى الْحَاجِيِّ ثُمَّ إِلَى الْإِكْمَالِيِّ وَتَنَسَّوْا
 فَتَحْدُثُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَّغَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ
 وَالْمُهِمَّةِ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ فَلَا يَطْلُبُهَا إِلَّا الْفَارِغُونَ عَنْ سَائِرِ أَخْوَالِهِمْ
 تَقَنُّنًا فِي مَذَاهِبِ الْمَمْلُوكَاتِ وَكَانَ فِي سُلْطَانِ الْعَجَمِ قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنْهَا بَعْضُ زَاخِرٍ فِي
 أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمَلُوكِ
 الْفَرَسِ اهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُمْ
 وَتَجَامِعَهُمْ وَيُغْنُونَ فِيهَا وَهَذَا شَأْنُ الْعَجَمِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي كُلِّ أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِهِمْ وَمِمَّا يَكُونُ
 مِنْ مِمَالِكِهِمْ وَأَمَّا الْعَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوَّلًا فَنُ الشِّعْرِ يُؤَلِّفُونَ فِيهِ الْكَلَامَ أَجْزَاءً
 مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنِهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ وَالسَّاكِنَةِ وَيُفْصِلُونَ الْكَلَامَ
 فِي تِلْكَ الْأَجْزَاءِ تَفْصِيلًا يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلًّا بِالْإِفَادَةِ لَا يَنْعَطِفُ عَلَى الْآخِرِ
 وَيُسَمُّونَهُ الْيَنْتَ فَنَلَا تَمُ الطَّبَعِ بِالنَّجْزِيَّةِ أَوَّلًا ثُمَّ يَتَنَاسَبُ الْأَجْزَاءُ فِي الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِي
 ثُمَّ يَتَأَدَّى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَتَطْبِيقُ الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَلَهَجُوا بِهِ فَأَمَّا زَيْنُ بَيْنِ كَلَامِهِمْ
 بِحَظٍّ مِنَ الشَّرَفِ لَيْسَ لِغَيْرِهِ لِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِ بِهَذَا التَّنَاسُبِ وَجَعَلُوهُ دِيوَانًا لِأَخْبَارِهِمْ

وَحُكْمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَتَحَكُّمًا لِقَرَائِهِمْ فِي إِصَابَةِ الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ الْأَسَالِبِ وَاسْتَعْرَافًا
عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ الْأَجْزَاءِ وَالْمَتَحَرِّكِ وَالسَّاكِنِ مِنَ الْحُرُوفِ
قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَصْوَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْمَوْسِيقَى إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ
يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ يَتَّبِعُوا عِلْمًا وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً وَكَانَتِ الْبِدَاوَةُ أَغْلَبَ
نَحْلِهِمْ ثُمَّ تَغَنَّى الْحَدَاةُ مِنْهُمْ فِي حِدَاءِ إِبْلِهِمْ وَالْفَتَيَانُ فِي فِضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَرَجَعُوا الْأَصْوَاتِ
وَتَرَنَمُوا وَكَانُوا يُسَمُّونَ التَّرَنَّمَ إِذَا كَانَ بِالشَّعْرِ غِنَاءٌ وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعٍ
الْقِرَاءَةِ تَغْيِيرًا بِالْفَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ الرَّجَاجُ بِأَنَّهُا تُذَكِّرُ
بِالْغَايِرِ وَهُوَ الْبَاقِي أَيُّ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ النِّعَمَاتِ مُنَاسَبَةً
بَسِيطَةً كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ آخِرَ كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَغَيْرُهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ السِّنَادَ
وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْخَفِيفِ الَّذِي يُرْقِصُ عَلَيْهِ وَيُمَشَى بِالْدَفِّ وَالْمِزْمَارِ
فَيَضْطَرِبُ وَيَسْتَخِفُّ الْحُلُومُ وَكَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا الْهَزَجَ وَهَذَا الْبَسِيطَ كُلُّهُ مِنَ التَّلَاحِينِ
هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَنْفَطِنَ لَهُ الطَّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ شَأْنِ الْبَسَائِطِ كُلِّهَا مِنْ
الصَّنَائِعِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنُ الْعَرَبِ فِي بِدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَوَلُوا
عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ الْأَنْجَمِ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاضَةِ عَلَى
الْحَالِ الَّتِي عَرَفْتَ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ الدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ أَحْوَالِ الْفَرَاغِ وَمَا لَيْسَ
بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئًا مَا وَلَمْ يَكُنِ الْمَلَذُودُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعُ
الْقِرَاءَةِ وَالتَّرَنُّمِ بِالشَّعْرِ الَّذِي هُوَ دِينُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمُ التَّرَفُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ
الرِّفَةُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ الْأَنْهَارِ صَارُوا إِلَى نَضَارَةِ الْعَيْشِ وَرِقَّةِ الْحَاشِيَةِ وَاسْتِحْلَاءِ
الْفَرَاغِ وَافْتَرَقَ الْمُغْنَوْنَ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ فَوَفَعُوا إِلَى الْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِي لِلْعَرَبِ
وَعَنُوا جَمِيعًا بِأَعْيَادِنِ وَالطَّنَابِيرِ وَالْمَعَازِفِ وَالْمِزَامِيرِ وَتَمِيعَ الْعَرَبِ تَلْحِينُهُمْ لِلْأَصْوَاتِ
فَلَحَنُوا عَلَيْهَا أَشْعَارَهُمْ وَظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ نَشِيطُ الْفَارِسِيِّ وَطُوبُسُ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرٍ مَوْلَى عُبَيْدِ
اللَّهِ ابْنِ جَعْفَرٍ فَسَمِعُوا شِعْرَ الْعَرَبِ وَلَحْنَهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرُ شَيْءٍ أَخَذَ عَنْهُمْ
مَعْبَدٌ وَطَبَقَتْهُ وَأَبْنُ شُرَيْحٍ وَأَنْظَارُهُ وَمَا زَالَتْ تَتَدَرَّجُ إِلَى أَنْ كَمَلَتْ أَيَّامُ بَنِي الْعَبَّاسِ
عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمُوَصِّلِيِّ وَأَبْنِ إِسْحَاقَ وَأَبْنِ حَمَّادٍ وَكَانَ مِنْ
ذَلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ بِيَعْدَادَ مَا تَبِعَهُ الْحَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِحَجَالِسِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَعُوا فِي اللَّهِ

وَاللَّعِبِ وَاتَّخَذَتْ آلَاتُ الرِّقَصِ فِي الْمَلَبَسِ وَالْقُضْبَانِ وَالْأَشْعَارِ الَّتِي يَتَرْتَمُ بِهَا عَلَيْهِ
وَجُمِلَ صِنْفًا وَحَدَهُ وَاتَّخَذَتْ آلَاتُ أُخْرَى لِلرِّقَصِ تُسَمَّى بِالْكَرْجِ وَهِيَ تَمَائِيلُ خَيْلٍ
مُسْرَجَةٍ مِنَ الْخَشَبِ مُعَلَّقَةٌ بِأَطْرَافِ أَفْبِيَةٍ يَلْبَسُهَا النِّسْوَانُ وَيُحَاكِ كَيْنَ بِهَا امْتِطَاءُ الْخَيْلِ
فَيَكْرَهُونَ وَيَفْرَهُونَ وَيُثَاقِفُونَ وَأَمثالُ ذَلِكَ مِنَ اللَّعِبِ الْمَعْدَّةُ لِلْأُولَئِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَأَيَّامِ
الْأَعْيَادِ وَجَالِسِ الْفَرَاغِ وَاللَّهُوَ وَكَثُرَ ذَلِكَ بِبَغْدَادَ وَأَمْصَارِ الْعِرَاقِ وَانْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى
غَيْرِهَا وَكَانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ غُلَامٌ اسْمُهُ زُرْيَابُ أَخَذَ عَنْهُمْ الْغِنَاءَ فَأَجَادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى
الْمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحِقَ بِالْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخِلِ أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ
فَبَالَغَ فِي تَكْرِيمِهِ وَرَكِبَ لِقَائِهِ وَأَسْنَى لَهُ الْجَوَائِزَ وَالْإِفْطَاءَاتِ وَالْخِرَاطَاتِ وَأَحْلَاهُ
مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدِمَائِهِ بِمَكَانٍ فَأَوْرَثَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ
الطَّوَائِفِ وَطَمَأَ مِنْهَا بِأَشْيَاطٍ بِحَرِّ زَاخِرٍ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ الْعُدُوةِ
بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَانْقَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا الْآنَ مِنْهَا صِبَابَةٌ عَلَى تَرَاجُعِ عُمَرَانِهَا
وَتَنَاقُصِ دَوْلِهَا وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ آخِرُ مَا يَحْصُلُ فِي الْعُمَرَانِ مِنَ الصَّنَائِعِ لِأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي
غَيْرِ وَظَنِيَّةٌ مِنَ الْوُظَائِفِ إِلَّا وَظِيفَةُ الْفَرَاغِ وَالْفَرَحِ وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ
الْعُمَرَانِ عِنْدَ اخْتِلَالِهِ وَتَرَاجُعِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الصنائع نكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب
قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا تُوجَدُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَأَنَّ
خُرُوجَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّدِ الْعُلُومِ وَالْإِدْرَاكَاتِ عَنِ التَّحْسُّوسَاتِ
أَوَّلًا ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِالْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْرَاكًا بِالْفِعْلِ وَعَقْلًا مُحَضَّرًا
مَتَكَوِّنًا ذَاتًا رُوحَانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وُجُودَهَا فَوْجَبَ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ نَوْعٍ
مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ يُفِيدُهَا عَقْلًا فَرِيدًا وَالصَّنَائِعُ أَبَدًا يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ مَلَكَّتِهَا قَانُونٌ
عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَكَةِ فَلِهَذَا كَانَتْ الْحُنُوكَةُ فِي التَّجَرِبَةِ تُفِيدُ عَقْلًا وَالْحِصَارَةُ
الْكَامِلَةُ تُفِيدُ عَقْلًا لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنَائِعٍ فِي شَأْنِ تَذْيِيرِ الْمَنْزِلِ وَمُعَاشَرَةِ أَهْلِهِ
الْجَنَسِ وَتَحْصِيلِ الْآدَابِ فِي مَخَالِطَتِهِمْ ثُمَّ الْقِيَامُ بِأُمُورِ الدِّينِ وَاعْتِبَارِ آدَابِهَا وَشَرَائِطِهَا
وَهَذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينُ تَنْتَظِمُ عُلُومًا فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ عَقْلِ وَالْكِتَابَةُ مِنْ بَيْنِ الصَّنَائِعِ

أَكْثَرُ إِفَادَةٍ لِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْأَنْظَارِ بِخِلَافِ الْمَصْنَائِعِ وَيَرَانُهُ أَنَّ فِي
الْكِتَابَةِ انْتِقَالَ مِنَ الْحُرُوفِ الْخَطِيئَةِ إِلَى أَنْكِلِمَاتِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ وَمِنْ الْكَلِمَاتِ
الْلَفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي فِي النَّفْسِ ذَلِكَ دَائِمًا فَيَحْصُلُ لَهَا مَلَكَةٌ الْإِنْتِقَالِ مِنَ
الْأَدِلَّةِ إِلَى الْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يُكْسِبُ الْعُلُومَ الْعَجْهُولَةَ
فَيُكْسِبُ بِذَلِكَ مَلَكَةً مِنَ التَّعْقُلِ تَكُونُ زِيَادَةً عَقْلٍ وَيَحْصُلُ بِهِ قُوَّةُ فِطْنَةٍ وَكَيْسٍ فِي
الْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذَلِكَ الْإِنْتِقَالِ وَلِذَلِكَ قَالَ كِسْرَى فِي كِتَابِهِ لِمَا رَأَى أَنَّ ذَلِكَ
الْفِطْنَةَ وَالْكَيْسَ فَقَالَ دِيَوَانُهُ أَيْ شَيَاطِينُ وَجُنُونَ قَالُوا وَذَلِكَ أَصْلُ اشْتِقَاقِ الدِّيَوَانِ
لِأَهْلِ الْكِتَابَةِ وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ الْحُسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ الْحُسَابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي الْعَدَدِ
بِالضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّدًا لِلِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ
وَهُوَ مَعْنَى الْعَقْلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ



الفصل السادس

من الكتاب الاول

في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله
من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

الفصل الاول

في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ الْحِسِّ وَالْحَرَكَةِ
وَالْغِذَاءِ وَالْكَيْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ لِتَحْصِيلِ مَعَايِشِهِ
وَالْتَعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَنْبَاءِ جَنْسِهِ وَالْإِجْتِمَاعِ الْمَعْنِيِّ لِذَلِكَ التَّعَاوُنِ وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ
عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَمَلِ بِهِ وَاتِّبَاعِ صَالِحِ الْخِرَاءِ فَهُوَ مُذَكَّرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا
يَفْتَرُ عَنِ الْفِكْرِ فِيهِ طَرَفَةٌ عَيْنٌ بَلِ اخْتِلَاجُ الْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَعْنِ الْبَصَرِ وَعَنْ هَذَا
الْفِكْرِ تَنْشَأُ الْعُلُومُ وَمَا قَدَّمَاهُ مِنَ الْمَصْنَائِعِ ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا الْفِكْرِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ
بَلِ الْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ الطَّبَاعُ فَيَكُونُ الْفِكْرُ رَاغِبًا فِي تَحْصِيلِ مَا آتَسُ

عنده من الاذراكات فيزجج الى من سبقه بعلم او زاد عليه بمعرفة او ادراك او
أخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويعرض على
أخذه وعلمه ثم إن فكره ونظره يتوجه الى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض
له لذاته واحدا بعد آخر ويتعمرن على ذلك حتى يصير الحقائق العوارض بتلك الحقيقة
ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتتشوف نفوس
أهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيزعمون الى أهل معرفته ويعيى التعليم من هذا
نقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبعي في البشر

الفصل الثاني

في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أن الخلق في العلم والتفنن فيه والاسديلاء عليه إنما هو بمحصول ملكة
في الاطاعة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله وما
لم تحصل هذه الملكة لم يكن الخلق في ذلك الفن المتناول حاصلا وهذه الملكة
هي في غير الفهم والوعي لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيتها
مشاركات بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدى فيه وبين العاني الذي لم
يعرف عنه وبين العالم النحرير والملكه إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من
سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي والملكات كلها جسمانية سواء
كانت في اليدين أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها تخسوسة
فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة الى مشاهير
المعلمين فيها معتبر عند كل أهل أفي وجيل وبدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة
اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل علم من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم
يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا لكان
واحدا عند جميعهم ألا ترى الى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين
والمؤخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته نجد
الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه
وإن اقررت ذلك فأعلم أن سند تعليم العلم لهذا العلم كاد ينقطع عن أهل المغرب

بَاخْتِلَالِ عُمَرَانِهِ وَتَنَاقُصِ الدُّوَلِ فِيهِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الصَّنَائِعِ وَفَقْدَانِهَا
 كَمَا مَرَّ ذَلِكَ أَنَّ الْفَيْرَوَانَ وَفَرْطَبَةَ كَانَا حَاضِرِي الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَاسْتَجَرَّ عُمَرَانُهُمَا
 وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ أَسْوَاقٌ نَافِقَةٌ وَبُحُورٌ زَاخِرَةٌ وَرَسَخَ فِيهِمَا التَّعْلِيمُ لِامْتِدَادِ
 عُمُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ الْحَضَارَةِ فَلَمَّا خَرِبَتَا انْقَطَعَ التَّعْلِيمُ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا
 كَانَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِمَرَاكِشَ مُسْتَفَادًا مِنْهَا وَلَمْ تَرْسَخِ الْحَضَارَةُ بِمَرَاكِشَ لِبِدَاوَةِ
 الدَّوْلَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَقُرْبِ عَهْدِ انْقِرَاضِهَا بِمَبْدَأِهَا فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ
 فِيهَا إِلَّا فِي الْأَوَّلِ وَبَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ بِمَرَاكِشَ أَرْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةِ
 الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ زَيْتُونٍ لِعَهْدِ أَوَاسِطِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ فَأَذْرَكَ تَلْمِيزَ الْإِمَامِ ابْنِ
 الْخَطِيبِ فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِنَ تَعْلِيمَهُمْ وَحَدِّقَ فِي الْعَقَلِيَّاتِ وَالنَّفَلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ
 بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ حَسَنٍ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبٍ الدَّكَّالِيُّ
 كَانَ أَرْتَحَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْرِبِ فَأَخَذَ عَنْ مَشِيخَةِ مِصْرَ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا
 وَكَانَ تَعْلِيمُهُ مُفِيدًا فَأَخَذَ عَنْهُمَا أَهْلُ تُونِسَ وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمَا فِي تَلَامِيذِهِمَا جِيلًا
 بَعْدَ جِيلٍ حَتَّى أَتَى إِلَى الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ شَارِحَ بْنِ الْحَاجِبِ وَتَلْمِيزَهُ
 وَانْتَقَلَ مِنْ تُونِسَ إِلَى تَلْمُسَانَ فِي ابْنِ الْإِمَامِ وَتَلْمِيزِهِ فَإِنَّهُ قَرَأَ مَعَ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَى
 مَشِيخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَجَالِسَ بَأَعْيَانِهَا وَتَلْمِيزِ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بِتُونِسَ وَابْنِ الْإِمَامِ بِتَلْمُسَانَ
 لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْقَلَّةِ بِمَجِئِ بَخْشِي انْقِطَاعِ سَنَدِهِمْ ثُمَّ أَرْتَحَلَ مِنْ زَوَاوَةِ سِفْرِ
 آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الْمَشْدَلِيُّ وَأَذْرَكَ تَلْمِيزَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ
 الْحَاجِبِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِنَ تَعْلِيمَهُمْ وَقَرَأَ مَعَ شِهَابِ الدِّينِ الْفِرَافِيِّ فِي مَجَالِسَ وَاحِدَةٍ
 وَحَدِّقَ فِي الْعَقَلِيَّاتِ وَالنَّفَلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى الْمَغْرِبِ بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ مُفِيدٍ وَنَزَلَ
 بِبِجَايَةِ وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ فِي طَلَبَتِهَا وَرُبَّمَا انْتَقَلَ إِلَى تَلْمُسَانَ عُمَرَانُ الْمَشْدَلِيُّ مِنْ
 تَلْمِيزِهِ وَأَوْطَنَهَا وَبَثَّ طَرِيقَتَهُ فِيهَا وَتَلْمِيزُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ بِبِجَايَةِ وَتَلْمُسَانَ قَلِيلٌ أَوْ أَقَلُّ
 مِنَ الْقَلِيلِ وَبَقِيَتْ فَاسُ وَسَائِرُ أَقْطَارِ الْمَغْرِبِ خُلُوعًا مِنْ حُسْنِ التَّعْلِيمِ مِنْ لَدُنْ
 انْقِرَاضِ تَعْلِيمِ فَرْطَبَةَ وَالْفَيْرَوَانَ وَلَمْ يَتَّصِلْ سَنَدُ التَّعْلِيمِ فَعَسِرَ عَلَيْهِمْ حُصُولُ الْمَلَكَةِ
 وَالْحَدِّقُ فِي الْعُلُومِ وَأَيَسَّرُ طُرُقُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فَتَقَى اللِّسَانُ بِالْحَاوِرَةِ وَالْمُنَظَرَةِ فِي
 الْمَسَائِلِ الْعَالِمِيَّةِ فَهُوَ الَّذِي يُقَرِّبُ شَأْنَهَا وَيُحْصِلُ مَرَامَهَا فَتَجِدُ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْهُمْ بَعْدَ

ذَهَابَ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ فِي مُلَازِمَةِ الْمَجَالِسِ الْعِلْمِيَّةِ سُكُوتًا لَا يَنْطُقُونَ وَلَا
 يُفَاوِضُونَ وَعِنَايَتُهُمْ بِالْحِفْظِ أَكْثَرُ مِنَ الْحَاجَةِ فَلَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلٍ مِنْ مَلَكََةِ التَّحَرُّفِ
 فِي الْعِلْمِ وَالْعَلِيمِ ثُمَّ بَعْدَ تَحْصِيلِ مَنْ يَرَى مِنْهُمْ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ تَجِدُ مَلَكَتَهُ قَاصِرَةً فِي
 عِلْمِهِ إِنْ فَاوَضَ أَوْ نَظَرَ أَوْ عَلَّمَ وَمَا أَتَاهُمُ الْقُصُورُ إِلَّا مِنْ قِبَالِ التَّعْلِيمِ وَانْقِطَاعِ سَنَدِهِ
 وَإِلَّا لَفَحَفْظُهُمْ أُبْلَغُ مِنْ حِفْظِ سِوَاهُمْ لِشِدَّةِ عِنَايَتِهِمْ بِهِ وَظَنُّهُمْ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمَلَكََةِ
 الْعِلْمِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَمِمَّا يَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ أَنَّ الْمُدَّةَ الْمَعِينَةَ لِسُكْنَى طَلَبَةِ
 الْعِلْمِ بِالْمَدَارِسِ عِنْدَهُمْ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً وَهِيَ بِتُونِسَ خَمْسُ سِنِينَ وَهَذِهِ الْمُدَّةُ بِالْمَدَارِسِ
 عَلَى الْمُتَعَارِفِ هِيَ أَقَلُّ مَا يَتَأَنَّى فِيهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ حُصُولُ مُبْتَغَاهُ مِنَ الْمَلَكََةِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ
 آيَاسٍ مِنْ تَخَصُّبِهَا فَطَالَ أَمْدُهَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْمُدَّةِ لِأَجْلِ عُسْرِهَا مِنْ قِلَّةِ الْجُودَةِ
 فِي التَّعْلِيمِ خَاصَّةً لِأَيَّامِ سَوَى ذَلِكَ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَذَهَبَ رَسْمُ التَّعْلِيمِ مِنْ
 يَتَنَبَّهُمْ وَذَهَبَتْ عِنَايَتُهُمْ بِالْعُلُومِ لِتَنَاقُصِ عُمَرَانِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا مِنْذُ مِثْنِ مِنَ السِّنِينَ
 وَلَمْ يَبْقَ مِنْ رَسْمِ الْعِلْمِ فِيهِمْ إِلَّا فَنُّ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ وَانْحَفَظَ سَنَدُ
 تَعْلِيمِهِ يَتَنَبَّهُمْ فَأَنْحَفَظَ بِحِفْظِهِ وَأَمَّا الْفَقْهُ يَتَنَبَّهُمْ فَرَسْمُ خَوٍّ وَآثَرٌ بَعْدَ عَيْنٍ وَأَمَّا الْعَقْلِيَّاتُ
 فَلَا آثَرٌ وَلَا عَيْنٌ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِانْقِطَاعِ سَنَدِ التَّعْلِيمِ فِيهَا بِتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ وَتَغْلِبِ الْعَدُوِّ
 عَلَى عَامَتِهَا إِلَّا قَلِيلًا بِسِيفِ الْبَحْرِ شَغْلُهُمْ بِمَعَاشِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ شُغْلِهِمْ بِمَا بَعْدَهَا وَاللَّهُ
 غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَلَمْ يَنْقُطِ سَنَدُ التَّعْلِيمِ فِيهِ بَلْ أَسْوَاقُهُ نَافِقَةٌ وَبُحُورُهُ
 زَاخِرَةٌ لِاتِّصَالِ الْعُمَرَانِ الْمَوْفُورِ وَاتِّصَالِ السَّنَدِ فِيهِ وَإِنْ كَانَتْ الْأَمْصَارُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي
 كَانَتْ مَعَادِنَ الْعِلْمِ قَدْ خَرِبَتْ مِثْلَ بَغْدَادَ وَالْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ
 أَدَالَ مِنْهَا بِأَمْصَارٍ أُعْظَمَ مِنْ تِلْكَ وَانْتَقَلَ الْعِلْمُ مِنْهَا إِلَى عِرَاقِ الْعَجَمِ بِخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ
 النِّهْرِ مِنَ الْمَشْرِقِ ثُمَّ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَلَمْ تَزَلْ مَوْفُورَةً وَعُمَرَانُهَا
 مُتَّصِلَةً وَسَنَدُ التَّعْلِيمِ بِهَا قَائِمًا فَأَهْلُ الْمَشْرِقِ عَلَى الْجُمْلَةِ أَرْسَخُوا فِي صِنَاعَةِ تَعْلِيمِ
 الْعِلْمِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ حَتَّى إِنَّهُ لَيُظَنُّ كَثِيرٌ مِنْ رَحَالَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ
 فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَنَّ عُقُولَهُمْ عَلَى الْجُمْلَةِ أَكْمَلُ مِنْ عُقُولِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَنََّّهُمْ أَشَدُّ
 نَبَاهَةً وَأَعْظَمُ كَيْسًا بِغِطَرَتِهِمْ الْأُولَى وَأَنَّ نُفُوسَهُمْ النَّاطِقَةَ أَكْمَلُ بِغِطَرَتِهَا مِنْ نُفُوسِ
 أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَيَعْتَقِدُونَ التَّفَاوُتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَتَشَبَّهُونَ لِذَلِكَ

وَيُؤَلِّمُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ
قُطْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تَقَاوُتٌ بِهَذَا الْمِقْدَارِ الَّذِي هُوَ تَقَاوُتٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ
اللَّهُمَّ إِلَّا الْأَقَالِيمَ الْمُتَحَرِّفَةَ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالسَّابِعِ فَإِنَّ الْأَمْرِجَةَ فِيهَا مُتَحَرِّفَةٌ
وَالنُّفُوسَ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا الَّذِي فَضَّلَ بِهِ أَهْلُ الْمَشْرِقِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ
هُوَ مَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ الْحَضَارَةِ مِنَ الْعَقْلِ الْمَزِيدِ كَمَا نَقَدَّمْ فِي
الصَّنَائِعِ وَتَزِيدُهُ الْآنَ تَحْقِيقًا وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي
الْمَعَاشِ وَالْمَسْكَنِ وَالْبِنَاءِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ
وَمَعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِمْ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقِفُ عِنْدَهَا فِي جَمِيعِ
مَا يَتَنَاولُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكِ حَتَّى كَانَهَا حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ
صَنَائِعُ يَتَلَقَّاهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرْتَبَةٌ بِزَجْجٍ
مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلاً جَدِيداً تَسْتَعِدُّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى وَيَنْتَهِي بِهَا
الْعَقْلُ بِسُرْعَةٍ الْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ وَلَقَدْ بَلَّغْنَا فِي تَعْلِيمِ الصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ غَايَاتٍ
لَا تُدْرِكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْحُمُرَ الْإِنْسِيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُتَجَمِّمَ مِنَ الْمَاشِيِّ وَالطَّائِرِ
مُفْرَدَاتٍ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَعَرَّبُ نُدُورُهَا وَيَفْجَزُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا وَحُسْنُ
الْمَلَكَاتِ فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَّةِ يَزِيدُ الْإِنْسَانَ ذِكَاً فِي عَقْلِهِ
وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ الْمَلَكَاتِ الْخَاصَّةِ لِلنَّفْسِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ
بِالْإِدْرَاكِاتِ وَمَا يُزْجَعُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ فَيَزْدَادُونَ بِذَلِكَ كَيْساً لِمَا يَزْجَعُ إِلَى
النَّفْسِ مِنَ الْآثَارِ الْعِلْمِيَّةِ فَبَطْنُهُ الْعَامِيُّ تَقَاوُتًا فِي الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
الْآثَرِ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مَعَ أَهْلِ الْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الْحَضَرِيَّ مُتَحَلِّياً بِالذِّكَاةِ مُمْتَلِئاً
مِنَ الْكَيْسِ حَتَّى إِنَّ الْبَدَوِيَّ لَيُظَنُّ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ
كَذَلِكَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي مَلَكَاتِ الصَّنَائِعِ وَالْآدَابِ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ
الْحَضَرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْبَدَوِيُّ فَلَمَّا أَمْتَلَأَ الْحَضَرِيُّ مِنَ الصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ
تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَمَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نَفْسَ أَهْلِ الْبَدْوِ
قَاصِرَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَجِبِلَّتِهَا عَنْ فِطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي
أَعْلَى رُتَبَةٍ مِنَ الْفَهْمِ وَالْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ

ذَلِكَ هُوَ دَوْنُ الصَّنَائِعِ وَالتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لَهَا آثَارًا تَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَكَذَا
أَهْلُ الْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رُتْبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا وَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ
أَقْرَبَ إِلَى الْبِدَاوَةِ لَمَّا قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَصْلِ قَبْلَ هَذَا ظَنُّ الْمُغْفَلُونَ فِي بَادِي الرَّأْيِ أَنَّهُ
لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ اخْتَصُوا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ فَتَفَهَّمْهُ
وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

الفصل الثالث

في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعمم الحضارة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا
أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي الْأَمْصَارِ وَعَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهَا فِي الْكَثَرَةِ وَالْقِلَّةِ وَالْحِضَارَةِ
وَالثَّرَفِ تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنَائِعِ فِي الْجُودَةِ وَالْكَثَرَةِ لِأَنَّهُ أَرَزَّ زَائِدًا عَلَى الْمَعَاشِ فَمَتَى
فَضَلَّتْ أَعْمَالُ أَهْلِ الْعُمُرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ أَنْصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعَاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ
فِي خَاصِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى الْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ فِي
الْقَرْيِ وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْبُتْمَدِيَّةِ فَلَا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِي لِفُقْدَانِ الصَّنَائِعِ
فِي أَهْلِ الْبَدْوِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا بَدَلَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِهِ إِلَى الْأَمْصَارِ الْمُسْتَبْحِرَةِ
شَأْنِ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَاعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادِ وَفَرْطَبَةِ وَالْقَيْرَوَانِ وَالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ
لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا صَدَرَ الْإِسْلَامُ وَأَسْنَوَتْ فِيهَا الْحِضَارَةُ كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ الْعِلْمِ
وَتَقَنَّنُوا فِي أَصْطِلَاحَاتِ التَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ الْعُلُومِ وَأَسْتِنْبَاطِ الْمَسَائِلِ وَالْفُنُونِ حَتَّى أَرْبَوَاعِلَى
الْمُتَّقِدِينَ مَبِينًا وَفَاتُوا الْمُتَأَخِّرِينَ وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا وَابْدَعَرُ سُكَّانُهَا انْطَوَى ذَلِكَ الْبَسَاطُ
بِمَا عَلَيْهِ جُمْلَةُ وَفُقِدَ الْعِلْمُ بِهَا وَالتَّعْلِيمُ وَانْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ وَنَحْنُ
لِهَذَا الْعَهْدِ نَرَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِالْقَاهِرَةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ لَمَّا أَنَّ عُمْرَانَهَا مُسْتَبْحِرَةٌ
وَحِضَارَتُهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَتَقَنَّنَتْ وَمِنْ
جَمَانَتِهَا تَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَكْدَ ذَلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لَهُ فِي الْعُصُورِ بِهَا مُنْذُ مَائَتَيْنِ مِنَ
السِّنِينَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ مِنْ أَيَّامِ صَلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلَمْ جَرًّا وَذَلِكَ أَنَّ أُمَرَاءَ
التُّرْكِ فِي دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَّةَ سُلْطَانِهِمْ عَلَى مَنْ يَتَغَلَّفُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
الرِّقِّ أَوِ الْوِلَاءِ وَلِمَا يَخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ الْمَلِكِ وَنُكْبَاتِهِ فَاسْتَكْثَرُوا مِنْ بِنَاءِ الْمَدَارِسِ

وَالزَّوَابَا وَالرُّبُطُ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا الْأَوْقَافَ الْمُغَلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا شِرْكَاً لَوْلَدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَوْ
يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِباً مِنَ الْجَنُوحِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْتِمَاسِ الْأَجُورِ فِي الْمَقَاصِدِ وَالْأَفْعَالِ
فَكَثُرَتْ الْأَوْقَافُ لِذَلِكَ وَعَظُمَتِ الْغَلَاتُ وَالْفَوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَمُعَلِّمُهُ بِكَثْرَةِ
جَرَائِهِمْ مِنْهَا وَارْتَمَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْمَغْرِبِ وَتَفَقَّتْ بِهَا أَسْوَاقُ
الْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِحَارِهَا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَخُوضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَتَبْدَأُ أَوَّلُهَا فِي الْأُمُورِ تَحْصِيلاً وَتَعَالِماً هِيَ
عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ وَصِنْفٌ نَقْلِيٌّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ
وَضَعَهُ وَالْأَوَّلُ هِيَ الْعُلُومُ الْحِكْمِيَّةُ الْفَلَسَفِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ
بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا وَمَسَائِلِهَا وَأَنْتِجَاءِ بَرَاهِينِهَا
وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِفَهُ ^(١) نَظَرُهُ وَيَحْتَنُ عَلَى الصَّوَابِ مِنَ الْخَطَا فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ
إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ وَالثَّانِي هِيَ الْعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى الْخَبَرِ عَنْ
الْوَاضِعِ الشَّرْعِيِّ وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ إِلَّا فِي الْإِلْحَاقِ الْفُرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِالْأَصُولِ
لِأَنَّ الْجُزْئِيَّاتِ الْحَادِثَةَ الْمُتَعَاوِيَةَ لَا تَنْدَرِجُ تَحْتَ النُّقْلِ الْكُلِّيِّ بِعَجَرْدِ وَضْعِهِ فَتَحْتَاجُ
إِلَى الْإِلْحَاقِ بِوَجْهِ قِيَامِيٍّ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقِيَاسَ يَتَفَرَّغُ عَنْ الْخَبَرِ بِثُبُوتِ الْحُكْمِ
فِي الْأَصْلِ وَهُوَ نَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هَذَا الْقِيَاسُ إِلَى النُّقْلِ لِتَفَرُّغِهِ عَنْهُ وَأَضَلُّ هَذِهِ الْعُلُومِ
النَّقْلِيَّةُ كُلُّهَا هِيَ الشَّرْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَاقُ بِذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي تَهَيَّئُهَا لِلْإِفَادَةِ ثُمَّ يَسْتَتَبِعُ ذَلِكَ عُلُومُ
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي هُوَ لِسَانُ الْعِلْمِ وَبِهِ نُزِّلَ الْقُرْآنُ وَأَصْنَافُ هَذِهِ الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ
كَثِيرَةٌ لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ
وَعَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالذَّمِّ أَوْ بِالِاجْتِمَاعِ أَوْ
بِالِإِلْحَاقِ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ بِالْكِتَابِ بَيِّنَاتِ الْفَاطِظِ أَوَّلًا وَهَذَا هُوَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ ثُمَّ
بِإِسْنَادِ نَقْلِهِ وَرَوَاتِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاخْتِلَافِ

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعدياً فنزل وقفته على كلا أي اطلمته عليه قاله نصر

رَوَايَاتِ الْقُرْآنِ فِي قِرَائَتِهِ وَهَذَا هُوَ عِلْمُ الْقِرَاءَاتِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ السُّنَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَالْكَلَامِ
 فِي الرُّوَاةِ النَّاقِلِينَ لَهَا وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ لِيَقَعَ الْوُثُوقُ بِأَخْبَارِهِمْ بِعِلْمٍ مَا يَجِبُ
 الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ هِيَ عُلُومُ الْحَدِيثِ ثُمَّ لَا بُدَّ فِي اسْتِنْبَاطِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ
 مِنْ أُصُولِهَا مِنْ وَجْهِ قَانُونِي يُفِيدُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ هَذَا الْاسْتِنْبَاطِ وَهَذَا هُوَ أُصُولُ الْفَقْهِ
 وَبَعْدَ هَذَا تَحْصُلُ الثَّمَرَةُ بِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ وَهَذَا هُوَ
 الْفَقْهُ ثُمَّ إِنَّ التَّكَلِّيفَ مِنْهَا بَدَنِيٌّ وَمِنْهَا قَلْبِيٌّ وَهُوَ الْخُصُوصُ بِالْإِيمَانِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ
 مِمَّا لَا يُعْتَقَدُ وَهَذِهِ هِيَ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَأُمُورِ الْحُسْنِ وَالنَّعِيمِ
 وَالْعَذَابِ وَالْقَدَرِ وَالْحِجَاجُ عَنْ هَذِهِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقَائِيَّةِ هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي
 الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ لَا بُدَّ أَنْ أَمْتَقِّدَهُ الْعُلُومُ اللَّسَانِيَّةُ لِأَنَّهُ مُتَوَقِّفٌ عَلَيْهَا وَهِيَ أَصْنَافُ
 فِيهَا عِلْمُ اللَّغَةِ وَعِلْمُ النَّحْوِ وَعِلْمُ الْبَيَانِ وَعِلْمُ الْأَدَابِ حَسَبَ مَا نَمُكِّمُ عَلَيْهَا كَلِمَاتُهَا وَهَذِهِ
 الْعُلُومُ النَّفَائِيَّةُ كَأَنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بِالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَهْلِهَا وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ مِلَّةٍ عَلَى الْجُمْلَةِ
 لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَهِيَ مُشَارِكَةٌ لَهَا فِي الْجِنْسِ الْبَعِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ
 الْمُنْزَلَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الْمُبْلَغِ لَهَا وَأَمَّا عَلَى الْخُصُوصِ فَمُبَايَنَةٌ
 لِجَمِيعِ الْمِلَلِ لِأَنَّهَا نَاسِخَةٌ لَهَا وَكُلُّ مَا قَبْلَهَا مِنْ عُلُومِ الْمِلَلِ فَمُجْزُورَةٌ وَالنَّظَرُ فِيهَا مَعْظُورٌ
 فَقَدْ نَهَى الشَّرْعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْكِتَابِ الذُّنُوزَةِ غَيْرِ الْقُرْآنِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكْذِبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
 وَالنَّبَا وَالْإِهْكُمْ وَاحِدٌ وَرَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 وَرَقَةً مِنَ التَّوْرَةِ فَغَضِبَ حَتَّى تَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ أَلَمْ آتِيكُمْ بِهَا بَيِّنَاتٍ نَقِيَّةٍ
 وَاللَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِيٌّ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ النَّفَائِيَّةَ قَدْ
 تَفَقَّتْ أَسْوَاقُهَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَأَنْتَهَتْ فِيهَا مَدَارِكُ النَّاطِرِينَ إِلَى
 الْغَايَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا وَهَذِهِ الْأَصْطِلَاحَاتُ وَزَيَّنَتْ الْفُنُونُ لِحَاجَاتِ مَنْ رَأَى الْغَايَةَ فِي
 الْحُسْنِ وَالْتَّمِيقِ وَكَانَ لِكُلِّ فَنٍّ رِجَالٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَأَوْضَاعٌ يُسْتَفَادُ مِنْهَا التَّعْلِيمُ
 وَاخْتِصَّ الْمَشْرِقُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمَغْرِبُ بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ مِنْهَا حَسَبَ مَا نَذْكُرُهُ الْآنَ عِنْدَ
 تَعْدِيدِ هَذِهِ الْفُنُونِ وَقَدْ كَسَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَسْوَاقُ الْعِلْمِ بِالْمَغْرِبِ لِتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ
 فِيهِ وَانْقِطَاعِ سَنَدِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ كَمَا قَدَّمَ نَاهُ فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ وَمَا أُدْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ

بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِهِ تَفَاقُ الْعِلْمُ فِيهِ وَاتَّصَلَ التَّعْلِيمُ فِي الْعُلُومِ وَفِي مَنَاطِرِ الصَّنَائِعِ
الضَّرُورِيَّةِ وَالْكِمَالِيَّةِ لِكثَرَةِ عُمُرَانِهِ وَالْحِضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجَرَايَةِ
مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ
وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفْتَيْ الْمُصَنَّفِ وَهُوَ
مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طُرُقٍ
مُتَخَلِّفَةٍ فِي بَعْضِ الْأَفْظَانِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي أَدَانِهَا وَتَنَوُّلِ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنْ
اسْتَفْرَتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مَعِينَةٌ تَوَاتَرَتْ نَقْلًا أَيْضًا بِأَدَانِهَا وَاخْتَصَّتْ بِالِاتِّسَابِ إِلَى مَنْ
اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْجَمْعِ الْغَنِيِّ فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أُصُولًا لِلْقِرَاءَةِ وَزُبْدًا
زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخْرَى لِحَقِّقِ السَّبْعَ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتُهَا
فِي الثَّقَلِ وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ
طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْضِطٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَاضٍ فِي
تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ وَأَبَاهُ الْأَكْثَرُ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْأَدَاءِ مِنْهَا
كَالْمَدِّ وَالتَّسْهِيلِ لِعَدَمِ التَّوْفُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَلَمْ يَزَلِ الْقِرَاءَةُ
يَتَدَاوَلُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ وَرِوَايَتُهَا إِلَى أَنْ كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدُونَتْ فَكُتِبَتْ فِيهَا كُتُبُ
مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً مَخْصُوصَةً وَعِلْمًا مُفْرَدًا وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ
فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَ
مُعْتَبَرًا بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لَمَّا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَامِرِ
وَاجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ بِمَحَضَرَتِهِ فَكَانَ مِنْهُمْ فِي
ذَلِكَ وَافِرًا وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَّةٍ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَتَفَقَّتْ بِهَا سُوقُ
الْقِرَاءَةِ لِمَا كَانَ هُوَ مِنْ أئِمَّتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُومًا وَبِالْقِرَاءَاتِ
خُصُوصًا فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا وَانْتَهَتْ إِلَى
رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَأْلِيفُهُ فِيهَا وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَّلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَاعْتَمَدُوا

مِنْ يَنْبَإِ كِتَابِ التَّبْسِيرِ لَهُ ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيهِ مِنَ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ أَبُو الْقَاسِمِ
 ابْنُ فَيْزَةَ مِنْ أَهْلِ شَاطِئَةِ قَعْمَدَ إِلَى تَهْدِيبِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلْخِيصِهِ فَنَظَّمَ ذَلِكَ
 كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَفَزَ فِيهَا أَسْمَاءُ الْقُرَاءِ بِحُرُوفِ اب ج د تَرْتِيبًا أَحْكَمَهُ لِيَتَبَسَّرَ عَلَيْهِ مَا
 قَصَدَهُ مِنَ الْإِخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا فَاسْتَوْعَبَ فِيهَا الْفَنَّ اسْتِيعَابًا
 حَسَنًا وَعَنَى النَّاسُ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ الْهَلَعَيْنِ وَجَرَى أَهْمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ
 الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَرُبَّمَا أُضِيفَتْ إِلَى فَنِّ الْقُرَاءَاتِ فَنُّ الرِّثْمِ أَيْضًا وَهِيَ أَوْضَاعُ
 حُرُوفِ الْقُرْآنِ فِي الْمُنْخَفِ وَرُسُومُهُ الْخَطِيَّةُ لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفًا كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى
 غَيْرِ الْمَعْرُوفِ مِنْ فِئَاسِ الْخَطِّ كَزِيَادَةِ الْيَاءِ فِي بَابِدَ وَزِيَادَةِ الْآلِفِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ
 وَلَا أَوْضَعُوا وَالْوَاوِ فِي جَزَاءِ وَالظَّالِمِينَ وَحَذَفَ الْآلِفَاتِ فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا
 رُسِمَ فِيهِ مِنَ الْإِنَاءَاتِ مَمْدُودًا وَالْأَصْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى ذِكْرِ كُلِّ الْهَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ
 مَرَّ تَعْلِيلُ هَذَا الرِّثْمِ الْمُخْتَصِنِي عِنْدَ الْكَلَامِ فِي الْخَطِّ فَلَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةُ
 لِأَوْضَاعِ الْخَطِّ وَقَانُونِهِ أَحْبَبَجَ إِلَى حَضَرِهَا فَكُتِبَ النَّاسُ فِيهَا أَيْضًا عِنْدَ كَتَبِهِمْ
 فِي الْعُلُومِ وَأَنْتَهَتْ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرٍو الدَّانِي الْمَذْكُورِ فَكُتِبَ فِيهَا كُتُبًا مِنْ
 أَشْهَرِهَا كِتَابُ الْمُقْنِعِ وَأَخَذَ بِهِ النَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَنَظَّمَهُ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّاطِئِيُّ فِي
 قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى رَوِيِّ الرِّثْمِ وَوَلَعَ النَّاسُ بِحِفْظِهَا ثُمَّ كَثُرَ الْخِلَافُ فِي الرِّثْمِ فِي
 كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سَالِمَانُ بْنُ نُبَاحٍ مِنْ مَوَالِي نُبَاهِدٍ فِي
 كُتُبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي عَمْرٍو الدَّانِي وَالْمَشْتَهَرُ بِحَمَلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتُبِهِ ثُمَّ نُقِلَ
 بَعْدَهُ خِلَافٌ آخَرٌ فَنَظَّمَ الْخُرَّازُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ أَرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا
 عَلَى الْمُقْنِعِ خِلَافًا كَثِيرًا وَعَزَّاهُ لِتَاقِلِيهِ وَأَشْتَهَرَتْ بِالْمَغْرِبِ وَاقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا
 وَهَجَرُوا بِهَا كُتُبَ أَبِي دَاوُدَ وَأَبِي عَمْرٍو وَالشَّاطِئِيِّ فِي الرِّثْمِ.

(واما التفسير) . فَأَعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ نُزِلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِيبِ بِلَاغَتِهِمْ
 فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَائِكِيهِ وَكَانَ يُنْزَلُ جُمْلًا جُمْلًا
 وَأَبَاتِ أَبَاتٍ لِبَيَانِ التَّوْحِيدِ وَالْفُرُوضِ الدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْعَقَائِدِ
 الْإِيمَانِيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ الْجَوَارِحِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِّمُ وَمِنْهَا مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ
 نَاسِخًا لَهُ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ الْحُجْمَلَ وَيُمَيِّزُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ.

وَيَعْرِفُهُ أَصْحَابُهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ آيَاتِهِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولًا عَنْهُ كَمَا
عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إِنَّمَا نَعِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمثالُ
ذَلِكَ وَنَقْلُ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ التَّابِعُونَ مِنْ
بَعْدِهِمْ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ الْمَعَارِفُ
عُلُومًا وَدَوْنَتِ الْكُتُبُ فَكُتِبَ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنُقِلَتِ الْأَثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الطَّبَرِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ وَالثَّعَالِبِيِّ وَأَمثالُ ذَلِكَ مِنَ
الْمُفَسِّرِينَ فَكَتَبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ مِنَ الْأَثَارِ ثُمَّ صَارَتْ عُلُومُ اللِّسَانِ
صِنَاعِيَّةً مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ الْأَعْرَابِ وَالبَّلَاغَةِ فِي التَّرَاكِبِ
فَوُضِعَتِ الدَّوَاوِينُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يَرْجِعُ فِيهَا إِلَى نَقْلِ وَلَا
كِتَابٍ فَتَنُومِي ذَلِكَ وَصَارَتْ تُنْتَلَقَى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ اللِّسَانِ فَأَحْبَبَ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ
الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَعَلَى مِنْهَااجِ بِلَاغَتِهِمْ وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ تَفْسِيرٌ ثَقُلِيٌّ
مُسْتَدِيرٌ إِلَى الْأَثَارِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابُ النُّزُولِ
وَمَقَاصِدُ الْآيِ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ
فِي ذَلِكَ وَأَوْعَزَا إِلَّا أَنْ كُتِبَتْهُمْ وَمَنْقُولَانِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَالْمَقْبُولِ
وَالْمَرْدُودِ وَالسَّبَبِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَابَتْ
عَلَيْهِمُ الْبِدَاوَةُ وَالْأُمِّيَّةُ وَإِذَا تَشَوَّفُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا انْتَشَقُوا إِلَيْهِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ
فِي أَسْبَابِ الْمُكُونَاتِ وَبَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلَ
الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبَعَ دِينَهُمْ مِنَ
النَّصَارَى وَأَهْلُ التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا
مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ خَيْرِ الَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ
فَلَمَّا اسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَتْ عَنْدهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاطُونَ
لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحِذْثَانِ وَالْمَلَاخِمِ وَأَمثالُ ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ
مِثْلُ كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَوَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَمثالُهُمْ فَأَمَثَلَتِ التَّفَاسِيرُ
مِنَ الْمَنْقُولَاتِ عَنْدهُمْ فِي أَمثالِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا
يَرْجِعُ إِلَى الْأَحْكَامِ فَتُتَحَرَّى فِي الصِّحَّةِ الَّتِي يُجِبُّ بِهَا الْعَمَلُ وَتَسَاهَلُ الْمُفَسِّرُونَ فِي

مِثْلَ ذَلِكَ وَمَلَأُوا كُتُبَ التَّفْسِيرِ بِهَذِهِ الْمُنْقُولَاتِ وَأَصْلَهَا كَمَا قُلْنَا عَنْ أَهْلِ التَّوَرَاةِ
الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ وَلَا تَحْقِيقَ عِنْدَهُمْ بِمَعْرِفَةٍ مَا يَقُولُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ
صِيَتِهِمْ وَعَظُمَتِ أَقْدَارُهُمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ فَتَلَقَّيْتُ
بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمئِذٍ فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّخْيِصِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ
عَطِيَّةٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى
الصَّحَّةِ مِنْهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوِلٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ حَسَنَ التَّمَقُّقِ
وَتَبِعَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقَةِ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ آخَرَ مَشْهُورٍ بِالْمَشْرِقِ
وَالصَّنْفُ الْآخَرُ مِنَ التَّفْسِيرِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى اللِّسَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّغَةِ وَالْإِعْرَابِ
وَالْبَلَاغَةِ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى بِحَسَبِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَسَالِبِ وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ التَّفْسِيرِ قَلٌّ
أَنْ يَنْتَرِدَ عَنْ الْأَوَّلِ إِذِ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعْدَ أَنْ صَارَ
اللِّسَانُ وَعُلُومُهُ صِنَاعَةً نَعَمَ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ غَالِبًا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا اشْتَمَلَ
عَلَيْهِ هَذَا الْفَنُّ مِنَ التَّفَاسِيرِ كِتَابُ الْكَشَافِ لِلزَّمَخْشَرِيِّ مِنْ أَهْلِ خَوَازِمِ الْعِرَاقِ
إِلَّا أَنَّ مَوْاقِفَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِعْتَزَالِ فِي الْعِقَائِدِ فَيَأْتِي بِالْحِجَاجِ عَلَى مَذَاهِبِهِمُ الْفَاسِدَةِ حَيْثُ
تَعَرَّضُ فِي آيِ الْقُرْآنِ مِنْ طُرُقِ الْبَلَاغَةِ فَصَارَ ذَلِكَ لِلْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنْعُرَافٌ
عَنْهُ وَتَحْدِيرٌ لِلْجُمْهُورِ مِنْ مَكَانِهِ مَعَ إِفْرَاقِهِمْ بِرُسُوحِ قَدَمِهِ فَيَسْمَعُونَ بِإِلْتِقَائِهِ بِاللِّسَانِ وَالْبَلَاغَةِ
وَإِذَا كَانَ النَّظَرُ فِيهِ وَاقِفًا مَعَ ذَلِكَ عَلَى الْمَذَاهِبِ السُّنِّيَّةِ مُحْسِنًا لِلْحِجَاجِ عَنْهَا فَلَا جَرَمَ
إِنَّهُ مَا مَوَّنَ مِنْ غَوَائِلِهِ فَلَتَغْتَنِمَ مُطَالَعَتُهُ لِعَرَابَةِ فُنُونِهِ فِي اللِّسَانِ وَلَقَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا فِي
هَذِهِ الْعُصُورِ تَأْلِيفٌ لِبَعْضِ الْعِرَاقِيِّينَ وَهُوَ شَرَفُ الدِّينِ الطَّبَّيُّ مِنْ أَهْلِ تَوْرِيذٍ مِنْ
عِرَاقِ الْعَجَمِ شَرَحَ فِيهِ كِتَابَ الزَّمَخْشَرِيِّ هَذَا وَتَبَعَ الْفَازَّةَ وَتَعَرَّضَ لِمَذَاهِبِهِ فِي
الْإِعْتَزَالِ بِأَدِلَّةٍ تَزَيِّفُهَا وَيُبَيِّنُ أَنَّ الْبَلَاغَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي الْآيَةِ عَلَى مَا يَرَاهُ أَهْلُ السُّنَّةِ
لَا عَلَى مَا يَرَاهُ الْمُعْتَزِلَةُ فَأَحْسَنَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ مَعَ إِمْتِنَاعِهِ فِي سَائِرِ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

الفصل السادس

في علوم الحديث

وَأَمَّا عُلُومُ الْحَدِيثِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ لِأَنَّ مِنْهَا مَا يُنْظَرُ فِي نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ

وَذَلِكَ بِمَا ثَبَتَ فِي شَرِيعَتِنَا مِنْ جَوَازِ النَّسْخِ وَوُقُوعِهِ لُطْفًا مِنْ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَتَخْفِيفًا عَنْهُمْ
بِاعْتِبَارِ مَصَالِحِهِمُ الَّتِي تَكْفُلُ لَهُمْ بِهَا قَالَ تَعَالَى مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ
مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا فَإِذَا تَعَارَضَ الْخَبَرَانِ بِالْإِنْفِي وَالْإِثْبَاتِ وَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِبَعْضِ التَّأْوِيلِ
وَعَلِمَ تَقْدِمُ أَحَدُهُمَا تَعَيَّنَ أَنَّ الْمَتَأَخَّرَ نَاسِخٌ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنْ أَهَمِّ عُلُومِ
الْحَدِيثِ وَأَصْعَبُهَا قَالَ الزُّهْرِيُّ أَعْيَا الْفُقَهَاءُ وَأَعْجَزُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنْسُوخِهِ وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ وَمِنْ
عُلُومِ الْأَحَادِيثِ النَّظَرُ فِي الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ
عَلَى السَّنَدِ الْكَامِلِ الشَّرْطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجِبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ مِنْ
اِخْتِبَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُجْتَهِدُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَحْصِلُ ذَلِكَ الظَّنُّ وَهُوَ
بِمَعْرِفَةِ رِوَاةِ الْحَدِيثِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَعْلَامِ الَّذِينَ
يَتَعَدَّلُهُمْ وَبِرَأْيِهِمْ مِنَ الْجَرْحِ وَالْفَقْلَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْقَبُولِ أَوْ التَّرْكِ
وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُ هَؤُلَاءِ النُّقْلَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفَاوُثُهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ
وَاحِدًا وَاحِدًا وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتْ بِاتِّصَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِأَنْ يَكُونَ الرَّاوي لَمْ يَلْقَ
الرَّاويَ الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِإِسْلَامَتِهَا مِنَ الْعِلَلِ الْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِالتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ
فَحُكْمُ يَقْبُولُ الْأَعْلَى وَرَدَّ الْأَسْفَلُ وَيُخْتَلَفُ فِي الْمُتَوَسِّطِ بِحَسَبِ الْمَنْقُولِ عَنْ
أُئِمَّةِ الشَّانِ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الْقَاطِ أَصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ مِثْلَ
الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالضَّعِيفِ وَالْمُرْسَلِ وَالْمُنْقَطِعِ وَالْمُعْضِلِ وَالشَّاذِ وَالْغَرِيبِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ مِنْ أَلْقَابِهِ الْمُتَدَاوِلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَوَّبُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنْ الْخِلَافِ
لَأُئِمَّةِ اللِّسَانِ أَوْ الْوَفَاقِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ اخْتِذِ الرِّوَايَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةِ
أَوْ كِتَابَةِ أَوْ مَنَاقِلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَفَاوُتِ رُتَبِهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ
وَالرَّدِّ ثُمَّ اتَّبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامٍ فِي الْقَاطِ نَقَعَ فِي مَثْوُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكَلٍ
أَوْ تَضْعِيفٍ أَوْ مُفْتَرَقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلَفٍ وَمَا يَنْسَبُ ذَلِكَ هَذَا مُعْظَمُ مَا يَنْظَرُ فِيهِ أَهْلُ
الْحَدِيثِ وَغَالِيَهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ نَقْلَةِ الْحَدِيثِ فِي عَصُورِ السَّالِفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ
مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَمِنْهُمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ
بِالشَّامِ وَمِصْرَ بِالْجَمِيعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي أَعْيَانِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ

فِي أَغْصَارِهِمْ فِي الْأَسَانِيدِ عَلَى مَعْنَى سَوَائِهِمْ وَأَمَّا فِي الصَّحِيحَةِ لِإِسْنَادِهِمْ فِي شُرُوطِ
 النَّقْلِ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَتَجَانُّبِهِمْ عَنْ قَبُولِ الْحَبِيْوْلِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ وَسَنَدِ الطَّرِيقَةِ
 الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ السَّلَفِ الْإِمَامِ مَالِكٍ عَالِمِ الْمَدِينَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ثُمَّ اصْطَحَابُهُ مِثْلُ
 الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَانَ عِلْمُ
 الشَّرِيعَةِ فِي مَبْدَأِ هَذَا الْأَمْرِ تَقْلِيدًا مِيزَانًا لَهَا السَّلَفُ وَتَحَرُّوا الصَّحِيحَ حَتَّى اكْتَمَلُواهَا
 وَكَتَبَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ الْمُوطَأِ أَوْدَعَهُ أَصُولَ الْأَحْكَامِ مِنَ الصَّحِيحِ
 الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَرَتَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفِقْهِ ثُمَّ عَنِيَ الْحَافِظُ بِمَعْرِفَةِ طُرُقِ الْأَحَادِيثِ وَأَسَانِيدِهَا
 الْمُخْتَلَفَةِ وَرُبَّمَا يَقَعُ إِسْنَادُ الْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ رِوَاةٍ مُخْتَلَفِينَ وَقَدْ يَقَعُ الْحَدِيثُ
 أَيْضًا فِي أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِاخْتِلَافِ الْعَمَانِيِّ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا وَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ
 إِمَامُ الْمُحَدِّثِينَ فِي عَصْرِهِ فَخَرَّجَ أَحَادِيثَ السُّنَنِ عَلَى أَبْوَابِهَا فِي مُسْنَدِهِ الصَّحِيحِ بِجَمِيعِ الطَّرُقِ
 الَّتِي لِلْحِجَازِيِّينَ وَالْعِرَاقِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ وَاعْتَمَدُوا مِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ دُونَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ
 وَكَرَّرُوا الْأَحَادِيثَ بِسُوقِهَا فِي كُلِّ بَابٍ بِمَعْنَى ذَلِكَ الْبَابِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ الْحَدِيثُ فَتَكَرَّرَتْ
 لِذَلِكَ أَحَادِيثُهُ حَتَّى يُقَالَ إِنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى تِسْعَةٍ ^(١) آَلَفِ حَدِيثٍ وَمِائَتَيْنِ مِنْهَا ثَلَاثَةُ
 آَلَفٍ مُتَكَرِّرَةٍ وَفَرَّقَ الطَّرُقَ وَالْأَسَانِيدَ عَلَيْهَا مُخْتَلَفَةً فِي كُلِّ بَابٍ ثُمَّ جَاءَ الْإِمَامُ
 مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَفَ مُسْنَدَهُ الصَّحِيحَ. حَذَا فِيهِ حَذْوُ
 الْبُخَارِيِّ فِي نَقْلِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ وَحَذَفَ الْمُتَكَرِّرَ مِنْهَا وَجَمَعَ الطَّرُقَ وَالْأَسَانِيدَ
 وَأَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفِقْهِ وَتَرَاجَمَهُ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَوْعِبِ الصَّحِيحَ كُلَّهُ وَقَدْ اسْتَدْرَكَ
 النَّاسُ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ثُمَّ كَتَبَ أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ وَأَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو
 عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ بِأَوْسَعِ مِنَ الصَّحِيحِ وَقَصَدُوا مَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ
 الْعَمَلِ إِمَّا مِنْ الرُّتْبَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْأَسَانِيدِ وَهُوَ الصَّحِيحُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِمَّا مِنْ الَّذِي
 دُونَهُ مِنَ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ إِمَامًا لِلْسُّنَةِ وَالْعَمَلِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَسَانِيدُ الْمَشْهُورَةُ
 فِي الْعِلْمِ وَهِيَ أَمْهَاتُ كُتُبِ الْحَدِيثِ فِي السُّنَةِ فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ
 فِي الْأَغْلَبِ وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ كُلِّهَا هِيَ عِلْمُ الْحَدِيثِ وَرُبَّمَا يُفْرَدُ
 عَنْهَا النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ فَيَجْعَلُ قَنَّا بِرَأْسِهِ وَكَذَا الْغَرِيبُ وَالنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفُ مَشْهُورَةٌ

ثُمَّ الْمُؤْتَلَفُ وَالْمُخْتَلَفُ وَقَدْ آلَفَ النَّاسُ فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَكَثُرُوا وَمِنْ فُحُولِ عُلَمَائِهِ
 وَأُئِمَّتِهِمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاشِي وَتَالِيَتُهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ وَهُوَ الَّذِي هَذَبَهُ وَأَظْهَرَ مُحَاسِنَهُ
 وَأَشْهَرَ كِتَابَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ كَانَ لِعَهْدِ أَوَائِلِ الْمِائَةِ
 السَّابِعَةِ وَتَلَاَهُ مُعْنِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَالْفَنُّ شَرِيفٌ فِي مَغْزَاهُ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا
 يُحْفَظُ بِهِ السُّنَنُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ وَقَدْ انْقَطَعَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَخْرِيجُ شَيْءٍ مِنْ
 الْأَحَادِيثِ وَاسْتِدْرَاجُهَا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ إِذِ الْعَادَةُ تَشْهَدُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةَ عَلَى
 تَعَدُّدِهِمْ وَتَلَاَحُقِ عَصْرِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَكُونُوا لِيُغْفَلُوا شَيْئًا مِنَ السُّنَنِ أَوْ
 يَتْرَكُوا حَتَّى يَعْثُرَ عَلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُ هَذَا بَعِيدٌ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا تَنْصَرِفُ الْعِنَايَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَى
 تَصْحِيحِ الْأُمَمَاتِ الْمَكْتُوبَةِ وَضَبْطِهَا بِالرِّوَايَةِ عَنْ مُصَنِّفِهَا وَالنَّظَرِ فِي أَسَانِيدِهَا إِلَى
 مُؤَلِّفِهَا وَعَرْضِ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ مِنَ الشُّرُوطِ وَالْأَحْكَامِ لِتَتَّصِلَ
 الْأَسَانِيدُ مُحْكَمَةً إِلَى مُنْتَهَاهَا وَلَمْ يَزِيدُوا فِي ذَلِكَ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذِهِ
 الْأُمَمَاتِ الْخَمْسِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . فَأَمَّا الْبُخَارِيُّ وَهُوَ أَعْلَاهَا رُتْبَةً فَاسْتَصْعَبَ النَّاسُ شَرْحَهُ
 وَاسْتَغْلَقُوا مَنَاجِهُهُ مِنْ أَجْلِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَرِجَالِهَا مِنْ
 أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَأَخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِمْ وَلِذَلِكَ
 يُحْتَاجُ إِلَى إِمْعَانِ النَّظَرِ فِي التَّفْقُّهِ فِي تَرَاجِمِهِ لِأَنَّهُ يَتَرَجَّمُ التَّرْجَمَةُ وَيُورَدُ فِيهَا الْحَدِيثُ
 بِسَنَدٍ أَوْ طَرِيقٍ ثُمَّ يَتَرَجَّمُ أُخْرَى وَيُورَدُ فِيهَا ذَلِكَ الْحَدِيثُ بِعَيْنِهِ لِمَا تَضَعُهُ مِنْ أَلْعَنِ
 الَّذِي تَرَجَّمُ بِهِ الْبَابُ وَكَذَلِكَ فِي تَرْجَمَةٍ وَتَرْجَمَةٍ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ الْحَدِيثُ فِي أَبْوَابٍ
 كَثِيرَةٍ بِحَسَبِ مَعَانِيهِ وَأَخْتِلَافِهَا وَمِنْ شَرْحِهِ وَلَمْ يَسْتَوْفِ هَذَا فِيهِ فَلَمْ يَوْفِ حَقَّ الشَّرْحِ
 كَأَبْنِ بَطَّالٍ وَأَبْنِ الْمُهَلَّبِ وَأَبْنِ التَّيْنِ وَنَحْوِهِمْ وَلَقَدْ مِمَّتْ كَثِيرًا مِنْ شُيُخِنَا رَحِمَهُمُ
 اللَّهُ يَقُولُونَ شَرَحَ كِتَابَ الْبُخَارِيِّ دِينَ عَلَى الْأُمَّةِ يَعْنُونَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ لَمْ
 يَوْفِ مَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الشَّرْحِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ . وَأَمَّا صَحِيحُ مُسْلِمٍ فَكَثُرَتْ عِنَايَةُ عُلَمَاءِ
 الْمَغْرِبِ بِهِ وَأَكْبَرُوا عَلَيْهِ وَأَجْمَعُوا عَلَى تَفْصِيلِهِ عَلَى كِتَابِ الْبُخَارِيِّ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ
 مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى شَرْطِهِ وَأَكْثَرُ مَا وَقَعَ لَهُ فِي التَّرَاجِمِ وَأَمَلَى الْإِمَامُ الْمَارِزِيُّ مِنْ
 فَتَاهِ الْمَالِكِيَّةِ عَلَيْهِ شَرْحًا وَسَمَّاهُ الْمُعَلِّمَ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ اشْتَمَلَ عَلَى عَيُونٍ مِنْ عِلْمِ
 الْحَدِيثِ وَفُتُونٍ مِنَ الْفِقْهِ ثُمَّ أَكْمَلَهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَمَّمَهُ وَسَمَّاهُ إِكْمَالَ

المُعلِّمَ وتَلاهُمَا مُنْجِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ بِشَرْحِ اسْتَوْفَى مَا فِي الْكِتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا
 نَجَاءً شَرْحًا وَافِيًا . وَأَمَّا كُتُبُ السَّنَنِ الْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَا خِذَ الْفُقَهَاءُ فَأَكْثَرُ شَرْحِهَا
 فِي كُتُبِ الْفِقْهِ إِلَّا مَا يُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْحَدِيثِ فَكُتِبَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَاسْتَوْفَوْا مِنْ ذَلِكَ
 مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَالْأَسَانِيدِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحَادِيثِ
 الْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ السَّنَةِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ
 وَحَسَنٍ وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَغَيْرِهَا تَنْزِلُهَا أَيْمَةُ الْحَدِيثِ وَجَهَابُذُهُ وَعَرَفُوهَا وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ
 فِي تَصْحِيحِ مَا يَصِحُّ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ كَانَ الْأَيْمَةُ فِي الْحَدِيثِ يُعْرِفُونَ الْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا
 وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ قَلِبَ عَنْ
 وَضْعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ النَّجَّارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ
 وَقَصَدَ الْحَدِيثُ ثَوْنَ امْتِحَانِهِ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَبِلُوا أَسَانِيدَهَا فَقَالَ لَا أَعْرِفُ هَذِهِ
 وَلَكِنْ حَدَّثَنِي فُلَانٌ ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ عَلَى الْوَضْعِ الصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ
 مَتْنٍ إِلَى سَنَدِهِ وَأَفَرَّوْا لَهُ بِالْإِمَامَةِ . وَأَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ الْأَيْمَةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَقَاوَنُوا فِي
 الْإِكْتِسَارِ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَالْإِقْلَالِ فَأَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ
 رِوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثًا أَوْ نَحْوَهَا وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ
 الْمُوطَّأِ ^(١) وَغَايَتُهَا ثَلَاثُمِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ نَحْوَهَا . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي
 مُسْنَدِهِ ثَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلِّ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ فِي ذَلِكَ وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُ
 الْمُبْغِضِينَ الْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنْ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ فِي الْحَدِيثِ فَلِهَذَا قُلْتُ رِوَايَتُهُ
 وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا الْمُعْتَقَدِ فِي كِبَارِ الْأَيْمَةِ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنَ الْكِتَابِ
 وَالسُّنَّةِ وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ مِنَ الْحَدِيثِ فَيَسْعَيْنُ عَلَيْهِ طَلَبُهُ وَرِوَايَتُهُ وَالْجِدُّ وَالتَّشْمِيرُ
 فِي ذَلِكَ لِيَأْخُذَ الدِّينَ عَنْ أَصُولٍ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى الْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُبْلَغِ لَهَا
 وَإِنَّمَا قَلَّ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّ الرِّوَايَةُ لِأَجْلِ الْمَطَاعِنِ الَّتِي تَعْتَرِضُ فِيهَا وَالْعِلَلِ الَّتِي تَعْرِضُ
 فِي طُرُقِهَا سِيمَا وَالتَّجَرُّحُ مُقَدِّمٌ عِنْدَ أَكْثَرِ فِئَوْدِيهِ الْاجْتِهَادُ إِلَى تَرْكِ الْأَخْذِ بِمَا
 يَعْرِضُ مِثْلَ ذَلِكَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَطُرُقِ الْأَسَانِيدِ وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فَتَقِلُّ رِوَايَتُهُ

(١) الذي في شرح الزرقاني على الموطأ حكاه أقوال خمسة في عدة أحاديث أولها ٥٠٠ ثانیها ٧٠٠

ثالثها الف وبنف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الموريني

إِضْعَافٍ فِي الطَّرُقِ هَذَا مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ أَكْثَرُ رَوَايَةٍ لِلْحَدِيثِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِأَنَّ
 الْمَدِينَةَ دَارُ النَّجْرَةِ وَمَأْوَى الصَّحَابَةِ وَمِنْ أَنْتَقَلَ مِنْهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ كُنْ شُغْلُهُمْ بِالْجِهَادِ
 أَكْثَرَ وَالْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ إِنَّمَا قَلَّتْ رَوَايَتُهُ لِمَا شَدَّدَ فِي شُرُوطِ الرِّوَايَةِ وَأَتَّعَمَلَ
 وَضَعَفَ رَوَايَةَ الْحَدِيثِ الْبَقِيَّةِ إِذَا عَارَظَهَا الْفِعْلُ النَّفْسِيُّ وَقَلَّتْ مِنْ أَجْلِهَا رَوَايَةُ فَقَلَّ
 حَدِيثُهُ لِأَنَّهُ تَرَكَ رَوَايَةَ الْحَدِيثِ مُتَعَمِّدًا فَخَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَبَدَّلَ عَلَى أَنَّهُ رِثَ كِبَارِ
 الْمُجْتَهِدِينَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ اعْتِمَادُ مَذْهَبِهِ بَيْنَهُمْ وَالْتِمَاسُ عَلَيْهِ وَاعْتِبَارُهُ رَدًّا وَقَبُولًا
 وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنْ الْمُحَدِّثِينَ وَهُمْ أَجْمَعُونَ فَتَوَسَّعُوا فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَ حَدِيثُهُمْ وَأَنْصَلَّ
 عَنْ أَجْتِهَادٍ وَقَدْ تَوَسَّعَ اصْتِحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَتْ رَوَايَتُهُمْ وَرَوَى الْمُطَّحَاوِيُّ
 فَأَكْثَرَ وَكَتَبَ مُسْنَدَهُ وَهُوَ جَلِيلُ الْقَدْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَبْدُلُ الصَّحِيحَيْنِ لِأَنَّ الشُّرُوطَ
 الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابَيْهِمَا تَجَمُّعُ عَلَيْهَا بَيْنَ الْأُمَّةِ كَمَا قَالُوهُ وَشُرُوطُ
 الْمُطَّحَاوِيِّ غَيْرُ مُتَّفَقٍ عَلَيْهَا كَأَنَّ رَوَايَةَ عَنِ الْمُسْتَوْرِ الْحَالِ وَغَيْرِهِ فَلِهَذَا قُدِّمَ الصَّحِيحَانِ
 بَلْ وَكُتِبَ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةُ عَلَيْهِ لِتَأْخُرَ شَرْطُهُ عَنْ شُرُوطِهِمْ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قِيلَ فِي
 الصَّحِيحَيْنِ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِهِمَا مِنْ جِهَةِ الْإِجْمَاعِ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهِمَا مِنَ الشُّرُوطِ
 الْمَتَّفَقِ عَلَيْهَا فَلَا تَأْخُذُكَ رَيْبَةٌ فِي ذَلِكَ فَالْقَوْمُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالظَّنِّ الْجَمِيلِ بِهِمْ
 وَالنَّاسِ الْخَارِجِ الصَّحِيحَةِ لَهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا فِي حَقَائِقِ الْأُمُورِ

الفصل السابع

فِي عِلْمِ الْفَقْهِ وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ
 أَلْفَقَهُ مَعْرِفَةُ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالْوُجُوبِ وَالْحَذَرِ وَالنَّهْيِ
 وَالْكَرَاهَةِ وَالْإِبَاحَةِ وَهِيَ مُتَلَفَّاءٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ وَمَا نَصَبَهُ الشَّارِعُ لِمَعْرِفَتِهَا
 مِنَ الْأَدِلَّةِ فَإِذَا اسْتُخْرِجَتْ الْأَحْكَامُ مِنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ قِيلَ لَهَا فَهِيَ وَكَانَ السَّلَفُ
 يَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ خَرُورَةٍ أَنَّ
 الْأَدِلَّةَ غَالِبَهَا مِنَ النُّصُوصِ وَهِيَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَفِي اقْتِضَاءَاتِ الْفَاطِهَا لِكَثِيرٍ مِنْ مَعَانِيهَا
 اخْتِلَافٌ بَيْنَهُمْ مَعْرُوفٌ وَأَيْضًا فَالْسُّنَةُ مُخْتَلِفَةٌ الطَّرُقِ فِي الثَّبُوتِ وَاتِّعَارُضُ فِي الْأَكْثَرِ
 أَحْكَامُهَا فَتَحْتَاجُ إِلَى التَّرْجِيحِ وَهُوَ مُخْتَلِفٌ أَيْضًا فَالْأَدِلَّةُ مِنْ غَيْرِ النُّصُوصِ مُخْتَلِفٌ فِيهَا
 وَأَيْضًا فَالْوَقَائِعُ الْمُتَجَدِّدَةُ لَا تُوفَّى بِهَا النُّصُوصُ وَمَا كُنْ مِنْهَا غَيْرَ ظَاهِرٍ فِي الْمَنْصُوصِ

فَيَعْمَلُ عَلَى الْمَنْصُوصِ لِمُشَابَهَةِ بَيْنَهُمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا إِشَارَاتٌ لِلْخِلَافِ ضَرُورِيَّةُ الْوُقُوعِ
وَمِنْ هُنَا وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ إِنَّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا
هَآلَ فُتَيَا وَلَا كَانَ الَّذِينَ يُؤْخَذُ عَنْ جَمِيعِهِمْ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُحْتَصَاً بِالْحَامِلِينَ لِلْقُرْآنِ
الْعَرَبِيِّينَ بِنَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ وَمُتَشَابِهِهِ وَمُحْكَمِهِ وَسَائِرِ دَلَالَتِهِ بِمَا تَلَقَّوهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مِمَّنْ سَمِعَهُ مِنْهُمْ وَمِنْ عَلَيْهِمْ وَكَانُوا يُسَمُّونَ لِذَلِكَ الْقُرَّاءَ أَيْ الَّذِينَ
يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً فَأَخْصَصَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ قَارِئًا لِلْكِتَابِ
بِهَذَا الْأَسْمِ لِقَرَابَتِهِ يَوْمئِذٍ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ صَدَرَ الْعِلَّةُ ثُمَّ عَظُمَتْ أُمُصَارُ الْإِسْلَامِ
وَذَهَبَتِ الْأُمِّيَّةُ مِنَ الْعَرَبِ بِمُمَارَسَةِ الْكِتَابِ وَتَمَكَّنَ الْإِسْتِنْبَاطُ وَكَمُلَ الْفِقْهُ
وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْمًا فَبَدَّلُوا بِأَسْمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرَّاءِ وَانْقَسَمَ الْفِقْهُ فِيهِمْ إِلَى
طَرِيقَتَيْنِ طَرِيقَةِ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَطَرِيقَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَهُمْ
أَهْلُ الْحِجَازِ وَكَانَ الْحَدِيثُ قَلِيلاً فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ لِمَا قَدَّمَاهُ فَانْتَكَبُوا مِنَ الْقِيَاسِ
وَمَهَرُوا فِيهِ فَلِذَلِكَ قِيلَ أَهْلُ الرَّأْيِ وَمُقَدَّمُ جَمَاعَتِهِمُ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ فِيهِ وَفِي
أَصْحَابِهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَإِمَامُ أَهْلِ الْحِجَازِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ انْكَرَ
الْقِيَاسَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَبْطَلُوا الْأَعْمَلَ بِهِ وَهُمْ الظَّاهِرِيَّةُ وَجَعَلُوا الْمَدَارِكَ كُلَّهَا
مُخَصَّرَةً فِي الْمَنْصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ وَرَدُّوا الْقِيَاسَ الْجَلِيَّ وَالْعِلَّةَ الْمَنْصُوصَةَ إِلَى النَّصِّ
لِأَنَّ النَّصَّ عَلَى الْعِلَّةِ نَصٌّ عَلَى الْحُكْمِ فِي جَمِيعِ مَحَالِّهَا وَكَانَ إِمَامُ هَذَا الْمَذْهَبِ دَاوُدُ
ابْنُ عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَأَصْحَابُهُمَا وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الثَّلَاثَةُ هِيَ مَذَاهِبُ الْجُمْهُورِ الْمَشْتَهَرَةِ
بَيْنَ الْأُمَّةِ وَشَدَّ أَهْلُ الْبَيْتِ بِمَذَاهِبِ ابْتِدَعُوهَا وَفَقَّهَ انْتَرَدُوا بِهِ وَبَنَوْهُ عَلَى مَذْهَبِهِمْ
فِي تَنَاوُلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِالْقَدَحِ وَعَلَى قَوْلِهِمْ بِعِصْمَةِ الْأَئِمَّةِ وَرَفَعَ الْخِلَافَ عَنْ
أَقْوَالِهِمْ وَهِيَ كُلُّهَا أَصُولٌ وَاهِيَةٌ وَشَدَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْخَوَارِجُ وَلَمْ يَحْتَفِلِ الْجُمْهُورُ بِمَذَاهِبِهِمْ
بَلْ أَوْسَعُوهَا جَانِبَ الْإِنْكَارِ وَالْقَدَحِ فَلَا نَعْرِفُ شَيْئاً مِنْ مَذَاهِبِهِمْ وَلَا نَرَوِي كُتُبَهُمْ
وَلَا أَثَرَ لَشَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا فِي مَوَاطِنِهِمْ فَكُتِبَ الشَّيْعَةُ فِي بِلَادِهِمْ وَحَيْثُ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ
قَائِمَةً فِي الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْيَمَنِ وَالْخَوَارِجُ كَذَلِكَ وَلِكُلِّ مِنْهُمْ كُتُبٌ وَتَأْلِيفٌ
وَأَرَاةً فِي الْفِقْهِ غَرِيبَةٌ ثُمَّ دُرِسَ مَذْهَبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ الْيَوْمَ بِدُرُوسِ أَيْمَتِهِ وَإِنْكَارِ
الْجُمْهُورِ عَلَى مُنْتَحِلِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي الْكُتُبِ الْمَجْلُودَةِ وَرُبَّمَا يَنْكَفُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّالِبِينَ

مِمَّنْ تَكَلَّفَ بِإِتِّحَالِ مَذْهَبِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ يَرُومُ اخْتِذَ فِقْهِهِمْ مِنْهَا وَمَذْهَبِهِمْ فَلَا
 يَخْلُو بِطَائِلٍ وَيَصِيرُ إِلَى مُخَالَفَةِ الْجُمْهُورِ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا عُدَّ بِهَذِهِ النِّجْلَةِ مِنْ
 أَهْلِ الْبِدْعِ بِنَقْلِهِ الْعِلْمَ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ غَيْرِ مِفْتَاحِ الْمُعَلِّمِينَ وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ
 بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى عُلُوِّ رُتْبَتِهِ فِي حِفْظِ الْحَدِيثِ وَصَارَ إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَهَرَفٍ فِيهِ
 بِاجْتِهَادِ زَعْمِهِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَخَالَفَ إِمَامَهُمْ دَاوُدَ وَتَعَرَّضَ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ
 فَدَقَّمَ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَأَوْسَعُوا مَذْهَبَهُ اسْتِجْهَانًا وَإِنْكَارًا وَتَلَقَّوْا كُتُبَهُ بِالْإِغْفَالِ وَالْتِرْكِ
 حَتَّى إِنَّهَا لَيُخَصَّرُ بَيْنَهَا بِالْأَسْوَأِ وَرُبَّمَا تَمَزَّقَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَذْهَبُ
 أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْحِجَازِ . فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ فَأِمامُهُمُ الَّذِي
 اسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ مَذَاهِبُهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ وَمَقَامُهُ فِي الْفِقْهِ لَا يُلْحَقُ شَيْدَ لَهُ
 بِذَلِكَ أَهْلُ جَلْدَتِهِ وَخُصُوصًا مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ . وَأَمَّا أَهْلُ الْحِجَازِ فَكَانَ إِمَامُهُمْ مَالِكُ
 ابْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَعِيُّ إِمَامَ دَارِ الْهَجْرَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاخْتَصَّ بِزِيَادَةِ مُدْرِكِ آخِرِ
 الْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَ غَيْرِهِ وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ رَأَى
 أَنَّهُمْ فِيمَا يَنْفَسُونَ عَلَيْهِ مِنْ فِعَالٍ أَوْ تَرْكِ مُتَابِعُونَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضَرُورَةٌ لِيَسِيرِهِمْ وَاقْتِدَائِهِمْ
 وَهَكَذَا إِلَى الْجِيلِ الْمُبَاشِرِينَ بِفِعَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآخِذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ
 وَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ أَصُولِ الْأَدَلَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَظَنُّ كَثِيرٌ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ
 فَأَنْكَرَهُ لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِجْمَاعِ لَا يَخُصُّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ سِوَاهُمْ بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ .
 وَأَعْلَمُ أَنَّ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الدِّينِيِّ عَنْ اجْتِهَادِ وَمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى لَمْ يَتَّبِعْ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّمَا أُعْتَبِرَ مِنْ حَيْثُ اتَّبَعَ الْجِيلُ
 بِالْمُشَاهَدَةِ لِلْجِيلِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَضَرُورَةُ اقْتِدَائِهِمْ
 بِعَيْنِ ذَلِكَ يَعُمُّ أَلَمَلَةُ ذُكِرَتْ فِي بَابِ الْإِجْمَاعِ وَالْأَبْوَابِ بِهَا مِنْ حَيْثُ مَا فِيهَا مِنْ
 الْإِتِّفَاقِ الْجَامِعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِجْمَاعِ إِلَّا أَنَّ اتِّفَاقَ أَهْلِ الْإِجْمَاعِ عَنْ نَظَرٍ وَاجْتِهَادٍ
 فِي الْأَدَلَةِ وَاتِّفَاقٍ هُوَ لَاءٌ فِي فِعَالٍ أَوْ تَرْكِ مُسْتَنَدِينَ إِلَى مُشَاهَدَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَوْ ذُكِرَتْ
 الْمَسْأَلَةُ فِي بَابِ فِعَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقَرَّرَ بِهِ أَوْ مَعَ الْأَدَلَةِ الْمُخْتَلَفِ
 فِيهَا مِثْلَ مَذْهَبِ الصَّحَابِيِّ وَشَرَعَ مَنْ قَبْلَنَا وَالْأَسْتِصْحَابِ لَكَانَ الْيَقِينُ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِ
 مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَدْرِيسَ الْمُطَّلِبِيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى رَحَلَ إِلَى الْعِرَاقِ

مِنْ بَعْدِ مَالِكٍ وَلَقِيَ أَصْحَابَ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَمَزَجَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْاَنْجَازِ
 بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَخْتَصَّ بِمَذْهَبٍ وَخَالَفَ مَالِكًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ
 مَذْهَبِهِ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَانَ مِنْ عَلَيْهِ التَّحَدِّثِينَ وَقَرَأَ
 أَصْحَابُهُ عَلَى أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مَعَ وَفُورٍ بِضَاعَتِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ فَأَخْتَصُّوا بِمَذْهَبِ
 آخِرٍ وَوَقَفَ التَّقْلِيدُ فِي الْأَمْصَارِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَدَرَسَ الْمُقْلِدُونَ مِنْ سِوَاهُمْ وَسَدَّ
 النَّاسُ بَابَ الْخِلَافِ وَطَرُقَهُ لَمَّا كَثُرَ تَشَعُّبُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِي الْعُلُومِ وَلَمَّا عَاقَ عَنِ
 الْأُصُولِ إِلَى رُتْبَةِ الْاجْتِهَادِ وَلَمَّا خُشِيَ مِنْ إِسْنَادِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ لَا يُوثِقُ
 بِرَأْيِهِ وَلَا بِدِينِهِ فَصَرَّحُوا بِالْعِزِّ وَالْإِعْوَازِ وَرَدُّوا النَّاسَ إِلَى تَقْلِيدِ هَؤُلَاءِ كُلِّ مَنْ
 أَخْصَصَ بِهِ مِنَ الْمُقْلِدِينَ وَحَظَرُوا أَنْ يَتَدَاوَلَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّلَاعُبِ وَلَمْ يَبْقَ
 إِلَّا تَقْلُ مَذَاهِبِهِمْ وَعَمِلَ كُلُّ مُقْلِدٍ بِمَذْهَبٍ مِنْ قَلَدَهُ مِنْهُمْ بَعْدَ تَضَحُّيهِ الْأُصُولِ
 وَاتِّصَالَ سَنَدِهَا بِالرِّوَايَةِ لِاتِّخْصُوصِ الْيَوْمِ لِلْفَقْهِ غَيْرُ هَذَا وَمُدَّعَى الْاجْتِهَادِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ مَهْجُورٌ تَقْلِيدُهُ وَقَدْ صَارَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ عَلَى تَقْلِيدِ هَؤُلَاءِ
 الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ فَأَمَّا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فَمُقْلَدُهُ قَلِيلٌ لِبُعْدِ مَذْهَبِهِ عَنِ الْاجْتِهَادِ
 وَأَصَالَتِهِ فِي مُعَاضِدَةِ الرِّوَايَةِ وَالْأَخْبَارِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَأَكْثَرُهُمْ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ مِنْ
 بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حِظًّا لِلْسُّنَّةِ وَرِوَايَةِ الْحَدِيثِ وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَقَلَدَهُ
 الْيَوْمَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةُ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ كُلِّهَا لِمَا كَانَ
 مَذْهَبُهُ أَخْصَصَ بِالْعِرَاقِ وَدَارِ السَّلَامِ وَكَانَ تَلْمِيزُهُ صَحَابَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
 فَكَثُرَتْ نَاكِيَاتُهُمْ وَمُنَازَعَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ وَحَسُنَتْ مَبَاحِثُهُمْ فِي الْخِلَافِيَّاتِ وَجَاءُوا
 مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظَرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَبِالْمَغْرِبِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ
 تَقْلَهُ إِلَيْهِ الْقَاضِي بْنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيُّ فِي رِحْلَتِهِمَا وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَمُقْلَدُوهُ
 بِمِصْرَ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهَا وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ
 وَقَاسَمُوا الْحَنَفِيَّةَ فِي الْاَنْتَوَى وَالتَّدْرِيسِ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَعَظُمَتِ مَجَالِسُ الْمُنَظَرَاتِ
 بَيْنَهُمْ وَشُخِّنَتْ كُتُبُ الْخِلَافِيَّاتِ بِأَنْوَاعِ اسْتِدْلَالِهِمْ ثُمَّ دُرِسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ
 الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ وَكَانَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ أُدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي
 عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَشْهَبُ وَأَبْنُ الْقَاسِمِ

وَأَبْنُ الْمَوَازِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ الْحَارِثُ بْنُ مَسْكِينٍ وَبَنُوهُ ثُمَّ أَتَقَرَّضَ فَقَهْ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنْ مِصْرَ
يُظْهِرُ دَوْلَةَ الرَّافِضَةِ وَتَدَاوَلَ بِهَا فَقَهْ أَهْلُ الْبَيْتِ وَتَلَاثَى مَنْ سِوَاهُمْ إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ
دَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ مِنَ الرَّافِضَةِ عَلَى بَدِ صَلاَحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَقَهْ
الشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ فَعَادَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَتَقَفَتْ سُوْفُهُ
وَأَشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُجَنِّي الدِّينِ النَّوَوِيُّ مِنَ الْحَلَبَةِ الَّتِي رَئِيتُ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ
بِالشَّامِ وَعِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ أَيْضًا ثُمَّ ابْنُ الرَّفْعَةِ بِمِصْرَ وَتَقِي الدِّينِ بْنُ
دَقِيقِ الْعِيدِ ثُمَّ أَتَى الدِّينَ السَّبْكِيَّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنْ أَتَى ذَلِكَ إِلَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ
بِمِصْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ الدِّينِ الْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ الْيَوْمَ أَكْبَرُ الشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ
الْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ وَأَمَّا مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَاخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ
أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُقَلِّدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي
الْقَلِيلِ لِمَا أَنَّ رِحْلَتَهُمْ كَانَتْ غَالِبًا إِلَى الْحِجَازِ وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ وَالْمَدِينَةُ يَوْمَئِذٍ دَارُ
الْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ الْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَأَقْتَصَرُوا عَنِ الْإِخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ
الْمَدِينَةِ وَشَيْخِهِمْ يَوْمَئِذٍ وَإِمَامِهِمْ مَالِكٌ وَشُبُوخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتَلْمِيزُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَرَجَعَ
إِلَيْهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ وَأَيْضًا
فَالْبِدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَانُونَ الْخِضَارَةَ الَّتِي
لِأَهْلِ الْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ أُمِيلَ لِمُنَاسَبَةِ الْبِدَاوَةِ وَلِهَذَا لَمْ يَزَلِ الْمَذْهَبُ
الْمَالِكِيُّ غَضًا عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيعُ الْخِضَارَةِ وَتَهْذِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ
وَلَمَّا صَارَ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى
الْإِجْتِهَادِ وَالْقِيَاسِ فَاجْتَأَوْا إِلَى تَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ فِي الْإِلْحَاقِ وَتَنْزِيقِهَا عِنْدَ الْأَشْتِبَاهِ
بَعْدَ الْإِسْتِنَادِ إِلَى الْأَصُولِ الْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ وَصَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِحْتَاجٍ إِلَى
مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّنْظِيرِ أَوْ التَّفْرِيقِ وَاتَّبَعَ مَذْهَبُ إِمَامِهِمْ
فِيهِمَا مَا اسْتَطَاعُوا وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ هِيَ عِلْمُ الْفَقْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ جَمِيعًا مُقَلِّدُونَ
لِمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ أَقْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ فَكَانَ بِالْعِرَاقِ مِنْهُمْ
الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ابْنِ خُوَيْزَمَنْدَادَ وَابْنِ الْأَبَّانِ وَالْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ
الْأَبْهَرِيُّ وَالْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ بْنِ الْقَصَّارِ وَالْقَاضِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَانَ

بعضر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين وطبقتهم ورحل
 من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك
 في الأندلس ودون فيه كتاب الواححة ثم دون العتيبي من تلامذته كتاب العتيبة
 ورحل من أفريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثم انتقل
 إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء إلى القيروان
 بكتابه وسمي الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات فقرأ بها يحنون على أسد ثم ارتحل
 إلى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسدية فرجع عن كثير
 منها وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب
 سحنون فأنت من ذلك فترك الناس كتابه وأتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من
 اختلاط المسائل في الأبواب فكانت تسمى المدونة والخططة وهكذا أهل
 القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواححة والعتيبة ثم اختصر ابن
 أبي زيد المدونة والخططة في كتابه المسمى بالختصر ولخصه أيضاً أبو سعيد
 البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب وأعتدده الشيخة من أهل
 أفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك أعتد أهل الأندلس كتاب العتيبة
 وسجروا الواححة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعمدون هذه الأمهات بالشرح
 والإيضاح والجمع فكتب أهل أفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل
 ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الأندلس
 على العتيبة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في
 الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال
 المذاهب وفرغ الأمهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على
 المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان
 ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب
 لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج
 للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين وابن
 المبشر وابن الأبيات وابن الرشتي وابن شاس وكانت بالأشكندرية في بني عوف

وَبَنِي سَنَدٍ وَأَبْنِ عَطَاءٍ اللَّهُ وَلَمْ أَذِرْ عَمَّنْ أَخَذَهُمَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْحَاجِبِ لِكُنْهٖ جَاءَ بَعْدَ
 أَفْقَرِاضِ دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ وَذَهَابِ فَقِهِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَظُهُورِ فَقَهَاءِ السُّنَّةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ
 وَالْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ آخِرَ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ عَشَرَ عَالَمَهُ الْكَثِيرُ
 مِنْ طَلَبَةِ الْمَغْرِبِ وَخُصُوصًا أَهْلُ بَجَاةٍ لِمَا كَانَ كَبِيرُ مَشِيخَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ
 الرَّوَاوِيُّ هُوَ الَّذِي جَلَبَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصَرَهُ
 ذَلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَأَنْتَشَرَ بِقَطْرِ بَجَاةٍ فِي تَلْمِيذِهِ وَمِنْهُمْ أَنْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ الْمَغْرِبِيَّةِ
 وَطَلَبَةِ الْفُقَهَاءِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ بَتَدَاوُلُونَ قِرَاءَتَهُ وَبَتَدَارُسُونَهُ لِمَا يُؤَثِّرُ عَنِ الشَّيْخِ
 نَاصِرِ الدِّينِ مِنَ التَّرَغِيبِ فِيهِ وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ كَأَبْنِ عَبْدِ السَّلَامِ وَأَبْنِ
 رُشْدٍ وَأَبْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشِيخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقِ حَلَّتِيهِمْ فِي الْإِجَادَةِ فِي ذَلِكَ
 أَبُو عَبْدِ السَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَامَدُونَ كِتَابَ التَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ وَاللَّهُ يَهْدِي
 مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ الْوَرَاثَةِ وَتَضَمُّنِ سِهَامِ الْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصِحُّ بِإِعْتِبَارِ فُرُوضِهَا
 الْأَصُولُ أَوْ مُنَاسَخَتِهَا وَذَلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ الْوَرَثَةِ وَأَنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ
 وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِسَابِ تَضَمُّنِ الْفَرِيضَةِ الْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ الْفُرُوضِ
 جَمِيعًا فِي الْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجْزِئَةٍ وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمُنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ
 مِنْ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ وَتَعْدُدُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَكْثَرِ وَيَقْدَرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَذَلِكَ
 إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتُ وَجْهَيْنِ مِثْلَ أَنْ يُقَرَّ بَعْضُ الْوَرَثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكَرَهُ الْآخَرُ
 فَتُصَحَّحُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ السِّهَامِ ثُمَّ تُقَسَّمُ التَّرِكَةُ عَلَى نِسَبِ سِهَامِ
 الْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ الْفَرِيضَةِ وَكُلُّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَانَ غَالِبًا فِيهِ وَجَعَلُوهُ فَنًا
 مُفْرَدًا وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفُ كَثِيرَةٍ أَشْهُرُ مَا عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ مِنْ مُتَأَخَّرِي الْأَنْدَلُسِ
 كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْخُفَوِيِّ ثُمَّ الْجَعْدِيُّ وَمِنْ مُتَأَخَّرِي
 أَفْرِيقِيَّةِ ابْنُ النُّعْمِ الطَّرَابُلُسِيُّ وَأَمَّا الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فَلَهُمْ فِيهِ
 تَأْلِيفُ كَثِيرَةٌ وَأَعْمَالُ عَظِيمَةٌ صَعِبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ بِاتِّسَاعِ الْبَاعِ فِي الْفِقْهِ وَالْحِسَابِ

وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف
لجميع بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة
يقينية عند ما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين والعلماء من أهل الأمصار بها
عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج
إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والصرف في الجذور
وأمثال ذلك فيملأون بها تاليفهم وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما
يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد الميران وتحصيل المصلحة في
المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتج ألا أكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث
المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى وفي
رواية نصف العلم خرجة أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد
بالفرائض فروض الوراثة والذي يظهر أن هذا التحمل بعيد وأن المراد بالفرائض
إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها وبهذا المعنى
يصح فيها النصفية والثانية وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى
علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص
أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون
والاصطلاحات ولم يكن صدر الإسلام يطلق على هذا إلا على عموميه مشتقاً من
الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به في إطلاقه إلا جميع
الفروض كما قلناه وهي حقيقة الشرعية فلا ينبغي أن يحتمل إلا على ما كان يحتمل
في عصرهم فهو أليق بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل التاسع

في اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات
اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة
وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتأليف وأصول
الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبيضة له فعلى عهد النبي
صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تلتقى بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله

مِخْطَابِ شِفَاهِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى ثَقَلٍ وَلَا إِلَى نَظَرٍ وَقِيَاسٍ وَمِنْ بَعْدِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَعَذَّرَ الْخِطَابُ الشِّفَاهِي وَالْمَحْفَظُ الْقُرْآنُ بِالتَّوَاتُرِ وَأَمَّا السُّنَّةُ فَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى وَجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْنَا مِنْهَا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا بِالثَّقَلِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ وَتَعَيَّنَتْ دَلَالَةُ الشَّرْعِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ثُمَّ يُنْزَلُ الْإِجْمَاعُ مَنْزِلَتَهُمَا لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَى النُّكْرِ عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ مُسْتَنَدٍ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابِتٍ مَعَ شَهَادَةِ الْأَدِلَّةِ بِعِصْمَةِ الْجَمَاعَةِ فَصَارَ الْإِجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الشَّرْعِيَّاتِ ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طُرُقِ اسْتِدْلَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِذَا هُمْ يَقِيسُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِنْهُمَا وَيُنَظِّرُونَ الْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالِ بِإِجْمَاعِ مِنْهُمْ وَتَسْلِيمِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ فَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَمْ تَنْدِرِجْ فِي النُّصُوصِ الثَّابِتَةِ فَقَاسُوهَا بِمَا ثَبَتَ وَالْحَقُّوْهَا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ بِشُرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْتِمَاقِ تُصَحِّحُ تِلْكَ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوْ الْمِثْلَيْنِ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا وَاحِدٌ وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا شَرْعِيًّا بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ وَهُوَ الْقِيَاسُ وَهُوَ رَابِعُ الْأَدِلَّةِ وَاتَّفَقَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي الْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ إِلَّا أَنَّهُ شُدُودٌ وَالْحَقُّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَدِلَّةٍ أُخْرَى لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا إِيضًا مَدَارِكُهَا وَشُدُودُ الْقَوْلِ فِيهَا فَكَانَ أَوَّلَ مَبَاحِثِ هَذَا الْفَنِّ النَّظَرُ فِي كَوْنِ هَذِهِ أَدِلَّةٍ فَأَمَّا الْكِتَابُ فَدَلِيلُهُ الْعَمُوزَةُ الْقَاطِعَةُ فِي مَتْنِهِ وَالتَّوَاتُرُ فِي ثِقَلِهِ فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ مَجَالٌ لِلِاخْتِيَالِ وَأَمَّا السُّنَّةُ وَمَا نُقِلَ إِلَيْنَا مِنْهَا فَالْإِجْمَاعُ عَلَى وَجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِحُّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا مُعْتَصِدًا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ فِي حَيَاتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْفَاقِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ إِلَى النَّوَاحِي بِالْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ أَمْرًا وَنَاهِيًا وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَلِاتِّفَاقِهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى انْكَارِ مُخَالَفَتِهِمْ مَعَ الْعِصْمَةِ الثَّابِتَةِ لِلْأُمَّةِ وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَبِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ هَذِهِ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ ثُمَّ إِنَّ الْمَنْقُولَ مِنَ السُّنَّةِ مُحْتَاجٌ إِلَى تَصْحِيحِ الْخَبَرِ بِالنَّظَرِ فِي طُرُقِ الثَّقَلِ وَعَدَالَةِ النَّاقِلِينَ لِتَمَيِّزِ الْحَالَةِ الْحَصْلَةِ لِلظَّنِّ بِصِدْقِهِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ وَجُوبِ الْعَمَلِ وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ قَوَاعِدِ الْفَنِّ وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ عِنْدَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ وَطَلَبِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْهُمَا

مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهِيَ مِنْ فُصُولِهِ أَيْضًا وَأَبْوَابِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ النَّظَرُ فِي دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعْنَى عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً وَالْقَوَانِينِ اللَّسَانِيَّةِ فِي ذَلِكَ هِيَ عُلُومُ النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْيَبَانِ وَحِينَ كَانَ الْكَلَامُ مُلَكَّةً لِأَهْلِهِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ عُلُومًا وَلَا قَوَانِينٌ وَلَمْ يَكُنِ الْفِقْهُ حَيْثُ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا جَبِلَةٌ وَمُلَكَّةٌ فَلَمَّا فَسَدَتْ الْمُلَكَّةُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ قِيدَهَا الْجَهْلَانَةُ الْمُتَجَرِّدُونَ لِذَلِكَ بِنَقْلِ صَحِيحٍ وَمَقَابِسَ مُسْتَنْبَطَةٍ صَحِيحَةٍ وَصَارَتْ عُلُومًا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْفَقِيهُ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ اسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى خَاصَّةً مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ وَهِيَ اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعْنَى مِنْ أَدِلَّتِهَا الْخَاصَّةِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ وَهُوَ الْفِقْهُ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ الدَّلَالَاتُ الْخَاصَّةُ وَبِهَا تُسْتَفَادُ الْأَحْكَامُ بِحَسَبِ مَا أَصَلَ أَهْلُ الشَّرْعِ وَجَهَانَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ قَوَانِينَ لِهَذِهِ الْإِسْتِفَادَةِ مِثْلَ أَنَّ أَلْفَةً لَا تُثَبِّتُ قِيَاسًا وَالْمُسْتَرَكُّ لَا يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ مَعًا وَالْوَاوُ لَا تُقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَالْعَامُّ إِذَا أُخْرِجَتْ أَفْرَادُ الْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةٌ فِيهَا عِدَاهَا وَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ أَوْ النَّدْبِ وَالْفَوْرُ أَوْ التَّرَاخِي وَالنَّفْيُ يَقْتَضِي النَّسَادَ أَوْ الصَّحَّةَ وَالْمُطْلَقُ هَلْ يُعْمَلُ عَلَى الْمُقْبَدِ وَالنَّصُّ عَلَى الْعَلَّةِ كَافٍ فِي التَّعَدُّدِ أَمْ لَا وَأَمْثَالُ هَذِهِ فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ وَلِكُونِهَا مِنْ مَبَاحِثِ الدَّلَالَةِ كَانَتْ لُغَوِيَّةً ثُمَّ إِنَّ النَّظَرَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ لِأَنَّ فِيهِ تَحْقِيقَ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ فِيمَا يُقَاسُ وَبِمِثَالٍ مِنَ الْأَحْكَامِ وَيَنْفَتِحُ الْوَصْفُ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ الْحُكْمَ عَلَّقَ بِهِ فِي الْأَصْلِ مَنْ تَبَيَّنَ أَوْصَافَ ذَلِكَ أَلْحَلَ أَوْ وَجُودَ ذَلِكَ الْوَصْفِ وَالْفَرْعِ مِنْ مُعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلٍ أُخْرَى مِنْ تَوَانِعِ ذَلِكَ كُلُّهَا قَوَاعِدُ لِهَذَا الْفَنِّ . (واعلم) أَنَّ هَذَا الْفَنَّ مِنَ الْفَنُونِ الْمُسْتَحْدَثَةِ فِي الْعِلْمَةِ وَكَانَ السَّالِفُ فِي غَنِيَّةٍ عَنْهُ بِمَا أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعْنَى مِنَ الْأَلْفَاظِ لَا يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى أَزِيدٍ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَلَكَةِ اللَّسَانِيَّةِ وَأَمَّا الْقَوَانِينُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي اسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ خُصُوصًا فَمِنْهُمْ أَخَذَ مُعْظَمُهَا وَأَمَّا الْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا يَحْتَاجُونَ إِلَى النَّظَرِ فِيهَا لِقُرْبِ الْعَصْرِ وَمُمَارَسَةِ النُّقْلَةِ وَخُبْرَتِهِمْ بِهِمْ فَلَمَّا انْقَرَضَ السَّلَفُ وَذَهَبَ

الصِّدْرُ الْأَوَّلُ وَانْقَلَبَتِ الْعُلُومُ كُلُّهَا صِنَاعَةً كَمَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ قَبْلِ أَحْتِاجِ الْفُقَهَاءِ وَانْجَتِهْدُونَ
 إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ وَالْقَوَاعِدِ لِاسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ مِنَ الْأَدِلَّةِ فَكَتَبُوهَا فَنُصَّ
 قَائِمًا بِرَأْسِهِ سَمُوهُ أَصُولُ الْفِقْهِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِيهِ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
 أَمَلَى فِيهِ رِسَالَتَهُ الْمَشْهُورَةَ تَكَلَّمَ فِيهَا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي وَالْيَكَانِ وَالْخَبَرِ وَالنَّسْخِ
 وَحُكْمِ الْعِلَّةِ الْمَنْصُوصَةِ مِنَ الْقِيَاسِ ثُمَّ كَتَبَ فُقَهَاءُ الْحَنْبَلِيَّةِ فِيهِ وَحَقَّقُوا تِلْكَ الْقَوَاعِدَ
 وَأَوْسَعُوا الْقَوْلَ فِيهَا وَكَتَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ أَيْضًا كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كِتَابَةَ الْفُقَهَاءِ فِيهَا
 أَمَسَ بِالْفِقْهِ وَالْيَقِيْنُ بِالْفُرُوعِ إِكْثَرُ الْأُمَثِلَةِ مِنْهَا وَالشُّوَاهِدِ وَبِنَاءِ الْمَسَائِلِ فِيهَا عَلَى
 الذِّكْرِ الْفِقْهِيَّةِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُجَرِّدُونَ صُورَ تِلْكَ الْمَسَائِلِ عَلَى الْفِقْهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى
 الْأَسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ مَا أَمَكَنَ لِأَنَّهُ غَالِبُ فُنُونِهِمْ وَمُقْتَضَى طَرِيقَتِهِمْ فَكَانَ لِفُقَهَاءِ الْحَنْبَلِيَّةِ
 فِيهَا الْبَدُ الطُّوْلَى مِنَ الْفَوْصِ عَلَى النَّكَتِ الْفِقْهِيَّةِ وَالتِّقَاطِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ مِنْ مَسَائِلِ
 الْفِقْهِ مَا أَمَكَنَ وَجَاءَ أَبُو زَيْدٍ الدَّبُوسِيُّ مِنْ أَتَحْتِهِمْ فَكَتَبَ فِي الْقِيَاسِ بِأَوْسَعٍ مِنْ
 جَمِيعِهِمْ وَتَمَّ الْأَبْنَاءُ وَالشُّرُوطُ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِيهِ وَكَمَلَتْ صِنَاعَةُ أَصُولِ الْفِقْهِ
 بِكَمَالِهِ وَتَهَذَّبَتْ مَسَائِلُهُ وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ وَعَنِ النَّاسِ بِطَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيهِ وَكَانَ
 مِنْ أَحْسَنِ مَا كَتَبَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ كِتَابُ الْبَرْهَانِ لِأَمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَالْمُسْتَصْنَى
 لِلْفَرَائِجِ وَهُمَا مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَكِتَابُ الْعَهْدِ لَعَبْدِ الْجَبَّارِ وَشَرَحَهُ الْمُعْتَمِدُ لِأَبِي الْحُسَيْنِ
 الْبَصْرِيِّ وَهُمَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَكَانَتِ الْأَرْبَعَةُ قَوَاعِدَ هَذَا الْفَنِّ وَأَزْكَاهُ ثُمَّ خُصَّ هَذِهِ
 الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ فَحُلَّانَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهُمَا الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ بْنِ
 الْخَطِيبِ فِي كِتَابِ الْمَحْصُولِ وَسَيْفُ الدِّينِ الْأَمْدِيِّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ وَأَخْتَلَفَتْ
 طَرَائِقُهُمَا فِي الْفَنِّ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالْحِجَاجِ فَأَبْنُ الْخَطِيبِ أَمِيلٌ إِلَى الْأَسْتِكْثَارِ مِنَ
 الْأَدِلَّةِ وَالْأَحْجَاجِ وَالْأَمْدِيُّ مُوَلِّعٌ بِتَحْقِيقِ الْمَذَاهِبِ وَتَقْرِيعِ الْمَسَائِلِ وَأَمَّا كِتَابُ
 الْمَحْصُولِ فَأَخْتَصَرَهُ تَلْمِيزُ الْإِمَامِ سِرَاجِ الدِّينِ الْأَزْمَوِيِّ فِي كِتَابِ التَّحْصِيلِ وَتَأْجُ
 الدِّينِ الْأَزْمَوِيِّ فِي كِتَابِ الْحَاصِلِ وَاقْتَضَتْ شَهَابُ الدِّينِ الْفِرَافِي مِنْهُمَا مُقَدِّمَاتٍ
 وَقَوَاعِدَ فِي كِتَابٍ صَغِيرٍ سَمَّاهُ التَّنْقِیحاتِ وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي كِتَابِ الْمِنْهَاجِ
 وَعَنِ الْمُبْتَدِئِينَ بِهِدَيْنِ الْكُتُبَاتَيْنِ وَشَرَحَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا كِتَابُ الْأَحْكَامِ
 الْأَمْدِيِّ وَهُوَ أَكْثَرُ تَحْقِيقًا فِي الْمَسَائِلِ فَلَخَّصَهُ أَبُو عَمَرَ بْنُ الْحَاجِبِ فِي كِتَابِهِ

المعروف بِالْمُخْتَصَرِ الْكَبِيرِ ثُمَّ اخْتَصَرَهُ فِي كِتَابٍ آخَرَ تَدَاوَلَهُ طَلَبَةُ الْعِلْمِ وَعِنَى أَهْلُ
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِهِ وَبِمُطَالَعَتِهِ وَشَرْحِهِ وَحَصَاتِ زُبْدَةِ طَرِيقَةِ الْمُتَحَكِّمِينَ فِي
 هَذَا الْقَنْ فِي هَذِهِ الْمُخْتَصَرَاتِ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ الْحَنْفِيَّةِ فَكُتِبُوا فِيهَا كَثِيرًا وَكَانَ
 مِنْ أَحْسَنِ كِتَابَةٍ فِيهَا لِلْمُنْقَذِ مِنْ تَأْلِيفِ أَبِي زَيْدٍ الدَّبُوسِيِّ وَأَحْسَنِ كِتَابَةِ الْمُنَآخِرِينَ
 فِيهَا تَأْلِيفُ سَيِّفِ الْإِسْلَامِ الْبَزْدَوِيِّ مِنْ أَتَمِّهِمْ وَهُوَ مُسَوِّعٌ وَجَاءَ ابْنُ السَّاعَاتِيِّ
 مِنْ فُقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ فَجَمَعَ بَيْنَ كِتَابِ الْإِحْكَامِ وَكِتَابِ الْبَزْدَوِيِّ فِي الطَّرِيقَتَيْنِ
 وَسَمَّى كِتَابَهُ بِالْبَدَائِعِ فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَوْضَاعِ وَأَبْدَعِهَا وَأَيْمَنُ الْعُلَمَاءِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ بِتَدَاوُلِهِ قِرَاءَةً وَبَحْثًا وَأَوَّلَعَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ بِشَرْحِهِ وَالْحَالُ عَلَى
 ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ هَذِهِ حَقِيقَةُ هَذَا الْقَنْ وَتَعْيِينُ مَوْضُوعَاتِهِ وَتَعْدِيدُ التَّأْلِيفِ الْمَشْهُورَةِ
 لِهَذَا الْعَهْدِ فِيهِ وَاللَّهُ يَنْفَعُنَا بِالْعِلْمِ وَيَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ بِمَنْعِهِ وَكَرَمِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 (وَأَمَّا الْخِلَافَاتُ) . فَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْفِقْهَ الْمُسْتَنْبَطَ مِنَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ كَثُرَ فِيهِ
 الْخِلَافُ بَيْنَ الْمُجْتَهِدِينَ بِاخْتِلَافِ مَدَارِكِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ خِلَافًا لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ لِعِلْمِ
 قَدَمَانِهِ وَأَتَّسَعَ ذَلِكَ فِي الْمِلَّةِ اتِّسَاعًا عَظِيمًا وَكَانَ لِلْمُقَلِّدِينَ أَنْ يُقَالِدُوا مَنْ شَاءُوا
 مِنْهُمْ ثُمَّ لَمَّا انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْصَارِ وَكَانُوا بِمَكَانٍ
 مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ أَقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى تَقْلِيدِهِمْ وَمَنْعُوا مِنْ تَقْلِيدِ سِوَاهُمْ لِذَهَابِ الْأَجْتِهَادِ
 لِصُعُوبَتِهِ وَتَشَعُّبِ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ مَوَادُّهُ بِاتِّصَالِ الزَّمَانِ وَافْتِقَادِ مَنْ يَقُومُ عَلَى سِوَى
 هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ فَأُفِيَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الْأَرْبَعَةُ أَصُولَ الْمِلَّةِ وَأَجْرَى الْخِلَافِ
 بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَالْآخِذِينَ بِأَحْكَامِهَا تَجَرَّى الْخِلَافُ فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ
 وَالْأَصُولِ الْفِقْهِيَّةِ وَجَرَتْ بَيْنَهُمُ الْمُنَظَّرَاتُ فِي تَضَمُّنِ كُلِّ مِنْهُمْ مَذْهَبٍ إِمَامِيٍّ تَجَرَّى
 عَلَى أَصُولٍ صَوِّحَةٍ وَطَرَائِقَ قَوِيَّةٍ يَحْتَجُّ بِهَا كُلُّ عَلَى مَذْهَبِهِ الَّذِي قَلَّدَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ
 وَأَجْرِبَتْ فِي مَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَفِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْفِقْهِ فِتَارَةٌ يَكُونُ الْخِلَافُ
 بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبُو حَنِيفَةَ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةٌ بَيْنَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ
 يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةٌ بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَكَانَ فِي هَذِهِ
 الْمُنَظَّرَاتِ بَيَانُ مَا خِذَ هُؤُلَاءِ الْأَيْمَةُ وَمَشَارَاتُ اخْتِلَافِهِمْ وَمَوَاقِعُ اجْتِهَادِهِمْ كَانَ هَذَا
 الصِّنْفُ مِنَ الْعِلْمِ يُسَمَّى بِالْخِلَافِيَّاتِ وَلَا بُدَّ لِصَاحِبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا

إِلَى اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُجْتَهِدُ إِلَّا أَنْ الْمُجْتَهِدَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِإِسْتِنْبَاطِ
وَصَاحِبِ الْخِلَافِيَّاتِ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ أَنْ يَهْدِمَهَا الْمُخَالَفُ
بِأَدْلِيهِ وَهُوَ لَعَمْرِي عِلْمٌ جَلِيلٌ الْفَائِدَةُ فِي مَعْرِفَةِ مَا خِذَ الْأَئِمَّةُ وَأَدْلَتِهِمْ وَمَرَاتِ
الْمُطَالَعِينَ لَهُ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ وَتَأْلِيفِ الْحَنْفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَأْلِيفِ
الْمَالِكِيَّةِ لِأَنَّ الْقِيَاسَ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ أَصْلٌ لِلْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا عَرَفْتَ
فَهُمْ لِذَلِكَ أَهْلُ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ . وَأَمَّا الْمَالِكِيَّةُ فَالْأَثَرُ أَكْثَرُ مُعْتَمِدٍ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ
نَظَرٍ وَأَيْضًا فَكَثَرُ أَهْلِ الْقَرْبِ وَهُمْ بِأَدِيَّةِ عَمَلٍ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا فِي الْأَوَّلِ وَلِلْفَرْغِ إِلَى
رَحِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ كِتَابُ الْمَاخِذِ وَلِإِبْيَ زَيْدِ الدَّبُومِيِّ كِتَابُ التَّعْلِيقَةِ وَلِأَبْنِ الْقَصَارِ
مِنْ شُيُوخِ الْمَالِكِيَّةِ عَيُونُ الْأَدْلَةِ وَقَدْ جَمَعَ ابْنُ السَّاعَاتِي فِي مُخْتَصَرِهِ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ
جَمِيعَ مَا يَنْبَغِي عَلَيْهَا مِنَ الْفِقْهِ الْخِلَافِيِّ مُدْرَجًا فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَا يَنْبَغِي عَلَيْهَا مِنَ الْخِلَافِيَّاتِ
(وَأَمَّا الْجِدَالُ) وَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَظَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ
وغيرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَظَرَةِ فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَنَظِّرِينَ
فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي الْإِحْتِجَاجِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ ضَوَابًا وَمِنْهُ مَا
يَكُونُ خَطَأً فَاحْتَاجَ الْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ الْمُتَنَظِّرَانِ عِنْدَ
حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَدِلِّ وَالْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوعُ لَهُ
أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلًّا وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَعْلُ أَعْتِرَاضِهِ أَوْ مُعَارَضَتِهِ وَأَيْنَ
يَجِبُ عَلَيْهِ الشُّكُوتُ وَلِخُصْمِهِ الْكَلَامُ وَالْإِسْتِدْلَالُ وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةُ
بِالْقَوَاعِدِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَذِهِ سَوَالُهُ
كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِهِ وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ الْبَزْدَوِيِّ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَدْلَةِ
الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِسْتِدْلَالِ وَطَرِيقَةُ الْعَمِيدِيِّ وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ
دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيِّ عِلْمٍ كَانَ وَأَكْثَرُهُ اسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ الْمَنَاحِي الْحَسَنَةِ
وَالْمُغَالَطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا أُعْتَبِرْنَا النَّظَرَ الْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي الْغَالِبِ
أَشْبَهُ بِالْقِيَاسِ الْمَغَالِطِيِّ وَالسُّوفِسْطَائِيِّ إِلَّا أَنْ صُورَ الْأَدْلَةِ وَالْأَفْسَسَةِ فِيهِ مُحْفُوظَةٌ
مُرَاعَاةً لِحُرْمَتِهَا فِيهَا طُرُقُ الْإِسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهَذَا الْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ
فِيهَا وَلُتِبَتِ الطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَضَعُ الْكِتَابِ الْمُسَمَّى بِالْإِزْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مِنْ بَعْدِهِ

مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسْفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي
الطَّرِيقَةِ النَّاسُ كَيْفُ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الْأَمْصَارِ إِلَّا سَلَامِيَّةً
وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ خَرُورِيَّةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ الْحِجَاجَ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدَلَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرَّدَ عَلَى الْهُبْتِدَعَةِ
الْمُتَعَرِّفِينَ فِي الْأَعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَسِرِّ هَذِهِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ
هُوَ التَّوْحِيدُ فَلْنَقْدِمْ هُنَا لَطِينَةً فِي بُرْهَانِ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ
الطَّرِيقِ وَالْمَاخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ وَفِيمَا يُنْظَرُ وَيُسِيرُ إِلَى حَدُوثِهِ فِي الْعِلْمَةِ
وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فنَقُولُ إِنَّ الْحَوَادِثَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ الذَّوَاتِ
أَوْ مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَوِ الْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا يَتَقَعُ فِي
مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ حَادِثٌ أَيْضًا فَلَا بُدَّ لَهُ
مِنْ أَسْبَابٍ أُخَرَ وَلَا تَزَالُ تِلْكَ الْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَّةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ
وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَتِلْكَ الْأَسْبَابُ فِي أَرْقَائِهَا تُتَفَسَّحُ وَتُتَضَاعَفُ
طَوْلًا وَعَرْضًا وَيَحَارُ الْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا فَإِذَا لَا يَحْصُرُهَا إِلَّا الْعِلْمُ الْعُلْيَا سِيمَا
الْأَفْعَالُ الْبَشَرِيَّةُ وَالْحَيَوَانِيَّةُ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ
إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقَصْدِ إِلَيْهِ وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ
نَاشِئَةٌ فِي الْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتِلْكَ التَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ
قَصْدِ الْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ
مِنَ التَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ إِذْ لَا يَطْلُعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِيءِ الْأُمُورِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى
تَرْتِيبِهَا إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءٌ يُلْقِيهَا اللَّهُ فِي الْفِكْرِ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ
مَعْرِفَةِ مَبَادِيئِهَا وَغَايَاتِهَا وَإِنَّمَا يُحِيطُ عَلَمًا فِي الْغَالِبِ بِالْإِسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةٌ ظَاهِرَةٌ
وَيَقَعُ فِي مَدَارِكِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ تَخْصُورَةُ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا وَأَمَّا
التَّصَوُّرَاتُ فَنِطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ النَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ النَّفْسِ فَلَا تُدْرِكُ
الْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلًا عَنِ الْإِحَاطَةِ وَتَأَمَّلْ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ النَّظَرِ

إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَادٍ يَهِيمُ فِيهِ الْفِكْرُ وَلَا يَحُلُو مِنْهُ بَطَائِلٌ وَلَا يَنْظُرُ
بِحَقِيقَةٍ قَالَ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ فِي وَقُوفِهِ عَنِ الْأَرْتِقَاءِ إِلَى
مَا فَوْقَهُ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْحِرْمَانِ وَالْخُسْرَانِ
الْمَبِينِ وَلَا تَحْسِبَنَّ أَنَّ هَذَا الْوُقُوفَ أَوْ الرُّجُوعَ عَنْهُ فِي قُدْرَتِكَ وَاخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْ
يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصِغَةً تَسْتَحْكِمُ مِنَ الْخَوْضِ فِي الْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةٍ لَا نَعْلَمُهَا إِذْ لَوْ
عَلِمْنَاهَا لَنَحَرَّزْنَا مِنْهَا فَلَتَنَحَرَّزَ مِنْ ذَلِكَ يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْهَا جُمْلَةً وَأَيْضًا تَوَجُّهُ تَأْثِيرِ
هَذِهِ الْأَسْبَابِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ مُسَبِّحَاتِهَا بَجَهْلٍ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالْعَادَةِ لِاقْتِرَانِ
الشَّاهِدِ بِالْإِسْتِنَادِ إِلَى الظَّاهِرِ وَحَقِيقَةُ التَّأْثِيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ مَجْهُولَةٌ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ
إِلَّا قَلِيلًا فَلِذَلِكَ أَمَرْنَا بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا وَإِلْغَائِهَا جُمْلَةً وَالتَّوَجُّهِ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ
كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا وَمُوجِدِهَا لِنَرْسَخَ صِفَةَ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمْنَا الشَّارِعَ الَّذِي هُوَ
أَعْرَفُ بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِإِطْلَاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ الْحِسِّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ بِشَهِدٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ
فَقَدْ انْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَأَنْ سَجَّ فِي بَحْرِ النَّظَرِ وَابْتَحَثَ عَنْهَا وَعَنْ
أَسْبَابِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَّا بِالْحَبِيبَةِ فَلِذَلِكَ
نَهَانَا الشَّارِعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْأَسْبَابِ وَأَمَرْنَا بِالتَّوْحِيدِ الْمُنْطَلِقِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ
الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ وَلَا تَشَقَّنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْفِكْرُ مِنْ
أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَالْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ وَسَفَهُ
رَأْيِهِ فِي ذَلِكَ وَاعْلَمْ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِي رَأْيِهِ مُنْخَصَرٌّ فِي مَدَارِكِهِ
لَا يَعْدُوهَا وَالْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ أَلَّا تَرَى الْأَصَمَّ كَيْفَ
يُنْخَصِرُ الْوُجُودُ عِنْدَهُ فِي الْحَسُوسَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْمَعْقُولَاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ عِنْدَهُ
صِنْفُ الْمَسْمُوعَاتِ وَكَذَلِكَ الْأَعْمَى أَيْضًا يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَرْتَبَاتِ وَلَوْلَا مَا يَرُدُّهُمْ
إِلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ وَالْمَشِيخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصَرِهِمُ وَالْكَافَّةِ لَمَا أَقْرَأُوا بِهِ لِكِنَّهُمْ
يَتَّبِعُونَ الْكَافَّةَ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ إِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ
سُئِلَ الْحَيَوَانُ الْأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكَرًا لِلْمَعْقُولَاتِ وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ بِالْكُلِّيَّةِ
فَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْبًا مِنَ الْإِدْرَاكِ غَيْرَ مُدْرِكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَنَا مَخْلُوقَةٌ

مُحَدَّثَةٌ وَخَلَقَ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَالْحَضَرُ مَجْهُولٌ وَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ
ذَلِكَ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ فَاتَّبِعْهُمْ إِذْ رَأَاكَ وَمَذَرَكَاتِكَ فِي الْحَضَرِ وَاتَّبِعْ مَا أَمَرَكَ
الشَّارِعُ بِهِ مِنْ اعْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى سَعَادَتِكَ وَأَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُكَ لِأَنَّهُ مِنْ
طَوْرِ فَوْقِ إِدْرَاكِكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعَ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي الْعَقْلِ
وَمَذَارِكِهِ بَلِ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَحْكُمُهُ بِقِيَنِيَّةٍ لَا كَذِبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعُ
أَنْ تَزِنَ بِهِ أُمُورَ التَّوْحِيدِ وَالْآخِرَةِ وَحَقِيقَةَ النُّبُوَّةِ وَحَقَائِقَ الصِّفَاتِ الإِلَهِيَّةِ وَكُلُّ مَا
وَرَاءَ طَوْرِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مُحَالٍ وَمِثَالُ ذَلِكَ مِثَالُ رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ
بِهِ الذَّهَبُ فَطَمَعَ أَنْ يَزِنَ بِهِ الْجِبَالَ وَهَذَا لَا يَذَرُكَ عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَحْكَمِهِ غَيْرُ
صَادِقٍ لَكِنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَهُ وَلَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ حَتَّى يَكُونَتْ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِاللَّهِ
وَبِصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ ذَرَّةٌ مِنْ ذَرَاتِ الْوُجُودِ الْحَاصِلِ مِنْهُ وَتَقَطُّنٌ فِي هَذَا الْغَلْطِ وَمَنْ يُقَدِّمُ
الْعَقْلَ عَلَى السَّمْعِ فِي أُمَثَالِ هَذِهِ الْقَضَايَا وَفُصُورِ فَهْمِهِ وَأَضْمِحْلَالِ رَأْيِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ
لَكَ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ وَإِذْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ فَلَمَّ الْأَسْبَابَ إِذَا تَجَاوَزْتَ فِي الْأَرْتِقَاءِ نِطَاقَ إِدْرَاكِكَ
وَوُجُودَنَا خَرَجْتَ عَنْ أَنْ تَكُونَ مُدْرَكَةً فَبِضِلَّ الْعَقْلُ فِي يَبْدَاءِ الْأَوْهَامِ وَيَحَارُ وَيَنْقَطِعُ
فَإِذَا التَّوْحِيدُ أَوْ الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَّاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَفْوِيضُ ذَلِكَ إِلَى
خَالِقِهَا الْمُحِيطِ بِهَا إِذْ لَا فَاعِلَ غَيْرَهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمُنَا بِهِ إِنَّمَا
هُوَ مِنْ حَيْثُ صُدُورُنَا عَنْهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصِّدِّيقِينَ الْعَجْزُ عَنِ الْإِدْرَاكِ
إِذْ رَأَاكَ ثُمَّ إِنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ فَقَطُّ الَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ
بِحُكْمِي فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْهُ تَكْثِيرُ
بِهَا النَّفْسُ كَمَا أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ أَيْضًا حُصُولُ مَلَكََةِ الطَّاعَةِ
وَالْإِتْقَانِ وَتَفْرِيعُ الْقَلْبِ عَنْ شَوَائِلِ مَا سِوَى الْمَعْبُودِ حَتَّى يَنْقَلِبَ الْمُرِيدُ السَّالِكُ
رَبَانِيًّا وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالِ وَالْعِلْمِ فِي الْعَقَائِدِ فَرَقُ مَا بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْإِتِّصَافِ وَشَرْحُهُ أَنَّ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَذْذُوبٌ إِلَيْهَا
وَيَقُولُ بِذَلِكَ وَيَعْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَا أَخَذَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهُوَ لَوْ رَأَى يَتِيمًا أَوْ
مَسْكِينًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْتَضْعِفِينَ لَفَرَّ عَنْهُ وَأَسْتَنْكَفَ أَنْ يُبَاشِرَهُ فَضْلًا عَنِ التَّمَسُّعِ
عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَطْفِ وَالْخَيْرِ وَالصَّدَقَةِ فَهَذَا إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ

مِنْ رَحْمَةِ الْيَتِيمِ مَقَامَ الْعِلْمِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مَقَامُ الْحَالِ وَالْإِتِّصَافِ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ
 يَحْصُلُ لَهُ مَعَ مَقَامِ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ رَحْمَةَ الْمُسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
 مَقَامٌ آخَرُ أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِتِّصَافُ بِالرَّحْمَةِ وَحُصُولُ مَلَكَتِهَا قَمَقَى رَأَى يَتِيمًا
 أَوْ مُسْكِينًا بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَالتَّمَسَّ الثَّوَابَ فِي الشُّنْقَةِ عَلَيْهِ لَا يَكَادُ يَصِيرُ عَنْ
 ذَلِكَ وَلَوْ دَفَعَ عَنْهُ ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِهِ وَكَذَا عَلَيْكَ بِالتَّوْحِيدِ مَعَ
 اتِّصَافِكَ بِهِ وَالْعِلْمُ حَاصِلٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ خَرُورَةً وَهُوَ أَوْثَقُ مَبْنَى مِنَ الْعِلْمِ الْحَاصِلِ
 قَبْلَ الْإِتِّصَافِ وَلَيْسَ الْإِتِّصَافُ بِحَاصِلٍ عَنِ تَجَرُّدِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقَعَ الْأَمَلُ وَيَتَكَرَّرَ
 مَرَارًا غَيْرَ مُنْخَصِرَةٍ فَتَرْسُخَ الْمَلَكَاتِ وَيَحْصُلَ الْإِتِّصَافُ وَالتَّحْقِيقُ وَيَجِيءُ الْعِلْمُ الثَّانِي
 النَّافِعُ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ الْأَوَّلَ الْعَبْرَدَ عَنِ الْإِتِّصَافِ قَلِيلُ الْجَدْوَى وَالنَّفْعِ وَهَذَا
 عِلْمٌ أَكْثَرُ النَّظَارِ وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَالِي الثَّانِي عَنِ الْعَادَةِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ
 الْكَمَالَ عِنْدَ الشَّارِعِ فِي كُلِّ مَا كَلَّفَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا فَمَا طَلِبَ اعْتِقَادُهُ
 فَالْكَمَالُ فِيهِ فِي الْعِلْمِ الثَّانِي الْحَاصِلِ عَنِ الْإِتِّصَافِ وَمَا طَلِبَ عَمَلُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ
 فَالْكَمَالُ فِيهَا فِي حُصُولِ الْإِتِّصَافِ وَالتَّحْقِيقِ بِهَا ثُمَّ إِنَّ الْأَقْبَالَ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَالْمُؤَاطَبَةِ
 عَلَيْهَا هُوَ الْحَصْلُ لِهَذِهِ الشَّعْرَةِ الشَّرِيفَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَأْسِ الْعِبَادَاتِ
 جَعَلْتُ قُرْآنَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ صَارَتْ لَهُ صِفَةً وَحَالًا يَجِدُ فِيهَا مَتْنَهُ لِدَانِهِ
 وَفُرْقَةً عَيْنِهِ وَأَيْنَ هَذَا مِنْ صَلَاةِ النَّاسِ وَمَنْ لَهْمُ بِهَا فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
 سَاهُونَ اللَّهُمَّ وَفَقْنَا وَاهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ فِي التَّكَالِيفِ
 كُلِّهَا حُصُولُ مَلَكَاتٍ رَاسِخَةٍ فِي النَّفْسِ يَحْصُلُ عَنْهَا عِلْمٌ أَضْطَرَّارِي لِلنَّفْسِ هُوَ التَّوْحِيدُ
 وَهُوَ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ وَهُوَ الَّذِي تَحْصُلُ بِهِ السَّعَادَةُ وَأَنَّ ذَلِكَ سَوَاءٌ فِي التَّكَالِيفِ
 الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ وَيَتَفَهَّمُ مِنْهُ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّكَالِيفِ وَيَتَّبِعُهَا هُوَ بِهَذِهِ
 الْمَثَابَةِ ذُو مَرَاتِبٍ أَوَّلُهَا التَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ الْمُوَافِقُ لِلِّسَانِ وَأَعْلَاهَا حُصُولُ كَيْفِيَّةٍ مِنْ
 ذَلِكَ الْإِعْتِقَادِ الْقَلْبِيِّ وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ مُسْتَوَلِيَّةٌ عَلَى الْقَلْبِ فَيَسْتَتِيعُ الْجَوَارِحَ
 وَتَنْدَرِجُ فِي طَاعَتِهَا جَمِيعُ التَّصَرُّفَاتِ حَتَّى تَنْخَرِطَ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا فِي طَاعَةِ ذَلِكَ التَّصْدِيقِ
 الْإِيمَانِيِّ وَهَذَا أَرْفَعُ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يُقَارِفُ الْمُؤْمِنُ

مَعَهُ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِذْ حُصُولُ الْمَلَائِكَةِ وَرُسُوحُهَا مَانِعٌ مِنَ الْإِنْخِرَافِ عَنْ مَنَاجِيهِ طَرَفَةِ عَيْنٍ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَزِنِي أَلْزَانِي حِينَ يَزِنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَفِي حَدِيثٍ هَرَقْلَ لَمَّا سَأَلَ أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْوَإِهِ فَقَالَ فِي أَحْتَجَابِهِ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُخْطَئَةً لِيَدِينَهُ قَالَ لَا قَالَ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَيْثُ تَغَالُطَ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَلَائِكَةَ الْإِيمَانِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ عُسْرَ عَلَى النَّفْسِ مَخَالَفَتُهَا شَأْنَ الْمَلَائِكَةِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فَإِنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثَابَةِ الْجَبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الْعَالِيَةُ مِنَ الْإِيمَانِ وَهِيَ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعِصْمَةِ لِأَنَّ الْعِصْمَةَ وَاجِبَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ وَجُوبًا سَابِقًا وَهَذِهِ حَاصِلَةُ الْمُؤْمِنِيَّةِ حُصُولًا تَابِعًا لِأَعْمَالِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَهَذِهِ الْمَلَائِكَةُ وَرُسُوحُهَا يَقَعُ التَّفَاوُتُ فِي الْإِيمَانِ كَالَّذِي يُثَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أَقَاوِيلِ السَّلَفِ وَفِي تَرَاجِمِ التَّجَارِيهِ رَفَعِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَابِ الْإِيمَانِ كَثِيرٌ مِنْهُ مِثْلُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ تَطَوُّعَ رَمَضَانَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْمُرَادُ بِهَذَا كُلِّهِ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَإِلَى مَلَائِكَتِهِ وَهُوَ فِعْلِيٌّ وَأَمَّا التَّصْدِيقُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَرَاتِبِهِ فَلَا تَفَاوُتَ فِيهِ فَمَنْ أَعْتَبَرَ أَوَائِلَ الْأَسْمَاءِ وَحَمَلَهُ عَلَى التَّصْدِيقِ مُنِعَ مِنَ التَّفَاوُتِ كَمَا قَالَ أَئِمَّةُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَمَنْ أَعْتَبَرَ أَوَاخِرَ الْأَسْمَاءِ وَحَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي هِيَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ ظَهَرَ لَهُ التَّفَاوُتُ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي اتِّعَادِ حَقِيقَتِهِ الْأُولَى الَّتِي هِيَ التَّصْدِيقُ إِذِ التَّصْدِيقُ مُوجُودٌ فِي جَمِيعِ رُتَبِهِ لِأَنَّهُ أَقَلُّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْخُلَاصُ مِنْ عَهْدَةِ الْكُفْرِ وَالْفَيْصَلُ بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ فَلَا يَعْزِي أَقَلُّ مِنْهُ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَفَاوُتُ وَإِنَّمَا التَّفَاوُتُ فِي الْحَالِ الْحَاصِلَةِ عَنِ الْأَعْمَالِ كَمَا قُلْنَا فَنَاهُ فَاذْهَبْ وَأَعْلَمْ أَنَّ الشَّارِعَ وَصَفَ لَنَا هَذَا الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى الَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ وَعَيْتُ أُمُورًا مَخْصُوصَةً كَلَّفْنَا التَّصْدِيقَ بِهَا بَقُلُوبِنَا وَاعْتِقَادَهَا فِي أَنْفُسِنَا مَعَ الْإِفْرَارِ بِالسِّنَنِ وَهِيَ الْعَقَائِدُ الَّتِي تَقَرَّرَتْ فِي الدِّينِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَهَذِهِ هِيَ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ الْمُقَرَّرَةُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ . وَلَنُشِيرَ إِلَيْهَا مُجْمَلَةً لِتَبَيَّنَ لَكَ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ وَكَيْفِيَّةُ حَدُوثِهِ فَتَقُولُ . إَعْلَمْ أَنَّ الشَّارِعَ لَمَّا أَمَرَنَا بِالْإِيمَانِ بِهَذَا الْخَالِقِ الَّذِي رَدَّ

الْأَفْعَالِ كُلِّهَا إِلَيْهِ وَأَفْرَدَهُ بِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَعَرَفْنَا أَنَّ فِي هَذَا الْإِيمَانِ نَجَاتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ إِذَا حُضِرْنَا لَمْ يُعْرِفْنَا بِكُنْهِ حَقِيقَةِ هَذَا الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ مُتَعَذِّرٌ عَلَى إِدْرَاكِهَا وَمِنْ فَوْقِ طَوْرِنَا فَكَلَّفْنَا أَوَّلًا اعْتِقَادَ تَنْزِيهِهِ فِي ذَاتِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ وَإِلَّا لِمَا صَحَّ أَنَّهُ خَائِفٌ لَهُمْ لِعَدَمِ الْفَارِقِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنْ صِفَاتِ النُّقْصِ وَإِلَّا لِمُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِالْإِتِّحَادِ وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ الْخَلْقُ لِلنِّمَانِعِ ثُمَّ اعْتِقَادَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ فَبِذَلِكَ نَتِمُّ الْأَفْعَالِ شَاهِدٌ قَضِيَّتِهِ لِكَمَالِ الْإِتِّحَادِ وَالْخَلْقِ وَمُرِيدٌ وَإِلَّا لَمْ يَخْصُصْ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَمُقَدَّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَإِلَّا فَالْإِرَادَةُ حَادِثَةٌ وَأَنَّهُ يُعِيدُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ نَكْمِيًا لِإِعْنَانِيَّتِهِ بِالْإِيجَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرٍ فَإِنْ كَانَ عَبَسًا فَهُوَ لِلْبَقَاءِ السَّرْمَدِيِّ بَعْدَ الْمَوْتِ ثُمَّ اعْتِقَادَ بَعَثَةِ الرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ هَذَا الْعَمَادِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذَلِكَ وَتَعَامُلُ لُطْفِهِ بِنَا فِي الْإِيْتَاءِ بِذَلِكَ وَيَبَاتِ الطَّرِيقَيْنِ وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ هَذِهِ أُمَمَاتُ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بِأَدِلَّتِهَا الْعَقْلِيَّةِ وَأَدِلَّتِهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ كَثِيرٌ وَعَنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ أَخَذَهَا السَّلَفُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا الْأَئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ ذَلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعَقَائِدِ أَكْثَرُ مَثَارِهَا مِنَ الْآيِ الْمُتَشَابِهَةِ فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْخِلَاسِ وَالْمَنَاطِرِ وَالْإِسْتِدْلَالِ بِالْعَقْلِ وَزِيَادَةٍ إِلَى النُّقْلِ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ عِلْمُ الْكَلَامِ وَلُبَّيْنُ لَكَ تَفْصِيلُ هَذَا الْجُمْلِ وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَرَدَّ فِيهِ وَصَفُ الْمَعْبُودِ بِالتَّنْزِيهِ الْمُنْطَلِقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سُلُوبٌ كُلُّهَا وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا وَوَقَعَ فِي كَلَامِ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ثُمَّ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى قَلِيلَةٌ نُوهِمُ التَّشْبِيهَ وَقَضَوْا بِأَنَّ الْآيَاتِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فَأَمَّنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِبَحْثٍ وَلَا تَأْوِيلٍ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ إِفْرَاقُهَا كَمَا جَاءَتْ أَيْ آمَنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِتَأْوِيلِهَا وَلَا تَفْسِيرِهَا لِحُجُوزِ أَنْ تَكُونَ أَبْتِلَاءً فَيَجِبُ الْوَقْفُ وَالْإِذْعَانُ لَهُ وَشَدَّ لِعَصْرِهِمْ مُبْتَدَعَةً اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنَ الْآيَاتِ وَتَوَعَّلُوا فِي التَّشْبِيهِ فَفَرَّقُوا فِي الذَّاتِ بِاعْتِقَادِ الْيَدِ وَالْقَدَمِ وَالْوَجْهِ عَمَلًا بِظَوَاهِرِ وَرَدَتْ بِذَلِكَ فَوَقَعُوا فِي التَّجْسِيمِ الصَّرِيحِ وَمُخَالَفَةِ آيِ التَّنْزِيهِ الْمُنْطَلِقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٍ لِأَنَّ مَعْقُولِيَّةَ الْجِسْمِ تَقْتَضِي النُّقْصَ وَالْإِفْتِقَارَ وَتَغْلِبُ

آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من
التعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرغون من شناعة
ذلك يقولون جسم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع
بين نقي وإثبات إن كان بالمعقولية واحدة من الجسم وإن خالفوا بينهما وتفقوا
المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم أمما من
أسمائه ويتوقف مثله على الأذن وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كما ثبت
الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم إلى التجسيم
فزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات جهة لا كالجهات نزول لا
كالنزول يعنون من الأجسام وأندفع ذلك بما أندفع به الأول ولم يبق في هذه الظواهر
إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والایمان بها كما هي لكلا بكر النبي دلي معانيها بتفنيها
مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا ننظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد
وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ ابن عبد البر وغيرهم فإنهم يعومون دلي هذا
المعنى ولا تغض عنك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم لما
كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالاندوين والتبعث في سائر الانحاء وألفت
المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تغميم هذا التنزيه في أي السلوب
فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة دلي أحكامها
لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات
ولا غيرها وقضوا بنفي السمع والبصر لكونها من عوارض الأجسام وهو مردود
لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وإنما هو إدراك المستمع أو البصر
وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم
بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة
ولقدما بعض الخلفاء عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل
لخلافهم إيسار كثير منهم ودماءهم وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالأدلة
الغالبية على هذه العقائد دفعا في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن
الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونقي التشبيه وأثبت الصفات

الْمَعْنَوِيَّةَ وَقَصَرَ التَّنْزِيهَ عَلَى مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَشَهِدَتْ لَهُ الْأَدَلَّةُ الْمُخَصَّصَةُ لِعُمُومِهِ
 فَأَثَبَتْ الصِّفَاتِ الْأَزْبِجَ الْمَعْنَوِيَّةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ الْقَائِمَ بِالنَّفْسِ بِطَرِيقِ
 النُّقْلِ وَالْعَقْلِ وَرَدَّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهْدُوهُ لِهُذِهِ الْبِدْعِ
 مِنْ الْقَوْلِ بِالصَّلَاحِ وَالْأَصْلَحِ وَالتَّحْسِينِ وَالتَّقْيِيعِ وَكَمَلَ الْعَقَائِدَ فِي الْبَعْثَةِ وَأَحْوَالِ
 الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْحَقَّ بِذَلِكَ الْكَلَامَ فِي الْإِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ
 مِنْ بِدْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ وَإِنَّهُ يُجِبُّ عَلَى النَّبِيِّ تَعْيِينَهَا
 وَالْخُرُوجَ عَنِ الْمَهْدَةِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ وَكَذَلِكَ عَلَى الْأُمَّةِ وَقَصَارَى أَمْرِ الْإِمَامَةِ
 أَنَّهَا قَضِيَّةٌ مَصْلَحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تُلْحَقُ بِالْعَقَائِدِ فَلِذَلِكَ الْحَقُّوهُمَا بِمَسَائِلِ هَذَا الْقَنْ وَتَمَمُوا
 تَجْمُوعَهُ عِلْمَ الْكَلَامِ إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُنَاطَرَةِ عَلَى الْبِدْعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَتْ
 بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَالْخَوْضِ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِبْثَاتِ الْكَلَامِ
 النَّفْسِيِّ وَكَثُرَ أَتْبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَافْتَقَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تَلْمِيزُهُ
 كَابِنَ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي طَرِيقَتِهِمْ
 وَهَذَبَهَا وَوَضَعَ الْمَقْدِمَاتِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا الْأَدَلَّةُ وَالْأَنْظَارُ وَذَلِكَ مِثْلُ إِبْثَاتِ
 الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْخِلَاءِ وَأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِالْعَرَضِ وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أَدِلَّتُهُمْ وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ تَبَعًا لِلْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي وَجُوبِ
 اعْتِقَادِهَا لِتَتَوَقَّفَ تِلْكَ الْأَدَلَّةُ عَلَيْهَا وَأَنَّ بُطْلَانَ الدَّلِيلِ يُؤْذِنُ بِبُطْلَانِ الْمَدْلُولِ
 وَجُمِلَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْفُنُونِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ إِلَّا أَنَّ
 صُورَ الْأَدَلَّةِ تُعْتَبَرُ بِهَا الْأَفْسَسُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي الْعِلْمَةِ وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا
 بَعْضُ الشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ الْمُتَكَلِّمُونَ لِمَلَابَسَتِهَا الْعُلُومُ الْفَلَسَفِيَّةُ الْمُبَايَنَةُ لِلْعَقَائِدِ
 الشَّرْعِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ فَكَانَتْ مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ
 الْبَاقِلَانِيُّ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْعَمَّالِي فَأَمَلَى فِي الطَّرِيقَةِ كِتَابَ الشَّامِلِ وَأَوْسَعَ الْقَوْلَ
 فِيهِ ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ الْإِرْشَادِ وَأَتَمَّغَهُ النَّاسُ إِمَامًا لِعَقَائِدِهِمْ ثُمَّ انْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ
 ذَلِكَ عُلُومُ الْمَنْطِقِ فِي الْعِلْمَةِ وَقَرَأَهُ النَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ
 قَانُونٌ وَمَعْيَارٌ لِلأَدَلَّةِ فَقَطَّ يُسَبَّرُ بِهِ الْأَدَلَّةُ مِنْهَا كَمَا يُسَبَّرُ مِنْ سِوَاهَا ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ
 الْقَوَاعِدِ الْمَقْدِمَاتِ فِي قَنْ الْكَلَامِ لِلْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي

أدلت إلى ذلك وربما أن كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات
والإلهيات فلما سبروها بعميق المنطق ردهم إلى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان
المدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي فصارت هذه الطريقة من مضلّحهم
مباينة للطريقة الأولى ونسبى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة
فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية وجعلوهم من خصوم العقائد المتناسب الكثير
من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المعنى
الغزالي رحمه الله وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة ففوا أثرهم واعتمدوا تقليدكم
ثم توغل المتأخرون من بعدهم في غالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع
في العلمين فحسبوه فيهما واحدا من أشباه المسائل فيهما وأعلم أن المتكلمين
أما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته
وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو
بعض من هذه الكائنات إلا أن نظره فيها يخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في
الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل
وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته
ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الوجود وبالجمل فموضوع علم
الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من
حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك ولشبه
عن تلك العقائد وإذا تأملت حال الفن في حديثه وكيف تدرج كلام الناس فيه
صدرا بعد صدر وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة علمت
حينئذ ما قرزناه لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه ولقد اختلفت الطريقتان
عند هؤلاء المتأخرين والتبس مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد
الفنيين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع
ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تأليفهم إلا أن هذه الطريقة قد بعث بها
بعض طلبة العلم للإطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك
فيها وأما معاذة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فإنما هو للطريقة القديمة

لِلْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْلُهَا كِتَابُ الْإِزْشَادِ وَمَا حَدَا حَدْوَهُ وَمَنْ أَرَادَ إِدْخَالَ الرَّدِّ عَلَى
الْفَلَاسِفَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ بِكُتُبِ الْغَزَالِيِّ وَالْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ فَإِنَّهَا وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا
مُخَالَفَةٌ لِلْإِصْلَاحِ الْقَدِيمِ فَلَيْسَ فِيهَا مِنْ الْإِخْتِلَافِ فِي الْمَسَائِلِ وَالْإِلْتِبَاسِ فِي
الْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ
هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ إِذِ
الْمُلْحِدَةُ وَالْمُبْتَدِعَةُ قَدْ انْقَرَضُوا وَالْأُئِمَّةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كُنُونًا شَأْنُهُمْ فِيمَا كَتَبُوا
وَدَوَّنُوا وَالْأَدَلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ إِنَّمَا أَحْتَاجُوا إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا وَأَمَّا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا
إِلَّا كَلَامُ تَنْزَةِ الْبَارِي عَنْ كَثِيرٍ إِيَّاهُمَا تَهْوَ وَاطْلَافِهِ وَلَقَدْ سَأَلَ الْجَنِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ
قَوْمٍ مَرَّ بِهِمْ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَفِيضُونَ فِيهِ فَقَالَ مَا هَؤُلَاءِ فَقِيلَ قَوْمٌ يُنَزِّهُونَ اللَّهَ
بِالْأَدَلَّةِ عَنْ صِفَاتِ الْخُذُوثِ وَسِمَاتِ النُّقُصِ فَقَالَ تَقِي الْعَيْبَ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ
لَكِنْ قَائِدَتُهُ فِي أَحَادِ النَّاسِ وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ قَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذْ لَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ السُّنَّةِ الْجَهْلُ
بِالْحُجَجِ النَّظَرِيَّةِ عَلَى عَقَائِدِهَا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

الفصل الحادي عشر

في علم التصوف

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الْحَادِثَةِ فِي الْعِلْمَةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
لَمْ تَنْزَلْ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَكِبَارِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ طَرِيقَةَ الْحَقِّ
وَالْهُدَايَةِ وَأَصْلُهَا الْعُكُوفُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِعْرَاضُ عَنْ
زُخْرُفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَالزُّهْدُ فِيمَا يُقْبَلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَالْإِنْقِرَادُ
عَنِ الْخَلْقِ فِي الْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ فَلَمَّا فَشَا الْإِنْقِلَابُ
عَلَى الدُّنْيَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَنَحَ النَّاسُ إِلَى مُخَالَطَةِ الدُّنْيَا اخْتَصَّ الْمُقْبِلُونَ
عَلَى الْعِبَادَةِ بِأَهْلِ الصُّوفِيَّةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَا يَشْهَدُ لِهَذَا الْأَمْرِ
اِشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا قِيَاسٌ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ وَمِنْ قَالَ اِشْتِقَاقُهُ مِنَ الصِّفَا
أَوْ مِنَ الصِّفَةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ اللَّغَوِيِّ قَالَ وَكَذَلِكَ مِنَ الصُّوفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ
يُخْتَصُّوا بِبُلْبُسِهِ قُلْتُ وَالْأَظْهَرُ إِنْ قِيلَ بِالِإِشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ الصُّوفِ وَهُمْ فِي الْغَالِبِ
مُخْتَصُّونَ بِبُلْبُسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّاسِ فِي لُبْسِ قَاحِرِ الثِّيَابِ إِلَى لُبْسِ الصُّوفِ

فَلَمَّا اخْتَصَّ هَؤُلَاءُ بِمَذْهَبِ الزُّهْدِ وَالْإِقْرَادِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ اخْتَصَّوْا
بِمَا خِذَ مَذْرَكَةً لَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ
بِإِدْرَاكِ وَإِدْرَاكُهُ تَوْعَانِ إِدْرَاكِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ وَالْوَهْمِ
وَإِدْرَاكِ لِلْأَحْوَالِ الْقَائِمَةِ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزْنِ وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالرِّضَى وَالْغَضَبِ
وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَالْرُّوحُ الْعَاقِلُ وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الْبَدَنِ تَنْشَأُ مِنْ
إِدْرَاكِاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَأَحْوَالٍ وَهِيَ الَّتِي يُمَيَّزُ بِهَا الْإِنْسَانُ وَبَعْضُهَا يَنْشَأُ مِنْ بَعْضِ
كَمَا يَنْشَأُ الْعِلْمُ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْفَرَحُ وَالْحُزْنُ عَنْ إِدْرَاكِ الْمَوْلَمِ أَوِ الْمُتَلَذِّذِ بِهِ
وَالنَّشَاطُ عَنْ الْحَمَامِ وَالْكَسَلُ عَنِ الْإِعْيَاءِ وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ فِي مُجَاهَدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا
يُذْ وَأَنْ يَنْشَأَ لَهُ عَنْ كُلِّ مُجَاهَدَةٍ حَالٌ نَتِيجَةٌ تِلْكَ الْمُجَاهَدَةُ وَتِلْكَ الْحَالُ إِمَّا أَنْ
تَكُونَ نَوْعَ عِبَادَةٍ فَتَرْتَجِ وَتَصِيرُ مَقَامًا لِلْمُرِيدِ وَإِمَّا أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً وَإِنَّمَا
تَكُونَ صِفَةً حَاصِلَةً لِلنَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ أَوْ نَشَاطٍ أَوْ كَسَلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْمَقَامَاتِ وَلَا يَزَالُ الْمُرِيدُ يَتَرَقَّى مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى التَّوْحِيدِ
وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي فِيهَا الْغَايَةُ الْمَطْلُوبَةُ لِلسَّعَادَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ بِشَهِدٍ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَالْمُرِيدُ لَا يَدْءُلُهُ مِنَ التَّرَقِّي فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ وَأَصْلُهَا
كُلُّهَا الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ وَتَقَدُّمُهَا الْإِيمَانُ وَيُصَاحِبُهَا وَتَنْشَأُ عَنْهَا الْأَحْوَالُ وَالصِّفَاتُ
فَتَأْتِي وَتُتِمَّرَاتُ ثُمَّ تَنْشَأُ عَنْهَا أُخْرَى وَأُخْرَى إِلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ وَإِذَا وَقَعَ
تَقْصِيرٌ فِي النَّتِيجَةِ أَوْ خَلَلٌ فَتَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَتَى مِنْ قَبْلِ التَّقْصِيرِ فِي الَّذِي قَبْلَهُ وَكَذَلِكَ
فِي الْخَوَاطِرِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْوَارِدَاتِ الْقَلْبِيَّةِ فَلِهَذَا يَحْتَاجُ الْمُرِيدُ إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي
سَائِرِ أَعْمَالِهِ وَيَنْظُرُ فِي حَقَائِقِهَا لِأَنَّ حُصُولَ النَّتَائِجِ عَنِ الْأَعْمَالِ خَرُورِيٌّ وَقُصُورُهَا
مِنْ الْخَلَلِ فِيهَا كَذَلِكَ وَالْمُرِيدُ يَجِدُ ذَلِكَ بِذَوْقِهِ وَيَحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى أَسْبَابِهِ وَلَا يُشَارِكُهُمْ
فِي ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْغَفْلَةَ عَنْ هَذَا كَانَتْ شَامِلَةً وَغَايَةَ أَهْلِ الْعِبَادَاتِ
إِذَا لَمْ يَنْتَهُوا إِلَى هَذَا النَّوعِ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِالطَّاعَاتِ مُخْلِصَةً مِنْ نَظَرِ الْفَقْهِ فِي الْأَجْزَاءِ
وَالْإِمْتِنَالِ وَهَؤُلَاءِ يَتَحَنُّونَ عَنْ نَتَائِجِهَا بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ لِيَطْلِعُوا عَلَى أَنَّهَا خَالِصَةٌ مِنْ
التَّقْصِيرِ أَوْ لَا فَظَهَرَ أَنَّ أَصْلَ طَرِيقَتِهِمْ كُلُّهَا مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالْأَرْوَاقِ
وَالْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْ الْمُجَاهَدَاتِ ثُمَّ تَسْتَقِرُّ لِلْمُرِيدِ

مَقَامًا يَتَرَقَّى مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ لَيْسَ مَعَ ذَلِكَ آدَابٌ مَخْصُوصَةٌ بِهِمْ وَأَصْطِلَاحَاتٌ فِي
الْفَاطِيزِ تَدُورُ بَيْنَهُمْ إِذِ الْأَوْضَاعُ اللَّغَوِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْمَعَانِي الْمُتَعَارِفَةِ فَإِذَا عَرَضَ مِنَ
الْمَعَانِي مَا هُوَ غَيْرُ مُتَعَارِفٍ أَصْطَلَحْنَا عَنْ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِلَفْظٍ يَتَسَرَّ فِهْمُهُ مِنْهُ فَلِهَذَا
اخْتَصَّ هَؤُلَاءُ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَيْسَ لِوَاحِدٍ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ الْكَلَامُ
فِيهِ وَصَارَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٌ مَخْصُوصٌ بِالْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفَنَاءِ وَهِيَ الْأَحْكَامُ
الْعَامَّةُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَصِنْفٌ مَخْصُوصٌ بِالْقَوْمِ فِي الْقِيَامِ بِهَذِهِ
الْمُجَاهَدَةِ وَمُخَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَيْهَا وَالْكَلَامُ فِي الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الْعَارِضَةِ فِي طَرِيقِهَا
وَكَيْفِيَّةِ التَّرَقِّي مِنْهَا مِنْ ذَوْقِهِ إِلَى ذَوْقٍ وَشَرَحَ الْأَصْطِلَاحَاتِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَهُمْ فِي
ذَلِكَ فَلَمَّا كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدُونَتْ وَأَلَّتِ الْفُقَهَاءُ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولُهُ وَالْكَلَامُ وَالتَّفْسِيرُ
وغير ذلك كَتَبَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي طَرِيقِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ كَتَبَ فِي
الْوَرَعِ وَمُخَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ فِي الْأَخْذِ وَالتَّرَكِّ كَمَا فَعَلَهُ الْقُشَيْرِيُّ فِي كِتَابِ
الرِّسَالَةِ وَالسَّهَرُورِيُّ فِي كِتَابِ عَوَارِفِ الْمَعَارِفِ وَأَمْثَالُهُمْ وَجَمَعَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ
بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي كِتَابِ الْأَخْيَاءِ فَدَوَّنَ فِيهِ أَحْكَامَ الْوَرَعِ وَالْإِقْتِدَاءِ ثُمَّ بَيَّنَّ آدَابَ
الْقَوْمِ وَسُنَنَهُمْ وَشَرَحَ أَصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي عِبَارَاتِهِمْ وَصَارَ عِلْمُ التَّصَوُّفِ فِي الْبَيْلَةِ عِلْمًا
مُدَوَّنًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الطَّرِيقَةُ عِبَادَةً فَقَطْ وَكَانَتْ أَحْكَامُهَا إِنَّمَا تُنْقَلَى مِنْ صُدُورِ
الرَّجَالِ كَمَا وَقَعَ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ الَّتِي دُونَتْ بِالْكِتَابِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ
وَالْأُصُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمُجَاهَدَةَ وَالْخُلُوعَ وَالتَّزَكُّرَ يَتَّبِعُهَا غَالِبًا كَشْفُ
حِجَابِ الْحُسْنِ وَالْإِطْلَاقُ عَلَى عَوَالِمٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ لِصَاحِبِ الْحُسْنِ إِدْرَاكُ شَيْءٍ مِنْهَا
وَالرُّوحُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَالِمِ وَسَبَبُ هَذَا الْكَشْفِ أَنَّ الرُّوحَ إِذَا رَجَعَ عَنِ الْحُسْنِ
الظَّاهِرِ إِلَى الْبَاطِنِ ضَعُفَتْ أحوَالُ الْحُسْنِ وَقَوِيَّتْ أحوَالُ الرُّوحِ وَغَلَبَ سُلْطَانُهُ
وَتَجَدَّدَ نُشُوهُهُ وَأَعَانَ عَلَى ذَلِكَ التَّزَكُّرُ فَإِنَّهُ كَالْغِدَاءِ لِتَشْمِيَةِ الرُّوحِ وَلَا يَزَالُ فِي نُحُورِ
وَتَزَيُّدٍ إِلَى أَنْ يَصِيرَ شَهِودًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عِلْمًا وَيَكْشِفُ حِجَابَ الْحُسْنِ وَيُبَيِّنُ وُجُودَ
النَّفْسِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَهُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ فَيَتَعَرَّضُ حِينَئِذٍ لِلْمَوَاهِبِ الرَّبَّانِيَّةِ
وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْفَتْحِ الْإِلَهِيِّ وَتَقَرُّبُ ذَاتِهِ فِي تَحْقِيقِ حَقِيقَتِهَا مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى
أَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَهَذَا الْكَشْفُ كَثِيرٌ مَا يَعْزِضُ لِأَهْلِ الْمُجَاهَدَةِ فَيُذَكِّرُ كُنَّ مِنْ حَقَائِقِ

الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الواجهات قبل وقوعها ويتصرفون
 بهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم فالعظماء منهم
 لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يغيرون عن حقيقة شيء لم يؤثروا بالكلم
 فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك تحنة ويتعودون منه إذا هاجهم وقد كانت
 الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه الجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات
 أوفر المخطوط لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي
 رضي الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة من اشتملت رسالة
 القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقهم من بعدهم . ثم إن قوما من المتأخرين
 انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق
 الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح
 العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها
 فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وأنهم كشفوا
 ذات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش إلى النفس هكذا قال الغزالي
 رحمه الله في كتاب الإحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة . ثم إن هذا الكشف
 لا يكون صحيحا كاملا عندهم إلا إذا كان ناشئا عن الاستقامة لأن الكشف قد
 يحصل لصاحب الجوع والخلوة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم
 من المرتاضين وليس مرادنا إلا الكشف النائي عن الاستقامة ومثاله أن المرأة
 الصغيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة وحودي بها جهة المرئي فإنه يشكك فيه معوجا
 على غير صورته وإن كانت مسطحة تشكك فيها المرئي صحيحا فالاستقامة للنفس
 كالانسياط للمرأة فيما ينطبع فيها من الأحوال ولما عني المتأخرون بهذا النوع
 من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح
 والعرش والكرمي وأمثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن
 فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك وأهل الفتيا بين متكبر عليهم ومسلم لهم وليس
 البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق ردا وقبولا إذ هي من قبيل الوجدانيات وربما
 قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فإني بالانغمض

فَالْأَغْمَضُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالْأَصْطِلَاحَاتِ وَالْعُلُومِ كَمَا فَعَلَ الْفَرَّغَانِيُّ شَارِحُ
قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ فِي الدِّيْبَاجَةِ الَّتِي كَتَبَهَا فِي صَدْرِ ذَلِكَ الشَّرْحِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي
صُدُورِ الْوُجُودِ عَنِ الْفَاعِلِ وَتَرْتِيبِهِ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ صَادِرٌ عَنْ صِفَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي
هِيَ مَظْهَرُ الْإِحْدِيَّةِ وَهُمَا مَعًا صَادِرَانِ عَنِ الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْوَحْدَةِ لَا
غَيْرُ وَ يُسَمُّونَ هَذَا الصُّدُورَ بِالتَّجَلِّيِ وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ التَّجَلِّيَّاتِ عِنْدَهُمْ تَجَلِّيُ الذَّاتِ عَلَى نَفْسِهِ
وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْكَمَالَ بِإِفَاضَةِ الْإِبْجَادِ وَالظُّهُورِ لِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَتَنَاقَلُونَهُ
كَتُّ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأَخْبَيْتُ أَنْ أُعْرِفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَعْرِفُونِي وَهَذَا الْكَمَالُ فِي
الْإِبْجَادِ الْمُنَازِلُ فِي الْوُجُودِ وَتَفْصِيلُ الْحَقَائِقِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عَالَمُ الْمَعَانِي وَالْحَضَرَةِ
الْكَمَالِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَفِيهَا حَقَائِقُ الصِّفَاتِ وَاللُّوْحِ وَالْقَلَمِ وَحَقَائِقُ الْأَنْبِيَاءِ
وَالرُّسُلِ أَجْمَعِينَ وَالْكَمَلُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهَذَا كُلُّهُ تَفْصِيلُ الْحَقِيقَةِ
الْمُحَمَّدِيَّةِ وَبَصْدُرُ عَنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ حَقَائِقُ أُخْرَى فِي الْحَضَرَةِ الْهَبَانِيَّةِ وَهِيَ مَرْتَبَةُ
الْمِثَالِ ثُمَّ عَنْهَا الْعَرْشُ ثُمَّ الْكَرْمِيُّ ثُمَّ الْأَفْلَاكُ ثُمَّ عَالَمُ الْعَنَاصِرِ ثُمَّ عَالَمُ التَّرَكِيبِ هَذَا
فِي عَالَمِ الرُّتَبِ فَإِذَا تَجَلَّتْ فِيهِ فِي عَالَمِ الْفَتْحِ وَيُسَمَّى هَذَا الْمَذْهَبُ مَذْهَبَ أَهْلِ التَّجَلِّيِ
وَالْمَظَاهِرِ وَالْحَضَرَاتِ وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقْتَدِرُ أَهْلُ النَّظَرِ إِلَى تَحْصِيلِ مُقْتَضَاهُ لِعُمُومِهِ
وَأَخْلَافِهِ وَبُعْدِ مَا بَيْنَ كَلَامِ صَاحِبِ الْمَشَاهِدَةِ وَالْوُجْدَانِ وَصَاحِبِ الدَّلِيلِ وَرُبَّمَا
أُنْكَرَ بَظَاهِرِ الشَّرْعِ هَذَا التَّرْتِيبُ وَكَذَلِكَ ذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ
الْمُطْلَقَةِ وَهُوَ رَأْيٌ أَغْرَبُ مِنَ الْأَوَّلِ فِي تَعْقِلِهِ وَتَقَارِبِهِ بِزَعْمِهِ أَنِ الْوُجُودَ لَهُ
قُوَى فِي تَفَاصِيلِهِ بِهَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْمَوْجُودَاتِ وَصُورُهَا وَمَوَادُّهَا وَالْعَنَاصِرُ إِنَّمَا كَانَتْ
بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَكَذَلِكَ مَادَّتُهَا لَهَا فِي نَفْسِهَا قُوَّةٌ بِهَا كَانَ وُجُودُهَا ثُمَّ إِنَّ الْمُرَكَّبَاتِ
فِيهَا تِلْكَ الْقُوَى مُتَضَمِّنَةٌ فِي الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ بِهَا التَّرَكِيبُ كَالْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ فِيهَا قُوَى
الْعَنَاصِرِ بِهَيُولَاهَا وَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةُ الْحَيَوَانِيَّةُ لَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْمَعْدِنِيَّةَ
وَزِيَادَةَ قُوَّتِهَا فِي نَفْسِهَا وَكَذَا الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ ثُمَّ الْفَلَكَ تَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ
الْإِنْسَانِيَّةَ وَزِيَادَةَ وَكَذَا الذَّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الْجَلْمِيَّةُ لِلْكُلِّ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ
هِيَ الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي أَنْبَتَتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّيَّةً وَجُزْئِيَّةً وَجَمَعَتْهَا وَأَحَاطَتْ
بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ لَا مِنْ جِهَةِ الظُّهُورِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْخِفَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ وَلَا مِنْ

جِهَةِ الْمَادَّةِ فَالْكُلُّ وَاحِدٌ وَهُوَ نَفْسُ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ بَسِيطَةٌ
 وَلَا عَتَبَارُ هُوَ الْمَفْصَلُ لَهَا كَالْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ إِلَّا تَرَى أَنَّهَا مُنْدرِجَةٌ فِيهَا وَكَائِنَةٌ
 بِكُونِهَا فَتَارَةً يُمَثِّلُونَهَا بِالْجِنْسِ مَعَ النَّوعِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَتَارَةً بِالْكُلِّ
 مَعَ الْجُزْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمِثَالِ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ يَفْرُقُونَ مِنَ التَّرْكِيبِ وَالْكَثَرَةِ بِوَجْهِ
 مِنَ الْوُجُودِ وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا عِنْدَهُمُ الْوَهْمُ وَالْخَيَالُ وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ
 فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَنَّ حَقِيقَةَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْوَحْدَةِ شَبِيهَةٌ بِمَا نَقُولُهُ الْحَكَمَاءُ فِي
 الْأَلْوَانِ مِنْ أَنَّ وُجُودَهَا مَشْرُوطٌ بِالضَّوِّ فَإِذَا عَدِمَ الضَّوُّ لَمْ تَكُنِ الْأَلْوَانُ مَوْجُودَةً
 بِوَجْهِ وَكَذَا عِنْدَهُمُ الْمَوْجُودَاتُ الْحَقُوسَةُ كُلُّهَا مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْعَقْلِيِّ
 فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَفْصَلُ كُلُّهُ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ فَلَوْ فَرَضْنَا عَدَمَ الْمُدْرِكِ
 الْبَشَرِيِّ جُمْلَةً لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَفْصِيلُ الْوُجُودِ بَلْ هُوَ بَسِيطٌ وَاحِدٌ فَالْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَالصَّلَابَةُ
 وَاللِّينُ بَلْ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ وَالسَّمَاءُ وَالْكَوَاكِبُ إِنَّمَا وَجِدَتْ لِوُجُودِ الْحَوَاسِ
 الْمُدْرِكَةِ لَهَا لِمَا جُعِلَ فِي الْمُدْرِكِ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْجُودِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي
 الْمُدَارِكِ فَقَطْ فَإِذَا فَقِدَتْ الْمُدَارِكُ الْمَفْصِلَةَ فَلَا تَفْصِيلَ إِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ
 أَنَا لَا غَيْرُهُ وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحَالِ النَّائِمِ فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَقَعَدَ الْحِسَّ الظَّاهِرَ فَقَدْ كَلَّ
 مُحْسُوسٍ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَّا مَا يَفْصِلُهُ لَهُ الْخَيَالُ قَالُوا فَكَذَا الْيَقْظَانُ إِنَّمَا يَعْتَبَرُ تِلْكَ
 الْمُدْرَكَاتُ كُلُّهَا عَلَى التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مُدْرِكِهِ الْبَشَرِيِّ وَلَوْ قُدِّرَ فَقَدْ مُدْرِكُهُ فَقَدْ التَّفْصِيلُ
 وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمُ الْمَوْهْمُ لَا الْوَهْمُ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ هَذَا
 مُلْخَصُ رَأْيِهِمْ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ وَهُوَ فِي غَايَةِ السَّقُوطِ لِأَنَّا نَقْطَعُ بِوُجُودِ
 الْبَلَدِ الَّذِي نَحْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ بَقِينَا مَعَ غَيْبَتِهِ عَنْ أَعْيُنِنَا وَبِوُجُودِ السَّمَاءِ الْمُظْلَمَةِ
 وَالْكَوَاكِبِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنَّا وَالْإِنْسَانِ فَاطِعٍ بِذَلِكَ وَلَا يُكَايِرُ أَحَدٌ
 نَفْسَهُ فِي الْيَقِينِ مَعَ أَنَّ الْحَقَّاقِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرِيدَ عِنْدَ
 الْكَشْفِ رُبَّمَا يَعْزِضُ لَهُ تَوَهُمٌ هَذِهِ الْوَحْدَةُ وَيُسَمَّى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْجَمْعِ ثُمَّ
 يَتَرَفَّى عَنْهُ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ وَيُعْتَبِرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِمَقَامِ الْفَرْقِ وَهُوَ مَقَامُ
 الْعَارِفِ الْحَقِّقِ وَلَا بُدَّ لِلْمُرِيدِ عِنْدَهُمْ مِنْ عَقَبَةِ الْجَمْعِ وَهِيَ عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ لِأَنَّهُ يُخْشَوُ
 عَلَى الْمُرِيدِ مِنْ وَقُوفِهِ عِنْدَهَا فَتَخْشَرُ صَفَقَتُهُ فَقَدْ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ثُمَّ

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْكُتُبِ وَفِيمَا وَرَاءَ الْحِجْرِ
 تَوَعَّلُوا فِي ذَلِكَ فَذَهَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى الْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَمَلَأُوا
 الصُّحُفَ مِنْهُ مِثْلُ الْهَرَوِيِّ فِي كِتَابِ الْمَقَامَاتِ لَهُ وَغَيْرُهُ وَتَبِعَهُمُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنُ
 سَبْعِينَ وَتَلْمِيزُهُمَا ابْنُ الْعَفِيفِ وَابْنُ الْفَارِضِ وَالنَّجْمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ فِي قَصَائِدِهِمْ وَكَانَ
 سَلَفُهُمْ مَخَالِطِينَ لِلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الرَّافِضَةِ الدَّائِنِينَ أَيْضًا بِالْحُلُولِ وَالْإِلَهِيَّةِ
 الْأَلِيَّةِ مَذْهَبًا لَمْ يُعْرِفْ لِأَوَّلِهِمْ فَأَشْرَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرِيقَيْنِ مَذْهَبَ الْآخَرِ وَأَخْطَلَ
 كَلَامَهُمْ وَتَشَابَهَتْ عَقَائِدُهُمْ وَظَهَرَ فِي كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَمَعْنَاهُ رَأْسُ
 الْعَارِفِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُسَاوِيَهُ أَحَدٌ فِي مَقَامِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقْبُضَهُ
 اللَّهُ ثُمَّ يُورِثَ مَقَامَهُ لِآخَرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ
 الْأَشَارَاتِ فِي فُصُولِ التَّصَوُّفِ مِنْهَا فَقَالَ جُلُّ جَنَابِ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ شَرْعَةً لِكُلِّ وَارِدٍ
 أَوْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ وَهَذَا كَلَامٌ لَا يَقُومُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وَلَا دَلِيلٌ
 شَرْعِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخُطَابَةِ وَهُوَ بَعِينُهُ مَا تَقُولُهُ الرَّافِضَةُ وَدَانُوا بِهِ ثُمَّ قَالُوا
 بِتَرْتِيبِ وُجُودِ الْأَشْيَاءِ بَدَلًا بَعْدَ هَذَا الْقُطْبِ كَمَا قَالَهُ الشَّيْعَةُ فِي النُّقَبَاءِ حَتَّى إِذَا نَهَضُوا
 اسْتَدُّوا لِبَاسَ خِرْقَةِ التَّصَوُّفِ لِيَجْعَلُوهُ أَصْلًا لِمَنْ يَتَّبِعُهُمْ وَيُخَلِّقُهُمْ رَفَعُوهُ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا وَإِلَّا فَعَلِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ
 بِتَخْلِيَةٍ وَلَا طَرِيقَةٍ فِي لِبَاسٍ وَلَا حَالٍ بَلْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَزْهَدَ
 النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكْثَرُهُمْ عِبَادَةً وَلَمْ يُخْتَصَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ
 فِي الدِّينِ بِشَيْءٍ يُؤَثِّرُ عَنْهُ فِي الْخُصُوصِ بَلْ كَانَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ أُسُوةً فِي الدِّينِ وَالزُّهْدِ
 وَالْمُجَاهَدَةِ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَمَا شَحَنُوا
 كُتُبَهُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لِسَلَفِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِيهِ كَلَامٌ يَنْبَغِي أَوْ إِثْبَاتٌ وَإِنَّمَا هُوَ
 مَا خُذُ مِنْ كَلَامِ الشَّيْعَةِ وَالرَّافِضَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ فِي كُتُبِهِمْ وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ثُمَّ إِنَّ
 كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفَنَاءِ انْتَدَبُوا لِلرَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَاتِ
 وَأَمْثَالِهَا وَشَمَلُوا بِالنَّكِيرِ سَائِرَ مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَةِ وَالْحَقُّ أَنَّ كَلَامَهُمْ مَعَهُمْ
 فِيهِ تَفْصِيلٌ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ أَحَدُهَا الْكَلَامُ عَلَى الْمُجَاهَدَاتِ وَمَا
 يَحْتَضِرُ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَى الْأَعْمَالِ لِتَحْصُلِ تِلْكَ الْأَذْوَاقِ الَّتِي

تَصِيرُ مَقَامًا وَيَتَرَفَّى مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا تُنَاهُ وَثَانِيهَا الْكَلَامُ فِي الْكَشْفِ وَالْحَقِيقَةِ
 الْمَذْرُوكَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ مِثْلَ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْنِيِّ وَالْمَلَائِكَةِ
 وَالْوَحْيِ وَالنَّبُوءَةِ وَالرُّوحِ وَحَقَائِقِ كُلِّ مَوْجُودٍ غَائِبٍ أَوْ شَاهِدٍ وَتَرْكِيبِ الْأَكْوَانِ فِي
 صُدُورِهَا عَنْ مَوْجُودِهَا وَتَكُونِهَا كَمَا مَرَّ وَثَالِثُهَا التَّصَرُّفَاتُ فِي الْعَوَالِمِ وَالْأَكْوَانِ بِأَنْوَاعِ
 الْكَرَامَاتِ وَرَابِعُهَا الْفَاطُ مُوَهَّمَةُ الظَّاهِرِ صَدَرَتْ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ أَيْمَةِ الْقَوْمِ يَعْبُرُونَ
 عَنْهَا فِي أَصْطِلَاحِهِمْ بِالشُّطْحَاتِ تُسْتَشْكَلُ ظَوَاهِرُهَا فَمُنْكَرٌ وَمُحْسِنٌ وَمَتَأَوِّلٌ فَأَمَّا الْكَلَامُ
 فِي الْمَجَاهِدَاتِ وَالْمَقَامَاتِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ فِي نَتَائِجِهَا وَنَحَاسَةِ النَّفْسِ
 عَلَى التَّقْصِيرِ فِي أَسْبَابِهَا فَأَمْرٌ لَا مَدْفَعَ فِيهِ لِأَحَدٍ وَأَذْوَاقُهُمْ فِيهِ صَحِيحَةٌ وَالتَّحْقُوقُ بِهَا هُوَ
 عَيْنُ السَّعَادَةِ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي كَرَامَاتِ الْقَوْمِ وَأَخْبَارِهِمْ بِالْغَيْبَاتِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي
 الْكَائِنَاتِ فَأَمْرٌ صَحِيحٌ غَيْرُ مُنْكَرٍ وَإِنْ مَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى إِنْكَارِهَا فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ
 الْحَقِّ وَمَا أَحْتَجُّ بِهِ الْأَسْتَاذُ أَبُو اسْمَاعِيلَ الْإِسْفَرَايْنِيُّ مِنْ أَيْمَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ عَلَى إِنْكَارِهَا
 لِالْتِبَاسِهَا بِالْمُعْجَزَةِ فَقَدْ فَرَّقَ الْحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بَيْنَهُمَا بِالتَّحْدِيدِ وَهُوَ دَعْوَى
 وَقُوعِ الْمُعْجَزَةِ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ قَالُوا ثُمَّ إِنَّ وَقُوعَهَا عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْكَاذِبِ غَيْرُ
 مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْمُعْجَزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ فَإِنْ صِفَةً نَفْسِهَا التَّصْدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ
 الْكَاذِبِ لَتَبَدَّلَتْ صِفَةً نَفْسِهَا وَهُوَ مُحَالٌ هَذَا مَعَ أَنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِوُقُوعِ الْكَثِيرِ
 مِنْ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ وَإِنْكَارُهَا نَوْعٌ مُكَابَرَةٌ وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّعَابَةِ وَأَكْبَارِ السَّافِ كَثِيرٌ
 مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْكَشْفِ وَإِعْطَاءِ حَقَائِقِ الْعُلُوبَاتِ
 وَتَرْتِيبِ صُدُورِ الْكَائِنَاتِ فَأَكْثَرُ كَلَامِهِمْ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَشَابِهِ لِمَا أَنَّهُ وَجَدَانِيٌّ
 عِنْدَهُمْ وَفَاقِدُ الْوُجْدَانِ عِنْدَهُمْ يَمْزِلُ عَنْ أَذْوَاقِهِمْ فِيهِ وَاللُّغَاتُ لَا تُغْطِي لَهُ دَلَالََةً عَلَى
 مَرَادِهِمْ مِنْهُ لِأَنَّهَا لَمْ تَوْضَعْ لِلْمُتَعَارِفِ وَأَكْثَرُهُ مِنَ التَّحْسُوسَاتِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَعْرَضَ
 لِكَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ وَتَتْرُكُهُ فِيمَا تَرَكَاهُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهَمَّ شَيْءٌ مِنْ
 هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَلَى الْوُجْهِ الْمُوَافِقِ لظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَأَكْرَمَ بِهَا سَعَادَةً وَأَمَّا الْأَلْفَافُ
 الْمُوَهَّمَةُ الَّتِي يَعْبُرُونَ عَنْهَا بِالشُّطْحَاتِ وَيُؤَاخِذُهُمْ بِهَا أَهْلُ الشَّرْعِ فَاعْلَمْ أَنَّ
 الْإِنْصَافَ فِي شَأْنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ عَنِ الْحِسِّ وَالْوَارِدَاتُ تَمْلِكُهُمْ حَتَّى
 يَنْطَلِقُوا عَنْهَا بِمَا لَا يَقْصِدُونَهُ وَصَاحِبُ الْغَيْبَةِ غَيْرُ مُخَاطَبٍ وَالْعَجُوزُ مَعْدُورٌ فَمَنْ

عِلْمَ مِنْهُمْ فَضْلُهُ وَاقْتِدَاوَهُ حُمِلَ عَلَى الْقَصْدِ الْجَمِيلِ مِنْ هَذَا وَأَنَّ الْعِبَارَةَ عَنِ
 الْمَوَاجِدِ صَعْبَةٌ لِإِفْقَادِ الْوَضْعِ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ وَأَمثَالِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَضْلُهُ
 وَلَا اشْتَهَرَ فَمَوَازِدُهُ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَعْمَلُنَا عَلَى
 تَأْوِيلِ كَلَامِهِ وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلِهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ فَمَوَازِدُهُ
 أَيْضًا وَلِهَذَا أَفْتَى الْفُقَهَاءُ وَأَكْبَرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْحَلَّاجِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي حُضُورِ وَهُوَ مَالِكٌ
 لِحَالِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرِّسَالَةِ أَغْلَامُ الْعِلْمَةِ الَّذِينَ أَشْرْنَا إِلَيْهِمْ
 مِنْ قَبْلِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَلَا هَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا
 هُمْ فِي الْإِتْبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ مَا اسْتَطَاعُوا وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ
 يَحْفَظْ بِهِ بَلْ يَفِرُّونَ مِنْهُ وَيَبْرُونَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْحِجَابِ وَأَنَّهُ إِدْرَاكٌ مِنْ إِدْرَاكَاتِ
 النَّفْسِ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَحْصُرُ فِي مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ وَعِلْمُ اللَّهِ أَوْسَعُ
 وَخَلْقُهُ أَكْبَرُ وَشَرِيعَتُهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَكُ فَلَا يَنْطِقُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُذَرِّكُونَ بَلْ حَظَرُوا
 الْخُلُوصَ فِي ذَلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْحِجَابَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخُلُوصِ فِيهِ
 وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ
 الْإِتْبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالْتِزَامِهَا وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ
 الْمُرِيدِ وَاللَّهُ الْمُؤْتِقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثاني عشر

في علم تعبير الرؤيا

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْعِلْمَةِ عِنْدَمَا صَارَتْ الْعُلُومُ صَنَائِعَ
 وَكُتِبَ النَّاسُ فِيهَا وَأَمَّا الرُّؤْيَا وَالْتَعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُودًا فِي السَّلَفِ كَمَا هُوَ فِي
 الْخَلْفِ وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ وَالْأُمَمِ مِنْ قَبْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا إِلَّا كِتْفَاءً فِيهِ
 بِكَلَامِ الْمُعْبَرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَالرُّؤْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
 وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا كَمَا وَقَعَ
 فِي الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالرُّؤْيَا مُدْرِكٌ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا
 الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ وَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا

الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَقَلَّ مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ
 رُؤْيَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِإِسْتِبْشِيرِ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ الدِّينِ وَإِعْزَازُهُ وَأَمَّا
 السَّبَبُ فِي كَوْنِ الرُّؤْيَا مُدْرَكًا لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ وَهُوَ الْبَخَارُ اللَّطِيفُ الْمُنْبَعِثُ
 مِنْ تَجْوِيفِ الْقَلْبِ اللَّحْمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي الشَّرَيَّاتِ وَمَعَ الدَّمِ فِي سَائِرِ الْبَدَنِ وَبِهِ
 تَكْمُلُ أَفْعَالُ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا فَإِذَا أَدْرَكَهُ الْحَلَالُ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فِي
 الْإِحْسَاسِ بِالْحَوَاسِ الْخَمْسِ وَتَضَرِيفِ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَغَشْيِ سَطْحِ الْبَدَنِ مَا يَغْشَاهُ
 مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ انْحَبَسَ الرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ الْبَدَنِ إِلَى مَرْكَزِهِ الْقَلْبِيِّ فَيَسْتَحِمُّ بِذَلِكَ
 لِمُعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ كُلُّهَا وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى النَّوْمِ كَمَا نَقَدَّمْ فِي
 أَوَّلِ الْكِتَابِ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ هُوَ مَطِيَّةٌ لِلرُّوحِ الْعَاقِلِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالرُّوحُ
 الْعَاقِلُ مُدْرِكٌ لِجَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ الْأَمْرِ بِذَاتِهِ إِذْ حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ وَإِنَّمَا
 يَمْنَعُ مِنْ تَعَلُّقِهِ لِلْمَدَارِكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ حِجَابِ الْإِشْتِغَالِ بِالْبَدَنِ وَقُوَاهُ وَحَوَاسِهِ
 فَلَوْ قَدْ خَلَا مِنْ هَذَا الْحِجَابِ وَتَجَرَّدَ عَنْهُ لَرَجَعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ فَيَعْقِلُ
 كُلَّ مُدْرَكٍ فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ بَعْضِهَا خَفَّتْ شَوَاعِلُهُ فَلَا يَدْرِكُ مِنْ إِدْرَاكِ لِحَقِّهِ مِنْ عَالَمِهِ
 بِقَدَرِ مَا تَجَرَّدَ لَهُ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ خَفَّتْ شَوَاعِلُ الْحِسِّ الظَّاهِرِ كُلِّهَا وَهِيَ الشَّاعِلُ
 الْأَعْظَمُ فَأَسْتَعَدَّ لِقَبُولِ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْمَدَارِكِ اللَّائِقَةِ مِنْ عَالَمِهِ وَإِذَا أَدْرَكَ مَا يَدْرِكُ
 مِنْ عَوَالِمِهِ رَجَعَ إِلَى بَدَنِهِ إِذْ هُوَ مَا دَامَ فِي بَدَنِهِ جِسْمَانِيٌّ لَا يُمْكِنُ لَهُ التَّصَرُّفُ إِلَّا
 بِالْمَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْمَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ لِلْعِلْمِ إِنَّمَا هِيَ الدَّمَاعِيَّةُ وَالْمُتَصَرِّفُ مِنْهَا
 هُوَ الْخَيَالُ فَإِنَّهُ يَنْتَزِعُ مِنَ الصُّورِ الْمُحْسُوسَةِ صُورًا خَيَالِيَّةً ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى الْحَافِظَةِ
 تَحْفَظُهَا لَهُ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ النَّظَرِ وَالْإِسْتِدْلَالِ وَكَذَلِكَ تَجَرَّدُ النَّفْسُ مِنْهَا
 صُورًا أُخْرَى نَفْسَانِيَّةً عَقْلِيَّةً فَيَتَرَفَّى التَّجَرُّدُ مِنَ الْمُحْسُوسِ إِلَى الْمُعْقُولِ وَالْخَيَالِ
 وَاسِطَةً بَيْنَهُمَا وَلِذَلِكَ إِذَا أَدْرَكَتِ النَّفْسُ مِنْ عَالَمِهَا مَا تُدْرِكُهُ الْقِتَّةُ إِلَى الْخَيَالِ
 فَيُصَوِّرُهُ بِالصُّورَةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَيَدْفَعُهُ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرِكِ فَيَرَاهُ النَّائِمُ كَأَنَّهُ مُحْسُوسٌ
 فَيَنْتَزِلُ الْمُدْرَكُ مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ إِلَى الْحِسِّيِّ وَالْخَيَالِ أَيْضًا وَاسِطَةً هَذِهِ حَقِيقَةُ

الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة والأحلام الكاذبة فإنها كلها صور في الخيال حالة النوم ولكن إن كانت تلك الصور منزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا وإن كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام وأما معنى التعبير فأعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال فصوره فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العدو فيصوره الخيال في صورة الحية فإذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة غسوسة وأن المدرك ورائها وهو يهتدي بقرائن أخرى تعين له المدرك فيقول مثلاً هو السلطان لأن البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه بها السلطان وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها وكذا الأواني تشبه بالنساء لأنهن أوعية وأمثال ذلك ومن المرئي ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير لجلالها ووضوحها أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه ولهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث وأعلم أن الخيال إذا ألقى إليه الروح مدركه فإنما يصوره في القوالب المعتادة للحس وما لم يكن الحس أدركه قط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد أعمى أن يصور له السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالأواني لأنه لم يدرك شيئاً من هذه وإنما يصور له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبتها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات ولتتخفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه ثم إن علم التعبير علم بقوانين كلية بني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الهم والامر الفادح ومثل ما يقولون الحية تدل على العدو وفي موضع آخر يقولون هي كاتم مير وفي موضع آخر يقولون تدل على

الْحَيَاةِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَيَحْفَظُ الْمَعْبَرُ هَذِهِ الْقَوَانِينَ الْكُلِّيَّةَ وَيُعْبَرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا
 قَتَضِيهِ الْقَرَائِنُ الَّتِي تُعَيِّنُ مِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ مَا هُوَ الَّتِيُّ بِالرُّؤْيَا وَتِلْكَ الْقَرَائِنُ مِنْهَا فِي
 الْبَقْلَةِ وَمِنْهَا فِي النَّوْمِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ الْمَعْبَرِ بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلُّ
 مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْعِلْمُ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ السَّالِفِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ سِيرِينَ فِيهِ
 مِنْ أَشْهَرِ الْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْقَوَانِينِ وَتَنَاقَلَهَا النَّاسُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَالْفَتْ
 الْكَرْمَانِي فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ الْفَتْ الْمَكَلِيمُونَ الْمُتَأَخِّرُونَ وَأَكْثَرُوا وَالْمُتَدَاوِلُ
 بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ كُتِبَ أَبُو طَالِبٍ الْقَيْرَوَانِي مِنْ عُلَمَاءِ الْقَيْرَوَانِ مِثْلَ
 الْمُسْتَعْرِ وَغَيْرِهِ وَكِتَابُ الْإِشَارَةِ لِلْسَّالِحِيِّ وَهُوَ عِلْمٌ مُغْنِيٌّ بِزُورِ النُّبُوَّةِ لِلْمُنَاسِبَةِ الَّتِي
 يَنْهَمَا كَمَا وَقَعَ فِي الْعَصِيحِ وَاللَّهُ عَلَامُ الْغُيُوبِ

الفصل الثالث عشر

في العلوم العقلية واصنافها

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فَهِيَ غَيْرُ
 مُخْتَصَّةٍ بِعِلَّةٍ بَلْ يَوْجِدُ النَّظَرَ فِيهَا إِلَى أَهْلِ الْعِلَالِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَدَارِكِهَا وَمَبَاحِثِهَا
 وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْذُ كَانَ عُمَرَانُ الْخَلِيقَةَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْعُلُومُ عُلُومُ
 الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ الْأَوَّلُ عِلْمُ الْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ بِبَعْضِ
 الذِّهْنِ عَنِ الْخَطَا فِي اقْتِنَاصِ الْمَطَالِبِ الْعَجُوزَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْخَاصِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ وَقَائِدَتُهُ
 تَمْيِيزُ الْخَطَا مِنَ الصَّوَابِ. فِيمَا يَلْتَمِسُهُ النََّاظِرُ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا لِيَقِفَ عَلَى
 تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي الْكَائِنَاتِ بِدُنْتَعَى فِكْرِهِ ثُمَّ النَّظَرُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي الْعَحْسُوسَاتِ
 مِنَ الْأَجْسَامِ الْعَنْصَرِيَّةِ وَالْمُكَوَّنَةِ عَنْهَا مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَالْأَجْسَامِ
 الْفَلَكِيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالنَّفْسِ الَّتِي تَنْبَعِثُ عَنْهَا الْحَرَكَاتُ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَيُسَمَّى
 هَذَا الْقَنْ بِالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الثَّانِي مِنْهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي وَرَاءَ
 الطَّبِيعَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ وَهُوَ الثَّلَاثُ مِنْهَا وَالْعِلْمُ الرَّابِعُ وَهُوَ
 النََّاظِرُ فِي الْمَقَادِيرِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ وَتُسَمَّى الْعَالِمِ أَوَّلُهَا عِلْمُ الْمُنْدَسَةِ وَهُوَ
 النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِمَّا الْمُنْفَصِلَةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةٌ أَوْ الْمُتَّصِلَةِ
 وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ السَّطْحُ أَوْ ذُو أَسْمَادٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ

الْجِسْمُ التَّعْلِيمِيُّ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْزِضُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا أَوْ مِنْ
 حَيْثُ نِسْبَةُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَانِيهَا عِلْمُ الْأَزْتِمَاطِيَّةِ وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَعْزِضُ لَكُمْ
 الْمَنْفَصِلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَدُ وَيُؤْخَذُ لَهُ مِنَ الْخَوَاصِ وَالْعَوَارِضِ الْأَحْقَةِ وَثَالِثُهَا عِلْمُ
 الْمَوْسِيقِيِّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ نِسْبِ الْأَصْوَاتِ وَالنَّغَمِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِالْعَدَدِ وَتَمَرُّهُ
 مَعْرِفَةُ تَلَاوِحِ الْغِنَاءِ وَرَابِعُهَا عِلْمُ الْهَيْئَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ الْأَشْكَالِ لِلْأَفْلَاقِ وَحَضْرُ أَوْضَاعِهَا
 وَتَعَدُّهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ السَّيَّارَةِ وَالْقِيَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْحَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ
 الْمَشَاهِدَةِ الْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا فَهَذِهِ
 أَصُولُ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةٌ الْمَنْطِقُ وَهُوَ الْمَقْدَمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ التَّعَالِيمُ فَالْأَزْتِمَاطِيَّةِ
 أَوَّلًا ثُمَّ الْمُهَنْدِسَةُ ثُمَّ الْهَيْئَةُ ثُمَّ الْمَوْسِيقِيُّ ثُمَّ الطَّبِيعِيَّاتُ ثُمَّ الْإِلَهِيَّاتُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا
 فُرُوعٌ تَنْفَرِعُ عَنْهُ فَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ الطَّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ الْعَدَدِ عِلْمُ الْحِسَابِ
 وَالْفَرَائِضِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ الْهَيْئَةِ الْأَزْيَاحُ وَهِيَ قَوَانِينُ لِحِسَابِ حَرَكَاتِ
 الْكَوَاكِبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قُصِدَ ذَلِكَ وَمِنْ فُرُوعِهَا النَّظَرُ فِي النُّجُومِ
 عَلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهَا وَاعْلَمْ
 أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ عُنِيَ بِهَا فِي الْأَجْيَالِ الَّذِينَ عَرَفْنَا أَخْبَارَهُمُ الْأَمَثَانِ الْعَظِيمَتَانِ فِي
 الدَّوْلَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسُ وَالرُّومُ فَكَدَّتْ أَسْوَاقُ الْعُلُومِ نَافِقَةً لَدَيْهِمْ عَلَى
 مَا بَلَغْنَا لِمَا كَانَ الْأَعْمَرَانُ مَوْفُورًا فِيهِمُ وَالْدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَعَصْرُهُ لَهُمْ
 فَكَانَ لَهُدَاهِ الْعُلُومِ بِحُورٍ زَاخِرَةٍ فِي آفَاقِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ وَكَانَ لِلْكِلْدَانِيَيْنِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ
 مِنَ السَّرِيَانِيَيْنِ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْقُبْطِ عِنَايَةً بِالسَّيْرِ وَالنَّجَامَةِ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الطَّلَافِ
 وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُمْ الْأُمَمُ مِنْ فَارِسَ وَيُونَانَ فَأَخْصَصَ بِهَا الْقُبْطُ وَطَمَى بِحَرِّهَا فِيهِمْ
 كَمَا وَقَعَ فِي الْمَثَلِ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَأْنِ السَّحَرَةِ وَمَا تَقَلَّهُ أَعْلَى الْعِلْمِ
 مِنْ شَأْنِ الْبَرَارِيِّ بِصَعِيدِ مِصْرَ ثُمَّ تَتَابَعَتِ الْمِلَلُ بِحَظَرِ ذَلِكَ وَتَعَرَّيَتْ فِدْرَسَتْ
 عُلُومُهُ وَبَطَلَتْ كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَايَا يَتَنَاقَلُهَا مُتَحَاوِ هَذِهِ الصَّنَائِعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِصِحَّتِهَا مَعَ أَنَّ سِيُوفَ الشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنْ اخْتِبَارِهَا وَأَمَّا الْفَرَسُ
 فَكَانَ شَأْنُ هَذِهِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ عَظِيمًا وَنَطَاقُهَا مُتَسِعًا لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دَوْلَتُهُمْ
 مِنَ الضَّخَامَةِ وَاتِّصَالِ الْمَلِكِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ إِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ

حين قتل الإسكندر دَارًا وَغَلَبَ عَلَى مَمْلَكَةِ الْكِنْيَةِ فَاسْتَوَلَى عَلَى كُتُبِهِمْ وَعُلُومِهِمْ
 مِمَّا لَا يَأْخُذُهُ الْحَضَرُ وَلَمَّا فَتَحَتْ أَرْضُ فَارِسَ وَوَجَدُوا فِيهَا كُتُبًا كَثِيرَةً كَتَبَ سَعْدُ
 ابْنُ أَبِي وَقَّاصٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِي شَأْنِهَا وَتَنْقِيلِهَا لِلْمُسْلِمِينَ فَكَتَبَ
 إِلَيْهِ عُمَرُ أَنَّ أَطْرَحُوْمَا فِي الْمَاءِ فَإِنْ يَكُنْ مَا فِيهَا هَدًى فَقَدْ هَدَانَا اللَّهُ بِأَهْدَى مِنْهُ وَإِنْ
 يَكُنْ ضَلَالًا فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ فَطَرَحُوْمَا فِي الْمَاءِ أَوْ فِي النَّارِ وَذَهَبَتْ عُلُومُ الْفَرَسِ فِيهَا
 عَنْ أَنْ تَصِلَ إِلَيْنَا. وَأَمَّا الرُّومُ فَكَانَتْ الدَّوْلَةُ مِنْهُمْ إِيُونَانَ أَوَّلًا وَكَانَ لَهُذِهِ الْعُلُومُ
 بَيْنَهُمْ مَجَالٌ رَحْبٌ وَحَدَاثًا مَشَاهِيرُ مِنْ رِجَالِهِمْ مِثْلُ أُسَاطِينِ الْحِكْمَةِ وَغَيْرِهِمْ
 وَاخْتَصَّ فِيهَا الْمَشَاهِيرُ مِنْهُمْ أَصْحَابُ الرُّوَاقِ بِطَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ فِي التَّأْيِيمِ كَانُوا يَقْرَأُونَ
 فِي رُوَاقٍ يُظِلُّهُمْ مِنَ الشَّمْسِ وَالْبَرْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا وَاتَّصَلَ فِيهَا سَنَدُ تَعَالِيهِمْ عَلَى مَا
 يَزْعُمُونَ مِنْ لَدُنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ فِي تَلْمِيذِهِ بُقْرَاطَ الدِّنْ ثُمَّ إِلَى تَلْمِيذِهِ أَفْلَادُونَ ثُمَّ
 إِلَى تَلْمِيذِهِ أَرِسْطُو ثُمَّ إِلَى تَلْمِيذِهِ الْإِسْكَندَرُ الْأَفْرُودِسِيُّ وَتَامِسْطِيُونُ وَغَيْرِهِمْ
 وَكَانَ أَرِسْطُو مُعَلِّمًا لِلْإِسْكَندَرِ مَلِكِهِمُ الَّذِي غَابَ الْفَرَسَ عَلَى مَلِكِهِمْ وَأَنْتَزَعَ
 الْمُلْكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَكَانَ أَرِسْطُو فِي هَذِهِ الْعُلُومِ قَدَمًا وَأَبْدَهُمْ فِيهِ صَبَاتًا وَكَانَ يُسَمَّى
 الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ فَطَارَ لَهُ فِي الْعَالَمِ ذِكْرٌ. وَلَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْيُونَانِ وَصَارَ الْأَمْرُ لِلْقِيَاصِرَةِ
 وَأَخَذُوا بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ هَجَرُوا تِلْكَ الْعُلُومَ كَمَا نَقَضِيهِ الْعَمَلُ وَالْشَّرَائِعُ فِيهَا وَبَقِيَتْ
 فِي صُفْهَا وَدَوَابِهَا مُخْلَدَةً بَاقِيَةً فِي خَزَائِنِهِمْ قَدْ مَلِكُوا الشَّامَ وَكُتِبَ هَذِهِ الْعُلُومُ
 بَاقِيَةً فِيهِمْ ثُمَّ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَكَانَ لِأَهْلِهِ الظُّهُورُ الَّذِي لَا كِفَاءَ لَهُ وَابْتَزُوا الرُّومَ
 مَلِكِهِمْ فِيمَا ابْتَزَوْهُ لِلْأَمَمِ وَأَبْتَدَأَ أَمْرُهُمْ بِالسَّدَاجَةِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الصَّنَائِعِ حَتَّى إِذَا
 تَبَجَّحَ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْدَّوْلَةِ وَأَخَذَ الْحِصَارَةَ بِالْحِظِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمَمِ
 وَتَفَنَّنُوا فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ تَشَوَّفُوا إِلَى الْإِطْلَاعِ عَلَى هَذِهِ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ بِمَا
 سَمِعُوا مِنَ الْأَسَاقِفَةِ وَالْأَقْسَةِ الْمُعَاهِدِينَ بَعْضَ ذِكْرِ مِنْهَا وَبِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ أَفْكَارُ الْإِنْسَانِ
 فِيهَا فَبَعَثَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِكُتُبِ الْعَالَمِ مُتَرَجِمَةً
 فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكِتَابِ أَوْقَلِيدِسَ وَبَعْضِ كُتُبِ الطَّبِيعِيَّاتِ فَقَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ وَاطَّلَعُوا عَلَى
 مَا فِيهَا وَازْدَادُوا حِرْصًا عَلَى الظَّفَرِ بِمَا بَقِيَ مِنْهَا وَجَاءَ الْمَأْمُونُ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَانَتْ لَهُ فِي
 الْعِلْمِ رَغْبَةٌ بِمَا كَانَ يَنْتَحِلُهُ فَانْبَعَثَ لَهُ هَذِهِ الْعُلُومُ حِرْصًا وَأَوْفَدَ الرُّسُلَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ

فِي اسْتِخْرَاجِ عُلُومِ الْيُونَانِيِّينَ وَانْتِسَاخِهَا بِالْخَطِّ الْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ الْمُتَرْجِمِينَ لِذَلِكَ فَأُذِيَ
 مِنْهُ وَاسْتَوْعِبَ وَعَكُفَتْ عَلَيْهَا النُّظَارُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَحَذَقُوا فِي فُنُونِهَا وَأَنْتَهَتْ إِلَى
 الْغَايَةِ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا وَخَالَفُوا كَثِيرًا مِنْ آرَاءِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَاخْتَصَّوهُ بِالرَّدِّ وَالْقَبُولِ
 لَوْ قُوفِ الشُّهُرِ عِنْدَهُ وَدَوَّنُوا فِي ذَلِكَ الدَّوَاوِينَ وَأَرْبُوعًا عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ
 وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِهِمْ فِي الْعِلْمَةِ أَبُو نُصَيْرٍ الْفَارَابِيُّ وَأَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا بِالْمَشْرِقِ وَالْقَاضِي
 أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ وَالْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الصَّائِغِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى آخَرِينَ بَلَّغُوا الْغَايَةَ
 فِي هَذِهِ الْعُلُومِ وَاخْتَصَّ هَؤُلَاءُ بِالشُّهُرَةِ وَالذِّكْرِ وَاقْتَصَرَ كَثِيرُونَ عَلَى اتِّحَالِ الْمُعَالِمِ
 وَمَا يَنْضَافُ إِلَيْهَا مِنْ عُلُومِ النِّجَامَةِ وَالسِّجَرِ وَالطَّلَسْمَاتِ وَوَقَفَتْ الشُّهُرَةُ فِي هَذَا الْمُسْتَحَلِّ
 عَلَى مُسْلِمَةِ بْنِ أَحْمَدَ الْحَجَرِ بَطْنِيٍّ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَتَلْمِيزِهِ وَدَخَلَ عَلَى الْعِلْمَةِ مِنْ
 هَذِهِ الْعُلُومِ وَأَهْلِهَا دَاخِلَةً وَاسْتَهْوَتْ أَكْثَرُ مِنَ النَّاسِ بِمَا جَنَحُوا إِلَيْهَا وَقَلَّدُوا آرَاءَهَا
 وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ لِمَنْ أَرْتَكَبَهُ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ثُمَّ إِنَّ الْمَغْرِبَ وَالْأَنْدَلُسَ لَمَّا
 رَكَدَتْ رِيحُ الْعُمَرَانِ بَيْنَهُمَا وَتَنَاقَصَتِ الْعُلُومُ بِتَنَاقُصِهِ أَصْحَحَ ذَلِكَ مِنْهُمَا إِلَّا قَلِيلًا مِنْ
 رُسُومِهِ تَجَدَّدَا فِي تَفَارِيقِ مِنَ النَّاسِ وَتَحَتَّ رَقَبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَيَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ
 الْمَشْرِقِ أَنَّ بَضَائِعَ هَذِهِ الْعُلُومِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُمْ مُتَوَفِّرَةً وَخُصُوصًا فِي عِرَاقِ الْعَجَمِ وَمَا
 بَعْدَهُ فِيمَا وَرَاءَ النِّهْرِ وَأَنْتَهُمْ عَلَى بَعْضِ مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ لِتَوَفُّرِ عُمرَانِهِمْ وَاسْتِخْرَاجِ
 الْحَضَارَةِ فِيهِمْ وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِمِصْرَ عَلَى تَالِيفِ مُتَعَدِّدَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ هَرَاةٍ مِنْ بِلَادِ
 خُرَاسَانَ يُشَاهِرُ بِسَعْدِ الدِّينِ التُّفَازَانِيِّ مِنْهَا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ وَالْبَيَانِ
 تَشْهَدُ بَأَنَّ لَهُ مَلَكَتَهُ رَاسِخَةً فِي هَذِهِ الْعُلُومِ وَفِي أَشْيَائِهَا مَا بَدُلَ عَلَى أَنَّ لَهُ أَطْلَاعًا عَلَى
 الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَقَدَمًا عَالِيَةً فِي سَائِرِ الْفُنُونِ الْعَقْلِيَّةِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ
 كَذَلِكَ بَاغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّةَ بِبِلَادِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ مِنْ أَرْضِ رُومَةٍ وَمَا
 إِلَيْهَا مِنَ الْعُدُودِ الشَّمَالِيَّةِ نَافِقَةٌ الْأَسْوَاقِ وَأَنَّ رُسُومَهَا هُنَاكَ مُتَجَدِّدَةٌ وَمَجَالِسَ
 تَعْلِيمِهَا مُتَعَدِّدَةٌ وَدَوَّوْنُهَا جَامِعَةٌ مُتَوَفِّرَةٌ وَطَلِبَتُهَا مُتَكَثِّرَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا هُنَاكَ
 وَهُوَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

الفصل الرابع عشر

في العلوم العددية

وَأَوَّلُهَا الْأَرْتَمَاطِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ مِنْ حَيْثُ التَّأْلِيفُ إِمَّا عَلَى التَّوَالِي
أَوْ بِالتَّضْعِيفِ مِثْلَ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ مُتَفَاضِلَةً بِعَدَدٍ وَاحِدٍ فَإِنْ جُمِعَ الطَّرَفَيْنِ مِنْهَا مُسَاوٍ
لِجَمْعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرَفَيْنِ بَعْدُ وَاحِدٍ وَمِثْلَ ضَعْفِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ
عِدَّةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فَرْدًا مِثْلَ الْأَفْرَادِ عَلَى تَوَالِيهَا وَالْأَزْوَاجِ عَلَى تَوَالِيهَا وَمِثْلَ أَنَّ الْأَعْدَادَ
إِذَا تَوَالَتْ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ يَكُونُ أَوَّلُهَا نِصْفَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا نِصْفَ ثَالِثِهَا الخ أَوْ يَكُونُ
أَوَّلُهَا ثُلْثَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا ثُلْثَ ثَالِثِهَا الخ فَإِنْ ضَرَبَ الطَّرَفَيْنِ أَحَدُهُمَا فِي الْآخِرِ كَضَرْبِ
كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرَفَيْنِ بَعْدُ وَاحِدًا أَحَدُهُمَا فِي الْآخِرِ وَمِثْلَ مُرَبِّعِ الْوَاسِطَةِ
إِنْ كَانَتْ الْعِدَّةُ فَرْدًا وَذَلِكَ مِثْلَ أَعْدَادِ زَوْجِ الزَّوْجِ الْمُتَوَالِيَةِ مِنْ أَثْنَيْنِ فَأَرْبَعَةٍ
قِسْمَانِيَّةٍ فَسِتَّةَ عَشَرَ وَمِثْلَ مَا يَمْدُثُ مِنَ الْخَوَاصِّ الْعَدَدِيَّةِ فِي وَضْعِ الْمُثَلَّثَاتِ الْعَدَدِيَّةِ
وَالْمُرَبَّعَاتِ وَالْمُخَمَّسَاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ إِذَا وُضِعَتْ مُتَتَالِيَةً فِي سَطُورِهَا بِأَنْ يُجْمَعَ مِنَ
الْوَحِيدِ إِلَى الْعَدَدِ الْآخِرِ فَتَكُونُ مُثَلَّثَةً وَتَتَوَالَى الْمُثَلَّثَاتُ هَكَذَا فِي سَطُرِ ثَمَنَةِ
الْأَضْلَاحِ ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ مُثَلَّثٍ ثُلْثَ الضَّامِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُرَبَّعَةً وَتَزِيدُ عَلَى
كُلِّ مُرَبَّعٍ مُثَلَّثَ الضَّامِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُخَمَّسَةً وَهَلُمَّ جَرًّا وَتَتَوَالَى الْأَشْكَالُ
عَلَى تَوَالِي الْأَضْلَاحِ وَيَمْدُثُ جَدْوَلٌ ذُو طُولٍ وَعَرْضٍ فِيهِ عَرْضُ الْأَعْدَادِ عَلَى تَوَالِيهَا
ثُمَّ الْمُثَلَّثَاتُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمُرَبَّعَاتُ ثُمَّ الْمُخَمَّسَاتُ الخ وَفِي طُولِهِ كُلُّ عَدَدٍ وَأَشْكَالُهُ
بَالِغًا مَا بَلَغَ وَتَمْدُثُ فِي جَمْعِهَا وَقِسْمَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ طَوْلًا وَعَرْضًا خَوَاصُّ غَرِيبَةٍ
اسْتَفْرِيتَ مِنْهَا وَانْقَرَّتْ فِي دَوَائِبِهِمْ مَسَائِلُهَا كَذَلِكَ مَا يَمْدُثُ لِلزَّوْجِ وَالْفَرْدِ وَزَوْجِ
الزَّوْجِ وَزَوْجِ الْفَرْدِ وَزَوْجِ الزَّوْجِ وَالْفَرْدِ فَإِنْ لِكُلِّ مِنْهَا خَوَاصٌّ مُخْتَصَّةٌ بِهِ تَضَعْنَاهَا
هَذَا الْفَنُّ وَلَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ وَهَذَا الْفَنُّ أَوَّلُ أَجْزَاءِ الْعَالِمِ وَأَثْبَتُهَا وَيَدْخُلُ فِي بَرَاهِينِ
الْحِسَابِ وَلِلْحُكَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ تَأْلِيفٌ وَأَكْثَرُهُمْ يَدْرِجُونَهُ فِي
الْعَالِمِ وَلَا يُفَرِّدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ فَعَلَّ ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَا وَغَيْرِهِ
مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَمَّا الْمُتَأَخِّرُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَهْجُورٌ إِذْ هُوَ غَيْرُ مُتَدَاوِلٍ وَمَنْفَعَتُهُ فِي
الْبَرَاهِينِ لَا فِي الْحِسَابِ فَهَجَرُوهُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَخْلَصُوا زُبْدَتَهُ فِي الْبَرَاهِينِ الْحِسَابِيَّةِ

كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْبَنَاءِ فِي كِتَابِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . (ومن فروع
 علم العدد صناعة الحساب) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي حِسَابِ الْأَعْدَادِ بِالضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ
 فَأَلْضَمُّ يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ بِالْأَفْرَادِ وَهُوَ الْجَمْعُ وَبِالتَّضْعِيفِ تُضَاعَفُ عَدَدًا بِأَحَادٍ عَدَدٌ
 آخَرَ وَهَذَا هُوَ الضَّرْبُ وَالتَّفْرِيقُ أَيْضًا يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ إِمَّا بِالْأَفْرَادِ مِثْلَ إِزَالَةِ عَدَدٍ
 مِنْ عَدَدٍ وَمَعْرِفَةِ الْبَاقِي وَهُوَ الطَّرْحُ أَوْ تَفْصِيلُ عَدَدٍ بِأَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَكُونُ عِدَّتُهَا
 مُحْصَلَةً وَهُوَ الْقِسْمَةُ وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا الضَّمُّ وَالتَّفْرِيقُ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْعَدَدِ أَوْ الْكَسْرِ
 وَمَعْنَى الْكَسْرِ نِسْبَةُ عَدَدٍ إِلَى عَدَدٍ وَتِلْكَ النِّسْبَةُ تُسَمَّى كَسْرًا وَكَذَلِكَ يَكُونُ بِالضَّمِّ
 وَالتَّفْرِيقِ فِي الْجَذُورِ وَمَعْنَاهَا الْعَدَدُ الَّذِي يُضْرَبُ فِي مِثْلِهِ فَيَكُونُ مِنْهُ الْعَدَدُ الْمُرْبَعُ
 فَإِنَّ تِلْكَ الْجَذُورَ أَيْضًا يَدْخُلُهَا الضَّمُّ وَالتَّفْرِيقُ وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ حَادِثَةٌ أَحْتِيجُ إِلَيْهَا
 لِلْحِسَابِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَآلَفَ النَّاسُ فِيهَا كَثِيرًا وَتَدَاوَلُوهَا فِي الْأَمْصَارِ بِالتَّعْلِيمِ لِلْوِلْدَانِ
 وَمِنْ أَحْسَنِ التَّعْلِيمِ عِنْدَهُمُ الْإِبْتِدَاءُ بِهَا لِأَنَّهَا مَعَارِفٌ مُتَّصَةٌ وَبَرَاهِينٌ مُنْتَظِمَةٌ فَيَنْشَأُ
 عَنْهَا فِي الْغَالِبِ عَقْلٌ مُضِيٌّ دَرَبٌ عَلَى الصَّوَابِ وَقَدْ يُقَالُ مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِتَعْلِيمِ الْحِسَابِ
 أَوَّلَ أَمْرِهِ إِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الصِّدْقُ لِمَا فِي الْحِسَابِ مِنْ حِكْمَةٍ الْمَبَانِي وَمُنَاقَشَةِ النَّفْسِ
 فَيَصِيرُ ذَلِكَ خُلُقًا وَيَتَعَوَّدُ الصِّدْقُ وَيُلَازِمُهُ مَذْهَبًا وَمِنْ أَحْسَنِ التَّأَلِيفِ الْمَبْسُوطَةُ فِيهَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ كِتَابُ الْحِصَارِ الصَّغِيرِ وَلِابْنِ الْبَنَاءِ الْمَرَاكِشِيُّ فِيهِ تَلْخِصٌ ضَاطِحٌ
 لِقَوَائِنِ أَعْمَالِهِ مُفِيدٌ ثُمَّ شَرَحَهُ بِكِتَابٍ سَمَّاهُ رَفْعَ الْحِجَابِ وَهُوَ مُسْتَغْلَقٌ عَلَى الْمُبْتَدِئِ
 بِمَا فِيهِ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْوَثِيقَةِ الْمَبَانِي وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ الْقَدْرُ أَدْرَكْنَا الْمَشِخَّةَ الْعَظِيمَةَ
 وَهُوَ كِتَابٌ جَدِيدٌ بِذَلِكَ وَإِنَّمَا جَاءَهُ الْأَسْتَغْلَاقُ مِنْ طَرِيقِ الْبُرْهَانِ بَيِّنَاتِ عُلُومِ
 التَّعَالِيمِ لِأَنَّ مَسَائِلَهَا وَأَعْمَالَهَا وَاضِحَةٌ كُلُّهَا وَإِذَا قُصِدَ شَرْحُهَا فَإِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ الْعِلَلِ
 فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْعُسْرِ عَلَى الْقَهْمِ مَا لَا يُوجَدُ فِي أَعْمَالِ الْمَسَائِلِ فَتَأَمَّلْهُ
 وَاللَّهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ . (ومن فروعه الجبر والمقابل) . وَهِيَ
 صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بِهَا الْعَدَدُ الْجَهُولُ مِنْ قَبْلِ الْمَعْلُومِ الْمَفْرُوضِ إِذَا كَانَ يَنْتَهِمَا نِسْبَةً
 تَقْتَضِي ذَلِكَ فَاصْطَلَحُوا فِيهَا عَلَى أَنْ جَعَلُوا لِلْجَهُولَاتِ مَرَاتِبَ مِنْ طَرِيقِ التَّضْعِيفِ بِالضَّرْبِ
 أَوَّلَهَا الْعَدَدُ لِأَنَّهُ بِهِ يَتَعَيَّنُ الْمَطْلُوبُ الْجَهُولُ بِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نِسْبَةِ الْجَهُولِ إِلَيْهِ وَثَانِيهَا
 الشَّيْءُ لِأَنَّ كُلَّ جَهُولٍ فَهُوَ مِنْ جِهَةِ إِبْهَامِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَيْضًا جَذْرٌ لِمَا يُلْزَمُ مِنْ تَضْعِيفِهِ

فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَثَالِثًا الْمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مُبْهِمٌ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ الْأَسْرِ فِي
 الْمَضْرُوبِينَ ثُمَّ يَقَعُ الْأَعْمَلُ الْمَفْرُوضُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ
 أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ فَيُقَابِلُونَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْكُسْرِ حَتَّى
 يَصِيرَ صَحِيحًا وَيُعْطُونَ الرَّرَاتِبَ إِلَى أَقَلِّ الْأُسُوسِ إِنْ أُمِكنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى الثَّلَاثَةِ
 الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْجَبْرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ الْعَدَدُ وَالشَّيْءُ وَالْمَالُ فَإِنْ كَانَتِ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ
 وَاحِدٍ تَعَيَّنَ فَالْمَالُ وَالْجَذَرُ يَزُولُ إِبْهَامُهُ بِمُعَادَلَةِ الْعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ وَالْمَالُ وَإِنْ عَادَلَ
 الْجَذَرُ فَيَتَعَيَّنُ بَعْدَهَا وَإِنْ كَانَتِ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ أَخْرَجَهُ الْأَعْمَلُ الْهِنْدَسِيُّ
 مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ الضَّرْبِ فِي الْاِثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهِمَةٌ فَيَعَيَّنُهَا ذَلِكَ الضَّرْبُ الْمَفْصَّلُ وَلَا
 يُمَكِّنُ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ اِثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَأَكْثَرُ مَا أَنْتَهَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ
 مَسَائِلَ لِأَنَّ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجَذَرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةٍ أَوْ مَرَكَّبَةٍ تَجِبُ سِتَّةَ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ
 فِي هَذَا الْفَنِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخَوَارِزْمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شُجَاعُ بْنُ أَسَامٍ وَجَاءَ النَّاسُ
 عَلَى أَثَرِهِ فِيهِ وَكَتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ السِّتِّ مِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهِ وَشَرَحَهُ
 كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ الْقُرْطُبِيِّ وَقَدْ بَاغَنَا أَنْ
 بَعْضُ أَيْمَةِ التَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنَّهِيَ الْمُعَامَلَاتِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذِهِ السِّتَةِ
 الْأَجْنَاسِ وَبَاغَهَا إِلَى فَوْقِ الْعِشْرِينَ وَاسْتَخْرَجَ لَهَا كُلَّهَا أَعْمَالًا وَأَتْبَعَهُ بِرَاهِيقِ هِنْدَسِيَّةٍ
 وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ مُبْجَاهَةً وَتَعَالَى . (وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْمُعَامَلَاتُ) . وَهُوَ
 تَصْرِيْفُ الْحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ الْمَدُنِ فِي الْبَيْعَاتِ وَالْمَسَاحَاتِ وَالزَّكَوَاتِ وَمَسَائِرِ مَا
 يَغْرَضُ فِيهِ الْعَدَدُ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ يُصَرِّفُ فِي صِنَاعَتِنَا ذَلِكَ الْحِسَابُ فِي الْمَجْهُولِ وَالْمَعْلُومِ
 وَالْكَسْرِ وَالصَّحِيحِ وَالْجَذَرِ وَغَيْرَهَا وَالْغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ الْمَسَائِلِ الْمَفْرُوضَةِ فِيهَا
 حُصُولُ الْمِرَانِ وَالذُّبِيَّةِ بِتَكَرُّرِ الْأَعْمَلِ حَتَّى تَرْتَبِعَ الْمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ
 وَلِأَهْلِ الصِّنَاعَةِ الْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ تَأَلَّفَ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهُرِهَا مُعَامَلَاتُ
 الزَّهْرَاوِيِّ وَابْنِ السَّمْعِ وَأَبِي مُسْلِمٍ بْنُ خَالِدُونَ مِنْ تَلْمِيزِ مَسْلَمَةَ الْعَجَرِيَّطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ
 (وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْفَرَائِضُ) . وَهِيَ صِنَاعَةُ حِسَابِيَّةٌ فِي تَصْحِيحِ السِّهَامِ لِذَوِي الْفُرُوضِ
 فِي الْوَرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّتْ وَهَلَكَ بَعْضُ الْوَارِثِينَ وَأَنْكَسَرَتْ مِهَامُهُ عَلَى وَرَثَتِهِ أَوْ
 زَادَتْ الْفُرُوضُ عِنْدَ أَجْتِمَاعِهَا وَتَزَاحُمِهَا عَلَى الْحَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي الْفَرِيضَةِ إِفْرَارٌ

وإنكار من بعض الورثة فتحتاج في ذلك كله إلى عمل بعين به سهام الفريضة من كم تصح وسهام الورثة من كل بطن مصححاً حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه وجهوله وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الوراثة من الفروض والعول والأقارار والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح الشهمان باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندي أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثة فإنها أقل من أن تكون في كميتها ثلث العلم وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الخوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والسردي وغيرهم لكن الفضل للخوفي فكتاباه مقدم على جميعها وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشطي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب وإمام الحرمين فيها تأليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع بابه في العلوم ورُسوخ قدمه وكذا للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء بمشيئته ولا رب سواه

الفصل الخامس عشر

في العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير إما المتصلة كالخط والسطح والجسم وإما المنفصلة كالاعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزاياه مثل قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى

كِتَابُ الْأُصُولِ وَكِتَابُ الْأَزْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وُضِعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجِمُ
 مِنْ كِتَابِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْعِلْمَةِ أَيَّامُ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ وَنُسَخُهُ مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ
 الْمُرْجِمِينَ فَمِنْهَا لِحَنَيْنَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ وَلِثَابِتِ بْنِ قِرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ الْحُجَّاجِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى
 خَمْسَ عَشْرَةَ مَقَالَةً أَرْبَعٌ فِي السُّطُوحِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْأَقْدَارِ الْمُتَنَاسِبَةِ وَآخَرَى فِي
 نِسْبِ السُّطُوحِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٌ فِي الْعَدَدِ وَالْعَاشِرَةُ فِي الْمَنْطِقَاتِ وَالْقَوَى عَلَى
 الْمَنْطِقَاتِ وَمَعْنَاهُ الْجَذُورُ وَخَمْسٌ فِي الْجَسَمَاتِ وَقَدْ اخْتَصَرَهُ النَّاسُ اخْتِصَارَاتٍ كَثِيرَةً
 كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ مِينَا فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ أَفْرَدَ لَهُ جُزْءًا مِنْهَا اخْتَصَصَهُ بِهِ وَكَذَلِكَ ابْنُ الصِّلَاتِ
 فِي كِتَابِ الْإِقْتِصَارِ وَغَيْرُهُمْ وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحًا كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ الْعُلُومِ الْمُنْهَدَسِيَّةِ
 بِإِطْلَاقٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُنْهَدَسَةَ تُقِيدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَاسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ
 بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا يَبِينَةُ الْإِنْتِظَامِ جَلِيَّةُ التَّرْتِيبِ لَا يَكَادُ الْغَلَطُ يَدْخُلُ أَقْسَمَتَهَا لِتَرْتِيبِهَا
 وَانْتِظَامِهَا فَيَبْعُدُ الْفِكْرُ بِمُمَارَسَتِهَا عَنِ الْخَطَا وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذَلِكَ الْمَنْهَجِ
 وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ أَفْلَاطُونٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُنْهَدِمًا فَلَا يَدْخُلَنَّ مَنْزِلَنَا
 وَكَانَ شُبُوحُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ مُمَارَسَةُ عِلْمِ الْمُنْهَدَسَةِ لِلْفِكْرِ بِمِثَابَةِ الصَّابُونِ لِلثُّوبِ
 الَّذِي يَفْسِلُ مِنْهُ الْأَقْدَارَ وَيُنْقِيهِ مِنَ الْأَوْضَارِ وَالْأَذْرَانِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ
 مِنْ تَرْتِيبِهِ وَانْتِظَامِهِ . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المنصوصة بالأشكال الكروية
 والمخروطات) . أَمَّا الْأَشْكَالُ الْكُرَوِيَّةُ فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ
 لِثَاوَدُوسِيُوسَ وَمِيلَاوُشَ فِي سَطُوحِهَا وَقَطُوعِهَا وَكِتَابُ ثَاوَدُوسِيُوسَ مُقَدِّمٌ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى
 كِتَابِ مِيلَاوُشَ لِتَوْقُفٍ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ مِنْهُمَا لِمَنْ يُرِيدُ الْخَوْضَ فِي عِلْمِ
 الْمُهَيْتَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ فَالْكَلَامُ فِي الْمُهَيْتَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي الْكُرَاتِ السَّمَاوِيَّةِ
 وَمَا يَعْزُضُ فِيهَا مِنَ الْقَطُوعِ وَالِدَوَائِرِ بِأَسْبَابِ الْحَرَكَاتِ كَمَا نَذَكُرُهُ فَقَدْ يَتَوَقَّفُ عَلَى
 أَحْكَامِ الْأَشْكَالِ الْكُرَوِيَّةِ سَطُوحُهَا وَقَطُوعُهَا وَأَمَّا الْمَخْرُوطَاتُ فَهُوَ مِنْ فُرُوعِ الْمُنْهَدَسَةِ
 أَيْضًا وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيمَا يَقَعُ فِي الْأَجْسَامِ الْمَخْرُوطَةِ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْقَطُوعِ وَيَبْرَهُنَ
 عَلَى مَا يَعْزُضُ لِذَلِكَ مِنَ الْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينِ مُنْهَدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَفَائِدَتِهَا
 تَطَهَّرُ فِي الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي مَوَادُّهَا الْأَجْسَامُ مِثْلَ النِّجَارَةِ وَالْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ
 التَّمَائِيلُ الْغَرِيبَةُ وَالْهَيَاكِلُ النَّادِرَةُ وَكَيْفَ يُنْحَلُّ عَلَى جَرِّ الْأَثْقَالِ وَتَقْلِ الْهَيَاكِلِ

بِالْهِنْدَامِ وَالْمِيخَالِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ أَفْرَدَ بَعْضُ الْمُؤَافِينَ فِي هَذَا الْفَنِ كِتَابًا فِي الْحَيْلِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ مِنَ الصِّنَاعَاتِ الْفَرِيَّةِ وَالْحَيْلِ الْمُسْتَظَرَّةِ كُلَّ عَجِيبَةٍ وَرُبَّمَا اسْتَفْلَقَ عَلَى النَّهْجِ الْعُذْرِيَّةِ الْهِنْدَسِيَّةِ وَهُوَ مُوجُودٌ بِأَيْدِي النَّاسِ يَنْسِبُونَهُ إِلَى بَنِي شَاكِرٍ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (وَمِنْ فُرُوعِ الْهِنْدَسَةِ الْمَسَاحَةِ) وَهُوَ فَنُّ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مَسْحِ الْأَرْضِ وَمَعْنَاهُ اسْتِخْرَاجُ مِقْدَارِ الْأَرْضِ الْمَعْلُومَةِ بِنِسْبَةِ شِبْرٍ أَوْ ذِرَاعٍ أَوْ غَيْرِهِمَا وَنِسْبَةِ أَرْضٍ مِنْ أَرْضٍ إِذَا قُوِيَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيُحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَوْظِيفِ الْخَرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ وَبَسَاتِينِ الْغَرَاسَةِ وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ وَالْأَرَاضِي بَيْنَ الشَّرَكَاءِ أَوْ الْوَرَثَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضِعَاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهِ وَكَرَمِهِ (الْمُنَاطَرَةُ مِنْ فُرُوعِ الْهِنْدَسَةِ) وَهُوَ عِلْمٌ يَتَبَيَّنُ بِهِ أَسْبَابُ الْغَلَطِ فِي الْإِذْرَاكِ الْبَصَرِيِّ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ إِذْرَاكَ الْبَصَرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطٍ شُعَاعِي رَأْسُهُ يَقْطَعُهُ الْبَاصِرُ وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْبُوعِيَّةُ ثُمَّ يَقَعُ الْغَلَطُ كَثِيرًا فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَبِيرًا وَالْبَعِيدِ صَغِيرًا وَكَذَا رُؤْيَةِ الْأَشْبَاحِ الصَّغِيرَةِ تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَبِيرَةً وَرُؤْيَةِ انْتِقَاطِ النَّازِلَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطًا مُسْتَقِيمًا وَالسَّلَاقَةِ دَائِرَةً وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَيَتَبَيَّنُ فِي هَذَا الْعِلْمِ أَسْبَابُ ذَلِكَ وَكَيْفِيَّاتُهُ بِالْبَرَاهِينِ الْهِنْدَسِيَّةِ وَيَتَبَيَّنُ بِهِ أَيْضًا اخْتِلَافُ الْمَنْظَرِ فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ الْعُرُوضِ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهْلَةِ وَحُصُولِ الْكُسُوفَاتِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا وَقَدْ أَلْفَ فِي هَذَا الْفَنِ كَثِيرٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَشْهُرُ مِنْ أَلْفٍ فِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ وَغَيْرُهُ أَيْضًا تَأَلَّفَ وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَتَقَارِيرِهَا

الفصل السادس عشر

في علم الهيئة

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُتَحَرِّكَةِ وَالْمُتَحَرِّزَةِ وَيَسْتَدِلُّ مِنْ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالٍ وَأَوْضَاعٍ لِلْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ عَنْهَا إِهْدِ الْحَرَكَاتِ الْمَحْسُوسَةِ بِطَرُقِ هِنْدَسِيَّةٍ كَمَا يُبْزَنُ عَلَى أَنَّ مَرْكَزَ الْأَرْضِ مُبَايِنٌ لِمَرْكَزِ فَلَكِ الشَّمْسِ بِوُجُودِ حَرَكَةِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ وَكَمَا يُسْتَدَلُّ بِالرُّجُوعِ وَالْإِسْتِقَامَةِ لِلْكَوَاكِبِ عَلَى وُجُودِ أَفْلَاقٍ صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا مُتَحَرِّكَةٌ دَاخِلٌ فَلَكُهَا الْأَعْظَمُ وَكَمَا يُبْزَنُ عَلَى وُجُودِ الْفَلَكَ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَكَمَا يُبْزَنُ عَلَى تَعَدُّدِ الْأَفْلَاقِ لِلْكَوَاكِبِ

الْوَاحِدِ بِتَعْدَادِ الْمَيُولِ لَهُ وَأَمثالِ ذَلِكَ وَإِذْ رَأَى الْمَوْجُودَ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا
 وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرَّصْدِ فَإِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ بِهِ وَكَذَا
 تَرْكِيبُ الْأَفْلَاقِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا الرُّجُوعُ وَالْإِسْتِقَامَةُ وَأَمثالُ ذَلِكَ وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ
 يَحْتَسِبُونَ بِالرَّصْدِ كَثِيرًا وَيَتَّخِذُونَ لَهُ الْآلَاتِ الَّتِي تُوضَعُ لِرَّصْدِهَا حَرَكَةُ الْكَوَاكِبِ
 الْمَعِينِ وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتَ الْحَقَائِقِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِهَا وَالْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ
 حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ الْفَلَكَ مَقُولٌ بِأَيْدِي النَّاسِ وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ تَقَعْ بِهِ عِنَابَةٌ إِلَّا
 فِي الْقَلِيلِ وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَصَنَعَ آلَاةَ الْمَعْرُوفَةِ لِلرَّصْدِ الْمُسَمَّاةَ
 ذَاتَ الْحَلَقِ وَشَرَعَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأُغْفِلَ وَاعْتَمَدَ مِنْ بَعْدِهِ
 عَلَى الْأَرْصَادِ الْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُخْتَلِفَةٍ لِاخْتِلَافِ الْحَرَكَاتِ بِاتِّصَالِ الْأَحْقَابِ وَأَنْ
 مُطَابَقَةُ حَرَكَةِ الْآلَةِ لِلرَّصْدِ بِحَرَكَةِ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْرِيبِ وَهَذِهِ
 الْهَيْئَةُ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يَفْهَمُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ السَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ
 الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ بِالْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنْ هَذِهِ الصُّورُ وَالْهَيْئَاتُ لِلْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ
 عَنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ لَازِمًا لِخَتْلَفَيْنِ
 وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَرَكَاتَ لَازِمَةٌ فَهُوَ أَسْتِدْلَالٌ بِاللَّزَمِ عَلَى وُجُودِ الْمَلْزُومِ وَلَا يُعْطِي
 الْحَقِيقَةَ بِوَجْهِهِ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ التَّعَالِيمِ وَمِنْ أَحْسَنِ التَّالِيفِ فِيهِ
 كِتَابُ الْمُعِيسِطِيِّ مَنْسُوبٌ لِابْنِ بَطْلَيْمُوسَ وَلَيْسَ مِنْ مُلُوكِ الْيُونَانِ الَّذِينَ أَمَّاؤُهُمْ بِطْلَيْمُوسُ
 عَلَى مَا حَقَّقَهُ شُرَاحُ الْكِتَابِ وَقَدْ اخْتَصَرَهُ الْأَيْمَةُ مِنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ
 ابْنُ سِينَا وَأَذْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ وَلَخَصَهُ ابْنُ رُشْدٍ أَيْضًا مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ
 وَأَبْنُ السَّمْعِ وَأَبْنُ الصَّلْتِ فِي كِتَابِ الْإِقْتِصَارِ وَلِابْنِ الْفَرَّغَانِيِّ هَيْئَةٌ مُلَخَّصَةٌ قَرِيبُهَا
 وَحَدَفَ بَرَاهِينُ الْهِنْدَسِيَّةِ وَاللَّهُ عَالِمُ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ . (وَمِنْ فُرُوعِهِ عِلْمُ الْأَزْيَاجِ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ عَلَى قَوَانِينٍ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا
 يَخْصُ كُلُّ كَوْكَبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ الْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ
 وَبُطْءٍ وَاسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا لِأَيِّ
 وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قَبْلِ حِسَابِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ
 الْهَيْئَةِ وَلِهَذَا الصِّنَاعَةُ قَوَانِينُ كَالْمُقَدَّمَاتِ وَالْأَصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ

والتواريخ الماضية وأصول متفرقة من معرفة الأفج والحضيض والميول وأصناف
الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهل على المتعلمين
وتسمى الأزياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة
تعديلاً وتقويماً للناس فيه تأليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل الثاني^(١)
وآبن الكماد وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زييج منسوب لابن
اسحق من مجيبي تونس في أول المائة السابعة ويزعمون أن آبن إسحاق عول فيه على
الرصد وأن يهودياً كان بصيلة ماهرًا في الهيئة والتعاليم وكان قد عني بالرصد وكان
يبحث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك
عنوا به لوثاقه مبناه على ما يزعمون ولخصه آبن البناء في آخر مائة المنهاج فويلع به
الناس لما سهل من الأعمال فيه وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتبني
عليها الأحكام الجسمية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان
من الملك والدول والمواليد البشرية كما نبينه بعد ونوضح فيه أدلتهم إن شاء الله تعالى
والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه

الفصل السابع عشر

في علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والنجح
المفيدة للتصديقات وذلك أن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس
الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره وإنما يتميز
الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بأن يحصل في
الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطقية على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي
الكلي ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في
بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقي في
التجريد إلى الكل الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه فيكون لأجل ذلك بسيطاً
وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطقية عليها ثم ينظر بينه

١ قوله البنائي بفتح الموحدة وتشدب المشناه كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته فيل اخرا المحدثين

وَبَيْنَ الْحَيَوَانِ وَيُجَرَّدُ صُورَةُ الْجِنْسِ الْمُنْطَبِقَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْتَهِي بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النَّبَاتِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْجِنْسِ الْعَالِيِّ وَهُوَ الْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كَلِمًا يُوَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ الْعَقْلُ هُنَاكَ عَنِ التَّجْرِيدِ ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْفِكْرَ الَّذِي بِهِ يُدْرِكُ الْعُلُومَ وَالصَّنَائِعَ وَكَانَ الْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّرًا لِلْمَاهِيَّاتِ وَيُعْنَى بِهِ إِذْ ذَاكَ سَازِجٌ مِنْ غَيْرِ حَكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصَدِيقًا أَيْ حُكْمًا بِشُيُوبِ أَمْرِ لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ تُجْمَعَ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ التَّأْلِيفِ فَتَحْصُلُ صُورَةٌ فِي الذِّهْنِ كَلِمَةً مُنْطَبِقَةً عَلَى أَفْرَادٍ فِي الْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ تَصَدِيقًا وَغَايَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى التَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَائِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعِلْمِ وَهَذَا السَّعْيُ مِنَ الْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَمْيِيزَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَسْعَى بِهِ الْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ الْعِلْمِيَّةِ لِتَمْيِيزِ الصَّحِيحِ مِنَ الْفَاسِدِ فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونُ الْمَنْطِقِ وَتَكَلَّمَ فِيهِ الْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ جَمَلًا جَمَلًا وَمُفْتَرِقًا وَلَمْ تَهْتَبْ طَرَفُهُ وَلَمْ تُجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو فَهْتَبَ مَبَاحِثَهُ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصِّلَتْ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَفَاتَحَتْهَا وَلِذَلِكَ يُسَمَّى بِالْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَكِتَابُهُ الْمَخْصُوصُ بِالْمَنْطِقِ يُسَمَّى النَّصُّ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا فِي صُورَةِ الْقِيَاسِ وَأَرْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ التَّصَدِيقِيَّةَ عَلَى أَشْغَاءٍ فَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْيَقِينُ بِطَبْعِهِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الظَّنُّ وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبٍ فَيَنْظَرُ فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ الْمَطْلُوبُ الَّذِي يُفِيدُهُ وَبِمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ بِذَلِكَ الْإِعْتِبَارِ وَمِنْ أَيْ جِنْسٍ يَكُونُ مِنَ الْعِلْمِ أَوْ مِنَ الظَّنِّ وَقَدْ يَنْظَرُ فِي الْقِيَاسِ لَا بِإِعْتِبَارِ مَطْلُوبٍ مُخْصُوصٍ بَلْ مِنْ جِهَةِ إِنتَاجِهِ خَاصَّةً وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ الْأَوَّلِ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الْمَادَّةُ وَتُعْنَى بِهِ الْمَادَّةُ الْمُنْتِجَةُ لِلْمَطْلُوبِ الْمَخْصُوصِ مِنْ يَقِينٍ أَوْ ظَنٍّْ وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ الثَّانِي إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ وَإِنتَاجُ الْقِيَاسِ عَلَى الْإِطْلَاقِ فَكَانَتْ لِذَلِكَ كُتُبُ الْمَنْطِقِ ثَمَانِيَّةً . الْأَوَّلُ فِي الْأَجْنَاسِ الْعَالِيَةِ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَجَرُّدُ الْمُعْشُوسَاتِ وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا جِنْسٌ وَيُسَمَّى كِتَابَ الْمَقُولَاتِ . وَالثَّانِي فِي الْقَضَايَا التَّصَدِيقِيَّةِ وَأَصْنَافِهَا وَيُسَمَّى كِتَابَ الْعِبَارَةِ . وَالثَّالِثُ فِي الْقِيَاسِ وَصُورَةِ إِنتَاجِهِ عَلَى

إِلَّا طَلَّاقٌ وَيَسَعَى كِتَابُ الْقِيَاسِ وَهَذَا آخِرُ النَّظَرِ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ . ثُمَّ الرَّابِعُ كِتَابُ
 الْبُرْهَانِ وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْقِيَاسِ الْمُنْتَجِجِ لِلْيَقِينِ وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ يَقِينِيَّةً
 وَيُخْتَصُّ بِشُرُوطٍ أُخْرَى لِإِفَادَةِ الْيَقِينِ مَذْكُورَةٍ فِيهِ مِثْلَ كَوْنِهَا ذَاتِيَّةً وَأَوَّلِيَّةً وَغَيْرَ
 ذَلِكَ وَفِي هَذَا الْكِتَابِ الْكَلَامُ فِي الْمَعْرِفَاتِ وَالْحُدُودِ إِذَا الْمَطْلُوبُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ
 الْيَقِينُ لِوُجُوبِ الْمَطَابَقَةِ بَيْنَ الْحَدِّ وَالْحُدُودِ لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَهَا فَلِذَلِكَ اخْتَصَّتْ
 عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِهَذَا الْكِتَابِ . وَالْخَامِسُ كِتَابُ الْجَدَلِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الْمُفِيدُ قَطْعَ
 الْمَشَاغِبِ وَإِفْهَامَ الْخُصْمِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ وَيُخْتَصُّ أَيْضًا
 مِنْ جِهَةِ إِفَادَتِهِ لِهَذَا الْغَرَضِ بِشُرُوطٍ أُخْرَى مِنْ حَيْثُ إِفَادَتُهُ لِهَذَا الْغَرَضِ وَهِيَ
 مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَفِي هَذَا الْكِتَابِ يُذَكَّرُ الْمَوَاضِعُ الَّتِي يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا صَاحِبُ الْقِيَاسِ
 قِيَاسَهُ وَفِيهِ عَكُوسُ الْقَضَايَا . وَالسَّادِسُ كِتَابُ السَّفَسْطَةِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الَّذِي يُفِيدُ
 خِلَافَ الْحَقِّ وَيُغَالِطُ بِهِ الْمُنَاطِرُ صَاحِبَهُ وَهُوَ قَاسِدٌ وَهَذَا إِنَّمَا كُتِبَ لِيُعْرِفَ بِهِ
 الْقِيَاسُ الْمُغَالِطِي فَيُحَذَّرُ مِنْهُ . وَالسَّابِعُ كِتَابُ الْخِطَابَةِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الْمُفِيدُ تَرْغِيبَ
 الْجُمْهُورِ وَخَمَلِهِمْ عَلَى الْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالَاتِ . وَالثَّامِنُ
 كِتَابُ الشَّعْرِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الَّذِي يُفِيدُ التَّمَثِيلَ وَالنَّشِيبَةَ خَاصَّةً لِلْإِقْبَالِ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ
 الْفَرَقَةِ عَنْهُ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ الْقَضَايَا الْخَيْلِيَّةِ هَذِهِ هِيَ كُتُبُ الْمَنْطِقِ
 الثَّمَانِيَّةُ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ ثُمَّ إِنْ حُكِّمَاءُ الْيُونَانِيِّينَ بَعْدَ أَنْ تَهَذَّبَتِ الصَّنَاعَةُ وَرُبِّيَتْ
 رَأَوْا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْكَلِمَاتِ الْخَمْسِ الْمُفِيدَةِ لِلتَّصَوُّرِ فَاسْتَدْرَكُوا فِيهَا
 مَقَالَةً تُخْتَصُّ بِهَا مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَيِ الْفَنِّ فَصَارَتْ تِسْعًا وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي الْعِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
 وَكُتِبَتْهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَا سِفَةَ الْإِسْلَامِ بِالْشَّرْحِ وَالتَّلْخِصِ كَمَا فَعَلَهُ الْفَارَابِيُّ وَأَبْنُ سِينَا
 ثُمَّ ابْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْأَنْدَلُسِ وَأَبْنُ سِينَا كِتَابُ الشِّفَاءِ اسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ
 السَّبْعَةِ كُلُّهَا ثُمَّ جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا أَصْطِلَاحَ الْمَنْطِقِ وَالْحَقُّوْا بِالنَّظَرِ فِي الْكَلِمَاتِ
 الْخَمْسِ ثَمَرَتَهُ وَهِيَ الْكَلَامُ فِي الْحُدُودِ وَالرُّسُومِ تَقْلُوبًا مِنْ كِتَابِ الْبُرْهَانِ وَحَذَفُوا
 كِتَابَ الْمَقُولَاتِ لِأَنَّ نَظَرَ الْمَنْطِقِيِّ فِيهِ بِالْعَرَضِ لَا بِالذَّاتِ وَالْحَقُّوْا فِي كِتَابِ الْعِبَارَةِ
 الْكَلَامَ فِي الْعَكْسِ لِأَنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ الْكَلَامِ فِي الْقَضَايَا يَعْضُ الْوُجُوهُ ثُمَّ تَكَلَّمُوا
 فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِنْتِاجُهُ لِلْمَطَالِبِ عَلَى الْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَدَقُوا النَّظَرَ فِيهِ

بِحَسَبِ الْمَادَّةِ وَهِيَ الْكِتَابُ الْخَمْسَةُ الْبُرْهَانُ وَالْجَدَلُ وَالْخِطَابَةُ وَالشِّعْرُ وَالسَّفْسَطَةُ
وَرُبَّمَا يُلِمُّ بَعْضُهُمْ بِالْبَسِيرِ مِنْهَا إِمَامًا وَأَغْفَلُوهَا كَأَن لَّمْ تَكُنْ هِيَ الْمُهِيْمُ الْمُعْتَمَدُ
فِي الْفَنِّ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِيهَا وَضَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا مُسْتَجِرًا وَنَظَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ
فَنٌّ بِرَأْسِهِ لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ آلَةٌ لِلْعُلُومِ فَطَالَ الْكَلَامُ فِيهِ وَاتَّسَعَ وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ
ذَلِكَ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ وَمِنْ بَعْدِهِ أَفْضَلُ الدِّينِ الْخَوَنَجِي وَعَلَى كُتُبِهِ
مُعْتَمَدُ الْمَشَارِقَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَهُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ كِتَابٌ كَشَفَ الْأَسْرَارَ وَهُوَ طَوِيلٌ
وَأَخْتَصَرَ فِيهَا مُخْتَصَرَ الْمَوْجَزِ وَهُوَ حَسَنٌ فِي التَّعْلِيمِ ثُمَّ مُخْتَصَرُ الْجَمَلِ فِي قَدَرِ أَرْبَعَةِ
أَوْزَاقٍ أَخَذَ بِجَمَاعِ الْفَنِّ وَأَصُولِهِ فَتَدَاوَلَهُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ وَهَجَرَتْ
كُتُبُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَطُرِفَهُمْ كَأَن لَّمْ تَكُنْ وَهِيَ مُثَلِّثَةٌ مِنْ ثَمَرَةِ الْمَنْطِقِ وَقَائِدَتِهِ
كَمَا قُلْنَا وَاللَّهِ الْهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن عشر

في الطبيعيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَتَبَحَّثُ عَنِ الْجِسْمِ مِنْ جِهَةٍ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالشُّكُونِ فَيَنْظُرُ فِي
الْأَجْسَامِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا مِنْ حَيَوَانَ وَإِنْسَانٍ وَنَبَاتٍ وَمَعْدِنٍ وَمَا
يَتَكَوَّنُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعَبُورِ وَالزَّلَازِلِ وَفِي الْجَوِّ مِنَ السَّحَابِ وَالْبُخَارِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ
وَالصَّوَاعِقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفِي مَبْدَأِ الْحَرَكَةِ لِلْأَجْسَامِ وَهُوَ عَلَى تَنَوُّعِهَا فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ
وَالنَّبَاتِ وَكُتُبُ أَرِسْطُو فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ تُرْجِمَتْ مَعَ مَا تُرْجِمُ مِنْ عُلُومِ
الْفَلَسَفَةِ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ وَأَلَّفَ النَّاسُ عَلَى حَدِّهَا وَأَوْعَبُ مَنْ أَلَّفَ فِي ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي
كِتَابِ الشِّفَاءِ جَمَعَ فِيهِ الْعُلُومَ السَّبْعَةَ لِلْفَلَسَفَةِ كَمَا قَدَّمْنَا ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ النَّجَا وَفِي
كِتَابِ الْإِشَارَاتِ وَكَأَنَّهُ يُخَالِفُ أَرِسْطُو فِي الْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِهَا وَيَقُولُ بِرَأْيِهِ فِيهَا
وَأَمَّا ابْنُ رُشْدٍ فَلَخَّصَ كُتُبَ أَرِسْطُو وَشَرَحَهَا مُشَبِّهًا لَهُ غَيْرَ مُخَالِفٍ وَأَلَّفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ
كَثِيرًا لَكِنْ هَذِهِ هِيَ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَالْمُعْتَبَرَةُ فِي الصِّنَاعَةِ وَلِأَهْلِ الْمَشْرِقِ عِنَايَةٌ
بِكِتَابِ الْإِشَارَاتِ لِابْنِ سِينَا وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ عَلَيْهِ شَرْحٌ حَسَنٌ وَكَذَا الْآمِدِيُّ
وَشَرَحَهُ أَيْضًا نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِي الْمَعْرُوفُ بِخَوَاجَه مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَبَحَثَ مَعَ
الْإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَنُحُوثِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل التاسع عشر

في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ الطِّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرُضُ وَيَصِحُّ فَيَتَحَاوَلُ صَاحِبُهَا حِفْظَ الصِّحَّةِ وَبُرْءَ الْمَرَضِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ الْمَرَضُ الَّذِي يَخُصُّ كُلَّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ وَأَسْبَابَ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَرْجَةِ الْأَدْوِيَةِ وَقُوَّاهَا وَعَلَى الْمَرَضِ بِالْعَلَامَاتِ الْمُؤَدِّةِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ الدَّوَاءَ أَوَّلًا فِي السَّجِيَّةِ وَالْفَضَلَاتِ وَالنَّبْضِ مُحَازِينَ لِذَلِكَ قُوَّةَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ فِي حَالَتِي الصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَإِنَّمَا الطَّبِيبُ يُعَازِيهَا وَيُعِينُهَا بِعَضَى الشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْمَادَّةِ وَالْفَضْلِ وَالسِّنِّ وَيُسَمَّى الْعِلْمُ الْجَامِعُ لِهَذَا كُلِّهِ عِلْمَ الطَّبِّ وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ الْأَعْضَاءِ بِالْكَلَامِ وَجَعَلُوهُ عِلْمًا خَاصًّا كَالْعَيْنِ وَعِلْمَهَا وَأَكْثَالَهَا وَكَذَلِكَ الْحَقْوَا بِالْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا الْمَنْعَةُ الَّتِي لِأَجَابِهَا خَلَقَ كُلُّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ الْحَيَوَانِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الطَّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ وَإِمَامُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي تُرِجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ الْأَفْئِدَةِ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصِفَلِيَّةٍ فِي سَبِيلِ تَغْلِبِ وَمُطَاوَعَةِ اغْتِرَابٍ وَتَأَلَّفَهُ فِيهَا هِيَ الْأُتَهَاتُ الَّتِي أَقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ الْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْمَةً جَاءُوا مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ مِثْلَ الرَّزِيِّ وَالْعَبَّاسِيِّ وَأَبْنِ سِينَا وَمِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ وَأَشْهُرُهُمْ أَبُو زُهَيْرٍ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْمَدِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَتْهَا نَقَصَتْ لَوْفُوفُ الْعُمَرَانِ وَتَنَاقَصَ وَهِيَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا الْحِفَاظَةُ وَالتَّرَفُّ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدَ .

وَالْبَادِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ طِبُّ يَتَوَنَّهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ عَلَى تَجَرِبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ الْأَشْخَاصِ مُتَوَارِثًا عَنْ مَشَايِخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ وَرُبَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ الْبَعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونِ طَبِيعِيٍّ وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ الْعِزَاجِ وَكَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ هَذَا الطَّبِّ كَثِيرٌ وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ مَعْرُوفُونَ كَالْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَيْرِهِ وَالطَّبُّ الْمَنْقُولُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ الْوَحْيِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ كَانَ عَادِيًّا لِلْعَرَبِ وَوَقَعَ فِي

ذَكَرَ أَحْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَوَعُّدِ ذِكْرِ أَحْوَالِهِ الَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِبِلَةٌ لَا مِنْ جِهَةٍ أَنَّ ذَلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْعَمَلِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا بُعِثَ لِيُعَلِّمَنَا الشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْرِيفِ الطَّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْعَادِيَّاتِ وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي شَأْنِ تَلْقِيحِ النَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْمَلَ شَيْءٌ مِنَ الطَّبِّ الَّذِي وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اسْتُعْمِلَ عَلَى جِهَةِ الْبَرْكِ وَصَدَّقَ الْعَقْدُ الْإِيمَانِي فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي النَّفْعِ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الطَّبِّ الْمَزَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ الْكَلِمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ الْمَبْطُونِ بِالْعَسَلِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل العشرون

في الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ النَّظَرُ فِي النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَّتُهُ وَنُشْؤُهُ بِالسَّقْيِ وَالْعِلَاجِ وَتَعَهُدُهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ النَّظَرُ فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ وَالْهَيَاكِلِ الْمُسْتَعْمَلِ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ السِّحْرِ فَعَظُمَتْ عِنَابَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَتُرْجِمَ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ الْفَلَاحَةِ النَّبَطِيَّةِ مَنْسُوبَةً لِأَعْلَمَاءِ النَّبَطِ مُشْتَمِلَةً مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ وَلَعَمَّا نَظَرَ أَهْلُ الْعِلَّةِ فِيهَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ السِّحْرِ مَسْدُودًا وَالنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُورًا فَأَقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى الْكَلَامِ فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَعْزُضُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَذَفُوا الْكَلَامَ فِي الْفَنِّ الْآخَرِ مِنْهُ جُمْلَةً وَأَخْتَصَرَ ابْنُ الْعَوَّامِ كِتَابَ الْفَلَاحَةِ النَّبَطِيَّةِ عَلَى هَذَا الْمَنْهَاجِ وَبَقِيَ الْفَنُّ الْآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلًا نَقَلَ مِنْهُ مَسَلَمَةٌ فِي كُتُبِهِ السِّحْرِيَّةِ أُمَهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذَرَهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى السِّحْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَكُتُبُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْفَلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْدُونَ فِيهَا الْكَلَامَ فِي الْغِرَاسِ وَالْعِلَاجِ وَحِظَ النَّبَاتِ مِنْ حَوَائِجِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَعْزُضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ

الفصل الحادي والعشرون

في علم الالهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي الوجودِ الْمَطْلُوقِ فَأَوَّلًا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ لِلْجِسْمَانِيَّاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ مِنْ الْمَاهِيَّاتِ وَالْوَحْدَةِ وَالْكَثَرَةِ وَالْجُوبِ وَالْإِمْكَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مَبَادِيهِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَنْهَا رُوحَانِيَّاتٌ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَمَرَاتِبِهَا ثُمَّ فِي أَحْوَالِ النَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى الْمَبْدَأِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُوقِفُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الوجودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ فِي زَعْمِهِمْ وَسَيَاكِي الرُّدِّ عَلَيْهِمْ وَهُوَ تَالِي لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلِذَلِكَ يُسَمُّوهُ عِلْمٌ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ وَكُتِبَ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَلِخَصَّةِ ابْنِ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاءِ وَكَذَلِكَ لَخَصَّةُ ابْنِ رُشْدٍ مِنْ مُكَمَّلَاتِ الْأَنْدَلُسِ وَلَمَّا وَضَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْغَزَالِيُّ مَا رَدَّ مِنْهَا ثُمَّ خَلَطَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلَهِيَّاتِ وَمَسَائِلَهُ بِمَسَائِلِهَا فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَنٌّ وَاحِدٌ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحُكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُمَا فَنًّا وَاحِدًا قَدَّمُوا الْكَلَامَ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ثُمَّ اتَّبَعُوهُ بِالْجِسْمَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا ثُمَّ بِالرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْمَبَاحِثِ الْمَشْرِفَةِ وَجَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَصَارَ عِلْمُ الْكَلَامِ مُخْتَطَفًا بِمَسَائِلِ الْحِكْمَةِ وَكُتِبَتْ مَحْشُورَةٌ بِهَا كَانَ الْغَرَضُ مِنْ مَوْضُوعَيْهَا وَمَسَائِلِهَا وَاحِدٌ وَالتَّبَسُّسُ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ صَوَابٌ لِأَنَّ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ إِنَّمَا فِي عَقَائِدِ مُتَلَقَّاهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ كَمَا نَقَلَهَا السَّلَفُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ فِيهَا إِلَى الْعَقْلِ وَلَا تَعْوِيلٍ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تُثَبَّتُ إِلَّا بِهِ فَإِنَّ الْعَقْلَ مَعْرُوفٌ عَنِ الشَّرْعِ وَأَنْظَارُهُ وَمَا تَحَدَّثَ فِيهِ الْمُشْكِلُونَ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَجِ فَلَيْسَ بِحُجَّتٍ عَنِ الْحَقِّ فِيهَا فَالْتَّعْوِيلُ بِالْدَّلِيلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا هُوَ شَأْنُ الْفَلَسَفَةِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ التَّيَمُّسُ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ تَعُضِدُ عَقَائِدَ الْإِيمَانِ وَمَذَاهِبَ السَّلَفِ فِيهَا وَتَدْفَعُ شُبُهَةَ أَهْلِ الْبِدْعِ عَنْهَا الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مَدَارَ كُلِّمْ فِيهَا عَقْلِيَّةٌ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تُفَرِّضَ صَحِيحَةً بِالْأَدِلَّةِ النَّقْلِيَّةِ كَمَا تَلَقَّاهَا السَّلَفُ وَاعْتَقَدُوهَا وَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ وَذَلِكَ أَنَّ مَدَارِكَ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ لِاتِّسَاعِ نِطَاقِهَا عَنْ مَدَارِكِ الْأَنْظَارِ الْعَقْلِيَّةِ

فَهِىَ فَوْقَهَا وَمُحِيطَةٌ بِهَا لَا سَتِيمَدَادَهَا مِنَ الْأَنْوَارِ إِلَّا لِهَيْئَةٍ فَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ قَانُونِ النَّظَرِ
الضَّعِيفِ وَالْمَدَارِكِ الْمُحَاطِ بِهَا فَإِذَا هَدَانَا الشَّارِعُ إِلَى مَدْرِكٍ فَيَنْبَغِي أَنْ نُقَدِّمَهُ عَلَى
مَدَارِكِنَا وَنَتَّقِي بِهِ دُونَهَا وَلَا نَنْظُرَ فِي تَصْحِيحِهِ بِمَدَارِكِ الْعَقْلِ وَلَوْ عَارِضُهُ بَلْ نَعْتَمِدُ مَا
أَمَرْنَا بِهِ أَعْتِقَادًا وَعِلْمًا وَنَهَكُنْ عَمَّا لَمْ نَقْهَمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَفَوَّضُهُ إِلَى الشَّارِعِ وَتَعَزِلُ
الْعَقْلَ عَنْهُ وَالْمُتَكَلِّمُونَ إِنَّمَا دَعَاؤُهُمْ إِلَى ذَلِكَ كَلَامُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ فِي مُعَارَضَاتِ
الْعَقَائِدِ السَّلَفِيَّةِ بِالْبِدْعِ النَّظَرِيَّةِ فَاحْتَاجُوا إِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مِنْ جِنْسِ مُعَارَضَاتِهِمْ
وَأَسْتَدْعَى ذَلِكَ الْحُجَجَ النَّظَرِيَّةَ وَتُعَاذَةُ الْعَقَائِدِ السَّلَفِيَّةِ بِهَا وَأَمَّا النَّظَرُ فِي مَسَائِلِ
الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ بِالتَّصْحِيحِ وَالْبُطْلَانِ فَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَلَا مِنْ جِنْسِ
أَنْظَارِ الْمُتَكَلِّمِينَ فَأَعْلَمُ ذَلِكَ لِيُمَيِّزَ بِهِ بَيْنَ الْفَنَيْنِ فَإِنَّهُمَا مُخْتَاطَانِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ
فِي التَّوَضُّعِ وَالتَّأَلُّفِ وَالْحَقِّ مُغَايِرَةٌ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ بِالتَّوَضُّعِ وَالْمَسَائِلِ وَإِنَّمَا
جَاءَ الْإِلْتِبَاسُ مِنْ اتِّحَادِ الْمَطَالِبِ عِنْدَ الْإِسْتِدْلَالِ وَصَارَ احْتِجَاجُ أَهْلِ الْكَلَامِ كَأَنَّهُ
إِنْشَاءُ لَطَلَبِ الْأَعْتِدَادِ بِالْدَّلِيلِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ رَدٌّ عَلَى الْمُحْدِثِينَ وَالْمَطْلُوبُ
مَفْرُوضُ الْبَصِيقِ مَعْلُومُهُ وَكَذَا جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ غَلَاةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ
بِالْوَاحِدِ أَيْضًا فَخَلَطُوا مَسَائِلَ الْفَنَيْنِ بَيْنَهُمْ وَجَعَلُوا الْكَلَامَ وَاحِدًا فِيهَا كُلِّهَا مِثْلَ
كَلَامِهِمْ فِي النُّبُوَاتِ وَالْإِتِّحَادِ وَالْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالْمَدَارِكُ فِي هَذِهِ
الْفَنُونِ الثَّلَاثَةِ مُتَغَايِرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ وَأَبْعَدُهَا مِنْ جِنْسِ الْفَنُونِ وَالْعُلُومِ مَدَارِكُ الْمُتَصَوِّفَةِ
لَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ فِيهَا الْوُجْدَانَ وَيَفِرُّونَ عَنِ الدَّلِيلِ وَالْوُجْدَانُ بَعِيدٌ عَنِ الْمَدَارِكِ
الْعِلْمِيَّةِ وَابْتِحَانُهَا وَتَوَابِعُهَا كَمَا يَنْشَأُ وَبَيِّنُهُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الفصل الثاني والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وَهِيَ عُلُومٌ بِكَيْفِيَّةِ اسْتِعْدَادَاتِ اقْتِدَارِ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ بِهَا عَلَى التَّأَثُّرَاتِ فِي عَالَمِ
الْعَنَاصِرِ إِمَّا بِذَرِّ مُعِينٍ أَوْ بِجَمْعٍ مِنَ الْأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَوَّلُ هُوَ السِّحْرُ وَالثَّانِي هُوَ
الطَّلَسْمَاتُ وَأَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ مَعْجُورَةً عِنْدَ الشَّرَائِعِ لِمَا فِيهَا مِنَ الضَّرَرِ وَلِمَا يُشْتَرِطُ
فِيهَا مِنَ الْوُجْهِةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِنْ كَوْكَبٍ أَوْ غَيْرِهِ كَانَتْ كُتُبَهَا كَالْمَقْقُودَةِ بَيْنَ النَّاسِ

إِلَّا مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ فِيمَا قَبَلَ بُيُوتَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ النَّبِطِ
وَالْكَلْدَانِيِّينَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ أَقْدَمَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَشْرَعُوا الشَّرَائِعَ وَلَا جَاءُوا بِالْأَحْكَامِ
إِنَّمَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ مَوَاعِظَ وَتَوْحِيدًا لِلَّهِ وَتَذْكِيرًا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ
فِي أَهْلِ بَابِلَ مِنَ السَّرْيَانِيِّينَ وَالْكَلْدَانِيِّينَ وَفِي أَهْلِ مِصْرَ مِنَ الْقِبْطِ وَغَيْرِهِمْ وَكَانَ
لَهُمْ فِيهَا التَّأْلِيفُ وَالْأَثَارُ وَلَمْ يُتَرْجَمْ لَنَا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِثْلُ الْفِلَاحَةِ
النَّبَطِيَّةِ مِنْ أَوْضَاعِ أَهْلِ بَابِلَ فَأَخَذَ النَّاسُ مِنْهَا هَذَا الْعِلْمَ وَتَفَتَّنُوا فِيهِ وَوُضِعَتْ بَعْدَ
ذَلِكَ الْأَوْضَاعُ مِثْلُ مَصَاحِفِ الْكُوكِبِ السَّبْعَةِ وَكِتَابِ طِمْطِمِ الْهِنْدِيِّ فِي صُورِ
الدَّرَجِ وَالْكُوكِبِ وَغَيْرِهَا ثُمَّ ظَهَرَ بِالْمَشْرِقِ جَابِرُ بْنُ حَبَّانَ كَبِيرُ السَّحَرَةِ فِي هَذِهِ
الْعَمَلَةِ فَتَصَفَّحَ كُتُبَ الْقَوْمِ وَاسْتَخْرَجَ الصَّنَاعَةَ وَغَاصَ فِي زِينَتِهَا وَاسْتَخْرَجَهَا وَوَضَعَ فِيهَا
غَيْرَهَا مِنَ التَّأْلِيفِ وَأَكْثَرَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي صِنَاعَةِ السِّمِّيَاءِ لِأَنَّهُا مِنْ تَوَابِعِهَا لِأَنَّ
إِحَالَةَ الْأَجْسَامِ النَّوَاعِيَةِ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى إِنَّمَا يَكُونُ بِالْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ لَا بِالصَّنَاعَةِ
الْعَمَلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ كَمَا نَذَرُ فِي مَوْضِعِهِ ثُمَّ جَاءَ مُسْلِمَةُ بْنُ أَحْمَدَ
الْمَجْرِبِيُّ إِمَامُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي التَّعَالِيمِ وَالسَّحَرِيَّاتِ فَلَخَّصَ جَمِيعَ تِلْكَ الْكُتُبِ
وَهَذَّبَهَا وَجَمَعَ طُرُقَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةُ الْحَكِيمِ وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِي هَذَا
الْعِلْمِ بَعْدَهُ وَلِنُقَدِّمَ هُنَا مُقَدِّمَةً يَتَبَيَّنُ بِهَا حَقِيقَةُ السَّحَرِ وَذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ
وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْخَوَاصِ وَهِيَ أَصْنَافٌ كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ
بِمَخَاصِيصِهِ وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ لَا تُوْجَدُ فِي الصِّنْفِ الْآخَرَ وَصَارَتْ تِلْكَ الْخَوَاصُ فِطْرَةً وَجِبِلَّةً
لِصِنْفِهَا فَنُّفُوسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهَا خَاصِيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْمَعْرِفَةِ الرَّبَّانِيَّةِ
وَمُخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا مَرَّ وَمَا يَنْبَغِي فِي ذَلِكَ
مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَاسْتِجْلَابِ رُوحَانِيَّةِ الْكُوكِبِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا التَّأْثِيرِ
بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ فَأَمَّا تَأْثِيرُ الْأَنْبِيَاءِ فَمَدَدُ الْإِلَهِيِّ وَخَاصِيَّةُ رَبَّانِيَّةِ وَنُّفُوسُ
الْحَكَمَةِ لَهَا خَاصِيَّةُ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْمَغْيِبَاتِ بِقُوَّةِ شَيْطَانِيَّةٍ وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ
مُخْتَصٌّ بِخَاصِيَّةٍ لَا تُوْجَدُ فِي الْآخَرِ وَالنُّفُوسُ السَّاحِرَةُ عَلَى مَرَاتِبِ ثَلَاثٍ بَأْتِي مُرَحِّمًا
فَأَوَّلُهَا الْمُؤَثِّرَةُ بِالْهَيْمَةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ
السِّحْرَ وَالثَّانِي بِمُعِينٍ مِنْ مِزَاجِ الْأَفْلَاقِ أَوِ الْعَنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِ الْأَعْدَادِ وَيُسَمُّونَهُ

الطَّلَسَمَاتِ وَهُوَ أضعفُ رُتَبَةٍ مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثُ تَأْثِيرُ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيِّلَةِ يَعْمَدُ صَاحِبُ
هَذَا التَّأْثِيرِ إِلَى الْقُوَى الْمُتَخَيِّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعًا
مِنَ الْخَيَالَاتِ وَالْحَمَّاكَاتِ وَضُورًا مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ يُنْزِلُهَا إِلَى الْحِسِّ مِنَ الرَّائِينَ
بِقُوَّةِ نَفْسِهِ الْمُؤَثَّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ الرَّائِي كَأَنَّهَا فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَمَا
يُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرَى الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَيُسَمَّى
هَذَا عِنْدَ الْفَلَسِيفَةِ السُّعُودَةَ أَوْ السُّعْبَةَ . هَذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ ثُمَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ تَكُونُ
فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ شَأْنُ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا تَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ بِالرِّيَاضَةِ وَرِيَاضَةِ
السِّحْرِ كُلِّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَوَالِمِ الْعَالَوِيَّةِ وَالشَّيَاطِينِ
بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فَبِذَلِكَ وَجْهَةٌ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَسُجُودٌ
لَهُ وَالْوَجْهَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفْرٌ فَلِهَذَا كَانَ السِّحْرُ كُفْرًا وَكَثَرُ مِنْ مَوَادِّهِ وَأَسْبَابِهِ
كَمَا رَأَيْتَ وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ هَلْ يَكْفِرُهُ السَّابِقُ عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لِيَتَصَرَّفَ
بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْمَكْلُ حَاصِلٌ مِنْهُ وَلَمَّا كَانَتْ
الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنَ السِّحْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَالْمَرْتَبَةُ الْأَخِيرَةُ الثَّالِثَةُ لَا حَقِيقَةَ
لَهَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السِّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ
نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ
الْأَخِيرَةِ فَلَيْسَ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ اشْتِبَاهِ هَذِهِ
الْمَرَاتِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَاعْلَمْ أَنَّ وُجُودَ السِّحْرِ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ التَّأْثِيرِ
الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ
النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ
حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمُحَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى
كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ وَجَعَلَ سِحْرَهُ فِي مِشْطٍ وَمُسَاقَةٍ وَجُفٍ طُلْعَةٍ
قُدْرَيْنِ فِي بَشَرٍ ذِرْوَانَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي الْمَعُودَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ النَّفَاثَاتِ فِي
الْعُقَدِ كَالْتِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ لَا يَقْرَأُ عَلَى عُقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعُقَدِ الَّتِي سِحْرُ فِيهَا
إِلَّا أَفْطَلَتْ وَأَمَّا وُجُودُ السِّحْرِ فِي أَهْلِ بَابِلَ وَهُمْ الْكَلْدَانِيُّونَ مِنَ النَّبْطِ وَالسَّرْيَانِيِّينَ

فَكثيرٌ وَنَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَجَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَكَانَ لِلسِّحْرِ فِي بَابِلَ وَمِصْرَ أَزْمَانٌ بَعَثَ
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْوَاقُ نَافِقَةٍ وَلِهَذَا كَانَتْ مُعْجِزَةُ مُوسَى مِنْ جِنْسِ مَا يَدْعُونَ وَيَتَنَاقُونَ
 فِيهِ وَبَقِيَ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ فِي الْبَرَارِيِّ بِصَعِيدِ مِصْرَ شَوَاهِدُ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ وَرَأَيْنَا بِالْعِيَانِ
 مَنْ يُصَوِّرُ صُورَةَ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ بِخَوَاصِ أَشْيَاءٍ مُقَابِلَةً لِمَا نَوَاهُ وَحَاوَلَهُ مُوجُودُهُ
 بِالْمَسْحُورِ وَأَمْثَالُ تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ أَسْمَاءٍ وَصِفَاتٍ فِي التَّالِيَةِ وَالتَّفْرِيقِ ثُمَّ بَتَّ كَلِمُ
 عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي أَقَامَهَا مَقَامَ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ عَيْنًا أَوْ مَعْنَى ثُمَّ يَنْفُثُ مِنْ رِيقِهِ
 بَعْدَ أَجْتِمَاعِهِ فِيهِ بِتَكَرُّرِ مَخَارِجِ تِلْكَ الْحُرُوفِ مِنَ الْكَلَامِ السُّوءِ وَيَعْقُدُ عَلَى
 ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي سَبَبِ أَعْدَهُ لِذَلِكَ تَفَاوُلًا بِالْعَقْدِ وَاللِّزَامِ وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ
 بِهِ مِنَ الْجِنِّ فِي نَفْسِهِ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ اسْتِشْعَارًا لِلْعَزِيمَةِ بِالْعَزْمِ وَلِلتَّائِلَةِ وَالْأَسْمَاءِ
 السَّيِّئَةِ رُوحٌ خَبِيثَةٌ تَخْرُجُ مِنْهُ مَعَ النَّفْثِ مُتَعَلِّقَةٌ بِرِيقِهِ الْخَارِجِ مِنْ فِيهِ بِالْثَفْثِ فَتَنْزِلُ
 عَنْهَا أَرْوَاحُ خَبِيثَةٍ وَيَقَعُ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَسْحُورِ مَا يُحَاوِلُهُ السَّاحِرُ وَشَاهِدُنَا أَيْضًا مِنْ
 الْمُتَحَلِّينَ لِلْسِّحْرِ وَعَمَلِهِ مَنْ يُشِيرُ إِلَى كِسَاءٍ أَوْ جِلْدٍ وَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ فَإِذَا
 هُوَ مَقْطُوعٌ مُتَخَرِّقٌ وَيُشِيرُ إِلَى بَطُونِ الْغَنَمِ كَذَلِكَ فِي مَرَاعِيهَا بِالتَّبَعِ فَإِذَا أَمْعَاوَهَا سَاقِطَةٌ
 مِنْ بَطُونِهَا إِلَى الْأَرْضِ وَنَمِينًا أَنْ بَارِضٍ الْهِنْدِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَنْ يُشِيرُ إِلَى إِنْسَانٍ فَيَنْتَحِثُ
 قَلْبُهُ وَيَقَعُ مَيِّتًا وَيَنْقَلِبُ عَنْ قَلْبِهِ فَلَا يُوجَدُ فِي حَشَاءٍ وَيُشِيرُ إِلَى الرُّمَانَةِ وَتُفْتَحُ فَلَا
 يُوجَدُ مِنْ جُوبِهَا شَيْءٌ وَكَذَلِكَ سَمِينًا أَنْ بَارِضِ السُّودَانِ وَأَرْضِ التُّرْكِ مَنْ يَسْحَرُ
 السَّحَابَ فَيُمْطِرُ الْأَرْضَ الْخَصُوصَةَ وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا مِنْ عَمَلِ الطَّلِسْمَاتِ عَجَائِبَ فِي
 الْأَعْدَادِ الْمُتَحَابَّةِ وَهِيَ رَكْرَكٌ دَأْحَدُ الْعَدَدَيْنِ مِائَتَانِ وَعِشْرُونَ وَالْآخِرُ مِائَتَانِ
 وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ وَمَعْنَى الْمُتَحَابَّةِ أَنْ أَجْزَاءَ كُلِّ وَاحِدٍ الَّتِي فِيهِ مِنْ نِصْفٍ وَثُلْثٍ
 وَرُبْعٍ وَسُدُسٍ وَخُمْسٍ وَأَمْثَالِهَا إِذَا جُمِعَ كَانَ مُتَسَاوِيًا لِلْعَدَدِ الْآخِرِ صَاحِبِهِ فَتَسْمَى
 لِأَجْلِ ذَلِكَ الْمُتَحَابَّةِ وَتَقُلُّ أَصْحَابُ الطَّلِسْمَاتِ أَنْ لِيْلِكَ الْأَعْدَادِ أَثَرًا فِي الْإِلَافَةِ بَيْنَ
 الْمُتَحَابِّينَ وَاجْتِمَاعِهِمَا إِذَا وُضِعَ لِهَمَا مِثَالَانِ أَحَدُهُمَا بِطَالِعِ الزُّهَرَةِ وَهِيَ فِي يَتْنِهَا أَوْ
 شَرَفِهَا نَاطِرَةٌ إِلَى الْقَمَرِ نَظَرٌ مَوْدِيٌّ وَقَبُولٌ وَيَجْعَلُ طَالِعُ الثَّانِي سَابِعَ الْأَوَّلِ وَيَضَعُ عَلَى
 أَحَدِ التَّمَثَالَيْنِ أَحَدَ الْعَدَدَيْنِ وَالْآخَرَ عَلَى الْآخَرِ وَيَقْصِدُ بِالْأَكْثَرِ الَّذِي يُرَادُ
 ائْتِلَافُهُ أَعْنِي الْمَعْبُوبَ مَا أَدْرِي الْأَكْثَرَ كَمِيَّةً أَوْ الْأَكْثَرَ أَجْزَاءً فَيَكُونُ لِذَلِكَ

مِنَ الثَّالِثِ الْعَظِيمِ بَيْنَ الْمُتَحَلِّينَ مَا لَا يَكَادُ يَنْفَكُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ قَالَهُ صَاحِبُ
 الْغَايَةِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجَرِبَةُ وَكَذَا طَابِعُ الْأَسَدِ وَيُسَمَّى
 أَيْضًا طَابِعُ الْحَصَى وَهُوَ أَنْ يُرْسَمَ فِي قَالِبٍ مِندَ اصْبَحَ صُورَةُ أَسَدٍ شَائِلًا ذَنْبُهُ عَاضًا عَلَى
 حَصَاةٍ قَدْ قَسَمَهَا بِنِصْفَيْنِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ صُورَةُ حَيَّةٍ مُنْسَابَةٍ مِنْ رِجَالَيْهِ إِلَى قُبَالَةِ وَجْهِهِ
 فَاعْرِزَةٌ فَاها فِيهِ وَعَلَى ظَهْرِهِ صُورَةُ عَقْرَبٍ تَدْبُ وَتَتَحَيَّنُ بِرِسْمِهِ حُلُولَ الشَّمْسِ بِالْوَجْهِ
 الْأَوَّلِ أَوِ الثَّلَاثِ مِنَ الْأَسَدِ بِشَرْطِ صَلَاحِ الْبَرِّينِ وَسَلَامَتَيْهِمَا مِنَ النُّحُوسِ فَإِذَا
 وَجَدَ ذَلِكَ وَعَثَرَ عَلَيْهِ طُبِعَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي مِقْدَارِ الْمِثْقَالِ فَمَا دُونَهُ مِنَ الذَّهَبِ
 وَغُمِسَ بَعْدُ فِي الزَّعْفَرَانِ مَحْلُولًا بِمَاءِ الْوَرْدِ وَرُفِعَ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ
 أَنَّ لِمُسْكِهِ مِنَ الْعِزِّ عَلَى السَّلَاطِينِ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ وَخِدْمَتِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ لَهُ مَا لَا
 يُعْبَرُ وَكَذَلِكَ لِلْسَّلَاطِينِ فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعِزِّ عَلَى مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ذَكَرَ ذَلِكَ
 أَيْضًا أَهْلُ هَذَا الشَّانِ فِي الْغَايَةِ وَغَيْرِهَا وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجَرِبَةُ وَكَذَلِكَ وَفَقِيَ الْمُسَدِّسُ
 الْمُخْتَصِنُ بِالشَّمْسِ ذَكَرُوا أَنَّهُ يُوضَعُ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ فِي شَرْفِهَا وَسَلَامَتِهَا
 مِنَ النُّحُوسِ وَسَلَامَةِ الْقَمَرِ بِطَالِعِ مُلُوكِي يُعْتَبَرُ فِيهِ نَظَرُ صَاحِبِ الْعَاشِرِ لِصَاحِبِ
 الطَّالِعِ نَظَرُ مَوَدَّةٍ وَقَبُولٍ وَبِصْلُحٍ فِيهِ مَا يَكُونُ مِنْ مَوَالِيدِ الْمُلُوكِ مِنَ الْأَدِلَّةِ
 الشَّرِيفَةِ وَيُرْفَعُ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ بَعْدَ أَنْ يُغْمَسَ فِي الطِّيبِ فَرَعَمُوا أَنَّ لَهُ أَثَرًا فِي
 صَحَابَةِ الْمُلُوكِ وَخِدْمَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَكِتَابُ الْغَايَةِ لِمَسْلَمَةَ بْنِ
 أَحْمَدَ النُّجَرِيّ طَبِيعِي هُوَ مَدُونَةٌ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَفِيهِ أَسَافَاؤُهُمَا وَكَمَالُ مَسَائِلِهَا وَذَكَرَ لَنَا
 أَنَّ الْإِمَامَ الْفَخْرَ بْنَ الْخَطِيبِ وَضَعَ كِتَابًا فِي ذَلِكَ وَمِمَّا هُوَ بِالسَّرِّ الْمَكْتُومِ وَأَنَّهُ
 بِالْمَشْرِقِ يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُهُ وَتَحْنُ لَمْ تَقِفْ عَلَيْهِ وَالْإِمَامُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ
 فِيمَا نَظَنُّ وَلَعَلَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَبِالْمَغْرِبِ صِنْفٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَلِّينَ لِهَذِهِ
 الْأَعْمَالِ السَّحَرِيَّةِ يُعْرِفُونَ بِالْبَعَاجِينِ وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرْتُ أَوَّلًا أَنَّهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى
 الْكِسَاءِ أَوْ الْجِلْدِ فَيَتَخَرَّقُونَ وَيُشِيرُونَ إِلَى يُطَوْنَ الْغَنَمِ بِالْبَعْجِ فَتَنْبَعِجُ وَيُسَمَّى أَحَدُهُمْ
 لِهَذَا الْعَهْدِ بِاسْمِ الْبَعَاجِ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ مَا يَنْتَحِلُ مِنَ السَّحَرِ بَعْجُ الْأَنْعَامِ يُرْهِبُ بِذَلِكَ
 أَهْلَهَا أَيْعُظُوهُ مِنْ فَضَائِلِهَا وَهُمْ مُسْتَبْرُونَ بِذَلِكَ فِي الْغَايَةِ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحُكَامِ
 لَقِيتُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً وَشَاحَدْتُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ هَذِهِ بِذَلِكَ وَأَخْبَرُونِي أَنَّ لَهُمْ وَجْهَةً وَرِيَاضَةً

خَاصَّةً بِدَعَوَاتِ كُفْرِيَّةٍ وَإِشْرَاكِ الرُّوحَانِيَّاتِ الْجِنِّ وَالْكَوَاكِبِ سَطَرَتْ فِيهَا صَحِيفَةٌ
عِنْدَهُمْ تُسَمَّى الْخَزِيرِيَّةَ يَتَدَارَسُونَهَا وَأَتَمُّهُمْ بِهَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَالْوِجْهَةِ يَصِلُونَ إِلَى حُصُولِ هَذِهِ
الْأَفْعَالِ لَهُمْ وَأَنَّ التَّأثيرَ الَّذِي لَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي مَا سِوَى الْإِنْسَانِ الْحَرِّ مِنَ الْمَتَاعِ
وَالْحَيَوَانِ وَالْأَرَقِيْقِ وَيُعَبِّرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَفْعُ فِيمَا تَمْشِي فِيهِ الدَّرَاهِمُ أَيْ مَا
يُمْلِكُ وَيُبَاعُ وَيُشْتَرَى مِنْ سَائِرِ الْمُتَمَلِّكَاتِ هَذَا مَا زَعَمُوهُ وَسَأَلْتُ بَعْضَهُمْ فَأَخْبَرَنِي
بِهِ وَأَمَّا أَفْعَالُهُمْ فَظَاهِرَةٌ مُوجُودَةٌ وَقَفْنَا عَلَى الْكَثِيرِ مِنْهَا وَعَايَنْتُهَا مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ فِي
ذَلِكَ هَذَا شَأْنُ السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ وَأَثَارُهُمَا فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا الْفَلَاسِفَةُ فَفَرَّقُوا بَيْنَ
السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ بَعْدَ أَنْ اثْبَتُوا أَنَّهِمَا جَمِيعًا أَثَرٌ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَسْتَدَلُّوا عَلَى
وُجُودِ الْأَثَرِ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِأَنَّ لَهَا أَثَارًا فِي بَدَنِهَا عَلَى غَيْرِ الْجَرَى الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ
الْجِسْمَانِيَّةِ بَلْ أَثَارُ عَارِضَةٍ مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْأَرْوَاحِ تَارَةً كَالشُّخُونَةِ الْحَادِثَةِ عَنْ الْفَرْحِ
وَالسُّرُورِ وَمِنْ جِهَةِ الصُّورَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أُخْرَى كَالَّذِي يَقَعُ مِنْ قِبَلِ التَّوَهُّمِ فَإِنْ
الْمَاشِي عَلَى حَرْفٍ حَائِطٍ أَوْ عَلَى حَبْلٍ مُنْتَصِبٍ إِذَا قَوِيَ عِنْدَهُ تَوَهُّمُ السَّقُوطِ سَقَطَ بِلاَ
شَكٍّ وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُعَوِّدُونَ أَنْفُسَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُمْ هَذَا التَّوَهُّمُ
فَتَجِدُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى حَرْفٍ الْحَائِطِ وَالْحَبْلِ الْمُنْتَصِبِ وَلَا يَخَافُونَ السَّقُوطَ فَثَبَّتَ أَنَّ
ذَلِكَ مِنْ أَثَارِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَصَوُّرَهَا لِلسَّقُوطِ مِنْ أَجْلِ التَّوَهُّمِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
أَثَرًا لِلنَّفْسِ فِي بَدَنِهَا مِنْ غَيْرِ الْأَسْبَابِ الْجِسْمَانِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَهَا
مِثْلُ هَذَا الْأَثَرِ فِي غَيْرِ بَدَنِهَا إِذْ نُسِبَتْهَا إِلَى الْأَبْدَانِ فِي ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّأثيرِ
وَاحِدَةٍ لِأَنَّهَا غَيْرُ حَالَةٍ فِي الْبَدَنِ وَلَا مُنْطَبِعَةٍ فِيهِ فَثَبَّتَ أَنَّهَا مُؤَثِّرَةٌ فِي سَائِرِ الْأَجْسَامِ
وَأَمَّا التَّفَرِيقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ فَهُوَ أَنَّ السِّحْرَ لَا يَخْتَاجُ السَّاحِرَ فِيهِ إِلَى
مُعِينٍ وَصَاحِبِ الطَّلَسْمَاتِ يَسْتَعِينُ بِرُوحَانِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ وَأَسْرَارِ الْأَعْدَادِ وَخَوَاسِ
الْمَوْجُودَاتِ وَأَوْضَاعِ الْفَلَكَ الْمُؤَثِّرَةِ فِي عَالَمِ الْعُنَاصِرِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُتَحِجُّونَ وَيَقُولُونَ
السِّحْرُ اتِّحَادُ رُوحِ الْبَرُّوحِ وَالطَّلَسْمُ اتِّحَادُ رُوحِ الْجِسْمِ وَمَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ رَبْطُ الطَّبَائِعِ
الْعُلَوِيَّةِ السَّمَاءِيَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ وَالطَّبَائِعِ الْعُلَوِيَّةِ بِرُوحَانِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ
وَلِذَلِكَ يَسْتَعِينُ صَاحِبُهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ بِالتَّجَامَةِ وَالسَّاحِرُ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُكْتَسِبٍ لِسِحْرِهِ
بَلْ هُوَ مَفْطُورٌ عِنْدَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْجِيلَةِ الْمُخْتَصَةِ بِذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّأثيرِ وَالْفَرْقُ عِنْدَهُمْ

بَيْنَ الْمُعْجَزَةِ وَالسِّحْرِ أَنَّ الْمُعْجَزَةَ قُوَّةُ الْإِلهِ تَبْعَثُ عَلَى النَّفْسِ ذَلِكَ الدَّائِرَ فَهُوَ مُؤَيَّدٌ
 بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى نَعْلِهِ ذَلِكَ وَالسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ النَّفْسَانِيَّةِ
 وَبِإِمْدَادِ الشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا الْفَرْقُ فِي الْعَقُولِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ
 فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ نَحْنُ عَلَى التَّفَرُّقِ بِالْعَلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ وُجُودُ الْمُعْجَزَةِ
 لِصَاحِبِ الْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ الْخَيْرِ وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَمَحِّصَةِ لِلْخَيْرِ وَالتَّحَدِّي بِهَا عَلَى دَعْوَى
 النَّبُوَّةِ وَالسِّحْرِ إِنَّمَا يُوجَدُ لِصَاحِبِ الشَّرِّ وَفِي أَعْمَالِ الشَّرِّ فِي الْغَالِبِ مِنَ التَّفَرُّقِ بَيْنَ
 الزُّوجَيْنِ وَضَرَرِ الْأَعْدَاءِ وَأَمثال ذلك وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَمَحِّصَةِ لِلشَّرِّ . هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا
 عِنْدَ الْحُكَمَاءِ الْأَلَهِيِّينَ وَقَدْ يُوجَدُ لِبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ الْكِرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضًا
 فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ وَالنَّاسِ مَعْدُودًا مِنْ جِنْسِ السِّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالْإِمْدَادِ الْإِلَهِيِّ لِأَنَّهُ طَرِيقَتُهُمْ
 وَمُخَلَّتُهُمْ مِنْ آثَارِ النَّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَأَهْمُ فِي الْمَدَدِ الْإِلَهِيِّ حِفْظُ عَلَى قَدَرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ
 وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَإِذَا اقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَعْمَالِ الشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لِأَنَّهُ مُتَقَيِّدٌ فِيمَا
 يَأْتِيهِ بِذَرَّةٍ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ فَمَا لَا يَقَعُ لَهُ فِيهِ إِلَّا ذُنُوبٌ لَا يَأْتُونَهُ بِوَجْهِهِ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ
 عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَرُبَّمَا سَلَبَ حَالَهُ وَلَئِنْ كَانَتِ الْمُعْجَزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ اللَّهِ وَالْقُوَى
 الْإِلَهِيَّةِ فَلِلَّذَلِكَ لَا يُعَارِضُهَا شَيْءٌ مِنَ السِّحْرِ وَأَنْظُرْ شَأْنَ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي
 مُعْجَزَةِ الْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ يَأْفِكُونَ وَذَهَبَ سِحْرُهُمْ وَاسْتَحْمَلَ كَانُ لَمْ يَكُنْ
 وَكَذَلِكَ لَمَّا أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُعْجِزَاتِ وَمِنْ شَرِّ الثَّفَائِتِ فِي
 الْعَقْدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَكَانَ لَا يَقْرَأُهَا عَلَى عَقْدَةٍ مِنَ الْعَقْدِ الَّتِي سِحْرٌ فِيهَا
 إِلَّا انْهَكَتْ فَالسِّحْرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ أَسْمِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَقَدْ تَقَلَّ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ زُرْكَشَ
 كَلَوِيَّانَ وَهِيَ رَايَةُ كِسْرَى كَانَ فِيهَا الْوَفْقُ الْمِشْنِيُّ الْعَدَدِيُّ مَنْسُوجًا بِالذَّهَبِ فِي أَوْضَاعٍ
 فَلِكَيْ رُصِدَتْ لِذَلِكَ الْوَفْقِ وَوُجِدَتْ الرَّايَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسُومُ بِالْقَادِسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلَى
 الْأَرْضِ بَعْدَ انْهِزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ وَهُوَ فِيمَا تَزَعُمُ أَهْلُ الطَّلِسْمَاتِ وَالْأَوْفَاقِ
 مَخْصُوصٌ بِالْقَلْبِ فِي الْحُرُوبِ وَأَنَّ الرَّايَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصْلًا إِلَّا
 أَنَّ هَذِهِ عَارِضُهَا الْمَدَدُ الْإِلَهِيُّ مِنْ إِيْمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَاتَّعَلَّ مَعَهَا كُلُّ عَقْدٍ سِحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَبَطَلَ مَا كَانُوا
 يَتَمَلَّكُونَ وَأَمَّا الشَّرِيعَةُ فَلَمْ تَتَفَرَّقْ بَيْنَ السِّحْرِ وَالطَّلِسْمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلُّهُ بَابًا وَاحِدًا مَحْظُورًا

لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا
أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يهمننا في شيء منهما فإن كان فيه ضرر
أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالتفوق ويحقق به الطلسمات لأن أثرهما واحد
والتجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية يرد الأمور
إلى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبتِهِ في الضرر وإن لم يكن مهيما
علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قربة إلى الله فإن من حسن إسلام المرء تركه
ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيها من
الضرر وخصته بالخطر والتحريم وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذي
ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدي وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه
قالوا والساحر مضرuf عن مثل هذا التحدي فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق
دعوى الكاذب غير مقدور لأن دالة المعجزة على الصديق عقلية لأن صفة نفسها
التصديق فلو وقعت مع الكاذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال فإذا لا تقع
المعجزة مع الكاذب بإطلاق وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه
فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل
في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر
وكأنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء وهو القوي
العزيز لا رب سواه ومن قيل هذه التأثيرات النفسية الإصابة بالعين وهو تأثير
من نفس المعبان عندما يستحسن بعينه مذكر كامن الذوات أو الأحوال ويفرط في
استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عن
انصف به فيؤثر فسادة وهو جيلة فطرية أغني هذه الإصابة بالعين والفرق بينها
وبين التأثيرات وإن كان منها ما لا يكتب فصدورها راجع إلى اختيار فاعلها
والفطري منها قوة صدورها ولهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل والقاتل
بالعين لا يقتل وما ذلك إلا أنه ليس مما يريد ويقتضيه أو يتركه وإنما هو مجبور
في صدوره عنه والله أعلم بما في الغيوب ومطلع على ما في السرائر

الفصل الثالث والعشرون

في علم الكيمياء

وهو علم ينظر في المادة التي يتيم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك فيتصنعون المكنونات كلها بعد معرفة أمر جيتها وقواها تعلمهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من العضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعدرات فضلا عن المعادن ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد النائب منها بالتكليس وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة وأمثال ذلك وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الأكسير وأنه يلقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يغشى بالنار فيعود ذهباً إبريزاً ويكون عن ذلك الأكسير إذا انفروا في اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقي عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقرب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال الناس يؤمنون فيها قديماً وحديثاً وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها وإمام المدونين فيها جابر بن حيان حتى إنهم يخصونها به فيسبونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالآلغاز وزعموا أنه لا يفتح مقفلاً إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسلمة الجربطي من حكماء الأندلس كتابته الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قريباً لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي الغاز يتعدر فهمها على من لم يعاف اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز والآلغاز ولابن المغيرة من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المهجم من أبدع ما يجي

فِي الشَّعْرِ مَلْعُوزَةً كُلُّهَا لَغَزَ الْأَحَاجِي وَالْمُعَايَاةَ فَلَا تَكَادُ تُفْهَمُ وَقَدْ يَنْسَبُونَ لِلْغَزَالِي
 رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْضَ التَّأَلُّفِ فِيهَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ مَدَارِكُهُ الْعَالِيَةَ
 لَتَقِفَ عَنْ خَطَا مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْتَحِلَهُ وَرُبَّمَا نَسَبُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ وَالْأَقْوَالِ
 فِيهَا لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَيْبِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ الْبَيِّنِ أَنَّ خَالِدًا
 مِنَ الْجَلِيلِ الْعَرَبِيِّ وَالْبِدَاوَةِ إِلَيْهِ أَقْرَبُ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَ
 لَهُ بِصِنَاعَةِ غَرِيبَةِ الْمَنْحَى مَبْنِيَّةٍ عَلَى مَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَمْزَجَتِهَا وَكُنْتُ النَّاظِرِينَ
 فِي ذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالطِّبِّ لَمْ تَظْهَرْ بَعْدُ وَلَمْ تُتَرْجَمِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَالِدُ بْنُ
 يَزِيدَ آخَرُ مِنْ أَهْلِ الْمَدَارِكِ الصَّنَاعِيَّةِ تَشَبُّهُ بِأَسْمِهِ فَمُمْكِنٌ . وَأَنَا أَثْقُلُ لَكَ هُنَا
 رِسَالَةَ أَبِي بَكْرٍ بْنِ بِشْرُونَ لِأَبِي السَّمْعِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكِلَاهُمَا مِنْ تَلَامِيذِ مَسْلَمَةَ
 قِيُسْتَدَلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِهَا إِذَا أُعْطِيَتْهُ حَقُّهُ مِنَ التَّأَمُّلِ قَالَ
 ابْنُ بِشْرُونَ بَعْدَ صَدْرِ مِنَ الرِّسَالَةِ خَارِجٍ عَنِ الْغَرَضِ وَالْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ
 الْكَرِيمَةِ قَدْ ذَكَرَهَا الْأَوَّلُونَ وَاقْتَصَصَ جَمِيعَهَا أَهْلُ الْفَلَسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةِ تَكْوِينِ
 الْمَعَادِنِ وَتَخَلُّقِ الْأَحْجَارِ وَالْجَوَاهِرِ وَطَبَائِعِ الْبَقَاعِ وَالْأَمَا كِنْ فَمَنْعَنَا اشْتِهَارُهَا مِنْ
 ذِكْرِهَا وَلَكِنْ أُبَيِّنُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الصَّنْعَةِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ قَبْدًا بِمَعْرِفَتِهِ فَقَدْ قَالُوا يَنْبَغِي
 لَطُلَّابِ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوَّلًا ثَلَاثَ خِصَالٍ أَوَّلُهَا هَلْ تَكُونُ وَالثَّانِيَةُ مِنْ أَيِّ
 تَكُونُ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ أَيِّ كَيْفَ تَكُونُ فَإِذَا عَرَفَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ وَأَحْكَمَهَا فَقَدْ ظَفِرَ
 بِمَطْلُوبِهِ وَبَلَغَ نِهَائَهُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ وَأَمَّا الَّتِي عَنْ وُجُودِهَا وَالْإِسْتِدْلَالُ عَنْ تَكْوِينِهَا
 فَقَدْ كَفَيْتَاكَ بِمَا بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ الْإِكْسِيرِ وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ
 بِذَلِكَ الَّتِي عَنْ الْحَجَرِ الَّذِي يُمَكِّنُهُ الْعَمَلُ وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوجُودًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 بِالْقُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَزْبِجِ مِنْهَا تَرَكَّبَتْ أَبْدَاءُ وَإِلَيْهَا تَرْجِعُ أَنْتِهَاءُ وَلَكِنْ مِنْ
 الْأَشْيَاءِ مَا يَكُونُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَلَا يَكُونُ بِالْفِعْلِ وَذَلِكَ أَنَّ مِنْهَا مَا يُمَكِّنُ تَفْصِيلَهَا نَعَالَجُ
 وَتَدَبَّرُ وَهِيَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَالَّتِي لَا يُمَكِّنُ تَفْصِيلَهَا لَا نَعَالَجُ وَلَا
 تَدَبَّرُ لِأَنَّهَا فِيهَا بِالْقُوَّةِ فَقَطُّ وَإِنَّمَا لَمْ يُمَكِّنْ تَفْصِيلَهَا لِاسْتِغْرَاقِ بَعْضِ طَبَائِعِهَا فِي بَعْضٍ
 وَفَضْلُ قُوَّةِ الْكَبِيرِ مِنْهَا عَلَى الصَّغِيرِ فَيَنْبَغِي لَكَ وَفَقَكَ اللَّهُ أَنْ تَعْرِفَ أَوْفَقَ الْأَحْجَارِ
 الْمُنْفَصِلَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ فِيهَا الْعَمَلُ وَجِنْسُهُ وَقُوَّتُهُ وَعَمَلُهُ وَمَا يُدَبِّرُ مِنَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ

وَالْتَنْقِيَةَ وَالتَّكْلِيسَ وَالتَّشْيِيفَ وَالتَّقْلِيْبَ فَإِنْ مِنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذِهِ الْأُصُولَ الَّتِي هِيَ
عِمَامَةُ هَذِهِ الصَّنْعَةِ لَمْ يَنْجَحْ وَلَمْ يَنْظُرْ بِخَيْرٍ أَبَدًا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ
يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِغَيْرِهِ أَوْ يُصَكَّنَى بِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ أَوْ شَارِكُهُ غَيْرُهُ
فَصَارَ فِي التَّدْبِيرِ وَاحِدًا فَسُمِّيَ حَجَرًا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِّيَّةَ أَوْزَانِهِ
وَأَمْنَانِهِ وَكَيْفَ تَرْكِيبُ الرُّوحِ فِيهِ وَإِذْ خَالَ النَّفْسُ عَلَيْهِ وَهَلْ تَقْدِرُ النَّارُ عَلَى تَفْصِيلِهَا
مِنْهُ بَعْدَ تَرْكِيبِهَا فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَلَايَ عَلَيْهِ وَمَا السَّبَبُ الْمَوْجِبُ لِذَلِكَ فَإِنْ هَذَا هُوَ
الْمَطْلُوبُ فَأَنْتُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْفَلَاسِفَةَ كُلَّهَا مَدَحَتِ النَّفْسَ وَزَعَمَتِ أَنَّهَا الْمُدْبِرَةُ لِلْجَسَدِ
وَالْحَامِلَةُ لَهُ وَالِدَافِعَةُ عَنْهُ وَالْفَاعِلَةُ فِيهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ النَّفْسُ مِنْهُ مَاتَ
وَبَرَدَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالْإِمْتِنَاعِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ وَإِنَّمَا
ذَكَرَتْ الْجَسَدَ وَالنَّفْسَ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِجَسَدِ الْإِنْسَانِ الَّذِي تَرْكِيبُهُ عَلَى
الْغِذَاءِ وَالْعِشَاءِ وَقُوَامِهِ وَتَمَامِهِ بِالنَّفْسِ الْحَيَّةِ الثَّوْرَانِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ الْعَظَائِمُ وَالْأَشْيَاءُ
الْمُتَقَابِلَةُ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا بِالْقُوَّةِ الْحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا وَإِنَّمَا أَتَّفَعَلَ الْإِنْسَانُ لِاخْتِلَافِ
تَرْكِيبِ طَبَائِعِهِ وَلَوْ أَتَّفَقَتْ طَبَائِعُهُ لَسَاوَتْ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالتَّضَادِّ وَلَمْ يَقْدِرِ النَّفْسُ عَلَى
الْخُرُوجِ مِنْ بَدَنِهِ وَلَسَكَانَ خَالِدًا بِأَفْيَا فُسْبُحَانَ مُدَبِّرِ الْأَشْيَاءِ تَعَالَى . وَأَعْلَمُ أَنَّ الطَّبَائِعَ
الَّتِي يَخْدُثُ عَنْهَا هَذَا النِّعْمُ كَيْفِيَّةٌ دَافِعَةٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ فَيَضِيئُ نَحْنَجَةٌ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ وَلَيْسَ
لَهَا إِذَا صَارَتْ فِي هَذَا الْحَدِّ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى مَا مِنْهُ تَرْكَبَتْ كَمَا قُلْنَا هُنَا فِي الْإِنْسَانِ
لِأَنَّ طَبَائِعَ هَذَا الْجَوْهَرِ قَدْ لَزِمَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَصَارَتْ شَيْئًا وَاحِدًا شَبِيهًا بِالنَّفْسِ فِي قُوَّتِهَا
وَفِعْلِهَا وَبِالْجَسَدِ فِي تَرْكِيبِهِ وَتَجَسُّدِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ طَبَائِعَ مُفْرَدَةً بِأَعْيَانِهَا فَيَا عَجَبًا مِنْ
أَفَاعِيلِ الطَّبَائِعِ إِنَّ الْقُوَّةَ لِلضَّعِيفِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى تَفْصِيلِ الْأَشْيَاءِ وَتَرْكِيبِهَا وَتَمَامِهَا
فَلِذَلِكَ قُلْتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّغْيِيرُ وَالْفَنَاءُ فِي التَّرْكِيبِ الْأَوَّلِ لِلِاخْتِلَافِ
وَعَدَمِ ذَلِكَ فِي الثَّانِي لِلِاتِّفَاقِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَوَّلِينَ التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا
النِّعْمِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ وَالتَّرْكِيبُ مَوْتُ وَفَنَاءٌ وَهَذَا الْكَلَامُ دَقِيقُ الْمَعْنَى لِأَنَّ الْمَحْكَمَ
أَرَادَ بِقَوْلِهِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ خُرُوجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الوجودِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى تَرْكِيبِهِ الْأَوَّلِ
فَهُوَ فَإِنْ لَا مُحَالَةَ فَإِذَا رُكِبَ التَّرْكِيبُ الثَّانِي عَدِمَ الْفَنَاءُ وَالتَّرْكِيبُ الثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا
بَعْدَ التَّفْصِيلِ وَالتَّقْطِيعِ فَإِذَا التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا النِّعْمِ خَاصَّةٌ فَإِذَا بَقِيَ الْجَسَدُ

أَنَحْلُولُ أَنْبَسَطَ فِيهِ لِعَدَمِ الصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الَّتِي لَا صُورَةَ
 لَهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَتَرَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ
 أَنَّ اخْتِلَاطَ اللَّطِيفِ بِاللَّطِيفِ أَهْوَنُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْغَلِيظِ بِالْغَلِيظِ وَإِنَّمَا أُرِيدُ بِذَلِكَ
 التَّنَاسُلُ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتَّصِلُ بِأَشْكَالِهَا وَذَكَرْتُ لَكَ ذَلِكَ
 لَتَعْلَمَ أَنَّ الْعَمَلَ أَوْفَقُ وَأَيَسَرُ مِنَ الطَّبَائِعِ اللَّطَائِفِ الرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ الْغَلِيظَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ
 وَقَدْ يُتَصَوَّرُ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الْأَشْجَارَ أَقْوَى وَأَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْأَرْوَاحِ كَمَا تَرَى
 الذَّهَبَ وَالْحَدِيدَ وَالنُّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْكِبْرِيتِ وَالزَّرْبِقِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَرْوَاحِ
 فَأَقُولُ إِنَّ الْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحًا فِي بَدَنِهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرُّ الْكَيَانِ قَلَبَهَا أَجْسَادًا
 لَرَجَةِ غَلِيظَةٍ فَلَمْ تَقْدِرِ النَّارُ عَلَى أَكْلِهَا لِإِفْرَاطِ غَلِيظَتِهَا وَتَلَزُّجِهَا فَإِذَا أُفْرِطَتِ النَّارُ
 عَلَيْهَا صَيَّرَتْهَا أَرْوَاحًا كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ خَلْقِهَا وَإِنَّ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ اللَّطِيفَةَ إِذَا أَصَابَتْهَا
 النَّارُ أَبْقَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَيْهَا فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَيَّرَ الْأَجْسَادَ فِي هَذِهِ
 الْحَالَةِ وَصَيَّرَ الْأَرْوَاحَ فِي هَذَا الْحَالِ فَهُوَ أَجَلٌ مَا تَعْرِفُهُ أَقُولُ إِنَّمَا أَبْقَتْ تِلْكَ الْأَرْوَاحُ
 لِأَشْتِعَالِهَا وَلَطَافَتِهَا وَإِنَّمَا أَشْتَعَلَتْ لِكَثْرَةِ رُدُوبَتِهَا وَلِأَنَّ النَّارَ إِذَا أَحْسَتْ بِالرُّطُوبَةِ
 قَعَلَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَائِيَّةٌ تُشَاكِلُ النَّارَ وَلَا تَزَالُ تَغْتَدِي بِهَا إِلَى أَنْ تَفْنَى وَكَذَلِكَ
 الْأَجْسَادُ إِذَا أَحْسَتْ بِوُضُوعِ النَّارِ إِلَيْهَا لِقِلَّةِ تَلَزُّجِهَا وَغَلِيظَتِهَا وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ الْأَجْسَادُ
 لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابِرٍ عَلَى النَّارِ فَلَطِيفُهُ مُشْعِدٌ بِكَثِيفِهِ لِطُولِ
 الطَّبْعِ اللَّيِّنِ الْمَارِجِ لِلْأَشْيَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُتَلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِالنَّارِ لِمُفَارَقَةِ
 لَطِيفِهِ مِنْ كَثِيفِهِ وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِ التَّحْلِيلِ وَالْمُوَافَقَةِ فَصَارَ ذَلِكَ
 الْإِنْضِمَامُ وَالتَّدَاخُلُ مُجَاوِرَةً لَا مُمَارَاجَةً فَسَهَّلَ بِذَلِكَ اقْتِرَافَهُمَا كَالْمَاءِ وَالزَّهْنِ وَمَا
 أَشَبَّهُهُمَا وَإِنَّمَا وَصَفْتُ ذَلِكَ لِتَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى تَرْكِيبِ الطَّبَائِعِ وَتَقَابُلِهَا فَإِذَا عَلِمْتَ
 ذَلِكَ عَلِمْتَ شَافِيًا فَقَدْ أَخَذْتَ حَظَّكَ مِنْهَا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَخْلَاطَ الَّتِي هِيَ
 طَبَائِعُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مُوَافِقَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ مُفَصَّلَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ يَجْعَلُهَا نِظَامًا وَاحِدًا
 بِتَدْبِيرٍ وَاحِدٍ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي الْجُزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي الْكُلِّ كَمَا قَالَ الْفِيلَسُوفُ
 إِنَّكَ إِذَا أَحْكَمْتَ تَدْبِيرَ الطَّبَائِعِ وَتَالَيْفَهَا وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا غَرِيبًا فَقَدْ أَحْكَمْتَ مَا
 أَرَدْتَ إِحْكَامَهُ وَقِيَامَهُ إِذِ الطَّبِيعَةُ وَاحِدَةٌ لَا غَرِيبَ فِيهَا فَمَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا غَرِيبًا

فَقَدْ زَاغَ عَنْهَا وَوَقَعَ فِي الْخَطَا . وَأَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ إِذَا حَلَّ لَهَا جَسَدٌ مِنْ قَرَائِنِهَا
عَلَى مَا يَنْبَغِي فِي الْحَلِّ حَتَّى يُشَاكِلَهَا فِي الرِّقَّةِ وَاللَّطَافَةِ انْبَسَطَتْ فِيهِ وَجَرَتْ مَعَهُ حَيْثُمَا
جَرَى لِأَنَّ الْأَجْسَادَ مَا دَامَتْ غَلِيظَةً جَافِيَةً لَا تَنْبَسِطُ وَلَا تَتَزَاوَجُ وَحَلُّ الْأَجْسَادِ لَا يَكُونُ
بِغَيْرِ الْأَرْوَاحِ فَأَفْهَمَ هَذَا الْقَوْلَ وَأَعْلَمَ هَذَا أَنَّ هَذَا الْحَلَّ فِي جَسَدِ الْحَيَوَانِ
هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَتَضَمَّجِلُ وَلَا يَنْقُصُ وَهُوَ الَّذِي يَقْلِبُ الطَّبَائِعَ وَيُمَسِّكُهَا وَيُظْهِرُ لَهَا
الْوَانَا وَأَزْهَارًا عَجِيبَةً وَلَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ يَحُلُّ خِلَافَ هَذَا هُوَ الْحَلُّ النَّامُ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْحَيَاةِ
وَإِنَّمَا حَلُّهُ بِمَا يُوَافِقُهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ حَرَقُ النَّارِ حَتَّى يَزُولَ عَنِ الْغَلِظِ وَتَنْقَلِبَ الطَّبَائِعُ
عَنْ حَالَانِهَا إِلَى مَا لَهَا أَنْ تَنْقَلِبَ مِنَ اللَّطَافَةِ وَالْغَلِظِ فَإِذَا بَلَغَتْ الْأَجْسَادُ نِهَائَتَهَا مِنْ
التَّحْلِيلِ وَالتَّلَطُّفِ ظَهَرَتْ لَهَا هُنَالِكَ قُوَّةُ تُمْسِكُ وَتَقْوُصُ وَتَقْلِبُ وَتَنْفِذُ وَكُلُّ
عَمَلٍ لَا يَرَى لَهُ مُصَدِّقًا فِي أَوَّلِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ . وَأَعْلَمَ أَنَّ الْبَارِدَ مِنَ الطَّبَائِعِ
هُوَ يَبْسُ الْأَشْيَاءَ وَيَقْعِدُ رُطُوبَتَهَا وَالْحَارُّ مِنْهَا يُظْهِرُ رُطُوبَتَهَا وَيَقْعِدُ بَسْمَهَا وَإِنَّمَا أُفْرِدَتْ
الْحَرُّ وَالْبَرْدُ لِأَنَّهُمَا فَاعِلَانِ وَالرُّطُوبَةُ وَالْيَبْسُ مُنْفَعِلَانِ وَعَلَى أَنْفِعَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
لِصَاحِبِهِ تَحْتُ الْأَجْسَامُ وَتَسْكُونُ وَإِنْ كَانَ الْحَرُّ أَكْثَرَ فِعْلًا فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَرْدِ لِأَنَّ
الْبَرْدَ لَيْسَ لَهُ ثَقُلُ الْأَشْيَاءَ وَلَا تَحْوُكُهَا وَالْحَرُّ هُوَ عِلَّةُ الْحَرَكَةِ وَمَتَى ضَعُفَتْ عِلَّةُ الْكَوْنِ
وَهُوَ الْحَرَارَةُ لَمْ يَتِمَّ مِنْهَا شَيْءٌ أَبَدًا كَمَا أَنَّهُ إِذَا أُفْرِطَتِ الْحَرَارَةُ عَلَى شَيْءٍ وَلَمْ يَكُنْ
ثَمَّ بَرْدٌ أَحْرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ فَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ أَحْتِجُّ إِلَى الْبَارِدِ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ
لِيَقْوَى بِهِ كُلُّ ضِدِّ عَلَى ضِدِّهِ وَيُدْفَعُ عَنْهُ حَرُّ النَّارِ وَلَمْ يَحْذَرِ الْفَلَّاسِفَةُ أَكْبَرَ شَيْءٍ إِلَّا
مِنَ النَّيِّرَانِ الْمُحْرِقَةِ وَأَمَرَتْ بِتَطْهِيرِ الطَّبَائِعِ وَالْإِنْقَاسِ وَإِخْرَاجِ دَنَسِهَا وَرُطُوبَتِهَا
وَتَقْيَ آفَاتِهَا وَأَوْسَاخَهَا عَنْهَا عَلَى ذَلِكَ اسْتِقَامَ رَأْيُهُمْ وَتَدْبِيرُهُمْ فَأَيُّمَا عَمَلَهُمْ إِنَّمَا هُوَ
مَعَ النَّارِ أَوَّلًا وَإِلَيْهَا يَصِيرُ أَخِيرًا فَلِذَلِكَ قَالُوا إِيَّاكُمْ وَالنَّيِّرَانِ الْمُحْرِقَاتِ وَإِنَّمَا أَرَادُوا
بِذَلِكَ تَقْيَ الْآفَاتِ الَّتِي مَعَهَا فَتَجْمَعُ عَلَى الْجَسَدِ اثْنَتَيْنِ فَتَكُونُ أَمْرَعًا لِهَلَاكِهِ وَكَذَلِكَ
كُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى وَيَفْسُدُ مِنْ ذَاتِهِ لِتَضَادِّ طَبَائِعِهِ وَاخْتِلَافِهِ فَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ
فَلَمْ يَجِدْ مَا يَقْوِيهِ وَيُعِينُهُ إِلَّا قَهْرَتَهُ الْآلِفَةَ وَأَهْلَكَتْهُ . وَأَعْلَمَ أَنَّ الْحُكْمَاءَ كُلَّهُمَا ذَكَرَتْ
تَرْدَادَ الْأَرْوَاحِ عَلَى الْأَجْسَادِ مِرَارًا لِيَكُونَ الزَّمُّ إِلَيْهَا وَأَقْوَى عَلَى قِتَالِ النَّارِ إِذَا هِيَ
بِأَشْرَتِهَا عِنْدَ الْإِلَافَةِ أَعْنِي بِذَلِكَ النَّارَ الْعُنْصُرِيَّةَ فَأَعْلَمَهُ . وَلِنَقُلِ الْآنَ عَلَى الْحَجَرِ الَّذِي

يُمْكِنُ مِنْهُ الْعَمَلُ عَلَى مَا ذَكَرْتَهُ الْفَلَاسِفَةُ فَقَدْ اَخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي
الْحَيَوَانَ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي النَّبَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْمَعَادِنِ وَمِنْهُمْ مَنْ
زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْجَمِيعِ وَهَذِهِ الدِّعَاوَى لَيْسَتْ بِنَا حَاجَةٍ إِلَى اسْتِقْصَائِهَا وَمُنَاطَرَةٍ أَهْلِهَا عَلَيْهَا
لَأَنَّ الْكَلَامَ يَطُولُ جِدًّا وَقَدْ قُلْتُ فِيمَا تَقَدَّمَ إِنَّ الْعَمَلَ يَكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ
لَأَنَّ الطَّبَائِعَ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ كَذَلِكَ قَدْ رِيدَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ
الْعَمَلُ بِالْقُوَّةِ وَالْفِعْلِ فَتَقْصِدُ إِلَى مَا قَالَهُ الْحَرَّانِيُّ إِنَّ الصَّبْغَ كَلَّةٌ أَحَدُ صِبْغَيْنِ إِمَّا
صَبْغُ جَسَدٍ كَالزَّعْفَرَانِ فِي الثَّوْبِ الْآيِسُ حَتَّى يَحُولَ فِيهِ وَهُوَ مُضْجَعٌ مُنْتَقِضُ التَّرَكِيبِ
وَالصَّبْغُ الثَّانِي تَقْلِيبُ الْجَوْهَرِ مِنْ جَوْهَرٍ نَفْسِهِ إِلَى جَوْهَرٍ غَيْرِهِ وَتَوْنِهِ كَتَقْلِيبِ
الشَّجَرِ بِلِ التُّرَابِ إِلَى نَفْسِهِ وَتَرَابِ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ إِلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ التُّرَابُ نَبَاتًا
وَالنَّبَاتُ حَيَوَانًا وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّوحِ الْحَيِّ وَالْكَيَانَ الْفَاعِلِ الَّذِي لَهُ تَوَلِيدُ
الْأَجْرَامِ وَقَلْبُ الْأَعْيَانِ فَإِذَا كَانَ هَذَا مُمَكِّنًا فَقُولُ إِنَّ الْعَمَلَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إِمَّا
فِي الْحَيَوَانَ وَإِمَّا فِي النَّبَاتِ وَبُرْهَانُ ذَلِكَ أَنََّّهُمَا مَطْبُوعَانِ عَلَى الْغِذَاءِ وَبِهِ قِيَامُهُمَا
وَنَمَاهُمَا فَأَمَّا النَّبَاتُ فَلَيْسَ فِيهِ مَا فِي الْحَيَوَانَ مِنَ اللَّطَافَةِ وَالْقُوَّةِ وَلِذَلِكَ قُلْتُ خَوْضُ
الْحُكْمَاءِ فِيهِ وَأَمَّا الْحَيَوَانَ فَهُوَ آخَرُ الْإِسْتِحَالَاتِ الثَّلَاثِ وَنَهَائَتُهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْمَعْدِنَ
يَسْتَحِيلُ نَبَاتًا وَالنَّبَاتُ يَسْتَحِيلُ حَيَوَانًا وَالْحَيَوَانَ لَا يَسْتَحِيلُ إِلَى شَيْءٍ هُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ
إِلَّا أَنْ يَنْعَكِسَ رَاجِعًا إِلَى الْغَلْظِ وَأَنَّهُ أَيْضًا لَا يُوْجَدُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ لَا تَعْلُقُ فِيهِ الرُّوحُ
الْحَيَّةُ غَيْرُهُ وَالرُّوحُ أَلْطَفُ مَا فِي الْعَالَمِ وَلَمْ تَعْلُقْ الرُّوحُ بِالْحَيَوَانَ إِلَّا بِمُشَاكَلَتِهِ
إِنْبَاهَا فَأَمَّا الرُّوحُ الَّتِي فِي النَّبَاتِ فَإِنَّهَا بِسِيرَةٍ فِيهَا غَلْظٌ وَكَثَافَةٌ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَغْرِقَةٌ
كَامَنَةٌ فِيهِ لِعَظَمَتِهَا وَغَلْظِ جَسَدِ النَّبَاتِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ لِعَظَمَتِهِ وَغَلْظِ رُوحِهِ وَالرُّوحُ
الْمُسْتَحَرَكَةُ أَلْطَفُ مِنَ الرُّوحِ الْكَامِنَةِ كَثِيرًا وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْتَحَرَكَةَ لَهَا قَبُولُ الْغِذَاءِ
وَالنَّقْلُ وَالنَّفْسُ وَلَيْسَ لِلْكَامِنَةِ غَيْرُ قَبُولِ الْغِذَاءِ وَحَدَهُ وَلَا تَجَرِّي إِذَا قَبِسَتْ بِالرُّوحِ
الْحَيَّةِ إِلَّا كَالْأَرْضِ عِنْدَ الْمَاءِ كَذَلِكَ النَّبَاتُ عِنْدَ الْحَيَوَانَ فَالْعَمَلُ فِي الْحَيَوَانَ أَعْلَى
وَأَرْفَعُ وَأَهْوَنُ وَأَيْسَرُ فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ أَنْ يُجَرِّبَ مَا كَانَ سَهْلًا وَيَتْرَكَ مَا
يَخْشَى فِيهِ عُسْرًا. وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحَيَوَانَ عِنْدَ الْحُكْمَاءِ يَنْقَسِمُ أَفْسَامًا مِنَ الْأُمُتَاتِ الَّتِي
هِيَ الطَّبَائِعُ وَالْحَدِيثَةُ الَّتِي هِيَ الْمَوَالِيدُ وَهَذَا مَعْرُوفٌ مُتَبَسِّرُ الْفَهْمِ فَلِذَلِكَ قَسَمْتُ

الْحُكْمَاءُ الْعَنَاصِرَ وَالْمَوَالِيدَ أَفْسَامًا حَيَّةً وَأَفْسَامًا مَيِّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكِ فَاعِلًا
 حَيًّا وَكُلَّ سَاكِنٍ مَفْعُولًا مَيِّتًا وَقَسَمُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَفِي الْأَجْسَادِ الدَّائِبَةِ
 وَفِي الْعَقَائِرِ الْمَعْدِنِيَّةِ فَسَمَوْا كُلَّ شَيْءٍ يَذُوبُ فِي النَّارِ وَيَطِيرُ وَيَشْتَعِلُ حَيًّا وَمَا كَانَ
 عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ سَمَوْهُ مَيِّتًا فَأَمَّا الْحَيَوَانُ وَالنَّبَاتُ فَسَمَوْا كُلَّ مَا انفصلَ مِنْهَا طَبَائِعُ أَرْبَعًا
 حَيًّا وَمَا لَمْ يَنْفصلَ سَمَوْهُ مَيِّتًا ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْحَيَّةِ فَلَمْ يَجِدُوا لَوْفَقِ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفصلُ فُضُولًا أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعَيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ الْحَجَرِ الذَّيْبِ فِي
 الْحَيَوَانِ فَبَحَثُوا عَنْ جِنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَدَبَّرُوهُ فَتَشَكَّيْتُ لَهُمْ مِنْهُ الَّذِي أَرَادُوا
 وَقَدْ يَشْكِيكَ مِثْلُ هَذَا فِي الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ الْعَقَائِرِ وَخَلْطِهَا ثُمَّ انفصلَ بَعْدَ
 ذَلِكَ فَأَمَّا النَّبَاتُ فَمِنْهُ مَا يَنْفصلُ بَعْضُ هَذِهِ الْفُضُولِ مِثْلُ الْأَشْنَانِ وَأَمَّا الْمَعَادِنُ فَفِيهَا
 أَجْسَادٌ وَأَرْوَاحٌ وَأَنْفَاسٌ إِذَا مَرَجَتْ وَدُبِّرَتْ كَانَ مِنْهَا مَا لَهُ تَأْثِيرٌ وَقَدْ دَبَّرْنَا كُلَّ
 ذَلِكَ فَكَانَ الْحَيَوَانُ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعَ وَتَدْبِيرُهُ أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا هُوَ
 الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيَوَانِ وَطَرِيقُ وَجُرْدِهِ إِنَّا بَيْنَا أَنْ الْحَيَوَانُ أَرْفَعُ الْمَوَالِيدِ وَكَذَا
 مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ فَهُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ كَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّمَا كَانَ النَّبَاتُ أَلْطَفَ مِنَ الْأَرْضِ
 لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جَوْهَرِهِ الصَّافِي وَجَسَدِهِ اللَّطِيفِ فَوَجَبَ لَهُ بِذَلِكَ اللَّطَافَةِ وَالرِّقَّةِ وَكَذَا
 هَذَا الْحَجَرُ الْحَيَوَانِي بِمَنْزِلَةِ النَّبَاتِ فِي التُّرَابِ وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ شَيْءٌ
 يَنْفصلُ طَبَائِعُ أَرْبَعًا غَيْرُهُ فَأَفْهَمَ هَذَا الْقَوْلُ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَخْتَنِي إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيْنَ الْجَاهِلَةِ
 وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَا هِيَ هَذَا الْحَجَرُ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَأَنَا أَبِينُ لَكَ
 وَجُودَهُ تَدَابِيرِهِ حَتَّى يَكْمُلَ الَّذِي شَرَطْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ الْإِنْصَافِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُجَّانَهُ
 (التدبير على بركة الله) خُذِ الْحَجَرَ الْكَرِيمَ فَأَوْدِعْهُ الْقُرْعَةَ وَالْإِنْبِيقَ وَفَصِّلْ
 طَبَائِعَهُ الْأَرْبَعَ الَّتِي هِيَ النَّارُ وَالْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَهِيَ الْجَسَدُ وَالصَّبْغُ بَإِذَا عَزَلْتَ
 الْمَاءَ عَنِ التُّرَابِ وَالْهَوَاءَ عَنِ النَّارِ فَارْفَعْ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنَائِهِ عَلَى حِدَةٍ وَخُذِ الْهَابِطَ
 أَسْفَلَ الْإِنَاءِ وَهُوَ الثَّقُلُ فَاغْسِلْهُ بِالنَّارِ الْحَارَّةِ حَتَّى تَذْهَبَ النَّارُ عَنْهُ سَوَادُهُ وَيَزُولَ
 غَلْظُهُ وَجَفَاوُهُ وَيَبْيَضُّهُ تَبْيِضًا مُحْكَمًا وَطَيِّرْ عَنْهُ فَضُولَ الرُّطُوبَاتِ الْمُسْتَجِنَّةِ فِيهِ فَإِنَّهُ
 بَصِيرٌ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءٌ أَيْضًا لَا ظُلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسَخَ وَلَا تَضَادَّ ثُمَّ اعْمُدْ إِلَى تِلْكَ الطَّبَائِعِ
 الْأُولَى الصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَيِّرْهَا أَيْضًا مِنَ السَّوَادِ وَالتَّضَادِّ وَكَرِّرْ عَلَيْهَا الْغَسْلَ وَالتَّصْعِيدَ

حَتَّى تَلْطُبَ وَتَرَقَّ وَتَصْفُو فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَأَبْدَأَ بِالتَّرْكِيبِ الَّذِي
 عَلَيْهِ مَدَارُ الْعَمَلِ وَذَلِكَ أَنَّ التَّرْكِيبَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّزْوِيجِ وَالتَّعْنِينِ فَأَمَّا التَّزْوِيجُ
 فَهُوَ اخْتِلَاطُ اللَّطِيفِ بِالْغَلِيظِ وَأَمَّا التَّعْنِينُ فَهُوَ التَّمْشِيَةُ وَالسَّخْفُ حَتَّى يَخْتَلِطَ بَعْضُهُ
 بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا نُقْصَانَ بِمَنْزِلَةِ الْإِمْتِزَاجِ بِالمَاءِ فَعِنْدَ
 ذَلِكَ يَقْوَى الْغَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ اللَّطِيفِ وَيَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْغَوْصِ فِي الْأَجْسَادِ وَاللَّيْسِ
 فِيهَا وَإِنَّمَا وَجِدَ ذَلِكَ بَعْدَ التَّرْكِيبِ لِأَنَّ الْجَسَدَ الْحَقْلُولَ لَمَّا أَرْدَوْجَ بِالرُّوحِ مَا رَجَاهُ
 بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ لِنِشَا كُلِّهَا فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا وَوَجَبَ مِنْ ذَلِكَ
 أَنْ يَغْرِضَ لِلرُّوحِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ وَالْبَقَاءِ وَالثَّبُوتِ وَمَا يَغْرِضُ لِلْجَسَدِ لِمَوْضِعِ
 الْإِمْتِزَاجِ وَكَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا امْتَزَجَتْ بِهِمَا وَدَخَلَتْ فِيهِمَا بِخِدْمَةِ التَّدْبِيرِ اخْتَلَطَتْ
 أَجْزَاؤُهَا بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ الْآخَرِينَ أَعْنَى الرُّوحِ وَالْجَسَدِ وَصَارَتْ هِيَ وَهُمَا شَيْئًا وَاحِدًا
 لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْجُزْءِ الْكُلِّيِّ الَّذِي سَلِمَتْ طَبَائِعُهُ وَاتَّفَقَتْ أَجْزَاؤُهُ فَإِذَا
 أَتَى هَذَا الْمُرَكَّبُ الْجَسَدَ الْحَقْلُولَ وَالْحَمْلُ عَلَيْهِ النَّارَ وَأَظْهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبَةِ عَلَى وَجْهِهِ
 ذَابَ فِي الْجَسَدِ الْحَقْلُولِ وَمِنْ شَأْنِ الرُّطُوبَةِ الْأَشْتِعَالُ وَتَعَلَّقَ النَّارُ بِهَا فَإِذَا أَرَادَتْ
 النَّارُ التَّعَلُّقَ بِهَا مَنَعَهَا مِنَ الْإِتِّحَادِ بِالنَّفْسِ مُمَازَجَةُ الْمَاءِ لَهَا فَإِنَّ النَّارَ لَا تُتَعَدُّ بِالدِّهْنِ
 حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا وَكَذَلِكَ الْمَاءُ مِنْ شَأْنِهِ الثَّقُورُ مِنَ النَّارِ فَإِذَا لَحَّتْ عَلَيْهِ النَّارُ وَأَرَادَتْ
 تَطْيِيرَهُ حَبَسَهُ الْجَسَدُ الْيَبَاسُ الْمُمَازِجُ لَهُ فِي جَوْفِهِ فَمَنَعَهُ مِنَ الطَّيَرَانِ فَكَانَ الْجَسَدُ
 عِلَّةً لِإِمْسَاكِ الْمَاءِ وَالْمَاءُ عِلَّةً لِبَقَاءِ الدِّهْنِ وَالدِّهْنُ عِلَّةً لثَبَاتِ الصَّبْغِ وَالصَّبْغُ عِلَّةً
 لظُهُورِ الدِّهْنِ وَإِظْهَارِ الدِّهْنِيَّةِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي لَا نُورَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا فَهَذَا
 هُوَ الْجَسَدُ الْمُسْتَقِيمُ وَهَكَذَا يَكُونُ الْعَمَلُ وَهَذِهِ التَّصْفِيَةُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْهَا وَهِيَ الَّتِي
 سَمَّيْتُهَا الْحُكْمَاءَ يَبِضَّةً وَإِيَّاهَا يَعْزُونَ لَا يَبِضَّةَ الدَّجَاجِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَاءَ لَمْ تُسَمَّ بِهَا
 بِهَذَا الْأَمْرِ لِغَيْرِ مَعْنَى بَلْ أَشْبَهَتْهَا وَأَقْدَمْتُ سَأَلْتُ مُسَلِّمَةً عَنْ ذَلِكَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرِي
 فَقُلْتُ لَهُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَخْبِرْنِي لِأَيِّ شَيْءٍ سَمَّيْتَ الْحُكْمَاءَ مُرَكَّبَ الْحَيَوَانِ
 يَبِضَّةَ اخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِذَلِكَ أَمْ لِمَعْنَى دَعَاؤِهِ إِلَيْهِ فَقَالَ بَلْ لِمَعْنَى غَامِضٍ فَقُلْتُ أَيُّهَا
 الْحَكِيمُ وَمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَالْإِسْتِدْلَالِ عَلَى الصَّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُوا
 وَسَمَّوْهَا يَبِضَّةً فَقَالَ لِشَبَّهَهَا وَقَرَّبَتْهَا مِنَ الْمُرَكَّبِ فَدَكَّرَ فِيهِ فَإِنَّهُ سَيُظْهِرُ لَكَ مَعْنَاهُ

فَبَقِيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُنْكَرًا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَعْنَاهُ فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ الْفِكْرِ
وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا أَخَذَ بَعْضِي وَهَزَنِي هَزَةً خَفِيفَةً وَقَالَ لِي يَا أَبَا بَكْرٍ ذَلِكَ
لِلنِّسْبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا فِي كَمِيَّةِ الْأَلْوَانِ عِنْدَ امْتِزَاجِ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفِهَا فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ أَنْجَلَتْ
عَنِّي الظُّلْمَةَ وَأَضَاءَ لِي نُورٌ قَلْبِي وَقَوِيَ عَقْلِي عَلَى فَهْمِهِ فَتَهَضْتُ شَاكِرًا اللَّهَ عَلَيْهِ إِلَى
مَنْزِلِي وَأَقَمْتُ عَلَى ذَلِكَ شَكْلًا مَتَدَسِّيًا يَبْرَهُنُ بِهِ عَلَى صِحَّةٍ مَا قَالَهُ مَسَامَةً وَأَنَا وَاضِعُهُ
لَكَ فِي هَذَا الْمَكْتَابِ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرْكَبَ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ كَانَ نِسْبَةً مَا فِيهِ مِنْ
طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ كَنِسْبَةِ مَا فِي الْمُرْكَبِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ إِلَى مَا فِي الْبَيْضَةِ مِنَ طَبِيعَةِ النَّارِ
وَكَذَلِكَ الطَّبِيعَتَانِ الْأُخْرَيَانِ الْأَرْضُ وَالْمَاءُ فَأَقُولُ إِنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ عَلَى هَذِهِ
الْقِسْمَةِ مِمَّا مِثْلَاهُمَا وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ الْبَيْضَةِ هُزُوحٌ فَإِذَا أَرَدْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا
نَأْخُذُ أَقْلَ طَّبَائِعِ الْمُرْكَبِ وَهِيَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ وَنُضِيفُ إِلَيْهَا مِثْلَهَا مِنْ طَبِيعَةِ الرُّطُوبَةِ
وَنُدَبِّرُهُمَا حَتَّى تَنْشِفَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ طَبِيعَةَ الرُّطُوبَةِ وَتَقْبَلَ قُوَّتَهَا وَكَأَنَّ فِي هَذَا
الْكَلَامِ رَمْزًا وَلَكِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا مِثْلَهُمَا مِنَ الرُّوحِ
وَهُوَ الْمَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ سِتَّةَ أَمْثَالٍ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَى الْجَمِيعِ بَعْدَ التَّذْيِيرِ مِثْلًا مِنْ
طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ وَذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَجْزَاءٍ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ تِسْعَةَ أَمْثَالِ الْيُبُوسَةِ
بِالْقُوَّةِ وَتَجْعَلُ تَحْتَ كُلِّ ضِلْعَيْنِ مِنَ الْمُرْكَبِ الَّذِي طَبِيعَتُهُ تُحِيطُ بِسَطْحِ الْمُرْكَبِ
طَبِيعَتَيْنِ فَتَجْعَلُ أَوَّلَ الضِّلْعَيْنِ الْخُيَاطَيْنِ بِسَطْحِهِ طَبِيعَةُ الْمَاءِ وَطَبِيعَةُ الْهَوَاءِ وَهُمَا ضِلْعَانِ
أَحَدُ وَسَطْحٍ أَيْحَدُ وَكَذَلِكَ الضِّلْعَانِ الْخُيَاطَانِ بِسَطْحِ الْبَيْضَةِ اللَّذَانِ هُمَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
فِيْلَمَّا هُزُوحٌ فَأَقُولُ إِنَّ سَطْحَ أَيْحَدُ يُشَبِّهُ سَطْحَ هُزُوحِ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي تُسَمَّى نَفْسًا وَكَذَلِكَ
يَجُوزُ مِنْ سَطْحِ الْمُرْكَبِ وَالْحُكْمُ لَمْ نُسَمِّ شَيْئًا بِأَمْرٍ شَيْءٍ إِلَّا لِشَبْهِهِ بِهِ وَالْكَلِمَاتُ
الَّتِي سَأَلْتُ عَنْ شَرْحِهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَهِيَ الْمُنْعَقِدَةُ مِنَ الطَّبَائِعِ الْعُلَوِيَّةِ وَالسُّنَلِيَّةِ
وَالنَّحَاسُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ سَوَادَهُ وَقُطِعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حُمِرَ بِالزَّاجِ حَتَّى صَارَ
مُعَاسِيًا وَالْمَغْنِيسِيَا حَجَرُهُمُ الَّذِي تَجَمُّدُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَتُخْرِجُهُ الطَّبِيعَةُ الْعَالَوِيَّةُ الَّتِي
تَسْتَجِبُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ لِتُقَابِلَ عَلَيْهَا النَّارُ وَالْفَرْقَةُ لَوْ أَنَّ أَحَدًا قَانَ يُحَدِّثُهُ الْكَيَّانُ
وَالرَّصَاصُ حَجَرٌ لَهُ ثَلَاثُ قُوَى مُخْتَلِفَةٍ الشُّخُوصِ وَلَكِنَّهَا مُتَشَاكِلَةٌ وَمُتَجَانِسَةٌ
فَالْوَحْدَةُ رُوحَانِيَّةٌ نِيرَةٌ صَافِيَةٌ وَهِيَ الْفَاعِلَةُ وَالثَّانِيَةُ نَفْسَانِيَّةٌ وَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ حَسَّاسَةٌ

غَيْرَ أَنَّهَا أَغْلَظُ مِنَ الْأُولَى وَمَرْكَزُهَا دُونَ مَرْكَزِ الْأُولَى وَالثَّالِثَةُ قُوَّةُ أَرْضِيَّةٍ
 حَاسَّةٍ قَابِضَةٍ مُنْعَكِسَةٍ إِلَى مَرْكَزِ الْأَرْضِ لِثِقَالِهَا وَهِيَ الْمَاسِكَةُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالنَّفْسَانِيَّةُ
 جَمِيعًا وَالْمُحِيطَةُ بِهِمَا وَأَمَّا سَائِرُ الْبَاقِيَةِ فَمُبْتَدَعَةٌ وَخُفْرَةٌ إِبْسَاسًا عَلَى الْجَاهِلِ وَمَنْ
 عَرَفَ الْمُقَدَّمَاتِ اسْتَفْنَى عَنْ غَيْرِهَا . فَهَذَا جَمِيعُ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ وَقَدْ بَعَثْتُ بِهِ إِلَيْكَ
 مُفَسَّرًا وَتَرْجُومَةً بِتَوْفِيقِ اللَّهِ أَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ وَالسَّلَامُ أَنْتَعَى كَلَامُ ابْنِ يَشْرُونَ وَهُوَ مِنْ
 كِبَارِ تَلَامِيذِ مَسْلَمَةَ الْمَجْرِبِيِّ شَيْخِ الْأَنْدَلُسِ فِي عُلُومِ الْكِيمِيَاءِ وَالسِّيَمِيَاءِ
 وَالسَّحْرِ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ وَمَا بَعْدَهُ وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ صَرَفَ الْفَاضِلُ كُلَّهَا فِي الصَّنَاعَةِ
 إِلَى الرَّمْزِ وَالْأَلْفَازِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَبِينُ وَلَا تُعْرَفُ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِصَّنَاعَةٍ
 طَبِيعِيَّةٍ . وَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ فِي أَمْرِ الْكِيمِيَاءِ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَعْضُدُهُ الْوَاقِعُ أَنَّهَا
 مِنْ جِنْسِ آثَارِ النُّفُوسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ إِمَّا مِنْ نَوْعِ الْكِرَامَةِ
 إِنْ كَانَتْ النُّفُوسُ خَيْرَةً أَوْ مِنْ نَوْعِ السَّحْرِ إِنْ كَانَتْ النُّفُوسُ شَرِّيرَةً فَاجِرَةً فَأَمَّا
 الْكِرَامَةُ فَظَاهِرَةٌ وَأَمَّا السَّحْرُ فَلَا السَّاحِرَ كَمَا ثَبَتَ فِي مَكَانٍ تَحْقِيقِهِ بِقَلْبِ الْأَعْيَانِ
 الْمَادِيَّةِ بِقُوَّتِهِ السَّحَرِيَّةِ وَلَا بُدَّ لَهُ مَعَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَادَّةٍ يَقَعُ فِعْلُهُ السَّحَرِيُّ فِيهَا
 كَتَخْلِيقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ مَادَّةِ التُّرَابِ أَوِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنْ غَيْرِ
 مَادِيَّتِهَا الْخَفِصُوصَةِ بِهَا كَمَا وَقَعَ لِسَحَرَةٍ فِرْعَوْنُ فِي الْحِبَالِ وَالْعَصِيِّ وَكَمَا يُنْقَلُ عَنْ
 سَحَرَةِ السُّودَانِ وَالْهُنُودِ فِي قَاصِيَةِ الْجَنُوبِ وَالتُّرْكِ فِي قَاصِيَةِ الشَّمَالِ أَنَّهُمْ يَسْحَرُونَ
 الْجَوَّ لِلْأَمْطَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ تَخْلِيقًا لِلذَّهَبِ فِي غَيْرِ مَادَّتِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ
 كَانَ مِنْ قَبِيلِ السَّحْرِ وَالْمُشْكَلُونَ فِيهِ مِنْ أَعْلَامِ الْحُكَمَاءِ مِثْلَ جَابِرٍ وَمَسْلَمَةَ
 وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ حُكَمَاءِ الْأُمَمِ إِنَّمَا نَحْوَاهَذَا الْمَنْحَى وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِيهِ
 أَلْفَازًا حَذَرًا عَلَيْهَا مِنْ إِنْكَارِ الشَّرَائِعِ عَلَى السَّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ لَا أَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى
 الضَّنَانَةِ بِهَا كَمَا هُوَ رَأْيُ مَنْ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ وَأَنْظُرْ كَيْفَ سَمَّى مَسْلَمَةُ
 كِتَابَهُ فِيهَا رُتْبَةَ الْحَكِيمِ وَسَمَّى كِتَابَهُ فِي السَّحْرِ وَالطَّلَمَاتِ غَايَةَ الْحَكِيمِ إِشَارَةً
 إِلَى عُمُومِ مَوْضُوعِ الْغَايَةِ وَخُصُوصِ مَوْضُوعِ هَذِهِ لِأَنَّ الْغَايَةَ أَعْلَى مِنَ الرُّتْبَةِ فَكَانَ
 مَسَائِلَ الرُّتْبَةِ بَعْضُ مِنْ مَسَائِلِ الْغَايَةِ وَتَشَارَكُهَا فِي الْمَوْضُوعَاتِ وَمِنْ كَلَامِهِ فِي الْفَنَيْنِ
 يَتَبَيَّنُ مَا قُلْنَاهُ وَنَحْنُ نَبِينُ فِيمَا بَعْدُ غَلَطَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَدَارِكَ هَذَا الْأَمْرِ بِالصَّنَاعَةِ

الفصل الرابع والعشرون

في ابطال الفلسفة وفساد منتجعها

هَذَا الْفَصْلُ وَمَا بَعْدَهُ مُهِمٌّ لِأَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ عَارِضَةٌ فِي الْعُمُرَانِ كَثِيرَةٌ فِي الْمَدُنِ وَخَرَرُهَا فِي الدِّينِ كَثِيرٌ فَوَجَبَ أَنْ يُصَدَّعَ بِشَأْنِهَا وَيُكْشَفَ عَنِ الْمُعْتَقَدِ الْحَقِّ فِيهَا وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ عُقَلَاءِ النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ الْحَسِّيُّ مِنْهُ وَمَا وَرَاءَ الْحَسِّيِّ نُدْرَكَ أَدَوَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ بِأَسْبَابِهَا وَعِلَلِهَا بِالْأَنْظَارِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْأَفْسَسَةِ الْعَقَائِيَّةِ وَأَنْ تُصْنَعَ الْعَقَائِدُ إِلَّا بِمَانِيَّةٍ مِنْ قَبْلِ الْأَنْظَارِ لِأَنَّ جِهَةَ السَّمْعِ فَإِنَّهَا بَعْضٌ مِنْ مَدَارِكِ الْعَقْلِ وَهَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ فَلَاسِفَةً جَمَعَ فِيلَسُوفٍ وَهُوَ بِاللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ نَحْبُ الْحِكْمَةِ فَبَحَثُوا عَنْ ذَلِكَ وَشَمَرُوا لَهُ وَحَوَّاهُ عَلَى إِصَابَةِ الْغَرَضِ مِنْهُ وَوَضَعُوا قَانُونًا يَهْتَدِي بِهِ الْعَقْلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَسَمَّوْهُ بِالْمُنْطَقِ وَنَحْصَلُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْظَرَ الَّذِي يَفِيدُ تَمْيِيزَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ إِنَّمَا هُوَ لِلذَّهْنِ فِي الدِّعَالِي الْمُنْتَزَعَةِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الشَّخْصِيَّةِ فَيَجْرَدُ مِنْهَا أَوَّلًا صُورٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ كَمَا يَنْطَبِقُ الطَّابَعُ عَلَى جَمِيعِ النُّقُوشِ الَّتِي تَرْسُمُهَا فِي طِينٍ أَوْ شَعَرٍ وَهَذِهِ تَجْرَدَةٌ مِنَ الْحَسُوسَاتِ تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَائِلُ ثُمَّ تَجْرَدُ مِنْ تِلْكَ الدِّعَالِي الْعَالِيَةِ إِذَا كَانَتْ مُشْتَرَكَةً مَعَ مَعَانٍ أُخْرَى وَقَدْ تَمَيَّزَتْ عَنْهَا فِي الدِّهْنِ فَتَجْرَدُ مِنْهَا مَعَانٍ أُخْرَى وَهِيَ الَّتِي أَشْتَرَكْتَ بِهَا ثُمَّ تَجْرَدُ ثَانِيًا إِنْ شَارَكَهَا غَيْرُهَا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ التَّجَرُّدُ إِلَى الدِّعَالِي الْبَسِيطَةِ الْكُلِّيَّةِ الْمُنْطَبِقَةِ عَلَى جَمِيعِ الدِّعَالِي وَالْأَشْخَاصِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا تَجَرُّدٌ بَعْدَ هَذَا وَهِيَ الْأَجْنَاسُ الْعَالِيَةُ وَهَذِهِ الْمَجْرَدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ الْحَسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيفُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ لِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي فَإِذَا نَظَرَ الْفَكْرُ فِي هَذِهِ الْمَعْقُولَاتِ الْمَجْرَدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذَّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقْيٍ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْبَرْهَانِ الْعَقْلِيِّ الْبَقِيَّةِيِّ لِيَحْصَلَ تَصَوُّرُ الْوُجُودِ تَصَوُّرًا صَحِيحًا مُطَابِقًا إِذَا كَانَ ذَلِكَ بِقَانُونٍ صَحِيحٍ كَمَا مَرَّ وَصِنْتُ التَّصْدِيقَ الَّذِي هُوَ تِلْكَ الْإِضَافَةُ وَالْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ التَّصَوُّرِ فِي الدِّعَالِيَّةِ وَالتَّصَوُّرُ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي الدِّعَالِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ الدَّائِمَ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ الطَّلَبِ الْإِدْرَاكِيِّ وَإِنَّمَا

التصديق وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف
التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو
ثم يزعمون أن السعادة في إدراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس
بهذا النظر وتلك البراهين وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت إليه وهو الذي
فرعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولاً على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس ثم ترقى
إدراكهم قليلاً فاشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم أحسوا من
قوى النفس سلطان العقل ووقفت إدراكهم فقصوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء
على أمر الذات الإنسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان ثم
أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر تبع مفصلة ذواتها جمل واحد أول مفرد
وهو العاشر يزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع
تهذيب النفس وتخليقها بالفضائل وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه
بين الفضيلة والرياسة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره وميله إلى الجمود منها
وأجنبه للمذموم بفطرته وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وأن
الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة إلى
خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف في كلماتهم وإمام هذه المذاهب الذي حصل
مسائلها ودون علمها وسطر حججها فيما بلغنا في هذه الأختاب هو أرسطو المقدوني من
أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الإسكندر وبسمونه
المعلم الأول على الإطلاق يعنون معلم صناعة المنطق إذ لم تكن قبله مهذبة
وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك القانون
ما شاء لو تكفل له يقضهم في الإلهيات ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ
بتلك المذاهب وأتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل وذلك أن كتب
أوائل المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان
العربي تصفحها كثير من أهل العلم وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من متحلي
العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاربعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي
في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام

الملاك من بني بؤيه بأصبهان وغيرهما. وأعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطلٌ
 يميع وجوهه فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاؤهم به في
 الترفي إلى الواجب فهو قصورٌ عما وراء ذلك من رتب خلق الله فالوجود أوسع نطاقاً
 من ذلك ويخلق ما لا تعلمون وكانهم في اقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلة عما
 وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة المعرضين عن النقل
 والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء وأما البراهين التي يزعمونها
 على مدعياتهم في الموجودات وبقرضونها على معيار المنطقي وقانونه فهي قاصرة وغير
 وافية بالغرض أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه
 قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والافيسة كما
 في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة
 والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل في المواد ما يمنع مطابقة الذهني
 الكلي للخارجي الشخصي اللهم إلا ما لا يشهد له الحس من ذلك فدلله شهوده
 لا تلك البراهين فأين اليقين الذي يعِدونه فيها ورُبما يكون تصرف الذهن أيضاً
 في المعقولات الأولى المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات الثواني
 التي تجردها في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينياً بمثابة المحسوسات إذ
 المعقولات الأولى أقرب إلى مطابقة الخارج إكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حينئذ
 دعاوتهم في ذلك إلا أنه ينبغي لنا الإعراض عن النظر فيها إذ هو من ترك المسلم
 لما لا يعنيه فإن مسائل الطبيعيات لا نهنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها .
 وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم
 الإلهي وعلم ما تمد الطبيعة فإن ذواتها تجهولة رأساً ولا يمكن التوصل إليها ولا
 البرهان عليها لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو
 ممكن فيما هو مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نتجرد منها ماهيات
 أخرى بحجاب الحس يتنا وبينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في إثبات
 وجودها على الجملة إلا ما نجد بين جنبينا من أمر النفس الإنسانية وأحوال مداركها
 وخصوصاً في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها

فَأَمْرٌ غَامِضٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَقِّقُهُمْ حَيْثُ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَا لَا مَادَّةَ لَهُ لَا يُمَكِّنُ الْبَرَاهَانَ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُقَدِّمَاتِ الْبَرَاهَانِ مِنْ شَرْطِهَا أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفَلَا طُونَ إِنَّ الْأَلْهِيَّاتِ لَا يُوَصَّلُ فِيهَا إِلَى اثْنَيْنِ وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِالْأَخْلَاقِ وَالْأَوَّلَى بَعْنِي الظَّنَّ وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْصُلُ بَعْدَ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ عَلَى الظَّنِّ فَقَطْ فَيَكْفِينَا الظَّنُّ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا فَإِذَا فَائِدَةُ لِهَذِهِ الْعُلُومِ وَالِاشْتِغَالِ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَايَتُنَا بِتَحْصِيلِ الْيَقِينِ فِيهَا وَرَاءَ الْحِسِّ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الْأَفْكَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِتِلْكَ الْبَرَاهِينِ فَقَوْلٌ مُزَيَّفٌ مُرْدُودٌ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جُزْأَيْنِ أَحَدُهُمَا جِسْمَانِيٌّ وَالْآخَرُ رُوحَانِيٌّ مُتَزَجٌّ بِهِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجُزْأَيْنِ مَدَارِكٌ تُخَصَّصُ بِهِ وَالْمَدْرِكُ فِيهِمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الْجُزْءُ الرُّوحَانِيُّ يُدْرِكُ تَارَةً مَدَارِكَ رُوحَانِيَّةً وَتَارَةً مَدَارِكَ جِسْمَانِيَّةً إِلَّا أَنَّ الْمَدَارِكَ الرُّوحَانِيَّةِ يُدْرِكُهَا بِذَاتِهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَالْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ بِوَاسِطَةِ آتٍ الْجِسْمِ مِنَ الدِّمَاغِ وَالْحَوَاسِ وَكُلُّ مَدْرِكٍ فَلَهُ ابْتِهَاجٌ بِمَا يُدْرِكُهُ وَاعْتِبَرُهُ بِحَالِ الصَّبِيِّ فِي أَوَّلِ مَدَارِكِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِوَاسِطَةٍ كَيْتَ يَتَسَبَّحُ بِمَا يُبْصِرُهُ مِنَ الضُّوءِ وَبِمَا يَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِبْتِهَاجَ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي لِلنَّفْسِ مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ يَكُونُ أَشَدَّ وَأَلَدَّ فَالْنَّفْسُ الرُّوحَانِيَّةُ إِذَا شَعَرَتْ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ حَمَلَتْ لَهَا ابْتِهَاجٌ وَلَذَّةٌ لَا يُعْبَرُ عَنْهُمَا وَهَذَا الْإِدْرَاكِ لَا يَحْصُلُ بِنَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِكَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ وَنِسْيَانِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةُ كَثِيرًا مَا يُعْنَوْنَ بِحُصُولِ هَذَا الْإِدْرَاكِ لِلنَّفْسِ بِحُصُولِ هَذِهِ السَّجَّةِ فَيُعَاوِلُونَ بِالرَّيَاضَةِ إِمَانَةَ الْقُوَى الْجِسْمَانِيَّةِ وَمَدَارِكِهَا حَتَّى الْفِكْرُ مِنَ الدِّمَاغِ وَيَحْصُلُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا عِنْدَ زَوَالِ الشَّوَاغِبِ وَالْمَوَانِعِ الْجِسْمَانِيَّةِ يَحْصُلُ لَهُمْ بَهْجَةٌ وَلَذَّةٌ لَا يُعْبَرُ عَنْهُمَا وَهَذَا الَّذِي زَعَمُوهُ بِتَقْدِيرِ صِحَّتِهِ مُسَلَّمٌ لَهُمْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ وَافٍ بِمَقْصُودِهِمْ فَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدَلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ تَحْصُلُ لِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالْإِبْتِهَاجِ عَنْهُ فَبَاطِلٌ كَمَا رَأَيْتَهُ إِذِ الْبَرَاهِينُ وَالْأَدَلَّةُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ لَا تَهْتَمُّ بِالْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ مِنَ الْخَيَالِ وَالْفِكْرِ وَالذِّكْرِ وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نُعْنِي بِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْإِدْرَاكِ إِمَانَةُ هَذِهِ الْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا مُنَازَعَةٌ لَهُ قَادِحَةٌ فِيهِ وَتَجِدُ الْمَاهِرَ مِنْهُمْ عَاكِفًا

عَلَى كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالْإِشَارَاتِ وَالنَّجَاءِ وَتَلَاخِيصِ ابْنِ رُشْدٍ لِلْقَصْرِ مِنْ تَأْلِيفِ أَرِسْطُو
 وَغَيْرِهِ يُعْتَرِ أَوْزَاقَهَا وَيَتَوَقَّعُ مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ مِمَّا الْقِسْطَ مِنَ السَّعَادَةِ فِيهَا وَلَا
 يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَوَانِعِ عَنْهَا وَمُسْتَنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ
 أَرِسْطُو وَالْفَارَابِيِّ وَأَبْنِ سِينَا أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ الْفَعَالِ وَاتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ
 فَقَدْ حَصَلَ حَظُّهُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ وَالْعَقْلُ الْفَعَالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَنْكَشِفُ
 عَنْهَا الْحَسُّ مِنْ رُتْبِ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْتَمِلُونَ الْإِتِّصَالَ بِالْعَقْلِ الْفَعَالِ عَلَى الْإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ
 وَقَدْ رَأَيْتَ فُسَادَهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرِسْطُو وَأَصْحَابُهُ بِذَلِكَ الْإِتِّصَالَ وَالْإِدْرَاكِ إِدْرَاكِ النَّفْسِ
 الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَبِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهُوَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ الْحَسِّ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
 إِنَّ التَّبَهُّجَ النَّاشِئَةَ عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضًا لِأَنَّا
 إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا فَرَّزُوهُ أَنَّ وَرَاءَ الْحَسِّ مُدْرِكًا آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا يَتَّبِعُ
 بِإِدْرَاكِهَا ذَلِكَ ابْتِهَاجًا شَدِيدًا وَذَلِكَ لَا يُعَيَّنُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْآخِرَوِيَّةِ وَلَا بُدَّ
 بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَلَاذِ الَّتِي لَتِلْكَ السَّعَادَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هَذِهِ
 الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كُنَّا قَدَّمْنَاهُ فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ مِنْ
 الْأَوْهَامِ وَالْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ الوجودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ مُنْخَصَرٌّ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيْنَا فُسَادَ
 ذَلِكَ وَإِنَّ الوجودَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ أَوْ يُسْتَوْفَى إِدْرَاكُهُ بِجُمْلَتِهِ رُوحَانِيًّا أَوْ جِسْمَانِيًّا
 وَالَّذِي يَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا فَرَّزْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ الْجُزْءَ الرُّوحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ الْقُوَى
 الْجِسْمَانِيَّةَ أُدْرِكَ إِدْرَاكًا ذَاتِيًّا لَهُ مُخْتَصًّا بِصِنْفٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَهِيَ الْمَوْجُودَاتُ الَّتِي
 احْطَا بِهَا عَلِمْنَا وَلَيْسَ بِعَامٍ الْإِدْرَاكِ فِي الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَنْحَصِرْ وَأَنَّهُ يَتَّبِعُ
 بِذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْإِدْرَاكِ ابْتِهَاجًا شَدِيدًا كَمَا يَتَّبِعُ الصَّبِيُّ بِمَدَارِكِهِ الْحَسِّيَّةِ فِي أَوَّلِ
 نُشُوءِهِ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ أَوْ بِحِصُولِ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا
 بِهَا الشَّارِعُ إِنْ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا نُوْعِدُونَ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنْ إِلَّا نَسَانُ مُسْتَقِلُّ
 بِتَهْدِيبِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِمِلَاسَةِ التَّحْمُودِ مِنَ الْخَلْقِ وَمُجَانِبَةِ الْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى
 أَنَّ ابْتِهَاجَ النَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا لِأَنَّ
 الرِّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ
 وَالْوَانِيَا وَقَدْ يَبِينُ أَنَّ أَثَرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ مِنْ وَرَاءِ الْإِدْرَاكِاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ

فَهَذَا التَّهْدِيْبُ الَّذِي تَوَصَّلُوا إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِنَّمَا تَفْعَلُهُ فِي ابْتِهَاجِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْإِذْرَاكِ
الرُّوحَانِيِّ فَقَطْ الَّذِي هُوَ عَلَى مَقَايِدِرَ وَقَوَائِنَ وَأَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا
بِهَا الشَّارِعَ عَلَى امْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ فَأَمْرٌ لَا يُحِيطُ بِهِ مَدَارِكُ
الْمُدْرِكِينَ وَقَدْ تَنَبَّهَ لِذَلِكَ زَعِيمُهُمْ أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ سِينَا فَقَالَ فِي كِتَابِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ
مَا مَعْنَاهُ إِنَّ الْمَعَادَ الرُّوحَانِيَّ وَأَحْوَالَهُ هُوَ مَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَقَايِسِ
لِأَنَّهُ عَلَى نِسْبَةِ طَبِيعِيَّةٍ مَخْفُوفَةٍ وَوَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمَّا فِي الْبَرَاهِينِ عَلَيْهِ سَعَةٌ وَأَمَّا الْمَعَادُ
الْجَسْمَانِيُّ وَأَحْوَالُهُ فَلَا يُمْكِنُ إِذْرَاكُهُ بِالْبَرَهَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ وَقَدْ
بَسَطْنَاهُ لَنَا الشَّرِيعَةُ الْحَقَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ فَلْيَنْظُرْ فِيهَا وَلْيَرْجِعْ فِي أَحْوَالِ إِلَيْهَا فَهَذَا الْعِلْمُ
كَأَنَّ رَأْيَهُ غَيْرُ وَافٍ بِمَقَاصِدِهِمُ الَّتِي حَرَمُوا عَلَيْهَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرَائِعِ وَظَوَاهِرِهَا
وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا عِلْمُنَا إِلَّا ثَمَرَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ شَحْذُ الذِّهْنِ فِي تَرْتِيبِ الْأَدِلَّةِ وَالْحُجَجِ
لِتَحْصِيلِ مَلَكَتِ الْجُودَةِ وَالصَّوَابِ فِي الْبَرَاهِينِ وَذَلِكَ أَنَّ نَظْمَ الْمَقَايِسِ وَتَرْكِيبَهَا
عَلَى وَجْهِ الْأَحْكَامِ وَالْإِنْفَانِ هُوَ كَأَنَّ شَرْطُوهَا فِي صِنَاعَتِهِمُ الْمُنْطَقِيَّةِ وَقَوْلُهُمْ بِذَلِكَ
فِي عُلُومِهِمُ الطَّبِيعِيَّةِ وَهُمْ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي عُلُومِهِمُ الْحِكْمِيَّةِ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ
وَالْعَالِمِ وَمَا بَعْدَهَا فَيَسْتَوِلِي النَّظَرُ فِيهَا بِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ الْبَرَاهِينِ بِشُرُوطِهَا عَلَى
مَلَكَتِ الْإِنْفَانِ وَالصَّوَابِ فِي الْحُجَجِ وَالْإِسْتِدْلَالَاتِ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ وَافِيَةٍ
بِمَقْصُودِهِمْ فَهِيَ أَصَحُّ مَا عِلْمَانَهُ مِنْ قَوَائِنِ الْأَنْظَارِ هَذِهِ ثَمَرَةٌ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ مَعَ
الْإِطْلَاعِ عَلَى مَذَاهِبِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَرَائِهِمْ وَمَضَارِهَا مَا عَلِمْتَ فَلْيَكُنِ النَّظَرُ فِيهَا مُتَحَرِّزًا
جُهْدُهُ مِنْ مَعَاطِبِهَا وَلْيَكُنْ نَظَرُ مَنْ يَنْظُرُ فِيهَا بَعْدَ الْإِمْتِلَافِ مِنَ الشَّرْعِيَّاتِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى
التَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَلَا يُكَيِّنُ أَحَدٌ عَلَيْهَا وَهُوَ خَلُوفٌ مِنْ عُلُومِ الْمِلَّةِ فَقُلْ أَنْ يَسْلَمَ لِذَلِكَ مِنْ
مَعَاطِبِهَا وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ وَالْحَقُّ وَالْهَادِي إِلَيْهِ وَمَا كُنَّا نَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ

الفصل الخامس والعشرون

في إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هَذِهِ الصِّنَاعَةُ يَزْعُمُ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِهَا الْكَائِنَاتِ فِي عَالَمِ الْعَنَاصِرِ قَبْلَ حُدُوثِهَا
مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَتِهِ قُوَى الْكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرِهَا فِي الْمَوْلِدَاتِ الْعَنْصُرِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُجْتَمِعَةً
فَتَكُونُ لِذَلِكَ أَوْضَاعُ الْأَفْلاكِ وَالْكَوَاكِبِ دَالَّةً عَلَى مَا سَيَعْدُثُ مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ

الكائنات الكلية والاشخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصير الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آحاد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفه منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة إبطاله ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق وأما بطليلس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دالة الكواكب على ذلك دالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيران وأثرها في العنصریات ظاهر لا يسع أحدا جمعه مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعينة وفواكه القناء وسائر أفعاله ثم قال ولنا فيما بعدها من الكواكب طريقان الأولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال الثلاث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا إلى النير الأعظم وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به النطف والبزر فتصير حالا للبدن المتكون عنها والنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة إما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال لأن كفيات البزرة والطفة كفيات لما يتولد عنهما وينشا منهما قال وهو مع ذلك ظني وأيس هو أيضا من القضاء الإلهي يعني القدر إنما هو من جملة الأسباب

الطَّبِيعِيَّةُ لِلْكَائِنِ وَالْقَضَاءُ الْإِلَهِيُّ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ هَذَا مُحْصَلُ كَلَامِ بَطْلِيمُسَ وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ مَنْصُوصٌ فِي كِتَابِهِ الْأَرْبَعِ وَغَيْرِهِ وَمِنْهُ يَتَبَيَّنُ ضَعْفُ مَذْرُوكِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ الْكَائِنَ أَوْ الظَّنَّ بِهِ إِنَّمَا يَحْصُلُ عَنِ الْعِلْمِ بِجُمْلَةِ أَسْبَابِهِ مِنَ الْفَاعِلِ وَالْقَائِلِ وَالصُّورَةِ وَالْغَايَةِ عَلَى مَا يَتَبَيَّنُ فِي مَوْضِعِهِ وَالْقُوَى النُّجُومِيَّةِ عَلَى مَا قَرَّرُوهُ إِنَّمَا هِيَ فَاعِلَةٌ فَقَطْ وَالْجُزْءُ الْعُنْصُرِيُّ هُوَ الْقَائِلُ ثُمَّ إِنَّ الْقُوَى النُّجُومِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْفَاعِلُ بِجُمْلَتِهَا بَلْ هُنَاكَ قُوَى أُخْرَى فَاعِلَةٌ مَعَهَا فِي الْجُزْءِ الْمَادِّيِّ مِثْلَ قُوَّةِ التَّوَلِيدِ لِلْأَبِ وَالنَّوْعِ الَّتِي فِي النُّطْفَةِ وَقُوَى الْخَاصَّةِ الَّتِي تَمَيِّزُهَا صِنْفٌ مِنَ النَّوْعِ وَغَيْرُ ذَلِكَ فَالْقُوَى النُّجُومِيَّةُ إِذَا حَصَلَ كَمَالُهَا وَحَصَلَ الْعِلْمُ فِيهَا إِنَّمَا هِيَ فَاعِلٌ وَاحِدٌ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الْفَاعِلَةِ لِلْكَائِنِ ثُمَّ إِنَّهُ يُشْتَرَطُ مَعَ الْعِلْمِ بِقُوَى النُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا مَزِيدٌ حُدْسٍ وَتَخْمِينٍ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ عِنْدَهُ الظَّنُّ بِوُقُوعِ الْكَائِنِ وَالْحُدْسُ وَالتَّخْمِينُ قُوَى لِلنَّاضِرِ فِي فِكْرِهِ وَلَيْسَ مِنْ عِلَلِ الْكَائِنِ وَلَا مِنْ أَصُولِ الصَّنَاعَةِ فَإِذَا فَقِدَ هَذَا الْحُدْسُ وَالتَّخْمِينُ رَجَعَتْ أَدْرَاجُهَا عَنِ الظَّنِّ إِلَى الشَّكِّ هَذَا إِذَا حَصَلَ الْعِلْمُ بِالْقُوَى النُّجُومِيَّةِ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْتَرِضْهُ آفَةٌ وَهَذَا مُعَوِّزٌ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةٍ حِسْبَانَاتِ الْكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا إِشْتِعْرَافَ بِهِ أَوْضَاعُهَا وَلِئِنْ أَنْ اخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَمَذْرُوكِ بَطْلِيمُسَ فِي إِثْبَاتِ الْقُوَى لِلْكَوَاكِبِ الْخَمْسَةِ بِقِيَاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مَذْرُوكِ ضَعِيفٌ لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ الْقُوَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَمُسْتَوَلِيَّةٌ عَلَيْهَا فَقُلْ أَنْ يُشْعَرَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوْ النُّقْصَانِ مِنْهَا عِنْدَ الْمُقَارَنَةِ كَمَا قَالَ وَهَذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تَعْرِيفِ الْكَائِنَاتِ الْوَاقِعَةِ فِي عَالَمِ الْعَنَاصِرِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ ثُمَّ إِنَّ تَأْثِيرَ الْكَوَاكِبِ فِيهَا يَخْتَلِفُ بِاطِلٍ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ أَنَّ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ بِطَرِيقِ اسْتِدْلَالِيٍّ كَمَا رَأَيْتَهُ وَاحْتَجَّ لَهُ أَهْلُ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَا هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْيَبَانِ مِنْ أَنَّ إِسْنَادَ الْأَسْبَابِ إِلَى الْمُسَبِّبَاتِ مَجْهُولُ الْكَيْفِيَّةِ وَالْعَقْلُ مِنْهُمْ عَلَى مَا يُقْضَى بِهِ فِيهَا يَظْهَرُ بَادِيءُ الرَّأْيِ مِنَ التَّأْثِيرِ فَلَعَلَّ اسْتِنَادَهَا عَلَى غَيْرِ صُورَةِ التَّأْثِيرِ الْمُتَعَارِفِ وَالْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ رَابِطَةٌ بَيْنَهُمَا كَمَا رَبَطَتْ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ عُلُومًا وَسُفْلًا سِيمَا وَالشَّرْعُ يَرُدُّ الْحَوَادِثَ كُلُّهَا إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَبْرَأُهَا سِوَى ذَلِكَ وَالنَّبُوءَاتُ أَيْضًا مُذَكَّرَةٌ لِشَأْنِ النُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاسْتِقْرَاهُ الشَّرْعِيَّاتِ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا

لِحَيَاتِهِ وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ
وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَائِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ
بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَائِبِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فَقَدْ بَانَ لَكَ بَطْلَانُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مِنْ طَرِيقِ
الْشَّرْعِ وَضَعْتُ مَدَارِكَهَا مَعَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ الْمَضَارِ فِي الْعُمُرَانِ
الْإِنْسَانِيِّ تَمَا تَبَعَتْ مِنْ عَقَائِدِ الْعَوَامِّ مِنَ الْفَسَادِ إِذَا اتَّفَقَ الصِّدْقُ مِنْ أَحْكَامِهَا فِي
بَعْضِ الْأَحْيَانِ اتِّفَاقًا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَعَالِيلٍ وَلَا تَحْقِيقٍ فَيَتَّبِعُ بِذَلِكَ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَبَظَنُّ
أَطْرَادِ الصِّدْقِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَيَقَعُ فِي رَدِّ الْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِفِهَا ثُمَّ
مَا يَنْشَأُ عَنْهَا كَثِيرًا فِي الدُّوَلِ مِنْ تَوَقُّعِ الْقَوَاطِعِ وَمَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّوَقُّعُ مِنْ
مَلَكُوتِ الْأَعْدَاءِ وَالْمُتَرَبِّصِينَ بِالدَّوَلَةِ إِلَى الْفَتْكِ وَالثَّوَرَةِ وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا
فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْظَرَ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْعُمُرَانِ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَضَارِ فِي
الدِّينِ وَالدُّوَلِ وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ كَوْنُ وَجُودِهَا طَبِيعِيًّا لِلْبَشَرِ بِمُقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ
وَعُلُومِهِمْ فَأَلْخِذْ وَالشَّرُّ طَبِيعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْعَالَمِ لَا يُمَكِّنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ
الْكَلْبُ بِأَسْبَابِ حُصُولِهِمَا فَيَتَعَيَّنُ السَّعْيُ فِي أَكْتِسَابِ الْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ وَدَفْعِ
أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْمَضَارِ هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَقَاسِدَ هَذَا الْعِلْمِ وَمَضَارَّهُ وَلَيْعَلَّ
مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمَكِّنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمَةِ تَحْصِيلَ
عِلْمِهَا وَلَا مَلَكَتِهَا بَلْ إِنْ نَظَرَ فِيهَا نَظِيرٌ وَظَنَّ الْإِحَاطَةَ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ فِي
نَفْسِ الْأَمْرِ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتْ النَّظَرَ فِيهَا فَقَدْ اجْتَمَعَ مِنْ أَهْلِ الْعُمُرَانِ اقْرَاءَتُهَا
وَالْتِحَاقُ لِنَعْلِمِهَا وَصَارَ الْمُوَلَعُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَهُمْ الْأَقْلُ وَأَقْلُ مِنَ الْأَقْلِ إِنَّمَا يُطَالِعُ
كِتَابَهَا وَمَقَالَاتِهَا فِي كِسْرِ يَتِيهِ مُتَسَتِّرًا عَنِ النَّاسِ وَتَحْتَ رِبْقَةِ الْجُمْهُورِ مَعَ تَشَعُّبِ
الصَّنَاعَةِ وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَاعْتِيَاصِهَا عَلَى الْفَهْمِ فَكَيْفَ يَحْصُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ وَنَحْنُ
مُعِدُّو النِّقَةِ الَّذِي عَمَّ نَعْمُهُ دِينًا وَدُنْيَا وَسَهَاتُ مَا خِذَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَكَفَتْ
الْجُمْهُورُ عَلَى قِرَاءَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ التَّحْقِيقِ وَالتَّجْمِيعِ وَطُولِ الْمُدَاسَةِ وَكَثْرَةِ انْجِمَالِ
وَتَعَدُّهَا إِنَّمَا يَحْدَقُ فِيهِ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي الْأَعْصَارِ وَالْأَجْيَالِ فَكَيْفَ يُعْلَمُ
مَهْجُورٌ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سُدُّ الْخَطَرِ وَالتَّحْرِيمُ مَكْتُومٌ عَنِ الْجُمْهُورِ صَعْبُ
الْمَاخِذِ مُنْتَجِجٌ بَعْدَ الْمُمَارَسَةِ وَالتَّحْصِيلِ لِأَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدِ حَدْسٍ وَتَحْمِينٍ

يَكْتَنِفَانِ بِهِ مِنَ النَّظَرِ فَأَيْنَ التَّحْصِيلُ وَالْحَذَقُ فِيهِ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا وَمُدَّعَى ذَلِكَ مِنَ
النَّاسِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ وَلَا شَاهِدَ لَهُ يَقُومُ بِذَلِكَ لِعَرَابَةِ الْقَنْ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَقِلَّةِ
حَمَلَتِهِ فَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ بِتَبَيَّنِ لَكَ صِحَّةُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ
أَحَدًا . وَمِمَّا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ عِنْدَمَا غَلَبَ الْعَرَبُ
عَسَاكِرَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَحَاصِرُوهُ بِالْقَيْرَوَانِ وَكَثُرَ إِرْجَافُ الْفَرِيقَيْنِ الْأَوْلِيَاءِ
وَالْأَعْدَاءِ وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ الرُّوحِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ أَهْلِ تُونِسَ

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ حِينٍ	قَدْ ذَهَبَ الْعَيْشُ وَالْهَنَاءُ
أَصْبَحُ فِي تُونِسٍ وَأَمْسِي	وَالصَّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ
الْخَوْفُ وَالْجُوعُ وَالْمَنَايَا	يُحْدِثُهَا الْهَرْجُ وَالْوَبَا
وَالنَّاسُ فِي مَرِيَةٍ وَحَرْبٍ	وَمَا عَسَى يَنْفَعُ الْمِرَاءُ
فَأَحْمَدِي يَرْءِي عَلِيًّا	حَلَّ بِهِ الْهَلَاكُ وَالْتَوَاءُ
وَأَخَّرُ قَالَ سَوْفَ يَأْتِي	بِهِ إِلَيْكُمْ صَبَا رَخَاءُ
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ ذَا وَهَذَا	يَقْضِي لِعَبْدِهِ مَا يَشَاءُ
يَا رَاصِدَ الْخَنَسِ الْجَوَارِي	مَا فَعَلْتَ هَذِهِ السَّمَاءُ
مَظَلْتُمُونَا وَقَدْ زَعَمْتُمْ	أَنَّكُمْ الْيَوْمَ أَمْلِيَاءُ
مَرَّ خَمِيسٌ عَلَى خَمِيسٍ	وَجَاءَ مَبْتُ وَأَرْبَعَاءُ
وَنِصْفُ شَهْرٍ وَعِشْرُ ثَانٍ	وَنَالَتْ ضَمَّةُ الْقَضَاءِ
وَلَا نَرَى غَيْرَ زُورٍ قَوْلٍ	أَذَاكَ جَهْلٌ أَمْ أَزْدَرَاءُ
إِنَّا إِلَى اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا	أَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ الْقَضَاءُ
رَضِيتُ بِاللَّهِ لِي إِلَهًا	حَسْبُكُمْ الْبَذْرُ أَوْ ذُرَاةُ
مَا هَذِهِ الْأَنْجُمُ السَّوَارِي	إِلَّا عِبَادِيدُ أَوْ إِمَاءُ
يُقْضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ تَقْضِي	وَمَا لَهَا فِي الْوَرَى أَقْضَاءُ
ضَلَّتْ عَقُولُ نَرَى قَدِيمًا	مَا شَأْنُهُ الْجُرْمُ وَالْفَنَاءُ
وَحَكَمْتَ فِي الْوُجُودِ طَبْعًا	يُحْدِثُهُ الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
لَمْ تَرَ حُلُومًا إِذَا مَرَّ	تَغْدُوهُمْ تُرْبَةٌ وَمَاءُ

اللَّهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَدْرِي مَا الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ وَالْخَلَاءُ
 وَلَا أَلْهِيُولَى الَّتِي تُنَادِي مَا لِي عَنْ صُورَةِ عَرَاهُ
 وَلَا وَجُودُ وَلَا أَنْعِدَامُ وَلَا ثُبُوتُ وَلَا انْتِفَاءُ
 وَالْكَسْبُ لَمْ أَذْرِ فِيهِ إِلَّا مَا جَلَبَ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ
 وَإِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي مَا كَانَتْ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءُ
 إِذْ لَا فُصُولُ وَلَا أَصُولُ وَلَا جِدَالُ وَلَا رِيَاءُ
 مَا نَبَعَ الصَّدْرُ وَاقْتَفَيْنَا يَا حَبَّذَا كَانَتْ الْإِقْتِفَاءُ
 كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْمَذَاهُ
 يَا أَشْعَرِي الزَّمَانِ إِنِّي أَشْعَرَنِي الصَّبْفُ وَالشَّيْءُ
 لَمْ أَجْزَ بِالشَّرِّ غَيْرَ شَرِّ وَأَخْبِرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
 وَإِنِّي إِنْ أَكُنْ مُطِيعًا فَلَسْتُ أَغْصَى وَلِي رَجَاءُ
 وَإِنِّي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ أَطَاعَهُ الْعَرْشُ وَالْثَرَاءُ
 لَيْسَ أَنْتَصَارُ بِكُمْ وَلَكِنْ أَتَاهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ
 لَوْ حَدَّثَ الْأَشْعَرِيُّ عَمَّنْ لَهُ إِلَى رَأْيِهِ انْتِمَاءُ
 لَقَالَ أَخْبِرُهُم بِأَنِّي مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل السادس والعشرون

في انكار ثمة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

إَعْلَمَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى انْتِحَالِ هَذِهِ
 الصَّنَائِعِ وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ وَأَنَّ اقْتِنَاءَ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ
 وَأَمْسَلُ عَلَى مُبْتَدِئِهِ فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَشَاقِّ وَمُعَانَاةِ الصَّعَابِ وَعَسْفِ
 الْحُكْمِ وَخِسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي التَّفَقَّاتِ زِيَادَةً عَلَى النَّيْلِ مِنْ غَرَضِهِ وَالْعَطَبِ آخِرًا
 إِذَا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَةٍ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا وَإِنَّمَا أَطْمَعُهُمْ فِي ذَلِكَ رُؤْيَا أَنَّ
 الْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَنْقَلِبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِلْمَادَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ فَيَتَحَاوَلُونَ بِالْعِلَاجِ
 صَبْرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَبًا وَالنُّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسِبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمِ
 الطَّبِيعَةِ وَلَهُمْ فِي عِلَاجِ ذَلِكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي التَّنْذِيرِ وَصُورَتِهِ

وَفِي الْمَادَّةِ الْمَوْضُوعَةِ عِنْدَهُمُ لِلْعِلَاجِ الْمُسَمَّاةِ عِنْدَهُمُ بِالْحَجَرِ الْمَكْرَمِ هَلْ هِيَ
الْعَذْرَةُ أَوِ الدَّمُ أَوِ الشَّعْرُ أَوِ الْبَيْضُ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ وَجُمْلَةُ التَّنْذِيرِ
عِنْدَهُمْ بَعْدَ تَعْيِينِ الْمَادَّةِ أَنْ تُمْحَى بِالْقَهْرِ عَلَى حَجَرٍ صَلْدٍ أَمْلَسَ وَتُسْقَى أَثْنَاءَ إِهْنَائِهَا
بِالْمَاءِ وَبَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ مَا يَنْسِبُ الْقَصْدَ مِنْهَا وَيُؤَثِّرُ فِي
أَنْقِلَابِهَا إِلَى الْمَعْدِنِ الْمَطْلُوبِ ثُمَّ يُجَفَّفُ بِالشَّمْسِ مِنْ بَعْدِ السَّقْيِ أَوْ يُطَبَّخُ بِاللَّارِ أَوْ
تُصَعَّدُ أَوْ تُكَلَّسُ لِاسْتِخْرَاجِ مَائِهَا أَوْ تَرَابِهَا فَإِذَا رُخِيَ بِذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ عِلَاجِهَا وَتَمَّ
تَنْذِيرُهُ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ أُصُولُ صِنْعَتِهِ حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ تَرَابٌ أَوْ مَا يُعْ بِسَمُونِهِ
الْإِكْسِيرَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ عَلَى الْفِضَّةِ النُّجْمَاءِ بِالنَّارِ عَادَتْ ذَهَبًا أَوِ النُّجَاسِ
الْمُحْمَى بِالنَّارِ عَادَ فِضَّةً عَلَى مَا قُصِدَ بِهِ فِي عَمَلِهِ وَيَزْعُمُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ
الْإِكْسِيرَ مَادَّةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ حَصَلَ فِيهَا بِذَلِكَ الْعِلَاجِ الْخَاصُّ وَالتَّنْذِيرُ
مِزَاجٌ ذُو قُوَى طَبِيعِيَّةٍ تَصْرِفُ مَا حَصَلَتْ فِيهِ إِلَيْهَا وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا وَمِزَاجِيَّةٍ وَتَبْتُ
فِيهِ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَالْقُوَى كَالْحَمِيرَةِ لِلْخُبْرِ نَقْلُ الْعَجِينَ إِلَى ذَاتِهَا وَتَعْمَلُ
فِيهِ مَا حَمَلَ لَهَا مِنَ الْإِنْفِشَاشِ وَالْهَشَاشَةِ لِيَحْسُنَ هَضْمُهُ فِي الْمَعْدَةِ وَيَسْتَحِيلَ سَرِيعًا
إِلَى الْغِذَاءِ وَكَذَا إِكْسِيدُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِيمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْمَعَادِنِ بِصَرْفِهِ إِلَيْهِمَا
وَيَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهِمَا هَذَا يُحْصَلُ زَعْمُهُمْ عَلَى الْجُمْلَةِ فَتَجِدُهُمْ عَاكِفِينَ عَلَى هَذَا الْعِلَاجِ
يَتَغَوَّنَ الرِّزْقَ وَالْمَعَاشَ فِيهِ وَيَتَنَاقِلُونَ أَحْكَامَهُ وَقَوَاعِدَهُ مِنْ كُتُبِ لِأَيْمَةِ الصِّنَاعَةِ
مَنْ قَبْلِهِمْ يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَتَنَظَّرُونَ فِي فَنِّهِمْ لُغُوزَهَا وَكُشْفِ أَسْرَارِهَا إِذْ هِيَ فِي
الْأَكْثَرِ تُشْبِهُ الْمَعْنَى كِتَابَ جَابِرِ بْنِ حَبِآنَ فِي رِسَالَتِهِ السَّبْعِينَ وَمَسَالِمَةِ الْجَبْرِيطِي
فِي كِتَابَةِ رُتْبَةِ الْحَكِيمِ وَالطُّغْرَاثِيِّ وَالْمُغِيرِيِّ فِي قِصَائِدِهِ الْعَرِيقَةِ فِي إِجَادَةِ النِّظَمِ
وَأَمْثَالِهَا وَلَا يَحْلُونَ مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلِّهِ بِطَائِلٍ مِنْهَا ، فَتَقَاوَضْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا أَبَا الْبَرَكَاتِ
التَّنْفِيضِيِّ كَبِيرَ مَشِيخَةِ الْأَنْدَلُسِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَوَقَفْتُهُ عَلَى بَعْضِ التَّالِيفِ فِيهَا فَتَصَفَّحَهُ
طَوِيلًا ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيَّ وَقَالَ لِي وَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيَّ يَتِيهِ إِلَّا بِالْخَبِيرَةِ ثُمَّ مِنْهُمْ
مَنْ يَقْتَصِرُ فِي ذَلِكَ عَلَى الدَّلْسَةِ فَقَطْ إِمَّا الظَّاهِرَةَ كَتَمُوبِهِ الْفِضَّةَ بِالذَّهَبِ أَوِ النُّجَاسِ
بِالْفِضَّةِ أَوْ خَلَطَهَا عَلَى نِسْبَةِ جُزْءٍ أَوْ جُزْءَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ خَلَفَتِهَا كَالْقَاءِ الشَّبْهِ بَيْنَ
الْمَعَادِنِ بِالصِّنَاعَةِ مِثْلَ تَبْيِضِ النُّجَاسِ وَتَلْبِيسِهِ بِالزُّوقِ الْمُصَعَّدِ فَيُجِيءُ جِئًا مَعْدِنِيًّا

شَيْبًا بِالْفِضَّةِ وَيَخْفَى إِلَّا عَلَى النَّقَادِ الْمَهْرَةِ فَيُقَدَّرُ أَصْحَابُ هَذِهِ الدَّاسِ مَعَ دُلْسَتِهِمْ
هَذِهِ سَكَّةٌ يَسْرُبُونَهَا فِي النَّاسِ وَيَطْبَعُونَهَا بِطَابَعِ السُّلْطَانِ تَمْوِيهَا عَلَى الْجُمْهُورِ بِالْخُلَاصِ
وَهَوْلَاءُ أَحْسَنُ النَّاسِ حِرْفَةً وَأَسْوَأُهُمْ عَاقِبَةً لِيَتَلَبَّسَهُمْ بِسَرِقَةِ أَمْوَالِ النَّاسِ فَإِنْ صَاحِبَ
هَذِهِ الدُّلْسَةِ إِنَّمَا هُوَ يَدْفَعُ نَحَاسًا فِي الْفِضَّةِ وَفِضَّةً فِي الذَّهَبِ لِيَسْتَخْلِصَهَا لِنَفْسِهِ فَهُوَ
سَارِقٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ السَّارِقِ وَمُعْظَمُ هَذَا الصِّنْفِ لَدَيْنَا بِالْمَغْرِبِ مِنْ طَائِفَةِ الْبَرَبَرِ الْمُتَبَذِّينِ
بِأَطْرَافِ الْبِقَاعِ وَمَسَاكِينِ الْأَغْمَارِ يَأْوُونَ إِلَى مَسَاجِدِ الْبَادِيَةِ وَيُمَوِّهُونَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ
مِنْهُمْ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ صِنَاعَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّفُوسُ مُوَأَةً بِحَبِيهِمَا وَالْإِسْتِهْلَاكِ سِبْغٍ
طَالِبِهِمَا فَيَحْصُلُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَعَاشٍ ثُمَّ يَبْقَى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ تَحْتَ الْخُوفِ وَالرَّقَبَةِ إِلَى
أَنْ يَظْهَرَ الْعَجْزُ وَانْقَعَ الْفَضِيحَةُ فَيَفِرُّونَ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ وَيَسْتَجِدُّونَ حَالًا أُخْرَى فِي
أَسْتِهْوَاءِ بَعْضِ أَهْلِ الدُّنْيَا بِأَطَاعَتِهِمْ فِيمَا لَدَيْهِمْ وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ فِي ابْتِغَاءِ مَعَاشِهِمْ
وَهَذَا الصِّنْفُ لَا كَلَامَ مَعَهُمْ لِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا الْعَابَةِ فِي الْجَهْلِ وَالرَّدَاءَةِ وَالْإِحْتِرَافِ بِالسَّرِقَةِ
وَلَا حَاسِمٍ لِعَمَلِهِمْ إِلَّا أَشْدَادُ الْحُكَّامِ عَلَيْهِمْ وَتَنَادُلُهُمْ مِنْ حَيْثُ كَانُوا وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ
مَتَى ظَهَرُوا عَلَى شَأْنِهِمْ لِأَنَّ فِيهِ إِفْسَادًا لِلْسَكَّةِ الَّتِي تَعْمُ بِهَا الْبَلَوَى وَهِيَ مُتَعَمِّلُ النَّاسِ
كَكَافَّةِ وَالسُّلْطَانُ مُكَلِّفٌ بِإِصْلَاحِهَا وَالْإِحْتِيَاطِ عَلَيْهَا وَالْإِشْدَادِ عَلَى مُفْسِدِهَا وَأَمَّا
مَنْ اتَّخَلَ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ وَلَمْ يَرْضَ بِحَالِ الدُّلْسَةِ بَلَى اسْتَنكَفَ عَنْهَا وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ إِفْسَادِ
سَكَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَنَقُودِهِمْ وَإِنَّمَا يَطْلُبُ إِحَالََةَ الْفِضَّةِ لِلذَّهَبِ وَالرَّصَاصِ وَالنَّحَاسِ
وَالْقَصْدِيرِ إِلَى الْفِضَّةِ بِذَلِكَ النُّحُوِّ مِنَ الْعِلَاجِ وَبِالْإِكْسِيرِ الْحَاصِلِ عِنْدَهُ فَلَنَا مَعَ هَوْلَاءِ
مُسْكَلٌ وَبَحْثٌ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذَلِكَ مَعَ أَنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ يَتِمُّ لَهُ هَذَا
الْغَرَضُ أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بُغْيَةٍ إِنَّمَا تَذَهَبُ أَعْمَارُهُمْ فِي التَّدْبِيرِ وَالْفَهْرِ وَالصَّلَابَةِ
وَالتَّضْعِيدِ وَالتَّكْلِيسِ وَاعْتِيَامِ الْأَخْطَارِ بِجَمْعِ الْعَقَاقِيرِ وَالتَّحْتِ عَنْهَا وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذَلِكَ
حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْغَرَضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى الْوُصُولِ يَقْنَعُونَ بِاسْتِجَاعِهَا
وَالْمُفَاوَضَاتِ فِيهَا وَلَا يَشْتَرِبُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَأْنَ الْكَافِلِينَ الدُّغْرَمِينَ بِوَسَاوِسِ
الْأَخْبَارِ فِيمَا يُكَلِّفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِالْمُعَايَنَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا إِنَّمَا
تَمَعَّنَّا وَلَمْ نَرْ هَكَذَا شَأْنَهُمْ فِي كُلِّ عَصْرِ وَجِيلٍ وَاعْلَمْ أَنَّ اتِّخَالَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ قَدِيمٌ
فِي الْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فَلَنَنْقُلَ مَذَاهِبَهُمْ فِي ذَلِكَ

ثُمَّ نَتْلُوهُ بِمَا يَظْهَرُ فِيهَا مِنَ التَّحْقِيقِ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ فَنَقُولُ إِنَّ مَبْنَى الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ عَلَى حَالِ الْمَعَادِنِ السَّبْعَةِ الْمُطْرَقَةِ وَهِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالرَّصَاصُ وَالْقَصْدِيدُ وَالنُّحَاسُ وَالْحَرِيدُ وَالنَّخَارِصِينُ هَلْ هِيَ مُخْتَلِفَاتٌ بِالْفُضُولِ وَكُلُّهَا أَنْوَاعٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا أَوْ إِنَّمَا مُخْتَلِفَةٌ بِخَوَاصِّ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِنَوْعٍ وَاحِدٍ فَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو النَّصْرِ الْفَارَابِيُّ وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا نَوْعٌ وَاحِدٌ وَأَنَّ اخْتِلَافَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْكَيفِيَّاتِ مِنَ الرُّطُوبَةِ وَالْيُوسَةِ وَاللَّيْنِ وَالصَّلَاطَةِ وَالْأَلْوَانِ مِنَ الصُّفْرِ وَالْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِذَلِكَ النَّوعِ الْوَاحِدِ وَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ سِينَا وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْمَشْرِقِ أَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِالْفُضُولِ وَأَنَّهَا أَنْوَاعٌ مُتَبَايِنَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُتَحَقِّقٌ بِحَقِيقَتِهِ لَهُ فَضْلٌ وَجِنْسٌ شَانِ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ وَبَنَى أَبُو النَّصْرِ الْفَارَابِيُّ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اتِّفَاقِهَا بِالنَّوعِ إِمَّا كَانَ انْقِلَابٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لَا إِمَّا كَانَ تَبَدُّلُ الْأَعْرَاضِ حِينَئِذٍ وَعِلَاجُهَا بِالصَّنْعَةِ فَرَأَى هَذَا التَّوَجُّهَ كَانَتْ صِنَاعَةُ الْكِيمِيَاءِ عِنْدَهُ مُمَكِّنَةً مَهْلَةً أَلْمَاخَذَ وَبَنَى أَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اخْتِلَافِهَا بِالنَّوعِ إِنْكَارَ هَذِهِ الصَّنْعَةِ وَاسْتَحَالَةَ وُجُودِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ لَا سَبِيلَ بِالصَّنْعَةِ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يَخْلُقُهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَمُقَدِّرُهَا وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفُضُولُ تَجْهَوُلُهُ الْحَقَائِقُ رَأْسًا بِالنُّصُورِ فَكَيْفَ يُجَاوِلُ انْقِلَابُهَا بِالصَّنْعَةِ وَغَلَطَهُ الطُّغْرَايِيُّ مِنْ أَكْبَرِ أَهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَرَدَّ عَلَيْهِ بِأَنَّ التَّدْبِيرَ وَالْعِلَاجَ لَيْسَ فِي تَخْلِيقِ الْفَضْلِ وَإِبْدَاعِهِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي إِعْدَادِ الْمَادَّةِ لِإِقْبُولِهِ خَاصَّةً وَالْفَضْلُ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ الْإِعْدَادِ مِنْ لَدُنْ خَالِقِهِ وَبَارِئِهِ كَمَا يُنْبِضُ الدُّورُ عَلَى الْأَجْسَامِ بِالْأَثْقَلِ وَالْإِمْهَاءِ وَلَا حَاجَةَ بِنَا فِي ذَلِكَ إِلَى تَصَوُّرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَالَ وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَثَرْنَا عَلَى تَخْلِيقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مَعَ الْجَهْلِ بِفُضُولِهَا مِثْلَ الْعَقْرَبِ مِنَ التُّرَابِ وَالنَّتَنِ وَمِثْلَ الْحَيَاتِ الْمُتَكَوِّنَةِ مِنَ الشَّعْرِ وَمِثْلَ مَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ الْفِلَاحَةِ مِنْ تَكْوِينِ النَّحْلِ إِذَا فُقِدَتْ مِنْ عَجَاجِيلِ الْبَقَرِ وَتَكْوِينِ الْقَصَبِ مِنْ قُرُونِ ذَوَاتِ الظُّلْفِ وَتَصْنِيعِهِ سُكَّرًا بِمَحْشُورِ الْقُرُونِ بِالْعَسَلِ بَيْنَ يَدَيِ ذَلِكَ الْقَلَمِ لِلْقُرُونِ فَمَا أَلْمَانِعُ إِذَا مِنَ الْعُثُورِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَتُخَذُ مَادَّةٌ تُضَيَّفُهَا لِلتَّدْبِيرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا اسْتِعْدَادٌ أَوَّلُ لِقَبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ثُمَّ تُعَاوَلُهَا بِالْعِلَاجِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ فِيهَا الْإِسْتِعْدَادُ لِإِقْبُولِ فَضْلِهَا أَنْتَهَى كَلَامُ الطُّغْرَايِيِّ بِمَعْنَاهُ وَهُوَ

الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ سِينَا صَحِيحٌ لَكِنَّ لَنَا فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
 مَأْخِذًا آخَرَ يَتَبَيَّنُ مِنْهُ اسْتِحْجَالُهُ وَجُودُهَا وَبُطْلَانُ زَعْمِهِمْ أَجْمَعِينَ لَا الطُّغْرَائِيَّ وَلَا ابْنَ
 سِينَا وَذَلِكَ أَنَّ حَاصِلَ عِلَاجِهِمْ أَنَّهُمْ بَعْدَ التَّوَقُّفِ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ بِالْإِسْتِعْدَادِ
 الْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا مَوْضُوعًا وَيُعَادُونَ فِي تَدْبِيرِهَا وَعِلَاجِهَا تَدْبِيرَ الطَّبِيعَةِ فِي الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ
 حَتَّى أَحَالَتُهُ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً وَيَضَاعِفُونَ الْقُوَى الْفَاعِلَةَ وَالْمُنْعِلَةَ لِيَتِمَّ فِي زَمَانٍ أَقْصَرَ
 لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي مَوْضُوعِهِ أَنَّ مُضَاعَفَةَ قُوَى الْفَاعِلِ تَنْقُصُ مِنْ زَمَنِ فِعْلِهِ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الذَّهَبَ
 إِنَّمَا يَتِمُّ كَوْنُهُ فِي مَعْدِنِهِ بَعْدَ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ مِنَ السِّنِينَ دَوْرَةَ الشَّمْسِ الْكُبْرَى فَإِذَا
 تَضَاعَفَتِ الْقُوَى وَالْكَفَيَّاتُ فِي الْعِلَاجِ كَانَ زَمَنُ كَوْنِهِ أَقْصَرَ مِنْ ذَلِكَ فَحَرُورَةُ عَلَى
 مَا قُلْنَاهُ أَوْ يَتَحَرَّوْنَ بِعِلَاجِهِمْ ذَلِكَ حُصُولَ صُورَةٍ زَاجِغَةٍ لِتِلْكَ الْمَادَّةِ تُصَوِّرُهَا
 كَالْخَمِيرَةِ فَتَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ الْمَعَالِجِ الْأَفَاعِيلَ الْمَطْلُوبَةَ فِي إِحَالَتِهِ وَذَلِكَ مَوْالٍ كَثِيرٌ
 عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مُتَكَوِّنٍ مِنَ الْمَوْلِدَاتِ الْعَنْصَرِيَّةِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أَجْتِمَاعِ
 الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ إِذْ لَوْ كَانَتْ مُتَكَافِئَةً فِي النِّسْبَةِ لَمَا تَمَّ امْتِزَاجُهَا
 فَلَا بُدَّ مِنَ الْجُزْءِ الْغَالِبِ عَلَى الْكُلِّ وَلَا بُدَّ فِي كُلِّ مُخْتَرَجٍ مِنَ الْمَوْلِدَاتِ مِنْ
 حَرَارَةٍ غَرِيزِيَّةٍ هِيَ الْفَاعِلَةُ لِكَوْنِهِ الْحَافِظَةُ لِصُورَتِهِ ثُمَّ كُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي زَمَانٍ فَلَا بُدَّ
 مِنْ اخْتِلَافِ أَطْوَارِهِ وَانْتِقَالِهِ فِي زَمَنِ الْإِكْوَانِ مِنْ طَوْرِ إِلَى طَوْرِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى
 غَايَتِهِ وَانْظُرْ شَانَ الْإِنْسَانِ فِي طَوْرِ النُّطْفَةِ ثُمَّ الْعَلَقَةِ ثُمَّ الْمَضْغَةِ ثُمَّ التَّصْوِيرِ ثُمَّ الْجَنِينِ
 ثُمَّ الْمَوْلُودِ ثُمَّ الرُّضِيعِ ثُمَّ إِلَى نِهَائِهِ وَنِسْبُ الْأَجْزَاءِ فِي كُلِّ طَوْرِ تَخْتَلِفُ فِي مَقَادِيرِهَا
 وَكَيْفِيَّاتِهَا وَإِلَّا لَكَانَ الطَّوْرُ الْأَوَّلُ بَعِينَهُ هُوَ الْآخِرُ وَكَذَا الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ فِي كُلِّ
 طَوْرِ مُخَالَفَةٌ لَهَا فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ فَانْظُرْ إِلَى الذَّهَبِ مَا يَكُونُ لَهُ فِي مَعْدِنِهِ مِنَ
 الْأَطْوَارِ مِنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ وَمَا يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الْكَيْمِيَاءِ
 إِلَى أَنْ يَسَاقِيَ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَعْدِنِ وَيُعَادِيَهُ بِتَدْبِيرِهِ وَعِلَاجِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَمِنْ
 شَرْطِ الصَّنَاعَةِ أَبَدًا تَصَوُّرُ مَا يُقْصَدُ إِلَيْهِ بِالصَّنْعَةِ فَمِنْ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ لِلْحُكَمَاءِ أَوَّلُ
 الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَآخِرُ الْفِكْرَةِ أَوَّلُ الْعَمَلِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَصَوُّرِ هَذِهِ الْحَالَاتِ لِلذَّهَبِ
 فِي أَحْوَالِ الْمَعْدِنَةِ وَنِسْبِهَا الْمُتَفَاوِتَةِ فِي كُلِّ طَوْرِ وَاخْتِلَافِ الْحَارِ الْغَرِيزِيِّ عِنْدَ
 اخْتِلَافِهَا وَمِقْدَارِ الزَّمَانِ فِي كُلِّ طَوْرِ وَمَا يَنْبُؤُ عَنْهُ مِنْ مِقْدَارِ الْقُوَى الْمُضَاعَفَةِ وَيَقُومُ

مَقَامُهُ حَتَّى يُخَاذِيَ بِذَلِكَ كُلُّهُ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَعْدِنِ أَوْ تُعَدُّ لِبَعْضِ الْمَوَادِّ صُورَةً
 مِزَاجِيَّةً كَصُورَةِ الْخَمِيرَةِ لِلخُبْزِ وَتَفْعَلُ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ بِالنَّاسِبَةِ إِقْوَامًا وَمَقَادِيرَهَا
 وَهَذِهِ كُلُّهَا إِنَّمَا يَخْصُرُهَا الْعِلْمُ الْحَاطِطُ وَالْعُلُومُ الْبَشَرِيَّةُ فَاصِرَةٌ عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا حَالُ
 مَنْ يَدْعِي حُسْرَهُ عَلَى الذَّهَبِ بِهِذِهِ الصَّنْعَةِ بِمِثَابَةٍ مَنْ يَدْعِي بِالصَّنْعَةِ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ مِنَ
 الْعَمِيِّ وَتَمَحْنُ إِذَا سَأَلْنَا لَهُ الْإِحَاطَةَ بِأَجْزَائِهِ وَنِسْبَتِهِ وَأَطْوَارِهِ وَكَيْفِيَّةَ تَخْلِيقِهِ فِي رَجَمِهِ
 وَعَالِمَ ذَلِكَ عَالِمًا مُخَصَّلًا بِتَقْصِيدِهِ حَتَّى لَا يَشِدَّ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ سَأَلْنَا لَهُ تَخْلِيقَ هَذَا
 الْإِنْسَانِ وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ وَلَنَقْرُبَ هَذَا الْبُرْهَانَ بِالْإِخْتِصَارِ لَيْسَهُلَ فَهَمُهُ فَنَقُولُ حَاصِلُ
 صِنَاعَةِ الْكِيمِيَاءِ وَمَا يَدْعُونَهُ بِهَذَا التَّدْبِيرِ أَنَّهُ مُسَاوِقَةُ الطَّبِيعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ بِالْفِعْلِ الصَّنَاعِيِّ
 وَمُحَاذَاتِهَا بِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ كَوْنُ الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ أَوْ تَخْلِيقُ مَادَّةٍ بِقُوَى وَأَفْعَالٍ وَصُورَةٍ
 مِزَاجِيَّةٍ تَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ فِعْلًا طَبِيعِيًّا فَتَصِيرُهُ وَتَقْبَلُهُ إِلَى صُورَتِهَا وَالْفِعْلُ الصَّنَاعِيُّ مُسَبِّقٌ
 بِتَصَوُّرَاتِ أَحْوَالِ الطَّبِيعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ الَّتِي يَقْصِدُ مُسَاوِقَتَهَا أَوْ مُحَاذَاتِهَا أَوْ فِعْلَ الْمَادَّةِ
 ذَاتِ الْقُوَى فِيهَا تَصَوُّرًا مُفَصَّلًا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ لَا نِهَابَةَ لَهَا وَالْعِلْمُ
 الْبَشَرِيُّ عَاجِزٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِمَا دُونَهَا وَهُوَ بِمِثَابَةٍ مَنْ يَقْصِدُ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانَ
 أَوْ نَبَاتٍ هَذَا مُحْتَمَلٌ هَذَا الْبُرْهَانُ وَهُوَ أَوْثَقُ مَا عَلِمْتُهُ وَلَيْسَتْ الْإِسْتِحَالَةُ فِيهِ مِنْ جِهَةٍ
 الْفُصُولُ كَمَا رَأَيْتُهُ وَلَا مِنَ الطَّبِيعَةِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعَذُّرِ الْإِحَاطَةِ وَقُصُورِ الْبَشَرِ عَنْهَا
 وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سِينَا بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ فِي الْإِسْتِحَالَةِ مِنْ جِهَةٍ غَابَتْ وَذَلِكَ
 أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي الْحَجَرَيْنِ وَتَدْوَرُّهُمَا أَنَّهُمَا قِيمٌ لِمَكَايِبِ النَّاسِ وَمُتَمَوِّلَاتِهِمْ
 فَلَوْ حَصَلَ عَلَيْهِمَا بِالصَّنْعَةِ لَبَطَلَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ وَكَثُرَ وَجُودُهُمَا حَتَّى لَا يَحْصَلَ
 أَحَدٌ مِنْ أَفْتِنَائِهِمَا عَلَى شَيْءٍ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ أَيْضًا وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تَتْرُكُ
 أَقْرَبَ الطَّرِيقِ فِي أَفْعَالِهَا وَتَرْتَكِبُ الْأَعْوَصَ وَالْأَبْعَدَ فَلَوْ كَانَ هَذَا الطَّرِيقُ الصَّنَاعِيُّ
 الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَحِيحٌ وَأَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقِ الطَّبِيعَةِ فِي مَعْدِنِهَا أَوْ أَقْلُ زَمَانًا لَمَا تَرَكَتُهُ
 الطَّبِيعَةُ إِلَى طَرِيقِهَا الَّذِي سَلَكَتُهُ فِي كَوْنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَتَخْلِقُهُمَا وَأَمَّا تَشْبِيهُ
 الطُّفَرَاءِ هَذَا التَّدْبِيرَ بِمَا عَثَرَ عَلَيْهِ مِنْ مُفْرَدَاتِ الْأَمْثَالِ فِي الطَّبِيعَةِ كَالْقُرْبِ وَالْحُلِّ
 وَالْحَيَةِ وَتَخْلِيقِهَا فَأَمْرٌ صَحِيحٌ فِي هَذِهِ أَدَّى إِلَيْهِ الْعُثُورُ كَمَا زَعَمَ وَأَمَّا الْكِيمِيَاءُ فَلَمْ
 يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ أَهْلِ الْعَالَمِ أَنَّهُ عَثَرَ عَلَيْهَا وَلَا عَلَى طَرِيقِهَا وَمَا زَالَ مُتَحَلِّطُهَا يُخِيطُونَ

فِيهَا عَشَوَاءٌ إِلَى هَلُمَّ جَرًّا وَلَا يَظْفَرُونَ إِلَّا بِالْحِكَايَاتِ الْكَاذِبَةِ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ لَحَفِظَهُ عَنْهُ أَوْلَادُهُ أَوْ تَلْمِيزُهُ وَأَصْحَابُهُ وَتَوَقَّلَ فِي الْأَصْدِقَاءِ وَخَمِنَ تَصَدِيقَهُ مِجَّةُ الْعَمَلِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ إِلَيْنَا وَإِلَى غَيْرِنَا. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِكْسِيرَ بِمَثَابَةِ الْخَمِيرَةِ وَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ يُجْعَلُ مَا يَحْصُلُ فِيهِ وَيَقَابِلُهُ إِلَى ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَمِيرَةَ إِنَّمَا تُقَلِّبُ الْعَجِينَ وَتُعِدُّهُ لِلْهَضْمِ وَهُوَ فَسَادٌ وَالْفَسَادُ فِي الْمَوَادِّ سَهْلٌ يَقَعُ بِأَيِّسَرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالطَّبَائِعِ وَالْمَطْلُوبُ بِالْإِكْسِيرِ قَلْبُ الْمَعْدِنِ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى فَهُوَ تَكْوِينُ وَصَلَاحُ وَالتَّكْوِينُ أَضْعَبُ مِنَ الْفَسَادِ فَلَا يُقَاسُ الْإِكْسِيرُ بِالْخَمِيرَةِ وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكَيْدِيَاءَ إِنْ صَحَّ وَجُودُهَا كَمَا تَزْعُمُ الْحُكَمَاةُ الْمُسْكَلَمُونَ فِيهَا مِثْلُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْعَجْرَبُطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ فَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ الصَّنَائِعِ الطَّبِيعِيَّةِ وَلَا تَتِمُّ بِأَمْرِ صِنَاعِيٍّ وَلَيْسَ كَلَامُهُمْ فِيهَا مِنْ مَتْنِ الطَّبِيعِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَتْنِ كَلَامِهِمْ فِي الْأُمُورِ التَّخَرِيَّةِ وَسَائِرِ اخْوَارِقِ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلْحَلَّاجِ وَغَيْرِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ مَا يُشَبِّهُ ذَلِكَ وَكَلَامُهُ فِيهَا فِي كِتَابِ زُبَّةِ الْحَكِيمِ مِنْ هَذَا الْمَتْنِ وَهَذَا كَلَامُ جَابِرٍ فِي رَهَائِلِهِ وَنَحْوُ كَلَامِهِمْ فِيهِ مَعْرُوفٌ وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى مُرَاجَعِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَمَّا عِنْدَهُمْ مِنْ كَلِمَاتِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ عَنْ حُكْمِ الصَّنَائِعِ فَكَمَا لَا يَتَدَبَّرُ مَا مِنْهُ الْخَشَبُ وَالْحَيَوَانُ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ خَشَبًا أَوْ حَيَوَانًا فِيمَا عَدَا تَجَرُّى تَغْلِيْقِهِ كَذَلِكَ لَا يَتَدَبَّرُ ذَهَبٌ مِنْ مَادَّةِ الذَّهَبِ فِي يَوْمٍ وَلَا شَهْرٍ وَلَا يَتَغَيَّرُ طَرِيقُ عَادَتِهِ إِلَّا بِإِزْفَادِ مَا وَرَاءَ عَالَمِ الطَّبَائِعِ وَعَمَلِ الصَّنَائِعِ فَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ الْكَيْمِيَاءَ طَلَبًا صِنَاعِيًّا ضَيَّعَ مَالَهُ وَعَمَلَهُ وَيُقَالُ لِهَذَا التَّدْبِيرِ الصِّنَاعِيِّ التَّدْبِيرُ الْعَقِيمُ لِأَنَّهُ نِيلُهُ إِنْ كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ وَافِعٌ مِمَّا وَرَاءَ الطَّبَائِعِ وَالصَّنَائِعِ كَالشَّيْءِ عَلَى الْمَاءِ وَامْتِطَاءِ الْهَوَاءِ وَالتَّفُوُّدِ فِي كَثَائِفِ الْأَجْسَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ أَوْ مِثْلِ تَغْلِيْقِ الطَّيْرِ وَنَحْوِهَا مِنْ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ تَعَالَى وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهِ فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَعَلَى ذَلِكَ فَسَبِيلُ تَبْسِيرِهَا مُخْتَلَفٌ بِمَحَسَبِ حَالِ مَنْ يُؤْتَاهَا فَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَيُؤْتِيَهَا غَيْرُهُ فَتَكُونُ عِنْدَهُ مُعَارَةً وَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَلَا يَمْلِكُ إِيْتَاءَهَا فَلَا تَتِمُّ فِي يَدِ غَيْرِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَكُونُ عَمَلُهَا سَجَرِيًّا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَقَعُ بِتَأْثِيرَاتِ النَّفُوسِ وَخَوَارِقِ الْعَادَةِ إِمَّا مُعْجَزَةً أَوْ

سِعْرًا وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُ الْحُكَمَاءِ كُلِّهِمْ فِيهَا إِغْزَالًا لَا يَطْفَرُ بِحَقِيقَتِهِ إِلَّا مَنْ خَاضَ لُجَّةَ
 مِنْ عِلْمِ السِّعْرِ وَأَطْلَعَ عَلَى تَصَرُّفَاتِ النَّفْسِ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ وَأُمُورِ خَرْقِ الْعَادَةِ غَيْرُ
 مُنْخَصِرَةٍ وَلَا يَقْصِدُ أَحَدٌ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى
 التَّمَسُّكِ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ وَاتِّحَالُهَا هُوَ كَمَا قُلْنَا هُوَ الْعَجْزُ عَنِ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ
 وَابْتِغَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ وَجُوهِهِ الطَّبِيعِيَّةُ كَالْفَلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ فَبِتَّصِيبِ الْعَاجِزِ
 ابْتِغَاءُهُ مِنْ هَذِهِ وَيَرْوِمُ الْحُصُولَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ دَفْعَةً يَوْجُوهَ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ
 مِنَ الْكَيْمِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَأَكْثَرُ مَنْ يُعْنَى بِذَلِكَ الْفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ حَتَّى فِي الْحُكَمَاءِ
 الْمُتَكَلِّمِينَ فِي إِنْكَارِهَا وَاسْتِحَالَتِهَا فَإِنَّ ابْنَ سِينَا الْقَائِلَ بِاسْتِحَالَتِهَا كَانَ عَلَيْهِ الْوُزَرَاءُ
 فَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ وَالْفَرَاقِي الْقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ الَّذِينَ يُعَوِّزُهُمْ
 أَدَبُ بُلْغَةٍ مِنَ الْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ وَهَذِهِ تَهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ النَّفُوسِ الْمُوَلَّعَةِ بِطَرَفِهَا
 وَاتِّحَالِهَا وَاللَّهُ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع والعشرون

في ان كثرة التأليف في العلوم عاتقة عن التحصيل

إِعْلَمَ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَّ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْوُقُوفِ عَلَى غَايَتِهِ كَثْرَةُ التَّأْلِيفِ
 وَاخْتِلَافُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَتَعَدُّ طُرُقِهَا ثُمَّ مَطَالَبَةُ الْمُتَعَلِّمِ وَالتَّلْمِيزُ بِاسْتِخْضَارِ
 ذَلِكَ وَحِينَئِذٍ يُسَأَلُ لَهُ مَنَصِبُ التَّحْصِيلِ فَيَحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهَا كُلِّهَا أَذَا كَثُرَتْ
 وَمُرَاعَاةِ طُرُقِهَا وَلَا يَبْقَى عُمْرُهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا تَجَرَّدَ لَهَا فَبَقِيَ الْقُصُورُ وَلَا
 بُدَّ دُونَ رُتْبَةِ التَّحْصِيلِ وَيُمَثِّلُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْفِقْهِ فِي الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ بِالْكَتُبِ
 الْمُدَوَّنَةِ مَثَلًا وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّرُوحَاتِ الْفِقْهِيَّةِ مِثْلَ كِتَابِ ابْنِ يُونُسَ وَاللُّغَمِيِّ
 وَابْنِ بَشِيرٍ وَالتَّنْبِيهَاتِ وَالْمَقْدَّمَاتِ وَالْبَيَانِ وَالتَّحْصِيلِ عَلَى الْعَتَبِيَّةِ وَكَذَلِكَ كِتَابُ ابْنِ
 الْحَاجِبِ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَمْيِيزِ الطَّرِيقَةِ الْفَيْرَوَانِيَّةِ مِنَ الْقُرْطُوبِيَّةِ
 وَالْبَغْدَادِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ وَطُرُقِ الْمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُمْ وَالْإِحَاطَةَ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَحِينَئِذٍ يُسَلَّمُ
 لَهُ مَنَصِبُ الْفَتْيَا وَهِيَ كُلُّهَا مُتَكَرِّرَةٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَالْمُتَعَلِّمُ مُطَالِبٌ بِاسْتِخْضَارِ جَمِيعِهَا
 وَتَمْيِيزِ مَا يَتَنَبَّهُ وَالْعُمُرُ يَنْقُضُ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا وَلَوْ أَقْتَصَرَ الْمُتَعَلِّمُونَ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى
 الْمَسَائِلِ الْمَذْهَبِيَّةِ فَقَطْ لَكُنَ الْأَمْرُ دُونَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ وَكَانَ التَّعْلِيمُ سَهْلًا وَمَا خَذَهُ

قريباً ولكِنَّه داء لا يرتفع لاستمرار العوائد عليه فصارت كالتبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحوِيلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك كيف يطالب به المتعلم ويتقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هاشم ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسبويه وابن جني وأهل طبقتيها لعظم ما مكنته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتقاربه وحسن تصرفه فيه ودل على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات وسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

الفصل الثامن والعشرون

في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والانتحاء في العلوم يؤمنون بها ويدعون منها برزائماً مختصراً في كل علم يشتمل على حفر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فأختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية والخوشجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتديء بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سبأني ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بمتبع الفاظ الاختصار العويضة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل

مِنْ يَنْبَغُ لَأَنَّ الْفَاطَ الْمُخْتَصَرَاتِ تَجِدُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ صَعْبَةً عَوِيسَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حَظٌ
صَالِحٌ عَنِ الْوَقْتِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَالْمَلَكَةُ الْخَاصَّةُ مِنَ التَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ الْمُخْتَصَرَاتِ إِذَا
تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقِبْهُ آفَةٌ فِيهِ مَلَكَةٌ فَاصِرَةٌ عَنِ الْمَلَكَاتِ الَّتِي تَحْصُلُ مِنْ
الْمَوْضُوعَاتِ الْبَسِيطَةِ الْمُطَوَّلَةِ بِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِي تِلْكَ مِنَ التَّكْرَارِ وَالْإِحَالَةِ الْمُفِيدِينَ
لِحُصُولِ الْمَلَكَةِ النَّامَةِ وَإِذَا اقْتَصِرَ عَلَى التَّكْرَارِ قَصُرَتْ الْمَلَكَةُ لِقَلَّتِ كَشَافَةُ
هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُخْتَصَرَةِ فَقَصَدُوا إِلَى تَسْهِيلِ الْخِفْظِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرْكَبُوهُمْ صَعْبًا
يَقْطَعُهُمْ عَنِ تَحْصِيلِ الْمَلَكَاتِ النَّافِعَةِ وَتَمَكُّنِهَا وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ
يُضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

اعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى التَّدْرِيجِ شَيْئًا
فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا يُلْقَى عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذَلِكَ الْبَابِ
وَيُقَرَّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَيُرَاعَى فِي ذَلِكَ قُوَّةُ عَقْلِهِ وَاسْتِعْدَادُهُ لِقَبُولِ
مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ
إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ وَغَائِبَتُهَا أَنَّهَا هِيَ أَهْمُ الْفَنِّ وَتَحْصِيلُ مَسَائِلِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ
إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي التَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ الرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي الشَّرْحَ
وَالْبَيَانَ وَيَخْرُجُ عَنِ الْإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ
يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَتَجُودُ مَلَكَتُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَّ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيسًا وَلَا مَهْمًا
وَلَا مُغْلَقًا إِلَّا وَضَحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدْ اسْتَوْفَى عَلَى مَلَكَتِهِ هَذَا
وَجْهَ التَّعْلِيمِ الْمُفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكَرُّرَاتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ الْبَعْضُ
فِي أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخَلِّقُ لَهُ وَيَتَّبَسَّرُ عَلَيْهِ وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ
لِهَذَا الْعَمْدِ الَّذِي أَدْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ التَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ وَيُحْضِرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ
تَعْلِيمِهِ الْمَسَائِلَ الْمُقْفَلَةَ مِنَ الْعِلْمِ وَيُطَالِبُونَهُ بِإِحْضَارِ ذَهْنِهِ فِي حَلِّهَا وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ
مِرَاتًا عَلَى التَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ رَعْيَ ذَلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْلِطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ
لَهُ مِنْ غَايَاتِ الْفُنُونِ فِي مَبَادِيهَا وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنْ قَبُولَ الْعِلْمِ وَالِاسْتِعْدَادَاتِ

لِتَهْمِهِ تَنْشَأَ تَدْرِيجًا وَيَكُونُ الْمُتَعَلِّمُ أَوَّلَ الْأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ الْفَهْمِ بِالْجُمْلَةِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ
وَعَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ وَالْإِجْمَالِ وَالْأَمْثَالِ الْحَسِبَةِ ثُمَّ لَا يَزَالُ الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِ
بِتَدَرُّجٍ قَلِيلًا قَلِيلًا بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَكَرُّرِهَا عَلَيْهِ وَالْإِسْتِعْدَادُ ثُمَّ فِي
الْتَحْصِيلِ وَيُعِيطُ هُوَ بِمَسَائِلِ الْفَنِّ وَإِذَا أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْغَايَاتُ فِي الْبِدَائِاتِ وَهُوَ حِينَئِذٍ
عَاجِزٌ عَنِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَبَعِيدٌ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ لَهُ كُلُّ ذِمَّتِهِ عَنْهَا وَحَسِبَ ذَلِكَ مِنْ
صُعُوبَةِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ فَكَاسَلَ عَنْهُ وَانْحَرَفَ عَنْ قَبُولِهِ وَتَمَادَى فِي هُجْرَانِهِ وَإِنَّمَا أَتَى
ذَلِكَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ أَنْ يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ ثَلَاثَ فَنِّمْ كِتَابِهِ الَّذِي أَكَبَّ
عَلَى التَّعْلِيمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ مُبْتَدِئًا كَانَ أَوْ مُتَتَبِعًا وَلَا يَخْلُطُ
مَسَائِلَ الْكِتَابِ بِغَيْرِهَا حَتَّى يَبْعَثَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيُحْصِلَ أَغْرَاضَهُ وَيَسْتَوِلِي مِنْهُ
عَلَى مَلَكَتِهَا يَنْفُذُ فِي غَيْرِهِ لِأَنَّ الْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَلَ مَلَكَتَهُ مَا فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ
اسْتَعَدَّ بِهَا لِإِقْبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ نَشَاطٌ فِي طَلَبِ الزَّيْدِ وَالنَّهْضِ إِلَى مَا فَوْقَ حَتَّى
يَسْتَوِلِي عَلَى غَايَاتِ الْعِلْمِ وَإِذَا خَاطَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ عَجِزَ عَنِ الْفَهْمِ وَأَدْرَكَهُ الْكَلَالُ
وَأَطْلَسَ فِكْرُهُ وَيَشْنُ مِنَ الْتَحْصِيلِ وَهَجَرَ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَكَذَلِكَ
يَنْبَغِي لَكَ أَنْ لَا تُطَوِّلَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ فِي الْفَنِّ الْوَاحِدِ بِتَفْرِيقِ الْعَجَائِلِ وَتَقْطِيعِ مَا
بَيْنَهَا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى النِّسْبَانِ وَانْقِطَاعِ مَسَائِلِ الْفَنِّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَيَقْسُرُ حُصُولُ
الْمَلَكَتِ بِتَفْرِيقِهَا وَإِذَا كَانَتْ أَوَائِلُ الْعِلْمِ وَأَوَاخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ الْفِكْرَةِ نَجَانِيَّةً
لِلنِّسْبَانِ كَانَتْ الْمَلَكَتُ أَيْسَرَ حُصُولًا وَأَحْكَمَ ارْتِبَاطًا وَأَقْرَبَ صِبْغَةً لِأَنَّ الْمَلَكَاتِ
إِنَّمَا تُحْصَلُ بِتَتَابُعِ الْفِعْلِ وَتَكَرُّرِهِ وَإِذَا تُنَوِّسِي الْفِعْلَ تُنَوِّسِي الْمَلَكَتُ النَّاشِئَةَ عَنْهُ
وَاللَّهُ عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ وَمِنْ الْمَذَاهِبِ الْجَمِيلَةِ وَالطَّرِيقِ الْوَاجِبَةِ فِي
التَّعْلِيمِ أَنْ لَا يَخْلُطَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ عِلْمَانِ مَعًا فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَنْظُرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا
فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْبَالِ وَأَنْصِرَافِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفْهَمِ الْآخَرِ فَيَسْتَخْلِقَانِ مَعًا
وَيَسْتَضَعِبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِالْخَبِيَةِ وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفِكْرُ لِلتَّعْلِيمِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ
فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ لِتَحْصِيلِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْوُفْقُ لِلصَّوَابِ . وَأَعْلَمُ أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ
أَنِّي أَتَيْتُكَ بِفَائِدَةٍ فِي تَعْلِيمِكَ فَإِنْ تَلَقَّيْتَهَا بِالْقَبُولِ وَأَمْسَكْتَهَا بِبِيَدِ الصَّنَاعَةِ ظَفِرْتَ
بِكُنْزٍ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ وَأَقْدَمُ لَكَ مُقَدِّمَةٌ تُعِينُكَ فِي فَهْمِهَا وَدَلِيلٌ أَنَّ الْفِكْرَ

الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلًا بأن يتوجه إلى المطلوب وقد يصور طرفيه يزوم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان واحدًا أو ينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعددًا وبصير إلى الظن بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطائه وأنها وإن كان الصواب لها ذاتيًا إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتيهما من اشتباه المبادئ في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض فالمنطق إذا أمر صناعي مساق للطبيعة الفكرية ومنطوق على صورة فعلها ولكونه أمرًا صناعيًا استغني عنه في الأكثر ولذلك تجد كثيرًا من فعول النظار في الخليفة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فإن ذلك أعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودالاتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك فأول دالة الكتابية المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخذها ثم دالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قواها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني مجردة في الفكر اشتراطًا يقتضيه بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعلم بسهولة بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكذ يتخلص من تلك الغمرة إلا قليل ممن هداه الله فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو

تَشْغِيبُ الشُّبُهَاتِ فِي ذِهْنِكَ فَأُطْرَحَ ذَلِكَ وَاتَّبَذَ حُجُبَ الْأَلْفَاظِ وَعَوَائِقَ الشُّبُهَاتِ
وَأَتْرَكَ الْأَمْرَ الصَّنَاعِيَّ جُمْلَةً وَأَخْلَصَ إِلَى فِضَاءِ الْفِكْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي فَطَرَتْ عَلَيْهِ
وَسَرَّحَ نَظْرَكَ فِيهِ وَقَرَّخَ ذِهْنَكَ فِيهِ لِلْفَوْصِ عَلَى مَرَامِكَ مِنْهُ وَاضِعًا لَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا
أَكْبَرُ النَّظَارِ قَبْلَكَ مُسْتَعْرِضًا لِلْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ كَمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذِهْنِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ الْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ
بِالْظَّفَرِ بِمَطْلُوبِكَ وَحَصَلَ الْإِمَامُ الْوَسْطُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ هَذَا الْفِكْرِ
وَنَظَرِهِ عَلَيْهِ كَمَا قُلْنَا هُوَ وَحِينَئِذٍ فَارْجِعْ بِهِ إِلَى قَوَالِبِ الْأَدِلَّةِ وَصُورِهَا فَأَفْرِغْ فِيهَا
وَوَفِّهِ حَقَّهُ مِنَ الْقَانُونِ الصَّنَاعِيِّ ثُمَّ أَمْكِسْهُ صُورَ الْأَلْفَاظِ وَأَبْرِزْهُ إِلَى عَالَمِ الْخُطَابِ
وَالْمُشَافَهَةِ وَثَبِّتِ الْعُرَى صَحِيحَ الْبَيَانِ وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ الْمُنَاقَشَةِ وَالشُّبُهَةِ فِي الْأَدِلَّةِ
الصَّنَاعِيَّةِ وَتَخَيَّصِ صَوَابَهَا مِنْ خَطَائِهَا وَهَذِهِ أُمُورٌ صِنَاعِيَّةٌ وَضَعِيَّةٌ تَسْتَوِي جِهَاتُهَا
الْمُتَعَدِّدَةُ وَتَنْشَأُ لِأَجْلِ الْوَضْعِ وَالِإِضْطِلَاحِ فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةٌ الْحَقِّ مِنْهَا إِذْ جِهَةٌ
الْحَقِّ إِنَّمَا تَسْتَبِينُ إِذَا كَانَتْ بِالطَّبِيعِ فَيَسْتَمِرُّ مَا حَصَلَ مِنَ الشَّكِّ وَالِإِزْتِيَابِ وَتُسَدَّلُ
الْحُجُبُ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَتَقْعُدُ بِالنَّظَرِ عَنْ تَحْصِيلِهِ وَهَذَا شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ النَّظَارِ
وَالْمُتَأَخِّرِينَ سِيمَا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عَجْمَةٌ فِي لِسَانِهِ فَرَبَطَتْ عَنْ ذِهْنِهِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ شُغْبٌ
بِالْقَانُونِ الْمُنَطْقِيِّ تَعَصَّبَ لَهُ فَأَعْتَقَدَ أَنَّهُ الذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ بِالطَّبِيعِ فَيَقَعُ فِي
الْخَيْرَةِ بَيْنَ شُبُهَةِ الْأَدِلَّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا وَالذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ
بِالطَّبِيعِ إِنَّمَا هُوَ الْفِكْرُ الطَّبِيعِيُّ كَمَا قُلْنَا إِذَا جُرِدَ عَنْ جَمِيعِ الْأَوْهَامِ وَتَعَرَّضَ النَّظَرُ
فِيهِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الْمُنَطِقُ فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِفِعْلِ هَذَا الْفِكْرِ فَيُسَاوِفُهُ
فِي الْأَكْثَرِ فَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ وَاسْتَمِطِرْ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى مَتَى أَعُوْزَكَ فَهَمْ الْمَسَائِلِ
تُشْرِقُ عَلَيْكَ أَنْوَارُهُ بِإِلَهِامٍ إِلَى الصَّوَابِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى رَحْمَتِهِ وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

الفصل الثلاثون

فِي أَنَّ الْعُلُومَ الْإِلَهِيَّةَ لَا تَوْسِعُ فِيهَا الْإِنْتَظَارُ وَلَا تَفْرَعُ الْمَسَائِلُ
إِعْلَامٌ أَنَّ الْعُلُومَ الْمُتَعَارِفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ عُلُومٌ مَقْصُودَةٌ بِالذَّاتِ
كَالشَّرْعِيَّاتِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَعِلْمُ الْكَلَامِ وَكَالطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ

من الفلسفة وعلوم هي وسيلة الآلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات
 كالمنطقي للفلسفة وربما كان آلة اعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين
 فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرع المسائل
 واستكشاف الأدلة والأنظار فإن ذلك يزيد طالبيها تسكناً في ملكته وإيضاحاً
 لمعانيها المقصودة وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطقي وأمثالها فلا
 ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا
 تفرع المسائل لأن ذلك يخرج لها عن المقصود إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير
 فكُلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه
 من صعوبة الحصول على ملكيتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائداً عن
 تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن
 تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر
 وشغلاً بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحوي وصناعة المنطقي وأصول
 الفقه لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما
 أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها أنظار لا حاجة بها في
 العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضاً مضرّة بالمُتعلِّمين على الإطلاق لأن
 المُتعلِّمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا
 العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد فهذا يجب على المُتعلِّمين لهذه
 العلوم الآلية أن لا يستجروا في شأنها وينبهوا المُتعلِّم على الغرض منها ويقفوا به عنده
 فمن نزعته به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل فليرق له ما شاء من المراقبي صعباً
 أو سهلاً وكل مبسر لما خلق له

الفصل الواحد والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه
 اعلم ان تعليم الولدان للقرآن شعار الدين اخذ به اهل العيلة ودرجوا عليه
 في جميع امصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رُسوخ الايمان وعقائده من
 آيات القرآن وبعض مشون الاحاديث وصار القرآن اصل التعليم الذي ينبنى عليه

مَا يَحْصُلُ بَعْدَ مِنَ الْمَلَكَاتِ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ التَّعْلِيمَ فِي الصِّغَرِ أَشَدُّ رُسُوخًا وَهُوَ
 أَصْلُ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ السَّابِقَ الْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ وَعَلَى حَسَبِ الْأَسَاسِ
 وَأَسَالِيهِ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَنْبَغِي عَلَيْهِ وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِلْوِلْدَانِ
 وَاخْتِلَافُهُمْ بِاعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ مِنَ الْمَلَكَاتِ فَأَمَّا أَهْلُ الْمَغْرِبِ
 فَمَذْهَبُهُمْ فِي الْوِلْدَانِ الْإِقْتِصَارُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ فَقَطْ وَأَخَذَهُمْ أَثْنَاءَ الْمُدَاسَّةِ
 بِالرَّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَاخْتِلَافِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلُطُونَ ذَلِكَ بِسِوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ
 مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فِقْهِ وَلَا مِنْ شِعْرِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَى أَنْ
 يَخْلُقَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ انْقِطَاعُهُ فِي الْغَالِبِ انْقِطَاعًا عَنِ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ وَهَذَا
 مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُرَى الْبَرَبْرِ أُمَمِ الْمَغْرِبِ فِي وَلَدَانِهِمْ
 إِلَى أَنْ يَجَاوِزُوا حَدَّ الْبُلُوغِ إِلَى الشَّبَابَةِ وَكَذَا فِي الْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ مُدَاسَّةَ الْقُرْآنِ
 يَعُدُّ طَائِفَةً مِنْ عُمُرِهِ فَهُمْ لِذَلِكَ أَقْوَمُ عَلَى رَسْمِ الْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّا أَهْلُ
 الْأَنْدَلُسِ فَمَذْهَبُهُمْ تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُرَاعُونَهُ فِي
 التَّعْلِيمِ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَصْلَ ذَلِكَ وَأَسَسَهُ وَمَنْبَعِ الدِّينِ وَالْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَصْلًا
 فِي التَّعْلِيمِ فَلَا يَقْتَصِرُونَ لِذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَطْ بَلْ يَخْلُطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ رِوَايَةَ الشِّعْرِ
 فِي الْغَالِبِ وَالتَّرْسُلَ وَأَخَذَهُمْ بِقَوَائِنِ الْعَرَبِيَّةِ وَحِفْظِهَا وَتَجْوِيدِ الْخَطِّ وَالْكِتَابِ وَلَا
 تَخْتَصُّ عِنَابَتَهُمْ فِيهِ بِالْخَطِّ أَكْثَرُ مِنْ جَمِيعِهَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْوَلَدُ مِنْ عُمُرِ الْبُلُوغِ إِلَى
 الشَّبَابَةِ وَقَدْ شَدَّ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ وَالْبَصْرِ بِهِمَا وَبَرَزَ فِي الْخَطِّ وَالْكِتَابِ
 وَتَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ الْعِلْمِ عَلَى الْجُمْلَةِ لَوْ كَانَ فِيهَا سَنَدٌ لِتَعْلِيمِ الْعُلُومِ لَكِنَّهُمْ يَنْقَطِعُونَ عَنْ
 ذَلِكَ لِانْقِطَاعِ سَنَدِ التَّعْلِيمِ فِي آفَاقِهِمْ وَلَا يَحْصُلُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ
 التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَفِيهِ كِفَايَةُ لِمَنْ أَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاسْتَعْدَادٌ إِذَا وَجِدَ الْمُعَلِّمُ وَأَمَّا
 أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةٍ فَيَخْلُطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ الْقُرْآنَ بِالْحَدِيثِ فِي الْغَالِبِ وَمُدَاسَّةَ قَوَائِنِ
 الْعُلُومِ وَتَلْقِينَ بَعْضَ مَسَائِلِهَا إِلَّا أَنَّ عِنَابَتَهُمْ بِالْقُرْآنِ وَاسْتِنْظَارَ الْوِلْدَانِ إِيَّاهُ وَوُقُوفَهُمْ
 عَلَى اخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِ وَقِرَاءَاتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهُ وَعِنَابَتَهُمْ بِالْخَطِّ تَبَعٌ لِذَلِكَ وَبِالْجُمْلَةِ
 قَطَرِيَّتُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ أَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَاسْتَقَرُّوا بِثَوْنِسَ وَعَنْتَهُمْ
 أَخَذَ وَلَدَانَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ فَيَخْلُطُونَ فِي التَّعْلِيمِ كَذَلِكَ عَلَى مَا يَبْلُغُنَا

وَلَا أُدْرِي بِمَ عِنَابَتِهِمْ مِنْهَا وَالَّذِي يُنْقَلُ لَنَا أَنَّ عِنَابَتَهُمْ بِدِرَاسَةِ الْقُرْآنِ وَصُحُفِ الْعِلْمِ
وَقَوَائِينِهِ فِي زَمَنِ الشَّيْبَةِ وَلَا يُخَاطَبُونَ بِتَعْلِيمِ الْخَطِّ بَلْ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ عِنْدَهُمْ قَانُونٌ
وَمُعَلِّمُونَ لَهُ عَلَى انْفِرَادِهِ كَمَا تُتَعَلَّمُ سَائِرُ الصَّنَائِعِ وَلَا يَتَدَاوَلُونَهَا فِي مَكَاتِبِ الصِّبْيَانِ وَإِذَا
كَتَبُوا لَهُمُ الْأَلْوَاحَ فَبِخَطِّ قَاصِرٍ عَنِ الْإِجَادَةِ وَمَنْ أَرَادَ تَعْلَمَ الْخَطَّ فَعَلَى قَدَرٍ مَا يَسْنَعُ
لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ الْهِمَّةِ فِي طَلَبِهِ وَبِتَغْيِيهِ مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ فَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ
فَأَفَادَهُمُ الْإِقْتِصَارُ عَلَى الْقُرْآنِ الْقُصُورَ عَنْ مَلَكََةِ اللِّسَانِ جُمْلَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا
يَنْشَأُ عَنْهُ فِي الْغَالِبِ مَلَكََةٌ لِمَا أَنَّ الْبَشَرَ مَصْرُوفُونَ عَنِ الْإِثْبَانِ بِمِثْلِهِ فَهُمْ مَصْرُوفُونَ
لِذَلِكَ عَنِ الْأَسْتِعْمَالِ عَلَى أَسَالِيْبِهِ وَالْإِحْتِدَاءِ بِهَا وَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكََةٌ فِي غَيْرِ أَسَالِيْبِهِ
فَلَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكََةٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحَظُّهُ الْجُمُودُ فِي الْعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ التَّصَرُّفِ
فِي الْكَلَامِ وَزَبْمًا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ فِي ذَلِكَ أَخَفَّ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِمَا يَخْلَطُونَ
فِي تَعْلِيمِهِمُ الْقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ الْعُلُومِ فِي قَوَائِينِهَا كَمَا قُلْنَا هُفَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ
النَّصْرِفِ وَمُحَاذَاةِ الْمَثَلِ بِالْمَثَلِ إِلَّا أَنَّ مَلَكََتَهُمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ الْبَلَاغَةِ كَمَا
سَيَأْتِي فِي فَصْلِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَفَادَهُمُ التَّفَنُّنُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثْرَةُ رِوَايَةِ الشِّعْرِ
وَالْتَّرْسُلُ وَمُدَارَسَةُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ الْعُمُرِ حُصُولَ مَلَكََةِ صَارُوا بِهَا أَعْرَفَ فِي
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَقَصَّروا فِي سَائِرِ الْعُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ مُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ
أَصْلُ الْعُلُومِ وَأَسَاسُهَا فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حَظٍّ وَأَدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقَصِّرٍ عَلَى حَسَبِ مَا
يَكُونُ التَّعْلِيمُ الثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ الصَّبِيِّ وَلَقَدْ ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي
كِتَابِ رَحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةِ غَرِيبَةٍ فِي وَجْهِ التَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيمَ
الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ قَالَ لِأَنَّ الشِّعْرَ دِيْوَانُ
الْعَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ ضَرُورَةٌ فَسَادَ اللُّغَةِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ
إِلَى الْحِسَابِ فَيَتِمَّرُنْ فِيهِ حَتَّى يَرَى الْقَوَائِينَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرَسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَّبَسَّرُ
عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْمَقْدَمَةِ ثُمَّ قَالَ وَيَا غَفْلَةَ أَهْلِ بِلَادِنَا فِي أَنْ يُؤْخَذَ الصَّبِيُّ بِكِتَابِ اللَّهِ فِي
أَوَامِرِهِ يَقْرَأُ مَا لَا يَفْهَمُ وَيَنْصَبُ فِي أَمْرِ غَيْرِهِ أَهْمٌ مَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَنْظُرُ فِي أُصُولِ
الدِّينِ ثُمَّ أُصُولِ الْفِقْهِ ثُمَّ الْجَدَلِ ثُمَّ الْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَخْلَطَ فِي التَّعْلِيمِ
عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُتَعَلِّمُ قَابِلًا لِذَلِكَ بِجُودَةِ الْفَهْمِ وَالنَّشَاطِ هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي

أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ لَعَمْرِي مَذْهَبٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّ الْعَوَائِدَ لَا تُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَهِيَ أَمْلَكُ
بِالْأَحْوَالِ وَوَجْهٌ مَا اخْتَصَّتْ بِهِ الْعَوَائِدُ مِنْ تَقَدُّمِ دِرَاسَةِ الْقُرْآنِ إِشَارًا لِاتِّبَارِكِ وَالْثَوَابِ
وَخَشْيَةِ مَا يَعْزِضُ لِلْوَلَدِ فِي جُنُونِ السَّيِّئِ مِنَ الْآفَاتِ وَالْقَوَاطِعِ عَنِ الْعِلْمِ فَيَفُوتُهُ الْقُرْآنُ
لَأَنَّهُ مَا دَامَ فِي الْحَجْرِ مُنْقَادٌ لِلْحُكْمِ فَإِذَا تَجَاوَزَ الْبُلُوغَ وَانْحَلَّ مِنْ رِبْقَةِ الْقَهْرِ فَرُبَّمَا
عَصَفَتْ بِهِ رِيَاخُ الشَّيْبَةِ فَأَلْفَتْهُ بِسَاحِلِ الْبَطَالَةِ فَيَغْتَسِمُونَ فِي زَمَانِ الْحَجْرِ وَرِبْقَةِ
الْحُكْمِ تَحْصِيلَ الْقُرْآنِ لِئَلَّا يَذْهَبَ خُلُوعًا مِنْهُ وَلَوْ حَصَلَ الْيَقِينُ بِاسْتِمْرَارِهِ فِي طَلَبِ
الْعِلْمِ وَقَبُولِهِ التَّعْلِيمِ لَكَانَ هَذَا الْمَذْهَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَوَّلَى مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ
الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَتَعَكَّمُ مَا يَشَاءُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثاني والثلاثون

في ان الشدة على المتعلمين مضره بهم

وَذَلِكَ أَنَّ إِزْهَافَ الْخَدِّ بِالتَّعْلِيمِ مُضِرٌّ بِالتَّعْلِيمِ سَيِّمًا فِي أَصَاغِرِ الْوَلَدِ لِأَنَّهُ مِنْ سُوءِ
الْمَلَكَةِ وَمَنْ كَانَ مَرْبَاهُ بِالْعَسْفِ وَالْقَهْرِ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ أَوْ الْمَمَالِكِ أَوْ الْخُدَمِ
سَطَا بِهِ الْقَهْرُ وَضَيَّقَ عَنِ النَّفْسِ فِي انْبِسَاطِهَا وَذَهَبَ بِنِسَاطِهَا وَدَعَاهُ إِلَى الْكَسَلِ وَحَمَلَ
عَلَى الْكَذِبِ وَالْخُبْثِ وَهُوَ الظَّاهِرُ بِغَيْرِ مَا فِي ضَمِيرِهِ خَوْفًا مِنْ انْبِسَاطِ الْأَيْدِي بِالْقَهْرِ
عَلَيْهِ وَعِلْمُهُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ لِذَلِكَ وَصَارَتْ لَهُ هَذِهِ عَادَةٌ وَخُلُقًا وَفَسَدَتْ مَعَانِي
الْإِنْسَانِيَةِ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ الْاجْتِمَاعُ وَالتَّمَرُّنُ وَهِيَ الْحِمِيَّةُ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْ نَفْسِهِ وَمَنْزِلِهِ
وَصَارَ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فِي ذَلِكَ بَلْ وَكَسَلَتِ النَّفْسُ عَنْ أَكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَالْخُلُقِ
الْجَمِيلِ فَأَنْقَبَضَتْ عَنْ غَايَتِهَا وَمَدَى إِنْسَانِيَّتِهَا فَازْتَكَسَتْ وَعَادَ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ وَهَذَا كَذَا
وَقَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَصَلَتْ فِي قَبْضَةِ الْقَهْرِ وَنَالَ مِنْهَا الْعَسْفُ وَاعْتَبَرَهُ فِي كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ
أَمْرَهُ عَلَيْهِ وَلَا تَكُونُ الْمَلَكَةُ الْكَافِلَةُ لَهُ رَفِيقَةً بِهِ وَتَجِدُ ذَلِكَ فِيهِمْ اسْتِقْرَاءً
وَأَنْظَرُهُ فِي الْيَهُودِ وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ السُّوءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يُوصَفُونَ فِي كُلِّ
أَفْقٍ وَعَصْرٍ بِالْحَرَجِ وَمَعْنَاهُ فِي الْأَصْطِلَاحِ الْمَشْهُورِ الثُّخَابُثُ وَالْكَيْدُ وَسَبَبُهُ مَا قُلْنَاهُ
فَيَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ فِي تَعْلِيمِهِ وَالْوَالِدِ فِي وَلَدِهِ أَنْ لَا يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِمَا فِي التَّأْدِيبِ وَقَدْ قَالَ
مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَلْفَهُ فِي حُكْمِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَالْمُعَلِّمِينَ لَا يَنْبَغِي
لِلْمُؤَدِّبِ الصِّبْيَانِ أَنْ يَزِيدَ فِي ضَرْبِهِمْ إِذَا اخْتَجَرُوا إِلَيْهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ شَيْئًا وَمِنْ

كَلَامِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ بِهِ الشَّرْعُ لَا أَدَبَهُ اللَّهُ حِرْصًا عَلَى صَوْنِ النَّفْسِ
عَنْ مَذَلَّةِ التَّأْدِيبِ وَعِلْمًا بِأَنَّ الْمِقْدَارَ الَّذِي عَيْنُهُ الشَّرْعُ لَذَلِكَ أَمْلَكَ لَهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ
بِمَصْلَحَتِهِ وَمِنْ أَحْسَنِ مَذَاهِبِ التَّعْلِيمِ مَا تَقَدَّمَ بِهِ الرَّشِيدُ لِعُلَمَائِهِ وَآلِهِ تَحْمِيدُ الْأَمِينِ
فَقَالَ يَا أَحْمَرُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مَعْجَةً نَفْسِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَصَيِّرْ بِذَلِكَ عَلَيْهِ
مَبْسُوطَةً وَطَاعَتَهُ لَكَ وَاجِبَةً وَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَفْرَنَهُ الْقُرْآنَ
وَعَرَفَهُ الْأَخْبَارَ وَرَوَاهُ الْأَشْعَارَ وَعَلِمَهُ السُّنَنَ وَبَصِّرَهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ وَبَدِئِهِ وَأَمْنَعَهُ
مِنَ الضَّحْكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشَائِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَرَفَعَ
مَجَالِسِ الْقَوَادِرِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ وَلَا تَمُرَنَّ بِكَ سَاعَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ مُغْتَنِمٌ فَائِدَةً تُبِيدُهُ
إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحْزِنَهُ فَتَمِيتَ ذَهْنَهُ وَلَا تُنَمِّنَ فِي مُسَاعَتِهِ فَيَسْتَجِلِّي الْفَرَاغَ وَيَأْلَهُ
وَقَوِّمُهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمَلَابَنَةِ فَإِنَّ أَبَاهَا فَعَلَيْكَ بِالشِّدَّةِ وَالْغِلَظَةِ انْتَهَى

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْبَشَرَ يَأْخُذُونَ بِمَعَارِفِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَمَا يَنْتَحِلُونَ بِهِ مِنْ
الْمَذَاهِبِ وَالْفَضَائِلِ تَارَةً عِلْمًا وَتَعْلِيمًا وَإِلْقَاءَ وَتَارَةً نَحَاكَةً وَتَأْقِينًا بِالْمُبَاشَرَةِ إِلَّا أَنَّ
حُصُولَ الْمَلَكَاتِ عَنِ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينِ أَشَدُّ اسْتِحْكَامًا وَأَقْوَى رُسُوخًا فَعَلَى قَدَرِ
كَثَرَةِ الشُّوْخِ يَكُونُ حُصُولُ الْمَلَكَاتِ وَرُسُوخُهَا وَالْإِصْطِلَاحَاتِ أَيْضًا فِي تَعْلِيمِ
الْعُلُومِ مُخْلَطَةً عَلَى الْمُتَعَلِّمِ حَتَّى لَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْعِلْمِ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ
ذَلِكَ إِلَّا مُبَاشَرَتَهُ لِاخْتِلَافِ الطَّرِيقِ فِيهَا مِنَ الْمُعَلِّمِينَ فَلِقَاءُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَتَعَدُّدُ الْمَشَائِخِ
يُفِيدُهُ تَمْيِيزَ الْإِصْطِلَاحَاتِ بِمَا يَرَاهُ مِنْ اخْتِلَافِ طُرُقِهِمْ فِيهَا فَيَجَرِّدُ الْعِلْمَ عَنْهَا وَيَعْلَمُ
أَنَّهَا أُنْحَاءُ تَعْلِيمٍ وَطُرُقُ نُوصِلُ وَتَنْهِيضُ قُوَاهُ إِلَى الرُّسُوخِ وَالْإِسْتِحْكَامِ فِي الْمَكَانِ
وَتَصَحُّحِ مَعَارِفِهِ وَتَمْيِيزِهَا عَنْ سَوَاهَا مَعَ تَقْوِيَةِ مَلَكَتِهِ بِالْمُبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينِ وَكَثَرَتِهَا
مِنَ الْمَشَيْخَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِمْ وَتَنَوُّعِهِمْ وَهَذَا لِمَنْ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ طُرُقَ الْعِلْمِ وَالْهُدَايَةَ
فَالرَّحْلَةَ لَا بَدَّ مِنْهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لَا كِتَابَ الْقَوَائِدِ وَالْكَمَالِ بِلِقَاءِ الْمَشَائِخِ وَمُبَاشَرَةِ
الرِّجَالِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الرابع والثلاثون

في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ النَّظَرَ الْفِكْرِيَّ وَالْفَوْضَ عَلَى الْمَعَانِي وَانْتِزَاعَهَا مِنَ الْحَسُوسَاتِ وَتَجَرِيدَهَا فِي الذِّهْنِ أُمُورًا كَلِمَةً عَامَةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ الْعُمُومِ لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جِيلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكُلِّيَّ عَلَى الْخَارِجِيَّاتِ وَأَيْضًا يَقِيسُونَ الْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا أَعْتَادُوهُ مِنَ الْقِيَاسِ الْفَقْهِيِّ فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُهَا فِي الذِّهْنِ وَلَا تَصِيرُ إِلَى الْمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ وَلَا تَصِيرُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى الْمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَرَّغُ مَا فِي الْخَارِجِ عَمَّا فِي الذِّهْنِ مِنْ ذَلِكَ كَأَلْحَاكِمِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ عَمَّا فِي الْحَقُوفِ مِنْ أَدَلَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتَطْلُبُ مُطَابَقَةَ مَا فِي الْخَارِجِ لَهَا عَكْسَ الْأَنْظَارِ فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَطْلُبُ فِي صَحِّحِهَا مُطَابَقَتَهَا لِمَا فِي الْخَارِجِ فَهُمْ مُتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمُ الْأُمُورَ لِلذِّهْنِيَّةِ وَالْأَنْظَارَ الْفِكْرِيَّةَ لَا يَتَعَرَّفُونَ سِوَاهَا وَالسِّيَاسَةَ يَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي الْخَارِجِ وَمَا يَلْحَقُهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَيَتَّبِعُهَا فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنَ الْخَلْقِ بِشَيْءٍ أَوْ مِثَالٍ وَبِنَاقِ الْكُلِّيِّ الَّذِي يُحَاوِلُ تَطْبِيقَهُ عَلَيْهَا وَلَا يَقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَاءِ عَلَى الْآخَرِ كَمَا أَشْتَبَهَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ فَلَعَلَّهُمَا اخْتَلَفَا فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ الْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ تَعْمِيمِ الْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ الْأُمُورِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي السِّيَاسَةِ افْتَرَّغُوا ذَلِكَ فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ وَتَنَوَّعَ اسْتِدْلَالَاتِهِمْ فَيَقَعُونَ فِي الْغَلَطِ كَثِيرًا وَلَا يُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ الدِّكَاةِ وَالْكَيْسِ مِنَ أَهْلِ الْعُمَرَاءِ لَا أَنَّهُمْ يَنْزِعُونَ بِثُقُوبِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى مِثْلِ شَأْنِ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْفَوْضِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْقِيَاسِ وَالْحَمَّاكَةِ فَيَقَعُونَ فِي الْغَلَطِ وَالْعَامِي السَّالِمِ الطَّبَعِ الْمُسَوِّطِ الْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنْ ذَلِكَ وَعَدَمِ اعْتِبَادِهِ إِيَّاهُ يَقْتَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ عَلَى مَا أَخْصَصَ بِهِ وَلَا يُعَدِّي الْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يَفَارِقُ فِي أَكْثَرِ نَظَرِ الْمَوَادِّ الْحَسُوسَةِ وَلَا يَجَاوِزُهَا فِي ذِهْنِهِ كَالسَّابِحِ لَا يَفَارِقُ الْبَرَّ عِنْدَ الْمَوْجِ قَالَ الشَّاعِرُ

فَلَا تُوَعِّلَنَّ إِذَا مَا سَجَّتْ مَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ النَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمَ النَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ ابْنَاءِ جَنَسِهِ فَيَحْسُنُ
مَعَاشُهُ وَتَنْدَفِعُ آفَاتُهُ وَمَضَارُهُ بِاسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ
أَنَّ صِنَاعَةَ الْمُنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ الْغَلْطُ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْإِتِّزَاعِ وَبُعْدِهَا عَنِ الْحَسُوسِ
فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي وَلَعَلَّ الْمَوَادَّ فِيهَا مَا يُمَانِعُ تِلْكَ الْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا
عِنْدَ مُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ الْيَقِينِي وَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْمَقُولَاتِ الْأَوَّلِ وَهِيَ الَّتِي تَجَرِّدُهَا قَرِيبٌ
فَلَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُورُ الْحَسُوسَاتِ حَافِظَةٌ مُؤَدَّةٌ بِتَصْدِيقِ انْطِبَاطِهِ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والثلاثون

في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم الهجوم
من الغريب الواقع ان حملة العلم في الامة الاسلامية اكثرهم النجم لا من
العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم العربي في
نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه وشيخه مع ان الامة عربية وصاحب شريعته عربي
والسبب في ذلك ان الامة في اولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال
السذاجة والبداءة وانما احكام الشريعة التي هي اوامر الله ونواهيه كان الرجال
ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا ما خذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب
الشرع واهل صحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم والتأليف والتدوين ولا
دفعوا اليه ولا دعته اليه حاجة وجري الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا
يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله الى القراء اي الذين يقرأون الكتاب وليسوا اميين
لان الامة يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا فقبل لحمة القرآن يومئذ قراء
اشارة الى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنة الماثورة عن الله لانهم لم يعرفوا
الاحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسيره وشرحه
قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم امرين لئن تضلوا ما تمسكتكم بهما كتاب الله
وسنتي فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد اخبج الى وضع التفسير القرآني
وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم اخبج الى معرفة الاسانيد وتعديل الناقلين للتمييز
بين الصحيح من الاسانيد وما دونه ثم كثر استخراج احكام الواقعات من

الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فأحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والألحاد فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع وقد كدنا قدما أن الصنائع من منتحل الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معنائهم من الموالى وأهل الخواصير الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النخوس سبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما رُبوا في اللسان العربي فأكتسبوه بالمعربى ومخالطة العرب وصبروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى وكان علماء أصول الفقه كلهم عجمًا كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يبق بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم وظهر مصادق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم بأكناف السماء لئاله قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدرَكوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة وحاميتها وأولي سياستها مع ما يلحقهم من الآفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤساء ابداً يستنكفون عن الصنائع والمهين وما يجزئ إليها ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين وما زالوا يرون لهم حق القيام به فإنه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وأمتهم حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يغني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الحملة إلا بعد أن

تَمَيَّزَ حَمَلَةُ الْعِلْمِ وَمُؤَلَّفُوهُ وَأَسْتَقَرَّ الْعِلْمُ كُلُّهُ صِنَاعَةً فَأَخْتَصَّتْ بِالْعَجْمِ وَتَرَكَتْهَا الْعَرَبُ
وَأَنْصَرَفُوا عَنْ أَنْتِحَالِهَا فَلَمْ يَحْمِلْهَا إِلَّا الْمَعْرَبُونَ مِنَ الْعَجْمِ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كَمَا قُلْنَا أَوَّلًا
فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ مَا دَامَتِ الْحِضَارَةُ فِي الْعَجْمِ وَبِلَادِهِمْ مِنَ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ
وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ فَلَمَّا خَرِبَتْ تِلْكَ الْأَمْصَارُ وَذَهَبَتْ مِنْهَا الْحِضَارَةُ الَّتِي هِيَ سِرُّ اللَّهِ فِي
حُصُولِ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ ذَهَبَ الْعِلْمُ مِنَ الْعَجْمِ جُمْلَةً لِمَا شَمَلَهُمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَأَخْتَصَّتْ
الْعِلْمُ بِالْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْحِضَارَةِ وَلَا أَوْفَرَ الْيَوْمَ فِي الْحِضَارَةِ مِنْ مِصْرَ فَبَيَّ أُمُّ الْعَالَمِ
وَإِيَّوَانُ الْإِسْلَامِ رَيْنُوعُ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ وَبَقِيَ بَعْضُ الْحِضَارَةِ فِي مَا وَرَاءَ النَّهْرِ لِمَا
هُنَاكَ مِنَ الْحِضَارَةِ بِالدَّوَلَةِ الَّتِي فِيهَا فَلَهُمْ بِذَلِكَ حِصَّةٌ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ لَا تُنْكَرُ
وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى ذَلِكَ كَلَامُ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ مِنْ تَأَلِيفِ وَصَلَتِ إِلَيْنَا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَهُوَ
سَعْدُ الدِّينِ التَّفَنَّاوَانِيُّ وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْعَجْمِ فَلَمْ تَرَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ
وَتَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسِيِّ كَلَامًا يُعَوَّلُ عَلَى نِهَائِيَّتِهِ فِي الْإِصَابَةِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَتأملْهُ تَرَى عَجَبًا
فِي أَحْوَالِ الْخَلِيقَةِ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

الفصل السادس والثلاثون

في علوم اللسان العربي

أَزْكَاهُ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ اللُّغَةُ وَالنَّحْوُ وَالْبَيَانُ وَالْأَدَبُ وَمَعْرِفَتُهَا ضَرُورِيَّةٌ عَلَى أَهْلِ
الشَّرِيعَةِ إِذْ مَأْخُذُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ وَهِيَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ
وَنَقَلَتْهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَرَبٌ وَشَرَحُ مُشْكِلَاتِهَا مِنْ لُغَاتِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا اللَّسَانِ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الشَّرِيعَةِ وَتَفَاوُتُ فِي التَّأْكِيدِ بِتَفَاوُتِ
مَرَاتِبِهَا فِي التَّوْفِيقِ بِمَقْصُودِ الْكَلَامِ حَسَبًا يَتَبَيَّنُ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَنَأْثُرُ الَّذِي
يَتَحَصَّلُ أَنَّ الْأَهَمَّ الْمَقْدَمَ مِنْهَا هُوَ النَّحْوُ إِذْ بِهِ تُتَبَيَّنُ أَصُولُ الْمَقَاصِدِ بِالْإِدْلَالَةِ فَيُعْرَفُ
الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ وَلَوْلَاهُ لَجُوهْلُ أَصْلُ الْإِفَادَةِ وَكَانَ مِنْ حَقِّ عِلْمِ
اللُّغَةِ التَّقَدُّمُ لَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ الْأَوْضَاعِ بَاقِيَةٌ فِي مَوْضُوعَاتِهَا لَمْ تَتَغَيَّرْ بِخِلَافِ الْإِعْرَابِ
الْبَالِ عَلَى الْإِسْنَادِ وَالْمُسْتَدِ وَالْمُسْتَدِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ تَغَيَّرَ بِالْجُمْلَةِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ فَلِذَلِكَ
كَانَ عِلْمُ النَّحْوِ أَهَمَّ مِنَ اللُّغَةِ إِذْ فِي جِهَلِهِ الْإِخْلَالُ بِالتَّفَاهُمِ جُمْلَةً وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ

اللُّغَةُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

علم النحو

إِذْ عَلِمَ أَنَّ اللُّغَةَ فِي الْمُتَعَارَفِ هِيَ عِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ
فِعْلٌ لِسَانِي فَلَا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَ مُتَقَرَّرَةً فِي الْمَضِيِّ الْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ الْإِسَانُ وَهُوَ فِي
كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اصْطِلَاحَاتِهِمْ وَكَانَتِ الْمَلَكَ الْحَاصِلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
الْمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةً عَنِ الْمَقَاصِدِ لِلدَّلَالَةِ غَيْرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ
الْمَعَانِي مِنَ الْجَرُورِ أَغْنَى الْمُضَافَ وَمِثْلَ الْحُرُوفِ الَّتِي تُفْعَلُ بِالْأَفْعَالِ إِلَى الدُّوَاتِ
مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ الْفَاطِ أُخْرَى وَابْنُ بُوَيْدٍ ذَلِكَ إِلَّا فِي أُمَّةٍ الْعَرَبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنْ
اللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنَى أَوْ حَالٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْفَاطِ تَخْصُّهُ بِالْإِدْلَالَةِ وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَلَامَ
الْعَجَمِ مِنْ تَغَاطُبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقَدَّرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْنَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَأَخْصِرَ لِي الْكَلَامُ اخْتِصَارًا فَصَارَ لِلْحُرُوفِ فِي
لُغَتِهِمْ وَالْحَرَكَاتِ وَالْمِثَالِ أَيْ الْأَوْضَاعِ اعْتِبَارٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرَ مُتَكَلِّفِينَ
فِيهِ لِصِنَاعَةِ يَسْتَفِيدُونَ ذَلِكَ مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ مَلَكَ فِي السِّنِّيهِمْ بِأَخْذِهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ
كَمَا تَأْخُذُ صِبْيَانُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ لُغَانًا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفَارَقُوا الْحِجَازَ لَطَّابِ الْمَلِكِ
الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ وَالْأَدْوَلِ وَخَالَطُوا الْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَ بِمَا أَلْقَى
إِلَيْهَا السَّمْعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي لِلْمُسْتَعَرِبِينَ وَالسَّمْعُ أَبُو الْمَلَكَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا
أَلْقَى إِلَيْهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا لِمُجُوحَاتِهَا إِلَيْهِ بِاعْتِبَارِ السَّمْعِ وَخَشْيِ أَهْلِ الْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ
تِلْكَ الْمَلَكَ رَأْسًا وَيَطُولَ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَاسْتَنْبَطُوا
مِنْ مَجَارِي كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَ مُطَرِّدَةً شِبْهَ الْكَلِمَاتِ وَالْقَوَاعِدِ يَقِيسُونَ
عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ وَيَلْحَقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولُ
مَنْصُوبٌ وَالْمَبْتَدَأُ مَرْفُوعٌ ثُمَّ رَأَوْا تَغْيِيرَ الدَّلَالَةِ بِتَغْيِيرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَاصْطَلَحُوا
عَلَى تَسْمِيَتِهِ إِعْرَابًا وَتَسْمِيَةَ الْمُوجِبِ لِذَلِكَ التَّغْيِيرِ عَامِلًا وَأَمثال ذلك وَصَارَتْ كُلُّهَا
اصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَقَيَّدُوهَا بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مُخْصُوصَةً وَاصْطَلَحُوا
عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِسِلْمِ النُّحُوِّ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَيُقَالُ
بِإِشَارَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغْيِيرَ الْمَلَكَ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِحِفْظِهَا فَقَرَعَ إِلَى

ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرّة ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى
الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد وكان الناس أخرج إليها الذهب تلك الملكة
من العرب فهدب الصناعة وكمل أبوابها وأخذها عنه سيبويه فكمّل تقاربها واستكثر
من أدلتها وشواهد ما ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها
من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين يتخذون
فيها حذو الإمام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها
في الكوفة والبصرة المصريين القديمين للعرب وكثرت الأدلة والحجج بينهم وتباينت
الطرق في العلل وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في
تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمداهبهم في الاختصار
فأختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في
كتاب التسهيل وأمثاله أو أقصروا على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري
في المفصل وابن الحajib في المقدمة له وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في
الأزجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأزجوزة الألفية وبالجملّة فالتأليف
في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة
المُتقدِّمين مغايرة لطريقة المتأخريين والكوفيون والبصريون والبغداديون
والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة تؤذن بالذهاب لما
رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع يتناقص العمران ووصل إلينا بالمغرب
لهذه الصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى
فيه أحكام الإعراب بجملة ومفصّلة وتكامل على الحروف والمفردات والجمل
وحذف ما في الصناعة من المتكرّر في أكثر أبوابها وسماه بالهخري في الإعراب
وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم
سائر ما فوقنا منه على علم جَم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة وفور بضاعته
منها وكأنه ينحو في طريقته منجاة أهل الموصل الذين اقتنوا اثر ابن جني وأتبعوا
مصطلح تعليمه فأتى من ذلك شيء عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه والله
يزيد في الخلق ما يشاء

علم اللغة

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ يَبَيِّنُ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةَ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِي الْحَرَكَاتِ الْمُسَمَّاةِ عِنْدَ أَهْلِ النَّحْوِ بِالْإِعْرَابِ وَاسْتَنْبَطَتِ الْقَوَائِنُ لِحِفْظِهَا كَمَا قُلْنَا ثُمَّ اسْتَحْمَرَ ذَلِكَ الْفَسَادُ بِمَلَابَسَةِ الْعُجْمِ وَتَغَالُطَتِهِمْ حَتَّى تَأْدَى الْفَسَادُ إِلَى مَوْضُوعَاتِ الْأَلْفَاظِ فَأَسْتَعْمَلَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مِثْلًا مَعَ هِجْتِ الْمُسْتَعْرِبِينَ فِي أَصْطِلَاحَاتِهِمْ الْخُفَافَةِ لِصُرِيحِ الْعَرَبِيَّةِ فَأَخْتِيجُ إِلَى حِفْظِ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ بِالْكِتَابِ وَالتَّدْوِينِ خَشْيَةَ الدُّرُوسِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فَسَمَرَ كَثِيرٌ مِنْ أُنَمَّةِ اللِّسَانِ لِذَلِكَ وَأَمَلُوا فِيهِ الدَّوَابِينَ وَكَانَ سَابِقُ الْحَاجَةِ فِي ذَلِكَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيُّ أَلَفَ فِيهَا كِتَابَ الْعَيْنِ فَحَصَرَ فِيهِ مَرْكَبَاتِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ كُلَّهَا مِنَ الثَّنَائِي وَالثَّلَاثِي وَالرُّبَاعِي وَالْخُمَائِي وَهُوَ غَايَةٌ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرَكِيبُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَتَأْتِي لَهُ حَصْرُ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ عَدِيدَةٍ حَاضِرَةٍ وَذَلِكَ أَنَّ جُمْلَةَ الْكَلِمَاتِ الثَّنَائِيَّةِ تَخْرُجُ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَادِ عَلَى التَّوَالِي مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ وَهُوَ دُونَ نِهَآيَةِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِوَاحِدٍ لِأَنَّ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مِنْهَا يُؤْخَذُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَالْعِشْرِينَ فَتَكُونُ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ كَلِمَةً ثَنَائِيَّةً ثُمَّ يُؤْخَذُ الثَّانِي مَعَ السَّبْعَةِ وَالْعِشْرِينَ كَذَلِكَ ثُمَّ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ ثُمَّ يُؤْخَذُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ مَعَ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ فَيَكُونُ وَاحِدًا فَتَكُونُ كُلُّهَا أَعْدَادًا عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ فَتُجْمَعُ كَمَا هِيَ بِالْعَمَلِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِسَابِ ثُمَّ تَضَاعَفَتْ لِأَجْلِ قَلْبِ الثَّنَائِي لِأَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ بَيْنَ الْحُرُوفِ مُعْتَبَرٌ فِي التَّرَكِيبِ فَيَكُونُ الْخَارِجُ جُمْلَةَ الثَّنَائِيَّاتِ فِيمَا يَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ لِأَنَّ كُلَّ ثَنَائِيَّةٍ يَزِيدُ عَلَيْهَا حَرْفًا فَتَكُونُ ثَلَاثِيَّةً فَتَكُونُ الثَّنَائِيَّةُ بِمَنْزِلَةِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحُرُوفِ الْبَاقِيَةِ وَهِيَ سَبْعَةٌ وَعَشْرُونَ حَرْفًا بَعْدَ الثَّنَائِيَّةِ فَتُجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَيُضْرَبُ فِيهِ جُمْلَةُ الثَّنَائِيَّاتِ ثُمَّ تَضْرَبُ الْخَارِجُ فِي سَبْعَةِ جُمْلَةٍ مَقْلُوبَاتِ الْكَلِمَةِ الثَّلَاثِيَّةِ فَيَخْرُجُ مَجْمُوعٌ تَرَكَيبِيًّا مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَكَذَلِكَ فِي الرُّبَاعِي وَالْخُمَائِي فَانْتَحَصَرَتْ لَهُ التَّرَاكِيبُ بِهَذَا الْوَجْهِ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِالتَّرْتِيبِ الدُّعَارِفِ وَاعْتَمَدَ فِيهِ تَرْتِيبَ الْخَارِجِ قَبْدًا بِحُرُوفِ الْخَلْقِ ثُمَّ بَعْدَهُ مِنْ حُرُوفِ الْخَلْقِ ثُمَّ الْأَضْرَاسِ ثُمَّ

الشفة وجعل حروف العلة آخرًا وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الخلق بالعين
 لأنه الأقصر منها فلذلك سمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية
 دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ ثم
 بين المفضل منها من المستعمل وكان المفضل في الرباعي والخماسي أكثر أقله
 استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي أقله ودورانه وكان الاستعمال في الثلاثي
 أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين
 واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد
 بالاندلس في المائة الرابعة فأختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المفضل
 كله وكثيرًا من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهرى
 من المشاركة كتاب الصراح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداية منها
 بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لأضرار الناس في
 ألا كثيرا إلى أواخر الكلم وحصر اللغة أفداء بحضر الخليل ثم ألف فيها من الاندلسيين ابن
 سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك انتهى من الاستيعاب
 وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لأشتاقات الكلم وتصاريها فجاء من
 أحسن الدواوين ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية
 بنونس وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصراح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجيم
 عليها فكانا توأما رجم وسلي أبيه هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه وهناك
 مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو لكليها إلا
 أن وجه الحضر فيها خفي ووجه الحضر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رأيت ومن
 الكتب الموضوعية أيضا في اللغة كتاب الزمخشري في التجار بين فيه كل ما تجوزت
 به العرب من الألفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الإفادة
 ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة الفاظا
 أخرى خاصة بها فوق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج إلى فقه في اللغة
 عزيز المأخذ كما وضع الأيضا بالوضع العام لكل ما فيه يفاض ثم اختص ما فيه
 يفاض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر ومن النعم بالأمح حتى صار استعمال

الآتي في هذه كلها حتماً وخروجاً عن لسان العرب واختصاصاً بالتأليف في هذا المنحى
 العالوي وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكثر ما يأخذ به اللغوي نفسه
 أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الأول بكافٍ في الترتيب
 حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأدب في فني
 نظم ونثر وحذراً من أن يكثر لحنه في الموضعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها
 وهو أشد من اللحن في الإعراب والفحش وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ
 المشتركة وتكفل بحضرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب لئلا يكثر
 وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير
 الاستعمال تسهيلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصح
 الملب وغيرهما وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظريهم في الأمر على الطالب
 للحفظ والله الخلاق العليم لا رب سواه

علم البيان

هذا العلم حادث في الحيلة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم الإنسانية لأنه
 متعلق بالألفاظ وما تفيد ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن الأمور التي
 يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند ويسند
 إليها ويقضي بعضها إلى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال
 والحروف وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ويدل عليها بتغير الحركات
 من الإعراب وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو ويبقى من الأمور
 الممكنة بالوقائع المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو القاعلين وما يقتضيه
 حال الفعل وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة وإذا حصلت للمتكلم
 فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام
 العرب فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب
 والابانة ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن
 المتقدم منهما هو الأمر عند المتكلم فمن قال جاءني زيد أفاد أن اهتمامه
 بالبعيد قبل الشخص المسند إليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص

قَبْلَ الْحُجْبِيِّ الْمُسْتَدِّ وَكَذَا التَّعْبِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ
مُبْتَدَأٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ وَكَذَا تَأْكِيدُ الْإِسْنَادِ عَلَى الْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنْ زَيْدًا قَائِمٌ
وَإِنْ زَيْدًا لِقَائِمٌ مُتَغَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي الدَّلَالَةِ وَإِنْ اسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ الْإِعْرَابِ فَإِنَّ
الْأَوَّلَ الْعَارِيَّ عَنِ التَّأْكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْخَطَأَ الَّذِي هُوَ الثَّانِي وَالْمُؤَكَّدُ بِإِثْبَاتِ يُفِيدُ
الْمُتَرَدِّدَ وَالثَّالِثُ يُفِيدُ الْمُنْكَرَ فِيهِ مُخْتَلِفَةٌ وَكَذَلِكَ نَقُولُ جَاءَنِي الرَّجُلُ ثُمَّ نَقُولُ مَكَانَهُ
بِعَيْنِهِ جَاءَنِي رَجُلٌ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ التَّنْكِيرَ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنَ
الرِّجَالِ ثُمَّ الْجُمْلَةُ الْإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبَرِيَّةً وَهِيَ الَّتِي لَهَا خَارِجٌ تُطَابِقُهُ أَوَّلًا وَإِنْشَائِيَّةً
وَهِيَ الَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا كَالطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ الْعَاطِفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ إِذَا
كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ فَيُشْرِكُ بِذَلِكَ مَنَزِلَةَ التَّابِعِ الْمَفْرَدِ نَعْتًا وَتَوْكِيدًا وَبَدَلًا
بِلَا عَاطِفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ الْعَاطِفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ ثُمَّ يَقْتَضِي الْمَحَلُّ
الْإِطْنَابَ وَالْإِيجَازَ فَيُورَدُ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا ثُمَّ قَدْ يُدَلُّ بِاللَّفْظِ وَلَا يُرَادُ مَنْطُوقُهُ
وَيُرَادُ لَازِمُهُ إِنْ كَانَ مُفْرَدًا كَمَا نَقُولُ زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ الْأَسَدِ الْمَنْطُوقَةَ
وَإِنَّمَا تُرِيدُ شِبَاعَتَهُ الْأَلَزِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمَّى هَذِهِ اسْتِعَارَةً وَقَدْ تُرِيدُ بِاللَّفْظِ
الْمُرَكَّبِ الدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزُومِهِ كَمَا نَقُولُ زَيْدٌ كَثِيرُ الرَّمَادِ وَتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذَلِكَ عَنْهُ
مِنَ الْجُودِ وَفَرَى الضَّيْفِ لِأَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهُمَا فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَيْهِمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا
دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْمَفْرَدِ وَالْمُرَكَّبِ وَإِنَّمَا فِي هَيْئَاتٍ وَأَحْوَالٍ الْوَاقِعَاتِ
جُعِلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي الْأَلْفَاظِ كُلٌّ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ مَقَامُهُ فَاشْتَمَلَ
هَذَا الْعِلْمُ الْمُسَمَّى بِالْبَيَانِ عَلَى النَّحْثِ عَنْ هَذِهِ الدَّلَالَةِ الَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ
وَالْمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ الصَّنِيفُ الْأَوَّلُ يُنَحْثُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ
وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تُطَابِقُ بِاللَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضِيَاتِ الْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمُ الْبَلَاغَةِ وَالصَّنِيفُ
الثَّانِي يُنَحْثُ فِيهِ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَلَزِمِ اللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ الْإِسْتِعَارَةُ وَالْكِتَابَةُ كَمَا
قُلْنَا هُوَ يُسَمَّى عِلْمُ الْبَيَانِ وَالْحَقْوَا بِهِمَا صِنْفًا آخَرَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَزْيِينِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ
بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْصِيقِ إِمَّا بِسَجْعٍ يَفْصِلُهُ أَوْ بِتَجْنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ الْفَظِّ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ
أَوْ تَوْرِيَّةٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيْهَامٍ مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ لِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالُ
ذَلِكَ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ عِلْمُ الْبَدِيعِ وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ اسْمُ

البيان وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ثم تلاحت مسائل
الآل في واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى وألجأ حظ وقدامة وأمثالهم إملات
غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن نحص السكاكي زبدته
وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب وألف كتابه المسمى
بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذه
المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي
في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب
الإيضاح والتلخيص وهو أصغر حجماً من الإيضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل
المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره وبالجملته فالمشاركة على هذا
الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كدالي في العلوم اللسانية والصنائع
الكمالية توجد في العمران والمشرق أوفر غمراناً من المغرب كما ذكرناه أو
تقول لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على
هذا الفن وهو أصله وإنما اختص بأهل المغرب من أصفاه علم البديع خاصة
وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرغوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً
وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب وإنما حملهم على ذلك التلوع بتزيين الألفاظ
وأن علم البديع سهل المأخذ وصعب عليهم مأخذ البلاغة والبيان لدقّة أنظاريهما
وغموض معانيهما فتجافوا عنهما ومن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيقي
وكتاب العمد له مشهور وجري كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه وأعلم
أن ثمره هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة
منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع
الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الإعجاز
الذي نقصر الأفهام عن إدراكه وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق
بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيذكر من إعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت
مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك لأنهم فرسان الكلام
وجهاً بذنه والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصح وأحوج ما يكون إلى هذا

الْفَنِّ الْمُفَسِّرُونَ وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ الْمُتَقَدِّمِينَ غُفِّلَ عَنْهُ ظَهَرَ جَارُ اللَّهِ الرَّمَحْشَرِيُّ وَوَضَعَ
كِتَابَهُ فِي التَّفْسِيرِ وَتَتَبَعَ آيَ الْقُرْآنِ بِأَحْكَامِ هَذَا الْفَنِّ بِمَا يُبْدِي الْبَعْضُ مِنْ
إِعْجَازِهِ فَأَتَقَرَّدَ بِهَذَا الْفَضْلِ عَلَى جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ لَوْلَا أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ الْبِدْعِ عِنْدَ
اِقْتِبَاسِهَا مِنَ الْقُرْآنِ بِوُجُوهِ الْبَلَاغَةِ وَلِأَجْلِ هَذَا يَتَحَمَّاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مَعَ وَفُورِ
بِضَاعَتِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ فَمَنْ أَحْكَمَ عَقَائِدَ السُّنَّةِ وَشَارَكَ فِي هَذَا الْفَنِّ بَعْضَ الْمُسَارَكَةِ
حَتَّى يَقْتَدِرَ عَلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِ أَوْ يَعْلَمَ أَنَّهُ بِدْعَةٌ فَيُغْرِضَ عَنْهَا وَلَا تُضَرُّ
فِي مُعْتَقَدِهِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلظُّفْرِ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَازِ مَعَ السَّلَامَةِ
مِنَ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ وَاللَّهُ الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ

علم الادب

هَذَا الْعِلْمُ لَا مَوْضِعَ لَهُ يُنْظَرُ فِي إِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ تَقْيُّهَا وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ
أَهْلِ اللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ الْإِجَادَةُ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ عَلَى أَسَالِبِ الْعَرَبِ
وَمَنَاجِيهِمْ فَيَجْمَعُونَ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحْصُلُ بِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ شِعْرِ
عَالِي الطَّبَقَةِ وَتَجْمَعُ مُتَسَاوٍ فِي الْإِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَبْثُوتَةٌ أَثْنَاءَ ذَلِكَ
مُتَفَرِّقَةٌ يَسْتَقَرِّي مِنْهَا النَّظَرُ فِي الْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ
الْعَرَبِ يَفْهَمُ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذَلِكَ ذِكْرُ أَلْهَمٍ مِنَ الْأَنْسَابِ الشَّهِيدَةِ
وَالْأَخْبَارِ الْعَامَّةِ وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى النَّظِيرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ
وَأَسَالِبِهِمْ وَمَنَاجِيهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ الْمَلَكَاتُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ
فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هَذَا الْفَنِّ
قَالُوا الْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَالْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ
مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ أَوْ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتَوْنَهَا فَقَطْ وَهِيَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ إِذَا لَا
مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلْفِهِمْ
بِصِنَاعَةِ الْبَدِيعِ مِنَ التَّوْرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِالْأَصْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَاحْتَاجَ
صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ حِينَئِذٍ إِلَى مَعْرِفَةِ أَصْطِلَاحَاتِ الْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا وَتَسْمِعُنَا
مِنْ شَيْءٍ خَفِيَ فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ أَنَّ أُصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةٌ دَوَائِينَ وَهِيَ أَدَبُ
الْكِتَابِ لِأَنَّهُ قُتِبَتْ وَكِتَابُ الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ الْيَاقِينِ وَالنَّبِيِّ لِلْجَاحِظِ

وَكِتَابُ النَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ الْقَاسِي الْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هَذِهِ الْأَزْبِقَةِ فَتَبِعَ لَهَا وَفُرُوعُ
عَنْهَا وَكُتِبَ الْمُحَدِّثِينَ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَانَ الْغِنَاءُ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا
الْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشَّعْرِ إِذَا الْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ وَكَانَ الْكِتَابُ وَالْفَضْلَانِ مِنْ
الْخَوَاصِّ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِأَخْذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ الشَّعْرِ
وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنْ اتِّعَالُهُ قَادِحًا فِي الْعَدَالَةِ وَالْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلْفَ الْقَاسِي أَبُو الْقَرَجِ
الْأَصْبَهَانِي كِتَابَهُ فِي الْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنَسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ
وَدَوْلَهُمْ وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى الْغِنَاءِ فِي الْمِائَةِ صَوْتًا الَّتِي اخْتَارَهَا الْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَأَسْتَوْعَبَ
فِيهِ ذَلِكَ أَنْتُمْ أَشْتَبَابُ وَأَوْفَاهُ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْنَاتِ الْحَقَّاسِينَ
الَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الشَّعْرِ وَالتَّأْرِيجِ وَالْغِنَاءِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَلَا
يُعَدُّ بِهِ كِتَابٌ فِي ذَلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ الْغَايَةُ الَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا الْأَدِيبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا
وَأَنَّى لَهُ بِهَا وَنَحْنُ الْآنَ نَرْجِعُ بِالْتَّحْقِيقِ عَلَى الْإِجْمَالِ فِيمَا تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ
اللِّسَانِ وَاللَّهُ أَلْهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل السابع والثلاثون

في ان اللغة ملكة صناعية

إِعْلَمَ أَنَّ اللُّغَاتِ كُلَّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَاعَةِ إِذْ هِيَ مَلَكَاتٌ فِي اللِّسَانِ
لِلْعِبَارَةِ عَنِ الْمَعَانِي وَجُودَتِهَا وَقُصُورُهَا بِحَسَبِ تِمَامِ الْمَلَكَاتِ أَوْ نُقْصَانِهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ
بِالنَّظَرِ إِلَى الْمُفْرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّرَاكِبِ فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَلَكَاتُ التَّامَّةُ
فِي تَرْكِيبِ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ وَمُرَاعَاةِ التَّأْلِيفِ الَّذِي
يُطَبِّقُ الْكَلَامَ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ بَلَّغَ الْمُتَكَلِّمُ حَيْثُئِذٍ الْغَايَةَ مِنْ إِفَادَةِ مَقْصُودِهِ
لِلسَّامِعِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْبَلَاغَةِ وَالْمَلَكَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَكَرُّرِ الْأَنْعَالِ لِأَنَّ الْفِعْلَ
يَقَعُ أَوَّلًا وَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِفَةٌ ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالًا وَمَعْنَى الْحَالِ أَنَّهَا صِفَةٌ
غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ التَّكَرُّارُ فَتَكُونُ مَلَكَاتٌ أَيْ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ فَالْمُتَكَلِّمُ مِنْ
الْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَاتُهُ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَوْجُودَةً فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ
وَأَسَالِبِهِمْ فِي مَخَاطِبَاتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ الصَّيِّ أَسْتِعْمَالَ
الْمُفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيُلْقِنَهَا أَوَّلًا ثُمَّ يَسْمَعُ التَّرَاكِبَ بَعْدَهَا فَيُلْقِنَهَا كَذَلِكَ ثُمَّ لَا يَزَالُ

سَمِعُهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مَثَكَلٍ وَأَسْتَعْمَالُهُ بِتَكَرُّرٍ إِلَى أَنْ
يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً وَصِفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونُ كَأَحَدِهِمْ هَكَذَا تَصِيرَتِ الْأَلْسُنُ وَاللُّغَاتُ
مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا الْعَجَمُ وَالْأَطْفَالُ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا نَقُولُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ
اللُّغَةَ لِلْعَرَبِ بِالطَّبَعِ أَيَّ بِالْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي أَخَذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَنْ غَيْرِهِمْ
ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمُضَرِّ بِمُخَالَطَتِهِمُ الْأَعَاجِمَ وَسَبَبُ فَسَادِهَا أَنَّ النَّاشِئَ
مِنْ الْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ الْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ أُخْرَى غَيْرَ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي
كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيُعَبِّرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكَثْرَةِ الْمُخَالَطِينَ لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ
كَيْفِيَّاتِ الْعَرَبِ أَيْضًا فَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ فَاسْتَحْدَثَ مَلَكَةً
وَكَانَتْ نَاقِصَةً عَنِ الْأُولَى وَهَذَا مَعْنَى فَسَادِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلِهَذَا كَانَتْ لُغَةُ قُرَيْشٍ
أَفْصَحَ اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنِ بِلَادِ الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ثُمَّ مَنْ
اِكْتَنَفَهُمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَهَذِيلٍ وَخُزَاعَةٍ وَبَنِي كِنَانَةَ وَغَطَفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ وَأَمَّا
مَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ مِنْ رَيْبَعَةٍ وَلَحْمٍ وَجُدَامٍ وَغَسَّانٍ وَإِيَادٍ وَفُضَاعَةٍ وَعَرَبِ الْيَمَنِ الْمُجَاوِرِينَ
لِلْأَمِّ الْفَرَسِ وَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ نَامَةً الْمَلَكَةُ بِمُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ
وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ الْإِحْتِجَاجُ بِلُغَاتِهِمْ فِي الصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

فِي أَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ مُسْتَقْلَةٌ مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ وَحَمِيرٍ
وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُهَا فِي بَيَانِ الْمَقَاصِدِ وَالْوَفَاءِ بِالِدَّلَالَةِ عَلَى سُنَنِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ
وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْهَا إِلَّا دَلَالَةُ الْحَرَكَاتِ عَلَى تَعْيِينِ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ فَاعْتَضُوا مِنْهَا بِالتَّقْدِيرِ
وَالتَّأْخِيرِ وَبِقَرَأَتَيْنِ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ الْمَقَاصِدِ إِلَّا أَنَّ الْبَيَانَ وَالبَلَاغَةَ فِي اللِّسَانِ
الْمُضَرِّيِّ أَكْثَرُ وَأَعْرَفُ لِأَنَّ الْأَلْفَاظَ بِأَعْيَانِهَا دَالَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي بِأَعْيَانِهَا وَبَقِيَ مَا
لِقِتْضِيهِ الْأَحْوَالُ وَيُسَمَّى بِسَاطِ الْحَالِ مُحْتَاجًا إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَكُلُّ مَعْنَى لَا بُدَّ وَأَنَّ
تَمَكِّنُهُ الْأَحْوَالُ مُخَصَّصَةٌ فَيَجِبُ أَنْ تُعْتَبَرَ تِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَقْصُودِ لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ
وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ الْأَلْسُنِ أَكْثَرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالْفَظِ مُخَصَّصًا بِالْوَضْعِ وَأَمَّا فِي
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالْأَحْوَالِ وَكَيْفِيَّاتِ فِي تَرَكَيبِ الْأَلْفَاظِ وَتَأْلِيفِهَا مِنْ

تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة أعراب وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة
ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك
الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة
من جميع اللسان وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر
لي الكلام اختصاراً واعتبر ذلك بما يخفى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض
النحاة إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن
زيداً قائم وآله معنى واحد فقال له إن معانيها مختلفة فالأول لإفادة الخالي الذهن من
قيام زيد والثاني لمن سمعه فتردد فيه والثالث لمن عرف بالاضطرار على إنكاره
فأختلفت الدلالة باختلاف الأحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب
ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفة أهل صناعة الإعراب
القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأب
اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون
قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن
نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تنزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد
والتعاون فيه بتفاوت الأمانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان
وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصقع في محافلهم
ومجاميعهم والشاعر المفلح على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم
شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر
الكلام فقط الذي كرم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيماً معروفاً وهو الإعراب
وهو بعض من أحكام اللسان وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم
الآعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته
على غير الصورة التي كانت أولاً فالتفت لغة أخرى وكان القرآن منزلاً به والحديث
النبي منقولاً بلغته وهما أضلا الدين والملة فحشي تناسيها وانغلاق الأفهام عنها
بفقدان اللسان الذي نزل به فاحتجج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط
قوانينه وصار علماء ذافصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهلهم بعلم النحو وصناعة

العَرَبِيَّةُ فَأَصْبَحَ قَتْنَا مَحْفُوظًا وَعَيْنًا مَكْتُوبًا وَسَلَامًا إِلَى فَنَهَمَ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ
وَأَنبَا وَلَعَلَّنَا لَوْ أَغْنَيْنَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيَّ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاسْتَقْرَيْنَا أَحْكَامَهُ نَعْتَمِزُ
عَنِ الْحَرَكَاتِ إِلَّا عَرَابِيَّةً فِي دَلَالَتِهَا بِأُمُورٍ أُخْرَى مَوْجُودَةٍ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَائِمُ
تَخْصُهَا وَلَعَلَّهَا تَكُونُ فِي أَوَاخِرِهِ عَلَى غَيْرِ الْمُنْهَاجِ الْأَوَّلِ فِي لُغَةٍ مُضَرٍّ فَلَيْسَتْ اللُّغَاتُ
وَمَلَكَاةً مَجَانًا وَلَقَدْ كَانَ اللِّسَانُ الْخُسْرِيُّ مَعَ اللِّسَانِ الْخَمِيرِيِّ بِهَذِهِ الْعَثَابَةِ وَتَغَيَّرَ
عِنْدَ مُضَرٍّ كَثِيرٌ مِنْ مَوْضُوعَاتِ اللِّسَانِ الْخَمِيرِيِّ وَتَصَارِيفِ كَلِمَاتِهِ تَشْهَدُ بِذَلِكَ
الْإِنْقَالُ الْمَوْجُودَةُ لَدَيْنَا خِلَافًا لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْقُصُورُ عَلَى أَنَّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَلْتَمِسُ إِجْرَاءُ
اللُّغَةِ الْخَمِيرِيَّةِ عَلَى مَقَائِيسِ اللُّغَةِ الْمُضَرِّيَّةِ وَقَوَائِمِهَا كَمَا يَزْعُمُ بَعْضُهُمْ فِي اشْتِقَاقِ
الْقِيلِ فِي اللِّسَانِ الْخَمِيرِيِّ أَنَّهُ مِنَ الْقَوْلِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَشْبَاهِ هَذَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ
وَلُغَةُ خَمِيرٍ لُغَةٌ أُخْرَى مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ فِي الْكَثِيرِ مِنْ أَوْضَاعِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَحَرَكَاتِ
إِعْرَابِهَا كَمَا هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ لِعَهْدِنَا مَعَ لُغَةِ مُضَرٍّ إِلَّا أَنَّ الْعِنَايَةَ بِلِسَانِ مُضَرٍّ مِنْ أَجْلِ
الشَّرِيعَةِ كَمَا فَلَنَاهُ حَمَلُ ذَلِكَ عَلَى الْإِسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِقْرَاءِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَا
يَحْمِلُنَا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَبَدَعُونَا إِلَيْهِ وَمِمَّا وَقَعَ فِي لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ حَيْثُ
كَانُوا مِنَ الْأَقْطَارِ شَأْنُهُمْ فِي النُّطْقِ بِالْقَافِ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ بِهَا مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ
عِنْدَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ أَقْصَى اللِّسَانِ وَمَا فَوْقَهُ
مِنْ الْحَنَكِ الْأَعْلَى وَمَا يَنْطِقُونَ بِهَا بِضَافٍ مِنْ مَخْرَجِ الْكَافِ وَإِنْ كَانَ أَسْفَلَ مِنْ مَوْضِعِ
الْقَافِ وَمَا يَلِيهِ مِنَ الْحَنَكِ الْأَعْلَى كَمَا هِيَ بَلْ يَحْيِثُونَ بِهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْكَافِ وَالْقَافِ
وَهُوَ مَوْجُودٌ لِلْجِيلِ أَجْمَعَ حَيْثُ كَانُوا مِنْ غَرْبٍ أَوْ شَرْقٍ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَيْهِمْ
مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مُخْتَصًّا بِهِمْ لَا يُشَارِكُهُمْ بِهَا غَيْرُهُمْ حَتَّى إِنْ مَنْ يُرِيدُ التَّقَرُّبَ
وَالِإِتِّسَابَ إِلَى الْجِيلِ وَالْدُخُولَ فِيهِ يُحَاكِهُمْ فِي النُّطْقِ بِهَا وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ
الْعَرَبِيُّ الصَّرِيحُ مِنَ الدَّخِيلِ فِي الْعَرُوبِيَّةِ وَالْخُسْرِيِّ بِالنُّطْقِ بِهَذِهِ الْقَافِ وَيُظْهِرُ بِذَلِكَ
أَنَّهَا لُغَةٌ مُضَرٍّ بَعِيْنَهَا فَإِنَّ هَذَا الْجِيلَ الْبَاقِينَ مُعْظَمُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي وَلَدِ
مَنْصُورِ بْنِ عَكْرَمَةَ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مِنْ سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ
ابْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنْصُورٍ وَهُمْ إِيَّذَا الْعَهْدِ أَكْثَرُ الْأُمَمِ
فِي الْمَعْمُورِ وَأَغْلَبُهُمْ وَهُمْ مِنْ أَعْقَابِ مُضَرٍّ وَسَائِرِ الْجِيلِ مِنْهُمْ فِي النُّطْقِ بِهَذِهِ الْقَافِ

أُسْوَةٌ وَهَذِهِ اللَّغَةُ لَمْ يَتَدَعِهَا هَذَا الْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارِثَةٌ فِيهِمْ مُتَعَابِيَةٌ وَيُظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةٌ مُضَرَّ الْأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْنِهَا قَدْ أَدْعَى ذَلِكَ فَقَاهَا أَهْلُ الْبَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ إِهْدِنَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِغَيْرِ الْقَافِ الَّتِي لِهَذَا الْجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَذِرْ مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ لَمَّا نَزَلُوا الْأَمْصَارَ مِنْ لَدُنْ الْفَتْحِ وَأَهْلُ الْجِيلِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ تَخَالُطِ الْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَهَذَا يُرْجَعُ فِيمَا يُوجَدُ مِنَ اللَّغَةِ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ هَذَا مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي النُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا الْخَاصِيَّةُ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الْعَرَبِيُّ مِنَ الْعَجَمِيِّ وَالْمُضَرِّي فَتَفَعَّلَ ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمَاهِدِي الْمُبِينُ

الفصل التاسع والثلاثون

في ان لغة اهل الحضرة والامصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إِعْلَمَ أَنَّ عُرْفَ التَّخَاطُبِ فِي الْأَمْصَارِ وَبَيْنَ الْحَضَرِ لَيْسَ بِلُغَةِ مُضَرٍّ الْقَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةِ أَهْلِ الْجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنِ لُغَةِ مُضَرٍّ وَعَنِ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي لِعَهْدِنَا وَهِيَ عَنِ لُغَةِ مُضَرٍّ أَبْعَدُ قَامًا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا قَوْمٌ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنْ التَّغَايُرِ الَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ النَّحْوِ لَحْنًا وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَمْصَارِ فِي أَصْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مُبَايِنَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلُّغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلٌّ مِنْهُمْ مُتَوَحِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَأْدِيَةِ مَقْصُودِهِ وَالْإِبَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَهَذَا مَعْنَى اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ وَفَقْدَانُ الْأَعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ فَلِأَنَّ الْبُعْدَ عَنِ اللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمِثَالِطَةِ النُّجْمَةِ فَمَنْ خَالَطَ الْعَجَمَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنِ ذَلِكَ اللِّسَانِ الْأَصْلِيِّ أَبْعَدَ لِأَنَّ الْمَلَكَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالْعَلِيمِ كَمَا قُلْنَا وَهَذِهِ مَلَكَةٌ مُتَمَرِّجَةٌ مِنَ الْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنْ الْمَلَكَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لِلْعَجَمِ فَعَلَى مَقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْعَجَمِ وَيَرْبَوْنَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ الْمَلَكَةِ الْأُولَى وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ أَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ تَخَالَطَ الْعَرَبُ فِيهَا الْبَرَابِرَةَ مِنَ الْعَجَمِ يُوَفُّورِ عُمَرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكْذِبْ يَخْلُو عَنْهُمْ مُضَرٌّ

وَلَا جِيلٌ فَغَلَبَتِ الْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى مُمْتَزِجَةً وَالْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَبَعِيَ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ أُنْبَدُ وَكَذَا الْمَشْرِقُ لَمَّا غَلَبَ الْعَرَبُ عَلَى أُمَمِهِ مِنْ فَارِسَ وَالثَّرَكِ فَخَالَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي الْأَكْرَةِ وَالْفَلَاحِينَ وَالسُّبِّي الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ خَوَلًا وَدَايَاتٍ وَأَطَا رَا وَمَرَا ضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ الْمَلَكَةِ حَتَّى انْقَلَبَتْ لُغَةً أُخْرَى وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ الْجَلَالَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَصَارَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَهْلُ لُغَةٍ أُخْرَى مَخْصُوصَةً بِهِمْ مُخَالَفٌ لُغَةً مُضَرَّ وَيُخَالَفُ أَيْضًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا نَذَكُرُهُ وَكَانَتْ لُغَةُ أُخْرَى لَا سِتِحْكَامَ مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ

الفصل الرابعون

في تعليم اللسان المفدي

إِعْلَمُ أَنَّ مَلَكَةَ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيَ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَّ الَّتِي نُزِلَ بِهَا الْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةُ أُخْرَى مِنْ أَمْتِزَاجِ الْعُجْمَةِ بِهَا كَمَا قَدْ مَنَاهُ إِلَّا أَنَّ اللُّغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُنْكَسًا شَأْنِ سَائِرِ الْمَلَكَاتِ وَوَجْهَ التَّعْلِيمِ لِمَنْ يَنْبَغِي هَذِهِ الْمَلَكَةُ وَيُرُومُ تَحْصِيلَهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمُ الْقَدِيمِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيْبِهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ السَّالَفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ الْعَرَبِ فِي أَمْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ الْمُؤَلِّدِينَ أَيْضًا فِي سَائِرِ فُنُونِهِمْ حَتَّى يَنْزِلَ لِكَثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ مَنَزَلَةً مِنْ نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَلَقِنَ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحِفْظُهُ مِنْ أَسَالِيْبِهِمْ وَتَرْتِيبِ الْفَظِّهِمْ فَتَحْصُلُ لَهُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِهَذَا الْحِفْظِ وَالِاسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهَا رُسُوحًا وَقُوَّةً وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى سَلَامَةِ الطَّبَعِ وَالتَّنَمُّهِ الْحَسَنِ لِمَنَازِعِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيْبِهِمْ فِي التَّرَاكِيِبِ وَمُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ وَالذُّوقِ بِشَهْدِ ذَلِكَ وَهُوَ يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَالطَّبَعِ السَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذَكُرُ وَعَلَى قَدَرِ الْحِفْظِ وَكَثْرَةِ الْإِسْتِعْمَالِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَقُولِ الْمَصْنُوعِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةٍ مُضَرَّ وَهُوَ النَّاقِدُ الْبَصِيرُ بِالْبَلَاغَةِ فِيهَا وَمُكْنَدَا يَنْبَغِي

أَنْ يَكُونَ تَعْلَمُهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي والاربعون

في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَمَقَابِلِيسِهَا
خَاصَّةً فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ لَا تَنْفُسُ كَيْفِيَّةٍ فَلَيْسَتْ نَفْسُ الْمَلَكَةِ وَأِنَّمَا هِيَ بِمِثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ
صِنَاعَةَ مِنَ الصَّنَائِعِ عِلْمًا وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلًا مِثْلَ أَنْ يَقُولَ بَصِيرٌ بِالْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ
لِمَلَكَتِهَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِهَا الْخِيَاطَةُ هِيَ أَنْ يَدْخُلَ الْخَيْطُ فِي خَزْتِ الْأَبْرَةِ
ثُمَّ يَغْرِزُهَا فِي لَفْقِي الثَّوْبِ مُجْتَمِعِينَ وَيُخْرِجُهَا مِنْ الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمِقْدَارٍ كَذَا ثُمَّ
يَرُدُّهَا إِلَى حَيْثُ ابْتَدَأَتْ وَيُخْرِجُهَا قُدَّامَ مَنْفَذِهَا الْأَوَّلِ بِمَطَرَحٍ مَا بَيْنَ الثَّقْبَيْنِ
الْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ يَتِمَادِي عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْعَمَلِ وَيُعْطِي صُورَةَ الْحَبْكِ وَالتَّثْنِيتِ وَالتَّفْنِيعِ
وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا وَهُوَ إِذَا طُولَبَ أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ بِيَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ
شَيْئًا وَكَذَا لَوْ سُئِلَ عَالِمٌ بِالنَّجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ الْخَشَبِ فَيَقُولُ هُوَ أَنْ تَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى
رَأْسِ الْخَشَبَةِ وَتُمْسِكَ بِطَرَفِهِ وَآخِرُ قِبَالَتِكَ مُمَسِّكٌ بِطَرَفِهِ الْآخَرَ وَتَتَعَقَّبَانِهِ بَيْنَكُمَا
وَأَطْرَافُهُ الْمُضْرَسَةُ الْمُحْدَدَةُ تَقْطَعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً وَجَائِيَةً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى
آخِرِ الْخَشَبَةِ وَهُوَ لَوْ طُولِبَ بِهَذَا الْعَمَلِ أَوْ شَيْءٌ مِنْهُ لَمْ يُعْكِمُهُ وَمَكَذَا الْعِلْمُ بِقَوَانِينِ
الْإِعْرَابِ مَعَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ بِقَوَانِينِ الْإِعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ
بِكَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ وَلِلَّذَلِكَ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ جِهَابِذَةِ النُّحَاةِ وَالْمِهْرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحِيطِينَ
عِلْمًا بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أَوْ شَكْوَى
ظُلَامَةٍ أَوْ قَصْدٍ مِنْ فُسُودِهِ أَوْ خَطَأٍ فِيهَا عَنِ الصُّوَابِ وَأَكْثَرُ مِنَ اللَّحْنِ وَلَمْ يَجِدْ تَأْلِيفَ
الْكَلَامِ لِذَلِكَ وَالْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِيبِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَكَذَا نَجِدُ كَثِيرًا
مِمَّنْ يُحْسِنُ هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيُجِيدُ الْفَنَيْنِ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ إِعْرَابَ
الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ وَلَا الْمَفْعُولِ مِنَ الْجُرُورِ وَلَا شَيْئًا مِنْ قَوَانِينِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَمِنْ
هَذَا تَعَلَّمَ أَنَّ تِلْكَ الْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّهَا مُسْتَغْنِيَةٌ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَقَدْ
نَجِدُ بَعْضَ الْمِهْرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ بَصِيرًا بِحَالِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَاتِّفَاقِيٌّ
وَأَكْثَرُهُ مَا يَقَعُ لِلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سَيَبَوَيْهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَانِينِ الْإِعْرَابِ فَقَطْ

بَلْ مَلَأَ كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزْءٌ صَالِحٌ
 مِنْ تَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فَتَجِدُ الْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَالْحَاصِلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظٍّ مِنْ كَلَامِ
 الْعَرَبِ وَانْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِيهِ وَمَفَاصِلِ حَاجَاتِهِ وَتَبَيَّنَ بِهِ لِسَانُ الْمَلَكَةِ فَأَسْتَوْفَى
 تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أَتْلَعُ فِي الْإِفَادَةِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سَيِّبُونِهِ مَنْ يَغْفُلُ عَنِ
 التَّنْقِطِ لِهَذَا فَيَحْصُلُ عَلَى عِلْمِ اللِّسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مَلَكَةٌ وَأَمَّا الْمُخَالِطُونَ
 لِكِتَابِ الْمُتَأَخِّرِينَ الْعَلَدِيَّةِ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنَ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنْ أَشْعَارِ
 الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ فَقَلَّ مَا يَشْعُرُونَ لِذَلِكَ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَبِهُونَ لِشَأْنِهَا فَتَجِدُهُمْ
 يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى رُتْبَةٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُمْ أُنْعَدُوا النَّاسِ عَنْهُ وَأَهْلُ صِنَاعَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُعَلِّمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ
 لِقِيَامِهِمْ فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَالتَّنْقِطِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ التَّرَاكِبِ فِي مَجَالِسِ
 تَعْلِيمِهِمْ فَيَسْبِقُ إِلَى الْمُبْتَدِئِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ التَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ النَّفْسُ لَهَا
 وَتَسْتَعِذُّ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرُوا
 صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ مُجَرَّدًا بِمَجَرَى الْعُلُومِ بَحْثًا وَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنِ التَّنْقِطِ فِي تَرَكَيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ
 إِلَّا إِنْ أَعْرَبُوا شَاهِدًا أَوْ رَجَعُوا مَذْهَبًا مِنْ جِهَةِ الْإِقْتِضَاءِ الذِّهْنِيِّ لَا مِنْ جِهَةِ مُحَاطَةِ
 اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ الْمَنْطِقِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ
 الْجَدَلِ وَبَعُدَتْ عَنِ مَنَاحِي اللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعُدُولِهِمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي
 شَوَاهِدِ اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيْبِهِ وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْإِمْرَانِ فِي ذَلِكَ لِلْمُتَعَلِّمِ فَهُوَ
 أَحْسَنُ مَا تُفِيدُهُ الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ وَتِلْكَ الْقَوَانِينُ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلُ لِلتَّعْلِيمِ لِكِنَّهُمْ
 أَجْرُوهَا عَلَى غَيْرِ مَا قُصِدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا عِلْمًا بَحْثًا وَبَعْدُوا عَنْ ثَمَرَتِهَا وَتَعَلَّمُوا بِمَا قَرَّزَنَاهُ
 فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ حُصُولَ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ الْحِنِطِ بَيْنَ كَلَامِ
 الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ الْمِنْوَالُ الَّذِي تَسْجُوا عَلَيْهِ تَرَكَيبِهِمْ فَيَنْسَجُ هُوَ عَلَيْهِ
 وَيَنْزِلُ بِذَلِكَ مَنَزَلَةً مَنْ نَشَأَ مَعَهُمْ وَخَالَطَ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ
 الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ الْأُمُورِ كُلِّهَا
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ

الفصل الثاني والاربعون

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل

للمستعربين من العجم

اعلم ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة
البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وانها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه
بمخاوص تقع للتراكيب في إفادة ذلك فالتمكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتعمى
المهنية المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك
الوجه جهده فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم
الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التراكيب حتى لا يكاد يتعوف فيه غير متعمي
البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيباً غير جارٍ دلى ذلك المعنى بجهه ونبا عنه سمعه
بأدنى فكر بل ويغير فكر إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة فإن الملكات
إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجيلة لذلك التحل ولذلك بطن
كثير من المتفكرين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم
إعراباً وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي
ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادىء الرأي أنها
جيلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره
على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك
التي استنبطها أهل صناعة اللسان فإن هذه القوانين إنما تُفقد علماً بذلك اللسان ولا
تفيد حصول الملكة بالفعل في محالها وقد مر ذلك وإذا تقرر ذلك فمملكة البلاغة
في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب
في لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبل المعينة
والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديه
إليه ملكته الرائجة عنده وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب
وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه وجمه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين
مارس كلامهم ورُبما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية

وَالْبَيَانِيَّةُ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمَفَادَةِ بِالِاسْتِقْرَاءِ وَهَذَا أَمْرٌ
وَجَدَانِي حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا
صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِّي فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ الْأَعْرَابِ
وَالْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِي فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ
بِحُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ وَكَذَلِكَ تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكََةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ
الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطْبَتِهِمْ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذَلِكَ بِحَيْثُ يُحْصَلُ الْمَلَكََةُ
وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِّي بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ وَالْقَوَانِينِ بِمَعْرِزٍ عَنْ هَذَا
وَأَسْتَعِيرُ لِهَذِهِ الْمَلَكََةِ عِنْدَمَا تَرْتَمِخُ وَتَسْتَقِرُّ أَسْمُ الذَّوْقِ الَّذِي أَصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ
صِنَاعَةِ الْبَيَانِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِذْرَاكِ الطُّعُومِ لَكِنْ لَمَّا كَانَ يَحُلُّ هَذِهِ الْمَلَكََةُ
فِي اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ بِالْكَلَامِ كَمَا هُوَ يَحُلُّ لِإِذْرَاكِ الطُّعُومِ أَسْتَعِيرَ لَهَا اسْمَهُ
وَأَيْضًا فَهُوَ وَجَدَانِي اللِّسَانِ كَمَا أَنَّ الطُّعُومَ مُحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ
ذَلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الْأَعَاجِمَ الدَّاخِلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِثِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ
إِلَى النُّطْقِ بِهِ لِحُخَالِطَةِ أَهْلِهِ كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالْأَرْزَاقِ بِالْمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ
فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا الذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هَذِهِ الْمَلَكََةِ الَّتِي قَرَرْنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ
قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَمْرِ وَسَبَقَ مَلَكََةُ أُخْرَى إِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ أَنْ يَعْتَنُوا
بِمَا يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُ مِصْرَ يَنْتَهِي فِي الْحَوَاوِرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ
وَهَذِهِ الْمَلَكََةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا نَقَدَمَ وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي
ذَلِكَ مَلَكََةُ أُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكََةُ اللِّسَانِ الْمَطْلُوبَةِ وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ الْمَلَكََةَ
مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُسْطَرَّةِ فِي الْكِتَابِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَلَكََةِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا حَصَلَ
أَحْكَامُهَا كَمَا عَرَفْتَ وَإِنَّمَا تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكََةُ بِالْمُمَارَسَةِ وَالْإِعْيَادِ وَالتَّكْرُرِ
لِكَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَنَّ سَبْيُوِيَّهِ وَالْفَارِسِيَّ وَالزُّنْجِيَّ وَأَمْثَلَهُمْ
مِنْ فُرْسَانِ الْكَلَامِ كَانُوا أَعْجَمًا مَعَ حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ لَهُمْ فَأَعْلَمَ أَنَّ أَوْلَئِكَ
الْقَوْمَ الَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأَمَّا الْعَرَبِيُّ وَالنَّشَاءُ فَكَانَتْ
بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَاسْتَوُوا بِذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ
عَلَى غَايَةِ لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا وَكَانَتْهُمْ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَجْيَالِهِمْ

حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ اللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا فَعَمُّ وَإِنْ كَانُوا عَجَمًا فِي النَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ
 فِي اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَلْمَلَكَةَ فِي عُنُقَوَانِهَا وَاللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبِ
 أَثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمُمَارَسَةِ وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ
 الْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوَلُوا عَلَى غَايَتِهِ وَالْيَوْمَ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ اللِّسَانِ
 الْعَرَبِيَّ بِالْأَمْصَارِ فَأَوَّلَ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُعْتَبَرَةً
 الْآثَارَ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمْ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالَفَةً لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
 ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحَفِظِ
 بِسَنَفِيدٍ تَحْصِيلَهَا فَقُلْ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ
 أُخْرَى فِي الْحَقْلِ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخْذُوشَةً وَإِنْ فَرَضْنَا أُعْجَبِيًا فِي النَّسَبِ سَلِمَ
 مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكَلِمَةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْمُدَارَسَةِ
 فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ لَكِنَّهُ مِنَ الدُّوَرِ يَحِثُّ لَا يَحْتَفِي عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ وَرُبَّمَا يَدْعِي كَثِيرٌ
 مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هَذَا الذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُخَالَطَةُ وَإِنَّمَا
 حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكََةِ الْعِبَارَةِ فِي
 شَيْءٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثالث والاربعون

في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة

اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن

اللسان العربي كان حصولها له اصب واعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى التَّعَلُّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ الْمَطْلُوبَةِ
 بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الْخَضِرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ الْعُجْمَةُ حَتَّى تَزُلَ بِهَا اللِّسَانُ عَنْ
 مَلَكَتِهِ الْأُولَى إِلَى مَلَكََةٍ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ الْخَضِرِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِهَذَا نَجِدُ الْمُعَلِّمِينَ
 يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُسَابَقَةِ بِتَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلْوِلْدَانِ وَتَعْتَقِدُ النِّهَاةُ أَنَّ هَذِهِ الْمُسَابَقَةَ
 بِصَنَاعَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ وَكَلَامِ
 الْعَرَبِ نَعْمَ صِنَاعَةُ النَّحْوِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَغْرَقَ
 فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ لِسَانِ مُضَرٍ قَصَرَ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْخَضِرِيَّةِ وَحُصُولِ

مَلَكَهَا لَتَمَكَّنِ الْمُنَافَاةَ حِينَئِذٍ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَأَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ
 لَمَّا كَانُوا أَغْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ كَانَ لَهُمْ قُصُورٌ تَامٌ فِي تَحْصِيلِ
 مَلَكَتِهِ بِالْعَلِيمِ وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرَّفِيقِ أَنَّ بَعْضَ كُتَّابِ الْقَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبِ
 لَهُ يَا أَخِي وَمَنْ لَا عَدِيَتْ فَقَدْهُ أَعْلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ كَلَامًا أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ
 تَكُونُ مَعَ الَّذِينَ تَأْتِي وَعَاقِنَا الْيَوْمَ فَلَمْ يَهَيِّأْ لَنَا الْخُرُوجَ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ الْكَلَابُ مِنْ
 أَمْرِ الشَّيْنِ فَقَدْ كَذَّبُوا هَذَا بِاطِلَالٍ لَيْسَ مِنْ هَذَا حَرْفًا وَاحِدًا وَكُتَابِي إِلَيْكَ وَأَنَا مُشْتَاقٌ
 إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهَكَذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُمْ فِي اللِّسَانِ الْمُضَرِّي شَبِيهٌ بِمَا ذَكَرْنَا
 وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْمَلَكَةِ نَازِلَةً عَنِ الطَّبَقَةِ وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ بِأَفْرِيقِيَّةَ مِنْ مَشَاهِيرِ الشُّعْرَاءِ إِلَّا ابْنُ رَشِيقٍ وَابْنُ شَرْفٍ وَأَكْثَرُ
 مَا يَكُونُ فِيهَا الشُّعْرَاءُ طَارِئِينَ عَلَيْهَا وَلَمْ تَزَلْ طَبَقَتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ حَتَّى الْآنَ مَائِلَةً إِلَى
 الْقُصُورِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكَثْرَةِ مُعَانَتِهِمْ
 وَامْتِلَائِهِمْ مِنَ الْمُحْفُوظَاتِ اللَّغَوِيَّةِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَكَانَ فِيهِمْ ابْنُ حَيَّانَ الْمُرْخُ إِمَامُ
 أَهْلِ الصَّنَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَزَافِعُ الرَّايَةِ لَهُمْ فِيهَا وَابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَالْقَسْطَلِيُّ
 وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ شُعْرَاءِ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ لَمَّا زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ اللِّسَانِ وَالْأَدَبِ وَتَدَاوَلَ
 ذَلِكَ فِيهِمْ مِثْنَيْنِ مِنَ السِّنِينَ حَتَّى كَانَ الْإِنْقِضَاؤُ وَالْجَلَاءُ أَيَّامَ تَغْلِبِ النُّصْرَانِيَّةِ وَشَغْلُوا
 عَنْ تَعْلَمِ ذَلِكَ وَتَنَاقَصَ الْعُمَرَانُ فَتَنَاقَصَ لِذَلِكَ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَقَصُرَتْ الْمَلَكَةُ
 فِيهِمْ عَنْ شَأْنِهَا حَتَّى بَلَغَتْ الْحَضِيضَ وَكَانَ مِنْ آخِرِهِمْ صَالِحُ بْنُ شَرِيفٍ وَمَالِكُ بْنُ
 مَرْحَلٍ مِنْ تَلَامِيذِ الطَّبَقَةِ الْإِسْبِيلِيِّينَ بِسَبْتَةِ وَكُتَابِ دَوْلَةِ ابْنِ الْأَحْمَرِ فِي أَوَّلِهَا
 وَأَلَقَتْ الْأَنْدَلُسُ أَفْلَاذَ كَيْدِهَا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ بِالْجَلَاءِ إِلَى الْعُدُودِ لِعُدُودِ
 الْإِسْبِيلِيَّةِ إِلَى سَبْتَةِ وَمِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَى أَنْ أَنْقَرَضُوا وَأَنْقَطَعَ
 سَنَدُ تَعْلِيمِهِمْ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِعُسْرِ قَبُولِ الْعُدُودِ لَهَا وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ بِعَوَجِ السِّنِينَ
 وَرُسُوخِهِمْ فِي الْعُجْمَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَا قُلْنَاهُ ثُمَّ عَادَتْ الْمَلَكَةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 إِلَى الْأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَتْ وَنَجَّمَ بِهَا ابْنُ بَشْرِينَ وَابْنُ جَابِرٍ وَابْنُ الْجِيَابِ وَطَبَقَتُهُمْ ثُمَّ
 إِبْرَاهِيمُ السَّاحِلِيُّ الطَّرَبُجِيُّ وَطَبَقَتُهُ وَقَفَّاهُمْ ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ بَعْدِهِمُ الْهَالِكُ لِهَذَا الْعَهْدِ
 شَهِيدًا بِسَعَايَةِ أَعْدَائِهِ وَكَانَ لَهُ فِي اللِّسَانِ مَلَكَةٌ لَا تُدْرِكُ وَاتَّبَعَ أَثَرُهُ تَلْمِيذُهُ وَبِالْجُمْلَةِ

فَشَأْنُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ وَتَعْلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَمْهَلُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ كَمَا قَدَّمَاهُ مِنْ مُعَانَاةِ عُلُومِ اللِّسَانِ وَحِفَظَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ الْأَدَبِ وَسَنَدِ
 تَعْلِيمِهَا وَلِأَنَّ أَهْلَ اللِّسَانِ انْجَمُوا إِلَى الَّذِينَ تَقْسَدُ مَلَكَتُهُمْ إِنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ
 عِجَّتُهُمْ أَصْلًا لِلْفَتَى أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ وَالْبَزْبَرِ فِي هَذِهِ الْعُدُودِ وَهُمْ أَهْلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا
 إِلَّا فِي الْأَمْصَارِ فَقَطْ وَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ فِي بَحْرِ عِجَّتِهِمْ وَرِطَائِنِهِمْ الْبَزْبَرِيَّةِ فَيَضَعُ
 عَلَيْهِمْ تَحْصِيلُ الْمَلَكَةِ اللِّسَانِيَّةِ بِالتَّعْلِيمِ بِخِلَافِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِحَالِ أَهْلِ
 الْمَشْرِقِ إِمْدَادِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ فَكَانَ شَأْنُهُمْ شَأْنَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي تِمَامِ
 هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَإِجَادَتِهَا لِبُعْدِهِمْ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَنِ الْأَعَاجِمِ وَخِلَاطَتِهِمْ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ
 فَكَانَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ أَقْوَمَ وَكَانَ فُحُولُ الشُّعْرَاءِ وَالْكِتَابُ أَوْفَرَ
 لِتَوْفُرِ الْعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَانْظُرْ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْأَغَانِي مِنْ نَظْمِهِمْ
 وَنَثَرِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ هُوَ كِتَابُ الْعَرَبِ وَدِيَوَانُهُمْ وَفِيهِ لُغَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَأَيَّامُهُمْ
 وَمِلَّتُهُمْ الْعَرَبِيَّةُ وَسِيرَتُهُمْ وَأَثَارُ خُلُقَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَغِنَاؤُهُمْ وَسَائِرُ مَعَانِيهِمْ
 لَهُ فَلَا كِتَابَ أَوْعَبُ مِنْهُ لِأَحْوَالِ الْعَرَبِ وَبَقِيَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ مُسْتَحْكِمًا فِي الْمَشْرِقِ
 فِي الدَّوْلَتَيْنِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبْلَغُ مِنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَذَرُ
 بَعْدُ حَتَّى تَلَاشَى أَمْرُ الْعَرَبِ وَدُرِسَتْ لُغَتُهُمْ وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ وَانْقَضَى أَمْرُهُمْ وَدَوَّلَتُهُمْ
 وَصَارَ الْأَمْرُ لِلْأَعَاجِمِ وَالْمَلِكُ فِي أَيْدِيهِمْ وَالتَّغْلُبُ لَهُمْ وَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الدَّيْلَمِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ
 وَخَالَطُوا أَهْلَ الْأَمْصَارِ وَالْحَوَاضِرِ حَتَّى بَعْدُوا عَنِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَلَكَتِهِ وَصَارَ
 مُتَعْلِمُهَا مِنْهُمْ مُقْصِرًا عَنْ تَحْصِيلِهَا وَعَلَى ذَلِكَ نَجْدُ لِسَانِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ
 وَالْمَنْشُورِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِنْهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 عِلْمُهُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الرابع والاربعون

في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر

اعْلَمْ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فِي الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلَامُ
 الْمَوْزُونُ الْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ وَفِي
 النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ

فِي الْكَلَامِ فَأَمَّا الشِّعْرُ فَمِنْهُ الْمَدْحُ وَالْمُجَامَاةُ وَالرِّثَاءُ وَأَمَّا النَّثْرُ فَمِنْهُ السَّجْعُ الَّذِي
 يُؤْتَى بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعًا وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ
 وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا وَلَا يَقْطَعُ أَجْزَاءَهُ بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ
 تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالْدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيْبِهِمْ وَأَمَّا
 الْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْشُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا
 وَلَا مُسَجَّمًا بَلْ تَفْصِيلُ آيَاتِ بَتِّي إِلَى مَقَاطِعِ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا
 ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى بَعْدَهَا وَيَبْنَى مِنْ غَيْرِ التَّزَامِ حَرْفٌ يَكُونُ سَجْعًا
 وَلَا قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ
 جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهَا فَوَاصِلُ
 إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا التَّزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ وَأُطْلِقَ اسْمُ
 الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى النُّعُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتَصَّتْ بِأَمْرِ الْقُرْآنِ لِلْغَلْبَةِ
 فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثَّرْيَا وَلِهَذَا سُمِّيَتْ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَأَنْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ
 تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ لَكَ الْحَقُّ بِرِجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ
 الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تُخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهَا وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ النَّسِيبِ
 الْمُخْتَصِّ بِالشِّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالْدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطْبِ وَالْدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ
 وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ وَمَوَازِينَ فِي الْمَنْشُورِ مِنْ كَثَرَةِ
 الْأَسْجَاعِ وَالتَّزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمَنْشُورُ إِذَا
 تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقْ إِلَّا فِي الْوِزْنِ وَاسْتَمَرَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْكِتَابِ
 عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاسْتَعْمَلُوهَا فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفَصَرُوا الْأَسْتِعْمَالَ فِي الْمَنْشُورِ
 كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي أَرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ
 وَخُصُوصًا أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَصَارَتْ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكِتَابِ
 الْقَوَّلُ جَارِيَةٌ عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ الَّذِي أَشْرَفْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا
 بُلَاغَةُ فِي تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ الْمُخَاطَبِ وَالْمُخَاطَبِ وَهَذَا
 الْفَنُّ الْمَنْشُورُ الْمُقْفَى أَدْخَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ الْمُخَاطَبَاتُ
 السُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذَا أَسَالِيبُ الشِّعْرِ تُنَافِيهَا اللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلَطَ الْجِدُّ بِالْمَزَلِ وَالْإِطْنَابُ فِي

الْأَوْصَافِ وَضَرْبُ الْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ التَّشْبِيهَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةً إِلَى ذَلِكَ فِي الْخُطَابِ وَالْإِزَامِ التَّقْيِيَةِ أَيْضًا مِنَ الْإِذْعَةِ وَالتَّزْيِينِ وَجَلَالِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَخُطَابِ الْجُمْهُورِ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْتَرْغِيبِ وَالتَّوْهِيْبِ يُتَابَعُ ذَلِكَ وَبَيَانُهُ وَالْحَمْدُ فِي الْخُطَابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ الرَّسُلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِزْمَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ الْمَلَكَةُ إِزْمَالًا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاهُ الْكَلَامَ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِنْطَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَضْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ وَاسْتِعَارَةٍ وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْخُطَابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا النُّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِبِ الشِّعْرِ فَمَنْعُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصْرِ إِلَّا اسْتِئْلَافُ الْعُجْمَةِ عَلَى السِّنْتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ الْكَلَامَ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعِزُّوا عَنْ الْكَلَامِ الْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمْدِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَانْفِسَاحِ خُطُوبِهِ وَلَوْلَا هَذَا الْمُسْتَجْعِبُ يَلْفَقُونَ بِهِ مَا تَقْصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ وَيَجْعَلُونَهُ بِذَلِكَ الْقَدْرَ مِنَ التَّزْيِينِ بِالِاسْتِجَاعِ وَالْإِلْقَابِ الْبَدِيعَةِ وَيَخْفَلُونَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهَذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَابُ الْمَشْرِقِ وَشُعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخْلُونَ بِالْإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّضْرِيحِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرْجِعُونَ ذَلِكَ الصَّنِيفَ مِنَ التَّجْنِيسِ وَيَدْعُونَ الْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنِيتِهِ الْكَلِمَةَ عَسَاوًا تُصَادِفُ التَّجْنِيسَ فَتَأْمَلُ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الخامس والاربعون

في انه لا تنفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً الا للاقل
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا يَنْبَأُ مَلَكَةٌ فِي اللِّسَانِ فَإِذَا تَسَبَّغَتْ إِلَى مَحَلِّهِ مَلَكَةٌ أُخْرَى قَصُرَتْ بِالْمَحَلِّ عَنْ تَعَامُلِ الْمَلَكَةِ الْأَلْحَقَةِ لِأَنَّ تَعَامُلَ الْمَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا لِلطَّبَائِعِ الَّتِي عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ وَإِذَا تَقَدَّمَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى كَانَتْ مُنَازَعَةً لَهَا فِي الْمَادَّةِ الْقَابِلَةِ وَعَائِقَةً عَنْ سُرْعَةِ الْقَبُولِ فَوَقَعَتِ الْمُنَافَاةُ وَتَعَذَّرَ التَّعَامُلُ فِي الْمَلَكَاتِ الصَّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَقَدْ بَرَهْنَاهُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوِ مِنْ هَذَا

الْبُرْهَانِ فَأَعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي اللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ اللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَاعَةِ وَانْظُرْ مَنْ
تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ النُّجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِرًا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَبَدًا فَلَا تُعْجِبُ الَّذِي
سَبَقَتْ لَهُ اللُّغَةُ الْفَارْسِيَّةُ لَا يَسْتَوِي عَلَى مَلَكََةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِرًا فِيهِ
وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ وَكَذَلِكَ الْبَرْبَرِيُّ وَالرُّومِيُّ وَالْأَفْرَنْجِيُّ قُلْ أَنْ تَجِدَ أَحَدًا مِنْهُمْ مُحْكَمًا
لِمَلَكََةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَمَّا سَبَقَ إِلَى السِّتْنِهِمْ مِنْ مَلَكََةِ اللِّسَانِ الْآخَرِ
حَتَّى إِنْ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ
مُقْصِرًا فِي مَعَارِفِهِ عَنِ الْغَايَةِ وَالتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قَبْلِ اللِّسَانِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ
مَنْ قَبْلُ أَنَّ الْأَلْسُنَ وَاللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَائِعِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَمَلَكََاتِهَا لَا
تَزْدَحِمُ وَأَنْ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقُلْ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوِي فِيهَا عَلَى
الْغَايَةِ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس والاربعون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هَذَا الْفَنُّ مِنْ فُنُونِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالشَّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبُوجَدُ فِي سَائِرِ
اللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّا الْآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي الشَّعْرِ الَّذِي لِلْعَرَبِ فَإِنْ أُمِكنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ
أَهْلُ الْأَلْسُنِ الْآخَرِي مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي الْبَلَاغَةِ
مُخَصَّصٌ وَهُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْمَعْنَى إِذَا هُوَ كَلَامٌ مُفَصَّلٌ قِطْعًا
قِطْعًا مُتَسَاوِيَةً فِي الْوِزْنِ مُتَّحِدَةً فِي الْحَرْفِ الْآخِرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَاتِ
عِنْدَهُمْ يَتَنَا وَيُسَمَّى الْحَرْفُ الْآخِرُ الَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيًا وَقَافِيَةً وَيُسَمَّى جُمْلَةً
الْكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً وَيَتَفَرَّدُ كُلُّ يَتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَكَيبِهِ حَتَّى
كَأَنَّهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ وَإِذَا أُفْرِدَ كَانَ تَامًا فِي بَابِهِ فِي مَدْحٍ
أَوْ تَشْيِيبٍ أَوْ رِثَاءٍ فَيَجْرِصُ الشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذَلِكَ الْيَتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ ثُمَّ
يَسْتَأْنِفُ فِي الْيَتِ الْآخِرِ كَلَامًا آخَرَ كَذَلِكَ وَيَسْتَطِرِدُّ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِنْ
مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بَأَن يُوْطِيَ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ تُنَاسِبَ الْمَقْصُودَ الثَّانِي
وَيُعَدُّ الْكَلَامَ عَنِ التَّنَافُرِ كَمَا يَسْتَطِرِدُّ مِنَ التَّشْيِيبِ إِلَى الْمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ الْيَتِ الْيَتِ الْيَتِ
وَالطَّلُولِ إِلَى وَصْفِ الرِّكَابِ أَوْ الْخَيْلِ أَوْ الطِّيفِ وَمِنْ وَصْفِ الْمَمْدُوحِ إِلَى وَصْفِ

قَوْمِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَمِنْ التَّنَجُّعِ وَالْعَزَاءِ فِي الرِّثَاءِ إِلَى التَّأَثُّرِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُرَاعَى فِيهِ
 اتِّفَاقُ الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي الْوِزْنِ الْوَاحِدِ حَدَرًا مِنْ أَنْ يَتَسَاهَلَ الطَّبَعُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ
 وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ يُقَارِبُهُ فَقَدْ يَخْفَى ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْمُقَارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَلِهَذَا
 الْمَوَازِينَ شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ تَضَمَّنَهَا عِلْمُ الْعَرُوضِ وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَّفِقُ فِي الطَّبَعِ
 اسْتَعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِّ وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مُخْصُوصَةٌ تُسَمِّي بِهَا أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ
 الْبُحُورَ وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ بَعْرًا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنْ
 الْمَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ فَنَّ الشِّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ
 الْعَرَبِ وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ دِيْوَانَ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطَائِهِمْ وَأَصْلًا
 يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ وَحِكْمِهِمْ وَكَانَتْ مَلَكَتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَأْنُ
 الْمَلَكَاتِ كُلِّهَا وَالْمَلَكَاتُ اللَّسَانِيَّةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِالصَّنَاعَةِ وَالْإِزْتِمَاضِ
 فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى يَحْصُلَ شَبَهُ فِي تِلْكَ الْمَلَكَاتِ وَالشِّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ صَعْبُ الْمَأْخُذِ
 عَلَى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِاسْتِقْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ
 بِأَنَّهُ كَلَامٌ نَامٌ فِي مَقْصُودِهِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَتَفَرَّدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى
 نَوْعٍ تَلَطُّفٍ فِي تِلْكَ الْمَلَكَاتِ حَتَّى يُفْرَغَ الْكَلَامُ الشِّعْرِيُّ فِي قَوَالِيهِ الَّتِي عُرِفَتْ
 لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ وَيُزَيِّدُهُ مُسْتَقِيلًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ
 كَذَلِكَ ثُمَّ يَبْتَئِ وَيَسْتَكْمِلُ الْفُنُونِ الْوَاقِيةَ بِمَقْصُودِهِ ثُمَّ يَنْسَبُ بَيْنَ الْبُيُوتِ فِي
 مُوَالَاةٍ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْفُنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ وَلِصُعُوبَةِ مَنَاحِ
 وَغَوَابَةِ فَنِّهِ كَانَ يَحْكُمُ الْقَرَائِحُ فِي اسْتِجَادَةِ أَسَالِيْبِهِ وَشَحْذِ الْأَفْكَارِ فِي
 تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوَالِيهِ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَلَكََةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ
 يَحْتَاجُ بِمَخْصُوصِهِ إِلَى تَلَطُّفٍ وَمُحَاوَلَةٍ فِي رِعَايَةِ الْأَسَالِيْبِ الَّتِي اخْتَصَّتْهُ الْعَرَبُ بِهَا وَاسْتَعْمَلَهَا
 وَلَنَذْكُرْ هُنَا مَلُوكَ الْأَسْلُوبِ عِنْدَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَمَا يُرِيدُونَ بِهَا فِي إِطْلَاقِهِمْ
 أَعْلَمُ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عِنْدَهُمْ عَنِ الْمِنْوَالِ الَّذِي يُنْسَجُ فِيهِ التَّرَاكِيِبُ أَوِ الْقَالِبِ الَّذِي يُفْرَغُ
 بِهِ وَلَا يُرْجَعُ إِلَى الْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ إِفَادَتِهِ أَصْلَ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْإِعْرَابِ
 لَا بِاعْتِبَارِ إِفَادَتِهِ كَمَا لَ الْمَعْنَى مِنْ خَوَاصِ التَّرَاكِيِبِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ
 لَا بِاعْتِبَارِ الْوِزْنِ كَمَا اسْتَعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ فِيهِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْعَرُوضِ فَهَذِهِ الْعُلُومُ

الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كناية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالألقاب أو الدنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرومها فيه رصا كما يفعل البناء في القالب أو النسيج في المنوال حتى يتسع القالب بمحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلؤل في الشعر يكون مخاطب الطلؤل كقوله يا دار مية بالعلياء فالسند ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله فإنا نسأل الدار التي خف أهلها أو باستنكاء الصحب على الطلل كقوله فإنا نبك من ذكرى حبيب ومثزل أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله ألم تسأل فتخبرك الرسوم ومثل تحية الطلؤل بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله حي الديار بجانب الغزل أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله

أَسْقَى طُلُوعُ أَجَشِّ هَزِيمٍ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نُفْرَةٌ وَنَعِيمُ
أَوْ سُؤَالُهُ السَّقِيَا لَهَا مِنَ الْبَرْقِ كَقَوْلِهِ
يَا بَرْقُ طَالِعِ مَنَزِلًا بِالْأَبْرِقِ وَأَخِذِ السَّحَابَ لَهَا حِدَاءَ الْأَبْنِقِ
أَوْ مِثْلَ التَّفَجُّعِ فِي الْجَزَعِ بِاسْتِدْعَاءِ الْبُكَاءِ كَقَوْلِهِ
كَذَا فَلْيَجِلْ الْخُطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لِعَيْشٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عَذْرُ
أَوْ بِاسْتِعْظَامِ الْحَادِثِ كَقَوْلِهِ أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَوْ بِالسَّجِيلِ عَلَى
الْأَكْوَانِ بِالصُّبْحَةِ لِنَقْدِهِ كَقَوْلِهِ
مَنَابِتُ الْعُشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ مَضَى الرَّدَى بِطَوِيلِ الرُّنْحِ وَالْبَاعِ
أَوْ بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَفَجَّعْ لَهُ مِنَ الْجُمَادَاتِ كَقَوْلِ الْخَارِجِيَّةِ
أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكَ مُورِقَا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ
أَوْ بِتَهْنِئَةٍ فَرِيْقَهُ بِالرَّاحَةِ مِنْ ثِقَلِ وَطْأَتِهِ كَقَوْلِهِ
أَلْقَى الرِّيحَ مَاحَ رَيْعَةً بَنُ نِزَارٍ أَوْدَى الرَّدَى بِفَرِيقِكَ الْمِفْوَارِ

وَأَمثال ذلك كثير من سائر فنون الكلام ومذاهبه وتنظيم التراكيب فيه
بالجمل وغير الجمل إنشائية وخبرية اسمية وفعليّة مثقفة وغير مثقفة مفصولة وموصولة
على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك
فيه ما تستفيد به بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن
من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فإن مؤلف الكلام هو
كاتبه أو النساخ والصورة الذهنية المنطقية كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال
الذي ينسج عليه فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسداً
ولا نقول إن معرفة قوانين البلاغة كافية لذلك لأننا نقول قوانين البلاغة إنما هي قواعد
علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على مبناها الخاصة بالقياس وهو قياس
علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإغريقية وهذه الأساليب التي نبحث
نقريها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب
في شعر العرب لجرانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها
والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق وإن
القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليلها بوجه وليس كل ما يصح في قياس
كلام العرب وقوانينه العلمية استعماله وإنما المستعمل عندهم من ذلك إنما
معروفة بطلع عليها الحافظون لكلامهم تدرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية
فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب
كان نظراً في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس ولهذا قلنا إن المحصل
لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما
تكون في المنظوم تكون في المتن فإن العرب استعمالوا كلامهم في كلا النوعين
وجاءوا به مفصلاً في النوعين ففي الشعر باقطة الموزونة والقوافي المقيدة
واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المتن يعتبرون الموزونة والمثابة
بين القطع غالباً وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة
في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو الذي يبنى مؤلف الكلام عليه تأليفه
ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرّد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية

قَالَ كَلِّمْ مُطْلَقَ يَحْدُو حَدُّهُ فِي التَّأْلِيفِ كَمَا يَحْدُو الْبِنَاءُ عَلَى الْقَالِبِ وَالنَّسَاجُ عَلَى الْمِنْوَالِ فَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مُتَفَرِّدًا عَنْ نَظَرِ النَّحْوِيِّ وَالْبَيِّنِيِّ وَالْعَرُوفِيِّ نَعَمْ إِنْ مُرَاعَاةَ قَوَائِنِ هَذِهِ الْعُلُومِ شَرَطٌ فِيهِ لَا يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا تَحَصَّلَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا فِي الْكَلَامِ اخْتَصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظَرِ لَطِيفٍ فِي هَذِهِ الْقَوَالِبِ الَّتِي يُسَبِّغُهَا أَسَالِيبَ وَلَا يُفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ الْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى الْأَسْلُوبِ مَا هُوَ فَلَنَذْكُرَ بَعْدَهُ حَدًّا أَوْ رَسْمًا لِلشَّعْرِ بِهِ تَقْتَضِيهِمْ حَقِيقَتَهُ عَلَى صُعُوبَةٍ هَذَا الْغَرَضُ فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ وَقَوْلُ الْعَرُوفِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُتَقَفَّى لَيْسَ بِحَدِّ لِهَذَا الشَّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدِّهِ وَلَا رَسْمٍ لَهُ وَصِفَاتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشَّعْرِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْوِزْنِ وَالْقَوَالِبِ الْخَاصَّةِ فَلَا جَرَمَ إِنْ حَدَّثَهُمْ ذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ فَتَقُولُ الشَّعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَلِغُ الْمَبْنِي عَلَى الْأَسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ الْمَفْصَّلِ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي الْوِزْنِ وَالرُّوْيِ مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْخُصُوصَةِ بِهِ فَقَوْلُنَا الْكَلَامُ الْبَلِغُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا الْمَبْنِي عَلَى الْأَسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ فَصْلٌ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهُ فِي الْقَالِبِ لَيْسَ بِشَّعْرِ وَقَوْلُنَا الْمَفْصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ الْوِزْنِ وَالرُّوْيِ فَصْلٌ لَهُ عَنِ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ الَّذِي لَيْسَ بِشَّعْرِ عِنْدَ الْكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَا تَكُونُ آيَاتُهُ إِلَّا كَذَلِكَ وَلَمْ يَفْصَلْ بِهِ شَيْءٌ وَقَوْلُنَا الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيبِ الْخُصُوصَةِ بِهِ فَصْلٌ لَهُ عَمَّا لَمْ يُجْرَ مِنْهُ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَعْرُوفَةِ فَإِنَّهُ جَبْتِيذٌ لَا يَكُونُ شِعْرًا إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَهُ أَسَالِيبُ مُخَصَّصَةٌ لَا تَكُونُ لِلْمَنْثُورِ وَكَذَا أَسَالِيبُ الْمَنْثُورِ لَا تَكُونُ لِلشَّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْظُومًا وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الْأَسَالِيبِ فَلَا يَكُونُ شِعْرًا وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ كَانَ الْكَثِيرُ مِنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُبُوحِنَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْأَدَبِيَّةِ يَرَوْنَ أَنَّ نَظْمَ الْمَتَنِ وَالْمَعْرِي لَيْسَ هُوَ مِنَ الشَّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يُجْرِيَا عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَمْرِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشَّعْرَ يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيبِ الْخُصُوصَةِ وَإِذَا قَدْ فَرَعْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشَّعْرِ فَلَنَرْجِعْ

لَى الْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ عَمَلِهِ فَنَقُولُ . إَعْلَمُ أَنَّ لِعَمَلِ الشِّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا
 أَوَّلَهَا الْحِفْظُ مِنْ جَنْسِهِ أَيْ مِنْ جَنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يَنْسَجُ
 عَلَى مَنَوَالِهَا وَبِتَخْيِيرِ الْحَفَظِ مِنَ الْحَرِّ النَّفْيِ الْكَثِيرِ الْأَسَالِبِ وَهَذَا الْحَفَظُ الْمُخْتَارُ
 أَقَلُّ مَا يَكْفِي فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْفُحُولِ الْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلِ ابْنِ أَبِي رَيْعَةَ وَكَثِيرٍ
 وَذِي الرُّمَّةِ وَجَرِيرٍ وَأَبِي نُوَّاسٍ وَحَبِيبٍ وَالتَّبَّخَرِيِّ وَالرُّضِيِّ وَأَبِي فِرَاسٍ وَأَكْثَرُهُ
 شِعْرُ كِتَابِ الْأَغَانِي لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهِ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ
 الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ الْحَفَظِ فَتَنْظُمُهُ قَاصِرٌ رَدِيٌّ وَلَا يُعْطِيهِ الرُّوْنَقُ وَالْحَلَاوَةُ
 إِلَّا كَثَرَةُ الْحَفَظِ فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عَدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ
 وَاجْتِنَابُ الشِّعْرِ أَوَّلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُحَفَّظٌ ثُمَّ بَعْدَ الْأَمْثَلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ وَشُحْدِ الْقَرِيجَةِ
 لِلنَّسَجِ عَلَى الْمِنَوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النَّظْمِ وَبِالْإِكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتُهُ وَتَرْتَسِّخُ
 وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانُ ذَلِكَ الْحَفَظِ لِشُحْيِ رُسُومِهِ الْحَرْفِيَّةِ الظَّاهِرَةِ إِذْ
 هِيَ صَادِرَةٌ عَنْ اسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ الْأُسْلُوبُ
 فِيهَا كَأَنَّهُ مَنَوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسَجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةٌ ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ
 مِنَ الْخُلُوعِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ وَكَذَا السَّمْعُ
 لِاسْتِنَارَةِ الْقَرِيجَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمِلَازِ السُّرُورِ ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ
 يَكُونَ عَلَى جَهَامٍ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أَجْمَعٌ لَهُ وَأَنْشَطُ الْقَرِيجَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمِنَوَالِ
 الَّذِي فِي حِفْظِهِ قَالُوا وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبُكْرِ عِنْدَ الْهَبُوبِ مِنَ النَّوْمِ
 وَفَرَاغِ الْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ الْجَمَامِ وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَاعِيهِ الْعِشْقُ
 وَالْإِنْشَاءُ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْفَرَدَ بِهِ فِيهِ
 الصِّنَاعَةُ وَإِعْطَاءُ حَقِّهَا وَلَمْ يَكُشِبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَالُوا فَإِنْ اسْتَضَعَبَ
 عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَتَرَكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلَا يُكْرَهُ نَفْسُهُ عَلَيْهِ وَلَيْكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ
 عَلَى الْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْنِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضُهَا وَبَنِي الْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ
 عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعُبَ عَلَيْهِ وَضَعُهَا فِي مَحَلِّهَا فَرُبَّمَا تَجِبِي نَافِرَةٌ قَلِقَةٌ وَإِذَا مَتَّحَ
 الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ فَلْيَتَرَكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْتَقِي بِهِ فَإِنْ هُكِّلَ
 بَيْتٌ مُسْتَقِلٌ بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسَبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ

الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضمن به على الترك إذا لم يبلغ الإجابة فإت
الإنسان مفتون بشعره إذ هو نبات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من
الكلام إلا الألفصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية فليعجزها فإنها
تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حطرت أئمة اللسان المولد من ارتكاب
الضرورة إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة ويحجب
أيضا المعقد من التراكيب بهذه وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق اللفظة إلى
الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم وإنما
الختار منه ما كانت اللفظة طبقا على معانيه أو أوفى فإن كانت المعاني كثيرة
كان حشوا واستعمل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من
البلاغة ولا يكون الشعر مهلا إلا إذا كانت معانيه تسابق اللفظة إلى الذهن ولهذا
كان شيوخنا رحمهم الله يعيرون شعر أبي بكر^(١) بن خفاجة شاعر الأندلس لكثرة
معانيه وأزدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيرون شعر المتنبي والمعري بعدم
النسج على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة
الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضا الخوضي من الألفاظ والمقصر
وكذلك السوفي المبتذل بالتداول بالاسم عمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة
البلاغة أيضا فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الإفادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا
وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان ولهذا
كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجابة في الغالب ولا يصدق فيه إلا
القول وفي القليل على العشر لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك وإذا
تعد الشعر بعد هذا كله فليروا وضه ويعاوده فإن القرينة مثل الفرع يدر بالأمراء
ويجف بالترك والاهمال وبالجمله فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة
لابن رشيقي وقد ذكرنا منها ما حصرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك فعليه
بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس
في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيقي

(١) قوله أبي بكر وفي نسخة أبي اسحاق الخ

لَعَنَ اللَّهُ صَنَعَةَ الشِّعْرِ مَاذَا مِنْ صُنُوفِ الْجَهَالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤَثِّرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا كَانَ سَهْلًا لِلْسَّامِعِينَ مُبِينًا
وَيَزُونَ الْحُكَّانَ مَعْنَى صَحِيحًا وَخَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينًا
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدْرُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ
فَهُمْ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا بِلَا مُومَنَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعَذَّرُونَ
إِنَّمَا الشِّعْرُ مَا يَنْسَبُ فِي النِّظْمِ وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فَنُونَا
فَأَيُّ بَعْضُهُ بِشَاكِلٍ بَعْضًا وَأَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمُتُونَا
كُلُّ مَعْنَى أَنَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا تَمَنَّى وَلَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْتَ كَادَ حُسْنًا بَيْنَ النَّاطِرِينَ
فَكَانَ الْأَلْفَاظُ مِنْهُ وَجُوهٌ وَالْمَعَانِي رُكْبَيْنَ فِيهَا عِيُونَا
إِنَّمَا فِي الْمَرَامِ حَسَبُ الْأَمَانِي يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ الْمُتَشِدُّونَا
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِالشِّعْرِ حُرًّا رُمْتَ فِيهِ مَذَاهِبُ الْمُشْتَبِهِينَ
فَجَعَلْتَ النَّسِيبَ سَهْلًا قَرِيبًا وَجَعَلْتَ الْمَدِيحَ صِدْقًا مُبِينًا
وَتَنَكَّبْتَ مَا يُهْجَنُ فِي السَّمْعِ وَإِنْ كَانَتْ لَفْظُهُ مَوْزُونًا
وَإِذَا مَا عَرَضَتْهُ بِهَجَاءٍ عِبَتْ فِيهِ مَذَاهِبُ الْمُزْهِينَا
فَجَعَلْتَ التَّضَرُّجَ مِنْهُ دَوَاءً وَجَعَلْتَ التَّعْرِيضَ دَاءً دَفِينًا
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْعَالَمِ دِينَ يَوْمًا لِلْبَيْتِ وَالظَّاعِنِينَ
حُلَّتْ دُونَ الْأَمَى وَذَلَّتْ مَا كَامَنَ مِنَ الدَّمْعِ فِي الْعَيُونِ مَصُونَا
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ غَائِبًا جِئْتَ بِالْوَعْدِ وَعَيْدًا وَبِالصُّعُوبَةِ يِينَا
فَتَرَكَتَ الَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ حَدِيرًا أَمِنًا عَزِيزًا مَهِينَا
وَأَصَحَّ الْقَرِيبُ مَا قَارَبَ النِّظْمُ وَإِنْ كَانَ وَاضِحًا مُسْتَبِينَا
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعَ النَّاسَ طَرًّا وَإِذَا رِيمَ الْعَجْزِ الدُّعْجَرِينَ

ومن ذلك ايضا قول بعضهم

الشِّعْرُ مَا قَوَّمتَ رَبْعَ صُدُورِهِ وَشَدَدْتَ بِالْتَهْدِيبِ أَسْمَ مُتُونِهِ
وَرَأَيْتَ بِالْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحْتَ بِالْإِيحَازِ عَوْرَ عِيُونِهِ

وَجَمَعَتْ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ وَجَمَعَتْ بَيْنَ مُحِبِّهِ وَمَعِينِهِ
وَإِذَا مَدَحَتْ بِهِ جَوَادًا مَاجِدًا وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ دُبُونِهِ
أَصْفَيْتَهُ بِتَفَتُّشٍ وَرَضَيْتَهُ وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
فَيَكُونُ جَزَلًا فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ وَيَكُونُ سَهْلًا فِي اتِّفَاقِ فَنُونِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَاهْلَهَا أَجَرَيْتَ لِلْعَزُورِ مَاءَ شُؤُونِهِ
وَإِذَا أَرَدْتَ كِتَابَةً عَنْ رِيَّةٍ بَايَنْتَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ يَشُوبُهُ وَظُنُونَهُ بِقِيَّةٍ

الفصل السابع والاربعون

في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني

اعلم ان صناعة الكلام نظماً ونثراً انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تبع لها وهي اصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها في الالفاظ بحفظ امثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريته على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وايد نشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقيها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك انا قدمننا ان لسان ملكة من الملكات في النظم يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي في اللسان والنظم انما هو الالفاظ واما المعاني فهي في الضمائر وايضا فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة وتاليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها انية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتأليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض

وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِفَقْدَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

الفصل الثامن والاربعون

في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَثَرَةِ الْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعَلَّمَ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ وَعَلَى قَدَرِ
جُودَةِ الْمُحْفَظِ وَطَبَقَتِهِ فِي جِنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قِلَّتِهِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَلَكَةِ الْحَاصِلَةِ
عِنْدَ الْحَافِظِ فَمَنْ كَانَ يَحْفَظُهُ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوْ الْعِتَابِيَّ أَوْ ابْنَ الْمُحْتَرِّ أَوْ ابْنَ هَانِيٍّ أَوْ
الشَّرِيفِ الرَّخِيَّ أَوْ رَسَائِلَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ أَوْ سَهْلَ ابْنِ هَارُونَ أَوْ ابْنَ الزِّيَّاتِ أَوْ الْبَدِيعِ
أَوْ الصَّائِيَّ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجُودَ وَأَعْلَى مَقَامًا وَرَتَبَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ابْنِ
سَهْلٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَوْ ابْنِ النَّبِيِّ أَوْ تَرْسُلَ الْبَيْسَانِيِّ أَوْ الْعِمَادِ الْأَصْبَهَانِيِّ لِزَوَلِ
طَبَقَةِ هَؤُلَاءِ عَنْ أَوْلَئِكَ بَظَهَرُ ذَلِكَ لِلْبَصِيرِ النَّافِدِ صَاحِبِ الذَّوْقِ وَعَلَى مِقْدَارِ جُودَةِ
الْمُحْفَظِ أَوْ السَّمْعِ تَكُونُ جُودَةُ الْإِسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ الْمَلَكَةِ مِنْ
بَعْدِهِمَا فَيَا رَتَقَاءَ الْمُحْفَظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ الْكَلَامِ تَرْتَقِي الْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ لِأَنَّ الطَّبْعَ
إِنَّمَا يَنْسُجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَتَنْمُو قُوَى الْمَلَكَةِ بِتَغْذِيَّتِهَا وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي
جِبَلَتِهَا وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي الْبَشَرِ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ فِي الْإِدْرَاكَاتِ وَاخْتِلَافِهَا
إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ الْإِدْرَاكَاتِ وَالْمَلَكَاتِ وَالْأَلْوَانِ الَّتِي تُكَيِّفُهَا
مِنْ خَارِجٍ فَبِهَذِهِ يَتِمُّ وَجُودُهَا وَتَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ صُورَتِهَا وَالْمَلَكَاتُ الَّتِي
تَحْصُلُ لَهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ عَلَى التَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَالْمَلَكَةُ الشَّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ الشَّعْرِ
وَمَلَكَةُ الْكِتَابَةِ بِحِفْظِ الْأَسْجَاعِ وَالتَّرْسِيلِ وَالْعِلْمِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ الْعُلُومِ وَالْإِدْرَاكَاتِ
وَالْأَبْجَاتِ وَالْأَنْظَارِ وَالْفَقِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ الْفَقْهِ وَتَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَخْرِيجِ الْفُرُوعِ
عَلَى الْأَصُولِ وَالتَّصَوُّفِيَّةُ الرِّبَانِيَّةُ بِالْعِبَادَاتِ وَالْأَذْكَارِ وَتَعْطِيلِ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ
بِالْخُلُوعِ وَالْإِتْقَادِ عَنِ الْخَلْقِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُ مَلَكَةُ الرَّجُوعِ إِلَى حِسِّهِ الْبَاطِنِ
وَرُوحِهِ وَيَنْقَلِبُ رِبَانِيًّا وَكَذَا سَائِرُهَا وَالنَّفْسُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْ أَنَّ تَكَيِّفُ بِهِ وَعَلَى
حَسَبِ مَا نَشَأَتْ الْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ فِي نَفْسِهَا
فَمَلَكَةُ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ الطَّبَقَةِ فِي جِنْسِهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِحِفْظِ الْعَالِيِ فِي طَبَقَتِهِ مِنْ
الْكَلَامِ وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ الْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي الْبَلَاغَةِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ

يَسْبِقُ إِلَى مَحْفُوظِهِمْ وَيَمْتَلِي بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفَقْهِيَّةِ الْخَارِجَةِ عَنْ
 اسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّازِلَةِ عَنِ الطَّبَقَةِ لِأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعُلُومِ لَا حَظَّ لَهَا فِي
 الْبَلَاغَةِ فَإِذَا سَبَقَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظُ إِلَى الْفِكْرِ وَكَثُرَ وَتَلَوْنَتْ بِهِ النَّفْسُ جَاءَتْ الْمَلَكَةُ
 النَّاشِئَةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ وَانْحَرَفَتْ عِبَارَاتُهُ عَنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ وَهَكَذَا
 مَجِدُ شِعْرِ الْفُقَهَاءِ وَالنُّحَاةِ وَالْمَتَكَلِّمِينَ وَالنُّظَّارِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَمْ يَمْتَلِي مِنْ حِظِّ النُّقْيِ
 الْحَزَنُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . أَخْبَرَنِي صَاحِبُنَا الْفَاضِلُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ رِضْوَانَ كَاتِبُ الْعَلَامَةِ
 بِالْأُذُلَةِ الْمَرْبُوبَةِ قَالَ ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أبا الْعَبَّاسِ بْنَ شُعَيْبٍ كَاتِبَ السُّلْطَانِ
 أَبِي الْحَسَنِ وَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي الْبَصْرِ بِاللِّسَانِ لِعَهْدِهِ فَأَنْشَدَنِي مَطْلِعَ قَصِيدَةِ ابْنِ النَّحْوِيِّ
 وَلَمْ أَنْسِبْهَا لَهُ وَهُوَ هَذَا

لَمْ أَذْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالْأَطْلَالِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ جَدِيدِهَا وَالْبَالِي
 فَقَالَ لِي عَلَى الْبَدِيهَةِ هَذَا شِعْرٌ فَقِيهِ فَقُلْتُ لَهُ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ فَقَالَ مِنْ قَوْلِهِ مَا
 الْفَرْقُ إِذْ هِيَ مِنْ عِبَارَاتِ الْفُقَهَاءِ وَابْتَسَتْ مِنْ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَقُلْتُ لَهُ اللَّهُ أَبُوكَ
 إِنَّهُ ابْنُ النَّحْوِيِّ . وَأَمَّا الْكِتَابُ وَالشُّعْرَاءُ فَلْيَسُوا كَذَلِكَ لِتَخْيِرِهِمْ فِي مَحْفُوظِهِمْ
 وَمَحْظَاتِهِمْ كَلَامَ الْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي التَّرْسُلِ وَانْتِقَائِهِمْ لَهُمْ الْجَيِّدُ مِنَ الْكَلَامِ .
 ذَاكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أبا عَبْدِ اللَّهِ بْنَ الْخَطِيبِ وَزَيْرَ الْمَلُوكِ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ بَنِي
 الْأَحْمَرِ وَكَانَ الصَّدْرُ الْمُقَدَّمُ فِي الشُّعْرِ وَالْكِتَابَةِ فَقُلْتُ لَهُ أَجِدُ اسْتِغْنَاءًا عَلَيَّ فِي
 نَظْمِ الشُّعْرِ مَتَى رُمْتُهُ مَعَ بَصَرِي بِهِ وَحِظِّي لِلْجَيِّدِ مِنَ الْكَلَامِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَفُنُونِ
 مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَ مَحْفُوظِي قَلِيلًا وَإِنَّمَا أَتَيْتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ قَبْلِ مَا حَصَلَ فِي
 حِظِّي مِنَ الْأَشْعَارِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ الثَّائِفِيَّةِ فَإِنِّي حَفِظْتُ قَصِيدَتِي الشَّاطِئِي الْكُبْرَى
 وَالصُّغْرَى فِي الْقِرَاءَاتِ وَتَدَارَسْتُ كِتَابِي ابْنَ الْحَاجِبِ فِي الْفِقْهِ وَالْأُصُولِ وَجُمَلَ
 الْخَوْنَجِيِّ فِي الْمَنْطِقِ وَبَعْضَ كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَكَثِيرًا مِنْ قَوَانِينِ التَّعْلِيمِ فِي الْمَجَالِسِ
 فَأَمَّا مَحْفُوظِي مِنْ ذَلِكَ وَخُدُشُ وَجْهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي اسْتَعَدَدْتُ لَهَا بِالْمَحْفُوظِ الْجَيِّدِ مِنَ
 الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ تُعَاقُ الْقَرِيبَةَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَنْظُرُ إِلَيَّ سَاعَةً مُعْجِبًا ثُمَّ قَالَ
 اللَّهُ أَنْتَ وَهَلْ يَقُولُ هَذَا إِلَّا مِثْلُكَ . وَيُظْهِرُ لَكَ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ وَمَا تَقَرَّرَ فِيهِ سِرٌّ آخَرُ
 وَهُوَ إِعْطَاءُ السَّبَبِ فِي أَنَّ كَلَامَ الْأَسْلَامِيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ أَعْلَى طَبَقَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ وَأَذْوَقِهَا

مِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَثُورِهِمْ وَمَنْظُومِهِمْ فَإِنَّا نَجِدُ شِعْرَ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ وَعُمَرَ بْنِ
 أَبِي رَيْعَةَ وَالْحُطَيْثَةَ وَجَرِيرَ وَالْفَرَزْدَقَ وَنُصَيْبَ وَغِيْلَانَ ذِي الرُّمَّةَ وَالْأَخُوَصَ وَبَشَّارَ
 ثُمَّ كَلَامَ السَّلَفِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَصَدْرًا مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي
 خُطْبِهِمْ وَتَرْسِيلِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ لِلْمُلُوكِ أَرْفَعَ طَبَقَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ وَعَنْتَرَةَ
 وَابْنَ كَلْثُومٍ وَزُهَيْرَ وَعَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدَةَ وَطَرْفَةَ بْنَ الْعَبْدِ وَمِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَثُورِهِمْ
 وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَالطَّبْعُ السَّلِيمُ وَالذَّوْقُ الصَّحِيحُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ لِلنَّاقِدِ الْبَصِيرِ بِالْبَلَاغَةِ وَالسَّبَبِ
 فِي ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا إِلَّا سَلَامَ سَمِعُوا الطَّبَقَةَ الْعَالِيَةَ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْقُرْآنِ
 وَالْحَدِيثِ الَّذِينَ عَجَزَ الْبَشَرُ عَنْ الْإِتْيَانِ بِمِثْلَيْهِمَا لِكُونِهَا وَلَجَتْ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَشَأَتْ
 عَلَى أَسَالِيهَا نَفُوسُهُمْ فَهَضَمَتْ طِبَاعُهُمْ وَأَزْنَقَتْ مَلَكَتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى
 مَلَكَاتٍ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الطَّبَقَةَ وَلَا نَشَأَ عَلَيْهَا
 فَكَانَ كَلَامُهُمْ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ أَحْسَنَ دِيبَاجَةٍ وَأَصْنَى رَوْنَقًا مِنْ أَوْلَئِكَ وَأَرْصَفَ
 مَبْنًى وَأَعْدَلَ ثَقِيفًا بِمَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَالِي الطَّبَقَةَ وَتَأَمَّلْ ذَلِكَ بِشَهْدِكَ
 بِهِ ذَوْفَكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ وَالْبَصَرِ بِالْبَلَاغَةِ وَلَقَدْ سَأَلْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا الشَّرِيفَ
 أَبَا الْقَاسِمِ قَاضِي غَرْنَاطَةَ لِعَهْدِنَا وَكَانَ شَيْخَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَخَذَ بِسَبْتَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ
 مُسْتَفِيهِهَا مِنْ تَلَامِيذِ الشُّلُوبِيِّينَ وَاسْتَجَرَّ فِي عِلْمِ اللِّسَانِ وَجَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ فِيهِ فَسَأَلْتُهُ
 يَوْمًا مَا بَالُ الْعَرَبِ إِلَّا سَلَامِيَّتَيْنِ أَعْلَى طَبَقَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ مِنَ الْجَاهِلِيِّينَ وَلَمْ يَكُنْ
 لِيَسْتَنْبِكِرَ ذَلِكَ بِذَوْقِهِ فَسَكَتَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ لِي وَاللَّهِ مَا أَذْرِي فَقُلْتُ أَعْرِضْ عَلَيْكَ
 شَيْئًا ظَهَرَ لِي فِي ذَلِكَ وَلَعَلَّهُ السَّبَبُ فِيهِ وَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الَّذِي كَتَبْتُ فَسَكَتَ مُعْجِبًا
 ثُمَّ قَالَ لِي يَا فُقَيْهَ هَذَا كَلَامٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ وَكَانَ مِنْ بَعْدِيهَا يُؤَثِّرُ
 مُحَلِّي وَيُصَيِّغُ فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ إِلَى قَوْلِي وَيَشْهَدُ لِي بِالنَّبَاهَةِ فِي الْعُلُومِ وَاللَّهُ خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ

الفصل التاسع والاربعون

في ترفع اهل المراتب عن اتحال الشعر

اعْلَمْ أَنَّ الشِّعْرَ كَانَ دِيْوَانًا لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحِكْمَتُهُمْ وَكَانَ رُؤْسًا
 الْعَرَبِ مُنَافِسِينَ فِيهِ وَكَانُوا يَقِفُونَ بِسُوقِ عُكَاظَ لِإِنْشَادِهِ وَعَرَضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

دِيَابَجَتُهُ عَلَى فُحُولِ الشَّانِ وَأَهْلِ الْبَصَرِ لِتَمْيِيزِ حَوَالِهِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْمَنَافِعِ فِي تَعْلِيْقِ
 أَشْعَارِهِمْ بِأَزْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَوْضِعِ حُجَّتِهِمْ وَبَيْتِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ
 ابْنُ حُجْرٍ وَالنَّابِغَةُ الذُّيَّانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَاحٍ وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ وَطَارِقَةُ بْنُ الْعَبْدِ
 وَعَلَقَمَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالْأَعَشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ
 إِلَى تَعْلِيْقِ الشِّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصِيَّتِهِ وَمَكَانِهِ فِي مَضَرٍّ عَلَى
 مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمُعَلَّقَاتِ ثُمَّ انْتَصَرَفَ الْعَرَبُ عَنْ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ بِمَا
 شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَمَا أَدْهَشَهُمْ مِنْ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ
 فَأَخْرَسُوا عَنْ ذَلِكَ وَسَكَنُوا عَنِ الْخَوْضِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَمَا نَأْتُمْ أَنْتَقِرَ ذَلِكَ وَأَوْنِسَ
 الرَّشِدُ مِنَ الْعِلَّةِ وَلَمْ يَنْزِلِ الْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ الشِّعْرِ وَحُظْرِهِ وَتَمِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ وَأَثَابَ عَلَيْهِ فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلَى دِيَابَجَتِهِمْ مِنْهُ وَكَانَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ كَبِيرُ
 فُرُشٍ لِذَلِكَ الْعَهْدِ مَقَامَاتٌ فِيهِ عَالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مُرْتَفَعَةٌ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَعْزِضُ شِعْرَهُ عَلَى
 ابْنِ عَبَّاسٍ فَيَقِفُ لِاسْتِجَاءِهِ مُجِيبًا بِهِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَالِدُؤُلَّةِ الْعَزِيزَةُ
 وَأَقْرَبُ إِلَيْهِمُ الْعَرَبُ بِأَشْعَارِهِمْ بِمَتَدَحُونِهِمْ بِهَا وَيُحْيِزُهُمُ الْخُلَفَاءُ بِأَعْظَمِ الْجَوَائِزِ عَلَى
 نِسْبَةِ الْجُودَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَمَكَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَعْرِضُونَ عَلَى أَسْتِهْدَاءِ أَشْعَارِهِمْ يَطْلَعُونَ
 مِنْهَا عَلَى الْأَثَارِ وَالْأَخْبَارِ وَاللُّغَةِ وَشَرَفِ اللِّسَانِ وَالْعَرَبُ يُطَالِبُونَ وَلَدَهُمْ بِحِفْظِهَا وَلَمْ
 يَزَلْ هَذَا الشَّانُ أَبَامَ بَنِي أُمَيَّةَ وَصَدْرًا مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَنْظَرُ مَا تَقَلَّهُ صَاحِبُ الْعِقْدِ
 فِي مُسَامَرَةِ الرَّشِيدِ لِلْأَصَمِيِّ فِي بَابِ الشِّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ تَجِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّشِيدُ مِنَ
 الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ وَالرُّسُوحِ فِيهِ وَالْعِنَايَةِ بِإِتِّحَالِهِ وَالتَّبَصُّرِ بِجَيِّدِ الْكَلَامِ وَرَدِّئِهِ وَكَثْرَةِ
 مَحْفُوظِهِ مِنْهُ ثُمَّ جَاءَ خَلْقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُمْ مِنْ أَجْلِ الْعَجْزَةِ وَانْقِصَارِهَا
 بِاللِّسَانِ وَإِنَّمَا تَعَلَّوْهُ صِنَاعَةً ثُمَّ مَدَحُوا بِأَشْعَارِهِمْ أَمْرَاءَ الْعَجَمِ الَّذِينَ لَيْسَ الْإِنْسَانُ لَهُمْ
 طَالِبِينَ مَعْرِفَتِهِمْ فَقَطْ لَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَغْرَاضِ كَمَا فَعَلَهُ حَبِيبٌ وَابْنُ حُجْرٍ وَالْمُتَشَبِّهُ
 وَابْنُ هَانِيٍّ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمُّ جَرًّا فَصَارَ غَرَضُ الشِّعْرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ الْكَيْبُ
 وَالْإِسْتِجْدَاءُ لِذَوَابِ الْمَنَافِعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ لِلأَوَّلِينَ كَمَا ذَكَرْتَاهُ آتِفًا وَأَنْفَتْ مِنْهُ لِذَلِكَ
 أَهْلُ الْعَمَمِ وَالْمَرَاتِبِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَتَغْيِيرُ الْحَالِ وَأَصْبَحَ تَعَاطِيهِ هُجْنَةً فِي الرِّئَاسَةِ
 وَمَدْمَةً لِأَهْلِ الْمَنَاصِبِ الْكَبِيرَةِ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

الفصل الخمسون

في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

اعلم ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطقي أوميروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون ولما فسدت لسان مضر ولغتهم التي دوت مقاييسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت تحيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب بجدلة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتعاريف وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق فلاهل الشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفتها أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة سفي أعداد المتحرّكات والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر فلم يفجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا فحول وفُرسان مبدأه حسباً اشتهر بين أهل الحقيقة بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على منيع كلامهم فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريص على ما كان عليه سلفهم المستعربون وبأثون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء وبسطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام ورُبما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم بآتم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأممعات نسبة إلى الأمتعي زاوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي ورُبما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم

يُغْنُون بِهِ وَيُسَمُّونَ الْغِنَاءَ بِهِ بِأَسْمِ الْخُورَانِي نِسْبَةً إِلَى خُورَانَ مِنْ أَطْرَافِ الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ وَهِيَ مِنْ مَنَازِلِ الْعَرَبِ الْبَادِيَةِ وَمَسَاكِينِهِمْ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَلَهُمْ فَنٌّ آخَرٌ كَثِيرٌ
الْتِدَاوُلُ فِي نَظْمِهِمْ يَجِيئُونَ بِهِ مُعَصَّبًا عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ يُخَالِفُ آخِرُهَا الثَّلَاثَةَ فِي رَوِيهِ
وَيَلْتَزِمُونَ الْقَافِيَةَ الرَّابِعَةَ فِي كُلِّ يَتٍّ إِلَى آخِرِ الْقَصِيدَةِ شَبِيهَا بِالْمُرْبَعِ وَالْخُمْسِ
الَّذِي أَحَدُهُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْمُؤَلِّدِينَ وَلِهَذَا الْعَرَبُ فِي هَذَا الشِّعْرِ بَلَاغَةٌ فَائِقَةٌ
وَفِيهِمْ الْفُحُولُ وَالْمُتَأَخِّرُونَ وَالْكَثِيرُ مِنَ الْمُتَحَلِّينَ لِلْعُلُومِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَخُصُوصًا عِلْمُ
اللِّسَانِ يَسْتَنْسِكِرُ صَاحِبَهَا هَذِهِ الْفُنُونِ الَّتِي لَهُمْ إِذَا سَمِعَهَا وَيَجْمَعُ نَظْمَهُمْ إِذَا أَشْدَّ وَيَعْتَقِدُ
أَنْ ذَوْقَهُ إِنَّمَا نَبَأَ عَنْهَا لِاسْتِجَانِهَا وَفَقْدَانِ الْإِعْرَابِ مِنْهَا وَهَذَا إِنَّمَا آتَى مِنْ فَقْدَانِ
الْمَلَكَةِ فِي لُغَتِهِمْ فَلَوْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ مِنْ مَلَكَاتِهِمْ لَشَهِدَ لَهُ طَبْعُهُ وَذَوْقُهُ بِبِلَاغَتِهَا
إِنْ كَانَ سَلِيمًا مِنْ آلَافَاتٍ فِي فِطْرَتِهِ وَنَظَرِهِ وَإِلَّا فَالْإِعْرَابُ لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْبَلَاغَةِ
إِنَّمَا الْبَلَاغَةُ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِلْمَقْصُودِ وَلِإِقْتَضَى الْحَالِ مِنَ الْوُجُودِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ
الرَّفْعُ دَالًّا عَلَى الْفَاعِلِ وَالنَّصْبُ دَالًّا عَلَى الْمَفْعُولِ أَوْ بِالْعَكْسِ وَإِنَّمَا بَدُلَ عَلَى ذَلِكَ
قَرَائِنُ الْكَلَامِ كَمَا هُوَ فِي لُغَتِهِمْ هَذِهِ فَالدَّلَالَةُ بِحَسَبِ مَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَلَكَةِ
فَإِذَا عُرِفَ اصْطِلَاحُ فِي مَلَكَةٍ وَاشْتَهَرَ صِحَّةُ الدَّلَالَةِ وَإِذَا طَابَقَتْ تِلْكَ الدَّلَالَةُ
الْمَقْصُودُ وَمُقْتَضَى الْحَالِ صَحَّتِ الْبَلَاغَةُ وَلَا عِبْرَةَ بِقَوَائِنِ النُّعَاةِ فِي ذَلِكَ وَأَسَالِبُ الشِّعْرِ
وَفُنُونُهُ مَوْجُودَةٌ فِي أَشْعَارِهِمْ هَذِهِ مَا عَدَا حَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ فِي آخِرِ الْكَلِمِ فَإِنْ
غَالِبَ كَلِمَاتِهِمْ مَوْقُوفَةٌ الْآخِرِ وَيَتَمَيَّزُ عِنْدَهُمُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ
بِقَرَائِنِ الْكَلَامِ لَا بِحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ

(الموشحات والازجال للاندلس)

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ الشِّعْرُ فِي فُطْرِهِمْ وَتَهَدَّبَتْ مَنَاحِيهِ وَفُنُونُهُ وَبَلَغَ
التَّنْمِيقُ فِيهِ الْقَافِيَةَ اسْتَعَدَّتْ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ فَنًّا مِنْهُ مَمْمُوهٌ بِالْمَوْشَحِ يَنْظِمُونَهُ أَمْهَاطًا
أَمْهَاطًا وَأَغْصَانًا أَغْصَانًا يَكْثُرُونَ مِنْ أَعَارِيفِهَا الْخُتْلَفَةِ وَيُسَمُّونَ الْمُشْعَرَدَ مِنْهَا يَتَنَا
وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَ قَوَائِنِ تِلْكَ الْأَغْصَانِ وَأَوْزَانِهَا مُتَّالِيًا فِيهَا بَعْدُ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ
وَأَكْثَرُ مَا تَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ أَيْتَاتٍ وَبَشْتَمِلُ كُلُّ يَتٍّ عَلَى أَغْصَانٍ عِنْدَهَا
بِحَسَبِ الْأَفْرَاسِ وَالْمَذَاهِبِ وَيَتَسَبَّوْنَ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ وَتَجَارُوا

فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَاسْتَظَرَفَهُ النَّاسُ جُمْلَةً الْخَاصَّةُ وَالْكَافَّةُ لِسُهُولَةِ تَنَاوُلِهِ وَقُرْبِ
طَرِيقِهِ وَكَانَ الْمُخْتَارُ لَهَا يَجْزِي بَرَّةَ الْأَنْدَلُسِ مُقَدِّمَ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْفَرِيرِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ الْأَمِيرِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَانِيِّ وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ
كِتَابِ الْعَقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لَهْمَا مَعَ الْمَتَأَخِّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مُوشَعَّتُهُمَا فَكَانَ أَوَّلُ
مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا الشَّانِ عِبَادَةُ الْقَزَازِ شَاعِرَ الْمُعْتَصِمِ ابْنَ مُمَارِجٍ صَاحِبِ الْعِزِيَّةِ

بدرُ تم . شمسُ ضحا . غصنُ تقا . مسكُ شم

ما اتم . ما اوضحا . ما اورقا . ما اتم

لا جرم . من لحا . قد عشقا . قد حرم

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَاحُ مِنْ مُعَاوِيَةَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الطَّوَائِفِ
وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّانِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ جَمَاعَةً
مِنَ الْوُشَّاحِينَ اجْتَمَعُوا فِي تَجْلِسٍ بِأَشْبِيلَةَ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَصْطَنَعَ مُوشَعَةً
وَتَأَنَّى فِيهَا فَتَقَدَّمَ الْأَعْمَى الطَّائِيطِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا افْتَتَحَ مُوشَعَتَهُ الْمَشْهُورَةَ يَقُولُ
صَاحِبُكَ عَنْ جَمَان . سَافِرٌ عَنْ دُرٍّ ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ . وَحَوَاهُ صَدْرِي
صَرَفَ ابْنُ بَقِيٍّ مُوشَعَتَهُ وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ
مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَاحًا عَلَى قَوْلِ إِلَّا ابْنُ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ

أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي تَجْدِيدِ الْعَالِي لَا يَلْحَقُ أَطْلَعَهُ الْغَرْبُ . فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقُ
وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا مِنَ الْمَوْشِحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَيْضُ وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا أَيْضًا
الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ
أَنَّهُ حَضَرَ تَجْلِسَ تَخْدُومِهِ ابْنِ تَيْفَلَوَيْتٍ صَاحِبِ سِرْقِطَةَ فَأُلْقِيَ عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مُوشَعَتَهُ
جَرَّرَ الذِّلَّ أَيْمًا جَرَّ وَصَلِ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ

فَطَرِبَ الْمَسْدُوحُ لِذَلِكَ لَمَّا خَتَمَهَا يَقُولُ

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةَ النَّصْرِ لِأَمِيرِ الْعِلَاءِ أَبِي بَكْرٍ

فَلَمَّا طَرَقَ ذَلِكَ التَّلَحُّينُ مَتَعَ ابْنُ تَيْفَلَوَيْتٍ صَاحُ وَاطْرَبَاهُ وَشَقَّ ثِيَابَهُ وَقَالَ مَا
أَحْسَنَ مَا بَدَأْتَ وَخَتَمْتَ وَحَلَفْتَ بِالْأَيْمَانِ الْمَغْلُظَةِ لَا يَمْشِي ابْنُ بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا
عَلَى الذَّمِّ فَخَافَ الْحَكِيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فَاحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ

وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ زُهَيْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زُهَيْرٍ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ الْأَيْمَرِيِّ
 الْوَشَّاحِ الْمُتَقَدِّمِ الَّذِي كَرِهَ نَفْسَ مَنْهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ نَفَسَ مِنْهُ بِقَوْلِ
 مَا لَذِي شَرَابٍ رَاحَ عَلَى رِيَاضِ الْأَقَاحِ لَوْلَا هَضِيمُ الْوَشَّاحِ إِذَا أَسَا فِي الصَّبَاحِ
 أَوْ فِي الْأَصِيلِ أَضْعَى يَقُولُ مَا لِلسَّمُولِ لَعَمَتِ خَدَيْهِ
 وَلِلشَّمَالِ هَبَّتْ فَمَا لِي غُصْنُ أَعْتِدَالٍ ضَمَعَهُ بَرْدُ سِهْ
 مِمَّا أَبَادَ الْقُلُوبَا يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيًّا يَا لِحَظَةِ رُودِ نُوبَا وَيَا لِمَاءَ الشَّيْبَا
 بَرْدٌ غَالِيلٌ صَبَّ غَالِيلٌ لَا يَسْتَحِيلُ فِيهِ عَنْ عَهْدِي
 وَلَا يَزَالُ فِي كُلِّ حَالٍ يَرْجُو الْوَصَالَ وَهُوَ فِي الصَّدِّ
 وَاشْتَهَرَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ شَرْفٍ قَالَ
 الْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هَذَا الْإِفْتِتَاحِ

شمس قاربت بدرًا راح ونديم

وابن بهرودس الذي له يابلية الوصل والسعود بالله عودي

وَأَبْنُ مُوَهَّلٍ الَّذِي لَهُ مَا أَلْمِدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ وَتَمَّ وَطِيبٌ وَإِنَّمَا أَلْمِدُ فِي التَّلَاقِ مَعَ الْحَبِيبِ
 وَأَبُو اسْمَاقِ الرَّوِينِيُّ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى
 ابْنِ زُهَيْرٍ وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِمُحَضَّنِ سَبْتَةَ فَلَمْ يَعْرِفْهُ
 فَجَلَسَ حَيْثُ أَتَى بِهِ الْمَجْلِسُ وَجَرَّتِ الْحَاضِرَةُ فَأَنشَدَ لِنَفْسِهِ مَوْشِحَةً وَقَعَ فِيهَا

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي مِنْ مَقْلَةٍ الْفَجْرِ عَلَى الصَّبَاحِ

وَمُعْصَمُ النَّهْرِ فِي حُلِّ خَضِرٍ مِنْ الْبَطَاحِ

فَتَحَرَّكَ ابْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هَذَا قَالَ اخْتِزْ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ فَعَرَّفَهُ فَقَالَ أَرْتَقِعْ
 فَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحُلَّةِ الَّذِي أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ أَبُو بَكْرِ بْنُ زُهَيْرٍ
 وَقَدْ شَرَّقَتْ مَوْشِحَاتُهُ وَغَرَبَتْ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ
 زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعَ وَأَرْفَعَ مَا وَقَعَ لَكَ فِي التَّوَشُّيحِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ

مَا لِلْمُؤَلَّهِ مِنْ سَكْرِهِ لَا يُفِيقُ يَا لَهُ سَكْرَانٍ مِنْ غَيْرِ خَمَرٍ مَا لِلْكَثِيبِ الْمَشُوقِ يَنْدُبُ الْإِوْطَانَ

هل تستعاذ يا مائنا بالخليج وليالينا

او نستفاد من التسميم الاربع منك دارينا

وَادٍ يَكَادُ . حُسْنُ الْمَكَانِ الْبَيْجُ . انْ يُجَيِّبُنَا
 نَهْرٌ أَظْلَهُ . دَوْحٌ عَلَيْهِ أُنَيْقٌ . مُورِقٌ فَيْتَانٌ . وَالْمَاءُ يَجْرِي . وَعَائِمٌ وَغَرِيقٌ . مِنْ جَنَى الرِّيحَانِ
 وَمِنْ مَحَاسِنِ الْمُؤَشَّحَاتِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ . مُؤَشَّحَةُ ابْنِ سَهْلٍ شَاعِرٍ أَشْجَلِيَّةٍ وَسَبْتَةٍ مِنْ
 بَعْلِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ

هَلْ دَرَى ظَنِي الْحَمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبْرٍ حَلَّ عَنْ مَكْنَسِي
 فَهُوَ فِي نَارٍ وَخَفَقِي مِثْلَ مَا لَمِيتَ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبْسِي
 وَقَدْ نَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْخَطِيبِ شَاعِرُ الْأَنْدَلُسِي
 وَالْمَغْرِبِ لِعَصْرِهِ . وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى بَارِئَانِ الْوَعْلِ بِالْأَنْدَلُسِي
 لَمْ يَكُنْ وَصْلَكَ إِلَّا حُلُمًا فِي الْكَرَى أَوْ خِلْسَةِ الْخُتْلُسِي
 إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمُنَى يَنْقُلُ الْخَطُوءَ عَلَى مَا يَزِيمُ
 زُمَرًا بَيْتَ فُرَادَى وَثَنَا مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوُفُودَ الْمَوْسِمُ
 وَالْحَيَاةُ قَدْ جَلَّلَ الرُّوضِ سَنَى فَتُفُورُ الزَّهْرِ فِيهِ تَبْسِمُ
 وَرَوَى النِّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ كَيْفَ يَرَوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسِي
 فَكَسَاهُ الْحُسْنُ ثَوْبًا مُعْلَمًا يَزِدُّهُ مِنْهُ بِأَنْعَى مَلْبَسِي
 فِي لَبَالٍ كَنَمَتِ سِرِّ الْهَوَى بِاللُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ الْغُرَى
 مَا لَ تَجَمُّ الْكَأْسُ فِيهَا وَهَوَى مُسْتَقِيمَ السَّبْرِ مَعْدَ الْأَثَرِ
 وَطَرَّ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ مَرَّ كَلَمَحِ الْبَصْرِ
 حِينَ لَدَّ النَّوْمُ مِنَّا أَوْ كَمَا هَجَمَ الصَّبْحُ هَجُومَ الْحَرَسِي
 غَارَتْ الشُّهُبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا أَثَرَتْ فِينَا عَيُونُ الدَّرَجِسِي
 أَيُّ شَيْءٍ لَأَمْرِي قَدْ خَلَصَا فَيَكُونُ الرُّوضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
 تَنَهَبُ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرَصَا أَمَنْتَ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَقْبِيهِ
 فَإِذَا الْمَاءُ بِنَاجِي وَالْحَصَا وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
 تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بِرِمَا يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
 وَتَرَى الْأَسَّ لَيْبًا فِيهَا يَسْرِقُ الدَّمْعُ بِأَذْنِي فَرَسِي

يَا أَهْلَ الْحَيِّ مِنْ وَادِي الْقَضَا
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْقَضَا
فَأَعِيدُوا عَهْدَ أَنَسٍ قَدْ مَضَى
وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمًا
حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
وَبِقَلْبِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبًا
فَمَرًّا أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبُ
سَاحِرُ الْمُقْلَةِ مَعْسُولُ اللَّهِ
سَدَّ السَّهْمَ فَأَصْمَى إِذْ رَمَى
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ الْأَمَلُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوَّلُ
أَمْرُهُ مُعْتَمِلٌ مُعْتَمِلُ
حَكَمَ اللَّحْظُ بِهَا فَأَحْتَكَمَا
يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا
مَا أَقْلَبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مُكْتَتَبَا
جَلَبَ اللَّهُمَّ لَهُ وَالْوَصْبَا
لَا عَجْ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرِمَا
لَمْ يَدْعَ مِنْ مَعْجِي إِلَّا الدِّمَا
سَلِمِي بِنَفْسٍ فِي حُكْمِ الْقَضَا
وَأَتْرُكِي ذِكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى
وَأَصْرِ فِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرَّضَى
الْكَرِيمِ الْمُتَهَيِّ وَالْمُنْتَهَى
يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا

وَبِقَلْبِي مَسْكِرٌ أَنْتُمْ بِهِ
لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
تُنْقِدُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسِ
أَفْتَرِضُونَ خَرَابَ الْحَبْسِ
بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ بَعِيدُ
شَقْوَةِ الْمَغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
فِي هَوَاهُ بَيْتٌ وَعْدٌ وَوَعِيدُ
جَالٌ فِي النَّفْسِ مَجَالُ النَّفْسِ
بِفُؤَادِي نَبْلَةُ الْمُفْتَرَسِ
وَفُؤَادُ الصَّبِّ بِالشَّوْقِ يَذُوبُ
لَيْسَ فِي الْحُبِّ لِحَبُوبٍ ذُنُوبُ
فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبُ
لَمْ يَرَأَيْتُ فِي ضِعَافِ الْأَنْفُسِ
وَيَجَازِي الْبَرَّ مِنْهَا وَالْمُسِي
عَادَهُ عَيْدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدُ
قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدُ
فَهَوِّ لِلْأَشْجَانِ فِي جُهْدٍ جَهْدُ
فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبَسِ
كِبْقَاءُ الصُّبْحِ بَعْدَ الْغُلَسِ
وَأَعْبُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابُ
بَيْنَ عَتِي قَدْ نَقَضْتَ وَعَتَابُ
مُلْهِمِ التَّوْفِيقِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ
أَسَدِ السَّرْجِ وَبَدْرِ الْعَجَلِ
يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ الْأَلْفَةَ وَكَثُرَ
 اسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحْصَلَ مَا كَتَبْنَا كَمَا قُلْنَا فِي الْأَلْفَةِ الْعَرَبِيَّةِ
 فَلَا الْأَنْدَلُسِيَّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَا الْغَرْبِيَّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ
 أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ وَلَا الْمَشْرِقِيَّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّ
 اللِّسَانَ الْعُضْرِيَّ وَتَرَائِكِبَهُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُذْرِكٌ لِلْبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَائِقٌ
 لِحَاسِنِ الشِّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنَتِ كُمْ
 وَالْوَانِكُمْ آيَاتٌ وَقَدْ كِدْنَا نَخْرِجُ عَنْ الْغَرَضِ وَإِذَلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ الْعِنَانَ عَنِ الْقَوْلِ فِي
 هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ النُّمُرَانِ وَمَا بَعَرَضُ فِيهِ وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ
 مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً وَلَعَلَّ مَنْ بَاقِيَ بَعْدَنَا مِنْ يُؤَيِّدُهُ اللَّهُ بِفِكْرٍ صَوَّيْحٍ وَعِلْمٍ مَبِينٍ يَغُوصُ
 مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا كَتَبْنَا فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَخِيطِ آفَنٍ إِحْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ
 تَعْيِينُ مَوْضِعِ الْعِلْمِ وَتَنْوِيجُ فُصُولِهِ وَمَا يَتِمُّ كَلْمُ فِيهِ وَالْمُتَأَخِّرُونَ يُلْحِقُونَ الْمَسَائِلَ مِنْ
 بَعْدِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَكْمُلَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

قال مؤلف الكتاب عني الله عنه اتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل التنقيح
 والتهذيب في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقيحته بعد
 ذلك وهذبتة والحقت به تواريخ الامم كما ذكرت في اوله وشرطته وما العلم الا من عند
 الله العزيز الحكيم


فهرست الكتاب

صحيفة	صحيفة
٩ المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لمسا	١٣٠ يكون الا للقبائل اهل العصبية .
٤١ تعرض للمؤرخين من المغالط والاهسام وذكر شيء من اسبابها .	١٣١ فصل في اختلاط الانساب كيف يقع .
٤٤ المقدمة الاولى في ان الاجتماع الانساني ضروري .	١٣٢ فصل في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية .
٤٤ المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم .	١٣٢ فصل في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم
٥٢ تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا .	١٣٦ فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء .
٨٢ المقدمة الثالثة في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتائسير الهواء في الوان البشر والكثير من احوالهم .	١٣٨ فصل في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها .
٨٦ المقدمة الرابعة في اثر الهواء في اخلاق البشر .	١٣٩ فصل في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك .
١٢٠ فصل في ان اجيال البدو والحضر طبيعية .	١٤٥ فصل في انه اذا كانت الاممة وحشية كان ملكها اوسع .
١٢١ فصل في ان جيل العرب في الخلقة طبيعي .	١٤٩ فصل في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط .
١٢٣ فصل في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر .	١٥١ فصل في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك .
١٢٥ فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر .	١٥٤ فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصبية .
١٢٧ فصل في ان سكنى البدو لا	١٥٦ فصل في انه قد يحدث لبعض اهل النصب الملك دولة تستغني عن العصبية .
	١٥٩ فصل في ان الدعوة من غير عصبية لا تتم .

صحيفة	صحيفة
١٦١ فصل في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاطوان لا تزيد عليها .	٢٣٥ فصل في مراتب الملك والسلطان والقباهما .
١٦٦ فصل في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد .	٢٤٣ ديوان الاعمال والجبايات .
١٦٧ فصل في ان من طبيعة الملك الترف .	٢٤٦ ديوان الرسائل والكتابة .
١٧٠ فصل في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص .	٢٥٢ قيادة الاساطيل .
١٧٢ فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة .	٢٥٧ فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول .
١٧٧ فصل في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها .	٢٦٠ السرير والمنبر والتخت والكرسي .
١٨٤ فصل في احوال الموالى والمصطنعين في الدول .	٢٦١ السكة
١٨٥ فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه .	٢٦٤ الخاتم .
١٨٦ فصل في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك .	٢٦٦ الطراز .
١٨٧ فصل في حقيقة الملك واصنافه	٢٦٧ الفساطيط والسياج .
١٨٨ فصل في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر	٢٦٩ المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة .
١٩٠ فصل في معنى الخلافة والامامة .	٢٧٠ فصل الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها .
١٩١ فصل في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه .	٢٧٢ فصل ومن مذاهب اهل الكر والفِر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم الخ .
١٩٦ فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة .	٢٧٩ فصل في الجباية وسبب قتلها وكثرتها .
٢٠٢ فصل في انقلاب الخلافة الى الملك .	٢٨٠ فصل في ضرب المكوس واخر الدولة .
٢٠٩ فصل في معنى البيعة .	٢٨٣ فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة .
٢١٠ فصل في ولاية العهد .	٢٨٦ فصل في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية .
٢١٨ فصل في الخطط الدينية الخلافية .	٢٨٦ فصل في ان الظلم مؤذن بخراب العمران .
	٢٨٩ فصل ومن اشد الظلمات واعظمها في فساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق .
	٢٩٠ فصل في الحجاب كيف يقع في

صحيفة	صحيفة
٣٧٧ فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض .	الدول وانه يعظم عند الهرم .
٣٧٩ فصل في لغات اهل الامصار .	٢٩٢ فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين .
٣٨٢ فصل في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه .	٢٩٣ فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع .
٣٨٣ فصل في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي .	٢٩٤ فصل في كيفية طروق الخلل للدولة .
٣٨٩ فصل في ان الجاه مفيد للمال .	٢٩٨ فصل في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع .
٣٩٤ فصل في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها .	٣٠١ فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات .
٣٩٦ فصل في نقل التاجر للسلع .	٣٠٢ فصل في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره .
٣٩٧ فصل في الاحتكار .	٣١١ فصل في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك .
٣٩٩ فصل في ان الصنائع لا بد لها من المعلم .	٣٣٠ فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر .
٤٠٣ فصل في ان الصنائع انما تستجد وتكثر اذا كثر طالبها .	٣٤٤ فصل في ان الملك يدعو الى نزول الامصار .
٤٠٤ فصل في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع .	٣٤٦ فصل في ان الهياكل العظيمة جدا لا تستقل بنائها الدولة الواحدة .
٤٠٥ فصل في ان من حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعدها ملكة اخرى .	٣٤٩ فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم .
٤٠٥ فصل في الاشارة الى امهات الصنائع .	٣٥٧ فصل في ان المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة .
٤٠٦ فصل في صناعة الفلاحة .	٣٥٩ فصل في مبادي الخراب في الامصار .
٤٠٦ فصل في صناعة البناء .	٣٦٢ فصل في اسعار المدن .
٤١٠ فصل في صناعة التجارة .	٣٧٦ فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض .
٤١١ فصل في صناعة الحياكة والخياطة .	
٤١٢ فصل في صناعة التوليد .	
٤١٥ فصل في صناعة الطب وانها محتاج اليهسا في الحواضر والامصار دون البادية .	
٤١٧ فصل في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية .	
٤٢١ فصل في صناعة الوراقة .	

صحيفة	صحيفة
التفسية الاصابة بالعين .	٤٢٣ فصل في صناعة الغناء .
٥٠٤ علم الكيمياء .	٤٢٨ فصل في ان الصنائع تكسب
٥١٤ فصل في ابطال الفلسفة	صاحبها عقلا وخصوصا
وقساد منتحلها .	الكتابة والحساب .
٥٣١ فصل في ان كثرة التأليف في	٤٣٠ فصل في ان التعليم للعلم من
العلوم عائقة عن التحصيل .	جملة الصنائع .
٥٣٣ فصل في وجه الصواب في	٤٣٥ فصل في اصناف العلوم الواقعة
تعليم العلوم وطريق افادته .	في العمران لهذا العهد .
٥٣٤ فصل واعلم ايها المتعلم الخ .	٤٣٧ علوم القرآن من التفسير
٥٤٠ فصل في ان الشدة على	والقراءات .
المتعلمين مضرة بهم .	٤٤٠ علوم الحديث .
٥٤٣ فصل في ان حملة العلم في	٤٤٥ علم الفقه وما يتبعه من
الاسلام اكثرهم العجم .	الفرائض .
٥٤٥ فصل في علوم اللسان العربي .	٤٥١ علم الفرائض .
٥٤٦ علم النحو .	٤٥٢ اصواء الفقه وما يتعلق به من
٥٤٨ علم اللغة .	الجدل والخلافات .
٥٥٠ علم البيان .	٤٥٨ علم الكلام .
٥٥٣ علم الادب .	٤٦٧ علم التصوف .
٥٥٤ فصل في ان اللغة ملكة صناعية	٤٧٥ تعبير الرؤيا .
٥٥٩ فصل في تعليم اللسان المضري .	٤٧٨ العلوم العقلية واصنافها .
٥٦٠ فصل في ان ملكة هذا اللسان	٤٨٢ العلوم العددية .
غير صناعة العربية ومستغنية	٤٨٣ ومن فروع علم العدد صناعة
عنها في التعليم .	الحساب .
٥٦٦ فصل في انقسام الكلام الى فني	٤٨٣ ومن فروع الجبر والمقابلة .
النظم والنثر .	٤٨٤ ومن فروع ايضا المعاملات .
٥٦٩ فصل في صناعة الشعر ووجه	٤٨٥ العلوم الهندسية .
تعلمه .	٤٨٧ ومن فروع الهندسة المساحة .
٥٧٨ فصل في ان حصول هذه الملكة	٤٨٧ علم الهيئة .
بكثرة الحفظ ، جودتها بجودة	٤٨٨ ومن فروع علم الازياج .
المحفوظ .	٤٨٩ علم المنطق .
٥٨٠ فصل في ترفع اهل المراتب	٤٩٢ الطبيعيات .
عن انتحال الشعر .	٤٩٣ علم الطب .
٥٨٢ فصل في اشعار العرب واهل	٤٩٤ الفلاحة .
الامصار لهذا العهد (وفيه	٤٩٥ علم الالهيات .
اشعار الهلالية والزناية) .	٤٩٦ علوم السحر والطلسمات .
٥٨٣ الموشحات والازجال للاندلس .	٥٠٣ فصل ومن قبيل هذه التأثيرات

 Bibliotheca Alexandrina



1523073

